

تصنيف

أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي
(ت ٣٣٣ هـ)

تحقيق

فاطمة يوسف الخيمي

المجلد الخامس

مؤسسة الرسالة ناشرون

تفسير القرآن العظيم

المسمى

تأويلات أهل السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

ISBN 9953-32-096-9

مؤسسة الرسالة

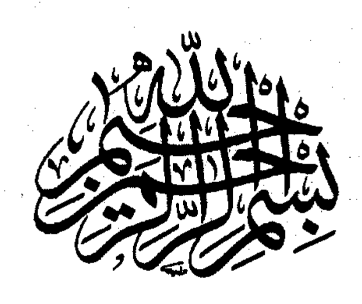
مؤسسة الرسالة ناشرون

منشورات
مروان رضوان دعبول

هاتف: ٥٤٦٧٢١ - ٥٤٦٧٢٠
فاكس: ٥٤٦٧٢٢ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 546720 - 546721
Fax: (9611) 546722
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon
Email:
resalah@resalah.com
Web site:
http://www.resalah.com



اللهمَّ

اجعَلْني ومَنْ كانَتْ لهُ يدٌ في

إخراجِ هذا الكتابِ ومنْ يقْرَؤهُ مِمَّنْ يُرَدِّدُ

دعاءَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فاطمة يوسف الخيمي

سورة[1] الرحمن

مكية. وقيل: مدنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ قد عَرَفَتِ العَرَبُ، وعَلِمَتْ أنَّ الرحمنَ على مِيزانِ فَعْلانَ مُشتَقٌّ مِنَ الرحمةِ. لكنَّ أحداً مِنَ الخلائقِ لا يَبْلُغُ في الرحمةِ مَبْلَغاً يَستحِقُّ التَّسْمِيَةَ بهِ رحمانَ. لِذلكَ خَصَّ اللهُ تعالى نَفْسَهُ بِتَسْمِيَةِ رحمانَ، وإنْ كانَ مُشتَقًّا مِنَ الرحمةِ كالرحيمِ، وجازَ تَسْمِيَةُ غيرِهِ رحيماً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ذَكَرَ أنَّ الرحمنَ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ولمْ يَذْكُرْ لِمَنْ عَلَّمَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أنهُ تَبارَكَ، وتعالى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ رسولَنا ﷺ ثم يُخَرَّجُ ذلكَ على وجوهٍ:

أحدُها: أنهُ جبرائيلُ ﷺ[2] ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥و٦] لكنْ خَرَجَتِ الإضافةُ إلى اللهِ تعالى لِما أنهُ عَلَّمَهُ بأمرِهِ.

والثاني: أضافَ التعليمَ إلى نفسِهِ لِما أنهُ هو الذي أثْبَتَهُ في قَلْبِهِ حتى لا يَنساهُ كقولِهِ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦] وقولِهِ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦و١٧] وقولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢].

والثالثُ: أضافَ إلى نفسِهِ وأنهُ عَلَّمَهُ جبرائيلُ ﷺ لأنهُ هو الخالقُ لِفِعْلِ التَّعْليمِ مِنْ جبرائيلَ ﷺ.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي آدمَ ﷺ و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أيِ الأسماءَ التي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] إذْ لا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ الأسماءِ إلّا بالتَّلْقِينِ، ليسَتْ كالأشياءِ التي تُعْرَفُ، وتُدْرَكُ بِالِاسْتِدْلالِ.

ويُحتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ أي خَلَقَ كلَّ إنسانٍ، و ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي علَّمَهُ بَيانَ ما يَمْتَحِنُهُمْ بهِ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ لِيُعْلَمَ أنهُ لم يَخْلُقِ الإنسانَ لِيَتْرُكَهُ سُدًى.

ويَحْتَمِلُ علَّمَ كلَّ إنسانٍ ما غابَ عنهُمْ حتى عَرَفوا بما شاهدوا مِنَ اللَّوْنِ والطَّعْمِ واللَّذَّةِ /٥٤١ ـ ب/ عِلْمَ ما غابَ عنهُمْ مِنْ جِنْسِهِ ولَونِهِ ولَذَّتِهِ اسْتِدلالاً بما شاهدوا.

ويَحْتَمِلُ الِاسْتِدْلالَ بالشاهدِ على مَعْرِفَةِ اللهِ تعالى، وهو أنهمْ لمّا شاهدوا الإنسانَ[3] مُحْتَاجاً عاجزاً مُحاطاً بالحَوائجِ والحوادثِ، عَرَفوا أنَّ لهُ خالقاً قادراً أنْشَأهُ كذلكَ.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ تَعْليمِ البَيانِ بَيانَ القرآنِ، وذلكَ راجعٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيانَ القرآنِ[4] حتى يُبَيِّنَ للناسِ كلَّ ما يَحتاجونَ إليهِ وما لهمْ وما عليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ بعضُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو قولُهُ: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ وبعضُهُ إلى آدمَ ﷺ وهو قولُهُ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ آدمَ، و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ بَيانَ الدنيا والآخِرَةِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: حتى. (٣) في الأصل وم: الأشياء. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: هو.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَلَقَ الإنسانَ كلَّ إنسانٍ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي علَّمَهُ شيئاً مِنْ بَيانِ القرآنِ مِنَ الأحكامِ والشرائعِ ونَحْوِ ذلكَ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي الكلامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: بوجهَينِ:

أحَدُهما: أي يُحْسَبُ بهما عَدَدُ الأوقاتِ والأزمِنةِ، ويُعْرَفُ بهما حسابُ ذلكَ.

والثاني: أي يُحْسَبُ بهما حِسابُ مَنازِلِهما التي يَطْلُعانِ منها، ويَغيبانِ فيها، ومَجاريهما التي يَجْريانِ فيها، لا يَتجاوَزانِها في شِتاءٍ ولا صَيفٍ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: قولُهُ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ جَمْعُ الحِسابِ. وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ بِحِسابِ منازِلَ لا يَعْدُوانِها.

وفيهِ زيادةُ مَعْنًى: أنَّ اللهَ جَعَلَهما بحيثُ تُعْرَفُ بهما حَقيقةُ أعْيُنِ الأشياءِ لِما جَعَلَ فيهما مِنَ النورِ والضِّياءِ الذي [بِهِ][1] تَتَجلَّى لِلْخَلْقِ الأشياءُ المَستورَةُ، فَيُقالُ لِمُنكِري[2] الرسالةِ وتفضيلِ بعضِ البَشَرِ على بعضٍ: أما[3] شاهَدْتُمْ أشياءَ، خُصَّتْ بِفَضْلِ ضِياءٍ وتَجْلِيَةٍ[4]؟ فَلِمَ أنْكَرْتُمْ فَضْلَ بعضِ البَشَرِ بِفَضْلِ بَيانٍ وعِلْمٍ ورسالةٍ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ : ﴿وَٱلنَّجْمُ [وَٱلشَّجَرُ﴾][5] يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الكواكبُ، فإنْ كانَ هو المُرادُ فكأنَهُ يقولُ: يَسْجُدُ لهُ ما بهِ زينةُ الدنيا وما بِهِ زينةُ الأرضِ، وهي الكواكبُ، وهي الأشجارُ.

[والثاني][6]: يَحْتَمِلُ النجمُ كلَّ نَبْتٍ يَنْبُتُ في الأرضِ، لا ساقَ لهُ، والشَّجَرُ هو الذي لهُ ساقٌ؛ كأنهُ يقولُ: يَسْجُدُ لهُ كلُّ ما يَظْهَرُ مِنَ الأرضِ، ويَخْرُجُ: ما ارْتَفَعَ، وعلا، وما لم يرْتَفِعْ.

ثم سُجودُهما يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: سُجودُ خِلْقَةٍ؛ قد جَعَلَ اللهُ تعالى في خِلْقَةِ كلِّ شيءٍ دلالةَ السُّجودِ لهُ والشهادةَ لهُ بالوَحْدانيَّةِ.

والثاني: سُجودُ هذهِ الأشياءِ المَواتِ طاعتُها لهُ عنِ اضْطِرارٍ وتَسْخيرٍ نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

والثالثُ: سُجودُ حَقيقةٍ؛ يَجْعَلُ اللهُ في سِرِّيَّةِ[7] هذهِ الأشياءِ مَعْنًى تَسْجُدُ[8] بهِ للهِ تعالى، يَعْلَمُهُ هو، ولا يَعْلَمُهُ غَيرُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقالَ بعضُ الناسِ: سُجودُهما هو تَمثيلُ ظِلالِهِما كقولِهِ تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم لا يَلْزَمُ السُّجودُ بِتلاوةِ هذهِ الآيةِ وأمثالِها ممّا ذَكَرَ [مِنْ][9] سُجودِ المَواتِ وطاعتِها لأنها مَواتٌ، ليسَتْ بأهلِ السجودِ، وإنما سُجودُها عنِ اضْطِرارِ كلِّ مَخْلوقٍ في معناهُ في الدلالةِ على السُّجودِ.

وإنما يَلْزَمُ السُّجودُ بِتِلاوةِ آياتٍ ذُكِرَ فيها سُجودُ مَنْ هو مِنْ أهلِ السُّجودِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أرادَ حقيقةَ الرفعِ، أي رَفَعَها بلا عَمَدٍ مِنَ الأسفَلِ ولا تَعْليقٍ مِنَ الأعْلَى، أي أنْشَأها كذلكَ مَرْفوعةً، لا أنْ كانَتْ مَوْضوعةً، فَرَفَعَها، وأمْسَكَها كذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ قُدْرَتَهُ خِلافُ قُدْرَةِ الخَلْقِ وقُوَّتِهِمْ.

والثاني: ﴿رَفَعَهَا﴾ أي رَفَعَ قَدْرَها ومَنْزِلَتَها في قُلوبِ الخَلْقِ حتى يَرْفَعوا أيديَهُمْ وأبصارَهُمْ إليها عندَ الحاجةِ لِما جَعَلَ لهمْ فيها مِنَ الأرزاقِ والبَرَكاتِ التي تَنْزِلُ مِنَ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في م: بها، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: لمنكر. (٣) في الأصل وم: كما. (٤) في الأصل وم: وتجلي. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: سيرته. (٨) في الأصل وم: يسجدون. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ الذي يَزِنُ الناسُ بهِ الأشياءَ، وبهِ يَتحقَّقُ الإيفاءُ والاِسْتيفاءُ؟ امتَحَنَهُمْ بذلكَ لِيَعْرِفوا بذلكَ قُبْحَ التَّقْصيرِ في ما أُمِروا بهِ والمُجاوَزَةِ عمّا نُهوا عنهُ. وذلكَ يَحْتَمِلُ في الأحكامِ والشَّرائعِ والتَّوحيدِ وصَرْفِ الألوهِيَّةِ والعبادةِ إلى غَيرِ الذي يَسْتَحِقُّهُ لِيَعْلَموا التَّقْصيرَ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ المُرادُ بالميزانِ أنَّ الأحكامَ التي وُضِعَتْ بَينَ الخَلْقِ والشرائعِ التي جُعِلَتْ عليهِمْ لِيَقوموا بِوَفائِها، ويَنْتَهُوا عنِ التَّقْصيرِ فيها والتَّعَدِّي عنْ حُدودِها.

وقيلَ: الميزانُ العَدْلُ، وهو ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ المَوازينَ ثلاثةٌ:

أحَدُها: العقولُ، وهي التي تُعْرَفُ بها مَحاسِنُ الأشياءِ ومَساوِئُها وقُبْحُ الأشياءِ وحُسْنُها.

والثاني: الميزانُ الذي جُعِلَ بَينَ الخَلْقِ لإيفاءِ الحقوقِ والاِسْتيفاءِ.

والثالثُ: الذي جُعِلَ في الآخِرَةِ لِيُوفَى بهِ ثوابُ الأعمالِ وجَزاؤُها، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ قولُهُ: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تَنْقِصوا في الميزانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ الأمْرُ بإقامةِ الوَزْنِ والإتمامِ في الوَزْنِ: أمْرٌ بالإتمامِ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ نَهْيٌ عنِ النُّقْصانِ. والأمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عنْ ضِدِّهِ. وههنا جَمَعَ بَينَهما صريحاً تأكيداً لِبابِ الوَزْنِ والميزانِ. ويَحْتَمِلُ الوجوهَ الثلاثةَ التي ذَكَرْنا.

وعنْ قَتادَةَ [أنهُ قالَ][1]: كانَ ابْنُ عباسٍ ﷺ يقولُ: يا مَعْشَرَ المَوالي إنكُمْ قد وُلِّيتُمْ أمْرَينِ [بهما][2] هَلَكَ الناسُ، هما[3] المِكْيالُ والمِيزانُ.

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ في المِيزانِ باللِّسانِ أي لِسانِ المِيزانِ.

وقيلَ لِابْنِ عُمَرَ ﷺ: إنَّ أهلَ المدينةِ لا يُوفونَ الكَيلَ، قالَ: وما يَمْنَعُهُمْ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

الآية ١٠ وقولُهُ ﷺ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [قالَ بعضُهُمْ: الأنامُ][4]: هو كلُّ ذي رُوحٍ. وقالَ بعضُهُمْ: الأنامُ، هو جَمْعُ الخَلْقِ. ولكنْ عندَنا الأنامُ كأنهُ البَشَرُ لأنهُ[5] أخبَرَ أنَّ الأرضَ أنْشَأها لِلْبَشَرِ، وَوَضَعَها لهمْ، وهو ما ذَكَرَ في مَواضِعَ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٩و. . .] [وقالَ في مَواضِعَ]: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠و. . .].

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ يُذَكِّرُهُمْ نِعَمَهُ التي أنْشَأها لهمْ في الأرضِ مِنَ الفواكِهِ وأنواعِ الثمارِ والحبوبِ التي جَعَلَها رِزْقاً لهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي ذاتُ الغُلُفِ والأغطيةِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بِرَفْعِ[6] النونِ وكَسْرِها. فَمَنْ كَسَرَها ذهبَ إلى الرَّيحانِ، وهو الرِّزْقُ الذي تُرْزَقونَ مِنَ الحبوبِ والثمارِ، والعَصْفُ: الوَرَقُ، فيكونُ المعنى: والحبُّ ذو الورقِ والرِّزْقِ.

ومَنْ رفَعَها فَعَلَى الاِبْتِداءِ عَطفاً على الحَبِّ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/٤٦.

واختلَفوا في تَفسيرِ العَصْفِ والرَّيحانِ: منهمْ مَنْ قالَ: العَصْفُ وَرَقُ الزَّرْعِ مِنَ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ وغَيرِهِما، وقيلَ: هو التِّبْنُ، وقيلَ: هو أوَّلُ ما يَنْبُتُ مِنَ الزَّرْعِ، وقيلَ: العَصْفُ هو الزَّرْعُ نفسُهُ. ولكنْ أضافَ العَصْفَ إلى الحَبِّ لِما منهُ يَنْشَأُ الحَبُّ، ومنهُ يَخْرُجُ.

وأمّا الرَّيحانُ [فقد قيلَ:](١) هو خُضْرَةُ الزَّرْعِ، وقيلَ: هو الذي يُشَمُّ، وقيلَ: هو الرِّزْقُ الذي يُرْزَقونَ مِنَ الحبوبِ والثمارِ.

كذلكَ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ الرَّيحانُ هو الحَبُّ، وقالَ القُتَبِيُّ: الرَّيحانُ الرِّزْقُ؛ يُقالُ: اطْلُبْ رَيحانَ اللهِ أي رِزْقَهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذا خِطابٌ للجِنِّ والإنسِ، وفيهِ دلالةُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ مَبْعوثاً إلى الإنسِ والجِنِّ/ ٥٤٢ ـ أ/ جميعاً.

ألَا تَرَى أنهُ قالَ في آيَةٍ أُخرَى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وقيلَ: ليسَ أنْ يخاطِبَهُا جُمْلَةً ولكنْ يُخاطِبُ كلَّ إنسِيٍّ وجِنِّيٍّ في نفسِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] ليسَ أنْ قالَ الفريقانِ جميعاً كونوا هوداً تَهْتَدوا. ولكنْ قالَ اليهودُ: كونوا هوداً تَهْتَدوا، وقالَ النَّصارى: كونوا نَصارى تَهْتَدوا. فَعَلَى ذلكَ هذا.

ثم قولُهُ ﷺ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عنْ جابرِ بْنِ عبدِ اللهِ [أنهُ](٢) قالَ: «خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ على أصحابِهِ، فَقَرأَ سورةَ الرحمنِ مِنْ أوَّلِها، فَسَكَتوا، فقالَ: لقد قَرَأْتُها على الجِنِّ، فكانوا أحْسَنَ مَرْدوداً منكُمْ، كانوا كلَّما قَرَأْتُ عليهِمْ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحمدُ». [الترمذي ٣٢٩١]

ثم في ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الآيات: ١٠و١١و...] إلى آخِرِهِ يَذْكُرُ نِعَمَهُ وقُدْرَتَهُ وتَدْبيرَهُ وعِلْمَهُ وَوَحْدانِيَّتَهُ.

أمّا نِعَمُهُ فإنها(٣) بَسْطُ الأرضِ لهمْ بما فيها مِنْ أنواعِ الحبوبِ والفواكِهِ التي بها قِوامُهُمْ والعَصْفِ وأنواعِ النباتِ التي بها قِوامُ دوابِّهِمْ. وأمّا بَيانُ قُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ فإنشاءُ هذهِ الفواكِهِ والحبوبِ في أكمامِها ما يُعْجِزُ الخَلْقَ عنْ إحداثِ شيءٍ وفِعْلِهِ في العِلْقِ لِيُعْلَمَ أنَّ صُنْعَهُ وفِعْلَهُ خارجٌ عنِ المُعالَجاتِ والمُمارساتِ التي لا يَتَحَقَّقُ مَعَ الأغطيةِ. فإنَّ قدرتَهُ وفِعْلَهُ غيرُ مَقيسَيْنِ بأفعالِ الخَلْقِ وقُدْرَتِهِمْ.

كذلكَ الأولادُ في البُطونِ والفِراخُ في البَيضِ وأمثالُها في الظُّلُماتِ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ. ثم إنشاءُ هذهِ الثمارِ والحبوبِ في الوقْتِ الذي لا يُحْتَمَلُ [فيه](٤) البردُ والحَرُّ في الأكمامِ مِنْ وراءِ الحُجُبِ، وإمساكُها فيها في حالِ ضَعْفِها، فإذا اشْتَدَّتْ، وقَوِيَتْ، أخْرَجَها في العِلْقِ، في ذلكَ لُطْفٌ منهُ ونِعْمَةٌ عظيمةٌ على خَلْقِهِ. وفيهِ إثباتُ البَعْثِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ قَدَرَ على إنشاءِ هذهِ الأشياءِ قادرٌ على إعادةِ الخَلْقِ.

والثاني: أنهُ لمّا أنْشَأَ لهمْ ما ذَكَرَ، ثم منهمْ مَنْ شَكَرَ هذهِ النِّعَمَ، ومنهمْ مَنْ كَفَرَ، ثم اسْتَوَيا في هذهِ الدنيا. وفي الحكمةِ التفريقُ بَينَهما، فلا بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى، فيها يُفَرِّقُ بينَهما.

وفيهِ لُزومُ الامْتِحانِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يُنْشِئَ لهمْ هذهِ النِّعَمَ، ثم يَتْرُكَهُمْ سُدًى لا يَسْتَأْدي شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ. ثم مَعْرِفَةُ الشاكِرِ منهمْ والكافِرِ لا تُعْرَفُ إلّا بِمُعَرِّفٍ يُعَرِّفُهُمْ، لأنَّ مقدارَ الشُّكْرِ وكيفِيَّتَهُ لا يُعْرَفانِ(٥) بِمُجَرَّدِ العقلِ، فَيَضْطَرُّهُمْ إلى رسولٍ يُخْبِرُهُمْ عنِ اللهِ تعالى ذلكَ، فيكونُ فيهِ إثباتُ الرسالةِ.

ثم في إخْراجِ هذهِ الحبوبِ والفواكِهِ كلِّها في وقْتٍ واحِدٍ مِنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ على سَنَنٍ واحِدٍ في زمانٍ واحِدٍ مِنْ غيرِ تَفاوُتٍ دليلٌ على أنَّ عِلْمَهُ وتَدْبيرَهُ أزَلِيّانِ ذاتِيّانِ؛ إذْ لم يَمْنَعْهُ شيءٌ عنْ شيءٍ.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) في الأصل وم: فإنه. (٣) في الأصل وم: فإنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يعرف.

ثم اتّساقُ ذلكَ واتّصالُ ما ذَكَرَ مِنْ مَنافِعِ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ مِنْ غَيرِ مَدْخَلٍ مِنْ أحدٍ دليلٌ على وَحْدانِيَّتِهِ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ فِعْلَ عَدَدٍ ما جَرَى ذلكَ على سَنَنٍ واحدٍ على ما هو التَّدافُعُ والتَّمانُعُ في الأمْرِ القائِمِ بَينَ اثْنَينِ عندَ الاِخْتِلافِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ ذَكَرَ في خَلْقِ الإنسانِ أحوالاً مُخْتَلِفَةً:

مَرَّةً قالَ: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] والترابُ هو الذي لم يُصِبْهُ الماءُ.

ومَرَّةً قالَ: خَلَقَهُ ﴿مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢و٠٠] والطينُ هو [الترابُ][1] الذي أصابَهُ الماءُ، واعْتُجِنَ. ومَرَّةً قالَ: [خَلَقَهُ][2] ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] واللازِبُ هو الذي يَلْتَصِقُ باليَدِ، ويَلْزَقُهُ، وهو الجِيرُ الخالِصُ.

وقالَ مَرَّةً: [خَلَقَهُ][3] ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وهو الذي اسْوَدَّ، وتَغَيَّرَ مِنْ طولِ المُكْثِ.

ومَرَّةً قالَ: [خَلَقَهُ][4] ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] والصَّلْصالُ هو الذي لهُ صوتٌ إذا حُرِّكَ، وهو مِنْ صَلْصَلَةِ الحديدِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ أي مُنْتِنٍ، يُقالُ: صَلَّ البِئْرُ إذا أنْتَنَ، والفَخّارُ هو الذي تَكَسَّرَ إذا يَبِسَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: الفَخّارُ الذي طُبِخَ.

فجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الأحوالُ التي ذُكِرَتْ على اخْتِلافِها في ذلكَ الإنسانِ: كانَ في الاِبْتِداءِ تُراباً، ثم صارَ لازِباً لأنهُ كانَ مِنْ جَيِّدِ الطينِ وحُرِّهِ. ثم صارَ مَسْنوناً مُنْتِناً أسْوَدَ لِطولِ مُكْثِهِ، وصَلْصالاً لِكَثْرَةِ تَرْبِيَتِهِ ولِجَودَتِهِ، يكونُ لهُ صَوتٌ. وتَشْبِيهُهُ بالفَخّارِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ: تَكَسُّرَهُ[5] ويُبْسَهُ: لأنهُ[6] كانَ ذا جوفٍ كالفَخّارِ أو لِطولِ المُكْثِ وكَثْرَةِ التَّرْبِيَةِ؛ إذْ طينُ الفَخّارِ لهُ هذهِ الصفاتُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ الجانُّ[7] ذُكِرَ انهُ أبو الجِنِّ وأنَّ[8] لَفْظَةَ ﴿ٱلْجَآنَّ﴾ الوُحْدانُ، والجِنُّ جماعةٌ.

وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: الجانُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: المارِجُ هو لَهَبُ النارِ، صافٍ، لا دُخانَ فيهِ؛ يُقالُ: مَرَجَتِ النارُ، إذا الْتَهَبَتْ، فالمارِجُ على هذا النارُ التي فارَقَتِ الحَطَبَ، والتَهَبَتْ، وارْتَفَعَتْ عنهُ. وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: المارِجُ ههنا اللَّهَبُ مِنْ قولِكَ: مَرَجَ الشيءُ إذا اضْطَرَبَ، ولم يَسْتَقِرَّ.

وعلى ما قالَ بعضُهُمْ في قولِهِ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣ والرحمن: ١٩] أي خَلَطَ، وجَمَعَ بينَهما، يَجيءُ أن يكونَ خَلْقَ الجانِّ مِنْ نارٍ غَيرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ الحَطَبِ ولا خالِيَةٍ مِنَ الدُّخانِ. وكذا قالَ أبو عُبَيدٍ: ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ أي مِنْ خَلْطٍ مِنَ النارِ.

وعلى تأويلِ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي أرسَلَ أحَدَهما في الآخَرِ؛ فهو يكونُ مِنْ نارٍ مُنْقَطِعَةٍ مِنَ الحَطَبِ.

وليسَ لنا إلى مَعْرِفَةِ ذلكَ حاجةٌ، إنما الحاجةُ إلى مَعْرِفَةِ ما أودَعَ مِنَ الحِكْمَةِ في ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ آدمَ ﷺ مِنَ الترابِ وخَلْقِ الجانِّ مِنَ النارِ والفائدةِ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

يُخْبِرُ عنْ قُدْرَتِهِ: أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ الإنسانِ مِنْ ذلكَ الترابِ وإخراجِ جميعِ ما في الدنيا مِنَ الناسِ مِنْ نَفْسٍ [واحدةٍ][9] لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ ألوانِ النارِ وإخراجِ ما أخْرَجَ منهُ مِنَ النَّسْلِ حتى أخَذَ الدنيا بأسْرِها، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولو[10]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لتكسره. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الآية. (٨) في الأصل وم: وأنه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: ولا ما.

اجْتَمَعَ حُكَماءُ البَشَرِ والجِنِّ [ما][1] أدرَكوا المَعْنَى الذي بِهِ أنشأَ الإنسانَ منهُ، وأخرَجَ هذا الخَلْقَ منهُ. وفي ذلكَ وَجْهانِ مِنَ الحِكْمَةِ.

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنَ القُدْرَةِ على البَعْثِ

والثاني: أنَّ كلَّ ما ذَكَرَ مِنَ النَّقْلِ والتَّغْيِيرِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ وإخراجِ ما أخرَجَ منهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ عَبَثاً باطلاً. ولو لم يَكُنْ بَعْثٌ لَكانَ إنشاءُ هذا الخَلْقِ عَبَثاً باطلاً، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا لم تُنْكِروا شيئاً مِنْ آلائِهِ، أنهُ ليسَ منهُ، فما لكُمْ تُنْكِرونَ قُدْرَتَهُ على البَعْثِ وغيرِهِ؟.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ كقولِهِ[2] في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] وقد ذَكَرْنا في ما تقدَّمَ.

ثم دلَّ قولُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ وقولُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وذِكْرُ الحَدِّ لهما؛ أعني الشمسَ والقمرَ في الشروقِ والغروبِ على أنهما طَلَعا [حيثُ طَلَعا][3] بأمْرٍ، وغَرَبا حيثُ غَرَبا بأمْرٍ؛ إذْ لو كانَ ذلكَ لا بأمْرٍ لكنْ بأنفسِهِما لَكانا يَطْلُعانِ، ويَغْرُبانِ في جميعِ الأوقاتِ والأطرافِ، ولا يَرْجِعانِ إذا بَلَغا مكاناً، ولا يَزْدادانِ، ولا يَنْقُصانِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][4] هذا كُلُّهُ مُنْشأً للبَشَرِ مُسخَّرٌ لهمْ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: ما بالُ المَجْعولِ لكُمْ أطْوَعُ للهِ تعالى منكمْ حينَ[5] لا يَتَجاوَزُ الحَدَّ الذي جُعِلَ [لهُ، ولا يَتَعَدَّى أمْرَ خالقِهِ][6]؟ وأنتمْ تتَجاوَزونَ أمْرَهُ ونَهْيَهُ، وتتَعَدَّون حدودَهُ.

وفي الآيةِ [﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾][7] دليلٌ على أنَّ تَخصيصَ الشيءِ بالذِّكْرِ لا يَدُلُّ على نَفْيِ ما عداهُ؛ ألا تَرَى أنهُ خَصَّ ربَّ المَشْرِقَينِ وربَّ المَغْرِبينِ، ولم يَدُلَّ على انهُ ليسَ بربٍّ ما بينَهما، أو ليسَ بربٍّ ما سِوَى المَشارِقِ والمَغارِبِ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قيلَ: جَمَعَ بينَهما، وخلَطَ. وقيلَ: أحَدُهُما العَذْبُ، والآخَرُ المالحُ. وقيلَ: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي يَتَقابلانِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي بينَ البَحْرَينِ حِجَابٌ وحاجزٌ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ قيلَ: لا يَخْتَلِطانِ، ولا يَمْتَزِجانِ، ولا يَتَغَيَّرُ طَعْمُ كلِّ واحدٍ منهما.

يُخْبِرُ عنْ لُطْفِهِ في مَنْعِهِما عنِ الامْتِزاجِ/ ٥٤٢ ـ ب/ ومِنْ طَبْعِ الماءِ الامْتِزاجُ والاخْتِلاطُ. فَمَنْ قَدَرَ على هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ وقيلَ: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يَتَجاوَزانِ حَدَّ اللهِ تعالى الذي حَدَّ لهما.

ثم اخْتُلِفَ في البَحْرَينِ: قالَ بعضُهُمْ: أحَدُهما: بَحْرُ رومٍ، والآخَرُ: بَحْرُ هِنْدٍ، وبينَهما بَرْزَخٌ أي مَكانٌ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي لا يَخْتَلِطانِ، وهو قولُ الأصَمِّ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: أحَدُهما: بَحْرُ السماءِ، والآخَرُ: بَحْرُ الأرضِ، كقولِهِ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١و١٢].

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو الهواءُ والأرضُ وسُكّانُ الأرضِ، وهذا أيضاً لُطْفٌ مِنهُ تعالى.

الآية ٢١ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][9]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: لهم ولا يتعدون أمر خالقهما. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾: منهمْ مَنْ قالَ: يَخْرُجانِ[1] مِنَ العَذْبِ والمالحِ جميعاً كما هو ظاهرُ الآيةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: يَخْرُجانِ مِنَ المالحِ خاصةً دونَ العَذْبِ، وإنْ كانَتِ الإضافةُ إليهما، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ [الأنعام: ١٣٠] ولم يأتِ مِنَ الجنِّ رسُلٌ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قُرئ بِنَصْبِ الياءِ ورَفْعِ الياءِ ونَصْبِ الراءِ[2]؛ فالأوَّلُ على جَعْلِ الفِعْلِ لِغَيرِهما كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

ثم اخْتُلِفَ في اللُّؤلُؤِ والمَرْجانِ: منهمْ مَنْ قالَ: اللُّؤلُؤُ ما عَظُمَ منهُ، والمَرْجانُ ما صَغُرَ مِنَ اللُّؤلؤِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ على العَكْسِ، وأكثَرُهُمْ على الأوّلِ. كذلكَ رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ والحَسَنِ وقتادةَ والضَّحّاكِ. وكذا قالَ أبو عَوسَجَةَ: المَرْجانُ صِغارُ اللُّؤلُؤِ والواحدةُ مَرجانَةٌ.

وقيلَ: إنَّ المَرْجانَ المُخْتَلِطُ مِنَ الجواهرِ؛ مِنْ قولِهِمْ: مَرَجْتُ أي خَلَطْتُ. وقيلَ: إنهُ ضَرْبٌ خاصٌّ مِنَ الجوهَرِ مِنَ البَحْرِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: إذا جاءَ القَطْرُ مِنَ السماءِ انْفَتَحَتِ الأصدافُ، فكانَ مِنْ ذلكَ اللُّؤلُؤُ. وقيلَ: إنما قالَ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وإنما يَخْرُجُ اللُّؤلُؤُ مِنَ العَذْبِ دونَ المالحِ لأنَ العَذْبَ والمالحَ يَلْتَقِيانِ، فيكونُ العَذْبُ لِقاحاً للمالِحِ كما يُقالُ: يَخْرُجُ الوَلَدُ مِنَ الذكَرِ والأُنثى، وإنما تَلِدُهُ الأُنثى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][3].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [عن إبراهيمَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قَرَأَ: المُنْشِئاتُ][4] بكسرِ الشينِ[5]، وفَسَّرَ بعضُ الناسِ المُنْشِئاتُ أي ظاهراتُ السَّيرِ.

وعَنِ الحَسَنِ أنهُ قَرَأها بِفَتْحِ الشينِ. قالَ أبو عُبَيدَةَ: وبها يُقْرَأُ لأنَّ تَفْسيرَها أنها التي رُفِعَ قِلْعُها في البَحْرِ، فهي الآنَ مُقْلَعٌ[6] بها، فقيلَ: المُنْشَآتُ، وهي المُرْتَفِعاتُ [القُلوعِ][7] والتي لم [تُرْفَعْ قُلُوعُها][8] فليستْ بِمُنْشَآتٍ. وقيلَ: المَخْلوقاتُ والجَواري هي السُّفُنُ المُنْشَآتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ أي هي في البحارِ كالجِبالِ في البَراري. قيلَ: وهي الأعلامُ أنفُسُها.

ثم في هذهِ الآياتِ التي ذُكِرَتْ وجوهٌ مِنَ الحِكْمةِ وإثباتِ القُدْرَةِ للهِ ﷻ:

أحَدُها: أنَّ مَنْ قَدَرَ على تَسْخيرِ البحارِ وإنشاءِ ما فيها، وعَلَّمَ إخراجَ ما فيها الآدَمِيَّ واتِّخاذَ السُّفُنِ وإجراءَها في البحارِ لِلْوُصولِ إلى المَنافِعِ التي في البُلْدانِ النائيةِ قادِرٌ على البَعْثِ وغَيرِهِ.

والثاني: أنْ لا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ ما في البحارِ مِنَ الأموالِ واتِّخاذِ السُّفُنِ وإجرائِها في البحارِ ومَعْرِفَةِ ما وراءَ البحارِ مِنَ البُلْدانِ النائيةِ، وما فيها إلا بِخَبَرِ الرُّسُلِ.

فيقولُ[9]، واللهُ أعلَمُ: ما بالُكُمْ صَدَّقْتُمْ الرسُلَ والأوائلَ في ما يَرْجِعُ إلى مَنافِعِكُمُ الدُّنْيَوِيَّةِ؟ ولم تُصَدِّقوهُمْ في ما يَرْجِعُ إلى الدينِ والآخِرَةِ مِنَ الوَعيدِ.

أو يقولُ: ما بالُكُمْ لا تُنْكِرونَ شيئاً مِنْ هذهِ النِّعَمِ التي جَعَلَها لكُمْ أنها مِنَ اللهِ تعالى؟ فكيفَ تُنْكِرونَ ما أتاكُمْ بهِ الرسُلُ ﷺ؟.

---

(١) في الأصل وم: يخرج. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٤٧. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/٤٩. (٦) في الأصل وم: مقلوع. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يرتفع قلعها. (٩) هذا هو الوجه الثالث.

ثم في قولِهِ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ خَلْقَ أفعالِ العبادِ؛ فإنهُ أضافَ السُّفُنَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ وقد اتَّخذَها بَنو آدمَ بأفعالِهِمْ. فلو لم يكُنْ لهُ في أفعالِهِمْ صُنعاً لكانَتِ السُّفُنُ لهمْ لا لهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إذا لم تُكَذِّبا شيئاً مِنَ آلاءِ ربِّكُما أنهُ مِنَ اللهِ تعالى، ولم تُكَذِّبا ما أتاكُمْ مِنَ الأخبارِ في مَنافِعِ الدنيا، فكيفَ تُكَذِّبانِ أخبارَ الرسلِ ﷺ بَعدَ ما جاؤوا بالآياتِ والحُجَجِ؟.

الآيات ٢٦ و٢٧ و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١)] يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: أي مُلْكُ كلِّ مَنْ في الأرضِ فانٍ، ويَبْقى مُلْكُ ربِّكَ أبداً دائماً.

والثاني[(٢)]: سلطانُ كلِّ مَنْ عليها، أو قُوَّةُ كلِّ مَنْ عليها، وقُدرتُهُ، فانٍ، ويَبْقى سلطانُ ربِّكَ وقُدرتُهُ ورُبوبيَّتُهُ لِيُعلَمَ أنَّ مُلْكَهُ وسُلْطانَهُ بذاتِهِ لا بالخَلْقِ ولا[(٣)] يكونُ فَناؤُهُمْ وذهابُهُمْ يُدْخِلُ نَقْصاً أو وَهْناً في مُلْكِهِ، خِلافُ مُلْكِ ملوكِ الأرضِ وسُلْطانِهِمْ.

[والثالثُ][(٤)]: جائزٌ أنْ يكونَ قالَ هذا على الإياسِ لِلْكَفَرةِ وقَطْعِ الرجاءِ عنْ عبادةِ مَنْ عَبَدوا دونَهُ مِنَ الأصنامِ والمُلوكِ والرؤساءِ ومَنْ[(٥)] يَخدِمونَهُمْ؛ كأنهُ[(٦)] يقولُ: كلُّ مَنْ عَبدَ دونَهُ، أو خَدَمَ، أو عَمِلَ، لا لِوَجْهِ اللهِ فَكُلُّهُ فانٍ ذاهبٌ إلا ما عُمِلَ لِوَجْهِ اللهِ فإنهُ باقٍ، واللهُ أعلَمُ.

والباطِنيَّةُ يقولونَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي النفسُ الجَسَدانِيَّةُ، وتَبْقَى النفسُ الروحانِيَّةُ أبداً، لأنهمْ يقولونَ: إذا فَنِيَتْ هذهِ الأجسادُ يُنْشِئُ اللهُ تعالى مِنْ أعمالِهِمُ الصالحاتِ أنْفُساً روحانِيَّةً تَبْقَى أبداً.

ويَحتَمِلُ ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي كلُّ ما يُطْلَبُ مِنَ العَمَلِ وغَيرِهِ رِضا اللهِ تعالى، فَكَنَّى بالوجْهِ عنِ الرِّضا. وقولُهُ ﷻ: [﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾][(٧)] يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: على الخَلْقِ[(٨)] إجلالُ خَلْقِ اللهِ وأمْرِهِ وتَعْظيمُ ذلكَ.

والثاني: [على][(٩)] أنْ يَجِلَّ اللهُ تعالى مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِهِ، أي منهُ إجلالُ مَنْ أجَلَّ في الدنيا وإكرامُ مَنْ أكْرَمَ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٩ و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١٠)] يُخبِرُ اللهُ ﷻ عنْ فَزَعِ أهلِ السماءِ وأهلِ الأرضِ إليهِ عندَ الإياسِ مِنَ الخَلْقِ وانْقِطاعِ الرجاءِ عنهمْ، وهو يَذْكُرُ أنهُ المَفْزَعُ في الأحوالِ كلِّها ولِلْخَلائقِ كلِّهِمْ، ومنهُ يَسألونَ الرِّزْقَ والنجاةَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٣] وقولُهُ ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٧].

هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الآيتان: ٢٦و٢٧].

يقولُ، واللهُ أعلَمُ: شأنُهُ وأمْرُهُ باقٍ دائمٌ أبداً وذهابُ الخَلْقِ لا يُدْخِلُ نَقْصاً في شأنِهِ وأمْرِهِ ولا وَهْناً في سُلْطانِهِ ومُلْكِهِ، بل هو في شأنِهِ وأمْرِهِ عندَ فَنائِهِمْ كَهُوَ في حالِ حَياتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اليهودَ قالَتْ: إنَّ اللهَ اسْتَراحَ يومَ السبتِ، لا يَقْضي بشيءٍ، ولا يَحكُمُ، ولا يَأْمُرُ، ولا يَفْعَلُ فِعْلاً، فَنَزَلَتِ الآيةُ عندَ ذلكَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِنْ إحداثٍ وإفناءٍ وإحياءٍ وإماتَةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (٣) في الأصل وم: حتى. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: وما.
(٦) في الأصل وم: كأنهم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: خلق. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

وأصْلُهُ أنَّ اللهَ تعالى إذا وُصِفَ بالأزَلِ يُقالُ: عالمٌ لم يَزَلْ، رازقٌ بذاتِهِ لم يَزَلْ، وإذا ذُكِرَ بأمرٍ وتدبيرٍ مُضافٍ إلى الخَلْقِ يوصَفُ على ذِكرِ الوقْتِ، فيكونُ الوقْتُ لِلْخَلْقِ لا لهُ نَحْوَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عالماً بجلوسِكَ ههنا أو في هذا الوقْتِ، أي لم يَزَلْ عالماً أينَ تَجْلِسُ الآنَ أو تَجيءُ الآنَ، أو في هذا الوقْتِ.

وإذا وَصَفْتَهُ بالماضي قُلْتَ: لم يَزَلْ عالماً بما كانَ [بالماضي، وبالمُسْتَقْبَلِ][1] لم يَزَلْ عالماً بما يكونُ أنهُ يكونُ في وقتِ كذا، وبالحالِ لم يَزَلْ عالماً بكونِهِ كائناً للحالِ ونَحْوَ ذلكَ نَفْياً لِوَهْمِ الخَلْقِ أنَّ المَخْلوقَ كيفَ يكونُ في الأوَّلِ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ذَكَرَ اليومَ والوقتَ لئلا / ٥٤٣ ـ أ/ يُتَوَهَّمَ كَونُ الخَلْقِ قديماً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣١ و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][2] قُرِئَ ﴿سَنَفْرُغُ﴾ بالنونِ والياءِ[3] وبِرَفْعِ الراءِ في الحالَينِ.

قالَ أبو عُبَيدٍ: بالياءِ يَقْرَؤها [حمزةُ والكسائيُّ وغيرُهما][4] كقولِهِ تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢٩] ذُكِرَ على المُغايَبَةِ.

فكذلكَ هذا الذي بُنِيَ عليهِ. قالَ الزَّجّاجُ: قولُهُ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ ليسَ هو الفراغَ عنِ الشُّغْلِ، لكنْ كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: سَأفْرُغُ لكَ كذا أي سأجْعَلُ لكَ، أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هذا على الوَعيدِ؛ في كلامِ العربِ يقولُ الرجلُ: سَأفْرُغُ لكَ، وإني لَفارغٌ على الوعيدِ. وقالَ أبو بكرٍ الكَيسانيُّ: إنَّ الفراغَ ليسَ يُسْتَعْمَلُ في الفراغِ مِنَ الشُّغْلِ خاصةً، لكنْ يُسْتَعْمَلُ لهُ ولِغَيرِهِ مِنْ نَحْوِ إنجازِ ما وَعَدَ، وأوعَدَ، كأنهُ قالَ: سَنُنْجِزُ لكمْ ما أوعَدْنُكُمْ ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾.

وعندَنا أنَّ الفراغَ هو اسْمٌ لِانْقِضاءِ الفِعْلِ وتَمامِهِ لا لِلْفَراغِ مِنَ الشُّغْلِ؛ يُقالُ: فُلانٌ فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، إذا فَرَغَ مِنْ بِناءِ دارِهِ، إذا أتَمَّهُ، وانْقَضَى ذلكَ.

ألَا تَرَى أنهُ، وإنْ فَرَغَ مِنْ شُغْلِ تلكَ الدارِ وذلكَ العملِ، فهو مَشْغولٌ بِغَيرِهِ؟ دلَّ أنهُ ليسَ باسْمٍ لِلْفراغِ مِنَ الشُّغْلِ؛ إذْ لو كانَ اسْماً لِلْفَراغِ مِنَ الشُّغْلِ لا يُوصَفُ بهِ، وهو مَشْغولٌ بِغَيرِهِ. دلَّ أنهُ اسْمٌ لِلتَّمامِ والانْقِضاءِ. لكنْ فَهِمَ الخَلْقُ بعضُهُمْ مِنْ بعضِ الفَراغَ مِنَ الشُّغْلِ لِما أنَّ فِعْلَهُمُ الشيءَ لا يَلْتَئِمُ إلّا بالشُّغْلِ في ذلكَ، فَفُهِمَ ذلكَ مِنْ فِعْلِهِمْ.

فأمّا اللهُ ﷻ حينَ[5] لا يشْغَلُهُ فِعْلٌ عنْ فِعْلٍ ولا شيءٌ عنْ شيءٍ لم يَجُزْ أنْ يُفْهَمَ مِنْ فَراغِهِ مِنَ الشُّغْلِ فَراغُهُ، وباللهِ العِصْمَةُ والتوفيقُ.

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][6] له تأويلانِ:

أحَدُهما: كأنهُ لو مُكِّنَ لكمُ النَّفاذُ مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ ونواحيها، فانْفُذوا، فَتَجِدوا هنالكَ، وتَرَوا مِنْ آياتِ مَنْ كذَّبَ بالرسلِ ﷺ وما حَلَّ بهمْ بالتكذيبِ.

ثم قالَ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي لا تَنْفُذونَ، لو مُكِّنَ لكُمْ مِنَ النَّفاذِ، إلا تَجِدونَ حُجَجَ مَنْ أُهْلِكَ منهمْ ظاهرةً أنهُ بِمَ أهْلَكَهُمْ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] أمَرَهُمْ بالسَّيرِ في الأرضِ والتَّدَبُّرِ في آثارِ مَنْ أُهْلِكَ بماذا أُهْلِكَ مَنْ أُهْلِكَ منهمْ، وبماذا نَجا مَنْ نَجا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: على الإعجازِ أي لا تَسْتَطيعونَ أنْ تَخْرُجوا أو تَنْفُذوا مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ. ولو مُكِّنَ لكمْ مِنَ النَّفاذِ والخُروجِ منها لَوَجَدْتُمْ ثَمَّ سُلْطاني وحُجَجي ومُلْكي هنالكَ قائماً، أي لا تَقْدِرونَ على الخروجِ مِنْ سُلْطاني ومُلْكي حيثُما

---

(١) من م، في الأصل: بالمستقبل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم الآيات القرآنية ج ٧/ ٥٠. (٤) انظر المرجع السابق: الجزء والصفحة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) ساقطة من الأصل وم.

كُنتُم، بل حيثُما سِرْتُمْ وكُنتُمْ [فأنتم][1] في سُلْطاني ومُلْكي، فلا تَتَخلَّصونَ مِنَ الموتِ والهَلاكِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنعام: ٣٥].

وقالَ الضَّحّاكُ في حَرْفِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قد جاءَ أجَلُكُمْ فانفُذُوا مِنْ أقطارِهِما ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ مني؛ يعني أنهُ لا يُنجيكُمْ أحدٌ مِنَ الموتِ، وأنتمْ مَيِّتونَ، أي لا تأتونَ قُطْراً مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ إلّا تَجِدونَ[2] هنالكَ سلطانَ اللهِ ومَلَكوتَهُ.

يقولُ: لا تَستَطيعونَ فِراراً مِنَ الموتِ ولا مَحيصاً، وإنْ نَفَذْتُمْ مِنْ أقطارِ السمواتِ والأرضِ فَلَنْ تَخرُجوا مِنْ سُلْطاني، وأنا آخُذُكُمْ بالموتِ حيثُ كُنتُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقالَ بعضُهُمْ: يَبْعَثُ اللهُ تعالى ملائكةً عندَ الحَشْرِ، فَيُحيطونَ بالدنيا، فلا يَسْتَطيعُ شيطانٌ ولا إنسٌ ولا جانٌّ [يكونُ في أقطارِها][3] أنْ يَخْرُجَ مِنَ الأقطارِ، ولو خَرَجوا كانوا في سُلطانِ اللهِ.

وقيلَ: ﴿إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي بِحُجّةٍ. وقالَ قَتادةُ: إلّا بِمُلْكٍ. وقالَ [بعضُهُمْ][4]: إلّا بِقُدْرةِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٥ ثم أوعَدَهُمْ، فقالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ قُرِئَ ﴿شُوَاظٌ﴾ بِضَمِّ الشينِ وكَسْرِها[5].

ورُوِيَ عنِ الحَسَنِ بالكَسْرِ وكذا عنْ مُجاهِدٍ، وقُرِئَ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بكسرِ السينِ وضَمِّهِ[6]. فَمَنْ رَفَعَ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿شُوَاظٌ﴾ ومَنْ كَسَرَهُ عَطَفَهُ على قولِهِ: ﴿مِّن نَّارٍ﴾.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ الشُّواظِ والنُّحاسِ: عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ النُّحاسُ الدُّخانُ. وقيلَ: الشُّواظُ هو لَهَبُ النارِ، والذي لا دُخانَ فيهِ، والنُّحاسُ هو الدُّخانُ.

وعَنِ الكَلْبيِّ: الشُّواظُ لَهَبُ النارِ، والنُّحاسُ الصُّفْرُ الذي يُذابُ، فَيَذوبُ[7] بِهِ.

وقيلَ: الشُّواظُ هو الذي فيهِ الدُّخانُ، والنُّحاسُ هو النُّحاسُ المعروفُ، يُذابُ، ويُصَبُّ على رُؤُوسِهِمْ.

وقالَ الضَّحّاكُ: الشُّواظُ الدُّخانُ الذي يَخْرُجُ مِنَ اللَّهَبِ، ليسَ بِدُخانِ الحَطَبِ، والنُّحاسُ الصُّفْرُ.

فَمَنْ قَرَأَ بالخَفْضِ فيقولُ: لَهَبٌ مِنْ نارٍ ومِنْ دُخانٍ، ومَنْ قرأ بالرفعِ، أرادَ بِهِ الصُّفْرَ؛ فيقولُ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ذائبٌ في النارِ، وقيلَ: النُّحاسُ في القراءتينِ، يَحْتَمِلُ الدُّخانَ، ويَحْتَمِلُ الصُّفْرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ قيلَ: لا تَمْتَنِعانِ مِنْ ذلكَ، ويَحْتَمِلُ أي [لا][8] ناصِرَ لكما كما يكونُ في الدنيا.

فإنْ قيلَ: إنهُ قد ذَكَرَ في أوّلِ الآياتِ الآلاءَ والنِّعَمَ، فَقَرَنَ بأحَدِها ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقدِ انقَطَعَ ذِكْرُ الآلاءِ ههنا، وذَكَرَ المواعيدَ في هذهِ الآياتِ، فما فائدةُ قِرانِ قولِهِ ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بآخِرِها؟ قيلَ: إنَّ الوَعْدَ تَرْغيبٌ، وفي الوَعيدِ تَرْهيباً، فَيُرَغِّبُ في الوَعْدِ، ويُخافُ، ويُرْهَبُ مِنَ الوَعيدِ، فَيَرْتَدِعُ عمّا يُوعَدُ، فيكونُ في ذلكَ نِعْمَةٌ عظيمةٌ؛ إذْ بالوَعْدِ والوَعيدِ تَتِمُّ المِحْنَةُ، وبالمِحْنَةِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ.

الآية ٣٦ لِذلكَ ذَكَرَ على إثْرِ الوعيدِ: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآيتان ٣٧ و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][9] يَذْكُرُ تَغَيُّرَ هذا العالَمِ يومئذٍ وهَوْلَ ذلكَ اليومِ، وهو كما ذَكَرَ مِنْ تَبْديلِ السماءِ حينَ[10] قالَ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقالَ[11]: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وغَيرُ[12] ذلكَ مِنَ الآياتِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَغْييرِ الجبالِ في قولِهِ: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقولِهِ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وقولِهِ: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ونَحْوِ ذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وجدوا. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد: بالدنيا. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٢. (٦) انظر المرجع السابق والصفحة. (٧) في الأصل وم: فيذوبون. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الاصل وم: وقوله. (١٢) في الاصل وم: في غير.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: شَبَّهَ السماءَ لِكَثْرةِ تَلَوُّنِها بِفَرْشِ الوردِ؛ يكونُ في الربيعِ بِلَونٍ، ثم يَصيرُ إلى لَونٍ آخَرَ ثم إلى آخَرَ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ تَغْيِيرِ السماءِ وتَلَوُّنِها.

ومنهمْ مَنْ قالَ: شَبَّهَها بالدِّهانِ، وهو الدُّهْنُ، لِلِينِها وضَعْفِها، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] و المُهْلُ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ. لكنَّ التَّشبيهَ بالمُهْلِ إنما يكونُ لِكَثْرةِ التَّلَوُّنِ لا لِلِّينِ. فيكونُ في هذا التأويلِ نوعُ وَهْيٍ(١)، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ إنما تَحْمَرُّ، وتَذوبُ كالدُّهنِ.

ورُوِيَ أنَّ سَماءَ الدنيا مِنْ حديدٍ، فإذا كانَ يومُ القِيامةِ صارتْ مِنَ الخُضْرةِ إلى الاِحْمِرارِ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ إذا حُمِيَ بالنارِ.

ثم قالَ بعضُهُمْ: الدِّهانُ جَمْعُ الدُّهنِ، ويُقالُ: الدِّهانُ الأديمُ الأحْمَرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ: قالَ بعضُهُمْ: أي لا يُسألُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عن ذنبِ غَيرِهِ، إنما يُسألُ عن ذنبِ نفسِهِ نَحْوَ ألّا يُسألَ عمَّنْ أضَلَّ غَيرَهُ عن ضَلالِ ذلكَ الغَيرِ، إنّما يُسألُ الذي أضَلَّهُ عن إضلالِهِ، ويُسألُ الضالُّ عنْ ضَلالِهِ كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ الآية [فصلت: ٢٩]

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسألُ بَعْضٌ عنْ بَعْضٍ، أي لا يُسألُ جِنِّيٌّ عنْ ذنبِ إنسيٍّ ولا إنسِيٌّ عنْ ذنبِ جِنِّيٍّ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسألونَ سؤالَ اسْتِخْبارٍ واسْتِفْهامٍ /٥٤٣ ـ ب/ أي ماذا(٢) فَعَلْتُمْ؟ ولكنْ يُسألونَ لِمَ فَعَلْتُمْ [ما فَعَلْتُمْ](٣)؟ يُسألونَ(٤) عنِ الحُجَّةِ لا عنْ نفسِ الفِعْلِ، لأنَّ كلَّ ذي مَذْهبٍ ودينٍ إنما يَفْعَلُ لِحُجَّةٍ، تكونُ لهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: لا يُسألونَ عنْ ذُنوبِهِمْ لِما يكونُ في وجوهِهِمْ مِنَ الأعلامِ مِنَ الاِسْوِدادِ وزُرْقةِ العُيونِ وغيرِ ذلكَ مِمّا ذُكِرَ في الكتابِ أنها تكونُ لِلْكُفّارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠] وقولِهِ تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦]. وما ذُكِرَ مِنْ أعلامِ المؤمنينَ كقولِهِ(٥) تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢و٢٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وقالَ بعضُهُمْ: لا يُسألُ الملائكةُ عنِ المُجْرِمينَ لأنهمْ يُعْرَفونَ بِسيماهُمْ.

الآية ٤٠ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾](٦).

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى في كتابِهِ لِلْمُجْرِمينَ أعلاماً يُعْرَفونَ بالآخِرةِ بها على ما ذَكَرَ(٧) مِنِ اسْوِدادِ الوجوهِ، وقالَ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨و٩] وقالَ(٨): ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧] أي أعقابِها.

فَهُمْ(٩)، واللهُ أعلَمُ، تكونُ وجوهُهُمْ في أوَّلِ الأحوالِ خاشِعةً ثم غَبِرَةً ثم مُسْوَدَّةً، ثم تُطْمَسُ مِنْ نَظَرِ ذلكَ. فَنَعوذُ باللهِ مِنْ تلكَ الأحوالِ التي ذَكَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيلَ: تُكْسَرُ أضلاعُهُمْ وظُهورُهُمْ، فَتُجْمَعُ أقدامُهُمْ ونَواصيهِمْ، فَيُرْمَى بهمْ في النارِ.

وقالَ بعضُهُمْ: تُغَلُّ أيديهمْ إلى أعناقِهِمْ، ثم تُجْمَعُ بها(١٠) نواصيهِمْ وأقدامُهُمْ، ثم يُدْفَعونَ إلى النارِ.

---

(١) في الأصل وم: وها. (٢) في الأصل وم: لماذا. (٣) ادرجت في الأصل وم بعد: ماذا فعلتم. (٤) في الأصل وم: يطلبون. (٥) في الأصل وم: من قوله. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ذكرنا. (٨) في الأصل وم: وقوله. (٩) في الأصل وم: فهو. (١٠) في الأصل وم: به.

الآية ٤٢ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(١)].

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي إذا وَقَعوا على الوصفِ [الذي][(٢)] ذَكَرَ، عندَ ذلكَ يُقالُ لهم[(٣)]: هذهِ جهنَّمُ التي كُنتُمْ تُكذِّبونَ بها في الدنيا.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي يَطوفونَ بَينَ جهنَّمَ وبَينَ حميمٍ. فَيَجوزُ أنهُ كنَّى بَجهنَّمَ عمّا يأكُلونَ، وهي النارُ، والحَميمِ عمّا يَشرَبونَ؛ كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَطوفونَ بَينَ ما يأكلونَ وبَينَ ما يَشرَبونَ: لا يَشبَعونَ ممّا يأكلونَ، ولا يُرْوَونَ ممّا يَشرَبونَ، بل كلّما أكلوا زادَتْهُمْ جوعاً، وكلّما شربوا زادَتْهُمْ عَطَشاً. والحَميمُ، هو الشرابُ الذي جُعِلَ لهمْ. والآني، هو الذي قد انْتَهى حَرُّهُ غايَتَهُ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ قالَ في قولِهِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ على إثْرِ الوَعيدِ إنما يُقالُ لهمْ في الآخِرَةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في الدنيا كقولِهِ ﷻ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الزمر: ٧١].

الآيتان ٤٦ و٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][(٤)] ذَكَرَ الخوفَ مِنَ المَقامِ بَينَ يَدَي ربِّهِ، ولم يُبيِّنْ خَوفَه ما هو[(٥)]؟ ولا أنهُ إذا خافَهُ تَرَكَهُ، أو لا.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنَ الخوفِ مِنَ المَقامِ بَينَ يَدَي [ربِّهِ][(٦)] ما بَيَّنَ في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾][(٧)] [النازعات: ٤٠ و٤١] [وهو][(٨)] يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مَنْعُ النَّفْسِ عمّا تَهْوَاهُ.

والثاني: مَنْعُ النَّفْسِ عنْ أنْ تَهْوَى ما نُهِيَتْ عنهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في هذهِ الآيةِ بيانُ ما ذُكِرَ في تلكَ الآيةِ مِنَ الخَوفِ مِنَ المَقامِ بَينَ يَدَي ربِّهِ، أي خافَ مَقامَ ربِّهِ، وتَرَكَ ما هَمَّ مِنَ المَعصِيَةِ، أو ما هَوَتْ نفسُهُ.

ثم لَسْنا نَعْرِفُ ما فائدةُ ذِكْرِ الجَنَّتَينِ لهُ؟ ليسَ ذلكَ في ثلاثٍ أو أربعٍ.

قالَ أهلُ التأويلِ: إنما ذَكَرَ جَنَّتَينِ لأنَّ الجَناتِ أربعٌ:

جَنَّةُ عَدْنٍ، وفِرْدَوسٌ، وجَنَّةُ المأوى، وجَنَّةُ النعيمِ لِلْمُقرَّبينَ والشهداءِ والصِّدِّيقينَ.

فالجَنَّتانِ الأُخرَيانِ لِمَنْ دونَهُمْ مِنَ المؤمنينَ الذينَ هُمْ أصحابُ[(٩)] اليَمينِ.

وجائزٌ أنْ يُخَرَّجَ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ بَصَرُهُ إذا نَظَرَ يميناً وشِمالاً لا يَقَعُ إلا على جَنَّتِهِ، لا يَقَعُ على جَنَّةِ غَيرِهِ، وكذلكَ إذا نَظَرَ مِنَ الأعْلَى أو مِنَ الأسْفَلِ لا يَقَعُ إلّا على مُلْكِهِ وجَنَّتِهِ، واللهُ اعلَمُ.

والثاني: أنْ تكونَ لهُ جَنَّتانِ: إحدى الجَنَّتَينِ لِتَرْكِ المَساوئِ، والأُخرَى لإتيانِ المَحاسِنِ.

وذَكَرَ القُتَبيُّ عنِ الفَرّاءِ في قولِهِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قالَ: قد يُسَمِّي العربُ الشَّيءَ الواحِدَ باسْمِ الاثْنَينِ إذا كانَ [في رأسِ الكلامِ أو مَقاطعِهِ][(١٠)] لِتَحقيقِ المُوافقةِ في المَقاطِعِ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ لموافَقَةِ مَقاطِعِ الآيةِ، والمُرادُ منهُ جَنَّةٌ واحدةٌ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: له. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ذا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: لأصحاب. (١٠) في الأصل وم: رؤوس الآية ومقاطعها.

لكنَّ القُتَبِيَّ أنكَرَ عليهِ ذلكَ، وقالَ[1]: إنما يُقالُ ذلكَ إذا انْقطَعَ الكلامُ. فأمّا إذا كانَ الكلامُ غيرَ مُنْقطِعٍ فإنهُ لا يُقالُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم سَمّى البَعْثَ مَقاماً بينَ يَدَي ربِّهِ. وسَمّاهُ رجوعاً إليهِ وبُروزاً. فهو على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ سَمّاهُ بِما ذَكَرَ لأنَّ البَعْثَ هو نهايةُ هذا العالَمِ.

والثاني: انهُ سَمّاهُ بذلكَ لأنَّ كلَّ أحَدٍ يَظهَرُ في ذلكَ اليوم، لأنَّ الأمرَ للهِ تعالى، ولأنَّ التَّدْبيرَ لهُ في الدنيا والآخِرَةِ، ولأنّهُ[2] لا تَدْبيرَ لأحَدٍ سِواهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الجَنّتَينِ للسابِقِينَ والشهداءِ ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٢] لأصحابِ اليمينِ.

الآيات ٤٨ ـ ٥١ ثم نعَتَ، وَوَصَفَ[3] ما جَعَلَ للسابِقِينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهداءِ ما ذَكَرَ حينَ[4] قالَ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وَوَصَفَ ما جَعَلَ لأصحابِ اليمينِ بقولِهِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][5] قالَ عامّةُ أهلِ التأويلِ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ذواتا أغصانٍ. ولكنْ ليسَ في هذا كثيرُ حِكْمَةٍ. لكنْ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ مِنَ الفُنونِ، أي فيهما مِنْ كلِّ فَنٍّ وكلِّ نَوعٍ [شَيْءٍ][6].

وقالَ مُقاتلٌ: ذلكَ في الجَنّتَينِ اللّتَينِ جعَلَهُما لأصحابِ اليمينِ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الآية: ٦٤] والمُدهامُّ، هو الذي تَضْرِبُ خُضرَتُهُ لِشِدَّتِها[7] إلى السَّوادِ، وهو دونَ الأوَّلِ في الوَصْفِ؛ إذا لم يَصِفْهُما بصفةٍ واحدةٍ، وَوَصَفَ تَينِكَ الجَنّتَينِ بالفنونِ، وقالَ في تَينِكَ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقالَ في أصحابِ اليمينِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الآية: ٦٦]

والناضِخُ، هو الذي لا يُتَبَيَّنُ جَرَيانُهُ، وَوَصَفَ تَينِكَ بالجَرَيانِ، والنَّضْخُ دونَ الجَرَيانِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ اللّتانِ تَفورانِ بالماءِ، والنَّضْحُ دونَ النَّضْخِ، وهو الرَّشُّ. وقالَ في الجَنّتَينِ السابقتَينِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الآية: ٥٢] أي صِنفانِ أو لونانِ [مِنْ][8] أيِّ شيءٍ كانَ. وقالَ في أصحابِ [اليمينِ][9]: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الآية: ٦٨]: ذَكَرَ أشياءَ مَعْدودةً، وعَمَّ الأشياءَ في تَينِكَ حينَ[10] قالَ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الآية: ٥٢] لِتَفْضيلِ أولئكَ على هؤلاءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ[11] في كلِّ واحدةٍ حِكْمَةٌ على حِدَةٍ بقولِهِ[12] تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ما ذَكَرْنا أنَّ منهما مِنْ كلِّ فَنٍّ وكلِّ نوعٍ [شيئاً][13]؛ وإحدَى العَينَينِ هي العينُ المَعروفةُ المَوعودةُ، والأُخرَى التي لا يَعْرِفونَ، ولا يُوعَدونَ.

الآيتان ٥٢ و٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][14] أي صِنفانِ ولَونانِ على غيرِ تَغَيُّرِ [اللَّونِ، ولا فَسادٍ][15] يَدْخُلُ في ذلكَ، لأنَّ تَغَيُّرَ اللَّونِ في الدنيا، لا يكونُ للفواكِهِ إلّا بَعْدَ دخولِ فسادٍ فيها، يُخبِرُ أنَّ تَغَيُّرَ لَونِهِ لا لِفَسادٍ، يَدْخُلُ في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنّما ذَكَرَ الزوجَينِ مِنَ الفواكِهِ لِما أنَّ قُلوبَ البَشَرِ قد خُطِرَتْ بأحدِ الزَّوجَينِ وتَمَنِّيَتِهِمْ أنفسَهُمْ، والزَّوجُ الآخَرُ، هو لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى على عبادِهِ فَضْلاً منهُ إليهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَخْطُرَ على بالِهِمْ، ولا وَقَعَتْ عليهِ أبصارُهُمْ، ولا انْتَهَتْ إليهِ آمالُهُمْ إكراماً لهمْ وإحساناً[16].

وقالَ بعضُهُمْ: ليسَ المُرادُ في هذهِ الآياتِ تَبْيِينَ ما لأهلِ الجنةِ، ولكنَّ فيهِ تِبْيانَ فَضْلِ السابِقِينَ على أصحابِ اليمينِ أنَّ أولئكَ يُعْطَونَ مِنَ الفَضْلِ ضِعْفَي ما أُعْطِيَ هؤلاءِ، واللهُ أعلَمُ

---

(١) في الأصل وم: وذلك. (٢) في الأصل وم: ولأن. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم لشدته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: حيث. (١١) في الأصل وم: يذكر. (١٢) في الأصل وم: قوله. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: الطعم وللفساد، في م: الطعم ولا فساد. (١٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وامتنانا.

الآيتان ٥٤ و٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][1]:

قالَ الفَرّاءُ: يجوزُ أنْ تكونَ البِطانةُ والظِّهارةُ جَميعاً مِنْ شيءٍ واحدٍ ومِنْ جِهَةٍ واحدةٍ. لكنْ سَمّى الجِهَةَ التي تَلي أجْسادَهُمْ بِطانةً والأُخرى ظِهارةً كالسماءِ[2]: إنَّ الجِهَةَ [التي][3] تَلي الملائكةَ، هي بطانَتُهُمْ وظِهارَتُها، وما تَلينا / ٥٤٤ ـ أ/ ظِهارَتُهُمْ وبِطانَتُهُمْ. وكذلكَ كلُّ شيءٍ، يَلي إنساناً، فهو بِطانةٌ، والجانبُ الذي لا يَليهِ ظِهارةٌ؛ يُقالُ: هذا ظَهْرُ السماءِ للجانِبِ الذي تَراهُ، والآخرُ بَطْنُ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: لا، ولكنْ ذَكَرَ البِطانةَ مِنْ إسْتَبْرَقٍ، ولم يَذْكُرِ الظِّهارةَ، والعُرْفُ في الناسِ أنَّ ظِهارةَ فُرُشِهِمْ أنْفَسُ مِنَ البِطانةِ، والبِطانةَ دونَ الظِّهارةِ.

فعَلَى ذلكَ في ذِكْرِ البِطانةِ ووَصْفِها دلالةُ أنَّ ظِهارَتَها أرْفَعُ وأنفَسُ مِنَ البِطانةِ.

لكنْ ما قالَهُ: الفَرّاءُ صحيحٌ، وما ذَكَرَهُ القُتَبِيُّ، هو مِنْ صَنيعِ الناسِ في الدنيا مِنِ اتِّخاذِ الظِّهارةِ فَوقَ البِطانةِ لِما لا تَحْتَمِلُ أملاكُهُمُ التَّسْوِيَةَ بَينَ ما بَطَنَ وما ظَهَرَ في النَّفاسةِ والرِّفْعَةِ.

فأمّا اللهُ ﷻ فلا نَفادَ لِخَزائِنِهِ، يَفْعَلُ ما يشاءُ، وكيفَ يشاءُ.

وعنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: قد أُخْبِرْتُمْ بالبَطائِنِ، فكيفَ بالظِّهارةِ؟ ثم الإسْتَبْرَقُ اخْتُلِفَ فيهِ: قيلَ: هو ما غَلُظَ منهُ بِلِسانِ قومٍ. وقالَ بعضُهُمْ: هو ما دَقَّ، ورَقَّ، واللهُ أعلَمُ. ولا نُفَسِّرُهُ نحنُ أنهُ، ما هو، وكيفَ هو، ولكنْ نَعْلَمُ أنهُ شيءٌ؛، قد وَعَدَ لهمْ رَبُّهُمْ، وهو شيءٌ، تَرْغَبُ فيه أنفسُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا في حقِّ السابِقينَ الذينَ سارَعوا في الخَيراتِ، واسْتَبْطَؤوا[4] ما وَعَدَ لهمْ رَبُّهُمْ بما لم يَرَوا لِطاعاتِهِمْ قيمةً، ويَغْلِبُهُمْ[5] خوفُهُمْ في التَّقْصيرِ في العَمَلِ للهِ تعالى الواجِبِ عليهِمْ[6] وفي أوامِرِهِ ونواهيهِ، فقالَ: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الذي وَعَدَ لكمْ.

وقالَ[7] أهلُ التأويلِ: إنهُ[8] الشجرُ [وإنهُ يَقْتَرِبُ منهمْ][9] حينَ يَتَناوَلُهُ[10] الرجُلُ كيفَ شاءَ.

لكنْ يَذْكُرُهذا، واللهُ أعلَمُ: أنَّ الجَنَّتَينِ إنْ بَعُدَتا فإنَّ الثِّمارَ منهُمْ دانيةٌ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الجَنَى الحَمْلُ، واجْتَنَتِ الشجرةُ الجَنَى إذا حَمَلَتْ، وأدْرَكَ حَمْلُها.

الآيتان ٥٦ و٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][11] ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي قَصَرْتَ الطَّرْفَ[12] على أزواجِهِنَّ، ولا يَنْظُرْنَ إلى غيرِهِمْ، ولا تَشْتَهيهِم كقولِهِ في آيةٍ أُخرى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الآية: ٧٢] ذَكَرَ هذا لأنَّ أهلَ الدينِ يكونونَ مِنْ أهلِ غَيرةٍ، لا يُريدونَ أنْ تَنْظُرَ زوجاتُهُمْ[13] إلى غيرِهِمْ، ولا غَيرُهُمْ يَنْظُرونَ إليهِنَّ. فأخْبَرَ بالآيتَينِ أنهنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا غَيرُهُمْ [يَنْظُرونَ][14] إليهِنَّ حينَ[15] وَصَفَهُنَّ بأنهنَّ ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ و﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قُرِئَ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ بضمِّ الميمِ[16] وكَسْرِهِ.

قالَ الفَرّاءُ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أي لم يَقْبِضْهُنَّ، والطَّمْثُ النِّكاحُ بالرومِيَّةِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: لم يُجامِعْهُنَّ إنسٌ قبلَهُمْ ولا جانٌّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي لم يَمَسُّهُنَّ [إنسٌ][17] في التربيةِ كما يُرَبَّى الأولادُ ولا جانٌّ على ما يَمَسُّ الجنُّ الأولادَ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: كالأسماء. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: واستيفوا. (٥) في الأصل وم: ويغلبه. (٦) في الأصل وم: عليه. (٧) في الأصل وم: وإن. (٨) في الأصل وم: أي. (٩) في الأصل وم: وإن منهم قربت. (١٠) في الأصل وم: يتناولها. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: طرفهن. (١٣) في الأصل وم: أزواجهم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٦. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

فَيُفسِدُهُمْ. ولكنهنّ[١] كما وَصَفَ ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ إلى ٣٨].

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٢] قالَ أهلُ التأويلِ: شَبَّهَهُنَّ بالياقوتِ لِصفائِهِنَّ وبالمَرْجانِ لِبَياضِهِنَّ، وهو كما قالَ[٣]، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٠ و٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][٤] قيلَ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ لهمْ في الآخِرةِ، أي هل جَزاءُ الفِعْلِ[٥] الحَسَنِ في الدنيا إلّا العَطاءُ[٦] الحَسَنُ في الآخِرَةِ، هو الجنةُ.

ولكنَّ غيرَهُ كأنهُ أقربُ، أي: هل جَزاءُ إحسانِ اللهِ تعالى بما أنْعَمَ عليهِمْ في الدنيا إلّا الإحسانُ لهُ بالشُّكْرِ والقَبولِ؟ أي [إتْيانُ الفِعْلِ][٧] الحَسَنِ، أي هو الشُّكْرُ لهُ وحُسْنُ القَبولِ، لأنهُ ليسَ يَسْتَوجِبُ أحدٌ قِبَلَ اللهِ تعالى بإحسانِهِ في الدنيا جَزاءً في الآخِرَةِ إنما الجَزاءُ لهمْ بِحَقِّ الفَضْلِ والإنعامِ لا بِحَقِّ اسْتِحْقاقٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ لهمْ[٨] في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

واسْتَدَلَّ أبو يوسفَ ومحمدٌ، رَحِمَهُما اللهُ تعالى، بهذهِ الآيةِ على أنَّ للجِنِّ ثواباً كما للإنْسِ؛ فإنهُ جَرَى الخِطابُ مِنْ أوَّلِ السورةِ إلى آخِرِها للجنِّ والإنسِ [كقولِهِ تعالى][٩]: لِلْجِنِّ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الآية: ٣٣]. وقولِهِ تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الآية: ٥٦]. فَعَلَى ذلكَ يَشْتَرِكونَ في الوَعْدِ والوَعيدِ.

لكنْ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى، يقولُ: لا ثوابَ لِلْجِنِّ في ذلكَ مِنْ نَحْوِ الفواكِهِ والسُّفُنِ الجَواري. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الثوابِ لهمْ يجوزُ الثوابُ [وليسَ لِلْجِنِّ حُورُ][١٠] العِينِ، واللهُ أعلَمُ، وقد ذَكَرْناهُ في غيرِ مَوضِعٍ.

الآيتان ٦٢ و٦٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١١] فإنْ كانتِ الجَنَّتانِ اللَّتانِ سَبَقَ ذِكْرُهما للسابِقينَ والصِّدِّيقينَ، فهاتانِ اللَّتانِ ذَكَرَهُما ههنا لأصحابِ اليَمينِ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي في الفَضْلِ والقَدْرِ والمَنْزِلةِ لِفَضْلِ أولئكَ على أصحابِ اليَمينِ.

وإنْ كانَتِ الجَنّاتُ جميعاً لكلِّ فريقٍ منهمْ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ في المَكانِ والمَوضِعِ لا في الفَضْلِ والقَدْرِ. فكأنهُ قالَ: مِنْ أيِّ جِهَةٍ وَقَعَ بَصَرُهُمْ يَقَعُ على جَنّاتِهِمْ مِنْ فَوقُ ومِنْ تَحتُ وعَنْ يَمينٍ وشِمالٍ؛ أي يكونونَ وَسَطَ الجَنّاتِ، لا يَحْتاجونَ إلى التَّحْويلِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٨].

الآيتان ٦٤ و٦٥ وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٢] على ما ذَكَرْنا [المُدْهامُّ][١٣] هو شديدُ الخُضْرَةِ التي تَضْرِبُ إلى السَّوادِ، وَوَصْفُ هاتَينِ دونَ وَصْفِ تَينِكَ الجَنَّتَينِ بقولِهِ تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ على التأويلِ الأوَّلِ.

الآيتان ٦٦ و٦٧ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٤] على ما ذَكَرْنا أنهما دونَ الجارِيَتَينِ. ولِذلكَ رُوِيَ عنِ الفَرّاءِ [أنهُ][١٥] قالَ: العينانِ تَجْرِيانِ أفْضَلُ مِنَ النَّضاخَتَينِ بقولِهِ: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ لأنهما تَنْضَخانِ بالخَيرِ والبرَكةِ لأهلِ الجنةِ. وقيلَ: تَنْضَخانِ بالماءِ وأنواعِ الفواكِهِ. ورُوِيَ عنْ أنَسِ بْنِ مالكٍ ﷺ أنهُ قالَ: تَنْضَخانِ بالمِسْكِ والعَنْبَرِ كما يَنْضَخُ طَيرُ الماءِ على بيوتِ أهلِ الدنيا.

الآيتان ٦٨ و٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][١٦] مِنَ الناسِ مَنِ احْتَجَّ لأبي

---

(١) في الأصل وم: ولكنهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قالوا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فعل. (٦) في الأصل وم: عطاء. (٧) في الأصل وم: الإتيان فعل. (٨) في الأصل وم: له. (٩) في الأصل: من قوله، في م: من قوله. (١٠) في الأصل وم: وللجن يجوز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) و(١٣) و(١٤) و(١٥) و(١٦) ساقطة من الأصل وم.

حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: في مَنْ حَلَفَ لا يأكُلُ فاكهةً، فأكَلَ رُمّاناً، لا يَحْنَثُ في يَمينِهِ لأنهُ احْتَجَّ بهذهِ الآيةِ في أنَّ الرُّمّانَ والرُّطَبَ ليسَا مِنَ الفاكِهةِ، لأنهُ عَطَفَهما على الفاكهةِ، والشيءُ لا يُعْطَفُ على نفسِهِ، إنما يُعْطَفُ على غَيرِهِ.

هذا هو ظاهرُ الكلامِ إلّا أنْ تقومَ الدلالةُ على أنَّ مُرادَهُ بالذِّكْرِ، وإن كانَ مِنْ جِنْسِهِ لِضَرْبٍ مِنَ التعظيمِ أو غَيرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٧٠و٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][1] قيلَ: حِسانُ الخُلُقِ وحِسانُ الوجوهِ، يُقالُ: امرأةٌ خَيْرَةٌ وخيِّرةٌ، ونِسوَةٌ خَيراتٌ، يُقرأُ بالتَّثقيلِ والتَّخفيفِ جميعاً[2].

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: لِكُلِّ مؤمنٍ خَيرَةٌ، ولِكُلِّ خَيرَةٍ خَيمةٌ.

الآيتان ٧٢و٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][3] قيلَ: أي مَحْبوساتٌ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرْنا أنهنَّ يكُنَّ في الخِيامِ، لا يراهُنَّ غَيرُ أزواجِهِنَّ، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي لا يَصْرِفْنَ بَصَرَهُنَّ إلى غَيرِ أزواجِهِنَّ، ولا يَبْغِينَ غَيرَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٧٤ ـ ٧٧ وقولُهُ تعالى: [﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][4] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ [﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾][5] هو قراءةُ العامّةِ بِغَيرِ الألفِ، وعَنْ عاصِمِ الجَحْدَرِيِّ: رَفارِفَ وعَباقِرِيَّ[6].

قيلَ: الرَّفْرَفُ المَجْلِسُ، وقيلَ المجالِسُ، وقيلَ: الرياضُ الخُضْرُ، وقيلَ: الخيامُ، وقيلَ: هو فضولُ الفُرُشِ والبُسُطِ.

وأما العَبْقَرِيُّ [فقد][7] قيلَ: هو الزَّرابِيُّ، وهو بالفارِسيَّةِ النَّخُ.

وقالَ أبو عُبيدةَ: العَبْقَرِيُّ: الطَّنافِسُ الثِّخانُ، وقيلَ: لكلِّ شيءٍ مِنَ البُسُطِ عَبْقَرِيٌّ.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: العَبْقَرِيُّ في غَيرِ القرآنِ/ ٥٤٤ ـ ب/ ثيابٌ تُتَّخَذُ بِعَبْقَرٍ، وهي بلدةٌ تُنْسَبُ إليها.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تباركَ اسْمُ ربِّكَ مِنْ أنْ يَسْتَحِقَّ غَيرُهُ اسْمَهُ. وقولُهُ: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ اسْتَحَقَّ على الخَلْقِ أنْ يُجِلُّوهُ، ويُعَظِّموهُ منْ أنْ يُسمُّوا غَيرَهُ باسْمِهِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ هو الا[8] يُلْحِقوا بِهِ ما لا يَليقُ بِهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ وغَيرِهِ.

ثم قيلَ في فائدةِ تكرارِ قولِهِ ﷻ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فبأيِّ آلاءِ ما في السمواتِ والأرضِ تُكَذِّبانِهِ؟ هي[9] الدلالةُ على وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى والشهادةِ لهُ بأنهُ خالقُهُ ومرسِلٌ [رسلَهُ وما جاؤوا][10] بِهِ، وذلكَ أنَّ جَميعَ ما فيهما مِنَ الطعامِ والشرابِ على ما ذَكَرْنا، وذلكَ كما يقولُ الرجلُ لآخرَ، يلومُهُ، ويُعاتِبُهُ: ألم تكنْ جائعاً، فأطْعَمْتُكَ؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ ألم تكنْ ظمآنَ، فَسَقَيْتُكَ؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ ونَحْوَ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ تكونَ فائدةُ التكرارِ غَيرَ هذا، وهي أنهُ خَرَجَ مَخْرَجَ العِظَةِ والتَّذْكيرِ، ومِنْ شأنِ المَوعِظَةِ والذِّكْرَى[11] التِّكْرارُ والإعادةُ ليكونَ أنْجَعَ وآخَذَ للقلوبِ وأقربَ إلى القَبولِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات ج ٧/ ٥٧. (٣) و(٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٥٧ و٥٨. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إن. (٩) في الأصل وم: في. (١٠) في الأصل: رسوله وما جاءت، في م: رسله وما جاءت. (١١) من م، في الأصل: التذكير.

سورة[1] الواقعة

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ هذا ممّا لا يُبْتَدأُ بِهِ الخطابُ، وإنما هو جوابُ سؤالٍ وخطابٍ، لم يُذْكَرْ.

فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المؤمنونَ ذَكَروا كَراماتِهِمُ التي وُعِدوا في الآخِرَةِ، فقالَ: لهمْ أولئكَ الكَفَرَةُ: متى يكونُ ذلكَ لكمْ؟ فقالوا: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ كما يَسْألُ الرجلُ: متى يكونُ أمْرُ كذا؟، فيقولُ: إذا كانَ كذا، فهو حرفُ جوابٍ لسؤالِهِ. وعلى هذا يُخَرَّجُ جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنْ هذا النوعِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] ونَحْوِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: إذا وقَعَتِ المَثوبَةُ والعقوبةُ فتكونُ الواقعةُ كنايةً عنهما.

وجائزٌ أنْ تكونَ الواقعةُ اسْماً مِنْ أسماءِ البَعْثِ كالقِيامةِ والساعةِ وغَيرِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي ليسَ لِوَقْعَتِها مَثوبَةٌ، ولا تُرَدُّ. ويُقالُ: حُمِلَ عليهِ، فما كَذَبَ، أي فَما رَجَعَ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي هي حقٌّ، ليستْ بِكَذِبٍ. وقالَ بعضُهُمْ: أي لا يُكَذِّبُ بها أحدٌ إذا وقَعَتْ، ليسَتْ كالآياتِ التي عايَنوها في الدنيا مَعَ ما عَرَفوا أنها آياتٌ كَذَّبوها كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤و١٥] وغيرَ ذلكَ؛ يُكَذِّبونَها مَعَ العِلْمِ بأنها آياتٌ.

يقولُ تعالى: إذا عايَنوا القِيامةَ، يُقِرّونَ بها، ويُصَدِّقونَها، ولا يُكَذِّبونَ بها، كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] غَيرَ الذي كنا نَعْمَلُ ونَحْوَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي ليستِ الأنباءُ والأخبارُ التي جاءتْ على وقوعِها وقِيامِها كاذِبَةً، بل هي صادِقَةٌ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ تُسْمِعُ القريبَ ﴿رَّافِعَةٌ﴾ تُسْمِعُ البَعيدَ. وقالَ صاحبُ هذا التأويلِ، إذْ يُفَسِّرُ الواقِعةَ: [إنها][3] هي الصَّيحةُ، وتلكَ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ أُناساً في النارِ، و﴿رَّافِعَةٌ﴾ أُناساً في الجنةِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿خَافِضَةٌ﴾ لِمَنْ تكَبَّرَ، وتَعَظَّمَ على الخَلْقِ، [رادَّةً إياهُ][4] و﴿رَّافِعَةٌ﴾ لِمَنْ تواضَعَ للخَلْقِ، وانْقادَ لهُ، وقَبِلَهُ.

وقيلَ: ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأهلِ النارِ في النارِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [القمر: ٤٨] و﴿رَّافِعَةٌ﴾ لأهلِ الجنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ يُخَرَّجُ على السؤالِ؛ كأنهمْ لمّا سَمِعوا وَصْفَ القِيامةِ والواقِعةِ مِنَ المؤمِنينَ، قالوا[5] عندَ ذلكَ: متى تكونُ الواقعةُ؟ فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فازَّلْزَلَتْ حتى تُلْقِيَ ما في بَطْنِها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وردة. (٥) في الأصل وم: فقالوا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ قيلَ: فُتِّتَتْ حتى تصيرَ كالدقيقِ، ومنهُ يقالُ للسَّويقِ: المَبْسوسُ، والسَّويقُ يُلَتُّ بِهِ الزيتُ والخِلْطُ. وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي سُيِّرَتْ تَسْييراً.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ قيلَ: الهباءُ الذي يكونُ فوقَ النارِ إذا خَمَدَتْ، لا يكونُ غيرُهُ ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ أي مُتَفَرِّقاً. وقيلَ: ﴿هَبَآءً﴾ أي تُراباً مُنْتشِراً. وقيلَ: الهَباءُ المَبْثوثُ هو ما يَسْطَعُ مِنْ سنابِكِ الخَيلِ. وقيلَ: الهَباءُ الغُبارُ الذي تَراهُ في الشمسِ إذا دَخَلَتْ مِنَ الكَوَّةِ.

وفيهِ[1] إخبارٌ عنْ شِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ أنهُ يُفعَلُ بالجبالِ كذا معَ صلابَتِها وطاعتِها اللهُ تعالى، فكيفَ يَفعَلُ بكمْ يا بَني آدَمَ معَ ضَعْفِكُمْ وكُفْرِكُمْ ومَعْصِيَتِكُمْ؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي أصنافاً ثلاثةً.

الآيات ٨ ـ ١٠ [والأصنافُ الثلاثةُ][2] ما فَسَّرَ عقيبَهُ حينَ[3] قالَ: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [وقيلَ: الأصنافُ الثلاثةُ][4] المُكَذِّبونَ والمحسنونَ والسابقونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أصحابُ المَيْمَنَةِ مِنَ اليُمنِ، وأصحابُ المَشْأمَةِ مِنَ الشُّؤْمِ.

والثاني: [سُمِّيَ هؤلاءِ][5] أصحابَ المَيْمَنَةِ لأنهمْ أصحابُ الطَّيِّباتِ، واليَمينُ هي التي تُستَعمَلُ في الطَّيِّباتِ [وسُمِّيَ][6] الكَفَرَةُ أصحابَ الشِّمالِ لأنهمْ أصحابُ الخَبائِثِ، والشِّمالُ تُستَعمَلُ في الخَبائِثِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١و. . .] لأنَّ في كتبِهِمْ طَيِّباتٌ وخَيراتٌ، وفي كُتُبِ الكَفَرَةِ خَبائثُ، فَتُؤتَى بشمالِهِمْ.

وقيلَ: سُمُّوا أصحابَ المَيْمَنَةِ والمَشْأمَةِ لِما ذَكَرَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧و٨] وقولِهِ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]. فكذا فكلُّ مَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بيمينِهِ فهو [مِنْ][7] أصحابِ اليُمْنِ، ومَنْ أوتِيَ كتابَهُ بشمالِهِ فهو [مِنْ][8] أصحابِ المَشْأمَةِ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: السابقونَ في الخَيراتِ، يَسْبِقونَ الناسَ في كلِّ خَيرٍ.

والثاني: السابقونَ في الإجابةِ للهِ ورسولِهِ في ما دعاهُمْ إليهِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الخطابُ بِهِ للناسِ كافَّةً: الأوَّلِينَ والآخِرينَ، فيكونُ الناسُ كُلُّهُمْ أصنافاً ثلاثةً: السابقونَ وأصحابُ اليَمينِ وأصحابُ الشمالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخِطابُ بهذهِ الآيةِ لهذهِ الأمَّةِ عامَّةً؛ ففيهِمُ السابقونَ، وفيهِمْ أصحابُ اليمينِ، وهُمْ أصحابُ النظرِ في الحُجَجِ والآياتِ والتَّأمُّلِ فيها، وأصحابُ الشمالِ، وهُمُ الكَفَرَةُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ على التَّعَجُّبِ لرسولِ اللهِ ﷺ بما يُكرِمُهُمْ، أو على التَّعْظيمِ لأولئكَ لِعِظَمِ ما يُعطيهِمْ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ يُخَرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ: على التَّعَجُّبِ والتَّعظيمِ لِما يَحُلُّ بهم /٥٤٥ ـ أ/ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ يُخَرَّجُ على هذا أيضاً: فلانٌ ما أمْرُ فلانٍ؟ فيقالُ: فلانٌ فلانٌ على تعظيمِ أمْرِهِ وشأنِهِ. فَعَلَى ذلِكَ هذا.

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: سموا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يقولُ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في جَعْلِهِمُ الكُفْرَ كلَّهُ مِلَّةً واحدةً: لأنهُ جَعَلَ اللهُ تعالى أهلَ الكُفرِ على اختِلافِ مذاهِبِهِمْ وأديانِهِمْ زَوجاً وأهلَ الإسلامِ زَوجَينِ حينَ جَعَلَ الكلَّ أزواجاً ثلاثةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ وَصفَ التَّقريبِ لهمْ لِمُسابَقَتِهِمْ في الخَيراتِ في الدنيا، ويَحتَمِلُ أنهمْ مُقَرَّبونَ في الآخِرَةِ بالكراماتِ والمَنزِلةِ لِسَبْقِهِمْ في الخَيراتِ أو في الإجابةِ: والسَّبْقُ فِعْلُهُمْ، والتَّقريبُ بِلطفٍ مِنَ اللهِ تعالى وفَضْلٍ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ جميعُ الجَنّاتِ نعيمٌ، لأنَّ فيها نعيماً، ولهُ أنْ يُسَمِّيَ واحدةً منها نعيماً والأُخرَى عَدْناً والفِردَوسَ والمَأوَى لِما لهُ أنْ يُسَمِّيَ ما شاءَ بما شاءَ وكيفَ شاءَ.

الآيتان ١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ اختُلِفَ في ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: أي ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ مِمَّنْ شَهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ وقَرُبوا منهُ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ مِمَّنْ بَعْدَ من هذِهِ الأُمَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وصُحْبَتِهِ وإدراكِ زمانِهِ، ﴿وَقَلِيلٌ﴾ مِنَ المُقَرَّبينَ ﴿مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وهو ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «خَيرُ الناسِ قَرْني ثم الذينَ يَلُونَهُمْ» [البخاري ٢٦٥٢] وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] على ما يَذْكُرُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي جماعةٌ مِنَ المؤمنينَ الذينَ كانوا في الأُمَمِ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي مِنْ هذهِ الأمةِ. وهكذا يكونُ لوِ اجتَمَعَ أهلُ الإيمانِ مِنْ هذهِ [الأمّةِ][1] مَعَ الأُمَمِ الماضِيةِ يكونُ هؤلاءِ أقلَّ منهمْ.

ويَحتَمِلُ أيضاً أنَّ السابِقِينَ المُقَرَّبينَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ أكثرُ مِنَ السابِقينَ المُقَرَّبينَ مِنْ هذهِ الأمةِ، لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام كلَّهُمْ مِنَ الأممِ السالفةِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وَجَدَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ وَجْداً شديداً، وقالوا: لَنْ يدخُلَ الجنةَ منّا إلا قليلٌ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الآيتان: ٣٩و٤٠] لكنَّ هذا لا يُحتَمَلُ لأنهُ خَبَرٌ، ولا وَرَدَ[2] في الأخبارِ نَسْخٌ، وما قالوهُ فهو نَسْخٌ، والوجهُ فيهِ ما ذَكَرْنا.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ هُمْ أصحابُ اليَمينِ مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ جميعاً، أي جماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوّلينَ وجماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الآخِرينَ.

ثم يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الأوَّلونَ والآخِرونَ مِنْ هذهِ الأُمّةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الأوَّلونَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ والآخِرونَ مِنْ هذهِ الأُمّةِ، وهُمُ المؤمنونَ، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ في المُقَرَّبينَ خاصّةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ والسُّرُرُ قد تكونُ في الدنيا مَصفوفةً، ولكنْ لا تكونُ مَوضونةً، أي مَنسوجةً، والوَضْنُ هو النَّسْجُ؛ يُخبِرُ أنهُ لا يكونُ بينَ السُّرُرِ في الآخِرَةِ انفِصالٌ ولا فُروجٌ كما يكونُ في الدنيا، لكنها[3] موصولةٌ بعضُها بِبَعْضٍ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي على السُّرُرِ التي ذَكَرَ أنها مَصفوفةٌ مَوضونةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي يُقابِلُ [بعضُهُمْ بعضاً][4] ولا يُعْرِضونَ، ولا يَنْظُرُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ بالقَفا كما يَفْعَلُ أصحابُ المَجالسِ في الدنيا؛ يُعْرِضُ بعضُهُمْ عنْ بعضٍ، ويُحَقِّرُ بعضُهُمْ بَعْضاً؛ يُخبِرُ أنهم يكونونَ[5] في الآخِرَةِ خِلافَ ما في الدنيا بحيثُ لا يَتَأذّى بَعْضٌ مِنْ بعضٍ بِوَجْهٍ ما.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي[6] إنهمْ يُعْطَونَ في الجنةِ على ما يَسْتَحِبّونَ في الدنيا مِنَ الشَّرَفِ وطَوافِ الوِلْدانِ، وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ السُّرُرِ والفُرُشِ وغَيرِ ذلكَ مِنْ انواعِ ما تَرْغَبُ أنفُسُهُمْ في الدنيا.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يرد. (٣) في الأصل وم: لكن. (٤) في الأصل: بعضها، في م: بعضاً. (٥) في الأصل وم: يكون. (٦) في الأصل وم: وفيه.

ثم ذَكَرَ أنهمْ وِلْدانٌ، وإنْ لم يكُنْ في الجنةِ أولادٌ، فهو يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنْ يكونوا[1] على هيئةِ الوِلْدانِ، وإنْ لم يُولَدُوا.

[والثاني[2]: سُمُّوا ولِدْاناً لِولادِهِمْ في الدنيا، وإن لم يُولَدوا][3] في الجنةِ، لأنَّ التَّوالُدَ في الدنيا لِحاجةِ البَقاءِ، وأهلُ الجنةِ باقونَ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي المُقَرَّطونَ، والخُلْدُ: القُرْطُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو مِنَ الخُلودِ كقولِهِ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [التوبة: ١٠٠و...] أي باقينَ[4]. ويُقالُ: مُسَوَّرونَ مِنَ السِّوارِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ هي الكيزانُ المُدَوَّرَةُ الرُّؤوسِ التي لا عُرا لها. والأباريقُ التي لها عُراً وخراطيمُ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الأكوابُ الأقداحَ التي يَشربونَ بها لأنَّ في الدنيا يكونُ لأهلِ الشرابِ الأباريقُ والأقداحُ؛ يَصُبّونَ مِنَ الأباريقِ في [الأقداحِ، ويَشْرَبونَ منها][5] لا يَشْرَبونَ مِنَ الأباريقِ. فَعَلَى ذلِكَ وُعِدوا في الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأسُ، هو القَدَحُ المَمْلوءُ مِنَ الشرابِ، وأمّا المَعينُ فقالَ بعضُهُمْ: هو الظاهِرُ مِنَ الماءِ الذي يَقَعُ عليهِ البَصَرُ، فَوَعَدَ لأهلِ الجنةِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ الزاي ونَصْبِهِ[6]، أي لا تُصَدِّعُ[7] خُمورُهُمْ في الجنةِ رؤوسَهُمْ كما تُصَدِّعُ خُمورُ الدنيا أهلَها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قيلَ: بِكَسْرِ الزاي لا يَنْفَدُ شرابُهُمْ، وبالفَتْحِ: لا يَسْكَرونَ؛ أي[8] إنهُ ليسَ في خُمورِهِمْ الآفَةُ التي تكونُ في خُمورِ الدنيا مِنْ ذَهابِ العقلِ والصُّداعِ والنَّفادِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ جميعُ فواكِهِ الجنةِ مُخْتارَةٌ لكنْ يُخَرَّجُ على وجهَين:

أحَدُهما: أنَّ جميعَ فواكِهِها ممّا يَتَخَيَّرونَ.

والثاني: العُرْفُ في الفواكِهِ أنْ تُقَدَّمَ مِنْ أجناسٍ مُخْتَلِفَةٍ وألوانٍ لا مِنْ لَونٍ واحدٍ ونَوعٍ واحدٍ، فَيَتَخَيَّرونَ مِنْ أيِّ نَوعٍ اشْتَهَوا، وشاؤوا.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ إنَّ أهلَ الجنةِ إنما يَتَناولونَ على الشَّهْوَةِ [لا][9] على الحاجةِ وسَدِّ الجوعِ، وهو كما ذَكَرَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

الآيتان ٢٢ و٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ يَحْتَمِلُ تشبيهُ الحُورِ العِينِ باللُّؤلُؤِ وجهَين:

أحَدُهما: لِما لا شيءَ أصْفَى مِنَ اللُّؤْلُؤِ والياقوتِ؛ فَضَرَبَ مَثَلَهُنَّ بذلكَ لِصفائِهِ وبَياضِهِ، وإلّا ما خَطَرُ[10] اللُّؤْلُؤِ حتى يُشْبِهَ المَوعودَ مِنَ الجنةِ مِنَ الحُورِ[11] بهِ؟

والثاني: أنَّ لِلُّؤْلُؤِ [فَضلاً ومَنْزِلَةً][12] عندَ العَرَبِ، وليسَ الخَطَرُ لِغَيرِهِ مِنَ الأشياءِ، فَيُشْبِهُ ضَرْبَ مَثَلِهِنَّ بهِ لِفَضْلِ خَطَرِ ذلكَ عندَهُمْ، ليسَ ذلكَ لِغَيرِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١] ضَرَبَ مَثَلَ مَنْ يُشْرِكُ باللهِ بالذي خَرَّ مِنَ السماءِ، والشِّرْكُ باللهِ أعظمُ ممّا ذَكَرَ، لكنْ ليسَ شيءٌ أعْظَمَ وأبْعَدَ مِنَ الخَرِّ مِنَ السماءِ السابعةِ[13]. فَعَلَى ذلِكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يكون. (٢) في م: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل.. (٤) في الأصل وم: باقون. (٥) في الأصل وم: القدح، ويشربون منه. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٦٤. (٧) في الأصل وم: يصدعون. (٨) في الأصل وم: فيه. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في م: خص. (١١) في الأصل وم: الحواري. (١٢) في الأصل وم: فضل ومنزلة. (١٣) في الأصل وم: السابع.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ للأعمالِ جزاءً كأنهمْ عَمِلوا لهُ فضلاً منهُمْ[1] وكَرَماً في حقِّ عبادِهِ، وإنْ كانوا في الحقيقةِ عاملِينَ لأنفسِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء: ٧] وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ شرائِهِ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ منهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] وإنْ كانَتْ أنفسُهُمْ وأموالُهُمْ لهُ [ومَعَ أنَّ اللهَ][2] عاملٌ على عبادِهِ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ [فكأنها ليسَتْ منهُ][3] فَضْلاً وكَرَماً.

فَعَلَى ذلِكَ ذَكَرَ لأعمالِهِمْ جَزاءً كأنها[4] منهمْ إلى اللهِ تعالى [صُنْعاً وإحساناً. وحتى إنْ][5] كانوا عامِلينَ [لأنفسِهِمْ فَمنافعُ][6] أعمالِهِمْ إليهِمْ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ هذا يرجِعُ إلى وصْفِ خُمورِ أهلِ الجنةِ، أي ليسَ فيها الآفاتُ التي تكونُ في خُمورِ الدنيا مِنْ ذهابِ العقلِ وقولِ اللَّغْوِ والهَذَيانِ مِثْلُ ما يجري على ألسنتِهِمْ في الدنيا حينَ يَشْرَبونَ[7] الخمورَ وما يَأثمونَ بِهِ.

وذَكَرَ لهمْ هذهِ الخمورَ في الجنةِ لأنَّ قوماً يَرْغَبونَ فيها، ويَطْلُبونَها بالإمْتِناعِ عَنْ شَبَهِها في الدنيا مِنَ الخُمورِ المُحَرَّمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا/ ٥٤٥ ـ ب/ سَلَٰمٗا﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي إلّا كلاماً، فيهِ سَلامةٌ مِنْ جميعِ الآفاتِ التي ذَكَرَ.

والثاني: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ أي يُحَيّي بعضُهُمْ بعضاً بالسلامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس: ١٠].

الآيات ٢٧ ـ ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ أصحابُ اليَمينِ هُمُ المؤمنونَ على ما ذَكَرْنا. ثم اخْتُلِفَ في ذِكْرِ شَجَرِ السِّدْرِ لهمْ وما ذَكَرَ مِنَ الطَّلْحِ وغيرِ ذلكَ:

منهمْ مَنْ قالَ: إنما ذَكَرَ هذا لهمْ لِتَفْضيلِ المُقَرَّبينَ على أصحابِ اليَمينِ لأنهُ قالَ في المُقَرَّبينَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الآيات: ١٠ ـ ١٢] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ مِنْ عِظَمِ الكراماتِ التي ذَكَرَ لهمْ، ثم ذَكَرَ لأصحابِ اليَمينِ دونَ ذلكَ لِيُعْلَمَ تَفْضيلُ المُقَرَّبينَ على أصحابِ اليَمينِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ قوماً مِنَ العربِ يَنْتَفِعونَ بذلكَ لأنَّ لها ثَمَرَةً، لكنْ ليستْ بِمُرَغِّبَةٍ، ولها شَوكٌ؛ فأخبَرَ اللهُ تعالى: أنَّ لهمْ في الجنةِ ذلكَ بلا شَوكٍ ولا أذًى، بل رَغَّبَ فيهِ، وهو كما وَعَدَ لهمْ مِنَ الخُمورِ. ثم نَفَى[8] عن خُمورِها الآفاتِ.

فَعَلَى ذلِكَ جائزٌ أنْ يكونَ شَجَرُ السِّدْرِ فيها بِغَيرِ آفاتٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: هو طَلْحٌ مَنْضودٌ مُتراكِمٌ كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ [ق: ١٠] ذَكَرَ في إحدى الآيتينِ فَعيلاً[9] وفي الأُخرَى مَفْعولاً[10]، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

وقيلَ: ﴿وَطَلۡحٖ﴾ بالحاءِ: هو الموزُ، وذُكِرَ أنَّ علياً ﷺ سَمِعَ قارئاً يَقرأُ: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ فقالَ عليٌّ ﷺ: ما شأنُ الطَّلْحِ؟ إنما هو طَلْعٌ، فقيلَ لهُ: إنَّ في المصحفِ: ﴿وَطَلۡحٖ﴾ أفلا نُغَيِّرُهُ؟ فقالَ: إنَّ المُصْحَفَ لا يُغَيَّرُ اليومَ. وهذا يُؤَيِّدُ التأويلَ الأوّلَ.

وقالَ أبو معاذٍ: الطَّلْحُ في كلامِ العربِ شَجَرٌ عِظامٌ كثيرُ الأغصانِ، واحِدُها طَلْحَةٌ، وقالَ: ﴿مَّخۡضُودٖ﴾ أي مَقْطوعِ الشَّوكِ، خُلِقَ هنالِكَ هكذا بِلا شَوكٍ. ومنهُ قولُهُ ﷺ في شَجَرِ الحَرَمِ: «لا يُخْضَدُ شَوكُها، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها» [البخاري ١١٢].

---

(١) في الأصل وم: منه. (٢) في الأصل وم: وإن كان. (٣) في الأصل وم: كأنها ليست له. (٤) في الأصل وم: كأن. (٥) في الأصل وم: صنع وإحسان وإن. (٦) في الأصل: أنفسهم ومنافع، في م: لأنفسهم ومنافع. (٧) في الأصل وم: شربوا. (٨) من م، في الأصل: نهى. (٩) في الأصل وم: فعيل. (١٠) في الأصل وم: مفعول.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ يَصِفُهُ[1] أنهُ ليسَ فيهِ[2] شمسٌ، يُؤْذِي حَرُّها، ولا بَرْدٌ، يُؤْذِي. بل ظلٌّ لأنَّ الظِّلَّ شيءٌ لطيفٌ، لا أذَى فيهِ، ولا [هو شيءٌ يَثْقُلُ][3] على الأبدانِ، بل هو شيءٌ يوافِقُ البَدَنَ، ويَخِفُّ عليهِ.

وقيلَ: ﴿مَّمْدُودٍ﴾ لأنهُ لا شَمْسَ فيهِ[4] فَتَنْسَخَهُ. وبالشمسِ يُعْرَفُ الظِّلُّ ههنا، وظِلُّ الآخِرَةِ مَمْدودٌ أبداً.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قيلَ: جارٍ غيرِ مُنْقَطِعٍ، وهو قولُ القُتَبِيِّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: أي مَصْبوبٍ. والأوّلُ كأنهُ أقْرَبُ، أي جارٍ أبداً، ليسَ كمياهِ الدنيا إلّا أنْ يُرادَ بالإنسِكابِ[5] صَبُّهُ مِنَ الأعْلَى إلى الأسفَلِ، وذلكَ ممّا رُغِبَ إليهِ في الدنيا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لأصحابِ اليَمينِ، وما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] لِلْمُقَرَّبينَ[6].

فيكونُ لِلْمُقَرَّبينَ قولُهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ولأصحابِ اليمينِ [قولُهُ تعالى][7]: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧] وكذلك ما ذَكَرَ مِنْ [قولِهِ تعالى][8]: ﴿جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [آل عمران: ١٥و . . .] لِلْمُقَرَّبينَ؛ يكونونَ في العِلِّيِّينَ، وتكونُ الأنهارُ تَحْتَهُمْ، وما يَنْسَكِبُ، ويَنْصَبُّ مِنَ الأعْلَى لأصحابِ اليَمينِ، لأنهمْ يكونونَ دونَهُمْ في الدرجةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٢ و٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ كانْقِطاعِ فواكِهِ الدنيا؛ يُخْبِرُ أنها لا تَنْقَطِعُ في الجنةِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ، وأنها كلما قُطِعَتْ مَرَّةً خَرَجَتْ أُخْرَى مكانَها مُهَيَّئَةً للأكلِ مِنْ غَيرِ أنْ يُحتاجَ فيهِ إلى وقتٍ لِلنُّضجِ كما في الدنيا تَنْقَطِعُ مِنْ وقتِ خُروجِها إلى وقتِ نُضجِها، وبَعدَ النُّضجِ والإدراكِ تَنْقَطِعُ إلى وقتِ وجودِ حَمْلٍ آخَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي لا آفةَ بِها فَتَصيرَ[9] مَمْنوعةً كفواكِهِ الدنيا؛ إذْ هي تُمْنَعُ بآفةٍ تُصيبُها.

وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عَوسَجَةَ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي لا تُحْبَسُ كما يُمْنَعُ في الدنيا بعضٌ مِنْ بعضٍ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي مَرْفوعةِ القَدْرِ والمَنْزِلةِ، أو مرفوعةٍ بِنَفْسِها في القِيامةِ، وهو ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

وقيل: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ النساءُ؛ يُقالُ: امْرَأةٌ فَريشٌ، ونساءٌ فُرُشٌ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ قالَ الأصَمُّ وغَيرُهُ: إنَّ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الآيتان: ٢٢و٢٣] كأنهُ قالَهُ[10] على إثْرِهِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: إنهُ لمّا ذَكَرَ على إثْرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ دلَّ أنَّ الفُرُشَ كِنايةٌ عنِ الأزواجِ؛ إذْ هُنَّ اللواتي[11] تُفْرَشُ، وواحدةُ الفُرُشِ فَريشٌ.

وقيلَ: قدِ اسْتَفْرَشَتِ الناقةُ إذا اشْتَهَتِ الجَمَلَ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ هذا على صِلَةِ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ﴿كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ إذْ ذَكَرَ قولَهُ[12]: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على [إثْرِ ذِكْرِ][13] المجالِسِ والزوجاتِ، فلا[14] مَعْنَى لِذِكْرِهِنَّ في هذا المَوضِعِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي أنْشأناهُنَّ في الإبْتِداءِ على هيئةِ الإسْتِمْتاعِ، ليسَ كَنِساءِ الدنيا، وهو كما ذَكَرْنا في قولِهِ في صِفَةِ الفواكِهِ أنها غَيرُ مَقْطوعةٍ ولا مَمْنوعةٍ، أي أنها تَخْرُجُ أوّلَ ما تَخْرُجُ [مُهَيَّئَةً لِلأكلِ][15] لا كَثِمارِ الدنيا.

---

(١) في الأصل وم: يصف. (٢) في الأصل وم: فيها. (٣) في الأصل وم: شيء أثقل. (٤) في الأصل وم: فيها. (٥) في الأصل وم: بالانصباب. (٦) في الأصل وم: وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: اللؤلؤ. (١٢) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١٣) في الأصل وم: ذَكَرَ إثر. (١٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: على هيئة الأكل.

الآيات ٣٦ ـ ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾][1] قيلَ: أي خَلَقْناهُنَّ كذلكَ، ويَكُنَّ أبداً كذلكَ كلّما ذهَبَتْ عُذْرتُهُنَّ عادَتْ، فَيَكُنَّ أبداً على تلكَ اللذةِ لأنهنَّ أُنْشِئْنَ[2] هكذا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ عامّةُ أهْلِ التأويلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي جعَلْنا[3] نساءَ الدنيا مِنَ الثَّيِّباتِ والأبكارِ [وخلَقْنا نساءَ الجنةِ][4] خَلْقاً جديداً سِوَى الخَلْقِ الذي كانَ في الدنيا ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ وكُنَّ في الدنيا عَجائِزَ وثَيِّباتٍ.

ورُوِي على ذلكَ خَبَرٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ إنْ ثَبَتَ، أنهُ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ «الثَّيِّبُ والبِكْرُ» [الطبري في تفسيره ٢٧/ ١٨٥]. وفي بعضِ الأخبارِ [أنهُ][5] قالَ: «إنَّ العجوزَ لا تَدْخُلُ الجنةَ» [المرتضي الزبيدي في الإتحاف ٧/ ٤٩٩] في[6] قولِهِ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

ومَنْ قالَ: هو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ فهنَّ[7] لَسْنَ كَنِساءِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ بِجَزْمِ الراءِ مُخَفَّفَةً [وضمِّها. وكانَ][8] أبو عبيدٍ يَقْرَؤها بالضَّمِّ لوجهَينِ:

أحَدُهما: التَّفْخيمُ، على[9] أنها أقْيَسُ في العربيةِ لأنَّ واحِدَتَها[10] عَرُوبٌ، وهو مِثْلُ صَبورٍ وصُبُرٍ وشَكورٍ وشُكُرٍ.

وأمّا الوجهُ الآخَرُ التَّخفيفُ فقيلَ في تأويلِهِ: عُرْباً عاشِقاتٍ لأزواجِهِنَّ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: العَروبُ المَرِحةُ، وقالَ القُتَبيُّ: هي المُتَحَبِّبَةُ إلى زَوجِها، وقيلَ: الغَنِجاتُ إلى أزواجِهِنَّ. وقيلَ: إنَّ أهلَ مكةَ يُسَمُّونَها العَرِبَةَ، وأهلَ المدينةِ غَنِجَةً، وأهلَ العراقِ الشَّكِلَةَ.

وقالَ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: ﴿عُرُبًا﴾ ضَبِعاتٍ، والضَّبِعاتُ هي التي تَعَرَّضُ للزَّوجِ مِنَ الشَّهْوةِ، ويُقالُ للناقةِ إذا اشْتَهَتِ الضِّرابَ: ضَبِعَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي مُسْتَوياتِ الأسنانِ. وقالَ القُتَبيُّ: التِّرْبُ واللِّدَةُ واحدةٌ، وهو بالفارِسِيَّةِ هَمْراه. وأصلُهُ أنهنَّ اسْتَسْنَنَّ بلا وِلادٍ يَتَقَدَّمُ، ويَتَأَخَّرُ، كما كنَّ يَتَفاضَلْنَ في الأسنانِ، فَصِرْنَ في الآخِرةِ أتراباً. ثم قالَ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ أنهُ يُخَرَّجُ على الوجهَينِ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [عنِ النَّبيِّ][11] ﷺ أنهُ قالَ: «هما جميعاً مِنْ أُمَّتي» [الطبري في تفسيره ٢٧/ ١٩١] وكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ ذَكَرَ في أصحابِ اليَمينِ ما ذَكَرَ مِنَ التَّعَجُّبِ، وأخبَرَ عمّا يُكرِمُهُمْ، ويُعطيهِمْ مِنْ أنواعِ النِّعَمِ، وذَكَرَ أصحابَ الشمالِ، وذَكَرَ على إثْرِهِ ما أوعَدَ لهمْ مِنَ العذابِ بقولِهِ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ الآيات[12].

ثم ذَكَرَ في أوّلِ السورةِ أصحابَ الميمنةِ والمَشأمةِ، ولم يذكُرْ لهمُ الثوابَ ولا العذابَ؛ وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ في ذِكْرِ المَيْمَنَةِ والمَشأمةِ دلالةَ ما لَهُمْ، لأنَّ المَيْمَنَةَ مِنَ اليُمْنِ، والمَشأمَةَ مِنَ الشُّؤمِ. ففي ذِكْرِ ذلكَ بيانُ [ما][13] لهمْ مِنَ الكراماتِ وما لأولئكَ مِنَ العقوباتِ.

وليسَ/ ٥٤٦ ـ أ/ في ذِكْرِ اليَمينِ والشمالِ بَيانُ العقابِ، فَذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ لِيُعْرَفَ ما لِكُلِّ فريقٍ مِنَ الجزاءِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أمسين. (٣) في الأصل وم: خلقنا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: ومضمومة وقال، انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٦٧. (٩) في الأصل وم: والثاني. (١٠) في الأصل وم: واحدها. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: الآية. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ قيلَ: السَّمومُ هو فَحِيحُ جَهَنَّمَ، والحَميم هو الذي انْتَهى حَرُّهُ غايتَهُ. وقيلَ: السَّمومُ هو حَرُّ النارِ، وقيلَ: هو ريحٌ باردةٌ، وقيلَ: ريحٌ حارّةٌ.

وأصلُهُ أنهُ لما أصابَهُمُ السَّمومُ اشتَدَّ بهمُ العَطَشُ. فعندَ ذلكَ يَشْرَبونَ الحَميمَ رَجاءَ أنْ يَسْكُنَ بهِ عطشُهُمْ، ويَذْهَبَ ذلكَ عنهمْ، فلا يَزدادُ لهمْ بذلكَ إلّا شِدَّةُ عطشٍ على ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ﴾ قيلَ: هو دُخانٌ أسْوَدُ، وقالَ بعضُهُمْ: اليَحْمومُ هو مِنَ الحَميمِ، وقالَ أبو بكرٍ: أي ظلٌّ مِنْ بُخارٍ، يَجْعَلُ اليَحْمومَ بُخاراً. ثم الظِّلُّ الذي ذَكَرَ ههنا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هو الظِّلَّ الذي ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿انطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقولِهِ: ﴿ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٦]. وقيلَ: هو السُّرادِقُ مِنَ النارِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ لأنهُ مِنَ النارِ ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ لأنهُ لِهَوانِهِمْ ليسَ للكَرامةِ. وقالَ الحَسَنُ وقتادةُ: لا باردِ المَنْزِلِ ولا كريمِ المَنْظَرِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي هذا الجَزاءُ لهمْ لأنهمْ كانوا يقولونَ في الدنيا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبإ: ٣٥] وإنما قالَ ذلكَ مُتْرَفوهُمْ دونَ السَّفَلَةِ والأتباعِ [لِرُسُلِهِ ﷺ][1] ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبإ: ٣٤].

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اختَلَفوا فيهِ. قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي على الإثمِ العظيمِ، وهو الشِّرْكُ. وقيلَ: الحِنْثُ العظيمُ: [الحِنْثُ هو الكبائرُ، والعظيمُ هو الإصرارُ والإدامةُ][2].

وقالَ بعضُهُمْ: يُصِرّونَ على أنفسِهِمْ: يُقْسِمونَ، ويَحْنَثونَ فيهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] أقسَموا أنهمْ لا يُبْعَثونَ، فَحَنِثوا في ذلكَ، لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهم يُبْعَثونَ حينَ[3] قالَ: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قَسَمُهُمْ ما ذَكَرَ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩] وقولَهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] وقد جاءَهُمُ النذيرُ، فلم يكونوا أهدَى، وجاءَتْهُمُ الآياتُ، فلم يؤمنوا بها، فَحَنِثوا فيها.

فإنْ كانَ قَسَمُهُمْ بأنهمْ لا يُبْعَثونَ حَنِثوا حينَ فَراغِهِمْ مِنَ اليَمينِ لأنهمْ أيِسوا منْ ذلكَ.

وفيهِ دلالةُ صِحَّةِ مَذْهبِ أصحابِنا: إنَّ مَنْ حَلَفَ يَلْمِسُ السماءَ فإنهُ[4] يَحْنَثُ عندَ فراغِهِ مِنَ اليَمينِ.

الآيتان ٤٧ و٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قالوا هذا على الاسْتِهزاءِ والاسْتِبعادِ لِلْبَعْثِ.

الآيتان ٤٩ و٥٠ ألا تَرى أنهُ أجابَهُمْ، فقالَ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؟ ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ يَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي يَجْمَعُ الأوّلينَ والآخِرينَ في التَّخْليقِ، أي جَمَعَ بينَ الأوّلينَ والآخِرينَ في التخليقِ حينَ[5] خَلَقَ الآخِرينَ على إثْرِ الأوّلينَ، وإلّا لم يكونوا مَخْلوقينَ بَعْدُ.

والثاني: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ في الأرضِ أي في القبورِ ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بآياتِ اللهِ الدّالّةِ على توحيدِهِ ورسلِهِ والبَعْثِ.

---

(١) في الأصل وم: لقوله تعالى. (٢) في الأصل وم: الكبائر والإصرار هو الإدامة. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أنه.
(٥) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أخبَرَ أنَّ المُكَذِّبينَ يكونونَ آكلينَ مِنَ الشَّجرِ الزَّقومِ، فيكونُ كما أخبَرَ.

ثم شجرةُ الزَّقُومِ هي التي ذَكَرَ أنها ﴿تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤و٦٥]. وقد ذَكَرْنا تأويلَهُ في مَوضِعِهِ.

الآية ٥٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ يُخبِرُ أنْ ليسَ لهمْ ممّا يأكلونَ، ويَشرَبونَ إلّا امْتِلاءُ البُطونِ؛ لا يَدْفَعُ عنهمْ ما يأكلونَ مِنَ الزَّقُّومِ وغَيرِهِ الجوعَ وما يَشرَبونَ مِنَ الحَميمِ العَطَشَ عنهمْ [بل][1] يَزدادُ لهمْ بذلكَ [جوعٌ وعَطَشٌ][2] على ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٤و٥٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قيلَ: الهيمُ هو إبلٌ يأخُذُ الداءُ، يَشرَبُ حتى يَملأَ البَطنَ، فلا يُرْوَى أبداً للداءِ الذي فيهِ. فَعَلَى ذلِكَ أهلُ النارِ يَشرَبونَ، ويأكلونَ، حتى تَمتَلِئَ بُطونُهُمْ، فلا يُرْوَونَ، ولا يَشبَعونَ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: الهيمُ الإبِلُ الذي يَهيمُ في الأرضِ، ولا يَرِدُ الماءَ أياماً، ثم إذا أُورِدَ الماءَ يَشرَبُ، فَيَمتَلِئُ بطنُهُ حتى يَهلَكَ لِامتِلاءِ البطنِ، وهو قولُ الأصمِّ.

الآية ٥٦ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي الذينَ ذَكَرَ [هذا][3] غِذاؤهُمْ ورِزقُهُمْ يومَ الدينِ.

الآية ٥٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ هذا يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: لمّا صَدَّقْتُموني ورُسُلي بأنا خَلَقْناكُمْ في الِابْتِداءِ، فهلّا صَدَّقْتُمونا ورسُلَنا بأنّا نُعيدُكُمْ تارةً أُخرَى؟ إذِ الأعجوبةُ في ابْتِداءِ الأشياءِ أكثَرُ منها في الإعادةِ، وهو ما قالَ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

والثاني: إنكمْ صَدَّقْتُموهُ ورسلَهُ أنهُ أنشأكُمْ في بُطونِ أمهاتِكُمْ في الظُّلُماتِ الثلاثِ، ونَقَلَكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، لا يَحتَمِلُ أنْ يَترُكَكُمْ سُدًى بلا عاقبةٍ، فيكونُ فيهِ إثباتُ البَعثِ؛ إذْ لولا ذلكَ لَكانَ خَلْقُهُمْ وتحويلُهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ عَبَثاً كما قالَ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٥٨ و٥٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قد عَلِموا أنهمْ لم يَخلُقوا ما يُمنونَ، ولا خَلَقوا أنفُسَهُمْ، فيقولُ، واللهُ أعلَمُ: قد أقرَرْتُمْ أنكُمْ لم تَخلُقوا [ماءَ مَنِيَّتِكُمْ][4] ولا تَملِكونَ ذلكَ؛ فقد عَرَفْتُمْ أنَّ اللهَ هو خالِقُكُمْ وخالقُ ذلكَ كلِّهِ، وهو المالكُ لذلكَ.

فإذا عَرَفْتُمْ ذلكَ، وأنتمْ أهلُ تَمييزٍ وأكمَلُ عَقلاً مِنْ غَيرِكُمْ، فإذا لم تَملِكوا خَلْقَ أنفسِكُمْ فالذينَ هُمْ دونَكُمْ أحقُّ [ألّا يَملِكوا خَلْقَ أنفسِهِمْ[5]][6] وخَلْقَ ما ذَكَرَ، ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى هو خالقُ ذلكَ كلِّهِ، فكيفَ عَبَدْتُمْ غَيرَهُ، وصَرَفْتُمُ الألوهيَّةَ إلى غَيرِهِ؟

الآية ٦٠ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُهما: أنهُ لمّا كانَ هو الذي خَلَقَكُمْ وما ذَكَرَ، ثم قَدَّرَ بَينَكُمُ الموتَ، وفيكُمُ الوَليُّ لهُ والعَدُوُّ، وقد سَوَّى في الدنيا بينَ الوَليِّ والعَدُوِّ، وفي الحِكمَةِ التَّفريقُ بَينَهما، دلَّ أنَّ هنالكَ داراً أُخرَى تُفَرِّقُ بينَهما.

والثاني: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي المُعَجَّلَ والمُؤَجَّلَ، أي لم يَجعَلْ مَوتَ جميعِكُمْ في وقْتٍ واحدٍ، بل جَعَلَ مُعَجَّلاً ومُؤَجَّلاً في الأصلِ، وقَدَّرَ أنْ تكونَ مُدَّةُ أجلِ هذا أكثَرَ مِنْ مُدَّةِ أجلِ الآخَرِ.

[والثالثُ: قيلَ][7]: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي سَوَّينا بينَكُمْ في المَوتِ بينَ عزيزِكُمْ وذليلِكُمْ ورفيعِكُمْ ووَضيعِكُمْ، لا يَسلَمُ أحدٌ منهُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: جوعاً وعطشاً. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ما أمنيتهم. (٥) في م: أنفسكم.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: وقيل.

ويَحتمِلُ وجهاً آخرَ، هو أولَى، وهو أنهُ لمّا قَدَّرَ بينَكُمُ الموتَ، وكلُّ واحدٍ يَكْرَهُ الموتَ، ثم لم تَملِكوا دفعَ المَوتِ عنْ أنفسِكُمْ، دلَّ أنَّ ههنا قاهراً قادراً يَجِبُ القولُ بوجودِهِ والانْقِيادِ لِأوامِرِهِ ونَواهيهِ.

الآية ٦١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي وما نحنُ بِمَغلوبينَ في تبديلِ أمثالِكُمْ، أو يقولُ: وما نحنُ بِعاجِزينَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ تبديلِكُمْ إلى صورةٍ ذميمةٍ قبيحةٍ كصورةِ القِرَدةِ والخنازيرِ ونَحْوِها.

وقيلَ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في أيِّ خَلْقٍ شاءَ، وهو أقرَبُ مِنَ الأوَّلِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في ظلماتٍ ثلاثٍ، الذي لا يَبْلغُهُ عِلْمُ البَشَرِ ولا تدبيرُ الحكماءِ إلى أنْ يَبْلغوا ما بَلَغوا. فَمَنْ مَلَكَ ذلكَ فلا يُحْتَمَلُ أن يَعْجَزَ عنْ بَعْثٍ أو غيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فهو على ما ذَكَرْنا أنكمْ لمّا عَرَفْتُمْ أنهُ هو الذي أنْشَأكُمُ النَّشأةَ الأولَى لا عَنْ أصلٍ سَبَقَ لا يُحْتَمَلُ أنْ يَعْجزَ عنِ النشأةِ الآخِرةِ لأنها مِثْلُ الأولَى في زَعمِكُمْ أسْهَلُ وأهْوَنَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يُخرَّجُ على ما ذَكَرْنا: هل تَذْكُرونَ وحدانيّتَهُ / ٥٤٦ ـ ب/ وربوبيّتَهُ؟ أو هلّا تَذْكُرونَ أنهُ قادرٌ على البعثِ؟ أو ألَا تَذْكُرونَ أنهُ، هو المُستوجِبُ لِشُكرِ ما أنْعَمَ عليكُمْ؟ أو هلّا تَذْكُرونَ نِعَمَهُ وإحسانَهُ؟ ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ: النشأةُ الأولَى ههنا نَشأةُ آدمَ ﷺ وخَلْقُهُ، أي عَلِمْتُمْ نشأتَهُ لا مِنْ أصلٍ ولا احْتِذاءٍ لِغَيرٍ. فَمَنْ قَدَرَ على ذلكَ فهو على النَّشأةِ الأُخرَى قادرٌ، وعلى تقديرِ وَهْمِكُمْ أقْدَرُ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٦٣و٦٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][1] جائزٌ أنْ يكونَ هذا صلةَ ما تَقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أأنتُمْ تَخْلُقونَ الزرعَ، أم نحنُ الخالِقونَ لهُ؟ فيكونُ فيهِ الذي ذَكَرْنا في ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أأنتُمْ جَعلْتُمُ الحراثةَ بحيثُ يَنْبُتُ أم نحنُ الجاعلونَ بحيثُ يَنْبُتُ؟

الآية ٦٥ ثم قالَ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ أي يابساً، قالَ أبو عَوسَجةَ: أي مُتكَسِّراً، لِيُذَكِّرَ نِعَمَهُ التي أنْعَمَها عليهِمْ؛ يقولُ: هو الذي جَعلَهُ بحيثُ يُنْتَفَعُ [بهِ][2] ويَبْقَى. ولو شاءَ لَجَعلَهُ بحيثُ لا يُنْتَفَعُ بِهِ، أو يُخْبِرُ عنْ قدرتِهِ أنهُ قادرٌ على الإنباتِ وعلى الإهلاكِ. فَعَلَى ذلكَ [هو][3] قادرٌ على الإنشاءِ والإعادةِ.

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أأنتُمْ تُنْبِتونَهُ أم نحنُ المُنْبِتونَ. وأصلُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ قيلَ: تَعجَبونَ، وقيلَ: تَنْدَمونَ، وهي لغةُ عُكْلٍ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: أي صِرْتُمْ تتنعَّمونَ، وتَتلذَّذونَ، كما يقولُ الرجلُ لآخَرَ: لو أخذْتُ مالكَ، أو سَلَبْتُهُ، صِرْتُ غنيّاً، أوِ استَغْنَيْتُ. ولكنْ لا نَدري أيقالُ هذا أم لا؟ فإنْ كانَ يُقالُ ذلكَ فَيصيرُ تقديرُهُ كأنهُ يَتَلذَّذُ بِكثرةِ ما يَذْكُرُهُ في كلِّ وقتٍ لأنَّ الرجلَ إذا ذَهَبَ مالُهُ لا يزالُ يَذْكُرُهُ كالمُتَلَذِّذِ بِهِ والمُتَنَعِّمِ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تَتلاوَمونَ، وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: فَصِرْتُمْ تَفَكَّهونَ، وقولُهُ: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ يُسْتَعْمَلُ في زمانِ النهارِ دونَ الليلِ.

الآيتان ٦٦و٦٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي فَظَلْتُمْ تقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ثم اخْتُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: إنّا لَمُعذَّبونَ لِقولِهِ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] وقيلَ: إنّا لَمَذمُومونَ المُلْقَونَ لِلشَّرِّ، أو نَحوُ ذلكَ. لكنهُ مِنَ الغُرْمِ الظاهِرِ لأنَّ مُرْتَجَعَهُ خُسْرانٌ في مالِهِ أو هلاكٌ تَلْحَقُهُ الغرامةُ لِما يَحْتاجُ إلى غيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

وأصلُهُ: كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لو جَعَلَهُ حُطاماً يابساً [لا][1] تنتَفِعونَ بهِ ظَلْتُم تقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قيلَ: المَحْرومُ، هو الذي يُنْتَفَى عنهُ المالُ أو ما يَنْتَفِعُ بهِ. وقالَ بعضُهُمْ: مَحْدودونَ، وقيلَ: مُحارَفونَ. لكنَّ المَحْرومَ ظاهرٌ، لا يَحْتاجُ إلى التفسيرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٦٨و٦٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ يُذَكِّرُ نِعمَةُ عليهِمْ بما أنْزَلَ إليهِمْ مِنَ الماءِ العَذْبِ، فَيشْرَبونَ.

الآية ٧٠ وأخبَرَ أنهُ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ مالحاً يُهْلِكُ[2] الأنفسَ، ولا تقومُ بهِ[3]. وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الآية: ٦٥] حتى يَخْرُجَ مِنْ أنْ يكونَ، غذاءً فيهِ لكنْ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ أبْقَى لهمْ ذلكَ أغذيةً وأشربةً. ولذلكَ قالَ في آخِرِهِ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي هلّا تشكُرونَ [ما][4] أنعَمَ عليكُمْ؟

ثم هذهِ الآياتِ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ في أفعالِ العبادِ حينَ[5] قالَ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَـٰلِقُونَ﴾ [الآيتان: ٥٨و٥٩] والإمناءُ، هو فِعْلُ العبدِ؛ إذْ هو دَفْقُ المَنِيِّ. ثم أخبَرَ أنهُ خالقُ ذلكَ حينَ[6] قالَ: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ وكذلكَ الحِراثةُ والزراعةُ فِعْلُ العبادِ، وأخبَرَ أنهُ خالقُ ذلكَ. وفي[7] قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الآية: ٦٥] وقولِهِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ نَقْضُ قولِهِمْ في الأصلَحِ.

فإنهُ يُقالُ لهمْ: إنَّ قولَهُ: ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ فَجَعَلَهُ كذا، ثم لم يَفْعَلْ ذلكَ، فقد تَرَكَ الأصلَحَ، أو يكونُ الأصلَحُ لهمْ في إبقاءِ ذلكَ، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: لو شاءَ لَجَعَلَ ما هو حقٌّ وعدلٌ جَوراً، ولا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ أنْ يَجورَ لَجارَ. فَعَلَى أيِّ الوجهَينِ حُمِلَ كانَ في ذلكَ نَقْضُ مذهبِهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الآية: ٦٠] نَقْضُ قولِهِمْ في أنَّ المَقْتولَ لم يَمُتْ بأجلِهِ، لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنهُ قَدَّرَ الموتَ بَينَهُمْ، وعندَهُمْ أنَّ مَنْ قُتِلَ لم يَمُتْ بما قَدَّرَ اللهُ تعالى، ولم يَمُتْ بأجلِهِ، وقد أخبَرَ أنهُ هو قَدَّرَ ذلكَ، وأنهُ لا يُسْبَقُ في ذلكَ لِقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

ولو كانَ على ما تقولُهُ المعتزلةُ: يموتُ قَبْلَ أجلِهِ فقد قالوا: إنهُ لم يُقَدِّرْ لهُ الموتُ، وإنَّ القاتلَ قد سَبَقَهُ، ومَنَعَهُ عنْ وفاءِ ما جَعَلَ لهُ مِنَ الأجلِ والبلوغِ إلى ذلكَ الأجلِ الذي جُعِلَ لهُ، وكَذَّبَهُ في خَبَرِهِ أنهُ يَبْلُغُ إلى ذلكَ الأجلِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ المُزْنِ:

قالَ عامَّةُ أهْلِ التأويلِ والأدبِ: المُزْنُ، هو السحابُ. وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: المُزْنُ، هو الماءُ العَذْبُ فَعَلَى قولِهِ يكونُ حرفُ ﴿مِنَ﴾ صِلَةً؛ كأنهُ قالَ: أأنتمْ أنزلتُمُ المُزْنَ؟.

والظاهرُ ما ذهبَ إليهِ أولئكَ أنهُ يُنْزِلُ مِنَ السحابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿تُورُونَ﴾ توقِدونَ. وقالَ بعضُهُمْ: تَقْدَحونَ؛ يُقالُ: قَدَحْتُ النارَ، وأوريتُها، أي أخرَجتُها؛ يُقالُ: وَرَتِ النارُ تَرَى وَرْياً، فهي وارِيةٌ، أي أضاءَتْ.

الآية ٧٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ﴾ قيلَ: هي الشجرةُ التي تُجْعَلُ حطباً، وتُوقَدُ بها النارُ، وتُحْرَقُ. وقيلَ: هي الشجرةُ التي فيها النارُ التي تُتَّخَذُ منها الزُّنودُ. والأوّلُ أقربُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٣ وقولُهُ تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التأويلِ: أي جَعَلْنا هذهِ النارَ تَذْكِرَةً للنارِ الكُبْرَى، وهي نارُ الآخِرَةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا﴾ أي هذهِ النِّعَمَ الحاضرةَ ﴿تَذْكِرَةً﴾ لِلنِّعَمِ المَوعودةِ، أو جَعَلْنا هذهِ الشدائدَ والبلايا في الدنيا تَذْكِرَةً لِما أوعَدْنا[8] في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ادرج قبلها في الأصل وم: ما. (٣) في الأصل وم: له. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: أوعدها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ قالَ بعضُ أهْلِ التأويلِ: أي متاعاً لِلمُسافرينَ؛ خَصَّ المُسافرينَ لِنُزولِهِمُ القِواءَ، وهو القَفْرُ، وهو قولُ القُتَبِيِّ. وقيلَ: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ المُسْتَمْتِعِينَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: المُقْوِي الذي لا زادَ لهُ. وقيلَ: الذي يَقَعُ في أرضٍ قِواءٍ، والقِواءُ [الأرضُ][1] الخاليةُ مِنَ الناسِ.

وقالَ أبو عُبَيدٍ: [لا][2] أرَى الذي لا زادَ لهُ معهُ [أولَى بالنارِ ولا أحْوَجَ إليها مِنَ الذي معهُ الزادُ][3] بل صاحبُ الزادِ إليها أحْوَجُ. ويُقالُ: رجلٌ مُقْوٍ إذا كانَتْ معهُ مَطِيَّةٌ قويَّةٌ.

الآية ٧٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾][4].

الآيتان ٧٥ و٧٦ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ عن ابنِ مَسْعودٍ وإبراهيمَ أنهما قَرَآا بِمَوقِعِ على الوُحْدانِ[5]. وعنِ الحَسَنِ أنهُ قرأها ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ على الجَمْعِ، وبهِ أخَذَ أبو عُبَيدٍ، وقالَ: إنَّ بعضَ أهْلِ التأويلِ يَتأوَّلونَها على مَنازِلِ القرآنِ، وبعضَهُمْ على مَغائبِ الكواكبِ[6] ومَساقِطِها.

وأيُّ الوَجْهَينِ كانَ فالجَمْعُ فيهِ أولَى مِنَ الوُحْدانِ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ منهم مَنْ قالَ: إنَّ حَرْفَ لا ههنا صِلَةٌ؛ كأنهُ قالَ: أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النجومِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ كقولِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] ونَحْوُهُ يكونُ على الصِّلَةِ، والزيادةُ على التوكيدِ.

ومنهم مَنْ قالَ على إثْباتِ حَرْفِ لا. لكنهُ جَعَلَ ذِكْرَهُ لِرَدِّ قولٍ كانَ مِنْ أولئكَ الكَفَرَةِ ولِدَفْعِ مُنازَعةٍ كانَتْ منهم، لكنْ لم يَذْكُرْ ذلكَ لِما كانَتْ مَعْروفةً بَينَهُمْ، فَرَدَّ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَلَآ﴾ ثم ابْتَدَأَ القَسَمَ بقولِهِ: ﴿أُقْسِمُ﴾ كأنهُ قالَ: أُقْسِمُ قَسَماً بِمَواقِعِ النجومِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ على الوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما:

[أحَدُهما: ما][7] قالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي بمواقعِ نُزولِ القرآنِ نُجوماً:

دليلُهُ ما ذَكَرَ على إثْرِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الآيتان: ٧٧و٧٨].

والثاني: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ المَعْروفةِ على ما قالَ بعضُهُمْ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ منهُ [مَغائبَ الكواكبِ][8] فالقسمُ بها يكونُ على وجوهٍ:

أحَدُها: لِعِظَمِ مَواقِعِ النجومِ ومَحَلِّها في القلوبِ وجَليلِ قَدْرِها عندَ الناسِ حتى يَجْعَلَها بعضُ/٥٤٧ ـ أ/ المُلْحِدَةِ مُدَبِّرَةَ الخَلْقِ.

[والثاني][9]: لِكَثْرَةِ مَنافِعِ الخَلْقِ بها مِنْ مَعْرِفةِ [الطُّرُقِ][10] بها والسُّبُلِ ومَعْرِفةِ كَثْرَةِ الأنداءِ والمياهِ ومَعْرِفةِ الأوقاتِ والأزمِنةِ وغَيرِها مِمّا يَكْثُرُ ذِكْرُها.

[والثالثُ][11]: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي بِمَساقِطِها؛ وفي ذلكَ إخبارٌ وإنباءٌ عن شدةِ طاعةِ النجومِ وتَسْخيرِهِ إياها لِلْخَلْقِ حتى[12] تَمْلِكَ قَطْعَ مَسيرةِ خَمْسِ مِئةِ [عامٍ][13] بيومٍ وليلةٍ واحدةٍ مالا يُتَوَهَّمُ قَطْعُ ذلكَ مِنْ سِواها مِنْ ذَوي الأرواحِ والأجْنِحَةِ التي هي أسْرَعُ لِقَطْعِ المَسافةِ والوُصولِ إلى مَقاصِدِها، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ أهْلُ التأويلِ بأجْمَعِهِمْ: إنَّ القَسَمَ بها مِنَ اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ مِنَ الرسولِ ﷺ لكنْ أضافَ إلى

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٧٣. (٦) في الأصل وم: الكوكب. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الكوكب. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: أو. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

نفسِهِ تَعليماً منهُ لرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُقْسِمَ بربِّ هذهِ الأشياءِ إذا [لم يَقَع][1] التّنازُعُ بَينَهُمْ وبينَ رسولِ اللهِ تعالى لِيُقْسِمَ، وإنما وَضَعَ القَسَمَ لتأكيدِ الخَبَرِ عندَ الإنكارِ والتّنازُعِ في ما بَينَهُمْ وبينَ الرسلِ ﷺ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] ليسَ مِنَ الرسولِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ الربُّ ﷻ هو المُقْسِمَ، ويقولَ: ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ وظاهِرُهُ[2] أنْ يكونَ الرسولُ هو المُقْسِمَ بها. فَعَلَى ذلِكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ: إنَّ الأقسامَ التي جَرَى ذِكْرُها في القرآنِ بالأشياءِ التي ذَكَرَها لو لم يَكُنِ القَسَمُ بها لكانَتْ تلكَ الأشياءُ تُؤكِّدُ، وتُوجِبُ القَسَمَ؛ وتؤكِّدُ أنْ لو وَقَعَ بها القَسَمُ، لأنَّ الأقسامَ فيهِ إنما جَرَى أكثَرُها في إيجابِ البعثِ والتوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ، ونَحْوُها وما جَرَى ذِكْرُها، لو لم يكنِ القَسَمُ لها لكانَ يُوجِبُ ما يُوجِبُ القَسَمَ، لأنَّ في هذهِ الأشياءِ دلالاتٍ على البَعْثِ والتوحيدِ والرسالةِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٧٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ على قولِ مَنْ يَجْعَلُ القَسَمَ بالقرآنِ، فهو ظاهرٌ أنْ يقولَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أيِ الذي أقْسَمَ بهِ، وأنْزَلَهُ نَحْوَ ما هو كريمٌ.

وعلى التأويلِ الذي يَجْعَلُ القَسَمَ بالنجومِ المَعْروفةِ يَجْعَلُ قولَهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ ابْتِداءَ ذِكْرٍ منهُ لهُ.

ثم تَسْمِيَةُ القرآنِ كريماً يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: وَصَفَهُ بالكَرَمِ لِما هو مَحَلٌّ لِقَضاءِ الحوائجِ الدُّنْيَوِيّةِ والأُخْرَوِيّةِ. وفي العُرْفِ الكريمُ: مَنْ نَصَبَ نفسَهُ وأعَدَّها لِقَضاءِ حوائجِ الخَلْقِ والقِيامِ لإنْجاحِها.

[والثاني][3]: وَصَفَهُ بالكَرَمِ لأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ كَرُمَ، وشَرُفَ.

[والثالثُ:][4] كريمٌ عندَ اللهِ، عظيمٌ، لذلكَ وَصَفَهُ بالكَرَمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ قالَ أهْلُ التأويلِ: في اللَّوحِ المَحْفوظِ؛ سَمّاهُ مَكْنوناً لأنهُ مَسْتُورٌ عن خَلْقِهِ عندَ اللهِ.

الآية ٧٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يقولُ: لا يَمَسُّ ذلكَ إلّا المُطَهَّرونَ. وقالَ بعضُهُمْ: هُمُ الملائكةُ الذين يَجري ذلكَ على أيديهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ ﴿كِرَامِۢ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٥و١٦]. طَهُروا مِنَ الذنوبِ والآثامِ.

وكانَ ذَكَرَ هذا لِيَأمَنوا مِنْ تَحْريفِ هذا الكتابِ وتبديلِهِ.

الآية ٨٠ وهو ما قالَ على إثْرِهِ: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي إنهُ مكنونٌ عَمَّنْ يُحَرِّفُهُ، ويُبَدِّلُهُ، وإنهُ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ مِنَ الذنوبِ، والتَّحْريفُ إثْمٌ وذنبٌ [وإنهُ][5] مِنْ ربِّ العالَمينَ. وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخْرَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣و١٩٤] وقالَ [في آيةٍ أُخرَى][6]: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

أخْبَرَ أنَّ الذي نَزَلَ بهِ مِنَ السماءِ أمينٌ، لا يكونُ منهُ التَّحْريفُ ولا التَّبديلُ، وأنهُ قَوِيٌّ، ولا يَقْدِرُ أحدٌ مِنْ جِنٍّ أو إنْسٍ أخْذَهُ مِنْ يدِهِ ولا تَحْريفَهُ.

ثم تَمامُ الأمْنِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وَكَلَ حِفْظَهُ إلى نفسِهِ لا إلى أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فصارَ مَحْفوظاً مِنَ التَّبديلِ والتَّحْريفِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أفبهذا القرآنِ أنتمْ كافرونَ؟

الآية ٨٢ [وقولُهُ تعالى:][7] ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ اللهُ تعالى جَعَلَ هذا القرآنَ حياةً للدينِ وقِواماً، والرزقَ حياةً للأبدانِ وما بِهِ قِوامُها، فَكَذَّبوا الأمْرَينِ جميعاً ما بهِ حياةُ الدينِ وحياةُ الأبدانِ جميعاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بظاهره. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

ثم يُخَرَّجُ ما ذَكَرَ مِنْ تكذيبِ الرزقِ على وجوهٍ:

أحَدُها: ما ذَكَرَ بعضُ الناسِ [مِنْ][1] أهْلِ التأويلِ: إنهمْ كانوا يقولونَ: رُزِقْنا بِنَوءِ كذا؛ كانوا يَنْسُبونَ الرزقَ [إلى][2] ذلكَ النَّوءِ. فهذا يَرُدُّ[3] على قولِ المُنَجِّمَةِ: إنَّ النجومَ هيَ مُدَبِّرَةُ العالَمِ وأرزاقِهِمْ، لا يَجْعَلونَ للهِ في ذلكَ تدبيراً.

وأمّا مَنْ يَنْسُبُ الرزقَ إلى اللهِ تعالى، ويقولُ: رَزَقَنا اللهُ تعالى بِنَوءِ كذا فليسَ في ذلكَ تكذيبُهُ، إنما يُخَرَّجُ ذِكْرُ النَّوءِ [على][4] ذِكْرِ سَبَبٍ مِنَ الأسبابِ التي يَرْزُقُ اللهُ تعالى بها، وكذلكَ مَنْ رَأى الرزقَ مِنَ الأسبابِ خاصَّةً.

وأمّا مَنْ يقولُ: رَزَقَنا اللهُ تعالى بِسَبَبِ كذا فذلكَ جائزٌ القولُ بهِ.

[والثاني: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي تَجْعَلونَ شكرَ الرزقِ التكذيبَ. وبهِ قالَ أبو عُبَيدَةَ.

[والثالثُ:][6] جائزٌ أنْ يكونَ تكذيبُهُمُ الرزقَ صَرْفَ تَسْمِيَةِ الألوهيَّةِ إلى غَيرِ الذي رزقَهُمْ والعبادةِ لِغَيرِ المُسْتَحِقِّ لها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بِئْسما أخَذَ القومُ لأنفسِهِمْ حتى لم يُرْزَقوا مِنْ كتابِ اللهِ تعالى إلّا التكذيبَ؛ يقولُ: صار حَظُّكُمْ مِنَ القرآنِ التكذيبَ، ويَجْعَلُ هذهِ الآيةَ [مَعَ الآيةِ الأولى][7]: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ في هذهِ الآيةِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ وهو هذا القرآنُ الذي خَصَّكُمْ بهِ دونَ آبائكمْ، ورَزَقَكُمْ بهِ ما لم يَرْزُقْ آباءَكُمْ منهُ، ثم جَعَلْتُمْ تُكَذِّبونَ ذلكَ الرزقَ الذي خُصِصْتُمْ بهِ، ورُزِقْتُمْ، أو كلامٌ مِنْ نَحْوِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]. وقالَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: هو الذي يُرِي المُوافَقَةَ، ويَحْتالُ في دَفْعِ حُجَّةٍ ما يَلْزَمُهُ، ويَرُدُّ عليهِ، أو كلامٌ يُشْبِهُ معناهُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: مُدْهِنٌ ومُداهِنٌ لُغَتانِ، ثم أصلُ المُداهَنةِ مِنَ المُخادَعةِ؛ يُقالُ: داهَنْتُهُ، وأدْهَنْتُهُ، ثم الفَرْقُ بينَ المُداهَنةِ والمُداراةِ. كأنَّ المُداهَنةَ لِطَمَعٍ لهُ فيهِ: يُخادِعُهُ حتى يَصِلَ إلى ما يَطْمَعُ، والمُداراةُ الشَّفَقَةُ، يُداريهِ إشفاقاً عليهِ لِيَتَحَقَّقَ عندَهُ الحقُّ، لِيَسْلَمَ لهُ، وإلّا هما في الظاهرِ واحدٌ، وهما المُلايَنَةُ وخَفْضُ الجَناحِ. لكنَّ الفَرْقَ بَينَهما ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٣ و٨٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ ليسَ هذا الكلامُ صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكلامِ. ثم يُشْبِهُ أنْ يكونَ صِلَةَ ما قالَ أولئكَ الكَفَرَةُ: لو كانوا عندَنا لَما ماتوا، وما قُتِلوا؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لو كانوا عندَكُمْ لم يَموتوا، ولم يُقْتَلوا، على ما زَعَمْتُمْ. فَهَلّا، إذا كانوا عندَكُمْ، فَبَلَغَتِ الأرواحُ الحُلْقومَ [تَقْدِرونَ][8] أنْ تَرْجِعوها، وتَرُدُّوها إلى الأجسادِ التي كانَتْ [فيها][9] لو كُنْتُمْ صادقينَ في قولِكُمْ: لو كانوا عندَنا لَما ماتوا وما قُتِلوا. على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿تَنظُرُونَ﴾ أي يَنْتَظِرونَ خروجَ الروحِ؛ إنها متى تَخْرُجُ، فلا يَمْلِكونَ رَدَّها إلى حيثُ كانَتْ، ولكنْ يَنْتَظِرونَ خُروجَها متى تَخْرُجُ.

والثاني: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [على حقيقةِ النَّظَرِ، أي تَنْظُرونَ][10] إلى سُلْطاني وقُدْرَتي.

وقيلَ: هو مِنَ الانْتِظارِ، أي تَنْتَظِرونَ أنْ يَحُلَّ بكمُ الموتُ، [وهو][11] ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ في ضيقِ الحالِ [وإنما

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: يخرج. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) من م، في الأصل: أولى. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

يَضيقُ الحالُ][1] عليهِمْ والأمرُ[2] عندَ حلولِ الموتِ؛ إذْ لا بَعْثَ عندَهُمْ، فيقولُ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ فتَشفَعَ لهمُ الأصنامُ التي يَعْبُدونَها، وتَرُدُّ الرُّوحَ[3] إلى المكانِ الذي كانَتْ [فيهِ][4] فإذا لم تَمْلِكْ ذلكَ فكيفَ عَبَدْتُموها؟ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي ملائكتي ورُسُلي في ذلكَ الوقتِ أقْرَبُ إليهِ منكُمْ، ولكنْ لا تُبْصِرونَ الملائكةَ /٥٤٧ ـ ب/ لكنْ أضافَ إلى نفسِهِ لِما أنَّ الملائكةَ بأمْرِهِ وتَسْليطِهِ يَعْمَلونَ.

وقيلَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي أولَى بهِ في ذلكَ الوقتِ لِما يَعْلَمُ هو خَطَأَهُ، ويَتَبَيَّنُ لهُ الحقُّ في ذلكَ الوقتِ مِنَ الباطلِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أنتمْ، أي لا تَعْلَمونَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨٦ و٨٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي لو كنتمْ غيرَ مَمْلوكينَ للهِ تعالى على [ما][5] زَعَمْتُمْ ترجِعونَ الأرواحَ، وتَرُدُّونها إلى الأجسادِ التي كانَتْ فيها. ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أنكمْ غيرُ مَمْلوكينَ. فإذا كنتُمْ عندَكُمْ غيرَ مَمْلوكينَ تكونونَ مالكينَ؛ إذْ ليسَ إلّا المَمْلوكُ والمالكُ. فإذا لم تكونوا مَمْلوكينَ تكونونَ مالِكينَ، فتَمْلِكونَ رَدَّها إلى ما [كانَتْ][6] فيها. فإذا لم تَمْلِكوا كُنْتُمْ مَمْلوكينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غيرَ مُحاسَبينَ ولا مَجْزِيِّينَ، فَرُدُّوا النَّشأةَ الأولَى، واجْعَلوها بأنفسِكُمْ حتى تكونَ النشأةُ الأولَى حِكْمةً إذْ لم تَمْلِكوا رَدَّ هذهِ الأرواحِ إلى الأنفسِ، أوِ اجْعَلوا النَّشأةَ الأولَى [لِغَيرِ الذي يُكَوِّنُ النَّشأةَ الأُخرَى حتى تكونَ النَّشأةُ الأولَى][7] حِكْمةً، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٨٨ ـ ٩٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾][8] اخْتُلِفَ في وقْتِ ما ذَكَرَ لِمَنْ ذَكَرَ ذلكَ.

قالَ بعضُهُمْ: إنَّ ذلكَ: [﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾][9] [الآيات: ٨٨ ـ ٩١] يُقالُ لِلمؤمنينَ[10] عندَ الموتِ بِشارةً لهمْ بما يكونُ لهمْ في الجنةِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنما يُقالُ ذلكَ إذا دَخَلَ هؤلاءِ الجنةَ وأولئكَ النارَ؛ أعني الكافرينَ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الآيات: ٩٢إلى٩٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ يُقالُ ذلكَ لِلْمُؤمنينَ[11] عندَ رسولِ اللهِ ﷺ في الجنةِ [وهو][12] وَصْفُ رسولِ اللهِ ﷺ [ومَنْ][13] عندَهُ في الجنةِ ومَكانِهِمْ لَدَيهِ على ما كانوا في الدنيا: المُقَرَّبونَ عندَهُ ومَكانُهُمْ لَدَيهِ أقْرَبُ مِنْ مكانِ غَيرِهِمْ مِنَ المؤمنينَ.

فَعَلَى ذلِكَ يُخْبِرُ أنَّ السابِقينَ في الإجابةِ يكونونَ في الآخِرةِ عندَهُ أقْرَبَ. ويكونُ قولُهُ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أي يَسْتَأْنِسُ هو بهِمْ، ويَسْتَأْنِسونَ بهِ، لا يُفارِقونَهُ، ولا يُفارِقُهُمْ، على ما كانوا في الدنيا.

وسائرُ المؤمنينَ يُسَلِّمونَ عليهِ في أوقاتٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الآية: ٩١] على ما كانوا يَفْعَلونَ في الدنيا، وهو أقربُ مِنَ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما.

ويَحْتَمِلُ ما ذَكَروا مِنَ البِشارةِ عندَ الموتِ؛ أعني المؤمنينَ والكافرينَ:

في حقِّ المؤمنينَ [قولُهُ تعالى][14]: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾][15] [الآيات: ٨٨ ـ ٩١].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأرواح. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: إلى آخره. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: لهم. (١١) في الأصل وم: لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: كذا.

وفي حَقِّ الكَفَرةِ [قولُهُ تعالى](١): ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الآيات: ٩٢ ـ ٩٤].

ويَحتمِلُ [ما](٢) ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ ذلكَ يُقالُ لهمْ بَعدَ ما دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأصحابُ النارِ النارَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ اختُلِفَ في تِلاوَتِهِ [وتأويلِهِ](٣).

أمّا تلاوَتُهُ [فقد](٤) رُوِيَ عنْ عائشةَ ﵂ [أنها](٥) قالَتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَقرَأُ هذا الحَرْفَ: فَرُوحٌ وريحانٌ؛ يعني بِضَمِّ(٦) الراءِ، وعنِ الحَسَنِ أنهُ قرَأها بالضَّمِّ أيضاً، وعَنِ الضَّحّاكِ بفَتْحِ الراءِ، وعليهِ جميعُ القُرّاءِ.

وقالَ أبو عُبَيدٍ: لولا كَراهةُ خِلافِ الأُمّةِ وإلّا ما قَرَأتُها إلّا بالضَّمِّ، ولكنْ لا أجِدُ عليها أحداً، فأسْتوحِشُ مِنْ مُفارقةِ الناسِ، ولا يَجمَعُ اللهُ تعالى أمّةَ محمدٍ ﷺ على الضلالةِ.

وأمّا تأويلُهُ فَعَلى قراءةِ الرفعِ عنِ الحَسَنِ [أنهُ](٧) قالَ: الرُّوحُ الرَّحْمةُ، والرَّيحانَ رَيحانُها، وعنْ أبي عُبَيدٍ [أنهُ](٨) قالَ: بالرفعِ هي(٩) الحياةُ والبقاءُ، وعنِ الضَّحّاكِ بالفَتْحِ: الرَّوحُ الإسْتِراحةُ، والرَّيحانُ الرزقُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرَّوحُ كِنايةٌ عنْ دوامِ النِّعْمةِ والسَّعَةِ؛ يُقالُ: فُلانٌ في رَوحٍ إذا كانَ في سَعَةٍ ونِعْمةٍ، والرَّيحانُ كِنايةٌ عنِ الشَّرَفِ والمَنْزِلةِ؛ يُقالُ: فلانٌ رَيحانيٌّ، وذلكَ لِشرفِهِ ومَنْزِلَتِهِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: الرَّوحُ الراحةُ، والرَّيحانُ الرزقُ في الجنةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: الرُّوحُ بالرفعِ مِنَ الرَّحْمةِ، وبالنصبِ الراحةُ، ونحنُ نقولُ: جائزٌ أنْ يكونا جميعاً بالنصبِ والرفعِ مِنَ الرَّحْمةِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(١٠) [يوسف: ٨٧] أي مِنْ رحمتِهِ وقولِهِ(١١) في مَوضعٍ آخَرَ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّ المُقرَّبينَ يكونونَ في الجنةِ في رَحْمةِ اللهِ ونِعْمَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الآيتان: ٩٠ و٩١] يَحتمِلُ ما وَصَفْنا أنَّ أصحابَ اليمينِ يُسَلِّمونَ على النَّبيِّ ﷺ ويُحَيّي بعضُهُمْ بعضاً بالسلامِ.

ويَحتمِلُ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ [أي السلامةُ لكَ](١٢) منهمْ مِنْ جميعِ الآفاتِ والأذى.

وذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﵁: فسلامٌ إنكَ مِنْ أصحابِ اليَمينِ. فهذا إنْ ثَبَتَ فهو يُخَرَّجُ على البِشارةِ لهُ عندَ الموتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: يُسَلِّمُ عليهمُ الملائكةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ يقولُ هذا الذي ذَكَرْنا لِلْمُقَرَّبينَ ولأصحابِ اليمينِ ولِلْمُكَذِّبينَ، هو حَقُّ اليقينِ أي كائنٌ، لا محالَةَ، لا شَكَّ فيهِ. مِثْلُ هذا يُقالُ على التأكيدِ وتَحقيقِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ وَوَصْفُهُ.

الآية ٩٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: فَسَبِّحْ ربَّكَ باسْمٍ لا يُسَمّى بهِ غَيرُهُ، أي نَزِّهْهُ عنْ جميعِ ما قالتِ المُلحِدةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ والشَّريكِ وتَسْمِيَةِ مَنْ دونَهُ إلهاً وغَيرِ ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٧٥. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/١٨٩. (١١) في الأصل وم: وقال. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الحديد][1]

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يجوزُ أنْ يُقرأَ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ و: سَبَّحَ اللهَ كما يُقالُ في الكلامِ: شَكَرَ للهِ، وشَكَرَ اللهَ، ونَصَحَ للهِ، ونَصَحَ اللهَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُما في الظاهرِ مُخْتَلِفاً، ويَتَّفِقَ في الحقيقةِ والباطنِ، لأنَّ التَّسبيحَ، هو التَّخليصُ والتَّنزيهُ والتَّبرئةُ. فَمَتَى أُضيفَ الفِعْلُ إلى اللهِ تعالى، وَوَقَعَ عليه، فَيُقالُ: سَبَّحَ اللهَ، فَمَعناهُ أنهُ نَزَّهَهُ، وبَرَّأهُ عن جميعِ مَعاني الخَلْقِ، وخَلَّصَهُ مِنْ شَبَهِ المَخْلوقينَ.

وإذا قيلَ: سَبَّحَ للهِ فقد رَفَعَ الفعلَ عنِ الأشياءِ المَخلوقةِ، أي خَلَّصَ الأشياءَ كلَّها [لهُ، وبَرَّأَ صُدُورَها][2] عن غيرِهِ.

وإذا وُصِفَ[3] بأنَّ كلَّ الأشياءِ لهُ، وهو المالكُ لها، وهُمْ عَبيدُهُ، ومَماليكُهُ خاضِعونَ أذِلّاءُ، فقد وُصِفَ بالغِنَى ونَفْيِ الحاجةِ عنهُ وأنهُ مُتَبَرِّئٌ عنِ الشَّبَهِ بِمَماليكِهِ ومَخْلوقاتِهِ، فهما جميعاً مِنْ هذا الوجهِ يَنْتَظِمانِ مَعْنًى واحداً.

وإنْ [كانا مُخْتَلِفَينِ في الظاهرِ][4] وفي الباطنِ مُؤْتَلِفَينِ[5]، وإنَّ الإسلامَ، هو/٥٤٨ ـ أ/ أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ مِنَ الخَلْقِ للهِ تعالى خالصاً سالماً لهُ، والإيمانَ، هو التَّصديقُ بالرُّبوبيَّةِ لهُ في كلِّ شيءٍ، فَمَتى صَدَّقَ للهِ تعالى بالربوبيَّةِ في الخَلْقِ والأمرِ، فقد جَعَلَ الخَلْقَ[6] سالماً لهُ. فَمَتى جَعَلَهُ سالماً لهُ فقد صَدَّقَهُ بالربوبيَّةِ، فقدِ اتَّفَقا مِنْ حيثُ المَعْنَى، وإنِ اختَلَفا مِنْ حيثُ الظاهرُ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ المُوَفِّقُ.

ثم يَحْتَمِلُ ما ذُكِرَ مِنَ التَّسبيحِ، هو تَسْبيحُ الخِلْقَةِ؛ تَشْهَدُ لهُ خِلْقَةُ كلِّ شيءٍ بالوَحْدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ. فهذا على خِلْقَةِ الكافرِ والمؤمنِ جميعاً وغيرِهما مِنَ المَخْلوقاتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ المُمْتَحَنِينَ الذينَ في السمواتِ والأرضِ، ويَرْجِعَ إلى تَسْبيحٍ خاصٍّ، وهو تَسْبيحُ النُّطْقِ واللِّسانِ عنِ اختيارٍ.

وجائزٌ أنْ يَرْجِعَ إلى كلِّ ذي رُوحٍ، يَجْعَلُ اللهُ تعالى في سِرِّيَّةِ هذهِ الأشياءِ مِنَ التَّسبيحِ لهُ ما يَعْلَمُهُ هو، لا يَعْلَمُهُ غيرُهُ إلّا بإعلامِ اللهِ تعالى إيّاهُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو الذي أفْقَرَ الخَلْقَ، وأحْوَجَهُمْ إليهِ، و﴿الْحَكِيمُ﴾ هو المُحْكِمُ للأشياءِ المُتْقِنُ لها.

[والثاني][7]: ﴿الْعَزِيزُ﴾ القاهرُ الغالبُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ هو العالمُ بالأشياءِ على حقيقتِها.

[والثالث][8]: ﴿الْعَزِيزُ﴾ هو المالكُ كلَّ مُلْكٍ كقولِهِ تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] ﴿الْحَكِيمُ﴾ الواضعُ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ.

---

(١) في الأصل: ذكر ان سورة الحديد وهي، في م: سورة الحديد وهي. (٢) في الأصل وم: ويرأها. (٣) في الأصل وم: أضيف. (٤) في الأصل وم: كان مختلفان. (٥) في الأصل وم: مؤتلفان. (٦) من م، في الأصل: خلق. (٧) في الأصل و م: أو. (٨) في الأصل و م: أو.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تفسيراً لِقولِهِ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يَملِكُ أنْ يُحْيِيَ هذا، ويُميتَ غيرَهُ، أو يُحْيِي مَنْ شاءَ، ويُميتُ مَنْ شاءَ، أي[1] يَملِكُ إحياءَ مَنْ شاءَ وإماتةَ مَنْ شاءَ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنَ الإحياءِ والإماتةِ وغيرِهما ﴿قَدِيرٌ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ قالتِ الباطِنيّةُ: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ مَعْناهُ المُبْدِعُ الأوّلُ و﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ هو المُبْدِعُ الثاني، و﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ هو الناطقُ، وهو الرسولُ ﷺ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ هو صاحبُ التأويلِ.

يقولونَ: إنَّ [﴿ٱلْأَوَّلُ﴾][2] المُبْدِعُ الأوّلُ، ثم لِلْمُبْدِعِ الثاني المَعونةُ، فَيَستَعينُ بها المُبْدِعُ الأوّلُ[3] على خَلْقِ هذا العالَمِ وإنشائِهِمْ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ المُبْدِعَ الثانيَ، هو الذي دَبّرَ هذا العالَمَ، وأنشأَهُمْ بإعانتِهِ[4] المُبْدِعُ الأوّلُ، والناطقُ هو الذي دَبّرَ الشرائعَ، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ وهو صاحبُ التأويلِ؛ هو الذي يُبَيِّنُ الشرائعَ التي دَبَّرَها الناطقُ، وهو الرسولُ ﷺ.

ولا يَصِفونَ اللهَ تعالى أنهُ[5] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ويقولونَ: لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بهذهِ الأشياءِ لأنَّ الأوّليّةَ تَنفي الآخِريّةَ، والظاهِرَ يَنفي الباطِنَ، كلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ يُبْطِلُ الآخَرَ في الشاهدِ.

وجوابُنا: أنَّ ما قُلْتُمْ مِنَ المُبْدِعِ الأوّلِ والثاني والناطقِ ليسَ بشيءٍ لهُ مَعْنًى على ما ذَكَرْنا في مَوضِعِهِ.

وأمّا عندَنا فإنَّ قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ هي حُروفُ التوحيدِ: هو الأوّلُ بِذاتِهِ والآخِرُ بِذاتِهِ والظاهِرُ بِذاتِهِ والباطنُ بذاتِهِ. قالَ هذا لئلّا يُعْلَمَ ولا يُفْهَمَ مِنْ أوّليّتِهِ أوّليّةُ غيرِهِ، ولا يُفْهَمَ مِنْ آخِريّتِهِ آخِريّةُ غيرِهِ. فكذلكَ لا يُفْهَمُ مِنْ ظاهِريّتِهِ ظاهِريّةُ غيرِهِ ولا مِنْ باطِنيّتِهِ باطِنيّةُ غيرِهِ؛ لأنَّ في الشاهدِ مَنْ كانَ لهُ أوّليّةٌ لا يكونُ لهُ آخِريّةٌ، ومَنْ كانَ لهُ آخِريّةٌ لا يكونُ لهُ أوّليّةٌ، وكذلكَ مَنْ كانَ لهُ ظاهِريّةٌ لا يكونُ له باطِنيّةٌ، ومَنْ كانَ لهُ باطِنيّةٌ لا يكونُ لهُ ظاهِريّةٌ.

فكلُّ حَرْفٍ مِنْ هذهِ الحروفِ ممّا يَنقُضُ الحرفَ الآخَرَ، ويَنفيهِ في الشاهدِ؛ فإنما ذَكَرَ هذهِ الأحرفَ لنفسِهِ لِيُعْلَمَ ألّا يُفْهَمَ مِنْ أوّليّتِهِ أوّليّةُ الأشياءِ، ولا يُفْهَمَ مِنْ آخِريّتِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ آخِريّةِ الأشياءِ. وكذلكَ ما ذَكَرْنا مِنْ ظاهِريّتِهِ وباطِنيّتِهِ.

وهذا كما ذَكَرَ أنهُ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤ و...] و﴿ٱللَّطِيفُ﴾ [الأنعام: ١٠٣ و...] وكلُّ واحدٍ في الشاهدِ ممّا يُناقِضُ الآخَرَ، ويَنفيهِ؛ ما عَظُمَ منهُ لم يَلْطُفْ، وما لَطُفَ لم يَعْظُمْ، لئلّا يُفْهَمَ مِنْ عَظَمَتِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ عَظَمةِ غيرِهِ ولا مِنْ لَطافتِهِ [ما يُفْهَمُ][6] مِنْ لَطافةِ غيرِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي لا ابْتِداءَ لهُ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي لا انْتِهاءَ لهُ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ هو الغالبُ القاهرُ الذي لا يَغْلِبُهُ شيءٌ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي لا تُدْرِكُهُ الأوهامُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي لَهُ أوّليّةُ الأشياءِ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي لهُ آخِريّتُها[7] ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الحُجَجَ والآياتِ ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الذي لا تُدْرِكُهُ الأوهامُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فإنْ كانَ خَلَقَ ما ذَكَرَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما في سِتّةِ أيامٍ في[8] الأيامِ التي تدورُ عليها أيامُ الدنيا، وهي أيامُ الجُمُعةِ، فإنما خَلَقَ في هذهِ الأيامِ كِيانَ الأشياءِ وأصولَها، لا إنهُ خَلَقَ كُلّيّةَ الأشياءِ فيها وما يكونُ أبدَ الآبِدينَ.

فَعَلى هذا التأويلِ يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيِ اسْتَوى أمْرُهُ، فَخَلَقَ المُمْتَحَنِينَ[9]، وهُمُ البَشَرُ؛ إذِ المَقصودُ بِخَلْقِ هذهِ الأشياءِ كلِّها، هُمُ البَشَرُ، ولهمْ أنشأَ هذهِ الأشياءَ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أيامَ الدنيا التي كلُّ يومٍ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: الثاني. (٤) في الأصل و م: بإعانة. (٥) في الأصل و م أن مدرجة بعد: ولا يصفون. (٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل وم: آخرية. (٨) في الأصل وم: ستة. (٩) في الأصل و م: الممتحن.

مقدارُهُ ألفُ سنةٍ على ما ذَكَرَهُ في آيةٍ أُخرى [﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]](١) فيكونُ ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما خَلْقَ أُصولِ الأشياءِ وكيانِهَا وما يَتَوَلَّدُ منها، بل يَقَعُ ذلكَ على الكُلِّ. فيكونُ على هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ البعثَ أي استَوى خَلْقُ ما خَلَقَ وإنشاءُ ما أنشأَ مِنَ العالمِ بالبَعْثِ ما لولا ذلكَ البعثُ لم يَكُنْ إنشاءُ هذا العالَمِ الأوَّلِ حِكْمَةً، والمَقْصودُ مِنْ إنشاءِ هذا العالمِ البعثُ. وبِهِ يَصيرُ إنشاؤُهُ حكمةً، فيكونُ بِهِ استِواءُ الأمرِ.

ثم تأويلُ العرشِ يَحْتَمِلُ الملكَ [أي](٢) استَوى مُلْكُهُ بِخَلْقِ المُمْتَحَنينَ(٣) أو بالبعثِ الذي ذَكَرْنا أوّلاً تفسير(٤) ما أرادَ بقولِهِ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأنهُ لا يُعْلَمُ ما أرادَ بِهِ إذ قالَ في ذلكَ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أمرَ أنْ يَسْألَ [المُمْتَحَنُ](٥) بِهِ خبيراً، ولم يُرِدْ في ذلكَ أنْ يَسْألَ بِهِ الخَبيرَ عنهُ، فلا يَسَعُ تَفْسيرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما:](٦) أي كَثْرةُ ذلكَ وازْدِحامُهُ لا يَلْتَبِسُ عليهِ، ولا يُسْتَرُ عنهُ شيءٌ.

والثاني: يُخْبِرُ أنَّ السماءَ والأرضَ مع ثِقَلِهِما وكثافَتِهِما لا يَسْتُرانِ، ولا يَحْجُبانِ عليهِ الوالجَ فيهما والخارجَ منهما والنازلَ منهما، ولا يُحيطانِ(٧) بذلكَ، لِيُعْلَمَ أنْ لا شيءَ يُحْجَبُ عنهُ، وألّا يَخفى عليهِ شيءٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ هذا الحرفُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي عالمٌ بكمْ وبأفعالِكُمْ، ومُحيطٌ بكمْ، وحافظٌ عليكُمْ.

والثاني: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ يتوجَّهُ المَعْنى فيهِ لِاخْتِلافِ الأحوالِ؛ يقولُ: إنْ كُنْتُمْ مُحِبّين خاضِعِينَ مُطيعينَ فهو معكُمْ بالنَّصْرِ والمَعونةِ على أعدائِكُمْ، وإنْ كنتمْ مُعْرِضِينَ عنهُ مُعانِدينَ فهو معكُمْ بالسلطانِ عليكُمْ والانْتِقامِ منكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ علمَهُ وسُلْطانَهُ وقُدْرَتَهُ معكُمْ أينما كُنْتُمْ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ إذا ذُكِرَ، جلَّ، وعلا، بلا ذِكْرِ الخَلْقِ مَعَهُ، ولا ضُمَّ إليهِ أحدٌ سِواهُ يُوصَفُ بالأزَلِ /٥٤٨ ـ ب/ فَيُقالُ: لم يَزَلْ عالِماً قادراً خالقاً بلا ذِكْرِ وقتٍ ولا حَدٍّ ولا شيءٍ مِنَ المكانِ وغيرِهِ. وإذا ذُكِرَ مَعَهُ شيءٌ مِنَ الخَلْقِ يُذْكَرُ على ما عليهِ أحوالُ الخَلْقِ مِنَ الوقتِ والمَكانِ والأحوالِ لِلْخَلْقِ دونَ اللهِ تعالى، فيُقالُ: لم يَزَلْ عالماً لِلْخَلْقِ وقتَ كونِهِمْ، لم يَزَلْ خالقاً للعالَمِ وقتَ كونِهِ حتى لا يُتَوَهَّمَ قِدَمُ المَخْلوقِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الآية [محمد: ٣١] وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥] وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] ونَحْوُهُ ممّا كَثُرَ ذِكْرُهُ كذلكَ على ما عليهِ أحوالُ الخَلْقِ. فَعَلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المُلْكُ إنما يُنْسَبُ بِحَقِّ نَفاذِ المَشيئةِ والأمرِ والولايةِ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لهُ نَفاذُ المشيئةِ، ولهُ الولايَةُ في السمواتِ والأرضِ [أي على أهلِها لَهُ الأمرُ والسلطانُ](٨).

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لهُ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، يُعْطي مَنْ يَشاءُ، ويَحْرِمُ مَنْ يَشاءُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) ساقطة من الأصل و م. (٣) في الأصل و م: الممتحن. (٤) في الأصل: نفس أنه. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل و م. (٧) في الأصل و م: الإحاطة. (٨) في الأصل و م: وعلى أهلها له السلطان عليهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ يَرْجِعُ تدبيرُ الأمورِ مِنْ إحداثٍ وتكوينٍ وإعطاءٍ وبَذْلٍ ومَنْعٍ وحِرْمانٍ، ليسَ ذلكَ إلى الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى اللهِ تَرْجِعُ أمورُ المُمْتَحنينَ في الآخِرَةِ مِنَ الحِسابِ والسؤالِ والثوابِ والعِقابِ وغَيرِ ذلكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ إيلاجُ الشيءِ إنما هو إدخالُهُ فيهِ على إبقاءِ المُدْخَلِ فيهِ. هذا هو المَعْروفُ. لكنْ ما ذَكَرَ ههنا ممنْ إيلاجِ هذا في هذا وهذا [في هذا][1] أنْ جَعَلَ ما كانَ في حالِ الاِسْتِواءِ في حدِّ الليلِ نهاراً، وجَعَلَ ما كانَ في حالِ الاِسْتِواءِ في حدِّ النهارِ ليلاً على إتلافِ كلِّ واحدٍ منهما بالآخَرِ لا على الإبقاءِ.

وفي ذلكَ وجهانِ[2] مِنَ الدلالةِ:

أحَدُهما[3]: يدلُّ ذلكَ على أنهُ فِعْلُ واحدٍ عليمٍ، لهُ تَدْبيرٌ، لا فعلُ عددٍ، لا[4] تَدْبيرَ لهُ، لأنهُ لو كانَ فِعْلَ عددٍ لَكانَ لا يجري على سَنَنٍ واحدٍ وتَدْبيرٍ واحدٍ مُنْذُ كانَ إلى أبَدِ الآبِدينَ، بل يَقَعُ في ذلكَ تَمانُعٌ وتَغالُبٌ، يَمْنَعُ كلُّ واحدٍ [منهما ما][5] لِغَيرِهِ، ويَغْلِبُهُ عليهِ، ولا يُوافِقُهُ في تدبيرِهِ على ما يكونُ في عادةِ الملوكِ على ما قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقالَ: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] واللهُ المُوَفِّقُ.

[والثاني][6]: دلالةُ البعثِ، وهو[7] إتيانُ الليلِ بعدَ ذهابِ أثرِ النهارِ وإتيانُ النهارِ بعدَ ذهابِ أثرِ الليلِ، ونَحْوُ ذلكَ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي عليمٌ بما في الصدورِ. وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: هو عليمٌ بما في صدورِ أربابِ الصدورِ، وهُمُ البشرُ الذينَ لهمُ الصدورُ والتَّدْبيرُ، لأنَّ الصدورَ إنما يُقالُ للذينَ لهمْ تَدْبيرٌ وتَمْييزٌ، وهمُ البشرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمانُ باللهِ: هو أنْ يُجْعَلَ[8] ربَّ كلِّ شيءٍ، وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، والإيمانُ برسولِهِ هو أنْ يُصَدِّقَ[9] في كلِّ ما يُخْبِرُ عنِ اللهِ تعالى وفي كلِّ قولٍ وفِعْلٍ، وأنهُ مُحِقٌّ، ويُعْلَمَ أنهُ بِأمْرِ اللهِ تعالى ونَهْيِهِ يأمُرُ، ويَنْهى، ويَفْعَلُ، لا مِنْ ذاتِ نفسِهِ. هذا الإيمانُ باللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: وأنْفِقوا مِنَ المالِ الذي جَعَلَكُمْ فيهِ خُلَفاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ لأنَّ الناسَ يَخْلُفُ بعضُهُمْ بعضاً في هذهِ الأموالِ؛ كأنهُ يقولُ: أنْفِقوا مِنَ المالِ الذي جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ قبلَ أنْ يَخْلُفَكُمْ مَنْ بَعدَكُمْ كما تَرَكَ الإنفاقَ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ؛ إذْ هي إنما أُنْشِئَتْ للإنفاقِ والاِنْتِفاعِ بها لا لِلتَّرْكِ كما هي، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخْبَرَ تعالى بقولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أنَّ مَنْ كانَ آمَنَ بهِ، وأنْفَقَ، فَلَهُ أجرٌ كبيرٌ: ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الأجْرِ على جِهَةِ الإنعامِ منهُ والإفضالِ فوقَ الاِسْتِحقاقِ؛ إذِ المالُ مالُهُ، وهُمْ عبيدُهُ، ولا يَلْزَمُ لِلْعَبْدِ أجرٌ على سَيِّدِهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ في ظاهرِهِ مُتَناقِضٌ، لأنهُ يقولُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ ولو كانوا لا يُؤمِنونَ باللهِ كيفَ يُقِرّونَ باللهِ وبالرسولِ؟ ويُصَدِّقونَ أنهُ رسولُ اللهِ؟ إذِ التَّصْديقُ بالرسولِ تصديقٌ بالرسُلِ، وهُمْ لا يُؤمِنونَ باللهِ فكيفَ يُصَدِّقونَ الرسولَ؟ لكنهُ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أي ما لكُمْ لا تُؤمِنونَ بقدرةِ اللهِ على بَعْثِكُمْ وإحيائِكُمْ بعدَ [مَوتِكُمْ، وقد أتاكُمُ الرسولُ][10] ودَعاكُمْ، وأنْبَأكُمْ بما يُبَيِّنُ لكمْ مِنْ قدرتِهِ وسُلْطانِهِ على البعثِ، فما لكُمْ لا تُؤمِنونَ بقُدْرتِهِ؟

---

(١) ساقطة من الأصل و م. (٢) في الأصل: دلالة وجوه. (٣) في الأصل و م: أحدها. (٤) في الأصل و م: ولا. (٥) في الأصل وم: ما له معا. (٦) في الأصل و م: وفيه. (٧) الواو ساقطة من الأصل و م. (٨) في الأصل و م: يجعله. (٩) في الأصل و م: يصدقه. (١٠) في الأصل و م: موتها قد أتاكم.

على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ لأنَّ أهلَ مكةَ كانوا أصنافاً: منهمْ مَنْ يَذْهبُ مذهبَ الدهريّةِ[1]، ومنهمْ مَنْ يَذْهبُ مذهبَ الشِّرْكِ، ومنهمْ مَنْ يُقِرُّ بالتوحيدِ، ويُنْكِرُ البَعْثَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: أيُّ عُذْرٍ لكمْ في تَرْكِكُمُ[2] الإيمانَ باللهِ تعالى؟ والرسولُ دعاكُمْ، وقد أتاكُمْ مِنَ الآياتِ والحُجَجِ ما يَدْفَعُ عنكُمُ العُذْرَ، ويُزيحُ عنكمُ الشُّبَهَ، فأيُّ عُذْرٍ لكمْ في ترْكِكُمُ الإيمانَ بهِ؟ فما لكمْ لا تُؤمِنونَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ قد ذَكَرَ في ما تَقَدَّمَ أنَّ أخذَ الميثاقِ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: على ألسُنِ الرسلِ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ [المائدة: ١٢] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ وغيرُ ذلكَ مِنْ أمثالِهِ.

والثاني: أخْذُ الميثاقِ ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ أحدٍ مِنْ شهادةِ الوحدانيّةِ.

والثالثُ: [ما][3] عَهِدَ إليهِمْ حينَ[4] ركَّبَ فيهِمُ العقولَ والأفهامَ، وجَعَلَهُمْ بحيثُ يُمَيِّزونَ ما لهمْ ممّا عليهِمْ في ما لا يُحْتَمَلُ إهمالُ مِثْلِهِمْ وتَرْكُهُمْ سُدًى.

[والرابعُ][5]: ما ذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ مِنْ إخراجِهِمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ ﷺ والوجوهُ الأُولَى أقربُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ في أهلِ الكتابِ الذينَ كانوا مؤمنينَ باللهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ [فلمّا بُعِثَ][6] كَفَروا بهِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ﴾ الذي كُنْتُمْ مؤمِنينَ بهِ [قد أخذَ ميثاقَكُمْ ﴿يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾][7].

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الآيةُ في أهلِ النّفاقِ الذينَ كانوا يُظْهِرونَ الإيمانَ بهِ، ولا يُحَقِّقونَهُ؛ يقولُ: ما لكُمْ لا تُحَقِّقونَ الإيمانَ باللهِ، والرسولُ يدعوكُمْ لِتُحَقِّقوا الإيمانَ بربِّكُمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٠١] أي لا عُذْرَ لكمْ في الكُفْرِ باللهِ ورسولِهِ وتركِ الإيمانِ بهما. فَعَلى ذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالآياتِ والحُجَجِ. أو يَذْكُرُ هذا لا على الشَّرْطِ بل عل التأكيدِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لأنهنَّ إذا كُنَّ أذْعَنَّ للإيمانِ لم يَحِلَّ ﴿لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ كِتمانُ[8] ما في أرحامِهِنَّ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآياتُ في الحقيقةِ هي الأعلامُ. لكنْ فُسِّرَتِ الآياتُ بالحُجَجِ /٥٤٩ ـ أ/ لأنَّ الآياتِ حُجَجٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالى جاءَتْ، لا أنها مُعْتَقَداتٌ[9] مِنَ الخَلْقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ مُوضِحاتٍ أنها مِنْ عندِ اللهِ جاءَتْ لا مِنْ عندِ الخَلْقِ، أو ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أمْرَهُ ونَهْيَهُ وما لَهُمْ وما عليهِمْ وما يُؤْتَى وما يُتَّقَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنَ الإخراجِ فهو على وجهَينِ:

أحَدُهما: على حَقيقةِ الإخراجِ، وهو أنْ [يُوَفِّقَهُمْ للإيمانِ][10] ويُعْطِيَهُمُ المَعونَةَ والعِصْمَةَ، فَيَخْرُجوا[11] مِمّا ذَكَرَ مِنَ الكُفْرِ إلى الإيمانِ.

والثاني: يُخَرَّجُ على الأمرِ بهِ والدعاءِ إلى الإيمانِ، ليسَ على حَقيقةِ الإخراجِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في هذهِ الآيةِ.

---

(١) في الأصل و م: الدهر. (٢) في الأصل و م: ترك. (٣) ساقطة من الأصل و م. (٤) في الأصل و م: حيث. (٥) في الأصل و م: ويحتمل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل و م. (٨) أدرج قبلها في الأصل و م: أيضاً. (٩) من م، في الأصل: متعلقات. (١٠) في الأصل وم: يوفق لهم على الإيمان. (١١) في الأصل وم: فيخرجون.

ونظيرُ حقيقةِ الإخراجِ قولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وعلى هذا تُخَرَّجُ إضافةُ الهدايةِ إلى اللهِ تعالى [على وجهَين:

أحدُهما:][1] على التوفيقِ وإنشاءِ فِعْلِ الهدايةِ منهم.

والثاني: على الدُّعاءِ والبَيانِ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: وإنَّ اللهَ بِمَنْ خَرَجَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ لَرَؤوفٌ رحيمٌ، وهو يرجِعُ إلى المؤمنينَ خاصّةً.

وجائزٌ أيضاً أنْ يوصفَ بالرحمةِ والرأفةِ على الكُلِّ أي: ﴿بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بما أرسلَ إليكمُ الرسولَ وأنْزَلَ عليكُمُ الكتابَ، وإنْ كانَ في أنفسِكُمْ وعقولِكُمْ كفايةٌ على مَعْرفةِ وحدانيّةِ اللهِ تعالى ورُبوبيّتِهِ بدونِ إنزالِ الكتابِ وإرسالِ الرسولِ. لكنْ بفضلِهِ ورحمتِهِ أرسَلَ الرسلَ، وأنْزَلَ الكتبَ ليكونَ ذلكَ أدْعَى لهمْ وأوصَلَ إلى إدراكِ ما يَدْعو إليهِ وأقرَبَ في دَفْعِ الشُّبَهِ والعُذْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: ما قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الخَلْقَ يَفْنَونَ كلُّهُمْ، ويَبْقَى اللهُ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: ٤٠] فَعَلَى هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ما لكُمْ لا تُنفِقونَ في سَبيلِ اللهِ قَبْلَ أنْ يَزولَ مُلْكُكُمْ، ويَصيرَ[2] ميراثاً للهِ تعالى.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ إضافةَ وِراثةِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ إليهِ لِما أنهمْ عَبيدُهُ وإماؤُهُ، ومالُ العبدِ يكونُ لِسيِّدِهِ، فيَصيرُ كأنهُ يقولُ: ما لَكُمْ ألّا تُنفِقوا لأنفسِكُمْ وما يَرْجِعُ إلى مَنافِعِكُمْ قبلَ أنْ يَصيرَ ذلكَ مِيراثاً لِغَيرِكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ الآية. قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ أي لا يَسْتَوِي منكُمْ مَنْ آمنَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ، لأنهُ قَبْلَ الفَتْحِ كانَ على مَنْ آمنَ الهلاكُ وأنواعُ العقوباتِ، لأنَّ الغَلَبَةَ في ذلكَ الوقْتِ كانتْ لأهلِ الكُفْرِ. لِذلكَ لم يَسْتَوِ مَنْ آمَنَ منهمْ قَبْلَ الفَتْحِ ومَنْ آمَنَ منهمْ بعدَ الفتحِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لو وُزِنَ إيمانُ أبي بَكْرٍ بإيمانِهِمْ لَرَجَحَ» [ابن عَدِيٍّ في الكامل ٥/ ٣٣٥] لأنَّ إيمانَهُ ﷺ في وقْتِ الخَوفِ على [أنْ][3] يَبْقَى الإسلامُ، أو لِما يكونُ بإيمانِهِ إيمانُ نَفَرٍ كثيرٍ لأنهُ كانَ رئيسَهُمْ.

وكذلكَ الإنفاقُ في ذلكَ الوقْتِ أفْضَلُ وأعظَمُ لِما في الإنفاقِ في ذلكَ الوقتِ مَعونةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ ولِمَنْ تابَعَهُ، أو لِما أنَّ الإنفاقَ مِنْ بَعْدِ الفَتْحِ يَقَعُ بهِ طَمَعُ الوصولِ إلى المَنافِعِ والأبدالِ مِنَ الصدقاتِ والمَغانِمِ. وقَبْلَ الفَتْحِ لم يكنْ ذلكَ المَعْنَى؛ فهو كلُّهُ خالصٌ بلا بَدَلٍ ولا طَمَعٍ كانَ مَعَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: لا يَسْتَوِي مَنْ هاجَرَ ومَنْ لم يُهاجِرْ، ولا هِجْرَةَ بعدَ الفَتْحِ، فَلِذلكَ رُوِيَ عنهُ ﷺ [أنهُ قالَ:][4] «لا هِجْرَةَ بعدَ اليومِ، ولكنْ جهادٌ ونيّةٌ» [البخاري ١٨٣٤].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي وَعَدَ اللهُ لِكِلا الفَريقَينِ: مَنْ أنْفَقَ قَبْلَ الفَتْحِ وبَعْدَهُ الجنةَ والثوابَ الحَسَنَ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: هذه الآيةُ نَزَلَتْ في فَتْحِ الحُدَيبِيَةِ: «قيلَ: يا رسولَ اللهِ أفَتْحٌ هو؟ قالَ: نعمْ فَتْحٌ عظيمٌ» [ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٧/ ٢٢٠].

وعنْ قتادةَ [أنهُ قالَ][5]: هو فَتْحُ مكةَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وصار. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيه تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ في ما يُرْغَبُ فيه ويُرْغَبُ عنهُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنهُ، جلَّ وعلا، عامَلَ عبادَهُ بِكَرَمِهِ وجُودِهِ مُعاملَةَ مَنْ لا حَقَّ لهُ ولا مُلْكَ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ لا مُعاملَةَ مَنْ[1] حقيقةُ أملاكِهِمْ وأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ لهُ مِنْ نَحْوِ ما ذَكَرَ مِنَ الإقراضِ لهُ وما ذَكَرَ مِنْ شرائِهِ أنفُسَهُمْ وأموالَهُمْ منهمْ بأنَّ لهمُ الجنةَ وما ذَكَرَ لِأعمالِهِمْ مِنَ الأجرِ، وهُمْ عَبيدُهُ، وأعمالُهُمُ التي يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ كأنهمْ عاملونَ لهُ، وما يُمْسِكونَ لأنفسِهِمْ يَدَّخِرونَها في وقتِ الحاجةِ لهمْ سَمّاهُ قَرْضاً، وما يَكْتَسِبونَ بهِ للحياةِ الدائمةِ والنِّعَمِ الباقيةِ فهمُ المُنْتَفِعونَ بها. ولا أحدَ في الشاهدِ يَسْتَقْرِضُ مالَ نفسِهِ مِنْ آخَرَ، يَبْذُلُ، ثم يُعْطَى لهُ الأجرُ على ذلكَ. هٰذا كلُّهُ خارجٌ عن عادةِ الخَلْقِ وطَبْعِهِمْ وصَنيعِهِمْ بعضِهِمْ معَ بعضٍ.

لكنْ عامَلَهُمْ بما يليقُ بكرمِهِ وجودِهِ، وَعَدَ لهمْ بما أمْسَكوا لأنفسِهِمْ أضعافاً مُضاعَفَةً.

ثم جائزٌ تَسْمِيَةُ ما يُمْسِكونَ لوقتِ حاجَتِهِمْ قَرْضاً لئلا يَمُنُّوا على الفُقَراءِ وأهلِ الحاجةِ بما أعْطَوهُمْ منهُ لِما عُرِفَ مِنْ طَبْعِهِمُ الامْتِنانُ عليهمْ أو لِما يدفَعُ عنهمْ مَؤونَةَ حِفْظِ ذلكَ إلى وقتِ حاجَتِهِمْ مِنَ السَّرِقَةِ والغَصْبِ وغيرِ ذلكَ مِنْ أنواعِ ما يُخافُ التَّلَفُ منها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: أي أجرٌ حَسَنٌ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ تَسْمِيَتُهُ كريماً لِما أنَّ مَنْ نالَهُ يَصيرُ كريماً، أو لِما يُؤَمَّلُ، ويُرْجَى أنْ يكونَ لهمْ ذلكَ.

والكريمُ في الشاهدِ هو الذي يُرْجَى منهُ كلُّ خيرٍ، ويُؤَمَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم﴾ أي كُتُبُهُمُ التي يُعْطَونَ في الآخِرَةِ؛ فإنهُ يُعْطَى كتابُ المُقَرَّبينَ أو السابِقينَ مِنْ أمامِهِمْ وقُدّامِهِمْ، وكتابُ سائرِ المؤمنينَ مِنْ أيمانِهِمْ، وكتابُ أهلِ الشِّرْكِ[2] مِنْ وراءِ ظهورِهِمْ. يُؤَيِّدُهُ حرفُ حَفْصَةَ ﵂: نورُهُمْ يَسْعَى بينَ أيديهِمْ وفي أيمانِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الآية [الحاقة: ١٩] وجائزٌ أنْ يكونَ نورُ إيمانِهِمْ ودينِهِمُ الذي كانوا عليهِ في الدنيا.

وجائزٌ أنْ يكونَ نورُهُمُ الذي ذَكَرَ كِنايةً عنِ الطريقِ الذي يَسْلُكُ فيهِ السابقونَ يَرَونَ ما أمامَهُمْ، وسائرُ المؤمنينَ عنْ أيمانِهِمْ على ما سَلَكوا في الدنيا، وأهلُ الشِّرْكِ بِشِمالِهِمْ، وأهلُ النِّفاقِ مِنْ ورائِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ كِنايةً عنِ اليُمْنِ[3] والبركةِ لأنَّ[4] الأيمانَ تَنالُ اليُمْنَ والبَرَكاتِ، فَسَمّاها بذلكَ. ويَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ يُرْفَعُ لهمْ نورٌ، فَيَمْشونَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إنما يُقالُ ذلكَ [قَبْلَ][5] دخولِ أهلِ الجنةِ [الجنةَ][6] وأهلِ النارِ النارَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنهُ لا هلاكَ بَعْدَهُ، ولا تَبِعَةَ، ولا انْقِطاعَ؛ ذلكَ لِذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ليسَ أنْ يَراهُ هو خاصَّةً، لا يَرَى غيرُهُ ذلكَ، ولكنْ يَرَى ذلكَ جميعُ المؤمنينَ، فَيَبْطُلُ بهِ قولُ مَنْ جَعَلَ التَّنصيصَ على الشيءِ دالاًّ على التَّخْصيصِ ونَفْيِ غيرِهِ.

وعنْ قَتادةَ أنهُ قالَ: ذُكِرَ لنا أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ مِنَ المؤمنينَ /٥٤٩ ـ ب/ مَنْ يُضيءُ نورُهُ مِنَ المدينةِ إلى عَدَنٍ أو إلى صنعاءَ ودونَ ذلكَ حتى إنَّ مِنَ المؤمنينَ مَنْ لا يُضيءُ نورُهُ إلّا موضِعَ قَدَمَيهِ، وللناسِ مَنازلُ بأعمالِهِمْ» [السيوطي في الدر المنثور ٨/ ٥٢].

---

(١) من م، في الأصل: في. (٢) من م، في الأصل: المشركين. (٣) من م، في الأصل: اليمين. (٤) في الأصل وم: فإن. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ [أنهُ][1] قال: «﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما أفرَطوا منْ أولادِهِمْ».

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ منهمْ مَنْ قرأ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ومنهمْ مَنْ قرَأها[2] مَقْطوعةً مِنَ أنظَرْتُ.

قالَ أبو عُبيدةَ: فالاتِّصالُ أحبُّ إلينا لأنَّ تأويلَها، واللهُ أعلَمُ: انْتَظِرونا؛ يُقالُ منهُ: نَظَرْتُ فلاناً انْظُرهُ. وأمّا القراءةُ الأخرَى فإنها مِنَ التأخيرِ؛ يُقالُ منهُ: أنظَرْتُ فلاناً أُنظِرُهُ إذا أخَّرْتَهُ، ولا أعرِفُ للتأخيرِ ههنا موضِعاً.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: أنظَرْتُهُ، ونظَرْتُهُ، أي انتَظَرْتُهُ؛ يقالُ منهُ: نَظَرَ نَظْرَةً.

ثم الآيةُ دلَّتْ على أنَّ أهلَ النِّفاقِ يكونونَ بِبُعْدٍ مِنَ المؤمنينَ، ولا[3] يَنتَفِعونَ بنورِ المؤمنينَ. ولكنْ يَرَونَ ذلكَ اليومَ مِنْ بُعْدٍ فيقولونَ[4]: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ولو كانوا بِقُرْبٍ منهمْ، أو يَنتَفِعونَ بنورِهِمْ لَكانوا لا يَطلُبونَ منهمُ الانْتِظارَ لهمْ والاقتِباسَ منْ نورِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا هو الاسْتِهزاءُ الذي ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى أنهُ يَستَهزِئُ بهِمْ حينَ[5] قالَ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] بقولِهِ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ هو ذلكَ الاسْتِهزاءُ.

وقُلْنا نحنُ في قولِهِ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يَجْزيهِمْ جزاءَ اسْتِهزائِهِمُ الذي اسْتَهزَؤوا برسولِ اللهِ ﷺ وبالمؤمنينَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ ليسَ على الأمرِ بالرجوعِ إلى وَراءِ والتِماسِ النورِ، ولكنْ على التَّوْبيخِ والتَّعْيِيرِ، أي النورُ إنما يُطلَبُ منْ وراءِ هذا اليومِ، أي مِنْ قَبْلِ هذا اليومِ لا يُطْلَبُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ السورُ الذي ذَكَرَ الذي ضُرِبَ بَينَهُمْ ما ذُكِرَ في سورةِ الأعرافِ حينَ[6] قالَ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الآية: ٤٦] السُّورُ هو الأعرافُ الذي ذَكَرَ أنهُ[7] يكونُ حِجاباً بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ. يُرْفَعُ ذلكَ السورُ بَينَهُمْ لئلّا يَنتَفِعوا بنورِ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّهُ بَابٌ﴾ ليسَ على حقيقةِ البابِ [ولكنْ][8] كِنايةٌ عنِ الطريقِ والسَّبيلِ؛ يَقُولُ: هو طريقٌ وسَبيلٌ مَنْ يأخُذُ ذلكَ السبيلَ أفضاهُ إلى الرّحمةِ. ومَنْ سلكَ ظاهِرَهُ أفضاهُ إلى العَذابِ.

وجائزٌ أنْ يُفْتَحَ مِنَ النارِ إلى الجنةِ بابٌ، فَيَرَونَ ما حَلَّ بهِمْ مِنَ العَذابِ، ويَرَى[9] أهلُ النارِ أهلَ الجنةِ على [ما هُمْ][10] عليهِ مِنَ النعيمِ لِيَزدادوا[11] حَسْرَةً وندامةً، أو يكونَ اطِّلاعاً لا مِنْ بابٍ ولكنْ مِنَ السورِ والأعرافِ الذي ذَكَرَ، وهو ما قالَ: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥].

والاطِّلاعُ في الظاهِرِ إنما يكونُ مِنْ مكانٍ عالٍ مُرْتَفِعٍ إلى مَوضِعٍ مُنْحَدِرٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي يُنادي أهلُ النِّفاقِ المؤمنينَ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا القولُ منهمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ تغريرٌ منهمْ للمسلمينَ يومئذٍ كما كانوا يُغَرّونَهُمْ في الدنيا، وهو ما أخبَرَ عنهمْ [أنهمْ][12] يَكْذِبونَ في الآخِرَةِ كما كانوا في الدنيا حينَ[13] قالَ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] في حَلِفِهِمْ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يُخَرَّجُ على تَغريرِهِمْ إيّاهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قرأ، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٣. (٣) في الأصل وم: وأن لا. (٤) في الأصل وم: حيث قالوا. (٥) و(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: أنها. (٨) في م: ولكن الباب، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: يرون. (١٠) في الأصل: هو، في م: ما هو. (١١) في الأصل وم: ليزداد لهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث.

ثم الإشكالُ والكلامُ قولُ المؤمنينَ: ﴿بَلَىٰ﴾ وقد علِموا أنهمْ لم يكونوا معهمْ، فكيفَ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾؟

فَنَقولُ: جائزٌ أنْ يكونَ جوابُهُمْ خَرَجَ لأولئكَ على ما عَرَفوا مِنْ خَطَئِهِمْ ومُرادِهِمْ، فأجابرهُمْ على ذلكَ، أو أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿بَلَىٰ﴾ أي كُنتُمْ تقولونَ: إنا مَعَكُمْ، ولكنْ لم تكونوا مَعَنا، أو أنْ يَخْرُجَ جوابُهُمْ على ظاهِرِ ما يَرَونَ مِنْ أنفسِهِمُ المُوافَقَةَ دونَ الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: امْتَحَنْتُمْ أنفسَكُمْ في الرجوعِ إلى مَنْ جَعَلَ لكمُ المَنافِعَ والعاقبةَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٍۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] أي شدةٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أتيتُموها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

يَحْتَمِلُ ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ برسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سيموتُ عنْ قريبٍ، أو أنهُ يرجِعُ عنِ الإسلامِ إلى دينِ أولئكَ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي شكَكْتُمْ، وإنْ قامَ لكمْ ما يَدْفَعُ الارْتِيابَ والشَّكَّ عنكُمُ والشُّبَهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ تَحْتَمِلُ الأمانيُّ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا مِنِ اتِّباعِهِمُ المَنافِعَ التي كانوا يَتَوَقَّعونَها، فيكفُ ما كانوا يَتَّبِعونَ غَرَضَهُمْ في ذلكَ.

والثاني: ما تَمَنَّتْ أنفسُهُمْ مِنْ مَوتِ رسولِ اللهِ ﷺ وهلاكِهِ أو عَودِهِ إلى دينِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي الأمْرُ بالهلاكِ أو يومُ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي غَرَّكُمْ عنْ دينِ اللهِ الشيطانُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ قُرِئَ بالياءِ والتاءِ[1]، وأكثرُهُمْ على الياءِ، ومَعْناهُما واحدٌ، أي لا يكونُ لهمْ فِدْيَةٌ يومَئذٍ، ليسَ أنهُ تكونُ لهمْ فِدْيةٌ، ولا تُؤخَذُ، أو يقولُ على التَّمْثيلِ أي لو كانَ لهمْ فِدْيَةٌ لكانَتْ لا تُقْبَلُ منهمْ. يُخْبِرُ أنَّ أمرَ الآخِرةِ على خِلافِ ما يكونُ في الدنيا؛ إذْ في الدنيا رُبَّما يُحتالُ لِدَفْعِ البلاءِ بالفِداءِ مَرَّةً وبالشَّفاعةِ ثانياً.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي تأْوُونَ إليها.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ أي أولَى بِكُمْ وأحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي بئسَ ما يَصيرونَ إليها.

ثم في الآيةِ نَقْضُ قولِ المعتزلةِ في تَخْليدِ أصحابِ الكبائرِ في النارِ، لأنهُ تعالى جَعَلَ الناسَ على ثلاثِ فِرَقٍ، وأنزَلَهُمْ منازِلَ ثلاثةً: المُنافقينَ والكافرينَ كُفْرَ تَصْريحٍ والمؤمنينَ، وجَعَلَ النارَ لأهلِ الكُفْرِ وأهلِ النِّفاقِ، ولم يَجْعَلْها لِغَيرِهِما، وصاحبُ الكبيرةِ، ليسَ هو بِمُنافقٍ ولا كافرٍ عندَهُمْ.

وكذلكَ ما قَسَّمَ اللهُ تعالى الناسَ أقساماً ثلاثةً: السابِقِينَ وأصحابَ اليَمينِ وأصحابَ الشِّمالِ [وأصحابُ الشمالِ][2] هُمُ المُكَذِّبونَ، وأصحابُ الكبائرِ ليسوا بِمُكَذِّبينَ عندَهُمْ. وهو ما جَعَلَ النارَ إلّا لِلْمُكَذِّبينَ:

ألا تَرى أنهُ قالَ في آخرِهِ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾؟ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٤].

جَعَلَ الجنةَ لِلْمُقَرَّبينَ وأصحابِ اليَمينِ والنارَ لِلْمُكَذِّبينَ خاصةً، لم يَجْعَلْها لِغَيرِهِمْ. فَمَنْ جَعَلَها لِغَيرِهِمْ فهو مُخالِفٌ لظاهِرِ هذهِ الآياتِ التي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٤. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وما نَزَلَ قُرِئَ مُخفَّفاً ومُثقَّلاً[1]؛ فَمَنْ شَدَّدَ شَدَّدَ لِما سَبَقَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تعالى، ومَنْ خَفَّفَ جَعَلَ الفِعْلَ للحقِّ.

ثم الآيةُ تَحتَمِلُ وجوهاً:

أحَدُها: ما قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنها نزلَتْ في المُنافقينَ الذينَ أظهَرُوا الإيمانَ، وأضمَروا الكُفْرَ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أَنَى للذينَ آمَنوا ظاهراً، وأظهَروا المُوافَقَةَ للمؤمنينَ ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي إذا ذُكِرَ اللهُ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآنِ إذا يُتلَى عليهِمْ أنْ تَرِقَّ قلوبُهُمْ، وتُؤْمِنَ بهِ، لأنهمْ كانوا يَتَربَّصونَ برسولِ اللهِ ﷺ الدوائرَ / ٥٥٠ ـ أ/ ويَطمَعونَ بهلاكِهِ.

أمَّنَ اللهُ تعالى المؤمنينَ مِنْ ذلكَ، وأخوَفَ، وأيَسَ أولئكَ ممّا تَربصوا فيهِ مِنْ نزولِ الدوائرِ، فقالَ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ظاهراً ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والقرآنِ، وتَرِقَّ لذلكَ، وتُؤمِنُ بهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

وقالَ[2] تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على هذا التأويلِ؛ أي لا تكونوا كأولئكَ الذين تَمادَوا في الضلالِ وقَساوةِ القلوبِ لمّا طالَ عليهِمُ الوقتُ، وتَركوا النَّظَرَ في الكتبِ.

[والثاني][3]: أنْ تكونَ الآيةُ في أهلِ الكتابِ الذينَ كانوا مؤمنِينَ برسولِ اللهِ ﷺ قبلَ أنْ يُبْعَثَ.

فيقولُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُبعَثَ ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي كتابِهِمْ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآنُ أنْ يُؤمِنوا بهِ كما كانوا آمَنوا بهِ لمّا وَجَدوا بَعْثَهُ في كتابِهِمْ.

ويقولُ[4] تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي لا تكونوا كالذينَ كانوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أهلِ الكتابِ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي طالَ عليهِمْ أنْ يَنْظُروا في كُتُبِهِمْ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بطولِ تَرْكِ نَظَرِهِمْ فيها، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][5]: أنْ تكونَ الآيةُ في المؤمنِينَ الذينَ حَقَّقُوا الإيمانَ باللهِ ورسولِهِ، وهو مُخرَّجٌ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أنَى ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالنَّظَرِ والتأمُّلِ[6] في ذلكَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على خُشوعِ قلوبِهِمْ [كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] جَعَلَ وصفَ المؤمنِينَ أنْ تَوجَلَ قلوبُهُمْ][7] عندَ ذِكْرِ اللهِ، ويزدادَ لهمُ الإيمانُ واليقينُ بالنَّظَرِ فيهِ والتَّفكُّرِ وفَهْمِ ما فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي قد أنَى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن﴾ تُقْطَعَ شَهَواتُهُمْ وأمانِيُّهُمْ في الدنيا، وتَخْشَعَ قلوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي لا تَغْفَلوا عن كتابِ اللهِ وذِكْرِهِ، ولا تَتْرُكوا النَّظَرَ فيهِ والتَّفكُّرَ، فَتَغْفَلوا عما فيهِ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تكونوا أنتمْ كَهُمْ، فَتَقْسُوَ قلوبُكُمْ كما قَسَتْ قلوبُهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي كثيرٌ مِنْ أولئكَ الذينَ أُوتوا الكتابَ فاسِقونَ لِتَرْكِهِمُ النَّظَرَ في الكتابِ.

وجائزٌ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي المُعانِدونَ، والقليلُ منهمُ المُقلِّدونَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠ والزخرف: ٧٨] أي مُعاندونَ، وهُمُ الرؤساءُ والقادةُ الذينَ كابَروا رُسُلَ اللهِ، وعانَدوهُمْ إلّا قليلاً[8] منهمُ اتَّبَعُوهُمْ، وقَلَّدُوهُمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ذَكَرَ هذا، ليسَ على أنهمْ لم يكونوا عَلِموا أنَّ اللهَ هو يُحْيِي الأرضَ بعدَ مَوتِها، بل كانوا عالمينَ بذلكَ، لكنهُ ذَكَرَ كما ذَكَرَ لرسولِ اللهِ ﷺ حينَ[9] قالَ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي أشْعِرْ قلبَكَ في كلِّ وقْتٍ وساعةٍ الرُّبوبيَّةَ للهِ تعالى والوَحْدانيَّةَ لهُ.

فَعَلَى هذا يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أشعِروا قلوبَكُمْ في كلِّ وقْتٍ جَعْلَ الألوهيَّةِ والرَّبوبيَّةِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٦. (٢) في الأصل وم: ثم وقوله. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) في الأصل وم: ثم وقوله. (٥) في الأصل وم: ويحتمل. (٦) من م، في الأصل: والتأويل. (٧) ساقطة من م. (٨) في الأصل وم: قليل. (٩) في الأصل وم: حيث.

لله تعالى وصَرْفَ العِبادةِ إليهِ والتّنزيهِ والتّبرئةَ لهُ ممّا لا يَليقُ بهِ [ممّا يُوصَفُ بهِ][١] الخَلْقُ؛ إذْ عَلِمْتُمْ أنهُ يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوتِها، فاعْلَموا أنهُ يَمْتَحِنُكُمْ بأنواعِ المِحَنِ؛ إذْ لا يُحْتَمَلُ إحياءُ ما ذَكَرَ بغَيرِ فائدةٍ وتَرْكُهُمْ سُدًى.

أو يقولُ: قد عَلِمْتُمْ أنّ اللهَ، هو يُحْيِي الأرضَ بَعْدَ مَوتِها، وأنتمْ تَرْغَبونَ في ما أحياهُ اللهُ، وتُصيبونَ منهُ، وتَجْتَهِدونَ في نَيلِ ذلكَ وإصابَتِهِ، فاجْتَهِدوا في إصابةِ البركاتِ الدائمةِ في الحياةِ الباقيةِ.

أو يقولُ: لمّا عَلِمْتُمْ أنهُ قادرٌ على إحياءِ الأرضِ بَعْدَ مَوتِها فاعْلَموا أنهُ قادرٌ على البَعْثِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ أنّ حَرْفَ: لَعَلَّ مِنَ اللهِ تعالى يُخَرَّجُ على الإيجابِ. لكنْ يُخَرَّجُ ههنا على التّرَجّي وإطماعِ العَقْلِ للآياتِ والفَهْمِ لها إذا نَظَروا فيها، وتأمّلوا أنها آياتٌ مِنَ اللهِ تعالى، أو أنْ يَرْجِعَ ذلكَ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ لو خَرَجَ حَرْفُ: لَعَلَّ للإيجابِ دونَ التّرَجّي، وهُمُ الذينَ عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ يَعْقِلونَ أنها آياتٌ، ويُؤمِنونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قُرِئَ مُشَدَّدَ الصادِ والدالِ ومُخَفَّفَ الصادِ[٢]. فَمَنْ شَدَّدَهُ جَعَلَهُ مِنَ التَّصَدُّقِ: أي المُتَصَدِّقينَ والمُتَصَدِّقاتِ، فأدْغَمَ التاءَ في الصادِ، فصارَ[٣] مِثْلَ المُزَّمِّلِ والمُدَّثِّرِ. يُؤَيِّدُ ذلكَ ما ذُكِرَ في حَرْفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أنهُ قَرَأَهُ بالتاءِ: إنّ المُتَصَدِّقينَ والمُتَصَدِّقاتِ. ومَنْ خَفَّفَهُ جَعَلَهُ[٤] مِنَ التَّصديقِ والإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ قد ذَكَرْنا تأويلَهُ في ما تَقَدَّمَ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ سَمّى المؤمنينَ صِدِّيقينَ [والصِّدّيقُ][٥] لا يُقالُ إلّا لِمَنْ يَكْثُرُ منهُ التّصديقُ، وقد يَكْثُرُ مِنْ كلِّ مؤمنٍ التّصديقُ، وإنْ كانَ ما يَأتي بهِ، إنما هو شيءٌ واحدٌ، نَحْوُ أنهُ إذا صَدَّقَ اللهَ صَدَّقَ رسُلَهُ[٦] في ما أخبَروا عنِ اللهِ تعالى وفي ما دَعَوا[٧] إلى ما دَعَوا، وبَلَّغوا عنِ اللهِ إلى الناسِ، وصَدَّقَ الخلائقَ جميعاً في ما شَهِدوا على وَحْدانيّةِ اللهِ تعالى وأُلوهيّتِهِ مِنْ حيثُ شهادةُ الخِلْقةِ وشهادةُ الأخبارِ في حقِّ المؤمنينَ. فَتَصديقُهُ يَكْثُرُ، وإنْ كانَ الكلامُ في نفسِهِ يَقِلُّ، وهو كما قُلْنا لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في جَوازِ الخُطْبةِ بِتَسْبيحةٍ أو تهليلةٍ: إنها كلمةٌ وَجيزةٌ، لو فُسِّرَتْ، وبُسِطَتْ صارتْ خُطْبَةً طويلةً، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: إنّ أبا بكرٍ ﷺ فُضِّلَ باسْمِ الصِّدّيقِ على غَيرِهِ مِنَ الأُمّةِ، فإذا اسْتَحَقَّ غيرُهُ مِنَ المؤمنينَ هذا الاسْمَ لم يَخْتَصَّ هو بِتلكَ الفَضيلةِ.

قيلَ: إنّ أبا بكرٍ ﷺ سُمّيَ صِدّيقاً، وخُصَّ بهِ مِنْ بَينِ سائرِ الصحابةِ والمؤمنينَ لِمَعْنًى اخْتَصَّ بهِ مِنْ غَيرِهِمْ، وغيرُهُ مِنَ المؤمنينَ [ما][٨] سُمّوا صِدّيقينَ مِنْ بينِ سائرِ أهلِ الأرضِ جميعاً إلّا في [مُقابَلَتِهِمْ كَهُوَ ما][٩] اخْتَصَّ بهذا الاسْمِ مِنْ بَينِ سائرِهِمْ إلّا في مُقابَلَةِ النّبيِّ وَسائرِ الأنبياءِ ﷺ هذا هو مَعْنى تَفْضيلِهِ. والفَضْلُ عندَ المُقابَلَةِ يكونُ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ ذلكَ الاخْتِصاصُ لهُ لِلاعْتِقادِ والمُعامَلَةِ جميعاً، وسائرُ المؤمنينَ سُمّوا صِدّيقينَ لِلاعْتِقادِ خاصّةً، ومَنْ وَفّى الأمْرَينِ جميعاً كانَ أفْضَلَ مِمَّنْ وَفّى أمْراً واحداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ جَعَلَ قولَهُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ على الابْتِداءِ مَقطوعاً مِنْ قولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ومنهمْ مَنْ وَصَلَهُ بهِ.

فَمَنْ قَطَعَهُ عنهُ فإنهُ يقولُ: الشهداءُ هُمُ الرسُلُ لِقولِهِ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؟ [النساء: ٤١] وإخبارِهِ[١٠] أنّ لهمْ أجرَهُمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٨٧. (٣) في الأصل وم: فيصير. (٤) في الأصل وم: جعلها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: رسوله. (٧) في الأصل وم: دعواهم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: مقابلته كهو.
(١٠) في الأصل وم: ثم أخبر.

ومَنْ قالَ: إنهُ [موصولٌ بالأوّلِ][١] ذهبَ إلى أنَّ المؤمنِينَ شُهَداءُ على الناسِ كقولِهِ تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣] سَمّاهُمْ شهداءَ على غَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ، واللهُ أعلَمُ.

ولأهلِ الاعتِزالِ أدنى تَعلُّقٍ بظاهِرِ هذهِ الآيةِ؛ وذلكَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى إذا ذَكَرَ المؤمنِينَ على الإطلاقِ ذَكَرَ على إثْرِ ذلكَ ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الكراماتِ والثوابِ الجزيلِ، وإذا ذَكَرَهُمْ معَ جَريمَتِهِمْ ذَكَرَ الوعيدَ لهمْ؛ يَستَدِلُّونَ بِذِكْرِ الوَعيدِ على إثْرِ ذلكَ على أنهمْ قد خَرَجُوا مِنَ الإيمانِ.

لكنْ ليسَ لهمْ بذلكَ دليلٌ لأنهُ ذَكَرَ مُقابِلَ ما ذَكَرَ للمؤمنِينَ مِنَ الكراماتِ لِلْكُفّارِ الجحيمَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ﴾ / ٥٥٠ ـ ب/ ففي ظاهِرِ ما ذَكَرَ مِنْ هذهِ الآيةِ ونَحوِها مِنَ الآياتِ لأهلِ الإلحادِ طَعْنٌ عظيمٌ؛ فإنهمْ يقولونَ: إنْ كانَتِ الحياةُ لَعِباً ولَهْواً فَلِمَ أنشأها اللهُ لَعِباً ولَهْواً، ولا مُنْشِئَ سِواهُ؟

فَلَهُمْ مَوضِعُ الطَّعْنِ على هذا الوجْهِ، ولهمْ دَعْوى التَّناقُضِ أيضاً فيهِ لِما ذَكَرَ في بعضِ الآياتِ، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] وقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقالَ في هذهِ الآيةِ وغَيرِها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

فنَقولُ: إنَّ الآيةَ تُخرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: على التَّقديمِ والتَّأخيرِ معَ الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: اعْلَموا أنَّ مَثَلَ الحياةِ الدنيا وزينَتِها وتفاخُرِها وتكاثُرِها ولَعِبِها ولَهْوِها، أي [ما][٢] تَتَزَيَّنونَ بهِ[٣]، وتَتَفاخَرونَ بالأولادِ والأموالِ، وتَتَلَهَّوْنَ بهِ[٤]، وتَلْعَبونَ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ثم يَصيرُ ما ذَكَرَ حتى لا يُنْتَفَعُ بِهِ. فَعَلَى ذلكَ الحياةُ الدنيا.

والثاني: أنما الحياةُ على ما هي عندَكُمْ وعلى ما اتَّخَذْتُموها وعلى ما ظَنَنْتُمْ أنهُ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعْدَهُ، كانَ إنشاؤُها عَبَثاً ولَهْواً؛ إذْ لو كانَ على ما ظَنُّوا لم يكُنْ إنشاؤُها إلّا للإفناءِ والإهلاكِ خاصَّةً، وبِناءُ البِناءِ المُحْكَمِ للإفناءِ خاصَّةً عَبَثٌ وسَفَهٌ، ليسَ بِحِكمةٍ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] وكانَ ظَنُّهُمْ أنْ لا بَعْثَ ولا حياةَ بَعْدَهُ.

فَعَلَى ما كانَ ظَنُّهُمْ كانَ إنشاؤُها لَعِباً ولَهْواً [وعلى[٥] ما كانَ عندَ أهلِ الإلحادِ، هو[٦] سَفَهٌ وباطلٌ][٧].

فأمّا الحياةُ الدنيا على ما هي عندَ أهلِ التوحيدِ [فهي][٨] حِكْمةٌ وحَقٌّ وصوابٌ وقُدرةُ اللهِ تعالى عليهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

[والثالثُ][٩]: جائزٌ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي لو قوبِلَتْ بالحياةِ الآخِرَةِ لَكانَ عَبَثاً ولَهْواً، لأنَّ الدنيا بُنِيَتْ على الفَناءِ والانْقِطاعِ والزَّوالِ عنْ قريبٍ، والآخِرَةُ على الدَّوامِ والبَقاءِ، وهو ما ذَكَرَ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] لأنها باقيةٌ. أو يقولَ: ﴿أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ للدنيا خاصَّةً [لَعِبٌ ولَهْوٌ، أي مَنْ جَعَلَ الحياةَ الدنيا للدنيا خاصَّةً][١٠] فتكونُ لَعِباً ولَهْواً، ومَنْ جَعَلَ الحياةَ الدنيا زاداً للآخِرَةِ وبُلْغَةً إليها، فهي[١١] ليسَتْ بلَعِبٍ، وهي[١٢] ما قالَ تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧].

أخبَرَ أنَّ الإنفاقَ للدنيا كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ [وقالَ][١٣] في النَّفَقةِ التي تكونُ في الدنيا لحياةِ الآخرةِ: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١] واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: موصولة. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) في الأصل وم: فعلى. (٦) في الأصل وم: وهو. (٧) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم بعد: وصواب. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: وهي. (١٢) في الأصل وم: وهو. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الإشكالُ أنهُ كيف خصَّ الكُفّارَ بإعجابِهِمْ بالنباتِ؟ وقد أعْجَبَ النباتُ أهلَ الإيمانِ؟

فنقولُ: لأنَّ الكفار يُعْجِبُهُمْ ظاهِرُ ذلكَ النباتِ وما يَرونَ مِنَ النُّزْهةِ، لا يَرونَ إلى ما ضُمِّنَ في ذلكَ النباتِ، وجُعِلَ فيهِ مِنَ المَنْفَعَةِ في العاقبةِ، لكنْ يَنْظُرونَ إلى ظاهِرِهِ.

وأمّا المؤمِنونَ فإنما[1] يُعْجِبُهُمْ ما في ذلكَ النباتِ منَ المَنْفَعَةِ في العاقبةِ، وإلى ذلكَ يكونُ نَظَرُهُمْ لا إلى ظاهِرِهِ، وهو كما شَبَّهَ إنفاقَ الكَفَرةِ بالريحِ التي فيها صِرٌّ، يُصيبُ حَرْثَ قومٍ لما لا يَقْصِدونَ بإنفاقِهِمْ سِوَى نفسِ الإنفاقِ، وشَبَّهَ نَفَقَةَ أهلِ الإيمانِ بالحبّةِ التي تُنْبِتُ ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] لِما كانَ مَقْصَدُهُمْ في الإنفاقِ عاقِبَتَهُ لا عينَ الإنفاقِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الكفارِ الزُّرّاعَ، وبِهِ فَسَّرَ بعضُ أهلِ الأدبِ، وهو كقولِهِ: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]. فَعَلَى هذا التأويلِ يَرْجِعُ إلى الكُلِّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي لهؤلاء الذينَ اتَّخَذُوا الدنيا لَعِباً ولَهْواً، وصَيَّروها تَفاخُراً وتكاثُراً دونَ أنْ يَتَّخِذوها زاداً وبُلْغَةً إلى الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ فهو للمؤمنينَ الذينَ اتَّخذوا الدنيا للآخِرَةِ، وعَقَلوا الآياتِ التي بَيَّنَها لهمْ لِلنَّظَرِ فيها والتَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ [فَتأمَّلوها، ووَضعوها مَواضِعَها][2] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هو يُخَرَّجُ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قالَ إمامُ الهُدَى ﷺ في قولِهِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾: إنَّ الحياةَ الدنيا وحُبَّها لنفسِهِ وعلى ما أُنشِئَتْ، وجُعِلَتْ لهُ، حِكْمَةٌ وحقٌّ وسُرورٌ، ليسَتْ بِغُرورٍ، وأمّا اخْتِيارُها وحُبُّها لِغَيْرِهِ واسْتِعْمالُها لِغَيرِ الذي أُنشِئَتْ، وجُعِلَتْ [فهو][3] غُرورٌ ولَعِبٌ ولَهْوٌ، لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئاً اسْتَكْثَرَ منهُ، وحَبَسَهُ لنفسِهِ[4]، وحَفِظَهُ مِنْ تَلَفِهِ وضَياعِهِ، واسْتَبْقاهُ لوقتِ حاجتِهِ ويومِ فَقْرِهِ. فَعَلَى ذلكَ مَنْ جَمَعَ الدنيا لنفسِهِ، وأحَبَّها، واسْتَعْمَلَها في ما أُذِنَ لهُ، وأُمِرَ، وهو أنْ يَجْعَلَها زاداً للآخِرَةِ وبُلْغَةً إليها. فإذا عَلِمَ ذلكَ اسْتَكْثَرَ منها عندَ اللهِ لِيَومِ فاقَتِهِ.

فَمَنْ أحَبَّها واخْتارَها لهذا فهو ليسَ بِغُرورٍ ولا لَعِبٍ، بل سُرورٌ وبَهْجَةٌ، ومَنْ طَلَبَها لِغَيْرِهِ، واسْتَعْمَلَها في غَيرِ ما أُنشِئَتْ كانَ غُروراً ولَعِباً على ما ذَكَرَ. فَخَرَجَ قولُهُ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ على ما يَخْتارونَها، ويُحِبُّونَها.

وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أنْشأ لنا هذهِ النِّعَمَ حينَ[5] قالَ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ إلى ذلكَ بالتعظيمِ لها والإجلالِ لا بِعَينِ الاسْتِخْفافِ والهَوانِ.

ألا تَرَى أنَّ مَلِكاً مِنْ مُلوكِ الأرضِ لو أكْرَمَ أحداً بِكرامةٍ، وأهْدَى هَدِيَّةً، ثم عَلِمَ منهُ الاسْتِخْفافَ بِهَدِيَّتِهِ، يَسْلُبُ منهُ هديَّتَهُ، ويَسْتَحْقِرُهُ؟

فَعَلَى ذلكَ يجبُ أنْ يَتَلَقَّى نِعَمَ اللهِ تعالى بالتَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ والقَبولِ الحَسَنِ لا على الاسْتِخْفافِ بها والإهانةِ.

ثم الناسُ بَعْدَ هذا رجلانِ: رجلٌ يَرْغَبُ في نِعَمِ الدنيا وجَمْعِها وجَعْلِها عندَ اللهِ ذُخراً وزاداً لِيَومِ فَقْرِهِ وحاجَتِهِ، ورجلٌ زَهِدَ فيها خوفاً لِلتَّقْصيرِ في عبادةِ اللهِ تعالى في حقوقِهِ أنْ يَشْتَغِلَ بها، ويَمْنَعُهُ ذلكَ عنْ أداءِ ما عليهِ والاقْتِداءِ برسولِ اللهِ ﷺ في ما أمَرَهُ، ولَهُ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ بِنَبِيِّهِ ﷺ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فتأملوا ووضعوها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) اللام ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: حيث.

مَنْ تَرَكَ الدنيا وما أنشأ اللهُ تعالى فيها مِنَ النِّعَمِ استِخفافاً بها وهَواناً فهو الجاهلُ المُستَخِفُ بِنِعَمِ اللهِ تعالى الغافلُ عمّا أُنشِئَتْ لهُ الدنيا وما فيها.

فهذا والذي طَلَبَ الدنيا للدنيا مَذمومانِ[١]، والذي طَلَبَها لنفسِهِ زاداً للآخِرَةِ والذي زَهِدَ فيها مَحمودانِ، واللهُ أعلَمُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما ذُكِرَ أنَّ حُبَّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ وأنَّ مَن أحبَّها لِغَيرِهِ أي[٢] لِغَيرِ الذي جُعِلَتْ لهُ فيكونُ رأسَ كلِّ خَطيئةٍ. ومَنْ أحبَّها لنفسِهِ، واتَّخَذَها زاداً للآخِرَةِ فهو[٣] رأسُ كلِّ حَسَنَةٍ وطاعةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقولُ: اجْعَلوا المُسابَقَةَ في ما بَينَكُم في مَغفِرَةِ ربِّكُمْ إلى جَنَّةٍ لا إلى جَمْعِ الأموالِ والأولادِ. وكانَ أهلُ الكُفرِ جعَلوا المُسابَقَةَ في الدنيا في جَمْعِ الأموالِ والتَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ بها، فيقولُ لأهلِ الإيمانِ: اجْعَلوا أنتمُ المُسابَقَةَ في طَلَبِ مَغفِرَةِ اللهِ وجَنَّتِهِ[٤]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ: سابِقوا آجالَكُمْ بأعمالِكُمُ التي تُوجِبُ لكمُ المَغفِرَةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية ذَكَرَ سَعَةَ الجَنَّةِ لأنَّ العَرْضَ إنما يُذكَرُ لِسَعَةٍ تكونُ للشيءِ، وقد ذَكَرَ سَعَةً [لها حينَ][٥] قال: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٤] وقال أيضاً: ﴿وَفِيهَا / ٥٥١ ـ أ/ مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] ونَحْوَ ذلكَ؛ ذَكَرَ ما فيها مِنَ السَّعَةِ وسَعَتَها، واللهُ أعلَمُ.

ثم ذِكْرُ عَرْضِها ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ يُخَرَّجُ على التَّحديدِ والتَّقديرِ أنَّ عَرْضَها مِثلُ عَرْضِ السمواتِ والأرضِ، لكنْ لِما لا شيءَ أوسَعُ في أوهامِ الخَلْقِ مِمّا ذُكِرَ، وهو كقولِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] ذَكَرَ دَوامَها: لا شيءَ أبْقَى وأدوَمَ منها في الأذهانِ، وإلّا كانتا تَفنَيانِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنْ تَصيرَ السماءُ والأرضُ جميعاً جَنَّةً لهمْ.

ثم وَصْفُ الجَنَّةِ بالسَّعَةِ ووَصْفُ النارِ بالضِّيقِ حيثُ [قولُهُ تعالى][٦]: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وذلكَ أنهُ ليسَ في فَضْلِ النارِ على قَدْرِ المَجعولِ عذاباً لم يَصِلْ إلى المُعذَّبِ بها فائدةٌ، فَضُيِّقَتْ، وفَضْلُ الجنةِ على قَدْرِ الحاجةِ لَذَّةٌ وسُرورٌ ومَنفَعَةٌ، فَوُسِّعَتْ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم أخبَرَ أنها ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والإيمانُ باللهِ تعالى، هو أنْ نُصَدِّقَ كلَّ شيءٍ يَشهَدُ على وحدانِيَّةِ اللهِ وألوهِيَّتِهِ، والإيمانُ برُسُلِهِ، هو أنْ نُصَدِّقَهُمْ في ما أخبَروا عنِ اللهِ تعالى. وكلُّ صاحبِ كبيرةٍ مُصَدِّقٌ بالذي ذَكَرْنا، هو[٧] مؤمنٌ، وذلكَ على المعتزلةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ دلَّتِ الآيةُ أنَّ ما يُعطي مِنَ الثوابِ لِعَبيدِهِ فَضلٌ منهُ، وأنَّ ما سَمّاهُ جَزاءً وأجراً لِسابقٍ منهُ إليهِمْ مِنَ الإحسانِ والنِّعَمِ ما يُصَيِّرُ تلكَ الأفعالَ، وإنْ كَثُرَتْ، شُكراً لأدنى نِعمَةٍ، وإنْ طالَ عُمُرُهُ، فكيفَ يَستَوجِبُ الجزاءَ والثوابَ على تلكَ الأعمالِ؟ [ولكنْ بِفَضلِهِ ورحمتِهِ يَجْعَلُ لتلكَ الأعمالِ][٨] ثواباً وجَزاءً، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي ذَكَرَها في كتابٍ، كانَ ذلكَ الكتابُ قَبلَ أنْ [نَبرَأَ تلكَ][٩] المصائبَ، أي نَخلُقَها؛ إذْ لا يَحتَمِلُ كونُ أنفُسِ تلكَ المصائبِ في الكتابِ قَبلَ خَلقِها، فَدَلَّ أنهُ على كَونِ ذِكرِ المَصائبِ فيهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] [ليسَتْ عَينَ تلكَ الشجرةِ في القرآنِ][١٠] ولكنْ ذَكَرَها فيهِ.

---

(١) في الأصل وم: مأمونان. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: فهي. (٤) الواو ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فيها حيث.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: فهو. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: نبراها تلك.
(١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ ما رُويَ في الخَبَرِ أنهُ نَهَى أنْ يُسافَرَ بالقرآنِ إلى أرضِ العَدُوِّ، أي نَهَى أنْ يُسافَرَ بالذي كُتِبَ فيهِ القرآنُ، وإلّا لم يكُنْ عَينَ القرآنِ في ذلكَ المُصْحَفِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ مِنَ المصائبِ، وذلكَ يُخَرَّجُ على المجازِ دونَ الحقيقةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ منهمْ مَنْ قالَ: مِنْ قَبْلِ أنْ نَخلُقَ تلكَ المَصائبَ، ومنهُ مَنْ قالَ: مِنْ قَبْلِ أنْ نَبرَأَ تلكَ الأنفسَ والأرضَ، والأوّلُ أظْهَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

[أحَدُهما: أنّ][1] كثرَةَ ما يُصيبُ الخَلْقَ في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ يَسيرٌ على اللهِ غَيرُ شديدٍ، ليسَ كملوكِ الأرضِ لأنَّ ما يصيبُ حَشَمَهُمْ وخَدَمَهُمْ مِنَ المَصائبِ يَشتَدُّ عليهِمْ لِما أنَّ قِوامَهُمْ بِحَشَمِهِمْ وخَدَمِهِمْ، ولهمْ مَنافِعَ. فَيُخْبِرُ اللهُ تعالى بهذا أنْ ليسَ لهُ في بَقاءِ الخَلْقِ مَنْفَعَةٌ، ولا في ذهابِهِمْ وفَنائِهِمْ ضَرَرٌ، فذلكَ يكونُ عليهِ يسيرٌ.

والثاني: أنَّ كتابَةَ ما لم يكُنْ بَعْدُ، ولم يُخلَقْ، وعِلْمَهُ قَبْلَ كونِهِ، على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ؛ يُخبِرُ أنه عالمٌ في الأزلِ بِكَونِ الأشياءِ في أوقاتِها، لا يَصْعُبُ عليهِ شيءٌ، ولا يَشْتَدُّ عليهِ العِلْمُ بها قَبْلَ كَونِها وقَبْلَ ظهورِها كما يَشْتَدُّ على الخَلْقِ، ويَصْعُبُ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيَةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العبادِ لأنَّ اسْمَ المَصائبِ، يَقَعُ على ما لِلْخَلْقِ فيهِ صُنْعٌ كما يَقَعُ على ما لا صُنْعَ لهمْ فيها.

ثم إضافَةُ[2] اللهِ تعالى خَلْقَها إلى أنْفُسِها مُطْلَقاً بقولِهِ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ دَلَّتْ أنَّ أفعالَ العبادِ مَخْلُوقَةٌ للهِ تعالى.

الا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى ما يُصيبُ بأيدي الخَلْقِ مُصيبةً، فقالَ: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] وقالَ في آيَةٍ أخرَى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾؟

قالتِ المُعتَزِلَةُ: يقالُ: أصابَنا كذا [في ما][3] لا صُنْعَ لِلْخَلْقِ [في ذلكَ. فأمّا في ما [فيهِ][4] صُنْعٌ لِلْخَلْقِ][5] فَيُقالُ[6]: أصِبْنا بكُمْ.

هذا فاسدٌ؛ فإنهُ جائزٌ أنْ يُقالَ في كلِّ ما أصابَكَ: أُصِبْتَهُ، وما [أصابَتْكَ إصابَتُهُ][7] لأنهُ إذا أصابَكَ شيءٌ فقد أُصِبْتَهُ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى في طِباعِ الخَلْقِ الحُزْنَ والأسَى على ما فاتَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ، ويَنْزِلُ بهمْ [مِنَ][8] البلاءِ والشِّدَّةِ، والفَرَحَ والسُّرورَ بما يَنالونَ مِنَ النِّعْمَةِ. هذا هو المُنْشَأُ والمَجعولُ في طِباعِهِمْ.

ثم يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ بالنَّهْيِ عنِ الأسَى والحُزْنِ بِفَوتِ النِّعْمَةِ وعنِ الفَرَحِ والسرورِ عندَ إصابتِها على وجوهٍ:

أحَدُها: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: لئلا تَستَكْثِروا مِنَ الأسَى والحُزْنِ على ما فاتَكُمْ، فَيَحْمِلَكُمْ ذلكَ على الشَّكْوَى مِنَ اللهِ تعالى ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي لا تَستَكْثِروا الفَرَحَ والسرورَ حتى يَحمِلَكُمْ ذلكَ على الطُّغيانِ والعُدْوانِ.

ومِثْلُهُ ذُكِرَ في الخَبَرِ: «أعوذُ باللهِ مِنَ الفَقْرِ والنَّسيءِ والغِنَى المُطْغِي» [بمعناه الترمذي ٢٣٠٦] واللهُ أعلَمُ.

والثاني: يقولُ: لِكَيلا يَشْغَلَكُمُ الأسَى والحُزْنُ على ما فاتَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ حتى يَفوتَكُمْ أضعافُ ذلكَ، وهو ما وَعَدَ لهمْ مِنَ الثوابِ إذا صَبَروا كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقولِهِ[9] تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: أضاف. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يقال. (٧) في الأصل وم: أصبته أصابتك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ثم قال.

يقولُ: لا يَشغَلْكُمُ الجَزَعُ وتَرْكُ الصَّبرِ عمّا[1] وَعَد لكمْ مِنَ الصلاةِ والرحمةِ والاهتِداءِ، ولِذلِكَ قيلَ: الجَزَعُ في المُصيبةِ أعظَمُ المُصيبتَينِ، ويَقولُ أيضاً: ولا يَشغَلْكُمْ شِدَّةُ الفَرَحِ والسرورِ بما آتاكُمْ عنِ الشُّكرِ حتى تَفوتَكُمُ الزيادةُ على ذلكَ، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ الزيادةَ على النِّعمةِ إذا شُكِرَ بقولِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى ما كانَ مِنكُمْ مِنَ الجريمةِ حتى فاتَكُمْ ذلكَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى تَفريطِكُمْ في جَنْبِ اللهِ، وارْجِعوا عنْ ذلكَ، ولِذلكَ يقولُ: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى إحسانِ اللهِ الذي كانَ إليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يقولَ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ولكنِ انْظُروا إلى ما امْتَحنَكُمْ بهِ وابْتَلاكُمْ؛ إذْ هو امْتَحَنَ بَعْضاً بالشدائدِ والبَلايا، وأمَرَهُمْ بالصَّبْرِ على ذلكَ، وبَعْضاً بالسَّعَةِ والرَّخاءِ، وأمَرَهُمْ بالشُّكرِ على ذلكَ، فاصْبِروا، ولا تَجْزَعوا إنْ فاتَتْكُمُ النِّعَمُ، وأصابَتْكُمُ المَصائبُ، واشكُروا لهُ، ولا تَفْرَحوا عندَ النِّعَمِ فرحاً، يكونُ بَطَراً وأشَراً.

أو يقولُ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ فإنَّ الذي أُخِذَ منكُمْ لم يكُنْ في الحَقيقةِ لكُمْ، إنما هو لِغَيرِكُمْ، ومَنْ كانَ عندَهُ مالٌ لآخَرَ، فيأخُذُهُ، فلا يَجبُ أنْ يَحزَنَ على ذلك ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ قُرِئَ مَمْدوداً ومَقْصوراً[3]. فَمَنْ مَدَّهُ ردَّ الفِعْلَ إلى اللهِ تعالى، ومَنْ قَصَرَهُ جَعَل الفِعْلَ لِذلكَ الشيءِ لِمُوافقةِ قولِهِ ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولم يَقُلْ أفاتَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ولكنْ يُحِبُّ ضِدَّ ذلكَ وخِلافَ[4] المُختالِ المُتَكبِّرِ، فَيُحِبُّ المُتواضِعَ الخاضِعَ؛ والفَخورُ، هو الذي يَفتَخِرُ بما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهِ وعلى الناسِ، ويُحِبُّ الشكُورَ الذي يَشكُرُ على نِعَمِهِ بالتَّوسيعِ على عبادِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا كلُّهُ وَصْفَ الكفارِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يُحِبُّ كلَّ كَفّارٍ لقولِهِ[5] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥ و...] أي يُحِبُّ المؤمِنَ، لأنَّ المؤمنَ، يكونُ صَبّاراً على المَصائبِ/ ٥٥١ ـ ب/ شَكوراً لِنَعْمائِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وتفسيراً[6] لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على الابْتِداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٦ و٧] كأنَّ قولَهُ تعالى: الذينَ يَحمِلونَ العرشَ مَفصولاً مِنَ الأوَّلِ. وكذلكَ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ بُخلِهِمْ في آيةٍ أُخرى، فقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] بَخِلوا بالإنفاقِ على المؤمنينَ، أو بَخِلوا بالإنفاقِ على أتباعِهِمْ لِيَبقَى الكَرَمُ والرئاسةُ عليهِمْ.

وجائزٌ أنهُ يكونَ ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ أنَّ ذلكَ نَزَلَ في الرؤساءِ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ بَخِلوا بِبَيانِ بَعْثِ[7] محمدٍ ﷺ الذي كانَ في كُتُبِهِمْ، وأمَروا أمثالَهُمْ وأشكالَهُمْ بِكِتْمانِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي ومَنْ يُعْرِضْ عنْ ذلكَ فاللهُ هو الغَنِيُّ الحميدُ؛ الغَنِيُّ عنْ عبادَتِكُمْ وعمّا دَعاكُمْ إليهِ؛ إذْ لم يَدْعُكُمْ إلى ما دعاكُمْ لِحاجَةِ نفسِهِ؛ إذْ هو الغَنِيُّ بذاتِهِ، الحَميدُ بِفِعالِهِ، أي بما عَلِمَ منكُمْ مِنَ الرَّدِّ لرسالتِهِ، لا يَخْرُجُ فِعْلُهُ مِنْ أنْ يكونَ مَحْموداً، ولا يَصيرُ لِفِعْلِهِ إلى أعدائِهِ بما صَنَعَ غيرَ حميدٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ وجوهٌ أيضاً:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: على ما. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٨٨. (٤) في الأصل وم: وخلافه. (٥) في الأصل وم: كقوله يحب. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: صفة.

أحدُها: أنّ المصائبَ ربّما تَجري على أيدي الناسِ، وتُصيبُهُمْ منهمْ، فقالَ: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ ما جَرى على أيدي الناسِ لئلا يَزولَ، فَيَحمِلَهُمْ ذلكَ على العداوةِ والبَغضاءِ، ولكن يَرونَ ذلكَ مكتوباً عليهِمْ مِنَ اللهِ تعالى وكذلكَ ما ذَكَرَ في ما يُؤتيهِمْ مِنَ النِّعَمِ على أيدي الخَلْقِ، فلا يُزالُ ذلكَ منهمْ فَيَشغَلَهُمْ عنِ القِيامِ بِشُكرِ الرَّبِّ، جَلَّ، وعلا، ولكنْ يَزولُ مِنْ فَضلِ اللهِ تعالى ومَنِّهِ، فَيَشكرونَهُ.

والثاني: يَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ عنِ الحُزنِ أمراً بالفَرَحِ، أي لا تأسَوا على ما فاتَكُمْ، ولكنِ افْرَحوا بما لَعَلَّ الذي [فاتَكُمْ لو لم يَفُتْكُمْ لكانَ يَشغَلُكُمْ][1] عنِ القيامِ بِحُقوقِ اللهِ تعالى وأداءِ ما عليكمْ[2] مِنَ الفرائضِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أمرٌ بالحُزنِ، وقد يُذكَرُ [نَفيُ][3] الشيءِ، ويُرادُ بهِ إثباتُ ضِدِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦] أي خَسِرَتْ تِجارَتُهُمْ. ويَنبَغي أنْ تُتَلَقّى نِعَمُ اللهِ على وجهَينِ:

أحَدُهما: بِحُسْنِ القَبولِ لها والتَّعظيمِ والشُّكرِ لِلْمُنعِمِ إذْ أغناهُ بذلكَ عنِ النَّظَرِ بما في أيدي الناسِ ودَفعِ الحاجةِ، وذلكَ مِنْ أعظمِ [النِّعَمِ][4].

والثاني: بالخوفِ[5] لِما لَعَلَّهُ فَعَلَ ذلكَ بهِ استِدراجاً وامتِحاناً، إذِ الأموالُ ربَّما تكونُ فِتنَةً وبَلاءً، أو تَشغَلُهُ عنْ أداءِ ما عَلَيهِ، إذْ كانَ سَبَبَ استِدراجِهِ وبَلائِهِ، فأُخِذَ منهُ، أو لما يَحصُلُ[6] بذهابِهِ إلى أداءِ الفرائضِ مِنَ العباداتِ، وكانَ ذلكَ يَمنَعُهُ، ويُحزِنُهُ مِنْ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: لِما لَعَلَّ قُوتَهُ يَحوجُهُ إلى ما في أيدي الناسِ، وكانَ غَنِيّاً عنهمْ.

[والثاني][7]: لِما لَعَلَّ ذلكَ عقوبةٌ لِتَفريطٍ كانَ منهُ كقولِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] واللهُ أعلَمُ.

ثم أضافَ ما نالوا مِنَ النِّعَمِ إلى نفسِهِ حينَ[8] قالَ: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ ولم يُضِفْ ما فاتَهُمْ إلى نَفسِهِ، وهو كما قالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩].

وهو ما ذَكَرْنا أنهُ جائزٌ أنْ يكونَ ما يَفوتُهُمْ مِنَ النِّعَمِ بِاكتِسابٍ وبسببٍ كانَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أرسَلْنا ما يُبَيِّنُ، ويُوَضِّحُ أنهمْ رسُلُ اللهِ، وأنَّ تلكَ الآياتِ التي أتَوا بها مِنْ عِندِ اللهِ لا باختِراعٍ مِنْ عِندِهِمْ لما هي خارجةٌ عنْ وُسْعِ البَشَرِ.

والثاني: ما يُبَيِّنُ صِدقَ الرسُلِ في خَبَرِهِمْ وعَدْلِهِمْ في حُكْمِهِمْ، أو يُبَيِّنُ ما لهمْ وما علَيهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ كقولِهِ في آيةٍ أُخرى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧].

ثم يَحتمِلُ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ الموازينَ المَعروفةَ التي بها تُستَوفى الحُقوقُ في ما بَينَ الناسِ وبها تُوفّى وبها تُحفَظُ حُقوقُ الأموالِ التي بَينَهُمْ وحُدودُها. فإنْ كانَ المُرادُ هذا فكأنهُ قالَ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الذي بِهِ يُحفَظُ الدينُ وحُدودُهُ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ الذي بهِ تُحفَظُ حُدودُ الأموالِ، لا يُزادُ على الحقِّ، ولا يُنقَصُ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بالميزانِ الحكمةَ إذْ ذَكَرَهُ على إثرِ الكتابِ كقولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: ٤٨] كأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والحِكمَةَ؛ فيكونُ الكتابُ بهِ[9] تُحفَظُ حُدودُ الأفعالِ والأقوالِ، وتكونَ الحكمةُ ما يقومُ الناسُ بها بالقِسطِ.

---

(١) في الأصل وم: فاتهم لو لم يفتهم لكان يشغلهم. (٢) في الأصل وم: عليهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يخاف. (٦) في الأصل وم: يصل. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: بها.

أو[1] أنْ تكونَ الحكمةُ ما أودعَ في الكتابِ مِنَ المَعاني.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: إنهما[2] واحدٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُخرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنزَلَ ما ذَكَرَ مِنَ الكِتابِ والميزانِ لِيُلْزِمَ الناسَ بالقيامِ بالعدلِ، وقد ألْزَمَهُمْ ذلكَ بما أنْزَلَ عليهمْ مِنَ الكتابِ والميزانِ، وبيَّنَ الحُدودَ.

والثاني: أنزَلَ ما ذَكَرَ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ على وجودِ القيامِ بالعَدْلِ.

فإنْ كانَ المُرادُ منهُ الوجودَ فهو راجعٌ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ. وإنْ كانَ على الإلزامِ فهو راجعٌ إلى الكلِّ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وإنْ كانَ [المرادُ][3] على وجودِ العبادةِ فهو يرجعُ إلى خاصٍّ مِنَ الناسِ.

وإنْ كانَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي لآمُرَهُمْ، وأُلْزِمَهُمْ، هو للكلِّ؛ فإنهُ قد خَلَقَهُمْ لِيأمُرَهُمْ، ويُلْزِمَهُمْ، وقد أمَرَهمْ، وألْزَمَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى ذِكْرَ الحديدِ بما جَعَلَ فيهِ مِنَ البَأسِ مِنْ بَينِ غَيرِهِ مِنَ الأشياءِ، وإنْ كانَ يُشارِكُهُ غَيرُهُ في احْتِمالِ الأذى والضَّرَرِ بهِ، ما يُطْعَنُ بهِ، فَيَنْفُذُ، ويُضْرَبُ بهِ، ويُستَعمَلُ في الحروبِ والقِتالِ [بوجهَينِ:][4]

أحَدُهما: أنهُ هو الكافِلُ[5] في الظَّفَرِ والنَّفاذِ والجُرْحِ، وإنْ كانَ يَتَحَقَّقُ مِنْ غَيرِهِ. ولذلكَ اعتادَهُ الناسُ آلَةً للقتالِ والحربِ فيكونُ البأسُ فيهِ أشَدَّ.

والثاني: لِما يُختَصُّ بهِ باتِّخاذِ الدِّرْعِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] لهذا خَصَّ الحديدَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى في الحديدِ مَنافِعَ، ليسَتْ تلكَ في غَيرِهِ، وهو ما يُتَّخَذُ منهُ ما يُخْرَزُ بهِ، ويُخاطُ مِنَ الخِفافِ وغَيرِهِ مِمّا لا يُحتَمَلُ هذا النوعُ لِغَيرِهِ.

وكذلكَ حوائجُ الخَلْقِ، لا تقومُ في سائرِ أنواعِ الحِرَفِ والأعمالِ مِنَ التجارةِ والزراعةِ والبِناءِ وَغيرِها.

وفيهِ خصوصِيَّةٌ في حقِّ المِحَنِ، وهو ما يَظْهَرُ عندَ فَرْضِ القِتالِ [مِنْ][6] صِدْقِ إيمانِ المُحقِّقِ ونِفاقِ في المُرْتابِ بقولِهِ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧] ونَحْوِ ذلكَ.

فَظهورُ[7] الصادقِ مِنَ الكاذبِ في الحروبِ، وإنما ذلكَ بالحديدِ، فصارَ مَخصوصاً في حَقِّ المِحْنَةِ، وغيرُها مِنَ المَنافِعِ حَقٌّ لا يُلْتَأمُ أمرٌ مِنْ أمورِ المَعاشِ إلّا بهِ. فلِذلكَ[8] خُصَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: أنْزَلَ مِنَ السماءِ المِطْرَقَةَ والعَلاةَ والكَلْبَتَينِ.

وعِندَنا ليسَ على حَقيقةِ الإنزالِ مِنَ السماءِ كذلكَ، ومَعْنى[9] قولِهِ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي خَلَقْنا كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] أي خَلَقَها وقولِهِ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا / ٥٥٢ ـ أ/ يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ومَعْلومٌ أنهُ لم يُنْزِلِ اللِّباسَ على ما هو عليهِن ولكنَّ مَعْناهُ خَلَقَهُ لباساً لكُمْ. كذلكَ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَحتَمِلُ ﴿مَن يَنصُرُهُۥ﴾ أي دينَهُ، أو أرادَ بإضافةِ النَّصْرِ إلى نفسِهِ نَصْرَ رسولِهِ محمدٍ وسائرِ رُسُلِهِ ﷺ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: إنها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الكامل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فظهر. (٨) من م، في الأصل: فذلك. (٩) في الأصل وم: ومعناه.

ثم نَصْرُ الرسُلِ مَرَّةً يكونُ بِتَبليغِ ما أُمِرُوا إلى قومِهِمْ؛ يَنْصُرونَهُمْ. هذا يُحْتَمَلُ، وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ إضافةِ النَّصْرِ إليهِ نَصْرَ أنفسِهِمْ ودينِهِمْ؛ إذْ هُمُ المُنْتَفِعونَ بذلكَ، ولهمْ يَحْصُلُ ذلكَ النَّفْعُ وتلكَ المَعونةُ، لكنهُ بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ سَمَّى ذلكَ نَصْرَهُ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ على ما جَعَلَ لأعمالِهِمُ التي يَعْمَلونَها لأنفسِهِمْ ثواباً، وذَكَرَ لهمْ على ذلكَ أجراً؛ كأنهمْ عامِلونَ لهُ، وهُمُ المُنْتَفِعونَ بها المُحْتاجونَ إليها.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ ما عَمِلوا لأنفسِهِمْ سَمّاهُ نَصْراً، وإنْ كانَ النَّصْرُ لهمْ، وإنهُ ناصرُ الكُلِّ حينَ[1] قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] أخبَرَ أنهُ إذا نَصَرَهُمْ لا غالِبَ لهمْ سِواهُ، وإذا خَذَلَهُمْ لا ناصِرَ لهمْ دونَهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: لِيَعْلَمَ مَنْ قَدْ عَلِمَ أنهُ يَنْصُرُ ناصِراً، ولِيَعْلَمَ مَنْ قَدْ عَلِمَ بالغيبِ أنهُ يكونُ كائناً شاهداً، والتَّغْييبُ على المَعلومِ لا على العِلْمِ.

والثاني: يُريدُ بالمَعْلومِ العِلْمَ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ: ذِكْرُ العِلْمِ والفِعْلِ على إرادةِ المَعلومِ والمَفْعولِ نَحْوُ ما يُقالُ: الصلاةُ [أمْرُ اللهِ][2] أي بأمْرِ اللهِ، لأنَّ الصلاةَ، لا تكونُ أمْرَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ذَكَرَ هذا لِيُعْلِمَ أنهُ لم يأمُرْ في ما أمَرَهُمْ مِنَ القِتالِ والنَّصْرِ لِحاجةِ نفسِهِ، ولا اسْتَعْمَلَهُمْ في ما اسْتَعْمَلَ مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ لنفسِهِ، ولا أنهُ[3] يَكْتَسِبُ بذلكَ العزَّ لِنفسِهِ.

أخبَرَ أنهُ قويٌّ بنفسِهِ، عزيزٌ بذاتِهِ. ولكنْ إنما أمَرَهُمْ بما أمَرَ، واسْتَعْمَلَهُمْ في ما اسْتَعْمَلَ لِنَصْرِ أنفسِهِمْ ولِقُوَّتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإنما ذَكَرَ نوحاً وإبراهيمَ، واللهُ أعلَمُ، لِما أخبَرَ أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، وإلّا فقد أرسَلَ الرسلَ بِجُمْلَتِهِمْ في قولِهِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الآية: ٢٥] فَدَخَلَ نوحٌ وإبراهيمُ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

ثم ذَكَرَ أنَّ منهم مَنِ اهْتَدَى أي مِنْ قومِهِمْ، وكثيرٌ منهمْ فَسَقُوا بقولِهِ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يُخبِرُ رسولَهُ ﷺ أنهُ قد كانَ في قومِهِمْ مَنِ اتَّبَعَهُمْ، فصاروا مُهْتَدينَ، ومنهمْ مَنْ تَرَكَ اتِّباعَهُمْ، وخَرَجوا عَنْ أمرِ اللهِ، فصاروا فاسِقينَ؛ يُصَبِّرُهُ، ويُسَكِّنُ قَلْبَهُ على ما كانَ في قومِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الرسلِ مِنَ المُجيبينَ لرسُلِهِ والتاركينَ للإجابةِ كقومِكَ، أي لستَ أنت بأوَّلِ مَنْ كُذِّبَ، ورُدَّ قولُهُ تَعَنُّتاً وعِناداً، واللهُ الهادي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أخبَرَ أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، وبَعَثَ منهمْ رسُلاً؛ ذَكَرَ في الآيةِ الأولى أنهُ جَعَلَ في ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ والكتابَ، ولم يَذْكُرِ الرسالةَ، وذَكَرَ في هذهِ الآيةِ الرسالةَ فيهِمْ وفي ذُرِّيَّتِهِمْ، أي أرسَلْنا رسولاً على إثْرِ رسولٍ، وأتْبَعْنا بعضَهُمْ بعضاً، مِنْ قَفا يَقْفو، ثم ذَكَرَ أنهُ قَفَّى بِعيسى ابْنِ مَرْيَمَ، لأنَّ عيسى ﷺ مِنْ أولادِ إسحاقَ ﷺ فَبَعَثَ محمداً ﷺ مِنْ بَعْدِهِ، وهو مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ ﷺ.

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتْبَعْنا، ويقالُ: قَفَّيْتُ فلاناً، أي عَيَّنْتُهُ، وسَمَّيْتُهُ، وقَفَوْتُهُ أقْفوهُ قَفْواً ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ واقْتَفَيتُ بهِ، أي لَزِمْتُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وَصَفَ اللهُ تعالى الذينَ اتَّبَعوا الرسلَ، وآمَنوا بهمْ بالرحمةِ والرأفةِ في ما بينَهُمْ، وهو كما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أن.

وقالَ [في آيةٍ أُخرى:][1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقالَ [في آيةٍ أُخرى:][2] ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ونَحْوَ ذلكَ؛ وذلكَ لأنَّ السببَ الذي جَمَعَهُمْ واحدٌ، وهو التوحيدُ والإسلامُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ وقَعَ بَينَهُمْ مِنَ العداوةِ والبَغْضاءِ ما وَقَعَ، وسببُ الجَمْعِ قائمٌ، حتى استَحَلَّ بعضُهُمْ قِتالَ بعضٍ مِنْ نَحْوِ الخوارجِ والمعتزلةِ؟

قيلَ: إنما وَقَعَ ذلكَ في ما بَينَهُمْ، وإنْ كانَ سببُ الجمعِ قائماً، لِما كانتِ الأُلْفةُ والرأفةُ بِلُطْفٍ مِنَ اللهِ تعالى، وقد زالَ ذلكَ اللطفُ، وارْتَفَعَ، وحَدَثَ بَينَهُمْ ما حَدَثَ.

أو نقولُ: إنَّ الخوارجَ قد أحدَثوا مِنْ أنفسِهِمْ أشياءَ حتى سَمَّوُا المُسْلمينَ كَفَرَةً بما ارْتَكَبوا مِنَ الكبائرِ حتى نَصَبوا القِتالَ والحَرْبَ معهمْ، وكذلكَ المعتزلةُ سَمَّوا أصحابَ الكبائرِ فَسَقَةً وفَجَرَةً، وأنزَلوهُمْ بَينَ الكُفْرِ والإيمانِ. ومَنْ سَمّى آخَرَ كافراً أو فاسقاً فلا شكَّ أنْ يَحدُثَ بَينَهما عداوةٌ وتَباغُضٌ. فما حَدَثَ بَينَنا وبَينَهُمْ مِنَ العداوةِ بِتَسْمِيَتِهِمْ إيّانا فَسَقَةً وفَجَرَةً وكَفَرَةً بارْتِكابِ الكبائرِ، وإنْ كانَ السببُ الذي جَمَعَهُمْ قائماً عندَنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ الآيةَ؛ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ الفترةَ التي كانَتْ بَينَ عيسى ومحمدٍ ﷺ، كانَ على بَني إسرائيلَ ملوكٌ غَيَّروا التوراةَ والإنجيلَ، وبَقِيَ منهمْ أُناسٌ مؤمنونَ بِعيسى ﷺ ويَعْملونَ بما في الكُتُبِ، فَهَمَّ أولئكَ الملوكُ أنْ يَقْتُلوهُمْ لإبائِهِمُ اتِّباعَهُمْ والعَوْدَ إلى مذهبِهِمْ، فَخَرَجوا مِنْ بَغْيِهِمْ، فَتَرَهَّبوا رجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا منهمْ.

فذلكَ قولُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا﴾ أي [ما][3] فَرَضْنا عليهمْ تلكَ الرَّهْبانيّةَ، ولم نأمُرْهُمْ بها، ولكنْ فُرِضَ عليهمْ وكُتِبَ في الجملةِ ابْتِغاءُ رضوانِ اللهِ تعالى، فابْتَدَعوا تلكَ الرَّهْبانيةَ رَجاءَ أنْ يكونَ فيها رضوانُ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أخْبَرَ أنهمُ ابْتَدَعوا شيئاً لم يُكْتَبْ عليهِمْ، ثم ذَكَرَ أنهمْ لم يَرْعَوْهُ[4] حَقَّ رِعايَتِهِ؛ ذَمَّهُمْ لِتَرْكِهِمُ الرِّعايَةَ لِما ابْتَدَعوهُ؛ ففيهِ دلالةٌ أنَّ مَنِ افْتَتَحَ قُرْبَةً، لم تُفْرَضْ عليهِ مِنْ صلةٍ أو صومٍ أو نَحْوِ [ذلكَ][5] ثم لم يَقُمْ [بِوَفائها وإتمامِها][6] لَحِقَهُ ذَمٌّ كما لَحِقَ هؤلاءِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أخبَرَ أنَّ الذينَ آمَنوا، وثَبَتوا على الإيمانِ، يُؤتيهِمْ أجْرَهُمْ، أي يُوجِبُ لهمْ ﴿أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي كافرونَ. كذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ وكثيرٌ منهمْ كافرونَ.

وذُكِرَ أنَّ بعضاً منهمْ بَعْدَما تَرَهَّبوا اشْتَدَّ عليهمُ التَّرَهُّبُ، فعادوا، ورَجَعوا، وَدَخَلوا في دينِ أولئكَ الملوكِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ القُتَبِيُّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أي العبادةَ، يعني الخوفَ، و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الابْتِداعُ أنْ تَفْعَلَ شيئاً، لم يُفْعَلْ قَبْلَكَ، يقالُ منهُ: أبْدَعْتُ، وابْتَدَعْتُ أيضاً. وقيلَ: الرهبانيّةُ: اسْمٌ مَبْنِيٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ لما [فَضَلَ عنِ المقدارِ، وأفْرِطَ][7] فيهِ، وهو ما نَهى اللهُ تعالى عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١ والمائدة: ٧٧] ويقالُ: دينُ اللهِ بينَ المُقَصِّرِ والغالي، وقولُهُ تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما أمَرْناهُمْ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ يقولُ بعضُ أهلِ التأويلِ: يا أيُّها الذينَ آمَنوا بِعيسى ﷺ /٥٥٢ ـ ب/ ابْنِ مريمَ: آمِنوا بمحمدٍ ﷺ ولكنَّ هذا ضعيفٌ، لأنَّ الإيمانَ برسولٍ مِنَ[8] الرسلِ إيمانٌ بجميعِ الرسلِ ﷺ.

وتأويلُ الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالرسلِ جُمْلَةً على غيرِ الإشارةِ. والتَّفسيرُ آمِنوا برسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ على

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: بوفائه وإتمامه. (٧) من تفسير غريب القرآن ص: ٤٥٤. (٨) من م، في الأصل: الله.

الإشارةِ به، لأنَّ الإيمانَ بالرسلِ على غيرِ الإشارةِ أمرٌ سَهلٌ، وإنما يَصعُبُ الإيمانُ به، ويَشتَدُّ بالإشارةِ إلى واحدٍ لأنهُ لمّا آمَنَ بالمُشارِ إليهِ لَزِمَهُ اتِّباعُ أمْرِهِ ونَهيِهِ، ويَلزَمُهُ مُوالاةُ مَنْ والاهُ، واتَّبعَهُ، ويَلزَمُهُ مُعاداةُ مَنْ عاداهُ، وخالفَهُ في أمْرِهِ ونَهيِهِ وتَرْكِ اتِّباعِهِ، وإنْ كانَ لهُ ابْناً أو أباً أو جَدّاً، وكانَ يَجبُ أنْ يكونَ أحبَّ الناسِ إليهِ وأقربَهُ[1] وأبَرَّهُ.

فهذِهِ معاملةُ الرسولِ الذي آمَنَ بهِ على الإشارةِ إليهِ، وإنها تَشتَدُّ، وتَصعُبُ. وأمّا عندَ الإجمالِ والإرسالِ فأمرٌ سهلٌ، إنما فيهِ تَصديقُ كلِّ صادقٍ وتكذيبُ كلِّ كاذبٍ. وكلُّ الناسِ قدِ اعتَقدوا في الأصلِ تَصديقَ الصادقِ وتَكذيبَ الكاذبِ، وليسَ في الإجمالِ والإرسالِ إلّا ذلكَ.

وأمّا عندَ التَّعْيينِ فيوجبُ الامتِحانَ، وبهِ يَظهَرُ نِفاقُ المُنافِقينَ وتَحقيقُ المؤمِنينَ المُحقِّقينَ. وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩ و٣٠] ظَهر نِفاقُهُم لَمّا أُمِرُوا بالجهادِ والخروجِ معهُ على الإشارةِ إليهِ، وقولُهُ[2] تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة ٧٥ و٧٦] وقد وَعَدوا في الجملةِ أنهُ لو أعطاهُمْ كذا مِنْ فَضْلِهِ ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾، فلمّا أُوتُوا ذلكَ، وأُمِروا بإخراجِهِ أبَوا إخراجَ ذلكَ عندَ الإشارةِ إليهِ.

فَعلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالرسُلِ جُملَةً آمِنوا بهذا الرسولِ المُشارِ إليهِ لِما يَصعُبُ الأمْرُ ولِما يَلزَمُ في ذلكَ مُعاداةُ مَنْ خالَفَهُ، وتَرْكُ اتِّباعَهُ، وإنْ كانَ أقْرَبَ الخلائقِ إليهِ.

وكذلكَ عامَلَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أقارِبَهُمْ وأرحامَهُمْ لمّا آمَنوا برسولِ اللهِ ﷺ وصارَ عندَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ أحبَّ إليهِمْ مِنْ أنفسِهِمْ وآبائِهِمْ وأولادِهِمْ، وعادَوا جميعَ أقارِبِهِمُ الذينَ خالَفوا رسولَ اللهِ ﷺ وتَرَكوا اتِّباعَهُ.

وفي ذلكَ آيةٌ عظيمةٌ، ولِذلكَ فَضلُ إيمانِ مَنْ آمَنَ في أوَّلِ خُروجِهِ على إيمانِ مَنْ تأخَّرَ منهمْ عنْ ذلكَ الوقتِ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قولُهُ: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ أي يُوجبُ لكمْ ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي أجْرَينِ أجرَ الإيمانِ بالرسلِ كلِّهِمْ على الإجمالِ وأجْرَ الإيمانِ بالرُّسلِ على الإشارةِ والتَّفصيلِ.

ذَكَرَ ههنا ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص: ٥٤].

ويَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ مرَّتَينِ، وقولُهُ: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ كِفلَينِ، فيكونُ أحدُهما تَفسيراً للآخَرِ.

ثم ذَكَرَ ههنا الأجْرَ لهمْ مِنْ رحمتِهِ، وذَكَرَ هنالكَ الأجْرَ مُطلَقاً لِيُعلِمَ أنَّ ما ذَكَرَ لأعمالِهِمْ مِنَ الأجْرِ، إنما هو فَضلٌ منهُ ورحمةٌ لا استِحْقاقٌ[3] على ما ذَكَرْنا، واللهُ المُوفِّقُ.

ثم يَحتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنَ الأجرِ مرَّتَينِ: يكونُ مَرَّةً في الدنيا وأُخرى[4] في الآخِرةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ الآية [النحل: ٣٠] أي[5] لهمْ في الدنيا حَسَنَةٌ وفي الآخِرةِ حَسَنَةٌ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنَ الأجرِ مرَّتَينِ وَعْداً[6] في الآخِرةِ، ويكونَ قولُهُ: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ أي كِفلَينِ أي ضِعفَينِ كقولِهِ: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

ثم قولُهُ: ﴿كِفْلَيْنِ﴾ قالَ أكثَرُ أهلِ التأويلِ: أي أجْرَينِ. وقالَ بعضُهُمْ: حَظَّينِ ونَصيبَينِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ سَمّاهُ كِفلاً لأنهُ كَفَلَهُ. ألا تَرَى أنَّ ذا الكِفلِ ذُكِرَ أنهُ[7] سُمِّيَ بهِ لأنهُ كانَ يَكْفُلُ لِفلانٍ؟ فَعلَى ذلكَ جائزٌ تَسْمِيَةُ هذا كِفلاً لأنهُ يُكفَلُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: وأقرب. (٢) في الأصل وم: وكقوله. (٣) في الأصل وم: استحقاقاً. (٤) في الأصل وم: والأخرى. (٥) في الأصل وم: وقوله. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: يكون. (٧) في الأصل وم: أنما.

أحدُهما: النورُ كِنايةٌ عمّا يُبْصَرُ بِهِ، ويُتَّضَحُ، والمَشْيُ كِنايةٌ عنِ الأمورِ؛ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: يَجْعَلُ ما تُبْصِرونَ بِهِ السبيلَ، وتَتَّضِحُ لكمُ الأمورُ، وتزولُ عنكمُ الشُّبَهُ، فيكونُ المَشْيُ كنايةً عنِ الأمورِ، والنورُ كنايةً عنِ البَصَرِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي لا سَواءَ، وهو كنايةٌ عمّا ذَكَرْنا، ليسَ بِتصريحٍ.

والثاني: على حَقيقةِ إرادةِ المَشْيِ وحَقيقةِ النورِ؛ وذلكَ يكونُ في الآخِرةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ الآية [التحريم: ٨].

وقالَ أهلُ التأويلِ: النورُ ههنا القرآنُ، أي أعطاكُمْ قُرْآناً يُفْضي بكمْ إلى سَبيلِ الخَيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الغُفرانُ مِنَ السَّتْرِ، كأنهُ يقولُ: يَسْتُرُ عليكُمْ مَساوِئَكُمْ بَينَكُمْ، لأنَّ ذِكْرَ المَساوِئِ يُنَغِّصُهُمُ النِّعَمَ، ويَحْمِلُهُمْ على الحَياءِ مِنْ رَبِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي يَرْحَمُهُمْ، ويُخَلِّدُهُمْ في جَنَّتِهِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أجمعَ أهلُ التأويلِ واللغةِ أنَّ حَرْفَ: لا زيادةٌ ههنا وَصِلَةٌ، أي لِيَعْلَمَ أهلُ الكتابِ. وقد يُزادُ في الكلامِ حَرْفُ: لا، ويَسْقُطُ[1] بِحَقِّ الصِّلَةِ، يَعرِفُ ذلكَ أهلُ الحِكمةِ والفِقْهِ كقولِهِ تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] ليس يُبَيِّنُ لنا أنْ نَضِلَّ، ولكنْ يُبَيِّنُ لنا لِنَعْلَمَ، ونَهْتَدِيَ، فعرفَ الحُكماءُ والفُقَهاءُ أنَّ كلمةَ: لا أسْقِطَتْ ههنا. فَعَلَى ذلكَ عَرَفوا أنَّ حَرْفَ: لا ههنا في قولِهِ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ زيادةٌ، مَعْناه: لِيَعْلَمَ ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ على غَيرِ تَقَدُّمٍ كانَ منهمْ حتى خَرَجَ هذا جواباً لهمْ عنْ ذلكَ.

ولكنْ يَذْكُرُ شيئاً، يُشْبِهُ أنْ يكونَ الذي ذَكَرَ، هو جوابُ ذلكَ الذي كانَ منهمْ، وهو أنهمْ كانوا أهلَ كتابٍ وأهلَ عِلْمٍ بالكتابِ، يَرَونَ لأنفسِهِمْ فَضْلاً على غَيرِهِمْ وخُصوصيَّةً لَيسَتْ لِغَيرِهِمْ عندَهمْ.

فلما بَعَثَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ رسولاً إليهمْ وإلى الناسِ كافةً، وأنزلَ عليهِ كتاباً، وهو أمينٌ عندَهمْ، وذَكَرَ في كتابِهِ ما كانَ في كُتُبِهِمْ، وأمَرَهُمْ باتّباعِهِ والانْقيادِ لهُ والطاعةِ، وأحْوَجَهُمْ جميعاً إليهِ وإلى ما في كتابِهِ أنْكَروا فَضْلَ اللهِ عليهِ وإحسانَهُ إليهِ، فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي يُفَضِّلُ مَنْ يَشاءُ على مَنْ يَشاءُ، ليسَ ذلكَ إليهمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ في أنَّ اللهَ تعالى قد أعطى كلَّ إنسانٍ[2] ما يَقْدِرُ على الوصولِ إلى جَميعِ فضائلِهِ وإحسانِهِ، وقد أخبرَ لِيَعْلَموا أنهمْ لا يَقْدِرونَ على شيءٍ مِنْ فَضلِ اللهِ، والمعتزلةُ يقولونَ: بل يَقْدِرونَ؛ فهذا خلافٌ لظاهرِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أيضاً دلالةُ نَقْضِ قولِ المعتزلةِ مِنْ جهةٍ أُخرَى، وهو أنهُ ذَكَرَ المَشيئةَ في ما هو حقُّهُ فَضْلٌ، وما هو حقُّهُ عَدْلٌ حينَ[3] قالَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ولم يَذْكُرِ المشيئةَ في ما هو حقُّهُ عَدْلٌ وما هو حقُّهُ ظُلْمٌ وجَورٌ، بل أطْلَقَ القولَ في ذلكَ فقالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقالَ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ؛ نَفَى أنْ يُلْحِقَ أحداً[4] منهُ الظلمَ والجورَ لِيُعْلِمَ أنَّ فِعْلَ الهُدَى منهُ يَصِلُ إلى مَنْ هَداهُ، وأرْشَدَهُ، والإضلالَ منهُ / ٥٥٣ - أ/ عَدْلٌ. وكذلكَ قالَ: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] أي [مَنْ][5] نالَ الهُدَى والرُّشْدَ إنما نالَهُ بِفَضْلِهِ ورَحْمَتِهِ، ومَنْ ضَلَّ فذلكَ عدلٌ منهُ؛ ولذلكَ قالَ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] واللهُ الهادي [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][6].

---

(١) من م، في الأصل: ولا يسقط. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أحد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م.

سورة المجادلة

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ قالَ جماعةٌ مِنْ أهلِ التَّفْسيرِ: إنها نَزَلَتْ في أوسِ بْنِ الصامتِ أخي عبادةَ بْنِ الصامتِ وامْرأتِهِ، غَيْرَ أنهمُ اخْتَلَفوا في اسْمِ امْرأتِهِ.

وقالَ ابْنُ عباسٍ ﷺ: كانَ اسْمُها خولةَ. وعَنْ عائشةَ ﷺ أنها كانَتْ خُوَيْلَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنها كانَتْ تُسَمَّى خُوَيْلَةَ على تَصْغيرِ خَولَةَ. ورُوِيَ في بعضِ الرواياتِ أنهُ كانَ سببُ هذا القولِ مِنْ أوسٍ لزوجتِهِ لمّا دعاها ليلةً إلى فراشِهِ، وكانتِ امْرأتَهُ بحيثُ لا يَحِلُّ لهُ التَّمَتُّعُ بها، فأبَتْ عليهِ، وأرادَتْ أنْ تَخْرُجَ مِنَ البيتِ [فقالَ لها: إنْ خَرَجْتِ مِنَ البيتِ][2] فأنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فَخَرَجَتْ، فلما أصبَحَتْ قالَ لها زَوجُها: ما أراكِ إلّا حَرُمْتِ عليَّ، قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرْتَ لي إلّا طلاقاً، قالَ: فَأْتي رسولَ اللهِ ﷺ واسأليهِ، فإني أسْتَحْيِي أنْ أسألَهُ عنْ هذا، فأتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ وأخْبَرَتْهُ، فَنَزَلَتْ فيها هذهِ الآيةُ.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ أوَّلَ مَنْ ظاهَرَ امرأتَهُ أوسٌ، وكانَ بهِ لَمَمٌ، فقالَ في بعضِ هِجْرانِهِ ذلكَ القولَ. وهذا يَرويهِ محمدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، لكنهُ لا يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ أرادَ باللَّمَمِ الجُنونَ، لأنَّ المَجْنونَ لو طَلَّقَ امرأتَهُ لا يَقَعُ الطلاقُ فَضْلاً عَنْ أن يكونَ ظِهارُهُ ظِهاراً.

وتأويلُ قولِهِ: كانَ بِهِ لَمَمٌ، أي فَضْلُ غَضَبٍ وشِدَّةٍ، فكأنهُ لم يكُنْ بهِ حِلْمٌ.

ثم اخْتَلَفَتِ الرواياتُ في شأنِها وشأنِ زَوجِها؛ منهُمْ مَنْ رَوَى، وهو محمدُ بْنُ كَعْبٍ [القُرَظِيُّ][3] أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ وقالَتْ: إنَّ أوساً أبا وَلَدي وابْنَ عمّي وأحبَّ الناسِ إليَّ قد قالَ كلمةً، والذي أنْزَلَ عليكَ الكتابَ ما ذَكَرَ طلاقاً، قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ، قالَتْ: يا رسولَ اللهِ لا تَقُلْ ذلكَ، ما ذَكَرَ طلاقاً، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وكَرَّرَتِ المرأةُ ذلكَ، ورادَّتْ[4] رسولَ اللهِ ﷺ ثم قالَتْ: اللهمَّ إني أشكو إليكَ شِدَّةَ وَجْدي بهِ وما يَشُقُّ عليَّ مِنْ فِراقِهِ، اللهمَّ أنْزِلْ على نَبيِّكَ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [الآية: ٤]، [أبو داوود: ٢٢١٤ وابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٨/ ٤ والسيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢].

وفي بعضِ الأخبارِ [التي][5] رَواها الكلبيُّ «أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ زوجي أوسَ بْنَ الصامتِ تَزَوَّجَني يومَ تَزَوَّجَني، وأنا شابّةٌ ذاتُ أهلٍ كثيرٍ ومالٍ كثيرٍ، فأكَلَ شبابي حتى إذا كَبِرَتْ عندهُ سِنّي، وذهبَ أهلي، وتَفَرَّقَ مالي، وضَعُفْتُ، جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أمِّهِ، ثم تَرَكَني إلى غيرِ شيءٍ، وقد نَدِمَ، ونَدِمْتُ، فهلْ مِنْ شيءٍ، يَجْمَعُني وإياهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ ﷺ: أطَلَّقَكِ؟ قالَتْ: لا، قالَ: ما أُمِرْتُ في شأنِكِ بِشيءٍ، أُبَيِّنُهُ لكِ، فَرَفَعَتْ يَدَيها إلى السماءِ، تدعوهُ، وتَتَضَرَّعُ إليهِ أنْ يُنْزِلَ إليهِ بَيانَ أمْرِها، ثم خَرَجَتْ مِنْ عندِهِ، وأتَتْ زَوجَها، فَنَزَلَ جبريلُ ﷺ بهذهِ الآيةِ» [السيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢ و٧٣].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وترد. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ورُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنها أتَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَتْ: إنَّ زَوجي أوسَ بْنَ الصامتِ، تَزَوَّجني، وإني شابَّةٌ ذاتُ مالٍ وأهلٍ حتى إذا أكَلَ مالي، وأفنَى شبابي، وكَبِرَتْ سِنّي، ورَقَّ عظمي، وباءَ أهلي، جَعَلَني عليه كَظَهْرِ أمِّهِ، ولي منهُ صِبْانٌ، إنْ أنا وَكَلْتُهُمْ إليهِ ضاعوا، وإنْ ضَمَمْتُهُمْ إلى نفسي جاعوا. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ اغرُبي؛ فَلَعَلَّكِ الظالمةُ لزوجِكِ، فقالَتْ: يا أمينَ اللهِ في أرضِهِ إنهُ لَظالِمٌ لي، فقالَ: اذهبي فإنَّ فيكُنَّ الضعفَ والعَجزَ، قيلَ[1]: فَجَعَلَتْ تُجادِلُهُ، فلمّا رأتْ أنهُ لا يَرْفَعُ بها رأساً، ولا تَجِدُ عندَهُ مَخْرَجاً خَرَجَتْ، ورَفَعَتْ طَرْفَها إلى السماءِ، تَشكو إلى اللهِ صُنْعَ زوجها بها، وقالَتْ: اللهمَّ إني أتَيتُ أمينَكَ في أرضِكَ، فلم يَرْفَعْ بي رأساً، فَتَوَلَّ اليومَ حاجَتي، وارحَمْ ضَعْفي وقِلَّةَ حيلَتي، فلم تَصِلْ إلى مَنْزِلِها حتى هَبَطَ جبريلُ، صلواتُ اللهِ عليهِ، بالوَحْيِ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ فَدَعا أوساً زوجَها، فقالَ: ما الذي حَمَلَكَ على [ما][2] صَنَعْتَ بِخَولَةَ، وقد أنْزَلَ اللهُ فيها ما أنْزَلَ؟ وبَعَثَ إليها، ورحَّبَ بها، فقالَ: يا رسولَ اللهِ عَمَلُ الشيطانِ، فهلْ مِنْ أمرٍ يَجْمَعُني اللهُ وإياها؟ قالَ: نعمْ، ثم تلَا عليهِمْ آيَةَ الظِّهارِ[3] إلى آخِرِها.

ثم بَينَ هذهِ الرواياتِ اخْتِلافٌ: ذُكِرَ في روايةِ القُرَظِيِّ: أنهُ قالَ ﷺ «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وفي روايةٍ قالَ لها: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ».

لكنهُ يُمكِنُ التوفيقُ بَينَ الخَبَرَينِ [بوجهَينِ]:

أحَدُهما: هو][4] أنَّ قولَهُ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» على ما كانَ أهلُ الجاهليةِ يَرَونَهُ مُحَرَّماً؛ وقالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ مِنْ ذا الوجهِ. لكنهُ لم يَنْزِلْ عليَّ شيءٌ في بَيانِ هذا، فإنْ يَنْزِلْ شيءٌ في بَيانِ هذا أُبَيِّنْهُ لكِ».

والثاني: أنْ ليسَ في قولِهِ: «ما أراكِ» إثباتُ حُرْمةٍ، بل هو قولٌ على الظَّنِّ بما قد كانَ الناسُ يَعْرِفونَهُ بَينَهُمْ، لِذلكَ حَرُمَهُ.

فيجوزُ أنْ يُرادَ التقريرُ على ذلكَ أو تَرِدَ لهذهِ الحادثةِ الحُرْمةُ بالوَحْيِ، فَتَوَقَّفَ في الجوابِ مَعَ الإشارةِ لها بالامْتِناعِ عنِ الزوجِ احْتياطاً لبابِ الحُرْمةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ بعضَ الفقهاءِ ذَكَرَ الاخْتِلافَ بَينَ السَّلَفِ في حكمِ الظِّهارِ قَبْلَ نزولِ الآيةِ:

عنْ عِكْرِمةَ أنهُ قالَ: كانَتِ النساءُ تُحَرَّمُ بالظِّهارِ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيَةَ، وكانَ طلاقاً قبلَ نزولِ الآيةِ، فَجَعَلَهُ اللهُ تعالى بهذهِ الآيةِ ظِهاراً.

وعنْ أبي قِلابةَ وغيرِهِ [أنهما قالا:][5] كانَ طلاقُهُمْ في الجاهليةِ الإيلاءَ والظِّهارَ.

وعنْ أبي هُريرَةَ ﷺ أنهُ قالَ: كانَ طلاقُ أهلِ الجاهليةِ الظِّهارَ.

ثم جَعَلَ [هذهِ الحُرْمَةَ][6] تَرْتَفِعُ، وتزولُ، بالكفارةِ التي أوجبَ.

وعنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: كانَ الظِّهارُ أشَدَّ الطلاقِ وأحْرَمَ الحرامِ، إذا ظاهرَ مِنِ امْرأتِهِ لم تَرْجِعْ إليهِ أبداً.

والأشبَهُ أنهُ لا يكونُ طلاقاً في الإسلامِ، لو كانَ يكونُ في الجاهليةِ، وأنهُ يكونُ مُوجباً حُرْمةً، لا تَرْتَفِعُ أبداً، كما قالَ الحَسَنُ فإنهُ ذُكِرَ في حديثِ خولَةَ أنَّ زوجَها لَمّا قالَ لها: ما أراكِ إلّا وقد حُرِمْتِ عليَّ، قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرَ لي طلاقاً، ولو كانَ الظِّهارُ طلاقاً لَعَرَفَتْهُ، وكذلكَ لَمّا أخبَرَتْ رسولَ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، فقالَ ﷺ: «ما أراكِ / ٥٥٣ ـ ب/ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» قالَتْ: يا رسولَ اللهِ: لا تَقُلْ ذاكَ ما ذَكَرَ طلاقاً، ولم يَرُدَّ عليها اعْتِقادَها في أنَّ الظِّهارَ طلاقٌ.

وكذلكَ ما رُوي في روايةٍ أُخرَى في حديثٍ طويلٍ: جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أمِّهِ، ثم تَرَكَني إلى غَيرِ شيءٍ، فهل مِنْ شيءٍ يَجْمَعُني وإياهُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ ﷺ: «أطَلَّقَكِ»؟ قالَتْ: لا، قالَ: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ» ولو كانَ الظِّهارُ طلاقاً

(١) في الأصل وم: قال. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الكفار. (٤) في الأصل وم: وهو. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لهذه الأمة.

بعدَ الإسلامِ قَبْلَ نزولِ هذهِ الآيةِ لمَا قالَ لها: «أطَلَّقَكِ»؟ بَعْدَ ما قالَتْ: جَعَلَني عليهِ كَظَهْرِ أُمِّهِ. ولَما قالَ: «ما أُمِرْتُ في شأنِكِ مِنْ شيءٍ» وحُكْمُ شَريعتِهِ أنهُ طلاقٌ مزيلٌ لِلْمُلْكِ، دلَّ [أنهُ الأشبهُ، وهو][1] يُقَرِّرُ ما قُلْنا: إنهُ ذُكِرَ في حديثِ خَولةَ وأوسٍ أنهُ أوَّلُ مَنْ ظاهَرَ في الإسلامِ، فكيفَ يكونُ طلاقاً؟

فإنْ قيلَ: [أليسَ][2] النَّبيُّ ﷺ قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» والحُرْمَةُ التي لا تَرْفَعُ النِّكاحَ بالظِّهارِ إنما تَثْبُتُ بعدَ نزولِ الآيةِ، والآيةُ نزلَتْ بعدَ هذا القولِ في أوسِ بْنِ الصامتِ، فَدَلَّ أنَّ مُرادَهُ تحريمُ الطلاقِ. فهذا يَدُلُّ على أنَّ هذا الحكمَ كانَ ثابتاً في شريعتِهِ قبلَ نزولِ آيةِ الظِّهارِ بِوَحْيٍ غيرِ مَتْلُوٍّ، [وأنهُ][3] كانَ قبلَ ذلكَ في حكمِ الجاهليةِ.

فكذلكَ ذلكَ الزوجُ لمَا قالَ للمرأةِ أيضاً: ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليَّ، دَلَّ على أنهُ كانَ طلاقاً قَبْلَ نُزولِ الآيةِ.

هذا حُجَّةٌ عليكُمْ؛ فإنهُ لو كانَ المُرادُ بقولِهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» إثباتَ الحُرْمَةِ فيهِ بالظِّهارِ بكونِهِ طلاقاً، فكيفَ يحكُمُ عليها بالحُرْمَةِ بالظِّهارِ بعدَ حُكْمِهِ بالطلاقِ بذلكَ القولِ بعينِهِ في شخصٍ بعينِهِ؟ وقد صَحَّ في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَعا أوساً وامرأتَهُ للكفارةِ، وأبْقَى النِّكاحَ بَيْنَهما.

لو كانَ ذلكَ طلاقاً، وأثبتَ حُكْمَهُ [لَمَا نَسَخَ][4] بالآيةِ حُكْمَهُ إلى حُكْمٍ آخَرَ، فَظَهَرَ ذلكَ في المُسْتَقْبَلِ لا في الماضي، دلَّ أنَّ هذا حُجَّةٌ عليهِمْ[5]، ولكنْ إنما قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» للوَجْهَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرْناهما، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قِيلَ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَحْكُمْ بالطلاقِ في حقِّها مع أنَّ الظِّهارَ كانَ طلاقاً بطريقِ القَطْعِ، بل قالَ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» على طريقِ الظَّنِّ، لأنهُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى قد أعْلَمَهُ أنهُ سَيَنْسَخُ[6] حُكْمَ هذا القَولِ، ويَنْقُلُهُ مِنَ الطلاقِ إلى تَحْريمِ المُتْعَةِ، فلم يَقْطَعِ القَولَ فيهِ حتى نَزَلَتِ الآيةُ.

قيلَ: لو كانَ ذلكَ حُكْماً ثابتاً مُقَرَّراً في حُكْمِ شريعَتِهِ لم يَمْتَنِعِ النَّبيُّ ﷺ عنِ العَمَلِ والحُكْمِ بذلكَ ما لم يَنْزِلْ عليهِ الناسخُ، وإنْ أُعْلِمَ أنهُ سَيُنْسَخُ لأنهُ يجبُ عليهِ العَمَلُ بما أُنزِلَ عليهِ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وإذا وَرَدَ الناسخُ بِخِلافِهِ يكونُ عَمَلُهُ في المُسْتَقْبَلِ لا في ما مَضى، وإنما يَسْتَقيمُ هذا على ما قُلْنا: إنَّ الظِّهارَ قبلَ الآيةِ لا حُكْمَ لهُ في الإسلامِ، وكانَ مُحَرَّماً في الجاهليَّةِ. فَمَتى وُجِدَ هذا السببُ، ووَقَعَتْ هذهِ الحادثةُ، أمَرَها بالاجْتِنابِ عنِ الزَّوجِ احْتياطاً حتى تَنْزِلَ الآيةُ، فَيَظْهَرَ أنَّ حُكْمَهُ ما هو مِنْ حينِ وجودِهِ؛ إذْ يجوزُ أنْ يريدَ اللهُ تعالى بهذا هذا الحُكْمَ، وإنْ كانَ لا عِلْمَ لِلْمُظاهِرِ بهِ، إذا كان بحيثُ يمكنُهُ الوُصولُ إلى العِلْمِ بهِ عندَ الحاجةِ إلى العملِ بهِ. والحُكْمُ كالنَّصِّ الذي وَرَدَ مُجْمَلاً في إيجابِ [حُكْمٍ][7].

ثم وَرَدَ البَيانُ مُتأخِّراً، والنَّصِّ العامُّ الذي يَتأخَّرُ بيانُهُ على خِلافِ ظاهرِهِ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ أي سَمِعَ قولَها ومُجادَلَتَها في زَوجِها ومُجادَلَتَها مع رسولِ اللهِ في سؤالِها إيّاهُ عمّا ابْتُلِيَتْ بقولِ زوجِها لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي. المجادلةُ هي المُخاصِمَةُ، وهي المُحاوِرَةُ، وكانَتْ مُجادَلَتُها في زوجِها أنْ قالَتْ: واللهِ ما ذَكَرْتَ طلاقاً حينَ قالَ لها بَعْدَ ما قالَ لها إنْ خَرَجْتِ مِنَ الدارِ فأنْتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وخَرَجَتْ: ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليَّ.

وأمّا مُجادَلَتُها معَ النَّبيِّ ﷺ ومُحاوَرَتُها، فهي[8] قولُها: لا تَقُلْ ذلكَ، وقولُ رسولِ اللهِ ﷺ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» فهذهِ مُحاوَرَتُهُما.

ومِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: المُحاوَرَةُ هي المُراجَعَةُ في الكلامِ، وهما يُرادّانِ[9] الكلامَ، ويُراجِعانِهِ، ويُكَرِّرانِهِ، وهو ما ذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ يُكَرِّرُ قولَهُ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» وهي تُرَدِّدُ، وتُكَرِّرُ قولَها: لا تَقُلْ ذلكَ يا رسولَ اللهِ فإنهُ ما ذَكَرَ طلاقاً. ولكنْ هذا قريبٌ مِنَ الأوَّلِ.

---

(١) في الأصل وم: الأشبه هذا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: إنما ينسخ. (٥) في الأصل وم: عليه. (٦) في الأصل وم: ينسخ. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يرددان.

وقالَ بعضُ أهلِ اللغةِ: ﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي كلامَكُما، والتّحاوُرُ الكلامُ بَينَ اثْنَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ تَشتكيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لكنَّ اللهَ تعالى أضافَ [الشّكْوى][1] إلى نفسِهِ، لأنَّ مُرادَها أنْ تنْزِلَ آيَةٌ مِنَ اللهِ تعالى على رسولِهِ ﷺ بالفَرَجِ عنها.

والثاني: أنَّ شَكْواها إلى اللهِ تعالى وتَضرُّعَها، قد كانَ حينَ[2] لم تَجِدِ الفَرَجَ والمَخرَجَ في ما قالَ لها رسولُ اللهِ: «ما أراكِ إلّا وقد حَرُمْتِ عليهِ» فاشتَكَتْ إلى اللهِ تعالى [ودَعَتْ، وتَضرَّعَتْ، حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى][3] على رسولِهِ الآيةَ فيها، وجاءَتِ الرُّخصَةُ لها بالاجْتِماعِ بعدَ التّكْفيرِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي يَسْمَعُ لها بِما أجابَ، وأغاثَ بالفَرَجِ والمَخرَجِ عمّا اشْتَكَتْ إليهِ، ويَسْمَعُ لِرسولِ اللهِ ﷺ بما أبانَ ما ظَهَرَ لهُ مِنَ الحُكْمِ في الحادثةِ التي اشْتَبَهَتْ عليهِ، وأشْكَلَ وَجْهُ الحُكْمِ [عليهِ][4] في ذلكَ.

ثم اختَلَفَتِ الأخبارُ في أمْرِهما أيضاً [حينَ دعا زَوجَها][5] رسولُ اللهِ ﷺ وأخبَرَهُ بالآيةِ التي نَزَلَتْ في أمْرِهما.

ذُكِرَ في حديثِ القُرَظِيِّ: «لمّا نَزَلَتِ الآيةُ دعا زَوجَها أوساً، فقالَ لهُ: اعْتِقْ رَقَبَةً، قالَ: ما عندي رَقَبَةٌ أُعْتِقُها، قالَ: فَصُمْ شَهْرَينِ مُتَتابِعَينِ، قالَ: ما أستَطيعُ يا رسولَ اللهِ، إني لأصومُ يوماً واحداً، فَيَشُقُّ ذلكَ عليَّ، فكيفَ أصومُ شَهْرَينِ مُتَتابِعَينِ؟ قالَ: فأطعِمْ سِتّينَ مِسْكيناً، قالَ: [أمّا هذا فَنَعَمْ، قالَ: فأطْعِمْ سِتّينَ مسكيناً، قالَ:][6] فأمْسَكَها».

وفي روايةٍ أُخرَى ذَكَرَها الكَلْبِيُّ: «لَمّا نَزَلَتْ رُخصَتُهُما أرسَلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى زَوجِها أوسِ بْنِ الصامتِ، فاتاهُ، فقالَ: وَيْحَكَ ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ، وقُلْتَ؟ قالَ: الشيطانُ يا رسولَ اللهِ، فهلْ مِنْ رُخصةٍ تَجْمَعُني وإيّاها؟ قالَ: نعمْ، وقرأ عليهِ هذهِ الآياتِ الأرْبَعَةَ، وقالَ لهُ: هل تَستَطيعُ أنْ تُعتِقَ رَقَبَةً؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنَّ المالَ لقليلٌ، وإنَّ العِيالَ لَكثيرةٌ، وإنَّ الرِّقابَ لَغاليةٌ، قالَ: فهل تَستَطيعُ أنْ تصومَ شَهْرَينِ مُتَتابِعَينِ؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، لولا أني آكُلُ في اليومِ مَرّةً أو مَرّتَينِ لَكَلَّ بَصَري، ولَظَنَنْتُ أني سأموتُ، قالَ: فهل تَستَطيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتّينَ مِسْكيناً؟ قالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ إلّا أنْ تُعينَني بِصَدَقةٍ، فأعانَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بِخَمْسَةَ عَشَرَ صاعاً، وأخْرَجَ أوسٌ مِنْ عندِهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صاعاً، تَصَدَّقَ به على سِتّينَ مِسْكيناً، فَجَمَعَ اللهُ بينَهُ وبينَ أهلِهِ» [أبو داوود: ٢٢١٤ وابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٨/ ٤ والسيوطي في الدر المنثور: ٨/ ٧٢].

وذُكِرَ في خَبَرٍ آخَرَ «أنَّ رجلاً كانَ ظاهَرَ مِنِ امْرأتِهِ، وكانَ هو بِصَومٍ، فَواقَعَ امْرأتَهُ في وقْتِ الصومِ، فَأتى رسولَ اللهِ ﷺ فأخبَرَهُ بذلكَ، فعابَهُ رسولُ اللهِ ﷺ / ٥٥٤ ـ أ/ على فِعْلِهِ ثم أمَرَهُ بأنْ يُكَفِّرَ بما وَصَفْنا مِنَ الكَفّاراتِ، فقالَ [في][7] كلٍّ واحدةٍ منها: لا أستطيعُ، قالَ: فأمَرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يأتيَ [إلى][8] مَوْضِعِ كذا إلى أبي زُرَيقٍ، ويأخُذَ منهُ وُسْقاً مِنَ التّمْرِ، فَيُعْطِيَ سِتّينَ مِسْكيناً كلَّ مِسْكينٍ صاعاً، والباقي يُنْفِقُهُ على عِيالِهِ» [أبو داوود ٢٢١٣].

وذُكِرَ[9] في الإطعامِ في خَبَرٍ: لا أستَطيعُ، وفي خَبَرٍ أنهُ قالَ: أمّا هذا فَنَعَمْ، وفي حديثٍ آخَرَ: لا إلّا أنْ تُعينَني بصدقةٍ؛ فَيُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا القولُ منهُ: أمّا هذا فَنَعَمْ بعدَ ما وَعَدَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بالإعانةِ أو بإعطاءِ الكُلِّ، فَتُخَرَّجَ الأخبارُ على الوِفاقِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الأخبارِ دليلٌ على أنَّ الكَفّارةَ إذا لَزِمَ فيها طعامٌ فَمِنَ الحِنْطةِ نِصْفُ صاعٍ، وفيهِ ودليلٌ أنَّ نصفَ صاعٍ مِنَ الحِنْطةِ طعامُ مِسْكينٍ، وأنهُ يجوزُ مِنْ صَدَقةِ الفِطْرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قُرِئَ يَظَّهَّرونَ مُشَدَّدَةَ الظاءِ بِغَيرِ ألفٍ، وهو في الأصلِ:

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث دعا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

يَتَظَهَّرونَ، فأُدغِمَتِ التاءُ في الظاءِ، وشُدِّدَتْ، وقُرِئَ يَظّاهَرونَ[1] بِفَتْحِ الياءِ وتَشديد الظاءِ بألفٍ، وهو في الأصلِ: يَتَظاهَرونَ، فأُدغِمَتِ التاءُ في الظاء، وشُدِّدَتْ، وقُرِئَ أيضاً يُظاهِرونَ بضمِّ الياءِ وتَخفيفِ الظاءِ بألفٍ مِنْ ظاهَرَ يُظاهِرُ مُظاهَرةً، والمَعْنَى واحدٌ في ما اخْتُلِفَ مِنْ قِراءاتِهِمْ؛ يُقالُ: ظاهَرَ الرجلُ مِنِ امْرَأتِهِ، ويُظاهِرُ منها، وتظاهَرَ، وتَظَهَّرَ منها بِمَعْنًى واحِدٍ، وهو أنْ يقولَ لها: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي.

وقالَ القُتَبِيُّ: يُظاهِرونَ، أي يُحَرِّمونَ تَحْريمَ ظُهورِ الأمهاتِ.

وقالَ أبو عوسَجَةَ: يُظاهِرونَ هذهِ يمينٌ أنْ يقولَ الرجلُ لِامْرأتِهِ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي، وأمّا يَظّاهَرونَ فَمِنَ[2] التَّظاهُرِ، وهو التَّعاوُنُ، أي تَعاوَنوا، ولكنْ هو خلافُ ما تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الظِّهارُ كانَ عندَ ذلكَ القومِ ظاهراً، وهو ما رَوَينا في الأخبارِ أنَّ امْرأةَ أوسِ ابْنِ الصامتِ لمّا هَمَّتْ أنْ تَخْرُجَ مِنَ الدارِ قالَ لها: إنْ خَرَجْتِ مِنَ الدارِ فأنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وكذلكَ هذهِ الدلالةُ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، والظِّهارُ أُخِذَ اسْمُهُ مِنَ الظَّهْرِ، وكذلكَ في ما عَرَفَهُ المُسلِمونَ في ما بَيْنَهُمْ هذا اللفظُ، وهو قولُهُ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمّي.

أمّا ظاهِرُ الآيةِ فَيوجِبُ أنْ يكونَ الظِّهارُ في ما يقولُ: أنتِ علي كأمّي، وهو قولُهُ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ ذَكَرَ الأمّهاتِ، ولم يَذْكُرْ ظهرَ الأمّهاتِ، فصارَ ظاهِرُ الآيةِ يُوجِبُ هذا.

وبهذا احْتَجَّ محمدُ بْنُ الحَسَنِ لِمَذْهَبِهِ في مَنْ قالَ لِامْرأتِهِ: أنتِ عليَّ كأمّي؛ قالَ يكونُ ظِهاراً مِنْ غَيرِ نِيَّةٍ.

وأمّا أبو حَنيفَةَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، فإنهُ قالَ: لا يكونُ مُظاهِراً إلّا [أنْ][3] يَنْوِيَ بذلكَ الحُرْمَةَ، فإنْ نَوى بِهِ كانَ؛ وذهبَ في ذلكَ إلى ما رُوِيَ في الأخبارِ ذلكَ الحَرْفُ؛ أعني قولَهُ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي، وإنما نزلَتِ الآيةُ في مَنْ قالَ ذلكَ القولَ، فلا يَحِلُّ لنا أنْ نَصْرِفَهُ إلى غَيرِهِ إلّا بدليلٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي ما هُنَّ لهمْ كأُمّهاتِهِمْ لأنهُ تعالى [قالَ:][4] ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ على سَبيلِ الرَّدِّ لِما أخْبَرَ تعالى عنهمْ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ أي قالوا لِنسائهِمْ: أنْتُنَّ علينا كظهورِ أُمّهاتِنا، وقولِهِ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ في الظاهِرِ يكونُ ردّاً لِقولِ مَنْ قالوا لِنسائِهِمْ: أنتُنَّ[5] كأُمّهاتِنا لا لِمَنْ قالوا: أنتُنَّ[6] كأُمّهاتِنا أو كظهورِ أُمّهاتِنا، فَيَحْتَمِلُ بذلكَ القولِ أنَّ مُرادَ اللهِ تعالى بقولِهِ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ﴾ أي كأُمّهاتِهِمْ.

ولكنَّ الإشكالَ أنهُ إذا صارَ تقديرُ الآيةِ: ما هُنَّ كأُمّهاتِهِمْ؛ فما مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾: أنهمْ كانوا يَدَّعونَ التَّشْبيهَ بالأمّهاتِ، واللهُ تعالى نَفَى ما ادَّعَوا مِنَ التَّشْبيهِ في ما مَضَى لِبيانِ حَقيقةِ الأمّهاتِ، وهنَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ، وهُمْ يَعْرِفونَ ذلكَ، ولا يُنْكِرونَهُ، ولا يَدَّعونَ في نسائِهِمْ أنهنَّ أُمّهاتُهُمْ حَقيقةً حتى يَرُدَّ عليهِمْ[7] دَعْواهُمْ بقولِهِ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾.

وإشكالٌ آخرُ: أنهُ قالَ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ وظاهِرُ هذا القولِ منهمْ ليسَ بقولِ الزُّورِ ولا المُنْكَرِ، إذْ ليسَ [قولُهُمْ ذلكَ][8]: ظَهْرُكِ كَظَهْرِ أمّي، أو أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي أو كأمّي إلّا التَّشبيهَ، وهي [تَعْلَمُ أنَّ][9] ظَهْرَها كَظَهْرِ أمّهاتِ في الهيئةِ والخِلْقَةِ، والتَّشْبيهُ لا يَقْتَضي العُمومَ، فما مَعْنَى تَسْمِيَتِهِمْ تَشْبيهَ المرأةِ بالأمّ مُنْكراً وزُوراً.

وإشكالٌ آخرُ: أنهُ قد سَمّى اللهُ تعالى غَيرَ الأمّهاتِ اللائي وَلَدْنَهُمْ أمّهاتٍ لهمْ؛ فإنهُ قالَ في نِساءِ النَّبِيِّ ﷺ ورَضِيَ عنهنَّ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقالَ في النساءِ اللاتي يُرْضِعْنَ أولادَ الغَيرِ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ولم يَلِدْنَهُمْ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٩٧ و /٩٨. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) في الأصل وم: إنهن. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) في الأصل وم: ذلك قولهم. (٩) في الأصل وم: لعلها فإن.

فنقولُ، وباللهِ التوفيقُ: إنهمْ كانوا يُريدونَ أنْ يُوجِبوا في نِسائِهِمْ حقوقاً وأحكاماً ما كانَتْ في أُمَّهاتِهِمْ، لم يكُنْ لهمْ إيجابُ ذلكَ؛ فإنهمْ كانوا يُشَبِّهونَ النساءَ بالأمّهاتِ، ولم يُريدوا بذلكَ التّشبيهِ مِنْ حيثُ الصورةُ أو الخِلْقةُ، ولكنْ [يُريدونَ][1] بذلكَ التّشبيهِ [التّشبيهَ][2] في الحرمةِ.

وحُرْمَةُ النساءِ في الأصْلِ غَيرُ حرمةِ الأمّهاتِ؛ فإنّ الأمّ حرامٌ الاِسْتِمْتاعُ بها على التّأبيدِ، لكنْ يُباحُ للرجلِ أنْ يدخُلَ على أمّهِ، ويَخْدِمَها، ويُسافرَ بها، ويُباحُ [لهُ][3] النظرُ والمَسُّ والإركابُ والإنزالُ والخَلْوةُ بها والمُقامُ معَها.

والمرأةُ متى حُرِّمَتْ بالطلاقِ بالثلاثِ أو بالبَينونةِ لا يَثْبُتُ شيءٌ مِنْ هذهِ الحقوقِ.

والمُشابَهَةُ بَينَ الشيئَينِ، إنْ كانَتْ لا تَقْتَضي التّساوِيَ بَينَهما مِنْ كلّ وجْهٍ، ولكنْ تَقْتَضي المساواةَ بَيْنَهما في وجهٍ مِنَ الوجوهِ على الكمالِ، فإنّ الذاتَ في الشاهدِ إذا قامَ بهِ العِلْمُ يُسمّى عالِماً، واللهُ تعالى يُسمّى عالِماً، ولا يُوجبُ التّشبيهَ لانْعِدامِ التّماثُلِ بينَ العالِمَينِ والتّساوي مِنْ كلّ وجهٍ، فلم يَعُدْ مُشابِهاً، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ. فَدَلّ أنّ هؤلاءِ بِتَشبيهِهِمُ النساءَ بأمهاتِهِمْ أرادوا أنْ يَجْعَلوا حُرْمةَ نِسائِهِمْ كَحُرْمَةِ أُمّهاتِهِمْ، ويوجِبونَ فِيهِنّ حقوقاً وأحكاماً كحقوقِهِنّ وأحكامِهِنّ حتى تُباحَ لهمُ المُعامَلَةُ مَعَ نسائِهِمْ ما تُباحُ معَ أُمّهاتِهِمْ، ويَحْرُمَ ما يَحْرُمُ معهنّ، ويكونَ احْتِرامُهُنّ كاحْتِرامِهِنّ، واللهُ تعالى لم يَجْعَلْ ذلكَ، ونَهاهُمْ عنْ ذلكَ، فقالَ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أي كأمّهاتِهِمْ في هذهِ الحرمةِ التي يُريدونَ إثباتَها.

وإنهُ لم يَجْعَلْ لِنِسائِهِمْ حُرْمَةَ أُمّهاتِهِمُ اللائي وَلَدْنَهُمْ، فما بالُهُمْ يَخْتَرِعونَ منْ أنفسِهِمْ شيئاً لم أجْعَلْهُ، ولم أُشَرِّعْهُ؟ فَرَدَّ صَنيعَهُمْ بهذا.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ إنما كَذَّبَهُمْ بِما قالوا مِنْ إيجابِ تلكَ الحقوقِ والأحكامِ على أنفسِهِمْ في نِسائِهِمْ مِنْ غَيرِ أنْ جَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ؛ أي ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ في إيجابِ الحقوقِ فيهنّ كما في الأمهاتِ وتَشبيهِهِمْ أياهُنّ بالأمّهاتِ في الأحكامِ والحقوقِ والحرمةِ، وإنْ كانَ كلامُهُمْ وقولُهُمْ مِنْ حيثُ ظاهرُ التشبيهِ ليسَ بِمُنكَرٍ ولا بِزُورٍ.

وهذا كقولِهِ تعالى في وصفِ المُنافِقينَ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهؤلاءِ المُنافِقونَ في ما قالوا في الظاهرِ كانوا صَدَقَةً، ولكنْ لمّا كانَ قَصْدُهُمْ غَيرَ ذلكَ، وكانَ في قلوبِهِمْ إيجابُ شيءٍ غَيرِ ما أظْهَروا / ٥٥٤ ـ ب/ أسماهُمْ كَذَبةً، فكذلكَ هؤلاءِ المُظاهرونَ لمّا أرادوا إيجابَ حُكْمٍ لم يُجْعَلْ لهمْ ذلكَ سَمّى قولَهُمْ مُنْكَراً وزُوراً.

والمُنْكَرُ هو الذي لا يُعْرَفُ في الشريعةِ، والزُّورُ هو الكَذِبُ، فَنَهاهُمُ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ.

وأمّا قولُهُمْ: إنّ اللهَ تعالى قد سَمّى غَيرَ اللائي يَلِدْنَهُمْ أُمّهاتٍ مِنْ نساءِ النّبيّ ﷺ والمُرْضِعاتِ، منهمْ مَنْ قالَ: جائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ مُتَقَدِّمَةً على قولِهِ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] وقولِهِ[4]: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلم يَكُنْ في ذلكَ الوقتِ أُمّهاتٌ مِنْ رَضاعٍ، ثم كانَتْ مِنْ بَعْدُ، فيكونُ الإخبارُ بهذا مُقَيَّداً بذلكَ الوقْتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٤٥] لم يَجِدْ في ذلكَ الوقْتِ، ثم وَجَدَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ غَيرَهُ مُحَرّماً. فَعَلى ذلكَ هذا.

وقيلَ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قالَ ذلكَ في قومٍ خاصّ وَقبيلةٍ خاصّةٍ، لم يكُنْ لهمْ أُمّهاتٌ مِنْ إرضاعٍ، فيكونُ الإخبارُ أنّ أمّهاتِهِمْ ليسَتْ إلّا اللائي وَلَدْنَهُمْ صِدْقاً.

ولكنّ هذا تكلّفٌ لأنّ قولَهُ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ أي إنّ هذهِ الحقوقَ والأحكامَ التي يُوجِبونَ ليسَتْ تَثْبُتُ إلّا في الأُمّهاتِ اللائي يَلِدْنَهُمْ، أو مَنْ كانَتْ في مَعْناهُنّ، وصِرْنَ أمثالَهُنّ شَرْعاً، يَجْعَلُهُنّ[5] اللهُ تعالى كأزواجِ النّبيّ ﷺ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ومن قوله. (٥) في الأصل وم: يجعل.

والأمّهاتِ بسببِ الرَّضاعِ، واللهُ تعالى لم يَجْعَلْ لِنسائِهِمْ تلكَ الحقوقَ، ولا ألْحَقَهُنَّ بالأمّهاتِ، فيكونُ تَشبيهُهُنَّ بهنَّ في هذهِ الحقوقِ مُنكَراً مِنَ القولِ وزُوراً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾اختُلِفَ في حُكْمِ الظِّهارِ ما هو؟ وفي تأويلِ العَودِ:

عنْ طاوُوسٍ قولانِ: في قولٍ: قالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ الوَطْءِ، فإذا حَنِثَ فَعَلَيهِ الكَفّارَةُ، وهذا تأويلٌ بعيدٌ مُخالِفٌ للنَّصِّ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وإنما الذي ذهبَ إليهِ حُكْمُ الإيلاءِ أنهُ إذا وَطِئَ تَجِبُ الكَفّارَةُ، فأمّا في الظِّهارِ فَتَجِبُ الكَفّارَةُ قَبْلَ الوَطْءِ. وفي [قولٍ: قالَ][1] إذا تَكَلَّمَ بالظِّهارِ، تَجِبُ عليهِ الكفارَةُ، ولم يُشْتَرَطْ معها[2] عليهِ شيءٌ آخَرُ.

وعَنْ مالكٍ أنهُ إذا ظاهَرَ مِنِ امْرأتِهِ، ثم أجْمَعَ، وعَزَمَ على إمساكِها وإصابَتِها، وحَنِثَ، عليهِ الكفّارَةُ، حتى إذا طَلَّقَها، أو ماتَتِ المرأةُ بَعْدَ العَزْمِ على الإمساكِ والإصابةِ أو بَعْدَ الإصابةِ بَقِيَ وجوبُ الكفّارةِ عليهِ، وإنْ لم يُجْمِعْ على إمساكِها حتى ماتَتْ، تَسقُطُ الكفّارَةُ، وكذلكَ إذا طَلَّقَها.

لكنهُ إذا تَزَوَّجَها بَعْدَ ذلكَ، لم يُمْسِكْها حتى يُكَفِّرَ، فيكونُ العَودُ، هو إمساكُها[3] لِيَطأها.

وعَنِ الحَسَنِ أنَّ العَودَ، هو العَزْمُ على الجماعِ، حتى إذا عَزَمَ على جِماعِها تَجِبُ الكَفّارَةُ، وإنْ أرادَ تَرْكَها بَعْدَ ذلكَ.

وقالَ عثمانُ البَتِّيُّ في مَنْ ظاهَرَ مِنِ امْرأتِهِ، ثم طَلَّقَها قَبْلَ أنْ يَطأها، قالَ: أرى عليهِ الكفارَةَ، راجَعَها، أو لم يُراجِعْها، وإنْ ماتَتْ لم يَرْتَفِعِ الظِّهارُ والكَفّارَةُ، ولا يَرِثُ حتى يُكَفِّرَ.

وقالَ الشافِعِيُّ: العَودُ، هو الإمساكُ، والكفّارَةُ تَجِبُ بهِ، وحُكْمُ الظِّهارِ، وهو تَحريمُ المُتْعَةِ، حتى إذا أمْكَنَهُ أنْ يُطَلِّقَها بَعْدَ الظِّهارِ، ولم يُطَلِّقْ، وأمْسَكَها ساعةً لِيَطأها فقد وجَبَتْ عليهِ الكَفّارَةُ، عاشَتْ [أو ماتَتْ، وإذا عاشَتْ][4] طَلَّقَها، أو لم يُطَلِّقْها، راجَعَها أو لم[5] وإذا طَلَّقَها عَقيبَ الظِّهارِ بلا فَصْلٍ، يُبْطِلُ الظِّهارَ، ولا تَجِبُ الكفارةُ إلّا بِعَزْمِ إمساكِ المرأةِ.

وقالَ بعضُ المتأخرينَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يَعودونَ إلى القَولِ الأوّلِ، فَيُكَرِّرونَ ذلكَ القولَ، وعندَهُمْ لا يكونُ الرجلُ مُظاهِراً حتى يقولَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمي مَرَّتَينِ.

وأمّا عندَنا فَحُكْمُ الظِّهارِ، هو تَحريمٌ مُؤَقَّتٌ بالكَفّارةِ، ولا يَرْفَعُهُ[6] إلّا الكفارةُ. هكذا رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: إذا قالَ: أنتِ عليَّ كَظَهْرِ أمّي لا[7] تَحِلُّ لهُ حتى يُكَفِّرَ.

وعندَنا لا تَجِبُ الكفارةُ بنفسِ الظِّهارِ، وإنما الظِّهارُ يُوجِبُ الحُرْمَةَ، لا غيرُ، وإنما تَجِبُ [الكفارةُ][8] بالعَودِ، حتى إنها إذا ماتَتْ لا تَجِبُ عليهِ الكَفّارَةُ إذِ ارْتَفَعَ المَعنَى الذي يُوجِبُ[9]، وهو اسْتِباحةُ الوَطْءِ، وكذلكَ إذا طَلَّقَها باتّاً أو ثلاثاً لا تَجِبُ الكَفّارَةُ لهذا. حتى إذا عادَتْ إليهِ بالتَّزَوُّجِ، وأقْدَمَ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ، تَجِبُ الكفارَةُ.

وهو عندَ أصحابِنا أنْ يَجْعَلَ المرأةَ على الحالةِ الأولَى، ويُحَلِّلَها على نفسِهِ على ما كانَ عليهِ، ويَسْتَبيحَ وَطْأها. فإذا أرادَ أنْ يُحَلِّلَها على نَفْسِهِ، ويَسْتَبيحَها، ويُقْدِمَ عليهِ [يَجِبُ عليهِ][10] أنْ يُكَفِّرَ.

ولا تَزولُ الحُرْمَةُ عندَنا إلّا بالكفارةِ؛ فالتكفيرُ سَبَبُ الحِلِّ. كذا ذَكَرَ العَمِّيُّ في تأويلِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي يَعودونَ

---

(١) في الأصل وم: قوله. (٢) في الأصل وم: معه. (٣) من م، في الأصل: الإصابة بقي. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: لا. (٦) في الأصل وم: يرفعها. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يجب. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

بِفَسْخِ ما قالوا ونَقْضِ ذلكَ، واسْتَدَلَّ بما ذُكِرَ عنِ الأصمعيِّ أنَّ أعرابيّاً تكلَّمَ بينَ يديهِ بأنهُ كانَ شيءٌ بَيْننا[1]، ثم نَعودُ إليهِ، قالَ لهُ الأصمعيُّ: ما أردْتَ بهِ؟ فقالَ: أنْ[2] أنْقُضَهُ، وأفْسَخَهُ.

فهذا يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ [أنْ يَعودوا][3] إلى اسْتِحْلالِ ما حَرَّموا [ويَنْقُضوا ذلكَ، ويَرُدّوا][4] الحِلَّ إلى الحالةِ الأُولى، إلّا أنَّ ظاهِرَهُ العَودُ إلى القولِ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾.

ولكنْ أرادَ بهِ المَقولَ بهِ والثابتَ بهِ، وهو الحرمةُ؛ كأنهُ قالَ: ثم يعودونَ لِما حَرَّموا بالقولِ، فَيَسْتَبيحونَهُ. ويجوزُ أنْ يُذْكَرَ الفعلُ، ويُرادَ بهِ المَفعولُ كقولِهِ ﷺ: «العائدُ في هِبَتِهِ كالكلبِ يعودُ في قَيْئِهِ» [البخاري ٢٦٢١]. وإنما هو عائدٌ في المَوهوبِ وقَولِ[5] اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي المُوقَنُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: العَودُ الذي تَجِبُ [بهِ][6] الكفارةُ، هو العَزْمُ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ والقَصْدُ على تَحْليلِها على نفسِهِ وإعادةُ الحِلِّ إلى الحالةِ الأُولَى، ثم الإقدامُ على الوَطْءِ أو مُباشَرَةُ نفسِ الوَطْءِ.

فإنْ كانَ المُرادُ، هو الأوَّلُ، فيَجِبُ أنْ يقولوا: توجَبُ الكفّارةُ بنفسِ العَزْمِ على الِاسْتِباحةِ والتحليلِ كما قالَ مالكٌ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، والحَسَنُ: رَحْمةُ اللهِ عليه.

وإنْ كانَ المُرادُ إيقاعَ الوَطْءِ فَيَجِبُ أنْ يقولوا: إنهُ لا تَجِبُ الكفارةُ إلّا بَعْدَ الوَطْءِ كما قالَهُ قومٌ، وهو خِلافُ الآيةِ وخِلافُ قولِكُمْ.

قيلَ: يعني بذلكَ أنهُ[7] الإقدامُ على اسْتِباحةِ الوَطْءِ والِاشْتِغالِ بإقامتِهِ، فَيُقَدِّمُ التَّكْفيرَ، ثم يَفْعَلُهُ. أمّا لا يَجِبُ بِمُجَرَّدِ العَزْمِ ولا بَعْدَ تَحَقُّقِ الفِعْلِ، وهذا لأنهُ إذا ظاهَرَ حَرُمَتِ المرأةُ عليهِ بسببِ فِعْلِهِ يَجِبُ عليهِ توفيرُ حَقِّها في الجِماعِ إنْ كانَتْ بِكْراً في الحُكْمِ حتى يُجْبَرَ عليهِ[8].

وإنْ كانَتْ ثَيِّباً، وقد وَطِئَها مَرَّةً، فَيَجِبُ عليهِ في ما بَيْنَهُ وبينَ اللهِ تعالى إيصالُ ذلكَ إليها.

وعندَ بعضِ أصحابِنا يُجْبَرُ في الحكمِ أيضاً على ذلكَ. فإذا أقدمَ على ذلكَ يَجِبُ عليهِ تَحْصيلُ الكَفّارةِ لِيَتَوَصَّلَ إلى إقامةِ ذلكَ الواجِبِ عليهِ مِنَ الجِماعِ؛ إذْ لا يَحِلُّ ذلكَ بدونِ الكَفّارةِ.

وهذا كالوضوءِ في بابِ الصلاةِ؛ ليسَ بِفَرْضٍ مَقْصودٍ بنفسِهِ. لكنْ يَجِبُ لإقامةِ الصلاةِ؛ إذْ لا تَجوزُ الصلاةُ بدونِ الطهارةِ. فإذا أقْدَمَ على الصلاةِ يَجِبُ / ٥٥٥ ـ أ/ عليهِ تَحْصِيلُ الوضوءِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ أداءِ ما عليهِ، ولا يَجِبُ بنفسِ الإرادةِ، ولا يَجِبُ بنفسِ الحَدَثِ، حتى يَجِبَ الوضوءُ ما لم يدخُلْ وقتُ الصلاةِ، ويَقُمْ[9] إليها.

وكذلكَ المرأةُ إذا حاضَتْ بَعدَ الوقْتِ حتى سَقَطَتْ عنها الصلاةُ يَسْقُطُ الوضوءُ.

فَعَلَى ذلكَ هذا يَجِبُ عندَ الإقدامِ على إقامةِ هذا الواجِبِ، وهو الوَطْءُ، والظِّهارُ شرطٌ. ولهذا إذا ماتَتِ المرأةُ تَسْقُطُ الكفارةُ لِانْعِدامِ ما هو المَقْصودُ بالإقامةِ، وهو الوَطْءُ. وكذلكَ إذا طَلَّقَها ثلاثاً أو بائناً. لكنْ إذا عادَتْ إليهِ تَلْزَمُهُ الكفارةُ إذا أقدَمَ على الوَطْءِ، ولم يَبْطُلِ الظِّهارُ لِاحْتِمالِ حصولِ العَودِ[10]، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ وجْهاً آخَرَ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ الآية هذا خَبَرٌ عنْ ظِهارِ القومِ الذينَ كانوا يُظاهِرونَ في جاهِلِيَّتِهِمْ، أي ظاهَروا في ذلك الوقْتِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي لو قالوا ذلكَ القولَ بعدَ إسلامِهِمْ فَعَلَيهِمْ ما ذُكِرَ، إذِ الظِّهارُ كانَ ظاهِراً في الجاهليةِ، مَنْ عادَ إلى ذلكَ القولِ، ورَجَعَ إليهِ وقْتَ إسلامِهِ، فَعَلَيهِ ما ذُكِرَ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ [المائدة: ٩٥].

---

(١) في الأصل وم: بنا. (٢) في الأصل وم: أي. (٣) في الأصل وم: أي يعودون. (٤) في الأصل وم: وينقضون ذلك ويردون. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) أدرج بعدها في الأصل وم: وهذا. (٩) في الأصل وم: ويقوم. (١٠) في الأصل وم: العرض.

فهذا يَرْجِعُ إلى فِعْلِ ذلكَ مَرَّةً وإلى اسْتِحْلالِ ما حَرَّمَ اللهُ ثانياً، وإنْ عادَ إلى الفِعْلِ الأَوَّلِ لا مِنْ وجْهِ الاسْتِحْلالِ، فَيَنْتَقِمُ اللهُ منهُ بالغرامةِ عليهِ. وإنْ عادَ إلى الاسْتِحْلالِ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منهُ بالعذابِ.

وكذلكَ مِثْلُ هذا في آيةِ الرِّبا حينَ[1] قالَ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي عادَ إلى ما كانَ يَفْعَلُهُ قَبْلَ الإسلامِ، فكذلكَ هذا العَوْدُ إلى الظِّهارِ.

على هذا التَّقْريرِ يُخَرَّجُ تأويلُ الآيةِ عندَنا[2]، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] أي كانوا يَتَناجَونَ في الجاهليةِ، فنهاهُمُ اللهُ تعالى عنِ العَوْدِ إلى ما كانوا عليهِ.

فَعَلى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

لكنْ على هذا التأويلِ الإقدامُ على الوَطْءِ سبباً لِوجوبِ الكفارةِ لم يَثْبُتْ بهذا النَّصِّ. إنما فيهِ أنَّ الظِّهارَ يوجِبُ تَحريماً مُوَقَّتاً بالكفارةِ. وكذلكَ الأحاديثُ التي ذَكَرْنا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ أوساً بالكفارةِ حينَ ظاهَرَ مِنْ زَوجِهِ[3]، وإنما يُعْرَفُ مِنْ حيثُ الدلالةُ، فإنهُ لَمّا كانَ التحريمُ مُوَقَّتاً بالكفارةِ، وتكونُ رافعةً لهُ، فإنما يَجِبُ الرفعُ بالإقدامِ عليهِ لا بسببٍ سابقٍ موجِبٍ للتحريمِ، لأنَّ رافعَ الحُرْمَةِ [لا يَجِبُ][4] في ما يوجِبُ الحُرْمَةَ كما ذَكَرْنا في الوضوءِ أنهُ لا يَجِبُ ما يَحْدُثُ الذي هو رافعٌ للطهارةِ، ولكنْ لِما يُوجِبُ على المُكَلَّفِ الصلاةَ بالطهارةِ، ويَجِبُ عليهِ الوضوءُ بالإقدامِ على الصلاةِ التي لا تَجوزُ بدونِهِ. فكذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَوْدَ، هو العَزْمُ على إمساكِ النِّكاحِ والبَقاءِ عليهِ، فاسدٌ؛ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ أوجَبَ الكفارةَ على أوسِ بْنِ الصامتِ حينَ ظاهَرَ مِنْ زوجِهِ[5]، ولم يَسْأَلْهُ الإمساكَ والبقاءَ عل النكاحِ، ولأنَّ تفسيرَ العَوْدِ الإمساكُ لا يَسْتَقيمُ، لأنهُ لم يُعْرَفْ في الأصلِ إمساكُ المرأةِ عَوداً عليها ولا إمساكُ شيءٍ مِنَ الأشياءِ يَتَكَلَّمُ بالعَوْدِ إليهِ، فيكونُ هذا خِلافَ اللغةِ.

ولِما ذَكَرْنا [أنَّ العودَ][6] إلى الشيءِ، هو الرجوعُ إلى ما كانَ عليهِ فَيَقْتَضي انْعِدامَهُ وزوالَهُ حتى يَتَحَقَّقَ العَوْدُ؛ إذِ العَوْدُ، هو وجودٌ ثانٍ. وهذا إنما يَتَحَقَّقُ في ما قُلْنا مِنَ الجزاءِ لأنهُ قد يُبْدَلُ بالحُرْمَةِ.

فأمّا العَقْدُ [فإنهُ][7] قائمٌ، لم يَزَلْ بالظِّهارِ، فكيفَ يَعودُ إلى العقدِ، فلا يكونُ البقاءُ على العقدِ وإمساكُ المرأةِ بالنِّكاحِ عَوداً؟ ولأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ يَقْتَضي التَّراخِيَ.

ومَنْ جَعَلَ العودَ، هو الإمساكُ والبقاءُ على النِّكاحِ، فقد جَعَلَهُ عائداً عَقيبَ القولِ بلا تَراخٍ، وذلكَ خِلافُ ظاهِرِ الآيةِ.

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَوْدَ، هو العَزيمةُ على الوَطْءِ، فلا مَعْنَى لهُ، لأنَّ مُوجِبَ الظِّهارِ، هو تَحريمُ الوَطْءِ لا تَحريمُ العَزْمِ على الوَطْءِ، وإنْ كانَتِ العزيمةُ على المَحْظورِ مَحْظورةً لِكونِهِ وسيلةً إلى المَحْظورِ، فيكونُ العَوْدُ، هو الرجوعُ إلى ما يَقْوَى بهِ مَقصوداً لا وَسيلةً إلى حَسَبِ الأَوَّلِ، ولأنهُ لاحَظَّ للعزيمةِ في حقِّ تَعَلُّقِ الأحكامِ في سائرِ الأصولِ.

ألا تَرَى أنَّ سائرَ العُقودِ والتَّحْريمِ لا يَتَعَلَّقُ بالعزيمةِ، فلا اعْتِبارَ بها، وقد قالَ النَّبِيُّ ﷺ «إنَّ اللهَ تعالى عَفا عنْ أُمَّتي ما حَدَّثَتْ بهِ نفسَها: ما لم يَتَكَلَّموا بهِ، ويَعْمَلوا»؟ [الطحاوي في شرح مشكل الآثار ١٦٣٦].

وقولُ مَنْ جَعَلَ العَوْدَ تكرارَ القولِ الأَوَّلِ فاسدٌ أيضاً، وإنْ كانَ ظاهرُ اللفظِ يَحْتَمِلُ، وهو العَوْدُ إلى القولِ الأَوَّلِ لأنهُ خِلافُ الإجماعِ وخِلافُ أصولِ الشرعِ.

أمّا خِلافُ الإجماعِ فإنَّ السلفَ والخَلَفَ أجْمَعوا أنَّ هذا ليسَ بِوارِدٍ[8] عنِ الأئمةِ، فيكونُ قائلُهُ خارجاً عنِ الإجماعِ. وأمّا مُخالفةُ الأصولِ فَلأنَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ إنما يَتَعَلَّقُ وجوبُهُما بِابْتِداءِ القولِ [لا][9] بِتَكْرارِهِ في جميعِ الأصولِ مِنَ البَيانِ عدا النِّكاحَ والطَّلاقَ والعِتاقَ والإجاراتِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: عند. (٣) في الأصل وم: زوجها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: زوجها.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بمراد. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فلما كانَ الأصلُ هذا في سائرِ الأسبابِ، والمُظاهِرُ يوجبُ الحرمةَ بقولِهِ، دلَّ أنَّ الموجِبَ هو القولُ الأوَّلُ دونَ الثاني، فيكونُ تعليقُ الحُرْمةِ بِتَكرارِ المُوجِبِ مُخالفةً لسائرِ الأصولِ.

وبهذا يَبْطُلُ قولُ الشافِعيِّ في أنهُ يُعَلِّقُ الحُرْمَةَ بِتَكرارِ الرضعاتِ لا بِرَضْعَةٍ واحدةٍ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَ بالكفارةِ في حقِّ أوسٍ، ولم يَسْألْهُ عنْ تَكرارِ القولِ، ولما لم يَسْألْ دَلَّ أنَّ الحُكْمَ غَيرُ مُتَعلِّقٍ بالتكْرارِ.

وما قالَهُ الشافِعيُّ: إنهُ إذا طَلَّقَها بعدَ الظِّهارِ بلا فَصْلٍ فلا كَفّارةَ عليهِ، وإنْ لَبِثَ ساعةً، ثم طَلَّقَها، كَفَّرَ؛ راجَعَها، أو لم يُراجِعْها، أو ماتَتْ، قولٌ تَفَرَّدَ بهِ، لأنَّ طاوُوساً أوجَبَ عليهِ الكَفّارةَ طَلَّقَها، أو امْسَكَها، وسائرُ التابعينَ قالوا: إنْ ماتَتْ، أو طَلَّقَها، ولم يُراجِعْها، فلا كَفّارةَ علهِ، ولم يَفْصِلوا بينَ أنْ يُطَلِّقَها على إثْرِ [الظِّهارِ بأيّ][1] فَصْلٍ أو بعدَ ذلكَ بساعةٍ، فيكونُ الشافعيُّ بهذا القولِ مُخالِفاً للسَّلَفِ فلا يُعْتَبَرُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ ظاهِرُهُ أنْ يكونَ الوَطْءُ مَحْظوراً عليهِ قَبْلَ الكَفّارةِ لأنهُ جَعَلَ الحُرْمةَ مُوَقَّتَةً بالكَفّارةِ، وإذا وَطِئَ يَسْقُطُ الظِّهارُ والكَفّارةُ لأنَّ كِلاهُما تَعَلَّقَ بشرطٍ أو بِوَقْتٍ، فَمَتَى فاتَ الوقتُ، أو عُدِمَ الشَّرْطُ، لم تَجِبْ لذلكَ النَّصِّ، واحْتِيجَ إلى دلالةٍ أُخرى في إيجابِ مِثْلِهِ في الوقْتِ الثاني.

إلّا أنهُ قد ثَبَتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً ظاهَرَ مِنِ امْرأتِهِ، فَوَطِئَها، ثم سألَ النَّبيَّ ﷺ فقالَ لهُ: اسْتَغْفِرِ اللهَ، ولا تَعُدْ حتى تُكَفِّرَ، فصارَ التحريمُ الذي بَعْدَ الوَطْءِ، عَرَفْناهُ بالسُّنَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ يرجِعُ إلى وجهَينِ: مَرَّةً إلى اسْمِ الرقَبَةِ وَمَرَّةً بما يَسْتَحِقُّ حكْمَ الرقَبَةِ؛ فإنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ الرقَبَةِ اسْمَ الرقَبَةِ نفسِها. فيجيءُ أنْ يجوزَ كلُّ ما يَقَعُ عليهِ اسْمُ الرقَبَةِ صغيراً كانَ، أو كبيراً، كافراً أو مُسْلِماً، مَقْطوعَ الرجلَينِ، أو أعْمَى، أو كيفَ ما كانَ.

وبِشْرٌ المَرِّيسيُّ يذهبُ إلى هذا، ويخبِرُ: كيفَ ما كانَتِ الرقَبَةُ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنْ ذِكْرِ الرقَبَةِ / ٥٥٥ ـ ب/ ما يَسْتَحِقُّ حُكْمَ الرقَبَةِ، فَيَجيءُ ألّا يجوزَ إعتاقُ رقَبةٍ، فيها أدْنى نُقْصانٍ؛ إذِ الأصلُ في العَبيدِ والإماءِ في ما دونَ النَّفْسِ [لا][2] يوجبُ نُقْصاناً في كلِّ نفسٍ، فَيَجيءُ ألّا يجوزَ أنْ يَصيرَ مُعْتِقاً بَعْضَ الرقَبَةِ لا كلَّها.

ثم الدليلُ على أنَّ النُّقصانَ الحالَّ في ما دونَ النفسِ في الرِّقابِ جُعِلَ كالنُّقْصانِ الحالِّ في النفسِ؛ إذِ العبدُ إذا قُطِعَتْ يدُهُ، أو فُقِئَتْ عينُهُ، يُشْتَرى بِنِصْفِ ما كانَ يُشْتَرَى وقْتَ [قِيامِ][3] القِيمةِ، فصارَ النُّقْصانُ في ما دونَ النفسِ كَتَلَفِ نِصفِ القِيمةِ على العبدِ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ منْ نفسِهِ النِّصْفَ، فَتجيءُ على هذا ألّا يجوزَ، إذا كانَ فيهِ أدنى النُّقْصانِ؛ إذِ الحُكْمُ في ما دونَ النفسِ في العَبيدِ حُكْمُ لا نفسٍ، وحُكْمُ الجِنايةِ عليهِمْ مَحْمولٌ على حكْمِ كَمالِ النفسِ.

لكنْ هذانِ التأويلانِ في الآيةِ لا يَصِحّانِ. .

وأمّا الجوابُ عنِ الفَصْلِ الثاني [فهو][4] أنَّ النُّقْصانَ الحالَّ في بعضِ الرقَبَةِ كالحالِّ في كلِّها [وأنّ][5] ذلكَ النُّقصانَ يَرْتَفِعُ بالعِتْقِ، وإنْ كانَ وقْتَ قِيامِ الرِّقِّ بِحُكْمِ النُّقصانِ لِما يَصيرُ رَقَبةً لهُ حُكْمُ الكمالِ بالعِتْقِ؛ إذا صارَ هو مُنْتَفِعاً بالعِتْقِ، إذِ العِتْقُ؛ إذا صارَ هو مُنْتَفِعاً بالعِتْقِ؛ إذِ العِتْقُ جَبَرَ النُّقْصانِ الذي كانَ فيهِ، فَتَسْلَمُ لهُ الرَّقَبةُ كاملةً مِنْ حيثُ المَعْنَى، فيجوزُ كما إذا أعْتَقَ الرقَبَةَ السليمةَ.

والدليلُ أنهُ لو جيءَ عليهِ بَعدَ ما عَتَقَ لم يَنْقُصْ منْ دِيَتِهِ شيءٌ، وإنْ كانَ ذلكَ النُّقصانُ في نفسِهِ وقْتَ العُبوديّةِ والرِّقِّ، وثَبَتَ بهذا أنهُ في حقِّ نفسِهِ كاملُ النفسِ، وإنما كانَ ذلكَ النقصُ لِحَقِّ المَولَى في قيمتِهِ وقْتَ العُبودةِ؛ إذْ هو لو كانَ مَنْقوصاً في حقِّ نفسِهِ لارْتَفَعَ عنهُ ذلكَ النُّقصانُ في حكْمِ الرقَبَةِ. دلَّ أنَّ إعتاقَهُ جائزٌ.

---

(١) في الأصل وم: الطلاق بلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن في.

والأصلُ في ما أوجبَ اللهُ تعالى مِنْ هذهِ الكفارةِ لِيُكَفِّرَ بها ما ارْتَكَبَ مِنَ المآثِمِ ولما ارْتَكَبَ مِنَ الشَّهواتِ التي حُظِرَ عليهِ ارْتِكابُها لِيَتألَّمَ بهذهِ الكفّارةِ زَجْراً عنِ العَودِ إليها، أنْ يَنْظُرَ في هذهِ الكفّارةِ. فإنْ كَفَّرَ بشيءٍ، لا تتألَّمُ به نفسُهُ، ولا تَفْجَعُ عندَها، فلا تجوزُ تلكَ الكَفّارةُ، وإنْ كانَ بالذي يَفْجَعُهُ[١]، ويؤلِمُهُ، فيجوزُ.

ثم ما يَصِلُ إليهِ مِنَ الألمِ في إعتاقِهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنهُ إذا تأمَّلَ ذَهابَ مَنافعِ ذلكَ المملوكِ عنهُ بما كانَ، هو يَصْلُحُ لخدمَتِهِ، يتألَّمُ لذلكَ، ويَتَفَجَّعُ.

والثاني: لمّا تأمَّلَ منهُ النفعَ في العاقبةِ، وإنْ لم يكنْ للحالِ يَنْتَفِعُ بهِ، فَيَتألَّمُ أيضاً بذهابِ تلكَ المَنْفَعَةِ المُوَقَّتَةِ.

فكُلُّ مَنْ كانَ بسبيلٍ[٢] مِنْ هذينِ الوجهَينِ جازَ عِتْقُهُ عنِ الكفّارةِ، وإلّا فلا، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا يجوزُ إعتاقُ الأعْمى والمُقْعَدِ ومَقْطوعِ اليَدَينِ ونَحْوِ ذلكَ عنِ الكفارةِ، ويُخَرَّجُ على الكلامَينِ:

أمّا على الأوّلِ فإنهُ[٣]، وإنِ ارْتَفَعَ النَّقْصُ الحاصلُ في نفسِهِ بسببِ العُبودةِ عندَ وجودِ الإعتاقِ قائماً لا يجوزُ لا للنُّقصانِ، ولكنْ لأنهُ يَصيرُ مُعْتَقاً بِبَدَلٍ، والإعتاقُ بِبَدَلٍ لا يجوزُ عنِ الكفارةِ، وإنْ كانَتِ الرقَبَةُ بِصفةِ الكمالِ.

ومَعْنى قولِنا: إنهُ يَصيرُ مُعْتَقاً بِبَدَلٍ أنهُ ما دامَ في مُلْكِهِ على تلكَ الحالِ فإنَّ مؤْنَتَهُ تَلْحَقُهُ، وبالإعتاقِ تَسْقُطُ مؤْنَتُهُ عن نفسِهِ، وتَلْحَقُ تلكَ المَؤْنَةُ المسلمينَ، فلم تَجُزْ عنِ الكَفّارةِ لِهذا.

وأمّا على الثاني فلا يَلْزَمُ على الوجهَينِ جميعاً.

أمّا على الأوّلِ فلأنهُ لا يَفْجَعُ، ولا تَتَألَّمُ لهُ نفسُهُ بإعتاقِ مثلِهِ لِما ليسَ لهُ مَنْفَعةٌ للخدمةِ، فيَتَألَّمَ لِفَوتِها. وعلى الثاني فَلِما[٤] ليسَ لهُ مَنْفعةٌ تُؤمَلُ في الحالِ، فَيَتَألَّمَ بذلكَ أيضاً.

ولا يُلْزَمُ الصغيرُ على هذا العُذْرِ أنهُ ليسَ لهُ مَنْفَعةُ الخدمةِ، ونَفَقَتُهُ عليهِ أيضاً، ومع ذلكَ يجوزُ إعتاقُهُ عنِ التَّكفيرِ؛ لأنّا نقولُ: إنما يُنْفَقُ على الصغيرِ لِما تُؤمَلُ مَنْفَعَتُهُ في العاقبةِ، والناسُ إنما يُرَبّونَ الصغارَ والصغائرَ؛ ويُنْفِقونَ عليهِمْ لِيَنْتَفِعوا بإيمانِها وإعتاقِها في العواقبِ، فلم يَصِرْ عِتْقُهُ مِنْ هذا الوجهِ بِبَدَلٍ، والتَّألُّمُ بِعِتْقِهِ مَوجودٌ.

وحَسْبُ ما كانَ في الكبيرِ أو الأكبرِ[٥] والأعْوَرِ ومَقْطوعِ إحْدَى اليَدينِ أو إحْدى الرِّجْلَينِ يجوزُ عنِ الكفّارةِ، فإنهُ يُمكِنُهُ الاِكْتِسابُ، فَيَتَألَّمُ مولاهُ بإعتاقِهِ لِما فيهِ ذهابُ مَنْفَعَتِهِ، فَيَصْلُحُ أنْ يكونَ كفّارةً لِما ارْتَكَبَ مِنَ الشهوةِ ولِما وَصَفْنا مِنْ غَيرِ ذلكَ النُّقصانِ، وارْتِفاعُهُ بالعِتْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ عنِ الشافِعيِّ أنهُ لا يُجيزُ عِتْقَ الرقَبَةِ الكافِرةِ عنِ الكَفّارةِ؛ واحْتَجَّ بِما ذَكَرَ اللهُ تعالى في كَفّارةِ قَتْلِ الرقَبَةِ المؤمنةِ، فكذلكَ في كَفّارةِ الظِّهارِ؛ إذْ هما كَفّارتانِ.

ولكنْ نحنُ نقولُ: هذا على أصلِ مَذْهبِهِ [خَطأً لأنَّ مَذْهَبَهُ][٦] يَعُمُّ كلَّ رَقَبَةٍ في دارِ الدنيا.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ في كَفّارةِ الظِّهارِ الرقَبَةَ المؤمنةَ، فلا يجوزُ أنْ نوجِبَ ما ذَكَرَهُ في كَفّارةِ الضِّدِّ ههنا.

والدليلُ عليهِ أنهُ ذَكَرَ في تلكَ الآيَةِ الأشياءَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٩٢] وذَكَرَ الدِّيَةَ، ثم ذِكْرُ الدِّيَةِ في آيَةِ القَتْلِ لم يُوجِبْ على المُظاهِرِ إذا تَرَكَ ذِكْرَها في آيَةِ الظِّهارِ، ومثلُهُ في القرآنِ كثيرٌ.

وأيضاً إنَّ أحقَّ ما يجوزُ في الكَفّارةِ إعتاقُ الرقَبَةِ الكافِرَةِ، وذلكَ لِما أنَّ المُسْلِمَ قد يَتَألَّمُ بإعتاقِ الرقَبَةِ الكافِرَةِ ولا

---

(١) في الأصل وم: يلحقه. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يسأل. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أكثر. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

يَتألَّمُ بإعتاقِ المسلمةِ لِما يأتي طبعُهُ الإحسانَ إلى الكافرِ، ولا يَتأتّى بمثلِهِ إلى المُسْلِمِ، وقد وصَفْنا أنَّ الكفّارةَ لِلتألُّمِ بإخراجِ ما أُمِرَ بإخراجِهِ عنْ ملكِهِ معَ ما في القرآنِ دليلٌ على جوازِ اصْطِناعِ المَعروفِ إليهِمْ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ [وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ][1] وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٠ و٢٧١].

وذُكِرَ في القصةِ أنَّ بعضَ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا قدِ امْتَنَعوا عنِ الإنفاقِ على أقربائهِمْ، لَمّا أبَوُا الإسلامَ، فَنزَلَتْ [فيهِمْ][2] هذهِ الآيةُ، فهذا يُبيِّنُ ذلكَ أنَّ في الاصْطِناعِ إليهِمْ وإعتاقِهِمْ تكفيراً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فتأويلُهُ عندَ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، عِتْقٌ[3]، لا مَسيسَ فيهِ، لأنَّ عندَهُ الإعتاقَ يَحْتَمِلُ التَّجزيءَ: أنهُ يُعْتِقُ نِصفَهُ ثم النِّصفَ الآخرَ، فَيَشْتَرِطُ أنْ يُعْتِقَ النِّصْفَينِ جميعاً قَبْلَ المَسيسِ. حتى لو مَسَّها في ما بينَ ذلكَ يَلْزَمُهُ اسْتِئنافُ العِتْقِ.

الآية ٤ وعلى هذا التأويلِ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي صومُ شهرَينِ، لا مَسيسَ فيهِ، حتى لو واقَعَها في وقتٍ لم يُتِمَّ صَومَ شهرَينِ بَعْدُ، يَلْزَمُهُ الاسْتِئنافُ، وكانَ مَعْناهُ: لا مَسيسَ في خلالِ الكفّارةِ. فَمَتى وجَدَ المَسيسَ في وقتٍ لم يُتِمَّ الكفّارةَ بَعْدُ يَلْزَمُهُ الاسْتِئنافُ.

وتأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ عند أبي يوسفَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنْ يُعْتِقَ قبلَ وقْتِ المَسيسِ، ويصومَ كذلكَ، ويقولُ: إنَّ الآيةَ خرجَتْ لِبيانِ وقْتِ التكفيرِ فيهِ، حتى إذا جامعَ امْرأتَهُ في صَومِ الظِّهارِ أنهُ لا يَسْتأنِفُ الصومَ، بل يصومُ الباقيَ، إذْ قد فاتَ عنْ وقْتِهِ، فصارَ قاضياً عمّا عليهِ، وليسَ بعدَ الجِماعِ وقْتٌ لذلكَ الصومِ، بل يكونُ ذلكَ على القضاءِ، فَيَجوزُ مُتفرِّقاً ومُتتابعاً /٥٥٦ ـ أ/ كَصومِ شَهرِ رَمَضانَ لِما تَعيَّنَ لهُ وقتُ الأداءِ، ثم فاتَ الوقْتُ لا يَجبُ مُتتابعاً، بل يجوزُ مُتفرِّقاً كذا.

هذا، ولا يَتصَوَّرُ المسألةَ في الإعتاقِ لأنهُ لا يُتَجزَّأُ عندَهُ، ولا خِلافَ أنهُ إذا جامعَ بعدَما أطعَمَ ثلاثينَ مسكيناً أنهُ لا يَلْزَمُهُ اسْتِئنافُ الطعامِ، ولا خِلافَ أنهُ إذا جامعَ امرأتَهُ قَبْلَ الكفارةِ لا يَلْزَمُهُ شيءٌ سِوَى التوبَةِ والاِسْتِغْفارِ في قولِهِ [عندَ][4] عامةِ الفقهاءِ، وعندَ بعضِهِمْ يَلْزَمُهُ كَفّارَتانِ [وعند أبي][5] يوسفَ، رحمةُ اللهِ تعالى عليهِ، ما ذَكَرْنا: قد رَأى بعضَها في الوقْتِ، وبعضَها في غَيرِ الوقْتِ أَولَى مِنْ أداءِ الكلِّ بَعْدَ الوقْتِ، ولهذا المَعْنَى في الطعامِ كذلكَ.

ولأبي حَنيفةَ، رَحمةُ اللهِ عليهِ، أنَّ الظِّهارَ ليسَ يُوجِبُ الكَفّارةَ، ولكنْ يُوجِبُ حُرْمَةً، لا تَرْتَفِعُ إلّا بالكَفّارةِ، ولا يُؤمَرُ هو بالكَفّارةِ مَقْصوداً، ولكنْ إذا أرادَ الاِسْتِمْتاعَ بها يقالُ لهُ: ليسَ لكَ ذلكَ إلّا بالكَفّارةِ. فإذا كانَ كذلكَ، فإذا أدّى بعضَها، ثم [ماسَّها، ثم][6] أدّى البَقِيَّةَ، لم يَصْبِرْ ما أدّى بعدَ المُماسَّةِ، فضاعَفَ الوقْتَ الذي قَبلَ المُماسَّةِ.

فإذا لم يَصْبِرْ قضاءً عنْ ذلكَ جُعِلَ كالنَّصِّ؛ إنما جاءَ في هذهِ الحالةِ «أنْ حَرِّروا رقبَةً قَبْلَ أنْ تماسُّوا ثانياً، وصوموا شَهْرَينِ مُتتابِعَينِ إذا أرَدْتُمُ العَودَ إليها» [بنحوه أبو داوود ٢٢١٣] ولذلكَ قالَ ﷺ لِلْمُظاهِرِ الذي جامعَ امْرأتَهُ: «اسْتَغْفِرِ اللهَ، ولا تَعُدْ حتى تُكفِّرَ» [الزمخشري في الكشاف ٦/ ٦٠].

لكنْ يدخُلُ على هذا أمْرُ الطعامِ: أنهُ إذا أطْعَمَ بعضَ الطعامِ، ثم ماسَّها، لم يَلْزَمْهُ الاِسْتِئنافُ[7]، والعبارةُ التي ذَكَرْناها توجِبُ الاِسْتِئنافَ. ولكنْ يُسْتَحْسَنُ في الطعامِ لأنَّ الطعامَ وقَعَ في الأصل مُتفرِّقاً؛ إذْ لو أطْعَمَ بعضَهُ للحالِ وبعضَهُ بعدَ سنةٍ فإنهُ جائزٌ مِنْ ذي الجِهةِ، لكنْ يدخُلُ عليهِ الإعتاقُ عندَ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، فإنهُ إذا أعْتَقَ بعضَهُ للحالِ وبعضَهُ بعدَ سنةٍ يجوزُ أيضاً، ومعَ ذلكَ إذا وجَدَ في ما بَينَ ذلكَ يَلْزَمُهُ الاِسْتِئنافُ.

---

(١) في الأصل وم: ثم قال أيضاً بعد ذلك. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أي عتقا. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لأبي. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: الاستقبال.

وما ذهبَ إليهِ أبو يوسفَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، مِنْ حَمْلِ الآيةِ على بَيانِ الوقتِ لا يَصِحُّ، لأنّا [لو][١] حَمَلْنا تأويلَ الآيةِ نفسِها[٢] على الوقتِ لا فائدةَ تَقَعُ في الآيةِ لأنَّ معرفةَ وقْتِ ذلكَ ثابتةٌ بدلالةِ العقلِ، وذلكَ أنْ قد عَلِمْنا إيجابَ [الحُرْمَةِ][٣] بالظِّهارِ، وعَلِمْنا أنَّ تلكَ الحُرْمَةَ لا تَرْتَفِعُ [إلّا][٤] بالكفّارةِ، فصارَ وقْتُ الحِلِّ يُذْكَرُ لِلْحُرْمَةِ مَعْلوماً، ولذلكَ هذا في جميعِ الحُرُماتِ مِنَ الطلاقِ وغَيرِهِ أنهُ لا يَرْتَفِعُ إلّا بِسَبَبِ رَفْعِهِ.

فلو حُمِلَ تأويلُ الآيةِ على بَيانِ الوقْتِ لم يُفِدْ شيئاً، ولو حُمِلَ على بَيانِ إخلاءِ الكفارةِ على المَسيسِ وعلى نَفْيِ المَسيسِ في خِلالِ الكَفّارةِ يُفيدُ فائدةً جديدةً. فيكونُ هذا التأويلُ أحَقَّ وأولى.

ثم في الآيةِ دلالةٌ بأنْ ليسَ ذلكَ على بَيانِ الوقْتِ، هو قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ثم ذَكَرَ في العِتْقِ والصومِ تَرْكَ المُماسَّةِ، ولم يَذْكُرْ ذلكَ في الإطعامِ، ولو كانَ ذلكَ على جَعْلِ الوقْتِ لهُ لكانَ يَذْكُرُ فيهِ المُماسَّةَ، إذِ الكَفّارةُ إذا كانَتْ عنْ شيءٍ واحدٍ، لا تَختَلِفُ فيهِ أوقاتُها، بل يكونُ وقْتُها واحداً. ولا يُقالُ: إنما لم يُذْكَرِ الوقتُ في الإطعامِ لأنَّ ذِكْرَهُ في العِتْقِ والصومِ ذِكْرُهُ في الإطعامِ، لأنهُ مِنْ أنواعِ هذه الكَفّارةِ، فَذِكْرُ الوقْتِ في بعضٍ يكونُ ذِكْرَهُ في الباقي.

فإذا أدّى بعضَهُ في الوقْتِ وبعضَهُ في غَيرِ الوقْتِ كانَ أولَى مِنْ أنْ يُؤَدِّيَ الكلَّ في غَيرِ الوقْتِ، لأنا نقولُ: ذِكْرُهُ في العِتْقِ والصومِ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ بَياناً في الإطعامِ، لأنَّ البَيانَ على وجوهٍ ثلاثةٍ:

بَيانُ نِهايةٍ وبَيانُ كِفايةٍ وبَيانُ تَفْصيلٍ.

فأمّا بَيانُ الكِفايةِ فهو[٥] أنْ يَكْتَفِيَ بِبَيانِ الواحدِ والقَليلِ عنِ الكُلِّ لِيُعْرَفَ ذلكَ بالاجْتِهادِ والقِياسِ على نظائِرِهِ، فَيَدُلُّ ذلكَ على مَعْنًى مُودَعٍ[٦] فيهِ، وأنهُ مَحَلُّ الاجْتِهادِ والتَّعليلِ.

وأمّا بَيانُ النهايةِ فهو أنْ يُبَيِّنَ الكُلَّ على المبالغةِ حتى لا يَبْقَى لِلاجْتِهادِ فيهِ مَوضِعٌ.

وأمّا بَيانُ التَّفْصيلِ فهو[٧] الذي يُبَيِّنُ في أكْثَرِهِ، ولا يَبْلُغُ بهِ نِهايَتَهُ. فهو في ما يُبَيِّنُ لا يَتَعَدّى إلى غَيرِهِ؛ إذْ لو كانَ فيهِ مَعْنًى مُودَعٌ[٨] يَجْمَعُ الكُلَّ لم يَكُنْ لِذِكْرِ الزائدِ عليهِ وتَرْكِ بَعْضِهِ مَعْنًى.

وههنا بَيانُ تَفْصيلٍ دونَ كِفايةٍ، إذْ لم[٩] يَكْتَفِ بِذِكْرِهِ في واحدٍ، ولا هو بَيانُ نهايةٍ، إذْ لم يُنْهِ البَيانَ في الكلِّ، فهو بَيانُ التَّفْصيلِ الذي ذَكَرْنا أنهُ يُقِرُّ[١٠] في المَذْكورِ، ولا يَتَعَدّى إلى غَيرِهِ، ولو كانَ ذَكَرَ ذلكَ لِبَيانِ الوقْتِ لَاكْتَفَى بِذِكْرِهِ في الواحِدِ عنِ الكُلِّ على المُبالغةِ

فلمّا ذَكَرَ على بَيانِ التَّفْصيلِ دلَّ أنهُ ليسَ لِبَيانِ الوقْتِ، ولكنْ لِنَفْيِ المَسيسِ خِلالَ الصومِ والعِتْقِ المَذْكورَينِ دونَ الطعامِ الذي لم يُذْكَرْ فيه، ويُبَيِّنُ أنَّ إخلاءَ الصومِ والعِتْقِ مِنَ المَسيسِ حُكْمٌ عَرَفْناهُ بالنَّصِّ غَيرَ مَعْقولِ المَعْنَى، فلا يَتَعَدّى عنهُ إلى غَيرِهِ.

ويكونُ مثالُهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ الآية [النساء: ٩٢] على ما عُرِفَ في مَوضِعِهِ.

والحاصلُ في المسألةِ طريقانِ: أحدُهما: بِحَقِّ القِياسِ، والآخَرُ بِحَقِّ الاحْتِياطِ.

أمّا القِياسُ فما[١١] ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ لإخلاءِ الصومِ مِنَ المسيسِ [ونَفْيِ المَسيسِ][١٢] عنْ خِلالِ الكفّارةِ. لكنْ إنما ذَكَرَهُ في الإعتاقِ والصومِ دونَ الإطعامِ. فَدَلّنا ذلكَ على أنهُ بَيانُ تَفْصيلٍ، فيكونُ دليلاً على قَصْرِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرجت في الأصل وم: بعد الوقت. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) في الأصل وم: موعود. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: مودعا. (٩) أدرج قبلها في الأصل وم: لو. (١٠) من م، في الأصل: يقرأ. (١١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من م.

الحُكْمِ على المَنصوصِ ومَنْعِ التَّعْدِيَةِ إلى غَيرِهِ لِما هو عُلِمَ أنَّ العقولَ تُقصِّرُ عن إدراكِ ذلك المَعْنى، فَجَعَلَ[1] نَفيَ المَسيسِ عنْ خِلالِ الصومِ والعِتْقِ واجباً بالنَّصِّ حتى لا تكونَ كَفّارَةٌ بِدونِهِ، ولم يَجْعَلْ في بابِ الإطعامِ شَرْطاً.

وأمّا طريقُ الاِحْتِياطِ، وهو أنهُ لمّا احْتَمَلَ أنْ يكونَ لِبيانِ الوقْتِ ولِنَفْيِ المَسيسِ عنْ خلالِ الصوم فَأُخِذَ فيهِ بالاِحْتِياطِ، وفي الإطعامِ أُخِذَ بالقِياسِ لِما أنهُ لم يُذْكَرْ فيهِ المَسيسَ، وذِكْرُهُ في الصومِ والعِتْقِ لم يكنْ بَيانَ كِفايةٍ حتى يكونَ ذِكْرُهُ ذِكْراً في الطعامِ، بل هو بَيانُ تَفْصيلٍ، وأنَّ حُكْمَهُ القَصْرُ على المَنْصوصِ دونَ التَّعَدّي، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيَةِ دلالةٌ لِصِحَّةِ مذهبِ أبي حَنيفَةَ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ، في أنَّ العِتْقَ يَحْتَمِلُ التَّجْزِئَةَ، وهو أنْ يُعْتِقَ بعضَهُ، ويُبْقِيَ الباقِيَ بحالِهِ، ثم يُعْتِقَهُ بأوقاتٍ بعدَهُ؛ إذْ قالَ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أي تَحْريرُ رَقَبَةٍ لا مُماسَّةَ في التَّكْفيرِ.

ولو كانَ بعضُ العِتْقِ يوجِبُ عِتْقَ الكُلِّ لَكانَ لا يُفيدُ قولُهُ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ ألّا يَقَعَ العِتْقُ إلّا قَبْلَ المُماسَّةِ. فلما قالَ دلَّ أنهُ أرادَ، واللهُ أعلَمُ، ألّا تَمَسّوهُنَّ عندما أعْتَقْتُمْ بعضَهُ، ولم تُعْتِقوا الكلَّ حتى يَكْمُلَ، ويَتِمَّ فيهِ الإعتاقُ، ولهذا قالَ: إنهُ يَلْزَمُهُ الاِسْتِئنافُ في العِتْقِ كما في الصومِ.

فَدَلَّ أنَّ الإعتاقَ مُتَجَزِّئٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم جَعَلَ الكَفّارةَ فيهِ ما ذَكَرْنا، ولم يَجْعَلِ الكَفّارةَ فيهِ التوبةَ والاِسْتِغْفارَ فقط لِوَجْهَينِ

أحَدُهما: أنهُ لو جَعَلَ توبَتَهُ بِهِ لَكانَ لا يَظْهَرُ ذلكَ، وأنهُ أمْرٌ بَينَهُ وبينَ المرأةِ، فلا يُدْرى أنْ تابَ، أو لم يَتُبْ، ورُبَّما يُظْهِرُ التوبةَ بالقَولِ، وإنهُ لم يَتُبْ حقيقةً بقلبِهِ، فَتَتَّهِمُهُ المرأةُ. فَجَعَلَ التوبةَ فيهِ أمراً ظاهراً تُعْرَفُ بهِ تَوبَتُهُ دَفْعاً لِلتُّهَمَةِ عنهُ وتَسْكيناً لِقَلْبِ المرأةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الاِسْتِمْتاعَ /٥٥٦ ـ ب/ في النِّكاحِ نِعْمَةً عظيمةً، فَتَشْبيهُها بالمُحَرَّمِ الذي تَتَأبَّدُ حُرْمَتُهُ أمْرٌ فَظيعٌ، فلم يَجْعَلْ لهُ الخُروجَ منهُ شيئاً[2] لا يَثْقُلُ عليهِ، فَيُقْدِمَ ثانياً وثالثاً لِخِفَّةِ أمْرِهِ عليهِ، بل جَعَلَ ما يَتَألَّمُ عليهِ، ويَشْتَدُّ عليهِ زَجْراً لهُ عنْ مثلِهِ في المُسْتَقْبَلِ ولِغَيرِهِ كما في الزِّنى وغَيرِهِ مِنَ الأجرامِ.

ثم لم يَجْعَلْ تلكَ اليَمينَ لِلاِسْتِمْتاعِ خاصَّةً، ولا[3] أُبيحَ لهمْ ذلك، ولا جَعَلَ لهنَّ قِبَلَ الساداتِ حقَّ الاِسْتِمْتاعِ، فلم يَصِرْ تَشْبيهُهُنَّ بِمَنْ ذَكَرَ كُفْرانَ نِعْمةٍ ولا إبطالَ حقٍّ لهنَّ قِبَلَ مَوالِيهِنَّ، لِذلكَ افْتَرَقا، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: إنَّ الظِّهارَ كانَ طلاقَ قومٍ، فَأُبْدِلَ إلى تحريمِ المُتْعَةِ، ولم يكُنْ للإماءِ حَظٌّ مِنَ الظِّهارِ[4]، وهو الطلاقُ، ولم يكُنْ لهنَّ مِنَ الذي صاروا[5] إليهِ، ولكنْ إنْ ثَبَتَ هذا كانَ طلاقاً، يُوجِبُ حُرْمَةً، لا تَرْتَفِعُ أبداً، لا طلاقاً يُوجِبُ حُرْمةً تَرْتَفِعُ بالنِّكاحِ [على][6] ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

والإماءُ[7] لم يكنْ لهنَّ حظٌّ مِنْ هذا التَّحْريمِ لِعدمِ قُصورِ مُلْكِ النكاحِ مع مُلْكِ اليمينِ، فإمّا لهنَّ حَظٌّ مِنَ الحُرْمةِ المُؤَبَّدَةِ بالمَحْرَمِيَّةِ؛ فإنْ كانَتْ تلكَ الحُرْمَةُ، هي الأصلُ، وهنَّ أصلٌ لها مع قِيامِ مُلْكِ اليَمينِ، يَكُنْ أهلاً لِما يَنْتَقِلُ إليهِ مِنَ الحُرْمَةِ المُؤَقَّتَةِ. دلَّ أنَّ الطريقَ ما قُلْنا، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيَةِ جوازُ تأخيرِ البَيانِ لأنَّ ذلكَ الرجلَ لمّا ظاهَرَ مِنِ امْرَأتِهِ [اشْتَدَّتْ بِهِ][8] الحاجةُ إلى مَعْرِفةِ ما يَجِبُ مِنَ الأحكامِ، ثم تَأخَّرَ نُزولُ بَيانِ ما يَجِبُ بَعْدَ طَلَبِهِ[9] مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ بَيانَ الحُكْمِ. فَدَلَّ أنَّ البَيانَ قد يجوزُ أنْ يَتَأخَّرَ عنْ وقْتِ قَرْعِ الخِطابِ السَّمْعَ.

وهذا أولَى لأنَّ في الأوَّلِ قد ظَهَرَتِ الحاجةُ، واشْتَدَّتْ لِوُقوعِ النازلَةِ، وفي نُزولِ العامِّ الذي أُريدَ بِهِ المَخْصوصُ لا. وكذلكَ على هذا ما نَزَلَ مِنْ أحكامِ الإيلاءِ والقاذفِ زوجَتَهُ بَعْدَ وقوعِ النازلةِ بأوقاتٍ دليلٌ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فجعلنا. (٢) في الأصل وم: شيء. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) في الأصل وم: الطلاق. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ينقل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: والأمة. (٨) في الأصل وم: اشتد بهم. (٩) في الأصل وم: طلبهم.

ثم جَعَلَ صيامَ شَهْرَينِ بَدَلاً عنِ العِتْقِ في كَفّارةِ الظِّهارِ والقَتْلِ وكَفّارةِ الإفطارِ في شَهْرِ رمضانَ، وجَعَلَ في كَفّارةِ اليَمينِ صومَ ثلاثةِ أيامٍ بَدَلاً عنِ العِتْقِ، وقد ذَكَرْنا الوجْهَ في ذلكَ في ما تقدَّمَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ذَكَرَ صاحبُ الواضح أنّ قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي بذلكَ أُمِرْتُمْ، ونُهيتُمْ ﴿لِتُؤْمِنُوا۟﴾.

ولكنْ عندَنا تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هو صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١] يقولُ: أخبَرَكمْ بما كانَ ذلكَ منكُمْ في السِّرِّ، وأطلَعَكُمْ على ذلكَ ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لِتُصدِّقوا، وتَعْلَموا أنه لا يَخْفَى على اللهِ مِنْ أعمالِكُمْ شيءٌ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ أي الفَرَجَ والمَخْرَجَ عمّا امْتُحِنْتُمْ[1] بهِ مِنَ الحُرْمَةِ وما اشْتَدَّ عليكُمْ ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لِما فَرَّجَ عنكُمْ بالخُروجِ بِما ذَكَرَ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ القولُ المُنْكَرُ والزُّورُ الذي قُلْتُمْ، وأعْلَمَكُمْ أنهُ مُنْكَرٌ وَزورٌ ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فَيُخَرَّجُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على الأمْرِ بالشُّكْرِ لهُ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وجَعَلَ لهمْ مِنَ الفَرَجِ والمَخْرَجِ عمّا امْتُحِنوا بأدائها.

وهكذا العباداتُ التي أُمِروا بها، أُمِروا لإحْدَى ثلاثِ خِلالٍ: إمّا لِحَقِّ الشُّكْرِ بما أنْعَمَ عليهِمْ، وإمّا[2] لِتَسْليمِ الأمْرِ لهُ والخُضوعِ، وإمّا[3] لِحَقِّ الاسْتِغْفارِ والتَّكْفيرِ بما سَبَقَ مِنَ التَّفْريطِ والتَّقْصيرِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ على غَيرِ هذا، أي أنْزَلَ ذلكَ الذي أنْزَلَ لِتُؤمِنوا، أي لِتُجَدِّدوا الإيمانَ باللهِ تعالى ورسولِهِ في كلِّ وقْتٍ وكلِّ ساعةٍ؛ إذْ يَلْزَمُ الناسَ إحداثُ الإيمانِ وتَجديدُهُ لإحْداثِ الرُّخَصِ والعَزائمِ التي تَجَدَّدَتْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: أي الذي افْتَرَضَهُ اللهُ عليكُمْ مِنَ الأحكامِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي مَوانِعُ اللهِ وحُجَجُهُ، ولذلكَ سُمِّيَ الحاجبُ حَدّاداً لأنهُ يَمْنَعُ الناسَ منهُ.

وعندَنا قولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي زواجِرُ اللهِ وموانِعُهُ على مَعْنَى أنهُ يَمْنَعُ هذا عنِ الدخولِ في حَدِّ الآخَرِ؛ يَمْنَعُ الباطلَ عنِ الدخولِ في حَدِّ الحَقِّ والاخْتِلاطِ [بِهِ][4].

وفي الآيةِ دلالةُ خَلْقِ أفعالِ العَبدِ لأنهُ أضافَ الحدودَ، وهي الطاعاتُ، إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: وإنها أفعالُ العبادِ؛ دلَّ [أنّ][5] أفعالَ العِبادِ كلَّها مَخْلوقةُ اللهِ تعالى، وإنّما خصَّ الطاعاتِ [بإضافَتِها إلى نفسِهِ][6] معَ أنّ جميعَ الأفعالِ: خَلْقُهُ إياها [تَبْجيلٌ وتعظيمٌ][7] لها كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] أضافَها إلى نفسِهِ تَبْجيلاً وتَعْظيماً لها.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ مَنْ قالَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] مِنْ نفسي، وكيفَ أُظْهِرُها لكُمْ[8]؟ إنهُ أرادَ بهذهِ الإضافةِ تَبْجيلاً وتعظيماً لأمرِ الساعةِ [فكأنهُ يقولُ: إنما لم أُظْهِرْ أمْرَ الساعةِ][9] لذلكَ الخَلْقِ الذي هو بهذهِ المنزلةِ، فكيفَ أُعْلِنُها لكُمْ؟ أي لا أفعلُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي للكافرينَ باللهِ وبِحُدودِهِ عذابٌ أليمٌ في الآخِرَةِ، لأنَّ عذابَ الكُفْرِ إنما يكونُ في الآخِرَةِ عذاباً دائماً، لا انْقِضاءَ لهُ، ولا قُوّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: المُحادُّ، هو الذي يَجْعَلُ نفسَهُ في حَدٍّ

---

(١) في الأصل وم: امتحنهم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: بالإضافة إلى نفسها. (٧) في الأصل وم: تبجيلاً وتعظيماً. (٨) فهذا القول: من نفسي، وكيف أظهرها؟ هو قراءة عبد الله ابن مسعود، انظر معجم القراءات القرآنيةج٤/ ٧٥. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

غيرِ الذي أمَرَهُ اللهُ ورسولُهُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] أي يكونونَ في شِقٍّ غيرِ الشِّقِّ الذي عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ أو كلامٌ نَحْوُهُ.

ومنهم مَنْ قالَ: حَدَدْتُهُ عَنْ طريقِهِ، أي عَدَلْتُهُ عنهُ، وبعضُهُ قريبٌ مِنْ بعضٍ.

وأصْلُهُ ما ذَكَرَ ﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يُمانِعونَ الناسَ، ويَزْجُرونَهُمْ عنِ الطريقِ لئلا يأتُوا محمداً ﷺ ويتَّبِعوهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قيلَ: غُلِبوا، ورُدّوا بِغيرِ حاجَتِهِمْ كما غُلِبَ، ورُدَّ الذينَ كانوا مِنْ قَبْلِهِمْ. وقيلَ: أُهْلِكوا كما أُهْلِكَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وقيلَ: أُخْزوا كما أُخْزَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وكلُّهُ قريبٌ بَعْضُه مِنْ بعضٍ. ثم يُخَرَّجُ تأويلُهُ على وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي كُبِتَ هؤلاءِ الذينَ مَنَعوا الناسَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أهلِ مكةَ كما كُبِتَ مَنْ قَبْلَهُمْ.

[والثاني: أي][1] كُبِتَ هؤلاءِ الذينَ مَنَعوا الناسَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينةِ كما كُبِتَ الذينَ مانَعُوهُمْ عنهُ بمكةَ لأنَّ هذهِ السورةَ مَدَنِيَّةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ﴾ أي آياتٍ تُبَيِّنُ حدودَ اللهِ مِنْ غيرِ حدودِهِ، أو آياتٍ[2] تُبَيِّنُ الحقَّ مِنَ الباطلِ والرسولَ مِنْ غيرِهِ والمُحادَّ مِنْ غيرِ المُحادِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي للكافرينَ [بذلكَ كلِّهِ][3] عذابٌ يُهينُهُمْ كما أهانوا المؤمنينَ.

الآية ٦ [وقولُهُ ﷻ:][4] ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي الأوَّلينَ والآخِرينَ والمُحادِّينَ والمُوافِقينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ أي يَبْعَثُهُمُ اللهُ جميعاً، فَيُنَبِّئُهُمْ بما عَمِلوا مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، أحصَى اللهُ ما عَمِلوا، وإنْ طالَ ذلكَ، أو كَثُرَ، ونَسُواهُمْ تلكَ الأعمالَ. خَرَجَ هذا على الوَعيدِ.

وفيهِ دلالةُ رسالتِهِ؛ إذْ أخبَرَ أنَّ الله تعالى، يُحصي ذلكَ عليهِمْ، وأنهمْ [إنْ][5] نَسُوا، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يُنْكِروا عليهِ أنهمْ لم يَنْسُوا. دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي على كلِّ شيءٍ مِنَ الإحصاءِ والحِفْظِ وغيرِ ذلكَ شهيدٌ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فإنْ كانَ هذا الخِطابُ /٥٥٧ ـ أ/ لِرسولِ اللهِ ﷺ فيكونُ فيهِ [وجهانِ:

أحَدُهما:][6] دلالةُ رسالتِهِ، إذْ أطْلَعَهُ على ما أسَرُّوا في ما بَيْنَهُمْ مِنَ المَكْرِ برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، وتَناجَوا بَيْنَهُمْ مِنَ الكَيدِ والخِداعِ؛ أطْلَعَ اللهُ رسولَهُ ﷺ [لِيُعْلِمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ ذلكَ][7].

والثاني[8]: بِشارةٌ لهُ بالنَّصْرِ والمَعونةِ، وهو كقولِهِ تعالى لِموسى وهارونَ ﵉: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] أي أسْمَعُ ما يقولُ لكما، وما يُجيبُ [وأرى ماذا][9] قَصَدَ بكما، وادْفَعُ عنكما ما قَصَدَ بكما، فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ لهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فَيُطْلِعَكَ على ما هَمُّوا بكَ، وأسَرّوا فيكَ، فَيَنْصُرَكَ، ويَدْفَعَ عنكَ كيدَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخطابُ ليسَ لرسولِ اللهِ ﷺ خاصةً، ولكنْ لكلٍّ في نفسِهِ، فَيَصيرَ كأنهُ قالَ: ألَمْ تَرَ إلى عجائبِ ما أنشأ مِنَ السمواتِ والأرضِ قَبْلَ إنشاءِ أهلِهما؟ فإذا رأيتَ عجائبَ ما أنْشَأَ مِنَ السمواتِ والأرضِ وأهلِهِما، وعَلِمْتَ ذلكَ، فاعلَمْ أنهُ بما يكونُ مِنْ نَجواهُمْ في ما ذَكَرَ عالمٌ، فَيَخْرُجُ على التَّنبيهِ والزَّجْرِ عنِ الإسرارِ والنَّجْوَى.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ ونَحْوُهُ، يَجِبُ أنْ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: ما. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: كله، في م: كلهم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) و(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، في الأصل: والثالث. (٩) في الأصل وم: إذ أرى إذا.

يُنظَرَ إلى المُقدَّمِ مِنَ الكلامِ، فَيُصْرَفَ قولُهُ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ إلى ذلكَ نَحْوُ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [النحل: ١٢٨] وقولِهِ[1]: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ونَحْوُهُ يكونُ مَعَهُمْ في التوفيقِ والمَعونةِ والنَّصْرِ.

فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ في النَّجْوَى وما أَسَرُّوا في ما بَيْنَهُمْ، أي شاهِدٌ مَعَهُمْ حافظٌ عليهِمْ، يدفَعُ عنكُمْ كَيدَهُمْ ومَكْرَهُمْ، ويَنْصُرُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلوا، وأَسَرُّوا مِنَ الكَيدِ يومَ القِيامةِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ هذا الخطابُ لِرسولِ اللهِ ﷺ يقولُ: اعْلَمْ أنَّ الذينَ نُهُوا عنِ النَّجْوَى، ثم يَعودونَ لِما نُهُوا عنهُ.. الآيةَ:

فيهِ[2] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ لأنهُ أَخْبَرَ أنهمْ عادوا إلى ما نُهُوا عنهُ، وهو النَّجْوَى. ومعلومٌ أنهمْ لا يَعودونَ إلى ما نُهُوا عنهُ بِحَضْرةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ولكنْ عندَ غَيبةٍ منهمْ، دلَّ أنهُ باللهِ عَلِمَ.

ثم اخْتُلِفَ في سببِ تلكَ النَّجْوَى؛ قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ بينَ اليهودِ وبينَ النَّبيِّ ﷺ مُوادَعَةٌ، فإذا [رأوا رجلاً][3] مِنَ المُسْلِمينَ وَحْدَهُ، يَتَناجونَ بَينَهُمْ[4]، يظُنُّ المسلمُ أنهمْ يَتَناجونَ بقتلِهِ أو بما يَكْرَهُ، فَيَترُكُ الطريقَ مِنَ المخافةِ، فَبَلَغَ ذلكَ رسولَ اللهِ ﷺ فَنَهاهُمْ عنِ النَّجْوَى، فلم يَنْتَهُوا، وعادوا إلى النَّجْوَى، فَنَزَلَ ما ذَكَرَ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا إذا خَرَجوا مِنْ عندِ رسولِ اللهِ ﷺ قامَ أناسٌ مِنَ اليهودِ وأناسٌ مِنَ المنافِقينَ يَتَناجَونَ في ما بَينَهُمْ دونَ المؤمنينَ، ويَنْظرونَ نَحْوَ واحدٍ منهمْ، فإذا رآهمْ يَنْظُرونَ نَحْوَهُ، قالَ: ما أَظُنُّ هؤلاءِ إلّا وقد بَلَغَهُمْ خَبَرُ أقربائي الذينَ بَعَثَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ في السرايا مِنْ قَتْلٍ أو موتٍ، فَيَقَعُ في قَلْبِهِ مِنْ ذلكَ ما يُحْزِنُهُ، فلا يَزالُ كذلكَ حتى تَقْدَمَ جَمْعَةٌ مِنْ تلكَ السَّرِيَّةِ.

لكنَّ الأَولَى عندَنا السكوتُ عنْ ذِكْرِ هذا وأمثالِهِ، لأنهُ خَرَّجَ مُخْرَجَ الاحتِجاجِ، وجَعَلَهُ آيةً عليهِمْ. فيجوزُ أنْ يكونَ على خلافِ ما ذُكِرَ، فَيُوجِبُ الكَذِبَ في الخَبَرِ، فالإمساكُ عنهُ أحقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ ذُكِرَ أنهمْ كانوا إذا أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ يقولونَ: السامُ عليكَ يا محمدُ، فَيُجيبُهُمُ النَّبيُّ ﷺ ويَرُدُّ عليهِمْ، ويقولُ: «وعليكُمْ».

ففيهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهمْ حَيَّوهُ سِرّاً منهُ، فأطْلَعَهُ اللهُ تعالى على ما أسَرُّوا، وكذلكَ ما قالَ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هَلّا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نقولُ في السِّرِّ، فيه دلالةُ الرسالةِ، لأنهُ معلومٌ أنهمْ قالوا ذلكَ سِرّاً في أنفسِهِمْ، فأطْلَعَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ على ما في أنفسِهِمْ، ففيهِ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ.

وقولُهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لهمْ وعيدٌ بالتَّعذيبِ لأجلِ التناجي الذي [كانَ][5] منهمْ. فلمّا تأخَّرَ ذلكَ عنهمْ قالوا عندَ ذلكَ: إنهُ لو كانَ رسولاً على ما يقولُهُ لَعَذَّبَنا على ما قالَ، وَوَعَدَ. لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنْ كانَ لهمُ العذابُ، لم يُبَيِّنْ متى يُعَذَّبونَ، فَعَذابُهُمْ ما ذَكَرَ حينَ[6] قالَ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُمْ: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ إنما قالوا ذلكَ عندَ رَدِّ رسولِ اللهِ ﷺ بما حَيَّوهُ حينَ قالَ: وعليكُمْ. يقولونَ: إنهُ دعا علينا بقولِهِ: «وعليكُمْ». فإنْ كانَ رسولاً لأُجيبَ دعاؤُهُ الذي دعا علَينا. لكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَدْعُ عليهِمْ، إنما رَدَّ قولَهُمْ عليهِمْ رَدّاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ إنَّ أهلَ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: وفيه. (٣) في الأصل وم: رجل. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: بقتله. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حيث.

التأويلِ صَرفوا الآيةَ إلى المُنافقينَ. وعندَنا يَحْتَمِلُ صَرْفُ النَّهْيِ إلى المؤمنِينَ عنِ التَّناجي بِمِثْلِ ما تَنَاجَى أولئكَ، أي لا تَتَناجَوا أنتمْ يا أهلَ الإيمانِ فيهِمْ بالإثمِ والعُدْوانِ كما يَتَناجَونَ فيكُمْ.

يقولُ: لا تُجازوهُمْ بالذي فَعَلُوا هُمْ بكمْ، ولكنْ تَناجَوا فيهِمْ بالبِرِّ والتَّقْوى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] نَهَى المؤمنِينَ أن يُجازوهُمْ جزاءَ الاِعْتِداءِ الذي كانَ منهمْ مِنْ صَدِّهِمْ عنِ المسجدِ الحَرامِ، بل أمَرَهُمْ [بالتعاونِ][1] على البِرِّ والتَّقْوى؛ فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] فَعَلَى ذلكَ يَحْتَمِلُ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في المؤمنِينَ حقيقةً على الاِبْتِداءِ نَهْيٌ منهُ لهمْ؛ يقولُ ﴿إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟﴾ في ما يُؤْثِمُكُمْ، ويَحْمِلُكُمْ على العدوانِ على المُجاوَزةِ عنِ الحدِّ ومَعْصِيَةِ الرسولِ في ما يأمُرُكُمْ، ويَنْهاكُمْ، ﴿وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

[البِرُّ][2] يَحْتَمِلُ كلَّ أنواعِ الخَيرِ. وأمّا التَّقْوى فهو كلُّ ما يَقُونَ بهِ أنفُسَهُمْ مِنَ النارِ، [وقد][3] تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الخطابُ لهمْ؛ أعني المؤمنِينَ والكافرينَ الذينَ يُقِرّونَ بالحَشْرِ لأنَّ أهلَ الكتابِ وبعضَ المشركينَ يُقِرّونَ بالبعثِ، وبعضُ المشركينَ يُنْكِرونَ مَعَ الدَّهْرِيَّةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي نَجْوَى الذين كانوا يَتناجَونَ بالإثمِ والعدوانِ ومَعْصيَةِ الرسولِ؛ ليسَ كلُّ نَجْوَى على ظاهرِ ما يَخْرُجُ الخطابُ عامّاً، ولكنْ يَرْجِعُ إلى [أمرِ][4] النَّجْوَى الذي نُهُوا عنهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ معناهُ ابْتِداءَ النَّجْوَى في الشَّرِّ مِنَ الشيطانِ، وهو ما ذُكِرَ في بعضِ القصةِ: أنَّ اللهَ تعالى لمّا خَلَقَ آدمَ ﷺ قالَ إبليسُ للملائكةِ: أرأيتُمْ إنْ فَضَّلَ هو عليكُمْ ما تَصنعونَ؟ فأجابوهُ بما أجابوا. / ٥٥٧ ـ ب/ فقالَ هو: إنْ فُضِّلْتُ عليهِ لأُهْلِكَنَّهُ، وإنْ فُضِّلَ هو عليَّ لأُعادِيَنَّهُ، فقد جاءَهُمْ في أمْرِ آدمَ ﷺ بالشَّرِّ فكانَ أوَّلُ النَّجْوَى في الشَّرِّ مِنَ الشيطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لولا أنَّ الشيطانَ في حالِ الحُزْنِ[5]، يكونُ أمْلَكَ على فَسادِهِمْ وإخراجِهِمْ مِنْ أمْرِ اللهِ تعالى وإدخالِهِمْ في نَهْيِهِ، وإلّا لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مَعْنًى.

فَدَلَّ أنهُ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ في حالِ الحُزْنِ والغَضَبِ أمْلَكُ وأقْدَرُ مِنْ حالِ السُّرورِ والسَّعَةِ. لكنهُ بما يَدْعوهُ إلى اللذاتِ، ويُمَنِّيهِ أشياءَ، كانَ قَصْدُهُ مِنْ ذلكَ أنْ يُوقِعَهُ في الضِّيقِ والشِّدَّةِ لِما هو عليهِ أقْدَرُ في تلكَ الحالِ.

ولِذلكَ قالَ لآدمَ وحَوّاءَ ﷺ: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] تَلَقّاهُما[6] بالغُرورِ الذي ذَكَرَ، ومَنّاهُما[7] بما ذَكَرَ، وكانَ قَصْدُهُ مِنْ ذلكَ إبداءَ عَوراتِهِما وإيقاعَهُما في الضِّيقِ والبَلاءِ حينَ[8] قالَ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ الآية [طه: ١٢١] مَكَّنَ اللهُ تعالى إبليسَ مِنَ الشَّرِّ بالذي ذَكَرْنا، ولم يُمَكِّنْ لهُ مِنْ إفسادِ الطعامِ واللباسِ والأشربةِ ونَحْوِ ذلكَ، وهو دونَ الأوّلِ، وذاكَ أكثرُ. لكنَّ هذا في الضَّرَرِ الدُّنياوِيِّ أكثرُ، فلم يُمَكِّنْهُ مِنْ إفسادِ هذهِ الأشياءِ تَفَضُّلاً منهُ وإحساناً إليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي ليسوا بضارِّينَ في ما يَتَناجَونَ مِنَ الكَيدِ بهِمْ والمَكْرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في دَفْعِ مَنْ قَصَدَ الكَيدَ بهِمْ والمَكْرَ والهلاكَ. وعليهِ يَتَوَكَّلونَ في النَّصْرِ لهمْ والمَعونةِ على أعدائِهِمْ والتَّوفيقِ لهمْ في كلِّ خَيرٍ. وكلُّ هذا وصفُ المؤمنِينَ.

وأمّا المعتزلةُ فهمْ بِمَعْزِلٍ عنْ هذهِ الآيةِ، وكذلكَ المؤمنونَ على قولِهِمْ غَيرُ مُتَوَكِّلينَ على اللهِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ قد أعْطَى كُلّاً مِنَ النَّصْرِ والمَعونةِ ما يَنْتَصِرُ على أعدائِهِ، ويَنْتَقِمُ منهمْ حتى [لم يَبْقَ][9] عندَهُ مَزيدٌ لِما يَنْصُرُهُمْ، ويُعينُهُم على شيءٍ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يحزن. (٦) في الأصل وم: تلقاهم (٧) في الأصل وم: ومناهم. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: لا يبقى.

فعلى قولِهِمْ: لا يَقَعُ للمؤمنينَ في التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى شيءٌ فليسَ عندَهُ ما يَنْصُرُهُمْ ولا ما يُعينُهُمْ، فعلى ماذا يَتَوَكَّلونَ عليهِ على قولِهِمْ إذْ لم [يُعْطِهِمْ][1] ما ذَكَرْنا؟

ومِنْ قولِهِمْ: أنَّ على الله تعالى أنْ يُعْطِيَ مِنَ المعونةِ والتوفيقِ حتى لا يَبْقَى عندَهُ مزيدٌ حتى لو مَنَعَ شيئاً مِنْ ذلكَ لم يُعْطِهِمْ يكونُ جائراً. ثم إذا أعطاهُمْ ما ذَكَروا لا يَهْتَدونَ، ولا يَنْتَصِرونَ.

واللهُ تعالى قالَ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقالَ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨] فَدَلَّ أنَّ ما قالوا مُخالِفٌ للكتابِ.

ثم اخْتَلَفوا في اشْتِقاقِ النَّجْوَى: منهمْ مَنْ قالَ: هو مِنَ النَّجْوَةِ، وهو المكانُ العالي المرتفعُ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يقومونَ في مكانٍ مرتفعٍ، فَيَتَحَدَّثونَ فيهِ، لِيَروا مَنْ قَصَدَهُمْ، فَيَتَفَرَّقوا، أو كلامٌ هذا معناهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: التَّناجي التَّحاكي بما ذَكَروا، فيكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ﴾ إذا تَحاكَيْتُمْ ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟﴾ فلا تَتَحاكَوا بما ذَكَرَ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التَّناجي مِنَ التَّشاورِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية: يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟﴾ أي إذا قيلَ لكمْ: تأخَّروا في المجالسِ فَتأخَّروا ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي ارْتَفِعوا، وتقدَّموا، فيكونُ قولُهُ: ﴿تَفَسَّحُوا۟﴾ إذا كانَ الحضورُ أوَّلاً هُمُ الذينَ هَمُّهُمُ السماعُ والعَمَلُ بهِ دونَ الأخذِ والتَّفَقُّهِ فيه، قيلَ لهمْ: تأخَّروا حتى يَقْرُبَ مَنْ يَصيرُ إماماً للناسِ وفَقيهاً لهمْ.

وإذا كانَ الحضورُ همُ الذينَ، هَمُّهُمُ التَّفَقُّهُ، وهُمُ الأئِمَّةُ، ثم جاءَ بَعدَ ذلكَ مَنْ كانَ هَمُّهُمُ السماعُ والعَمَلُ بهِ، قيلَ للذينَ تَقَدَّموا أوَّلاً: ارْتَفِعوا، أو تَقَدَّموا، حتى يَسْمَعَ مَنْ حَضَرَ بَعْدَكُمْ قولَ النَّبِيِّ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنهُ إذا كانَ في المَجْلِسِ أدْنَى سَعَةٍ أو فُسْحةٍ ما يُمْكِنُ تَمْكينَ غَيرِهِ مِنَ التَّحريكِ والتَّفَسُّحِ دونَ القِيامِ يُقالُ لهمْ: تَفَسَّحوا، وإذا لم يُمْكِنْ ذلكَ إلّا بالقِيامِ قيلَ لهمْ: قوموا، وارْتَفِعوا، وتَقَدَّموا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في القَبْرِ.

[والثاني][2]: في الآخِرَةِ في الجنةِ.

[والثالثُ][3]: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ في المَجْلِسِ، وهو فُسْحَةٌ للقَلْبِ وتوسِعَةٌ للعِلْمِ والحُكْمِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ الحسَنُ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ أي في القتالِ والحربِ ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي إذا قيلَ: انْهَروا إلى العَدُوِّ، فانْهَروا. قالَ قتادَةُ: أي إذا دُعيتُمْ إلى خيرٍ أو صلاةٍ فأجيبوا. وقالَ غَيرُهُ: إلى كلِّ خَيرٍ مِنْ قتالِ عدوٍّ أو أمْرٍ بِمَعْروفٍ أو نَهيٍ عنِ المُنْكَرِ أو حقٍّ كائناً ما كانَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أخبَرَ أنهُ يَرْفَعُ اللهُ الذينَ أُوتوا العِلْمَ مِنَ المؤمنينَ على الذينَ لم يُؤْتَوْا العلمَ درجاتٍ لِفَضْلِ العِلْمِ على سائرِ العِباداتِ مِنَ الجهادِ وغَيرِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في آيةِ الجهادِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥]؟ جَعَلَ للمجاهدينَ على القاعدينَ فَضْلَ درجةٍ، وللذينَ أُوتوا العِلْمَ على الذينَ لم يُؤْتَوا درجاتٍ لِيُعْلِمَ فَضْلَ العِلْمِ على غَيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا﴾ [التوبة: ١٢٢] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ يُجْلِسُ قوماً عندَ مَجْلِسِهِ[١] لِيَتَفَقَّهوا في الدينِ، ويَبْعَثُ قوماً سَرايا حتى إذا رَجَعَتِ السَّرايا أنْذَرَهُمُ الذينَ تَفَقَّهوا في الدينِ، وتَعَلَّموا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

فإذا كانَ التأويلُ هذا ففيهِ دلالةُ فَضيلةِ العِلْمِ على الجهادِ حتى أحْوَجَ أولئكَ إليهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَ يَنْفِرُ مِنْ كلِّ قومٍ طائفةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدينِ، فإذا رَجَعوا إلى قومِهِمْ أنْذَروا قومَهُمْ.

وقالَ قتادةُ: إنَّ بالعِلْمِ لأهلِهِ فَضيلةً، وإنَّ لهُ على أهلِهِ حقاً، ولَعَمْري الحَقُّ عليكَ أيها العالِمُ أفضَلُ، واللهُ يُعْطي كلاً مِنْ فَضْلٍ فَضْلِهِ.

وقالَ قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾ إنهمْ كانوا إذا رَأَوا أخاً لهمْ مُقْبِلاً يَضِنُّونَ بِمَجالِسِهِمْ عند رسولِ اللهِ ﷺ فأمَرَ اللهُ تعالى أنْ يَفْسَحَ بعضُهُمْ لِبعضٍ.

وقالَ مُقاتلٌ: أقْبَلَ نَفَرٌ مِنَ الأنصارِ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً، فَسَلَّموا على نَبِيِّ اللهِ ﷺ ومَنْ حَولَهُ، فَرَدُّوا السلامَ، وضَنُّوا بِمجلسِهِمْ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ فلم يُوَسِّعوا لهمْ فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: قُمْ يا فلانُ [ويا فلانُ][٢] مِنَ الذينَ لم يَشْهَدوا بدراً، [مِنَ المنافقينَ][٣] فنزلتْ هذهِ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ ما ذُكِرَ مِنْ مُناجاةِ الرسولِ ﷺ على وجوهٍ، والناسُ في مُناجاتِهِ طبقاتٌ:

أحَدُهُمْ: يُناجيهِ مُسْتَرْشِداً في أمرِ الدينِ وما يَنْزِلُ بهِ مِنَ النوازلِ.

والآخَرُ: يُناجيهِ افْتِخاراً بهِ على غَيرِهِ مِنَ الناسِ ومُباهاةً منهُ لِيُعْلِمَ أنَّ لهُ خصوصِيَّةً عندَ رسولِ اللهِ ﷺ وفضلاً لهُ عندَهُ، وهو صنيعُ المنافقينَ.

والفريقُ الثالثُ: يُناجونَهُ لِيُسَمِّعوا الناسَ الكذبَ، ويُسَمِّعوهُمْ غَيرَ الذي سَمِعوا كقولِهِ تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [المائدة: ٤١] وهُمُ اليهودُ، وصَنيعُهُمْ ما ذُكِرَ.

فجائزٌ أنْ تُخَرَّجَ المُناجاةُ معَ رسولِ اللهِ ﷺ على الوجوهِ /٥٥٨ ـ أ/ التي ذَكَرْنا.

ثم ما ذُكِرَ مِنْ تقديمِ الصَّدَقةِ على المناجاةِ تُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أمَرَ بِتقديمِ الصَّدَقةِ لِعِظَمِ قَدْرِ رسولِ اللهِ ﷺ والخُصوصِيَّةُ لهُ تَظْهَرُ بتلكَ الصَّدَقةِ، ويَصيرُ أهلاً لِلْمُناجاةِ بها، وهو كالطهارةِ التي جَعَلَها سَبَباً لِلْوُصولِ إلى مُناجاةِ الرَّبِّ ﷻ.

والثاني: لمّا خَصَّهُمْ بِمُناجاةِ الرسولِ ﷺ وجَعَلَهُمْ أهلاً لها أمَرَهُمْ بِتَقديمِ الصدقةِ شُكْراً لهُ منهُ بذلكَ.

والثالثُ: جائزٌ أنْ يكونَ أمَرَهُمْ بِتقديمِ الصَّدَقةِ امْتِحاناً منهُ إياهُمْ لِيُظْهِرَ حقيقةَ أمْرِهِمْ، وهو ما جَعَلَ الأمْرَ بالجهادِ سَبَباً لظهورِ نِفاقِهِمْ وارْتِيابِهِمْ في الأمْرِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ بالصدقةِ لأهلِ المُناجاةِ على الذينَ كانَتْ لهمْ حَوائجُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فَيَمْنَعوهُ عن قضاءِ حاجاتِهِمْ بالمُناجاةِ؛ أمَرَهُمْ بالصِّلَةِ لأولئكَ تَطْييباً لِقلوبِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي إنَّ تَقديمَ الصدقةِ أطْهَرُ لِقُلوبِهِمْ من تَرْكِ الصَّدَقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الأمْرُ لأهلِ الغِنَى دونَ الفَقْرِ حتى قالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ ما تَتَصَدَّقون بهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

---

(١) في الأصل وم: نفسه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: قبلكم في ذلك المنافقون.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ قالَ عامةُ أهلِ التأويلِ: أي أبَخِلْتُمْ بها أهلَ المَيْسرةِ ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي تَجاوزَ عنكُمْ إذْ لم تفعلوا ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي إذا لم تَصَدَّقوا تلكَ الصدقةَ فأْتوا زكاةَ أموالِكُمْ. قالَ أهلُ التأويلِ: نَسَخَ ما أُمِروا بهِ مِنَ الصَّدَقةِ عندَ المُناجاةِ بما ذَكَرَ مِنْ إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ هذا وعيدٌ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ دلالةُ قَبولِ خَبَرِ الواحدِ لأنهُ يُناجيهِ، ولا يَعْلَمُ بهِ غَيرُهُ، دَلَّ أنهُ يَقْبَلُ إذا أخْبَرَ بهِ غَيرُهُ.

وفيهِ أنْ لا كلُّ مناجاةٍ تكونُ مِنَ الشيطانِ؛ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ ناجى مَنْ ذَكَرَ، فَدَلَّ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية: ١٠] مَصْروفٌ إلى ما سَبَقَ ذِكْرُهُ.

وفيهِ ألّا يُفْهَمَ مِنْ ذِكْرِ اليَدِ الجارحةُ، لا محالةَ؛ فإنهُ قالَ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ﴾ وليسَ لِلنَّجوى يَدٌ، ولا لِـ: بَينَ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: ٤٢] ولم يُشْكِلْ على أحدٍ أنهُ لم يُرِدْ باليَدِ الجارحةَ ههنا، فكيفَ فُهِمَ في ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى في قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «الصدقةُ تقَعُ في يدِ الرحمنِ الجارحةِ» لولا فَسادُ اعْتِقادِهِمْ في اللهِ تعالى وتَشْبيهُهُمْ إياهُ بالخَلْقِ؟

وقالَ قتادةُ: أكْثَروا النَّجوى مع رسولِ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُمُ اللهُ تعالى عنهُ، فقالَ: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

وعنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: أنا أوَّلُ مَنْ عَمِلَ بها، تَصَدَّقْتُ بكذا، ثم نَزَلَتِ الرُّخصةُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يَذْكُرُ سَفَهَ المُنافِقينَ لرسولِ اللهِ ﷺ لِيَوَلِّيهِمْ قوماً غَضِبَ اللهُ عليهِمْ على ما عَلِمَ منهمْ أنَّ اللهَ تعالى قد غَضِبَ عليهِمْ، لكنهمْ تَوَلَّوهُمْ طَمَعاً منهمْ في أموالِهِمْ وفي ما كانَ عندَهُمْ مِنَ السَّعَةِ وفَضْلِ الدنيا.

ثم أخْبَرَ أنهمْ لَيسوا منكُمْ، ولا أنتمْ منهمْ، أي على دينِهِمْ، أي أولئكَ اليهودُ، لكنهُمْ يَتَوَلَّونَهُمْ[1] طَمَعاً في ما عندَهُمْ مِنْ فَضْلِ الدنيا ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كأنهُ قِيلَ لهمْ: لِمَ تَوَلَّيتُمْ قوماً غَضِبَ اللهُ عليهِمْ؟ فَحَلَفوا أنهمْ[2] لم يَتَوَلَّوهُمْ، فأخْبَرَ أنهمْ كاذبونَ في حَلْفِهِمْ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهمْ تَوَلَّوا اليهودَ سِرّاً مِنَ المؤمنينَ، وحَلَفوا كَذِباً، فأخْبَرَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بِتَوليَتِهِمْ وكَذِبِهِمْ في الحَلْفِ. دَلَّ أنهُ ﷺ عَرَفَ ذلكَ بالوَحْيِ.

الآية ١٥ ثم أخْبَرَ ما أعَدَّ لهمْ في الآخِرةِ بِتَوليَتِهِمْ أولئكَ وحَلْفِهِمْ بالكَذِبِ، فقالَ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي ساؤوا إلى أنفسِهِمْ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلوا في الدنيا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي حَلْفَهُمُ الذي حلَفوا أنهمْ لم يَتَوَلَّوا أولئكَ اليهودَ جُنَّةً ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ صَدُّوا أنفسَهُمْ عنْ سَبيلِ اللهِ، أو صَدُّوا الناسَ عنْ سبيلِهِ بما ذَكَرَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي يُهانونَ في ذلكَ العذابِ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يُخْبِرُ أنَّ أموالَهُمُ التي لأجلِها تَوَلَّوا اليهودَ، وعانَدوا المؤمنينَ، لا تُغنيهِمْ تلكَ الأموالُ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً إذا نَزَلَ بهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يتولونه. (٢) في الأصل وم: أنه.

الآية ١٨ ثم أخبرَ عن شِدَّةِ سَفَهِهِمْ أنهمْ يَحْلِفونَ في الآخِرَةِ كما يَحْلِفونَ لكُمْ في الدنيا بقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

ثم فيهِ أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أحداً إلى الإيمانِ بهِ والتوحيدِ، لأنهُ [لا آيةَ][1] أعظَمُ مِنْ قِيامِ الساعةِ. ثم لم يَمْنَعْهُمْ ذلكَ عنِ الكذِبِ والكُفرِ بهِ، ولا اضْطَرَّهُمْ إلى الإيمانِ بهِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الدنيا.

فإذا كانَ ما ذَكَرْنا كانَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] أنهمْ يؤمنونَ إذا شاءَ اللهُ، ولا يُؤمِنونَ وإنْ نَزَّلْنا عليهمُ الآياتِ التي ذَكَرَ، ولا آيَةَ أعظَمُ ممّا ذَكَرَ مِنْ إنزالِ الملائكةِ وإحياءِ المَوتَى وتكليمِهِمْ أنهمْ على الباطِلِ، وأنَّ الحقَّ هو الذي دعا رسولُ اللهِ ﷺ إليهِ.

دلَّ هذا كلُّهُ أنَّ الآيَةَ لا تَضْطَرُّ أحداً[2] إلى الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ [أي غَلَبَهُمْ][3] الشيطانُ. وقالَ مُقاتِلٌ: أي أحاطَ بهِمْ. وقالَ الزَّجاجُ والقُتَبِيُّ: أيِ اسْتَوْلَى عليهِمْ؛ وذلكَ كلُّهُ راجِعٌ إلى مَعْنًى واحِدٍ.

وفيهِ أنَّ الشيطانَ قد تَسَلَّطَ عليهِمْ حتى تَغَلَّبَ عليهِمْ بإجابَتِهِمْ إلى ما دَعاهُمْ إليهِ مِنْ مُعاداةِ اللهِ ورسولِهِ والمؤمنينَ. ولكنَّ سُلْطانَهُ على ما ذَكَرَ، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠] فَعَلَيهِمْ إذا عَمِلوا بما أرادَ، وأجابوهُ إلى ما دَعا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ أي أنساهُمْ عَظَمَةَ اللهِ أو نِعَمَ اللهِ وإحسانَهُ أو شُكْرَ نِعَمِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ الحِزْبُ هو جَمْعُ الفِرَقِ، تَحَزَّبوا أي تَفَرَّقوا، فَحِزْبُهُ هو جُنْدُهُ كما قالَ أهلُ التأويلِ لأنهمْ يَصيرونَ فِرَقاً، ثم يَجْتَمِعونَ، فيكونونَ[4] جُنْداً لهُ، وجُنْدُ الرجلِ، هُمُ الذينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ في ما شاءَ مِنَ القِتالِ وغيرِهِ، ويَصْدُرونَ[5] لِرَأيِهِ. فَعَلَى ذلك أولئكَ الكَفَرَةُ، هُمْ جُنْدُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهُ مَنّاهُمْ في الدنيا، وأمَّلَهُمْ تأميلاً في ما اتَّبَعوهُ، فلم يَصِلوا /٥٥٨ـب/ إلى شيءٍ مِنْ ذلكَ. وفي الآخِرَةِ بقولِهِ: أنْ لا بَعْثَ، ولا جنةَ، ولا نارَ، فَلَهُمْ فيها عذابٌ، فَخَسِروا الدارَيْنِ جميعاً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ قيلَ: في الأسفَلِينَ، وقيلَ: في المَهْزومينَ، وقيلَ: في الآخِرينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وأمّا في الدنيا فَرُبما يكونونَ همُ الغالبينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: ذلك في الدارَيْنِ جميعاً هُمُ الأذِلّاءُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي قَضَى اللهُ لأغْلِبَنَّ. ثم قالَ بعضُهُمْ: لَيَغْلِبَنَّ محمدٌ ﷺ كقولِهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] وفَعَلَ ذلكَ.

وجائزٌ أن يكونَ المُرادُ منهُ جُمْلَةَ رسلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١].

ثم الغَلَبَةُ قد تكونُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: بالحُجَجِ والبراهينِ، وما مِنْ رسولٍ إلّا وقد غَلَبَ على خُصَمائِهِ بالحُجَّةِ.

والثاني: بالقِتالِ والحربِ، وكانَتِ العاقبةُ للرسلِ ﷺ لِما لم يُذْكَرْ أنهُ قُتِلَ رسولُ اللهِ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: الآية. (٢) في الأصل وم: أهلها. (٣) من م، في الأصل: عليهم. (٤) في الأصل وم: ويكون. (٥) في الأصل وم: ويصدون.

وإضافةُ الغَلَبَةِ إلى نفسِهِ على إرادةِ الرسلِ أولياءَهُ على [ما][1] ذَكَرْنا في غَيرِ مَوضِعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قَويٌّ بذاتِهِ، لأنهُ تكونُ قوةُ[2] مَنْ دونَهُ [بهِ][3] وكذلكَ كلُّ مَنْ دونَهُ بِتَكْوينِهِ، أو تكونُ فيهِ بشارةٌ لأوليائِهِ أنهُ قويٌّ عزيزٌ بِذاتِهِ، أنهُ يَنْصُرُهُمْ على أعدائِهِمْ، ويَقْرُهُمْ[4].

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية: قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: نَزَلَتْ في حاطِبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ لأنهُ كانَ كَتَبَ إلى أهلِ مكةَ أنَّ رسولَ اللهِ، يَقْصِدُ إليكُمْ، فَخُذوا حِذْرَكُمْ، وكانَ لهُ بمكةَ أهلٌ، فأرادَ أنْ يكونَ لهُ عندَهُمْ يَدٌ، فَشَعَرَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: ما حَمَلَكَ على هذا؟ فقالَ ما ذَكَرْنا، فَنَزَلَتِ الآيةُ.

فإذا كانَ نُزولُها فيهِ على ما ذَكَروا فهي في براءَتِهِ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ لم يَرْجِعْ عنِ الإيمانِ والتَّصْديقِ لِرسولِ اللهِ ﷺ وأنهُ لا يعودُ إلى مِثْلِهِ بَعْدَ ذلكَ أبداً.

والثاني: أنهُ لم يَقْصِدْ بِصَنيعِهِ مُوادَّتَهُمْ، ولكنْ قَصَدَ إلقاءَ المَوَدَّةِ إليهِمْ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنهُ وادُّهُمْ، وهو في الحقيقةِ يُلْقِي المَوَدَّةَ، وقد يكونُ ذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَتِ الآيةُ في غَيرِ حاطبٍ فهي بالمؤمنينَ الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ باللهِ تعالى، وثَبَتوا عليهِ، لأنَّ أهلَ الإيمانِ كانوا أصنافاً ثلاثةً:

صِنفٌ مُحَقِّقونَ الإيمانَ مُظْهِرونَ القِتالَ معَ أعدائِهِمْ، وصِنفٌ منهمْ، لا يَقْدِرونَ على إظهارِ ذلكَ والمُناصَبَةِ معهمْ، ولكنْ يَتْبَعونَ الأقوياءَ منهمْ، والصنفُ الثالثُ[5] مُتَرَدِّدونَ، يُوادُّونَ الكَفَرَةَ في السِّرِّ، ويُظْهِرونَ المُوافقةَ للمؤمنينَ.

فَجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي الذينَ يُحَقِّقونَ الإيمانَ باللهِ تعالى ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولكنْ إنما يُوادُّونَ مَنْ لم يُحَقِّقِ الإيمانَ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ إثباتِ الإيمانِ في قلوبِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي أثْبَتَ في قلوبِهِمُ الإيمانَ، فلا يَرْجِعونَ عنهُ.

وفيهِ أنَّ الإيمانَ، مَوضِعُهُ القَلْبُ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: ما كانَ للقومِ يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ أنْ يُوادُّوا مَنْ حادَّ اللهَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ قيلَ: أيَّدَهُمْ بنورِ الإيمانِ الذي أثْبَتَ في قلوبِهِمْ. وأخبَرَ ﷻ أنهُ أثْبَتَ المؤمنينَ على الإيمانِ، فقالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقالَ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

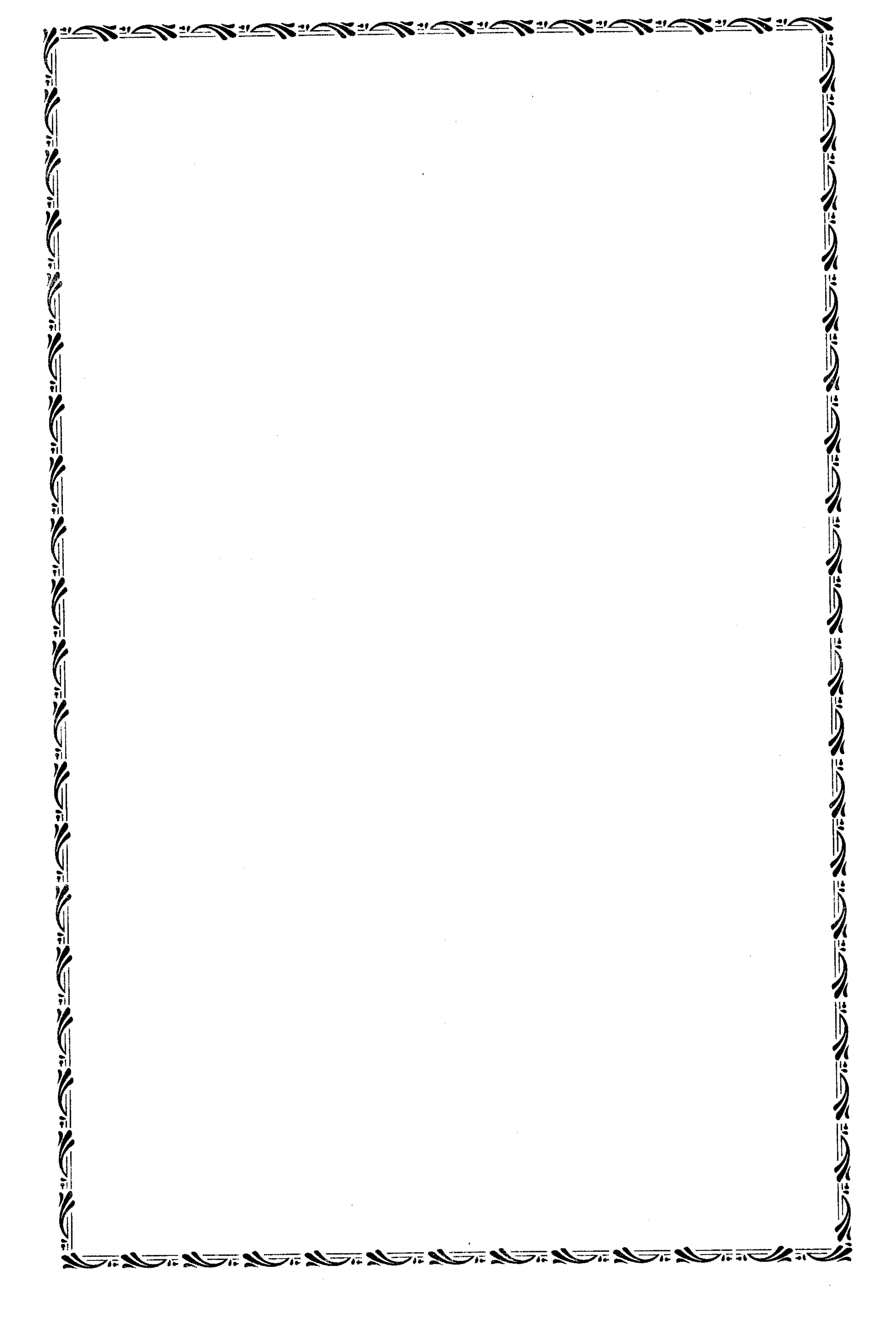
وقيلَ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي برحمةٍ منهُ.

ثم وصفَ حالَهُمْ وثوابَهُمْ في الآخِرةِ، فقالَ: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي جُنْدُ اللهِ على ما ذَكَرْنا أنهمْ يأتَمِرونَ بأمرِهِ، ويُقاتِلونَ أعداءَهُ، ويُوالُونَ أولياءَهُ، فهمْ جُنْدُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قيلَ: همُ الناجونَ، وقيلَ: الباقونَ في نِعَمِ اللهِ تعالى [واللهُ أعلَمُ بالصواب][6].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قوته. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: ويقررهم، في م: ويقهرهم. (٥) من م، في الأصل: الثاني. (٦) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الحشر

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قد سَبَقَ تأويلُ التسبيحِ وبيانُ وجوهِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيزُ، هو الغالِبُ القاهِرُ، وقيلَ: هو العزيزُ حينَ[2] جَعَلَ في كلِّ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ أثَرَ الذُّلِّ والحاجةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لهُ مَعْنَيانِ[3]: مَعْنَى الإحكامِ ومَعْنَى الحِكْمَةِ:

فأمّا مَعْنَى الإحكامِ، فهو أنهُ أحْكَمَ الأشياءَ على اخْتِلافِها وتَضادِّها حينَ[4] تَشْهَدُ لهُ بالوَحْدانيَّةِ.

[وأمّا مَعْنَى الحِكْمَةِ، فهو أنهُ][5] وَضَعَ الأشياءَ مَواضِعَها، وخَلَقَ للأشياءِ مَواضِعَ.

ثم الأصولُ التي تَتَوَلَّدُ منها هذهِ الأشياءُ والأفعالُ ثلاثةٌ: الكِياناتُ والطبائعُ والعقولُ:

أمّا الكِياناتُ فَنَحْوُ النُّطْفَةِ [إنهُ خَلَقَها][6] بحيثُ تَصْلُحُ أنْ يكونَ منها البَشَرُ، إذا اتَّصَلَتْ بها مَوادُّها، ونَحْوُ الماءِ؛ إنهُ جَعَلَهُ بحيثُ يَحْيَى بهِ كلُّ شيءٍ، وبحيثُ يَصْلُحُ بهِ كلُّ شيءٍ. والطبائعُ خَلَقَها[7] في البشرِ، وهي ما يَميلونَ بها إلى المَحاسِنِ والمَنافِعِ، ويَحْذرونَ مِنَ المَساوِئِ والمَضارِّ. والعقولُ خَلَقَها لِيُدْرِكوا بها[8] العواقِبَ.

ثم إنهُ عَلَّمَهُمُ الوجوهَ التي تَتَوَلَّدُ منها الأشياءُ، فهو حكيمٌ حينَ[9] خَلَقَ الأصولَ التي وَصَفْنا، وعَلَّمَ عبادَهُ الأسبابَ التي بها يُولَدونَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [قيلَ:][10] هُمْ بَنو قُرَيظَةَ، وقالَ جماعةٌ[11] مِنَ المُفَسِّرينَ: هُمْ بنو النَّضيرِ، وهو أقْرَبُ.

ثم المَعْنَى / ٥٥٩ ـ أ/ في إضافةِ الإخراجِ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ اضْطَرَّهُمْ إلى الخروجِ، فَنَسَبَ الإخراجَ إليهِ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية [التوبة: ٤٠].

والثاني: أنهُ خَلَقَ الخروجَ مِنْ ديارِهِمْ منهمْ، فأُضيفَ إليهِ بِحُكْمِ الخَلْقِ.

ثم الأصلُ في إضافةِ الفِعْلِ إلى اللهِ تعالى أنهُ يَجوزُ أنْ يُضافَ إليهِ على التَّحْقيقِ وعلى التَّسْبيبِ. فأمّا [إضافةُ الفِعْلِ إلى][12] الخَلْقِ فَلِما يُضافُ الفِعْلُ إليهِمْ على جهةِ التَّسْبيبِ لا على التَّمْكينِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ اخْتَلَفوا فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: أوَّلُ الحَشْرِ الجَلاءُ إلى الشامِ، والحَشْرُ الثاني: حَشْرُ القيامةِ. وقالَ بعضُهُمْ: أوَّلُ الحَشْرِ، هو حَشْرُ أهلِ الكتابِ وجَلاؤُهُمْ مِنْ جزيرةِ العربِ، والحَشْرُ الثاني حينَ أجلاهُمْ عُمَرُ ﷺ إلى الشام.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: معنيين. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وحكيم وم: وحكيم حيث. (٦) في الأصل وم: أنها. (٧) في الأصل وم: خلق. (٨) من م، في الأصل: به. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: غيره. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ أي ما ظَنَنْتُمْ أيُّها المؤمنونَ أنْ تَنْتَصِروا منهمْ فضلاً عَنْ أنْ يَخْرُجوا مِنْ ديارِهِمْ، ولكنَّ ذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ ومِنَّتِهِ عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَتَوَهَّمَ أحدٌ هذا. والمعنى في ذلكَ عندَنا وجهانِ، واللهُ أعلَمُ.

أحدُهما: أنهم ظَنُّوا أنَّ اللهَ تعالى حينَ[1] آتاهُمُ القوةَ والحصونَ لا يَبْلُغُ بهمْ حُكْمُهُ المَبْلَغَ الذي يَخْرُجونَ مِنْ ديارِهِمْ لأنهمْ كانوا أهلَ الكتابِ، وكانوا يَزْعُمونَ أنهمْ أولَى باللهِ مِنْ غيرِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ويكونُ قولُهُ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي باللهِ وبأمْرِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي بأمْرِ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ [﴿مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾][2] ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي بأمْرِ اللهِ. فَعَلَى ذلكَ الأوَّلُ.

والثاني: أنهمْ[3] ظَنُّوا أنَّ حصونَهُمْ وقُوَّتَهُمْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ أولياءِ اللهِ أنْ يَظْهَروا عليهمْ أو مِنْ دينِ اللهِ أنْ يَظْهَرَ فيهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ يعني أنهُ قَذَفَ في قلوبِهِمُ الرُّعْبَ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبِ المؤمنُ ولا الكافرُ، لأنَّ المسلمينَ لم يَظُنّوا أنْ يَقْهَروهُمْ، ويَغْلِبوهُمْ معَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وكَثْرةِ عَدَدِ أولئكَ.

وكذا لم يَحْتَسِبِ الكَفَرَةُ أنهمْ معَ قوتِهِمْ وقوةِ حُصونِهِمْ يُقْهَرونَ، ويُغْلَبونَ، حتى مَنَّ اللهُ تعالى على المؤمنينَ. فإنَّ قَذْفَ الرعبِ في قلوبِ الكَفَرَةِ، ذلكَ لُطْفٌ عظيمٌ مِنَ اللهِ تعالى إلى المؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ في ما خُرِّجَ هذا المُخْرَجَ مِنْ نَحْوِ قولِهِ ﷻ ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] ومِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ومِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة ٢١٠] وما يُشاكِلُهُ أنْ يَحْمِلَهُ على إحدَى مَعانٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنْ يكونَ[4] المُرادُ إتيانَ آثارِ فِعْلِ اللهِ تعالى؛ ويجوزُ أنْ يُضافَ إليهِ سَبيلُ إضافةِ حقيقةِ العملِ كما يُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنها ليسَتْ بِعَيْنِ أمْرِ اللهِ، لكنها أثَرُ أمْرِ اللهِ تعالى، وكذلكَ يُقالُ: المَطَرُ رَحْمَةُ اللهِ تعالى؛ يعني أثَرَ رَحْمتِهِ. فكذلكَ إذا نزلَ بهمْ آثارُ حُكْمِ اللهِ تعالى وتدبيرِهِ وفعلِهِ، وهي العذابُ جازَ أنْ تُضافَ [إليهِ آثارُ][5] حقيقةِ الفعلِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يُقالَ: إنَّ ما كانَ مِنْ هذهِ الأفعالِ موصولاً بصلةٍ فإنهُ يجوزُ أنْ يُرادَ منهُ تلكَ الصلةُ، وإنما نَتَكَلَّمُ بإضافةِ[6] هذا الفعلِ إليهِ مَجازاً على ما اعتادَ الناسُ مِنْ أفعالِهِمْ إذا أرادوا[7] أنْ يأتوها بأنفسِهِمْ.

وشرحُ ذلكَ وبيانُهُ أنهُ قالَ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وكذلكَ ما أشْبَهَهُ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] ومِنْ [نَحْوِ][8] قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩ وفصلت: ١١] أي استوى تدبيرُهُ مِنْ حيثُ وَصَلَ مَنافِعَ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ، وكذلكَ ما أشْبَهَ هذا، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: يقولُ: إنَّ هذهِ أسماءٌ مُشْتَركةُ المَعْنَى. وما كانَ سبيلُهُ هذا السبيلَ جازَ أنْ يُضافَ إلى اللهِ تعالى على مَعْنًى ليسَ يَقَعُ فيهِ الاشْتِراكُ بالمَخلوقينَ.

ألا تَرَى أنهُ يُقالُ: جاءَ الليلُ، وذهبَ النهارُ ونَحْوُ ذلكَ على مَعْنَى الظُّهورِ ونَحْوِهِ؟

وقولُهُ تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الملكَ لِلْمسلمينَ في أموالِ أهلِ الحربِ، ليسَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يحفظونه. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) من نسخة الحرم المكي، في م: إضافة، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: بالإضافة. (٧) في الأصل وم: أردوها. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَقَعُ بِمُجَرَّدِ الغَلَبةِ ما لم يَكُنْ ثَمَّ أَسْرٌ لأنهُ أخبَرَ أنَّ المؤمنينَ كانوا يُخربونَ بيوتَهُمْ؛ أضافَ المُلْكَ إلى الكَفَرةِ معَ أنَّ الغَلَبةَ للمسلمينَ. فإنكُمْ إذا اعْتَبَرْتُمْ عَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ مَنَّ عليكُمْ حينَ[1] أخرَجَ الكفارَ مِنْ ديارِهِمْ؛ فإنهُ لم يكُنْ ذلكَ بقوّتِكُمْ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى فيهِ ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ مِنْ أهلِ الكُفّارِ فإنَّ ذلكَ يَدُلُّكُمْ، ويُعَرِّفُكُمْ، أنَّ اتِّفاقَكُمْ على النُّفْرَةِ على النَّبيِّ ﷺ لا يُغْنيكُمْ كما لم يُغْنِ هؤلاءِ الذينَ خَرَجوا إلى مكةَ، واتَّفَقوا معَ المُشْركينَ، ثم لم يُغْنِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يعني ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ في اللَّوحِ المحفوظِ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ قالَ هذا في قومٍ عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَموتونَ على الكُفْرِ، وما رُوِيَ أنَّ أحداً منهمْ ماتَ على الإسلامِ فيكونُ فيهِ دلالةٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُخبِرُ ذلكَ بالوَحْيِ والتَّنزيلِ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يَحتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً[2]:

أحدُها: أنْ يكونَ[3] هذا العذابُ في الآخِرَةِ بسببِ أنهمْ شاقّوا اللهَ ورسولَهُ. ثم المُشاقَّةُ والمُعاداةُ والمُحادَّةُ والمُضادَّةُ بمنزلةٍ واحدةٍ، وذلكَ كلُّهُ بِمَعْنى المُعاداةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ ووجْهُهُ أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ لِمَنْ يُشاقِقُ اللهَ ورسولَهُ، ويكونَ فيهِ إضمارٌ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ عقوبَتَهُ لِمَنْ يُشاقِقُ اللهَ ورسولَهُ شديدةٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وما ذُكِرَ أنَّ اليهودَ نادَوُا المسلمينَ أنكُمْ تَزْعُمونَ أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفسادَ، وأنتمْ تُفْسِدونَ بِقَطْعِ النخيلِ، لا يَحْتَمِلُ هذا.

قالَ اللهُ تعالى قَبْلَ [ذلكَ][4]: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإذا كانَتْ أنفسُهُمْ تَسْخَى بِتَخريبِ البيوتِ فما بالُها لا تَسْخَى بِقَطْعِ الأشجارِ؟

ومَعلومٌ أنهُ لا يُؤمَلُ في البيوتِ مَنْفَعةٌ بعد تَخريبِها، وقد يُؤمَلُ في النخيلِ مَنافعُ بَعدَ قَطعِها. ولكنْ إنْ كانَ يَصِحُّ ذلكَ الخبَرُ فتأويلُهُ عندَنا أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ المُسلِمونَ خَوّفوهُمْ بالقَتْلِ، فقالوا على إثْرِ ذلكَ: إنكُمْ إذا قَتَلْتُمونا صارتْ هذهِ النَّخْلُ مُلْكاً لكُمْ، فكيفَ تُفْسِدونَ أملاكَكُمْ؟.

ثم في إذنِ اللهِ بِقَطْعِ النخيلِ أوجهٌ[5] مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنْ يكونَ فيهِ بَيانٌ أنَّ مُقاتَلَةَ المُسْلِمينَ إياهُمْ لم تَكُنْ لِرَغْبةٍ في أموالِهِمْ بل لِيَسْتَسْلِموا للهِ ولرسولِهِ ويَخْضَعوا لِدينِهِ.

والوجهُ الثاني: أنَّ حُرْمَةَ هذهِ الأموالِ إنما هي لِحُرْمةِ أربابِها، وأُبيحَ قَتْلُهُمْ وإتلافُهُمْ، فما ظَنُّكَ بأموالِهِمْ؟

والوجهُ الثالثُ: أنَّ اللهَ ﷻ كَتَبَ عليهِمُ الجلاءَ، ومَعْلومٌ أنَّ أنفسَهُمْ بالجلاءِ إذا خُرِّبَتْ بيوتُهُمْ، وقُطِعَتْ أشجارُهُمْ أسْخَى منهُ إذا بَقِيَتْ؛ لِيَقْطَعَ طَمَعَ مَنْ أُجْلِيَ عنِ المُقامِ. فَأَذِنَ اللهُ تعالى في قطعِ النَّخيلِ إتماماً / ٥٥٩ ـ ب/ لِما كَتَبَ عليهِمْ مِنَ الجلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

[والوجهُ][6] الرابعُ: أنَّ هؤلاءِ كانوا أئمةَ اليهودِ والتَّحريفِ والتَّبديلِ للتوراةِ، إنما وَقَعَ منهمْ رغبةٌ في الدنيا وسَعَتِها، فأذِنَ اللهُ تعالى في قَطعِ النخيلِ عقوبةً لهمْ وخِزْياً مِنَ الوجهِ الذي وَقَعَ لهُ التَّبديلُ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إنْ كانَ المُرادُ منهُ العِلْمَ فوجْهُهُ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالقَطْعِ والتَّرْكِ جميعاً، وإنْ كانَ المُرادُ منهُ المَشيئةَ فهو أنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ الأمْرَيْنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) لم يذكر المؤلف أبو منصور إلا وجهاً واحداً. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أوجهاً. (٦) ساقطة من الأصل وم.

واللِّينَةُ اللَّونُ مِنَ النخيلِ كما تقولُ: قُوتٌ وقِيتَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لِيكونَ كَبْتاً وغَيظاً للفاسِقينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ قالَ: حَقُّ هذهِ الآيةِ أنْ تكونَ مُؤخَّرَةً، وأنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ مُتقدِّماً[1] لوجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ ذُكِرَ فيهِ الواوَ، والواوُ لا يُبْتَدَأُ بها إلّا في القَسَمِ.

والثاني: أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ [والواوُ][2] حرفُ كِنايةٍ، والكِنايةُ لا بُدَّ لها مِنْ مَعْرِفةٍ، تُعْطَفُ عليها، فَيَرْجِعُ إليها. فلذلكَ قُلْنا: إنَّ حَقَّهُ التأخيرُ، وحقَّ الثانيةِ التَّقديمُ. وعلى ذلكَ قراءةُ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ.

وإذا كانَ كذلكَ فوجهُهُ أنَّ الذي وجَبَ صَرْفُهُ إلى الأصنافِ إنما هو الخُمُسُ، وأوجبَ ههنا مِنْ كلِّ الغَنيمةِ، فأبانَ بقولِهِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أنه إنما تُصْرَفُ هذهِ أربعةُ[3] الأخماسِ إلى النَّبِيِّ ﷺ دونَهُمْ لهذا المَعْنَى أنهمْ لم يُوجِفوا عليهِ مِنْ خَيلٍ ولا رِكابٍ؛ أشارَ إلى أنَّ اسْتِحقاقَهُمْ أربعةُ[4] الأخماسِ بسببِ إيجافِ الخَيلِ والرِّكابِ.

وإنْ كانَتِ القراءةُ على ما يُتْلَى للحالِ، ليسَتْ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ فإنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

وإنْ كانَ بناءً على ذلكَ اسْتَقامَ أنْ يُذْكَرَ بِحَرْفِ الواوِ [وهو][5] حَرْفُ الكِنايةِ.

قالَ ﷺ: المنافقونَ[6] وأهلُ الضَّعْفِ مِنَ المؤمنينَ الذينَ آمَنوا بالتَّقْليدِ يَظُنّونَ في هذا المَوضِعِ أنْ كيفَ خَصَّ هذهِ الغنيمةَ قرابَتَهُ والمهاجرينَ الذينَ هاجَروا إليهِ؟ وكيفَ آثَرَ بها نفسَهُ؟ والجوابُ عَنْ هذا أنَّ هؤلاءِ الأصنافَ قومُ عامَّةِ المُسْلِمينَ، تَحَمَّلَ مَؤونَتَهُمْ لولا هذهِ الغنيمةُ.

ومعلومٌ أنَّ أنفُسَ المسلمينَ بِبَذْلِ ما عليهِمْ مِنْ تلكَ الأمانةِ أسْخَى منهُ لو صُرِفَ إلى كلِّ واحدٍ منهمْ على الإشارةِ إليهِ مِنْ مُلْكِهِ الخاصِّ.

وعلى هذهِ العِبارةِ تَجْري مسائلُ لنا:

أحَدُها: ما رُوِيَ عن عُمَرَ ﷺ أنهُ جَعَلَ العَقْلَ على أهلِ الديوانِ لأنَّ ذلكَ يُخَرَّجُ مُخرَجَ المَؤونةِ.

ومعلومٌ أنَّ المَؤونةَ على عامَّتِهِمْ، فَيَدُلُّ ما رَجَعَ مِنْ هذا الحقِّ إلى تلكَ العامَّةِ أسْهَلُ عليهِمْ، لو صُرِفَ إلى خاصَّتِهِمْ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة: ١١].

ومَعْلومٌ أنَّ مَنْعَ تلكَ الزوجةِ عنْ أنْ يُذْهَبَ إلى الحربِ بشيءٍ مِنْ مالِ زَوجِها كانَ واجباً على العامةِ، وكذلكَ المسلمونَ إذا أصابوا غنيمةً، وفيها مالُ مُسْلِمٍ، قد غَلَبَ عليها المشركونَ[7]، أنهُ ما دامَ المُلْكُ للعامَّةِ، ولم يُقَسَّمْ، يُرَدُّ عليهِ مِنْ غيرِ بَدَلٍ. وإذا قَسَّموا، واختَصَّ كلُّ واحدٍ بِمُلْكِهِ لم يَأخُذْهُ إلّا بِبَدَلٍ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ الفقيهُ، رَحْمةُ اللهِ عليهِ: والذي يَجِبُ مِنْ جِهةِ العُرْفِ والشريعةِ أنْ يكونَ تَحَمُّلُ مُؤْنةِ رسولِ اللهِ ﷺ على أُمَّتِهِ. أمّا مِنْ جِهةِ العُرْفِ فهو أنَّ مَنْ عَمِلَ لِغَيرِهِ كانَتْ مُؤْنَتُهُ على ذلكَ العَوْلِ لهُ، وكذلكَ مِنْ جِهةِ الشريعةِ.

ومعلومٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَقومُ بأمورِ أمَّتِهِ في أمورِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. وإذا كانَ الأمْرُ على ما ذَكَرْنا [كانَ][8] أولَى ما يُجْعَلُ لرسولِ اللهِ ﷺ هو مالُ العامَّةِ، وذلكَ هو الفَيءُ. هذا لِو اخْتَصَّهُ النَّبِيُّ ﷺ لنفسِهِ. فكيفَ وقد قَسَّمَهُ بَينَ الفقراءِ وأهلِ الحاجةِ، ولم يُوجِدْهُ لِنَفْسِهِ؟

---

(١) في الأصل وم: متقدمة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الأربعة. (٤) في الأصل وم: الأربعة. (٥) في الأصل وم: و.
(٦) في الأصل وم: المنافقين. (٧) من م، في الأصل: المشركين. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ووجهٌ آخرُ في هذا ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي» [البخاري ٣٣٥] وقالَ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مَسيرَةَ شَهْرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] فلوِ اختصَّ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ جازَ لهُ بما قالَ، ولكنَّ اللهَ جَعَلَ الفَيءَ لهُ بَينَ مَنْ كانَ تَحمُّلُ مُؤْنَتِهِمْ على المسلمِينَ لولا هذا الفيءُ كي تكونَ المِنَّةُ لهُ على أمتِهِ ولئلا يكونَ لأحدٍ منْ أمَّتِهِ عندَهُ ﷺ يَدٌ ولا صَنيعةٌ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخرُ: أنهُ لم يُؤْذَنْ لرسولِ اللهِ ﷺ في كَسْبِ شيءٍ منَ الدنيا وفُضولِها حتى يَصْطَنِعَ مِنْ فُضولِها بالمعروفِ، فَجَعَلَ اللهُ لهُ الفَيءَ لِيَكْتَسِبَ بهِ الفضائلَ والمعروفَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مَسيرَةَ شَهْرَينِ» دلالةٌ أنَّ ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ، وأعطاهُ، فهو لهُ خاصَّةً، يَصْنَعُ بهِ ما شاءَ، ويُفَرِّقُهُ في مَنْ شاءَ.

والقولُ عندَ أصحابِنا في الإمامِ إذا أعطاهُ أهلُ الحَرْبِ أنْ يُشْرِكَ[1] فيهِ قومَهُ لأنَّ هِبَةَ الأئِمَّةِ إنما هي لقومِهِمْ، وكانَتْ هِبَةُ رسولِ اللهِ ﷺ بما نُصِرَ بالرُّعبِ، فجازَ أنْ يَخْتَصَّ لنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني رَدَّ اللهِ على رسولِهِ مِنْ مُلْكِ الكَفَرَةِ، أو ما أعْطَى اللهُ رسولَهُ مِنْ مُلْكِ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ [أهلُ][2] القُرَى قد أعطَوهُ، أو يكونُ هذا[3] بِشارةً لرسولِ اللهِ ﷺ في فَتْحِ القُرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ الظاهِرَ مِنْ هذهِ الآيَةِ أنْ يكونَ المُرادُ منها قرابَةَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وأمّا في قولِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] فَقَرابةُ رسولِ اللهِ ﷺ إنما تَدْخُلُ في هذهِ الآيَةِ بالتأويلِ. وذلكَ أنَّ المَفهومَ مِنْ ذِكْرِ القرابةِ إنما هو قرابةُ المُخاطَبِينَ في الآيَةِ.

ومَعْلومٌ أنَّ الخِطابَ في القِسْمَةِ إنما هو لِلْمُغْتَنِمِينَ، وفي قولِهِ ﷺ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إنما هو يُفْهَمُ منهُ قرابةُ الرسولِ ﷺ وأمّا سَهْمُ ذي القُرْبَى فإنَّ أصحابَنا يَسْلُكونَ في ذلكَ مذهَبَينِ:

منهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا الحقَّ في الأصلِ لِلْمُحتاجينَ مِنَ القرابةِ لوجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. كانَ المُرادُ منهُ مُنْصَرِفاً إلى المُحتاجينَ، فكذلكَ في القرابةِ[4].

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الخُمُسَ كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ يَصِلُ بهِ قرابَتَهُ. فلمّا قُبِضَ ﷺ انْقَطَعَ ذلكَ الحَقُّ لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: قولُهُ ﷺ: «إنا معاشِرَ / ٥٦٠ - أ / الأنبياءِ لا نُورَثُ؛ ما تَرَكْنا صَدَقَةٌ» [بنحوه النسائي ٧/ ١٣٢ والتمهيد ٨/ ١٧٥].

والثاني: أنهمْ إنما كانوا يَسْتَوجِبونَهُ برسولِ اللهِ ﷺ فإذا قُبِضَ انْقَطَعَ ذلكَ الحقُّ على سبيلِ انْقِطاعِ الحقوقِ عن أصحابِها[5] عندَ وفاتِهِمْ.

ثم الفائدةُ في مَنْعِ ما كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ عنِ الوِراثةِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَسْتَعْمِلُ نفسَهُ في شيءٍ مِنْ لَذّاتِ الدنيا وشَهَواتِها، وكانَ قائماً للهِ تعالى خالصاً. فإذا كانَ كذلكَ جازَ أنْ تكونَ حقيقةُ المُلْكِ فيهِ لِمَولاهُ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: أليسَتِ[6] الأملاكُ كلُّها للهِ تعالى؟ قيلَ لهمْ: نعمْ غَيرَ أنَّ الإضافةَ قد تكونُ خصوصيةَ حالٍ كقولِهِ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] [وقولِهِ تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٦]][7].

---

(١) في الأصل وم: يشترك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هذه. (٤) لم يذكر المؤلف الوجه الثاني. (٥) في الأصل وم: أصحابنا. (٦) الهمزة ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وبيت الله.

ووجهٌ آخَرُ ما كانَ لرسولِ اللهِ ﷺ محبوسٌ عليهِ إلى يوم القيامةِ. ألا تَرَى أنَّ زَوجاتِهِ مَحْبوساتٌ عليهِ، لا يَحْلِلْنَ لأحدٍ بَعدَهُ؟ ونُبُوَّتَهُ عليهِ لم تَتَحوَّلْ بَعدَهُ إلى غيرِهِ؟ جازَ أيضاً أنْ تُوقَفَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

ومَعلومٌ أنَّ ما كانَ مَوقوفاً فَسبيلُهُ التَّصدُّقُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ له مَعْنيانِ:

أحَدُهما: أنهُ لو لم يُبيِّنْ هذهِ المواضِعَ لَكانَ ذلكَ الخُمُسُ الذي كانَ لِرَسولِ اللهِ ﷺ يَخلُفُهُ فيهِ الخُلَفاءُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَتداوَلُهُ الأغنياءُ بينَهُمْ.

ومَعْنًى آخَرُ: لو فُرِّقَ هذا بَينَ الفقيرِ والغَنِيِّ لَكانَ حينَ يَقَعُ هذا في [يدِ الغنيِّ][1] كانَ يَكْسِبُ[2] بِهِ فُضولَ الدنيا، وأمّا الفقيرُ فأوَّلُ [ما][3] يَقَعُ في يَدِهِ يَسْتَمْتِعُ بهِ في مَنافِعِ [نفسِهِ][4] فلذلكَ فُرِّقَ في الفقراءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الدُّولةُ، هي اسمٌ للذي يَدولُ بَينَ الناسِ، والدَّولَةُ واحدةٌ، وهي فَعْلَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ يعني ما أعطاكُمْ رسولُ اللهِ ﷺ مِنْ هذهِ الغَنيمةِ فخذوهُ، ولا تَظُنّوا بهِ ظَنّاً مكروهاً ﴿وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ ليسَ [نَهْيَ][5] زجْرٍ وشريعةٍ، ولكنْ نَهْيُ مَنْعٍ، وما مُنِعَ مِنكُمْ مِنْ هذا الفيءِ فانتَهُوا عنهُ.

وعلى قراءةِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَى الأمرِ ومَعْنَى الإعطاءِ، أي ما آتاكُمْ مِنَ الدنيا فَخُذوهُ، وما نهاكُمْ مِنَ الدنيا عنهُ؛ يعني زَجَرَكُمْ عنهُ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ويَرْوي[6] عامّةُ الفقهاءِ [ما يَحْتَجّونَ][7] بهذهِ الآيةِ في مَوضعٍ معَ لَفظِ الإيتاءِ، وليسَ يُوجِبُ ظاهرُهُ هذا؛ إذِ الإيتاءُ هو الإعطاءُ والتَّمْليكُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣ و. .] ولكنَّ وَجْهَ الاحتجاجِ بهِ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أمَرَنا بأخْذِ مَعْروفِهِ ﷺ وإنْ كانَ في أخذِ المَعْروفِ مِنْ غَيرِهِ ﷺ خِيارٌ، فَلِأنَّ الزامَنا[8] الأخذَ بأمرِهِ والاتّباعَ لهُ أحْرَى وأَولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا يُؤكِّدُ ما ذَكَرَ مِنِ اتِّباعِ أمْرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية، وما يَنسُقُ عليهِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية: ٩] وقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الآية: ١٠] الآياتِ. ظاهرُ هذا يَقْتَضي إيجابَ حقٍّ لهمْ، لأنهُ إذا قيلَ لِفلانٍ، لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يُقالَ: كذا وكذا. وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ حقٍّ يُذْكَرُ لهُمْ، ولا يَحْتَمِلُ أيضاً أنْ يُخْفِيَ اللهُ تعالى عِلْمَ ذلكَ الحَقِّ الذي أوجَبَ لهذهِ الأصنافِ عنْ خَلْقِهِ، فالسبيلُ في ذلكَ مِنْ جِهَةِ التأويلِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ جوابِ: لِمَنْ؟ فقالَ[9]: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الرسولُ ﷺ سَألَ ربَّهُ، جَلَّ، وعَلا، [عنْ][10] جوابِهِ: لِمَنْ؟ فأخْبَرَ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

ثم إنهُ يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ الحَقُّ ما وُظِّفَ مِنَ الخَراجِ على أهلِ القريةِ إذا فُتِحَتْ، وهو ما رُوِيَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ﷺ أنهُ قالَ لِعَلِيٍّ وابْنِ مَسْعودٍ ﷺ حينَ فَتَحَ سَوادَ الكوفةِ: إني [كُنْتُ سأسْتَشيرُكُمْ][11] في أمْرٍ قد أغناني اللهُ تعالى عَنْ مَشُورَتِكُمْ حينَ تَلَوتُ هذهِ الآيةَ، ثم تَلَا قولَهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ ثم قالَ: لِهؤلاءِ خاصّةً، وتَلَا قولَهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ثم قالَ: ليسَ هؤلاءِ خاصّةً، وتَلَا قولَهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾.

ورُوِيَ أنَّ بِلالاً قالَ لهُ: اقْسِمْ بَيْنَنا كما قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ خَيبرَ بَينَ أهلِ العَسْكرِ، وقالَ: اللهمَّ اكْفِني بِلالاً وأهلَهُ. ثم قالَ عُمَرُ ﷺ: لو قَسَمْتُها بينَكُمْ لَتَركْتُ آخِرَ عِصابةٍ في الإسلامِ لم تُصِبْ مِنْ هذهِ.

---

(١) في الأصل وم: بيده. (٢) في الأصل وم: يكتب. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويرى. (٧) في الأصل: يجتمعون، في م: يحتجون. (٨) في الأصل وم: يلزمنا. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: أستشيركم.

وأخبَرَ اللهُ تعالى [رسولَهُ][١] بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أنهمْ شُركاءُ هؤلاءِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ عُمَرُ ﷺ حينَ تَلَا هذهِ الآياتِ تَذَكَّرَ خَبَراً أخْبَرَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لِيُعْلِمَ[٢] أنَّ الحَقَّ الذي أوجَبَ اللهُ تعالى لهؤلاءِ ذلكَ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ أَلْهَمَهُ وعَلِيّاً وابْنَ مَسْعودٍ ﷺ لأنهُ رُوِيَ أنهما أشارا عليهِ بذلكَ.

ولِذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ الإمامَ إذا فَتَحَ قريةً مِنْ قُرَى أهلِ الحَرْبِ، فهو فيها بالخِيارِ؛ إنْ شاءَ قَسَمَها بينَ أهلِها، وَوَظَّفَ عليهمُ الخَراجَ، وإنْ شاءَ قَسَمَها بَينَ أهلِ العَسْكَرِ. وإنما كانَ ذلكَ لأنَّ المَقْصودَ مِنَ المُقاتَلَةِ أحدُ مَعْنَيَيْنِ.

إمّا تَوسيعُ أمكنةِ الإسلامِ [خوفاً][٣] أنْ تَضيقَ [وإمّا تَضييقُ][٤] المكانِ بهمْ [لِيَسْتَسْلِمَ أهلُ القُرى][٥] لدينِ اللهِ، وينقادوا لأمرِهِ[٦]، وينظُروا في حُجَجِهِ [فلا تَصيرُ][٧] مُقاتَلَتُهُمْ عُقوبةً لِكُفْرِهِمْ[٨]، بل لِما وَصَفْنا مِنَ المَعْنى، وهذا المَعْنى قد يُستَفادُ إذا وُظِّفَ[٩] عليهمُ الخراجُ.

ولو فَهِمَ بلالٌ ﷺ المَعْنى الذي لأجلِهِ[١٠] قَسَمَ رسولُ اللهِ ﷺ خَيبَرَ بَينَهُمْ لم يَقِسْ أمْرَ سَوادِ الكوفةِ عليهِ.

والمَعْنى مِنْ قِسْمَتِهِ ﷺ خَيبَرَ بَينَهُمْ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ المسلمينَ لمّا صُدّوا عنِ الحُدَيبِيَةِ بَشَّرَهُمُ اللهُ بِفَتْحٍ قريبٍ عِوَضاً عمّا نالَهُمْ في ما أصابَهُمْ.

وأمّا سَوادُ الكوفةِ فلم يكُنْ فيها شيءٌ مِنْ هذا المَعْنى، فلم يَجُزْ أنْ يكونَ أمْرُهُ مَقيساً عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ المُجاهِدينَ المُقاطِعينَ لأسبابِ عيشِهِمْ مِنَ الأموالِ والديارِ، أي لهمْ هذا الحقُّ الذي سَبَقَ وصفُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ لم يُخرِجوهُمْ مِنْ ديارِهِمْ في الحقيقةِ، ولكنهمْ ضَيَّقوا عليهمْ حتى خَرَجوا، فإذَنْ أُضيفَ الإخراجُ [إليهمْ إذْ][١١] كانوا أسباباً في خُروجِهِمْ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

فإبليسُ لم يَتَوَلَّ إخراجَهُما مِنَ الجنةِ، ولكنهُ حَرَّضَهُما على سَبَبِ خُروجِهِما[١٢]، فلم يَسْتَقِرّا بعدَهُ في ذلكَ المكانِ، فأُضيفَ الفِعْلُ إليهِ.

وقد وَصَفْنا هذهِ الأفعالَ إذا أُضيفَتْ إلى العِبادِ فإنما المَعْنى: ذلكَ بأسبابٍ[١٣] تكونُ منهمْ، لا حَقيقةُ تلكَ الأفعالِ. وما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى مِنْ ذلكَ فهو يَحْتَمِلُ الأمْرَينِ جميعاً: الحقيقةَ والسببَ في ذلكَ؛ لأجلِ أنَّ العبدَ لا يُمكِنُهُ أنْ يُقْدِرَ آخَرَ على فِعْلٍ في وَقْتِ فِعْلِهِ إلّا على السببِ. فأمّا ربُّ العالَمينَ فإنهُ قادرٌ على إقدارِ العبدِ على فِعْلٍ وَقْتَ فِعْلِه. فلذلكَ قُلْنا: إنهُ يجوزُ أنْ تُرادَ حقيقةُ الفِعْلِ في ما يُضافُ إلى اللهِ تعالى، وهو المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ يدلُّ على أنها كانَتْ لهمْ بمكةَ ديارٌ وأموالٌ ثم مَعَ هذا لم يُرْوَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ /٥٦٠ ـ ب/ رَدُّ شيءٍ مِنْ ديارِهِمْ عليهمْ بَعْدَ فَتْحِ مكةَ، ولا تَضمينُ أولئكَ شيئاً مِنْ أموالِهِمْ لِيُعْلَمَ أنَّ أهلَ الحربِ إذا غَلَبوا على أموالِ المُسْلِمينَ مَلَكوها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني أنهمْ هاجَروا لدينِهِمْ، وانْقَطَعوا عنْ أسبابِ عَيشِهِمْ مِنَ الأموالِ يَبْتَغونَ الرزقَ مِنَ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ دلَّ أنَّ هذا الحقَّ لِلمجاهدينَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهينَ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيعلم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو يضيق. (٥) في الأصل وم: ليستسلموا. (٦) في الأصل وم: الأمر. (٧) في الأصل وم: وليست. (٨) في الأصل وم: كفرهم. (٩) في الأصل وم: وظفت. (١٠) في الأصل وم: لأجل. (١١) في الأصل وم: إذا. (١٢) في الأصل وم: إتيانه. (١٣) الباء ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: يَنْصُرونَ رسولَ اللهِ ﷺ وذِكْرُ ﴿ٱللَّهَ﴾ صِلَةٌ.

والثاني: يَنْصُرون دينَ اللهِ، ويُطيعونَ رسولَهُ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يعني الذينَ أظْهَروا صِدْقَ الإيمانِ مِنْ قلوبِهِمْ بِهِجْرَتِهِمْ وسَعْيِهِمْ إلى ما يُزْلِفُهُمْ إلى اللهِ تعالى، ويُقَرِّبُهُمْ[1] إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ يعني الذينَ اتَّخَذوا دياراً واسعةً تَسَعُهُمْ والمُهاجرينَ، وهُمُ الأنصارُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي آمَنوا قَبْلَ هجرةِ هؤلاءِ لكي يأمَنَ هؤلاءِ المهاجرينَ مَنْ أحَبَّهُمْ، ولا يخافونَ شَرَّهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني مِنْ قَبْلِ الهجرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني أنَّ اللهَ تعالى ألْقى مَحَبَّتَهُ [في قلوبِهِمْ][2] حتى أنْزَلوا المُهاجرينَ دِيارَهُمْ، وأنْفَقوا عليهِمْ أموالَهُمْ ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا قَسَّمَ خَيبَرَ بَينَ المُهاجرينَ، وتَرَكَ الأنصارَ، ولم[3] يُقَسِّمْ بَينَهُمْ، لم يَجِدِ الأنصارُ في قُلوبِهِمْ حاجةً مِمّا أعْطَى المُهاجرينَ؛ يعني أنَّ اللهَ تعالى أغْنى قلوبَهُمْ حتى لا يُفَكِّروا في حاجةٍ ولا فَقْرِ البَتَّةَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المعنَى مِنَ الحاجةِ ههنا الغِلَّ والحَسَدَ؛ يعني أنَّ اللهَ تعالى طَهَّرَ قلوبَهُمْ حتى لم يجدوا في صدورِهِمْ حاجةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي يُؤْثِرونَ على أنفسِهِمْ في أملاكِهِمْ أنهمْ لا يَجِدونَ بما يَبْذُلونَ مِنْ حاجةٍ مِمّا يَمْلِكونَ، ويُؤْثِرونَ المُهاجرينَ على أنفسِهِمْ، ولو كانَ بهِمْ حاجةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ في طَبْعِ البَشَرِ مَحَبَّةَ المَحاسِنِ والمَنافِعِ والطَّلَبِ لها ويُبْغِضَ المَساوِئِ والمَضارِّ والهَرَبَ عنها. ثم إنهُ امْتَحَنَهُمْ بالإنفاقِ مِمّا يُحِبّونَ وحَمْلِ النفسِ على ما يَكْرَهونَ طَلَباً لِنَجاتِهِمْ وتَوَصُّلاً إلى ثوابِهِمْ. ثم تكونُ وقايةُ الأنفسِ مِنَ الشُّحِّ بوجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَمُنَّ اللهُ على عبدِهِ لِيَصيرَ ما هو غائبٌ عنهُ مِنَ الثوابِ في الأجلِ كالشاهدِ، فَيُخَفِّفَ عليهِ الإنفاقَ مِمّا يُحِبُّ، ويَصيرَ ذلكَ كالطَّبْعِ لهُ.

والثاني: يُوَفِّقُهُ اللهُ تعالى، ويَعْصِمُهُ، ويُلْهِمُهُ تَعظيمَ أمْرِهِ ونَهْيِهِ حتى يَقْهَرَ نفسَهُ، ويَحْمِلَها على الائتِمارِ بأمْرِ اللهِ تعالى والانْتِهاءِ عمّا نَهى عنهُ، وإنْ كانَ طَبْعُها على خِلافِ ذلكَ.

ثم إضافةُ الوقايةِ إلى نفسِهِ تَدُلُّ على أنهُ قد بَقِيَ في خزائنِهِ شيءٌ، لم يُؤْتِهِ عبدَهُ حتى يَصِفَ نفسَهُ بأنهُ بَقِيَ عندَهُ شُحُّ نفسِهِ، ولولا ذلكَ لم يكُنْ لِوَعْدِهِ بِوقايةِ نفسِهِ عنْ شُحِّها مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يعني الباقونَ في النعيمِ، والفلاحُ في الحقيقةِ، هو البقاءُ في النَّعيمِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية؛ قد عَلِمَ اللهُ تعالى أنهُ قد يكونُ في أمَّةِ محمدٍ ﷺ مَنْ يَلْعَنُ سَلَفَهُ حتى أمَرَهُمْ بالاسْتِغْفارِ لهمْ.

وفيهِ دلالةٌ على فَسادِ قولِ الرَّوافِضِ والخَوارجِ والمعتزلةِ:

لأنَّ الروافِضَ من قولِهِمْ: إنَّ القومَ لما وَلَّوُا الخلافةَ أبا بكرٍ رضي الله عنه كَفَروا، ومِنْ قولِ الخوارجِ: إنَّ علياً رضي الله عنه كَفَرَ بِقتالِهِ مُعاويةَ وأصحابَهُ. فقالتِ المعتزلةُ: إنَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الحَقِّ في القِتالِ خَرَجَ عنِ الإيمانِ.

ولو كانَ ما ارْتَكَبوا مِنَ الزَّلاتِ، يُكَفِّرُهُمْ، ويُخْرِجُهُمْ عنِ الإيمانِ لم يكُنْ لِلاسْتِغْفارِ لهمْ مَعْنًى، لأنَّ اللهَ تعالى نَهى

---

(١) في الأصل وم: ويقرب. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم.

عنِ الإِسْتِغْفارِ للمشركينَ. فإذَنْ أذِنَ ههنا بالإِسْتِغْفارِ لِيُبَيِّنَ[1] بهذا أنَّ ما ارْتَكَبوا مِنَ الذنوبِ لم يُخرِجْهُمْ مِنَ الإِيمانِ، ولأنهُ أبْقَى الأُخُوَّةَ في ما بَيْنَهُمْ مَعَ عِلْمِنا أنهُ لم يكُنْ بَينَ الآخَرينَ والأَوَّلينَ أُخُوَّةٌ إلّا في الدينِ، فلولا أنهمْ كانوا مؤمنينَ لم يكُنْ لإبْقاءِ الأُخوَّةِ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ، ولأنهُ قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولو كانَ ذلكَ يُخرِجُهُمْ مِنَ الإيمانِ لم يكُنْ لهذا الدعاءِ مَعْنًى، لأنَّ الواجبَ أنْ يكونَ في قلوبِ المؤمنينَ عداوةٌ للكفارِ ومَقْتُهُمْ.

فلمّا نَدَبَ، جَلَّ ثَناؤُهُ، في هذهِ الآيةِ إلى نَفْيِ الغِلِّ والحَسَدِ عنْ قُلوبِهِمْ بِتلكَ الدعوةِ ثَبَتَ أنهمْ كانوا مؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في الأمرِ بالإِسْتِغْفارِ دلالةٌ أنهمْ كانَتْ منهمْ ذنوبٌ يَسْتَوجِبونَ بها العقوبةَ لولا فَضْلُ اللهِ ومَغْفِرَتُهُ، وإنْ كانوا في ما يَتعاطَونَهُ مُجْتَهدينَ لِيُعْلَمَ أنهُ ليسَ كلُّ مجتهدٍ مُصيباً[2].

ثم قولُهُ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني عداوةً؛ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ المؤمنينَ الذين سَبَقوهُمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في كلِّ المؤمنينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرحمةُ مِنَ اللهِ تعالى فَضْلٌ منهُ على عبادِهِ وإحسانٌ إليهِمْ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] [إذْ أخبرَ][3] أنَّ رَحْمَتَهُ هِبَةٌ منهُ وإحسانٌ إلى عبدِهِ؟ واللهُ أعلَمُ.

ثم الإِسْتِغْفارُ في حالِ الحياةِ لهُ مَعْنيانِ:

أحَدُهما: طَلَبُ السببِ الذي إنْ جاءَهُ اسْتَوجَبَ المَغْفِرَةَ.

والثاني: حقيقةُ المَغْفِرةِ.

وفي حالِ الوفاةِ ليسَ إلّا طَلَبُ عَينِ المَغْفِرةِ.

فلمّا نَدَبَ، جَلَّ، وعلا، إلى الإِسْتِغْفارِ لهمْ بَعْدَ وفاتِهِمْ، وحالُ الإِسْتِغْفارِ بَعْدَ الوفاةِ على ما وَصَفْنا لا يَتَوَجَّهُ إلّا على حقيقةِ المَغْفِرةِ، ثَبَتَ أنَّ ذنوبَهُمْ لم تُخرِجْهُمْ [مِنَ الإيمانِ][4] لأنهُ لو كانَ مِنْ حُكْمِهِ، جَلَّ ثَناؤُهُ، ألا تَحِلَّ مَغْفِرَتُهُمْ، إذا ارْتَكَبوا الكبيرةَ، لم يَكُنْ في الأمْرِ بالإِسْتِغْفارِ لهمْ حِكْمةٌ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: إنهُ ليسَ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ما يَدُلُّ على أنهُ يَجْعَلُ في قلوبِهِمْ [غِلّاً][5] لأنهُ إذا قيلَ: لا تَفْعَلْ بفلانٍ[6] شيئاً لم يُفْهَمْ بِهِ أنهُ يَفْعَلُهُ إذا أحَبَّ.

ولكنْ يُجابُ عنْ هذا أنهُ ذَكَرَ اللهُ تعالى نصّاً في آيةٍ أُخرَى ما يَدُلُّ على جَعْلِ العداوةِ. ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فإنْ قالَ: تأويلُهُ أنهُ أغرَى[7] بينَهمُ العداوةَ[8] لا أنهُ جَعَلَها، قُلْنا: غَيرُ مُحْتَمَلٍ أنْ يَخْلُقَ اللهُ تعالى العداوةَ في قلوبِهِمْ مِنْ غَيرِ فِعْلٍ، يكونُ منهمْ بها. وإنْ كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ يَخْلُقُ هذهِ الأشياءَ وقْتَ فِعْلِ العبدِ لها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذهِ الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ حُجَّةَ رسالةِ محمدٍ ﷺ على المُنافقينَ في أنفسِهِمْ، لأنهمْ قالوا هذا القولَ سِرّاً منهمْ إلى أهلِ الكتابِ، لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُظهِروا مِثْلَ هذا القولِ بَينَ يَدَيِ المؤمنينَ، ولا كانَ الكفارُ يُخبِرونَ بهذا أحداً مِنَ المؤمنينَ.

فلمّا أخْبَرَ ما قالَ المنافقونَ ثَبَتَ أنهُ ما عَلِمَهُ إلّا عنِ الوَحْيِ والتَّنْزيلِ / ٥٦١ ـ أ/ وذلكَ عِلْمُ نُبُوَّتِهِ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) اللام ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: مصيب. (٣) في الأصل وم: فأخبر. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فلاناً. (٧) في الأصل وم: إلى. (٨) في الأصل وم: وبينها.

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونوا قالوا لهمْ هذا على أنْ يكونوا[1] أتباعَهُمْ في القتالِ.

والثاني: أنهمْ قالوا ذلكَ لأهلِ الكتابِ على حُسْبانٍ منهمْ أنَّ الرسولَ ﷺ إذا عَلِمَ بِحالِ هؤلاءِ لم يُخرِجْهُمْ مِنَ المدينةِ خَوفاً أنْ يُقالَ: أخرَجَ أصحابَهُ، وإذا لم يُخرِجْ أولئكَ لم يُخرِجْ أهلَ الكتابِ، ولم يُقاتِلوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ يعني لا نُنْظِرُ أحداً فيكُمْ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ يَجوزُ[2] أنْ يكونوا وَعَدوا نَصْرَهُمْ وهمْ[3] في قُرًى مُحَصَّنَةٍ. ثم أخبَرَ أنهمْ، وإنْ نَصَروهُمْ، ثم انْهَزَموا، هَرَبوا، وانصَرَفوا[4] وتَوَلَّوا، ولم يَنْصُروهُمْ بعدَ ذلكَ أبداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ يَشْهَدُ عليهِمْ بالكَذِبِ، والكَذِبُ إنما يدخُلُ في الأخبارِ؟ وقولُهُمُ الذي قالوا إنما هو وعدٌ منهمْ، فَحَقُّهُ أنْ يُقالَ: إنهمْ لَمُخلِفو الوَعْدِ.

وبِمِثْلِ هذهِ الآيةِ يَحتَجُّ الخوارجُ في تكفيرِ مَنْ أذْنَبَ ذَنْباً؛ وذلكَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى فقدِ اعْتَقَدَ ألّا يَعْصِيَهُ، فإذا عصاهُ تَبَيَّنَ بِعِصْيانِهِ كَذِبٌ في اعْتِقادِهِ، فَكَفَرَ لهذا المَعْنَى.

ومِنْ جوابِنا عَنْ هذا: أنَّ قولَ المُنافِقينَ لأهلِ الكتابِ إخبارٌ منهمْ عنْ مُوالاتِهِمْ إياهُمْ، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ كاذبونَ في ما أخبَروا عنِ المُوالاةِ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ في هذهِ الآيةِ حُجَّةُ رسالتِهِ على الفريقَينِ جميعاً؛ وذلكَ أنَّ هذا خَبَرٌ عنِ الغائبِ؛ وذلكَ لا يوصِلُ إلى عِلْمِهِ إلّا بالتعليمِ، ولم يكُنِ النَّبِيُّ ﷺ اختَلَفَ إلى أحدٍ يُخبِرُهُ، ولمْ[5] يَلْتَمِسْ شيئاً منْ أحدٍ مِنَ البَشَرِ. فإذا أخبَرَ عمّا يَحْدُثُ وعمّا هو غائبٌ ثَبَتَ أنهُ ما قالَ إلّا عنِ الرسالةِ والوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ويجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى ذَكَّرَ المؤمنينَ بهذهِ الآياتِ على ما لَقِيَ الرسولُ ﷺ مِمَّنْ كانَ الواجبُ على ما عليهِ كانَتْ عادتُهُمُ الإحسانَ إليهِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ مِنْ عادةِ العربِ المَعونَةُ والنُّصْرَةُ لِمَنْ قارَبَهُمْ في النسبِ والقبيلةِ، وإنْ كانَ ظالماً.

ثم إنَّ اللهَ ﷻ أرسلَ محمداً ﷺ مِنْ بينِ أظْهُرِهِمْ مِنْ قريشٍ، فأظْهَروا لهُ مِنَ العداوةِ ما أظْهَروا حتى هَمُّوا بقتلِهِ، وجَعَلَ محمداً ﷺ حينَ أرسلَهُ حُجَّةً يُظْهِرُ لليهودِ والنصارى وجميعِ أهلِ ما ذُكِرَ في كتابِهِمْ مِنْ بَعْثِهِ وصِفَتِهِ، فَقابَلوهُ بذلكَ ما قابَلوا مِنْ سوءِ الصنيعِ وإظهارِ العَداوةِ. وكانَ هذا كلُّهُ، واللهُ أعلَمُ، حُجَّةً وعلامةً يُعْلَمُ بها أنَّ رسالَتَهُ ﷺ [لم][6] تَظْهَرْ بِمُعاونةِ أحدٍ بل بِنَصْرِ اللهِ وفضلِهِ وتأييدِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ رهبةُ هؤلاءِ في صدورِهِمْ على التحقيقِ، ويجوزُ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ.

فأمّا وَجْهُ التَّمْثيلِ فهو ما قالَ: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] فأخبَرَ أنهمْ يَعْتَذِرونَ إليهِمْ بالحَلْفِ، فيجوزُ أنْ تكونَ معامَلَتُهُمْ هذهِ [في][7] التمثيلِ معاملَةَ مَنْ يَرْهَبُهُمْ. فَسَمَّى ذلكَ رَهْبَةً في صدورِهِمْ[8]. وهذا نَحْوُ قولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢ و٣] يَعني: جَمْعَ مالَهُ [جَمْعَ مَنْ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ﴾][9] ﴿أَخْلَدَهُ﴾ فكذلكَ الأوَّلُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ على التَّحْقيقِ، ولذلكَ أوجُهٌ[10] مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوالاةَ لِكلِّ فريقٍ، وكانَ عندَهُمْ أنَّ اللهَ تعالى وَلِيُّ أحدِ الفريقَينِ لا مَحالَةَ، وإذا نَجا

---

(١) في الأصل وم: يتكبر. (٢) في الأصل وم: من. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: نصروا. (٥) في الأصل وم: ولا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قلوبهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: أوجهاً.

أحَدُ الفَريقَينِ نَجوا هُمْ. فكأنهمْ على هذا التأويلِ كانوا يَرْهَبونَ الخَلْقَ جميعاً، لا [يَخُصُّ بها][1] المؤمنونَ، وكانوا لا يرهَبونَ اللهَ لأنهمْ أمِنوا ناحِيَتَهُ مِنَ الوجهِ الذي وصَفْنا.

[والثاني][2]: يجوزُ أنْ تكونَ رهبَتُهُمْ مِنَ المؤمنينَ خاصَّةً؛ وذلكَ أنَّ أهلَ النِّفاقِ إنما كانوا مِنْ أحدِ الصِّنفَينِ:

إمّا إنْ كانوا دَهْرِيَّةً، فنافَقوا، وإمّا إنْ كانوا أهلَ كتابٍ، فَنافَقوا.

فإذا كانوا دَهْرِيَّةً فكانوا لا يَرْهَبونَ اللهَ تعالى لِما كانوا غَيرَ مُقِرِّينَ بالصانعِ، وإنْ كانوا أهلَ كتابٍ فإنهمْ قَدْ أمِنوا أيضاً لِما كانوا يُضيفونَ مِنْ قولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وإذا سَقَطَتِ الرَّهْبةُ مِنْ كِلا الجانِبَينِ مِنَ اللهِ تعالى حَصَلَتِ الرَّهْبةُ مِنَ المؤمنينَ خاصَّةً، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][3] يجوزُ أنْ يكونَ تفسيرُ قولِهِ: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ وذلكَ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ لا يَفْقَهونَ أنَّ البَلايا التي في الدنيا ونَعيمَها تذكيرٌ بِبلايا الآخِرَةِ ونَعيمِها، وكانوا يَرَونَ أنها جُعِلَتْ لأنفسِها؛ وإذا كانَ هذا وَهْمَهُمْ وحُسْبانَهُمْ لم يَرْهَبوا مِنَ اللهِ تعالى.

والثاني: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، بل كانَتْ رَهْبَتُهُمْ مِمَّنْ كانوا يَأْمُلونَ منهمُ المَنافِعَ، ويَحْذَرونَ مَضارَّهُمْ، فلا يَرْهَبونَ مِنَ اللهِ تعالى.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: إنهُ لا أحَدَ مِنْ أهلِ الإسلامِ إلّا ورَهْبَتُهُ مِنَ الناسِ أشَدُّ مِنْ رَهْبَتِهِ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنكَ تَرَى الرجلَ يَمْتَنِعُ عنِ الزَّلَّةِ عندَ اطِّلاعِ الناسِ عليهِ ما لا يَمْتَنِعُ عنْ كثيرٍ مِنَ الزَّلّاتِ في ما بَينَهُ وبَينَ اللهِ تعالى. والجوابُ عنْ هذا [في وَجْهَينِ][4]:

أحَدُهما: أنهُ ليسَ بإزاءِ الخوفِ مِنَ الإنسانِ رجاءٌ يَرْجُوهُ، وبإزاءِ رَهْبَتِهِ مِنَ اللهِ تعالى رجاءٌ يَرْجُوهُ مِنْ رَحْمَتِهِ وإحسانِهِ. فَيجوزُ أنْ يكونَ الرجاءُ مِنْ رَهْبَةِ اللهِ ورَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ [لا][5] يَغْلِبُ عليهِ، فَيَقْتَرِفُ الذنوبَ، ويَرْتَكِبُها[6].

والوجْهُ الثاني: إذا كانَ في ما يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذنوبِ شِرْكٌ[7] فليسَ يهابُهُمْ، وإنما خَوفُهُ مِنْ قومٍ، فيهمْ سِمَةُ الصَّلاحِ وأمارةُ النَّصْرِ لِدينِ اللهِ تعالى، ليسَ مِنْ نفسِ المَخْلوقينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ قولُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾ أي لا يُقاتِلُكُمْ أهلُ النِّفاقِ وأهلُ الكتابِ جميعاً معاً، وإنهمْ لَيسوا بِفاعِلينَ ما وَعَدوا لأهلِ الكتابِ مِنَ النَّصْرِ والقتالِ.

[واحتَمَلَ أنْ يكونَ هذا اسْتِثْناءً عنِ القتالِ][8] واحتَمَلَ أنْ يكونَ اسْتِثْناءً عنِ الوَعْدِ الذي وَعَدوا لأهلِ الكتابِ. فإنْ كانَ عنِ القِتالِ فهو يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ لا يُقاتلونَ إلّا أنْ يكونوا في قُرًى وحُصونٍ أو مِنْ وراءِ جُدُرٍ، لا يَعْلَمُ بهمْ أهلُ الإسلامِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ مِنَ الوَجْهِ الثاني فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحَدُهما: أنهمْ لا يُوفُونَ ما وَعَدوا مِنَ النَّصْرِ في القتالِ لأهلِ الكتابِ، ولكنهمْ يَلْتَجِئونَ إلى قُرًى مُحَصَّنَةٍ.

ألا تَرَى ما أخْبَرَ اللهُ تعالى فيهمْ في ناحيةِ المسلمينَ: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾؟ [الأحزاب: ٢٠] فأخْبَرَ أنهمْ قد أظْهَروا المُوالاةَ للمسلمينَ كما أظْهَروا لأهلِ الكتابِ إلى أنْ جاءَ القتالُ: الْتَجَؤوا إلى مكانٍ، يَسْتَمِعونَ مِنْ أخبارِهِمْ. فَعلَى ذلكَ النَّحْوِ يجوزُ أنْ يكونَ أهلُ الكتابِ.

والوَجْهُ الثاني: أنهمْ لا يُقاتِلونَ، ولكنهمْ يَدْخُلونَ في قُرًى مُحَصَّنَةٍ، يَتَرَبَّصونَ لِمَنْ يكونُ الظَّفَرُ والعاقبةُ كما أخبَرَ عنهمْ

---

(١) في الأصل وم: أن يختص به. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وجهان. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ويرتكبه. (٧) في الأصل وم: شركاً. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

في آيةٍ أُخرى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ / ٥٦١ ـ ب/ نَصِيبٌ قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] فأخبرَ اللهُ تعالى أنهمْ يَتَربَّصونَ العاقبةَ، فالتَجؤوا همْ إلى قُرًى مُحَصَّنةٍ؛ يجوزُ أنْ يكونَ بهذا التأويلِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿بَأْسُهُم﴾ يعني قوتُهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ما لم يَرَوا [عِداءً ظاهراً][1].

[والثاني][2]: يقولُ: ﴿بَأْسُهُم﴾ شديدٌ ما دامَ القِتالُ بَينَهُمْ، لأنهُ ليسَ فيهِمْ مَنْ أُكرِمَ [بالنَّصْرِ][3] بالرُّعْبِ مَسيرةَ شهرَينِ[4]. فإذا أُكرِمَ بالرُّعْبِ هذا المِقدارَ مِنَ المَسيرِ فلا يُحرَمُ ذلكَ في أهلِ قَرْيَتِهِ.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ التأويلَ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ لأنَّ هِمَّةَ المُنافقِينَ سلامةُ الأنفُسِ وراحةُ الأبدانِ، وهِمَّةَ أهلِ الكتابِ الذَّبُّ عنِ المَذْهَبِ والسَّعْيُ في إقامتِهِ.

فإذا اختَلَفَتْ هِمَّتُهُمْ ومَقاصِدُهُمْ تَشَتَّتَتْ قلوبُهُمْ؛ وذلكَ مَعْنى قولِهِ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣] يعني في الهِمَمِ والقلوبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ يَحتَمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ.

أحَدُها: أنهمْ لا يَعْقِلونَ حَقَّ الوَعْدِ والوَعيدِ.

والثاني: أنهمْ لا يَنْتَفِعونَ بما يَعْقِلونَ.

والثالثُ: أنهمْ لا يَعْقِلونَ لِمَنْ تكونُ لهُ العاقبةُ.

وقد وَصَفْنا أنَّ عادَتَهُمُ التَّرَبُّصُ لِمَنْ يكونُ الظَّفَرُ والعاقِبَةُ؛ فإذا شُبِّهَتْ عليهِمُ العاقبةُ، ولم يَفْعَلوها، لم يُوالُوا واحداً مِنَ الفَريقَينِ في الظاهِرِ والباطِنِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ الآية. يجوزُ أنْ يكونَ في هذا إضمارُ مَثَلٍ آخَرَ؛ كأنهُ يقولُ: مَثَلُ هؤلاءِ الكفارِ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١]. يعني مَثَلُ محمدٍ ﷺ كَمَثَلِ هؤلاءِ الكفارِ على إضمارِ مَثَلٍ آخَرَ.

ثم التَّمْثيلُ وكَيفِيَّتُهُ يَحتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: أنْ يقولَ: مَثَلُ هؤلاءِ الكفارِ الذينَ أساؤوا [صُحْبَةَ][5] رسولِهِ كَمَثَلِ الكفارِ الذينَ أساؤوا [صُحْبَةَ][6] الرسُلِ مِنْ قَبْلِهِ؛ كانَ قريباً أنْ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ.

والوجهُ الثاني: أنْ يقولَ: مَثَلُ أهلِ المدينةِ مِنَ الكفارِ حينَ هَمُّوا بإخراجِ الرسولِ مِنَ المدينةِ كَمَثَلِ أهلِ مكةَ حينَ أخرَجوا الرسولَ ﷺ مِنْ مكةَ، وكانَ قريباً حِينَ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ مِنَ الأسْرِ والقَتْلِ.

والدليلُ على أنَّ كُفّارَ المدينةِ هَمُّوا بإخراجِ الرسولِ ﷺ قولُهُ[7] تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦].

[والوجهُ الثالثُ:][8] يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَخصيصاً لِقَريةٍ أو قَبيلةٍ؛ ووجهُ ذلكَ أنْ يقولَ: مَثَلُ بَني قُرَيظةَ كَمَثَلِ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وهُمْ بَنو[9] النَّضيرِ، وإنْ كانوا قريباً أنْ ذاقوا وَبالَ أمْرِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أعداء ظاهرة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إشارة إلى قوله «نصرت بالرعب مسيرة شهرين» [الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦]. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: وقوله. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: بني.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا إخبارٌ أنهمْ يَموتونَ على الكُفرِ، وفيهِ دلالةُ رسالتِهِ ﷺ حينَ[1] أخبَرَ عنِ الغيبِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ فكذلكَ المُنافِقونَ يُظْهِرونَ المُوالاةَ والنصرَ، فإذا جاءَ القِتالُ امْتَنَعوا، وتبرَّؤوا منهمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ في الآخِرةِ حينَ[2] يقولُ: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ في الدنيا، وهو قولُهُ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ظاهرٌ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الأصلُ إذا ذُكِرَتْ حالٌ بَينَ العبدِ وبَينَ سَيِّدِهِ لم يَكُنْ بدٌّ مِنْ إضمارٍ يدخُلُ في ذلكَ.

مثالُهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [النحل: ١٢٨] يَعني أنهُ معهمْ في النَّصرِ والمَعونَةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] في التَّوفيقِ والوِلايةِ. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأنهُ لا يَحتَمِلُ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ حتى يكونَ مَعَهُمْ في التَّقْوى؛ إذْ ظاهِرُ اللَّفْظِ يَقتَضي هذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أي في الصِّدقِ.

وإذا ثَبَتَ فيهِ الإضمارُ كانَ الوجهُ في ذلكَ أحدَ معانٍ:

إمّا أنْ يقولَ: اتَّقُوا حقَّ اللهِ تعالى: أنْ تُضَيِّعوهُ، أوِ: اتَّقُوا حَدَّهُ أنْ تَعَدَّوهُ، وتُبْطِلوهُ، أوِ: اتَّقُوا سُخطَهُ، أوِ اتَّقُوا الأسبابَ التي تَستَوجِبونَ بها مَقْتَ اللهِ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يُرادَ مِنَ التَّقْوى في هذهِ الآيةِ أوامِرُهُ ونَواهِيهُ على ما وَصَفْنا أنَّ التَّقْوى إذا أُطْلِقَ جازَ أنْ يُرادَ بهِ الأوامرُ والنَّواهي، وإذا ذُكِرَ مُقابَلةَ أمْرٍ كانَ المَعْنى منه أوامِرَهُ ونَواهِيَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ قالَ: مَنْ عَمِلَ بما أُمِرَ في هذهِ الآيةِ سَلِمَ مِنْ تَبِعاتِ الآخِرَةِ، لأنهُ إذا شَعَرَ قَلْبُهُ وقتَ فِعلِهِ أنَّ الذي يَفْعَلُهُ تَقْدِمَةٌ لِغَدٍ امْتَنَعَ عنِ ارْتِكابِ ما يَجِبُ أنْ يَسْتَحْيِيَ منهُ، أو يَحْزَنَ عليهِ في ذلكَ الوقتِ، وأتَى بما يُسَرُّ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى الآيةِ على النَّظَرِ لِما قَدَّمَتْهُ نفسُهُ لِلْغدِ؛ وذلكَ أنهُ إذا تَذَكَّرَ، فَنَظَرَ في ما قَدَّمَتْ نفسُهُ لِلغَدِ؛ وذلكَ أنهُ دَعاهُ إلى أحَدِ أمْرَينِ: إمّا إلى التوبةِ عنِ السَّيِّئَةِ التي قَدَّمَها، وإمّا[3] إلى الشُّكرِ على الحسنةِ التي يَتَعاطاها. وكلُّ ذلكَ منهُ زيادةٌ في الخَيرِ، فكانَ الواجبُ ألّا يَغْفَلَ المَرْءُ عَنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على المُسْتَأنَفِ مِنَ الأفعالِ أنهُ يَنْظُرُ في ما يُريدُ أنْ يُقَدِّمَهُ لِغَدٍ؛ فإنْ كانَتْ عاقِبَتُهُ الهلاكَ انْتَهى عنهُ، وإنْ كانَتْ عاقِبَتُهُ النجاةَ مَضَى إليهِ، وأتَى بهِ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ الاتِّقاءَ عنْ تَرْكِ النَّظَرِ لِما تُقَدِّمُهُ نفسٌ لِغَدٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ذِكْرُ قولِهِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ مَرَّةً أُخرى، والآيةُ واحدةٌ، يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الأوَّلِ: أنِ اتَّقُوا مُخالَفَةَ اللهِ في أوامِرِهِ ونواهيهِ، ومِنَ[4] الثاني: [أنِ][5] اتَّقُوا سُخطَ اللهِ وعُقوبَتَهُ.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنهُ خُرِّجَ على[1] التّكرارِ على ما جَرَتِ العادةُ في الكلامِ في التّكريرِ عندَ الوعيدِ على التّأكيدِ كقولِهِ تعالى: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وكقولِهِ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤ و٣٥] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيهِ تَحريضٌ على المُراقبةِ والتَّيقُّظِ وَقتَ فِعْلِهِ[2]، لأنَّ مَنْ عَلِمَ وَقتَ فِعْلِهِ أنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما يَرْتَكِبُهُ مِنَ الذنوبِ، ويُقَرِّبُهُ مِنَ الشرورِ، امْتَنَعَ عنها، [وَزَجَرَ نفسَهُ][3].

وقالوا: في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وَعيدٌ في[4] أربعةِ أوجُهٍ:

أحدُها: في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ والثاني: في قولِهِ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ والثالثُ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ [والرابعُ: في قولِهِ تعالى:][5] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذِكْرُ هذهِ المواعيدِ [في الكَفَرَةِ خَرَجَ بعدَ][6] ما خاطَبَ المؤمنينَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فكانَ الوعيدُ في المؤمنينَ أكثَرَ مِنَ الوعيدِ في الكَفَرَةِ. لكنَّ المؤمنينَ تَوَعَّدَهُمْ عنْ ما هي مُعَدَّةٌ للكافرينَ لئلا يَعْمَلوا عملاً / ٥٦٢ ـ أ/ يَسْتَوجِبونَ بهِ[7] ما أُعِدَّ للكافرينَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمّى الآخِرَةَ باسْمِ الغَدِ لِسُرْعَةِ مَجيئِهِ، وسَمّى الدنيا بالأمسِ لِسُرْعَةِ فَنائِها، وهو كقولِهِ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] فَيُذَكِّرُهُمْ، ويَعِظُهُمْ بهذهِ الآيةِ لِيَتَفَكَّرَ كُلُّ أحدٍ في نفسِهِ ما بِهِ خُلِقَ: لِلْعَبَثِ؟ أمْ خُلِقَ لأمْرٍ عظيمٍ على ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ قالَ بعضُ المُفَسِّرينَ: ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ أي نَسُوا العَمَلَ للهِ، والنِّسيانُ، هو التَّرْكُ، أي تَرَكوا العَمَلَ الواجِبَ للهِ تعالى ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خَذَلَهُمُ اللهُ تعالى بِما نَسُوا.

ثم الوجهُ عندَنا في الآيةِ أنْ[8] ليسَ أحدٌ مِنَ البَشَرِ يَعْمَلُ عملاً إلا، وهو يَأْمُلُ بذلكَ نَفْعاً لِنَفْسِهِ؛ إذْ مَنْ لا يَعْمَلُ لِلنَّفعِ فهو غائبٌ في الشاهدِ في ذلكَ العَمَلِ.

فهؤلاءِ لمّا لم يَأتَمِروا بأمْرِ اللهِ تعالى، ولم يُطيعوا، وتَرَكوا العَمَلَ [لَهُ، صارَ][9] تَرْكُهُمُ العَمَلَ للهِ، والعَمَلُ لهُ، عملاً[10] لأنفسِهِمْ؛ فكأنهُ قالَ: نَسُوا [أنفُسَهُمْ، فصاروا][11] مَنْسِيِّينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي خَلَقَ فِعْلَ النِّسيانِ والتَّرْكِ فيهِمْ، أضافَ اختيارَ النِّسيانِ إليهِمْ، ثم أضافَ الإنساءَ إلى نفسِهِ، وأثْبَتَ فِعْلَهُ فيهِ، وليسَ هذا على أنْ تَقَدَّمَ منهمْ فِعْلُ النِّسيانِ، ثم هو أنْساهُمْ بَعْدَ ذلكَ، لكنْ على خَلْقِ ذلكَ فيهمْ وقتَ ما اختاروا ذلكَ الفِعْلَ، وهو كقولِهِمْ: هداهُ اللهُ تعالى، فاهْتَدى، واهْتَدى، فَهَداهُ اللهُ. فذلكَ كلُّهُ في وقتٍ واحدٍ.

فكذلكَ هذا في الخِذْلانِ والنِّسيانِ لمّا اختارَ هو فِعْلَ النِّسيانِ خَلَقَ اللهُ تعالى ذلك النِّسيانَ فيهِ كما خَلَقَ الهِدايةَ والكُفْرَ [فيهِ][12] عندَ اختيارِهِ. ولا يجوزُ أنْ يُحْمَلَ ذلكَ على تَقَدُّمِ بعضٍ على بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ إذْ قولُهُ تعالى: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ في قولِهِ ﴿نَسُوا ٱللَّهَ﴾ إذِ العَمَلُ للهِ، هو العَمَلُ لأنفُسِهِمْ [والعَمَلُ لأنفسِهِمْ][13] هو العَمَلُ للذي أُريدَ بِهِ وَجهُ اللهِ.

فَلِذلكَ قُلْنا: إنَّ كلَّ واحدٍ منهما لِما في الآخِرَةِ.

---

(١) من م، في الأصل: عن. (٢) من م، في الأصل: فعل. (٣) في الأصل وم: وازدجر. (٤) في الأصل وم: من. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: خرج، في م: خرج بعد. (٧) في الأصل وم: بذلك. (٨) من م، في الأصل: أي. (٩) من م، في الأصل: لصار. (١٠) في الأصل وم: عمل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنهمْ لمّا تَركوا طاعةَ اللهِ، خَذَلَهُمُ[1] اللهُ تعالى بِتَرْكِهِمْ أمْرَ اللهِ وتَرْكِهِمْ[2] أنفُسَهُمْ لهمْ، ولم يُوَفِّقْهُمْ للخيراتِ والطاعاتِ، وهذا مِنْ أشَدِّ العقوباتِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ أنْ يُجازِيَهُمْ في الآخِرةِ جَزاءَ ما عَمِلوا بأنْ تَرَكَهُمْ في الآخِرةِ في العذابِ الدائِمِ، فيكونُ ذلكَ جَزاءً لهمْ بِما عَمِلوا في الدنيا وبِما تركوا [مِنَ الإيمانِ][3] باللهِ تعالى.

وهذانِ التأويلانِ يَرْجِعانِ إلى ما ذَكَرَ مِنَ الخِذْلانِ في ما فَعَلوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فالفِسْقُ، هو الخُروجُ عنْ أمْرِ اللهِ تعالى.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أيِ الناجونَ، والفَوزُ هو الظَّفَرُ بالحاجةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ألّا يَسْتَوُوا في الدنيا، أو ألّا يَسْتَوُوا في الآخِرَةِ.

فإنْ كانَ على الأوّلِ فَمَعْناهُ: لا يَسْتَوِي عَمَلُ أهلِ الجنةِ [في الدنيا][4] في العقولِ وعَمَلُ[5] أهلِ [النارِ][6] بالذي تَسْتَقْبِحُهُ العقولُ.

وأمّا أفعالُ أهلِ الجنةِ [فهي][7] الداعيةُ إليها بالتي تَسْتَحْسِنُها العقولُ، لأنَّ عَمَلَ هؤلاءِ بالذي ظَهَرَ بالبراهينِ والحُجَجِ، وليسَ لِعَمَلِ أولئكَ بَراهينُ. وما أُقيمَ بالبراهينِ والحُجَجِ فهو في العقولِ أحْسَنُ مِنَ الذي لا بُرْهانَ عليهِ، وكذلكَ كلُّ عَمَلٍ يَسْتَحِقُّ صاحِبُهُ عليهِ الثوابَ فهو في العقولِ مُسْتَحْسَنٌ، وما يَسْتَحِقُّ صاحِبُهُ عليهِ العقابَ فهو في العقولِ مُسْتَقْبَحٌ، فلم يَسْتَوِيا.

وأمّا الوجهُ الثاني: فلا يَسْتَوِي جَزاءُ أهلِ النارِ وجزاءُ أهلِ الجنةِ؛ إذْ في الجنةِ النعيمُ الدائمُ، وفي النارِ الشِّدَّةُ والنِّقْمَةُ الدائمةُ فلم يَسْتَوِيا؛ يُذَكِّرُهُمُ اللهُ تعالى هذا لِيَنْتَهُوا عنْ غَفْلَتِهِمْ، ويَعْمَلُوا للهِ تعالى، حتى يَسْتَوجِبوا بِهِ[8] الثوابَ في الآخِرَةِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الآية: اختَلَفَ الناسُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ على التَّمْثيلِ، وهي على التَّنْبيهِ والتَّذْكيرِ، وذهبوا في ذلكَ إلى أنَّ العَرَبَ إذا اسْتَقْبَلَهُمْ أمرٌ، وأرادوا أنْ يَصِفوهُ بالعِظَمِ والشِّدَّةِ، كانوا يَضْرِبونَ الأمثالَ بما يُعَظِّمُ ذلكَ عندَهُمْ وصْفُهُ، لم يكونوا[9] يُريدونَ بهِ الحقيقةَ في ذلكَ، وهو كقولِهِمْ عندَ شِدَّةِ الأمْرِ: أظْلَمَ عليَّ ما بَينَ السماءِ والأرضِ، وكقولِهِمْ: ضاقَتْ عليَّ الأرضُ بِرُحْبِها، وكما وَصَفَ اللهُ تعالى مِنْ أمْرِ لوطٍ عليه السلام: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧].

فهذا القولُ مِنَ العَرَبِ إنما كانَ على التَّمْثيلِ في ما يُريدونَ أنْ يَصِفوا الشيءَ [بهِ][10] فغايَتُهُ لا على الحَقيقةِ، لأنهُ معلومٌ أنَّ الدنيا عليهِ كما كانَتْ لم تَتَغيَّرْ، وكذلكَ لم يُظْلِمْ عليهِ ذلكَ. لكنهمْ تكلّموا على التَّمْثيلِ مِنْ شِدَّةِ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ الأمْرِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يقولُ: لو كانَتْ هذهِ الحُجَجُ أُنزِلَتْ على جَبَلٍ معَ صلابَتِهِ وشِدَّتِهِ لَخَضَعَ للهِ تعالى، وانْصَدَعَ مِنْ خَشْيَتِهِ على وجْهِ التَّمْثيلِ. لكنَّ قلوبَ هؤلاءِ أقْسى منهُ حينَ[11] لم تَخْضَعْ، ولم تَخْشَعْ.

وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] إذِ الحِجارةُ قد تكونُ فيها مَنافِعُ نَحْوُ خُروجِ الماءِ

---

(١) في الأصل وم: فخذلهم. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بها. (٩) في الأصل وم: يكن. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: حيث.

وغيرِهِ. فأمّا قلوبُ هؤلاءِ الكَفَرةِ فليسَ فيها شيءٌ مِنَ المَنافِعِ، بل هي قاسيَةٌ، لا تَخشَعُ، ولا تَتَصدَّعُ. وعلى ذلكَ حَمَلوا قولَهُ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] على التَّمثيلِ ليسَ على حقيقةِ ذلكَ.

وقالَ قائلونَ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [إنهُ على][1] حقيقةِ ذلكَ الفِعْلِ منهُ، وهو الإنصِداعُ والخُشوعُ، وكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠].

فَمعناهُ: لو كانَ نزولُ هذا القرآنِ وما فيهِ مِنَ الأحكامِ والأماناتِ التي أوجَبَ على البَشَرِ على الجبلِ، وكانَ هو بحيثُ يَملِكُ قَبولَ ذلكَ باختيارِهِ لِقيامِ شرائطِهِ لكانَ هو يَفزَعُ، ويَخضَعُ، ويَتصدَّعُ، مِنْ خَشيَةِ اللهِ تعالى، وكانَ لا يَقبَلُ مَخافَةَ ألّا يُمكِنَهُ أداءُ ما لَزِمَ بِنُزولِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] فيقولُ: مَعْناهُ: لو أنْزَلْنا هذهِ الأماناتِ التي في هذا القرآنِ ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ إذِ الأماناتُ التي في هذا القرآنِ ممّا قد تَلْزَمُ المَرْءَ [ولا يُمكِنُهُ][2] أداؤُها كلُّها، لأنَّ الأماناتِ ممّا يَكْثُرُ عَدُّها فَضلاً عنْ [ألّا يُمكِنَهُ][3] أداؤُها.

فَعَلَى هذا التأويلِ يُخرَّجُ على حقيقةِ التَّصدُّعِ: أنْ لو أُنزِلَ عليهِ مع عَظَمَتِهِ وصلابَتِهِ [لَانصَدَعَ. فَعَلَى هذا تَنبيهٌ لِلْخَلْقِ وتذكيرٌ لهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: في هذهِ الآيةِ يُذَكِّرُ الرسولَ ﷺ مِنَّتَهُ عليهِ وعلى جميعِ الرسلِ: لولا فَضلُ اللهِ ومِنَّتُهُ على الرسلِ لكانَ لا يُطيقُ][4] أحدٌ مِنَ الرسلِ حَمْلَ ما في الكُتُبِ ولا أداءَ ما فرضَ [اللهُ عليهِمْ مِنْ أداءِ الرسالةِ، لكنهُ مَنَّ عليهمْ أنْ يَسَّرَ عليهمْ ذلكَ حتى قاموا بذلكَ كلِّهِ، فهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] [وقولِهِ في مَواضِعَ أُخَرَ][5] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[6] [القمر: ١٧ و. . .] فَيَسَّرَ عليهِمْ، وثَقُلَ العملُ بما فيهِ؛ فيقولونَ: كذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لِثِقَلِ ما فيهِ[7]. لكنهُ [مَنَّ][8] عليكَ، ويَسَّرَ ذِكْرَهُ عليكَ، وَوَفَّقَكَ بِتَبليغِ ما فيهِ إلى أهلِهِ.

وقالَ قائلونَ: إنَّ اللهَ تعالى لمّا أرادَ أنْ يُنْزِلَ التوراةَ على موسى ﷺ وكانَتْ في لوحٍ مِنْ زَبَرْجَدٍ حمراءَ أمَرَ الملائكةَ أنْ يَحمِلوها، فلم يُطيقوا حَمْلَها، ثم أمَرَهُمْ أنْ يَحمِلوا كلَّ حَرْفٍ منها، فلم يُطيقوا ذلكَ، فَخَفَّفَ اللهُ تعالى على موسى ﷺ حتى حَمَلَ ذلكَ.

فكذلكَ ذُكِرَ ذلكَ في عيسى وداوودَ ﷺ ثم خَفَّفَ اللهُ تعالى ذلكَ على الأنبياءِ/ ٥٦٢ ـ ب/ ﷺ.

فكأنهُ يقولُ لرسولِهِ ﷺ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ كذا، لكنهُ خَفَّفَ ذلكَ عليكَ كما خَفَّفَ على الأنبياءِ مِنْ قبلِكَ. وإليهِ يَذهبُ الكلبيُّ.

ولكنْ إنْ صَحَّ هذا الخَبَرُ فإنَّ ذلكَ الثِّقَلَ لم يَكُنْ في تلكَ الكتابةِ التي في الألواحِ، لكنَّ ذلكَ في ما يَلْزَمُهُمْ مِنَ العَمَلِ بذلكَ مِنْ أداءِ الأماناتِ وغيرِها، لأنهُ تعالى أخبَرَ أنهُ لو كانَ أنْزَلَ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وقالَ في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢].

ثم كانَتِ هذهِ الألواحُ التي احتَمَلَتْها الأرضُ، وأمكَنَ لِموسى ﷺ [حَمْلُها][9] فكذلكَ هذا القرآنُ كلُّهُ والتوراةُ والإنجيلُ والزبورُ ممّا قد يَحْتَمِلُ [ذلكَ][10] حقيقةً، ويُمكِنُ كتابتُهُ في [قَلْبِ تلكَ][11] الألواحِ ثَبَتَ أنَّ المُرادَ مِنْ ذِكْرِهِ، ليسَ هو الحروفَ إنْ كانَ على ما فيهِ مِنَ الأمرِ والنَّهيِ وأداءِ الأماناتِ واتّقاءِ اللهِ حَقَّ تُقاتِهِ لا على نفسِ تلكَ الألواحِ.

وهذا الذي ذَكَرْنا هو تأويلُ القوةِ في نزولِ هذهِ الآيةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: لا يمكن. (٣) في الأصل وم: إن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في نسخة الحرم المكي: وقال في موضع آخر. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فيها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: قلبك.

فأمّا إني لا عِلْمَ لي بحقيقةِ تأويلِ هذهِ الآيةِ، ولولا أنَّ في الآيةِ تذكيراً وتنبيهاً، لكنّا نقولُ: هي مِنَ التّشابُهِ المَكْتومِ الذي لا يُفَسَّرُ. لكنهُ لمّا خُرِّجَ مُخرَجَ التَّذْكيرِ واسْتيداءِ شُكْرِ ما سَهَّلَ علينا قراءَتَهُ احْتَجْنا إلى تأويلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هو ظاهرٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿هُوَ﴾ مِنْ أرْفَعِ أسماءِ اللهِ تعالى، وذَكَرَ بعضُ أهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَدْعو بقولِهِ: «يا هُوَ يا مَنْ لا هُوَ إلّا هُوَ» وتأويلُ هذا الكلامِ أنَّ كلَّ شيءٍ، بِهَوِيَّتِهِ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنهُ عالمٌ بما غابَ عنِ الخَلْقِ وبما شَهِدوا.

والثاني: [أنهُ عالمٌ][1] بما قد كانَ وبما يكونُ.

والثالثُ: أنهُ عليمٌ بما قد كان وبِكيفيَّتِهِ أنْ كيفَ يكونُ إذا كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيها اسْمانِ مُشْتَقّانِ مِنَ الرحمةِ.

وفي هذهِ الآيةِ بَيانُ وجوهٍ أربعةٍ:

أحَدُها: فيهِ بَيانُ التوحيدِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اسْمُ المَعْبودِ أنَّ كُلَّ معبودٍ دونَهُ باطلٌ.

والثاني: أنَّ فيه تَنبيهاً وتَحْذيراً بأنْ يَتَذَكَّرَ الإنسانُ في جميعِ أحوالِهِ اطِّلاعَ اللهِ تعالى عليهِ وعِلْمَهُ فيهِ، وذلكَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

والثالثُ: فيه تَرْغيبٌ في رَحْمَتِهِ وإخبارٌ لهمْ أنَّ كلَّ نِعْمةٍ لهمْ في الدنيا والآخِرَةِ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذْ في قولِهِ ﷻ ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الآية ٢٣ والرابعُ: ما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ الآية: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ مِنَ المُلْكِ، أي مُلْكُ كلِّ شيءٍ لهُ، ليسَ لأحدٍ سِواهُ حقيقةُ الملكِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

[أحدُهما: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ هو المُبارِكُ، والبَرَكةُ اسْمُ كلِّ خيرٍ، أي منهُ جميعُ الخَيراتِ. لكنْ لا يجوزُ أنْ يُقالَ للهِ تعالى: يا مُبارِكُ، وإنْ كانَ المَعْنَى منهُ يُؤدّي إلى أنْ يُؤتَى منهُ كلُّ خَيرٍ، لأنهُ لا يُعْرَفُ في أسمائِهِ هذا بالنَّقْلِ. وعلينا أنْ نَسْكُتَ عن تَسْمِيَتِهِ بما لم يُسَمِّ نفسَهُ بذلكَ. لِذلكَ قُلْنا: إنهُ لا يجوزُ التَّسَمّي بالمُبارِكِ، واللهُ الموفِّقُ.

والثاني: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ هو الطاهرُ؛ يعني هو مُقَدَّسٌ عمّا قالتِ المَلاحِدةُ والكَفَرَةُ فيهِ مِنَ الوَلَدِ والشريكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ منهمْ مَنْ قالَ: سَمّى نفسَهُ سَلاماً لِما هو سالمٌ مِنَ الآفاتِ، وغَيرُهُ مِنَ المَخْلوقينَ لا يَسْلَمونَ مِنْ حُلولِ الآفاتِ بهِمْ.

وقالَ آخَرونَ: سَمّى نفسَهُ سَلاماً لِما سَلِمَ المؤمنونَ مِنْ عذابِهِ، والتأويلُ الأوّلُ أقربُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ اخْتَلَفَ الناسُ في تأويلِهِ؛ قالَ قائلونَ: هو الأمانُ، أي يُؤَمِّنُ المُؤمنينَ مِنَ العذابِ، ولا يُمَكِّنُ لأحدٍ أنْ يُؤَمِّنَ أحداً مِنْ عذابِهِ.

وقالَ قائلونَ: أصْلُهُ مِنَ الإيمانِ، وهو التَّصْديقُ. ثم ذلكَ يَتَوَجَّهُ إلى وجهَينِ:

أحَدُهما: أي مُصَدِّقٌ القولَ بما وعَدَ المُؤْمِنينَ الجنةَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ هو المُصَدِّقُ لِما قالَ المُؤمنونَ المُصَدِّقونَ مِنْ تَصْديقِهِمْ، فَيُصَدِّقُهُمْ بما قالوا.

ومِنَ الناسِ مَنْ قالَ سَمّى نفسَهُ بما أخْبَرَ أنَّ هذا القرآنَ لِما بَيْنَ يديهِ مُصَدِّقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ أيضاً؛ قالَ قائلونَ: هو المُسَلِّطُ. وقالَ قائلونَ: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ هو الشاهدُ.

فَمَنْ قالَ بالأوَّلِ فإنهُ يذهبُ إلى أنَّ أصلَ ذلكَ مِنَ المُؤَيمِنِ، وهو مِنَ الأمانةِ، وإلى هذا التأويلِ يذهبُ القُتَبِيُّ، أي أمينٌ[1] في كلِّ ما يقولُ وفي كلِّ ما يَفْعَلُ، أي لا يَجُورُ.

ومَنْ قالَ بأنهُ، هو المُسَلِّطُ [فإنهُ يذهبُ إلى أنّ][2] أصلَهُ مِنْ هَيمَنَ يُهَيمِنُ، أي سَلَّطَ يُسَلِّطُ، وسُئِلَ[3] عنْ تأويلِ المُسَلِّطِ، فقالَ: هو كالظاهرِ؛ إذْ قَهَرَ العبادَ كلَّهُمْ، وهُمْ مُلْكٌ لهُ.

ومَنْ فَسَّرَهُ بالشاهدِ فإنهُ يَحْتَمِلُ تأويلَينِ:

أحَدُهما: أي شاهدٌ على أفعالِ العبادِ مِنْ حيثُ لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ.

والثاني: أي شاهدٌ بما أنزلَ على رسولِهِ بالصدقِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي شاهداً عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي ما مِنْ عزيزٍ دونهُ إلّا وهو ذليلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ قيلَ فيهِ بوجهَينِ:

أحَدُهما: سَمّى نَفسَهُ الجبّارَ لأنهُ هو المُجْبِرُ لكلِّ كبيرٍ.

[والثاني: ما قالَ] قائلونَ: سَمّى نفسَهُ [﴿ٱلْجَبَّارُ﴾][4] لِجَبروتِهِ وعظمتِهِ، ولا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَتَسَمّى بذلكَ الإسْمِ إلّا هو، أيِ اللهُ تعالى، وتَجَبَّرَ عنْ أنْ يكونَ لهُ أمثالٌ وأشكالٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ مِنَ الكِبرياءِ والعظمةِ، هذا الإسْمُ لا يليقُ لِغَيرِهِ، لأنَّ الخَلْقَ، بعضُهُمْ لبعضٍ أكفاءٌ في الخِلْقةِ، فلا فَضْلَ لأحدٍ على آخَرَ. فلمّا اسْتَوَوا لم يَجُزْ لأحدٍ على آخَرَ التَّكَبُّرُ، فصارَ الحَقُّ في ذلكَ للهِ تعالى.

والتَّكَبُّرُ على الآخَرِ هو الإرْتفاعُ. والأصلُ فيهِ واحدٌ؛ وهو ألّا يَرَى لنفسِهِ شكلاً، واللهُ أعلَمُ.

إنما سَمّى نفسَهُ مُتَكَبِّراً؛ إذْ هو المُتَكَبِّرُ بذاتِهِ، لم يكُنْ تَكَبُّرُهُ بِغَيرِهِ. فلذلكَ قُلْنا: إنهُ لا يَسْتَحِقُّ أحدٌ مِنَ الخَلائقِ التَّكبُّرَ إلّا اللهُ تعالى؛ إذْ لم يكُنْ أحدٌ شَكْلاً ولا ضِدّاً ولا نِدّاً. وأمّا غيرُهُ مِنَ الخَلائقِ فكلُّ واحدٍ منهمْ بالذي لهُ شَكْلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيهِ تَنْزيهٌ للهِ تعالى عمّا قالَتْ فيهِ المُلْحِدَةُ، فهذا اسْمٌ سَمّى بهِ نفسَهُ، وأمَرَ الملائكةَ والأنبياءَ والمؤمنينَ أنْ يقولوا ذلكَ.

ومَعْنَى قولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي مَعاذَ اللهِ أنْ يكونَ ذلكَ على ما قالَتِ الكَفَرَةُ.

وسَمّى نفسَهُ جَبّاراً لِما أنهُ يَجْبُرُ الأشياءَ، فَيَجعَلُها على ما يَشاءُ، وهو كقولِهِ: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] [فَيَخْلُقُ الأشياءَ على ما يُريدُهُ][5] لا على ما يُريدُهُ غَيرُهُ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ تعالى: إنّ اللهَ تعالى يَتَعالى بِمَعانٍ خَمْسَةٍ[6]:

أحَدُها: تَعاليهِ عنِ الظُّلْمِ والجَورِ وجميعِ ما لا يَليقُ [بهِ][7].

والثاني: تَعاليهِ على الأشياءِ كلِّها بِقَهْرِهِ إياها وتَصْريفِهِ إياها على ما يَشاءُ، أي ليسَ أحَدٌ، يَقْهَرُهُ، بل يَقْهَرُ الخَلائقَ.

والثالثُ: تَعاليهِ عنْ [أنْ][8] تَمَسَّهُ الحاجةُ والآفةُ. وكُلُّ مَنْ دونَهُ، لا يَخْلو عنْ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: أميناً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: على ما يريده الأشياء. (٦) في الأصل وم: أربعة. (٧) و(٨) ساقطة من الأصل وم.

والرابعُ: تعاليهِ عمّا قالَ الظالمونَ فيهِ منَ الوَلَدِ والأضدادِ والأشكالِ والأندادِ.

[والخامسُ][1]: تَعاليهِ عنْ جميعِ السُّوءِ الذي يُصيبُ الخَلْقَ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ فالخالقُ والبارئُ واحدٌ، ويُقالُ: بَرَأَ أي خَلَقَ، والبَرِيَّةُ هي الخَلْقُ، ويقالُ: سُمِّيَتِ البَرِيَّةُ بَرِيَّةً [لأنها خُلِقَتْ][2] مِنَ الترابِ؛ إذِ البَرَى، هو الترابُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ /٥٦٣ ـ أ/ هو الذي يُعطي كلَّ شيءٍ صُورتَهُ، فَيُصَوِّرُهُ على ما هو، فالتَّصويرُ، هو بَيانُ المَحْدُودِ، وهو قولُ الناسِ: صَوَّرْتُ الأمْرَ عندَ فلانٍ، أي بَيَّنْتُهُ.

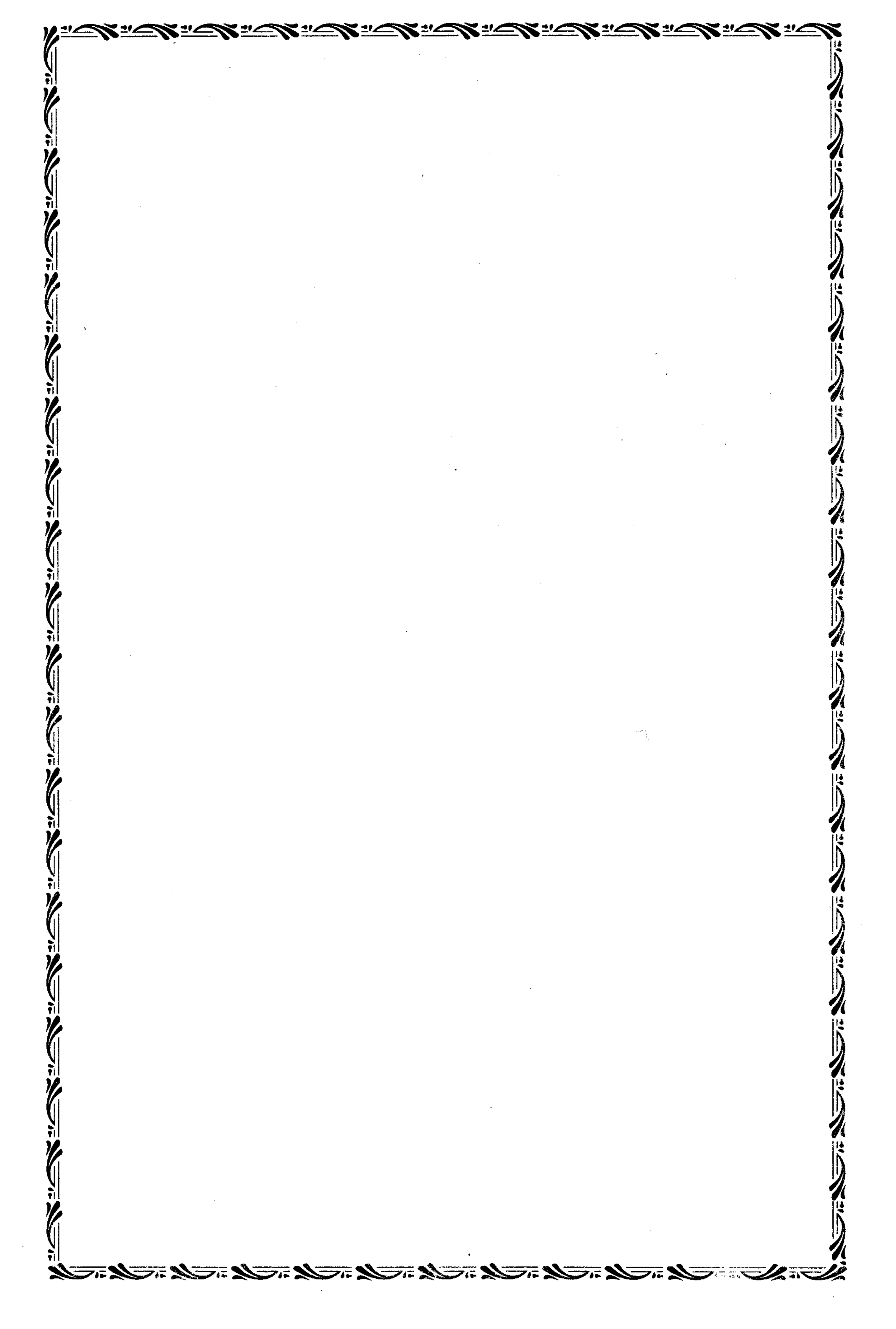
وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الأمثالُ العُلا، وهي الصفاتُ، إذِ المَثَلُ[3] يَرْجِعُ إلى وجهَينِ:

إلى الصفةِ مَرَّةً، وإلى التَّشْبيهِ ثانياً. فإذا رَجَعَ إلى [الصفةِ فإنهُ يَرْجِعُ إلى][4] حقيقةِ ذلكَ [المَثَلِ][5] وإنْ رَجَعَ إلى التَّشْبيهِ فإنهُ لا يرجعُ إلى حقيقةِ ذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي الصفاتُ العُلا، أي لا يُسَمَّى بذلكَ إلا هو؛ إذْ يُقالُ لِغيرِهِ: الرَّبُّ لا[6] الرحمنُ ولا المالكُ إلّا أنْ يُضافَ ذلكَ إلى الشيءِ. فأمّا التَّصْريحُ فلا يُطْلَقُ ذلكَ إلّا لهُ، جَلَّ، وعلا.

ويَحْتَمِلُ وَجْهاً آخَرَ، أي لا شَبيهَ لهُ في أسمائِهِ، ولا يُشْرِكُهُ أحدٌ في تلكَ الأسماءِ، بل هي خاصَّتُهُ. واللهُ المُسْتَعانُ.

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: لأنه خلق. (٣) في الأصل وم: الصفة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ولا.



سورة الممتحنة

[مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ هذهِ الآيةُ وما أشبهَها مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التحريم: ٦] وفي كلِّ ما ذَكَرَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤ و...] دلالةٌ واضحةٌ أنَّ الإيمانَ ذو حَدٍّ، وأنهُ ليسَ كما قالَتِ الحَشْويَّةُ[2] والمعتزلةُ وأصحابُ الحديثِ: إنَّ الطاعاتِ كلَّها إيمانٌ. ووَجْهُ ذلكَ أنَّ كُلًّا في نفسِهِ قد فَهِمَ مِنْ هذهِ الآيةِ أنهُ مُخْتَمَلٌ لهذا الخطابِ وأنهُ لازمٌ لهُ، فَثَبَتَ أنهُ ذو حَدٍّ في نفسِهِ، وهو التَّصديقُ في القلبِ، وغَيرُهُ مِنَ الطاعاتِ شَرائِعُهُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وما أشبَهَهُ[3] مِنَ الآيِ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ ما يُشاهَدُ، وليسَ كما قالَ النَّظَّامُ: إنَّ الإنسانَ إنما هو جسمٌ آخَرُ لطيفٌ في هذا الإنسانِ، ولا كما قالَ الناشي: إنَّ الإنسانَ إنما هو جوهَرٌ بسيطٌ في هذا الإنسانِ.

ووَجْهُ ذلكَ أنهُ ليسَ كلُّ أحدٍ، يَعْلَمُ أنَّ في نفسِهِ جَوهراً بسيطاً أو جسماً آخَرَ، فيهِ لُطفٌ.

وقد فَهِمَ الكُلُّ مِنْ هذهِ الآياتِ أنهُ مُختَمَلٌ لِلْخِطاب بها. فَثَبَتَ بِما وصَفْنا أنَّ الإنسانَ هو ما يُشاهَدُ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ ما يُفْهَمُ مِنْ هذهِ الآياتِ مِنْ عمومٍ أو خُصوصٍ ليسَ يُفْهَمُ بِظاهرِ الخِطابِ ولكنْ بِما تُوجِبُهُ الحِكْمَةُ؛ فإنْ أوجَبَتْ عُمومَها أجْرَوها على عُمومِها، وإنْ أوجَبَتْ تَخْصيصَها أجْرَوها على ذلكَ.

والذي يدلُّ على ما وصَفْنا أنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ وهذا مُخْرَجُهُ في الظاهرِ على العُمومِ، ولكنهُ لمّا قالَ: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ ومَعْلومٌ أنَّ الذي كانَ يُلْقي بالمَوَدَّةِ خاصٌّ[4] لا كلُّ المؤمنينَ، فكانَ يجبُ أنْ يكونَ مَجْراها على الخُصوصِ لِما بَيَّنَ إليهِمْ في سِياقِ هذهِ الآيةِ. ولكنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ تَعْميمَ هذهِ الآيةِ، لأنهُ لو قالَ لواحدٍ: لا تَتَّخِذْ عَدُوِّي وعَدُوَّكَ[5] أولياءَ كانَ هذا الخِطابُ لازماً لِلْكُلِّ بِما توجِبُهُ الحِكْمَةُ مِنْ أنهُ إذا عُلِمَ مِنْ أحَدٍ عَداوَتُهُ ألّا يَتَّخِذَهُ وَلِيّاً[6].

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ خُرِّجَ مُخْرَجَ العُمومِ في الظاهرِ، ولكنَّ الذينَ أخرَجوهُ إنما كانوا[7] أهلَ مكةَ خاصَّةً دونَ سائرِ الكَفَرةِ.

فهذا يُبَيِّنُ أنَّ[8] ما أُجْرِيَ مُجْرَى العُمومِ، لم يَجْزِ بِظاهرِ اللفظِ، ولكنْ لِما تُوجِبُ الحِكْمَةُ والدليلُ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الجمعة: ٩] ليسَ أنَّ السَّعْيَ إنما فُرِضَ يومَ الجمعةِ لِتَخْصيصِهِ بالذِّكْرِ، ولكنْ لِما أنَّ النداءَ في يوم الجمعةِ إلى ذِكْرَينِ وفي غَيرِهِ مِنَ الأيامِ إلى ذِكْرٍ واحدٍ ولأجلِ أنَّ النداءَ المُضَيَّقَ في يومِ الجمعةِ، هو النداءُ الأوَّلُ وفي غَيرِهِ مِنَ الأيامِ هو النداءُ الثاني.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الحشرية بالراء. وقد أدرجت كلمة الحشوية في تفسير الآية ٨٦ من سورة الإسراء في الورقة ٣٠٨ ب من الأصل. انظر ح٣/ ١٩٠. (٣) في الأصل وم: أشبهها. (٤) في الأصل وم: خاصاً. (٥) في الأصل وم: عدوكم. (٦) من م، في الأصل أولياء. (٧) في الأصل وم: كان. (٨) من م: في الأصل: أول.

فإذا جازَ أنْ يكونَ فَرَضَ السَّعْيَ في يومِ الجمعةِ إنما هو لهذَينِ المَعْنَيَينِ ثَبَتَ أنَّ التَخْصيصَ ليسَ بظاهرِ اللفظِ، والله أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ رسالتِهِ ﷺ وذلكَ أنَّ قولَهُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أنَّ ذلكَ الرجلَ، لم يُطْلِعْ على سِرِّهِ أحداً، وقد أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ حينَ[1] أخبَرَهُمْ بالكتابِ، فَثَبَتَ أنَّ عِلْمَهُ بالوَحْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختلَفوا في مَنْ نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ؛ فقالَ الحَسَنُ: إنها نَزَلَتْ في أهلِ النِّفاقِ، وقالَ غَيرُهُ مِنْ عامَّةِ المُفَسِّرينَ: إنها نزلَتْ في حاطِبِ بْنِ بَلْتَعَةَ، وهذا أشْبَهُ التأويلَينِ[2] بالصوابِ، وأقرَبُ إلى الحَقِّ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فقد أخبَرَ أنَّ الكَفَرةَ عَدُوٌّ لهمْ. ولو كانَتِ الآيةُ في أهلِ النِّفاقِ لم يكُنِ الكَفَرةُ عَدُوّاً لهمْ، بل كانوا أولياءَ، فَثَبَتَ أنَّ المُرادَ منهُ المؤمنونَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ ذلكَ الذنبَ الذي ارْتَكَبَ ذلكَ الرجلُ لم يُخْرِجْهُ مِنَ الوِلايةِ لأنهُ قالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولو كانَ ذلكَ الذنبُ يُكَفِّرُهُ، ويُخْرِجُهُ مِنَ الإيمانِ، لم يكُنْ ذلكَ الكافرُ عَدُوّاً لهُ، بل يكونُ وَلِيّاً لهُ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الجاثية: ١٩]. ولأجلِ أنهُ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سَمّاهُ مؤمناً.

والدليلُ أنَّ ذلكَ الذنبَ كانَ كبيرةً أنهُ أخبَرَهُمْ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جَهَّزَهُمْ لِلْقِتالِ، وفي ما أخبَرَ أمْرٌ بأنْ يَسْتَعِدّوا لِقتالِ النَّبِيِّ ﷺ وحَرْبِهِ، ولا شَكَّ[3] أنَّ مَنْ أمَرَ بِقِتالِ رسولِ اللهِ ﷺ كانَ مُرْتَكِبَ كبيرةٍ، وإذا كانَ كذلكَ، وقد أدْخَلَهُ اللهُ تعالى في جملةِ المؤمنينَ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى﴾ وبما وصَفْناهُ مِنَ الدليلِ ثَبَتَ أنَّ الكبيرةَ، لا تُكَفِّرُهُ، ولا تُغَيِّرُ اسْمَ الإيمانِ عنهُ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في ما نَهانا أنْ نَتَّخِذَ عَدُوَّنا وعَدُوَّهُ أولياءَ دلالةٌ أنْ ليسَ في الحِكْمةِ اتِّخاذُ الولايةِ مَعَ الأعداءِ.

ثم مِنْ قولِ المعتزلةِ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ مِنْ جميعِ عبادِهِ أنْ يؤمِنوا، وإذا أرادَ أنْ يؤمِنوا، فقد أرادَ أنْ يُوالِيَهُمْ مَعَ عِلْمِهِ أنهمْ يَخْتارونَ عَداوَتَهُ، فكأنهمْ وَصَفوا اللهَ بما يُخْرِجُهُ مِنَ الحِكْمةِ، ويُدْخِلُهُ في السَّفَهِ والجَهْلِ بالعواقِبِ، وذلكَ كلُّهُ مَنْفِيٌّ عنِ اللهِ ﷻ والمعتزلةُ في ما وَصَفوا فَجَرةٌ فَسَقةٌ، ويُخْشى أنْ يكونوا كَفَرةً، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي بِما كُتِبَ في الكتابِ. /٥٦٣ ـ ب/

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في مَنْ هاجَرَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ، وهو أقرَبُ التأويلَينِ، لأنَّ حاطباً، إنما كانَ هاجَرَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ، وفيهِ نَزَلَتِ الآيةُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ حينَ أرادُوا الجهادَ إلى مكةَ، واللهُ أعلَمُ، أيَّ ذلكَ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي هو ﴿أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ مِنْ كِتْبَةِ الكتابِ إلى أهلِ مكةَ ﴿وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ بما أظْهَرْتُمْ مِنَ العُذْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي مِنِ اتِّخاذِ الولايةِ مَعَ أعدائِهِ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ في الاعْتِقادِ، أي مَنِ اعْتَقَدَ ذلكَ، وفي الفِعْلِ أي لم يَعْتَقِدْهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ التزامُ مُراقَبةِ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعلانيةِ وتَحْذيرٌ منهُ[4] لِيَجْمَعوا بينَ السِّرِّ والعَلانيةِ، وتخويفٌ لهمْ مِنْ أنْ يُطْلِعَ رسولَهُ ﷺ على سرائِرِهِمْ كما أطْلَعَهُ على أمْرِ الكتابِ إلى أهلِ مكةَ.

ثم في الآيةِ أعظَمُ شيءٍ في زَجْرِهِمْ ونَهْيِهِمْ عنِ المَعاصي، وذلكَ أنهُ لمّا أطْلَعَهُ على جميعِ ما يَتَعاطَونَهُ مِنَ الذنوبِ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: التأويل. (٣) في الأصل وم: يشكل. (٤) في الأصل وم: له.

سِرّاً وعلانيَةً، فإذا عَلِموا أنَّ الرسولَ ﷺ يَعْلَمُ مِنْ سِرِّهِمْ ما يَعْلَمُ مِنْ علانِيَتِهِمْ بما يُطْلِعُهُ اللهُ عليهِ يَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الانْتِهاءِ عنِ المَعاصي في السِّرِّ والعلانِيَةِ، وعلى الإجابةِ إلى ما يَدْعُوهُمْ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ فوَجْهُ ذلكَ وتأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ أنهُ لما رآهُمْ رَغِبوا في أموالِهِمْ ومَوَدَّتِهِمْ رغبةً منهمْ في الكُفْرِ أنْ يَحْفَظوا أولادَهُمْ وأموالَهُمْ أخبرَهُمْ أنْ كيفَ يَرْغَبونَ في حِفْظِهِمْ، وهُمْ لو قَدَروا عليكُمْ، وظَفِروا بكُمْ، قَتَلوكُمْ، وآذَوكُمْ بالسِنَتِهِمْ، فكأنهُ يقولُ: كيفَ تُوالوهُمْ مِنْ حيثُ تُسِرُّونَ إليهمْ بالمَوَدَّةِ، وهُمْ لو ظَفِروا بكمْ قَتَلوكُمْ، وكانوا لكمْ أعداءً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني أنهمْ يَوَدُّونَ أنْ تَكْفُروا، ومع ما يَوَدُّونَ أنْ تَكْفُروا، لو قَدَروا عليكُمْ قَتَلوكُمْ. فَمَنْ كانَتْ حالُهُمْ منكُمْ مِثْلَ هذا فكيفَ تَطْمَعونَ أنْ يَحْفَظوا أولادَكُمْ وأموالَكُمْ؟

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ لهُ وَجْهانِ:

أحَدُهُما: أنْ كيفَ تُوالونَ الكَفَرَةَ لِمكانِ أولادِكُمْ وأرحامِكُمْ، وهُمْ لا يَنْفعونَكُمْ يومَ القِيامةِ؟

والثاني: أنَّ أرحامَكُمْ لا تَنْفَعُكُمْ، ولا تَشْفَعُ لكُمْ يومَ القيامةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [لهُ وَجْهانِ أيضاً:

أحَدُهُما:][1] أي يَفْصِلُ بينَكُمْ وبَينَ أرحامِكُمْ بقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و٣٥].

والثاني: أي يَفْصِلُ بَينَكُمْ وبَينَ أرحامِكُمْ لِاخْتِلافِ أعمالِكُمْ، فَنَزَّلَ كلَّ واحدٍ منكُمْ مُنْزَلَ عَمَلِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. الأصلُ في أنباءِ المُتَقَدِّمينَ أنها عِبَرٌ لهذهِ الأمةِ. فما ذَكَرَ منها في المؤمنينَ مِنَ الأمَمِ الماضِيَةِ فهو تَخْويفٌ لِكَفَرةِ هذهِ الأمَّةِ لِئلّا يَصْنَعوا مِثْلَ صَنيعِهِمْ، فَيَسْتَوجِبوا مِنَ النِّقْمَةِ مِثْلَ ما اسْتَوجَبَ أولئكَ. وما كانَ منها في حقِّ الرسلِ ﷺ فهو في حقِّ التَّسَلّي لِرسولِنا وسَيِّدِنا ﷺ عنْ بعضِ ما مَسَّهُ.

واصلٌ آخَرُ: أنَّ الخِطابَ قد يَلْزَمُ المُخاطَبَ مَرَّةً بما يُخاطَبُ في نفسِهِ ومَرَّةً بما يُؤْمَرُ بالاقْتِداءِ بِغَيرِهِ، إذا كانَ ذلكَ الغَيرُ، لم يَفْعَلْ ما فَعَلَهُ إلّا عنْ أمْرٍ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنينَ مِنْ هذهِ الأمّةِ الاقْتِداءَ بإبراهيمَ ﷺ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وأخبرَهُمْ عن معامَلَتِهِمْ إياهُمْ وتَرْكِهِمْ مُوالاتَهُمْ، فكأنهُ قالَ: اتْركوا مُوالاةَ الكَفَرةِ والإسرارَ إليهِمْ بالمَوَدَّةِ ما داموا على كُفْرِهِمْ كما فَعَلَهُ إبراهيمُ ﷺ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فنابَذوهُمْ، ولم يُوالوهُمْ. فافْعَلوا كفِعْلِهِمْ ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

فكأنهُ قالَ[2]: اقْتَدوا بهمْ إلّا بما قالَ إبراهيمُ لأبيهِ: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يعني لا تَسْتَغْفِروا لِلْمُشركينَ مِثْلَ ما اسْتَغْفَرَ إبراهيمُ ﷺ لأبيهِ المُشْرِكِ، لأنكمْ لا تَعْلَمونَ المَعْنَى الذي لهُ اسْتَغْفَرَ إبراهيمُ ﷺ لأبيهِ.

ثم اخْتَلَفوا في المَعْنَى الذي لهُ اسْتَغْفَرَ إبراهيمُ لأبيهِ؛ فقالَ أبو بكرٍ: إنهُ كانَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ، وَعَدَ أنْ يَسْتَغْفِرَ لأبيهِ، ورَأى أنَّ إيجابَ الوَعْدِ لازِمٌ عليهِ، فاسْتَغْفَرَ لهذا المَعْنَى.

[وقالَ][3] الحَسَنُ: إنهُ إنما اسْتَغْفَرَ لهُ لِوقْتِ تَوبَتِهِ لا في حالِ الشِّرْكِ، لأنهُ لا يَتَوَهَّمُ أنهُ [لم يَعْلَمْ أنهُ][4] لا يَحِلُّ لهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُشْرِكينَ. ومَنْ عَلِمَ أنهُ يَحِلُّ لهُ لم يَكُنْ مُسْلِماً مُؤمِناً. فَثَبَتَ أنهُ إنما اسْتَغْفَرَ لِوَقْتِ إسلامِهِ.

وعندَنا الاِسْتِغْفارُ طَلَبُ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ تعالى على وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) من م، في الأصل: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: مَغْفِرَةُ رَحْمةٍ وفَضْلٍ وكَرَمٍ.

والثاني: أنْ يُوَفِّقَهُ لِلسَّببِ الذي إذا جاءَ بِهِ غَفَرَ لهُ. ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؟ [نوح: ١٠] أي السببُ الذي إذا جِئْتُمْ بِهِ غَفَرَ لكمْ. وإذا كانَ كذلكَ جازَ أنْ يكونَ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ لأبيهِ على هذا الوجْهِ: أنْ يكونَ طَلَبَ مِنَ اللهِ تعالى التَّوفيقَ لهُ بالسببِ الذي إذا جاءَ بِهِ غَفَرَ لهُ؛ وذلكَ مستقيمٌ، ولكنهُ لمّا تَبيَّنَ أنهُ لا يُوَفِّقُهُ لذلكِ السببِ تبرَّأَ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي لا أمْلِكُ أنْ أدفَعَ عنكَ عذابَ اللهِ مِنْ شيءٍ، أو لا أمْلِكُ أنْ أهْدِيَكَ دونَ أنْ يَهْدِيَكَ اللهُ.

[ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾؟ [القصص: ٥٦]][(١)].

وكأنهُ قالَ: سَواءٌ أنْ أدْعُوَ لكَ بالتَّوفيقِ لِلْهِدايةِ [أم ألّا أدْعُوَ لكَ][(٢)] لا أمْلِكُ لكَ مِنْ عذابِ اللهِ مِنْ شيءٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا عندَ المُنابذةِ وإظهارِ العَداوةِ معَ الكَفَرةِ؛ يعني عليكَ مُعْتَمَدُنا في النَّصْرِ على أعدائِنا عندَ قِلَّةِ عَدَدِنا وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وإليكَ مَرْجِعُنا ومَفْزَعُنا، وإليكَ المَصيرُ إذا قُبِضْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذَكَرَ أهلُ التَّفسيرِ أنَّ تأويلَ هذهِ الآيةِ يَخرُجُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحَدُها: أي [لا][(٣)] تُسلِّطْ علينا أعداءَنا، فَيَظُنُّوا أنهمْ على حَقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

[والثاني:][(٤)]لا تُنْزِلْ علينا العذابَ دونَهُمْ، فَيَظُنُّوا أنهم على حقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

[والثالثُ:][(٥)] لا تُوَسِّعْ عليهمُ الدنيا، وتُضَيِّقُها[(٦)] علينا، فَيَظُنُّوا أنهمْ على حقٍّ، ونحنُ على باطلٍ.

ولو كانَ التأويلُ هو الثاني لكانَ يجيءُ على هذا أنْ يكونَ الواجبُ على العُدُولِ مِنْ هذهِ الأمةِ أنْ يَسألوا اللهَ تعالى العافيةَ لئلا يَتَوَهَّمَ فُسّاقُهُمْ أنهمْ على الحقِّ.

ولكنَّ الجوابَ عنْ هذا أنَّ الفُسّاقَ مِنْ هذهِ الأمّةِ قد عَلِموا أنَّ الذي هُمْ فيهِ مِنَ الفِسْقِ مَحْظورٌ.

وأمّا الكَفَرةُ فإنَّ عندَهُمْ أنَّ ما يَدينونَ بِهِ مِنَ الكُفْرِ حقٌّ، فإذا سُلِّطوا على المؤمنينَ تَوَهَّموا أنَّ الذي حَسِبوهُ حقاً حَقٌّ.

وأمّا الفَسَقَةُ مِنْ هذهِ الأمّةِ إذا عَلِموا أنَّ الفِسْقَ مَنْهِيٌّ عنهُ مَحْظورٌ فلا يَقَعُ لهمْ هذا الحُسْبانُ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ يعني عذاباً أي سَبَباً يُعذَّبُ بِهِ الكَفَرةُ كما قالَ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٤٩] وكانَ تأويلُهُ أنَّ إيتاءَ السببِ الذي يَسْتَوجِبُ ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ فكذلكَ الأولُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعني المُنتَقِمَ مِنْ أعدائِهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ / ٥٦٤ ـ أ/ ٱلْءَاخِرَ﴾ يعني لقد كانَتْ لكمْ في إبراهيمَ والذينَ مَعَهُ قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ تَحْسُنونَ بها إذا اقْتَدَيْتُمْ بهمْ، وأطَعْتُموهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

أحَدُهما: أي لِمَنْ كانَ يَرْجو ثوابَ اللهِ تعالى.

والثاني: [أي لِمَنْ][(٧)] يؤمِنُ بالبَعْثِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ أمْرَ البَعْثِ في كتابِهِ بِصِفاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

مَرَّةً أضافَهُ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] وكانَ المَعْنَى منهُ البَعْثَ، ومَرَّةً وَصَفَهُ بِصِفَةِ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وتضيق. (٧) في الأصل وم: أن.

أخرى، وإنْ كانَ المُرادُ الثوابَ، ففيهِ أنَّ الراجيَ في الحقيقةِ، هو الطالبُ لِما يَرجوهُ بالأسبابِ التي يَرجو الوصولَ بها إلى ما دُعِيَ، وأُرجِيَ. والخائفُ في الحقيقةِ، هو الهاربُ عمّا حُذِّرَ، والمُنتهي عمّا نُهِيَ عنهُ، وحُظِرَ.

فإنْ مَنِ اعتَمَدَ على مُجَرَّدِ الرجاءِ والخوفِ دونَ التَّمَسُّكِ بسببِها فهو مُتَمَنٍّ على اللهِ تعالى:

والدليلُ على تأييدِ ما نقولُ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] أفلا تَراهُ كيفَ حَقَّقَ مَعْنى الرجاءِ بالمُجاهدةِ في سَبيلِ اللهِ والعملِ بطاعتِهِ، واللهُ أعلمُ.

وإنْ كانَ [مُعْتَمِداً][1] على البَعْثِ فكذلكَ أيضاً لأنهُ إذا هَرَبَ عمّا نُهِيَ عنهُ، وطَلَبَ لِما أُمِرَ بهِ، فقد تَبَيَّنَ أنهُ يُوالي مَنْ يَقْضي مُوالاتَهُ إلى ثوابِ اللهِ ورَحْمَتِهِ وأنهُ يُعادي مَنْ يَقْضي عاقِبةَ مُوالاتِهِ إلى نَقْمَةِ اللهِ وعذابِهِ.

ومعلومٌ أنهُ لا يَفْعَلُ ذلكَ إلّا مَنْ يُؤمِنُ بالبَعْثِ فإنما يُوالي مَنْ رَجا منهُ مَنْفَعَةَ الدنيا، ويَهْرُبُ عَمَّنْ يَضُرُّهُ في هذهِ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ يعني مَنْ يَتَوَلَّ عن طاعةِ اللهِ في ما أَمَرَهُ منَ الاقْتِداءِ بهِمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ يعني ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ طاعةِ الخَلْقِ لِيُعْلَمَ أنهُ[2] ما أمَرَهُمْ بهِ لم يأمُرْهُمْ لِحاجةٍ لهُ في طاعتِهِمْ أو لِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إليهِ، بل هو ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلِّ ذلكَ. وإنما أمَرَهُمْ لِحاجتِهِمْ إلى ذلكَ ولِما عَلِمَ أنَّ مَنافِعَ طاعتِهِمْ ترجِعُ إليهِمْ خاصّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لهُ مَعْنَيانِ. . مَعْنى الحامِدِ ومَعْنى المحمودِ.

فإنْ كانَ المُرادُ منهُ المَحْمودَ ففيهِ أنَّ اللهَ تعالى يَستَحِقُّ الحَمْدَ مِنْ خَلْقِهِ بما أنْعَمَ عليهِمْ.

وإنْ كانَ المُرادُ الحامِدَ فَمَعْناهُ أنَّ اللهَ يَحْمَدُ الخَلْقَ، ويَشْكُرُهُمْ حينَ[3] يَجْزيهِمْ بالكثيرِ منَ الثوابِ عنِ القليلِ مِنَ الأعمالِ، أو يُثْني عليهِمْ بأعمالِهِمْ، فهو حميدٌ مِنْ هذينِ المَعْنَيينِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ المؤمنينَ بِمُعاداةِ الكَفَرَةِ ومُنابَذَتِهِمْ وتَرْكِ مُوالاتِهِمْ ماداموا كُفّاراً، ثم وَعَدَ أنْ يَجْعَلَ بَيْنَنا وبينَهُمْ مَوَدَّةً إذا آمنوا، فكانَ هذا مِنْ أعظمِ الدلائلِ[4] على أنَّ الخَلْقَ عندَ اللهِ تعالى في كلِّ حالٍ على ما هُمْ عليهِ في أحوالِهِمْ، وليسَ كما قالَ بعضُ الجُهّالِ: [إنَّ مَنْ][5] يؤمِنُ في وقْتٍ مِنَ الأوقاتِ فهو عندَ اللهِ مُؤمِنٌ في حالِ كُفْرِهِ، وهذا خِلافُ وَصْفِ اللهِ تعالى في هذهِ الآيةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم المعتزلةُ قد خالَفوا هذهِ الآياتِ، وعانَدوها، على قولِهِمْ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قولِهِمْ: إنْ كانَ على خِلافِ مَذْهَبِهِمْ، فهو عَدُوُّهُمْ، ولا شَكَّ أنهمْ يُوالونَهُ، ويُصافونَهُ، وقد نَهَى اللهُ تعالى عنْ هذا، فهذا [أحَدُ الخِلافاتِ][6].

والثاني: أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَجْعَلَ بيننا وبَيْنَهُمْ مَوَدَّةً. ومِنْ قولِهِمْ: أنهُ لا يَقْدِرُ على شيءٍ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ، فكانَ اللهُ تعالى على قولِهِمْ وَعَدَ ما لا يَقْدِرُ عليهِ، وهذا لا يَليقُ بأسْفَهِ الخَلْقِ، فكيفَ بربِّ العالَمينَ؟ فَثَبَتَ أنهمْ عانَدوا هذهِ الآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وخِلافٌ ثالثٌ: أنَّ اللهَ ﷻ وَصَفَ نفسَهُ بالقُدْرَةِ [بقولِهِ:][7] ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ ومِنْ قولِهِمْ: أنهُ ليسَ يَقْدِرُ على شيءٍ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ. فأيُّ خِلافٍ أشْهَرُ مِنْ هذا وأظْهَرُ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النَّهْيُ في الإقساطِ لأنَّ الإقساطَ، هو العَدْلُ، وليسَ يَنْهَى عنِ العَدْلِ إلى مَنْ[8] كانَ وَلِيّاً أو عَدُوّاً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: حتى. (٤) في الأصل وم: الدليل. (٥) في الأصل وم: إنه. (٦) في الأصل وم: احدى الخلافين. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: ما.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؟ [المائدة: ٨] فقد أخبرَ أنهُ لا يُحِلُّ لهمْ[1] تَرْكَ العَدْلِ لِمكانِ العَداوة. وإذا كانَ كذلكَ ثَبتَ المُرادُ مِنْ هذا النَّهيِ وغيرِهِ، وهو قولُهُ: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

ثم الذي لم يَنْهَ عنهُ خِلافُ ما نَهى في الظاهرِ لأنهُ قالَ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾.

الآية ٩ وقالَ في ما نَهى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الآية ٩].

ومَعْلومٌ أنهُ قد يجوزُ أنْ نَبرَّ مَنْ لا يجوزُ ألا نَتولاهُ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؟ [لقمان: ١٥].

ثم نَهى عنْ تَوَلّي الكفارِ بقولِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولكنهُ لمّا جازَ أنْ يَجْتَمِعَ في نفسٍ واحدةٍ البِرُّ وتَرْكُ التَّولّي، فكذلكَ جازَ أنْ تُؤمَرَ بالبِرِّ وتُنْهى[2] عنِ التَّوليةِ[3] مَعَهُ، واللهُ أعلمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المرادُ منهُ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ﴾ بل يأمُرُكُمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: يُرَخِّصُ لكمْ كقولِهِ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] ومَعْناهُ بل خَسِرَتْ، وإنْ كانَ، قد يَجوزُ أنْ تكونَ التجارةُ إذا لم تَرْبَحْ، لا تَخْسَرُ، فكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ بل يأمُرُكُمْ أنْ تَبَرّوهُمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ بل يُرَخِّصُ لكُمْ أن تبَرّوهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتلَفُوا في مَنْ أمَرَ بِبِرِّهِمْ، ونَهى [عنْ تَرْكِهِمْ][4] فقالَ بعضُهمْ: همُ المُسْتَضْعَفونَ مِنْ أهلِ مكةَ الذين آمنوا في السِّرِّ، وخَشُوا [إظهارَ إيمانِهِمْ][5] مِنَ المُشركينَ، فأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنِينَ بالمدينةِ أن يَبَرُّوهُمْ بالكتابِ إليهِمْ، لِيَحْتالوا في قيادِ أنفسِهِمْ، لأنَّ المُشركينَ مِنْ أهلِ مكةَ إذا عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ظَهَرَ لِقتالِهِمْ كانَ يجوزُ أنْ يُخْشَى على أولئكَ المؤمنِينَ المُسْتَضْعَفينَ، فأمَرَ هؤلاءِ أنْ يَبَرّوهُمْ بالكِتابِ إليهِمْ، لِيَتَأهَّبوا في أنفسِهِمْ، ويَحْتالوا لِما يُخْشَى عليهِمْ مِنَ المُشْرِكينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: هذا في الذينَ كانَ بَينَهمْ وبَينَ رسولِ اللهِ ﷺ عَهدٌ وذِمّةٌ، فأمَرَ المؤمنينَ أنْ يَبَرُّوا أولئكَ في إبقاءِ عهودِهِمْ إلى مُدَّتِهِمْ، ونهاهُمْ عنْ أنْ يَتَوَلَّوا مَنْ قاتَلَهُمْ، ونَقَضَ عهدَهُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: [هذا][6] في النساءِ والوِلدانِ مِنَ المشركينَ، أمَرَ المؤمنينَ أنْ يَبَرُّوهُمْ بِتَرْكِ القتالِ وألّا يَتَوَلَّوا مَنْ قاتَلَهُمْ. مِنْ جُمْلَةِ الرجالِ مِنَ المُشْرِكينَ.

ثم قالَ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ في الاعْتِقادِ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ في حقِّ الاعْتِقادِ، أو مَنْ يَتَوَلَّهُمْ في الأفعالِ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ في حقِّ الأفعالِ كما وَصَفْنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ المَعْنى عندَنا، واللهُ أعلَمُ: إذا جاءَكُمُ المؤمناتُ يعني قائلاتٍ: إنهنَّ مؤمناتٌ، فامْتَحِنوهُنَّ، لأنهُ لو [ما][7] كانَ على حقيقةِ الإيمانِ لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ مَعْنًى. فلما أمَرَ بالامْتِحانِ ثَبتَ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾ ما وَصَفْنا بَديئاً. ومِثْلُ هذا ما قالَ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] وكانَ المَعْنى منهُ: مَنْ تَكَلَّمَ بالكُفْرِ ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ فكذلكَ يجوزُ أن يكونَ المَعْنى مِنَ الأوّلِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنَّ المُفَسِّرينَ ذَكَروا وَصْفَ امْتِحانِهِنَّ: يَحْلِفْنَ باللهِ ما أخْرَجَهُنَّ مِنْ دارِهِنَّ بُغْضُ أزواجِهِنَّ، أو يَحْلِفْنَ أنهنَّ ما أرَدْنَ / ٥٦٤ - ب/ بِخُروجِهِنَّ أرضاً سِوى أرضِهِنَّ، وإنما أرَدْنَ بذلكَ الإسلامَ، وهذا تأويلٌ فاسدٌ؛ وذلكَ أنها إذا أسْلَمَتْ كانَ

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) في الأصل وم: ممن تنهى. (٣) في الأصل وم: التولي. (٤) في الأصل وم: توليهم. (٥) في الأصل وم: إظهاره.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الحقُّ عليها في دينِها أنْ تَبغُضَ زوجَها الكافرَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فكيفَ يجوزُ أنْ تكونَ صفةُ امْتِحانِهِنَّ ما ذَكَروا، وحُكْمُ الشريعةِ والدينِ يُوجِبُ ما كُنَّ يَفْعَلْنَهُ؟ فكذلكَ قُلْنا: إنَّ هذا التأويلَ الذي ذَكَرَهُ بعضُ المُفَسِّرينَ في وصفِ الإمْتِحانِ غيرُ مُستقيمٍ.

ويجوزُ أنْ يكونَ تأويلُ امْتِحانِهِنَّ على وجْهَينِ:

أحدُهما: أنْ يُسْتَوصَفْنَ عنِ الإيمانِ ما هو؟ فإذا أخبَرْنَ عنْ حقيقةِ الإيمانِ عُلِمَ أنهنَّ مؤمناتٌ.

والثاني: [أنْ][1] يُعْرَضَ عليهِنَّ ما على المؤمناتِ في إيمانِهِنَّ كما قالَ تعالى: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] فإذا قَبِلْنَ ذلكَ كلَّهُ [كانَ][2] ذلكَ امْتِحانُهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الذي كُلِّفَ بهِ المؤمنونَ مِنِ امْتِحانِهِنَّ في الظاهرِ، وأنَّ الحقيقةَ إنَّما يَعْلَمُها ربُّ العالَمينَ.

وهذا يُبَيِّنُ أنَّ العِلْمَ عِلْمانِ: عِلْمُ العملِ، وعِلْمُ الشهادةِ.

فَعِلْمُ العملِ ما يَعْلَمُهُ الخَلْقُ في الظاهرِ، فَيَعْمَلونَ[3] بهِ. وعِلْمُ الشهادةِ ما يجوزُ أنْ يُشْهَدَ على اللهِ بهِ؛ وذلكَ إنما يوصَلُ إليهِ، وذلكَ بما يُطْلِعُهُمُ اللهُ عليهِ نصّاً: إمّا بكتابٍ أو بِسُنَّةٍ مُتَواتِرَةٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ.

وعِلْمُ العملِ هو الذي يَنْساغُ فيهِ الاجْتِهادُ نَحْوُ خَبَرِ الآحادِ وجِهَةِ القياسِ وغَيرُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ذُكِرَ في القصةِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ صالَحَ عامَ الحُدَيبِيَةِ مُشركي أهلِ مكةَ على أنَّ مَنْ أتاهُ مِنْ أهلِ مكةَ فهو عليهِ[4] رَدُّهُ، ومَنْ أتى مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فهو لهمْ، وغَيرُ ذلكَ. وكَتَبَ بذلكَ كتاباً، وهو بالحُدَيبِيَةِ.

فلما فَرَغَ مِنَ الكتابِ إذْ أتَتْ سُبَيعةُ [بنتُ الحارثِ الأسْلَمِيَّةُ][5] مُسْلِمَةً، فجاءَ زوجُها إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ رُدَّ عليَّ امْرَأتي، فإنكَ قد شَرَطْتَ لنا ذلكَ، وهذهِ طِينةُ كتابِكَ، لم تَجِفَّ بَعْدُ، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ يقولُ: لا تَرُدُّوهُنَّ إلى أزواجِهِنَّ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ يقولُ: لا يَحِلُّ نِكاحُ مُؤْمِنَةٍ لكافِرٍ ولا نِكاحُ كافرٍ لِمُؤْمِنَةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ يقولُ: أعْطُوا زَوجَها الكافرَ ما أنْفَقَ عليها على ما كانَ جَرَى مِنَ الصلحِ بَينَهُمْ وبينَ المُسْلِمينَ أنَّ [مَنْ خَرَجْنَ][6] مِنْ نساءِ أهلِ مكةَ إلى المدينةِ مؤمناتٍ[7] لا تُرْجِعوهُنَّ إلى الكفارِ، وأعْطُوا أزواجَهُنَّ[8] ما أنْفَقُوا.

ثم معلومٌ أنهُ كانَ يؤخَذُ بإعطاءِ الصَّداقِ وإيتاءِ ما أنْفَقَ غيرَ الذي أخذَ الصَّداقَ. ولكنْ كانَ يؤخَذُ بهِ مَنْ كانَ مِنْ جِنْسِهِ على ما ذَكَرْنا نظائِرَهُ في ما تَقَدَّمَ.

ولذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ أهلَ الإسلامِ يأخذونَ مِنْ تُجارِ أهلِ الحربِ مُجازاةً لِما يأخُذُهُ أهلُ الحربِ مِنْ تُجارِ المسلمينَ، وإنما يؤخَذُ ذلكَ مِمَّنْ كانَ مِنْ جنسِهِ، وإنْ كانَ ذلك غَيرَ الذي أُخِذَ منهُ.

وعلى ذلكَ يقولُ: إنَّ المِحْنَةَ قد يجوزُ أنْ تَسْتَوِيَ على البَرِّ والفاجِرِ، وأنَّ ما يَنْزِلُ بالآدَمِيِّ مِنَ المِحَنِ يجوزُ ألّا يكونَ حَقّاً لِما تَعاطَى مِنَ الذنوبِ والسَّيِّئاتِ، لأنَّ للهِ تعالى أنْ يَمْتَحِنَ عبدَهُ في هذهِ الدنيا مُبْتَدَأً. وأمّا في الآخِرَةِ فلا يُؤاخَذُ فيها أحدٌ بذنبِ آخَرَ، بل يُجْزَى كلٌّ بعملِهِ: إنْ شراً فَشرٌّ، وإنْ خيراً فَخيرٌ[9]، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فيعلمون. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: ما خرج. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) في الأصل وم: أزواجهم. (٩) من م، في الأصل: فخيراً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يقولُ: لا إثْمَ عليكُمْ؛ يعني المسلمينَ أنْ تتزوَّجوهُنَّ إذا آتيتُموهُنَّ مُهورَهُنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنَّ زينبَ بِنْتَ رسولِ اللهِ ﷺ أسْلَمَتْ قَبْلَ زوجِها، ثم أسْلَمَ بَعْدَ ذلكَ زوجُها، فرَدَّها رسولُ اللهِ ﷺ بالنكاحِ الأوَّلِ قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ [قولُهُ:][1] ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فلما نَزَلَ[2] كانَ إذا أسْلَمَ الزوجُ، وخَرَجَ إلى دارِ الإسلامِ، انْقَطَعتِ العِصْمَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ امْرأتِهِ. وكذلكَ المرأةُ إذا خَرَجَتْ وبَقِيَ الزَّوجُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بِعَقْدِ الكوافِرِ؛ فَمَنْ كانَتْ لهُ امرأةٌ بمكةَ كافرةٌ فلا يُعِيدَنَّ المرأةَ الكافرةَ، فإنها ليسَتْ بامرأةٍ لهُ، وقد انْقَطَعَتِ العصمةُ بَيْنَهما.

قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ حَظَرَ علينا الامْتِناعَ والكَفَّ والإمساكَ عن نكاحِ المُهاجِرَةِ لأجلِ زوجِها الحَرْبِيِّ وعِصْمَتِهِ، والعِصْمَةُ المَنْعُ، والكوافرُ يجوزُ أنْ يَتَناوَلَ الرجالُ، وظاهِرُهُ في هذا الموضِعِ للرجالِ لأنهُ في ذِكْرِ المُهاجراتِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ يقولُ: إذا لَحِقَتِ امْرأةُ المسلِمِ بكفارِ مكةَ فاسْألوا مَهْرَها مِنْ أهلِ مكةَ، ورُدُّوهُ[3] إلى زَوجِها ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ يقولُ: إنْ جاءتِ امرأةٌ مِنْ أهلِ مكةَ مهاجرةٌ إليكمْ فرُدُّوا على زوجِها المُشْرِكِ ما أعطاها مِنَ المَهْرِ، وذلكَ مِنْ أجلِ العَهْدِ الذي كانَ بَيْنَ أهلِ مكةَ مهاجرةٌ إليكمْ فرُدُّوا على زوجِها المُشْرِكِ ما أعطاها مِنَ المَهْرِ، وذلكَ مِنْ أجلِ العَهْدِ الذي كانَ بَيْنَ أهلِ مكةَ وبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقولُ: هذا هو حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَينَكُمْ، يقولُ: هذا هو حُكْمُ اللهِ بينَ المُسلِمينَ والكفارِ مِنْ أهلِ العَهْدِ مِنْ أهلِ مكةَ في أنْ يَرُدَّ بعضُهُمْ على بعضِ النَّفَقَةَ، أي المَهْرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في ما حَكَمَ بينَ المسلِمينَ وأهلِ العهدِ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ يقولُ: إنْ لَحِقَتِ امرأةٌ مؤمنةٌ بكفارِ مكةَ مِنْ أهلِ الحربِ مِمَّنْ ليسَ بَيْنَكُمْ وبَينَهُمْ عهدٌ، ولها زوجٌ عندكُمْ مُسْلِمٌ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فأعْقَبَكُمْ مالاً مِنَ الغنيمةِ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ مِنَ المَهْرِ ممَّا أصَبْتُمْ مِنَ الغَنيمةِ قَبْلَ القِسْمَةِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في ما فَرَضَ عليكُمْ مِنْ هذا ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي مُصَدِّقونَ، فلا تَنْقُصوهُ، واللهُ أعلَمُ.

وهكذا رُوِيَ [عنْ][4] مَسْروقٍ، رحمةُ اللهِ عليهِ، وعنِ الزُّهْرِيِّ أنهُ قالَ: مِنْ حُكْمِ اللهِ تعالى أنْ يَسْألَ المسلمونَ مِنَ الكفارِ مَهْرَ المرأةِ المسلمةِ إذا صارَتْ إليهِمْ، ويَسْألَ الكفارُ مِنَ المُسْلِمينَ مَهْرَ مَنْ صارتْ إلينا مِنْ نِسائِهِمْ مُسْلِمَةً، فأقَرَّ المؤمنونَ بِحُكْمِ اللهِ تعالى، وأبى المُشْرِكونَ أنْ يُقِرّوا بذلكَ، فأنْزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ فأمَرَ اللهُ تعالى المُسلِمينَ إذا ذهبَتِ امرأةٌ مسلمةٌ، ولها زوجٌ إلى الكفارِ أنْ يَرُدّوا إلى زوجِها ما أعطاها مِنَ المَهْرِ مِنْ صَداقٍ كانَ في أيديهِمْ ممّا يُريدونَ أنْ يَرُدُّوا إلى المُشْرِكينَ بِمُهاجَرَةِ امرأةٍ مسلمةٍ إليهِمْ[5]، وإنْ لم يكُنْ في أيديهِمْ صَداقٌ، وَجَبَ رَدُّهُ على أهلِ الحربِ [وتعويضُهُ مِنْ غَنيمَةٍ أصابوها][6]. وأصلُ هذا، واللهُ أعلَمُ، ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ﴾ مما أنْفَقْتُمْ على أزواجِكُمْ، ثم ظَفِرْتُمْ على أعدائكُمْ، وغَنِمْتُمْ ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ / ٥٦٥ ـ أ/ أَزْوَٰجُهُم﴾ ما فاتَ عنهمْ ﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾ فكأنهُ يقولُ: واسألوا أولئكَ الذينَ ذَهَبتْ نِساؤُكُمْ إليهِمْ ما أنْفَقْتُمْ. فإنْ سألْتُمْ، ولم يُعطوكُمْ شيئاً، وفاتكُمْ ذلكَ مِنْ ذلكَ الوجهِ، ثم قاتَلْتُموهُمْ، وغَنِمْتُمْ، فأعْطوا الذينَ فاتَ عنهمْ أزواجُهُمْ ما أنْفقوا.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: إعْلَمْ بأنَّ هذهِ الآياتِ[7]، تَنْتَظِمُ أحكاماً:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: نزلت. (٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلينا.
(٦) في الأصل: فوضوهم من غنيمته أصبتموها، في م: فعوضوهم من غنيمة أصبتموها. (٧) في الأصل وم: الآية.

أحدُها: جوازُ الاجتِهادِ والعملُ بالعلمِ الظاهرِ، فإنهُ قالَ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ أي بالاجْتِهادِ والامْتِحانِ ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وهذا حُكْمٌ مَبْنيٌّ على العِلْمِ الظاهرِ، دلَّ أنَّ العَمَلَ به جائزٌ.

[والوجهُ][1] الثاني: أنَّ أحَدَ الزَّوجَينِ إذا أَسْلَمَ في دارٍ واحدةٍ: إمّا دارِ الإسلامِ [وإمّا][2] دارِ الحَرْبِ، هل تَقَعُ الفُرْقةُ بنفسِ الإسلامِ أو بانْضِمامِ شيءٍ آخَرَ إليهِ؟

قالَ بِشْرٌ المَرِّيسيُّ: إنَّ الفُرْقةَ تَقَعُ للحالِ مِنْ غيرِ انْضِمامِ شيءٍ آخَرَ إليهِ.

وقالَ الشافِعيُّ: إنْ كانَتِ المرأةُ مَدْخولاً بها لم تَقَعِ الفُرْقةُ حتى تَحيضَ ثلاثَ حِيَضٍ، وإذا كانَتْ غيرَ مدخولٍ بها وقَعَتِ الفُرْقةُ للحالِ.

وقالَ أصحابُنا: إذا كانا في دارِ الحربِ، فأسْلَمَ أحَدُهما لم تَقَعِ الفُرْقةُ حتى تَحيضَ ثلاثَ [حِيَضٍ][3]، وإذا كانا في دارِ الإسلامِ ذِمِّيَّينِ، فأسْلَمَ أحدُهما، لم تَقَعِ الفُرْقةُ حتى يَعْرِضَ السلطانُ الإسلامَ على الآخَرِ؛ فإذا عَرَضَ عليهِ الإسلامَ، فأَبى، فَرَّقَ بينَهما.

فأمّا بِشْرٌ [فقدِ][4] احتجَّ بظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فقد أخبَرَ أنهُ لا يَحِلُّ منهما لِصاحبِهِ، ولم يَذْكُرْ شيئاً آخَرَ، فلا يُقْرَنُ بهِ شيءٌ آخَرُ.

وأمّا أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، فإنهمُ احتَجُّوا، وقالوا: إنَّ الفُرْقةَ لا تَقَعُ بنفسِ الإسلامِ بقولِهِ: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فلو كانتِ الفُرْقةُ واقعةً بمجرَّدِ الإيمانِ لم يكُنْ لِلامْتِحانِ مَعْنًى. فلما لم يَذْكُرِ الحُرْمةَ إلّا بالامْتِحانِ ثَبَتَ أنَّ الفُرْقةَ لا تَقَعُ بِمُجَرَّدِ الإيمانِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مثالُ هذا قولَهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور: ٣] وحَرَّمَ ذلكَ على المؤمنينَ، ثم قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فلو كانَ الزِّنى يُوجبُ الحُرْمةَ لم يكُنْ هو رامياً للزوجةِ، بل إذا قالَ لها: زَنَيتِ، فكأنهُ قالَ: لم يكُنْ بيني وبينَكِ نِكاحٌ.

فلما ثَبَتَ رَمْيُ الزوجاتِ بقولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ ثَبَتَ أنَّ الزِّنى لا يُوجِبُ حُرْمَتَها عليهِ. فكذلكَ الإيمانُ بِمُجَرَّدِهِ لو كانَ يُحَرِّمُها على الأزواجِ لم يكُنْ للأمرِ بالامْتِحانِ مَعْنًى.

فلما أمَرَ بالامْتِحانِ على إيمانِها بَعْدَ أنْ أظهَرَتْ في نفسِها الإيمانَ ثَبَتَ أنَّ الحُرْمةَ لا تَقَعُ بنفسِ الإيمانِ حتى يَنْضَمَّ إليهِ شيءٌ آخرُ، وتَبَيَّنَ أنَّ العَمَلَ بِظاهرِ الآيةِ غيرُ ممكنٍ؛ إذْ لا يُجْرى على إطلاقِها، واللهُ أعلَمُ.

ودليلٌ ثانٍ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ أَسْلَموا، ثم أَسْلَمَ نِساؤُهُم مِنْ بَعْدِهِم لم يُرْوَ عن أحدٍ منهمْ أنهُ جَدَّدَ النِّكاحَ. ولو كانتِ الفُرْقةُ تقَعُ بِنَفْسِ الإسلامِ مِنْ أحدِ الزوجَينِ لكانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أولَى بتجديدِ النكاحِ. ثَبَتَ أنَّ الفُرْقةَ لا تقَعُ بِمُجَرَّدِ الإسلامِ، واللهُ أعلَمُ.

والوجهُ الثالثُ: ما رُوِيَ عنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمَعينَ، على اختِلافِ الأسبابِ باختِلافِ الدارَينِ ونَحْوِهِ: رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهما على النكاحِ حتى تَحيضَ المرأةُ ثلاثَ حِيَضٍ إذا كانا في دارِ الحربِ.

وعنْ عليٍّ رضي الله عنه أنهما على النكاحِ ماداما في الهجرةِ.

وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه أنهما إذا كانا في دارِ الإسلامِ، فأسْلَمَ أحَدُهما فهما على النِّكاحِ حتى يَعْرِضَ السلطانُ الإسلامَ على الآخَرِ.

فهؤلاءِ قد ثَبَتَ عنهمْ أنَّ الفُرْقةَ لا تقَعُ بنفسِ الإسلامِ إلّا[5] أنْ يُضافَ شيءٌ آخَرُ.

ولم يَثْبُتْ عنْ غيرِهِمْ خِلافُ ذلكَ، فيكونُ إجْماعاً. فلذلكَ أخَذَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ تعالى، بقولِهِم، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: والثاني. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إلى.

[والوجهُ الرابعُ][1]: أنَّ أحدَ الزوجَينِ إذا خَرَجَ إلى دارِ الإسلامِ مُهاجراً، وبَقِيَ الآخَرُ في دارِ الحربِ، تَقَعُ الفُرْقَةُ بَينَهما عندَنا.

وعندَ الشافِعِيِّ لا تَقَعُ الفُرْقَةُ بِتَبايُنِ الدارَينِ؛ قالَ: لأنَّ المُسْلِمَ إذا دَخَلَ بأمانٍ لم يَبْطُلْ نِكاحُ امرأتِهِ، وكذلكَ لو دَخَلَ حَرْبِيٌّ إلينا بأمانٍ لم تَقَعِ الفُرْقَةُ بينَهُ وبَينَ زوجتِهِ. وكذلكَ لو أسْلَمَ الزوجانِ في دارِ الحربِ، ثم خَرَجَ أحَدُهما إلى دارِ الإسلامِ، لم تَقَعِ الفُرْقَةُ، فَعُلِمَ أنهُ لا يَعْتَبِرُ باخْتِلافِ الدارَينِ في إيجابِ الفُرْقَةِ.

ولكنْ عندنا ليسَ مَعْنَى اخْتِلافِ الدارَينِ ما ذَكَرَ، إنما مَعْناهُ أنْ يكونَ أحَدُهُما مِنْ أهلِ دارِ الإسلامِ: إمّا بالإسلامِ [وإمّا][2] بالذِّمَّةِ، والآخَرُ مِنْ أهلِ دارِ الحربِ، فيكونُ حَرْبِيّاً كافراً.

فأمّا إذا كانا مُسْلِمَينِ فهما مِنْ أهلِ دارٍ واحدةٍ، وإنْ كانَ أحدُهما مقيماً في دارِ الحربِ والآخَرُ في دارِ الإسلامِ.

وفي هذهِ الآيةِ دَلالاتٌ[3] على ما قُلْنا مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ولو كانَتِ الزوجيَّةُ باقيةً بَعْدَ التَّبايُنِ لكانَ الزَّوجُ أولَى [بها وبانَ][4] تكونَ معهُ، فلا مَعْنَى لِلنَّهيِ عنِ الرَّجْعِ إلى الزَّوجِ الكافرِ. وكذا قالَ ﷻ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أثبتَ الحُرْمَةَ بينَ المهاجراتِ وأزواجِهِنَّ، ولا يُتَصَوَّرُ بَقاءُ النكاحِ في غَيرِ مَحَلِّ الحِلِّ، وكانَ معناهُ تحريمَ الاسْتِمْتاعِ.

ولكنَّ النِّكاحَ لمَّالم يَكُنِ المَقْصودُ بِهِ إلّا الاسْتِمْتاعَ، وما هذا مِنْ آثارِهِ، فكانَ في تحريمِ الاسْتِمْتاعِ تحريمُ النكاحِ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ دليلٌ عليهِ أيضاً، فإنهُ أمَرَ بردِّ مَهْرِهِنَّ إلى الزَّوجِ، ولو كانتِ الزوجيَّةُ باقيةً لَما اسْتَحَقَّ الزوجُ اسْتِرْدادَ المَهْرِ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَسْتَحِقَّ البِضْعَ وبَدَلَهُ.

وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ولو كانَ نكاحُ الأوَّلِ باقياً لَما جازَ لِلْمُسْلِمِ في دارِ الإسلامِ أنْ يَتَزَوَّجَها.

وكذا قولُهُ[5] تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ نهانا عَنِ الإمساكِ والإمْتِناعِ عِنْ تَزْويجِها لأجلِ عصمةِ الزوجِ الكافرِ وحُرْمَتِهِ. دلَّ أنَّ الحُرْمَةَ تقعُ بالتَّبايُنِ.

ودليلٌ آخَرُ مِنْ جهةِ المعقولِ على ما ذَكَرْنا، وهو أنهمْ أجمعوا أنها إذا سُبِيَتْ وقَتَ الفُرْقَةِ حتى يَحِلَّ لِلسَّابي وَطْءُ المَسْبِيَّةِ بَعْدَ الاسْتِبراءِ، فإمّا أنْ تَقَعَ الفُرْقَةُ بإسلامها، وقد اتَّفَقَ الجمهورُ مِنَ الفقهاءِ، رحمهمُ اللهُ، على ألّا تَقَعَ الفُرْقَةُ بنفسِ الإسلامِ، إذا كانَ بعدَ الدخولِ ما لم يَنْضَمَّ إليهِ شيءٌ آخَرُ، وبحدوثِ المُلْكِ للسَّابي، ومَعْلومٌ أنَّ المُلْكَ لا يَمْنَعُ النكاحَ.

ألا تَرَى أنهُ يجوزُ ابْتِداءُ العَقْدِ على المَمْلوكِ؟ ولهذا إذا بيعتِ الجاريةُ لم تَقَعِ الفُرْقَةُ، وإنْ وَجَدتِ المُلْكَ فيها لِلْمُشْتَرِي، وكذلكَ إذا ماتَ رجلٌ، وخَلَّفَ أمةً مَنكوحةً ثَبَتَ المُلْكُ فيها للوارثِ، ولا يَبْطُلُ النكاحُ.

وإذا لم تَثْبُتِ الفُرْقَةُ بهذينِ الوجهَينِ لم يَبْقَ إلّا تَبايُنُ الدارَينِ.

فَدَلَّ أنَّ سَبَبَ الفُرْقَةِ هو تَبايُنُ الدارَينِ في المَسْبِيَّةِ، والتَبايُنَ موجودٌ في المَهاجِرةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنِ احْتَجّوا بما رُوِيَ عنْ عِكْرِمةَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ قالَ: رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ بِنْتَهُ زينبَ على أبي العاصِ بْنِ الربيعِ بالنِّكاحِ الأوَّلِ بعدَ سِنِينَ، وقد كانَتْ زينبُ هاجَرَتْ إلى المدينةِ، وبَقِيَ زوجُها / ٥٦٥ ـ ب/ مُشْرِكاً بمكةَ، ثم ردَّها عليهِ بالنكاحِ الأوَّلِ.

فَدَلَّ أنَّ اخْتِلافَ الدارَينِ لا يُوجِبُ الفُرْقَةَ.

---

(١) في الأصل وم: والثالث. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: دلالة. (٤) من م، في الأصل: بهما أو بان. (٥) في الأصل وم: قال.

فنقولُ لهم[1]: لا يَصِحُّ الِاحْتِجاجُ بهِ مِنْ وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ رَدَّها بَعْدَ سِتِّ سِنينَ بالنكاحِ الأوَّلِ، ولا خِلافَ بينَ الفقهاءِ [أنها][2] لا تُرَدُّ إلى الزوجِ بالعَقْدِ الأوَّلِ بعد انْقِضاءِ ثلاثِ حِيَضٍ. ومَعْلومٌ أنهُ ليسَ في العادةِ ألّا يكونَ ثلاثُ حِيَضٍ في سِتِّ سِنينَ، فَسَقَطَ الِاحْتِجاجُ بهِ.

والثاني: أنهُ رُوِيَ عنْ عِكْرِمَةَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ في اليهوديةِ، تُسْلِمُ قَبْلَ زوجِها: إنها أمْلَكُ لِنَفْسِها، فكانَ مِنْ مذهبِهِ: أنَّ الفُرْقَةَ وقَعَتْ بإسلامِها، والراوي متى عَمِلَ بِخِلافِ ما رَوَى دلَّ على انْتِساخِ ذلكَ، إذْ لا يُظَنُّ بهِ أنهُ خالفَ رسولَ اللهِ ﷺ.

والثالثُ: أنَّ عَمْرَ بْنَ شُعَيبٍ رَوَى عنْ أبيهِ عنْ جَدِّهِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ بِنْتَهُ زينبَ ﷺ على أبي العاصِ بِنِكاحٍ ثانٍ، فَوَقَعَ التَّعارضُ بينَ الحديثَينِ، فَبَطَلَ احْتِجاجُهُمْ[3] بالحديثِ.

ثم التَّرجيحُ لِما رَوَينا لأنَّ في ما رَواهُ إخْبارٌ عنْ كونِها زوجةً لهُ بَعدَ ما أسلَمَ الزوجُ، ولم يُعْلَمْ حدوثُ عَقْدٍ ثانٍ.

وفي حديثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ [أمْرانِ:

أحَدُهما:][4] إخبارٌ عنْ حُدوثِ عَقْدٍ ثانٍ بَعْدَ إسلامِهِ [فيكونُ أولَى مِنَ الأوَّلِ لأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ عنْ حدوثِ عقدٍ ثانٍ بعدَ إسلامِهِ][5].

والثاني: إخبارٌ عنْ مَعْنَى حادثٍ عَلِمَهُ، وهذا كما رَجَّحْنا حديثَ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَزَوَّجَ مَيمونةَ، وهو مُحْرِمٌ على حديثِ يَزيدَ [بْنِ][6] الأصَمِّ أنهُ تَزَوَّجَها وهو حَلالٌ، لأنَّ في حديثِ ابْنِ عباسٍ ﷺ إخْباراً عنْ حالةٍ حادثةٍ، والخَبَرَ الآخَرَ عنْ ظاهرِ الأمْرِ الأوَّلِ.

وبِحديثِ بُرَيدةَ أنهُ كانَ زَوجُها حُرّاً حتى أُعْتِقَتْ[7].

وبِروايةِ[8] مَنْ رَوَى أنهُ كانَ عبداً يكونُ[9] الأوَّلُ أولَى لإخبارِهِ عنْ حالٍ حادثةٍ، وفي [الثاني][10] إخبارٌ عَنْ ظاهرِ الحالِ، ويكونُ[11] الأوَّلُ أولَى، فكذلكَ هذا.

والرابعُ: أنَّ المُهاجِرَةَ، لا عِدَّةَ عليها عندَ أبي حَنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، وعلى قولِهِما: عليها العِدَّةُ.

وهذهِ الآيةُ دليلُ أبي حنيفَةَ، رَحِمَهُ اللهُ، مِنْ وجوهٍ؟ فإنهُ ﷻ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ نَهَى عنِ الرَّدِّ إلى الزَّوجِ الأوَّلِ، ولو كانَتْ عليها العِدَّةُ لَكانَ للزَّوجِ أنْ يَرُدَّها إلى مَسْكَنِهِ البعيدِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] كيفَ أَمَرَ الأزواجَ بإسكانِهِنَّ في بُيوتِهِمْ ما دُمْنَ في عِدَّتِهِنَّ؟

فأمّا ما قالَ ههنا: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [فقد][12] دلَّ على [أنهُ][13] لا عِدَّةَ عليها، وكذا [ما][14] قالَ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فأباحَ نِكاحَها مُطلَقاً مِنْ غَيرِ ذِكْرِ العِدَّةِ وما[15] قالَ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

ولو كانَتِ العِدَّةُ عليها واجبةً لَكانَتِ [العِصْمَةُ][16] باقيةً لِقَولِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ألا تَراهُ كيفَ جَعَلَ العِدَّةَ في حَقِّهِ؟ وإذا كانَ لِلزَّوجِ عليها حقٌّ كانَتْ هي في عِصْمَتِهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ يُوجِبُ قَطْعَ العِصْمَةِ.

---

(١) في الأصل وم: له. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: احتجاجه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، في الأصل: اعتقد. (٨) في الأصل: وروايته، في م: ورواية. (٩) من م، في الأصل: يجوز. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وكان. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: وكذا. (١٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فلما كانَ في إيجابِ العِدَّةِ إبقاءُ العِصمةِ بينَهما، ونَهى اللهُ تعالى عنْ ذلكَ، قَطَعْناها[1]، وأسقَطْنا العِدَّةَ عنها، واللهُ أعلَمُ. ولأنهمْ أجْمَعوا أنها إذا سُبِيَتْ وقَعَتِ الفُرْقةُ، وسَقَطتِ العِدَّةُ، والمُلْكُ ليسَ بسببٍ لإسقاطِ العِدَّةِ، ولكنهُ سببٌ لِنَقْضِ العِدَّةِ، فلمّا سَقَطتِ العِدَّةُ عندَ السَّبْيِ والمُهاجَرةِ، والسَّبْيُ لا يوجِبُ الإسقاطَ، دلَّ سُقوطُ العِدَّةِ لاخْتِلافِ الدارَيْنِ، واللهُ أعلَمُ.

والخامسُ: فيهِ دليلٌ على أنَّ الكتابَ يجوزُ أنْ يُنْسَخَ حُكْمُهُ بتَرْكِ الناسِ العملَ؛ فإنَّ [في][2] قولِهِ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ وقولِهِ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ الحُكمَ مَتْروكٌ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ في تَرْكِهِ كتابٌ أو سُنّةٌ.

ولكنَّ الناسَ لمّا أجْمَعوا على تَرْكِهِ، وهذا وأمثالُهُ في حُكمِ عُرْفيٍ، ثُبوتُهُ على المَخصوصِ لِمَعْنًى، ثم يَنْعَدِمُ المَعْنى؛ فأمّا ما لا يُعْقَلُ [معناهُ، فَيَجِبُ][3] العَمَلُ بالكتابِ، ولا يُتْرَكُ بِتَرْكِ الناسِ، ولا يجوزُ لهمُ الإجماعُ على تَرْكِهِ، ولا يَتَحقّقُ الإجماعُ على ذلكَ، وبعضُ أصحابِنا قالوا: إنهُ صارَ مَنْسوخاً بقولِهِ تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وبقولِهِ ﷺ: «لا يَحِلُّ مالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلّا مِنْ طِيبةٍ مِنْ نفسِهِ» [أحمد ٥/ ٧٢] واللهُ أعلَمُ.

والسادسُ: في قولِهِ تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ دلالةٌ على أنهُ سَوّى في الحُكْمِ بينَ أموالِنا وأموالِهِمْ. ثم الإجماعُ جَرى على أنّا إذا غَلَبْنا على أموالِ أهلِ الحربِ مَلَكْناها، فكذلكَ إذا غَلَبوا على أموالِنا يَجِبُ أنْ يَمْلِكوها.

وفي ما أوجَبَ مِنَ الحُرْمةِ إذا جاءتِ النسوةُ إلينا مؤمناتٍ مُهاجراتٍ دلالةٌ على أنَّ الأحكامَ في الأنفسِ مُخْتَلِفةٌ. وعلى هذا ما خَلَّفَ كلُّ واحدٍ منهمْ مِنَ المالِ في الدارِ التي هاجَرَ منها إلى أُخْرى أنهُ يَصيرُ فَيْئاً لِما لم يُرْوَ عنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ لمّا فَتَح مَكةَ أنْ يكونَ تَفَحّصَ عنْ شيءٍ مِنْ تلكَ الأموالِ التي كانتْ مُخْتَلِفةً حينَ هاجَروا إلى المدينةِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ ذلكَ لِلتَّوارُثِ، أو لِما ذَكَرْنا أنها تكونُ فَيْئاً لهمْ.

ومَعْلومٌ أنَّ التوارثَ بينَ أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكُفْرِ مُنْقَطِعٌ. وإذا بَطَلَ وَجْهُ التَّوارُثِ ثَبَتَ الوجهُ الآخَرُ، واللهُ أعلَمُ.

والسابعُ: في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ دلالةٌ على وجوبِ العَدْلِ بينَ الأعداءِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨] وقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢] وقولِهِ[5] تعالى ههنا: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ سَوّى بينَ أموالِنا وأموالِهِمْ، وهو العَدْلُ؛ فكأنهُ يقولُ: ذلكَ أمْرٌ في العَدْلِ بَينَكُمْ وبَينَ أعدائِكُمْ ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ لكي إذا عَلِموا أنَّ العَداوةَ لا تَحْمِلُهُمْ على تَرْكِ العَدْلِ حَمَلَهُمْ ذلكَ على التّألفِ والتّعَطُّفِ، واعْلَموا إذا تَرَكْتُمْ شَهواتِكُمْ، وأنْفَقْتُمُ العَدْلَ والتّسْويَةَ فليسَ ذلكَ مِنْ عِنْدِكُمْ، ولكنْ مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى؛ فكأنهُ قالَ: ذلكَ الذي أمَرَ مِنَ العَدْلِ، وجَعَلَهُ سَبَباً يُرَغِّبُ أعداءَكُمْ في الإسلامِ، ويَحْمِلُهُمْ على التّألفِ ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعني بما أمَرَ مِنَ العَدْلِ والتسويةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التّدْبيرِ. فدلَّ أنَّ العَدْلَ واجبٌ بينَهمْ، واللهُ المُوَفِّقُ.

والثامنُ: في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ النساءَ إذا ارْتَدَدْنَ لم يُقْتَلْنَ، فإنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ويُثْبِتُ أنهمْ إذا لم يَعْلَموهُنَّ مؤمناتٍ أرْجَعوهُنَّ إلى الكفارِ لِما كانَ جَرى بَينَهُمْ مِنَ الصُّلْحِ.

ومَعْلومٌ أنهنَّ إذا رَجَعْنَ إلى الكفارِ بَعْدَما أظْهَرْنَ الإيمانَ كُنَّ مُرْتَدّاتٍ، ولو كانتِ المُرْتَدَّةُ تُقْتَلُ لَكانَ إذا ظَهَرَ ذلكَ عندَهُمْ قَتَلوها، ولم يُرْجِعوها إلى الكُفّارِ، فلما ثَبَتَ بما وَصَفْنا أنهمْ كانوا يَصْرِفونَ النساءَ إليهمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أنهنَّ مُرْتَدّاتٌ، ثَبَتَ أنَّ المُرْتَدّةَ لا تُقْتَلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فقطعناها. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل: معنا ويجب، في م: معناه ويجب. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: وقال. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية: المُبايَعَةُ والهِجْرةُ كانَتا واجِبَتَيْنِ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ ومَعْناهُما اليومَ واجبٌ أيضاً:

وذلكَ أنَّ الهِجْرةَ إنما كانَتْ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ: لِما كانَ أحَدُهُمْ إذا أسْلَمَ يخافُ على نفسِهِ مِنْ فَسادِ الدينِ بالكَفَرةِ أنْ لو أقامَ بَينَ [أظْهُرِهِمْ][1] وكانَ أيضاً يَحتاجُ إلى عِلْمِ الشرائعِ والأحكامِ، وإنما ارْتَفَعتِ الهِجْرةُ اليومَ مِنْ مكةَ إلى المدينةِ. فأمّا واحدٌ مِنْ أهلِ الحربِ إذا أسْلَمَ / ٥٦٦ ـ أ/ وخَشِيَ على نفسِهِ فَسادَ الدينِ بالكَفَرةِ أنْ لو أقامَ بينَ أظْهُرِهِم، فالواجبُ عليهِ أنْ يُهاجِرَ منها إلى دارِ الإسلامِ لِيَأمَنَ مِنْ فَسادِ دينِهِ، ويَحْصُلَ على عِلْمِ الشرائعِ.

وأمّا المُبايَعَةُ فإنَّ مَعْناها في النساءِ تَرْغيبُ الكَفَرةِ في الإسلامِ، وفي الرجالِ حَمْلُ الكَفَرةِ على الإسلامِ؛ وذلكَ أنَّ الذي أمَرَ بهِ النساءَ مِنَ المُبايَعَةِ مِنْ مَكارِمِ الأخلاقِ ومَحاسِنِ الأفعالِ. والكَفَرةُ إذا عَلِموا أنَّ هذا يُؤمَرُ فيهِ بِمَحاسِنِ الأمورِ رَغَّبَهُمْ ذلكَ في الإسلامِ

والذي أمَرَ بهِ الرجالَ إنما هو مِنْ جِهةِ النصرِ والمُجاهدةِ مع النَّبيِّ ﷺ وهذا يُظْهِرُ الإسلامَ، ويُبيِّنُهُ[2].

وهذانِ المَعْنَيانِ على كلٍّ في نفسِهِ في زمانِنا هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يَتَوَجَّهُ إلى الاعْتِقادِ والمُعامَلةِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عنِ الخيانةِ في الأموالِ كافةً والنُّقْصانِ عنِ العبادةِ جملةً لأنهُ يُقالُ: أسْرَقَ السارقُ: مَنْ سَرَقَ مِنْ صَلاتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حَقيقةِ الزِّنى وعلى دَواعيهِ على ما رُوِيَ مِنْ قولِهِ ﷺ: «اليدانِ تَزْنيانِ والعينانِ تَزْنيانِ والرجلانِ تَزْنيانِ والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ» [مسلم ٢٦٥٧/ ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ نَهْياً عنِ النَّميمةِ [ويجوزُ أنْ يكونَ نَهْياً][3] عنْ إلحاقِ الولدِ بأزواجِهِنَّ، وهُنَّ يَعْلَمْنَ أنهُ مِنَ الزِّنى. وهكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؟ كأنهُ[4] أمَرَهُنَّ أنْ يَنْتَهِينَ عنْ هذهِ المَناهي وأن يَتْبَعْنَ أمْرَهُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١٠٤ و...] يجوزُ أنْ يكونَ هذا كنايةً عنِ الأمرِ لأنهُ بَيَّنَ النَّواهِيَ والمَناكيرَ، ثم قالَ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ لم يَقُلْ ههنا: امْتَحِنوهُنَّ كما قالَ في المُهاجراتِ.

ومَعْنى ذلكَ عندَنا [في وَجْهَينِ][5]:

أحَدُهما: أنهُ قد تَبَيَّنَ ههنا وجهُ الامْتِحانِ بقولِهِ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ فاسْتَغْنى عن ذِكْرِ الامْتِحانِ.

والوجهُ الثاني: أنَّ المُهاجراتِ إنما كُنَّ يأتينَ مِنْ دارِ الحربِ، ولم يَكُنَّ عَلِمْنَ الشرائعَ، فاحْتَجْنَ إلى الامْتِحانِ.

وأمّا هؤلاءِ فَكُنَّ[6] في دارِ الإسلامِ، وقد عَلِمْنَ شَرائِعَهُ، فلم يَذْكُرِ الامْتِحانَ لِذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تُخْرِجُ[7] مِنَ الإيمانِ لأنهُ يُعْلَمُ أنَّ الاسْتِغْفارَ لِما يَجيءُ منهنَّ مِنْ تَضْييعِ هذهِ الحدودِ، ولو خَرَجْنَ بِتَضْييعِها مِنَ الإيمانِ لم يَأمُرِ النَّبيَّ ﷺ بالاسْتِغْفارِ لهنَّ، لأنَّ الاسْتِغْفارَ طَلَبُ المَغْفِرةِ، ويَسْتَحيلُ أنْ يُطْلَبَ منهُ مَغْفِرةُ مَنْ ليسَ لهُ غُفْرانُهُ. فَدَلَّ ما وَصَفْنا أنَّ ارْتِكابَ الكبائرِ لا يُخْرِجُ صاحبَهُ مِنَ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ويبين. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فكأنه.
(٥) في الأصل وم: وجهان. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: تخرجن.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ كانَ[١] الله ﷻ أمَرَنا أنْ نَغْضَبَ على مَنْ غَضِبَ هو عليهِ، وأنْ نُعادِيَ مَنْ عاداهُ، ونُوالِيَ مَنْ والاهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لهُ[٢] تأويلانِ:

أحَدُهما: أنَّ اليهودَ غَيَّروا بَعْثَ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وحَرَّفوهُ في التوراةِ، وكانَ في التوراةِ أنَّ اللهَ تعالى آيَسَهُمْ مِنْ ثوابِهِ في الآخِرَةِ ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ أنْ يُبْعَثوا.

[والثاني][٣]: يجوزُ أنْ يكونَ معناهُ: يَيْأسُ هؤلاءِ مِنْ رحمةِ اللهِ كما يَئِسَ الكفارُ الذين هُمْ في القبورِ مِنْ رَحْمةِ اللهِ.

---

(١) في الأصل وم: فكان. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الآية. (٣) في الأصل وم: و.

سورة الصف

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قالَ ههنا: ﴿سَبَّحَ﴾ وقالَ في مَواضعَ[2] أُخرَ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١ والتغابن: ١ و..] لِيُعلِمَ أنَّ ﴿يُسَبِّحُ﴾ غيرُ مُنقطِعٍ، وأنهُ قد سَبَّحَ حينَ كانَ، ويُسَبِّحُ إلى أنْ يكونَ.

وفيهِ تَسْفيهُ أولئك الكَفَرةِ المُتَمَرِّدَةِ؛ وذلكَ أنَّ التَّسْبيحَ والثَّناءَ في الشاهدِ إنما يَرجِعانِ إلى المُسَبِّحِ والمُثْنى لأنهُ لا يُثْنى إلّا على مَنِ استَحَقَّ الثناءَ، ولا يُسَبِّحُ إلّا منْ يَسْتَحِقُّهُ. فإنما تسبيحُ المُسَبِّحِ وثَناؤهُ خُضوعٌ لهُ، وتَقَرُّبٌ إليهِ؛ وذلكَ يزيدُهُ شرَفاً ونُبلاً. فكأنَّ اللهَ ﷻ أخبَرَ أنهُ خَضَعَ [لهُ][3] تعالى، واسْتَسْلَمَ لهُ، وأتَى بما فيهِ شَرَفٌ لهُ، وزَينٌ، وتَقَرُّبٌ إلى ربِّهِ، إلّا الكَفَرةَ فإنهم تَركوا التَّسْبيحَ للهِ تعالى مع ما فيهِ مِنْ نُبْلِهِمْ وشَرَفِهِمْ وزينَتِهِمْ، واللهُ الموفِّقُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ذَكَرَ سَفَهَهُمْ أيضاً مِنْ وجهٍ آخَرَ، وهو أنهُ لو كانَ للهِ تعالى بِتَسْبيحِ شيءٍ مِنَ الخَلائقِ حاجةٌ لكانَ في تَسْبيحِ مَنْ ذَكَرَ كِفايةٌ وغِنًى عنْ تَسْبيحِ الكَفَرةِ، ولكنهمْ تَرَكوا التَّسْبيحَ، واللهُ تعالى غَنِيٌّ عنهمْ وعنْ تَسْبيحِهِمْ، فما تَركوهُ إلّا لِسَفَهِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ﴿الْعَزِيزُ﴾ يَدُلُّ على أنهُ عَزيزٌ في ذاتِهِ، وإنْ تَرَكَ [الكَفَرةُ التَّسْبيحَ][4] إياهُ لا يُذِلُّهُ، بل هو عزيزٌ منيعٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾ يعني حكيمٌ حينَ[5] جَعَلَ في الأشياءِ المُتَضادَّةِ عَلَمَ رُبوبيَّتِهِ وآيةَ وحدانيَّتِهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذهِ الآيةُ في أهلِ النفاقِ في القِتالِ، [لأنهمْ تَمَنَّوُا القِتالَ][6] فلمّا أمَرَهُمُ اللهُ تعالى بهِ قالوا ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ [النساء: ٧٧] فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي لم تَعِدُونَ ما لا تَفُونَ بهِ؟

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنها في بعضِ المؤمنينَ في القتالِ أيضاً، وإنها على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، ووَجْهُ ذلكَ أنهمُ أحَبُّوا أنْ يَعْمَلوا أحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى، [فأنزَلَ اللهُ تعالى قولَهُ:][7] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الصف: ١٠] وقولَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ [الصف: ٤] فلم يَفُوا بما وَعَدوا، فأنزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في كلِّ مؤمنٍ لأنهُ قدِ اعْتَقَدَ كلُّ مَنْ آمَنَ بإيمانِهِ الوفاءَ بما وَعَدَهُ مِنَ الطاعةِ للهِ تعالى والاسْتِسْلامِ لهُ والخُضوعِ. فلمّا لم يَفِ بما وَعَدَ خِيفَ عليهِ /٥٦٦ ـ ب/ في كلِّ زَلَّةٍ أنْ يَدْخُلَ في هذهِ الآيةِ، وليسَ أحدٌ مِنَ المؤمنينَ قد وَفَى بما وَعَدَ كلِّهِ، والواجبُ عليهِ أنْ يَتوبَ مِنْ ذلكَ توبةً بليغةً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المَقْتُ البُغْضُ، ومَنِ اسْتَوجَبَ مَقْتَ اللهِ لَزِمَهُ

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: موضع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: التسبيح من الكفرة. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

العِقابُ، لا مَحالةَ. ولكنهُ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في مَنِ [اعْتَقَدَ تَرْكَ الوفاءِ بما وَعَدَ، واسْتِحْلالَ ما نَهاهُ اللهُ تعالى، فَيَسْتَوجِبُ مَقْتَ اللهِ تعالى ونِقْمَتَهُ، لا مَحالةَ][1] وإنْ كانَ في مَنْ ثَبَتَ على اعْتِقادِهِ، وزَلَّ في أفعالِهِ، فالواجبُ أنْ يُقيِّمَ الذنوبَ، فَيَلْزَمَهُ الخوفُ على مَراتِبِها ودَرَجاتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ليسَ فيهِ أنَّ اللهَ، لا يُحِبُّ المُبارَزةَ لأنَّ الجِهادَ والقِتالَ على المُبارِزِ أشَدُّ؛ وذلكَ أنهُ إذا كانَ في الصَّفِّ أعانَهُ على القِتالِ غَيرُهُ، فكانَ أمْنُهُ على نفسِهِ في الصَّفِّ أكثَرَ. وأمّا المُبارِزُ، فإنهُ وحْدَهُ، ليسَ لهُ مُعينٌ، فإنْ ظَفِرَ على صاحِبِهِ، وإلّا هَلَكَ، والخَوفُ عليهِ في ذلكَ أشَدُّ، فَيَجِبُ أنْ تكونَ المِحْنةُ فيهِ أكثَرَ.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى، عَلَّمَهُمْ بهذِهِ الآيةِ كَيفيَّةَ القِتالِ لِيَسْتَعينَ بعضُهُمْ بِبَعضٍ ولِتكونَ كلمتُهُمْ واحدةً لأنهمْ إذا تَفَرَّقوا اختَلَفَتْ آراؤُهُمْ، فَيُخشَى عليهِمُ الهَزيمةُ والإدبارُ، وإذا كانَتْ آراؤُهُمْ مُتَّفِقةً وكلِمَتُهُمْ واحدةً وشَوكَتُهُمْ واحدةً، وذلكَ في القِتالِ زيادةُ نُصرةِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ضَرْبُ هذا المَثَلِ لِلثَّباتِ، يَعْني: إذا اصْطَفّوا ثَبَتوا كالبُنْيانِ المَرْصوصِ الذي[2] تكونُ ثابتَةً مُسْتَقِرَّةً، لا يَنْتَقِضُ بأدنَى شيءٍ.

ومنهمْ مَنْ ضَرَبَ هذا المَثَلَ لأنْ تكونَ كلمتُهُمْ واحدةً، ويُعينَ بعضُهُمْ بعضاً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ للأمرَينِ جميعاً، لأنهمْ إذا ثَبَتوا أعانَ بعضُهُمْ بعضاً، وكانَتْ كلمتُهُمْ واحدةً، وإذا كانَتْ كلمتُهُمْ واحدةً كانَ ذلكَ أدْعَى إلى الثباتِ وأقْرَبَ إليهِ. فَلِذلكَ قُلْنا: إنهُ يجوزُ للأمرَينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم المحبَّةُ تَحتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهما: [الرِّضا][3] عنِ الخَلْقِ، والثاني: الثَّناءُ عليهِمْ بما يَفْعَلونَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: تَنْبيهٌ لهمْ وإعلامٌ عن مُعامَلَةٍ اعْتادُوها في ما بَينَهُمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَموا فيها أذًى لموسى ﷺ نَحْوُ أنْ قالَ في حقِّ رسولِنا ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

فَيَجوزُ أنْ يكونوا، لا يُعِدّونَ تلكَ المُعامَلةَ أذًى لِموسَى ﷺ ولا يَعْلَمونَها، فأخبَرَهُمْ أنها تُؤذيهِ لِيَنْتَهوا عَنْ ذلكَ.

والثاني: أنهُ يجوزُ أنْ يكونوا عَلِموا أنَّ ذلكَ يُؤذيهِ، ولكنهمْ عانَدوهُ، وكابَروهُ، فَيُخبِرُهُمْ أنْ كيفَ ﴿تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقد عَلِموا أنَّ حَقَّ رُسُلِ الملوكِ التَّعْظيمُ والتَّبْجيلُ، فكيفَ رسولُ ربِّ العالمينَ؟ فأخبَرَهُمْ أنهمْ يُؤذونَهُ شِكايةً منهمْ إليهِمْ.

ثم اختَلَفوا في الأذَى؛ فقالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ كانَ لا يَكْشِفُ عنْ نفسِهِ، فآذَوهُ بأنْ قالوا: إنَّ في بَدَنِهِ آفةً ومَكْروهاً، وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ موسى ﷺ ذهبَ مع هارونَ ﷺ إلى جَبَلٍ، فَقُبِضَ هارونُ في ذلكَ الجبلِ، فآذَوهُ بأنْ قالوا: قَتَلَ موسى أخاهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كانوا يُؤذونَهُ بِألسنَتِهِمْ حينَ[4] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقالوا[5]: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقالوا[6]: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١].

ولكنَّ الوجْهَ ألّا يُشارَ إلى شيءٍ بعينِهِ.

فإنْ كانَ التأويلُ، هو الوَجْهُ الأوَّلُ: أنهمْ آذَوهُ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْلَموا أنَّ ذلكَ يُؤذيهِ فلا[7] يُصْرَفُ إليهِ شيءٌ مِنْ هذهِ الأوجُهِ الثلاثةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: التي. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: ويقولهم. (٦) في الأصل وم: ويقولهم. (٧) في الأصل وم: ألا.

وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثاني فكذلكَ، وإنْ كانَ على الوَجْهِ الثالثِ فجائزٌ[1] أنْ يُصْرَفَ إليهِ أيُّ الوجوهِ منها، واللهُ أعلَمُ.

ثم حَقُّ هذهِ في رسولِ اللهِ ﷺ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ بَنو إسرائيلَ آذَوا رسولَ اللهِ ﷺ فَذَكَّرَهُ اللهُ تعالى أمْرَ موسى ﷺ وإيذائِهِمْ إياهُ ليكونَ فيهِ تَصْبيرٌ[2] لِرسولِ اللهِ ﷺ وتسكينٌ[3] لِقَلْبِهِ.

[والثاني: أنهُ][4] يجوزُ أنْ يكونَ هذا تَحْذيراً لأصحابِهِ عنْ أنْ يَرْتَكِبوا ما يُخافُ أنْ يكونَ فيهِ أذاهُ ﷺ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ يَعْني خَلَقَ فِعْلَ الزَّيغِ في قلوبِهِمْ، يَعْني خَذَلَهُمُ اللهُ، وَوَكَلَهُمْ إلى أنفُسِهِمْ.

قالتِ المعتزلةُ مُحْتَجِّينَ علينا[5]: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] ذَكَرَ أنهُ إنما يُضِلُّهُ بَعْدَ ما فَسَقَ، وأنتُمْ تقولونَ: إنهُ يُضِلُّهُ، وهو يَهْدي.

قُلْنا: إنَّ هذا تَمْويهٌ علينا؛ وذلكَ أنا نقولُ: إنَّ اللهَ يُضِلُّهُ لِوَقْتِ اختيارِهِ الضَّلالَ، ويُزيغُهُ لِوَقْتِ اختيارِهِ الزَّيغَ، وإذا كانَ كذلكَ لم يَلْزَمْ ما قالتِ المعتزلةُ معَ أنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى يُضِلُّهُ بَعدَ ضَلالَتِهِ بنفسِهِ عُقوبةً لهُ، ويَزيدُهُ هُدًى بَعدَ اهْتِدائِهِ ثواباً لهُ، ولا يَسْتقيمُ ذلكَ[6]، لأنهُ قد نَراهُ في الشاهدِ يَكْفُرُ بَعْدَ إيمانِهِ، ويُؤمِنُ بعدَ كُفْرِهِ. وإذا كَفَرَ بَعدَ ما كانَ مؤمناً؛ وذلكَ وَقْتُ يَزيدُهُ اللهُ تعالى ثواباً لإيمانِهِ المُتَقَدِّمِ.

فإذا كَفَرَ، فكانتْ هدايةُ اللهِ تعالى سَبَباً لِكُفْرِهِ [المُتَقَدِّمِ][7] أو إذا آمَنَ مِنْ بَعْدِ ما كانَ كافراً وقتَ عقوبَتِهِ بالكُفْرِ، فكانَتْ عُقوبةُ اللهِ تعالى بالكُفْرِ على الكُفْرِ المُتَقَدِّمِ، كانَ سَبَباً للإيمانِ، وهذا كلامٌ مُسْتَقْبَحٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني الذينَ عَلِمَ اللهُ منهُمْ أنهمْ يَخْتارونَ الظُّلْمَ والكُفْرَ، فلا يَتوبونَ منهُ، ولا يَنْقَلِعونَ، فلا يَهْدي أولئكَ.

وأمّا مَنْ عَلِمَ منهمْ أنهُ يَتوبُ، ويُسْلِمُ، فإنهُ يَهْديهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ قولُهُ: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ يَحْتَمِلُ وجوهاً.

أحَدُها: أنْ يقولَ: جِئْتُ إليكُمْ بالبَعْثِ [الذي وُصِفَ][8] في التوراةِ أو ﴿مُّصَدِّقًا﴾ [ما][9] في التوراة وبِكُتُبِ اللهِ تعالى لِيُعْلِمَ أنَّ الرسُلَ كانَ يَلْزَمُهُمْ بالكتبِ المُتَقَدِّمَةِ والرسُلِ جميعاً كما يُلْزِمُ ذلكَ أمَّتَهُمْ، أو يقولُ: ﴿مُّصَدِّقًا﴾ يعني آمُرُكُمْ بِعبادةِ اللهِ ﷻ وتوحيدِهِ كما أُمِرْتُمْ بهِ في التوراةِ لِيُعْلِمَ أنَّ الرسلَ كانَ دينُهُمْ واحداً، وأنهمْ كلَّهُمْ يَدْعونَ إلى التوحيدِ وعبادةِ الرحمنِ.

وأمّا الشرائعُ فقد يجوزُ اخْتِلافُها، ولا يَدُلُّ على اخْتِلافٍ في الدينِ، لأنَّ الشرائعَ قد تَخْتَلِفُ في رسولٍ واحدٍ، ولا تَخْتَلِفُ في دينِهِ، فكذلكَ الرسُلُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ يعني مُبَشِّراً برسولٍ، يُصَدِّقُ بالتوراةِ على مِثْلِ تَصْديقي، فكأنهُ قيلَ لهُ: [ما][10] اسْمُهُ؟ فقالَ: اسْمُهُ أحمدُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الذي جاءَهُمْ عيسى ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: محمدٌ ﷺ وقد جاؤُوا جميعاً. وقولُهُ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالبيِّناتِ التي تُبَيِّنُ أنَّ الذي جاءَ بِهِ إنما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أو ساحرٌ[11] مُبينٌ. واخْتَلَفوا في مَنْ قيلَ لهُ: هذا؛ قالَ بعضُهُمْ: هو عيسى ﷺ وقالَ بعضُهُمْ: هو محمدٌ ﷺ وقد قالوا: لهما جميعاً.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تصبيراً. (٣) في الأصل وم: وتسكيناً. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: عليها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كذلك. (٧) من نسخة الحرم المكي: ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: التي وصفت. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١٣٨.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا قولُ أكابِرِ الكَفَرَةِ لِلضُّعَفاءِ منهمْ، وذلكَ أنهمْ لم يَجِدوا سَبَباً لِلتَّمويهِ سِوَى أنْ نَسَبوهُ إلى السِّحْرِ، وهذا يَدُلُّ أنهُ جاءَهُمْ بالآياتِ المُعْجِزَةِ حينَ[1] نَسَبوهُ إلى السِّحرِ، وقالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنّا / ٥٦٧ ـ أ/ لا نَعْلَمُ السِّحْرَ.

ولو كانَ الذي جاءَهُمْ بهِ سِحراً كانَ حُجَّةً عليهمْ لأنهمْ قد عَلِموا أنَّ الرُّسلَ لم يَختَلِفوا إلى السَّحَرَةِ، ولم يَتَعَلَّموا منهمْ، وكانَ لا يَتَهَيَّأُ لهمُ اختِراعُهُ مِنْ تِلْقاءِ أنفسِهِمْ؛ فلو كانَ سحراً كانَ حُجَّةً عليهمْ، لأنهمْ قد عَلِموا ما ذَكَرْنا، وإنَّ[2] اللهَ تعالى بَرَّأَهُ، ونَزَّهَهُ، مِنَ السِّحْرِ بِقولِهِ[3] تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الآية: ٨] نورُ اللهِ، يعني دينَ اللهِ وكتابَ اللهِ ورُسُلَ اللهِ، وقولُهُ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ليسَتْ عندَهُمْ حُجَّةٌ ولا مَعْنًى، يَدْفعونَ بهِ هذا النورَ سِوى أنْ يقولوا بألسنتِهِمْ: هذا سحرٌ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي ومَنْ أوحَشُ ظُلْماً أو أقبحُ مِمَّنْ بَلَغَ افْتِراؤُهُ المَبْلَغَ الذي يَفْتَري على اللهِ الكَذِبَ؟ لأنهمْ قد عَلِموا أنَّ الذي نالوهُ باللهِ، ثم كَفَروا بهِ، وكَذَبوا على اللهِ وعلى رسولِهِ.

أو يقولُ: لا أحدَ أظلَمُ مِمَّنْ يَفْتَري على اللهِ الكَذِبَ؛ وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ كلامُ استفهامٍ، ومَعْلومٌ أنَّ اللهَ تعالى لا يَسْتَفْهِمُ أحداً، وإذا كانَ كذلكَ كانَ حقُّ كلِّ ما خُرِّجَ مُخرجَ الاستِفْهامِ أنْ يُنْظَرَ إلى جوابِهِ لو كانَ يَسْتَفْهِمُ لِيُفْهَمَ منهُ مَعْنَى قولِ ربِّ العالَمينَ.

وإنما المَفْهومُ مِنْ جوابِ مَنْ يُسْتَفْهَمُ عنْ مِثْلِ هذا أنْ يقولَ: لا أحدَ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، واللهُ يَدْعو إلى الإسلامِ، وهو أنْ يَجْعَلَ الأشياءَ كلَّها سالِمَةً لهُ؛ فهو إذْ عَلِمَ أنَّ ما نالَهُ مِنْ نِعْمةٍ فإنما نالَهُ باللهِ تعالى، وعِلْمَ الأشياءِ كلِّها للهِ تعالى، فكيفَ افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ، وهو يَعْلَمُ [ذلكَ كلَّهُ][4]؟ فإذا عَلِمَ هذا فلا أحدَ أظْلَمُ منهُ حينَ[5] افْتَرى على اللهِ الكَذِبَ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ لهُ أوجهٌ:

أحَدُها: بالحُجَجِ والبراهينِ.

والثاني: بِنَصرِ أهلِهِ وغَلَبَتِهِمْ[6].

والثالثُ: بإظهارِهِ في الأماكنِ كلِّها.

فإنْ كانَ على النصرِ والغَلَبَةِ فقد كانَ حتى كانَ المشركونَ[7] في خَوفٍ، والمسلمونَ في أمنٍ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾؟ [الرعد: ٣١] وإلى ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرينِ»؟ [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦].

وإنْ كانَ بالحُجَجِ فقد [كانَ][8] أيضاً لأنهمْ عَجِزوا عنْ أنْ يأتُوا بما يُشْبِهُ أنْ يكونَ مَثَلاً لهُ فَضْلاً عنْ أنْ يأتُوا بِمِثْلِهِ. فَدَلَّ أنهُ قد أتَمَّ نورَهُ بالنصرِ والغَلَبَةِ والبراهينِ والحُجَجِ.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ إظهارَهُ فإنهُ يُرْجى أنْ يُظْهِرَهُ على ما رُوِيَ أنهُ إذا نَزَلَ عيسى، صلواتُ اللهِ عليهِ، لم يَبْقَ على وجهِ الأرضِ إلّا دينُ الإسلامِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ ليسَ فيهِ أنه كانَ بهِ شيءٌ مِنَ الكَدَرِ، فَصَفّاهُ، ولكنْ على ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ، فكذلكَ: لا يَجِبُ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] أنهُ كانَ ناقصاً، فأكْمَلَهُ بالشَّرائِعِ، ولكنهُ على هذهِ الوجوهِ؛ يَعْني أظْهَرَ الدينَ بالشَّرائِعِ التي وصَفْناها مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، واللهُ أعلَمُ.

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: ولكن. (٣) في الأصل وم: وقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وغلبته. (٧) في الأصل وم: المشركين. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقالَ حينَ ذَكَرَ الإظهارَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الآية: ٩] لأنَّ هؤلاءِ كَفَروا بالرسولِ والكتابِ [وكذلكَ بنعَمِ][1] اللهِ تعالى فقالَ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وأولئكَ أشركُوا بهِ في التوحيدِ، فقالَ: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يَعْني بما اتَّبعوهُ اهْتَدَوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لهُ أوجهٌ ثلاثةٌ.

أحَدُها: أنْ يَجْعَلَ الحقَّ كِنايةً عنِ اللهِ تعالى؛ فكأنهُ قالَ: ودينِ اللهِ[2].

والثاني: أنْ يَجْعَلَ الحقَّ نَعْتاً للدينِ؛ فكأنهُ قالَ: [ودينِ اللهِ][3] الذي هو الحقُّ مِنْ سائرِ الأديانِ.

والثالثُ: أنْ يقولَ: [ودينِ اللهِ][4] الذي يَحِقُّ على كلِّ أحدٍ قَبولُهُ والانْقِيادُ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يعني يُظْهِرَ رسولَهُ ﷺ على كلِّ ما يَحْتاجُ في هذا الدينِ مِنَ النَّوازِلِ، فيكونُ فيهِ بَيانٌ أنَّ ما جاءَ عنهُ ﷺ في هذهِ النَّوازِلِ إنما هو بالوَحْيِ وبما أظْهَرَهُ اللهُ تعالى عليهِ.

ويَحْتَمِلُ إظهارَ هذا الدينِ في الأماكِنِ كلِّها[5]، والدينُ، هو الخُضوعُ والاِسْتِسْلامُ للهِ تعالى. فَحَقيقَتُهُ أنْ يَجْعَلَ الأشياءَ كلَّها سالِمةً لهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ قالَ الشيخُ، رَحِمَهُ اللهُ: ويَقْتَضي هذا ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [قولَ][6] المعتزلةِ، لأنَّ إتمامَ نورِهِ إنْ كانَ بالحُجَجِ أو بالنَّصْرِ والغَلَبَةِ أو بإظهارِهِ في الأماكِنِ كلِّها فإنما يكونُ بأفعالِ العِبادِ، ثم أضافَهُ[7] اللهُ تعالى إلى نفسِهِ، فَثَبَتَ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً.

وإنْ كانَتْ أفعالُهُمْ كلُّها مخلوقةً للهِ فلا[8] تَخْرُجُ عن تَدْبيرِهِ ومَشيئَتِهِ، واللهُ المُسْتعانُ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمانُ باللهِ: أنْ يُؤمَنَ بأنهُ الواحدُ الأحدُ الصَّمَدُ الفَرْدُ الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣ و٤] ويُؤمَنَ بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، وأنهُ قادرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وعليمٌ، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، وحكيمٌ، لا يَخْرُجُ خَلْقُهُ الأشياءَ المُخْتَلِفَةَ مِنَ السَّرّاءِ والضَّراءِ والظُّلْمةِ والنُّورِ والمَرَضِ والصِّحَّةِ عنِ الحِكْمةِ[9]، وأنهُ ليسَ كما قالَتِ الثَّنَوِيَّةُ: إنهُ خالقُ الظُّلْمَةِ والشَّرِّ والقَبيحِ غيرُ خالقِ النورِ، بل يُعْلِمُهُمْ[10] أنهُ خالقُ كلِّ شيءٍ؛ سَوَاءٌ مِنْ ظُلْمةٍ ونورٍ وشَرٍّ وخَيرٍ وسُقْمٍ وصِحَّةٍ، لا على شَبيهٍ [كما][11] قالتِ المَجوسُ: إنَّ اللهَ تعالى غَفَلَ غَفْلَةً، فَتَوَلَّدَ منهُ الشيطانُ، بل هو لا يَغْفُلُ عن شيءٍ، ولا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، ولا على ما قالتِ النَّصارَى حينَ[12] شَبَّهوهُ بالخَلْقِ حتى أجازوا أنْ يكونَ لهُ ولدٌ، ولا على ما قالَتِ القَدَرِيَّةُ: إنهُ لا يُقَدِّرُ شيئاً مِنَ الشَّرِّ والسُّقْمِ ولا الوَجَعِ، ولا على ما قالَتِ المعتزلةُ: إنهُ ليسَ لهُ في أفعالِ [العبادِ][13] صُنْعٌ وتدبيرٌ، بل يَعْلَمُهُ عليماً بكلِّ شيءٍ قديراً[14] على كلِّ شيءٍ مُتَعالياً على كلِّ شيءٍ مِنْ مَعاني الخَلْقِ مُتَنَزِّهاً عن كلِّ آفةٍ وحاجةٍ وعَيبٍ. فهذا هو الإيمانُ باللهِ تعالى عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

والإيمانُ بالرسُلِ: أنْ يُؤمَنَ بأنَّ ما جاءَ بهِ ﷺ هو حقٌّ وصِدْقٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا على وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنْ تُقاتِلوا أعداءَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وذلك نعم. (٢) من م، في الأصل: الحق. (٣) في الأصل وم: والدين. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: قال. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أضاف. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل حكمه، في م: حكمته. (١٠) في الأصل وم: وذلك نعم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) من م، في الأصل: قدير.

والثاني: أنْ تُجاهِدوا في طاعةِ اللهِ وفي ما دَعَا إليهِ مِنْ عبادَتِهِ.

والجهادُ، يَنْصَرِفُ إلى أنواعٍ أربعةٍ: جِهادٌ في سَبيلِ اللهِ بِمُقابَلَةِ أعدائِهِ والاسْتِقْصاءِ في طاعتِهِ، وجِهادٌ في ما بَيْنَ يَدَيهِ وبَينَ نفسِهِ؛ أنْ يُجاهِدَ [العبدُ][1] في قَهْرِها ومَنْعِها عَنْ لَذّاتِها وشَهَواتِها وعمّا يَعْلَمُ أنهُ يُهْلِكُها، ويُرْديها، وجِهادٌ في ما بَيْنَهُ وبَينَ الخَلْقِ، وهو ألاّ[2] يَدَعَ الطَّمَعَ فيهمْ، ولا[3] يُشْفِقَ عليهمْ، ولا يَرْحَمَهُمْ، ولا يَرْجُوَهُمْ، ولا يَخافَهُمْ[4]، وجِهادٌ في ما بَيْنَهُ وبَينَ الدنيا، وهو أنْ يَتَّخِذَهُ زاداً لِمَعادِهِ أو مَرَمَّةً لِمَعاشِهِ، ولا يَأْخُذَ منها ما يَضُرُّهُ في عُقْباهُ. وكلُّ هذهِ الأنواعِ تَسْتَقيمُ أنْ نُسَمِّيَها جِهاداً في سَبيلِ اللهِ.

ثم إنَّ هذهِ الآيةَ تَنْتَظِمُ مسائلَ ثلاثةً[5]:

إحداها[6]: أنْ كيفَ أمَرَهُمْ بالإيمانِ بعدَ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؟

والثانيةُ[7]: أنْ كيفَ تُرْجَى لهُ النجاةُ إذا آمَنَ باللهِ ورسولِهِ، ولم يُجاهِدْ في سَبيلِ اللهِ، وقد عُلِّقَ بالكُلِّ؟

والثالثةُ[8]: أنْ كيفَ يُخافُ عليهِ العذابُ إذا آمَنَ باللهِ ورسولِهِ، وجاهَدَ في سَبيلِ اللهِ، وأَتَى بالكبيرةِ معَ قولِهِ: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟

أمّا الجوابُ عنِ المسألةِ الأولى فإنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ /٥٦٧ ـ ب/ المُرادُ مِنْ هذهِ الآيةِ أهلَ النِّفاقِ، فيكونُ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في الظاهرِ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي تُصَدِّقونَ بِقلوبِكُمْ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في أهلِ الكتابِ أيضاً؛ فكأنهُ قالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالكتبِ المُتَقَدِّمةِ آمِنوا باللهِ وبمحمدٍ ﷺ وبهذا الكتابِ إذا كانَ في الكفارِ.

فأمّا إذا كانَ في المؤمنينَ فيجوزُ[9] أنْ يكونَ أمْرُهُ[10] بالإيمانِ بَعدَ ما آمنوا بِمَعْنَى الثَّباتِ عليهِ أو الزِّيادةِ وبِحَقِّ التَّجَدُّدِ، لأنَّ[11] الإيمانَ في حادثِ الأوقاتِ لهُ أسماءٌ ثلاثةٌ: الزِّيادةُ والثَّباتُ والتَّجَدُّدُ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا النوعَ في كِتابِهِ مَرَّةً باسْمِ الزِّيادةِ حينَ[12] قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] ومَرَّةً باسْمِ الثَّباتِ بقولِهِ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] ومَرَّةً [باسْمِ][13] الإيمانِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

فإذا كانَ على الزِّيادةِ والثَّباتِ فذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ وذلكَ أنَّ الزِّيادةَ والثَّباتَ، هما اسْمانِ، يُطْلَقانِ على فِعْلٍ دائمٍ، وفِعْلُ الإيمانِ مُنْقَضٍ.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ جَعَلَ المُنْقَضِيَ كالدائمِ، فَيَخْرُجَ هذا الفِعْلُ مَخْرَجَ الزِّيادةِ والثَّباتِ، واللهُ أعلَمُ.

وإذا كانَ على التَّجَدُّدِ في الأوقاتِ الحادثةِ [فذلكَ][14] مُسْتَقيمٌ؛ وذلكَ لأنَّ المرءَ مَنْهِيٌّ عنِ الكُفْرِ في كلِّ وقتٍ يأتي عليهِ [فهو][15] إذا أتَى بالإيمانِ في ذلكَ الوَقْتِ انْتَهَى عنِ الكُفْرِ، فصارَ لإيمانِهِ حُكْمُ التَّجَدُّدِ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الاعْتِقادَ.

وإذا كانَ المُرادُ منهُ ذلكَ، وأَتَى بما أُمِرَ مِنَ الاعْتِقادِ بهذهِ الأمورِ، ولكنهُ لم يَفِ بالفِعْلِ، فهو في رَجاءٍ مِنَ النجاةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَعْني ذلكَ الذي أَمَرَكُمْ بهِ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ورسولِهِ والجِهادِ في سبيلِهِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ أن تَتَّبِعوا أهواءَكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يَعْني إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ عِياناً؛ يُعْلِمُهُمْ أنَّ ذلكَ خَيرٌ لهمْ[16].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: وأن. (٤) في الأصل وم: يخافوهم. (٥) في الأصل وم: ثلاثاً. (٦) في الأصل وم: أحدها. (٧) في الأصل وم: والثاني. (٨) في الأصل وم: والثالث. (٩) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل: أن، في م: وأن. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٦) في الأصل وم: لكم.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ يعني ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ بتلك النجاةِ ﴿ذُنُوبَكُمۡ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ رغَّبَهُمْ في هذهِ الآيةِ بِما أمَرَهُمْ بِتَرْكِها؛ وذلكَ أنهُ أمَرَهُمْ بِمفارقةِ مساكِنِهِمْ وإنْفاقِ أموالِهِمْ والجِهادِ[1] بأنفسِهِمْ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ إذا فَعَلوا ذلكَ آتاهُمْ مَكانَ كُلِّ ما فاتَ عنهمْ خيراً[2] منها مَكانَ ما أفْنَوا مِنْ حَياتِهِمْ وأنفسِهِمْ يُؤْتيهِمْ حياةً دائمةً باقيةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يعني ذلك الثَّوابُ الدَّائمُ، هو الفوزُ العَظيمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ فكأنهُ يقولُ: يُعْطيكُمُ اللهُ بتلكَ التجارةِ التي دَلَّكُمْ عليها ما ذَكَرَ مِنَ الثَّوابِ في الآجِلِ ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على أعدائِكُمْ وفتْحُ البلادِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بهما. وقد فَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ لهمْ[3].

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ هذا كلامٌ، يُورِثُ شُبْهَةً في القَلْبِ: أنْ كيفَ قالَ: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ واللهُ تعالى، لا يُخافُ حتى يَسْتَنْصِرَ عليهِ غَيرَهُ؟ ولكنَّ السَّبيلَ في كَشْفِ هذهِ الغُمَّةِ عنِ القلوبِ، هو أنَّ المَعْنى في هذا وفي قولِهِ ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ [المزمل: ٢٠] وقد وَصَفْنا في ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ ما يَصِلونَ بهِ أرحامَهُمْ، ويَتَصَدَّقونَ بهِ على الفقراءِ، كأنهمْ أقْرَضوا اللهَ كَرَماً منهُ وفَضْلاً ولُطْفاً. فكذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَعَلَ ما يَنْصُرونَ بهِ دينَهُ أو رسولَهُ نَصْرَ اللهِ تعالى.

وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧] والمَعْنى في هذا: إنْ تَنْصُروا دينَ اللهِ يَنْصُرْكُمْ، أو إنْ تَنْصُروا رسولَ اللهِ ﷺ أو إنْ تَنْصُروا الحَقَّ، واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ كانَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ: أيِ اجْعَلوا ما تَنْصُرونَ بهِ دينَكُمْ للهِ تعالى ولِوَجْهِهِ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾ [أيِ][4] اجْعَلوا ذلكَ للهِ تعالى ولِوَجْهِهِ الكريمِ.

ولا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ في هذهِ الآيةِ إضمارٌ: إمّا في الابْتِداءِ [وإمّا][5] في الانْتِهاءِ حتى تَستقيمَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ كأنهُ يقولُ: قُلْ للذينَ ﴿ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أو يكونُ مَعْناهُ وإضمارُهُ في حقِّ الإجابةِ؛ أي أجيبوا اللهَ ورسولَهُ، وكونوا أنصاراً لهُ كما أجابَ قومُ عيسى بقولِهِمْ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾.

[والحَوارِيّونَ: الناصِرونَ الواقونَ][6] دينَهُمْ عنِ الشُّبْهَةِ، وهُمْ قومٌ كانوا خِيرَةَ عيسى عليه السلام وخاصَّتَهُ حينَ[7] دعاهُمْ إلى دينِهِ، فأجابوهُ، وآمَنوا بهِ، ووَقَوا[8] دينَهُمْ عنْ كلِّ شُبْهَةٍ وآفةٍ وعَيبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في حياةِ عيسى عليه السلام حينَ اتَّبَعَهُ الحَوارِيّونَ، ثم دَعا بَعْدَ ذلكَ قومَهُ إلى دينِهِ، فآمَنَتْ طائفةٌ ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالبَراهينِ والحُجَجِ على الطائفةِ الذينَ كَفَروا، فأصْبَحوا ظاهِرينَ على أعدائِهِمْ بالحُجَجِ والبَراهينِ.

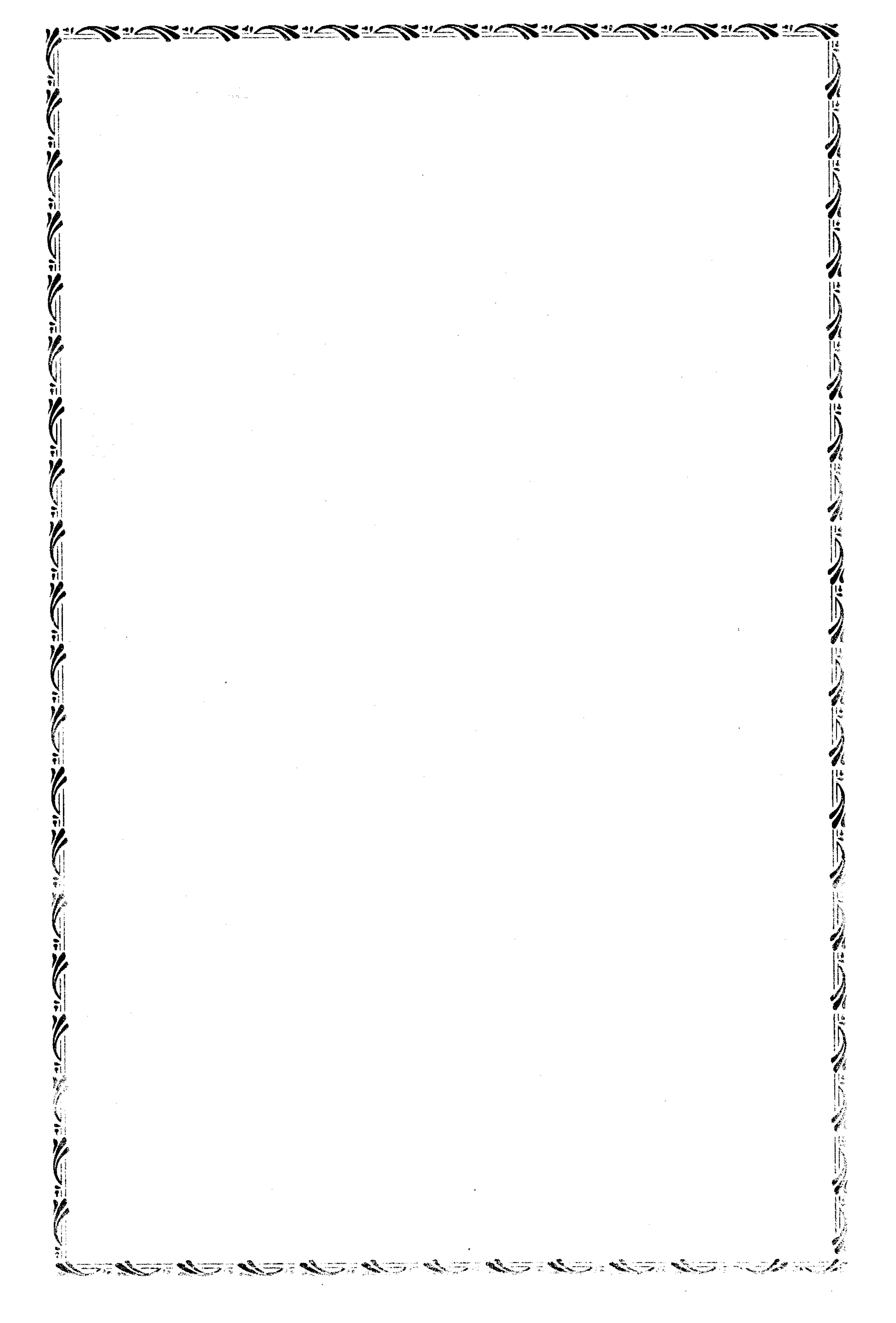
ويجوزُ أنْ يكونَ [ذلكَ][9] بَعْدَ وَفاةِ عيسى عليه السلام حينَ اخْتَلَفوا في ماهِيَّتِهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: هوَ اللهُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هوَ ابْنُ اللهِ، فَكَفَرَتْ بهِ هذهِ الطائفةُ، وآمَنَتْ بهِ طائفةٌ أُخْرى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ حينَ وَقَعَ لهمْ قِتالٌ، فَنُصِروا عليهِمْ، وظَفِروا، واللهُ أعلَمُ.

تَمَّتِ السُّورةُ بِحَمْدِ اللهِ وحُسْنِ تَوفيقِهِ، والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

---

(١) من م، في الأصل: بالجهاد. (٢) في الأصل وم: خير. (٣) في الأصل وم: بهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) في الأصل وم: والحواريون المنصورين المتقون. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في الأصل وم: وتقوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.



سورة الجمعة

وهي كلها مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ولم يَقُلْ: يُسَبِّحُ اللهَ؛ وقد جَرَتِ [العادةُ][1] في الناسِ التَّسْبيحَ بالألِفِ كقولِهِمْ: سُبْحانَ اللهِ، وسُبْحانَ ربيَ العظيمِ. فكانَ حقُّ هذا القولِ على ما جَرَتْ بِهِ العادةُ في اللسانِ أنْ يقولَ: يُسَبِّحُ اللهَ ما في السمواتِ وما في الأرض.

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا مِنْ نَوعِ ما يَجْري فيهِ اللَّفظانِ جميعاً كما يُقالُ: شَكَرَهُ، وشَكَرَ لهُ، ونَصَحَهُ، ونَصَحَ لهُ والتَّسْبيحُ يَحْتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: تَسْبيحُ الخِلْقَة: أنكَ إذا نَظَرْتَ إلى كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ والتَّعْيينِ دَلَّكَ جَوهَرُهُ وخِلْقَتُهُ على /٥٦٨ ـ أ/ وَحْدانِيَّةِ اللهِ تعالى وعلى تَعاليهِ عنِ الأشياءِ وبَراءَتِهِ مِنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ، فَذَلِكَ من كلِّ شيءٍ تَسْبيحُهُ.

والثاني: تسبيحُ المعرفةِ؛ ووجهُ ذلكَ أنْ يَجْعَلَ اللهُ تعالى بِلطفِهِ في كلِّ شيءٍ حَقيقةَ المَعْرفةِ لِيَعْرِفَ اللهَ، ويُنَزِّهَهُ[2] وإنْ كانَ لا تَبْلُغُهُ عقولُنا.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؟ [الإسراء: ٤٤].

ولكنْ عندَنا بواسطةِ إحداثِ نوعِ حياةٍ فيهِ؛ إذِ المَعْرِفةُ بدونِ الحياةِ، لا تَتَحَقَّقُ.

والوجهُ الثالثُ: هو أنْ يكونَ التَّسْبيحُ تَسْبيحَ ضَرورةٍ وتَلْقينٍ؛ ووجْهُهُ أنَّ اللهَ تعالى يُجْري التَّسْبيحَ على ذلكَ الجوهرِ مِنْ غَيرِ أنْ تكونَ لهُ حَقيقةُ المَعْرِفةِ كما أظْهَرَ مِنْ آياتِهِ وأعلامِهِ على عَصا موسى، وكما أجْرَى السفينةَ على وَجْهِ الماءِ، وإنْ لم يكنْ لهما حَقيقةُ المَعْرِفةِ، وذلكَ تسبيحُ كلِّ شيءٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ يَعْني المَلِكَ الذي لهُ مُلْكُ الملوكِ، والذي لهُ المُلْكُ في الحقيقةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: الطاهرُ مِنْ كُلِّ عَيبٍ وآفةٍ وحاجةٍ، والطاهرُ ممّا يَحْتَمِلُهُ غَيرُهُ.

والثاني: المُبارَكُ؛ يَعْني بِهِ تُنالُ كلُّ بَرَكةٍ وخَيرٍ، ويجوزُ أنْ يُجْمَعَ في المباركِ مَعْنَى التَّنْزيهِ مِنَ العُيوبِ ومَعْنَى البَرَكةِ، لأنكَ إذا [وَصَفْتَهُ بالبَرَكةِ فقد][3] وَصَفْتَهُ بالبَراءةِ مِنْ كلِّ عيبٍ، وأضَفْتَ إليهِ كلَّ بَرَكةٍ ويُمْنٍ.

كما رُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ قولَهُ [ﷺ][4]: «سُبْحانَ اللهِ نِصْفُ الميزانِ، والحَمْدُ للهِ مِلْءُ الميزانِ...» [أحمد ٤/ ٢٦٠].

وكانَ معناهما عندَنا: أنَّ قولَهُ: «سُبْحانَ اللهِ» يَخْتَصُّ بِتَبْرِئَتِهِ مِنَ العُيوبِ، «والحمدُ للهِ» يَنْتَظِمُ مَعْنَى التَّنْزيهِ مِنَ العُيوبِ ومَعْنَى إضافةِ النِّعَمِ كلِّها إليهِ. فإذا كانَ فيه هذانِ المَعْنَيانِ جميعاً جازَ أنْ يَمْتَلِئَ بِهِ الميزانُ. ولَمّا اخْتَصَّ: «سُبْحانَ اللهِ» بِتَطْهيرِهِ مِنَ العُيوبِ، ولم يَتَعَدَّهُ إلى غَيرِهِ أخذَ نِصْفَ الميزانِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وينزهه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم.

وكذلك هذا الاختلافُ في تأويلِ قولِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ يعني الغالبَ القاهرَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، أو يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مُقابِلَ الذليلِ [والذليلُ][1] يَنْتَظِمُ كلَّ فَقْرٍ وحاجةٍ وضَعْفٍ، فالواجبُ أنْ يَنْتَظِمَ العزيزُ، إذا كانَ ضِدّاً لهُ ومُقابِلاً كلَّ شَرَفٍ ومَكْرُمَةٍ وغِنًى وقُوَّةٍ، واللهُ الموفِّقُ.

و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ قالوا: هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضِعَها؛ فاللهُ تعالى حكيمٌ حينَ[2] وَضَعَ الأشياءَ مَواضِعَها التي جَعَلَها اللهُ مَواضِعَ لها، أوِ ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التَّدْبيرِ، وهو مَعْنَى المُصيبِ أيضاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ احْتَجَّ أهلُ الكتابِ علينا أنَّ اللهَ تعالى إنما بَعَثَ محمداً رسولاً إلى الأُمِّيِّينَ خاصَّةً بهذهِ الآيةِ، وفَهِموا منها تَخصيصَ الأُمِّيِّينَ بإرسالِ الرسولِ إليهِمْ، فَيَقْتَضي نَفْيَهُ عنْ غَيرِهِمْ.

ولكنْ نقولُ: لا يَجبُ أنْ يُفْهَمَ مِنَ الآيةِ نَفْيَ ما ذَكَرَ في ظاهِرِها بل يُفْهَمُ منها ظاهِرُها دونَ النَّفْيِ، والتَّخصيصُ بالذِّكْرِ لا يُحْتَمَلُ لأنهُ إذا حُمِلَ التَّخصيصُ بالذِّكْرِ على نَفْيِ غَيرِهِ أدّى إلى ما لا يَسْتَقيمُ، ولا يَحِلُّ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾؟ [العنكبوت: ٤٨] حينَ[3] لم يُفْهَمْ أنهُ لم يَخُطَّهُ بيمينِهِ إنْ كانَ خَطَّهُ بِشِمالِهِ، ولا مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ﴾ أنهُ كانَ يُتْلَى عليهِ.

ولكنَّ المَعْنَى مِنْ ذلكَ كلِّهِ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ بَعَثَ رسولَهُ أُمِّيًا في قومٍ أُمِّيِّينَ، لا يَعْلَمونَ الحِكْمَةَ وماهِيَّتَها، وجَعَلَ ذلكَ آيَةً لِرِسالتِهِ وحُجَّةً لِنُبُوَّتِهِ، لأنهُ إذا كانَ أُمِّيًا، لا يكتبُ، ولا يَقْرأُ الكتبَ، ثم أتاهُمْ [بالكتابِ مُؤلَّفاً مَنظوماً][4] يُوافِقُ كتبَ أهلِ الكتابِ، دَلَّ أنهُ إنما عَلِمَ ذلكَ بالوَحْيِ، وأنهُ لم يَخْتَلِقْهُ مِنْ عندِ نفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الدليلُ على أنهُ كانَ رسولاً إليهِمْ جميعاً قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨] وما رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسودِ» [مسلم/ ٥٢١] يعني إلى الإنسِ والجِنِّ، ولأجلِ أنهُ لمّا بُعِثَ إلى طائفةٍ لِيَدْعُوَهُمْ إلى طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِهِ عُلِمَ أنهُ رسولٌ إلى غَيرِهِمْ؛ إذْ لم يكُنْ لهمْ رسولٌ آخَرُ، لأنَّ الطائفةَ الأُخْرَى إنْ لم يَكُنْ رسولٌ آخَرُ، واحتاجوا إلى مَعْرِفةِ الأمْرِ والنَّهْيِ وإلى طاعةِ الرحمنِ حاجةَ الطائفةِ التي بُعِثَ إليهِمْ، دَلَّ أنهُ رسولٌ إليهِمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مَعْناهُ أنهُ بَعَثَ ﷺ في قومٍ أُمِّيِّينَ، لا يَعْرِفونَ عبادةَ اللهِ، ولا يَقْرَؤونَ الكتابَ، بل كانَتْ عبادَتُهُمْ عبادةَ الأصنامِ.

وقيلَ في تأويلِ الأُمِّيِّينَ: هُمُ الذينَ لم يُؤْمِنوا بالكتبِ. ولكنَّ هذا فسادٌ، لأنَّ اللهَ تعالى سَمَّى نَبِيَّهُ ﷺ أُمِّيًا بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقيلَ: سَمّاهُمْ أُمِّيِّينَ لأنهمْ لا يَقْرَؤونَ عنِ الكتابِ، ولا يَكْتُبونَ على الأعَمِّ الأغْلَبِ، وإنْ كانَ فيهمُ القليلُ مِمَّنْ يَقْرأُ، ويَكْتُبُ، ومِنْ هذا سُمِّيَ النَّبِيُّ ﷺ أُمِّيًا لأنه كانَ لا يَكْتُبُ، ولا يَقْرأُ عنْ كتابٍ، ولم يَعْلَمْ ذلكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وعلى ذلكَ رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ قالَ:][5] «الشهرُ كذا، وأشارَ بأصابِعِهِ» [مسلم ١٠٨٠/ ١٣] وقالَ: «إنما نحنُ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَحْسُبُ ولا نَكْتُبُ» [البخاري ١٩١٣].

وقالَ الزَّجّاجُ: الأُمِّيُّ، هو الذي لا يُحْسِنُ القِراءةَ والكتابةَ، ولم يَتَعَلَّمْ، ويكونُ على ما سَقَطَ مِنْ أُمِّهِ، فَنُسِبَ إلى حالِ وِلادتِهِ التي سَقَطَ مِنْ أُمِّهِ، لأنَّ ذلكَ إنما يكونُ بالتَّعْليمِ دونَ الحالِ التي يَجْري عليها المَولودُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: الكتاب مؤلف منظوم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ثم وجهُ الحِكْمَةِ في جَعْلِ النُّبُوَّةِ في الأُمِّيِّ أنْ يكونَ ذلكَ سببَ مَعْرِفةِ نُبُوَّتِهِ وعلامةَ رسالتِهِ بحيثُ يُعْلَمُ أنهُ ما اخْتَرَعَ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، إذْ لم يَعْرِفِ الكتابةَ والقراءةَ، ولا اخْتَلَفَ إلى أحدٍ لِيَتَعَلَّمَ منهُ.

ثم أَحْوَجَ جميعَ الحكماءِ إلى حكمتِهِ، وجميعَ أهلِ الكتابِ إلى مَعْرِفةِ كتابِهِ لِحُسْنِ نَظْمِهِ وتأليفِهِ لِيُعْلَمَ أنهُ إنما نالَهُ بالوحْيِ والرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الآياتُ الأعلامُ؛ فكأنهُ يقولُ: يَتْلو عليهمْ في كتابِهِ أعلاماً تُبَيِّنُ رسالَتَهُ، وتُظْهِرُ نُبُوَّتَهُ. أو يجوزُ أنْ تكونَ الآياتُ الحلالَ والحرامَ وما أشْبَهَهما[1] أوِ الآياتُ: الحُجَجَ التي يُسْتَظْهَرُ بها الحَقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يُصْلِحُهُمْ؛ يعني يَدْعوهُمْ إلى اتباعِ ما يَصيرونَ أزكياءَ أتقياءَ.

ويجوزُ [أنْ يكونَ][2] مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي يُطَهِّرُهُمْ مِنْ خُبْثِ الشِّرْكِ وخُبْثِ الأخلاقِ وخُبْثِ الأقوالِ والأفعالِ[3]، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ اختَلَفوا فيهِ: قالَ الحَسَنُ: هذا كلامٌ: مُثَنًّى الكتابِ والحكمةِ، واحدٌ. وقالَ أبو بكرٍ: الكتابُ ما يُتْلَى مِنَ الآياتِ، والحِكْمةُ هي الفرائضُ.

وقال بعضُهُمْ: الحِكْمةُ، هي السُّنَّةُ، لأنهُ كانَ يَتْلو عليهِمْ آياتِهِ، ويُعَلِّمُهُمْ سُنَّتَهُ إمّا بِلُطْفِ[4] مِنَ اللهِ تعالى وإلهامِهِ إياهُ [وإمّا][5] بالوَحْيِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: الكتابُ ما يُتْلَى مِنَ الآياتِ نَصّاً، والحِكْمةُ ما أُودِعَ فيها مِنَ المعاني: أيَّ ذلكَ كانَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنهمْ كانوا عنِ الكتابِ والحِكْمةِ لَفي ضَلالٍ بَيِّنٍ ظاهرٍ، لأنهمْ كانوا مُشْركينَ عَبَدَةَ الأصنامِ، ليسَ عندَهمْ كتابٌ، ولا يَعْرِفونَ الحِكْمةَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في الشِّرْكِ وعِبادةِ الأصنامِ، فَدَعاهُمُ الرسولُ ﷺ إلى توحيدِهِ وتَرْكِ ما هُمْ فيهِ مِنْ عِبادةِ الأصنامِ.

قالَ الفقيهُ، رَحْمةُ اللهِ عليه: وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذْ جَعَلَهُمْ أتقياءَ أزكياءَ عُلَماءَ بَعْدَ /٥٦٨ ـ ب/ ما كانوا أُمِّيِّينَ جُهّالاً سُفهاءَ، آيةٌ ودلالةٌ على حَقِّيَّةِ دينِهِ ﷺ على سائرِ الأديانِ حينَ[6] لم يكُنْ أهلُها كذلكَ، ويكونُ فيهِ ترغيبٌ[7] للآخَرينَ لِيَصيروا عُلَماءَ حُكَماءَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا تعليماً مِنَ اللهِ تعالى، أنهُ جَعَلَهُمْ عُلَماءَ بَعْدَ ما كانوا جُهَلاءَ وحُكَماءَ بَعْدَ ما كانوا سُفَهاءَ وأزكياءَ بَعْدَ ما كانوا أنجاساً وأقذاراً عَبَدَةَ الأوثانِ، وذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تعالى.

ثم الأصلُ أنَّ ما أُضيفَ مِنْ هذهِ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى، فهو على حقيقةِ الوجودِ، وما أُضيفَ إلى الرسولِ ﷺ فهو على الأسبابِ؛ وذلكَ أنهُ لا يجوزُ أنْ يُعَلِّمَ اللهُ تعالى أحداً، فلا يَصيرُ عالماً، لأنَّ تَعْليمَهُ خَلْقُ العِلْمِ في المَحَلِّ الذي أرادَ، وخَلَقَ[8]، يكونُ لا مَحالةَ.

فأمّا [ما][9] يجوزُ أنْ يُعَلِّمَهُ البَشَرُ، فلا يَتَعَلَّمُهُ، لأنَّ تَعْليمَهُ بِسَبَبٍ، لأنهُ ليسَ لهُ قُدْرةُ الخَلْقِ والإيجادِ، فَثَبَتَ أنهُ على جِهَةِ السببِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ فإنْ كانَ مَعْناهُ الخَفْضَ، فهو مَنسوقٌ على قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وفي الآخَرينَ: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنَّ رسالتَهُ تَبْقَى إلى آخِرِ الدَّهرِ، وإنْ كانَ مَعْناهُ النَّصْبَ فهو منسوقٌ على قولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيكونُ فيهِ بِشارةٌ أنهُ يكونُ في الآخَرينَ علماءُ أتقياءُ حُكَماءُ كما كانَ في هؤلاءِ.

---

(١) في الأصل وم: أشبهه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م. (٤) من م، في الأصل: بلطفه. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: ترغيباً. (٨) أدرج قبلها في م: وما أراد. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ بعضُهُمْ: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في [أهلِ][1] النِّفاقِ، فيكونُ معناهُ: هو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسولاً، فَيَصيرونَ علماءَ حُكَماءَ مؤمنينَ على الحقيقةِ في الظاهرِ والباطنِ، وآخرينَ مِنْ هؤلاءِ الأُمِّيِّينَ في الظاهرِ لمّا يَلْحَقوا بهِمْ في الباطنِ. والتّأويلُ الأوّلُ أصَحُّ وأقربُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ حينَ[2] جَعَلَ في كلِّ واحدٍ مِنَ البَشَرِ أثَرَ الذُّلِّ بِهِ والفَقْرِ بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمْرِهِ حينَ[3] أمَرَهُمْ بالحِكْمةِ، أوِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيرِهِ حينَ[4] خَلَقَ الأشياءَ المُتَضادَّةَ مِنْ نَحْوِ النورِ والظُّلْمةِ والليلِ والنهارِ لأنهُ وَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، لم يَخْلُطْ ظُلْمَةً بنورٍ ولا نوراً بِظُلْمةٍ ولا ليلاً بنهارٍ ولا نهاراً بليلٍ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني ذلكَ الفضلُ النُّبُوَّةُ والرسالةُ ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يعني يَخْلُقُ مِنَ البَشَرِ مَنْ يَصْلُحُ لِلنُّبُوَّةِ والرسالةِ، أو ذلكَ الفَضْلُ مِنْ تَعْليمِ الكتابِ والحِكْمَةِ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

وفيهِ دلالةٌ على كَذِبِ قولِ المعتزلةِ، لأنَّ مِنْ قولِهِمْ: أنَّ اللهَ لا يُؤتي أحداً بفضلٍ، بل حَقٌّ عليهِ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ. فإنْ كانَ هذا على اللهِ فِعْلُهُ كانَ ذلكَ حقّاً يَقْضيهِ، ومَنْ قَضَى حقًّا فليسَ يُوصَفُ[5] بالفَضْلِ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى نفسَهُ بالفضلِ، فَثَبَتَ بهذا كَذِبُ قولِهِمْ، واللهُ الموفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي ذو الفَضْلِ العظيمِ في الدنيا حينَ[6] تَفَضَّلَ عليهِمْ بالكتابِ والحِكْمةِ بَعْدَ ما كانوا جُهّالاً. أو يجوزُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرةِ: أنَّ اللهَ يَجْزيهِمْ عنْ أعمالِهِمُ الجنةَ فَضْلاً منهُ عليهِمْ.

[وقولُهُ تعالى:][7] ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الدائمُ الباقي، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لهُ أوجهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا كنايةً عنِ العملِ؛ يَعْني حُمِّلوا العملَ بما في التوراةِ، فلم يَعْمَلوا بهِ[8].

والثاني: أنْ يقولَ: ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ يَعْني لم يَحْمِلوها إلى مَنْ أُمِروا بِحَمْلِها إليهِمْ على ما أُمِروا، لأنهمْ حَرَّفوا، وبَدَّلوا.

[والثالثُ][9]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ كَذَّبوا بالتوراةِ، وتَلَقَّوها بالعِنادِ والتَّكذيبِ، فلم يَنْتَفِعوا بها، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الحِمارِ، يَحْمِلُ كُتُباً، لا يَعْلَمُ قَدْرَها وخَطَرَها كما قالَ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ لأنهمْ، وإنْ عَرَفوا التوراةَ، فحينَ لم يُعَظِّموها حقَّ تَعْظيمِها، وكَذَّبوا بما فيها، كانوا كأنهمْ لا يَعْرِفونَ قَدْرَها وخَطَرَها، فصارَ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الحِمارِ يَحْمِلُ الكتبَ، لا يَعْلَمُ قَدْرَها وخَطَرَها.

وهذا التأويلُ أقربُ، لأنهُ قالَ في سِياقِ هذهِ الآيةِ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فَثَبَتَ أنَّ المَعْنى مِنَ الأوّلِ التكذيبُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: ثم معلومٌ أنَّ هذا التَّكذيبَ والتَّحْريفَ إنما كانَ مِنْ عَمَلِ كُبَرائِهِمْ ورُؤَسائِهِمْ، فأخْبَرَ أنهمْ كَذَّبوا، ولم يَعرِفوا قَدْرَها حينَ كَذَبوا لِيَزْجروا مَنْفَعَتَهُمْ عنْ أتباعِهِمْ، وبَيَّنَ أنَّ رُؤَساءَهُمْ ليسوا مِمَّنْ يَسْتَحِقّونَ الأتباعَ.

وفيهِ أيضاً زَجْرٌ لِلْمُسلمينَ أنْ يَسْتَخِفّوا كتابَ اللهِ [وألّا يَعْمَلوا][10] بما فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنْ يقولَ: بِئسَ النَّعْتُ والصِّفةُ صِفَةُ الذينَ بَلَغَ كَذِبُهُمْ مَبْلَغاً كَذَبوا على اللهِ، لأنَّ الكاذبَ في الميعادِ مَوصوفٌ بالشَّرِّ. إذا بَلَغَ كَذِبُهُ مَبْلَغاً، يُكَذِّبُ على اللهِ تعالى، عُلِمَ أنهُ في النهايةِ في الشَّرِّ؛ وكأنهُ يقولُ: صفةُ الذين كَذَبوا على اللهِ في الغايةِ مِنَ الشَّرِّ والقُبْحِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: فكيف. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بها. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) في الأصل وم: والعمل.

[والثاني][1]: يقولُ ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ اللهَ تعالى ضَرَبَ أمثالَ المُشركينَ بكلِّ ما يُستَخبَثُ، ويُستَقبَحُ، وضَرَبَ أمثالَ المؤمنينَ بكلِّ حَسَنٍ وطيبٍ؛ فقالَ: المَثَلُ يعني السُّنَّةَ التي هي سُنَّةُ اللهِ تعالى [ومَثَلُ المُكَذِّبينَ][2] بآياتِهِ: سُنَّةُ قُبحٍ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى، يَخلُقُ القَبيحَ والحَسَنَ والخَبيثَ والطَّيِّبَ جميعاً، لأنَّ قولَهُ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ وذلكَ المَثَلُ الذي شَبَّهَهُمْ بهِ ممّا خَلَقَهُ، وقد سَمّاهُ: بِئساً، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى قد خَلَقَ الخبيثَ والطَّيِّبَ والقَبيحَ والحَسَنَ.

وعندَ المعتزلةِ لم يَخلُقْ إلّا الحَسَنَ، فتكونُ الآيةُ حُجَّةً عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: أنهُ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لِوَقْتِ اختيارِهِمُ الظُّلْمَ والفِسْقَ، أو لا يَهْديهِمْ بِظُلْمِهِمُ الآياتِ ومُكابَرَتِهِمْ وعِنادِهِمْ إياها، فهو لا يَهْدي هؤلاءِ.

[والثاني:][3] أمّا مَنْ ظَلَمَ عنْ جَهْلٍ أو فِسْقٍ، ثم استَرْشَدَ، فإنهُ يهديهِ، ويُرْشِدُهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كقولِهِ[4] في مَوضعٍ آخرَ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

فكانَ في هذا بيانٌ أنَّ مَنْ كانَ مِنْ أوليائِهِ فَلَهُ الدارُ الآخِرَةُ عندَ اللهِ خالصةٌ، ومَنْ كانَتْ لهُ الدارُ الآخِرَةُ فهو مِنْ أوليائِهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ما لهما جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم المُباهَلَةُ في المُتعارَفِ إنما هي المُحاجَّةُ في بلوغِ العِنادِ والتَّمَرُّدِ غايَتَهُ؛ فكأنهُ لمّا قُرِّرَتْ عندَهُمْ جميعُ الحُجَجِ، فلم يَقْبَلوها، أمَرَهُ بالمُباهلةِ، فلم[5] يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى، لأنهُ يجوزُ أنْ قد كانَتْ[6] في كتابِهِمْ هذا، وإنَّ[7] المُباهَلَةَ مِنْ غايةِ المُحادَّةِ، وإنَّ مَنْ باهَلَ نَزَلَ عليهِ العذابُ واللعنةُ إنْ لم يَكُنْ مُحِقّاً. فكذلكَ امْتَنَعوا مِنَ المُباهَلَةِ.

وأمّا العربُ مِنَ المُشركينَ فلم يَكُنْ لهمْ كتابٌ يَعْرِفونَ بهِ حُكْمَ المُباهَلَةِ، فَباهَلوا؛ وذلكَ أنهُ رُوِيَ أنَّ أبا جَهْلٍ كانَ يقولُ: اللهمَّ انْصُرْ أحَبَّنا إليكَ وأقْرانا لِلضَّيفِ وأوصَلَنا لِلرَّحِمِ، فَنَصَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ فأبو جَهْلٍ باهَلَهُ لأنهُ لم يَكُنْ لهُ كتابٌ، ولم يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى لِما كانَتْ لهمْ كتبٌ عَرَفوا فيها حُكْمَ المُباهَلَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هذه /٥٦٩ ـ أ/ الآيةُ تَدُلُّ على رسالةِ رسولِنا ﷺ لأنهُ لو كانَ يقولُهُ مِنْ نفسِهِ، لكانوا[8] يُبادِرونَ، فَيَتَمَنَّونَ المَوتَ للحالِ، لِيَظْهَرَ كَذِبُهُ فيه. فلمّا أخبَرَ أنهمْ[9] لا يَتَمَنَّونَهُ أبداً، ولم يَتَمَنَّوهُ، تَبَيَّنَ أنهُ قالَ مِنَ الوَحْيِ، وأنهمْ عَلِموا ذلكَ حتى امْتَنَعوا عنِ التَّمَنّي خَوفَ الهلاكِ على أنفسِهِمْ لِعِلْمِهِمْ أنهمْ لو تَمَنَّوا لَماتوا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي مِنْ تَحريفِ التوراةِ والإنجيلِ، لأنَّ قولَ النَّصارى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] لم يَكُنْ في الإنجيلِ، وقولُ اليهودِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١] لم يَكُنْ في التوراةِ، ولكنهمْ غَيَّروا، وبَدَّلوا، فلا يَتَمَنَّونَ المَوتَ بما قَدَّمَتْ أيديهِمْ مِنْ تَحريفِ هذهِ الآياتِ وتَبديلِها، وتَغييرِ نَعْتِ محمدٍ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني ﴿عَلِيمٌ﴾ بِظُلْمِهِمُ الآياتِ وعِنادِهِمْ لها ومُكابَرَتِهِمْ إياها.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ أي الموتَ الذي تَفِرّونَ منهُ بما قَدَّمَتْ أيديكُمْ مِنَ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: به المكذبين. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) من م، في الأصل: فلا. (٦) في الأصل وم: كان. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكاذبون. (٩) في الأصل وم: أنه.

تَحريفِ التوراةِ والإنجيلِ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ يَلْقاكُمْ، لا مَحالَةَ، وإنْ فَرَرْتُمْ منهُ، فيكونُ فيهِ تَذكيرُهُمْ، إنْ رَجَعوا عمّا يَهْرُبونَ منهُ، يعني المَوتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعني إلى عالِمِ ما أشْهَدْتُمُ الخَلْقَ مِنَ التوراةِ والإنجيلِ وعالِمِ ما غَيَّبْتُمْ عنِ الخَلْقِ مِنْ نَعْتِ محمدٍ ﷺ وغَيرِ ذلكَ، أو إلى عالِمِ ما غَيَّبْتُمْ في أنفسِكُمْ، وأسْرَرْتُمْ مِنْ تكذيبِكُمْ بمحمدٍ ﷺ وما أشْهَدْتُمْ عليهِ ضَعَفَتَكُمْ وأتباعَكُمْ مِنْ نَهْيِكُمْ إيّاهُمْ عنِ اتّباعِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إمّا عِياناً تَقرَؤونَهُ في كتابِكُمْ يومَ القيامةِ، أو يُنَبِّئُكُمْ ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بالجزاءِ: إنْ خيراً فَخيرٌ، وإنْ شَرّاً فَشرٌّ، واللهُ المُستعانُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هذا السَّعْيُ يَحتَمِلُ الوجهَينِ [التاليينِ][1]:

أحَدُهما: أنْ أقبِلوا على العَمَلِ الذي أُمِرْتُمْ بهِ، وامْضُوا فيهِ.

والثاني: أنِ[2] اسْعَوا في المَشْيِ، وأسْرِعوا، لأنَّ السَّعْيَ في المَشْيِ، هو السُّرْعَةُ فيهِ، والسَّعْيَ في الأعمالِ، هو الإقبالُ عليها والمُبادَرَةُ إليها.

فإذا كانَ المُرادُ مِنْ هذا السَّعْيِ في المَشْيِ فَخُروجُ الآيةِ مَخرَجَ التَّرهيبِ والتَّضييقِ؛ ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ كيفَ أمَرَكَ بِتَرْكِ البيعِ، وقد يُمكِنُ البيعُ في حالِ المَشْيِ؟ وإلى قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كيفَ أمَرَ بالانْتِشارِ في الأرضِ بَعْدَ الفراغِ مِنَ الفريضةِ دونَ أنْ يَذكُرَ هنالكَ شيئاً مِنْ أدائِها؟

ولو كانَ المُرادُ منهُ التَّرغيبَ لكانَ يأمُرُهُ بالعَدْوِ[3] إليها.

فَدَلَّتْ هذهِ المعاني أنْ تُخرَجَ الآيةُ على التَّرهيبِ والتَّضييقِ، وإنْ كانَ السَّعْيُ في سائرِ الصلاةِ المَفروضةِ غَيرَ مَندوبٍ إليهِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أتَيتُمُ الصلاةَ فأتُوها وأنتُمْ تَمشونَ، ولا تأتوها، وأنتمْ تَسْعَونَ، عليكُمْ بالسَّكينةِ والوَقارِ، وما أدْرَكْتُمْ فَصلُّوا، وما فاتَكُمْ فاقْضُوا» [النسائي: ٢/ ١١٥] فاختَصَّ بالجُمُعةِ بهِ لِما ذَكَرْنا مِنَ التَّضييقِ ههنا والتوسيعِ في سائرِ الصلواتِ.

ولكنَّ الأشْبَهَ أنَّ المُرادَ مِنَ السَّعْيِ، هو الإقبالُ على أدائِها والتَّأهُّبُ لها والمُبادرةُ إليها، والسَّعْيُ مُستَعْمَلٌ في هذا؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الإسراء: ١٩] وقالَ[4]: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ و٤٠] وإنما أرادَ العَمَلَ، وكذلكَ رُوِيَ عن عُمَرَ وابنِ مَسْعودٍ وأُبَيٍّ وابنِ الزُّبَيرِ رضي الله عنهم أنهمْ قرَؤوا: فامْضُوا[5] إلى ذِكْرِ اللهِ، حتى قالَ عبدُ اللهِ [بْنُ مَسْعودٍ][6]: لو كانَتِ القراءةُ ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾ لَسَعَيتُ، ولو سَقَطَ ردائي، لم ألْتَفِتْ إليهِ خَوفاً مِنْ تَضييعِ حَقِّها.

فذلكَ يدلُّ على أنَّ التأويلَ الأوَّلَ عندَهُمْ على الإقبالِ والمُبادَرَةِ إليها دونَ السُّرعةِ والمَشْيِ؛ ولأنَّ هذا مُوافِقٌ لسائرِ الصَّلَواتِ في أنَّ العَدْوَ غَيرُ مُستَحَبٍّ، والحديثَ الواردَ في السَّكينةِ والوقارِ مُطْلَقٌ، ليسَ فيهِ فَصْلٌ بينَ الجُمُعةِ وغَيرِها، وعليهِ إجماعُ الفُقَهاءِ أنهُ يَمْشي إلى الجُمُعَةِ على هَيئَتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ قالَ بعضُ الناسِ: إنهُ إذا باعَ في وقتِ الجُمُعةِ لم يَجُزْ بَيعُهُ لهذهِ الآيةِ. وعندَنا أنَّ البيعَ جائزٌ، لكنهُ مكروهٌ، والذي يَدُلُّ على جوازِهِ أنَّ النَّهيَ عنِ البيعِ في هذهِ الآيةِ ليسَ لِمكانِ البيعِ، ولكن لِمَكانِ الجُمُعَةِ. فالفسادُ إذا وَرَدَ فإنّما يَرِدُ في الجُمُعةِ لا في البَيعِ، لأنهُ إذا باعَ في الصلاةِ، فالبَيعُ يُفْسِدُ الصلاةَ، لأنَّ الصلاةَ تُفْسِدُ البَيعَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بالعدل. (٤) في الأصل وم: وقوله. (٥) انظر إلى معجم القراءات القرآنية ج٧/١٤٧. (٦) ساقطة من الأصل وم.

ولأنَّ الأصلَ عندَنا أنَّ كلَّ عقدٍ نُهِيَ [عنهُ][1] لأجلِ غيرِهِ؛ فالنُّقصانُ إذا وَرَدَ مِنَ النَّهيِ فإنما يَرِدُ في ذلكَ الغَيرِ لا في العَقْدِ.

وعلى هذا ما رُوِيَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «المُحْرِمُ لا يَنْكِحُ ولا يُنْكَحُ» [مسلم ١٤٠٩] لأنَّ النَّهيَ عنِ النِّكاحِ إنما هو لِمَكانِ الإحرامِ لا لِمكانِ النِّكاحِ، ولِذلِكَ يقولُ بجوازِ نِكاحِ المُحرِمِ وبِفسادِ الحَجِّ إذا جامَعَ بذلكَ النِّكاحِ، لأنَّ النَّهيَ إذا لم يكُنْ لِنَفْسِ العَقْدِ لم يَسْتَقِمْ فَسادُ العَقْدِ، والنَّهيُ ليسَ مِنْ أجْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى الجُمُعةِ ولا لها. دلَّ أنَّ قبلَ الجمعةِ ذِكراً[2]، يَجِبُ الاسْتِماعُ إليهِ والسَّعْيُ إليهِ. فَدَلَّ هذا على فَرضيَّةِ الخُطْبَةِ. ولَمّا ثَبَتَ أنَّ المَعْنى مِن قولِهِ: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُرادَ مِنَ الذِّكْرِ الخُطْبَةُ، ثم أمَرَ بِتَرْكِ البَيعِ للسَّعْيِ إلى هذا الذِّكْرِ والاسْتِماعِ لهُ، ثَبَتَ أنَّ الكلامَ في وقتِ الخُطْبَةِ مَكْروهٌ، وفي وقتِ خُروجِ الإمامِ للخُطْبَةِ مَكْروهٌ أيضاً لأنَّ البَيعَ في ذلكَ الوقتِ مَكْروهٌ، والبَيعَ كلامٌ، فَيَدُلُّ على كراهِيَةِ كلِّ كلامٍ، فَتَدُلُّ صِحَّةُ مَذْهَبِ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في أنْ يَلْزَمَ السكوتَ إذا خَرَجَ الإمامُ حتى يَفْرَغَ مِنَ الصلاةِ.

وعلى ذلكَ وَرَدَ الحديثُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ مَنْ أتى الجُمُعَةَ، ثم صلّى ما شاءَ أنْ يُصَلِّيَ، ثم إذا خَرَجَ الإمامُ سَكَتَ إلى أنْ يَفْرَغَ مِنْ صلاتِهِ، كانَ ذلكَ كَفّارةً لهُ مِنَ الجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ وزيادةَ ثلاثةِ أيامٍ بعدَهُ» [بنحوه أحمد ٣/ ٣٩] فلمّا ألْزَمَهُ السكوتَ مِنْ حينِ يَخْرُجُ الإمامُ إلى أنْ يَفْرَغَ مِنَ الصلاةِ، ثَبَتَ أنَّ الكلامَ في ذلكَ الوقتِ مَكْروهٌ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على كَذِبِ مَنْ قالَ: إنَّ الصلاةَ إنما تُفْتَرَضُ في آخِرِ الوقتِ، وإنَّ مَنْ أدّى فَرْضاً في أوَّلِ الوقتِ فإنما يُؤَدّي تَطَوُّعاً، لأنهُ أمَرَهُ بالسَّعْيِ، وفَرَضَهُ عليهِ ﴿إِذَا نُودِىَ﴾.

ومَعْلومٌ أنهُ إذا تَهَيَّأَ للإمامِ تأخيرُ الصلاةِ في ذلكَ الوقتِ، وقد فُرِضَ عليهِ معَ ذلكَ، فَدَلَّ هذا على كَذِبِ مَقالَتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وأقْبَحُ مِنْ هذا أنهمْ قالوا: إنَّ الصلواتِ مَفروضاتٌ على الكَفَرَةِ في حالِ كُفْرِهِمْ وعلى المسلمينَ تَطَوُّعٌ، مع أنهُ يَجيءُ على قولِهِمْ: إنهُ ليسَ أحدٌ مِنَ الأمَّةِ أدّى فَرْضاً البَتَّةَ، لأنهُ لم يُذْكَرْ عنْ أحدٍ منهمْ أنهُ فَرَّطَ في أداءِ الصلاةِ حينَ خافَ خُروجَ وَقْتِها. فهذا قولٌ قبيحٌ، يَجِبُ أنْ يُسْتَتابَ عنهُ صاحبُهُ وعَنْ أمثالِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الجُمُعَةَ، لا تَجِبُ على مَنْ بَعُدَ مِنَ الإمامِ بِفَرْسَخَينِ، لأنهُ أُمِرَ بالسَّعْيِ بَعدَ النداءِ. ومَنْ بَعُدَ فَرسَخَينِ، فقد يَخْرُجُ وقتُ الجُمُعةِ، ولا يُدْرِكُها، فَثَبَتَ أنه على ما دُونَهُ، وهو أنْ يكونَ في أحدِ الأمصارِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الوقتُ الذي نَهى عنِ البَيعِ فيهِ يومَ الجُمُعةِ عنْ مَسْروقٍ وجماعةٍ: هو وقتُ الزَّوالِ إلى أنْ يَفْرَغَ الإمامُ مِنَ الجُمُعةِ.

وعنْ مُجاهدٍ والزُّهْرِيِّ أنهُ يَنْهَى عنِ البَيعِ بعدَ النداءِ عَمَلاً بِظاهِرِ الآيةِ ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ والأوَّلُ أشْبَهُ، لأنهُ إنما يجبُ الحُضورُ إلى الجمعةِ عندَ دخولِ الوقتِ، وهو زَوالُ الشَّمسِ، وإنْ تأخَّرَ النِّداءُ، ولأنَّ النِّداءَ قَبْلَ الزَّوالِ غَيرُ مُعْتَبَرٍ فكانَ وجودُهُ / ٥٦٩ ـ ب/ وعَدَمُهُ سَواءً.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: خَرَجَ هذا في الظاهِرِ مَخْرَجَ الأمْرِ، ولكنهُ في حُكْمِ الإباحةِ عندَنا، لأنَّ هذا أمْرٌ خَرَجَ على إثْرِ الحَظْرِ، والأصلُ الجَمْعُ عليهِ عندَهُمْ أنَّ كلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ الحَظْرِ فهو في حُكْمِ الإباحةِ، وما خَرَجَ مَخْرَجَ الإباحةِ فإنَّ الحُكْمَ فيهِ يُنْصَرِفُ على تَصَرُّفِ الأحوالِ.

فإنْ كانتِ الحالةُ تُوجِبُ فَرْضاً[3] كانَ فَرْضاً، وإنْ كانَتْ تُوجِبُ واجباً فواجبٌ، وإنْ أدَباً فَأدَبٌ.

والدليلُ على أنَّ كلَّ أمْرٍ خَرَجَ على إثْرِ حَظْرٍ، فهو في حقِّ الإباحةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: فرضه.

وقولُهُ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ولم يكُنْ ذلكَ محمولاً على الأمرِ الحَتْمِ الذي لا يَجوزُ تَرْكُهُ، ولكنْ على إباحةِ الاصْطِيادِ، أي اصْطادوا إنْ شِئْتُمْ، وأْتوهُنَّ إنْ أرَدْتُمْ. فكذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إنْ أرَدْتُمْ أو إنْ شِئْتُمْ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ يعني التجارةَ والكَسْبَ؛ كانَ البَيْعُ كأنَّهُ يَنْتَظِمُ ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، لكنْ قالَ في ما خَرَجَ [مَخْرَجَ][1] الإذنِ والإطلاقِ: ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ وقالَ في ما نَهَى عَنْ ذلكَ: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ وإنْ كانَ المُرادُ منهما جميعاً البَيْعَ، لأنهُ كانَ يَقْبُحُ أنْ يقولَ: وذَروا ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، ولأنَّ ابْتِغاءَ الفَضْلِ يَتَضَمَّنُ البيعَ وغَيْرَهُ، فلا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: وذَروا ابْتِغاءَ فَضْلِ اللهِ، فقالَ ههنا: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ لِيَلْحَقَهُ النَّهْيُ خاصّةً.

وأمّا الإطلاقُ والإذْنُ فإنهُ يَسْتقيمُ في البيعِ وغَيْرِهِ، فقالَ: ﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: اذْكُروا اللهَ كثيراً بألسِنَتِكُمْ وقلوبِكُمْ.

والثاني: اذْكُروا اللهَ بالإقبالِ على الطاعاتِ التي فيها تَحَقُّقُ ذِكْرُ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لهُ أوجُهٌ:

أحَدُها: على رَجاءِ الفَلاحِ. والثاني: أي لكي تُفْلِحوا. والثالثُ: على قَطْعِ وُجوبِ الفَلاحِ إذا فَعَلَ ذلكَ بما قالوا: إنَّ لَعَلَّ وعسى مِنَ اللهِ واجبٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ التِّجارةُ واللَّهْوُ لا يُرَيانِ في الحقيقةِ، وإنما يُرَى اللاهي والتّاجِرُ، ولكنهُ ذَكَرَ فيهِ الرُّؤْيَةَ لِقُرْبِ اللَّهْوِ مِنَ اللاهي والتِّجارةِ مِنَ التّاجِرِ كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وكما يُقالُ: سَمِعْتُ كلامَ فلانٍ، والكلامُ، ليسَ بِمَسْموعٍ في الحقيقةِ، وإنما المَسْموعُ في ذلكَ الصوتُ الذي يُفْهَمُ بِهِ كلامُهُ، ولكنْ أطْلَقَ لَفْظَ السَّماعِ في ذلكَ لِتَقارُبِهِما، واللهُ أعلَمُ.

وبَعْدُ فإنَّ المَعْنَى مِنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ الرُّؤْيَةَ، وإنما المَعْنَى منهُ عندَنا كأنهُ قالَ: وإذا عَلِموا، وذلكَ أنهمْ كانوا لا يَرَونَ التِّجارةَ، ولكنْ يُنْهَى إليهِمْ خَبَرُها، فَيَعْلَمونَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ولم يقلْ إليهما، وقد ذَكَرَ شَيْئَيْنِ، ولم يُلْحِقْ ما بَعْدَهُما مِنَ الكِنايةِ بهما، بل بأحَدِهِما، ويجوزُ مِثْلُ ذلكَ كقولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤] ولم يَقُلْ: ولا يُنْفِقونَهما لِرَجْعِ الكِنايةِ إلى جميعِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، وكما قالَ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وقد رجَعَتِ الكِنايةُ إلى أحَدِ المَذْكورَينِ لا إليهما. وكذلكَ هذا.

وهذا لأنَّ المَقْصودَ مِنْ خُروجِهِمْ إنما كانَ، هو التِّجارةُ دونَ اللَّهْوِ، ولكنهمْ إنما يَعْلَمون ما يُجْلَبُ إليهِمْ بذلكَ اللَّهْوِ؛ فجازَ أنْ يكونَ ذَكَرَ اللَّهْوَ لهذا المَعْنَى، وإنما المَقْصودُ مِنْ ذلكَ التِّجارةُ، وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ فَذَكَرَ حَقَّ الإنفاقِ في ما كانَ الإنفاقُ منهُ أيْسَرَ وأسْهَلَ في المُتَعارَفِ، وكذلكَ الفضةُ، وإنْ كانَ الحَقُّ واجباً فيها جَميعاً لِمالٍ[2] المَقْصودِ، وهو الصَّرْفُ إلى الفقراءِ. فَعَلَى ذلكَ ههنا.

وأمّا المَعْنَى منهُ عندنا إنما خَصَّ الصلاةَ برجوعِ الكِنايةِ إليها لأنها ثَقُلَتْ على اليهودِ، لأنَّ القِبْلَةَ كانَتْ أوّلاً إلى بيتِ المَقْدِسِ، فلمّا حُوِّلَتْ إلى الكَعْبةِ ثَقُلَتِ الصلاةُ إلى الكَعْبةِ على الكفارِ، فقالَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يعني الصلاةَ إلى الكَعْبةِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قيلَ: كيفَ جازَ أنْ يَنْفِرَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ وهو في الخُطْبةِ إلى اللَّهْوِ والتِّجارةِ مَعَ جلالِ قَدْرِهِمْ وتَعْظيمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ؟ وكذلكَ السؤالُ عَنْ ضَحِكِهِمْ حينَ دَخَلَ الأعمَى المَسْجدَ، فَوَقَعَ في بِئْرٍ؟

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: لما أن.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ القومَ كانوا حَدِيثي عَهْدٍ بالإسلامِ، وكانوا مِنْ سُوقَةِ القومِ ومِنْ سِفْلَتِها، ولم يكونوا عَرَفوا حَقَّ الخِطابِ وحَقَّ الخُطْبَةِ عليهِمْ، فكانَتْ تلكَ تجارةً يَأْمُلونَ منها مَنافِعَ، لو لم يُبادِروا إليها ذَهبَتْ منهمْ. فإنما[1] نَفَروا مِنَ المَسْجِدِ جَهْلاً منهمْ بِحَقِّ الخُطْبَةِ والخطابِ.

وبعدُ فإنهمْ لم يكونوا منْ أجِلَّةِ القومِ، ولا صَحِبوا أجِلَّتَهُمْ، لِيَعْرِفوا حَقَّ الخُطْبَةِ والمخاطِبِ، فانفَلَتَتْ منهمُ الزَّلَّةُ ومِنْ مِثْلِهِمْ[2].

فأمّا الذينَ كانوا مِنْ أجِلَّةِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، ومِنْ عُلَمائهمْ، فلمْ يَنْفُرْ أحدٌ منهمْ، وكذلكَ أمْرُ الضَّحْكِ أيضاً يجوزُ أنْ يكونَ مَنْ ضَحِكَ مِنْ أتباعِ القومِ ومِنْ سِفْلَتِهِمْ، ولم يكونوا مِنَ الأجِلَّةِ والنُّجباءِ، ولا يُسْتَنْكَرُ مِنْ مِثْلِ أولئكَ هذا الصَّنيعُ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: والمَعْنَى مِنْ تَرْكِ النَّبيِّ ﷺ نَهْيَهُمْ عنِ الخروجِ وجْهانِ:

أحَدُهما: أنَّ الكلامَ كانَ مُحَرَّماً وقْتَ الخُطْبَةِ، فلم يَنْهَهُمْ لِلنَّهْيِ عنِ الكلامِ في ذلكَ الوَقْتِ.

والثاني: يجوزُ أنْ يكونوا أسْرَعوا الخُروجَ، فلمْ يَبْلُغْهُمْ نَهْيُهُ، أو لم يَنْهَهُمْ لِما عَلِمَ أنهمْ لم يَسْمَعوا، واللهُ أعلَمُ.

وفي الخَبَرِ أنهُ «عَدَّ الذينَ ثَبَتُوا معَهُ بَعْدَ ما فَرَغَ مِنَ الصلاةِ، فوجَدَهُمُ اثْنَي عَشَرَ رجلاً، فقالَ: لو لَحِقَ أخِرُكُمْ بأوَّلِكُمْ لاضْطَرَمَ الوادي ناراً» أي المدينةُ [السيوطي في الدر المنثور ٨/ ١٦٥].

ففي هذا دلالةٌ على أنَّ الجُمُعَةَ، تقامُ بدونِ الأربعينَ، لأنهُ ﷺ جَمَّعَ باثْنَي عَشَرَ رجلاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ الخَطيبَ[3]، إنما يكونُ قائماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ قالَ إمامُ الهُدَى: ولولا هذا لَكانَ[4] يُعْلَمُ أنَّ ما عندَ اللهِ خَيرٌ مِنَ اللهوِ ومِنَ التِّجارةِ. ولكنَّ المَعْنَى مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الدنيا كلَّها مَتْجَرٌ، وأنَّ أهلَها فيها تُجّارٌ: إمّا تِجارَةَ الدنيا [وإمّا][5] تِجارَةَ الآخِرَةِ؛ لأنَّ الطاعةَ والعِبادةَ في الاعْتِبارِ كأنها تِجارةٌ، لأنها[6] تُكْتَسَبُ بها مَنافِعُ الآخِرَةِ، وتِجارةُ الدنيا [تُكْتَسَبُ بها][7] مَنافِعُ الدنيا.

فقالَ: التِّجارةُ التي عندَ اللهِ في طاعتِهِ واكْتِسابِ مَنافِعِ الآخِرَةِ خَيرٌ مِنَ اللَّهْوِ ومِنَ التجارةِ التي تُكْتَسَبُ بها مَنافِعَ الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: كأنهُ قالَ: اتَّقوا اللهَ فإنكمْ إذا اتَّقَيْتُموهُ اكْتَسَبْتُمْ بِهِ المَنافِعَ في الرزقِ وغَيرِهِ، والتِّجارةُ الدُّنيَوِيَّةُ لا يُكْتَسَبُ بها إلّا مَنافِعُ [الدنيا][8].

ألا تَرَى إلى [قولِهِ تعالى][9]: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾؟ [الطلاق: ٢ و٣] وقولِهِ[10] تعالى في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾؟ [الطلاق: ٥].

فإذا كانَ التَّقْوَى يُسْتَفادُ بِهِ الرزقُ والبِرُّ في الأمورِ وكَفّارةُ الذنوبِ، والتِّجارةُ لا يُكْتَسَبُ بها إلّا مَتاعُ الدنيا، فَرَغَّبَهُمْ في ما فيهِ جُمْلَةُ المَنافِعِ، وهو التَّقْوَى لِيَمْكُثوا إلى النَّبيِّ ﷺ فيقولُ: رَغَّبْتُكُمْ في ما يُكْسِبُكُمْ جُمْلَةَ المَنافِعِ، إنِ اتَّقَيْتُمْ، ومَكَثْتُمْ عندَ النَّبيِّ ﷺ [فهو][11] خيرٌ مِنَ اللَّهوِ ومِنَ التِّجارةِ التي تُكْسِبُكُمْ مَنْفَعَةً واحدةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ليسَ يَقْتَضي ذِكْرُ هذا أنَّ هناكَ رازِقاً آخَرَ لِيكونَ هو / ٥٧٠ ـ أ/ خيرَهُمْ. ولكنَّ المَعْنَى مِنْ هذا في قولِهِ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقولِهِ[12]: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]. لأنهُ

---

(١) من م، في الأصل: فلما. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: هذه. (٣) في الأصل وم: الخطبة. (٤) في الأصل وم: قد كان. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) من م، في الأصل: تكتسبه. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: وقال. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: و.

كانَ هو خيرَ الرازقينَ، وأحسنَ الخالقينَ، وأحكَمَ الحاكمينَ، لأنهُ لا يَحكُمُ إلّا عَدلاً، ولا يَخلُقُ إلّا ما فيهِ حِكْمةٌ. فكذلك قولُهُ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وجائزٌ أنْ يُضافَ الرزقُ والخَلْقُ والحُكْمُ إلى العَبيدِ مَجازاً، فقالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ مِمَّنْ يَرزُقُكُمْ، لأنَّ غَيرَهُ مِنَ الخَلْقِ إنما يَرزُقُ غَيرَهُ مِنْ رِزْقِهِ، ويَعْدِلُ بِحُكْمِهِ، ويَفْعَلُ بِتوفيقِهِ وتَسْديدِهِ، فقالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الذينَ يُرزَقونَ مِنْ رِزْقِهِ، واللهُ أعلَمُ.

سورة[1] المنافقون

مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اختلفوا في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿نَشْهَدُ﴾:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ﴾ يَعْني نُقْسِمُ، ونَحْلِفُ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ﴾ على ابْتِداءِ الشهادةِ.

فَمَنْ حَمَلَهُ على القَسَمِ قَرَأ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [الآية: ٢] يعني حَلْفَهُمْ، ومَنْ حَمَلَهُ على الشهادةِ ابْتِداءً قَرَأ اتَّخذوا إيمانَهُمْ[2] جُنَّةً، يَعْني تَصْديقَهُمْ، ليسَ أنها قراءةٌ واحدةٌ، فَقُرِئَتْ بِلَفْظَينِ، ولكنهما كانا جميعاً، فَقُرِئَتْ بالمَعْنَيينِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ والإشكالُ أنْ كيفَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وهُمْ إنما ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾؟ ومَعْلومٌ أنَّ هذا القولَ منهم صِدْقٌ، ولكنَّ المَعْنى مِنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنهُمْ طُعِنوا في ما أظْهَروا مِنَ الخِلافِ والتكذيبِ عندَ غَيرِ رسولِ اللهِ، فَحَسِبوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اطَّلَعَ على صَنيعِهِمْ، فأتَوا رسولَ اللهِ ﷺ يَعْتَذِرونَ إليهِ، ويقولونَ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وإنَّ ما بَلَغَكَ مِنّا مِنَ القولِ كَذِبٌ، وما قُلْناهُ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ كاذبونَ في ما أخْبَروا أنهمْ ما قالوهُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾؟ [التوبة: ٧٤].

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنّا نَشْهَدُ في قلوبِنا إنكَ لَرسولُ اللهِ كما نُظْهِرُهُ بألسِنَتِنا، فأخبَرَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما يَشْهَدونَ بالإيمانِ في قلوبِهِمْ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿نَشْهَدُ﴾ أي نَعْلَمُ برسالتِكَ في قلوبِنا ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في ما أخبَروا أنهمْ يَعْلَمونَ رسالتَهُ في قلوبِهِمْ، وقد كانَ لَزِمَهُمُ العِلْمُ برسالتِهِ مِنْ جهةِ الآياتِ والحُجَجِ، ولكنْ تَعامَوا عنْ ذلكَ العِلْمِ استِخْفافاً منهمْ وتَعَنُّتاً، فَصارَ ذلكَ العِلْمُ كالجهلِ الحَقيقيِّ.

ثم أخْبَرَهُمُ اللهُ عنْ أنفسِهِمْ وضَمائِرِهِمْ أنهمْ يَعْلَمونَ، وأخبَرَ رسولَهُ[4] أنهمْ كاذبونَ: أنهمْ يَعْلَمونَ برسالتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الواجبُ أنْ يُعْلَمَ ما الذي أحْوَجَهُمْ إلى أنْ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وقد كانَ كثيرٌ مِنَ المؤمنينَ يَلْقَونَ رسولَ اللهِ ﷺ ولا يقولونَ[5] ذلكَ، فكيفَ قالَ المُنافِقونَ ذلكَ؟

فمَعْناهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ حينَ[6] اعْتادوا مُخادَعةَ اللهِ ورسولَهُ امْتَحَنَهُمُ اللهُ تعالى بهذهِ المَقالةِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونوا جَرَوا على عادتِهِمْ أنهمْ إذا لَقُوا المُسْلِمينَ ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾[7] ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وإذا لَقُوا رسولَ اللهِ ﷺ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ على عادتِهِمْ في كلِّ مَجْلِسٍ[8] بما يَليقُ بهِ وبِمَذْهَبِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٥١. (٣) في الأصل وم: ويعلم. (٤) في الأصل وم: رسول الله.
(٥) من م، في الأصل: يقول. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: لقوا المشركين. (٨) في الأصل وم: جنس.

ويجوزُ أنْ يكونوا يَخافونَ أنْ قد بَلَغَ رسولَ اللهِ ﷺ خلافُهُمْ وتكذيبُهُمْ، فكانوا إذا لَقُوهُ ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ اعتِذاراً مِنْ ذلكَ الخِلافِ لو بَلَغَهُ.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؟ [المنافقون: ٤] كانوا يَحسَبونَ منْ سُوءِ ما يُضمِرونَ في قلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ أنَّ كلَّ مَنْ كَلَّمَ رسولَ اللهِ ﷺ فإنما يُكَلِّمُهُ[١] بِسَبَبِهِمْ، فكذلكَ الأوّلُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ ههنا: ﴿نَشْهَدُ﴾ ولم يَقُلْ نَشهَدُ باللهِ، لأنَّ المَعْنَى مِنْ هذا الحَلْفِ، والحَلْفُ مِنَ المؤمنينَ في المُتَعارَفِ إنما يكونُ باللهِ تعالى. فلذلكَ أجْزَأَ بقولِهِ: ﴿نَشْهَدُ﴾ عنْ قولِهِ: باللهِ، فيكونُ هذا دليلاً لقولِ أصحابِنا: إنَّ قولَهُ ﴿نَشْهَدُ﴾ يكونُ يَميناً حينَ[٢] ذُكِرَ ههنا بطريقِ القَسَمِ، والمَعْنَى ما أُشيرَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: صَدُّوا أي أعْرَضوا بأنفسِهِمْ عنْ طاعةِ اللهِ والإيمانِ برسولِهِ.

والثاني: صَدُّوا[٣] الضَّعَفَةَ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ وعنِ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بِئْسَ ما كانوا يَعْمَلونَ مِنَ الإعراضِ عنِ الآياتِ والحُجَجِ حينَ[٤] آثَروا الكُفرَ على الإيمانِ.

ويَحتَمِلُ: بِئسَ ما كانوا يَصْنَعونَ مِنْ صَدِّ الضَّعَفَةِ والأتباعِ عنِ الإيمانِ برسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ لهُ تأويلانِ:

أحَدُهما: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بلسانِهِمْ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بقلوبِهِمْ.

والثاني: على حقيقةِ الإيمانِ والكُفرِ؛ وذلكَ أنهمْ لمّا رَأَوا قِلَّةَ المُسلِمينَ وضَعْفَهُمْ في أنفسِهِمْ يومَ بَدْرٍ، ثم رأَوهُمْ مَعَ هذهِ القِلَّةِ والضَّعْفِ غَلَبوا على الكُفّارِ مَعَ كَثْرَتِهِمْ آمَنوا برسولِ اللهِ ﷺ ورَأَوا أنهمْ لا يُغْلَبونَ أبداً.

ثم إنَّ المُسلِمينَ لمّا غُلِبوا يومَ أُحُدٍ، وأصابَهُمْ [ما أصابَهُمْ][٥] اضطَربوا في إيمانِهِمْ، وشَكُّوا، وكَفَروا؛ وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١]. فكذلكَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السبَبَ الذي تَوَلَّدَ منهُ نِفاقُهُمْ وحَلْفُهُمْ وقولُهُمْ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [وقولُهُ][٦] ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وجائزٌ أنهُ لم يكُنْ منهمْ حقيقةُ إيمانٍ ولا كُفرٍ، ولكنهمْ كانوا أقواماً هِمَّتُهُمُ الدنيا وسَعَتُها، وكانوا يكونونَ مَعَ مَنْ تكونُ معهُ الدنيا: إنْ رَأَوها[٧] مَعَ المؤمنينَ أظهَروا مِنْ أنفسِهِمْ أنهمْ مؤمنونَ، وإنْ رَأَوها[٨] مَعَ الكُفّارِ أظهَروا أنهمْ كُفّارٌ، لا أنْ يكونَ منهمْ حقيقةُ إيمانٍ أو كُفرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الطَّبْعُ يجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عنْ سَتْرٍ وظُلْمةٍ على قلوبِهِمْ، فلا يَرَونَ بهِ الحقَّ وحُجَجَهُ.

قالَ: ويجوزُ أنْ يَجْعَلَ اللهُ الكُفرَ ظُلْمةً في القَلْبِ لا يُبْصِرونَ بهِ الحُجَجَ والآياتِ، أو يَجْعَلَ الكُفرَ كِنّاً على [قَلْبِ الفَرْدِ][٩] لِيَضيقَ، فلا يَرَى مِنْ بَعدِ ذلكَ مَنافِعَهُ ومَضارَّهُ إلّا مِنْ ذلكَ الوَجْهِ، فَيَكْفُرُ وبما كانَ. فذلكَ مَعْنَى الطَّبْعِ؛ يَعْني أنَّ اشتِغالَهُمْ بالكُفرِ وكَسْبَهُمْ إيّاهُ غَطّى قلوبَهُمْ، وسَتَرَها عنْ أنْ يُبْصِروا الحَقَّ وحُجَجَهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يكلمهم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: رأوا. (٨) في الأصل وم: رأوا. (٩) في الأصل وم: قلبه.

قالَ الفقيهُ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ إنّ المنافقينَ لم يَجيبُوا بأجمعِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ وإنما جاءَ بعضُهُمْ / ٥٧٠ ـ ب/ وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿نَشۡهَدُ﴾ في بعض التأويلاتِ: نُقْسِمُ، والقسمُ ليسَ مِنْ فِعْلِ الأتباعِ والسِّفْلَةِ، وإنما ذلكَ مِنْ فِعْلِ الأجِلَّةِ والرؤساءِ. فَدَلَّ أنهُ إنما تَعاطَى هذا الفِعْلَ بعضُ المُنافقينَ.

ثم ذَكَرَ اللهُ تعالى ذلكَ البَعْضَ بِلَفْظِ الكُلِّ، فَعُلِمَ أنهُ ليسَ كلُّ ما خَرَجَ في الظاهِرِ مَخْرَجَ العُمومِ يَتَناوَلُ كلَّ مَنْ دَخَلَ تحتَ ذلكَ الِاسْمِ، ولكنهُ يُنْظَرُ في مَعْنَى اللفْظِ وحقيقتِهِ.

فإنْ كانَ الدليلُ يُوجِبُ تَعْميمَهُ أُجْرِيَ على عُمومِهِ، وإنْ كانَ يُوجِبُ تَخْصيصَهُ أُجْرِيَ على خُصوصِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي لا يَفْقَهونَ، لأنهمْ[1] طُبِعَ على قُلوبِهِمْ، وإلّا لم يُعْرِضوا عنِ الحقِّ والآياتِ؛ وذلكَ أنهمْ يَظُنّونَ أنهمْ على الحقِّ، وجَعَلوا جميعَ هِمَّتِهِمْ في المَنافِعِ والمَضارِّ الدُّنْيَويّةِ، وإلّا لو فَقِهوا أنَّ للهِ تعالى داراً أُخرَى يُجازَوْنَ فيها بأعمالِهِمْ لَعَلِموا أنهُ لا بُدَّ مِنْ دينٍ يَدينونَ بهِ، ولم يَنْظُروا إلى مَنافِعِهِمْ ومَضارِّهِمْ، واللهُ المُسْتَعانُ.

ويَحْتَمِلُ أي لا يَفْقَهونَ عنِ اللهِ تعالى أنهُ تَعَبَّدَهُمْ، وأمَرَهُمْ بطاعةِ رسولِ اللهِ واتِّباعِهِ.

ويَحْتَمِلُ أي لا يَفْقَهونَ أنهمْ يَتَعَبَّدونَ، وأنَّ للهِ داراً أُخرَى، يَسْأَلُهُمْ عمّا فَعَلوا، ويُجازيهِمْ على جميعِ ذلكَ.

ثم قالَ ههنا: ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾ ولم يَقُلْ: لا يَعْلَمونَ، لأنَّ الفِقْهَ إنما هو الذي يُعْرَفُ بهِ الشيءُ بالشيءِ فأخبَرَ أنهمْ لا يَعْرِفونَ الآخِرَةَ بالدنيا.

وقالَ ابنُ سُرَيجٍ: الفِقْهُ، هو مَعْرِفَةُ الشيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على نَظيرِهِ.

وعندَنا: أنَّ الفِقْهَ، هو مَعْرِفَةُ الشيءِ بِمَعْناهُ الدالِّ على غَيرِهِ؛ كانَ ذلكَ نَظيراً لهُ أو لم يكُنْ، لأنَّ مَنْ عَرَفَ الخَلْقَ بِمَعْناهُمْ دلَّهُ ذلكَ على مَعْرِفَةِ الصانعِ. ومَنْ عَرَفَ الدنيا دَلَّهُ ذلكَ على مَعْرِفَةِ الآخِرَةِ، وليسا بِنَظيرَينِ.

ثم بَيْنَ الفِقْهِ والعِلْمِ فَصْلٌ مِنْ وجهٍ، وإنْ كانا[2] جميعاً في الحقيقةِ، يَرْجِعانِ إلى مَعْنًى واحدٍ؛ لأنَّ العِلْمَ إنما يُجَلّي الشيءَ لهُ، وظهورُهُ بنفسِهِ، والفِقْهُ يُعْرَفُ بِغَيرِهِ اسْتِدْلالاً. ولذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بِتَجَلّي الأشياءِ لهُ، ولم يَجُزْ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ فقيهٌ، لأنهُ لا يَعْرِفُ الأشياءَ بالِاسْتِدْلالِ، واللهُ الموفِّقُ.

والحِكْمَةُ وَضْعُ الأشياءِ مَواضِعَها، والإيقانُ إنما هو يَتَوَلَّدُ عن ظهورِ الأسبابِ، ولذلكَ جازَ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ، ولم يَجُزْ أنْ يُقالَ: إنهُ موقِنٌ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ في هذا بيانُ أنَّ اللهَ تعالى قد كانَ آتاهُمْ حُسْنَ الصورةِ وحُسْنَ البَيانِ، وأنهُ قد آتاهُمُ العِلْمَ لأنَّ حُسْنَ البَيانِ، لا يكادُ يكونُ إلّا عن عِلْمٍ. فكانَ اللهُ تعالى ذَكَرَ نِعْمَهُ التي آتاهُمْ؛ وإنهمْ لم يَشْكُروا نِعَمَهُ، وأساؤوا صُحْبَتَها؛ فكأنهُ يقولُ: كيفَ ترجو منهمْ حُسْنَ الصُّحْبةِ لكَ، وإنهمْ لم يُحْسِنوا صُحْبَةَ نِعَمِهِ ربِّ العالمينَ؟

فيكونُ بعضُ التَّسَلّي لِما أهَمَّ رسولَ اللهِ ﷺ مِنْ سُوءِ صَنيعِهِمْ بهِ وإعراضِهِمْ عنِ اتِّباعِهِ وطاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ يعني وإنْ يقولوا تَحْسَبْ قولَهُمْ حقّاً، فَتَسْمَعْ لقولِهِمْ لِتَقَبَّلَهُ. ويَحْتَمِلُ أي[3] تَسْمَعْ لقولِهِمْ لِما يُعْجِبُكَ قولُهُمْ، أو تَسْمَعْ لقولِهِمْ على ما كانَتْ عادَتُهُ ﷺ في كلِّ مَنْ كَلَّمَهُ أنه لا يُغَيِّرُ عليهِ، ولا يَقْطَعُ عليهِ كلامَهُ حتى يَفْرَغَ منهُ، ثم يَقْبَلُهُ[4] إنْ كانَ مِمّا يَجِبُ قَبولُهُ [أو يُغَيِّرُهُ][5] على صاحبِهِ [أو يَرُدُّهُ][6] إنْ كانَ مُسْتَحِقّاً لِلتَّغْييرِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: لأنه. (٢) من م، في الأصل: كان. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: قبله. (٥) في الأصل وم: وغير. (٦) في الأصل وم: ورده.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ يقولُ: إنهمْ في ما يكونُ مِنْ جانبِهِمْ وناحيَتِهِمْ مِنْ حُسْنِ الصورةِ والبَيانِ بحيثُ يُعْجِبُكَ، وفي ما تُلْقي إليهِمْ مِنَ الحقِّ والدينِ والحكمةِ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ لا يَنْجَعُ فيهِمُ الحقُّ، ولا يَقْبَلونَهُ كالخُشُبِ المُسَنَّدَةِ.

ويَحْتَمِلُ [أنْ يكونَ][1] هذا تَمْثيلاً بالخُشُبِ مِنْ حيثُ [أنَّ الخُشُبَ المُسَنَّدَةَ][2] في الظاهرِ، هيَ الخُشُبُ اليابسةُ التي لا أجوافَ لها، فَيُوضَعَ فيها شيءٌ، فكذلكَ المنافقون، كأنهمْ لا أجوافَ [لهمْ تُوضَعُ فيها][3] الحِكْمةُ والدينُ والحقُّ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعناهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مِنْ حيثُ أنَّ الخُشُبَ المُسَنَّدَةَ، ليسَ لها أسماعٌ ولا أبصارٌ ولا قلوبٌ، فكذلكَ المنافقونَ، كأنهمْ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ مِنْ ناحيةِ الحَقِّ وقَبولِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحَدُها:][4] يَحْسَبونَ كلَّ صَيحةٍ سَمِعوها كَلِمةً تَهْتِكُ عليهِمْ سِتْرَهُمْ، وتَفْضَحُهُمْ[5].

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] [حيثُ أخبَرَ][6] أنهمْ كانوا يَحْسَبونَ فَضيحَتَهُمْ وهَتْكَ أستارِهِمْ الإطِّلاعَ[7] على ما في قلوبِهِمْ؟ فكذلكَ يَحْسَبونَ أنَّ مَنْ كَلَّمَ رسولَ اللهِ ﷺ فإنما يُكَلِّمُهُ[8] بما يهتِكُ أستارَهُمْ، ويَفْضَحُهُمْ، واللهُ المُسْتَعانُ.

والثاني[9]: أنْ يكونَ ذلكَ في الحربِ؛ أنهمْ كلَّما سَمِعوا صَيْحَةً، خافوا أنْ يكونَ فيها[10] هلاكُهُمْ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافقةَ لكلِّ فريقٍ على حِدَةٍ؛ وإذا وافَقوا هذا الفريقَ صاروا حَرْباً للفريقِ الآخَرِ، وإذا وافَقوا الآخَرَ صاروا حرباً لهؤلاءِ. فأخبَرَ اللهُ تعالى أنهمْ يَحْسَبونَ مِنْ كلِّ صَيحةٍ، سَمِعوها، أنْ يكونَ ذلكَ سبباً لِهلاكِهِمْ.

والثالثُ:[11] أنْ يكونَ اللهُ تعالى عاقَبَهُمْ بالخوفِ الدائمِ لِتأميلِهِمُ الأمْنَ مِنْ وجْهٍ، لم يُؤْذَنوا فيهِ؛ وذلكَ لِما وَصَفْنا أنهمْ كانوا يُظْهِرونَ المُوافقةَ لكلِّ رجاءِ أمْنِهِمْ، وكانَتْ جميعُ مَقاصِدِهِمْ في ذلكَ تحصيلَ مَنافعِ الدنيا دونَ الديانةِ بدينٍ مِنَ الأديانِ، وذلكَ غيرُ مأذونٍ فيهِ. فلما آثَروا ذلكَ، واختاروهُ مِنْ غيرِ أنْ يُؤْذَنَ لهمْ عاقَبَهُمْ بالخوفِ الدائمِ إمّا مِنَ الإفْتِضاحِ والإطِّلاعِ على ما في قلوبِهِمْ [وإمّا][12] مِنَ الهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ لهُ أوجُهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنْ يقولَ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ يعني أنهمْ أدْنى عَدُوٍّ لكمْ ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ في جميعِ أحوالِهِمْ في [المَطْعَمِ والمَشْرَبِ وغيرِهِ لأنَّ الحَذَرَ مِمَّنْ قَرُبَ مِنَ الأعداءِ، ودَنا، أوجَبُ مِمَّنْ بَعُدَ.

[والثاني:][13] احْذَرْهُمْ أنْ تُطْلِعَهُمْ على سِرٍّ في ما يَرونَ، وتُضْمِرُهُ مِنَ الجهادِ والحربِ، فيَحتالونَ على إهلاكِكَ][14] أو يُطْلِعونَ الكَفَرَةَ على سِرِّكَ.

[والثالثُ:][15] احْذَرْهُمْ أنْ تَقْبَلَ منهمْ قولاً، يقولونَ عنْ أصحابِكَ لأنهمْ يُغْرونَ أصحابَكَ عليكَ، فاحْذَرْهُمْ أنْ تَقْبَلَ قولَهُمْ على أصحابِكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني لَعَنَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ لهُ تأويلانِ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لها يوضع فيهم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فأخبر. (٧) في الأصل وم: والاطلاع. (٨) في الأصل وم: يكلم. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: يحتمل. (١٠) في الأصل وم: فيه. (١١) في الأصل وم: ويحتمل. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في م: أو. (١٤) من م، في الأصل: المطمع. (١٥) في الأصل وم: أو.

أحدُهما: أنْ يقولَ: أيُّ سببٍ يَمنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ بكَ وطاعتِكَ، وقد أتيتَهُمْ بالآياتِ والحُجَجِ في اطِّلاعِكَ على سَرائرِهِمْ، وذلكَ لا يكونُ إلّا عنِ الوَحْيِ.

[والثاني: أنْ][1] يقولَ: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني أنّى يُكَذِّبونَ تقليداً أولئكَ الكَفَرَةَ مِنْ غَيرِ أنْ يَظْهَرَ لهمْ في ذلكَ آيةٌ وحُجَّةٌ، ولا يُقَلِّدونَ البرهانَ والحُجَّةَ، فَيَتَّبِعونَكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ ظاهرُ هذهِ الآيةِ أنَّ هذا القولَ منهُ إنما كانَ لِجُمْلَةِ المُنافِقينَ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

ورُوِيَ في الخَبَرِ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلولٍ المُنافقِ لأنهُ رُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ كلَّما قامَ يومَ الجمعةِ قامَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلولٍ في ناحيةِ المسجدِ، وقالَ: هذا رسولُ اللهِ، فَوَقِّروهُ، وعَظِّموهُ، حتى نَزَلَتْ هذهِ السورةُ، فقالَ بِمِثْلِ مَقالَتِهِ، فقالَ لهُ عُمَرُ ﷺ: اجْلِسْ يا كافرُ، فإنَّ اللهَ تعالى قد فَضَحَكَ، قالَ: فَخَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يُصَلِّيَ الجمعةَ، فاسْتَقْبَلَهُ بعضُ القومِ، فسألوهُ عَنْ خُروجِهِ مِنَ المَسْجِدِ قَبْلَ أداءِ الجمعةِ، فأخبَرَهُمْ عنِ القصةِ، فقالوا: ارجِعْ إلى رسولِ اللهِ، وسَلْهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لكَ، فَلَوَى رأسَهُ، وقالَ: ما لي إلى اسْتِغْفارِهِ حاجةٌ.

ورُوِيَ أنهُ لمّا قالَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] ثم أرادَ دخولَ المدينةِ مِنْ بَعْدِ هذهِ المَقالةِ، فَحَبَسَهُ ابْنُهُ، وقالَ: لا أدَعُكَ تَدْخُلُها مالم تُقِرَّ أنكَ الأذَلُّ وأنَّ رسولَ اللهِ، هو الأعَزُّ، فَبَلَغَ ذلكَ رسولَ اللهِ/ ٥٧١ - أ/ ﷺ فأمَرَهُ أنْ يُخَلِّيَ عنْ أبيهِ، ثم قالَ لَهُ: إنكَ أَولى لكَ أنْ تُسَمّى عبدَ اللهِ مِنْ أبيكَ، فَسُمِّيَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ عبدَ اللهِ، وكانَ يُسَمّى حُباباً.

فهذانِ الخَبَرانِ يَدُلّانِ على أنَّ هذهِ الآيةَ، إنما نَزَلَتْ في واحدٍ منهما[2]، وظاهرُها يدلُّ على [أنَّ][3] ذلكَ كانَ في جُمْلَةِ المُنافقينَ.

ولكنَّ الوجهَ في ذلكَ، كانَ عندَنا، واللهُ أعلَمُ: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اعْتِقادُ جُمْلَتِهِمْ على ذلكَ، فَذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى [جُمْلَةً][4] لِاعْتِقادِهِمْ عليهِ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا أقواماً، لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ. والاِسْتِغْفارُ إنما هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ؛ وذلكَ إنما يَتَحَقَّقُ في الآخِرَةِ. فإذا كانَ على هذا أصلُ اعْتِقادِهِمْ جُمْلَةً ذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى على ذلكَ.

وكذلكَ قولُهُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] كانَ عندَهُمْ أنَّ اللهَ تعالى إنما آتاهُمُ العِزَّ والغِنى والشَّرَفَ والفَضيلةَ لهمْ على محمدٍ ﷺ فكانوا يُنْكِرونَ عليهِ منْ ذلكَ الوجْهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى بما ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنبأَ أنهُ قد كانَ آتاهُمْ جميعَ ما بهِ العِزُّ والشَّرَفُ في الدنيا لِيَمْتَحِنَهُمْ بِحقوقِ هذهِ النِّعَمِ وتعظيمِها وشُكْرِها، وأنهمْ بَلَغوا في ذلكَ غايةَ ما عليهِ عَمَلُ الكَفَرَةِ في سُوءِ الصُّنْعِ بالنِّعَمِ؛ وذلكَ أنهُ لمّا قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [الآية: ٤] دلَّ أنهُ كانَ آتاهُمْ حُسْنَ الصورةِ وحُسْنَ البيانِ، ولمّا قالَ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [الآية: ٧] دلَّ أنهُ قد كانَ آتاهُمُ الغِنى، ولمّا قالَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [الآية: ٨] دلَّ أنهُ قد كانَ آتاهُمُ العِزَّ والشَّرَفَ.

ومَعْلومٌ أنَّ هذهِ الأسبابَ التي وصَفْنا، هي أسبابُ العِزِّ والشَّرَفِ في الظاهرِ.

ثم أخْبَرَ أنهمْ تَرَكوا شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ في تعظيمِ الحقِّ وأداءِ شُكْرِهِ، وأنهمْ بَلَغوا في الباطنِ في كلِّ شيءٍ مِنْ ذلكَ غايَتَهُ في سوءِ الصُّنْعِ، لأنهُ دلَّ بقولِهِ: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا﴾ [الآية: ٧] على غايةِ البخلِ حينَ[5] امْتَنَعَ عنِ الإنفاقِ بنفسِهِ، وأمَرَ[6] غيرَهُ ألّا يُنْفِقَ أيضاً، وذلكَ في غايةِ البخلِ، ولمّا قالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [الآية: ٤] دلَّ أنهمْ كانوا في الغَفْلَةِ عنْ ذِكْرِ اللهِ وقَبولِ المَوعظةِ غايَتَهُ، ولمّا قالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ دلَّ أنهمْ كانوا في الاِسْتِخْفافِ بهِ حينَ[7] تَرَكوا الإنصافَ، وأخذوا سَبيلَ الاِعْتِسافِ والاِسْتِكْبارِ عليهِ غايَتَهُ، ولمّا قالَ: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] دلَّ أنهمْ كانوا في سُوءِ السَّريرةِ غايَتَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: منهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: وأمره. (٧) في الأصل وم: حيث.

قالَ: ويجوزُ أنْ يَقَعَ كلُّ ذلكَ منهمْ لِوجهَينِ:

أحدُهما: أنهمْ رَأَوا ذلكَ حقّاً لهمْ على اللهِ تعالى آتاهُمْ.

[والثاني: أنهمْ رَأَوا][1] أنّ اللهَ تعالى آتاهُمْ ذلكَ تفضيلاً لهمْ على غَيرِهِمْ، فكانوا يَتَكَبَّرونَ، ويَتَعَظَّمونَ على غَيرِهِمْ، ويَسْتَخِفّونَ برسولِ اللهِ ﷺ لِذلكَ الوجهِ، ولم يَتَأمّلوا، ولم يَتَفَكّروا، لِيَتَبَيَّنَ لهمْ أنّ اللهَ تعالى آتاهُمْ جميعَ تلكَ النِّعَمِ مِحْنةً عليهِمْ، تَعَبُّدَهُمْ بأداءِ شُكْرِها وتَعْظيمِ حقِّها. وذلكَ مَعْنى، لا يَفْقَهونَ، أي لا يَتَأمّلونَ النَّظَرَ في هذهِ النِّعَمِ؛ وذلكَ أنّهُ لو لم يكنْ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ يُلْزِمُهُمْ أنْ يَتَأمّلوا في ما أُوتوا مِنَ النِّعَمِ، ويَنْظُروا، فإذا تَفَكّروا في ذلكَ، ولم يَجِدوا لهمْ عندَ اللهِ صُنْعاً استوجَبوا بهِ عندَهُ مُكافآتٍ لذلكَ، ولا لهمْ فَضْلٌ يُفَضِّلُهُمُ اللهُ بهِ[2] على غَيرِهِمْ، فكانَ يَتَبَيَّنُ لهمْ أنّ اللهَ تعالى إنما أعطاهُمْ هذهِ النِّعَمَ مِحْنَةً لِيَتَعَبَّدَهُمْ بأداءِ شُكْرِها.

ولِذلكَ وقَعَ الفَضْلُ في ما بينَ العِلْمِ والفِقْهِ أنّ ما كانَ حقُّهُ التأمُّلَ والنَّظَرَ فَحَقُّ اللفظِ فيهِ أنْ يُقالَ: يَفْقَهونَ، ولا يَفْقَهونَ، وما كانَ حقُّ العِلْمِ السماعَ والخَبَرَ أُطْلِقَ فيهِ لَفْظُ العِلْمِ.

ولِذلكَ قالَ عندَ العِزّةِ والغَلَبَةِ والنَّصْرِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٨] لأنهمْ لم يكونوا يَعْلَمونَ النَّصْرَ والغَلَبَةَ، لو لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: رأيتَهُمْ يَصُدّونَ عن طاعتِكَ واتّباعِكَ.

والثاني: يَصُدّونَ ضَعَفَتَهُمْ عنِ اتّباعِكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنهمْ][3] لم يَعُدّوا ذلكَ زَلّةً وذَنْباً لأنهُ كانَ عندَهُمْ أنهمْ على الحقِّ.

والثاني: ما قُلْنا: إنهمْ كانوا لا يُؤمنونَ بالآخِرَةِ، والمَغْفِرَةُ إنما تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، ويَتَحَقَّقُ ذلكَ في الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ على ذلكَ أيضاً؛ إنهُ لا يَغْفِرُ أَسْتَغْفَرْتَ أمْ لم تَسْتَغْفِرْ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ لا يَسْتَغْفِرُ لِلْمُنافِقينَ بَعْدَ ما ظَهَرَ عندَهُ نِفاقُهُمْ، ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا قَبْلَ نِفاقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا على النِّفاقِ، ولم يتوبوا عنهُ.

والثاني: أنْ يقولَ: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ منهمْ أنهمْ لا يؤمنونَ أبداً، فقالَ في أولئكَ: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦ ويس: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فيهِ أنّ اللهَ تعالى، يَمْلِكُ هدايةً وراءَ هدايةِ البَيانِ، لأنّ مَنْ لم يَمْلِكْ شيئاً لم يَسْتَقِمْ أنْ يُوصَفَ بالتَّعْظيمِ: أنهُ، لا يَفْعَلُ، لأنهُ يَعْلَمُ إذا لم يَقْدِرْ، ولم يَمْلِكْ، لا يَفْعَلُ. وإنما يُوصَفُ بهذا مَنْ يَمْلِكُ ذلكَ، ولكنْ لا يَفْعَلُ.

فلو لم يَقْدِرْ خَلْقَ فِعْلِ الاهْتِداءِ في مَنْ أرادَ لم يُوصَفْ بأنهُ لا يَهْدي الفاسِقينَ. فَدَلَّ أنهُ يَمْلِكُ هدايةَ البَيانِ، وهو خَلْقُ الاهْتِداءِ في مَنْ عَلِمَ منهُ ذلكَ، واللهُ الموفقُ.

وقالَ أبو بكرٍ: مَعْنى قولِهِ: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ أي لا يَهْدِيهِمْ لِفِسْقِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: بها. (٣) في الأصل وم: لأنهم.

وقالتِ المعتزلةُ: أي لا يُسمِّيهِمْ مُهْتَدينَ، إذا فَسَقُوا، أو ضَلُّوا.

وأيُّهما كانَ، فهو مُحالٌ، لأنَّ مَنْ هَدَى ضالاً لِضَلالَتِهِ فهو سفيهٌ؛ فكأنهُ يقولُ: لا يَسْفَهُ، ومَنْ سَمَّى الضالَّ مُهْتَدِياً فهو كاذبٌ؛ فكأنهُ قالَ: لا يَكْذِبُ، وهما جميعاً غيرُ مُستَقيمٍ، لأنا نَعْلَمُ أنهُ لا يَسْفَهُ، ولا يَكْذِبُ. فَثَبَتَ أنَّ في مُلْكِهِ هدايةً، يَهْدي بها مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ سِوَى هدايةِ البَيانِ. وإذا ثَبَتَ ما وَصَفْنا أنَّ في مُلْكِهِ هدايةَ البَيانِ ثَبَتَ أنَّ لهُ فيها مَشيئةً؛ لأنَّ مَنْ مَلَكَ شيئاً، لم يَجُزْ أن تُقطَعَ عنهُ مَشيئَتُهُ. فلذلكَ قُلْنا: إنَّ اللهَ تعالى، يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ مِنْ عبادِهِ مَنْ[1] عَلِمَ أنهُ يُؤثِرُ الكُفْرَ، ويَخْتارُهُ على الهُدَى، ويَهْدي مَنْ يَشاءُ مَنْ[2] عَلِمَ أنهُ يُؤثِرُ الهُدَى على الضلالةِ، فَيَهْديهِ لِذلكَ، ويُوَفِّقُهُ، ويُسَدِّدُهُ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ قد وَصَفْنا أنَّ هذا مِنْ غايةِ بُخْلِهِمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ دلالةٌ أنهمْ أرادوا إطفاءَ هذا النورِ وإخفاءَهُ، فأبى اللهُ تعالى إلّا إظْهارَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَبْسُطُها على المنافقينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالإنفاقِ على المؤمنينَ.

أو ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يُضَيِّقُها على المؤمنينَ لِيَمْتَحِنَهُمْ بالصَّبْرِ في حالِ الضِّيقِ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ هذا بِشارةً للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ تعالى، يُوَسِّعُ عليهمُ الدنيا بَعْدَ ما ضاقَتْ، وقد جَعَلَ حينَ فَتَحَ لهمُ الفُتوحَ، وآتاهُمُ الغَلَبَةَ على أعدائِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ الأعزُّ: قد يَحْتَمِلُ مَعانيَ:

أحَدُها: الأغلَبُ الأقْهَرُ على مِثالِ قولِهِ تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أي غَلَبَني في الخُصومةِ.

والثاني: الأقْوَى والأشَدُّ على مِثالِ قولِهِ ﷺ: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

والثالثُ: الأعْلَى والأجَلُّ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنْ كانَ على الأعلَى والأجَلِّ فذلكَ أنَّ المؤمنينَ أعْلَى وأجَلُّ /٥٧١ ـ ب/ لأنهمُ اتَّبعوا الحِكْمَةَ بالحُجَجِ، والكُفّارَ اتَّبعوا أهواءَهُمْ. وإنْ كانَ على الأغْلَبِ والأقْهَرِ فذلكَ للمؤمنينَ بالغَلَبَةِ والنُّصْرَةِ على أعدائِهِمْ.

وإنْ كانَ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ فقد كانَ ذلكَ للمؤمنينَ، لأنهُ لو لم يُوجَدْ ذلكَ للمؤمنينَ لم يكُنْ أهلُ النِّفاقِ يُظْهِرونَ الوِفاقَ للمؤمنينَ. ولكنهمْ لمّا رَأَوُا القُوَّةَ والشِّدَّةَ للمؤمنينَ مَرَّةً ولِلْكُفّارِ أُخْرَى أظْهَروا المُوافَقَةَ لِلْفَريقَيْنِ جميعاً. ولذلكَ قالَ ذلكَ المُنافِقُ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ لأنهُ لمّا رَأَى العِزَّةَ والشِّدَّةَ لِلْكافرينَ يومَ أُحُدٍ تَوَهَّمَ أنهمْ يَغْلِبونَهُمْ أبداً، فأظْهَرَ النِّفاقَ، وقالَ عندَ ذلكَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: هذهِ الآيةُ في المُنافقينَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: في المؤمنينَ.

فإنْ كانَتْ في المُنافقينَ فكأنهُ يقولُ: يا أيُّها الذينَ أظْهَرْتُمْ بِلِسانِكُمُ الإيمانَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وإنْ كانَتْ في المؤمنينَ فكأنهُ قالَ: يا أيُّها الذينَ حَقَّقوا الإيمانَ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

ثم اخْتَلَفوا في مَعْنَى الذِّكْرِ: فمنهمْ مَنْ قالَ: مَعْناهُ القرآنُ على مِثالِ قولِهِ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟﴾ [الطلاق: ١٠ و١١] يعني قرآناً ورسولاً، ومنهمْ مَنْ قالَ: مَعْنَى الذِّكْرِ التوحيدُ.

فإنْ كانَ تأويلُهُ القرآنَ فهو يَتَوَجَّهُ إلى المنافقينَ والمؤمنينَ جميعاً.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: لمن.

فإنْ كانَ في المُنافقِينَ فكأنهُ قالَ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ عنِ النَّظرِ والتأمُّلِ في القرآنِ، لأنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أموراً، تُظْهِرُ [سَرائِرَكُمْ وما يَظْهَرُ عندَكُمْ][1] أنَّ الرسولَ، لا يَخْتَلِقُهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، وأنهُ إنما يقولُهُ بالوَحْيِ. فكأنهُ يقولُ: إذا تأمَّلْتُمُ النَّظَرَ في القرآنِ حَمَلَكُمْ ذلكَ على التَّحقيقِ في الإيمانِ، فلا يَحْمِلُكُمْ حبُّ المالِ والوَلَدِ على تَرْكِ التأمُّلِ في القرآنِ لأنكُمْ إذا نَظَرْتُمْ فيهِ، وتأمَّلْتُمْ، حَصلْتُمْ منهُ على تحقيقِ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ كانَ في المؤمنينَ فَمَعْناهُ ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ عنِ النَّظرِ في القرآنِ فإنكُمْ إذا نَظَرْتُمْ فيهِ صِرْتُمْ مِنْ أهلِهِ، وجَلَّ قَدْرُكُمْ.

وإنْ كانَ المُرادُ مِنَ الذِّكْرِ التوحيدَ فهو راجعٌ إلى الناسِ كافَّةً.

فأمّا المؤمنونَ فكأنهُ حَذَّرَهُمْ مِنْ حُبِّ المالِ والوَلَدِ أنْ تَحْمِلَهُمْ غايةُ حُبِّهِما على أن يَنْسَوا وَحْدانيَّةَ اللهِ والإيمانَ بالرسُلِ والبَعْثِ؛ فكأنهُ يقولُ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ كما ألْهَتْ[2] الكَفَرَةَ، فَيُحَذِّرُهُمْ عنْ أنْ يَقَعوا في الهلاكِ مِنْ حُبِّهِما[3] كما قالَ ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] يعني اتَّقُوا الذي يُفْضي بكمْ إلى النارِ المُعَدَّةِ للكافرينَ. فكذلكَ الأوَّلُ.

[وأمّا المنافقونَ][4] فكأنهُ قالَ: لا يَحْمِلُكُمْ حبُّ المالِ والوَلَدِ أنْ تَتْرُكوا حقيقةَ الإيمانِ والتَّوحيدِ لهُ والطاعةِ لرسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فَعَلَى ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلَينِ في إنكارِ البَعْثِ والتَّوحيدِ ظاهرٌ، وإنْ كانَ في المؤمنينَ فَمَعْنَى الخَسارِ[5] الخوفُ مِنْ أنْ يَقَعَ بهِ الوَعيدُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ يجوزُ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فَيَمْنَعَكُمْ ذلكَ عنِ الإنفاقِ؛ فإنكمْ إذا امتَنَعْتُمْ عنِ الإنفاقِ ازْدادَ حُبُّكُمْ، فَتَنْسَونَ وَحْدانيَّةَ اللهِ تعالى وطاعةَ رسولِهِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

قالَ بعضُهُمْ: تَمَنَّى الرَّجْعَةَ لِما رأى مِنَ الهلاكِ والعذابِ حينَ[6] تركَ الحقوقَ.

ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: لو كانَ ثَمَّ خَيرٌ لم يَتَمَنَّ الرَّجْعَةَ[7].

ولكنَّ المَعْنَى في ذلكَ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يَتَمَنَّى الرُّجوعَ لِيَتَصَدَّقَ، ليسَ الإنفاقَ خاصَّةً، ولكنْ لِيَتَصَدَّقَ، ولِيَكونَ مِنَ الصالحينَ أي المُوَحِّدينَ. وذلكَ مُسْتَقيمٌ أنْ يُقالَ: إذا تَرَكَ التَّوحيدَ، فَنَزَلَ بهِ الموتُ فإنهُ[8] يَتَمَنَّى الرُّجوعَ لِما يَرَى مِنَ الهَلاكِ والعُقوبةِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى في هذا إنْ كانتِ الآيةُ في المؤمنينَ المُوَحِّدينَ أنهمْ يَتَمَنَّونَ الرُّجوعَ حياءً مِنْ ربِّهِمْ لِما ارْتَكَبوا مِنَ الزَّلّاتِ، وتَرَكوا ما استَوجَبوا[9] مِنَ الحَسَناتِ، وقَصَّروا في ما فَرَضَ اللهُ تعالى عليهِمْ مِنَ العباداتِ؛ وحَقٌّ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ ربِّهِ إذا لَقِيَهُ بما تَرَكَ مِنْ حقوقِهِ التي أَلْزَمَها عليهِ والأسبابِ الواجبةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ ليسَ يَحْتَمِلُ تأخيرُ اللهِ تعالى أجَلَهُ إذا جاءَ، لأنهُ لو أخَّرَهُ دلَّ أنهُ مَدَّ لهُ في أجَلِهِ، ومَنْ مَدَّ لهُ في أمْرٍ فذلكَ دليلُ الجَهْلِ بالعَواقِبِ، ولا يُوصَفُ ربُّ العالَمينَ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْ أعمالِكُمْ سِرِّكُمْ وعَلانيَتِكُمْ، واللهُ أعلَمُ بِحَقيقةِ ما أرادَ.

---

(١) في الأصل وم: سرائرهم ما يظهر عندهم. (٢) في الأصل وم: ألهى. (٣) في الأصل: أحبه، في م: حبه. (٤) في الأصل وم: وإن كان في المنافقين. (٥) من م، في الأصل: الحساب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الكفرة. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يستوجبوا.

سورة(١) التغابن

مدنية(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةُ. والتَّسبيحُ يَحتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً، وقد سَبَقَ ذِكْرُه(٣).

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

[أحدُهما](٤): يَحْتَمِلُ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ الوِلايَةَ والسلطانَ.

والثاني: يقولُ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يَعْني مُلْكَ كلِّ الملوكِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآيةَ [آل عمران: ٢٦] فأخبرَ أنَّ مُلْكَ الملوكِ كلَّها لهُ، وأنَّ مَنِ استفادَ المُلْكَ فإنما يَستَفيدُهُ باللهِ تعالى وبامْتِنانِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: أنْ يقولَ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعني لَهُ الثناءُ الحَسَنُ بِصِفاتِهِ العُلَا وسِماتِهِ الحُسْنَى.

والوجهُ الثاني: أنْ يقولَ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ يَعْني حَمْدَ كلِّ مَنْ يَحْمَدُ؛ فَحَقيقةُ ذلكَ الحَمْدِ لهُ بما أَحْسَنَ إلى عبادِهِ، وأنْعَمَ عليهِمْ؛ وذلكَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١ و...] أي الحمدُ والثَّناءُ الحَسَنُ للهِ تعالى على إحْسانِهِ إلينا وإنْعامِهِ علينا.

والثالثُ: أنْ يَجْعَلَ مَعْنَى الحَمْدِ مَعْنَى الشُّكْرِ، لأنَّ الحَمْدَ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ الشُّكْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنَى(٥) ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ حُجَّةً(٦) على المعتزلةِ، لأنَّ اللهَ تعالى، لا يزالُ يَمْدَحُ نفسَهُ بأنهُ بَصيرٌ عَليمٌ، وأنهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، وأقَرَّتِ المعتزلةُ بأنهُ بَصيرٌ عَليمٌ، وأبَتِ الإقرارَ(٧) بأنهُ قديرٌ على فِعْلِ العِبادِ أو على إصلاحِ أحدٍ مِنَ العبادِ، وهذا خِلافُ ما مَدَحَ اللهُ تعالى نَفْسَهُ بِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فمنكُمْ مَنْ يَدينُ بِدينِ الكُفْرِ، ومنكُمْ مَنْ يَدينُ بِدينِ الإيمانِ. ودَلَّ هذا على أنَّ المَعْصِيَةَ والطاعةَ يَجْتَمِعانِ في دينٍ واحدٍ، وأنَّ المَعْصِيَةَ [لا تُخْرِجُهُ مِنْ دينِهِ، لأنَّ المَعْصِيَةَ](٨) لم يَرْتَكِبْها تَدَيُّناً بها ولكنْ لِغَلَبَةِ شَهْوَةٍ أو غَضَبٍ عليهِ.

وأمّا الكُفْرُ والإيمانُ فإنهُ يأتي بهما المَرْءُ اختياراً، ويَتَدَيَّنُ / ٥٧٢ - أ/ بالكُفْرِ والإيمانِ لِما عندَهُ أنهُ حقٌّ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنْ ليسَ بَيْنَ الكُفْرِ والإيمانِ مَنْزِلَةٌ ثالثةٌ، وليسَ كما قالَتِ المعتزلةُ: إنَّ صاحبَ الكبيرةِ بَيْنَ مَنْزِلَتَيْنِ بينَ الكُفْرِ والإيمانِ، واللهُ تعالى قَسَّمَ الناسَ نِصْفَينِ: فمنهمْ مَنْ خَلَقَهُ كافراً، ومنهمْ مَنْ خَلَقَهُ مؤمناً، ولم يَجْعَلْ في ما بَيْنَهما مَنْزِلَةً ثالثةً، فلا يَجِبُ أنْ تُجْعَلَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وفيهِ أيضاً وجْهٌ لطيفٌ سِوَى ما ذَكَرْنا، وهو أنَّ كلَّ واحدٍ في الدنيا مؤمنٌ وكافرٌ في الحقيقةِ، لأنَّ مَنْ كانَ مؤمناً فهو

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر. (٢) أدرج قبلها في الأصل: وهي. (٣) من م، في الأصل: ذكر. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: معناه. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: وهو. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

كافرٌ بالطاغوتِ، ومَنْ كانَ كافراً باللهِ فهو مؤمنٌ بالطاغوتِ. فإذا كان كذلكَ وَجَبَ أنْ يُبحثَ عَنْ مَعْنى قولِهِ: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

ومَعْناهُ عندَنا أنَّ الحقيقةَ، وإنْ كانَتْ كذلكَ، فالإيمانُ إذا ذُكِرَ مُطْلَقاً لم يُفْهَمْ منهُ [إلّا][1] الإيمانُ باللهِ تعالى، والكُفْرَ إذا أُطْلِقَ أيضاً لم يُفْهَمْ منهُ إلّا الكُفْرَ باللهِ تعالى. وإذا كانَ كذلكَ جازَ أنْ يكونَ لَفْظُ الكتابِ خارجاً على ما عليهِ المَعْهودُ مِنَ المُتعارَفِ المُعْتادِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ في الأزلِ بما يَعْمَلُهُ العِبادُ، وإنهُ ليسَ كما قالَ بعضُ الناسِ: إنهُ[2] لا يَعْلَمُ فِعْلَ العبدِ إلّا وقتَ فِعْلِهِ، واحتَجُّوا في ذلكَ أنّا لو قُلْنا: إنّ اللهَ تعالى بَصيرٌ في الأزلِ بما يَفْعَلُهُ لكانَ قولاً بما لا يَسْتقيمُ في المَعْقولِ. ألَا تَرَى أنا لا نَرَى في الشاهدِ مَنْ بَنَى بناءً، يَعْلَمُ أنهُ يَضُرُّهُ، أو يَشْتَري عبداً، يَعْلَمُ أنهُ يعاديهِ؟ فكذا لا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنّ اللهَ خَلَقَ عبداً، قد كانَ يَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ أنهُ إذا خَلَقَهُ عاداهُ.

والجوابُ عنْ هذا الذي وصَفَهُ غَيرُ مُسْتقيمٍ في الشاهدِ لأنَّ مَنافِعَ ما يَفْعَلُهُ العِبادُ ومَضارَّهُمْ تَرْجِعُ إلى أنفسِهِمْ، وليسَ مِنَ العَقْلِ أنْ يَفْعَلَ المرءُ فِعْلاً، يَعْلَمُ أنهُ يَضُرُّهُ.

وأمّا ربُّ العالمينَ فإنهُ لا يَرْجِعُ شيءٌ مِنَ المنافِعِ والمَضارِّ إليهِ، فجازَ أنْ يَخْلُقَ خَلْقاً، يَعْلَمُ أنهُ يَختارُ عَداوَتَهُ لِيَظْهَرَ عندَ الخَلْقِ أنهُ لا يَرْجِعُ شيءٌ مِنَ المَنافِعِ والمَضارِّ إليه بَعْدَ أنْ يكونَ في الحِكْمةِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥ و...] [وقولِهِ][3]: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣ و...] [وقولِهِ][4]: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢ و...] [وقولِهِ][5]: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبإ: ٢١ و...] إلزامُ المراقبةِ والتَّحفُّظِ والتَّيَقُّظِ وبَيانُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، لأنهُ إذا عَلِمَ المَرْءُ أنّ عليهِ في كلِّ ما يَفْعَلُهُ رقيباً[6] يَتَيَقَّظُ، ولا[7] يَفْعَلُ إلّا ما يَرْضَى بهِ ربُّهُ، واللهُ المُسْتعانُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قد وَصَفْنا أنّ الحَقَّ إذا جرَى ذِكْرُهُ، يُصْرَفُ في كلِّ شيءٍ إلى [ما][8] هو الَّيقُ بهِ، فإذا ذُكِرَ في الأخبارِ أُريدَ [بهِ][9] الصِّدْقُ، وإذا ذُكِرَ في الأحكامِ أُريدَ بهِ العَدْلُ، وإذا ذُكِرَ في الأقوالِ أُريدَ بهِ الإصابةُ.

فلمّا قالَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ ههنا أرادَ[10] بهِ الحِكْمةَ؛ كأنهُ يقولُ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ بالحِكْمةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يَعْني للحقِّ، وهو البَعْثُ، فَكأنهمْ عَنَوا بهِ أنّ اللهَ تعالى لم يَخْلُقْها عَبَثاً، بل [خَلَقَها للمَعادِ][11].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يَحْتَمِلُ هذا وجهَينِ:

أحَدُهما: أحْسَنَ أي أتْقَنَ، وأحْكَمَ، ومَعْنى ذلكَ أنّ اللهَ تعالى خَصَّ صُوَرَ بَني آدمَ في الاِسْتِدْلالِ بِوَحدانيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ في أنْ جَعَلَ في أنفسِهِمْ حَقيقةَ المَعْرفةِ والاِسْتِدْلالَ بأنفسِهِمْ على وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى.

وأمّا غَيرُهُمْ مِنَ الصُّوَرِ فإنما يَقَعُ الاِسْتِدْلالُ لِغَيرِها بها، ليسَ لنفسِ تلكَ الصُّوَرِ حَقيقةُ المَعْرفةِ والاِسْتِدْلالُ بِوَحدانيَّةِ. ولِذلكَ كانَ خَلْقُ صُوَرِ بَني آدمَ أتْقَنَ وأحْكَمَ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنْ يُصْرَفَ الحُسْنُ إلى حُسْنِ المَنْظَرِ؛ ومَعْنى ذلكَ أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ بَني آدمَ على صورةٍ، لا بُدَّ مِنْ أنْ تكونَ صُورَتُهُمْ مِثْلَ صورةِ غَيرِهِمْ مِنَ الخَلائِقِ، فَثَبَتَ أنّ صورَتَهُمْ في المَنْظَرِ أحْسَنُ صورةٍ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إن. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: رقيب. (٧) في الأصل وم: ولم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: فكان. (١١) في الأصل وم: خلق للعباد.

فذلكَ مَعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَعني البَعْثَ. وأضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لأنهُ هو النهايةُ والمَقصودُ في خَلْقِهِمْ.

ولمّا لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مَعْنَى الانْتِقالِ والتَّحَوُّلِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، مِنْ حيثُ أنهُ يضافُ إلى اللهِ تعالى، لأنَّ هذا فِعْلٌ يكونُ باثْنَيْنِ، فإنَّ مَنْ صارَ إلى شيءٍ صارَ ذلكَ إليهِ مِثْلَ المُلاقاةِ والإتيانِ ونَحْوَ ذلكَ، فلمّا لم يُفْهَمْ منهُ الِانْتِقالُ لم يَنْبَغِ أنْ يُفْهَمَ مِنْ قولِهِ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] مَعْنَى الِانْتِقالِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ في إخبارِهِ عنْ عِلْمِهِ بذلكَ كلِّهِ إيجابُ المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ والمُحافظةِ على ما أمَرَهُ اللهُ تعالى، ونَهاهُ. وفي هذا إخبارٌ أنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما تُضمِرونَ مُخْفٍ عليكُمْ جميعَ ما تُظْهِرونَ، فاحْذَروا أنْ تَرْتكِبوا ما فيهِ سُخْطُهُ في الحالَيْنِ جميعاً، واللهُ المُسْتَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: أي بِما في الصُّدورِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ بالأنفسِ التي لها الصُّدورُ، وكلُّ مَنْ كانَ ذا فِكْرةٍ وتدبيرٍ[1] فإنهُ يُسَمَّى [مِنْ][2] ذاتِ الصُّدورِ.

ومَعْناهُ أنَّ التَّدْبيرَ إنما يَصْدُرُ عنْ ذلكَ الموضِعِ، ويَرْجِعُ إليهِ، وكلُّ بَني آدمَ خُصُّوا بهذا المَعْنَى. فلِذلكَ ذُكِرَ هذا فيهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فتَأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أي قد أتاكُمْ نَبَأُ الذينَ كَفَروا مِنْ قَبْلُ وما نَزَلَ بهِمْ حينَ كَفَروا، وعانَدوا. ومَعْنى ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد حَذَّرَهُمْ بما يكونُ في الآخِرَةِ مِنْ ألوانِ العذابِ، فلم يَتَّعِظوا لِما لم يكونوا يُؤمنونَ بالبَعْثِ. فلمّا لم يَنْجَعْ فيهِمْ ذلكَ حَذَّرَهُمْ بِعُقوباتٍ تَنْزِلُ بهِمْ لو لم يَنْتَهُوا عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الطُّغيانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [أي شِدَّةَ أمْرِهِمْ][3] ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عاقبةَ أمْرِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيهِ إخبارٌ أنَّ ما نَزَلَ بهِمْ مِنَ العذابِ في الدنيا، لم يُكَفِّرْ عنهُمْ ذنبَ الكُفْرِ، وأنَّ عذابَ الدنيا إنما كانَ جَزاءَ شِرْكِهِمْ[4] في الكُفْرِ، وأنهُ يُعَذِّبُهُمْ في الآخِرَةِ عذابَ الكُفْرِ والشِّرْكِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ فكأنهُ يريدُ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تلكَ العقوباتُ التي نَزَلَتْ بالأُمَمِ الماضيةِ إنما كانَ سَبَبُها أنَّ رسُلَهُمْ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وكانَ قولُهُمْ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ تَلْقِينَ إبليسَ حينَ[5] لَقَّنَهُمْ مُخالفةَ الرسولِ وتكذيبَهُ، وأنكُمْ لوِ احْتَجْتُمْ إلى طاعتِهِ فَفيكُمْ مَنْ هو أعظمُ ففيكُمْ مَنْ هو أعظمُ منهُ درجةً وأكْبَرُ مَنْزِلَةً.

فإذا لم تُطيعوهُ، فيكفَ تُطيعونَ بَشراً مثلَكُمْ؟ وهذا كلُّهُ عِنادٌ وخَطأٌ؛ وذلكَ أنهمْ قد كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ تقليداً منهُمُ البَشَرَ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾؟ [الزخرف: ٢٣].

ومَعلومٌ أنَّ جَعْلَ الصَّنَمِ[6] معبوداً بقولِهِ: ﴿أَبَشَرٌ﴾ تقليداً لهُ أكْبَرُ وأعْظَمُ مِنْ تَصديقِ البَشَرِ أنهُ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ عندَ قيامِ الدليلِ المُعْجِزِ.

فإذا اسْتَجازوا تَقْليدَ البَشَرِ في ذلكَ، فكيفَ لا اسْتَجازوا تَصْديقَ الرسولِ في ما يَدْعوهُمْ إلى تَرْشيدِ اللهِ وطاعتِهِ في ما يَرْجِعُ إليهِمْ مِنَ المَنافِعِ والمَضارِّ؟ ولكنهمْ كانوا قوماً سُفَهاءَ، فاتَّبَعوا سَفَهَهُمْ وعِنادَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ قولُهُمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠ و...] وكيفَ يكونُ سِحْراً، وقد آتاهُمْ بآياتٍ أعْجَزَتْهُمْ، وأعْجَزَتِ السَّحَرَةَ أنْ يأتوا بِمِثْلِها؟ ولكنهُمْ عانَدوا، فلم يَجِدوا حيلةً سِوَى أنْ قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: شرهم. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: الأصنام.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرُوا/ ٥٧٢ ـ ب/ وَتَوَلَّوا﴾ أي كَفَروا بالرسلِ ﴿وَتَوَلَّوا﴾ أعْرَضوا عنْ طاعةِ رسولِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ لم يُسْمَعْ مِنْ أحدٍ مِنَ المُتَكَلِّمينَ، يقولُ: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ على الابْتِداءِ إلّا ما ذَكَرَ في ظاهرِ هذهِ الآيةِ.

والقولُ في الاسْتِغناءِ في ما يُريدُ بهِ الإخبارَ جائزٌ نَحْوُ قولِكَ: اللهُ مُسْتَغْنٍ، فأمّا أنْ تَبْتَدِئَ، فتقولَ: اسْتَغْنَى اللهُ في ما فيهِ شَكٌّ وريبٌ فإنهُ[1] لا يجوزُ البِدايةُ بهِ.

وقد غَلِطَ بعضُ المفسِّرينَ حينَ[2] قالوا: اسْتَغْنَى اللهُ بطاعةِ مَنْ أطاعَهُ عَنْ مَعْصِيَةِ مَنْ عَصاهُ، لأنَّ اللهَ تعالى لم يَمْتَحِنْ عبادَهُ بالطاعةِ والمَعْصِيةِ لِمَنافِعَ يَأْمُلُها، أو مَضَرَّةٍ، يَخْشاها، ويَخافُها، بل هو مُسْتَغْنٍ بذاتِهِ عنْ ذلكَ مِنَ الأزَلِ، واللهُ أعلَمُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ في هذا الإضمارُ؛ يعني: واسْتَغْنَى الرسولُ عن طاعتِهِمْ باللهِ تعالى، أو يُصْرَفَ الاسْتِغْناءُ إلى الإخبارِ عنْ ذاتِه أنهُ مُسْتَغْنٍ بذاتِهِ في الأزلِ، لا تَمَسُّهُ حاجةٌ، وأنهُ لا يَنْصُرُهُ كُفْرُ مَنْ كَفَرَ، ولا يَنْفَعُهُ إيمانُ مَنْ آمَنَ، بل إنما يَحْصُلُ ذلكَ كلُّهُ لِلْمُمْتَحَنِ بهما، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قد وَصَفْنا مَعْنَى الغَنِيِّ. وأمّا الحَميدُ فَيَحْتَمِلُ[3] وجْهَينِ:

أحَدُهما: يعني المحمودَ أي المُسْتَحِقَّ لِلْحَمْدِ بذاتِهِ؛ إذْ يَسْتَحِقُّ كلُّ أحدٍ الحَمْدَ على ما يُحْسِنُ[4].

[والثاني][5]: يَحْتَمِلُ مَعْنَى الحميدِ مَعْنَى[6] الحامدِ؛ وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى يَحْمَدُ محاسِنَ الخَلْقِ وآثارَ أفعالِهِمْ، وأنَّ حقيقةَ تلكَ الأفعالِ مِنْ جهةِ التَّوفيقِ والتَّسْديدِ إنما كانَتْ بهِ، وذلكَ غايةُ [الكرمِ][7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ قولُهُ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ هذا تعليماً لِرسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُعَلِّمَهُ القَسَمَ تأكيداً لِما كانَ يُخْبِرُ عنِ البَعْثِ، وكذلكَ جميعُ ما ذُكِرَ مِنَ القَسَمِ في القرآنِ يجوزُ أنْ يكونَ على هذا المَعْنَى، لأنَّ القَسَمَ إنما يكونُ لِنَفْيِ تُهَمَةٍ تَمَكَّنَتْ، واللهُ تعالى لا يُتَّهَمُ في خَبَرِهِ، والرسولُ، هو الذي كانوا يَتَّهِمونَهُ[8] في ما يُخْبِرُ لِما لم تَثْبُتْ عندَهُمْ رسالَتُهُ لِعَدَمِ تأمُّلِهِمْ في دلائِلِهِ. فَعَلَّمَهُ القَسَمَ تأكيداً لِما يُخْبِرُ، ونَفْياً لِلتُّهَمَةِ عمّا يقولُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: أنهُ][9] يجوزُ أنْ يكونَ هذا قَسَماً مُقابلاً لِما أقْسَمَ بهِ الكَفَرَةُ في أمْرِ البَعْثِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ أمْرَ البَعْثِ على اللهِ يَسيرٌ هَيِّنٌ، لأنهمْ أنْكَروا البَعْثَ بعدَ ما صاروا تُراباً، وأخْبَرَ أنَّ بَعْثَهُمْ وإعادَتَهُمْ بَعْدَ أنْ صاروا تُراباً، فأخبَرَ، جَلَّ، وعلا، أنَّ ذلكَ على اللهِ يَسيرٌ.

والوجهُ الثاني: مِنَ التأويلِ: أنْ يَذْكُرَ ما عَمِلوا مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ، وأحْصَى[10] عليهِمْ كلَّ سِرٍّ وعَلانِيَةٍ وكلَّ صغيرٍ وكبيرٍ لِيُعايِنوا ذلكَ في كتُبِهِمْ، ويَعْلَموا تَحقيقَها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما نَزَلَ مِنَ العقوبةِ بالأُمَمِ الماضيةِ، وأنَّ ذلكَ إنما نَزَلَ بهمْ لِكُفْرِهِمْ باللهِ تعالى وتكذيبِهِمُ الرسُلَ، فآمِنوا أنتمْ باللهِ ورسولِهِ لئلا يَنْزِلَ بكمْ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ البأسِ والعُقوبةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: إليه. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) أدرج قبلها في الأصل وم: على. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل: لا. (٩) في الأصل وم: و. (١٠) في الأصل وم: وأحصاه.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [النورُ هو][1] القرآنُ، ويجوزُ أنْ يكونَ سَمّاهُ نوراً لأنهُ يُبْصَرُ [بهِ][2] حقيقةُ المذاهبِ في الطاعةِ والمعصيةِ والإحسانِ والإساءةِ والإيمانِ والكُفرِ كما يُبْصَرُ بنورِ النهارِ حقيقةُ الأشياءِ مِنْ جَيِّدِها ورَدِيِّها، كذلكَ يُبْصَرُ بهذا مَنافعُ الطاعةِ ومَضارُّ المَعْصيةِ، فَسَمّاهُ[3] نوراً مِنْ هذا الوجْهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تُسِرّونَ وما تُعْلِنونَ، فَراقِبوهُ، وحافِظوهُ في الحالَيْنِ جميعاً.

وفي هذا بيانُ أنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بما يَعْمَلُهُ العبادُ مِنَ الأزلِ وبما يكونُ منهمْ، وأنهُ ليسَ كما وَصَفَهُ بعضُ الجُهّالِ، واللهُ المُستَعانُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [ذلكَ اليومُ][4] في الحقيقةِ يومُ جَمْعٍ وتفريقٍ[5]، وهو أيضاً في الحَقيقةِ يومُ تَغابُنٍ وتَرابُحٍ، وإنْ ذَكَرَ أحدَهما: [دليلُ][6] ذلكَ ما ذُكِرَ في غَيرِها مِنَ الآياتِ. ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؟ [الشورى: ٧] وإلى ما ذُكِرَ في عَقيبِ قولِهِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [وهو][7] قولُهُ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهذا هو مَعْنى التَرابُحِ، ولكنهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ، يجوزُ أنهُ اكْتَفى بِذِكْرِ أحَدِهِما عنِ الآخَرِ. ثم الغَبْنُ يُذْكَرُ في التِّجاراتِ.

والأصلُ في ذلكَ عندَنا أنَّ كلَّ سليمٍ طَبْعُهُ، لا يَخْلُو مِنْ عَمَلٍ، وعَمَلُهُ لا يَخْلُو مِنْ إحْدَى ثلاثةِ أوجُهٍ: إمّا أن يكونَ في مُباحٍ [وإمّا][8] أمْرٍ [وإما][9] نَهْيٍ.

ومَعْلومٌ أنَّ مِنِ استَعْمَلَ المُباحَ فهو يَسْتَعينُ بهِ في إقامةِ الأمرِ؛ إذْ لا بُدَّ مِنَ البَقاءِ لإقامةِ الأمرِ، وذلكَ باسْتِعْمالِ المُباحِ والاشْتِغالِ بأسبابِهِ، فكأنهُ في إقامةِ ذلكَ الأمرِ، فَحقيقتُهُ تَرجِعُ إلى [أنَّ][10] الأعمالَ في الحَقيقةِ تَنصَرِفُ إلى نوعَينِ: إلى أمرٍ ونَهْيٍ.

ومَعْلومٌ أنَّ مَنْ كانَ في أمْرٍ فهو تارِكٌ لِما نُهِيَ عنهُ، ومَنْ كانَ في نَهْيٍ فهو تارِكٌ لِما أُمِرَ بهِ.

والتجارةُ في الحقيقةِ هي أنْ [يُؤْخَذَ شيءٌ][11] بِتَرْكِ شيءٍ آخَرَ. وإذا تَحقَّقَ مَعْنى التجارةِ في أعمالِ بَني آدمَ أُطْلِقَ لها لَفْظُ التجارةِ.

قالَ: والدنيا لها ثلاثةُ أسماءٍ: المَتْجَرُ، والمَزْرَعُ، والمَسْلَكُ. وقد وصَفْنا مَعْنى التجارةِ.

وأمّا مَعْنى المَزْرَعِ فَلأَجْلِ أنَّ كلَّ مَنْ يَعْمَلُ في الدنيا فإنما يَعْمَلُ لِعاقبةٍ، ولا بُدَّ أنْ تكونَ عاقبتُهُ خيراً أو شَرّاً؛ فكلُّ مَنْ كانَتْ عاقبتُهُ الخَيرَ فهو زارعٌ للخَيرِ، ومَنْ كانَتْ عاقبتُهُ الشَّرَّ [فهو زارعٌ للشَّرِّ][12] واللهُ أعلَمُ.

وأمّا مَعْنى المَسْلَكِ والطريقِ فَلأَجْلِ أنَّ الخَلْقَ لم يُخْلَقوا في هذهِ الدنيا لِيَقِرّوا فيها، وإنما خُلِقوا لأحَدِ أمْرَينِ: إمّا لِلثوابِ [وإمّا][13] لِلعِقابِ؛ فكلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً، يُفْضي بهِ إلى الثوابِ والجنةِ [فكأنهُ يَسْلُكُ طريقَ الجنةِ][14] وكلُّ مَنْ عَمِلَ عملاً يُفْضي بهِ إلى النارِ فكأنهُ يَسْلُكُ طريقَ النارِ، ولِذلكَ سُمِّيَتْ[15] مَسْلَكاً وطريقاً، واللهُ أعلَمُ.

ثم التَّغابُنُ عندَنا يجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُ أنَّ أهلَ الكُفرِ يُغْبَنونَ في أهْلِيهِمْ وأموالِهِمْ في الآخِرةِ، لأنهمْ كانوا يَتعاوَنونَ بهمْ في الدنيا، فَحَسِبوا أنهمْ يكونونَ كذلكَ في الآخِرةِ. فإذا لم يَجِدوا، وصارَ[16] بعضُهُمْ يَلْعَنُ بعضاً، غَبَنوا ما كانوا يَأْمُلونَ منهمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: إنَّ لكلِّ كافرٍ في الجنةِ قصراً وبَيتاً وأهلاً، فإذا صاروا إلى النارِ وَرِثَ المؤمنُ أهلَهُ وقَصْرَهُ الذي كانَ لهُ في الجنةِ، فهذا هو التَّغابُنُ

---

(١) من م، في الأصل: التوراة و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فسمى. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: والفريق. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: من. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: أو. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: يأخذ شيئاً. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) من م، ساقطة من الأصل. (١٥) في الأصل وم: سمي. (١٦) في الأصل وم: وصاروا.

ولكنّ هذا غيرُ صحيحٍ عندنا لأنهُ لا يَحتَمِلُ أنْ يَبْنيَ اللهُ تعالى للكافِرِ في الجنةِ بيتاً مع عِلْمِهِ أنهُ لا يأتيهِ، لأنّ هذا فِعْلُ مَنْ لا يَعْلَمُ العَواقِبَ ومَنْ هو عابثٌ في فِعْلِهِ، جَلَّ اللهُ تعالى عنْ مِثْلِ هذا الوصفِ، إلّا أنْ يُحمَلَ على الوعْدِ إنْ ثَبَتَ الخَبَرُ، أي إنْ أسلَمَ الكافرُ كانَ لهُ ذلكَ المَنْزِلُ في الجنةِ. وإنِ ارْتَدَّ المُسْلِمُ عنِ الإسلامِ كانَ لهُ ذلكَ المَنْزِلُ في النارِ، وهو عالمٌ أنَّ عاقِبَةَ أمْرِهِ إزاءَ[1] الكُفْرِ أو الإسلامِ وأنَّ مأواهُ النارُ أوِ الجنةُ، وحُكْمُهُ على ما عَلِمَ، وأرادَ.

ولكنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بما كانَ وما يكونُ وبما لا يكونُ: أي لو كانَ، أي لو كانَ كيفَ يكونُ، فأخبَرَ على ذلكَ، وإلّا لم يَصِحَّ لِما ذَكَرْنا مِنَ المَعْنَى، واللهُ الموفِّقُ.

ويَحْتَمِلُ أنهُ إنما سَمّاهُ يومَ التّغابُنِ لأنَّ الدنيا جُعِلَتْ أسواقاً، والأحوالَ التي تكونُ لهمْ رُؤوسَ الأموالِ، والأعمالَ التي يَعْملونَ فيها، ويَكْتَسِبونَ، تجارةً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] ثم قالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: ١١] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١] وقالَ [في موضِعَينِ آخَرينِ][2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦ و١٧٥] وقالَ [في آيةٍ أُخرى][3]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦].

فإذا كانَتِ الدنيا مَتْجَرَةً، والآخِرَةُ هي التي تُقْسَمُ فيها الأرباحُ، ففي[4] ذلكَ يَقَعُ الربحُ / ٥٧٣ ـ أ/ [والخُسْرانُ، ويَظْهَرُ الغَبْنُ والفَضْلُ والنُّقْصانُ والزِّيادةُ، واللهُ أعلَمُ.

وسَمّاهُ يومَ التّغابُنِ لِما يَظْهَرُ لهمْ في ذلكَ أنهمْ خَسِروا، أو رَبِحوا، فلا يَظْهَرُ لهمْ ذلكَ في الدنيا، ثم بَيَّنَ العَمَلَ الذي يُرْبَحُ][5] عليهِ والعَمَلَ الذي يُخْسَرُ بهِ والتجارةَ التي يُوصَلُ بها إلى الأرباحِ والتي يَلْحَقُ بها الخُسْرانُ، وهو ما قالَ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيةَ، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية [المائدة: ١٠ و... والتغابن: ١٠].

وقولُهُ تعالى: تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يَعْني ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [على ما جاءَتْ][6] بهِ الرسُلُ وأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ، ويُؤْمِنُ بالرسلِ والبَعْثِ، فذلكَ هو الإيمانُ باللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يَعْني ويَعْمَلُ في إيمانِهِ صالحاً إلى أنْ يموتَ[7].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الآية؛ يَعْني كَفَروا بِوَحْدانيّةِ اللهِ تعالى وبِقُدْرتِهِ، وكَذَّبوا بآياتِهِ أي بِحُجَجِهِ، أو كَذَّبوا بالبَعْثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالَ بعضُهُم: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يَعْني بأمْرِ اللهِ، وهو قولُ الحَسَنِ. وقالَ بعضُهُم: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بِعِلْمِ اللهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بِمَشيئةِ اللهِ. ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وجْهٌ.

فأمّا مَنْ قالَ: بأمْرِ اللهِ، فَمَعناهُ وحُجّتُهُ أنَّ هذهِ المصائبَ كلَّها عُقوباتٌ. ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾؟ [الشورى: ٣٠].

ومَعْلومٌ أنَّ جزاءَ ما كَسَبَتْ يَدُهُ عُقوبةٌ لهُ؛ والتَّعْذيبُ والعُقوبةُ إنما يكونُ بأمْرِ اللهِ، فلذلكَ قالَ: مَعْنى قولِهِ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمْرِ اللهِ.

ولكنْ عندَنا هذا يَرْجِعُ إلى ما يُصيبُهُمْ مِنْ أيدي الخَلْقِ كقولِهِ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ٥٢] ونَحْوُ ذلكَ، وهذهِ المَصائبُ لا تَحْتَمِلُ الأمْرَ مِنَ اللهِ تعالى.

ومَنْ قالَ: بِعِلْمِ اللهِ فوجْهُ ذلكَ أنَّ هذهِ المَصائبَ فيها إهلاكُ العبيدِ، وفي الشاهِدِ أنهُ لا يُحِبُّ أحدٌ أنْ يَعْلَمَ بما فيهِ

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بماذا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وفي. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: ويعمل صالحا وت. (٧) من م، في الأصل: يكون.

هلاكُ عَبيدِهِ وخَدَمِهِ، فأخبَرَ ﷻ أنَّ هذهِ المَصائبَ، وإن كانَ فيها[1] هلاكُ عَبيدِهِ، فإنما يكونُ ذلكَ بِعِلْمِهِ، وأنَّ هلاكَهُمْ، لا يَضُرُّهُ، ولا يُنْقِصُ مُلْكَهُ، لأنَّ اللهَ ﷻ أنْشأَ ما أنْشأَ مِنَ الخَلائقِ لحاجةٍ لهمْ ولِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ ومَضَرَّةٍ تَلْحَقُهُمْ. فَحُلولُ ما يَحلُّ بهمْ مِنَ المَصائبِ لا يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ، لِذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

ومَنْ قالَ: بِمَشيئةِ اللهِ وإرادتِهِ فوجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ، وأوعَدَ، ولا مَحالةَ، يريدُ مِنْ عَبيدِهِ ما يكونُ بِوَعيدِهِ عادلاً، وأنْ يَضَعَ وَعْدَهُ مَوضِعَهُ. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ يريدُ مِنْ كلِّ أحدٍ ما يَعْلَمُ أنهُ يكونُ منهُ، لأنهُ إذا خَلَقَ النارَ، وأوعَدَ عليها، فلو أرادَ مِنْ كلِّ منهمُ الطاعةَ لَكانَ إذا أَحرَقَ بالنارِ أحرَقَ مَنْ أرادَ منهُ الطاعةَ، فدخَلَ في حدِّ الجَورِ، ولو كانَ يريدُ مِنْ كلٍّ منهمُ المَعْصيةَ لَكانَ إذا أنْجزَ وعْدَهُ، وأدخَلَهُ الجنةَ، كانَ يَضَعُ ثوابَهُ في غَيرِ مَوضِعِهِ، ويَخرُجُ عنْ حَدِّ الحِكْمةِ، وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ أرادَ مِنْ كلٍّ ما عَلِمَ أنهُ يَختارُهُ، ويكونُ منهُ، لِيَخْرُجَ فِعْلُهُ عنِ الحِكْمةِ، واللهُ الموفِّقُ.

ونحنُ نقولُ: قد ذَكَرَ اللهُ تعالى الإذْنَ في مَواضِعَ مُخْتَلِفةٍ، ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وَجْهٌ غيرُ وَجْهِ صاحِبِهِ، فالواجِبُ أنْ يُصْرَفَ في كلِّ مَوضِعٍ إلى ما يَليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [يَحتَمِلُ وجوهاً]:

أحَدُها: ما[2] قالَ أبو بكرٍ: أي مَنْ آمَنَ بِما شاهَدَ مِنَ التَّدْبيرِ يَهْدِهِ اللهُ تعالى لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ دَبَّرَ هذا التَّدْبيرَ هو الذي ابْتَلاهُ بهذهِ المصيبةِ.

[والثاني][3]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنْ يقولَ: مَنْ يؤمِنْ باللهِ أنَّ لهُ الخَلْقَ والأمْرَ يَهْدِ قَلْبَهُ لِيَسْكُنَ، ويَعْلَمَ أنَّ اللهَ أولى بهِ، فَيَسْتَرْجِعَ عندَ ذلكَ. وذلكَ تأويلُ مَنْ قَرَأ: يَهْدَأْ قَلْبُهُ[4]، أي يَسْكُنْ، مِنَ الهَدْءِ، وهو السكونُ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ[5]: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ مِنَ[6] الهدايةِ، وإنْ خَرَجَتْ على لَفْظِ الإحداثِ [فليسَ على الإحداثِ][7] ولكنَّ مَعْناهُ: أنَّ إيمانَهُ [باللهِ تعالى إنما كانَ بِهِدايةٍ منهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ الإيمانُ][8] مُتَقَدِّماً والهدايةُ مُتَأخِّرةً. ولكنْ حينَ هداهُ آمَنَ بِما هداهُ، وهذا على ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فهذا خَرَجَ في الظاهرِ على لَفْظِ [الهدايةِ][9] ولكنهُ في الحقيقةِ ليسَ عليهِ، ولكنْ على مَعْنى أنهمْ لمّا آمنوا أَخرَجَهُمْ بالإيمانِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النورِ بعدَ الإيمانِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][10]: يجوزُ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنَّ اللهَ تعالى يَهْدي قلبَهُ، أي يتوبُ عليهِ مِنَ الزَّلاتِ عندَ الموتِ على ما قالَ تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

وقيلَ: فيه لغاتٌ أربَعَةٌ: بِنَصْبِ الياءِ والباءِ جميعاً: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ويُهْدَ قَلْبُهُ: بِرَفْعِ الياءِ والباءِ، ونَهْدِ قَلْبَهُ، أي يَهْتَدِ، ويَهْدَأْ قلبُهُ مِنَ السُّكونِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الأصلُ في الأسماءِ المُشْتَرَكةِ إذا أُضيفَ شيءٌ منها إلى اللهِ تعالى فَحَقُّ التَّخصيصِ في الإضافةِ إليهِ أنْ يُضافَ بِحَقِّ الكُلِّياتِ ليكونَ فَرْقاً بينَهُ وبَينَ العِبادِ، فيقالُ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ويقالُ في الخَلْقِ: فلانٌ عليمٌ بكذا على الخُصوصِ، ولِيُعْلَمَ أنَّ العَبيدَ إنما يَعْلَمونَ بِعِلْمِهِ. وكذلكَ[11] في قولِهِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وهذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ ﷻ ليسَ بقديرٍ على كثيرٍ مِنَ الأشياءِ، فكأنهمْ أشْرَكوا في اسْمِ القدرةِ غيرَهُ لأنهُ لا أحَدَ مِنَ الخَلْقِ إلّا ولَهُ جُزْءٌ مِنَ القُدْرةِ.

---

(١) في الأصل وم: فيه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦١. (٥) في الأصل وم: والثاني. (٦) في الأصل وم: هذه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) أدرج بعدها في الأصل وم: هذا.

فلو قُلْنا: إنَّ اللهَ تعالى يَقْدِرُ على بعضٍ، ولا يَقْدِرُ على بعضٍ، لَسَوَّينا بَينَهُ وبَينَ خَلْقِهِ، وشَبَّهْناهُ بهمْ، وجَلَّ اللهُ ﷻ عنْ مِثْلِ هذا الوصفِ، واللهُ المُستعانُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ يعني أطيعوا اللهَ في ما تَعَبَّدَكُمْ، وأطيعوا الرسولَ في ما أَخْبَرَ عنْهُ، أو أطيعوا اللهَ في ما أمَرَكُمْ، وأطيعوا الرسولَ في ما دَعاكُمْ إليهِ، وهذا كلُّهُ واحدٌ إلّا التَّعَبُّدَ فإنهُ لا يجوزُ أنْ يُضافَ إلى الرسولِ، وما سِواهُ مِنَ الأمرِ والدعاءِ والإخبارِ فهو جائزٌ أنْ يُضافَ إليهِ ﷻ وإلى الرسولِ ﷺ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ يَعْني تَوَلَّيْتُمْ عنْ إجابةِ الرسولِ إلى ما دعاكُمْ إليهِ وعَنْ طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ تَوَلِّيَهُمْ عنْ إجابتِكُمْ وكُفْرَهُمْ بهِ لا يُوجِبُ تقصيراً في التَّبليغِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [التغابن: ١] وقولِهِ تعالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ [الآية: ٢] وقولِهِ تعالى:][1] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [الآية: ٤].

ثم قولُهُ[2] تعالى: ﴿اللَّهُ﴾ الذي لهُ الأوصافُ التي تَقَدَّمَتْ هو الذي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا مَعْبُودَ إلّا هو، وأنَّ مَعْبودَهُمْ ليسَ يجوزُ أنْ يكونَ مَعْبوداً لِتَعَرِّيهِ عنْ هذهِ الأوصافِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ مُعْتَمَدَ المؤمنينَ على اللهِ تعالى، وإنْ قَلَّتْ أعوانُهُمْ وأنصارُهُمْ، وأنهمْ لَيسوا كالمُنافقينَ والكَفَرَةِ حينَ[3] تَركوا اتِّباعَ المؤمنينَ لِما رَأَوا مِنْ قِلَّةِ الاتباعِ والأعوانِ لهمْ.

وأخبَرَ أنَّ المؤمنينَ بِخِلافِ تلكَ الصفةِ، وأنَّ ثِقَتَهُمْ واعْتِمادَهُمْ على اللهِ تعالى [ليسَ على][4] كَثْرَةِ الأنصارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على تَحقيقِ العَداوةِ [ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على فِعْلِ العَداوةِ. فإنْ كانَ على تَحقيقِ العَداوةِ][5] فهو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: عَداوةٌ ظاهرةٌ، وهي عَداوةُ الكُفْرِ والشِّرْكِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ في ذلكَ الزمانِ يُسْلِمُ الرجلُ، ويَبْقى ولَدُهُ وزَوجَتُهُ على الكُفْرِ، فَعَلَّمَهُمُ اللهُ تعالى صُحْبَةَ الأولادِ والزوجاتِ أنهمْ[6] إذا دَعَوكُمْ إلى الكُفْرِ والشِّرْكِ فاحْذَروهُمْ أنْ تُطيعوهُمْ ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عنْ عُقوبَتِهِمْ على ما دَعَوكُمْ إليهِ ﴿وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم ذَكَرَ اللهُ ﷻ في صُحْبَةِ الأولادِ والزَّوجاتِ، إذا كانوا كُفّاراً، العَفْوَ والصَّفْحَ، ولم يَذْكُرْ ذلكَ في الوالِدَينِ / ٥٧٣ ـ ب/ المُشْرِكَينِ، ولكنهُ أمَرَهُ أنْ يُصاحِبَهُما ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

فوجْهُ ذلكَ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ يُجري سُلْطانَهُ وغَلَبَتَهُ وقَهْرَهُ على زَوجَتِهِ ووَلَدِهِ.

فأمَرَهُ ههنا بالعَفْوِ والصَّفْحِ، وأمّا في الوالِدَينِ فليسَ يُجري لهُ عليهما السلطانَ والقَهْرَ والغَلَبَةَ، فلا مَعْنى للأمرِ بالعَفْوِ عنهما، لكنهُ أمَرَ أنْ يُصاحِبَهُما ﴿فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وألّا يُطيعَهُما في ما أمَراهُ مِنَ المُنْكَرِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني:][7] يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ العَداوةُ عَداوةً مَستورةً، وهي عَداوةُ النِّفاقِ، فكأنهُ قالَ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ وأنتمْ لا تَشْعُرونَ ﴿وَإِن تَعْفُوا﴾ عَنْ جِناياتِهِمْ، ولم تُؤذوهُمْ عليها ﴿وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ألا تَرى إلى ما حَذَّرَ اللهُ المؤمنينَ مِنْ أهلِ النِّفاقِ مع أنهمْ مِنَ الضَّعْفِ والفَشَلِ كما أخْبَرَ ﷻ عنهمْ بقولِهِ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ

---

(١) في الأصل وم: و﴿عَلِيمٌ﴾. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: أنه. (٧) في الأصل وم: و.

صَٰحِبَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾؟ [المنافقون: ٤] فكذلكَ الأزواجُ والأولادُ، وإنْ كانوا تحتَ قَهرِهِ وغَلَبَتِهِ، أمَرَهُ بالحَذَرِ منهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ على فِعْلِ العَداوةِ، ليسَ أنهمْ أعداءٌ في الحَقيقةِ؛ وذلكَ أنهمْ في المُتعارَفِ والمُعتادِ يَدْعُونَ الآباءَ إلى البُخلِ والمَنعِ عنِ الإنفاقِ على غَيرِهِمْ، ويَشتَدُّ عليهِمْ صُنْعُ أبيهِمْ مِنَ الإحسانِ والبِرِّ في حقِّ الناسِ، ويَكرَهونَ ذلكَ [وهذا][1] في الظاهِرِ فِعْلُ العداوةِ[2]، فيجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى عَلَّمَ صُحْبَةَ هؤلاءِ أنَّ ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ﴾ مَنْ يُظْهِرُ فِعْلَ العَداوةِ ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أنْ يَمتَنِعوا عنْ وُجوهِ الإحسانِ والتَّبرُّعِ بقولِهِمْ ﴿وَإِن تَعْفُوا۟﴾ عنْ صَنيعِهِمْ بكُمْ ﴿وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ المَفتونُ، هو المُولَعُ بالشَّيءِ العاشِقُ لهُ، فكأنهُ قالَ: إنما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ مَعشوقُكُمْ، فلا يَحمِلْكُمْ حُبُّهُمْ على أنْ تَترُكوا ابْتِغاءَ الأجرِ العظيمِ عندَ اللهِ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ مَعناهُ أنَّ اللهَ تعالى لم يَخلُقِ الأزواجَ والأولادَ لكمْ مَجاناً، بل إنما خَلَقَهُمْ لِيَبتَليَكُمْ، ويَمتَحِنَكُمْ أنْ كيفَ تُعامِلونَ اللهَ تعالى في ما أمَرَكُمْ بهِ، ونَهاكُمْ عنْ حُبِّهِمْ.

ثم أخبَرَ أنَّ اللهَ ﴿عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لِيَتَحَمَّلوا المَؤُنَةَ العظيمةَ في أوامِرِهِ ونَواهيهِ عندَ حُبِّهِمُ الأولادَ والأموالَ. وهذا مَعنَى ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الأزواجَ والأولادَ كانوا يَتَعلَّقونَ بهِمْ، ويقولونَ: نُنشِدُكَ باللهِ ألّا[3] تَذَرَنا، وتُضَيِّعَنا إذا أرادَ الرجلُ أنْ يُهاجِرَ إلى المدينةِ.

والأشبَهُ ألّا يكونَ هذا، لأنَّ هذهِ الآيةَ نَزَلَتْ بالمدينةِ، وأفعالُهُمْ هذهِ إنما كانَتْ بمكةَ إلّا أنْ يكونوا كَتبوا إليهِمْ بها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: نَسَخَتْ هذهِ الآيةُ قولَهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] حينَ[4] أمَرَ ههنا بالاتِّقاءِ على قَدْرِ الاستِطاعةِ، وثَمَّ بِخِلافِهِ.

ولكنَّ هذا لا يَستَقيمُ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لا يُرادُ بهِ الاتِّقاءُ في ما لا يَستَطيعونَ لا فَوقَ الطاقةِ والاستِطاعةِ. لكنهُ إنْ كانَ [فَوَجْهُهُ أنْ][5] ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ وإنْ هَلَكَتْ فيهِ طاقَتُكُمْ، لأنهُ أمَرَهُمْ بِتَقْوَى، تَهلِكُ بها[6] طاقَتُهُمْ على ما قالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦] ولو كَتَبَ عليهِمْ أنْ يَقتُلوا أنفسَهُمْ جازَ، ولكنهُ [أمَرَ أنْ][7] تَهلِكَ طاقَتُهُمْ فيهِ. فكذلكَ الأوَّلُ. ثم قالَ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ تَخفيفاً عليهِمْ وتَيسيراً، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ الكلامَ في أنْ كيفَ قالَ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يَكُنْ يُتَّقَى لولا هذهِ الآيةُ إلّا ما يُستَطاعُ[8].

ولكنَّ مَعناهُ، واللهُ أعلَمُ، على جِهَةِ البِشارةِ أنكُمْ إذا قَصَدْتُمْ قَصْدَ التَّقْوَى آتاكُمُ اللهُ الاستِطاعةَ في تَقْواهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧].

وهذهِ الآيةُ على المعتزلةِ، لأنهمْ يقولونَ: إنَّ الاستِطاعةَ تَتَقدَّمُ الفِعْلَ، وهي تزولُ عنِ الفاعلِ، وتَتَقدَّمُ على الفِعْلِ. ولو كانَ كذلكَ كانَ يَجعَلُ قولَهُ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ استِطاعةً، زالَتْ عنهمْ، وكذلكَ قولُهُ، جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣ و...] زالَتْ عنهمْ. وهذا[9] مُستَحيلٌ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: العدو. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فوجهان. (٦) في الأصل وم: به. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: استطعنا. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم.

والذي يُؤيِّدُ قولَنا قولُهُ، جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] والحاجةُ إلى هذهِ الاسْتِطاعةِ تَقعُ عندَ أداءِ البَدَلِ عنِ الأصلِ.

فأمّا قبلَ ذلكَ، إنْ كانَ مُستطيعاً أو غيرَ مُستطيعٍ، فهو سَواءٌ: قولُهُ تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي[1] اسْمَعوا إلى ما أمَرَكُمُ اللهُ تعالى بهِ ورسولُهُ، و[2] قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا﴾ بِمَعْنى أجيبوا لِما أمَرَكُمُ اللهُ تعالى بهِ وإلى ما دَعاكُمُ اللهُ ورسولُهُ لِقولِهِ ﷺ[3]: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» [أبو داوود ١١٨٠] أي أجابَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي وأنفِقوا ممّا رُزِقْتُمْ [يَكُنْ][4] خيراً لكُمْ مِنْ أنْ تُدْعَوا للإجابةِ لِما أمَرَكُمْ، والإنفاقُ ممّا رَزَقَكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ قالَ سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: أي ومَنْ يُوقَ ظُلْمَ نفسِهِ، والشُّحُّ: الظُّلْمُ؛ أضافَ الوِقايةَ إلى نفسِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنِ اتّقاهُ فإنما اتّقاهُ بِما وَقاهُ اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ وكَرَمِهِ.

ألا تَرى إلى [قولِهِ تعالى][5]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾؟ [التحريم: ٦] كيفَ عَلَّمَهُمْ ذلكَ التّقْوى بقولِهِ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١ و. . .] لِيُعْلَمَ أنَّ جميعَ أفعالِ العِبادِ إنما تقومُ، وتَصِحُّ بِتَدْبيرِ اللهِ تعالى وتَوفيقِهِ وتَسْديدِهِ وتَقْديرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيهِ أوجُهٌ مِنَ الدّلالةِ:

أحَدُها: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ لم يُبَيِّنْ فاعلَهُ، ففيهِ بيانُ أنَّ في سُلْطانِ اللهِ ومُلْكِهِ ما يَقِي بهِ شُحَّ عبدِهِ، وأنهُ إذا وَقاهُ شُحَّ نفسِهِ أفْلَحَ. وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] إخبارٌ أنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ اللهُ فلا يُغْلَبُ.

وقد يُرَى في الشاهدِ مَنْ لا يُوقَى شُحَّ نفسِهِ البَتّةَ، ومَنْ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، ولا يُفْلِحُ، ويُرَى مَنْ يُجاهِدُ أعداءَهُ، فَيُغْلَبُ مع ما وَعَدَهُ، وأخبَرَهُ[6] أنهُ هو الغالبُ وأنهُ لا يُغْلَبُ؛ فلا بُدَّ [في][7] ذلكَ مِنْ أحَدِ وجوهٍ[8]:

إمّا أنْ لم يكنْ لِلهِ تعالى النُّصْرَةُ في مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ كما ادَّعَى فهو كاذبٌ في ما ادَّعَى.

وإمّا أنْ آتاهُ مِنَ القُوّةِ ما يَقِي بهِ شُحَّ نفسِهِ، فلمْ يُفْلِحْ، فصارَ كاذباً في خَبَرِهِ.

وإمّا أنْ كانَتِ المعتزلةُ في ما زَعَموا أنَّ اللهَ تعالى، قد آتَى عبدَهُ جميعَ ما يَقِي بهِ شُحَّ نفسِهِ حتى لم يَبْقَ في خزائنِهِ شيءٌ، يُؤتيهِ لِيَقِيَ بهِ شُحَّ نفسِهِ، كَذَبَةً.

وإذا لم يكنْ بُدٌّ مِنْ نِسْبَةِ الكَذِبِ إلى اللهِ تعالى أو إلى المعتزلةِ كانتِ المعتزلةُ أولَى أن يُنْسَبوا إلى الكذبِ مِنْ ربِّ العالَمِينَ في ما أخْبَروا، وإنَّ[9] اللهَ تعالى في ما أخْبَرَ صادقٌ، وإنَّ[10] في مُلْكِهِ وسلطانِهِ ما لم يُؤتِ عبدَهُ لِيَقِيَ بهِ شُحَّ نفسِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

[والثاني][11]: دلالةٌ على إبطالِ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ على الكَفَرَةِ أداءَ هذهِ العباداتِ والحقوقِ واجبةٌ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ[12] في هذهِ الآيةِ أنَّ مَنْ وُقِيَ شُحَّ نفسِهِ، وأدَّى ما وَجَبَ عليهِ مِنْ هذهِ الحقوقِ، فقد أفْلَحَ.

وقد نَرَى الكافرَ في الشاهدِ يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، ويُؤدِّي حقوقَ أموالِهِ، ويَسْخو بمالِهِ على الناسِ، ولا يُفْلِحُ، ولو كانَ [يَرَى أنَّ][13] عليهِ هذهِ الحقوقَ واجبةً لَكانَ يَحْصُلُ لهُ الفَلاحُ.

فَثَبَتَ أنهُ ليسَ عليهِ أداؤُها، وإنما عليهِ قَبولُها، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل إذ. (٢) في الأصل وم: أو يكون. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: وأخبر. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وجهين. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وفيه. (١٢) في الأصل وم: أوعد. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

[والثالث: دلالة][1] أنَّ صاحبَ الكبيرةِ، قد يُرجَى لهُ الفلاحُ، وإنْ لم يَتُبْ على الكبيرةِ [حتى][2] ماتَ، لأنّا قد نَرَى صاحبَ الكبيرةِ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، وقد وَعَدَ اللهُ ﷻ أنَّ مَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فهو مِنَ المُفلِحينَ / ٥٧٤ ـ أ/ فإذا كانَ صاحبُ الكبيرةِ قد يُوقَى شُحَّ نفسِهِ، فقد ثَبَتَ أنهُ يُرجَى [لهُ][3] الفلاحُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يَتَوَلَّدُ مِنْ هذهِ الآياتِ ظنونٌ فاسدةٌ:

أحدُها: ظَنُّ اليهودِ حينَ[4] ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] وذلكَ أنهمْ لمّا سَمِعوا أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] والاستِقراضُ في الشاهدِ يَدُلُّ على الحاجةِ إلى ما يُستَقرَضُ، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١] والشِّراءُ يَدُلُّ على حاجةٍ في المُشتَرَى.

[والثاني: حينَ][5] استعمَلَ عَبيدَهُ في الأعمالِ ثم قالَ: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] ورأوا أنَّ مَنْ يَستعمِلُ آخَرَ، فإنما يَستعمِلُهُ في عَمَلٍ، تَرْجِعُ مَنفعَتُهُ عليهِ، ويَحتاجُ إلى عملِهِ، ظَنُّوا بذلكَ أنَّ اللهَ فقيرٌ، وأنهُ مُحتاجٌ.

[والثالثُ:][6]ظَنَّتِ المعتزلةُ أنَّ أنفسَ العَبيدِ وأملاكَهُمْ مُلْكٌ لهمْ حقيقةً، ليسَ لِلهِ في شيءٍ مِنْ ذلكَ مُلْكٌ ولا تَدْبيرٌ، قالوا: وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى استَقرَضَ مِنْ عَبيدِهِ، والمَرْءُ في الشاهدِ لا يَستَقرِضُ [مِنْ][7] مُلْكِ نفسِهِ، فلمّا استَقرَضَ، واستَباعَ، دلَّ أنَّ هذهِ الأملاكَ[8]، كانَتْ مُلْكاً لهمْ حقيقةً.

والذي يدلُّ على أنَّ قولَ المعتزلةِ على ما وصَفْنا أنَّ قولَهُمْ: أنْ ليسَ للهِ تعالى أنْ يُمرِضَ أحداً، ولا يُؤْلِمَ دابّةً إلّا بِعِوَضٍ، ولم يَمْلِكْ شيئاً إلّا بِعِوَضٍ وبَدَلٍ، يُبيِّنُ[9] أنهُ لا يَمْلِكُهُ، فَثَبَتَ على أنَّ عندَهُمْ أنهُ لا يَمْلِكُ حقيقةً، وأنَّ حَقيقةَ المُلْكِ فيهِ لِلْعَبيدِ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ظَنُّ اليهودِ والمعتزلةِ جميعاً إنما تَوَلَّدَ مِنْ قولِهِمْ: أنْ ليسَ للهِ تعالى أنْ يَفْعَلَ بِعَبيدِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ في دينِهِمْ، فذهَبتِ اليهودُ إلى أنَّ هذا لمّا كانَ حقّاً على اللهِ تعالى أنْ يَفْعَلَهُ، لا مَحالةَ، حتى إذا لم يَفْعَلْهُ، يكونُ جائراً[10]. ومَنْ كانَ مأجوراً بحقٍّ أو بشيءٍ يَفْعَلُهُ، ففيهِ بَيانُ أنَّ حقيقةَ ذلكَ الفِعْلِ لِغَيرِهِ حتى أُخِذَ بهِ، لا مَحالةَ.

لِذلكَ قُلْنا: إنَّ ظُنونَهُمْ تَوَلَّدَتْ عنِ القولِ بالأصْلَحِ، واللهُ المُستَعانُ.

وأمّا الحكماءُ وأهلُ العَقْلِ ومَنِ انْتَفَعَ بِعَقْلِهِ حَمَلَ هذهِ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى على نِهايةِ الكَرَمِ وغايةِ الغِنَى، لأنَّ اللهَ تعالى أعْطَى عَبْدَهُ، ثم استَقرَضَ منهُ ذلكَ الذي أعطاهُ لِيَصيرَ ذلكَ العطاءُ بِبَدَلِهِ الدائمِ، وهو النَّعيمُ في الآخِرَةِ.

ومَعْلومٌ أنَّ مَنْ أرادَ دوامَ إعطاءِ مَنْ أعطاهُ فهو في غايةِ الكَرَمِ، وكذا اشْتَرَى منهُ حياةً فانيةً لِيُعْطِيَ لهُ حياةً دائمةً، وهذا مِنْ غايةِ الجودِ.

ومَنِ استَعْمَلَ عَبيدَهُ في عَمَلٍ، يُوصَفُ بأنهُ جوادٌ سَخِيٌّ، ويَشْرُفُ بهِ، ويَكْرُمُ، ثم وَعَدَ لهُ على [ما][11] فيهِ أجراً دائماً، دَلَّ على غِناهُ، فَثَبَتَ أنهُ أرادَ بهذهِ الآياتِ أنْ يُعَلِّمَنا غايةَ كرمِهِ وغايةَ جودِهِ ونِهايةَ غِناهُ، وأنَّ جودَهُ وكَرَمَهُ ممّا لا تُدْرِكُهُ عقولُنا، واللهُ المُستَعانُ.

والذي يَدُلُّ على غايةِ كَرَمِهِ وغايةِ جودِهِ أنْ جَعَلَ ما نَتَصَدَّقُ بهِ على فُقَرائنا وما نَصِلُ بهِ أرحامَنا قَرْضاً على نفسِهِ، وَوَعَدَ الأجرَ بِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ العبدُ لِنَفسِهِ، وعلى عَمَلٍ، على العَبْدِ فِعْلُهُ، لا مَحالةَ. ولا شَكَّ أنَّ ذلكَ مِنْ غايةِ الجودِ والكَرَمِ، واللهُ المُستَعانُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: القَرْضُ: هو القَطْعُ؛ كأنهُ قالَ: اقْطَعوا شيئاً مِنْ أموالِكُمْ للهِ

---

(١) في الأصل وم: وفيه. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: وحيث. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: الآيات. (٩) في الأصل وم: بعوض اثنين. (١٠) في الأصل: جائزاً. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

قَطعاً حَسَناً. وقالَ بعضُهُمْ: أقْرِضوا اللهَ؛ أيِ اجْعَلوا ما تَتَصَدَّقونَ بِهِ مِمّا فَضَلَ عنْ حاجَاتِكُمْ على فُقَرائكُمْ قَرْضاً حَسَناً على اللهِ تعالى يُؤْتِكُمْ أجْرَهُ عندَ حاجَتِكُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يعني يُضاعِفُ[1] ما يُعْطيكُمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ الذي تُكْرَمونَ بِهِ بما شَرُفْتُمْ بِهِ، وتَزَيَّنْتُمْ في الدنيا بالتَّصَدُّقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ يَعْني ﴿شَكُورٌ﴾ حينَ[2] شَكَرَ لكُمْ على ما أعْطيتُموهُ شيئاً، هوَ أعطاكُمْ [إيّاهُ][3] وقولُهُ: ﴿حَلِيمٌ﴾ وَصْفُ نَفْسِهِ بالحِلْمِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَتَحَقَّقُ هذا الوصفُ لأنهمْ يقولونَ: إنهُ إذا أُوجِبَتِ العقوبةُ فليسَ للهِ تعالى أن يُؤَخِّرَها تَفَضُّلاً منهُ، وإنهُ في ما أخَّرَها كانَ ذلكَ حقّاً عليهِ حينَ[4] رَأى الأصْلَحَ في تأخيرِها.

ومَعلومٌ أنَّ [مَنْ][5] أدّى حَقّاً عليهِ لم يُوصَفْ بالحِلْمِ، ولكنهُ يُقالُ: إنهُ يَتَّقي الجَورَ، والحَليمُ مَنْ يَحْلُمُ عنْ عُقوبةٍ لَزِمَتْ، فَيُؤَخِّرُها، ويَتْرُكُها، ويَعْفو عنْ صاحبِها، فَيُوصَفُ بالحِلْمِ في هذا الموضِعِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ يعني: عالمٌ ما غابَ مِنْ أفعالِ الخَلْقِ عنِ الملائكةِ، وعالمٌ ما شَهِدوا مِنْ أفعالِهِمْ، وعالمٌ بما غابَ عنِ العبادِ وبما شَهِدَهُ العِبادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في تَدْبيرِهِ.

ثم المُعْتادُ في القرآنِ أنهُ يَذْكُرُ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بَعْدَ ذِكْرِهِ خُلُقَ الكَفَرَةِ لِيُعْلَمَ أنَّ فَسادَهُمْ، لا يُوجِبُ وَهْناً في حِكْمَتِهِ وتَدْبيرِهِ، ولا يُبْطِلُ عِزَّهُ وسُلْطانَهُ، لأنَّ مَنْ صَنَعَ إلى آخَرَ شيئاً يَعْلَمُ أنهُ يُفْسِدُهُ[6] دلَّ ذلكَ على جَهْلِهِ بالتَّدْبيرِ، وإذا اسْتَعْمَلَ عبدَهُ بما يُهْلِكُهُ دلَّ على ذُلِّهِ.

فأخبَرَ بعدَ [ذِكْرِهِ][7] خُلُقَ الكَفَرَةِ أنهُ عزيزٌ لِيُعْلِمَ أنَّ كُفْرَهُمْ، لا يُوجِبُ نَقْصاً في عِزِّهِ، ولا يُدْخِلُ ذُلّاً عليهِ، وأنَّ فَسادَهُمْ لا يُخْرِجُهُ عنِ الحِكْمةِ. واللهُ المُسْتَعانُ.

---

(١) من م، في الأصل: يضاعفه. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يفسد. (٧) ساقطة من الأصل وم.

سورة الطلاق

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فإنهُ يُخرَّجُ على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ، كأنهُ يقولُ: يا أيُها النَّبِيُّ قُلْ لأُمَّتِكَ: إذا أرَدْتُمْ أنْ تُطلِّقوا نِساءَكُمْ فَطلِّقوهُنَّ لِعدَّتِهِنَّ.

والدليلُ على أنهُ هكذا فإنهُ يُخرِّجُ الخطابَ بَعْدَهُ للجماعةِ حينَ[1] قالَ: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أو خاطبَ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ والمُرادُ أُمَّتُهُ، وذلكَ كثيرٌ في القرآنِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أمرٌ بالطلاقِ لِلْعِدَّةِ، ولم يُبيِّنْ أنَّ الطلاقَ لِلْعِدَّةِ كيفَ يكونُ، وذُكِرَ في بعضِ القِراءاتِ: فَطلِّقوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ[2].

ثم تَرْكُ بيانِ ذلكَ لا يَخلو: إمّا أنْ يكونَ الرسولُ ﷺ قد بيَّنَ ذلكَ لهمْ، فَعَرَفوا ذلكَ، فلم يُبيِّنْ ذلكَ في الآيةِ. [وإمّا أنْ][3] جَعَلَ بَيانَ مَعرِفةِ ذلكَ إليهمْ لِيَعْرِفوا بالاجْتِهادِ.

ثم قولُهُ: لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ يَحْتَمِلُ أوّلَ عِدَّتِهِنَّ، وهو الحَيضُ، مِنَ المُقابَلَةِ:

فَمَنْ يقولُ: الاعْتِدادُ بالإطهارِ يَجعَلُ القُبُلَ كنايةً عنْ أوّلِ الطُّهرِ، ومَنْ يقولُها بالحَيضِ يَجعَلُ القُبُلَ ما يُقابِلُ العِدَّةَ، وهو الحيضُ.

ثمّ لنا أنْ نَنظُرَ أيُّ التأويلَينِ أقرَبُ، وقد أجمَعوا أنَّ لهُ أنْ يُطلِّقَها في آخِرِ الطُّهرِ إذا لم يُجامِعْها / ٥٧٤ ـ ب/ فيهِ. دلَّ أنَّ تأويلَ القُبُلِ ما يُقابِلُ العِدَّةَ أحقُّ، وهو الحَيضُ، والاعْتِدادُ بهِ أولَى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يُخرَّجُ على هذينِ الوجهَينِ:

أحَدُهما: احْفَظوا الحقوقَ والأحكامَ التي تَجِبُ في العِدَّةِ، فأدّوها.

والثاني: احْفَظوا نفسَ ما تَعْتَدّونَ بهِ، وهو عَدَدُ الحِيَضِ الذي بهِ[4] تَعْتَدّونَ، لا أنْ يُزادَ، ولا يُنْقَصَ.

ثم جَعَلَ الإحصاءَ إلى الأزواجِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ هُمُ الذينَ يُلْزِمُهُمُ الحقوقَ والمُؤَنَ.

والثاني: لهمْ نَفْعُ تَحصينِ الأولادِ في العِدَّةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ دلَّ قولُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ على صحةِ مَسألةٍ لأصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ، في مَنْ حَلَفَ: لا يَدْخُلُ بَيتَ فلانٍ، فَدَخَلَ [بيتاً][5] هو فيهِ بإعارةٍ أو إجارةٍ: إنه يَحْنَثُ، وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أضافَ البيوتَ إليهنَّ، وإنْ كانَتْ حقيقةُ المُلْكِ للأزواجِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦٥. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: بها. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

ألا ترى إلى قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦] ثم قولِهِ[1]: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾؟ فَدَلَّ قولُهُ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أنهُ أرادَ بهِ البيوتَ التي أسْكَنَهُنَّ الأزواجُ فيها. وإذا صَحَّتْ هذهِ الإضافةُ دلَّ على صحةِ المذهبِ.

وقالَ الشافِعِيُّ في مَنْ حَلَفَ: لا يَدْخُلُ مَسْكَنَ فلانٍ، فَدَخَلَ مَسْكناً [هو][2] فيهِ بإعارةٍ: إنهُ يَحْنَثُ. وقالَ في مَنْ حَلَفَ: لا يدخلُ بيتَ فلانٍ [فَدَخَلَ][3]: إنهُ لا يَحْنَثُ، واحْتَجَّ في المَسْكَنِ أنهُ إنما حَنِثَ لأنهُ وَجَدَ حقيقةَ السُّكْنَى مِنَ المَحْلوفِ عليهِ.

فإنْ كانَ هذا هو الدليلَ على الحِنْثِ فالواجبُ عليهِ أنْ يَحْنَثَ [في البيتِ][4] لوجودِ البَيْتوتةِ على حِنْثِهِ[5] في المَسْكَنِ لِوُجودِ السُّكْنَى.

وبَعْدُ فإنَّ الحِنْثَ أقْرَبُ في البيتِ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَ البيوتَ إليهِنَّ في كتابِهِ، وإنْ كُنَّ يَبِتْنَ فيها بإعارةٍ، ولم يوجَدْ في السُّكْنَى ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ومُبَيَّنَةٍ، قُرِئا[6] جميعاً. فمنهمْ مَنْ حَمَلَ الاِسْتِثْناءَ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّآ﴾ على قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وصَرَفَهُ [إليهِ، ومنهُمْ مَنْ صَرَفَهُ][7] إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولكلٍّ مِنْ ذلكَ وجهانِ:

فأمّا مَنْ حَمَلَهُ على قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ فإنهُ جَعَلَهُ اسْتِثْناءً، ولِلاسْتِثْناءِ وجهانِ:

أحَدُهما: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي بِزِنًى يَزْنِينَ، فَتُخْرِجوهُنَّ لإقامةِ الحَدِّ عليهِنَّ.

[والثاني][8]: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن﴾ يَظْهَرَ منهنَّ بَذاءةُ اللِّسانِ على أهلِ أزواجِهِنَّ، فَتُخْرِجوهُنَّ لِمكانِ البَذاءةِ التي في ألسِنَتِهِنَّ[9].

ومَنْ حَمَلَهُ على قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فإنهُ يَجْعَلُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِلَّآ﴾ على مَعْنى: لكنْ كما قِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] أي لا يَسْمَعونَ فيها لَغْواً لكنْ سلاماً، إذْ لا يَحْتَمِلُ اسْتثناءَ السلامِ مِنَ اللَّغْوِ لِما ليسَ في جُمْلَةِ اللَّغْوِ سَلامٌ، فَيُسْتَثْنَى منهُ، فكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ فكأنهُ قالَ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولكنْ إذا خَرَجْنَ فَخُروجُهُنَّ فاحشةٌ.

ويَدُلُّ هذا على أنَّ النَّهْيَ لِنَفسِ الخروجِ لا لِلانْتِقالِ.

ووجهٌ آخَرُ في ذلكَ، وهو ألّا يَخْرُجْنَ إلا أنْ يأتينَ بِفاحشةٍ، فإنهنَّ إذا خَرَجْنَ يُخْشَى عليهِنَّ أنْ يَأْتِينَ بِفاحشةٍ كما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أيُّما عبدٍ تَزَوَّجَ بِغَيرِ إذْنِ مولاهُ فهو عاهِرٌ» [الترمذي ١١١١] لِما[10] كانَ المَعْنَى مِنْ ذلكَ أنهُ إذا تَزَوَّجَ، فَوَطِئَ، فهو عاهِرٌ، ولكنْ نَهْيٌ عنِ النِّكاحِ لأنهُ يُخْشَى عليهِ في النِّكاحِ أنْ يَطَأَها، فَيَصيرَ عاهِراً، لا أنْ يكونَ نَفْسُ التَّزَوُّجِ منهُ زِنًى.

فكذلكَ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ فيكونُ النَّهْيُ لا عَنْ نَفْسِ الخروجِ، ولكنْ لكونِهِ سبباً لِلْفاحشةِ في الجُمْلةِ وطريقاً إليهِ.

وقولُهُ[11] ﷻ: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ فمنْ قرأ ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ بالخفضِ فَمَعْناهُ أنَّ نَفْسَ الفاحشةِ إذا تَفَكَّرَ فيها المَرْءُ، ونَظَرَ، تَبَيَّنَ لهُ أنها فاحشةٌ. ومَنْ قرأ: مُبَيَّنَةٍ بالفتحِ عَنَى بهِ أنها مُبَيَّنَةٌ بالبراهينِ والحُجَجِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الحُدودُ المَوانِعُ والنَّواهي، لا تَحِلُّ مُجاوَزَتُها، ومِنْ ذلكَ سُمِّيَ الحَدّادُ حَدّاداً لأنهُ يَمْنَعُ تحديدُهُ كلَّ أنواعِ أمْتِعَتِهِ أنْ تُجاوِزَ حَدَّها الذي جَعَلَهُ لها.

---

(١) في الأصل وم: قال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) أدرج قبلها في م: ما.
(٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٦٥. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل: نسائهن، في م: لسانهن. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) من م، في الأصل: ثم قال.

والحدُّ في الحقيقةِ، هو النّهايةُ التي يُنْتَهَى إليها، فلا تُجاوَزُ. وإذا كانَ كذلكَ كانَ الخِيارُ إلى صاحبِ التّأويلِ؛ فإنْ شاءَ حَمَلَهُ على الحَدِّ بَينَ الطاعةِ والمَعْصِيَةِ أو ما بَينَ الحلالِ والحرامِ حينَ[1] ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ أنواعاً مِنَ النَّهْيِ، فَسَمَّى ذلكَ كلَّهُ حُدوداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أي ضَرَّ نفسَهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المَعْنَى منهُ: أي إنْ جاوَزَ هذا الحَدَّ الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى فقد وضَعَ نفسَهُ مكاناً لم يَضَعْهُ فيهِ رَبُّهُ.

والظُّلْمُ في الحقيقةِ وضْعُ الشيءِ في غيرِ مَوضِعِهِ.

والتأويلُ الآخَرُ أنَّ مَنْ جاوَزَ مَوانِعَ اللهِ ونَواهِيَهُ فقد ظَلَمَ نفسَهُ؛ دلَّ بهذا على أنَّ مَنافِعَ هذهِ النَّواهي ومَضارَّها، لا تَرْجِعُ إلى اللهِ بل [تَرْجِعُ إلى][2] نَفْسِ المُمْتَحَنِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي لا يُطَلِّقُ، فإنهُ إذا طَلَّقَ لا يَدْري، لَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعْدَ ذلكَ نَدامةً على [ما][3] سَبَقَ مِنْ فِعْلِهِ أو رَغْبةً فيها، فيكونُ فيهِ دلالةُ النَّهْيِ عنْ نَفْسِ الطلاقِ. وقد بَيَّنّا كَراهةَ نَفْسِ الطلاقِ في الحِكْمةِ في أنهُ ليسَ مِنْ نَوعِ ما يُتَقَرَّبُ بهِ، فيكونُ فيهِ زيادةٌ في القُرْبةِ ولا مِمّا يُسْتَمْتَعُ بهِ، فيكونُ فيهِ زيادةٌ في الاِسْتِمْتاعِ. بلِ المَقصودُ منهُ التّأديبُ والمَخْلَصُ.

وفي الواحدةِ كفايةٌ عمّا زادَ عليها، فكانَ في هذهِ الآيةِ دلالةُ النَّهْيِ عنْ نَفْسِ الطلاقِ وعنِ الزِّيادةِ على الواحدةِ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ: فإنْ كانَ تأويلُ قولِهِ ﷺ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ هو الرَّغْبةُ فيها أوِ النَّدامةُ على ما سَبَقَ فإنهُ دلالةٌ على إبطالِ قولِ المعتزلةِ، لأنَّ الرَّغْبةَ والنَّدامةَ جميعاً مِنْ فِعْلِ العِبادِ، واللهُ تعالى قد أضافَ ذلكَ إلى نَفْسِهِ بقولِهِ: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ للهِ تعالى في إحداثِ أفعالِ العِبادِ صُنْعاً وتَدْبيراً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أصحابُ الشافِعِيِّ: إنَّ قولَهُ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ يَدُلُّ على تَعْليمِ الوقْتِ في الطلاقِ دونَ العَدَدِ؛ فَلَهُ أنْ يُطَلِّقَها في الوقْتِ أيَّ عَدَدٍ كانَ.

ولا يَسْتَقيمُ ذلكَ لأنَّ التأويلَ إنما يَسْتَقيمُ على أحدِ وجهَينِ:

إمّا على ما جَرَى بِهِ التَّفاهُمُ في العِباداتِ بَينَ العِبادِ، وإمّا [على][4] ما جَرَى بِهِ التَّفاهُمُ في حقِّ الحِكْمةِ.

وليسَ يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ بالعَدَدِ الثّلاثِ على واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ اللَّذينِ وَصَفْناهُما.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ قالَ لآخَرَ: طَلِّقْتُ[5] امْرأتي لم يَجُزْ لهُ أنْ يُطَلِّقَها ثلاثاً إلّا أنْ يكونَ نَوَى ثلاثاً؟ فَثَبَتَ أنهُ لا يُفْهَمُ بهِ في عبارةِ اللفظِ الثّلاثُ.

وأمّا وَجْهُ الحِكْمةِ فَلِما ذَكَرْنا أنَّ الطلاقَ ليسَ ممّا يُتَقَرَّبُ بهِ، فيَرْغَبُ[6] في الاِسْتِكْثارِ زِيادةً في القُرْبةِ، ولا ممّا يُسْتَمْتَعُ [بهِ][7] فيُسْتَكْثَرُ منهُ زيادةً في الاِنْتِفاعِ. وإنما المُرادُ منهُ التّأديبُ والمَخْلَصُ. وما كانَ مَخْرَجُهُ هذا المَخْرَجَ كانَ في حدِّ الرُّخصةِ، وما خَرَجَ مَخْرَجَ الرُّخَصِ لم يُتَعَدَّ[8] بهِ عمّا وَقَعتْ بهِ الرُّخصةُ. وإذا ثَبَتَ ما وَصَفْنا ثَبَتَ أنهُ لا يجوزُ الفَهْمُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الثلاثِ، والتَّعْليمُ[9] في العَدَدِ الَّيَقِ بهِ مِنَ الوقْتِ، لأنهُ لا ضَرَرَ، يَلْحَقُهُ في تَعَدِّيهِ عنِ الوقْتِ المَجْعولِ فيهِ الطلاقُ، ولا شَكَّ أنهُ يَلْحَقُهُ الضَّرَرُ في تَعَدِّيهِ في العَدَدِ والزيادةِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وممّا يَدُلُّ على أنَّ المُرادَ مِنْ قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ ليسَ عَدَدَ الثلاثِ قولُهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ/ ٥٧٥ ـ أ/ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الآية: ٢] ولا شَكَّ أنهُ إذا وَقَعَ عليها ثلاثاً لم يَمْلِكْ إمساكَها.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: رجع. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: طلق. (٦) في الأصل وم: فرغب. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يعتد. (٩) في الأصل وم: في التعليم.

ومعلومٌ أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ الطلاقُ المُتَقَدِّمُ مِن قولِهِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ ولو كانَ المُرادُ عَدَدَ الثلاثِ لم يكُنْ لِقولِهِ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيهِ فوائدُ شتّى، وأدلَّةٌ مُتَفَرِّقَةٌ مِنَ الفِقهِ والأحكامِ.

أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ والمَعْرُوفُ إليها في المُتعارَفِ مِنْ نَوعِ الفِعْلِ أظْهَرُ مِنْ نَوعِ القولِ، لأنهُ إنما يُحْسِنُ إليها اسْتِمْتاعاً وإنفاقاً ونَحوَ ذلكَ، فذلكَ نَوعُهُ نَوعُ الفِعْلِ، فَثَبَتَ أنَّ حقيقةَ الإمساكِ بالمَعْرُوفِ في الأفعالِ. فلذلِكَ قُلْنا: إنهُ إذا راجَعَها [بالفِعْلِ يكونُ مُراجِعاً][1].

فإنْ قيلَ: أليسَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ والإشهادُ على الفِعْلِ غَيرُ صحيحٍ؟

فَجَوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ ومَعْلومٌ أنَّ هذا لو كانَ يَحْضُرُهُ الشُّهودُ لم يكُنْ للإشهادِ مَعْنًى، بل إذا سَمِعوا ذلكَ صاروا شهوداً شَهِدوا، أو لم يَشْهَدوا.

وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ المَعْنى مِنْ هذا الإشهادِ على الإمساكِ المُتَقَدِّمِ، وذلكَ في الأفعالِ مُسْتَقيمٌ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخَرُ، وهو أنَّ كلَّ عَقْدٍ اسْتَقامَ بِغَيرِ شُهودٍ، جَرَى فيهِ الأمْرُ بالإشهادِ نَحْوُ قولِهِ: ﴿وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكلُّ ما جُعِلَ فيهِ الشهودُ شَرْطاً لِقِوامِ العَقْدِ، جَرَى الذِّكْرُ فيهِ [لا يَثْبُتُ][2] إلّا بِشُهودٍ نَحْوُ قولِهِ ﷺ[3]: «لا نِكاحَ إلّا بِشُهودٍ» [نصب الراية ٣/١٦٧] فلمّا جَرَى الذِّكْرُ في هذهِ الآيةِ بالأمْرِ بالإشهادِ وبقولِهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ثَبَتَ أنهُ [لا][4] يَسْتَقيمُ من غَيرِ شهودٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ دليلٌ على أنَّ المُرادَ مِنَ الأقراءِ[5] الحَيضُ، فإنهُ ذُكِرَ نَوعُ هذا في كتابِ اللهِ في مَواضِعَ:

قالَ اللهُ تعالى في مَوضِعٍ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وقالَ في هذا المَوضِعِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ومَعْلومٌ أنَّ المَعانيَ بهذهِ الألفاظِ مُخْتَلِفَةٌ، وإنِ اتَّفَقَتْ مَخارِجُها، واخْتِلافُها أنْ يكونَ المُرادُ بِبُلوغِ الأجَلِ في أحدِ النَّوعَينِ على التَّمامِ وانْقِضاءِ الأجَلِ، والثاني على الإشرافِ عليهِ.

وأحَقُّ ما يكونُ في حَقِّ الإشرافِ على البُلوغِ، هو ما يَرْجِعُ إلى الأزواجِ، لأنهُ قد كانَ لهمْ حَقُّ الإمساكِ قَبْلَ انْقِضاءِ الأجلِ، وهمْ أحَقُّ بهنَّ[6] ما لم يَتِمَّ بُلوغُ الأجَلِ لا بَعْدَهُ.

وإذا ثَبَتَ أنَّ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في هذا المَوضِعِ، هو الإشرافُ على البُلوغِ والقُرْبُ مِنِ انْقِضاءِ الأجلِ دونَ التَّمامِ ثَبَتَ الأقراءُ أنهُ[7] الحَيضُ، لأنهُ لو كانَ المُرادُ منهُ الأطهارُ لَم يُعْرَفْ إشرافُ الأجَلِ على البُلوغِ، لأنهُ لا نهايةَ لأكْثَرِ الطُّهْرِ.

وأمّا الحَيضُ فإنهُ لهُ غايةٌ مَعْلومةٌ، لأنَّ أيامَها، لا تَخْلو: إمّا أنْ تكونَ عَشَرةً أو دونَ العَشَرةِ. فإنْ كانَتْ عَشَرةً فَتُعْرَفُ بالعَدِّ، وإنْ كانَتْ دونَ العَشَرةِ فإنَّ دَمَها إذا انْقَطَعَ راجَعَها قَبْلَ أنْ تَغْتَسِلَ، وذلكَ وقْتُ إشرافِ أجَلِها على البلوغِ.

والأطهارُ لا يَتَحَقَّقُ فيها المَعْنى الذي وصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ ههنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فَدَلَّ الأمْرُ بالإمساكِ في الظاهِرِ أنها مادامَتْ في العِدَّةِ فهي على مُلْكِهِ. وقالَ في

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: لا، ساقطة من م. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: في. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) في الأصل وم: هو.

مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فَدَلَّ على أنهُ قد وَقَعَ شيءٌ مِنَ الزَّوالِ حتى أمَرَهُ بِرَدِّها، فيكونُ حُجَّةً للشافعِيِّ في أنَّ الطلاقَ الرَّجعِيَّ يُحَرِّمُ الوَطءَ.

ولكنَّ المَعْنَى عندَنا في هذا، واللهُ أعلَمُ، أنّا قد عَرَفْنا بقولِهِ: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بَعْدَ وجودِ الطلاقِ المُتَقَدِّمِ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ الفُرْقَةَ للحالِ، ولكنَّ مَعْناهُ: اترُكوهُنَّ حتى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ، فَتُفارِقوهُنَّ.

فَثَبَتَ أنهُ قد وَقَعَ شيءٌ مِنْ شُبْهَةِ الفِراقِ بالطلاقِ، وهو أنْ صارَ الفِراقُ مُسْتَحِقّاً لازماً حالَ انْقِضاءِ العِدَّةِ، فيكونُ لهُ عَرَضُ الوجودِ للحالِ، فقالَ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ على إبقائهنَّ على أصْلِ المُلْكِ، وقالَ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لِرَفْعِ تلكَ الشُّبْهَةِ الواقعةِ بالطلاقِ.

وهذا على سَبيلِ ما قالَ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ و٢٢٧] وكانَ الفَيءُ هو الرجوعَ.

ومَعْلومٌ أنهُ لم يَقَعْ[1] بالإيلاءِ شيءٌ مِنَ الفُرْقةِ، ولكنْ لمّا كانَ الإيلاءُ مُوجِباً لِلْبينونةِ في العُقْبى أوجَبَ في الحالِ شُبْهَةَ الفُرقةِ، وهو: اسْتِحْقاقُ الزَّوالِ، فَذَكَرَ الفَيءَ لِرَفْعِ تلكَ الشُّبْهَةِ، فكانَ تَرْكُها منهُ لا يُفيءُ إليها عَزْمٌ منهُ على الطلاقِ، فكذلكَ الأوَّلُ.

والمَعروفُ إذا صَنَعَ لكَ إنسانٌ صَنيعةً، فَعَرَفْتَها، واسْتَحْسَنْتَها، فهو معروفٌ، وما دَفَعْتَهُ، وأنْكَرْتَهُ فليسَ بِمَعْروفٍ، أو هو الذي عَرَّفَنا اللهُ تعالى مِنَ المُراجَعَةِ والمُفارَقةِ.

ثم المَعروفُ في الحقيقةِ ما تَطْمَئِنُّ إليهِ القلوبُ، وتَسْكُنُ[2] عندَهُ الأنفسُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أنْ قد يكونُ مِنّا فُسّاقٌ، وأنَّ الفِسْقَ لا يُخْرِجُ[3]، وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فَثَبَتَ أنْ قد يكونُ منّا مَنْ لا يُرْضَى، وأنَّ خُروجَهُ مِمَّنْ يُرْضَى لا يُخْرِجُهُ مِنَ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ حينَ[4] أضافَها إلى نفسِهِ؛ هو أنهُ لا بدَّ مِنَ الشهادةِ مِنْ نَفْعٍ يَقَعُ لأحدِ الخَصْمَينِ وضَرَرٍ يَرْجِعُ إلى الآخَرِ، فكأنهُ قالَ: لا يَنْظُرْ أحدٌ إلى رِضا مَنْ تَنْفَعُهُ الشهادةُ وإلى سُخطِ مَنْ تَضُرُّهُ، ولكنِ اجْعَلوها للهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ المَوعِظةُ، وإنْ كانَتْ لِمَنْ يُؤمِنُ، فالمَعْنى في هذا: ذلكُمْ يَتَّعِظُ بما ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كما كانَ المَعْنى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] أي إنما يَنْتَفِعُ بالإنذارِ مَنْ يَتَّبِعُ الذِّكْرَ، وكما كانَ في قولِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] أي يَنْتَفِعونَ بِتِلاوَتِهِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾ أي بما أمَرَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ لِلْعِدَّةِ والنَّهْيِ عنْ إخراجِهِنَّ مِنَ البُيوتِ والإنْفاقِ ونَحْوِهِ، أي يأخُذُ بما أمَرَ بِهِ، ونَهَى عنهُ في هذهِ الآياتِ ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ قد بَيَّنّا أنَّ التَّقْوى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْتَظَمَ الأوامِرَ والنَّواهِيَ، وإذا ذُكِرَ مَعَهُ البِرُّ والإحسانُ صُرِفَ التَّقْوى إلى مَعْنًى، والبِرُّ إلى مَعْنًى.

وذُكِرَ في هذا المَوضِعِ مُفْرَداً، فجازَ أنْ يَنْتَظِمَ الأوامِرَ والنواهِيَ. ثم جازَ أنْ يكونَ المَعْنى مِنْ قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحُدودِ، فلم يُضَيِّعْهُ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في ما لم يُبَيِّنْ لهُ وفي ما اشْتَبَهَ مِنَ الحَدِّ، أو يَجوزُ أنْ يكونَ المَعْنى مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي جاهَدَ في ما أمَرَهُ، ونَهاهُ ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ في أنْ يَهْدِيَهُ، ويُبَيِّنَ لهُ السبيلَ.

(١) أدرج بعدها في الأصل وم: شيء. (٢) في الأصل وم: وتشكر. (٣) في الأصل وم: يخرجه. (٤) في الأصل وم: حيث.

ألا ترى إلى قولِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؟ [العنكبوت: ٦٩].

قالَ: ويجوزُ أنْ ينالَ مَنْ يَلْزَمُ التَّقْوى خيرَ الدنيا والآخِرَةِ، لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ التَّقْوى وما يَليهِ بألفاظٍ مُختلِفةٍ، فقالَ في مَوضِعٍ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] وفي مَوضعٍ آخَرَ: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [الطلاق: ٥] وفي مَوضعٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] أي ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [في][1] النُّصْرَةِ/ ٥٧٥ - ب/ والمَعونةِ والتَّوفيقِ والعِصْمَةِ. ومَنْ نَصَرَهُ اللهُ فلا يَغْلِبُهُ أحدٌ، ومَنْ يَعْصِمْهُ اللهُ فلا يُضِلُّهُ أحدٌ. وإذا نالَ هاتَينِ الخَصْلتَينِ فقدْ نالَ خيرَ الدنيا والآخِرَةِ.

أو يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يعني يَتَّقِ عِقابَهُ ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ مِنَ الشِّدَّةِ في الدنيا ومِنْ سَكَراتِ الموتِ وغَمَراتِهِ ومِنْ شَدائدِ الآخِرَةِ وأهوالِها.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في مَكاسِبِهِ ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ مِنَ الشُّبَهِ والحُرُماتِ، فَيَسْلَمْ منها.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحُدودِ في هذهِ الآياتِ المُتَقَدِّمةِ، فَحَفِظَها في صُحْبةِ النساءِ على ما أمَرَ بهِ ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ ممّا أهَمَّهُ مِنْ ناحِيَتِهِنَّ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾.

يجوزُ أنْ يكونَ هذا في ما بَيَّنَ لهُ مِنَ الحدودِ إذا حَفِظَها أنْ يَرْزُقَهُ ما وَصَفْنا مِنَ المرأةِ والمالِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا في جميعِ الأمورِ مِنَ المُكاتبةِ والتِّجاراتِ لأنَّ التُّجّارَ يَظُنّونَ أنهمْ إنما يُرْزَقونَ الفَضْلَ والرِّبْحَ لما يُدْخِلونَ فيها مِنَ الشُّبَهِ والحُرُماتِ، وأنها إذا نُفِيَتْ مِنْ تِجارتِهِمْ تلكَ الشُّبَهُ والحُرُماتُ رَزَقَهُمْ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبوا.

أو يجوزُ أنْ يكونَ[2] هذا خِطاباً لِلْكَفَرَةِ، وذلكَ أنهمْ كانوا يَخافونَ أنهمْ إذا آمَنوا بالرسولِ ﷺ حُرِموا مِنَ الرزقِ، وابْتُلُوا بالضيقِ.

ألا ترى إلى قولِهِ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ الآيةَ؟ [القصص: ٥٧] فكأنَّ اللهَ تعالى أمَّنَهُمْ ممّا يَخافونَ بسببِ الإسلامِ، وأخبرَهُمْ أنهمْ إذا وَحَّدوا اللهَ تعالى، وآمَنوا برسولِهِ، رَزَقَهُمُ اللهُ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبوا، وَوَسَّعَ عليهمُ الرِّزْقَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي مَنْ يَعْتَمِدْهُ في كلِّ نائبةٍ، ويُفَوِّضْ إليهِ كلَّ نازلةٍ. والوكيلُ، هو المَوكولُ إليهِ الأمورُ. وقيلَ: الوكيلُ، هو الحافظُ، فكأنهُ قالَ: ومَنْ يَعْتَمِدْ على اللهِ في ما نابَهُ كَفَى بهِ وكيلاً مَوكولاً إليهِ أمْرُهُ، وكَفَى بهِ حافظاً وناصراً ومُعيناً.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي في ما أخْبَرَ مِنْ حُكْمِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ أنْ يَنْزِلَ بهمْ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي مَبَلِّغُ ما أمَرَ رسولَهُ بِتَبليغِهِ إلى آخرِ عِصْيانِهِ، يكونُ مِنْ أُمَّتِهِ في [تَسخيرِهِمْ لِيَصيرَ ما][3] كانَ الرسولُ بَلَّغَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ قالَ الحَسَنُ: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أعمالِ العبادِ ﴿قَدْرًا﴾ ثواباً في الآخِرَةِ.

والوجهُ عندَنا ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ممّا كانَ، ويكونُ إلى يومِ القيامةِ مِنْ حَسَنٍ وقَبيحٍ في الحِكْمةِ ﴿قَدْرًا﴾. ألا تَرى إلى أفعالِ العِبادِ أنها كيفَ تَخْرُجُ عنْ تدبيرِهِمْ مِنْ زمانٍ ومكانٍ ونَحوِ ذلكَ لِيُعْلَمَ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي قَدَّرَ ذلكَ المَكانَ والزمانَ والفِعْلَ حتى خَرَجَ فِعْلُ هذا العبدِ عنْ تَقْديرِهِ الذي قَدَّرَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وجهٌ آخَرُ، وهو أنهُ لو جَعَلَ جميعَ الرِّزقِ مِنْ حَيثُ لا يَحْتَسِبُ جازَ، لأنَّ الرزقَ في الحَقيقةِ، هو الذي يُتَقَوّى بهِ، وليسَ ذلكَ في عَينِ الأكلِ والشُّرْبِ، ولكنْ في ما يَتَفَرَّقُ مِنْ قُوَّةِ الطعامِ والشرابِ في الأعضاءِ؛ وذلكَ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى. فَثَبَتَ أنَّ قُوَّةَ الأكلِ والشُّرْبِ إنما تَصِلُ إلى الأعضاءِ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُهُ الإنسانُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يكونوا. (٣) في الأصل: تسخر ليصيروا، في م: تسخيرهم ليصيروا.

ثم ليسَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ لهُ تخصيصٌ، أي مَن لا يَتّقِهِ لا يَرزُقُهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، لأنّا قد نَرى في الشاهدِ مَن يَرزُقُهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، اتّقاهُ، أو لم يَتّقِهِ. فَثَبَتَ أنَّ فائدةَ التَّخصيصِ ليسَتْ تَعني غيرَ المَقصودِ، ولكنَّ فائدةَ تَخصيصِ المُتّقي بالذكْرِ، هي[1] أنهُ يَرزُقُهُ مِن حيثُ يَطيبُ لهُ، ولا يُلامُ عليهِ، وليسَ ذلكَ في غَيرِ المُتّقي، واللهُ المُستَعانُ.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ما يَدُلُّ على تَرْكِ الأسبابِ. ولكنْ لمّا رَأى الناسَ يَفزَعُ بعضُهُمْ إلى بَعْضٍ، ويَستَغيثُ بعضُهُمْ ببعضٍ، أمَرَهُمْ أنْ يَجعَلوا المَقْصَدَ والمَفزَعَ إلى اللهِ تعالى، وأنْ يُصَيِّروا هذهِ الأسبابَ كُلَّها مِحْنَةً عليهِمْ، لا أنْ يَرَوا أرزاقَهُمْ مَقصودةً مُتَعَلِّقةً بها.

ألَا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؟ [الجمعة: ١٠] كيفَ أمَرَ بإدراكِ فَضْلِهِ مِن تلكَ التجارةِ، فَثَبَتَ أنَّ هذهِ المَكاسِبَ كلَّها أسبابٌ، بها يَتَوصَّلونَ إلى فَضْلِ اللهِ تعالى، وأنَّ المَقْصَدَ والمَفزَعَ فيها إلى اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختَلَفوا في العِدَّةِ: فَمِنهُمْ مَن قالَ: هي اسْتِبْراءُ الرَّحِمِ، ومنهُمْ مَن قالَ: هي عِبادةٌ تَتْبَعُ النِّكاحَ الذي اسْتُوفِيَ فيهِ المَقصودُ بالنِّكاحِ. وهذا القولُ عندَنا أصْوَبُ [لِوَجْهَينِ]:

أحَدُهُما][2]: أنَّ الاستِبْراءَ واجبٌ في حقِّ السُّنَّةِ والأدبِ قَبْلَ الطلاقِ؛ فإنَّ مَن أرادَ أنْ يُطلِّقَ امْرَأتَهُ فالواجبُ عليهِ أنْ يَستَبْرِئَها بِحَيضةٍ، ثم يُطَلِّقَها. وأمّا العِدَّةُ فإنها لا تَجِبُ إلّا بَعْدَ الطلاقِ. فَثَبَتَ أنها على ما ذَكَرْنا مِنَ العِبادةِ التي تَتْبَعُ النِّكاحَ الذي اسْتُوفِيَ فيهِ المَقصودُ أنَّ الاستِبْراءَ واجبٌ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][3]: أنَّ العِدَّةَ لو كانتِ اسْتِبْراءً لَكانَتْ تَكْتَفي بالحَيضةِ الواحِدةِ، فلمّا قُرِنَتْ بالعَدَدِ، وفي الواحدةِ مَندوحةٌ إلى سِواها في حقِّ الاستِبْراءِ، ثَبَتَ أنها على الوَجْهِ الأوَّلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ المُرادَ مِنَ الأقراءِ الحَيضُ؛ وذلكَ لأنَّ الأصلَ عندَنا في الأصولِ أنَّ الشيءَ متى ذُكِرَ بِاسْمٍ مُشْتَرَكٍ، ثم جَرى البَيانُ لهُ عندَ ذِكْرِ البَدَلِ باسْمٍ خاصٍّ دلَّ على أنَّ المُرادَ مِنَ الاسْمِ المُشْتَرَكِ هذا الاسْمُ الخاصُّ المَذكورُ عندَ البَدَلِ.

ألَا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾؟ [المائدة: ٦] وكانَ اسْمُ الغَسْلِ مُشْتَرَكاً يَتَناوَلُ الماءَ وكلَّ مائعٍ. فلمّا قالَ عندَ ذِكْرِ البَدَلِ: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ [المائدة: ٦] تَبَيَّنَ أنَّ المرادَ مِن ذلكَ الاسْمِ المُشْتَرَكِ هو هذا الاسْمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البَدَلِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ اختَلَفوا في قولِهِ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أنهُ أُريدَ بهِ إنِ ارْتَبْتُمْ في حَيضِهِنَّ أو في عِدَّتِهِنَّ.

وعندَنا الارْتِيابُ في عِدَّتِهِنَّ لأنهُ لو كانَ المُرادُ منهُ الارْتِيابُ في حَيضِهِنَّ لَكانَ مِن حقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: إنِ ارْتَبْنَ، أو يقولَ: واللّائي ارْتَبْنَ لِيكونَ مَنسوقاً على قولِهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ﴾ فلمّا قالَ: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ ثَبَتَ أنَّ المُرادَ إنِ ارْتَبْتُمْ في عِدَّةِ[4] الآيِساتِ والصغيراتِ، فَهِيَ ثلاثةُ أشهرٍ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ المُرْتابةَ إذا رَأتِ الحَيضَ ارْتَفَعَ رَيبُها، وصارَتْ عِدَّتُها بالحِيَضِ، وخَرَجَتْ مِنَ العِدَّةِ بالشُّهورِ.

وأمّا الآيِسةُ والصغيرةُ فإنهُ لا يُتَوَهَّمُ [عليهما ارْتِفاعُ الرَّيبِ][5] فتكونُ عِدَّتُهُما بالأشْهُرِ.

فلذلكَ قُلْنا إنَّ هذا الارْتِيابَ في عِدَّةِ الآيِساتِ والصغيراتِ.

ثم قولُ أصحابِنا: إنَّ الرجلَ إذا طَلَّقَ امرأتَهُ الآيِسةَ أو الصغيرةَ أو الحامِلَ لِلسُّنَّةِ يُطَلِّقُها متى شاءَ، وليسَ لهُ وَقْتٌ مُعَيَّنٌ في طلاقِها لِلسُّنَّةِ، وإنما كانَ كذلكَ لأنّا قد وَصَفْنا في قولِهِ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ المُرادَ منهُ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ.

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) في الأصل وم: لأوجه أحدها. (٣) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٤) في الأصل وم: هذه. (٥) في الأصل وم: عليها ارتفاع الإياس والصغيرة فإنه لا يتوهم عليها.

ومَعْلومٌ أنَّ عِدَّةَ التي تَرَى الحيضَ أحدُ شَيئينِ: إمّا الدَّمُ ولم تَعْتَبِرَ ما يُقابِلُها، وهو الطُّهرُ، مِنَ العِدَّةِ [وإمّا الأطهارُ، ولم][١] تَعْتَبِرْ ما يُقابِلُها، وهو الحَيضُ، مِنَ العِدَّةِ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يكونَ ههنا شيءٌ، يُقابِلُ عِدَّتَها، فَثَبَتَ فيهِ مَعْنى قُبُلِ عِدَّتِها، فيُجعَلُ ذلكَ الطُّهرَ.

وأمّا الآيِسةُ والصغيرةُ والحاملُ فجميعُ أيّامِها مِنْ عِدَّتِها، وهو ثلاثةُ /٥٧٦ ـ أ/ أشهُرٍ، وليسَ في أيّامِها شيءٌ [مِنْ][٢] عِدَّتِها، فلذلكَ قُلْنا: إنَّ لهُ أنْ يُطلِّقَها في أيِّ وقتٍ شاءَ، وكذا لهُ أنْ يُطَلِّقَ الحاملَ التي مِنْ ذواتِ الأقراءِ، وذلكَ لأنهُ إنما نُهِيَ عندَنا عنِ الطلاقِ على إثْرِ الجِماعِ في التي تَحيضُ لِتَوَهُّمِ أنْ يكونَ الجِماعُ أحْبَلَها، فإذا طَلَّقَها، ثم أرادَ نَفْيَ الحَبَلِ في العِدَّةِ لم يَتَهَيَّأْ لهُ ذلكَ.

وأمّا الآيِسةُ والصغيرةُ والحاملُ فليسَ فيهِنَّ هذا التَّوَهُّمُ، واللهُ أعلَمُ.

ثم هذهِ العِدَّةُ، وإنْ ذُكِرَتْ في هذهِ السورةِ على إثْرِ الطلاقِ الواحدِ، فكأنَّها في التَّطليقاتِ الثَّلاثِ، لأنَّ هذهِ العِدَّةَ التي ذَكَرَ اللهُ تعالى في سورةِ البقرةِ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [الآية: ٢٢٨] ولأنهُ ذَكَرَها ههنا ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الآية: ١] على الإجمالِ، وذَكَرَها ثَمَّ على التَّفْسيرِ. فإذا أُلحِقَ[٣] التَّفْسيرُ بالمُجمَلِ يَصيرُ في المَعْنَى والحُكْمِ كأنهُ واحدٌ.

ومَعْلومٌ أنَّ تلكَ في الواحدةِ والثَّلاثِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وقولُهُ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ هي التَّطليقةُ الثالثةُ؟ وإذا كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنا ثَبَتَ أنَّ لِلْمَرْءِ أنْ يُطَلِّقَ امرأتَهُ الحاملَ للسُّنَّةِ ثلاثاً.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ [فيهِ][٤] أوجُهٌ مِنَ الفِقْهِ:

أحَدُها: أنهُ لمّا قالَ: ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ دلَّ أنهُ ألزَمَهُنَّ السُّكونَ في بيوتِهِنَّ التي كُنَّ فيها في حالِ قِيامِ النِّكاحِ، فيكونُ دليلاً في قَولِ أصحابِنا: إنهُ ليسَ للزوجِ أنْ يُسْكِنَها معهُ في بيتِهِ الذي هو فيهِ، بل يَتْرُكُها في ذلكَ المَسْكَنِ، ويَنْتَقِلُ هو بنفسِهِ، إنْ كانَ يُريدُ الانتِقالَ. يُصَحِّحُ هذا قولُهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ [الطلاق: ٦] فلما دَخَلَ حَرْفُ ﴿مِن﴾ هذهِ الآيَةَ دلَّ أنَّ الواجبَ على الزوجِ أنْ يُسْكِنَها في بيتٍ مِنْ بُيوتِهِ، ولا يدخُلُ عليها في ذلكَ البيتِ إلى أنْ تَنْقَضِيَ العِدَّةُ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: أنَّ][٥] المَعْنَى عندَنا في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ لِتَحْصِينِ مائِكُمْ، ولا يَخْرُجْنَ خَوفاً مِنْ وَطْءِ غَيرِ الأزواجِ واشْتِباهِ النَّسَبِ لو حَبِلْنَ. وإذا كانَ نَهَى عنْ إخراجِها وخُروجِها مِنَ البيتِ لهذا المَعْنَى لم يَكُنْ بُدٌّ مِنْ إيجابِ النَّفَقَةِ عليها لأنها إنما تَكْتَسِبُ نَفَقَتَها بالخُروجِ [فإذا نُهِيَتْ عنِ الخروجِ][٦] لِتَحْصِينِ مائِهِ لم يُحْتَمَلْ أنْ تكونَ النَّفَقَةُ على غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: مَنْ شاءَ باهَلْتُهُ؛ إنَّ قولَهُ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ نَزَلَ بعدَ قولِهِ في سورةِ البقرةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤] وجَعَلَ عِدَّةَ الحامِلِ بِوَضْعِ الحَمْلِ، ولا يُعْتَبَرُ أبْعَدُ الأجَلَينِ.

لكنْ إنْ كانَ ابْنُ مسعودٍ ﷺ لا يُباهِلُ، ويقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ لا يجوزُ أنْ يدخُلَ في قولِهِ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلكَ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ إنما ذَكَرَهُ في عِدَّةِ الطلاقِ، وعِدَّةُ الطلاقِ لا تَتَضَمَّنُ عِدَّةَ الوفاةِ، إذا كانَتْ في الحَيضِ لم تَدْخُلْ عِدَّةُ الطلاقِ في عِدَّةِ الوفاةِ.

---

(١) في الأصل وم: وكذلك من جعل عدتها بالإظهار لم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: التحقق. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ألا ترى أنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ، وهي حاملٌ مِمَّنْ تَحيضُ، ثم ماتَ عنها زوجُها قَبْلَ انْقِضاءِ عِدَّتِها لم تدخلْ عِدَّةُ الوفاةِ في الحِيَضِ الثلاثِ، بلِ الحِيَضُ [هي][1] التي تدخُلُ في عِدَّةِ الوفاةِ، وتُؤْمَرُ بأنْ تَعْتَدَّ بأبْعَدِ الأجَلَينِ؟ فكذلكَ أمْرُ الحاملِ.

وإذا اشْتَبَهَ[2] الحالُ أُمِرَتْ فيهِ بالاحْتِياطِ أنْ تَعْتَدَّ بأبْعَدِ الأجَلَينِ ولأنَّ عِدَّةَ الوفاةِ لم تَلْزَمْ لِوَطْءٍ مُتَقَدِّمٍ. ألا ترى أنها قد تَلْزَمُ مَنْ لم يكنْ زَوجُها مِنْ أهلِ الوَطْءِ؟ وأمّا عِدَّةُ الحَبَلِ والحَيضِ إنما لَزِمَتْ لِوَطْءٍ مُتَقَدِّمٍ. وإذا [لم][3] تَكُنْ عِدَّةُ الوفاةِ مِنْ جِنْسِ العِدَّةِ بالحَبَلِ، لم تدخُلْ عِدَّةُ الحَبَلِ، فلا يُوجَبُ فيهِ الاحْتِياطُ؛ وذلكَ في الاعْتِدادِ بأبْعَدِ الأجَلَينِ.

ثم التَّخصيصُ بِذِكْرِ الإنفاقِ على الحوامِلِ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ بِمَعْنَى أنها في الحقيقةِ لا تدخُلُ في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ لأنّا قد وَصَفْنا أنها نُهِيَتْ [عنِ الخروجِ][4] لِتَحْصينِ ماءِ الزوجِ، وإذا مَضَتْ تِسْعَةُ أشْهرٍ فقد خَرَجَتْ عنِ التَّحصينِ، فكانَ الوَجْهُ أنْ تَسْقُطَ النَّفَقَةُ بعدَ التِّسْعَةِ.

لكنَّ اللهَ تعالى حثَّ على الإنفاقِ في جميعِ المدةِ لأنها، لا مَحالةَ، إنما أُبقِيَتْ في هذهِ المدةِ لِوَطْئِهِ المُتَقَدِّمِ. فَلِذلكَ حثَّ اللهُ تعالى على الإنفاقِ على الحوامِلِ في ما يَقَعُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ.

وأمّا ابنُ مَسْعودٍ ﷺ فإنهُ يَجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ عندَهُ مُبْتَدَأً خِطابٍ، ليسَ بِمَعْطوفٍ على قولِهِ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ لأنّا نَعْلَمُ أنهُ لا يَجوزُ أنْ يَقَعَ الارْتِيابُ في مَنْ تَحْتَمِلُ القُروءَ؛ وذلكَ لأنَّ الأشْهُرَ في الآيِساتِ إنما أُقيمَتْ مُقامَ الأقراءِ في ذاتِ الحَيضِ، وإذا كانَتِ الحاملُ مِمَّنْ تَحْتَمِلُ القُرْءَ لم يَجُزْ أنْ يَقَعَ لهمْ شَكٌّ في عِدَّتِها لِيَسْألوا عنْ عِدَّتِها. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنهُ خِطابٌ مُبْتَدَأٌ، وإذا كانَ خِطاباً مُبْتَدَأً تَناوَلَ العِدَّةَ كلَّها.

ومِمّا يَدُلُّ على أنهُ مُبْتَدَأُ خِطابٍ ما رُوِيَ في خَبَرِ سُبَيعةَ بنتِ الحارثِ الأسْلَمِيَّةِ: أنها وَضَعَتْ بعدَ وفاةِ زَوجِها بِخَمْسةٍ وعشرينَ ليلةً، فأمَرَها رسولُ اللهِ ﷺ أنْ تَتَزَوَّجَ. فَدَلَّتْ إباحَتُهُ النِّكاحَ قَبْلَ مُضِيِّ أربعةِ أشْهُرٍ وعَشْرَةٍ على أنَّ عِدَّةَ الحامِلِ تَنْقَضي بوضعِ الحَمْلِ في جميعِ الأحوالِ.

وقالَ الحَسَنُ: إنَّ الحاملَ إذا وضَعَتْ أحدَ الولدَينِ انْقَضَتْ عِدَّتُها، واحْتَجَّ بقولِهِ: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ أحمالَهُنَّ. ولكنْ لا يَسْتَقيمُ ما قالَهُ لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ قُرِئَ في بعضِ القراءاتِ أنْ يَضَعْنَ أحمالَهُنَّ[5].

والثاني: أنهُ قالَ: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ: يَلِدْنَ، بل عَلَّقَ بِوَضْعِ حَمْلِهِنَّ، والحَمْلُ اسْمٌ لِجميعِ ما في بَطْنِهِنَّ، ولو كانَ كما قالَهُ لكانَتْ عِدَّتُهُنَّ بوضعِ بعضِ حَمْلِهِنَّ، واللهُ تعالى جَعَلَ أجَلَهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ فقد وَصَفْنا أنَّ التَّقْوَى إذا ذُكِرَ مُطْلَقاً مُفرداً يَتَناوَلُ الأوامِرَ والنَّواهِيَ؛ فكأنهُ قالَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أوامِرِهِ [خَوفاً مِنْ][6] أنْ يُضَيِّعَها أو في نواهيهِ أنْ يَرْتَكِبَها ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ في نَفْسِ التَّقْوَى أنْ يُيَسِّرَهُ عليهِ كما قالَ في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ و٦ و٧] يَعْني نُيَسِّرُ عليهِ فِعْلَ التَّقْوَى والطاعةِ. فكذلكَ الأوَّلُ.

[والثاني][7]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في جميعِ الأمورِ: في المَكاسِبِ والتِّجاراتِ وغيرِها: أنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ مِنَ الحرامِ يَسَّرَ اللهُ عليهِ الحلالَ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ في الشُّبَهِ يَسَّرَ عليهِ في المُباحِ، ومَنِ اتَّقَى اللهَ في تجارتِهِ [رَزَقَهُ][8] ما يَرْجو مِنَ الرِّبْحِ، ويأمُلُهُ، وكذلكَ جميعُ الأمورِ على هذا السبيلِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أثبت. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١٦٧. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ذلكَ التَّقْوى ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾.

[والثاني][1]: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ في المُراجَعَةِ والإشهادِ والطلاقِ والعِدَّةِ وغيرِ ذلكَ أنها، وإنْ خَرَجَتْ في الظاهِرِ مَخْرَجَ الخَبَرِ، فإنها كلُّها أمرُ اللهِ تعالى، أنْزَلَهُ إليكُمْ، فاتَّبِعوها، وخُذوا بأمْرِهِ فيها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ هذا يَدُلُّ على ما وَصَفْنا أنَّ التَّقْوى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْتَظَمَ الأمْرَ والنَّهْيَ جَميعاً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقالَ ههنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فَجَعَلَ التَّقْوى مُكَفِّرَةً لِلسَّيِّئاتِ. فلولا أنَّ في التَّقْوى أعظَمَ الحَسَناتِ لم يَكُنْ لِقولِهِ: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ مَعْنًى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ في قراءةِ ابْنِ مسعودٍ[2]: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾، وأنْفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ عُمَرَ / ٥٧٦ ـ ب/ ﷺ هذهِ أيضاً.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا وسُنَّةَ نَبِيِّنا لِقولِ امْرأةٍ لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ؟ فالكتابُ هذا، والسُّنَّةُ: يَجوزُ أنْ يكونَ سَمِعَها مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ. أو يجوزُ أنْ تكونَ عندَ عُمَرَ ﷺ في هذا تِلاوَةٌ، قد رُفِعَتْ عَيْنُها، وبَقِيَ حُكْمُها، لِذلكَ قالَ: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا.

ألا تَرَى [إلى ما][3] قالَ عُمَرُ ﷺ في أمْرِ الزِّنَى: سَيَأتي [على الناسِ][4] زمانٌ يقولونَ: لا نَجِدُ الرَّجْمَ في كتابِ اللهِ، وإنّا كُنّا نَتْلُو مِنْ قَبْلُ في سورةِ الأحزابِ: إنَّ الشَّيْخَ والشَّيخةَ إذا زَنَيا فارْجُموهُما نَكالاً مِنَ اللهِ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ، فقد رُفِعَتِ التلاوةُ، وبَقِيَ حُكْمُها؟

فكذلكَ في أمْرِ النَّفَقةِ يجوزُ أنْ تكونَ التِّلاوةُ مَرْفوعةً، وحُكْمُها باقياً، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ [ﷺ][5]: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا: [في][6] الخبرِ دَلالَةٌ أنَّ الكتابَ قد يُنْسَخُ بالسُّنَّةِ، لأنَّ عمرَ ﷺ إنما احْتَجَّ في امْتِناعِهِ عنْ تَرْكِ كتابِ رَبِّهِ لقولِ امْرأةٍ، لم نَدْرِ أصَدَقَتْ أم كَذَبَتْ. ولولا أنَّ الكتابَ قد يُنْسَخُ بالسُّنَّةِ، وإلّا لم يَكُنْ لِاحْتِجاجِهِ[7] بقولِهِ: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا لِقولِ امْرأةٍ، لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ، مَعْنًى. بل كانَ يقولُ: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا بالسُّنَّةِ. فلمّا قالَ: لا نَدَعُ كتابَ رَبِّنا لِقولِ امْرأةٍ، لا نَدري أصَدَقَتْ، أم كَذَبَتْ، دلَّ أنَّ السُّنَّةَ قد تَنْسَخُ الكتابَ، واللهُ أعلَمُ.

ورَوَى أبو بكرٍ الأصَمُّ أنَّ فاطمةَ بنتَ قَيسٍ لما أنْكَرَ عليها عُمَرُ ﷺ حَديثَها، تَرَكَتْ رِوايَتَها إلى زَمَنِ مَرْوانَ، فلما اسْتُخْلِفَ مَرْوانُ جَعَلَتْ تَرْوي حديثَها، فأُخْبِرَ بِذلكَ مَرْوانُ، فَدَعاها، فَرَوَتْ هذا الحديثَ، فقالَ لها مَرْوانُ على ما كانَ يقولُ لها عُمَرُ ﷺ وقالَتْ لهُ: أينَ كتابُ رَبِّنا؟ فَتَلا عليها قولَهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وأنْفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ فقالَتْ: كيفَ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في المُطَلَّقَةِ ثلاثاً؟ واللهُ يقولُ في هذهِ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] ومَعْنَى الإمساكِ في المُطَلَّقَةِ مَعْدومٌ، فَأُفْحِمَ مَرْوانُ. ولو فَهِمَ مروانُ ما فَهِمَهُ غَيرُهُ لم يُفْحَمْ؛ وذلكَ أنَّ هذهِ العِدَّةَ المذكورةَ في هذهِ الآياتِ إنما هي مَكانُ قولِهِ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ولا فَرْقَ هناكَ بَيْنَ التطليقةِ الواحِدَةِ والثلاثِ.

وإذا كانَ المذكورُ في هذهِ العِدَّةِ مَكانَ تلكَ، فالمذكورُ في النَّفَقةِ في هذهِ كالمذكورةِ في تلكَ الآياتِ [وليسَ في تلكَ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية: ج/١٦٨. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: احتجاجه.

الآيةِ][1] فَرْقٌ بينَ الثلاثِ والواحدةِ، فلِذلكَ قُلْنا: في كتابِ اللهِ تعالى دلالةُ إيجابِ النَّفَقةِ في المَبْتوتَةِ والمُطَلَّقةِ ثلاثاً، واللهُ أعلَمُ، ويكونُ حُجَّةً على الشافِعِيِّ.

وممّا يَدُلُّ عليهِ، وهو أنهُ لِما استُدِلَّ بِذِكْرِ الإنفاقِ في قولِهِ: ﴿فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ على وجوبِ الإسكانِ والنَّهْيِ عنِ الإخراجِ مَعَ تَوَهُّمِ الإنفاقِ دونَ الإسكانِ، فَلَأَنْ يُستَدَلَّ بِذِكْرِ الإسكانِ على الإنفاقِ، ولا يكونُ الإسكانُ إلّا بالإنفاقِ لِاتِّصالِهِ بهِ، أحرَى، فصارَ قولُهُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ دليلاً على وجوبِ الإنفاقِ. وإنما قُلْنا: إنَّ الإنفاقَ مُتَّصِلٌ بالإسكانِ لأنهُ نَهى عنْ إخراجِها مِنْ بيتِهِ، وأمَرَ بإسكانِها، فلا يَحتَمِلُ ألّا يُؤمَرَ بالإنفاقِ لأنَّ في ذلكَ [تَضْييقاً عليها وتَعْسيراً][2].

ألا تَرَى أنها إنما تَكْتَسِبُ النَّفَقةَ بالخروجِ، فإذا نُهِيَ الزَّوجُ عنْ إخراجِها، ونُهِيَتْ هي عن الخروجِ، لم تَصِلْ إلى نَفَقتِها إلّا بالزَّوجِ ضَرورةً، واللهُ أعلَمُ؟.

ولِأجْلِ أنّا نَظَرْنا أنَّ النَّفَقةَ في الحامِلِ للحَمْلِ أو العِدَّةِ، فوجَدْنا أنها لو كانَتْ واجِبةً للحَمْلِ، لم يَجِبْ إذا كانَ حَمْلُها بحيثُ لو وضَعَتْهُ لم يُلْزَمْ نَفَقَتُهُ عليهِ. وقد وَجَدْنا هذا الحكْمَ نَحْوَ حُرٌّ يَتزَوَّجُ أمَةَ رجلٍ بإذْنِ سَيِّدِها، فَوَلَدَتْ ولدٌ: أنَّ نَفَقةَ الولدِ على السيِّدِ، وكانَ يَجِبُ عليهِ مادامَ في بَطْنِ أمِّهِ، فلمّا استَقامَ وجوبُ النَّفَقةِ على الزوجِ مادامَتْ حاملاً، وإنْ كانَ بحيثُ لو وضَعَتْهُ لم تَلْزَمْهُ نَفَقَتُهُ. ثَبَتَ أنَّ النَّفَقةَ في الحامِلِ لِمكانِ العِدَّةِ لا لِلْحَبَلِ. والعِدَّةُ في الحائلِ والحاملِ واحدةٌ، فكذلكَ كانَ حُكْمُها واحداً، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ عندَنا ما وَصَفْنا أنَّ النَّفَقةَ إنما وجَبَتْ لِاسْتِمْتاعِهِ المُتَقَدِّمِ. فإذا كانَتْ محبوسةً لِاسْتِمْتاعِهِ السابقِ أوجَبَتِ النَّفَقةُ عليهِ. وإذا كانَتْ مَحْبوسةً لا بهذا الحقِّ لم يكُنْ عليهِ النَّفَقةُ، واللهُ أعلَمُ.

ولأنَّ في قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ إضمارَ النَّفَقةِ، كأنهُ يقولُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وأنفِقوا عليهِنَّ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ لأنهُ لولا هذا الإضمارُ لم يَكُنْ لِقولِهِ ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ على الظاهرِ مَعْنًى، لأنه لمّا قالَ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ عُلِمَ أنهُ جَعَلَ الإسكانَ عليهِمْ. ومَنْ كانَ عليهِ الإسكانُ فإنما يكونُ مِنْ وُجْدِهِ. فلم يكُنْ في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ إلّا إعلامُ ما عَلِمْناهُ. وإذا كانَ كذلكَ ثَبَتَ أنَّ في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [إضماراً][3] يَسْتَقيمُ عليهِ المَعْنَى في قولِهِ: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾][4] وليسَ بينَ القراءَتَينِ اختِلافٌ، ولكنَّ إحداهما خَرَجَتْ على الإجمالِ، والثانيةَ على التَّفْسيرِ على ما قُرِئَ في قولِهِ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] [فاقْطَعوا أيمانَهما][5] ولم يُحمَلْ ذلكَ على الاختِلافِ، بل حُمِلَتْ إحداهما على الإجمالِ، والثانيةُ على التَّفْسيرِ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ، مع ما إنْ لم يَثْبُتِ اللفظُ في قراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ فتأويلُهُ[6] أنْ يكونَ مِنْ خَبَرِ الآحادِ.

ومَعلومٌ أنَّ خَبَرَ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ وإنْ كانَ مِنْ خَبَرِ الآحادِ في ما يُسْنِدُهُ إلى الرسولِ ﷺ مَقْبولٌ. أو لمّا وَجَبَ قَبولُ خَبَرِ أبي هريرةَ ﷺ مَعَ ما قيلَ فيهِ منَ الضَّعْفِ، فَلَأَنْ يُقْبَلَ خَبَرُ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ مَعَ فَضْلِهِ وَوَرَعِهِ وكَثْرَةِ مُصاحبَتِهِ[7] مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وتَبَحُّرِهِ في الفِقْهِ أولَى. ومَنْ هَجَرَ قراءةَ ابْنِ مسعودٍ ﷺ خِيفَ عليهِ الزَّلَّةُ.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ سألَ أصحابَ النَّبِيِّ ﷺ فقالَ: ما تَعُدّونَ آخِرَ القراءةِ؟ قالوا: قراءةُ زيدِ بْنِ ثابتٍ ﷺ قالَ: كلّا، كانَ يُعْرَضُ القرآنُ على رسولِ اللهِ ﷺ كلَّ عامٍ مَرَّةً، وعُرِضَ عليهِ في العامِ الذي قُبِضَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ مَرَّتَينِ، وقد شَهِدَهما جميعاً ابْنُ مسعودٍ ﷺ وإذا كانَ ابْنُ مَسعودٍ، قراءَتُهُ آخِرُ القراءاتِ، وهو الذي شُهِدَ عليهِ قراءةُ القرآنِ على رسولِ اللهِ ﷺ آخِرَ مَرَّةٍ لم يَنْبَغِ أنْ يُعْرَضَ عنْ قراءتِهِ، وتُهْجَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ دلالةُ أنهُ إنما يُسْكِنُها في جُزْءٍ مِنْ أجزاءِ مَسْكَنِهِ لا في المَوْضِعِ الذي يَسْكُنُهُ هو، لأنَّ حَرْفَ ﴿مِنْ﴾ لِلتَّجْزِئةِ والتَّبْعيضِ.

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تضييق عليها وتعسيره. (٣) في م: إضمار. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فليمانهما، وهي قراءة ابن مسعود، انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/٢٠٨. (٦) في الأصل وم: فأوله. (٧) في الأصل وم: صحبته.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَين مِنَ التأويلِ:

أحَدُهما: أي لا تُضارّوهُنَّ في الإنفاقِ، فتُضيِّقوا عليهِنَّ النَّفَقَةَ، فيَخرُجنَ.

[والثاني:][1] لا تُضارّوهُنَّ في المَسكَنِ، فتَدخُلوا عليهِنَّ مِن غَيرِ استِئذانٍ، فيَضيقُ عليهِنَّ المسكَنُ، فيَخرُجنَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ دلَّ الأمرُ بالإنفاقِ على النَّهيِ عنِ الإخراجِ كما دلَّ النَّهيُ عنِ الإخراجِ على وجوبِ الإنفاقِ.

ثم التَّخصيصُ بِذِكرِ الإنفاقِ على الحاملِ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ لِمَعنًى أنها في الحقيقةِ لم تدخُلْ في قولِهِ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ لأنّا قد وَصَفْنا أنها نُهِيَتْ [عنِ الخروجِ][2] لِتُحصِّنَ ماءَ الزوجِ، وإذا مَضَتْ تِسعَةُ أشهرٍ فقد خَرَجَتْ عنِ التَّحصينِ، فكانَ الواجبُ أنْ تَسقُطَ النَّفَقَةُ / ٥٧٧ ـ أ/ بَعدَ التِّسعَةِ، قد ذَكَرْنا هذا المَعنى في ما تَقدَّمَ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الفائدةُ في تَخصيصِ الحواملِ بالإنفاقِ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لولا هذهِ الآيةُ لكانَتِ الحواملُ يَخرُجنَ عنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ وعنْ قولِهِ: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، لأنَّ الأزواجَ لهمْ أنْ يَحتَجّوا عليهنَّ أنَّ حرمةَ النِّكاحِ في ذواتِ الأحمالِ ليسَتْ لِحَقِّ الأزواجِ، ولكنْ لِحَقِّ ما في بَطْنِها مِنَ الوَلَدِ[3].

ألا تَرى أنهُ يَحرُمُ عليها النِّكاحُ مِنْ غَيرِهِ، وقد قُلنا: إنَّ النَّفَقَةَ إنما أُوجِبَتْ في غَيرِ الحوامِلِ لأنهنَّ يُحبَسنَ عنْ نِكاحِ الأجانبِ بِحَقِّ الأزواجِ؟ فإذا كانَ الحَبسُ في الحواملِ لا لِحَقِّ الأزواجِ جازَ أنْ يكونَ حُجَّةً لهمْ في إسقاطِ النَّفَقَةِ عنهمْ. وإذا كانَتْ كذلكَ حثَّ اللهُ لهمْ في الإنفاقِ على الحواملِ ما لم يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ، لأنَّ ذلكَ الحَمْلَ مِنْ أثَرِ استِمْتاعِهِمُ المُتقَدِّمِ. ففائدةُ تَخصيصِ ذِكرِ الحواملِ هذا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ هذا يَتضَمَّنُ أوجهاً مِنْ أدِلَّةِ الفِقهِ:

أحَدُها: أنهُ قالَ: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يُثبِتُ أنَّ الإرضاعَ كانَ بإجارةٍ، وأنهُ إذا استأجَرَها لِتُرضِعَ وَلَدَهُ منها بعدَ المُفارقةِ جازَتِ الإجارةُ، وحَلَّ لها أخذُ الأجرِ، وأنهُ [لوِ][4] استأجَرَ امرأتَهُ في صُلبِ النِّكاحِ على إرضاعِ ولدِهِ منها لم يَجُزْ، ولم يَكُنْ لها أخذُ الأجرِ لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ بَدَلَ الرَّضاعِ في صُلبِ النِّكاحِ بِلَفظِ الرزقِ بقولِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فإذا سَمّى ما ذَكَرَهُ اللهُ تعالى رزقاً أجراً لم يكُنْ أجراً، وكانَ بِحَقِ الرِّزقِ والكِسوَةِ، فلذلكَ لم تَجُزِ الإجارةُ في صُلبِ النِّكاحِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][5]: قولُهُ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ اللبَنَ، وإنْ خُلِقَ لِمَكانِ الولدِ، فهو مِلْكٌ لها، ولولا ذلكَ لم يكنْ لها أنْ تأخُذَ الأجرةَ على لبَنٍ ليسَ لها فيهِ مِلْكٌ.

[والثالثُ][6]: فيهِ دليلٌ على أنَّ حقَّ الإرضاعِ والنَّفَقَةِ على الأزواجِ في حقِّ الأولادِ، وحقَّ الإمساكِ والحضانةِ والكفالةِ على الزوجاتِ، ولولا ذلكَ لكانَ لها بعضُ الأجرِ، ثَبَتَ أنَّ حقَّ الإرضاعِ على الأزواجِ، وعلى الزوجاتِ الكفالةُ والإمساكُ، واللهُ أعلَمُ.

[والرابعُ][7]: لأجلِ أنّا لو جعَلْنا اللبَنَ مِلكاً للولدِ مَخلوقاً لهُ، وجعَلْنا النَّفَقَةَ على الأمِّ مِنْ مالِ نفسِها لكانَتْ نفَقَتُها تُغني، ولا يَتهَيَّأُ لها كَسْبُ النفقةِ لِاشتِغالِها بالإرضاعِ [تَجوعُ]، وتَهلِكُ، ويذهَبُ لَبَنُها، فيَبطُلُ الرَّضاعُ[8] وإذا كانَ إيجابُ الرَّضاعِ عليها يُسقِطُ [عنهُ][9] مِنْ حيثُ يُرادُ جُعلُ النَّفَقَةِ، أسقَطْناهُ[10] عنها، وجعَلْنا مِلْكَ اللبَنِ [لها][11] لِتأخُذَ الأجرَ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: الولدان. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: ثم.
(٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: فأسقطناه.
(١١) ساقطة من الأصل وم.

[والخامسُ][1]: في هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ الأجرَ إنما يَجبُ بعدَ استيفاءِ المَنافعِ، فإنهُ قالَ: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إنما أوجَبَ الإيتاءَ بعدَ الإرضاعِ.

[والسادسُ][2]: في قولِهِ: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإرضاعَ إنما هو بإجارةٍ قد سَبَقَتْ. لِذلكَ قالَ أصحابُنا: إنَّ الأُجرَةَ إنما تَجبُ عندَ استيفاءِ العَمَلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يقولَ: ﴿وَأْتَمِرُوا﴾ يعني تَشاوَرُوا في إرضاعِهِ إذا تعاسَرَتْ هي.

والثاني: ﴿وَأْتَمِرُوا﴾ أيِ اعْمَلوا بأمْرِ مَنْ جَعَلَ اللهُ تعالى إليه الأمرَ بالمعروفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يعني إذا تَنازَعْتُمْ في الرَّضاعِ، وأبَتِ الأمُّ أنْ تُرْضِعَهُ، فاطلُبوا أُخرَى، تُرْضِعُهُ عندَها.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي مَنْ وُسِّعَ عليهِ في الرِّزْقِ فَلْيُنْفِقْ نَفَقَةً واسعةً ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ يَعْني ضُيِّقَ عليهِ، و﴿قُدِرَ عَلَيْهِ﴾ ههنا بِمَعْنَى ضُيِّقَ عليهِ، وهو كما قالَ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي فظَنَّ أنْ لَنْ نُضَيِّقَ عليهِ، وكذلكَ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦ و . . .] يَعْني ويُضَيِّقُ عليهِ؛ أي مَنْ ضَيِّقَ عليهِ فَلْيُنْفِقْ نَفَقَةً صغيرةً. فذلكَ قولُهُ: ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فهو يدلُّ على أنَّ العبادَ ما اكْتَسَبوا مِنَ الأموالِ، فهي كلُّها ممّا آتاهُمُ اللهُ تعالى، وأنَّ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ وفي ما يَكْتَسِبونَهُ مِنَ الأموالِ صُنْعاً وتَدبيراً، لأنهُ لولا ذلكَ لكانَ يجوزُ أنْ يُكلِّفَهُمُ[3] اللهُ تعالى [بالنَّفقةِ][4] وإنْ لم يُؤْتِها لهمْ إذا كانَ في قُدرتِهِمْ[5] أنْ يَكْتَسِبوا[6] ممّا لم يُؤتِهِمُ[7] اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذا دليلٌ على أنهُ إذا عَجِزَ عن نَفَقةِ امرأتِهِ لم يُفَرَّقْ بينَها وبينَهُ، لأنهُ إذا فَرَّقَ بَيْنَهما لم تَصِلْ إلى زَوجٍ يُنْفِقُ عليها للحالِ، بل تَحْتاجُ فيهِ إلى انْقِضاءِ العِدَّةِ.

وقد يُتَوَهَّمُ في خِلالِ ذلكَ أنْ يُوسِرَ الزَّوجُ لأنَّ إنجازَ وَعْدِ اللهِ تعالى في اليَسارِ بَعْدَ العُسْرِ أقْرَبُ مِن قُدرَتِها [على الحصولِ][8] على زَوجٍ، يُنْفِقُ عليها. وليسَ هذهِ كالأمَةِ، لأنهُ إذا باعَ الأمَةَ دَخَلَتْ في مُلْكِ الآخَرِ، يُنْفِقُ عليها، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وَعْداً لِجميعِ الأُمَّةِ: أنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بالعُسْرِ يَتْبَعْهُ اليُسْرُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ خِطاباً لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ حينَ كانوا في عُسْرٍ وضِيقِ عَيشٍ، فَوَعَدَهُمُ اللهُ بعدَ ذلكَ العُسْرِ الذي كانوا فيهِ يُسْراً.

وقد أنْجَزَ اللهُ تعالى الوَعْدَ حيثُ فَتَحَ لهمُ الفُتوحَ، ونَصَرَهُمْ على أعدائِهِمْ، وغَنِموا أموالَهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ وَصَفَ اللهُ تعالى القَريةَ بالعُتُوِّ. ومَعْلومٌ أنها لا تَعْتُو، ولكنَّ المرادَ منهُ أنْ عَتا أهلُها عن أمرِ ربِّهِمْ.

وقد يجوزُ أنْ يُكَنَّى بالمكانِ عنِ الأهلِ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] يعني اسْألْ أهلَ القَريةِ. وفي هذا دلالةٌ أنَّ ما خَرَجَ مَخرَجَ الكنايةِ في الحقيقةِ لم يكُنْ كَذِباً، وإنْ كانَ في ظاهرِهِ تَراءَى أنهُ كَذِبٌ.

ألا تَرَى قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾؟ [ص: ٢٣] ومَعْلومٌ أنهُ لم يكُنْ هناكَ نَعجاتٌ[9]، ولكنْ كِنايةٌ عنِ النساءِ، فَخَرَجَ على الصِّدْقِ في الحقيقةِ كِنايةً أنَّ هذا أخي لهُ تِسْعٌ وتِسعونَ امرأةً، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: يكلفه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قدرته. (٦) في الأصل وم: يكتسب. (٧) في الأصل وم: يؤته. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: نعجة.

والعُتُوُّ النِّهايةُ في الاِسْتِكْبارِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ لهُ أوجُهٌ مِنَ التأويلِ:

أحَدُها: يقول: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ أي بَلَغوا في الكُفْرِ والعُتُوِّ والاِسْتِكبارِ مَبْلَغاً صاروا مِنْ أهلِ الحسابِ الشديدِ والعذابِ المُنْكَرِ.

[والثاني][١]: يَجْعَلُ ما ذَكَرَ اللهُ تعالى مِنْ نُزولِ النِّقْمةِ بالأُمَمِ الماضيةِ لِعُتُوِّهِمْ واسْتِكبارِهِمْ حِساباً شديداً لهذهِ الأُمَّةِ لِيَتَذَكَّروا، ويَتَّعِظوا.

[والثالثُ][٢]: يكونُ مَعْناهُ: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ أي سَتُحاسَبُ حساباً شديداً في الآخِرةِ كما كانَ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] بِمَعْنَى: وإذْ يقولُ اللهُ، فكذلكَ الأوَّلُ، واللهُ أعلَمُ.

وَوَجْهُ نزولِ هذهِ الآياتِ أنْ يكونَ لهُ مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: تَخويفُ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ والكَفَرةِ مِنْ أهلِ مكةَ بما نَزَلَ بالأُمَمِ الخاليةِ حينَ تَرَكوا اتِّباعَ رُسُلِهِمْ والإيمانَ بهِمْ، واسْتَكْبَروا في أنفسِهِمْ، وعَتَوا، لكي يَنْتَهِيَ أهلُ قَرْيَتِهِ ﷺ عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الكُفْرِ والعُتُوِّ، ويَحْذَروا الوقوعَ فيهِ في حادثِ الأوقاتِ.

[والثاني][٣]: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ تَسْكيناً لِقَلْبِ رسولِ اللهِ ﷺ وتَهْويناً عليه في ما يَلْقَى مِنْ أمْرِ قومِهِ وعِصْيانِهِمْ وعُتُوِّهِمْ، ولِيُعْلَمَ ما لَقِيَتِ الرسلُ المُتَقَدِّمةُ مِنْ أُمَمِهِمْ حتى بَلَغَ كُفْرُهُمْ واسْتِكْبارُهُمُ المَبْلَغَ الذي وَقَعَ اليأسُ مِنْ إيمانِهِمْ حتى أنْزَلَ اللهُ تعالى بهِمْ ما أنْزَلَ مِنَ النِّقَمِ والعقوبةِ.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذهِ [الآياتُ][٤] مِحْنةً امْتَحَنَ بها رسولَهُ لِتُعْلَمَ شَفَقَتُهُ على أُمَّتِهِ في تركِ الدعاءِ / ٥٧٧ ـ ب/ عليهِمْ بالإهلاكِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي شِدَّةَ أمْرِها أو نِقْمةَ أمْرِها أوعُقوبةَ كُفْرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي عاقِبةُ عُتُوِّها خَساراً في الآخِرةِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي فاتَّقوا اللهَ يا مَنْ تَدْعونَ أنَّ [لَكُمْ ألباباً][٥] فاتَّقوهُ عنْ أنْ تَكْفُروا بِهِ وبِرسولِهِ.

وفيه دلالةٌ أنَّ خِطابَ اللهِ إنما يَتَناولُ العقلاءَ منهمْ، وأنَّ مَنْ لا عَقْلَ لهُ فلا خِطابَ عليهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿رَسُولًا﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما: أنْ يَجْعَلَ الذِّكْرَ والرسولَ [كلمةً واحدةً][٦]، فيقولَ ﴿أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ وهو الرسولُ. وإنما سَمّاهُ ذِكْراً لِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ شَرُفَ، وصارَ مذكوراً.

[والثاني][٧]: سَمّاهُ ذِكْراً لأنهُ يُذَكِّرُهُمُ الصالحَ والضارَّ وما يَرْجِعُ إلى دينِهِمْ وعُقْباهُمْ.

[والثاني][٨]: يجوزُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ، وقولُهُ تعالى: أنْ يقولَ: أنْزَلَ اللهُ إليكمْ رسولاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [بالخَفْضِ والنَّصْبِ][٩].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لهم لباً. (٦) في الأصل وم: وله واحداً. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: و. (٩) أدرج بعدها في الأصل وم: فمعناه أنها تبين الحلال والحرام والأمر والنهي، وأدرج بعد: والنصب: الآيات الأعلام والحجج، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٧٠.

فَمَنْ قَرَأَ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بالخفضِ فَمَعْنَاهُ أنها تُبيِّنُ الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنَّهيَ.

ومَنْ قَرَأَ بالنَّصْبِ فكأنهُ يريدُ أنَّ اللهَ تعالى أوضحَ آياتِهِ، وبيَّنَها، حتى إنَّ مَنْ تفكَّرَ فيها وفي جوهرِها عَلِمَ أنَّها مِنْ عندِ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وإذا كانَ هذا هكذا فَحَقُّ هذا الكلامِ أنْ يقولَ: لِيُخرجَ الذينَ آمنوا[1] مِنَ الظُّلماتِ إلى النورِ، ولكنْ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ لِيُخرجَ الذينَ يؤمنونَ على ما جازَ أنْ يُرادَ مِنَ الماضي المُستقبَلُ. كقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي وإذْ يقولُ اللهُ: يا عيسى ابنَ مريمَ جازَ، أنْ يُرادَ مِنَ المُستقبَلِ الماضي. وهذا سائغٌ في اللغةِ.

ويَحتمِلُ أنْ يقولَ: لِيُخرجَ الذينَ آمنوا مِنْ ظُلماتٍ، تَحدُثُ لهمْ بَعْدَ إيمانِهِمْ، إلى النورِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعْني الذينَ وحَّدوا اللهَ تعالى، وعظَّموهُ، وبجَّلوهُ [ونَزَّهوهُ][3] مِنْ مَعاني الشُّبَهِ، ووَصفوهُ بالتعالي عنِ العُيوبِ والآفاتِ، وعَمِلوا في إيمانِهِمْ صالحاً، إذْ[4] خافوهُ، ورَجَوهُ بإيمانِهِمْ؛ وذلكَ عَمَلُهُمُ الصالحُ في الإيمانِ، وذلكَ مَعْنى قولِهِ ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ومَعْنى ذلكَ الكَسْبِ مِنَ التَّعْظيمِ والتَّبجيلِ والرجاءِ والخَوفِ في نَفْسِ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في أداءِ الفرائضِ التي افْتَرَضَ اللهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي طاعة في الدنيا وثواباً في الآخِرَةِ. وذلكَ مَعْنى قولِهِ ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ مَنْ نالَ الإيمانَ فإنما نالَهُ بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، لأنهُ لولا ذلكَ[5] لم يكُنْ لِيَمُنَّ اللهُ تعالى عليهِ بذلكَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ اختلَفوا في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: منهمْ مَنْ قالَ: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ أي طِباقاً مِثْلَ السمواتِ: بعضها طَبَقاً فوقَ بعضٍ. وبعضُهُمْ مَنْ قالَ: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يَعْني سَبْعَ جَزائرَ على مِثْلِ ما قالَ: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧] فكذلكَ خلَقَ سَبْعَ جزائرَ. ومنهمْ مَنْ قالَ: خَلَقَ هذهِ الأرضَ التي نُشاهِدُها على حَدِّ السَّماءِ ومِقْدارِها، والسِّتُّ مِنْ وراءِ هذهِ السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وليسَ بِنا إلى تَعَرُّفِ ماهِيَتِها وكَيفِيَّتِها وعَدَدِها حاجةٌ لأنهُ ليسَ في تعريفِها حُكْمٌ يَتَعلَّقُ بِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ لهُ تأويلانِ:

أحدُهما: يَتَنزَّلُ الوَحْيُ بينَهُنَّ، وما يُنَزِّلُ اللهُ تعالى مِنَ الكتبِ والرسلِ بَيْنَهُنَّ. ومَعْناهُ أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ أمَّةَ محمدٍ ﷺ أنهمْ لم يُخَصُّوا بِمِحْنَةِ الرسلِ والكتبِ والوَحْيِ، بل كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ مُمْتَحَنٌ بذلكَ.

والثاني: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني التَّكوينَ. ووجهُ ذلكَ أنهُ لا يَخلو مكانٌ في السمواتِ والأرضِ في كلِّ وقتٍ مِنْ كونٍ، يُكَوِّنُهُ اللهُ تعالى، أو مُحدَثٍ يُحدِثُهُ، وذلكَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فَيجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ في قولِهِ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أمْرَ تكوينٍ. ومَعْناهُ ما وَصَفْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لكي تَعْلَموا إذا تَفَكَّرْتُمْ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما جَرى مِنَ التدبيرِ فيهما أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هذا المَبْلَغَ كانتْ قُدْرَتُهُ ذاتِيَّةً، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ عمّا أرادَهُ. أو يدلُّ هذا التَّدْبيرُ أنهُ خَرَجَ عنْ عالِمٍ، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يَحتمِلُ أوجهاً:

---

(١) في الأصل وم: كفروا. (٢) في الأصل وم: وقوله. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: هكذا.

أحَدُها: أنَّ اللهَ تعالى على خَلْقِ فِعْلِ كلِّ فاعلٍ مِنْ خَلائقِهِ قديرٌ. ووجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى قد كانَ أعْلَمَهُمْ بِخَلْقِ السمواتِ والأَرَضِينَ بقولِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ فلمّا قالَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لم يكُنْ بُدٌّ مِنْ أنْ يكونَ هذا في غَيرِ خَلْقِ السمواتِ والأَرَضِينَ. فَثَبَتَ أنَّ فيهِ دلالةَ قُدرَتِهِ على خَلْقِ فِعْلِ كلِّ مَخلوقٍ، لأنهُ لما بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ وتَدْبيرُهُ في السمواتِ والأَرَضِينَ معَ عِظَمِ أمْرِهِما وشأنِهِما ومعَ عَجْزِ البَشَرِ عنْ تدبيرِ مِثْلِهِما، فَلأَنْ تَبْلُغَ قُدْرَتُهُ في ما يَقَعُ فيهِ تدبيرُ البَشَرِ، وهو أفعالُهُمْ أحقُّ، واللهُ المستعانُ.

ووجْهٌ آخَرُ أنْ يقولَ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بِما وَعَدَ، وأوعَدَ، قديرٌ، أو على كلِّ شيءٍ مِنْ مَنافِعِ العبادِ ومَضارِّهِمْ قديرٌ.

وعلى قولِ [المعتزلةِ][1]: إنَّ اللهَ، لا يَقْدِرُ على فِعْلٍ بعوضةٍ فَما فوقَها، ولا يَقْدِرُ على إصلاحِ أحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وإنْ نَفَدَ جميعُ خزائنِهِ، وإنَّ مَنْ صَلَحَ فإنما يَصْلُحُ بنفسِهِ ومَنْ فَسَدَ [فإنما يَفْسُدُ][2] بنفسِهِ.

وهذا اخْتِلافُ ما وَصَفَهُ اللهُ تعالى بهِ نفسَهُ مِنْ أنهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ يَعْني أنَّ عِلْمَهُ، لا يَشُذُّ عَنْ شيءٍ، ولا يَخفَى عليهِ شيءٌ مِنَ الفِعْلِ والأمرِ وغَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل.

سورة التحريم

وهي مدنية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ هذا في الظاهرِ فَظيعٌ بأنْ يُحَرِّمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما أحلَّ اللهُ لهُ.

ومَنْ قالَ بأنهُ حَرَّمَ ما أحَلَّ اللهُ لهُ فقد قالَ أمْراً مُنْكَراً، ولوِ اعْتَقَدَ ذلكَ كانَ كُفْراً منهُ؛ إذْ مَنْ حَرَّمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى كانَ كافراً، ومَنْ كانَ اعْتِقادُهُ في رسولِ اللهِ ﷺ هذا، فهو كافرٌ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّتْ هذهِ الآيةُ /٥٧٨ ـ أ/ على أنْ ليسَ لأحدٍ أنْ يُحَرِّمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى، لأنَّ اللهَ تعالى مَنَعَ رسولَهُ عنْ ذلكَ.

لكنَّ الأمْرَ عندَنا ليسَ على ما ظَنَّهُ أبو بكرٍ ولا على [ما](٢) سَبَقَ إليهِ وَهْمُ بعضِ الجُهّالِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حَرَّمَ شيئاً، أحَلَّهُ اللهُ تعالى. ومَنْ تَوَهَّمَ هذا برسولِ اللهِ ﷺ فقد حَكَمَ على رسولِ اللهِ ﷺ بالكُفْرِ.

وتأويلُهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، على وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ تعالى، هو أنْ يَعْتَقِدَ تَحريمَ المُحَلَّلِ وتَحليلَ المُحَرَّمِ في ما حَرَّمَ اللهُ تعالى مُطْلَقاً. فَمَنِ اعْتَقَدَ تَحْريمَهُ حُكِمَ عليهِ بالكفرِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لم يَعْتَقِدْ تَحْريمَ ما أحَلَّ اللهُ؛ إذْ لم يَرَ جِماعَها عليه مُحَرَّماً، بلِ امْتَنَعَ عنِ الانْتِفاعِ بها باليَمينِ. والحُرْمَةُ التي تَثْبُتُ بسببِ اليَمينِ، لم تَكُنْ مِنْ فِعْلِ الآدَمِيِّ، وإنْ ثَبَتَتْ بِمُباشَرَةِ السببِ منهُ كالتحريمِ بالطلاقِ وبِغَيرِهِ مِنَ الأسبابِ؛ فإنما تَثْبُتُ مِنَ اللهِ تعالى عَقيبَ مُباشرةِ الأسبابِ مِنَ العبادِ وكسائرِ الأحكامِ كيفَ وإنهُ باليَمينِ لا تَثْبُتُ حُرْمَةُ نفسِ الفِعْلِ، وإنما المُحَرَّمُ مَنْ تَرَكَ تعظيمَ اللهِ تعالى الواجبَ بسببِ اليَمينِ. وهذا لا يُعَدُّ تحريمَ الحَلالِ وتَحليلَ الحَرامِ، [لو أرادَ](٣) بالتَّحْريمِ مَنْعَ النفسِ عنْ ذلكَ مَعَ اعْتِقادِهِ بكونِهِ حلالاً أنْ يكونَ قَصَدَ بهِ قَصْدَ تحريمِ عينِهِ.

وقد يَمْتَنِعُ المَرْءُ عنْ تَناوُلِ الحَلالِ لِغَرَضٍ لهُ في ذلكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢] ولم [يُرِدْ بهِ](٤) تَحْريمَ عينِهِ ولا التَّحْريمَ الشَّرْعِيَّ؛ إذِ الصَّبِيُّ ليسَ مِنْ أهلِهِ، وإنما أُريدَ بهِ امْتِناعُهُ مِنَ الارْتِضاعِ إلّا مِنْ ثَدْيِ أُمِّهِ. فَعَلى ذلكَ ههنا، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ نُدِبَ إلى حُسْنِ العِشْرَةِ مَعَ أزواجِهِ إلى الشَّفَقَةِ [عليهِنَّ]، فَبَلَغَ في حُسْنِ العِشْرَةِ والصُّحْبَةِ مَبْلَغاً، امْتَنَعَ(٥) عنِ الانْتِفاعِ بما أحَلَّ اللهُ لهُ، وأباحَ لهُ التَّلَذُّذَ بِهِ، يَبْتَغي بهِ حُسْنَ عِشْرَتِهِنَّ، ويَطْلُبُ بهِ مَرْضاتَهُنَّ.

فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ أي لا تَبْلُغَنَّ بكَ الشفقةُ عليهِنَّ وحُسْنُ العِشْرَةِ مَعَهُنَّ مَبْلَغاً، تَمْتَنِعُ عنِ الانْتِفاعِ بما أحَلَّ اللهُ لكَ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ تَخْفيفِ المَؤُونةِ على رسولِ اللهِ ﷺ في حُسْنِ العِشْرَةِ مَعَهُنَّ لا مُخْرَجَ النَّهْيِ

---

(١) من م، في الأصل: مكية. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أو أريد. (٤) في الأصل وم: ير. (٥) من م، في الأصل: ما أحل الله لك أي لا يبلغن بك الشفقة عليهن وحسن العشرة معهن مبلغ يمتنع.

والعِتابِ عنِ الزَّلَّةِ. وهو كقولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] [فرسولُ اللهِ ﷺ كانَ بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ على أولئكَ الذين تَخلَّفوا عنِ الإيمانِ مَبْلَغاً كادَتْ نفسَهُ تَهلِكُ فيها، فكانَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾][1] تَخفيفُ الأمرِ عليهِ.

وكذلكَ قولُهُ[2]: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] ليسَ في الحقيقةِ نَهْيٌ عنِ السخاءِ على النِّهايةِ، ولكنْ تَخفيفُ الأمرِ عليهِ أنْ ليسَ عليكَ الإسرافُ في السخاءِ والنهايةُ في ذلكَ بحيثُ لم تُبْقِ لِنَفْسِكَ وعِيالِكَ شيئاً، وتُؤْثِرُ غَيْرَكَ.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ خارجٌ مَخْرَجَ تَخفيفٍ عليهِ في حُسْنِ العِشْرَةِ لا مَخْرَجَ النَّهْيِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اختُلِفَ في سَبَبِ التَّحريمِ: [فمنهُمْ][3] مَنْ ذَكَرَ أنَّ حفصَةَ رضي الله عنها زارَتْ أهلَها، والنَّبِيُّ ﷺ في بيتِ حَفْصَةَ، فجاءَتْ أمُّ إبراهيمَ ماريةُ القِبْطِيَّةُ حتى دَخَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ فواقَعَها، فجاءَتْ حَفصةُ رضي الله عنها [وهما][4] نائمانِ، فَرَجَعَتْ إلى بيتِ أهلِها، فَمَكَثَتْ عامةَ الليلِ. وقالَتْ حَفصةُ في آخِرِ هذا الخبرِ: ما رأيتَ لي حُرْمَةً، وعَرَفْتَ لي حقّاً، فقالَ لها ﷺ: اكْتُمي عليَّ هذا، وهيَ عليَّ حرامٌ. فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

ومنهمْ مَنْ يَذْكُرُ [أنه][5] كانَ يومُ عائشةَ رضي الله عنها [فانْطَلَقَتْ حَفصةُ إلى عائشةَ، وأطْلَعَتْها على ما رأتْ][6] فَغَضِبَتْ عائشةُ رضي الله عنها، فلم تَزَلْ بِنَبِيِّ اللهِ حتى حَرَّمَها، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ.

[وقالَ عِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ هذهِ الآيةُ][7] في امرأةٍ يُقالُ لها: أمُّ شريكٍ ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ﷺ فلم يَقْبَلْ رسولُ اللهِ ﷺ طَلَباً مَرْضاةَ أزواجِهِ، فَنَزَلَتِ الآيةُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الذي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ كانَ عَسَلاً، كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَشربُهُ عندَ بعضِ النساءِ، فقالَتِ امرأةٌ مِنْ نسائِهِ لصاحِبَتِها: إذا جاءَكِ النَّبِيُّ ﷺ فقولي لهُ: ما ريحُ المَغافيرِ فيكَ؟ فقالَتْ لِلنَّبِيِّ، فَحَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ فنزلَتْ هذهِ الآيةُ.

وليسَ لنا إلى تَعَرُّفِ السببِ الذي وقَعَ التحريمُ بهِ ولا إلى تَعْيينِ الشيءِ الذي حَرَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ حاجةٌ. ولكنّا نَعْلَمُ أنَّ الأمرَ الذي كانَ؛ فهو جَرَى بَيْنَهُ وبَيْنَ زوجتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غَفورٌ لِما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ، لو كانَ، أو يكونُ، ﴿رَّحِيمٌ﴾ حينَ[8] لم يُعاقِبْكَ بما اجْتَرَأْتَ مِنَ الإقدامِ على اليمينِ لا بإذْنٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ لكَ فيهِ، أو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عليكَ وعلى [زَوجَتَيكَ إنْ تُبْتُمْ، ولم تَعودوا إلى صَنيعِكُمْ][9] أو ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بما خَفَّفَ عليكَ مِنْ مَؤونةِ العِشْرَةِ، ولم يَحْمِلْ عليكَ ما حَمَلْتَ على نفسِكَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [اختُلِفَ فيهِ أيضاً][10]: فمنهُمْ مَنْ يحملُ هذا على ابْتداءِ الخِطابِ، ويَصْرِفُ المُرادَ إلى غَيرِ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ غُفِرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ، فلم يكُنْ يَحتاجُ إلى التَّكفيرِ لإزالةِ المآثِمِ.

ولكنْ نحنُ نقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وإنْ كانَ هذا تَحِلَّةً، فهو وأُمَّتُهُ في أحكامِ الشرائعِ مأخوذونَ، ويكونُ على هذا مَغْفِرَةُ زَلّاتِهِ: ما تَقَدَّمَ [منها][11] وما تأخَّرَ بِمُباشَرَةِ أسبابِها مِنَ التوبةِ والكَفّارةِ ونَحْوِ ذلكَ. فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ مُنْصَرِفاً إلى النَّبِيِّ وأُمَّتِهِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ [اللهِ قَصَدَ][12] إلى التَّحريمِ؛ أعني مَنَعَ نفسَهُ عنِ الانْتِفاعِ بهذا معَ اعْتِقادِ الحِلِّ لا إلى اليمينِ، فَجَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ منهُ يَميناً، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ التَّحريمَ يَمينٌ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: قال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: فاطلعت حفصة على رسول الله ﷺ وجاريته مارية فأمرها رسول الله أن تكتم عليه فأخبرت حفصة بما رأت عائشة. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: زوجتك إن تابتا، ولم تعودا إلى صنيعهم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل.

ولهذا قالَ أصحابُنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: إنَّ مَنْ قالَ لِامرأتِه: أنتِ حَرامٌ عليَّ، ولا نِيَّةَ لهُ، فهو يَمينٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أفْصَحَ بالحَلْفِ، فَكَنَّى عنهُ باليَمينِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ على قراءةِ العامةِ. وفي بعضِ القراءاتِ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ كفّارةَ[1] ﴿أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

وَوَجهُ الفَرْضِ فيهِ أنَّ الأُمَمَ مِنْ قَبْلُ، لم يُؤْذَنْ لهمْ بالحِنْثِ في اليَمينِ، ولا أنْ يَحُلّوا منها بالكَفّارةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾؟ [ص: ٤٤] فلم يأذَنْ لهُ بالحِنْثِ، وأباحَ لهُ الضَّرْبَ، ثم أباحَ بهذهِ الآيةِ حِلَّ اليَمينِ بالحِنْثِ والكَفّارة، فَنَسَبَ الحِلَّ إلى الكَفّارةِ [مَرَّةً][2] ومَرَّةً إلى إحلالِها بِنَفْسِها مِنْ جِهَةِ الحِنْثِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي وَسَّعَ عليكُم، وأحَلَّ لكمْ ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

ففي هذا أنَّ كلَّ ما ذُكِرَ فيه: ﴿كُتِبَ لَهُم﴾ [التوبة: ١٢٠، و١٢١] أي فُرِضَ لكمْ فهو مَوضِعُ الإباحةِ والتَّوَسُّعِ وما ذُكِرَ ﴿عَلَيْكُمُ﴾ فهو على الإيجابِ والإلزامِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] وذلكَ كلُّهُ في مَوضِعِ الوجوبِ.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١] مَعْناهُ أباحَ لكُمُ الدخولَ فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولَى بكُمْ في ما امْتَحَنَكُمْ مِنَ الكَفّارةِ وغَيرِها، أو أولَى بكُمْ في نَصْرِكُمْ /٥٧٨ ـ ب/ والدَّفْعِ عنكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي العليمُ بِمَصالِحِكُمْ أو مَقاصِدِكُمْ، أو بما تُسِرّونَ وما تُعْلِنونَ، أو بما كانَ ويكونُ، الحكيمُ هو الذي لا يَلْحَقُهُ الخَطأُ في التَّدْبيرِ، أو حكيمٌ بما حَكَمَ عليكُمْ مِنْ تَحِلَّةِ الأيمانِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في قولِهِ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إلزامُ المُراقبةِ والمُحافَظةِ ودعائِهِ إلى التَّبَصُّرِ والتَّيَقُّظِ في كلِّ ما يَتَعاطاهُ المرءُ مِنَ الأفعالِ، ويأتي بهِ مِنَ الأقوالِ.

وفي قولِهِ: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ دعاءٌ إلى التَّسْليمِ بِحُكْمِ اللهِ تعالى؛ إذِ الحكيمُ لا يَحْكُمُ على أحدٍ إلّا بِما فيهِ حِكْمَةٌ وفائدةٌ، فَألزَمَهُ[3] تسليمَ النفسِ بِعِلْمِهِ[4] على وجهِ الحِكْمةِ فيهِ أو جَهْلِهِ.

ثم الأصلُ بَعْدَ هذا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُبيحَ لهُ نِكاحُ التِّسْعِ، وأُمِرَ بأنْ يُحْسِنَ صُحْبَتَهُنَّ، ويَبْتَغِيَ مَرضاتَهُنَّ. والمَرْءُ يَعْسُرُ عليهِ صُحْبةُ الأربعِ بِحُسْنِ العِشْرَةِ، ويَتَعَذَّرُ عليهِ القيامُ بِمَرْضاتِهِنَّ جميعاً، فيكفَ إذا امْتُحِنَ بِصُحْبَةِ التِّسْعِ؟

فَكانَتِ المِحْنَةُ على رسولِ اللهِ ﷺ في أمْرِ النساءِ أعْسَرَ منهُ على غَيرِهِ، وأُمِرَ مَعَ هذا أيضاً بِمعاملةِ الخَلْقِ مَعَ اخْتِلافِ هِمَمِهِمْ وأطوارِهِمْ بأحسَنِ المُعامَلةِ، ولكنَّ اللهَ تعالى لمّا امْتَحَنَهُ بما ذكَرْنا[5] آتاهُ مِنَ الأخلاقِ والشمائلِ المَرْضِيَّةِ ما خَفَّفَ بها عليهِ هذهِ المِحْنةَ، وسَهَّلَ عليهِ المُعاملةَ مَعَ الجُمْلةِ، وآتاهُ مِنَ القوةِ ما مَلَكَ بها حفظَ حقوقِهِنَّ وإرضاءَ جُمْلَتِهِنَّ حتى بَلَغَ في حُسْنِ العِشْرَةِ وابْتِغاءِ المَرضاةِ ما عُوتِبَ عليهِ، وبَلَغَ مِنْ جَهْدِهِ في الإسلامِ إلى أنْ [قالَ ﷺ][6]: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] وبَلَغَ في الشَّفَقةِ والرحمةِ على الأمةِ حتى [قالَ لهُ ﷺ][7]: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وكانَ مِنْ عظيمِ خُلُقِهِ بما جاوزَ خَلْقَهُ قُوَّةُ نفسِهِ [حتى كادَتْ][8] نفسُهُ تَهْلِكُ فيهِ، ثم في قيامِهِ ﷺ بوفاءِ حقوقِ التِّسْعِ وإرضائِهِنَّ دلالةُ نُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ، لأنَّ الناسَ إنما يَقْوَونَ على الجِماعِ بِما يُصيبونَ مِنَ الأطعمةِ والأغذيةِ، ثم هُمْ مَعَ إصابتِهِمْ

---

(١) انظر معجم القراءات ج٧/ ١٧٥. (٢) في الأصل وم: فلزمه. (٣) في الأصل وم: فلزمه. (٤) في الأصل وم: بحكمه. (٥) من م، في الأصل: ذكره. (٦) في الأصل وم: قيل. (٧) في الأصل وم: قيل له. (٨) في الأصل وم: فكادت.

فضولَ الأطعمةِ والأشياءَ اللذيذةَ يَفْتُرونَ عن إيفاءِ حقوقِهِنَّ. وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ آثَرَ الزُّهدَ في الدنيا وقِلَّةَ رغبَتِهِ في مطاعِمِها ومَشارِبِها، وكانَ معَ ذلكَ يَفي بحقوقِهِنَّ. فَعُلِمَ بهذا أنهُ إنما وَصَلَ إلى ما ذَكَرْنا بما قَوّاهُ اللهُ عليهِ، وأقْدَرَهُ، لا بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم أزواجُ رسولِ اللهِ ﷺ امْتُحِنَّ بالقيامِ بوفاءِ حقِّ رسولِ اللهِ ﷺ وأنْ يَنْظُرْنَ إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ، فكانتِ المِحْنَةُ عليهِنَّ أشَدَّ مِنَ المِحنَةِ على غيرِهِنَّ مِنَ النساءِ مع أزواجِهِنَّ، لأنَّ المرأةَ قَلَّما تَسْلَمُ مِن رفعِ صوتِها على صوتِ زوجِها، إذا لم تكُنْ لهُ امرأةٌ سواها. فكيفَ إذا كانَتْ معها أُخرى؟

ثم هنَّ لو رَفَعْنَ أصواتَهُنَّ على صوتِ رسولِ اللهِ أوجَبَ ذلكَ إحباطَ عَمَلِهِنَّ على ما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] فلا يجوزُ أنْ يُمْتَحَنَّ بهذهِ الكُلْفَةِ الشديدةِ والمحنةِ العظيمةِ إلّا بما شَرَحَ اللهُ صدورَهُنَّ ويفَسِّحِ قلوبَهُنَّ لإحتِمالِ ذلِكَ.

ثم المِحْنَةُ علينا بَعْدَ هذا أشَدُّ مِنَ المِحْنَتَيْنِ اللتَينِ ذَكَرْناهما لأنّا امْتُحِنّا بِمَعْرِفةِ ما تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ والإعْتِقادِ بذلكَ، وهي قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] فالذي علينا مِنَ المحنةِ أنْ نَصْرِفَ الأمْرَ على وَجْهٍ لا يَلْحَقُ برسولِ اللهِ ﷺ تَنَقُّصٌ، فَنَسْلَمَ مِنَ المؤاخذةِ.

فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى ما ذَكَرْنا مِنْ تَخْفيفِ الأمرِ على رسولِ اللهِ ﷺ فتكونَ الآيةُ في مَوضِعِ تَخْفيفِ الأمرِ عليه، ليسَ في مَوضِعِ النَّهْيِ، وإنْ خَرَجَتْ مَخْرَجَ النَّهْيِ في الظاهِرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ العِتابُ لِمكانِ ماريةَ [إنْ كانَتْ][1] قصةُ التحريمِ من أجلِها، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا أُذِنَ لهُ بإمساكِ ماريةَ، ولم يُنْدَبْ إلى تزويجِها لِتَصِلَ إلى قَضاءِ شَهْوَتِها مِنْ قِبَلِ الأزواجِ، فإنما يُتَوَصَّلُ إلى تَسكينِ شَهْوَتِها برسولِ اللهِ ﷺ ثم بِتَحْريمِها على نفسِهِ لم يُمْنَعْ عنها الحَقُّ؛ إذِ الأمةُ، لا حَظَّ لها في القَسْمِ، فَيَلْحَقُهُ العِتابُ مِنْ هذهِ الجهةِ.

ولكنْ لمّا كانَ لها فيهِ مَطْمَعٌ، وهو بالتَّحريمِ قَطَعَ طَمَعَها [قالَ لهُ ﷻ][2]: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] أي لِمَ تَمْنَعُ نفسَكَ عنْ قَضاءِ شَهْوَةٍ أباحَ اللهُ لها قَضاءَ تلكَ الشَّهْوَةِ، فيكونَ في العتابِ دعاءٌ لهُ إلى أنْ يَعْمَلَ بأخْيَرِ الوَجْهَينِ. وأخْيَرُهما أنْ يوصِلَها إلى ما طَمِعَتْ منهُ لا أنْ يَقْطَعَ طَمَعَها عنهُ، وإنْ لم يَكُنْ لها في ما طَمِعَتْ حَقٌّ، واللهُ أعلَمُ.

والمِحْنَةُ الثانيةُ علينا ألّا نَنْسُبَ إلى أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ ما تَكْرَهُ أنفسُنا نِسْبَةَ مِثْلِهِ إلى الأمهاتِ، لأنَّ لأزواجِهِ علينا حقَّ الأمهاتِ. فإنْ أمْكَنَنا أنْ نُخْرِجَ مِنْ أمْرِهِنَّ وجهاً، يَسْلَمُ [مِنْ][3] تَنَقُّصِهِنَّ، فَعَلْنا، وإلّا أمْسَكْنا عنْ ذِكْرِهِ خَشْيَةَ التَّنَقُّصِ وتَرْكِ التَّبجيلِ والتَّعظيمِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾؟ [النور: ١٢] وهكذا الواجبُ على كلِّ مؤمنٍ ألّا يَظُنَّ بأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ [وألّا يَرْضى][4] عنهنَّ إلّا خيراً، وألّا [يَنْظُرَ إليهِنَّ][5] إلّا بِعَينِ التَّعظيمِ، وقولِهِ[6] أيضاً: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؟ [النور: ١٦].

وإذا كانَ هذا حَقُّهُنَّ علينا فلا يَجِبُ أنْ نَذْكُرَ زَلَّتَهُنَّ: كانتْ كَيتَ وكَيتَ بما يُتَوَهَّمُ أنْ تكونَ زَلَّتُهُنَّ دونَ الذي خَطَرَ على بالِنا، فنكونَ قد أعْظَمْنا القولَ فيهِنَّ، فَيُصيبنا مِنْ ذلكَ عذابٌ عظيمٌ كما قالَ ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١].

ولِقائلٍ أنْ يقولَ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] مِنْ أيِّ وجهٍ صارَ بُهْتاناً عظيماً، ونساءُ رسولِ اللهِ ﷺ لم يَكُنَّ مَعْصوماتٍ، بل كانَ يُتَوَهَّمُ منهنَّ الصُّنْعُ الذي رُمِينَ بهِ؟

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: فقيل لها، في م: فقيل له. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ويرضى. (٥) من م، في الأصل: ينظرون. (٦) في الأصل وم: وقال.

فَجوابُهُ أنَّ أزواجَهُ كُنَّ بالمَحَلِّ الذي كُنَّ ابْتُلِينَ بِزَلَّةٍ سِرّاً وجَهْراً، أطْلَعَ اللهُ تعالى على ذلكَ نَبِيَّهُ ﷺ.

ألا تَرَى أنَّ إحداهنَّ لمّا أفْشَتْ سِرَّ رسولِ اللهِ ﷺ إلى أُخرَى أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ على ذلكَ؟ وإذا كانَ لا يَسْتُرُ عليهنَّ هذا القَدْرَ مِنَ الزَّلَّةِ فكيفَ يَسْتُرُ عليهنَّ فِعْلَ الزِّنَى منهُنَّ؟ فلو وُجِدَ مِنَ التي رُمِيَتْ فِعْلُ الزِّنى لكانَ يَسْبِقُ الإطلاعُ مِنَ اللهِ تعالى لرسولِهِ ﷺ قَبْلَ أنْ يَجْرِيَ بِهِ التَّحادُثُ على ألْسُنِ الخَلْقِ. فإذا لم يَسْبِقْ أوجَبَ ذلكَ المَعْنى براءةَ ساحتِها عمّا رُمِيَتْ بِهِ، وصارَ الرامي لها بِهِ قائلاً بالبُهْتانِ والزُّورِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ جوازِ العَمَلِ بالاجْتِهادِ لِرسولِ اللهِ ﷺ إلّا بإذنٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ تعالى: إذْ لو كانَ الإذْنُ سابقاً لَما عُوتِبَ عليهِ.

ثم قد ذَكَرْنا [أنهُ][1] لم يُعاتَبْ لِزَلَّةٍ ارْتَكَبَها حتى يكونَ فيهِ مَنْعٌ عنِ العَمَلِ بالاجْتِهادِ، وإنما عُوتِبَ لِمكانِ ما حَمَلَ على نفسِهِ مِنْ فَضْلِ المُؤْنَةِ في العِشْرَةِ.

ثم الأصلُ أنَّ الإماءَ، لا حَظَّ لهنَّ في القَسْمِ، وليسَ لهنَّ مِنَ الآثامِ ما يكونُ مِثْلُهُ في الحرائرِ حتى كانَ يُقْسِمُ لها، فَيُؤَدِّيَ فيهِ حقَّها. وقد أُذِنَ لهُ في إمساكِها وألّا يَتزوَّجَها، فلا يَجوزُ ألّا يُؤْمَرَ بِتَزْويجِها ثم هو لا يُسْكِنُ شَهْوَتَها، ثم هو إنما يَصِلُ إلى قَضاءِ وَطَرِها وتَسْكينِ / ٥٧٩ ـ أ/ شَهْوَتِها في نَوبَةِ ذلكَ اليومِ لِزَوجةٍ مِنْ زَوجاتِهِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أكْرَمَهُ أنْ يُسْكِنَ شَهْوَتَها، ويأتِيَها مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُهُ أزواجُهُ بذلكَ، ثم أطْلَعَ بعضَ نِسائِهِ على فِعْلِهِ لِيَعْلَمْنَ أنَّ المِحْنَةَ عليهِنَّ بَعدَ[2] العِلْمِ وقَبْلَ العِلْمِ واحدةٌ، وأنَّ عليهِنَّ أنْ يُعَظِّمْنَ رسولَ اللهِ ﷺ وألّا يَحْمِلْنَ العَنْوَةَ على الاسْتِقْبالِ لهُ بالمَكْرُوهِ والنَّظَرِ إليهِ بالتَّنَقُّصِ؛ إذْ لم يكُنْ عليهِنَّ في ما يأتي تلكَ الأمَةَ في أيامِهِنَّ تَقْصيرٌ في حَقِّهِنَّ؛ إذْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أُعْطِيَ مِنَ القُوَّةِ في الجِماعِ ما يَطوفُ على جُمْلَةِ نسائِهِ في ليلةٍ واحدةٍ.

وأمّا ما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ كَفَّ نفسَهُ عنْ شُرْبِ العَسَلِ، فذلكَ يَحْتَمِلُ أيضاً، ولكنْ ما ذُكِرَ مِنْ تحريمِ ماريةَ أمْكَنُ؛ لأنهُ لا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لِرسولِ اللهِ ﷺ في شُرْبِ العَسَلِ مِنَ الرغبةِ ما يُدْخِلُ على نسائِهِ المكروهَ لأجلِهِ، وجائزٌ أنْ يَلْحَقَهُنَّ في اسْتِمْتاعِهِ بأمَتِهِ مكروهٌ، فَيَحْمِلَهُنَّ ذلكَ على ما ذَكَرَ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [دَلَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾][3] أنهُ قد طَلَبَ منها إسرارَ ذلكَ الحديثِ الذي أسَرَّ إليها. وليسَ بنا حاجةٌ إلى تَعَرُّفِ الحديثِ الذي أسَرَّ إليها.

وفيهِ دلالةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنما عَلِمَ بإفشائِها سِرَّهُ إلى صاحِبَتِها باللهِ تعالى، وهو قولُهُ: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ فقولُهُ: ﴿عَرَّفَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[4].

فَمَنْ قرأهُ بالتَّشديدِ فهو على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عَرَّفَها بعضَ ما أنْبَأتْ مِنَ القِصَّةِ التي أسَرَّ إليها، ولم يُعَرِّفْها البعضَ، لأنهُ لم يكُنِ القَصْدُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُخْبِرَها بذلكَ النَّبَإِ الذي أسَرَّتْ [بهِ][5] إليها، وإنما كانَ المَقْصودُ منهُ تَنْبيهَها بما أظْهَرَتْ مِنَ السِّرِّ، وأفْشَتْ إلى صاحبتِها لِتَنْزَجِرَ عنِ المُعاوَدَةِ إلى مِثْلِهِ، والبعضُ مِنْ ذلكَ، يُعْلِمُها [بِهِ عما][6] يَعْلَمُ الكُلَّ، فلم يكُنْ إلى إظهارِ الكلِّ حاجةٌ.

وذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لها: ألم أقُلْ لكِ، وسَكَتَ عليهِ، وفي هذا آيةُ رسالتِهِ ومَنْعِهِنَّ عنْ إسرارِ ما يَحْتَشِمْنَ عنْ إبداءِ مِثْلِهِ لرسولِ اللهِ ﷺ فإنهنَّ، إنْ فَعَلْنَ ذلكَ، أظْهَرَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ ذلكَ، فَيَعْلَمُ ما يُسْرِرْنَ.

ومَنْ قرأ: عَرَفَ بالتَّخفيفِ فهو يَحْمِلُهُ على الجَزاءِ، فيقولُ: عَرَفَ بعضَهُ أنْ يَجْزِيَ عنْ بعضِ ما اسْتَوجَبَهُ بإفْشاءِ السِّرِّ،

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل: من. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٧٥. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما.

وأعْرَضَ عنْ بعضِ الجزاءِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: عَرَفَ حقِّي، فَعَرَفْتُ لهُ حَقَّهُ، أو عَرَفْتَ حقي، فَسَأعْرِفُ حقَّكَ، أي أقومُ بجزاءِ ذلكَ.

وذُكِرَ في الأخبارِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ طَلَّقَ حَفْصةَ تَطليقةً، ثم نَزَلَ جبرائيلُ ﷺ فقالَ لهُ: راجِعْها، فإنها صَوّامةٌ، وإنها لَزَوجَتُكَ في الجنةِ. فجائزٌ أنْ يكونَ طلاقُهُ إياها جزاءً لِبَعْضِ صَنيعِها.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَختارُ إحْدَى القِراءتَينِ على الأُخرَى، فَيَقْرأُ إحداهُما، ويَرْغَبُ عنِ الأُخرَى، وذلكَ ممّا لا يَحِلُّ لأنَّ الأمرَينِ جميعاً، قد وُجِدا، وهو الجزاءُ والتَّعريفُ، فَجَمَعَ اللهُ تعالى الأمْرَينِ جميعاً في آيةٍ واحدةٍ، وفَصَلَ بينَ الأمرينِ بالإعرابِ. فليسَ لأحدٍ أنْ يُؤثِرَ إحدَى القِراءتَينِ على الأُخرَى.

وهذا كقولِهِ تعالى في قصةِ موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ و: عَلِمْتُ[1] [الإسراء: ١٠٢] وقد عَلِمَ موسى ﷺ وعَلِمَ فرعونُ، فقد كانَ الأمرانِ جميعاً، فَجَمَعَ اللهُ تعالى بينَ الأمرينِ في آيةٍ واحدةٍ، فلا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَقْرأَ بأحدِ الوجهَينِ، ويَمْتَنِعَ عنِ الوجهِ الآخَرِ.

فكذلكَ هذا في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ و: ربُّنا باعَدَ[2] بينَ أسفارنا [سبإ: ١٩] فَمَنْ قَرَأَ: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ حَمَلَهُ على الدعاءِ، ومَنْ قَرَأَ: باعَدَ حَمَلَهُ على الإخبارِ، وقد كانَ الأمرانِ جميعاً: الدعاءُ والإخبارُ، فليسَ لأحدٍ أنْ يُؤثِرَ أحَدَهما على الآخَرِ، فَعَلَى ذلكَ الحُكمُ في قولِهِ: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ واللهُ أعلمُ.

وقد وَصَفْنا تأويلَ قولِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ثم فيهما ما يَدْعو الإنسانَ إلى المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ في هذه الآية دلالةٌ أنَّ الحديثَ الذي أُفْشِيَ كانَ بينَ زوجَتَينِ لِقولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ كانَ أسَرَّ النَّبيُّ ﷺ إلى إحداهُما، ومَنَعَها أنْ تُفْشِيَ إلى الأُخرَى، فأفْشَتْ.

لكنّا لا نَعْلَمُ أنَّ ذلكَ الحديثَ كانَ [ماذا؟ لكنهُ كانَ][3] منهما ما يُجَوِّزُ أنْ تُعاتَبا، وتُدْعَيا إلى التوبةِ لقولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وإنْ خَفِيَ علينا.

ثم إنْ عَرَفْنا أنَّ اللهَ جَعَلَ عقوبَتَهُنَّ وتأديبَهُنَّ أشَدَّ مِنَ العقوبةِ على غَيرِهِنَّ بقولِهِ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] فيجوزُ أنْ يُنْدَبْنَ إلى التوبةِ بأدْنَى زَلَّةٍ، حَقُّها التَّجاوُزُ عن غَيرِهِنَّ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِن﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الحذفُ، فيكونُ مَعْناهُ: تُوبا إلى اللهِ فقد صَغَتْ قلوبُكُما، ويوقَفُ عليهِ، ثم يُبْدَأُ بقولِهِ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَقُّهُ الإثباتَ، فلا يكونُ حرفُ ﴿إِن﴾ زيادةً، ويكونُ مَعْناهُ: إنْ تتوبا إلى اللهِ، وإلّا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيكونُ الجزاءُ فيهِ مضمراً.

وجائزٌ أنْ يكونَ جزاءُ صَنيعِهِنَّ أنْ يُطلِّقَهُنَّ، فكأنهُ قالَ: إنْ تَتوبا إلى اللهِ وإلا طَلَّقَكُنَّ، فيكونُ في هذا أنهُ حَبَّبَ رسولَ اللهِ ﷺ إليهِنَّ حتى اشْتَدَّ عليهِنَّ الطلاقُ، وخَرَجَ الطلاقُ مَخْرَجَ العقوبةِ لهنَّ على صَنيعِهِنَّ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالَتْ عنِ الحقِّ الذي لرسولِ اللهِ ﷺ عليكما، وحَقُّ الرسولِ ﷺ حقٌّ عظيمٌ، يَرِدُ فيهِ العِتابُ بأدْنَى تَقْصيرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ هذا في الظاهرِ مُعاتَبةٌ، فَيَنْبَغي أنْ يُذْكَرَ على المُخاطبةِ، فيُقالَ: إنْ تظاهَرْتُما عليهِ كما قالَ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قيلَ: جائزٌ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تابَتا، ورجَعَتا على إرادةِ المُعاتَبةِ، وإنْ كانَ اللفظُ لَفْظَ المُخاطبةِ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٣/ ٣٤٠. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٥/ ١٥٥. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

ولكنَّ الصحيحَ أنَّ قولَهُ: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ على المُخاطبةِ، مَعْناهُ: وإنْ تَتَظاهرا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ حقٌّ هذا أنْ نَقِفَ عليهِ، ثم نقولَ: ﴿وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ حتى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ غيرَ اللهِ مَولاهُ.

ثم ذِكْرُ هذا أبْلَغُ[1] في التَّهْويلِ، وإلّا كانَ[2] مِنْ هؤلاءِ المذكورينَ يَكْفي لأزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ وكذلكَ في ذِكْرِ عقوبَتِهِنَّ، إذا وَجَدَ منهنَّ الخِلافَ بقولِهِ: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾.

والأصلُ أنَّ المُبالَغَةَ في التَّأديبِ ممّا يُعينُ المُؤدَّبَ على حِفْظِ الحُدودِ. وكذلكَ المُجاوزةُ في حَدِّ العقوبةِ مَعونةٌ لهُ في تأديبِ النفسِ حتى يَمْلِكَ حِفْظَ نفسِهِ عمّا تدعو إليه نفسُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ قيلَ: أبو بكرٍ وعُمَرُ ﵄ وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا طَلَّقَ حَفْصةَ دخَلَ عليها عُمَرُ ﵁ فقالَ: لو عَلِمَ اللهُ تعالى في آلِ عُمَرَ خَيراً ما طَلَّقَكِ رسولُ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ جِبْريلُ ﵇ /٥٧٩ ـ ب/ على رسولِ اللهِ ﷺ يأمُرُهُ بِمُراجَعَتِها، وذكَرَ أنها صَوّامةٌ قَوّامةٌ. فجائزٌ أنْ تكونَ حَفْصةُ ﵂ تصومُ النهارَ، وتقومُ الليلَ في غَيرِ نَوبَتِها، فلا يَعْلَمُ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فأطْلَعَهُ جبريلُ ﵇ على ذلكَ.

ورُوِيَ عن أبي أُمامةَ ﵁ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ أبو بكرٍ وعُمَرُ ﵄ وقيلَ: هُمُ الأنبياءُ والرسُلُ ﵈.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ مَنْ لم يُسِرَّ نِفاقاً، ولا أظْهَرَ فِسْقاً، ثم خَصَّ مِنَ المؤمنِينَ الصالِحينَ منهمْ، ولم يَعُمَّ جُمْلَةَ المؤمنِينَ.

فهذا، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ لو ذَكَرَ المؤمنِينَ على الإجمالِ لَدَخلَتْ فيهِ الزَّوجتانِ اللَّتانِ تظاهَرَتا، لأنَّ إصغاءَ القلبِ، لا يُخرِجُهُما عنْ أنْ تكونا مِنْ جملةِ المؤمنينَ، ولأنهُ ذَكَرَ هذا في مَوضِعِ المَعونةِ في أمرِ الدينِ ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ هُمُ الذينَ يقومونَ بالمَعوناتِ في أمْرِ الدينِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ وعلى قولِ المعتزلةِ: لا يَمْلِكُ أنْ يُبْدِلَ خَيراً منهنَّ؛ إذْ لا يَقْدِرُ على أنْ يَجْعَلَ في أحدٍ خَيراً على قولِهِمْ، ولا يَمْلِكُ أنْ يُبْدِلَهُ أزواجاً لأنهُ لا يَقْدِرُ على زَعْمِهِمْ على أنْ يَجْعَلَ واحدةً[3] مِنَ النِّسْوانِ زَوجةً لأحدٍ [مِنَ الرجالِ][4] وإنما المَشيئةُ والاختيارُ إلى المُتَزَوِّجِ والمُتَزَوِّجةِ، والفِعْلُ منهما.

وعلى قولِنا: يَمْلِكُ أنْ يَجْعَلَ الخَيرَ لِمَنْ شاءَ، ولهُ أنْ يَجْعَلَ مِنَ النِّسْوانِ زوجةً لِمَنْ شاءَ مِنَ الرجالِ.

فهذه الآيةُ تَشْهَدُ بالصدقِ لِمَقالَتِنا، وتَرُدُّ على المعتزلةِ قولَهُمْ لأنهُ جَعَلَ الإبدالَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿يُبۡدِلَهُۥٓ﴾ وعلى قولِهِمْ: لا يَمْلِكُ أنْ يَفِيَ بما وَعَدَ.

ثم في هذهِ الآيةِ إباحةُ الإبدالِ وإباحةُ الطلاقِ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وفي قولِهِ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢] حَظْرُ الإبدالِ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ مُقدَّماً، وقولُهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ مُتأخِّراً، فيصيرَ ما تَقَدَّمَ مَنسوخاً بهذهِ الآيةِ، والذي[5] يدلُّ على صِحَّةِ هذا ما رُوِيَ عن عائشةَ ﵂ أنها قالَتْ: ما خَرَجَ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدنيا حتى أُحِلَّتْ لهُ النساءُ، فَثَبَتَ أنَّ الحَظْرَ، كانَ مُتَقَدِّماً.

ثم وَرَدَتِ الإباحةُ مِنْ بَعْدُ، فَحُمِلَ الإبدالُ[6] على التَّناسُخِ لِيَرْتَفِعَ التَّناقُضُ مِنْ بينِهِما.

وجائزٌ أنْ يكونَ حُظِرَ عليهِ الإبدالُ إذا قَصَدَ بالطلاقِ قَصْدَ الإبدالِ بما أعْجَبَهُ مِنَ الحُسْنِ كما قالَ: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ

---

(١) في الأصل وم: إبلاغ. (٢) في الأصل وم: قالوا. (٣) في الأصل وم: أحداً. (٤) في الأصل: من ، ساقطة من الأصل. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: الإيثار.

حُسْنُهُنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٢] فإذا كانَ قَصْدُهُ مِنَ الطلاقِ الإبدالَ كانَ ذلكَ محظوراً عليهِ، وإنْ لم يَقْصِدْ بالطلاقِ قَصْدَ الإبدالِ، ولكنْ يَقْصِدُ بهِ قَصْدَ المُجازاةِ لِلْخِلافِ الذي ظَهَرَ، أُبيحَ لهُ ذلكَ بقولِهِ[1] تعالى: ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا﴾ مِنَ المُطلَّقةِ، وهو ليسَ يَقْصِدُ بالطلاقِ في قولِهِ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ قَصْدَ الإبدالِ. وإذا كانَ كذلكَ سَلِمَتِ الآيتانِ مِنَ التّناقُضِ.

وذُكِرَ عنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أنهُ سُئِلَ، فقيلَ: أكانَ يَحِلُّ لرسولِ اللهِ ﷺ إبدالُ امْرأةٍ بامْرأةٍ؟ فقالَ: بَلَى، فَسُئِلَ عنْ قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٢] فقالَ: هذا مُنْصَرِفٌ إلى مَنْ هُنَّ مِنْ وراءِ المُسَمَّياتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ [ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ][2] وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ذَكَرَ بناتِ العمِّ وبناتِ الخالِ والأجنبيّاتِ، وحَظَرَ عليهِ مَنْ سِواهُنَّ مِنَ المَحارمِ، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد كانَ حُظِرَ عليه تَزَوُّجُ[3] مَحارِمِهِ مِنْ ذَوي الرَّحِمِ كما حُظِرَ على غَيرِهِ؛ إذْ هو مَوضِعُ الإشكالِ: أنهُ لمّا حَلَّ لهُ زيادةٌ على الأربعِ يَحِلُّ لهُ ذواتُ الأرحامِ مِنَ المَحارمِ، فأزالَ الإشكالَ بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ جائزٌ أنْ يكنَّ خيراً منهنَّ لِلرّسولِ ﷺ لا أنْ يكُنَّ خيراً في أنفسِهِنَّ لأنهُ قالَ: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

ألا تَرَى إلى ما ذُكِرَ أن جبريلَ ﷺ قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: راجِعْ حَفْصةَ فإنها صَوّامةٌ قَوّامةٌ؟

والذي يدلُّ على هذا أيضاً قولُهُ تعالى: في آخرِ هذهِ الآيةِ: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وقد وُجِدَتْ هاتانِ الصِّفَتانِ في أزواجِهِ، فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يَكُنَّ خيراً منهنَّ أيضاً في أنفسِهِنَّ مِنْ حيثُ الجمالُ أو النَّسَبُ ونَحْوُ ذلكَ، أو يَصِرْنَ خَيراً منهنَّ لِما يَتْرُكْنَ الخِلافَ لرسولِ اللهِ ﷺ ولا يَتَظاهَرْنَ عليهِ، ويَكُنَّ هؤلاءِ دونَهُنَّ إذا الْتَزَمْنَ الخِلافَ، ودُمْنَ على التظاهُرِ. فأمّا إذا أمْسَكْنَ عنِ الخِلافِ، وتُبْنَ عمّا سَبَقَ مِنَ الخِلافِ فهنَّ وغيرُهُنَّ بِمَحَلٍّ واحدٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ قد بَيَّنّا أنَّ كلَّ مُسْلِمٍ مُؤمِنٌ في التَّحْصيلِ، لأنَّ مَعْنَى الإسلامِ والإيمانِ واحدٌ؛ إذِ الإسلامُ هو أنْ تَجْعَلَ لِلّهِ تعالى الأشياءَ كلَّها خالصةً سالمةً، لا تُشْرِكُ فيها غَيرَهُ. والإيمانُ التَّصديقُ، وهو أنْ تُصَدِّقَ أنَّ اللهَ تعالى ربُّ كلِّ شيءٍ، وإذا صَدَّقْتَ أنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ فقد جَعَلْتَ الأشياءَ كلَّها لهُ سالمةً، أو تُصَدِّقَ كُلّاً بما يَشْهَدُ للهِ تعالى بالربوبيّةِ بِجَوهرِهِ. فَثَبَتَ أنَّ كلَّ واحدٍ منا يَقْتَضي ما يَقْتَضيهِ الآخَرُ مِنَ المَعْنَى. فإذا ذُكِرَ أحَدُهما بالإفرادِ ففي ذِكْرِهِ ذِكْرُ الآخَرِ، وإذا جُمِعا في الذكرِ صُرِفَ هذا إلى وَجْهٍ [وهذا إلى وَجْهٍ][4] وهكذا كما ذَكَرْنا في التَّقْوَى أنهُ يَقْتَضي مَعْنَى الإحسانِ إذا ذُكِرَ مُفْرَداً، لأنَّ التَّقْوَى هو أنْ يُتَّقَى مِنَ المَهالكِ، والاِتِّقاءُ مِنَ المَهالكِ يَقَعُ باكْتِسابِ المَحاسِنِ، وإذا ذُكِرا معاً صُرِفَ التَّقْوَى [إلى الاِتِّقاءِ مِنَ الكُفْرِ][5] والإحسانُ إلى فِعْلِ الخيراتِ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يُؤمِنُ مَنْ لم يأمَنْ جارُهُ بَوائِقَهُ» [البخاري ٦٠١٦] وقالَ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الناسُ مِنْ لسانِهِ ويَدِهِ» [البخاري ١٠] فَصُرِفَ هذا إلى وَجْهٍ [وهذا إلى وَجْهٍ][6] وهما في التَّحْصيلِ واحدٌ، لأنهمْ إذا أَمِنوا بوائقَهُ فقد سَلِموا مِنْ لسانِهِ ويدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ قيلَ: مُطيعاتٍ، وقيلَ: القائماتُ بالليالي للصلاةِ، وهذا أشْبَهُ، لأنهُ ذَكَرَ السائحاتِ بَعدَ هذا، والسائحاتُ الصائماتُ، وذَكَرَ الصيامَ بالنهارِ، فيكونُ تأويلُ القانتاتِ راجعاً إلى قيامِ الليلِ ليكونَ فيهِ إحياءُ الليلِ والنهارِ بالعبادةِ. ولذلكَ قالَ جبريلُ، صلواتُ اللهِ تعالى عليه، وسلَّم، في وَصْفِ حَفْصةَ ﷺ: إنها صَوّامةٌ قَوّامةٌ، أي صَوّامةٌ بالنهارِ وقوّامةٌ بالليلِ.

---

(١) في الأصل وم: ثم الله. (٢) في الأصل وم: إلى قوله. (٣) في الأصل وم: تزويج. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: الاتقاء الكفر. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وذُكِرَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عن أفضلِ الأعمالِ، فقالَ: «طولُ القُنوتِ» [مسلم ٧٥٦/ ١٦٥] وهو القِيامُ بالليلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ هذهِ اللاتي لا يُصِرْرنَ على الذنبِ، بل يَفْزَعْنَ إلى اللهِ تعالى بالتوبةِ والتّضرُّعِ إذا ابْتُلِينَ بالخَطيئةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ أنَّ العابدَ لا يُسَمَّى عابداً حتى يَتَطوَّعَ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنهنَّ يَقُمْنَ بأداءِ الفَرائضِ، ويَتَطوَّعْنَ معَ ذلكَ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ: كلُّ عبادةٍ في القرآنِ فهو توحيدٌ، والعابداتُ المُوَحِّداتُ. فالمُوَحِّدُ هو الذي يُصَدِّقُ أنَّ خالقَ الخَلْقِ كلِّهِ واحدٌ، لا شريكَ لهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ العابدُ مُوَحِّداً لأنهُ يَعْمَلُ للهِ خالصاً، لا يُشْرِكُ في عبادتِهِ أحداً، فيكونُ فيها مَعْنَى التَّوحيدِ / ٥٨٠ ـ أ/ لكنْ مِنْ حيثُ الفِعْلُ. فيكونُ أحدُ التوحيدَينِ: بالقَبولِ، والثاني: بالمُعامَلةِ والفِعْلِ. وقيلَ: العابدُ هو الذي يُؤدّي الفَرائِضَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ هو الذي يَسيحُ في الأرضِ بِغَيرِ زادٍ، فَسُمّي الصائمَ سائحاً لِما كَفَّ نفسَهُ عنِ التّناوُلِ مِنَ الزادِ. فقولُهُ: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي صائماتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لم يُرِدْ بهذا أنْ يُنْشِئَ نِسْوَةً أبكاراً وثَيِّباتٍ، ولكنَّ مَعْناهُ أنْ يُبْدِلَهُ مَنْ كُنَّ بهذا الوَصْفِ.

ثم جَمَعَ بينَ الثَّيِّباتِ والأبكارِ لأنَّ الثَّيِّباتِ ممّا تَقِلُّ رغبةُ الخَلْقِ فيهنَّ، ويَنْفُرُ عنهُ الطَّبْعُ، فَجَمَعَ بَينَهما في مَوضِعِ الامْتِنانِ على الرسولِ ﷺ لئلا يَصْرِفوا كلَّ الرغبةِ إلى الأبكارِ، بل يَتَزوَّجوا الثَّيِّباتِ كما يَتَزوَّجونَ الأبكارَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْناهُ: قُوا أنفسَكُمْ في ما تَدْعو أنفسُكُمْ إليهِ، لأنَّ الأنفسَ تَأمُرُهُمْ بالسُّوءِ، وتَدْعوهُمْ إليهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ أي قُوها عنِ الطريقِ الذي إذا سَلَكْتُموهُ أفضَى بكُمْ إلى النارِ، وقُوا أهليكُمْ أيضاً عنْ ذلكَ الطريقِ، وذلكَ يكونُ بالعملِ لأنَّ العَمَلَ على ضَرْبَينِ: عَمَلٌ يُفْضي بصاحبِهِ إلى الجنةِ، وعَمَلٌ يُفْضي بِهِ إلى النارِ، فيكونُ التَّقْوى في هذا الوَجْهِ راجعاً إلى الأعمالِ، وفي الوَجْهِ الأوّلِ إلى الأنفسِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ باكْتِسابِ الأسبابِ التي هي أسبابُ النجاةِ مِنَ العَطَبِ والهَلاكِ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ في أنْ تُعَلِّموهُمُ الأسبابَ التي هي أسبابُ الخَلاصِ مِنَ النارِ.

وقالَ مجاهدٌ: تأويلُهُ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ولْيَتَّقِ أهلوكُمْ، النارَ.

ثم عَلِمْنا وجْهَ الاتِّقاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] قالَ: منّا التَّضَرُّعُ إليهِ والفَزَعُ لَدَيهِ ليكونَ هو بِفَضْلِهِ يَقي عنا النارَ لِما عُلِمَ أنها لا تَصِلُ إلينا بِقِوَى أنفسِنا وحِيَلِنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فهذا على المُبالغةِ في وصفِ شِدّةِ النارِ.

وأخبَرَ أنَّ شِدّتَها، تَنْتَهي إلى هذا؛ في أنْ صَيَّرَ الناسَ وَقوداً، وكذلكَ الحجارةُ، والناسُ والحجارةُ لا يَنْفَدانِ في النارِ، لأنَّ النارَ إذا عَمِلَتْ في الإنسانِ حَرَقَتْهُ، ولم تُنْفِذْهُ، فلا يَصيرُ وقوداً، وكذلكَ إذا أصابَتِ الحجارةَ رَضَّتْها، ولَشَّتْها، فيكونُ فيهِ تَبيينُ شِدَّتِها إبلاغاً في الزَّجْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالحجارةِ التي اتَّخذوها أصناماً، يَعْبُدونَها مِنْ دونِ اللهِ، فكانوا يَعْبُدونَها لِتَنْصُرَهُمْ، وتَدْفَعَ عنهمُ العذابَ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١و٨٢] أي يَصيرُ عذاباً عليهِمْ، وهُمْ رَجَوا أنْ يكونَ سَبَباً لِخَلاصِهِمْ، فَصارَتْ عليهمْ ضِداً.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا وصفَهُمْ أنهمْ خُلِقوا غِلاظاً شِداداً، وجائزٌ أنْ يكونوا أشِدّاءَ على الكفارِ وأعداءِ اللهِ تعالى رُحَماءَ على أوليائِهِ.

ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؟ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] تتبيّنْ[1] أنّ اسْتِدادَهُمْ بِمكانِ الأمرِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وصَفَهُمْ بالشِّدّةِ على الكفارِ وبالرحمةِ على المؤمنينَ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الملائكةُ كذلكَ في الآخِرةِ، وهذا دلالةُ أنّ الملائكةَ امْتُحِنوا بالأمرِ والنّهْيِ في الآخِرةِ، لأنّ ملائكةَ الرحمةِ امْتُحِنوا بإيتاءِ التُّحَفِ والكَراماتِ إلى أهلِ الجنةِ، وملائكةَ العذابِ امْتُحِنوا بِتَعذيبِ أهلِ النارِ بالغِلْظَةِ عليهِمْ والشِّدّةِ، وإذا أُمِرَ كلٌّ مِنَ الفريقَينِ بما ذَكَرْنا فقد نُهِيَ عنْ تَرْكِهِ.

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ لم يَذْكُرِ اللهُ تعالى أهلَ الصلاةِ ولا ألْحَقَ بهمُ الوَعيدَ؛ فهمْ يَقْطعونَ الوعيدَ عَمّنْ ألْحَقَ اللهُ تعالى بهمُ الوعيدَ، وهُمُ المؤمنونَ، ويُلْزِمونَهُ على مَنْ لم يَجْرِ ذِكْرُهُ في القرآنِ، ولا أُلْحِقَ بِهِ الوعيدُ. وهذا تَحريفُ الكتابِ وقَلْبُ القصةِ.

ولأنهُ صارَ مِنْ أهلِ الصلاةِ بإيمانِهِ، إذْ لولا إيمانُهُ لَمَا كانَ هو مِنْ أهلِ الصلاةِ. [ولَما ألْحَقوا الوعيدَ بأهلِ الصلاةِ][2] فقد ألْحَقوهُ بأهلِ الإيمانِ، فلم يَبْقَ بَينَنا وبَينَهُمْ إلّا سُوءُ الخُلُقِ، وإلّا فلا مَعْنَى لِقَلْبِهِ عن أهلِ الإيمانِ وإلحاقِهِ بأهلِ الصلاةِ، وأهلُ الصلاةِ، همْ أهلُ الإيمانِ.

ثم الوعيدُ على قولِهِمْ إنما يَلْزَمُ أهلَ الإيمانِ في وقْتِ خُروجِهِمْ مِنَ الإيمانِ، ونحنُ نقولُ في الوَعيدِ المذكورِ في أهلِ الإيمانِ: إنهُ يجوزُ أنْ يَلْحَقَهُمْ وقتَ إيمانِهِمْ، بل يُعَذِّبُهُمُ اللهُ تعالى بإجرامِهِمْ، ويَحْتَمِلُ أنْ يَقَعَ لهمُ الوعيدُ إذا خَرَجوا مِنَ الإيمانِ، وهُمْ يَقْطعونَ الوعيدَ مِنْ أحدِ الوجهَينِ، ويَجْعَلونَهُ على الوَجْهِ الآخَرِ. ونحنُ نُلْزِمُهُمُ الوعيدَ إذا خَرَجوا مِنَ الإيمانِ، ولا يُبْقَى الوعيدُ على مَنْ لم يَخْرُجْ بَعدُ مِنْ إيمانِهِ. فَصِرْنا نحنُ أشَدَّ اسْتِعمالاً لِما يَقْتَضيهِ ظاهرُ الآياتِ منهمْ، فصارَ العُمومُ حُجّةً عليهِم، لا علَينا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ ليسَ في هذا نَفْيُ قَبولِ العُذْرِ، لو كانَ لهمْ عُذْرٌ. ولكنّ اعْتِذارَهُمْ، هو الندمُ عما كانوا فيهِ والإنابةُ إلى اللهِ تعالى والتوبةُ إليهِ. وليسَ ذلكَ وقتَ قَبولِ التوبةِ، لأنّ ذلكَ الوقتَ هو وقتُ خُروجِ مُلْكِ أنفسِهِمْ عنْ أنفسِهِمْ، فلا يُقْبَلُ في ذلكَ الوقتِ إيمانٌ ولا عَمَلٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْني أنّ عَمَلَكُمُ السُّوءَ هو الذي ألْزَمَكُمُ العذابَ في الحكمةِ، فَتُجْزَوْنَ بِعَمَلِكُمْ، ولَسْتُمْ تُجزَونَ لِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إلينا أو بما حَمَلْتُمْ مِنْ أوزارِ الغَيرِ، ولكنْ بأعمالِكُمُ الخَبيثةِ التي في الحكمةِ التّعذيبُ عليها. وفي هذا دلالةُ نَفْيِ العذابِ عنْ أطفالِ المشركينَ، لأنهُ لم يوجَدْ منهمْ عَمَلٌ، فَيُجْزَوا بِعَمَلِهِمْ، ولا يجوزُ أنْ يُعَذَّبوا بذنوبِ آبائِهِمْ لأنهُ أخبَرَ أنّ كُلّاً يُجزَى بِعَمَلِهِ لا بِعَمَلِ غَيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ ففي هذهِ الآيةِ إلزامُ التوبةِ على بَقاءِ اسْمِ الإيمانِ، لأنهُ ألْزَمَهُمُ التوبةَ بَعدَ أنْ سَمّاهُمْ مؤمنِينَ.

وأخبَرَ أنهُ يُكَفِّرُ عنهمْ سَيِّئاتِهِمْ بالتوبةِ.

ومَذْهَبُ الاعْتِزالِ أنّ الصغائرَ مَغْفورةٌ لأربابِها إذا اجْتَنَبوا الكبائرَ، فلا يَحتاجونَ إلى التوبةِ عنها.

فإذا كانَ كذلكَ فالآيةُ في الكبائرِ عندَهُمْ، والكبائرُ يَخْرُجُ أهلُها على قولِهِمْ مِنَ الإيمانِ، واللهُ تعالى[3] قد أبْقَى لهمُ اسْمَ الإيمانِ. فَمَنْ أزالَ عنهمُ الاسْمَ فقد خالَفَ نَصَّ القرآنِ، وإنْ زَعموا أنّ الآيةَ في الصغائرِ ففيهِ دلالةٌ على أنّ للهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ، وأنها غَيرُ مَغْفورةٍ حتى وقَعَتْ لهمُ الحاجةُ إلى التوبةِ وطَلَبِ المَغْفِرةِ.

---

(١) في الأصل وم: فبين. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: أعلم.

وقالَ أيضاً في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فأمّا أنْ يكونوا أُمِروا بالتوبةِ عنِ الصغائرِ فيكونُ فيهِ دلالةٌ بَقائِهِمْ على الإيمانِ، وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩] / ٥٨٠ ـ ب/ وإنْ كانَ استِغْفارُهُ هذا على الصغائرِ ففيهِ دلالةٌ أنها مَغْفورةٌ لِحاجَتِهِ إلى طَلَبِ المَغْفِرَةِ.

ولو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّتِ المعتزلةُ لكانَ سؤالُهُ المَغْفِرَةَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الاستِهزاءِ بربِّ العالَمينَ لأنهُ يَطْلُبُ منهُ ما لا يَمْلِكُ، وذلكَ في الشاهدِ هُزْءٌ بهِ واستِخْفافٌ بالمَسْؤولِ.

وإنْ كانَ في الكبائرِ ففيهِ دلالةٌ بَقائِهِمْ وثَباتِهِمْ على الإيمانِ لأنهُ قالَ: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قُرِئَ بِنَصْبِ النونِ وضَمِّها[1] نُصوحاً، والضَّمُّ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ المصدرِ والنَّصوحُ بالفتحِ يُخَرَّجُ مُخْرَجَ البَعْثِ للتوبةِ، والفَعولُ مِنَ الأفعالِ هو اسْمٌ لِلْمُبالغةِ في الأمرِ، فكأنهُ يقولُ: توبوا تَوبةً، تَناهَتْ في نُصْحِها، والمُبالَغةُ في النُّصْحِ أنْ يكونَ صادقاً في توبتِهِ.

وعلامةُ الصِّدْقِ أنْ يكونَ نادماً بِقَلْبِهِ عمّا فَعَلَ عازماً على ألّا يَرْجِعَ إليهِ، وأنْ يَقْلَعَ يديهِ عمّا كانتْ فيهِ مِنَ المعاصي، وأنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ بلسانِهِ، فَيَسْتَعْمِلَ كلَّ جَسَدِهِ في الندمِ والانقِلاعِ كما استَعْمَلَ سائرَهُ في التَّلَذُّذِ في المآثمِ. فذلكَ هو المُبالغةُ في النُّصْحِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ بالتوبةِ. ففي هذا إبانةُ أنَّ مِنَ السَّيِّئاتِ سَيِّئاتٍ لا تُكَفَّرُ إلّا بالتوبةِ، ومنها ما يُكَفَّرُ باجْتِنابِ الكبائرِ بقولِهِ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ [النساء: ٣١] لا أنْ تُكَفَّرَ كلُّها بالاجْتِنابِ عنِ الكبائرِ كما زَعَمتِ المعتزلةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وقد مَرَّ بَيانُ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ وللمعتزلةِ بهذهِ الآيةِ تَعَلُّقٌ، وهو أنْ قالوا: إنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ أنهُ لا يُخْزي النَّبيَّ والمؤمنينَ، والإخزاءُ بالعذابِ؛ فقد وَعَدَ ألّا يُعَذِّبَ الذينَ آمنوا. ولو كانَ أصحابُ الكبائرِ مؤمنينَ لم يَخِفَّ عليهِمُ العذابُ، إذْ قد وَعَدَ ألّا يُخْزيَ المؤمنينَ. ومِنْ قولِهِمْ[2]: أنهُ يُخافُ عليهِمُ العقابُ، ثَبَتَ[3] أنهمْ ليسوا بمؤمنينَ.

ولكنْ نقولُ: إنهُ بهذا السؤالِ يَلْزَمُهُمْ مِنَ الوجهِ الذي أرادوا إلزامَ خُصومِهِمْ لأنَّ في الآيةِ وَعْداً بألّا يُخْزيَ الذينَ آمنوا مَعَهُ، وهُمْ مُقِرّونَ أنَّ أهلَ الكبائرِ مِمَّنْ قد آمَنوا. ولكنهُمْ بَعدَ ارْتِكابِهِمُ الكبائرَ ليسوا بمؤمنينَ.

والآيةُ لم تَنْطِقْ بِنَفْيِ الإخزاءِ عنِ المؤمنينَ، لأنهُ لم يَقُلْ: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ والمؤمنينَ، وإنما قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ وهمْ يَقْطَعونَ القولَ بإخزاءِ مَنْ قد آمَنَ، فصاروا هُمُ المَحْجوجينَ بهذهِ الآيةِ [ثم حقُّ هذهِ الآيةِ][4] عندَنا أنْ نَقِفَ على قولِهِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ أي لا يُخْزيهِ اللهُ تعالى في أنْ يَرُدَّ شَفاعَتَهُ، أو يُعَذِّبَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ ابْتِداءُ كلامٍ وخَبَرُهُ: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

أو لا يُخْزي الذينَ آمنوا بعدَ شَفاعةِ النَّبيِّ ﷺ.

ويَحْتَمِلُ أنَّ الإخزاءَ، هو الفضيحةُ، أي لا يَفْضَحُهُمْ يومَ القيامةِ بَينَ أيدي الكُفّارِ.

ويجوزُ أنْ يُعَذِّبَهُمْ على وجهٍ لا يَقِفُ عليهِ[5] الكَفَرَةُ، والخِزْيُ هو الفَضيحةُ وهَتْكُ السِّتْرِ، ولا يُفْعَلُ ذلكَ بالمؤمنينَ بِفَضْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/١٧٨. (٢) في الأصل وم: قولكم. (٣) في الأصل وم: فثبت. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: عليهم.

وقولُهُ تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إذا مَشَوا ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عندَ الحسابِ، لأنهمْ يُؤتَونَ الكتابَ بأيمانِهِم، وفيهِ نورٌ وخيرٌ، أو يَسْعَى النورُ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ في مَوضِعِ وَضْعِ الأقدامِ ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ لأنَّ ذلكَ طريقُهُمْ، وشِمالَهُمْ طريقُ الكَفَرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ فجائزٌ أنْ يقولوا[1] هذا عندَ انْطِفاءِ نورِ المُنافقينَ، فيَخافونَ انقِطاعَ ذلكَ النورِ عنهمْ أيضاً، أو يقولوا هذا عندَ ضَعْفِ النورِ، فيَسألونَهُ الإتمامَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ قيلَ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بإقامةِ الحدودِ عليهِمْ؛ وذلكَ أنَّ المُنافقينَ، هُمُ الذينَ كانوا يرتكبونَ المآثِمَ التي أوجَبَ فيها الحدودَ، ففيهِمْ نَزَلَتِ الحدودُ.

وأمّا أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ فقد عُصِموا عنِ المَآثِمِ التي لها الحدودُ.

وقالَتِ الباطِنيَّةُ في قولِهِ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي جاهدِ الكفارَ والمُنافِقينَ بالقِتالِ، فكانَ مأموراً بالقِتالِ معَ الفَريقَينِ جميعاً، ولكنهُ اشْتَغَلَ بِقِتالِ أهلِ الكُفرِ، ولم يَتَفرَّغْ لِقتالِ أهلِ النِّفاقِ، فقاتَلَهُمْ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه.

وما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لأصحابِهِ حينَ رأى عَلِيّاً رضي الله عنه يَخْصِفُ نَعْلَهُ: إنَّ خاصفَ نَعْلِهِ يُقاتِلُ على التأويلِ كما نُقاتِلُ نحنُ على التَّنزيلِ، وقِتالُهُ على التأويلِ قِتالُ أهلِ النِّفاقِ.

فإنْ كانَ الأمرُ على ما ذَكَروا مِنَ القِتالِ فأبو بكرٍ رضي الله عنه هو الذي تَوَلَّى قِتالَ أهلِ النِّفاقِ لا عَلِيٌّ رضي الله عنه لأنهُ ذُكِرَ أنَّ العَرَبَ ارْتَدَّتْ بَعْدَ ما قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ فقاتَلَهُمْ أبو بكرٍ رضي الله عنه. وارْتِدادُهُمْ يَدُلُّ على أنهُمْ لم يكونوا مُحَقِّقينَ في إيمانِهِمْ، إذْ لو كانوا كذلكَ لم يَرْجِعوا، بل كانوا مُنافِقينَ.

وأما الذينَ قاتَلَهُمْ عليٌّ رضي الله عنه فلم يكونوا مُنافقينَ، بل كانوا يَدْعونَ علياً رضي الله عنه إلى أنْ يَحْكُمَ بكتابِ اللهِ تعالى. والمنافقُ هو الذي يُظْهِرُ في نفسِهِ أنهُ يَعْمَلُ بِحُكْمِ اللهِ تعالى، ثم يُسِرُّهُ بِخِلافِ حُكْمِهِ، لا أنْ يدعو إلى العملِ بِحُكْمِ اللهِ تعالى. وهذهِ السِّمَةُ ظَهَرَتْ في الذينَ قاتَلَهُمْ أبو بكرٍ رضي الله عنه دونَ الذينَ قاتَلَهُمْ عليٌّ رضي الله عنه.

ثم مجاهَدَتُهُ ﷺ في تَقْريرِ الحجَّةِ في قلوبِ الكَفَرَةِ والمُنافقينَ والزامِها عليهِمْ، وذلكَ يكونُ مَرَّةً بالسيفِ ومَرَّةً بإلزامِها باللِّسانِ.

وَوَجْهُ إلزامِ الحُجَّةِ بالسيفِ ما ذَكَرْنا أنَّ غَلَبَتَهُ على الأعداءِ مع [كَثْرَتِهِمْ وقُوَّةِ شوكَتِهِمْ][2] وقِلَّةِ أنصارِ رسولِ اللهِ ﷺ تُظْهِرُ لهمْ نَصْرَ اللهِ إياهُ وكَونَهُ على الحقِّ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الإيمانِ باللهِ تعالى.

فإذا كانَ كذلكَ فقولُهُ تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ في إلزامِ الحُجَّةِ، وإنْ كانوا في مَوضعِ أمنٍ فَمُجاهَدَتُهُمْ في إلزامِ الحُجَّةِ عليهِمْ مِنْ جِهَةِ القولِ، وإنْ كانوا في مَوضعِ المُحاربةِ والقِتالِ فَمُجاهَدَتُهُمْ في قِتالِهِمْ، وقد كانَ مِنَ المُنافقينَ [مَنْ][3] قد لَحِقَ بالكَفَرَةِ، وذَبَّ عنهمْ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؟ [النساء: ٨٨] فَمَنْ لَحِقَ بهمْ قاتَلَهُمْ معَ الكَفَرَةِ، ومَنْ لم يَلْحَقْ بهمْ ألْزَمَهُمُ الحُجَّةَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أيِ اشْدُدْ عليهِمْ، والتَّشْديدُ عليهِمْ أنْ يُسَفِّهَ أحلامَهُمْ، ويَهْتِكَ أستارَهُمْ، وهو أنْ يُبَيِّنَ لهمْ ما هُمْ عليهِ مِنَ النِّفاقِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قد تَقَدَّمَ ذِكْرُ هذا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ دلالةُ فَضيلةِ نَبِيِّنا ﷺ على مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الأنبياءِ والرسُلِ عليهم السلام لأنهُ ذَكَرَ موسى عليه السلام في التوراةِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [طه: ١١ و . . .] [وعيسى][4] في الإنجيلِ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥ والمائدة:

(١) من م، في الأصل: يقول. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كثرة شوكتهم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.

١١٦] وفي مُخاطباتِ آدَمَ ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣ و...] فَسَمَّى كلَّ نَبِيٍّ باسْمِهِ سِوَى نَبِيِّنا ﷺ فإنهُ ذَكَرَهُ، وخاطَبَهُ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤ و...] [وقولِهِ][1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١ و٦٧].

وبالنُّبُوَّةِ والرسالةِ اسْتَحَقَّ الفضيلةَ، فَذَكَرَهُ باسْمِ فَضْلِهِ، وخاطَبَهُ به، وذَكَرَ غَيرَهُ مِنَ الأنبياءِ عليهم السلام باسْمِ شَخْصِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ لِمكانِ الكَفَرَةِ الذينَ لهمْ برسولِ /٥٨١ ـ أ/ اللهِ ﷺ اتِّصالٌ مِنْ حُرْمَةِ القَرابةِ، فكانوا يَطْمَعونَ منهُ الشَّفاعةَ في الآخِرَةِ، إنْ كانَ الأمرُ على ما ذُكِرَ محمدٌ ﷺ لأنهمْ عَرَفوهُ بالشَّفَقةِ والرَّحْمةِ على الخَلْقِ جُمْلَةً. فكيفَ يَدَعُ شَفَقَتَهُ ورَحْمَتَهُ على قَرابَتِهِ، وهو يَراهُمْ يَتَرَدَّدونَ في الهلاكِ؟ فَبَيَّنَ لهمْ شَأْنَ امْرَأةِ نوحٍ وامْرَأةِ لوطٍ ما كانَ بَينَهما وبَينَ نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام مِنَ الاتِّصالِ لئلّا يَغْتَرّوا باتِّصالِهِمْ بالنَّبِيِّ ﷺ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في بَدْءِ الإسلامِ في الوقْتِ الذي يَنْفَرِدُ الآباءُ بالإسلامِ دونَ الأبناءِ، والأبناءُ دونَ الآباءِ، فيكونُ المَثَلُ لِمكانِ أولئكَ الذينَ الْتَزَموا، وداموا عليهِ، ولم يَتَّبِعوا آباءَهُمْ أو أبْناءَهُمْ، فيقولُ: لا يَنْفَعُ مَنْ دامَ على الكُفْرِ إسلامُ [مَنْ أسْلَمَ][2] منهمْ، وإنْ كانَ بَينَهما قُرْبٌ مِنْ جِهَةِ الأُبُوَّةِ والنُّبُوَّةِ لأنَّ رحمةَ الإنسانِ وشَفَقَتَهُ على زَوجَتِهِ أكثرُ مِنْ شَفَقَتِهِ على ما ذَكَرْنا. وكذلكَ الاتِّصالُ.

فإذا لم يَنْفَعْهُما إسلامُ زَوجَيهِما، فكذلكَ لا يَنْفَعُ أولئكَ الذينَ داموا على الكُفْرِ إسلامُ مَنْ أسْلَمَ مِنْ آبائِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا المَثَلُ لِمكانِ أهلِ النِّفاقِ في ما أظْهَروا مُوافقةَ المؤمنينَ، وأسَرّوا الخِلافَ لهُ، فَيُخْبِرُ أنهُ لا يَنْفَعُهُمْ إظهارُ مُوافَقَتِهِمْ في الدينِ إذا كانوا على خِلافِهِ في التَّحقيقِ كما لا يَنْفَعُ زَوجَتَي نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام إظهارُ المُوافقةِ منهما لِزَوجَيهما[3] إذا كانتا على خِلافِهِما في السِّرِّ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ صلاحَ الصالحِ، لا يَنْفَعُ الطالِحَ كما لا يَنْفَعُ صَلاحُ نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام الزَّوجَتَينِ إذا كانتا في نفسَيهِما فاسِدَتَينِ. وأرادَ بهذا النَّفْيِ الشَّفاعةَ لأهلِ الكبائرِ.

وليسَ كما ذَكَرَ، لأنَّ هذا المَثَلَ ضَرَبَهُ للكافِرِ لا للعُصاةِ؛ إذْ لم يَقُلْ: ضَرَبَ اللهُ مثلاً للذينَ عَصَوا، فليسَ لهُ تَعَلُّقٌ في هذهِ الآيةِ.

ثم قد نَجِدُ[4] صلاحَ الصالحِ في الشاهِدِ يَنْفَعُ الطالِحَ، وإنْ لم يَنْفَعِ الكافرَ، لأنَّ المَرْءَ قد يكونُ لهُ زوجةٌ طالحةٌ، تَمْتَنِعُ عنْ كثيرٍ مِنَ الشَّرِّ لِمكانِ زَوجِها مِنْ أهلِ الصلاحِ والبِرِّ. وكذلكَ الولدُ، يَنْفَعُهُ صلاحُ والدَيهِ في الدنيا، إذْ بِخَشْيَتِهِما يَنْتَهي عنْ كثيرٍ مِنَ المَناهي بِصلاحِهِما، فقد نَفَعَهُ صلاحُ والدَيهِ، ونَفَعَها صَلاحُ زوجِها. فجائزٌ أنْ يَنْتَفِعَ الطالِحُ أيضاً في الآخِرَةِ بِصلاحِ الصالِحينَ.

وأمّا الكافرُ فهو لم يَمْتَنِعْ عنِ الخِلافِ بِمكانِ[5] أبَوَيهِ ولا بِمَكانِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ، فلم يَنْفَعْهُ إسلامُ أبويهِ ولا صلاحُهُما في الدنيا، فكذلكَ لا يَنْفَعُهُ في الآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي فَخانَتاهُما في الدينِ.

ومنهمْ مَنْ يذكُرُ أنَّ خِيانةَ امرأةِ نوحٍ، هي[6] أنْ أخبَرَتْ قومَهُ بجنونِ زوجِها، وكانَتْ خِيانةُ امرأةِ لوطٍ، هي أنْ أخبَرَتْ قومَ لوطٍ بشأنِ أضيافِهِ.

ولكنْ إنْ كانَ هذا صحيحاً فهو يرجِعُ إلى الأوَّلِ، لأنَّ الذي حَمَلَ كلَّ واحدةٍ منهما على الإخبارِ بما أخبَرَتْ مُوافَقَتُها أولئكَ القومَ وخِلافُها لِزوجِها في الدينِ، فلا يَجِبُ أنْ يُشْهَدَ بهذا إلّا بِتَواتُرٍ [إنْ][7] جاءَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: لزوجته. (٤) من م، في الأصل: يحذف. (٥) في الأصل وم: بما كان. (٦) في الأصل وم: هو. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وذَكَرَ بعضُهُمْ أنهما زَنَتا، فَخِيانَتُهما زناهما، وذا غيرُ ثابتٍ، لأنَّ الأنبياءَ ﷺ عُصِموا عمّا يُرجِعُ العارَ والشَّينَ إليهِمْ، والزّوجُ يُعَيَّرُ بِزِناءِ زوجتِهِ وفراشِهِ، وفيهِ[1] تَوَهُّمُ التُّهَمَةِ في أولادِهِمْ. فَدَلَّ أنَّ هذا[2] التأويلَ غيرُ صحيحٍ، وحاجَتُنا إلى وجودِ الخيانةِ منهما دونَ التفسيرِ، ولا يَجِبُ أنْ يُشْهَدَ بهذا إلّا بِتواتُرٍ جاءَ مِنْ يَدَي الحُجَّةِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما:][3] وجهُ ضَرْبِ المثلِ بها، هو أنْ يُعْلِمَ المَقهورَ تحتَ أيدي الكَفَرَةِ أنْ لا عُذْرَ لهُ في التَّخَلُّفِ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى؛ إذْ كانتِ امرأةُ فِرعونَ مَقهورةً تحتَ يديهِ، وكانَتْ بَينَ ظَهرانَي الظَّلَمَةِ، ولم يَمْنَعْها ذلكَ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ومِنَ التَّصْديقِ برسولِهِ موسى ﷺ.

والثاني: أنها لم تُشاهِدْ مِنْ زَوجِها ومِنَ القومِ بَينَ ظَهْرانَيهِمْ سِوَى الكُفْرِ باللهِ تعالى.

ثم اللهُ تعالى بِلُطْفِهِ ألْهَمَها الإيمانَ بهِ، فآمَنَتْ.

وكانَتِ امرأةُ نوحٍ [ﷺ تحتَ نوحٍ][4] ولم تُشاهِدْ منهُ سِوَى الطاعةِ والعِبادةِ لربِّهِ، جَلَّ، وعلا، ثم لم يَنْفَعْها إيمانُهُ وعبادتُهُ، لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَنْفَعُ أحداً إسلامُ أحدٍ، ولا يَضُرُّهُ كُفْرُ غيرِهِ، إنما يَصيرُ مؤمناً بِفِعْلِ نفسِهِ [ويَصيرُ][5] كافراً بِفِعْلِ نفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي لم تُرِدْ بقولِها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ بِقيامِ الوَجْهِ الذي عَرَفَتْ بِبِناءِ زَوجِها وغيرِهِ مِنَ الخَلائقِ، وإنما أرادَتْ بقولِها: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أيِ اخْلُقْ لي بَيتاً في الجنةِ.

وكذلكَ لم يَفْهَمْ أحدٌ [مِنَ المُشَبِّهَةِ][6] مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ما فَهِمَ الخَلْقُ مِنَ النَّفْخِ في الأشياءِ، وإنما فَهِموا منهُ[7] الخَلْقَ والإنشاءَ.

فما بالُ المُشَبِّهَةِ فَهِموا مِنْ قولِهِ تعالى: [﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤ و...]][8] ما فَهِموا مِنَ الاسْتِواءِ المُضافِ إلى الخَلْقِ؟ لولا ضَعْفُ اعْتِقادِهِمْ وجَهْلُهُمْ بِصانِعِهِمْ في التحقيقِ.

ثم الأصلُ أنْ تَنْظُرَ إلى الأسماءِ التي هي أسماءُ الأفعالِ المُشْتَرَكَةِ في ما بينَ الخَلْقِ، إذا أُضيفَ شيءٌ منها إلى اللهِ تعالى، فَتَعْرِضَها على الأسماءِ التي هي أسماءُ الأفعالِ المَخصوصةُ للهِ تعالى، فما أُريدَ بالاِسْمِ المَخصوصِ مِنْ ذلكَ، فذلكَ المَعْنَى هو المُرادُ بالاِسْمِ المُشْتَرَكِ.

فالاِسْمُ المَخصوصُ بِفِعْلِ اللهِ تعالى هو الخَلْقُ؛ إذْ لا أحدَ يُسَمّي أحداً مِنَ الخلائقِ خالقاً [وإنما يَفْهَمُ مِنْ قولِهِ][9]: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ أيِ اخْلُقْ لي، ويَفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الخَلْقَ والإنشاءَ.

والذي يُبَيِّنُ أنَّ الأسماءَ المَخصوصةَ [لا][10] يُفْهَمُ منها ما يُفْهَمُ [مِنَ الأُخرَى][11] قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] ومَعْناهُ: هو الذي خَلَقَ سَيْرَكُمْ في البَرِّ والبَحْرِ، وقولُهُ[12] تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠] أي يَخْلُقُ المَوتَ والحياةَ، وقولُهُ[13] ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي يَخْلُقُ الضلالَ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨] أي يَخْلُقُ هِدايَتَهُ.

ومَنْ حَمَلَ الأمرَ على ما ذَكَرْنا سَلِمَ مِنَ الشُّبَهِ كلِّها ووَسْواسِ الشيطانِ، وسَلِمَ مِنَ التَّشبيهِ، واللهُ الموفقُ.

---

(١) من م، في الأصل: وفي. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: صلاح. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: به. (٨) في م: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩ وفصلت: ١١]. (٩) في الأصل وم: فيفهم بقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالأخرى. (١٢) في الأصل وم: وقال. (١٣) في الأصل وم: وقال.

وفي هذا دلالةُ إيمانِها بالبَعْثِ والحِساب.

ثم مِنَ الجائزِ أنْ تكونَ وصَلَتْ إلى عِلْمِ البَعْثِ والحسابِ بالتَّلْقِينِ أو بِنَظَرِها وتفَكُّرِها في الحُجَجِ والبراهينِ.

وذَكَرَ أهلُ التفسيرِ أنها قالتْ ذلكَ عندَما عَذَّبَها فِرعونُ، واختَلَفوا في صِفَةِ العذابِ مِنْ أوجُهٍ؛ وحقُّ مِثْلِهِ الإمساكُ عنهُ [وألّا نَشْتَغِلَ بِتَفْسيرِهِ][1] لِما يُتَوَهَّمُ مِنْ وقوعِ زِيادةٍ فيهِ[2] أو نُقْصانٍ على العَدَدِ الذي بُيِّنَ في الكتُبِ المُتَقَدِّمةِ.

وهذهِ الأشياءُ جُعِلَتْ حُجَجاً لرسالةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ على أهلِ الكتابِ [لِما وَجَدوها موافِقَةً للأنباءِ التي ذُكِرَتْ في كُتُبِهِمْ، وإذا وَقَعَ فيها زيادةٌ أو نُقْصانٌ وجَدوا فيهِ مَوضِعَ الطَّعْنِ في رسالتِهِ. فَلِهذا المَعْنَى ما يَجِبُ تركُ الخَوضِ فيها][3] والإعراضُ عنْ ذِكْرِها.

وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ وغَيرِهِ أنهُ ما مِنْ مُؤمِنٍ ولا كافرٍ إلّا وبُنِيَ لهُ بَيتٌ في الجنةِ. فإنْ ماتَ على الإسلامِ سَكَنَ البيتَ، وإنْ قُبِضَ كافراً [أورِثَهُ غَيرُهُ][4].

وهذا لا يُحْتَمَلُ لأنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ أنهُ يموتُ على الكُفْرِ فكيفَ[5] يَبْني له ذلك كيلا يسكُنَهُ؟ ومَنْ بَنَى لِنَفْسِهِ في الشاهِدِ، وهو يَعْلَمُ أنهُ لا يَسْكُنُهُ صارَ عابثاً في فِعْلِهِ، وجَلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يوصَفَ بالعَبَثِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي نَجِّني مِنْ شَرِّ فِرْعونَ وجنودِهِ ومِنْ عَمَلِهِ أي مِنْ كُفْرِهِ؛ فيكونُ قولُها ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ راجعاً إلى نفسِهِ، والآخرُ [راجعاً][6] إلى عَمَلِهِ ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ راجعاً إلى قومِهِ.

فسألتِ النجاةَ منهمْ جملةً / ٥٨١ ـ ب/ لِما كانوا يَمْنَعونَها عنْ عبادةِ اللهِ تعالى، فكانتْ تَخافُ ناحيَتَهُمْ، ولا تَأمَنُ، وتَخافُ منهمْ، فَسألتِ النجاةَ منهمْ لِتَصِلَ إلى عبادةِ ربِّها.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ فأخبَرَ عنها بإحصانِها فَرْجَها، وذلكَ بالأسبابِ، وهي ما اتَّخذَتْ بَينَ نفسِها وبَينَ الناسِ جَميعاً حِجاباً لئلا يَقَعَ بَصَرُ الناسِ عليها، ولا يَقَعَ بَصَرُها عليهِمْ، فَتَصِلَ بِهِ إلى تَحْصينِ فَرْجِها.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وهُمْ إذا غَضُّوا أبصارَهُمْ وَصَلوا إلى حِفْظِ الفُروجِ؛ ففي الحِجابِ غَضُّ البَصَرِ [وفي غَضِّ البَصَرِ][7] وصولٌ إلى حِفْظِ الفَرْجِ وإحصانِهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

وتَطهيرُهُ إيّاها في أنهُ طَهَّرَها مِنَ الفواحشِ والزِّنَى. فأضافَ الإحصانَ إليها في الآيةِ الأولَى، وأضافَ التطهيرَ ههنا إلى نفسِهِ؛ فَوَجْهُ إضافةِ الإحصانِ إليها ما ذَكَرْنا أنها تَكَلَّفَتِ الأسبابَ التي هي أسبابُ الموانِعِ لِلزِّنَى الدَّواعي إلى الإحصانِ، وأضافَ إلى نفسِهِ التَّطهيرَ لأنَّ وقوعَ ذلك وحصولَهُ[8] كانَ بهِ؛ ففيهِ دلالةٌ أنَّ كلَّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِ العبادِ لا يَخلو مِنْ أنْ يكونَ للهِ تعالى فيهِ صُنْعٌ وتدبيرٌ.

[وقولُهُ تعالى][9]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي خَلَقْنا فيهِ ما بِهِ تَحْيَى الصُّوَرُ والأبدانُ. وقولُهُ: ﴿فِيهِ﴾ أي في [فَرْجِها، كقولِهِ][10] في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أي في نفسِها[11] عيسى ﷺ والنفسُ مؤنثٌ.

---

(١) في الأصل وم: ولا نشتغل بتفسيرها. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فهو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) الواو ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عيسى وقال. (١١) في الأصل وم: نفس.

ثم تَشْبيهُهُ [الخَلْقَ][1] بالنَّفْخِ لأنَّ الرُّوحَ إذا خُلِقَ [في الجَسَدِ انْتَشرَ فيهِ][2] كالريحِ إذا نُفِخَتْ في شيءٍ انْتَشرَتْ فيهِ[3]، أو [تَشْبيهُهُ الخَلْقَ][4] بالنَّفْخِ لِسُرعةِ دخولِهِ [في ما][5] نُفِخَ فيهِ كالريحِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ جائزٌ[6] أنْ تكونَ الكلماتُ التي بُشِّرَتْ بها مريمُ هي[7] قولَهُ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقولَهُ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وقولَهُ تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وقولَهُ تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥] فَصَدَّقَتْ بِجُمْلَتِها [وأنها][8] مِنْ عندِ اللهِ، لا شيءَ، ألْقَى إليها الشيطانُ.

أو ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بِحُجَجِ ربِّها وبَراهينِهِ [كقولِهِ تعالى][9]: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يونس: ٨٢] أي بِحُجَجِهِ وأدلَّتِهِ.

ثم تكونُ الحُجَجُ حُجَجَ البعثِ أو حُجَجَ الرسالةِ أوِ الوَحْدانيَّةِ، أي يكونُ قولُهُ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ أي بالكلماتِ التي يُستَعاذُ بها مِنَ الشرورِ؛ فَصَدَّقَتْ أنها تُعيذُ مَنْ تَعَوَّذَ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وقُرِئَ وكتابِهِ[10]؛ وفي تَصْديقِها بالكتابِ تصديقٌ منها بالكُتُبِ لأنَّ مَنْ آمَنَ بكتابٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ فقد آمَنَ بِسائرِ كُتُبِهِ لأنها يُوافِقُ بعضُها بعضاً، ومَنْ آمَنَ بكُتُبِهِ فقد آمَنَ بكلِّ كتابٍ لهُ على الإشارةِ إليهِ، فَثَبَتَ أنَّ في الإيمانِ بكتابٍ إيماناً[11] بسائرِ الكُتُبِ فكلٌّ واحدةٍ[12] مِنَ القراءتَيْنِ تَقْتَضي مَعْنَى القراءةِ الأُخرَى؛ فإنَّ قولَهُ: بكتابِهِ أي بالإنجيلِ، وقولَهُ: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي بالإنجيلِ وسائرِ الكُتُبِ المُتَقَدِّمةِ المُنْزَلَةِ مِنْ عندِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ قِيلَ: مِنَ المُصَلِّينَ، لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا وُصِفَتْ[13] وَصْفَ الصلاةِ، فالْتَزَمَتْ هذا الأمْرَ، صارَتْ مِنَ القانِتينَ. وقيلَ: أي مِنَ المُطيعينَ لربِّها، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، وصلَّى اللهُ على سَيِّدنا محمدٍ ﷺ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه انتشر في الجسد. (٣) في الأصل وم: فيها. (٤) في الأصل وم: والتشبيه. (٥) من م، في الأصل: فيها. (٦) في الأصل وم: فجائز. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٨٠. (١١) في الأصل وم: إيمان. (١٢) من م، في الأصل: واحد. (١٣) في الأصل وم: وصف.

سورة الملك

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ قيلَ: تعالى، وتعاظَم، وتبارَكَ: تفاعَلَ، مِنَ البركةِ كِنايةً عن نَفْيِ كلِّ عيبٍ. قال ﷻ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] أي ماءً، لا كُدُورةَ فيهِ، ولا قَذَرَ، بل هو ماءٌ مُطهَّرٌ مِنْ كلِّ آفةٍ وغيرِهِ.

فَمَعْنى قولِهِ: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي تعالى عنْ أنْ يكونَ لهُ شَبيهٌ وعديلٌ، وتعاظَمَ عمّا قالتْ فيهِ المُلْحِدةُ وعَنْ أنْ تَلْحقَهُ المَعايبُ والآفاتُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي الذي لهُ مُلْكُ المُلْكِ، لأنهُ قالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] أي الذي لهُ المُلْكُ. فَذَكَرَ اليدَ ههنا مكانَ المالِكِ هناكَ، فامْتُدِحَ، جَلَّ، وعَلا، بمُلْكِ المُلْكِ وكونِه مالكاً لهُ.

والمعتزلةُ يقولونَ: إنَّ مُلْكَ مُلْكِ الكَفَرَةِ ليسَ لهُ، وإنهُ لا يُؤْتَى المُلْكُ للكافِرِ، ويقولونَ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] إنَّ الذي آتاهُ اللهُ المُلْكَ، هو إبراهيمُ ﷺ والهاءُ تَنْصرِفُ إليهِ، لا إلى الذي حاجَّهُ.

وإذا لم يَجْعَلوا مُلْكَ مُلْكِ الكَفَرةِ في يدِهِ لم يَصِرْ مُمْتَدَحاً بما ذَكَرْنا لأنهُ يكونُ في يدهِ بعضُ المُلْكِ لا كُلُّهُ. وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] وعلى قولِهِمْ يَصيرُ المُلْكُ في يدِ مَنْ لا يَشاءُ لأنهُ لا يَشاءُ المُلْكَ للكافِرِ، ومَعَ ذلكَ يوجدُ فيهمُ المُلْكُ.

ثم ما ينبغي لهمْ أنْ يَقْطعوا القولَ بأنَّ اللهَ تعالى لا يُؤتِي المُلْكَ للكافِرِ، بل عليهِمْ [أنْ يقولوا:][1] إنْ كانَ إيتاءُ المُلْكِ أصلَحَ لهمْ آتاهُمْ، وإنْ كانَ شَرّاً لم يُؤْتِهِمْ؛ إذْ منْ مَذْهبِهِمْ أنَّ [اللهَ تعالى][2] لا يَفْعَلُ بعبدِهِ إلّا ما هو الأَصْلَحُ لهُ في الدينِ والدنيا في حقِّهِ.

فهذا جملةُ اعْتِقادِهِمْ، ثم هُمْ لا يَعْرِفونَ الوَجْهَ الذي لهُ صارَ أصلَحَ في كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ، لأنهمْ يقولونَ: في إبقاءِ إبليسَ اللعينِ إلى اليومِ المَعْلومِ صلاحٌ، وإنْ كُنّا لا نَعْرِفُ الوَجْهَ الذي لهُ صارَ أصْلَحَ؛ وإفناءُ الأنبياءِ والرسُلِ ﷺ كانَ أصْلَحَ، وإنْ لم نَعْرفْ مِنْ أيِّ وَجْهٍ صارَ أصْلَحَ.

فَلْيَقولوا ههنا: إنَّ إيتاءَ المُلْكِ، إنْ كانَ أصْلَحَ لهمْ لم يكُنْ لهُ ألّا يؤتِيَهُمْ، وإنْ كانَ شَرّاً فَعَلَيهِ ألّا يُؤتِيَهُمْ، لا أنْ يَجْعَلوا الأمْرَ على النَّفْيِ.

ثم المُلْكُ اسْمٌ عامٌّ، وهو عبارةٌ عنْ نَفاذِ التَّدبيرِ والسُّلْطانِ والوِلايةِ. والمُلْكُ هو أنْ يكونَ للمالِكِ خاصّةً في الشيءِ، لا يَتَناوَلُ مِنْ ذلكَ الشيءِ إلّا بإذْنِهِ. وقدْ يكونُ المَرْءُ مالكاً، وليسَ بِمَلِكٍ، وقد يكونُ المَرْءُ مَلِكاً، وليسَ بمالكٍ. فكلُّ واحدٍ مِنَ الوَجْهَينِ يَقْتَضي مَعْنًى غيرَ ما يَقْتَضيهِ الآخَرُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الملك.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي مُلْكُ كلِّ مَلِكٍ مِنْ أهلِ الأرضِ بيدِهِ، لأنهُ إنْ شاءَ أبْقى لهُ المُلْكَ، وإنْ شاءَ نَزَعَهُ. فما مِنْ مَلِكٍ في دارِ الدنيا إلّا ومُلْكُهُ في الحقيقةِ للهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ امْتَدَحَ[1] نفسَهُ، تعالى، بأنهُ على ما يشاءُ قديرٌ وذلكَ مِنْ أوصافِ ربوبيَّتِهِ أيضاً.

ومِنْ قولِ المعتزلةِ أنهُ على أكثرِ الأشياءِ غيرُ قديرٍ، لأنهمْ يَجعلونَ المَعدومَ شيئاً، فَشَيْئِيَّةُ الأشياءِ [كانَتْ بأنفسِها][2] لا بإنشاءِ اللهِ تعالى، ويَجعلونَ ظهورَها باللهِ تعالى فقط.

وإذا كانَ كذلكَ فهو لم يَصِرْ قادراً على شَيْئِيَّةِ الأشياءِ. وكذلكَ يَنْفُونَ الخَلْقَ والقُدْرةَ على أفعالِ العبادِ.

ومِنْ قولِهِمْ أيضاً أنَّ أقدارَ / ٥٨٢ ـ أ/ العَبْدِ بِيَدِ اللهِ تعالى، وإذا أقْدَرَ عبداً مِنْ عَبيدِهِ على الهدايةِ خرجَتِ القُدْرةُ [مِنْ يدِهِ، فَتَصيرُ هذهِ القُدْرةُ][3] مُسْتفادةً لا ذاتيَّةً. وإذا كانَ كذلكَ فقد نَفَوا عنهُ القُدْرةَ عنْ أكثرِ الأشياءِ، فلا يَصيرُ هو قادراً على شيءٍ، وإنما هو قادرٌ على البعضِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي خلَقَكُمْ أمواتاً: نُطفةً وعَلَقةً ومُضْغَةً، ثم أحياكُمْ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

وقالَ غيرُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ لِيَجزيَكُمْ بَعْدَهُ ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بها، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] فَصَرَفَ المِحْنَةَ إلى الحالةِ التي أنْشَأهُمْ على وجْهِ الأرضِ، وهي حالةُ الحياةِ. ثم أخْبَرَ بَعْدَ ذلكَ أنهُ يَجْعَلُهُمْ صَعيداً جُرُزاً بَعدَ الابْتِلاءِ بقولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨].

وعندَنا أنهُ خَلَقَهُما جميعاً لِلابْتِلاءِ لأنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الموتَ على غايةِ ما تَكْرَهُهُ الأنفسُ، وتَنْفُرُ عنهُ، وخَلَقَ الحياةَ على غايةِ ما تَتَلَذَّذُ بِهِ الأنفسُ، وتَرْغَبُ فيها، والمِحْنَةُ[4] في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ. فَثَبَتَ أنَّ خَلْقَ الموتِ [مِحْنَةٌ][5] فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ كأنهُ يقولُ: خلَقَ الموتَ مُرْهِباً، وخَلَقَ الحياةَ مُرْغِبةً ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أرهَبُ مِنَ الشَّرِّ وأرغَبُ في الخيرِ.

ثم الموتُ ممّا لا مَهْرَبَ منهُ لأحدٍ ولا مَخْلَصَ لِمَخلوقٍ، وكذلكَ الحياةُ، وإنْ كانَتْ مِنْ أرغَبِ الأشياءِ إلى الأنفسِ، فليستْ هي بحيثُ يُتَهَيَّأُ للمرءِ أنْ يزيدَ منها بالطلبِ ولا ممّا يوجَدُ بالكدِّ والسَّعْيِ، فصارتْ هي مُرْغِبَةً في الحياةِ الدائمةِ، وهي نعيمُ الآخِرةِ [وصارَ الموتُ][6] مُرْهِباً مِنَ الموتِ الدائمِ، والموتُ الدائمُ هو العذابُ الدائمُ الذي لا يَنْقَطِعُ كما قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي لا تَنْقضي عنهُ الآلامُ والأوجاعُ، بل يَبْقَى فيها أبداً.

وإذا ثَبَتَ أنَّ الموتَ صارَ مُرْهِباً مِنَ العذابِ الدائمِ، والحياةَ صارتْ مُرْغِبةً في مِثْلِها، فيقومُ يَطْلُبُها[7].

وَوَجَبَ القولُ بالبعثِ أيضاً؛ إذِ الراغبُ إنما يَصِلُ إلى ما يَرْغَبُ فيهِ بالبعثِ، والآخَرُ إنما يصيرُ إلى العذابِ الدائمِ بالبعثِ.

وفيهِ إيجابُ القولِ بالرسالةِ، لأنهُ إذا ثَبَتَتِ الرَّغْبَةُ في المَوعودِ مِنَ الثوابِ والرَّهْبَةُ مِنَ العذابِ، وهما جميعاً غائبانِ، فاحتيجَ إلى مَنْ يُظْهِرُهما، ويُخبِرُ عنهما، فلم يكنْ بدٌّ مِنْ رسولٍ، يُخْبِرُهُمْ، ويُحْضِرُ عِلْمَهُ لهمْ.

ثم الأصلُ في قولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنهُ يَحْسُنُ عملُهُ بِحُسْنِ رغبتِهِ، ويَسوءُ عملُهُ بِسوءِ رغْبتِهِ ورَهْبَتِهِ. فَخَلَقَ الحياةَ والموتَ لِيَتَفَكَّرَ[8] فيهما المرءُ، ويَعْتَبِرَ بهما. فَمَنْ حَسُنَتْ رَغْبَتُهُ ورَهْبَتُهُ حَسُنَ عملُهُ، ومَنْ لم يَتَفَكَّرْ فيهما، ولم يَعْتَبِرْ بهما ساءَ عَمَلُهُ.

---

(١) في الأصل: فامتحن، في م: فامتدح. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وصارت. (٧) في الأصل وم: يطلبه. (٨) من نسخة الحرم المكي، في وم: ليبلوكم.

فالموتُ والحياةُ أُنشِئا مُرَغِّبَينِ ومُرَهِّبَينِ، وكذلكَ الدنيا وما فيها أُنشِئتْ دلالةً على طريقِ الآخِرَةِ:

فالسَّمْعُ يدلُّ على السَّمْعِ، والبَصَرُ على البَصَرِ، وآلامُها تدُلُّ على آلامِ الآخِرَةِ، ونَعيمُها دليلٌ على نَعيمِ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيهِ دليلٌ على إضمارِ قولِهِ: وأيُّكُمْ أسْوَءُ عملاً على مُقابلةِ الأوَّلِ، إلا أنهُ اكْتَفَى بذكْرِ أحدِ المُتقابلَينِ عنِ الآخَرِ، واللهُ أعلَمُ.

فإنْ قالَ قائلٌ كيفَ أضافَ الابْتِلاءَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ والابْتِلاءُ في الشاهِدِ لاسْتِظهارِ ما خَفِيَ ولاسْتِحضارِ ما غابَ، واللهُ تعالى لا يغيبُ عنهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ أمرٌ، فكيفَ أُضيفَ إليهِ الابْتِلاءُ؟

فجوابُهُ [في وجهَينِ:

أحَدُهما:][1] أنْ يقولَ: إنَّ الابْتِلاءَ في الحقيقةِ كِنايةٌ عمّا بهِ ظُهورُ الشيءِ وبُروزُهُ، فاسْتَعْمَلَ الابْتِلاءَ في كلِّ ما [فيهِ][2] ظهورُ الأمرِ، وإنْ كانَ الذي ظَهَرَ مِنَ الأمرِ عندَ المُبْتَلَى ظاهراً، وهذا كما أُضيفَ الاسْتِدْراجُ والمَكْرُ إلى اللهِ تعالى لوجودِ مَعْنَى المَكْرِ والاسْتِدْراجِ فيهِ، وإنْ [لم يَكُنِ][3] المَقْصودُ مِنْ ذلكَ المَكْرَ والاسْتِدْراجَ.

وفي الشاهِدِ أنْ تُحْسِنَ إلى عَدُوٍّ لِيَقَعَ عندَهُ أنكَ تَرَكْتَ عداوَتَهُ، فَيَغْتَرَّ بإحسانِكَ إليهِ، ثم تأخُذَهُ مِنْ وجهِ أمْنِهِ ومِنْ حيثُ لا يَشْعُرُ. هذا هو مَعْنَى المَكْرِ في الشاهِدِ، وقد وُجِدَ الإحسانُ مِنَ اللهِ تعالى إلى أعدائِهِ، ووجِدَ منهمُ الاغْتِرارُ بالنِّعَمِ، وَوَقَعَ عندَهُمْ أنهمْ مِنْ جُمْلةِ أوليائِهِ، ثم أتاهُمُ العذابُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرونَ، فَوُجِدَ مَعْنَى المَكْرِ، وإنْ لم يَقْصِدْ بإحسانِهِ إليهِمُ المَكْرَ بهم.

والثاني: مَنْ أمَرَ في الشاهِدِ فإنما يَأمُرُ لِمَنْفَعةٍ تَصِلُ إليهِ، وإذا نَهَى عنْ شيءٍ فإنما يَنْهَى لِنَفْيِ مَضَرَّةٍ تَصِلُ إليهِ. واللهُ تعالى لم يأمُرِ الخَلْقَ، ولم يَنْهَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ يَجْلِبُها إلى نفسِهِ أو لِمَضَرَّةٍ يَدْفَعُها عن نفسِهِ، وإنما أمَرَهُمْ، ونَهاهُمْ لِمَنافِعَ تَرْجِعُ إليهِمْ ومَضارَّ تَلْحَقُهُمْ. ثم أُضيفَ [الأمْرُ][4] والنَّهْيُ، وإنْ كانَ لا مَنْفَعَةَ لهُ ولا مَضَرَّةَ عليهِ. فلذلكَ ابْتَلَى خَلْقَهُ لِيُظْهِرَ لِلْمُبتلي عداوتَهُ وولايَتَهُ، وأضافَ الابْتِلاءَ إلى نفسِهِ، وإنْ كانَ هو مُسْتَغْنِياً عنِ الابْتِلاءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ فيهِ إبانةٌ أنهُ لم يَبْتَلِنا لِمَنْفَعَةٍ أو أمرٍ يَرْجِعُ إليهِ أو لِذُلٍّ يُدْفَعُ عنهُ، ولكنْ لِعِزٍّ يُحْرِزُهُ المُمْتَحَنُ إذا أحْسَنَ العَمَلَ وذنوبٍ تُغْفَرُ لهُ، وتُسْتَرُ عليهِ؛ وهو عزيزٌ بذاتِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي القَوِيُّ على الانْتِقامِ مِمَّنْ ساءَ عَمَلُهُ، واخْتارَ عداوَتَهُ ﴿الْغَفُورُ﴾ السَّتورُ على مَنْ حَسُنَ عملُهُ، يَسْتُرُ عليهِ [ذنبَهُ، ويَجْزيهِ بِحُسْنِ عَمَلِهِ][5] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ إيجابُ القولِ بِتَصْديقِ ما يأتي بهِ الرسلُ مِنَ الخَبَرِ، وقد ثَبَتَ وجودُ هذا القولِ على ألْسُنِ الرسلِ، فَلَزِمَنا القولُ في السمواتِ: إنها سَبْعٌ، وإنْ لم تُشاهَدْ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ لِيَبْلُوَ أهْلَها أيُّهُمْ أحسَنُ عملاً، لأنهُ بَيَّنَ أنهُ لم يَخْلُقِ السمواتِ والأرضينَ باطلاً.

ثم السمواتُ بأنفُسِها لا تُمْتَحَنُ، وإنما يُمْتَحَنُ أهلُها، لكنه اقْتَضَى ذِكْرُ السمواتِ ذِكْرَ أهلِها، واقْتَضَى ذِكْرُ الأرضِينَ ذِكْرَ أهلِها، فأخْبَرَ بِذِكْرِ الأرضِ عنْ ذِكْرِ أهلِها وبِذِكْرِ السمواتِ عنْ ذِكْرِ أهلِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ أي انْظُرْ في خَلْقِ الرحمنِ هل تَرَى فيهِ مِنْ تَفاوُتٍ أو فُطورٍ؛ فإنكَ إنْ رأيتَ فيهِ فُطوراً ظَنَنْتَ في مُدَبِّرِهِ عَدَداً، وإنْ رأيتَ فيهِ تَفاوُتاً ظَنَنْتَ في مُنْشِئِهِ سَفَهاً؛ فإنكَ إذا رأيتَ فيهِ فُطوراً أو شُقوقاً

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

رأيتَ فيهِ تمانُعاً وتدافُعاً، وفي حُصولِ التَّمانُعِ والتَّدافُعِ [حُصولُ العَدَدِ، لأنَّ التّدافُعَ والتَّمانُعَ[1]][2] إنما يقَعُ عندَ ثباتِ العَدَدِ، لأنَّ ما يبني هذا يَهْدِمُهُ الآخَرُ، وينْقُضُهُ. فعندَ ذلكَ يَقَعُ التَّدافُعُ.

وإذا لم ترَ فيهِ فُطوراً أو شُقوقاً، بل تَراهُ مُنَسَّقاً مُجْتَمِعاً دلَّ على وحدانيَّتِهِ وقُدْرَتِهِ وسلطانِهِ، وذلكَ التَّفاوُتُ يدلُّ على السَّفَهِ ونَفْيِ الحِكْمَةِ، وارْتِفاعُ التَّفاوُتِ يَدُلُّ على حِكْمَتِهِ وعَجيبِ تَدْبيرِهِ، فيكونُ في ارْتِفاعِ الفُطورِ والتَّفاوُتِ إثباتُ القولِ بالوحدانيَّةِ وإيجابُ القولِ بالبَعْثِ مِنْ حيثُ ثَبَتَتْ حِكْمتُهُ، وفي نَفْيِ القولِ بالبَعْثِ زوالُ الحِكْمَةِ.

وفيهِ إيجابُ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، لأنَّ العَدَدَ إذا ثَبَتَ كانَ لِلْمُمْتَحَنِ ألَّا يَعْمَلَ حتى يَتَبَيَّنَ لهُ الغالبُ مِنَ المَغْلوبِ، فلا يَضيعَ عَمَلُهُ، أو يَشْتَغِلَ كلٌّ بإقامَةِ سلطانِهِ ونَفاذِ تدبيرِهِ، فلا يَتَضَرَّعَ لِلألَمِ بالمِحْنَةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾؟ [المؤمنون: ٩١] قيلَ: يذهبُ كلُّ واحدٍ منهمْ بالجزءِ الذي خَلَقَهُ، فَتَظْهَرُ [فُطورٌ][3] وشُقوقٌ، لأنَّ ما خَلَقَ هذا يَمْتازُ عنِ الذي خَلَقَهُ الآخرُ.

فارْتِفاعُ الفُطورِ يَدُلُّ على وحدانيَّةِ الصانعِ، جلَّ جلالُهُ.

وقيلَ في قولِهِ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ / ٥٨٢ ـ ب/ أي مِنْ حيثُ الدلالةُ على وحدانيَّةِ الربِّ تعالى أو مِنْ حيثُ الحِكْمَةُ والمَصْلَحةُ.

فالخَلائقُ كلُّها في المَعاني التي ذَكَرْناها غيرُ مُتَفاوِتةٍ، لا أنْ تكونَ الأشياءُ المُحْدَثَةُ غَيرَ مُتَفاوِتَةٍ في أنفسِها، لأنَّ بينَ السمواتِ والأرضِينَ تَفاوُتٌ، وكذلكَ بينَ الحياةِ والموتِ تَفاوتٌ، ولكنَّ مَنافعَ السماءِ مُتَّصِلَةٌ بِمَنافِعِ الأرضِ، ومَنافعَ أهلِ الأرضِ مُتَّصِلَةٌ بالأرضِ، وقِوامُهُمْ ومَعاشُهُمْ بما يَخْرُجُ منها.

وكُلُّ ذلكَ يَدُلُّ على وحدانِيَّتِهِ وعلى حكمتِهِ ولَطائفِ تدبيرِهِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على رُجوعِ بَصَرِ الوجهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ على رُجوعِ بَصَرِ القَلْبِ، أو يكونَ [رُجوعُ][4] أحَدِهِما على بَصَرِ الوَجْهِ، والثاني على بَصَرِ القَلْبِ.

والأشْبَهُ أنْ يكونَ على بَصَرِ القَلْبِ، لأنهُ قد سَبَقَ منهُ النَّظَرُ إلى السمواتِ والأرضِينَ بِبَصَرِ الوجهِ، وسَبَقَ منهُ العِلْمُ مِنْ حيثُ النَّظَرُ أنهُ لا تَفاوُتَ فيها ولا فُطورَ، فَدَعاهُ إلى أنْ يَنْظُرَ بِبَصَرِ القلبِ، لِيَدُلَّهُ ذلكَ على المعاني، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وقولِهِ[5] تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٩] ولم يُرِدْ بهِ السيرَ بالأقدامِ؛ إذْ قد سَبَقَ منهمُ السيرُ فيها، ولكنَّ مَعْناهُ: أوَلَمْ يَتَفَكَّروا في عَواقِبِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسُلِ: أنهمْ بأيِّ سببٍ أُهْلِكوا، ولأيِّ ذَنْبٍ عوقِبُوا، واسْتُؤْصِلوا؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ الآية: منهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الكَرَّةَ ههنا كِنايةٌ عنْ مَرَّةٍ بَعْدَ مَرَّةٍ، ليسَتْ على تَثْبيتِ العَدَدِ؛ فكأنهُ يكونُ أبداً مُعْتَبِراً ناظِراً في خَلْقِ الرحمنِ. وإلى هذا يَذْهَبُ الحسنُ والأصَمُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ مرَّتينِ، ولكنْ [على][6] اخْتِلافِ الوَقْتَينِ، فتكونَ إحْدَى النَّظْرَتَينِ بالليلِ [وثانِيَتُهُما بالنهارِ، لأنهُ بالليلِ آياتٌ، وبالنهارِ][7] آياتٌ سِواها، وثُبوتُ كلِّ شيءٍ يَدُلُّ على وحدانِيَّتِهِ وعجيبِ حكمتِهِ ونَفاذِ قُدرتِهِ وسُلْطانِهِ، أو تكونَ النَّظْرةُ الأولَى بِبَصَرِ الوَجْهِ، والنَّظْرةُ الثانيةُ بِبَصَرِ القَلْبِ، لأنهُ إذا نَظَرَ النَّظْرَةَ الأولى بِبَصَرِ وجهِهِ، فَرَأى ما فيهِ مِنَ العجائبِ أشْعَرَ قلبَهُ ما رَأى، فيَنْظُرُ فيهِ مَرَّةً أُخرَى بِبَصَرِ القَلْبِ لِيَتَأكَّدَ ذلكَ، ويَتَقَرَّرَ

---

(١) في م: والتناقض. (٢) من م، في الأصل: والتناقض. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال.
(٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من نسخة الحرم المكي، في م: وثانيتهما بالنهار لأنه لا يرى بالليل آيات وبالنهار، في الأصل: بالنهار.

ويجوزُ أنْ تكونَ النَّظْرتانِ جميعاً بِبَصَرِ الوَجْهِ لأنهُ [لا][1] يَسْتوعِبُ النَّظَرَ بالجملةِ في المَرَّةِ الأولَى، فينظُرُ مَرَّةً أُخرَى لِيُدْرِكَ ما غاب عنهُ في المَرَّةِ الأُولَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاسِئًا﴾ أي صاغراً مُسْتَسلِماً مُعْتَرِفاً بالقصورِ عن دَرْكِ كُنْهِ سُلْطانِهِ والإحاطةِ بِعظَمَتِهِ وجلالِهِ ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي مُنْقطِعٌ عنْ دَرْكِ بلوغِ حِكْمتِهِ ونفاذِ أمرِهِ.

ثم الأشْبَهُ أنْ يكونَ المُرادُ بهذا الخِطابِ المُكَذِّبينَ بالبعثِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وإنْ كانَ الخطابُ مُتَوجِّهاً إليهِ في الظاهرِ، لأنهُ إنما أرادَ بالنَّظَرِ في خَلْقِ اللهِ تعالى لِيَتَقَرَّرَ عندهُ عَظَمةُ اللهِ تعالى وسُلْطانُهُ وعجيبُ حِكْمتِهِ ونَفاذُ تدبيرِهِ، ورسولُ اللهِ ﷺ قد كانَ تقَرَّرَ عندهُ عِلْمُ ذلكَ كلِّهِ، فلم يكُنْ يَحْتاجُ إلى النَّظَرِ في ما ذَكَرَ لِيَتقَرَّرَ، فَصُرِفَ إلى المُكَذِّبينَ بالبَعْثِ، فأُمِروا بالنَّظَرِ في ما ذَكَرَ لِيَتقَرَّرَ عندَهُمْ سُلْطانُهُ ونَفاذُ تدبيرِهِ وأنهُ ليس بالذي يُعْجِزُهُ أمرٌ، وأنَّ قُدْرَتَهُ ليستْ بِمُقَدَّرَةٍ بِقِوَى البشرِ، وهُمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ والإحياءَ على تقديرِ الأمورِ بِقِوَى أنفسِهِمْ. فإذا نَظَروا في هذهِ الأشياءِ، وعرفوا فيها لَطائفَ وحِكَماً، لا تُدْرِكُها عقولُهُمْ، وقُوَّةً، لا تَبْلُغُها حِيَلُهُمْ، أدَّى ذلكَ إلى رَفْعِ الإشكالِ عنهمْ وإزاحةِ الرَّيْبِ الذي اعْتَراهُمْ في أمْرِ البَعْثِ، فَيَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ سَمّاها سَماءَ الدنيا لِدُنُوِّها إلى المُخاطَبينَ المُمْتَحَنينَ لا أنْ تكونَ السماءُ الثانيةُ سماءَ الآخِرَةِ. والذي يَدُلُّ على صِحَّةِ ما ذَكَرْنا أنَّ مُقابِلَ الدنيا لَيسَتْ هي الآخِرَةَ، بل مُقابِلُها الأُولَى، ومُقابِلُ الدنيا القُصْوَى، فَثَبَتَ أنْ ليسَ فيها تَثبيتُ أنَّ السماءَ الثانيةَ هي سماءُ الآخِرَةِ.

والمَصابيحُ هي النجومُ، فَذَكَّرَ عِبادَهُ عَظيمَ ما أودَعَ مِنَ النَّعيمِ في النجومِ عليهِمْ، فَجَعَلَ فيها ثلاثةَ أوجُهٍ مِنَ النَّعيمِ:

إحداها: أنهُ جَعَلَها زينةً لِلنّاظرينَ كما قالَ تعالى: ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

ثم هذه الزينةُ إنما تَظْهَرُ عندما تَخفَى على الناظرينَ زينةُ الأرضِ، وذلكَ في ظُلْمَةِ الليالي، فأبْدَلَ اللهُ لهمْ زينةً في السماءِ مَكانَ الزينةِ التي أنشأها في الأرضِ، وفَضَّلَ هذهِ الزينةَ على سائرِها، لأنَّ سائرَها لا يَظْهَرُ إلّا بالدُّنُوِّ إليها والقُرْبِ منها، ثم جَعَلَ هذهِ الزينةَ بحيثُ تَظْهَرُ، فَتُرَى مِنَ البُعْدِ، فَثَبَتَ أنَّ لها فَضْلاً وشَرَفاً على زينةِ الأرضِ.

والنعمةُ الثانيةُ: ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فَجَعَلَها هُدًى مِنْ ظلماتِ أحوالٍ تَقَعُ، فَيَسْلَمُ بها المَرْءُ مِنَ الوقوعِ في المهالكِ.

والنعمةُ الثالثةُ: ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] وفي جَعْلِها رجوماً للشياطينِ رَفْعُ الاشتِباهِ عنِ الخَلْقِ وإخراجُهُمْ مِنْ ظلماتِ الأفعالِ إلى النورِ؛ وذلكَ أنَّ الشياطينَ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فَيَسْتَمِعونَ إلى الأخبارِ التي يَتَحادثُ بها أهلُ السماءِ في ما بَيْنَهُمْ ممّا يُرادُ بأهلِ الأرضِ، فَيَسْتَرِقونَ السَّمْعَ منهمْ، فيأتونَ بها أهلَ الأرضِ، ويُلْقونَها إلى أهلِ الأرضِ بَعدَ ما يَخْلِطونَها بأكاذيبَ مِنْ عندِ أنفسِهِمْ، فَيُشَبِّهونَ على الخلائقِ، ويُضِلُّونَهُمْ بذلكَ عنْ سبيلِ اللهِ تعالى، فَمَلأَ السماءَ بالحَرَسِ والشُّهُبِ لِيَدْفعوا الشياطينَ عنِ استِراقِ السَّمْعِ لِيكونَ تبليغُ الأخبارِ إلى أهلِ الأرضِ بِمَنْ يُؤْمَنُ عليهِ [مِنَ][2] الكَذِبِ، وهو الرسولُ ﷺ، فَتَسْلَمَ تلكَ الأخبارُ مِنَ التَّخاليطِ والشُّبَهِ، فَيَسْلَمَ الناسُ منَ الوقوعِ في الظلماتِ.

ثم يكونُ في جَعْلِ النجومِ زينةَ السماءِ أنَّ أهلَ السماءِ قدِ ابْتُلوا أيُّهُمْ أحسَنُ عَمَلاً كما ابْتُلِيَ بهِ أهلُ الأرضِ. ألا ترَى إلى ما ذَكَرَ في أهلِ الأرضِ في قولِهِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ [الكهف: ٧] فأخبرَ أنَّ الزينةَ لِلامْتِحانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ فيهِ أنهمْ، وإنْ عُذِّبوا بالنيرانِ التي جُعِلَتْ في النجومِ الرُّجومَ لا تدفَعُ عنهمْ ما استَوجَبوا مِنَ العذابِ الدائمِ، بل قد أعَدَّ لهمْ عذابَ السعيرِ كما أعَدَّ لِغَيرِهِمْ مِنَ الشياطينِ وأهلِ الكُفْرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فالمَصيرُ هو الطريقُ، أي فبِئسَ الطريقُ طريقُ مَنْ سَلَكَهُ أفضَى بهِ إلى عذابِ السَّعيرِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ والشهيقُ الصوتُ المُنْكَرُ. مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي لجهنَّمَ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الشهيقَ مِنْ أهلِها. وقد يجوزُ أنْ يُذْكَرَ المكانُ، والمُرادُ منهُ الأهلُ كما قالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] وكِلا الأمْرَينِ يَحْتَمِلُ عندَنا.

ولا يُحتاجُ إلى معرفةِ ذلكَ لأنَّ الصوتَ المُنْكَرَ أمْرٌ ظاهرٌ مِمَّنْ لا يَعْقِلُ الصوتَ [كَهُوَ مِمَّنْ يَعْقِلُ، فليسَ الذي يَعْقِلُ الصوتَ][1] أولَى أنْ يُجْعَلَ الفِعْلُ لهُ مِنَ الذي لا يَعْقِلُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تَغْلي[2]. ثم النارُ بِنفسِها لا تَغْلي، وإنما تَغْلي بالذي يُجْعَلُ فيها، ففيهِ أنَّ طعامَهُمْ وشرابَهُمْ في النارِ، فَتَغْلِي النارُ بطعامِهِمْ وشرابِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا كِنايةً عنِ الخَزَنةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ هذا وَصْفَ النارِ، ولله[3] تعالى أنْ يَجْعَلَ في جهنمَ وفي ما شاءَ مِنَ الأصواتِ / ٥٨٣ ـ أ/ ما تُعْرَفُ فيهِ عَظَمتُهُ وجلالُهُ، فَيَغْضَبُ لهُ على أعدائِهِ غَضَباً، يكادُ يَتَقَطَّعُ في نَفْسِهِ، ويَسْلَمَ لأوليائِهِ[4].

ثم في ذِكْرِ غَضَبِها تذكيرٌ أنَّ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى على أوليائِهِ أنْ يَغْضَبوا لهُ على أعدائِهِ غَضَبَ جهنَّمَ، بل جهنَّمُ أبْعَدُ مِنْ أن تُمْتَحَنَ بذلكَ مِنّا.

ثم هي بَلَغَتْ مِنَ الغضبِ على أعداءِ اللهِ مَبْلَغاً كادَتْ تَتَقَطَّعُ [في نفسِها][5].

فالأولياءُ أحقُّ أنْ يوجَدَ منهمْ مِنَ الشِّدَّةِ على الأعداءِ؛ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقولُهُ[6] تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وهكذا الحقُّ على كلِّ مؤمنٍ أنْ يكونَ على هذا الوصفِ.

وفيهِ حِكْمةٌ أُخرَى، وهي[7] أنهُ ذَكَرَ شِدَّةَ النارِ على أهلِها لئلّا يقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُكُمْ لِقاءَ يومِكُمْ هذا.

الآية ٩ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ وهذا هو إخبارٌ عنْ نهايةِ أمْرِهِمْ وآخِرِ شأنِهِمْ؛ وذلكَ أنهمْ فَزِعوا في الآخِرَةِ إلى اليمينِ بالكَذِبِ، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] رجاءَ أنْ يَنْفَعَهُمْ ذلكَ في الآخرةِ كما كانَتْ تَنْفَعُهُمْ في الدنيا، فلمّا أُلْقُوا فيها أيْقَنوا أنَّ أيمانَهُمْ لا تَدْفَعُ عنهمُ العذابَ، وفَزِعوا إلى الاعْتِرافِ والصدقِ رَجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ، فقالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ يُنْذِرُنا بِلقاءِ هذا اليومِ ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ بالذي كانَ يُنْذِرُنا النُّذُرُ ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ ممّا يُنْذِرونَنا بِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ القائلُ لهم بهذا هُمُ الخَزَنَةُ، وهذا خِطابٌ في الدنيا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ اعْتِرافٌ منهمْ بأنهمْ قد سَمِعوا، وعَقَلوا، وقولُهُ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ ليسَ هو على نَفْيِ السَّمْعِ والعقلِ، إذْ قد أقَرّوا أنهم سَمِعُوا، وإنما هو على

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: تغاظى. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من أوليائه. (٥) في الأصل وم: بنفسها. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) ساقطة من الأصل وم.

نَفْيِ الانتِفاعِ بما سَمِعوا، أو عَقَلوا؛ لأنَّ الانتِفاعَ بالمَسْموعِ، هو الإجابةُ لِما سُمِعَ، والانتِفاعَ بالعقلِ أنْ يُقامَ[1] بِوَفاءِ ما عُقِلَ. وهُمْ لم يُجيبوا لِما سَمِعوا، ولم يَقوموا بِوَفاءِ ما عَقَلوا.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ في الدنيا كما نَسْمَعُ الآنَ، أو كُنّا نَعْقِلُ[2] [كما نَعْقِلُ] الآنَ ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهذا غَيرُ مُسْتَقيمٍ لأنَّ تلكَ الدارَ، ليسَتْ بِدارِ إسماعٍ وإفهامٍ، وإنما المَعْنَى ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بُعْداً على مَعْنَى الدعاءِ عليهِمْ، وقيلَ: السُّحْقُ: وادٍ في جهنَّمَ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [يَحْتَمِلُ][3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ عذابَ ربِّهِمْ، والعذابُ عنهمْ غائبٌ؛ فأهلُ الإسلامِ يَخْشَونَ عذابَ اللهِ، وهو غائبٌ عنهمْ، والكَفَرةُ لا يَخْشَونَهُ إلّا أنْ يُعايِنوهُ[4].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي يَخْشَونَ اللهَ تعالى أنْ يُعَذِّبَهُمْ، أو يَخْشَونَهُ[5] في ما أوعَدَهُمْ.

ثم الأصلُ أنَّ ما مِنْ مُؤمنٍ بالبَعْثِ سِوَى المعتزلةِ إلّا وهو يَخْشَى اللهَ تعالى. لكنهمْ يَتَفاوَتونَ في الخَشْيَةِ.

ثم الخَشْيَةُ تَقْتَضي الرَّجاءَ، والخَوفُ ليسَ كالآخَرِ، والإياسُ الذي لا يَقْتَضي كلَّ واحدٍ منهما إلّا وَجْهاً واحداً.

وإذا كانَتِ الخَشْيَةُ تَقْتَضي ما ذَكَرْنا فكلُّ مؤمنٍ يَخافُ عذابَ اللهِ تعالى لِما رَأى مِنْ كثرةِ نِعَمِ اللهِ تعالى وغَفْلَتِهِ عن حقوقِ تلكَ النِّعَمِ، لأنَّ مِنْ حقِّها أنْ يَشْكُرَ اللهَ تعالى عليها، وقد عَرَفَ كلُّ مؤمنٍ تقصيرَهُ في أداءِ الشُّكْرِ وتَفريطَهُ في قَضاءِ الحقوقِ فيَرْجو رَحْمَتَهُ لِما عَرَفَ مِنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وعَرَفَهُ مُفَضِّلاً عَفُوّاً غَفوراً. لكنْ فيهمْ تَفاوُتٌ في الخَشْيَةِ والرَّهْبَةِ.

فَمَنْ كانَ أذْكَرَ[6] لِغَفْلَتِهِ فهو لِعقوبتِهِ أكثرُ خَشْيَةً، ومَنْ كانَ أقَلَّ ذِكْراً لِغَفْلَتِهِ فهو أقلُّ خَشْيَةً، فَيَتَفاوتونَ على تَفاوُتِهِمْ في الذِّكْرِ، وهو كالموتِ الذي يَرْهَبُهُ الناسُ جميعاً، ويَتَيقَّنونَ بِحلولِهِ، لكنهمْ يَتَفاوتونَ في ذلكَ؛ فَمَنْ كانَ لهُ أكْثَرَ ذِكْراً كانَ أبْلَغَ في التَّيَقُّظِ وأكْثَرَ رَهْبَةً، ومَنْ كانَ أغْفَلَ عنْ ذِكْرِهِ فهو أقَلُّ رَهْبَةً.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ جَعَلْتُمْ كلَّ مؤمنٍ خائفاً راجياً، والراجي، هو الذي يَطْلُبُ، والخائفُ، هو الذي يَهْرُبُ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجا شيئاً يَعْلَمُ أنهُ لا وُصولَ إليهِ إلّا بأعمالٍ وأسبابٍ، فهو يقومُ بتلكَ الأعمالِ بغايةِ ما يَحْمِلُهُ وُسْعُهُ لِيَصِلَ إلى مأمولِهِ، وإذا لم يَكُنْ راجياً في الحقيقةِ، بل كانَ مُتَمَنِّياً. وكذلكَ مَنْ خافَ حقيقةَ الخَوفِ، وعَلِمَ أنَّ المَخوفَ نازلٌ بهِ إنْ لم يَهْرُبْ مِمّا يَخافُهُ أشَدَّ الهَرَبِ.

ثم كثيرٌ مِنَ المؤمنينَ تَراهُمْ مُقَصِّرينَ في الأعمالِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى بلوغِ الآمالِ، ولا يَهْرُبونَ مِمّا يُخافُ منهُ أشَدَّ الهَرَبِ وغايةَ الخَوفِ، فكيفَ وَصَفْتُمْ كلَّ مؤمنٍ بالخَوفِ والرَّجاءِ، وكثيرٌ منهمْ لا يَتَحَقَّقُ فيهمْ هذا الوصفُ؟

واسْتُدِلَّ على صحةِ ما ذُكِرَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨] فالراجي رَحْمةَ اللهِ مَنْ دَأبَ في طاعتِهِ، وقولِهِ[7] تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فقيلَ: يا رسولَ اللهِ أهُمُ الذينَ يَزْنونَ، ويَسْرِقونَ؟ فقالَ: بل هُمُ الذينَ يَصومونَ، ويُصَلّونَ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ وقولِهِ[8] تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فجوابُهُ أنَّ المؤمنَ ليسَ يَرَى كلَّ خَلاصِهِ مِنَ العذابِ وأمْنَهُ مِنَ العقابِ بِعَمَلِهِ حتى إذا وَجَدَ التَّقْصيرَ في العَمَلِ أظْهَرَ ذلكَ المَعْنَى فَسادُ الرَّجاءِ والخَوفِ، وإنما يَتَوَقَّعُ خلاصَهُ بِعَفْوِ اللهِ تعالى، ويرجو رَحْمَتَهُ بكرمِهِ وجودِهِ؛ لِذلكَ لم يُوجِبِ التَّقْصيرُ في العملِ إبطالَ الرَّجاءِ والخَوفِ. هذا إذا كانَ غَيرَ مُعْتَزِلِيِّ المذهبِ، ولم يَكُنْ مِنَ الخَوارجِ.

أمّا إذا كانَ الراجي والخائفُ أحدَ هذينِ فَتَقْصيرُهُ في العملِ يَدُلُّ على فَسادِ الرَّجاءِ والخَوفِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما، ليسَ يَرَى لنفسِهِ شفيعاً إلّا عَمَلَهُ، بهِ يَنْجو، وبهِ يهلِكُ. فإذا لم يُبالِغْ في الطَّلَبِ مِنْ جهةِ العملِ، ولم يُبالِغْ في الهَرَبِ مِنَ الخَوفِ بالعَمَلِ ظَهَرَ أنهُ ليسَ بِراجٍ، ولكنهُ مُتَمَنٍّ، ويَتَبَيَّنُ أنهُ غيرُ خائفٍ في الحقيقةِ.

---

(١) في الأصل وم: يقوم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أن يخشوه. (٦) في الأصل وم: إذا ذكر. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقال.

ثم المعتزلةُ، لا يَخافونَ اللهَ تعالى، ولا يَرْجونَ رحمَتَهُ في الحقيقةِ، لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ العبدَ إذا ارْتَكَبَ الكَبيرةَ فليسَ للهِ تعالى ألّا يُعَذِّبَهُ عليها وأنْ يَغْفِرَها لهُ، وإذا اجْتَنَبَ الكَبيرةَ اسْتَوجَبَ المَغْفِرَةَ. وإنِ ارْتَكَبَ الصغائرَ ليسَ للهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَهُ عليها.

والقائلُ بهذا غَيرُ راجٍ رحمةَ اللهِ تعالى ولا خائفٍ مِنْ عذابِهِ، وإنما يَقَعُ الخَوفُ والرجاءُ مِنْ عندِ نفسِهِ لأنَّ الزَّلَّةَ التي اسْتَوجَبَ بها العذابَ، هو الذي اكْتَسَبَها، ولو لم يَعْمَلْها لم يُعَذَّبْ، وفازَ بالنجاةِ، فَصارَ رجاؤُهُ وخلاصُهُ بِعَمَلِهِ لا بِرَحْمةِ اللهِ تعالى وفَضْلِهِ، ولا بذلكَ وَصْفُ اللهِ تعالى وفَضْلُهُ، ولا بذلكَ وَصْفُ اللهِ تعالى المؤمنينَ في كتابِهِ. ولأنَّ اللهَ تعالى أثْنَى على الذينَ يَدْعونَهُ خَوفاً ورَغَباً ورَهَباً.

وعلى قولِ أهلِ الاعْتِزالِ لا يَدْعُو أحدٌ ربَّهُ على الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخَوفِ والطَّمَعِ، لأنَّ الداعِيَ إنْ كانَ صاحبَ كبيرةٍ فهو في ما يَدْعو اللهَ تعالى لِيَغْفِرَ لهُ إنما يَدْعُو لِيجورَ عليهِ؛ إذْ لا يَسَعُهُ أنْ يَغْفِرَ لَهُ، ولا [أنْ][1] يُعَذِّبَ عليهِ. فَدُعاؤُهُ بالمَغْفِرَةِ مَعناهُ يَقْتَضي [أنْ يَجورَ عليهِ][2] وذلكَ عظيمٌ.

وإنْ كانَ صاحبَ صغيرةٍ فهو في ما يَطْلُبُ المَغْفِرَةَ منهُ تعالى يَسْألُهُ ألّا يَجورَ عليهِ لأنهُ ليسَ لهُ أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ على مذهبِهِ /٥٨٣ ـ ب/ ولو عَذَّبَ صارَ بهِ جائراً.

فإذا خافَ عذابَهُ حتى إذا فَرَغَ إلى الدعاءِ خافَ جَورَهُ، ومَنْ لم يَأْمَنْ مِنْ ربِّهِ الجَورَ، بل خافَ ذلكَ منهُ، فهو لم يَعْرِفْ ربَّهُ حقيقةَ المَعْرِفةِ.

وكذلكَ مَنْ دعا اللهَ تعالى لِيَجورَ عليهِ فقد دعا إلى أنْ يُسَفَّهَ، والسفيهُ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً. فَثَبَتَ أنَّ الداعيَ على الرَّغْبَةِ والرَّهْبَةِ غَيرُ مَمْدوحٍ عندَهُمْ ولا هو مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الثناءَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي مَنْ يَرْجو اللهَ تعالى، ويَخافُهُ، فَلَهُ مَغْفِرَةٌ لذنوبِهِ وأجرٌ كبيرٌ، وهو الجنةُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهذهِ الآيةُ، كأنها في إلزامِ الوَعيدِ؛ يقولُ: إنهُ عالمٌ بالأنفسِ التي فيها الصدورُ بما يُضْمِرونَ فيها، ويُودِعونَ، ويَكْتُمونَ، وبما يُخْبِرونَ عمّا أودَعوا، ويُظْهِرونَ.

والصدرُ، هو ساحةُ القَلْبِ سُمِّيَ صَدْراً لأنَّ الآراءَ تَصْدُرُ عنها، فهو عالِمٌ بالأنفسِ التي لها الصدورُ بما يَصْدُرُ عنْ آرائِهِم، وعالِمٌ بما يُضْمَرُ فيها منَ الأسرارِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ تأويلُهُ عندَ أهلِ الإسلامِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مِمّا أسَرُّوا، وجَهَروا؟ و﴿مَنْ﴾ راجعٌ إلى اللهِ تعالى دونَ الخَلْقِ، كأنهُ يقولُ: ألا يَعْلَمُ الخالقُ ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وفيهِ إثباتُ خَلْقِ الأفعالِ والأقوالِ وخَلْقُ الشَّرِّ، فيكونُ حُجَّةً لنا على المعتزلةِ في خَلْقِ أفعالِ العبادِ.

وقالَ جَعْفَرُ بْنُ حربٍ وأبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ حَرْفَ ﴿مَنْ﴾ لا يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى، وإنما يَرْجِعُ إلى الخَلْقِ، فكأنهُ يقولُ: ألا يَعْلَمُ اللهُ مَنْ خَلَقَ على إضمارِ اسْمِ اللهِ تعالى؟ فاحْتالا بهذهِ الحيلةِ لِنَفْيِ الخَلْقِ عنِ الأفعالِ لأنَّ حَرْفَ ﴿مَنْ﴾ يَرْجِعُ إلى الأنفسِ دونَ الأفعالِ والأقوالِ.

وذلكَ فاسدٌ لأنَّ الآيةَ في مَوضِعِ الوعيدِ. ولو كانَ قولُهُ: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ راجعاً إلى الأنفسِ لَزالَ مَوضِعُ الوَعيدِ؛ إذْ ليسَ في خَلْقِ الأنفسِ وعِلْمِ اللهِ بها إثباتُ العِلْمِ بأفعالٍ وُجِدَتْ منهمْ، ولا في خَلْقِ الأنفسِ إيجابُ الوَعيدِ بالأفعالِ.

ولأنهُ لو لم يَكُنِ اللهُ تعالى خالقاً لِما يَجْهَرُ بهِ العبدُ ولِما يُخْفيهِ لم يَكُنْ لِيُحْتَجَّ بهِ على عملِهِ، إذْ قد يجوزُ جوازُ الجَهْلِ لِغَيرِ الذي يَفْعَلُهُ، فلا يجوزُ أنْ يُحْتَجَّ عليهمْ بِفِعْلِ غَيرِهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أن جر على.

ولأنهُ ليسَ في إثباتِ العِلْمِ بِخَلْقِ الأنفسِ إثباتُ العِلْمِ بِما أسَرُّوا، وجَهَروا، كما لم يكُنْ عندَ المعتزلةِ في إيجابِ الخَلْقِ لنفسِ الإنسانِ إيجابُ الخَلْقِ لأفعالِهِمْ.

ومَعْلومٌ بأنَّ الآيةَ في تحقيقِ العلمِ بما أسَرُّوا، وجَهَروا، لأنَّ قولَهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مذكورٌ على إثْرِ قولِهِ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ وقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي عليمٌ بِما تُسِرّونَ وما تَجْهَرونَ، فَثَبَتَ أنَّ الخَلْقَ راجعٌ إلى ما أسَرُّوا، وجَهَروا.

ثم إنَّ الناسَ على اختلافِهِمُ اتَّفَقوا أنَّ كلَّ واقعٍ بالطَّبْعِ والضرورةِ مَخلوقُ اللهِ تعالى. وإنما اختَلَفوا في الواقعِ بِكَسْبِ العبدِ؛ فمنهمْ مَنْ أثْبَتَ فيهِ الخَلْقَ، وهو قولُ أهلِ الهُدَى، ومنهم مَنْ أبَى القولَ بِخَلْقِهِ.

ثم المَرْءُ لا يَتَهَيَّأُ لهُ اسْتِعْمالُ اليدِ إلّا في الوَجْهِ[1] الذي جُعِلَ في طَبْعِ اليَدِ احْتِمالُ ذلكَ المَعْنى[2] ولا يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يَسْتَعْمِلَها[3] في الوجهِ الذي لم يُجْعَلْ في طَبْعِها احْتِمالُ ذلكَ؛ لأنهُ لو أرادَ أنْ يَرَى بِيَدَيهِ، أو يَسْمَعَ بهما، لم يَمْلِكْ ذلكَ. فَثَبَتَ أنهُ مَلَكَ اسْتِعْمالَها في القَبْضِ والأخذِ والتَّسْليمِ بما جُعِلَ في طَبْعِها اسْتِعْمالُ ذلكَ، وإذا كانَ كذلكَ فقد ثَبَتَ الخَلْقُ في ما يَعْمَلُ بيديهِ، وفي ما يَرَى بِعَيْنَيهِ، ويَسْمَعُ بأذنَيهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ في تَدْبيرِهِ؛ إذْ دَبَّرَ لسانَ الإنسانِ على ما إذا اسْتَعْمَلَهُ يَخْرُجُ منه الكلامُ. ولو أرادَ أحَدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنى الذي بهِ صَلَحَ النُّطْقُ لم يَقِفْ عليهِ.

ودَبَّرَ قَلْبَهُ على أنْ يُصَوِّرَ ما وَقَعَ فيهِ منَ الخَيالِ، فَيُؤَدِّيَهُ بلسانِهِ، ودَبَّرَهُ على وَجْهٍ يَصْلُحُ أنْ يُوعَى الأسرارَ والودائعَ مِنْ وجْهٍ لو أرادَ الخلائقُ أنْ يَتَعَرَّفوا الوجهَ الذي صَلَحَ القَلْبُ أنْ يكونَ مُصَوِّراً وحافظاً ومَعْدِناً للأسرارِ لم يَقِفوا عليهِ

وقيلَ: ﴿اللَّطِيفُ﴾ هو الذي لا يَعْزُبُ عنهُ عِلْمُ ما جَلَّ، ودَقَّ. وقيلَ: ﴿اللَّطِيفُ﴾ بِعبادِهِ في الإحسانِ إليهِمْ والإنعامِ عليهِمْ ﴿الْخَبِيرُ﴾ بما فيه مصالِحُهُمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الآية؛ وإذا ذَلَّلَ لَكُمُ الأرضَ لِتَمْشوا في مَناكِبِها، وتأكُلوا مِنْ رزقِهِ، فلا يجوزُ أنْ يكونَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً، فلا بُدَّ مِنَ الرجوعِ إليهِ لِيَسْألَكُمْ عمَّ لهُ خَلَقَ؟ أو فيمَ خَلَقَ؟ أو لِمَ تَقَوَّلوا[4]؟

وذلكَ أنَّ المَرْءَ في الشاهدِ إذا أعْطَى إنساناً مالاً لِيَسْتَعْمِلَهُ في وجهةٍ مِنَ الجهاتِ فلا بُدَّ مِنْ أنْ يَرْجِعَ إليهِ، فَيَسْألَهُ هلِ اسْتَعْمَلَهُ في الذي أذِنَ لهُ فيهِ، أم لا؟

وإذا ثَبَتَ أنهُ لم يَخْلُقْها عَبَثاً باطلاً، وإنما خُلِقَتْ لِلْمِحْنَةِ فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُنْشَروا إليهِ، لِيُخْبِروهُ عمّا بَلاهُمْ بهِ، وامْتَحَنَهُمْ.

ثم احْتَمَلَ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية: ٢] وقولِهِ تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [الآية: ٣].

فَخَلَقَ [تلكَ السمواتِ][5] كلَّها لِيَمْتَحِنَ أهلَها بها. فَعَلَى ذلكَ خَلَقَ الأرضَ ذلولاً لِيَبْلُوَكُمْ بها. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الآية: ٣].

فأمَرَ هناكَ بالنَّظَرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: هل تَرَى فيه تَفاوُتاً أو فُطوراً؟ لِيَتَبَيَّنَ عندَهُ إذا لم يَرَ فيهِ تَفاوُتاً ولا فُطوراً وَحدانيّةُ الرَّبِّ وقُدْرَتُهُ وسُلْطانُهُ وحِكْمَتُهُ، فأمَرَهُمْ أيضاً بالمَسيرِ في الأرضِ والمَشْيِ في مَناكِبِها، وهي أطرافُها، هل يَرَونَ فيها فُطوراً وتَفاوُتاً؟ فإذا لم يَرَوا فيها شيئاً مِنْ ذلكَ تَقَرَّرَ عندَهُمْ جميعُ ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمَةِ هناكَ.

---

(١) في الأصل وم: العمل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: العمل. (٣) في الأصل وم: العمل. (٤) في الأصل وم: يستعمله. (٤) في الأصل وم: تقوا.
(٥) في الأصل وم: ذلك.

فهو في قولِهِ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ موجودٌ، ولأنهُ ذَكَّرَهُمْ لطيفَ تدبيرِهِ في خَلْقِ الأرضِ وما لَهُ على الخَلْقِ مِنْ عظيمِ النِّعْمةِ في حقِّهِ، وهو أنهُ قَدَّرَ لهمْ فيها أرزاقَهُمْ إلى حيثُ يَمْشونَ فيها، وهَيَّأَ لهمُ الرزقَ هناكَ، لا[1] يَحْتَمِلُ أنْ يُذَلِّلَ لهمُ الأرضَ، فَيضربوا[2] فيها حينَ[3] شاؤوا، ويَسْتَخرِجوا[4] منها أقواتَهُمْ[5] أينما تَصَرَّفوا، عَبَثاً باطلاً. بل لا بُدَّ أنْ يَسْتَأْدِيَكُمْ شُكْرَ ما[6] أنْعَمَ عليكُمْ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ هذهِ الآيةُ في مَوضِعِ المُحاجَّةِ على [مُنكِري البعثِ في وجوهٍ:

أحَدُها: أنهُ][7] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: إذا أنْكَرْتُمُ البعثَ، وقد عَرَفْتُمُ الفَرْقَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ وبينَ المُطيعِ والعاصي، فكيفَ أَمِنْتُمْ عذابَهُ في الدنيا أنْ يَنْزِلَ بكُمْ مِنْ فوقِ رؤوسِكُمْ ومِنْ تحتِ أرجُلِكُمْ؟ أو قد عَصَيتُموهُ، وعادَيتُموهُ بِتَكْذيبِكُمْ رسولَهُ واختيارِكُمْ عبادةَ غيرِهِ، فكيفَ أَمِنْتُمْ نُزولَ عذابِهِ عليكُمْ في حالتِكُمْ هذهِ، وأنتمْ لا تُقِرّونَ بالآخِرَةِ لِيَتَأَخَّرَ عنكُمُ العذابُ؟

ثم قولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ أي قد أَمِنْتُمْ.

والثاني: أنكمْ كيفَ أَمِنْتُمْ عذابَ اللهِ تعالى، وأنتمْ تُنْكِرونَ البعثَ لِتَكونَ المحنةُ في الدنيا لِلْجزاءِ في الآخِرَةِ؟ وهُمْ يَرَونَ المِحْنَةَ في الدنيا لأنهمْ كانوا يَزْعُمونَ أنَّ مَنْ وُسِّعَ عليهِ النعيمُ في الدنيا فإنما وُسِّعَ جزاءً لِعَمَلِهِ، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ العيشُ فإنما ضُيِّقَ عُقوبةً لهُ بما أساءَ مِنْ عَمَلِهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ابْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ و١٦].

فكانوا يُعِدّونَ التَّضْييقَ والتَّوسيعَ في الدنيا جَزاءً لِصَنيعِهِمْ، وكانوا يُقِرّونَ بالمِحْنَةِ في الدنيا.

والمِحْنَةُ تكونُ مِنَ الرجاءِ والخَوفِ، وقد رَجَوتُمْ إنزالَ الرزقِ عليكُمْ مِنَ السماءِ، ورَجَوتُمْ أنْ يُخْرِجَ لكمْ مِنَ الأرضِ ما تَتَعَيَّشونَ بهِ، وتُرْزَقونَ منهُ، فكيفَ لا تَحْذَرونَ نزولَ العذابِ عليكُمْ مِنَ السماءِ أو إتيانَهُ مِنَ الأرضِ كما رَجَوتُمُ النَّفْعَ منهما /٥٨٤ ـ أ/ جميعاً.

والثالثُ: أنكمْ إذا أنْكَرْتُمُ الرسولَ، وجَحَدْتُموهُ، وقدِ انْتَهى إليكُمْ حالُ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنْ مُكَذِّبي الرسُلِ، كيفَ عُذِّبوا، واسْتُؤْصِلوا؟ فمنهُمْ من أُهلِكَ بإمطارِ الحجارةِ عليهِ مِنَ السماءِ، ومنهمْ مَنْ أُهْلِكَ بالخَسْفِ بالأرضِ، فكيفَ أَمِنْتُمْ أنتمْ أنْ يَنْزِلَ عليكُمْ ما نَزَلَ بهِمْ، وقد أُوجِدْتُمْ أنتمْ، وتعاطَيتُمْ ما تَعاطاهُ الذينَ أُهْلِكوا مِنَ التَّكذيبِ؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ أرادَ [بـ ﴿فِى السَّمَآءِ﴾][8] نفسَهُ؛ أخبَرَ أنهُ إلهُ السماءِ لا على تَثْبيتِ أنهُ في الأرضِ سِواهُ وعلى النَّفْيِ أنْ يكونَ [هو][9] إلهَ الأرضِ، بل هو في السماءِ إلهٌ وفي الأرضِ إلهٌ. هذا كقولِهِ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] ليسَ فيهِ أنَّ النَّجْوى إذا كانَتْ بَينَ اثْنَينِ فهو لا يكونُ ثالِثَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى السَّمَآءِ﴾ أي آمِنْتُمْ مَنْ في السماءِ مُلْكُهُ وسُلْطانُهُ؟ ولم يَرَوا أحداً انتهى مُلْكُهُ إلى السماءِ، فكيفَ تأمَنونَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ السماءَ في مُعاداتِكُمْ إياهُ، وأنتمْ لا تَجْتَرِئونَ على مُعاداةِ مَلِكٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ الذي يُجاوِزُ مُلْكُهُ الأرضَ [تَنْبيهاً منهُ وتخويفاً][10] مِنْ سُلْطانِهِ، فيكفَ تأمَنونَ عذابَ مَنْ بَلَغَ مُلْكُهُ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ قيلَ: تَهْوي في الأرضِ أبداً إلى أَسْفَلِ السافِلينَ. وقيلَ: تمورُ بأهلِها بِقَعْرِها على ما كانَتْ مِنْ قَبْلُ تمورُ على ظَهْرِها قبلَ أنْ تُوَتَّدَ بالجبالِ.

---

(١) في الأصل وم: ولا. (٢) في الأصل وم: فيضربون. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: ويستخرجون. (٥) في الأصل وم: أقواتها. (٦) من م، في الأصل: الذين. (٧) في الأصل: منكر البعث كأنه، في م: منكري البعث كأنه. (٨) في الأصل وم: بعلى. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: تنبيه منه وخوفاً.

الآية ١٧ [وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾][1] والحاصِبُ الحجارةُ:

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي سَتَعْلَمونَ حالَ نُذُري الذينَ أنْذَروكُمْ بالعذابِ أنهمْ كانوا مُحِقِّينَ فيهِ، ولم يكونوا كاذبينَ كما زَعَمْتُمْ. أو سَتَعْلَمونَ ما أنْذَرْتُكُمْ بِهِ إذا وَقَعَ العذابُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يُذَكِّرُهُمْ حالَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ المُكَذِّبينَ وما حَلَّ بهِمْ لِيَرْتَدِعوا عنِ التَّكذيبِ، فلا يَحِلُّ بهمْ ما حَلَّ بأولئكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيفَ كانَ إنكاري عليهِمْ؟ أليسَ وَجَدوهُ شديداً وحقّاً؟

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ قيلَ: ﴿صَافَّاتٍ﴾ بأجْنِحَتِها لا يَتَحرَّكُ منها شيءٌ ﴿وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا﴾ اللهُ تعالى في الحالَيْنِ جميعاً؟ أعْني القَبْضَ والبَسْطَ، كقولِهِ[2] في آيَةٍ أُخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩] أي لآياتٍ للمؤمنينَ على الكَفَرَةِ.

وهكذا شأنُ الآياتِ: أنها جُعِلَتْ آياتٍ للمؤمنينَ والأولياءِ على الكَفَرةِ والأعداءِ، لأنَّ الكَفَرَةَ تَصِلُ إليهِمُ الآياتُ على ألسنِ الرسُلِ والأنبياءِ والأولياءِ، فَجُعِلَتِ الآياتُ آياتٍ للمؤمنينَ لِيَحْتَجُّوا بها على أهلِ الكُفْرِ.

ثم الهواءُ ليسَ بمكانٍ يُمْسِكُ ما عليهِ مِنَ الأشياءِ مِثْلَ السماءِ والأرضِ في ما أُنْشِئتا على حَدِّ يُمْسِكانِ الأشياءَ، وتَقِرُّ عليهما الخلائقُ. وإذا كانَ كذلك فإنَّ اللهَ تعالى بلطْفِهِ أمسَكَ الطيرَ وَقْتَ طَيَرانِها وَوَقْتَ قَبْضِها في الهواءِ. ومَنْ قَدَرَ على إمساكِ الطَيرِ معَ وَقْفِهِ وتَقْريرِهِ في مَكانٍ، لا تَقِرُّ فيهِ الأشياءُ، قادرٌ على ما يشاءُ.

ثم في هذهِ الآيةِ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِ الطَيرِ صُنْعاً وتَدْبيراً على ما يَشاءُ لأنَّ الفِعْلَ الذي يُوجَدُ مِنَ الطائرِ الطَّيَرانُ، إذا طارَ، والوقوفُ، إذا قَبَضَ، ثم أضافَ فِعْلَ الإمساكِ وَكُلَّ ذلكَ إلى نفسِهِ.

وذَكَرَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ في قولِهِ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] أنَّ الإمساكَ كنايةٌ عنِ التعليمِ وعِبارَةٌ عنهُ، لأنهُ قد يُعَبَّرُ بالإمساكِ عنِ التَّعليمِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ في ما يُعَلِّمُهُ الرِّمايةَ: أمْسَكْتُ على يدِهِ حتى رَمَى، فَيُريدُ بِهِ أي تَوَلَّيْتُ تَعْليمَهُ الرِّمايةَ. فقولُهُ: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي ما يُعَلِّمُ إمساكَهُنَّ وقتَ الطَّيَرانِ إلّا اللهُ تعالى، وكذلكَ وقتَ القَبْضِ.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ القائلَ يقولُ: أمْسَكْتُ على يدِهِ حتى رَمَى؛ إنما يُسْتَحَبُّ[3] إطلاقُ اللفظِ[4] نفسِهِ إذا وُجِدَ منهُ فِعْلُ الإمساكِ في وقتِ ما هَمَّ الرامي بالرَّمْيِ، وإذا لم يوجَدْ منهُ في ذلكَ الوقتِ فِعْلُ الإمساكِ لم يَسْتَقِمْ أنْ يقولَ: أمْسَكْتُ على يدِهِ، وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَهُ الرَّمْيَ.

ألا تَرَى أنَّ مَنْ عَلَّمَ آخَرَ الخِياطةَ حتى اهْتَدَى الخِياطةَ إذا خاطَ ثوباً لم [يُسْتَحَبَّ مِنْ][5] أستاذِهِ أنْ يقولَ: أنا الذي خِطْتُهُ؟ وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَهُ الخِياطةَ، وكذلكَ مَنْ بَنَى بِناءً لم يَسْتَقِمْ مِنْ أستاذِهِ أنْ يُضيفَ فعلَ البناءِ إلى نفسِهِ، فيقولَ: أنا الذي بَنَيْتُهُ، ويُريدُ بِهِ أنا الذي عَلَّمْتُهُ، وإذا لم يَسْتَقِمْ هذا بَطَلَ أنْ يُضافَ فِعْلُ الإمساكِ إلى اللهِ تعالى، ولا فِعْلَ لَهُ في ذلكَ سِوَى التَّعْليمِ.

فلو كانَتِ الإضافةُ إليهِ مِنْ حيثُ التَّعْليمُ لَجازَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فِعْلُ الخياطةِ وفِعْلُ البِناءِ والحِياكةِ، فَيُقالَ: خائطٌ وبانٍ وحائكٌ لأنهُ هو الذي عَلَّمَ. فإذا بَطَلَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الأفعالِ، وإنْ كانَ هو الذي عَلَّمَ الخَلْقَ، بَطَلَ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فِعْلُ الإمساكِ، مِنْ حيثُ التَّعْليمُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

واحْتَجَّ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ أيضاً في نَفْيِ الفِعْلِ عنِ اللهِ تعالى، فقالَ: إنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: ما خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ إلّا اللهُ، ولا

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: يستخبر. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: يستخبر.

خَلْقَ القَبْضِ إلا اللهُ، وإنما قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لَثَبَتَ أنْ لا صُنْعَ لهُ في الإمساكِ، وبانَ أنَّ الذي أضيفَ إليهِ مِنَ الإمساكِ هو على الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

فالجوابُ عنْ هذا أنَّ الأُمَّةَ فَهِمَتْ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ما يُفْهَمُ مِنْ قولِهِ: ما خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ وقَبْضَهُنَّ إلا اللهُ؛ إذْ هو يَقْتَضي ما يَقْتَضيهِ ذِكْرُ الخَلْقِ. وإذا كانَ كذلكَ فلا فَرْقَ بينَ أنْ يُضيفَ الخَلْقَ [إلى][1] نفسِهِ وبَيْنَ أنْ يُضيفَ فعلَ الإمساكِ.

ثم لو ذَكَرَ الخَلْقَ مكانَ الإمساكِ أمْكَنَ جَعْفَرَ أنْ يَتَأوَّلَ في الخَلْقِ ما تأوَّلَ في الإمساكِ، فيقولُ: مَعْنى قولِهِ: خَلَقَ طَيَرانَهُنَّ، أي عَلَّمَ طَيَرانَهُنَّ، وقَوّاهُنَّ على الأسبابِ التي [بها][2] تطيرُ، فلا[3] يَتَهَيَّأُ للهِ تعالى على قولِهِ: أنْ يُثْبِتَ لِخَلْقِهِ، ويُقَرِّرَ عندَهُمْ خَلْقَ شيءٍ مِنَ الأشياءِ.

ثم الأصلُ أنَّ الآياتِ المذكورةَ في القرآنِ إنما ذُكِرَتْ[4] لإثباتِ أوجُهٍ خَمْسَةٍ:

أحدُها: في تَثْبيتِ القدرةِ على البعثِ، وهي لا تُثْبِتُ القدرةَ، ولا تُوجِبُ القولَ بالبَعْثِ على قولِ المعتزلةِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى احتَجَّ في تَثْبيتِ القُدْرَةِ على البَعْثِ بِقُدْرَتِهِ على ابْتِداءِ الخَلْقِ، فقالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] وقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فاحْتَجَّ بالابْتِداءِ على الإعادةِ عندَهُمْ لأنَّهُمْ نَفَوا خَلْقَ الأفعالِ عنِ اللهِ تعالى مع إقرارِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي ابْتَدَأَ الخلائقَ، وهو الذي أنشأهُمْ، ولم يكُنْ في إثباتِ القُدْرَةِ على خَلْقِ الأعيانِ إثباتُ قُدْرَةٍ منهُ على خَلْقِ الأفعالِ، وإنْ كانَ خَلْقُ الأفعالِ دونَ خَلْقِ الأنفسِ، فكيفَ ذَكَرَ قدرَتَهُ على ابْتِداءِ الخَلْقِ [في أفعالِ العبادِ][5] على تَثْبيتِ القُدْرَةِ على الإعادةِ، وإنْ كانَ أمْرُ الإعادةِ أيْسَرَ مِنَ الابْتِداءِ مَعَ أنَّ آثارَ الخَلْقِ في أفعالِ العبادِ وإثباتَ التَّدْبيرِ فيها أوجَدُ منْهُ في أمْرِ البعثِ؛ وذلكَ أنكَ تَجِدُ مِنَ الأفعالِ أفعالاً، هي مُؤْذِيَةٌ لأهلِها مُتْعِبَةٌ مؤلِمةٌ؟ ومَعْلومٌ بأنَّ قَصْدَ أربابِها أنْ يَتَلَذَّذوا، ويَتَمَتَّعوا بها، فَثَبَتَ أنَّ لِغَيْرِهِمْ تدبيراً وصُنْعاً حتى صارَتْ كذلكَ.

ولأنهُ يوجدُ في أفعالِهِمْ أحوالٌ، لا تَبْلُغُها أوهامُهُمْ، ولا تُقَدِّرُها عقولُهُمْ، لأنَّ الفِعْلَ يأخُذُ مِنَ الجَوِّ والمَكانِ والوقْتِ ما لا تُقَدِّرُهُ الأوهامُ، ولا تَبْلُغُها العُقولُ، فَثَبَتَ أنَّ لِغَيْرٍ فيهِ صُنْعاً وتدبيراً.

ولأنَّ فِعْلَهُ يَخْرُجُ على قَبيحٍ وحَسَنٍ لا يَبْلُغُ / ٥٨٤ ـ ب/ عِلْمُ فاعِلِهِ أنهُ يَبْلُغُ في الحُسْنِ والقُبْحِ ذلكَ المَبْلَغَ، ويَنْتَهي في الحُسْنِ مَبْلَغاً، لو أرادَ أنْ يَخْرُجَ على ذلكَ الحَدِّ في المَرَّةِ الثانيةِ لم يَخْرُجْ كذلكَ.

فكلُّ ما ذَكَرْنا يُبَيِّنُ أنَّ جميعَ أفعالِهِمْ على ما هي عليها، ليسَتْ لهمْ، ثم مَعَ ذلكَ أنْكَروا أنْ تكونَ الأفعالُ مِنْ جِهَةِ الخَلْقِ للهِ تعالى، ولم يَظْهَرْ شيءٌ مِنْ أماراتِ البعثِ، ولا وُجِدَ فيهِ التدبيرُ، فصارتِ الكَفَرَةُ في إنكارِهِمْ أمْرَ البَعْثِ أعذَرَ مِنَ المعتزلةِ في إنكارِهِمْ خَلْقَ الأفعالِ.

ولم يوجِبوا[6] القولَ بالقُدْرَةِ على ابْتِداءِ الخَلْقِ قولاً بالقُدْرَةِ على إنشاءِ البَعْثِ والإعادةِ بَعْدَ الإفناءِ. فَثَبَتَ أنْ ليسَ في الآياتِ التي جَعَلَها اللهُ تعالى دلالةً إثباتِ البعثِ على قولِهِمْ.

والوجهُ الثاني: تَثْبيتُ الوَحْدانِيَّةِ وجَعْلُ دليلِ وحدانِيَّةِ تَوَحُّدِهِ بِخَلْقِ الأشياءِ وتَفَرُّدِهِ بإنشائها.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وقولِهِ[7]: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾؟ [المؤمنون: ٩١].

وعلى المعتزلةِ هو غيرُ مُتَوَحِّدٍ بِخَلْقِ الأشياءِ، بل أكثرُ خَلْقِ الأشياءِ كانَ بالعِبادِ لا باللهِ تعالى. وإذا لم يُوجَدْ منهُ التوحيدُ والتَّفَرُّدُ بِخَلْقِ الأشياءِ ارْتَفَعَ وجهُ الإسْتِدْلالِ مِنْ هذا الوَجْهِ على معرفةِ الصانعِ وَوَحْدانِيَّةِ الربِّ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فلان. (٤) من م، في الأصل: ذكر. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يوجب. (٧) في الأصل وم: وقال.

وإذا كانَ كذلكَ لم تَثْبُتْ وَحدانِيَّةُ اللهِ تعالى على قولِهِمْ مِنَ الوجْهِ الذي جَعَلَهُ دليلَ الإثباتِ.

والوجهُ الثالثُ، وهو أنَّ الآياتِ ذُكِرَتْ في إثباتِ حكمةِ اللهِ تعالى وجَعْلِ دليلِ حِكْمتِهِ خَلْقَ السمواتِ والأرَضِينَ بما شاهَدْنا وغَيرِها[1] مِنَ الأشياءِ. ونحنُ إنما عَرَفْنا خَلْقَ السمواتِ والأرَضِينَ [شاهَدْناها مُجتَمِعةً][2] والاجْتِماعُ حادثٌ فيها[3]، وما لا يَنْفَكُّ عنِ الحادثِ فهو حادثٌ، والحادثُ لا بُدَّ لهُ مِنْ مُحْدِثٍ، ولولا ذلكَ لم نَعْرِفْهُ، ولا يَثْبُتُ لنا خَلْقُها[4].

وعلى قولِ المعتزلةِ الجَمْعُ والتَّفْرِيقُ لا يَدُلُّ على الخَلْقِ، لأنَّ كلَّ مَنْ لهُ القُوَّةُ يَقْدِرُ على جَمْعِ الأشياءِ وتفريقِها، والاجْتِماعُ والتَّفريقُ فِعْلُ الجامعِ والمُفَرِّقِ لقولِهِمْ بالمُتَوَلِّداتِ؛ فَمَنِ اسْتَحْكَمَتْ قُوَّتُهُ أمكَنَهُ جمعُ الأشياءِ القَوِيَّةِ، ومَنْ ضَعُفَتْ قُوَّتُهُ جَمَعَ على قَدْرِ ما تَنْتَهي إليهِ قُوَّتُهُ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يَتَبَيَّنْ عندَ الخَلائِقِ على قولِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضِينَ؛ إذْ خَلْقُها[5] لا يُعْرَفُ إلَّا مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا، وذلكَ ممَّا لا يَجوزُ إلَّا باللهِ تعالى [بوجهَينِ:

أحَدُهما][6] أنْ يكونَ اللهُ تعالى أقْدَرَ مَلَكاً مِنْ ملائكتِهِ، وقَوَّاهُ على خَلْقِ السمواتِ والأرَضِينَ. وإذا كانَ كذلكَ لم يَظْهَرْ بما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى هو الخالقُ لها[7]، فَبَطَلَ أنْ يكونَ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِينَ وفي خَلْقِ سائرِ الأشياءِ دلالةُ حِكْمتِهِ وقُدْرتِهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ، وقد جَعَلَ اللهُ تعالى خَلْقَها[8] دلالةً لهذِهِ الأوجهِ التي ذَكَرْناها.

والثاني: أنهُ جَعَلَ إتقانَ الأشياءِ وإحكامَها عَلَماً لِحِكْمَتِهِ، وقد يَقَعُ الإتِّفاقُ والإحكامُ للأشياءِ لا بهِ، ثم لم يَجْعلِ اللهُ لِشيءٍ ممَّا أتْقَنَ، وأحكَمَ عَلَماً يَتَميَّزُ مِن بَينِ ما أتْقَنَهُ غيرُهُ، وأحْكَمَهُ، فَصارَ الإتقانُ والإحكامُ غَيرَ دالٍّ على حِكْمَتِهِ، بل صارَ دليلاً على عَجْزِهِ وضَعْفِهِ حينَ[9] لم يَتَهَيَّأْ لهُ تَمييزُ ما صارَ بهِ مُتْقَناً وما بِغَيرِهِ صارَ كذلكَ.

ولأنَّ الحكمةَ، هي وَضْعُ الشيءِ في موضِعِهِ وتَبْيِينُ مالَهُ ممَّا ليسَ لهُ. ومِنْ قولِهِمْ أنَّ اللهَ تعالى أعْطَى الكافرَ قوةَ الإيمانِ، ولم يبقَ في خزائِنِهِ ما جَعَلَ سبباً يُتَوَصَّلُ بهِ إلى الإيمانِ إلَّا وقد أعطاهُ مع عِلْمِهِ أنهُ لا يُؤمِنُ بهِ. وهذا مِنْ أعظَمِ الجهلِ وأَبْيَنِ السَّفَهِ في الشاهدِ، لأنَّ المَرْءَ إذا قامَ بِسَقْيِ أرضٍ وعِمارتِها بالكِرابِ والثُّناءِ، والقَى البِذْرَ فيها، مع عِلْمِهِ أنها لا تُنْبِتُ شيئاً عُدَّ ذلكَ منهُ سَفَهاً وجَهْلاً، والسَّفيهُ لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً حكيماً، وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وعلى قولِ المعتزلةِ قد خَلَقَ غَيرُهُ الحياةَ والموتَ جميعاً، لأنَّ القتيلَ مَيِّتٌ بالإتِّفاقِ. ثم لا يَجْعَلُ أهلُ الاعتزالِ للهِ تعالى في موتِهِ صُنعاً، ويَزْعُمونَ أنهُ ماتَ قَبْلَ أجَلِهِ، فإذا قَدَرَ غَيرُهُ على الإماتةِ، ويَقدِرُ أيضاً على الإحياءِ بالأسبابِ، لأنهُ يَسْقي الأرضَ والزرعَ، ويكونُ في سَقْيِهِ إحياؤُها، فلم يَنْفَرِدْ هو بِخَلْقِ الموتِ ولا بالحياةِ على قولِهِمْ، بل يَشْرَكُهُ غَيرُهُ في خَلْقِ الأشياءِ، فَيَبْطُلُ امْتِداحُهُ على قولِهِمْ نفسَهُ بأنهُ خالقُ الأشياءِ.

والوجهُ الرابعُ: أنهُ احْتَجَّ بِعِلْمِهِ بأفعالِ الخَلْقِ بِخَلْقِهِ تلكَ الأفعالَ، وذلكَ بقولِهِ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وهُمْ قد نَفَوُا الخَلْقَ عنِ الأفعالِ، وإذا انْتَفَى لم يَقَعْ لهُ بها عِلْمٌ، وصارتِ الآياتُ التي فيها إثباتُ العِلمِ لا تُثْبِتُ عِلْماً على قولِهِمْ، ويكونُ [فيها كَذِبٌ][10] في الخَبَرِ. تعالى اللهُ عنْ ذلكَ.

والوجهُ الخامسُ: أنهُ سَمَّى نفسَهُ مُحْسِناً مُنْعِماً، وأثْبَتَ إحسانَهُ وإنعامَهُ بآياتٍ احْتَجَّ بها على خَلْقِهِ؛ ما مِنْ نِعمةٍ أنْعَمَ بها [على][11] العبادِ إلَّا وقد كانوا مُسْتَوجِبينَ على اللهِ تعالى، فَيصيرُ اللهُ تعالى بإعطائهِمْ ذلكَ قاضياً ما عليهِ مِنَ الحقِّ بالنعمةِ. ومَنْ قَضَى آخَرَ حَقّاً[12] كانَ عليهِ لم يَصِرْ بهِ مُنْعِماً مُفَضِّلاً، وإنما صارَ قاضِيَ حقٍّ، فصارتِ الآياتُ التي فيها إثباتُ النِّعَمِ غَيرَ مُبَيِّنَةٍ على قولِهِمْ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

---

(١) في الأصل وم: وغيرهما. (٢) في الأصل وم: شاهدناهما مجتمعين. (٣) في الأصل وم: فيهما. (٤) في الأصل وم: خلقهما. (٥) في الأصل وم: خلقهما. (٦) في الأصل وم: وجائز. (٧) في الأصل وم: لهما. (٨) في الأصل وم: خلقهما. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: وجائز. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ أي بكلِّ شيءٍ، لَطُفَ، أوجَلَّ، أوِ استَتَرَ، أو ظَهَرَ، أوِ اختَلَطَ بِغَيرِهِ، أو تَمَيَّزَ، فهو بَصيرٌ؛ يُبلِغُهُ إلى أجَلِهِ الذي ضَرَبَ لهُ، ويأتيهِ بالرِّزقِ الذي قَدَّرَ لهُ، أو بَصيرٌ بأفعالِ الخَلْقِ ما كانَ، وما يكونُ، لأنهُ ذَكَرَهُ[1] على إثْرِ ذِكْرِ الأفعالِ، وهو قولُهُ: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الآيتان: ١٣ و١٤].

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ تَرْهيبٌ وتَرْغيبٌ والزامُ المُراقبةِ والتَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧] وقولِهِ[2]: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩ و...] لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ عليهِ حافظاً ورقيباً يَعلَمُ بكلِّ شيءٍ يَتعاطاهُ، فهو لا يَتعاطى إلّا المَحمودَ مِنَ الفِعالِ والمَرضِيَّ عنها.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ وقولِهِ: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الآيتان: ١٦ و١٧] يقولُ[3]: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إذا خَسَفَ بكُمُ الأرضَ، وأرسلَ عليكُمْ حاصباً مِنَ السماءِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، فيكونُ معناهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ دونِ الرحمنِ يَنصُرُكُم مِنْ عذابِ اللهِ إنْ حَلَّ بكُمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ يدفَعُ عنكُمُ العذابَ مِنْ دونِ اللهِ إذا حَلَّ بكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالجُنْدِ آلهتُهُمُ التي كانوا يَعبدُونَها مِنْ دونِ اللهِ تعالى، فكانوا يَعْبُدونَها لِتَنصُرَهُمْ، ويَعزُّوا بها، كقولِهِ[4] تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] وقولِهِ[5] تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤].

ثم همْ قد عَلِموا أنها لا تقومُ بِنَصْرِهِمْ، ولا تدفَعُ الذُّلَّ عنهمْ، فَيَعِزّوا بها، لأنهمْ كانوا يَفْزَعونَ إلى اللهِ تعالى عندما تَحِلُّ بهمُ الشدائدُ والذُّلُّ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] ويَترُكونَ الفَزَعَ إلى آلهتِهِمْ لِعِلْمِهِمْ أنها لا تُعِزُّهُمْ، ولا تَنْصُرُهُمْ. فَذَكَّرَهُمْ في حالةِ الأمْنِ [ما][6] قد عَرَفوا وقوعَهُ في حالةِ الخوفِ لِيَنْقَلِعوا عنْ عبادةِ الأصنامِ، ويُقْبِلوا على ربِّ الأنامِ لِيَدْفَعَ / ٥٨٥ ـ أ/ عنهمُ الشدائدَ والأهوالَ والآلامَ إذا حَلَّتْ بهمْ مِنْ خاصٍّ أو عامٍّ، ويقومَ بِعِزِّهِمْ إذا لَحِقَهُمُ الذُّلُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أيِ اغْتَرّوا في عبادَتِهِمْ آلهتَهُمْ لِتقومَ بِنَصْرِهِمْ وعِزِّهِمْ مَعَ ما عَلِموا أنها لا تَدْفَعُ عنهمْ شِدَّةً، ولا تُحَصِّلُ لهمْ عِزّاً.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ هُمْ كانوا يرجونَ رِزْقَهُمْ مِنَ السماءِ والأرضِ، فيقولُ: مَنِ الذي يَرْزُقُكُمْ إنْ لم يرسِلْ عليكُمْ مِنَ السماءِ مطراً، ولا ذَلَّلَ لكُمُ الأرضَ للنبتِ؟ وقد عَلِموا أيضاً أنْ لا رازِقَ لهمْ غَيرُ اللهِ تعالى، لأنهمْ يَفْزَعونَ إليهِ بالسؤالِ للرزقِ عندما يُبْلَوْنَ بالقَحْطِ والجُدوبةِ، فَذَكَّرَهُمْ في حالِ السَّعَةِ ما لَهُ عليهِمْ مِنْ عظيمِ النِّعْمَةِ في تَوسيعِ الرزقِ عليهم لِيَشكُروهُ، ولا يَكْفُروهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ فالعاتي هو الماردُ الشديدُ السَّفَهِ؛ فكأنهُ يقولُ: لَجُوا، وعَتَوا عَنْ قَبولِ الحقِّ، وتَمادَوا في طُغْيانِهِمْ، ولم يَتَذَكَّروا، ولم يُراقِبوا اللهَ تعالى، ولم يَشْكُروا لهُ، بَعُدُوا عنْ قَبولِ ذلكَ كُلِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وقولُهُ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ يُخَرَّجانِ[7] على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: على التَّخويفِ والتَّهويلِ.

والثاني: على التَّنبيهِ والتَّذكيرِ وتَسْفيهِ أحلامِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ذكر. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: ثم قال. (٤) في الأصل وم: قال الله. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: يخرج.

والثالثُ: على البِشارةِ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنَّصرِ لهُ وبإجابةِ دعوَتِهِ أهلَ الكُفرِ.

فوجهُ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ وتَسفيهِ الأحلامِ ما ذَكَرْنا أنهمْ قومٌ كانوا يَعْبُدونَ الأصنامَ لِتَنصُرَهُمْ، وتُعِزَّهُمْ في الدنيا، ولِيَبْتَغُوا الرزقَ مِنْ عِنْدِها، إذْ هُمْ كانوا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ لِيَطْلُبوا بِعِبادَتِها عِزَّ الآخِرَةِ والنَّصرَ فيها، وإنما كانوا يَطْمَعونَ بذلكَ منْها في الدنيا.

ثم هُمْ في الدنيا [كانوا ذا نَزَلَتْ بهمُ الشِّدَّةُ والفَزَعُ تَضَرَّعوا إلى اللهِ تعالى كما قالَ اللهُ تعالى:][1] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] ولم يكونوا يَفْزَعونَ إلى أصنامِهِمْ، فكيفَ اتَّخذوها جنداً لِتَنصُرَهُمْ عندَ النوائبِ، وقد أحاطَ علمُهُمْ أنها لا تَنْصُرُهُمْ، ولا تُغْني عنهمْ مِنْ عذابِ الدنيا شيئاً؟

فيكونُ فيهِ تَسفيهُ أحلامِهِمْ، وتنبيهٌ مِنْ عذابِ اللهِ، لِيَمْنَعَهُمْ ذلكَ عنْ عِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، ويَدْعُوَهُمْ إلى عِبادةِ مَنْ يَملِكُ دَفْعَ الشدائدِ عنهمْ إذا حَلَّتْ بهمْ.

وأمّا وَجْهُ التَّخْويفِ فهو أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ قيلَ لهمْ هذا عندَما ابْتُلوا بالشدائدِ وضيقِ العيشِ، فيقولُ لهمْ: اسْتَنصِروا مِنَ آلهتِكُمْ، واسْألوا الرزقَ مِنْ عِندِهِمْ[2]، هل يَمْلِكونَ لكمْ رزقاً، أو يَدْفعونَ عنكمْ ذُلّاً، وهل يَقْوَوْنَ على نَصْرِكُمْ؟

وجائزٌ أنْ يكونَ فيهِ بِشارةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنَّصرِ لهُ وبإجابةِ دَعْوَتِهِ. وقد وَجَدَ النَّصْرَ لأنهُ غَلَبَ عليهِمْ يومَ فَتْحِ مكةَ، ولم يَتَهَيَّأْ لأهلِها أنْ يَنْتَصِروا، بل غُلِبوا، وقُهِروا، وفازَ رسولُ اللهِ ﷺ بالغَلَبَةِ والقَهْرِ حتى اسْتَكانوا، ولانوا، وتَضَرَّعوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ حتى دَعَا لهمْ.

وابْتُلوا أيضاً بالقَحْطِ والسِّنينَ [فَدَعَا لهمْ][3] رسولُ اللهِ ﷺ بالسَّعَةِ حتى رَفَعَ اللهُ عنهمُ القَحْطَ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ [يَحْتَمِلُ وجوهاً: أحَدُها:][4] في هذهِ الآيةِ تذكيرٌ وتنبيهٌ وتخويفٌ وتهويلٌ وتعريفُ حالٍ، هي خِلافُ ما هم عليها في الحالِ.

[والثاني][5] ذِكْرُ الصراطِ في الذي يمشي مُكِبّاً، هو على الإضمارِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ﴾ غيرِ الصِّراطِ ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيكونُ هذا [تَذْكيراً وتَنْبيهاً وتَسْفيهاً][6] لأحلامِهِمْ، لأنَّ الذينَ آثَروا الإيمانَ، وسَلَكوا طريقَهُ، فإنما سَلَكوه[7] بالحُجَجِ والبراهينِ. والذينَ آثَروا الكُفْرَ آثَروهُ منْ غَيرِ حُجَّةٍ، بل حَيرَتُهُمْ وسَفَهُهُمْ هما[8] اللذانِ دَعَواهُمْ إلى الْتِزامِ الكُفْرِ والتَّدَيُّنِ بهِ. ومَنْ آثَرَ الحَيرَةَ والعَمَى على الهُدَى والرشادِ فهو سَفيهٌ.

[والثالثُ][9] أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ أي أهْدَى طريقاً ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟ وحَقُّ هذا الكلامِ أنْ يُقالَ: بلِ الذي مَشَى على صِراطٍ مُسْتقيمٍ، هو الأهْدَى مِنَ الذي يَختارُ الطريقَ المُعْوَجَّ الزائغَ عَنِ الرَّشادِ.

فيكونُ في الوجهِ الأوّلِ مَعْنَى التَّخويفِ والتَّنبيهِ جميعاً، وفي الوجهِ الثاني تذكيرٌ وتَنْبيهٌ، وقولُنا بأنَّ فيهِ تعريفَ حالٍ خلافَ الحالِ التي همْ عليها: إنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ، أعني بهِ أهلَ الإسلامِ وأهلَ الكُفْرِ، يَزْعُمُ أنهُ[10] على الهُدَى، والفَريقَ الآخَرَ على الضلالِ.

وإذا اتَّفَقَتِ الدَّعاوَى على تضليلِ أحدِ الفريقَينِ، فلا[11] بُدَّ أنْ يكونَ جَزاءُ الضالِّ[12] غَيرَ جَزاءِ المُهْتَدي، وجَزاءُ الوَلِيِّ غَيرَ جَزاءِ العَدُوِّ.

ثم الدنيا[13] على الفريقَينِ على جِهَةٍ واحدةٍ فلا بُدَّ مِنْ تَثْبيتِ دارٍ أُخرَى والقولِ بها للجَزاءِ، فيكونُ فيما ذَكَرُوا إيجابُ القولِ بالبعثِ والإقرارُ بهِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل: عندنا، في م: عندها. (٣) في الأصل وم: بدعاء. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم. (٦) في الأصل وم: تذكير وتنبيه وتسفيه. (٧) في الأصل وم: وسلكوا. (٨) في الأصل وم: ههنا. (٩) في الأصل وم: وجائز. (١٠) في الأصل وم: أنهم. (١١) في الأصل وم: ثم لا. (١٢) في الأصل وم: الضلال. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: ثم.

فهذا الذي ذَكَرْنا يُعَرِّفُهُما حالَ خِلافِ الحالةِ التي هُمْ عليها لأنَّ الذي يمشي مُكِبّاً على غَيرِ الطريقِ، هو الأعمى الذي لا يُبْصِرُ، والمُقْعَدَ الذي لا يَقْوَى على المَشْيِ، والذي يمشي سَوِيّاً على صِراطٍ مستقيمٍ، هو الذي ليسَتْ بهِ زَمانَةٌ، ولا بهِ عَمًى، يَمْنَعُهُ عنِ الصِّراطِ.

فيكونُ قولُهُ: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ هو الأعمَى، والذي ﴿يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو السَّميعُ البصيرُ، فيكونُ معناهُ ما قالَ في سورةِ هودٍ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؟ [الآية: ٢٤].

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾هذهِ الآيةُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الآية: ٢] وصِلَةُ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الآية: ٣] وقولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الآية: ١٥]

ثم ذِكْرُ الإنشاءِ وجَعْلِ السَّمْعِ والأبصارِ والأفئدةِ تذكيرٌ بِقُوَّتِهِ[1] وسُلْطانِهِ وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وآلائِهِ وتعاليهِ عنِ الأشباهِ والأمثالِ.

فَوَجْهُ تذكيرِ القُوَّةِ والسُّلْطانِ والعِلْمِ والحِكْمةِ ما يوصَفُ بَعْدَ هذا، ويُذْكَرُ في سورةِ المرسلاتِ وفي سورةِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ وسَنَذْكُرُ طَرَفاً مِنْ ذلكَ هنالكَ[2] بِعونِ اللهِ وتوفيقِهِ، فنقولُ: إنَّ اللهَ تعالى أنْشَأَنا في أظْلَمِ مكانٍ وأضيَقِ مَوضِعٍ بحيثُ لا يَنْتَهي إليهِ تدبيرُ البشرِ وعلومُهُمْ وحكمتُهُمْ وقِواهُمْ لأنَّ عِلْمَ الخَلْقِ لا يَجِدُ نفاذاً في الظلماتِ، وكذلكَ حِكْمَتُهُمْ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى أنْشَأَنا في تلكَ الظلماتِ كيفَ شاءَ، وأجْرَى سُلْطانَهُ وتدبيرَهُ على ذلكَ الشيءِ لِيُعْلَمَ بهِ أنَّ عِلْمَهُ بالخَفِيّاتِ مِنَ الأمورِ كَعِلْمِهِ بما ظَهَرَ منها، وتَعْرِفَ الخلائقُ أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، فَيَدْعُوَهُمْ ذلكَ إلى المُراقبةِ في كلِّ ما يُسِرّونَ، وما يُعْلِنونَ، ويُوجِبُ ما ذَكَرْنا مِنْ تقديرِ قُوَّتِهِ وعِلْمِهِ وسُلْطانِهِ بِقِوَى البشرِ وعلومِهِمْ وسُلْطانِهِمْ، فيكونُ فيهِ انْقِطاعٌ عنِ الشُّبَهِ التي اعْتَرَتْ مُنْكِرِي البعثِ في أمْرِ البعثِ، ويَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ بهِ إذا أمْعَنوا النَّظَرَ فيهِ، ويَعْلَمونَ[3] أنَّ مَنْ بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ ما ذَكَرْنا لا يجوزُ أنْ يَخْلُقَهُمْ سُدًى، لا يُخاطِبُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، بل يَتْرُكُهُمْ هَمَلاً.

وأمّا وجهُ تَعاليهِ عنِ الأشباهِ والأشكالِ [فهو أنَّ][4] إنشاءَ الخَلْقِ في أظْلَمِ مَكانٍ وأضيَقِ مَكانٍ، فيهِ إبانةُ أنهُ لا يُوصَفُ بالكَونِ في ذلكَ المكانِ الذي ظَهَرَ فيهِ آثارُ فِعْلِهِ لأنهُ في وقْتِ ما خَلَقَ عَمْراً في بَطْنِ أمِّهِ فقد خَلَقَ زيداً في ذلكَ الوقتِ في بَطْنِ أمِّهِ [وخَلَقَ الخَلائِقَ][5] في بُطونِ الأنعامِ والسباعِ وبطونِ بَناتِ آدمَ، وأنشأَ النَّبْتَ في الأرَضِينَ في ذلكَ الوقتِ. / ٥٨٥ ـ ب/

ولو كانَ يوصَفُ بالكَونِ في مَكانِ الفِعْلِ لكانَ إذا أخَذَ في خَلْقِ هذا لا يَخْلُقُ في ذلكَ [الوقتِ][6] في أقطارِ الأرضِ أمثالَهُ مِنَ الخَلائقِ. فدَلَّ أنَّ الفعلَ ليسَ بِتَحصيلٍ منهُ بشهودِهِ المكانَ الذي ظَهَرَ فيهِ فِعْلُهُ، وإنما يكونُ بِما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وأمّا سائِرُ الفَعَلَةِ فهم لا يَتَمَكَّنونَ مِنَ الفِعْلِ إلّا بشهودِهِمْ مكانَ الفِعْلِ.

فهذا الذي ذَكَرْناهُ يَنْفي عنهُ شَبَهَ الخَلْقِ، ويوجِبُ تَعالِيَهُ عنِ الأشكالِ، وفيهِ تَذْكيرُ نِعَمِهِ ومِنَنِهِ على خَلْقِهِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ على إثْرِ هذا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؟ ولو لم يَكُنْ مُنْعِماً لم يَكُنْ يَسْتَأدي منهمُ الشُّكْرَ.

ووجهُ النِّعْمَةِ، هو أنهُ قَدَّرَهُ في تلكَ الظُّلُماتِ، وصانَهُ مِنَ الآفاتِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذَى، وغَذّاهُ في ذلكَ المَوضِعِ بما شاءَ مِنَ الأغذيةِ، وسَتَرَهُ عن أبصارِ الناظرينَ، وغَيَّبَهُ عن أعيُنِهِمْ، لأنهُ في تلكَ الحالِ بالمَحَلِّ الذي يُسْتَعافُ، ويُسْتَقْذَرُ منهُ، ولا يُمْكِنُ أنْ يُدْفَعَ عنهُ المَعْنَى الذي وقَعَتْ بهِ الاِسْتِعافةُ والاِسْتِقْذارُ بالتَّطْهيرِ، وأنْشأَ لهُ السَّمْعَ والبَصَرَ والفؤادَ لِيَصِلَ بها إلى أنواعِ العلومِ والمَصالِحِ، فَلَزِمَهُمْ أنْ يقوموا بِشُكْرِ ذلكَ.

---

(١) الباء ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ههنا. (٣) في الأصل وم: وليعلموا. (٤) في الأصل وم: هو أنه. (٥) في الأصل وم: وخلائق. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

وفي ما ذَكَرْنا نَقْضُ قولِ المعتزلةِ لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَلَهُمْ على غيرِ الوجهِ الذي ظَهَرَ لكانَ جائراً؛ لأنَّ مِنْ مذهبِهِمْ أنهُ لا يَفْعَلُ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ. وإذا كانَ خَلْقُهُمْ، هو الأصلَحُ، ومِنْ شَرْعِهِ فِعْلُ الأصْلَحِ، فإذا هو صارَ قاضِيَ حقٍّ، وليسَ لِقاضي الحَقِّ على المُقْضَى مَوضِعُ مِنَّةٍ، ولا مِنَّةٌ بمكانِهِ، ولا نِعْمَةٌ يَلْزَمُها شُكْرُها لهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي جَعَلَ لكمُ السَّمْعَ لِتَسْمَعوا ما غابَ عنكُمْ، ونأى، فَتَعْرِفوهُ بالسَّمْعِ، وأنْشأ لكُمُ الإبصارَ لِتُبْصِروا بهِ ما حَضَرَ مِنَ الأشياءِ، وتعْرِفوا منها ما يَنْفَعُكُمْ وما يَضُرُّكُمْ وما خَبُثَ منها وما طابَ، وأنْشأ لكُمْ أفئدةً، تُدْرِكونَ بها حقائقَ الأشياءِ ومَبادِئَ الأمورِ ومآلَها وما حَلَّ منها وما حَرُمَ.

ثم خَصَّ هذهِ الأشياءَ الثلاثةَ بالذكرِ لِما فيها يُتَوَصَّلُ إلى العلومِ ومَعْرِفةِ الأشياءِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ومَعْناهُ: أنهُ أنْشأ لَكُمْ هذهِ الأشياءَ لِتَهْتَدوا بِها، وتَصِلوا بها إلى أنواعِ العلومِ. فَثَبَتَ أنَّ هذهِ الأشياءَ هي التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العِلْمِ والحِكْمةِ وإلى ما بهِ المَصْلَحةُ والمَنْفَعةُ. ولِذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

[فلو لم][1] يَقَعْ بها الوصولُ إلى عِلْمِ الأشياءِ [لكانَتْ لا تُخْتَصُّ][2] بالسؤالِ عنها.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ جَمَعَ في هذهِ الآيةِ خَبَرَيْنِ:

أحَدُهُما: ممّا قد تُنوزِعَ فيهِ، وهو قولُهُ: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإنَّ بعضَ الكَفَرةِ يُنْكِرونَ الحَشْرَ والبَعْثَ.

والثاني: ممّا لم يَقَعْ فيهِ التَّنازُعُ، وهو قولُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ ابْتِداءَ الخَلْقِ دلالةَ القُدْرةِ على الإعادةِ بقولِهِ[3]: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾][4] [يس: ٧٨ و٧٩].

وإذا جَعَلَ الابْتِداءَ دليلَ الإعادةِ لَزِمَهُمْ أنْ يَسْتَدِلّوا بهِ، فهو وإنْ ذَكَرَهُ على وجهِ الاحتِجاجِ ففيهِ مَوضِعُ الاحتِجاجِ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فيهِ إخبارٌ أنهُ خَلَقَهُمْ في الأرضِ لِيُشاهِدَ بعضُهُمْ خَلْقَ بعضٍ في الابْتِداءِ، فَيَعْلَموا أنهمْ لم يكونوا على الحالةِ التي هُمْ عليها للحالِ، بل كانوا نُطَفاً وعَلَقاً وأطفالاً إلى أنْ انْتَهوا إلى الحالةِ التي [هُمْ][5] عليها.

فإذا تَقَرَّرَ عندَهُمْ أمْرُ الابْتِداءِ أوجَبَ لهمْ ذلكَ عِلْماً بالقُدْرةِ على الإعادةِ. ويكونُ قولُهُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنْشأكُمْ، وجَعَلَ لكمْ مساكِنَ في الأرضِ، بَسَطَها لكُمْ، لِتَنْتَفِعوا بها، وجَعَلَها لكُمْ كِفايَةً[6]، فيكونُ فيهِ تذكيرُ النِّعْمةِ والقُدْرةِ والسُّلْطانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ أي كَثَّرَكُمْ مِنْ أصلٍ واحدٍ كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

ومَعلومٌ أنَّ الخَلْقَ على كَثْرَتِهِمْ لم يكونوا في نفسٍ واحدةٍ، ومَنْ قَدَرَ على [خَلْقِ][7] الأنفُسِ مِنْ نفسٍ واحدةٍ قادرٌ على إعادةِ ما سَبَقَ كونُهُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فقولُهُمْ هذا خارجٌ مَخْرَجَ الاسْتِهْزاءِ والاسْتِخْفافِ برسولِ اللهِ ﷺ فأمَرَ اللهُ ﷻ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُجيبَهُمْ بالجوابِ الذي يَليقُ [صُدورُهُ][8] مِنَ الحُكَماءِ، ولم يأذَنْ لهُ أنْ يُجازِيَهُمْ باسْتِخفافِهِمْ إيّاهُ اسْتِخْفافاً مثلَهُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فلم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لكن لا يخص. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: كفافا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٦ فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يُبيِّنُ لهم أنه لا يُنذِرُهُمْ إلا بالذي أمَرَهُ به، ولا يُبَلِّغُ إليهم إلا ما قد أُنْزِلَ إليه، وأمَرَهُ بتَبليغِهِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ نُبُوَّتِهِ وآيةُ رسالتِهِ، لأنهُ لو لم يكُنْ رسولاً كما زَعَموا، وكانَ مُختَلِقاً مِنْ تِلقاءِ نفسِهِ لكانَ يُمكِنُهُ أنْ يُحيلَ ذلكَ إلى وقتٍ، لا يَظْهَرُ غَلَطُهُ فيهِ ولا كَذِبُهُ لديهِمْ، وهو أنْ يُحيلَهُ إلى وقتٍ لا يعيشُ إلى مِثْلِ ذلكَ الوقتِ، فإذْ لم يَفْعَلْ، بل قالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ دَلَّهُمْ ذلكَ على رسالتِهِ، وأنه إذا كانَ رسولاً لم يَكُنْ لهُ أنْ يزيدَ في الرسالةِ ولا أنْ يَتَكَلَّفَ مِنْ عندِهِ فيها زيادةً كما ذَكَرَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] أنَّ فيهِ ما يُقَدِّرُ رسالتَهُ عندَهُمْ مِنَ الوجْهِ الذي يَذْكُرُ في تلكَ السورةِ إنْ شاء اللهُ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لا أزيدُ في الإنذارِ على القَدْرِ الذي أُمِرْتُ به.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي رَأَوا الذي وُعِدوا.

وقولُهُ تعالى: ﴿زُلْفَةً﴾ أي قَريبةً. ثم أنَّثَ الزُّلْفَةَ لِما أُريد بها الأحوالَ التي تكونُ في ذلكَ اليومِ مِنَ الأهوالِ والشدائدِ، ويكونُ قولُهُ: ﴿رَأَوْهُ﴾ كِنايةً عنْ ذلكَ اليومِ؛ فَذَكَّرَ اليومَ لأنَّ اليومَ مُذَكَّرٌ، وجَعَلَ الزُّلْفَةَ بِلَفْظِ التأنيثِ لأنها كِنايةٌ عنِ الأهوالِ التي تكونُ في ذلكَ اليوم.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زُلْفَةً﴾ رَأَوا تلكَ الأهوالَ والشدائدَ قَريبةً مِنَ الأوقاتِ التي وُعِدوا فيها، فَعَلِموا أنها كانَتْ قريبةً منهمْ، وإنْ كانوا يَسْتَبْعِدونَها في ذلكَ اليوم، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقولِهِ[1]: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكذلكَ إذا رَأَوا شدائدَ ذلكَ اليومِ وأهوالَهُ عَلِموا أنَّ الوقتَ الذي كانَ يُوعِدُهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ كانَ قريباً منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فَـ ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ مِنْ ساءَتْ، أي ساءَتْ وجوهُهُمْ، و قَبُحَتْ وجوهُهُمْ بِتَغَيُّرِ ألوانِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: مَعْناهُ تَمْنَعونَ، وتَدفعونَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي دَفْعاً.

وليسَ الأمْرُ كما ذَكَرَهُ لأنهُ لو كانَ مِنَ الدَّفعِ أوِ المَنْعِ لكانَ حَقُّهُ أنْ يُشَدِّدَ العينَ لا الدالَ كما شُدِّدتْ في قولِهِ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ فإذا شُدِّدَتِ الدالُ دونَ العينِ ثَبَتَ أنَّ اشْتِقاقَهُ /٥٨٦ ـ أ/ ليسَ مِنَ الدَّعِّ ولكنهُ مِنَ الادِّعاءِ؛ إذِ الدالُ هي المُشَدَّدَةُ.

فتأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي هذا الوقتُ الذي كُنْتُمْ تُكذِّبونَ رسولَ اللهِ ﷺ وتَدَّعونَ عليهِ أنهُ كاذبٌ في الأخبارِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَدَّعُونَ﴾ أي تَدْعُونَ[2]، وقد يُسْتَعْمَلُ الادِّعاءُ مكانَ الدعوةِ كما يقالُ: ذَكَرَ واذَّكَرَ وخبرَ واختَبَرَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ في حِكْمَةِ اللهِ مَشيئةَ المَغْفِرَةِ والعفوِ[3] لِمَنِ ارتَكَبَ غيرَ الكُفْرِ مِنَ الزَّلّاتِ، وإيجابَ العقابِ على مَنِ اعْتَقَدَ الكُفْرَ، والتَزَمَهُ، وأنْ ليسَ في الحِكْمةِ عَفْوُ مِثْلِهِ مِنَ العُقوبةِ لأنهُ قالَ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأثْبَتَ فيهِ إخبارَ الإهلاكِ ومَشيئةَ الرَّحْمةِ والمَغْفِرَةِ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) وهي قراءة، انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ١٩١. (٣) في الأصل وم: والعقاب.

ومَعْلومٌ بأنهُ يُهْلِكُ ومَنْ مَعَهُ، أو يَرْحَمُ، عندما يُبْتَلَى بالزَّلَّاتِ، وكذلكَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] فَجَعَلَ لنفسِهِ مَشيئةَ المَغْفِرَةِ لِمَنْ يَتَوَقَّى الكُفرَ، وحَكَمَ بإيجابِ العِقابِ على مَنْ أشْرَكَ بِهِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ ما ذَكَرْنا أنَّ الكُفْرَ لنفسِهِ قبيحٌ لا يَحْتَمِلُ الإطلاقَ ورَفْعَ الحُرْمَةِ لِما فيهِ مِنَ السَّفَهِ، لأنَّ مَنْ رَضِيَ بِشَتْمِ نفسِهِ فهو سَفيهٌ، فَعَلَى ذلكَ عُقوبَتُهُ، لا تَحْتَمِلُ في الحِكْمَةِ رَفْعَها والعَفْوَ عنها، أو لِما كانَ الكُفْرُ لا يَحْتَمِلُ الإباحةَ ورَفْعَ العُقوبةِ، والإنفصالُ بالمَغْفِرةِ يُخرِجُ مُخرَجَ الإباحةِ، كذلكَ لم يَجُزِ القولُ فيهِ بالمَغْفِرَةِ والعَفْوِ، وسائرُ المَآثِمِ جائزٌ رَفْعُ الحُرْمَةِ عنها.

ولأنَّ الكافرَ اخْتارَ عداوةَ اللهِ تعالى وكُفْرانَ نِعَمِهِ، والذي اعْتَقَدَ الإسلامَ اخْتارَ وِلايَتَهُ، والحِكْمَةُ تُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ، وفي العَفْوِ عنهُ وإكرامِهِ بالإحسانِ تَسْوِيَةٌ بينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، وفي ذلكَ تَضْيِيعُ الحِكْمَةِ، ولأنَّ الكافرَ في نفسِهِ [يَظُنُّ أنهُ][1] على الحَقِّ والصوابِ، وغيرَهُ على الباطلِ والضلالِ، وأنهُ غيرُ مُسْتَوجِبِ العذابَ، يَدُلُّ على ذلكَ حكايةٌ عن أهلِ الكُفرِ إذْ[2] قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

فاللهُ تعالى إذا أنْعَمَ عليهِ بالعَفْوِ، وتَطَوَّلَ عليهِ بالإحسانِ لم يَقَعْ ذلكَ عندَهُ مَوقِعَ التَّجاوُزِ والغُفْرانِ، بل يَقَعُ عندَهُ أنهُ إنما أحْسَنَ إليهِ لِاسْتِجابةِ الإحسانِ، وعَفا عنهُ لِما يَسْبِقُ منهُ ما يَسْتَوجِبُ به العقابَ.

وإذا كانَ كذلكَ أدّى ذلكَ إلى تَضْييعِ الإحسانِ وتَضْييعِ العَفْوِ وإبطالِ النِّعْمةِ.

فَثَبَتَ أنَّ الحكمةَ لا تُوجِبُ العَفْوَ عنِ الكافرِ، إذْ يَحْصُلُ العَفْوُ في غَيرِ مَوضِعِهِ.

وأمّا أهلُ الإسلامِ الذينَ سَبَقَتْ منهمُ الأجرامُ فقد عَلِموا أنَّ الذي سَبَقَ منهمْ زَلّاتٌ ومآثِمُ، وأنَّ العذابَ قد لَزِمَهُمْ، وأنهمْ مُسْتوجِبونَ العقابَ. فإذا عَفا عنهمْ عَلِموا أنهمْ إنما نالوا العَفْوَ بِفَضْلِ اللهِ تعالى، فَيَقَعُ الإحسانُ موقِعَهُ.

ولأنَّ مَنْ أحْسَنَ إلى عَدُوِّهِ في الشاهِدِ، لم يَقْصِدْ إحسانَهُ إليهِ قَصْدَ اسْتِدْراجِهِ والمَكْرِ بِهِ، فهو إنما يُحْسِنُ إليهِ لِما يَخافُ ناحِيَتَهُ، ويُخَرِّجُ فِعْلَهُ مُخرَجَ التَّذَلُّلِ لهُ.

فلو لم يُؤاخِذِ اللهُ الكافرَ بِما تَعاطَى مِنَ الكُفْرِ، بل أحْسَنَ إليهِ مِنْ غَيرِ تَبِعَةٍ عليهِ، خَرَجَ عَفْوُهُ وإحسانُهُ إليهِ مَخْرَجَ الخَوفِ وإظهارَ التَّذَلُّلِ، واللهُ تعالى يَجِلُّ عنْ هذينِ الوجهَينِ.

فَثَبَتَ أنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ القولَ بالتَّخْليدِ، وتَمْنَعُ القولَ بالعَفْوِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ دلالةٌ أنَّ لِلّهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ على الصغائرِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ معَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الأنبياءِ ﵈ قد عُصِموا عنِ ارْتِكابِ الكبائرِ، فلا يجوزُ أنْ يرتكِبوا الكبائرَ، فَيُهْلَكوا لأجْلِها.

فَثَبَتَ أنهمْ لو أُهْلِكوا [لأهلِكوا][3] بالصغائرِ. فلو لم يكُنْ لِلّهِ تعالى أنْ يُعَذِّبَ أهلَ الصغائرِ لَصارَ هو بإهلاكِهِ إيّاهُ بِمَنْ مَعَهُ جائراً ظالماً، وجَلَّ اللهُ تعالى عنِ الوَصْفِ بالجَورِ، وقالَ تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

ثم الحَقُّ أنْ يُقالَ: إنَّ جميعَ الخوارجِ والمعتزلةِ لا يجوزُ أنْ يَغْفِرَ اللهُ تعالى لهمْ بارْتِكابِهِمُ الكبائرَ [وإنما هو الرَّجاءُ الذي][4] ذَكَرْنا لِغَيرِهِمْ مِنْ مُنْتَحِلي الإسلامِ، لأنهمْ يقولونَ: لا يجوزُ أنْ يَغْفِرَ اللهُ تعالى لأهلِ الكبائرِ، ولا أنْ يَطَّوَّلَ عليهمْ بالعفوِ، بل حَقُّ أمثالِهِمْ أنْ يَخلُدوا في النارِ أبَدَ الآبدِينَ.

وإذا كانَ هذا هو الحُكْمَ فيهِمْ، ولِلّهُ تعالى إنْ غَفَرَ لهمْ، ومَنَّ عليهِمْ بالعَفْوِ، وَقَعَ عندَهُمْ أنهُ إنّما عَفا عنهمْ لأنَّ الذي ارْتَكَبوا مِنَ المآثِمِ لم تَكُنْ كبائرَ، بل كانَتْ صغائرَ؛ إذْ لا تَجوزُ المَغْفِرَةُ عنِ الكبائرِ، فَيَحْصُلُ العَفْوُ في غَيرِ مَوضِعِهِ والإحسانُ في غَيرِ مَوقِعِهِ.

---

(١) في الأصل وم: إنه يظن. (٢) في الأصل وم: و. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وأمّا غيرُهُمْ مِنْ مُنْتَحِلي الإسلامِ فهمْ يَرْجونَ عَفْوَهُ وسَعَةَ رَحْمَتِهِ في كلّ أيامِهِمْ. فإذا تَفَضَّلَ عليهمْ بالمَغْفِرَةِ وَقَعَ العَفْوُ عندَهُمْ موقِعَهُ، فلا يكونُ فيهِ تَضْييعُ الإحسانِ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ بِما سَبَقَ مِنَ الأجرامِ والزّلاتِ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بِما سَبَقَ مِنَ الإيمانِ بِهِ والإنْقِيادِ لأمْرِهِ والخُضوعِ لطاعتِهِ ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ مِنْ عذابِهِ، ولم يَسْبِقْ منهمْ إلى ربِّهِمْ حَسَنَةٌ يُرْحَمونَ لأجْلِها ولا طاعةٌ يَسْتَوجِبونَ الغُفْرانَ بها؟ أو فَمَنْ يُجيرُهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى إنْ حَلَّ بهمْ؟ فكأنهُ قيلَ له: قُلْ لهمْ هذا لأنهمْ كانوا يَعْبدونَ الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَنْصُرَهُمْ مِنَ العذابِ الأليمِ. فيقولُ: لا تُجيرُهُمْ تلكَ الأصنامُ مِنَ العذابِ الأليمِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنَّ الذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ وسَبْعَ سمواتٍ طِباقاً، وجَعَلَ الأرضَ ذَلولاً، ويَعْلَمُ السِّرَّ والجَهْرَ، هو الرحمنُ. فيكونُ فيهِ إنباءٌ أنَّ خالقَ السمواتِ والأرضِ وخالقَ الموتِ والحياةِ وخالقَ أفعالِ العبادِ وأفعالِ الطيرِ، هو الرحمنُ، جَلَّ جَلالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي آمَنّا أنهُ خالقُ ما ذَكَرْنا، وأنهُ المُتَعالي عنِ الأشباهِ والأمثالِ، والبَريءُ مِنْ كلّ العُيوبِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿هُوَ﴾ اسْمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى على ما ذُكِرَ في سورةِ الإخلاصِ، فيكونُ ﴿هُوَ﴾ و﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ اسْمَينِ مِنْ أسمائِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ خَوَّفَهُ المشركونَ بأنواعٍ مِنَ المَخاوِفِ، فقيلَ لهُ: قُلْ ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي اعْتَمَدْنا؛ هو الذي يَدْفَعُ عنا شَرَّكُمْ، ويَنْصُرُنا عليكُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونوا نَسَبوهُ أيضاً إلى الضلالِ، وادَّعَوا أنهمْ على الهُدَى، ولم يَنْظُروا في آياتِ اللهِ تعالى لِيَتَيَقَّنوا بها مَنِ المُهْتَدي منهمْ؟ ومَنِ الضالُّ؟ فقالَ: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إذا جاءَكُمْ بأسُ اللهِ تعالى، وذلكَ عندَ الموتِ أو في الآخِرَةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ هذا صِلَةُ قولِهِ: ﴿أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ فيقولُ أيضاً: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ إذا أصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوراً. والمَعينُ هو الماءُ الذي تَقَعُ عليهِ العينُ، ويَراهُ البَصَرُ [واللهُ أعلَمُ. وصلّى اللهُ تعالى على سيدنا محمدٍ ﷺ][1] / ٥٨٦ ـ ب/.

---

(١) ساقطة من م.

/٥٨٦ - ب/ سورة(١) ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ ﴿نٓ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: هو الحوتُ كقولِهِ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَنَسَبَهُ إلى النونِ، وهو الحوتُ، ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾؟ [الصافات: ١٤٢].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: النونُ هو الدَّواةُ، فَتَأويلُهُ هذا على جِهَةِ المُوافَقَةِ لأنهُ ذَكَرَ القَلَمَ وما يُسْطَرُ بِهِ، فلم يَبْقَ ههنا سِوَى الدَّواةِ، فَحَمَلَهُ على الدَّواةِ على المُوافَقَةِ لا أنْ يكونَ فيهِ مَعْنىً يَدُلُّ على إرادةِ الدَّواةِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هي فارسيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ: النونُ كُنْ أي اصْنَعْ ما شِئْتَ؛ يُقالُ هذا عندَ الإياسِ؛ إذِ المرءُ إذا أيِسَ مِنْ آخَرَ قالَ لهُ: اصْنَعْ ما شِئْتَ إذَنْ(٢).

ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو مِنَ الحروفِ المُقَطَّعةِ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ، هو المرادُ، لأنهُ ذَكَرَ القَلَمَ ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ على إثْرِهِ، وإنما يُكْتَبُ بالقَلَمِ، وتُسْطَرُ الحروفُ المُعْجَمَةُ. فأخبَرَ تعالى عَظيمَ صُنْعِهِ ولُطْفِهِ بإنشائِهِ هذهِ الحروفَ وخَلْقَهُ القَلَمَ وما يُسْطَرُ [بهِ حينَ](٣) يُوصَلُ بها إلى تَعَرُّفِ الحِكْمةِ وكلِّ ما تكونُ بهِ المَصْلَحَةُ مِنَ الدينِ والدُّنيا. بل جَعَلَ قِوامَ الدينِ والدنيا بها.

ومنهمْ مَنْ يَجْعَلُ كلَّ حرفٍ مِنَ الحروفِ المُعْجَمَةِ اسماً مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، أوِ افْتِتاحَ اسْمٍ مِنْ أسمائِهِ.

وكذلكَ يُرْوَى عنْ بعضِ الصحابة ﵃ عنهمْ أنهُ قالَ ذلكَ.

فإنْ كانَ النونُ اسماً مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى، فالقَسَمُ بهِ قَسَمٌ باللهِ تعالى. وإنْ كانَ على غيرِهِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْناها، فالقَسَمُ جارٍ بما بهِ قِوامُ سائرِ الخَلْقِ ومَصالحُهُمْ. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ تأكيدُ ما يُقْصَدُ مِنَ الأمرِ، واللهُ أعْلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ فَمَوضِعُ القَسَمِ هذا: أقْسَمَ بما ذَكَرَ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنَّ نِعْمةَ ربِّكَ حَفِظَتْكَ مِنَ الجُنونِ؛ نَفَى عنهُ الجُنونَ بقولِهِ: ﴿مَآ أَنتَ﴾ بما أنْعَمَ اللهُ عليكَ ﴿بِمَجۡنُونٖ﴾ وهذا كما يُقالُ: ما أنتَ يا محمدُ بِحَمدِ اللهِ بِمَجنونٍ، يُرادُ بهِ نَفْيُ الجُنونِ.

والثاني: أنكَ لَسْتَ مِمَّنْ خَدَعَتْهُ النِّعْمةُ، واغْتَرَّ بها، حتى شَغَلَتْهُ عنِ العَمَلِ بمالَهُ [وما](٤) عليهِ.

والمَجْنونُ بالنِّعْمةِ هو الذي غَرَّتْهُ النِّعَمُ، وألْهَتْهُ عنِ التَّزَوُّدِ لِلْمعادِ.

[والثالثُ](٥) ما أنتَ بغافلٍ عنْ نِعْمَةِ ربِّكَ، بل تَذْكُرُها، وتَشْكُرُ اللهَ عليها.

والمجنونُ مَنْ غَفَلَ عنِ النِّعْمةِ، وأعْرَضَ عنْ شُكْرِها.

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: ذكر. (٢) ساقطة من م. (٣) في الأصل وم: عليه حيث. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: أو.

[والرابعُ: أنَّ][1] الكَفَرَةَ كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ: إمّا لِما كانَ [يَغْشاهُ بِثِقَلِ][2] الوَحْيِ، فكانوا يَنْسُبونَهُ بهذا [إلى الجُنونِ][3] وإمّا لمّا رَأَوا أنهُ خاطَرَ بنَفسِهِ وروحِهِ حينَ[4] خالَفَ أهلَ الأرضِ، وفيها الجَبابِرةُ والفراعنةُ، وانْتَصَبَ لِمُعاداتِهِمْ. ومَنْ قامَ بِخِلافِ مَنْ لا طاقةَ لهُ مَعَهُ، وانْتَصَبَ لِمُعاداتِهِ، فذلكَ منهُ في الشاهدِ جُنونٌ. فأجابَ الله تعالى لِلفَريقَينِ جميعاً:

أمّا الأوّلُ فبقولِهِ[5]: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: ٤٦] أي كيفَ تَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ، وعندَ الإفاقةِ مِنْ تلكَ الغَشْيَةِ يأتيكُمْ[6] بِحِكمةٍ ومُوعظةٍ، يَعْجَزُ حُكماءُ الجِنِّ والإنسِ عن إتيانِ مِثْلِها[7]، وليسَ ذلكَ مِنْ عِلْمِ المجانينِ ولا ممّا يُمكِنُ تَحصيلُهُ في حالِ الجُنونِ، لأنَّ المَجْنونَ إذا أفاقَ مِنْ غَشْيَتِهِ تَكَلَّمَ بكلامٍ، لا يُعْبَأُ بِمِثْلِهِ، ولا يُكْتَرَثُ.

وأجابَ لِمَنْ كانَ نَسَبَهُ إلى الجنونِ لمّا [رَأَوهُ][8] خاطَرَ بِروحِهِ ونفسِهِ بقولِهِ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

فأخبَرَ أنَّ الذي حَمَلَهُ على المُخاطَرةِ بِروحِهِ وجَسَدِهِ، هو أنهُ مأمورٌ بالتَّبْليغِ والنِّذارةِ؛ فهو يقومُ بِما أُمِرَ، وإنْ أدّى ذلكَ إلى إتلافِ النفسِ.

ثم بِحَمْدِ اللهِ لم يَتَهَيَّأْ للفراعنةِ أنْ يَقْتُلوهُ، ولا تَمَكَّنوا مِنَ المَكْرِ بهِ، بل أظْفَرَهُ اللهُ تعالى عليهمْ حتى قَتَلَهُمْ، ورَدَّ كَيْدَهُمْ في نُحورِهِمْ، فصارَ الوَجْهُ الذي اسْتَدَلّوا بهِ على جُنونِهِ آيَةَ رِسالَتِهِ ودلالةَ نُبُوَّتِهِ، والله الهادي.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ قالَ الحَسَنُ: أي لا يَمُنُّ عليكَ المِنَّةَ التي تُؤذيكَ، ولكنْ يَمُنُّ عليكَ مِنَّةَ رحمةٍ وكَرامةٍ، والمَنُّ المُؤذي كما ذَكَرَ ﷻ: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [بالبقرة: ٢٦٤].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ أي غيرَ مَقطوعٍ، أي أجْرُكَ غيرُ مُقَدَّرٍ بالأعمالِ حتى تُجزَى بِقَدْرِ الأعمالِ، فإذا انْقَطَعَتِ الأعمالُ انْقَطَعَ الأجْرُ، وانْقَرَضَ، بل يَتَتابَعُ عليكَ، ويَدُرُّ. يُقالُ في الكلامِ: مَنَنْتُ الحَبْلَ، أي قَطَعْتُهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ أي غيرَ مَحسوبٍ، أي لا نَحْسَبُ عليكَ النِّعَمَ، فَتَفْنَى نفيَ الحسابِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ خُلُقُهُ العظيمُ القرآنُ، ومَعْناهُ: أدَبُهُ القرآنُ، وذلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وكقولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦ وفصلت: ٣٤] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر: ٨٨].

فأخْذُهُ العَفْوَ، وأمْرُهُ بالعُرْفِ، وإعراضُهُ عنِ الجاهِلينَ، ودفعُهُ السَّيِّئَةَ بالتي هي أحسَنُ، وخَفْضُهُ الجَناحَ للمؤمنينَ مِنْ أعظمِ الخُلُقِ. وتَخَلَّقَ بهذا كلِّهِ بِما أدَّبَهُ القرآنُ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: الخُلُقُ العظيمُ هو الإسلامُ، والإسلامُ، هو الاسْتِسْلامُ والانْقِيادُ لأمرِ اللهِ تعالى وقدِ اسْتَسْلَمَ لذلكَ، وسَلِمَ الناسُ مِنْ لِسانِهِ ويَدِهِ ومِنْ كلِّ أنواعِ الأذى، وذلكَ مِنْ أعظمِ الخُلُقِ.

والأصلُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كُلِّفَ مُعامَلةَ أعداءِ اللهِ تعالى ومُعامَلَةَ أولياءِ اللهِ وأنصارِهِ، وكُلِّفَ أنْ يَرْفُضَ الدنيا، ويَتَزَهَّدَ فيها، وكُلِّفَ مُعامَلَةَ الصغيرِ والكبيرِ والعالِمِ والجاهِلِ والجِنِّ والإنسِ، وكُلِّفَ مُعامَلَةَ نِسائِهِ.

ومَنْ كُلِّفَ المُعامَلَةَ مع هؤلاءِ لم يَقُمْ لها إلّا بِخُلُقٍ عظيمٍ، فَرَزَقَهُ اللهُ تعالى خُلُقاً عظيماً حتى احْتَمَلَ المُعامَلَةَ، وقامَ مَعَهُمْ بِحُسْنِ العِشْرَةِ، وحتى عوتِبَ على عظيمِ خُلُقِهِ بقولِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣] وبقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ١].

---

(١) في الأصل وم: ثم. (٢) في الأصل وم: يغشي الثقل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يأتيهم. (٧) في الأصل وم: مثله. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ [الكهف: ٦] وقالَ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨].

فالذي حَمَلَهُ على هذهِ المَشَقَّةِ والكُلْفَةِ العظيمةِ حُسْنُ خُلُقِهِ وفَضْلُ شَفَقَتِهِ ورَحْمَتِهِ؛ فَعِظَمُ خُلُقِهِ أنَّ خُلُقَهُ جاوزَ قِوَى نفسِهِ حتى ضَعُفَتْ نفسُهُ عنِ احتِمالِهِ، وكادتْ تهلكُ فيهِ. وغَيرُهُ مِنَ الخلائقِ تُقصِّرُ أخلاقُهُمْ عن قِوَى أنفسِهِمْ، ويَحتَمِلُ إضعافَ ما هم عليهِ مِنَ الخُلُقِ، وتَضيقُ أخلاقُهُمْ عن ذلكَ، فهذا الذي ذكَرْنا هو النهايةُ في العِظَمِ. وباللهِ التوفيقُ.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ قالَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ: المَفْتونُ في هذا الموضِعِ هو المَفْتونُ بِضلالَتِهِ المُعْجَبُ بِخَطَئِهِ المَشْغوفُ بِجَهلِهِ.

وقالَ الحسنُ: المَفْتونُ هو الذي مَتَعَهُ الشيطانُ، وقيلَ: المَفْتونُ مَنْ بهِ الفِتْنَةُ كما يُقالُ: فلانٌ لا مَعْقولَ لهُ، أي ليسَ لهُ عقلٌ. وقيلَ: المَفتونُ المُعَذَّبُ كقولِهِ ﷺ: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يُعَذَّبونَ، فكأنهُ يقولُ: أيُّكُمُ المُعَذَّبُ، وأيُّكُمُ الضالُّ إنْ حُمِلَ على ما ذَكَرَ الحَسَنُ، وأيُّكُمُ المُغْتَرُّ إنْ كانَ مَعْناهُ على ما ذَكَروا أنَّ المَفْتونَ مِنَ الفِتنةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ نَسَبوهُ على الاغْتِرارِ في ما كانَ يَدَّعي مِنَ الرسالةِ، ويَزْعُمونَ أنهُ مُغْتَرٌّ بها، ويَغُرُّ بها غَيرَهُ كما قالَ المُنافقونَ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وحَقُّ هذا عندنا ألّا نَتَكَلَّفَ تفسيرَهُ، لأنهُ قالَ: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ فَذكر هذا جواباً عمّا وَقَعَتْ فيهِ الخُصومةُ، فكانوا يَزْعُمونَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو المَفْتونُ، ورسولُ / ٥٨٧ ـ أ/ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ أنهمْ همُ المَفْتونونَ، فَخَرَجَ هذا جواباً عنْ تلكَ الخُصومةِ أنهمْ وأنتَ سَتُبْصِرونَ.

وقد وَقَعَتِ الخصوماتُ مِنْ أوجُهٍ: فَمَرَّةً كانوا يَدَّعونَ بأنهُ ساحرٌ، ومَرَّةً يَدَّعونَ بأنهُ مَجنونٌ، ومَرَّةً [يَدَّعونَ][1] بأنهُ ضالٌّ، ومَرَّةً [يَدَّعونَ][2] بأنهُ مُغْتَرٌّ، وغَيرَها مِنَ الوجوهِ.

فإذا ثَبَتَ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في حَقِّ الجوابِ؛ فَمَنْ[3] لم يَعْلَمْ بأنَّ الخُصومةَ فيمَ كانَتْ لم يَعْلَمْ إلى ماذا يَصْرِفُ الجوابَ، واللهُ أعلَمُ.

ويُشبِهُ أنْ تكونَ الخصومةُ [هي][4] الواقعةَ في الضَّلالِ والهُدى، فكانوا يَدَّعونَ أنهمْ على الهُدَى وأنهمْ باللهِ أحَقُّ وإليهِ أقْرَبُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ورسولُ اللهِ ﷺ يَدَّعي أنهمْ على الضلالِ وأنهُ على دينِ الحَقِّ والهُدَى.

يَدُلُّ على ذلكَ ذِكْرُ الضَّلالِ والهُدَى بَعْدَ ذِكْرِ المَفْتونِ:

الآية ٧ وهو قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

ثم هذهِ الآياتُ كأنها نَزَلَتْ جَواباً مِنَ اللهِ تعالى عمّا كانَ يَحِقُّ لِمِثْلِهِ الجوابُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولكنَّ اللهَ تعالى لمّا امْتَحَنَ رسولَهُ ﷺ بالعَفْوِ والإعراضِ عنِ المُكافأةِ بالجوابِ تَوَلّى اللهُ تعالى الجَوابَ عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ أي قد تعلمونَ أنَّ ربَّكُمْ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ وسَنُبَيِّنُ لكمْ ذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كقولِهِ[5] في مَوضِعٍ آخَرَ ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

ليسَ في قولِهِ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أمرٌ منَ اللهِ تعالى بأنْ يُطيعَ المُصدِّقينَ: فَمَنْ صَدَّقَهُ، وآمَنَ بِهِ لا يجوزُ أن يَتَقَدَّمَ بينَ يَديهِ، فَيَأمُرَهُ، أو ينهاهُ عنْ أمرٍ، ويَدعوَهُ إلى الطاعةِ، بل يَنْظُرُ إلى أمْرِ رسولِ اللهِ ﷺ ونَهْيِهِ، فيأتَمِرُ بأمْرِهِ، ويُطيعُهُ في ما يَدْعوهُ إليهِ.

وأمّا مَنْ كَذَّبَهُ فقد يَدْعوهُ إلى طاعتِهِ، فَخَصَّ ذِكْرَ المُكَذِّبِ عندَما نهاهُ عنْ طاعتِهِ، لأنَّ الدعاءَ إلى الطاعةِ يوجَدُ لا مِنَ المُصَدِّقِ دونَ أنْ يَتَضَمَّنَ قولُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أمراً بطاعةِ المُصَدِّقِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فما. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وقال.

[الإسراء: ٣١] فليسَ فيهِ أنهُ إذا لم يَخشَ الإملاقَ يَسَعُهُ قَتْلُهُ، ولكنهُ خَصَّ تلكَ الحالةَ لأنَّ تلكَ الحالةَ هي التي كانَتْ تَحمِلُهُمْ إلى القَتْلِ، ولم يكونوا يُقْدِمونَ على القَتْلِ عندَ الأمْنِ مِنَ الإملاقِ.

وفي هذا دلالةُ إبطالِ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ تَخصيصَ الشيءِ بالذكْرِ يَدُلُّ على أنَّ الحُكْمَ في ما غايَرَهُ بِخِلافِهِ واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ همُ المكذبونَ بآياتِ اللهِ تعالى أو بِوَحْدانيَّتِهِ أو بِرُسُلِهِ أو بالبَعْثِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ هذا الأمْرُ منهمْ في أوَّلِ الأحوالِ، فكانوا يَطْمَعونَ مِنْ رسولِ اللهِ الإجابةَ لهمْ في ما يَدْعونَ إليهِ؛ إذْ كانوا يَرْجونَ منهُ المُوافقةَ لهمْ بما يَبْذُلونَ لهُ مِنَ المالِ، فيكونُ النَّهْيُ راجعاً إلى ذلكَ الوقْتِ.

فأمّا بَعْدَ ما ظَهَرَتْ منهُ الصلابةُ والتَّشْميرُ لأمرِ اللهِ تعالى فلا يَحْتَمِلُ أنْ يُطيعَهُمْ، أو يَخافَ منهمْ[1] ذلكَ، فَيُنْهَى عنهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ دعاؤُهُمْ رسولَ اللهِ ﷺ ما ذُكِرَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ فَيُدْهِنونَ، والمُداهنةُ هي المُلاطَفةُ والمُلايَنةُ في القولِ.

ثم رسولُ اللهِ ﷺ كانَ يَذْكُرُ آلهتَهُمْ بسوءٍ، ويُسَفِّهُهُمْ بِعِبادَتِهِمْ إياها، ويُسَفِّهُ أحلامَهُمْ، ويُجَهِّلُهُمْ، وهمْ لم يكونوا يَجِدونَ في رسولِ اللهِ ﷺ مَطْعناً، فكانوا يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ مَرَّةً وإلى الجُنونِ ثانياً وإلى السِّحْرِ ثالثاً، وكانوا يَتَّخِذونَهُ هُزُواً إذا رَأَوهُ، فكانوا يَطْعَنونَ فيهِ مِنْ هذهِ الأوجُهِ بإزاءِ ما كان رسولُ اللهِ ﷺ يُسَفِّهُهُمْ، ويَذْكُرُ آلهتَهُمْ بسوءٍ مَعَ علمِهِمْ أنهُ ليسَ بكذّابٍ ولا ساحرٍ ولا كاهِنٍ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فأخبَرَ تعالى أنهمْ ليسوا يُكَذِّبونَهُ لِما وَقَفوا منهُ على الكَذِبِ، بل كانوا عَرَفوهُ بالأمانةِ والصِّدْقِ، ولم يكونوا وَقَفوا منهُ على كَذِبٍ قطُّ، وإنما الذي حَمَلَهُمْ على التَّكذيبِ واتِّخاذِهِمْ إيّاهُ هُزُواً ذِكْرُهُ[2] آلهتَهُمْ بسوءٍ، ولِذلكَ[3] قالَ: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] فكانَتْ مُعامَلَتُهُمْ هذهِ مُجازاةً لرسولِ اللهِ ﷺ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ يُخرَّجُ على هذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى، هو أنكَ لو تَرَكْتَ ذِكْرَ آلهتِهِمْ بسوءٍ، ولم تُسَفِّهْ أحلامَهُمْ، لامْتَنَعوا أيضاً عمّا عليهِ مِنْ نِسْبَتِهِمْ إياكَ إلى الجُنونِ والسِّحرِ والكَذِبِ وغيرِ ذلكَ. ولكنهُ كانَ يَذْكُرُهُمْ، وهو في ذلكَ بِحَقٍّ، وهُمْ كانوا يَذْكُرونَهُ بِما قالوا بالباطلِ والزُّورِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في ما يَدْعونَكَ إلى المُداهَنةِ.

ثم هُمْ لو داهَنوا كانوا في مُداهَنَتِهِمْ مُحِقِّينَ، فإنْ تَرَكوا ذلكَ فقد تَرَكوا الحقَّ الذي كانَ عليهِمْ.

ورسولُ اللهِ ﷺ لو داهَنَهُمْ لم يكنْ في مُداهَنَتِهِمْ مُحِقّاً. فلِذلكَ نُهِيَ عنِ المُداهنةِ. وقالَ بعضُ المُفَسِّرينَ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي لو ترفُضُ ما أنتَ عليهِ مِنَ الدِّينِ. وهذا لا يَسْتَقيمُ لأنهُ إذا رَفَضَ ما هو عليهِ مِنَ الدِّينِ كَفَرَ، وهُمْ لو تَرَكوا ما هُمْ عليهِ صاروا مُسلِمينَ، فَيَبْقَى بينَهُمُ الاخْتِلافُ الذي لأجْلِهِ[4] دَعَوا إلى المُداهَنةِ، وَوَدُّوها.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ قيلَ: إنَّ هذهِ الآياتِ نَزَلَتْ في واحدٍ، يُشارُ إليهِ، وهو الوليدُ بْنُ المُغيرةِ المَخزوميُّ. وفي ما يُشارُ إلى واحدٍ لا يُطلَقُ فيهِ لَفْظَةُ ﴿كُلَّ﴾ فَيُقالُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ والحَلّافُ المَهينُ ليسَ إلا الواحدَ. ولكنَّ مَعْناهُ: لا تُطِعْ هذا وكلَّ مَنْ يُوجَدُ فيه هذهِ الصفةُ.

ثم ذِكْرُ المَرْءِ بقولِهِ: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [الآيات: ١٠ و١١ و١٢]. يُخرَّجُ مُخرَجَ الهجاءِ والشَّتْمِ في الشاهدِ، لأنَّ ذِكْرَ المَرْءِ بِما هو عليهِ مِنِ ارْتِكابِ الفَواحِشِ والمَساوِئِ تَهجينٌ لهُ وشَتْمٌ. وجَلَّ اللهُ ورسولُهُ أنْ يَقْصِدوا إلى شَتْمِ إنسانٍ.

فالآيةُ ليسَتْ في تَثْبيتِ فواحشِهِ، وإنما هي في مَوضعِ التَّوبيخِ والزَّجْرِ عنِ اتِّباعِ مِثْلِهِ؛ وذلكَ أنهُ كانَ مِنْ رُؤساءِ الكَفَرةِ

---

(١) في الأصل وم: منه. (٢) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وكذلك. (٤) زيد بعدها في الأصل وم: ما.

وممَّنْ بُسِطَتْ عليهِ الدنيا، فكانَ القومُ يَتْبَعونَهُ، ويَنْقادونَ لهُ في ما يَدْعوهُمْ إلى الصَّدِّ عنْ سَبيلِ اللهِ، فَذَكَرَ اللهُ تعالى فيهِ هذهِ الأشياءَ، وأظهَرَها لِلْخَلْقِ لِيَزْهَدَهُمْ عنِ اتِّباعِهِ؛ إذْ كلُّ مَنْ كانَتْ فيهِ هذهِ الأحوالُ لم تَسْنَحْ نفسُ عاقلٍ لِاتِّباعِهِ، ولا احْتَمَلَ طَبْعُهُ طاعةَ مِثْلِهِ، فلا يَتَمَكَّنُ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سَبيلِ اللهِ تعالى، فكانَ في ذِكْرِ العُيوبِ التي ذَكَرَها [زَجْرُ الناسِ عَنْ طاعتِهِ][1] فَذَكَرَها لإثباتِ هذا الوجهِ لا أنْ تكونَ فائدتُها على تَحْصيلِ الشَّتْمِ والهجاءِ.

وكذلكَ ذَكَرَ أبا لَهَبٍ بالتَّبِّ والخَسارِ وما هو عليهِ مِنَ الفواحِشِ لِيَزْجُرَ الناسَ عنِ اتِّباعِهِ.

وفي هذهِ دلالةُ نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ مِنَ الوجهِ الذي يُذْكَرُ في سورةِ: ﴿تَبَّتْ﴾ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ثم قيلَ: المَهينُ مِنَ المَهانةِ، ومِنَ المِهْنَةِ، ومِنَ الوَهْنِ، وهو الضَّعْفُ.

الآيتان ١١ و١٢ ثم قولُهُ تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ اسْتَوجَبَ المهانةَ لِكونِهِ [هَمّازاً مَشّاءً][2] بالنَّميمِ وبِمَنْعِهِ الخيرَ واعْتِدائِهِ، فيكونُ هذا كلُّهُ تفسيرَ المَهينِ. فإنْ كانَ هكذا فقولُهُ: ﴿مَّهِينٍ﴾ مِنَ المَهانةِ ههنا.

ثم [لا][3] يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ، يُخشَى عليهِ طاعتُهُ ومَنْ، هذا وَصْفُهُ، وأنْ يَميلَ إليهِ قلبُهُ، ولكنَّ النَّهْيَ لِمَكانِ غيرِهِ، وإنْ كانَ هو المُشارَ / ٥٨٧ ـ ب/ إليهِ بالذِّكْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ تَمامَ الكلامِ، ويكونُ قولُهُ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ على الابْتِداءِ. فكأنهُ يقولُ: لا تُطِعْ كلَّ حلّافٍ مَهينٍ هَمّازٍ مَشّاءٍ بنميمٍ وكلَّ مُعْتَدٍ أثيمٍ وكلَّ عُتُلٍّ زَنيمٍ.

وتَفْسيرُ الهُمَزَةِ يُذْكَرُ في سورةِ الهُمَزةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، والمَشّاءُ بالنَّميمِ هو الذي يَسْعَى في الفُرْقَةِ بَيْنَ الإخوانِ، ويقومُ في ما بَيْنَهُمْ بالقَطيعةِ.

والمَنّاعُ لِلْخَيرِ: قالَ بعضُهُمْ: إنهُ كانَ يَمْنَعُ أهلَ الآفاقِ مَنْ كانَ بِحَضْرَتِهِ عنِ اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ ونقولُ: إنهُ ضالٌّ مُضِلٌّ، فقيلَ: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لهذا.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ كانَ يَمْنَعُ وَلَدَهُ مِنَ الاخْتِلافِ إلى مَجْلِسِ رسولِ اللهِ ﷺ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَنْعُهُ لِلْخَيرِ، هو امْتِناعُهُ عنْ أداءِ حقوقِ اللهِ تعالى الواجبةِ في مالِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي مُعْتَدٍ حُدودَ اللهِ، أو ظالمٍ لنفسِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَثِيمٍ﴾ الأثيمُ، هو المُرْتَكِبُ لِما يَأْثَمُ بهِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ العُتُلُّ: الفَظُّ الغَليظُ والشَّديدُ الظَّلومُ، وقيلَ: هو الفاحشُ اللئيمُ الضَّريبةِ.

وقالَ مجاهدٌ: العُتُلُّ الشديدُ الأشِرُ أبِيُّ الخُلُقِ؛ قد رُوِيَ في الخَبَرِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، أنهُ قالَ: «لا يَدْخُلُ الجنةَ جَوّاظٌ ولا جَعْظَرِيٌّ ولا العُتُلُّ الزَّنيمُ، فقالَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ: يا رسولَ اللهِ، وما الجَوّاظُ والجَعْظَرِيُّ والعُتُلُّ الزَّنيمُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: أمّا الجَوّاظُ فالذي جَمَعَ، ومَنَعَ، تَدْعُوهُ ﴿لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ و١٦] وأمّا الجَعْظَرِيُّ فالفَظُّ الغَليظُ، قالَ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وأمّا العُتُلُّ الزَّنيمُ فهو الشديدُ الخَلْقِ الرَّحيبُ الجَوفِ المُصَفَّحُ الأكولُ الشَّروبُ الواجدُ لِلطَّعامِ والشرابِ الظَّلومُ للناسِ. وأمّا الزَّنيمُ فهو الدَّعِيُّ المُلْتَصِقُ بالقومِ المُلْحَقُ في النَّسَبِ» [أبو داوود: ٤٨٠١].

واسْتَدَلّوا على ذلكَ بقولِ الشاعرِ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: هماز ههنا. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

زَنيمٌ ليس يُعرَفُ مَنْ أبوهُ بَغِيُّ الأمِّ ذو حَسَبٍ لَئيمِ

وبقولِ آخَرَ:

زَنيمٌ تَداعاهُ الرجالُ زِيادةً [كما زِيدَ][1] في عَرْضِ الأديمِ الأكارِعُ

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ كانَ بهِ زَنَمةٌ في أصلِ أُذُنِهِ يُعرَفُ بها. ومنهمْ مَنْ يقولُ: الزَّنيمُ، هو العَلَمُ في الشَّرِّ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إذا كانَ تأويلُ العُتُلِّ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ، ومَعْنَى الزَّنيمِ الدَّعِيَّ، أو ما ذُكِرَ مِنَ العلامةِ، فكيفَ عُيِّرَ بهذهِ الأشياءِ، ولم يكُنْ لهُ في ذلكَ صُنْعٌ، والمَرْءُ إنما يُعَيَّرُ بمالهُ فيهِ صُنْعٌ لا بما صُنِعَ لهُ فيهِ؟ فَيُجابُ عنْ هذا مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما ذَكَرْنا أنَّ ذِكْرَهُ بما فيهِ مِنَ العُيوبِ، ليسَ لمكانِ المذكورِ نفسِهِ، ولكنْ لِزَجْرِ الناسِ عنِ اتِّباعِهِ، لأنَّ مَنِ اشْتَمَلَ على العُيوبِ التي ذَكَرَها، وكانَ معَ ذلكَ عُتُلّاً زَنيماً، فأنفُسُ الخَلْقِ تأبَى عنِ اتِّباعِهِ ففائدةُ تَغْييرِهِ [بِما أضفَى عليها ما ذَكَرْنا مِنَ الحِكْمةِ لا تَخْبيرِهِ][2].

والثاني: أنَّ ذِكْرَ أصلِهِ كِنايةٌ عنْ سُوءِ فِعْلِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ خُبْثَ الأصلِ يَدْعو الإنسانَ إلى تَعاطي الأفعالِ الذَّميمةِ، وصِحَّةَ الأصلِ وحَسَبَهُ ونقاوَتَهُ تَدْعو صاحِبَهُ إلى مَحاسِنِ الأخلاقِ وإلى الأفعالِ المَرْضِيةِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ يُخبِرُ أنَّ مَنْ يَتَّبِعْهُ يَتَّبِعْهُ لِكَثْرةِ أموالِهِ وبَنيهِ؛ وذلكَ أنَّ كَثْرَةَ المالِ للإنسانِ مِنْ أحدٍ ما يَسْتَدْعي قلوبَ الخَلْقِ على تَعْظيمِهِ، فذَكَرَ ما فيهِ مِنَ العيوبِ والمَساوِئِ لئلا يَسْتَميلَ قلوبَ الضَّعَفَةِ إلى نفسِهِ بمالِهِ، فيقولُ: كيفَ يَتْبعونَهُ، وهو بهذا الوصفِ الذي وَصَفَهُ اللهُ تعالى.

الآية ١٥ ثم أخبَرَ عنْ مُعامَلَتِهِ رسولَ اللهِ ﷺ بقولِهِ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإنْ كانَ عامّاً بظاهِرِهِ، لكنْ لم يُرِدْ بهِ العمومَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ليسَ في كلِّ الآياتِ، وإنما هو في الآياتِ التي هي في حَقِّ الإخبارِ عنِ الأممِ السالفةِ.

وأمّا إذا تُلِيَتْ عليهِ الآياتُ التي فيها دلالةُ إثباتِ الرسالةِ ودلالةُ التوحيدِ ودلالةُ البعثِ، فقولُهُ فيها ما قالَ في سورةِ المدثرِ: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [الآيتان: ٢٤ و٢٥] وهذا دليلٌ على ألّا يَجِبَ اعتقادُ ظاهِرِ العمومِ ما لم يُعْلَمْ بِيَقينٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ قيلَ: سيماءً[3] لا تُفارِقُهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ جَعَلَ هذا في الدنيا لكي يَعْلَمَهُ، ويَذْكُرَهُ مَنْ رآهُ، فَيَجتَنِبَ صُحْبَتَهُ، فهو سِيماءُ[4] مِنْ هذا الوجهِ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ العقوبةِ لِشِدَّةِ تَعَنُّتِهِ على رسولِ اللهِ ﷺ وعظيمِ لَواهُ لهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخِرةِ، فَيَجْعَلَ اللهُ تعالى عَلَماً في أنفِهِ عَلَماً، يُتَبَيَّنُ بهِ، ويَمْتازُ مِنْ غيرِهِ يومَ القيامةِ زِيادةً لهُ في العُقوبةِ كما جَعَلَ لآكِلي ﴿ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ خُرْطومُهُ خصوصاً مِنْ بينِ الكَفَرَةِ، فَنَحْشُرُهُ، ولا أنفَ لهُ، لأنهُ ذَكَرَ أنَّ سائرَ الكَفَرَةِ يُحْشَرونَ يومَ القيامةِ بُكماً وعُمْياً وصُمّاً، ولم يَذْكُرْ في أنوفِهِمْ شيئاً.

فجائزٌ أنْ يكونَ يُحْشَرُ، ولا أنفَ [لهُ][5] وذلكَ هو النهايةُ في القُبحِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ أهلُ مكةَ ابْتُلوا بالإحسانِ إلى اتِّباعِ رسولِ اللهِ ﷺ كما ابْتَلَى أصحابَ الجنةِ بالإحسانِ على المساكينِ، فَحَلَّ بهمْ مِنَ البَلاءِ ما ذَكَرَ لِامْتِناعِهِمْ عنِ الائتِمارِ؛ فَذَكَّرَ أهْلَ مكة أنهمْ إنِ امْتَنَعوا عنِ الإحسانِ إلى اتِّباعِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: شيئا. (٤) في الأصل وم: شيئا. (٥) ساقطة من الأصل وم.

محمدٍ ﷺ، حلَّ بهِمْ ما حَلَّ بأولئكَ، وقد وجَدَ منهمُ الِامْتِناعَ، فابْتُلُوا بسِنِينَ كَسِنِي يوسفَ حتى اضطُرّوا إلى أكلِ الجِيَفِ والأقذارِ. ثم إنَّ أصحابَ الجنة لمّا مَسَّهُمُ العذابُ، وأيقَنوا بهِ أنابوا إلى اللهِ، وانْقَلَعوا عنْ مَساوِئِهِمْ، فتابَ اللهُ عليهِمْ، ورَفَعَ البلاءَ عنهمْ، وأهلَ مكةَ تَمادَوا في غَيِّهِمْ، ولم يَتوبوا، فانْتَقَمَ اللهُ منهمْ بالقَتْلِ يومَ بَدْرٍ في الدنيا، وسَيُورِدُهمْ[1] إلى العذابِ في الآخِرَةِ.

[والثاني][2]: جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى لمّا أعَزَّهُمْ، وشَرَّفَهُمْ، وصَرَفَ وجوهَ الخَلْقِ إليهمْ، امْتَحَنَهُمْ بِتَبْجيلِ رسولِ اللهِ ﷺ وتَعْظِيمِهِ. فلمّا أساؤوا صُحْبَتَهُ عاقَبَهُمْ بما ذَكَرْنا، وَوَسَّعَ على أصحابِ الجنةِ، فامْتَحَنَهُمْ بما وَسَّعَ عليهِمْ بأنْ يُوَسِّعوا على غَيرِهِمْ، فلمّا امْتَنَعوا عنْ ذلكَ عُوقِبوا بزوالِ النِّعْمَةِ عنهمْ، وعُوقِبَ هؤلاءِ بِزَوالِ العِزِّ عنهمْ، وأذاقَهُمْ ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ فقولُهُ: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي لأيِّ وَقْتٍ يُنْسَبُ إلى الصَّباحِ، وذلكَ يكونُ في آخِرِ الليلِ كما يقالُ: مُمْسِينَ لأوّلِ وقْتٍ يُنْسَبُ إلى المساءِ.

وإذا كانَ كذلكَ فالِانْصِرامُ يَقَعُ بالليلِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾؟ [الآية: ٢٤] وهُمْ لا يَمْلِكونَ بَعْدَ مُضِيِّ الليلِ مَنْعَ المساكينِ عنِ الدخولِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ قِيلَ: أي لا يقولونَ: إنْ شاءَ اللهُ، وقيلَ: لا يقولونَ: سُبْحانَ اللهِ.

فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنَّ التَّسْبيحَ كانَ مُسْتَعْمَلاً في مَوضِعِ الِاسْتِثْناءِ، وقد يجوزُ أنْ يُؤَدِّيَ مَعْنَى الِاسْتِثْناءِ، لأنَّ في تَسبيحِ[3] الرَّبِّ تعالى وفي الِاسْتِثْناءِ مَعْنَى التَّنزيهِ، ولأنَّ فيهِ إقراراً أنَّ اللهَ تعالى هو المُغَيِّرُ للأشياءِ والمُعَدِّلُ لها.

ثم أصحابُ الجنةِ بِقَسَمِهِمْ قَصَدوا قَصْداً يَلْحَقُهُمُ العِصيانُ فيهِ، وكانَ عَهْدُهُمُ الذي عاهَدوا عليهِ مَعْصِيةً، وعوتِبوا بِتَرْكِهِمُ الِاسْتِثْناءِ.

ففيهِ دلالةٌ أنَّ اللهَ تعالى يُوصَفُ بالمَشيئةِ لِفِعْلِ العاصي مِمَّنْ يعلَمُ أنهُ يَختارُها /٥٨٨ ـ أ/ لأنهُ لو لم يوصَفْ بهِ لم يكنْ لِمُعاتَبَتِهِ إياهُمْ بِتَرْكِهِمُ الِاسْتِثْناءِ مَعْنىً؛ إذْ لا يجوزُ اسْتِعمالُ الِاسْتِثْناءِ في ما لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بهِ الرَّبُّ ﷻ.

ألا تَرَى [أنهُ][4] لا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنْ شاءَ اللهُ جازَ، وإنْ لم يَشَأْ لم يَجُزْ، وإنْ شاءَ ضَلَّ، وإنْ يَشَأْ لم يَضِلَّ، وإنْ شاءَ أكَلَ، وإنْ شاءَ لم يأكُلْ.

فلو لم يوصَفْ أيضاً بإضلالِ منْ يَعْلَمُ منهُ أنهُ يُؤْثِرُ الضلالَ لم يَجُزْ أنْ يُلاموا على تركِ الِاسْتِثْناءِ، ولا مَدْخَلَ لِلِاسْتِثْناءِ فيهِ.

والذي فيهِ يَدُلُّ على صحةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] فتَبَيَّنَ أنهُ يَشاءُ إضلالَ مَنْ ذَكَرْنا.

وفيهِ [دلالةٌ][5] أنَّ خَلْقَ الشيءِ غَيرُ ذلكَ الشيءِ، لأنهُ يَسْتَقيمُ أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بالإضلالِ ولا يجوزُ أنْ يوصَفَ بالضَّلالِ. وإنْ كانَ الإضلالُ خَلْقاً لهُ، ويُوصَفُ أنهُ المُحْيِي والمُمِيتُ، فلا يَسْتَقيمُ أنْ يُقالَ: إنْ شاءَ حَيِيَ، وإنْ شاءَ ماتَ، وإنْ كانَ هو الذي خَلَقَهُما.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ إبانةٌ أنَّ قَسَمَهُمْ كانَ بماذا.

فإذا كانَ بِغَيرِ اللهِ تعالى ففيهِ إبانةٌ أنَّ القَسَمَ قد يكونُ بِغَيرِ اللهِ تعالى، وإنْ كانَ قَسَمُهُمْ باللهِ تعالى ففيهِ حُجَّةٌ لأبي يوسفَ على أبي حَنيفةَ، رَحِمَهما اللهُ تعالى، أنَّ اليمينَ إذا كانَتْ مُوَقَّتَةً فإنَّ هَلاكَ الشيءِ المَحلوفِ بها قَبْلَ مُضِيِّ وقْتِها، لا

---

(١) في الأصل وك: وسيردهم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: تنزيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

يُسْقِطُ اليمينَ، بل تَبْقَى بحالِها، وتُلْزِمُ على صاحِبِها حُكْمَ الحِنْثِ إذا مَضَى وقتُها، لأنَّ الثَّمَرَ الذي حَلَفوا على صَرْمِهِ قد هَلَكَ قبلَ الوقتِ الذي أُوجِبَ فيهِ الصَّرْمُ.

فلو كانَتِ اليمينُ تَسْقُطُ عنهمْ بِهلاكِ الثَّمَرِ لم يكونوا يَحتاجونَ إلى الاسْتِثناءِ، لأنَّ الحاجةَ لإسْقاطِ المؤْنةِ التي تَلْزَمُهُمْ بالحِنْثِ في اليَمينِ.

فلو كانَ هَلاكُ الثَّمَرِ مُسْقِطاً لِلْيمينِ ومؤْنَةِ الحِنْثِ لاسْتَغْنَوا عنِ الاسْتِثْناءِ.

فلمّا لَحِقَتْهُمُ اللائمةُ بِتَرْكِهِمُ الاسْتِثْناءِ دلَّ أنَّ المؤْنَةَ تَبْقَى عليهمْ إذا غَرَبَتْ عنِ الاسْتِثْناءِ، وإنْ كانَتْ مُوَقَّتَةً.

ولكنْ أبو حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، يُسْقِطُ عنهُ اليَمينَ بهلاكِ الشيءِ المَحلوفِ عليهِ، إذا كانَتْ يَمينُهُ باللهِ تعالى، ولا يُسْقِطُها إذا كانَتْ بشيءٍ مِنَ القُرَبِ والطاعاتِ، أعني النَّذْبَ. وليسَ في الآيةِ إبانةُ أنَّ يَمينَهُمْ كانتْ باللهِ تعالى، فجائزٌ أنْ تكونَ يَمينُهُمْ بشيءٍ مِنَ القُرَبِ، فَبَقِيَتْ عليهمْ، ولأنهُ عاتَبَهُمْ على تَرْكِ الاسْتِثْناءِ لِعَزْمِهِمْ على المَعْصِيةِ، والاسْتِثْناءُ يُسْقِطُ العَزيمةَ، لأنَّ مَنْ عَزَمَ على المَعْصيةِ، وقالَ فيهِ: إنْ شاءَ اللهُ، لم يَصِرْ آثِماً بِمَقالتِهِ، ولا صارَ عازماً على المَعْصيَةِ، وأبو حَنيفةَ ليسَ يُخْرِجُهُ عنِ المَعْصِيةِ في اليَمينِ المُوَقَّتَةِ إذا عُقِدَتْ على أمْرٍ مِنْ أمورِ المَعْصيةِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ العتابَ في تَرْكِ الاسْتِثناءِ للوجهِ الذي ذَكَرْنا أنهُ لم يُذْكَرْ في شيءٍ مِنَ الأخبارِ، ولا ذُكِرَ في الكتابِ أنَّ أحداً منهمْ أُمِرَ بالتَّكْفيرِ.

ولو كانَ الحِنْثُ لازماً لكانوا يُلامونَ على تَرْكِ التَّكْفيرِ أيضاً كما لَحِقَتْهُمُ اللائمةُ بِتَرْكِ الاسْتِثْناءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: ﴿طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ قيلَ: عذابٌ من ربِّكَ، وسُمِّيَ طائفاً لأنهُ أتاهُمْ بالليلِ، وكلُّ آتٍ بالليلِ فهو طائفٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قيلَ: أيِ الجَنَّةُ كأنها صُرِمَتْ، وهُمْ أصْبَحوا لِيَصْرِموها.

الآيات ٢١ - ٢٣ وقولُهُ تعالى: [﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾][1] ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ قيلَ: يَتَسارّونَ في ما بينَهُمْ. فيجوزُ أنْ تكونَ مُسارَّتُهُمْ كانَتْ في الأمْرِ بالإسراعِ في المَشْيِ، لئلا يَشْعُرَ بهمُ المساكينُ، أو [أنْ][2] يَتَعَجَّلوا في الخروجِ والمَشْيِ قَبْلَ الوقتِ الذي يُصْبِحُ فيهِ المساكينُ.

الآيتان ٢٤ و٢٥ وقولُهُ تعالى: [﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾][3] ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ اسْمَ جَنَّتِهِمْ كانَ حَرْداً، وقيلَ: غَدَوا على أمْرٍ قدِ اسْتَتَروا في ما بَيْنَهُمْ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الحَرْدُ لهُ أوجهٌ ثلاثةٌ:

أحَدُها: القَصْدُ، واسْتَدَلَّ عليه بقولِ الشاعرِ:

وجـاءَ سَـيْـلٌ كـانَ مِـنْ أمْـرِ اللهِ ... يَـحْـرِدُ حَـرْدَ [الـجَـنَّـةِ الـمُـغِـلَّـةِ][4]

أي يَقْصِدُ قَصْدَها.

والثاني: هو المَنْعُ؛ يقالُ: حارَدَتِ السَّنَةُ أي قَحَطَتْ، وذهبَتْ بَرَكَتُها.

والثالثُ: الغَضَبُ: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي غَضَبٍ على الفقراءِ. وقولُهُ ﴿قَادِرِينَ﴾ عليها في أنفسِهِمْ.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ في هذهِ الآيةِ دلالةَ تَقَدُّمِ القُدْرةِ على الفِعْلِ لأنهُ أثْبَتَ لهمُ القُدْرةَ قبلَ الفِعْلِ. ولكنَّ هذهِ القدرةَ ليسَتْ في قُدْرةِ الأفعالِ، وإنما هي قُدْرةُ الأسبابِ والأحوالِ.

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل. وم. (٤) في الأصل وم: الحية المحتلة. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٥/٢٠٧ ثم انظر اللسان.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي قد ضَلَلْنا الطريقَ. فكان عندَهُمْ أنهمْ قدْ ضَلّوا الطريقَ. ولذلكَ لم يَتوصَّلوا إلى ثِمارِها [ثم][1] ظَهرَ لهمْ أنهمْ لم يَضِلّوا الطريقَ، بل حُرِموا بَرَكَةَ الثمارِ بِجِنايتِهِمُ التي جَنَوها [﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾][2] فَتَذَكَّروا صَنيعَهُمْ، ونَدِموا على ذلكَ، فأَقبلوا بالاستِكانةِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالى، فتابَ عليهِمْ.

فَلَعَلَّ الذي قالَ [إنَّ قولَهُ تعالى][3]: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يُخَرِّجُ على هذا، وهو أنّا بَلَونا أصحابَ الجنةِ، فَتَذَكَّروا، فَرَفَعَ عنهمُ العذابَ، ولم يَتَذَكَّرْ أهلُ مكةَ، فَحَلَّ عليهِمُ العذابُ يومَ بَدْرٍ، كما قالَ: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدَلُهُمْ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

جائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: لولا تُصَلّونَ الفجرَ، ثم تَخْرُجونَ، وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ[4] لولا تَسْتَثْنونَ، وقد ذَكَرْنا أنَّ في الاستِثْناءِ مَعْنَى التَّسبيحِ لأنَّ فيهِ إقراراً بأنَّ الأمورَ كلَّها تَنْفُذُ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وأنهُ هو المُغَيِّرُ والمُبَدِّلُ دونَ أحدٍ سِواهُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهذا منهمْ توحيدٌ وتَبرِئةٌ.

وفي قولِهِ: ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اعتِرافٌ بما ارْتَكَبوا مِنَ الذنوبِ وإنابةٌ إلى اللهِ.

الآيتان ٣٠ و٣١ وتمامُ التوبةِ منهمْ في قولِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾.

وذَكَرَ المُفَسِّرونَ في قولِهِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي أقبَلَ بعضُهُمْ على بعضٍ باللَّومِ؛ يقولُ: أنتَ أمَرْتَنا أنْ نَصْرِمَها ليلاً، وقالَ هذا لهذا: بل هو عَمَلُكَ أنتَ.

وهذا لا مَعْنَى لهُ لأنَّ هذا يُوجِبُ تَبرِئةَ كلِّ واحدٍ منهمْ مِنِ ارْتكابِ الذنوبِ، وقد سَبَقَ منهمُ الإقرارُ بالذنبِ بقولِهِم[5]: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وبقولِهِمْ: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ فكيفَ يُبَرِّئونَ أنفسَهُمْ مِنَ الذنوبِ، وقد اعتَرَفوا، فهذا تأويلٌ لا مَعْنَى لهُ.

بل مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ على إدخالِ كلٍّ منهمْ نفسَهُ في ذلكَ اللَّومِ، أو أقبَلَ كلُّ واحدٍ منهمْ باللائمةِ على نفسِهِ حتى يكونَ هذا مُوافِقاً لقولِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ في هذا تَمامُ التوبةِ؛ ففيهِ أنهمْ أظْهَروا الندامةَ على نَسَقٍ منهمْ مِنْ أوجهٍ ثلاثةٍ: مَرَّةً بما وَصَفوا أنفسَهُمْ بالظلمِ، ومَرَّةً بما لاموا أنفسَهُمْ، ومَرَّةً بما وَصَفوا [أنفسَهُمْ][6] بالطغيانِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ أي يُبْدِلَنا خيراً منها إذا تُبْنا، وأنَبْنا إلى رَبِّنا، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَتَوَقَّعوا خيراً منها، وهُمْ مُصِرّونَ على ذنوبِهِمْ؛ إذْ قد عَرَفوا أنهمْ إنما حُرِموا بَرَكَةَ الثمارِ بما ارْتكبوا مِنَ الذنوبِ، فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرةِ؛ يقولونَ: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ في الآخِرةِ إذا تُبْنا، وأنَبْنا إلى رَبِّنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ إلى ما عندَ ربِّنا مِنَ العطايا والمِنَنِ لَراغِبونَ، أو إلى ما وَعَدَ رُبنا لِلتائبينَ مِنَ الذنوبِ لَراغِبونَ /٥٨٨ ـ ب/.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ كأنهُ يُخاطِبُ أهلَ مكةَ أنْ كذلكَ العذابُ في الدنيا في أنْ يأخُذَ أهلَهُ مَنْ كانوا أو كما أخَذَ أصحابَ الجنةِ عندَ الأمنِ إذْ كانَ عندَهُمْ أنهمْ يَقْدِرونَ على صَرْمِ تلكَ الثمارِ، ولا يَفوتُهُمْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: بمعناه. (٥) في الأصل وم: بقوله. (٦) ساقطة من الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ففي هذا إيجابُ العذابِ على مَنْ[1] لم يَعْلَمْ بالعذابِ، ولم يُؤمِنْ بِهِ، لأنهمْ لم يُؤمِنوا بعذابِ الآخِرَةِ، ولا عَلِموا بِهِ.

ثم أوجَبَ لهمُ العذابَ، وإنْ لم يَعْلَموا، ولم يُعْذَروا بالجهلِ لأنهمْ قد وقَفوا على السببِ الذي لو تَفَكَّروا لَعَلِموا بالعذابِ ولأيقَنوا بِهِ.

وفي هذا حُجَّةٌ أنْ لا عُذْرَ لِمَنْ تَخَلَّفَ عنِ التوحيدِ والإيمانِ باللهِ تعالى، وإنْ جَهِلَ إلّا أنْ يكونَ جَهْلُهُ جَهْلَ خِلْقَةٍ لأنَّ الذي [أفْضى][2] بِهِ إلى الجهلِ هو التَّقْصيرُ في الطَّلَبِ، وإلّا لو لم يُقَصِّرْ في الطَّلَبِ لَوَجَد مَنْ يَدُلُّهُ على مَعْرِفَةِ الصانِعِ وَوَحدانِيَّةِ الرَّبِّ تعالى.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وفيهِ تَرْغيبٌ لِمَنْ لَزِمَ التَّقْوى، وهو الإسلامُ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أفَنَجعَلُ مَنْ جَعَلَ كلَّ شيءٍ سِوى اللهِ تعالى لِلّهِ سالماً، لا يُشْرِكُ فيهِ أحداً كالذي أجْرَمَ، فَجَعَلَ في كلِّ شيءٍ سالمٍ لهُ شِرْكاً في العبادةِ والتَّسْمِيةِ، وبَيَّنَ[3] اللهُ تعالى أنهُ وَليُّ المؤمِنينَ وعَدُوُّ المُجْرِمينَ؟.

فنقولُ: أفَئِنْ زَعَمَ أعدائي أنْ أُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ وبينَ الأحبّاءِ والجَمْعِ بَيْنَهُمْ فلا[4] نَفْعَلُ ذلكَ لأنَّ [فيهِ][5] تَضْييعَ الحِكْمَةِ، لأنَّ الحِكْمَةَ توجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ العَدُوِّ والوَليِّ، وفي الجَمْعِ بَيْنَهما تَضْييعُها.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ في أن أجْعَلَ عَدُوّي بِمَنْزِلَةِ وَلِيّي وَوَلِيِّي بِمَنْزِلَةِ عَدُوّي؟ أو أيُّ شيءٍ حَمَلَكُمْ على حُكْمِكُمْ [هذا، ولم يأتِكُمْ][6] بهذا الحُكْمِ كتابٌ، ولا مَعْقولٌ يُوجِبُ ذلكَ؟ فكيفَ تَطْمَعونَ ذلكَ؟ أو كيفَ تَحْكُمونَ بالجَورِ على ربِّكُمْ؟ لأنَّ مِنَ الجَورِ أنْ يُجْمَعَ بينَ الوَليِّ والعَدُوِّ في دارِ الكرامةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يَسْتَقيمُ إنْ يَجْعَلَ هذا جواباً للفريقَينِ: لِمَنْ[7] يُنْكِرُ البَعْثَ ولِمَنْ[8] يَزْعُمُ أنهُ شريكُ أهلِ الإسلامِ في الآخِرَةِ في ما يُكْرَمونَ مِنَ النَّعيمِ.

فَمَنْ أنْكَرَ البعثَ فالاحتجاجُ عليهِ بهذهِ الآيةِ، وهو[9] أنَّ [فِعلَ التَّسويةِ][10] يُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الوليِّ وبَيْنَ العَدُوِّ [وبَيْنَ الشَّكورِ وبَيْنَ الكَفورِ][11] فأنتمْ إذا أنْكَرْتُمُ البَعْثَ فقد زَعَمْتُمْ على اللهِ أنهُ يَجْعَلُ المسلمِينَ كالمُجْرِمينَ والكَفورَ كالشَّكورِ والعَدُوَّ كالوَليِّ. ومَنْ فَعَلَ هذا فهو سَفيهٌ، لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ حكيماً.

ففي إنكارِ البعثِ تَحقيقُ السَّفَهِ وإثباتُ الجَورِ، ومِنَ[12] الجَورِ أنْ يُجْمَعَ بَيْنَ الوليِّ وبَيْنَ العَدُوِّ في الجَزاءِ، ومَنِ ادَّعى الوجْهَ الآخَرَ، وهو التَّسْوِيَةُ بينَ الفَريقَينِ لِما تَساوَيا في مَنافِعِ الدنيا ومَضارِّها وفي لَذّاتِها وشَدائِدِها وبَلِيّاتِها [فهو سفيهٌ جائرٌ][13] فعلى ذلكَ يكونُ أمْرُهُمْ في الآخِرَةِ.

فَجوابُهُمْ في ذلكَ أنَّ الدنيا، هي دارٌ يَظْهَرُ فيها العَدُوُّ مِنَ الوليِّ والشَّكورُ مِنَ الكَفورِ، والآخِرَةَ دارُ جَزاءِ العَداوةِ والوِلايةِ.

فجائزٌ أنْ يَقَعَ في ما فيهِ ظُهورُ الوِلايةِ والعَداوةِ اتِّفاقٌ، ولا يجوزُ وُقوعُ الاتِّفاقِ في ما فيهِ الجَزاءُ لِعَداوةٍ سَبَقَتْ ولِوِلايةٍ سَبَقَتْ، والحِكْمَةُ تُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الجَزاءَينِ، فلا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ المُسْلِمُ فيهِ كالمُجْرِمِ لِما فيهِ مِنْ تَضْييعِ الحِكْمَةِ، وليسَ قِبَلَ المِحْنَةِ مَعنًى يُوجِبُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهما [في دارِ المِحْنَةِ، فجائزٌ أنْ يَقَعَ بَيْنَهما][14] الاتِّفاقُ في ذلكَ.

---

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أو بين. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: لم. (٨) في الأصل وم: ولم. (٩) الواو ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الفعل. (١١) في الأصل وم: والشكور. (١٢) في الأصل وم: لأن من. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في م: في المحنة فجائز أن يقع بينهما، ساقطة من الأصل.

ولأنهُ لو كانَ تَفَرُّقٌ بَينَهما في الدنيا لكانَتِ المِحنَةُ تَخرُجُ عن حَدِّها، والدنيا هي دارُ المِحْنةِ، وإنما قُلنا: إنَّ فيهِ إخراجَ المِحْنةِ عن حَدِّها لأنَّ المِحنةَ تكونُ على الرَّجاءِ والخوفِ والرَّغْبةِ والرَّهْبَةِ.

فلو فُرِّقَ بَينَ العَدُوِّ والوَلِيِّ في الدنيا، فَوُسِّعَ على الأولياءِ، وضُيِّقَ على الأعداءِ، لَوَقَعَ اختيارُ وَجْهِ الوِلايةِ على الضرورةِ، لأنَّ مَنْ عَلِمَ أنهُ يُضَيَّقُ عليهِ إذا اختارَ وَجْهَ العَداوةِ، وتَعَجَّلَ عليهِ العذابَ، تَرَكَ ذلكَ الوجْهَ، ومالَ إلى الوِلايةِ، فَيَرتَفِعُ وجْهُ المِحنَةِ.

فَلِذلكَ جازَ أنْ يُجمَعَ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في دارِ المِحنَةِ لِيَبْقَى وجْهُ الحكمةِ، بِحالِهِ، ولم يَجُزْ أنْ يُجمَعَ بَينَهما في الآخِرَةِ لأنها دارُ جَزاءٍ. والعَقْلُ يوجِبُ تَفرِقَةَ جَزائِهما، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ في أحكَمِ الحُكَماءِ بالسَّفَهِ حينَ[1] تَزْعُمونَ، أنهُ يَجمَعُ بَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ في الجَزاءِ، وذلكَ مِنْ أعلامِ السَّفَهِ؟ أو كيفَ تَحكُمونَ في أحكَمِ الحاكمينَ وأعْدَلِ العادِلينَ بالجَورِ، إذْ تَزْعُمونَ أنهُ يَجْمَعُ بَينَ الفريقَينِ في دارِ الكرامةِ، ومِنَ الجَورِ أنْ يُجْمَعَ[2] بَينَهما؟ وهُمْ كانوا يُقِرّونَ أنَّ اللهَ تعالى أحكَمُ الحاكِمينَ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ فَحاجَّهُمْ أوّلاً بما تُوجِبُهُ الحِكْمةُ، وهو أنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ الحِكمةَ تُوجِبُ التَّفرِقةَ بَينَهما، فإنْ كُنتُمْ تَدَّعونَ الجَمْعَ في ما بَينَهما بالحِكْمةِ، فأنتمْ تَعْلَمونَ أنَّ الحِكْمةَ تُوجِبُ التَّفْرِقةَ بَينَهما، وإنْ كُنتُمْ تَعْلَمونَ[3] ذلكَ مِنْ كتابٍ، فأيُّ كتابٍ مِنْ عندِ اللهِ جاءَكُمْ، يُوجِبُ التَّسْوِيَةَ بَينَكُمْ وبَينَ الأولياءِ؟ وأيُّ رسولٍ أخْبَرَكُمْ أنكُمْ تُساوُونَ الأولياءَ في نَعيمِ الآخِرَةِ؟

ثم وَجْهُ المُحاجَّةِ بالكتابِ، هو أنَّ مُشْرِكي العَرَبِ لم يكونوا يُؤمِنونَ بالكتابِ ولا بالرسُلِ، ولو كانوا يؤمِنونَ بهما لكانوا يَقْدِرونَ أنْ يقولوا: إنَّ لنا كتابًا دَرَسْناهُ، فَوَجَدْنا فيهِ ما نَذْكُرُ، ونَدَّعي، ورسولُنا[4] قد أخْبَرَنا بذلكَ. ولكنهمْ إذا كانوا لا يُؤمِنونَ بهما صارَ هذا الوجْهُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى حُجَّةً لازمةً عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي في ذلكَ الكتابِ تَجِدونَ أنَّ لكمْ فيهِ ما[5] تَخَيَّرونَ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ وهذا أيضاً صِلةُ الأوّلِ أي هل شَهِدْتُمُ اللهَ تعالى أقْسَمَ لكمْ أنهُ هكذا كما تَحْكُمونَ. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٤] فَأَخَذَهُمْ بالمُقايَسةِ أوّلاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]فلمّا لم يَتَهَيَّأْ لهمْ تَثْبِيتُ ذلكَ بالقياسِ والمَعقولِ احْتَجَّ عليهِمْ بقولِهِ تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقد عَرَفوا أنهمْ لم يَشْهَدوا، وما ادَّعَوهُ[6]، لاثَباتَ لهُ إلّا مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرَها.

وإذا لم يُثْبِتوا بشيءٍ مِنْ ذلكَ تَبَيَّنَ عندَهُمْ فَسادُ دَعْواهُمْ.

فهذا أيضاً مِثْلُهُ، وهو أنهُ سَأَلَهُمْ عنْ إيرادِ الحُجَّةِ إمّا مِنْ جِهَةِ الحكمةِ [وإمّا مِنْ][7] جهةِ الكتابِ [وإمّا][8] مِنْ جهةِ الشهادةِ. فإذا لم يَثْبُتْ لهمْ واحدٌ مِنْ هذهِ الأوجُهِ فَبِأيِّ وجْهٍ يَشْهَدونَ على اللهِ أنهُ يَفْعَلُ ذلكَ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي وَكيدَةٌ، أو بُلِّغَتْ إليكمْ عنِ اللهِ تعالى؟

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ يقولُ: إنهمْ تَعَنَّتوا معَ ذلكَ كلِّهِ في أنْ يُداوِموا على دَعْواهُمْ مِنْ غيرِ حُجَّةٍ، تَشْهَدُ لهمْ، فَسَلْهُمْ، أي طالِبْهُمْ[9] بالزَّعيمِ، أي مَنْ يَكْفُلُ لهمْ أنَّ الأمْرَ كما يَزْعُمونَ؟

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي شُرَكاءُ يَشْفَعونَ لهمْ يومَ القيامةِ؟ وقالَ بعضُهُمْ: أمْ لهمْ شُهداءُ مِمَّنْ عندَهُمْ كتابٌ، يَشْهَدونَ لهمْ بِما يذكُرونَ؟

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: يقع. (٣) في الأصل وم: تدعون. (٤) في الأصل وم: ورسول. (٥) في الأصل وم: لما. (٦) من م، في الأصل: ادعوهم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم أو. (٩) في الأصل وم: أطلبهم.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي يُكشَفُ عنْ مَوضِعِ الوعيدِ بالشدائدِ والأهوالِ. والسّاقُ الشِّدَّةُ، وسُمِّيَتِ الساقُ ساقاً لأنَّ الناسِ شِدَّتُهُمْ في سوقِهِمْ؛ إذْ بها يَحْمِلونَ الأحمالَ، فَكَنّى بالساقِ عنِ الشِّدَّةِ.

وقيلَ أيضاً: إنهمْ كانوا إذا ابْتُلُوا / ٥٨٩ ـ أ/ بِشِدَّةٍ وبَلاءٍ كَشَفوا عنْ سوقِهِمْ، فَكَنّى بِذِكْرِهِ عنِ الشِّدَّةِ، لا أنْ يُرادَ بِذِكْرِ الساقِ تَحْقيقُ الساقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على دُعاءِ الحالِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على دُعاءِ الأمْرِ.

فأمّا دُعاءُ الحالِ فهو أنَّ [مِنْ][1] عاداتِ الخَلْقِ أنهُ إذا اشتدَّ بهِمُ الأمْرُ، وضاقَ، فَزِعوا إلى السجود.

فجائزٌ أنْ يكونَ ما حَلَّ بهِمْ مِنَ الأحوالِ والشدائِدِ يَدْعوهُمْ إلى السجودِ، فَيَهُمّونَ بذلكَ، فلا يَسْتَطيعونَ، فيكونَ قولُهُ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [أي يَدْعُوهُمُ الحالُ إلى السجودِ][2] فهذا دُعاءُ الحالِ.

وجائزٌ أنْ يُؤْمَروا[3] بالسّجودِ، ويُمْتَحَنوا بِهِ.

ثم أنْ كانَ التأويلُ على الأمْرِ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ [ذلكَ يومَ القيامةِ، وجائزٌ أنْ يكونَ][4] وقْتَ الموتِ، وإنْ كانَ على دعاءِ الحالِ فذلكِ يكونُ عندَ الموتِ.

ثم الأمْرُ بالسُّجودِ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ على حقيقةِ الفِعْلِ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ على الِاسْتِسْلامِ والخُضوعِ؛ إذِ السُّجودُ في الحقيقةِ، هو الخُضوعُ والِاسْتِسلامُ، وكلُّ سُجودٍ ذُكِرَ في القرآنِ، وأُريدَ بهِ عَينُ السُّجودِ، فَلَيسَ يَجِبُ بِتِلاوَتِهِ السجودُ. وكلُّ ما أُريدَ بِهِ الِاسْتِسلامُ والخضوعُ فهو الذي يَجِبُ بِتِلاوَتِهِ السُّجودُ.

ثم إنْ ذُكِرَ في أهلِ الكُفْرِ فإنما يُرادُ منهمُ الِاسْتِسْلامُ بالِاعْتِقادِ ليسَ بِعَينِ الفِعْلِ.

وأهلُ الإسلامِ قد وُجِدَ منهمُ الِاسْتِسْلامُ بالِاعْتِقادِ، فَيَلْزَمُهُمْ أنْ يَستَسْلِموا مِنْ جِهَةِ الفِعْلِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا لَمّا عايَنَ الشَّدائدَ والأفزاعَ، اسْتَسْلَمَ للهِ تعالى، وخضَعَ لهُ، فلم يَقْبَلْ ذلكَ منهُ، لأنَّ تلكَ الدارَ دارُ جَزاءٍ وليسَتْ بدارِ مِحْنةٍ.

والثاني: أنَّ السُّجودَ، هو بَذْلُ النفسِ لِما طُلِبَ منهُ طائعاً. وإذا أشْرَفَ المرءُ على الموتِ طُلِبَ منهُ في ذلكَ الوقتِ بَذْلُ روحِهِ لِما يُعْلَمُ أنَّ مَصيرَهُ إذا قُبِضَ إلى العذابِ كما قالَ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، ومَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري: ٦٥٠٧ و٦٥٠٨].

فَسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ، عنْ ذلكَ، فقالَ: ذلكَ عندَ الموتَ، فهو لِما يَرَى مِنَ المَكْروهِ [الذي][5] يَحُلُّ بهِ بَعْدَ الموتِ يَكْرَهُ قَبْضَ روحِهِ.

فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ إنْ كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ عندَ الموتِ على ذلكَ.

والمؤمِنُ إذا رَأى ما أُعِدَّ لهُ مِنَ الكَراماتِ وَدَّ لو تُقْبَضُ رُوحُهُ سريعاً لِيَصِلَ إلى الكراماتِ.

وإنْ كانَ هذا بعدَ البعثِ، ،وأُريدَ مِنَ السُّجودِ تَحقيقُهُ، ففيهِ تذكيرٌ لهمْ أنهمْ لم يكونوا يُمْتَحَنونَ في الدنيا بالسُّجودِ لِمَنْفَعةٍ، تَصِلُ إلى اللهِ تعالى، أو لِحاجةٍ لهُ إلى ذلكَ، وإنما امْتُحِنوا بالسُّجودِ لِمكانِ أنفسِهِمْ؛ إذْ لو كانَ الِامْتِحانُ لِمَنْفَعةٍ، يَنالُها[6] اللهُ تعالى لَما كانوا يُمْنَعونَ عنهُ في القيامةِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: يؤمر. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ينال.

وقال كثيرٌ من أهلِ الكلامِ: لا يجوزُ أنْ يَمْتَحِنَهُمْ اللهُ تعالى بعدَ البعثِ بالسُّجودِ؛ إذْ تلكَ الدارُ ليسَتْ بدارِ مِحْنةٍ، وإنما الأمْرُ بالسُّجودِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ التوبيخِ.

وكذلكَ زعَمَ جَعْفَرُ بْنُ حَرْبٍ أنَّ هذا على التَّوبيخِ، يُقالُ للرجلِ إذا كانَ مُكْثِراً، فَذَهبَ مالُهُ، ولم يُؤَدِّ الزكاةَ [ولم يَحُجَّ في حالِ يُسْرٍ][1] حُجَّ [وابْذُلِ الآنَ. وذاكَ][2] الآنَ، ليسَ يُرادُ به أنْ أوجِدِ الفِعْلَ، ولكنْ يُرادُ بهِ تذكيرُهُ وتوبيخُهُ. فهذا الذي قالوهُ مُحْتَمَلٌ.

ويُحْتَمَلُ أنْ يُمْتَحَنوا بالسجودِ للوجوهِ التي ذَكَرْنا، وهو أن يَظْهَرَ عندَ المُمْتَحَنينَ أنَّ مَنافعَ سُجودِهِمْ راجعةٌ إليهِمْ لا إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ للأشغالِ التي حلَّتْ بهِمْ والأفزاعِ التي ابْتُلوا[3] بها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ ففيهِ أنَّ الفرائضَ إنما تَجِبُ عندَ سلامةِ الأسبابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الحديثُ، هو القرآنُ، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ البعثُ، وهو الغالبُ أنْ يكونَ، هو المُرادُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالَ القُتَبِيُّ: الاسْتِدْراجُ، هو الأدْنى مِنَ المَهْلَكةِ دَرَجةً فَدَرَجةً حتى يَهْلِكَ. وقيلَ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي نُنْعِمُ عليهِمْ، ونُنْسيهِمْ شُكْرَها بالإملاءِ، ونُنْزِلُ بهمُ العذابَ والهلاكَ أمْرٌ ما كانَ[4].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ والأصل أنَّ الكيدَ والمَكْرَ والاستِدراجَ، يَقْتَضي مَعْنىً واحداً، وهو أنْ يأخُذَ مِنْ وجهِ أمْنِهِ، ويُراقِبَ وُجوهَ هَلاكِهِ، وهو يُسْتَعْمَلُ في الخَلْقِ على وجهٍ يُذَمُّ أهْلُهُ.

فهو يُضافُ إلى اللهِ تعالى، ليسَ على جَعْلِ ذلكَ اسْماً لهُ، إذْ لا يجوزُ لهُ أنْ يُسَمّى ماكراً كايِداً مُسْتَدرِجاً، وإنما يُضافُ إليهِ في حقِّ الجزاءِ باسْمِ مالَهُ الجَزاءُ كما يُسَمّى جَزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وإنْ لم يَكُنِ الجَزاءُ سَيِّئةً وكما سُمِّيَ جَزاءُ الاعتِداءِ اعْتِداءً، فكذلكَ سُمِّيَ جَزاءُ الكَيدِ كَيداً على هذا المَعْنى، لا أنْ يكونَ ذلكَ منهُ كيداً في الحقيقةِ.

أو يقولُ: إنَّ الذَّمَّ إنما يَلْحَقُ الماكرَ والكايِدَ إذا استَعْمَلَهُ في وَلِيِّهِ وصَفِيِّهِ. فأمّا إذا مَكَرَ بِعَدُوِّهِ، وكادَ بهِ، فذلكَ ممّا لا بأسَ بهِ، ولا يُذَمُّ عليهِ فاعلُهُ.

وما أُضيفَ مِنَ الكَيدِ إلى اللهِ تعالى فذلكَ حالٌ بأعدائِهِ ليسَ بأوليائِهِ، فلم يَكُنْ فيهِ إلحاقُ مَعْنى مَكْروهٍ باللهِ تعالى.

ثم الأصلُ أنْ يُنْظَرَ في الفِعْلِ لِماذا؟ أأُضيفَ إلى اللهِ تعالى بِحَقيقةٍ أم بِمَجازٍ؟

فإنْ كانتِ الإضافةُ بحقِّ المَجازِ فلا يُجْعَلُ ذلكَ اسْماً لهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: هو كاتبٌ نافخُ روحٍ، ولا كائدٌ، ولا ماكرٌ؛ إذْ لا يَتَحقَّقُ ذلكَ منهُ.

وما كانتْ إضافتُهُ لأجلِ التَّحقيقِ فإنهُ يَسْتَقيمُ أنْ يُسَمّى بهِ، لأنهُ يَسْتَقيمُ أنْ نُسَمِّيَهُ مُنْعِماً مُفَضِّلاً خالقاً رَحْماناً؛ إذِ الإنعامُ والإفضالُ في الخَلْقِ موجودٌ منهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَتِينٌ﴾ أي قَوِيٌّ ثابتٌ. فقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي كَيدي لِأوليائي على أعدائي ثابتٌ، ليسَ كَكَيدِ الأعداءِ، لأنَّ كَيدَ الأعداءِ بِكَيدِ الشيطانِ، وكَيدَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والأصلُ أنَّ الكَيدَ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى حقٌّ، والحقُّ قويٌّ ثابتٌ، لا مَدْفَعَ لهُ، وكَيدَ الشيطانِ باطلٌ، وليسَ للباطلِ قَرارٌ، بل هو كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

---

(١) في م: يحج في حال يسر. ، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وزل. ، في م وزل. (٣) في الأصل وم: ابتلي.
(٤) في الأصل وم: كانوا.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ لم يكونوا يَدعُونَ الخَلْقَ إلى ما يَستثقِلُهُ عَقلٌ أو طَبعٌ، بل كانوا يَدْعونَ إلى ما يَخِفُّ، ويَسْهُلُ على الطَّبْعِ والعَقْلِ الإجابةُ لهُ لأنهمْ يدعونَهُمْ إلى التوحيدِ، وهُمْ كانوا يَعْبُدونَ غَيرَ واحدٍ مِنَ الآلهةِ وعبادةُ الواحدِ أيْسَرُ مِنْ عِبادةِ عَدَدٍ، وكانوا يدعونَهُمْ إلى الصِّدْقِ وإلى مكارِمِ الأخلاقِ [والإجابةُ][1] بِمِثْلِهِ أمرٌ يَسيرٌ. فيقولُ: أحَمَلْتَ عليهمْ ذلكَ حتى تَركوا الإجابة مع تَيسيرِهِ عليهمْ، فَيُخَرَّجُ ذِكْرُ هذا مُخرَجَ تَسْفيهِ أحلامِهِمْ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أنْ عندَهُمْ عِلْمَ الغَيبِ بالذي[2] ادَّعَوا أنّا نَجْعَلُ المُسْلِمينَ كالمُجْرِمينَ؛ وذلكَ مكتوبٌ عندَهُمْ، أو عندَ سَلَفِهِمْ عِلْمَ الغَيبِ، فَوَجَدوهُ في كُتُبِهِمْ، ويَعْلَمُ بهِ خَلَفُهُمْ، فَيُخاصِمونكَ بهِ.

[والثاني][3]: همْ قومٌ لم يكونوا يُؤمنونَ بالكتبِ ولا بالرسلِ، فكيفَ يُخاصِمونَكَ، ويُكَذِّبونَكَ في ما تُخبِرُهُمْ، وإنما يُوصَلُ إلى التكذيبِ بما يَثْبُتُ مِنَ العِلْمِ بِخِلافِهِ، ويَتَأيَّدُ بأحَدِ الوجْهَينِ اللَّذينَ ذَكَرْناهما.

[والثالثُ][4] يكونُ هذا في مَوضِعِ الاحْتِجاجِ عليهمْ حينَ زَعموا أنّا نَعْبُدُ الأصنامَ ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ويكونوا لنا شُفَعاءَ.

فما الذي حَمَلَهُمْ على هذهِ[5] الدَّعْوى؟/ ٥٨٩ ـ ب/ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

[والرابع][6]: أنْ يكونَ القومُ قد ألْزَموا أنفسَهُمُ الدُّنْيَوِيَّةَ بِدينِ اللهِ، وأقرّوا لهُ بالألوهِيَّةِ، وذلكَ يُلْزِمُهُمُ العَمَلَ بما فيهِ تَبجيلُ اللهِ تعالى وما بِهِ يَشْكُرُ الخلائقُ، وذلكَ لا يُعْرَفُ إلّا بالرُّسلِ ﷺ فقد عَرَفوا حاجةَ أنفسِهِمْ إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمْ عِلْمَ الغَيبِ. فما لَهُمْ امْتَنعوا عنِ الإجابةِ لرسولِ اللهِ ﷺ معَ حاجتِهِمْ إليهِ؟ أمْ[7] عندَهُمْ عِلْمُ الغيبِ، فَيَسْتَغْنونَ بهِ عنِ الرسولِ ﷺ؟

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ إنَّ حِكمَ اللهِ تعالى في الرسلِ ثَلاثٌ:

أحَدُها: ألّا يَدْعُوا على قَومِهِمْ بالهَلاكِ، وإنِ اشْتَدَّ أذاهُمْ مِنْ ناحِيَتِهِمْ حتى يُؤْذَنَ لهمْ.

والثاني: ألّا يُفارقوا قومَهُمْ، وإنِ اشْتَدَّ بهمُ البلاءُ، إلّا بإذنٍ مِنَ اللهِ تعالى.

والثالثُ: ألّا يُقَصِّروا في التَّبليغِ، وإنْ خافوا على أنفسِهِمْ.

ثم وراءَ هذا عليهمْ أمْرانِ:

أحَدُهما: أُمِروا ألّا يَغْضَبوا إلا لِلّهِ تعالى.

والثاني: ألّا يَحْزَنوا لِمكانِ أنفُسِهم إذا آذاهُمْ قومُهُمْ، بل يَحْزَنوا لِمكانِ أولئكَ القومِ إشفاقاً عليهمْ منهُ ورَحْمَةً بِما يَحُلُّ مِنَ العَذابِ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ فهذا هو حُكْمُ ربِّهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، وتَسْتَعْجِلْ[8] عليهمْ، بلِ اصْبِرْ لِحُكْمِ ربكَ بما حَكَمَ عليهمْ مِنَ العذابِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: ما][9] قيلَ: نادَى على قومِهِ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ. لكنهُ لم يَظْهَرْ دعاؤُهُ على قومِهِ عندَنا، وإنما ظَهَرَتْ منهُ المُفارقةُ والمُغاضَبَةُ على قومِهِ بقولِهِ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولم يَكُنْ لهُ أنْ يُفارِقَهُمْ، فيقولُ: اصْبِرْ بما حَكَمَ عليكَ ربُّكَ مِنْ تَرْكِ المُفارقةِ عنْ قومِكَ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الذي فارَقَ قومَهُ قَبلَ مَجيءِ الإذْنِ لهُ مِنَ اللهِ تعالى.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل بالدعاء. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: هذا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إنما. (٨) في الأصل وم: واستعمل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنَّ يونُسَ ﷺ لم يَصْبِرْ على أذى قومِهِ، بل فارَقَهُمْ حتى ابْتُلِيَ بِبَطْنِ الحوتِ، ثم فَزِعَ بالدعاءِ إلى اللهِ تعالى لِيُخلِّصَهُ مِنْ بَطْنِهِ.

فيقولُ: عليكَ الصَّبْرَ معَ قومِكَ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ حينَ[1] لم يَصْبِرْ مع قومِهِ، فابْتُلِيَ بِما ذَكَرَ حتى احْتاجَ إلى أنْ يُنادِيَ ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فَتُبْتَلَى أنتَ أيضاً بِمِثْلِ ما ابْتُلِيَ هو بِهِ.

ثم لا يَجوزُ أنْ تَلْحقَهُ اللائمةُ، ويُعاتَبَ على ما دَعا في بَطْنِ الحوتِ، لأنَّ ذلكَ عذابٌ ابْتُلِيَ بِهِ، ولا يَنْبَغي للمرءِ أنْ يَصْبِرَ على العذابِ بل عليهِ أنْ يَبْتَهِلَ إلى اللهِ تعالى لِيَكْشِفَ عنهُ.

وإنما لَحِقَتْهُ اللائمةُ بِمُفارَقَتِهِ قومَهُ ولِتَرْكِهِ الصَّبْرَ معهمْ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ نِعْمَةٌ مِنْ رِبِّكَ هي[2] ما وَفَّقَهُ لِلتَّوبةِ والإنابةِ وما قَبِلَ منهُ تَوبَتَهُ، وكانَ لهُ ألّا يَقْبَلَها؛ إذْ هو إنما أتى ربَّهُ بالتَّوبَةِ بعد أنْ صارَ إلى تلكَ المَضائِقِ، وابْتُلِيَ بالشدائدِ، وجاءَهُ بأسُ اللهِ.

ومِنْ حِكَمِهِ أنهُ لا يَقْبَلُ التوبَةَ بعدَ نُزولِ العذابِ والشِّدَّةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾؟ [غافر: ٨٤ و٨٥] فإذا قَبِلَ توبَتَهُ كانَ فيهِ عظيمُ نِعْمةٍ مِنَ اللهِ تعالى عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ هو المكانُ الخالي. فلو لم يَتُبْ إلى اللهِ تعالى لَكانَ يَلْبَثُ ﴿فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٤].

ثم نُبِذَ بَعد ذلكَ ﴿بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لكنَّ الله تعالى تَفَضَّلَ عليهِ بِقَبولِ توبتِهِ ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] مُحْمومٌ.

فقولُهُ تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لو عاقَبَهُ بالنَّبْذِ. ولكنْ إنما نُبِذَ بالعَراءِ بَعْدَ قَبولِ التوبةِ، فلم يَصِرْ مَذْموماً.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فَنِعْمَتُهُ عليهِ كانَتْ مِنْ ثلاثةِ أوجُهٍ:

أحَدُها: في تَذْكيرِ الزَّلَّةِ، وذلكَ كانَ بِالْتِقامِ الحوتِ إيّاهُ، وكانَ عندَهُ مُفارَقَتُهُ قومَهُ لم تَكُنْ زَلَّةً، لأنهُ إنما فارَقَهُمْ لأنَّ قومَهُ كانوا[3] لهُ أعداءً في الدينِ، فَفارَقَهُمْ لِيَنْجُوَ منهمْ، ولِيَسْلَمَ لهُ دينُهُ، ولا يَسْمَعَ المَكْروهَ في اللهِ تعالى.

والثاني: أنَّ في مُفارَقَتِهِ إيّاهُمْ [تَخويفاً منهُ][4] لهمْ وتَهْويلاً[5] لأنَّ القومَ كانَ لا يُفارِقُهُمْ نَبِيُّهُمْ مِنْ بَينِ أظْهُرِهِمْ إلّا عندَما يريدُ [اللهُ][6] أنْ يُنْزِلَ بهمُ العذابَ، وذلكَ ممّا يَدعوهُمْ إلى الِانْقِلاعِ عمّا هُمْ فيهِ، ويَدْعوهُمْ إلى الفَزَعِ إلى اللهِ تعالى.

[والثالثُ][7]: مَنْ خَوَّفَ آخَرَ بأمْرٍ، فيكونُ فيهِ دُعاؤهُ إلى الهُدَى، كانَ مَحْموداً مُصيباً.

ولأنَّ مفارَقَتَهُ إياهُمْ هي التي دعَتْهُمْ إلى الإسلامِ، فأسْلَموا، قالَ[8]: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ومَنْ كانَتْ مُفارَقَتُهُ لهذهِ الأوجهِ التي ذَكَرْنا لم تُعَدَّ مُفارَقَتُهُ زَلَّةً، بل عُدَّتْ مِنْ أفْضَلِ شمائِلِهِ ولكنْ لَحِقَتْهُ اللائمةُ معَ هذا كلِّهِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الرسُلَ لا يَسَعُهُمْ أنْ يُفارِقوا قومَهُمْ، وإنِ اشْتَدَّ عليهمُ الأذى مِنْ جِهَتِهِمْ إلّا بَعدَ وجودِ الإذْنِ مِنَ اللهِ تعالى، وكانَتْ مُفارَقَتُهُ تلكَ بِغَيرِ إذْنٍ، واللهُ أعلَمُ.

ثم كانَ في ظَنِّهِ أنْ ليسَتْ تلكَ المفارقةُ زلَّةً. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؟ [الأنبياء: ٨٧] قيلَ

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٤) في الأصل وم: تخويف منهم. (٥) في الأصل وم: وتهويل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: لقوله.

في التأويلِ: أنْ لنْ نُضَيِّقَ عليهِ. وقيلَ: أنْ لنْ نُعاقِبَهُ. فلولا أنَّ عندَهُ أنَّ تلكَ المُفارقةَ ليسَتْ بزلَّةٍ، وإلّا كانَ لا يَظُنُّ، فَتَبيَّنَ عندَهُ بالتِقامِ الحوتِ إيّاهُ وبما أفضَى إليهِ منَ الشدائدِ أنَّ تلكَ زلَّةٌ منهُ. وتَذْكيرُ الزَّلَّةِ مِنْ إحدَى النِّعَمِ.

والنِّعمةُ الثانيةُ والثالثةُ: ما ذَكَرْناهما مِنْ تَوفيقِ اللهِ تعالى إيّاهُ بالتوبةِ وإكرامِهِ عليهِ بِقَبولِها. ومِنْ حِكَمِهِ ألّا يَقْبَلَ التوبةَ مِمَّنْ جاءَهُ بأسُ اللهِ، وأحاطَ بهِ العذابُ، وهو إنما فَزِعَ إلى التوبةِ بَعْدَ ما عايَنَ العذابَ، وجاءَهُ بأسُ اللهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ حُكْمُهُ هذا في الكَفَرَةِ، ليسَ في المؤمنينَ، لأنهُ قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ سَبَقَ منهُ الإيمانُ قَبْلَ أنْ تأتِيَهُ آياتُ ربِّهِ، أو سَبَقَ منهُ كَسْبُ الخيرِ مِنْ بَعْدِ الإيمانِ فإنَّ إيمانَهُ في ذلكَ الوقتِ يَنْفَعُهُ، وقالَ في أهلِ الكُفْرِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٤و ٨٥]، فهذا حُكْمُهُ في أهلِ الشِّركِ وقولُهُ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

وقالَ في المؤمنينَ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]. فَثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ هو حُكْمُهُ في أهلِ الكُفْرِ ليسَ في أهلِ الإيمانِ. والعقلُ يَدُلُّ على هذا. وذلكَ أنَّ المؤمِنَ قد عَلِمَ أنَّ الذي سَبق منهُ زَلَّةٌ وارْتِكابُ مَعْصِيةٍ، فهو ليسَ يَحتاجُ على إثباتِ آياتٍ، فَيَتَنَبَّهُ على أنَّ الذي فَعَلَهُ زَلَّةٌ. فجائزٌ أنْ تُقْبَلَ منهُ التوبةُ في ذلكَ الوقتِ كما تُقْبَلُ منهُ [قَبْلَ][1] تلكَ الحالةِ.

وأمّا الكافرُ فَعِنْدَهُ أنَّ ما سَبَقَ منهُ لم يكُنْ زلَّةً ومَعْصِيَةً، فَيَحْتاجَ إلى آياتٍ تُنَبِّهُهُ [إلى الرجوعِ][2] عَنْ غَفْلَتِهِ، وتُذَكِّرُهُ أنَّ الذي فَعَلَهُ مَعْصيةٌ، فأُنزِلَ بهِ البأساءُ والشِّدَّةُ. فذلكَ يَمْنَعُهُ عنِ [النَّظَرِ][3] والتَّدَبُّرِ، فلا يكونُ إيمانُهُ عَنْ تَحقُّقٍ ويَقينٍ، فلا يَنْفَعُهُ.

[وأمّا المؤمنُ فإنهُ][4] يَفْزَعُ إلى التوبةِ والإيمانِ ليدفَعَ عنْ نفسِهِ البأساءَ، لا لِيَدومَ عليهِ لو كُشِفَ عنهُ العذابُ كما قالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] فلهذا لا يَنْفَعُهُ إيمانُهُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ قومَ يونُسَ ﷺ / ٥٩٠ ـ أ/ قد نَفَعَهُمْ إيمانُهُمْ، وهُمْ آمَنوا بَعْدَ ما أيْقَنوا بالعذابِ فَجوابُهُ مِنْ [وجوهٍ: أحَدُها:][5] أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ عذابُهُمْ مَوعوداً، ولم يَكُنْ مُشاهَداً مَرْئيّاً.

[والثاني:][6] جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ عَلِمَ صِدْقَهُمْ في إيمانِهِمْ، لو مُكِّنوا، فَكَشَفَ عنهمُ العذابَ لِما كانوا مُتَحقِّقينَ، وغَيرُهُمْ كانَ يَفْزَعُ إلى الإيمانِ لِيَكْشِفَ عنهُ العذابَ، ثم يَعودُ إلى كُفْرِهِ، فلم يُقْبَلْ منهُ.

[والثالثُ][7]: جائزٌ أنْ يكونَ مِنْ حِكَمِ اللهِ تعالى ألّا يَقْبَلَ مِنْ أحدٍ التوبةَ إذا حلَّ بهِ العذابُ، ولكنهُ يَقْبَلُها مِنَ المؤمنينَ إفضالاً وإنعاماً، ولا يَتَفَضَّلُ على الكافرينَ الذينَ آثَروا الدنيا على الدينِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: ليسَتْ للهِ تعالى [على العبدِ][8] نِعْمةٌ، ولا على أحدٍ منْ أهلِ الإسلامِ، لأنَّ مِنْ قولِهِمْ:

إنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ مِنْ كافرٍ أنهُ يُسْلِمُ يوماً مِنَ الدَّهْرِ، وإنْ كانَ بَعْدَ ألفِ سنةٍ، فليسَ لهُ أنْ يُميتَهُ قَبْلَ أنْ يُسْلِمَ، وعليهِ أنْ يُوَفِّقَهُ للتوبةِ، وعليهِ أنْ يَقْبَلَ منهُ التوبةَ.

فإذا كانَ هذا كلُّهُ حقًّا عليهِ للعبدِ لم يكُنْ لهُ مَوضِعُ نِعْمةٍ عليهِ في قَبولِ التوبةِ، لأنَّ مَنْ قَضَى حقًّا عليهِ، وأوصلَهُ إلى حقِّهِ، لم يُعَدَّ ذلكَ منهُ إنعاماً، فلا يكونُ لقولِهِ: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مَعْنىً، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧] ولو كانتِ الهِدايةُ واجبةً عليهِ لم يكُنْ لهُ عليهِمْ مَوضعُ امْتِنانٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: والثاني أنه. (٥) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختارَهُ، واصطفاهُ للرسالةِ. ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؟ [الصافات: ١٤٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهذا وَصْفُ كلِّ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ في الآخِرَةِ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: هذا على التَّحقيقِ، وصَرْفُ ذلكَ إلى قومٍ بأعيانِهمْ قد عُرِفوا بِخُبْثِ الأعينُ وحلولِ الآفاتِ بِمَنْ يَعينونَهُ[1] مِن أهلِ الشَّرَفِ والتَّبجيلِ.

ثم اللهُ تعالى بِفَضْلِهِ عَصَمَ رسولَهُ ﷺ فلم يَتَهيَّأْ لهمْ أنْ يَعينوهُ، فكانَ فيهِ تقريرُ رسالتِهِ وآيةُ نُبُوَّتِهِ عندَ أولئكَ الكَفَرَةِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنهمْ كانوا يَعُدُّونَ رسولَ اللهِ ﷺ مِنَ المجانينِ، ويقولونَ: إنهُ لَمَجْنونٌ، والمَجْنونُ لا يُعانُ، وإنما يُعانُ أهلُ الشَّرَفِ والحِجَى وذَوُو الأحلامِ والنُّهَى، فما أنْكَرْتَ أنهُ سَلِمَ مِنَ الآفاتِ حتى يُقْصَدَ إليهِ بالعينةِ.

فجوابُهُ أنهمْ وإنْ كانوا يَعُدُّونَهُ مِنْ جُمْلَةِ المجانينِ فإنهمْ سَمِعوا منهُ ذِكْراً عَجَباً، وهو القرآنُ. ومَنْ أُعطيَ مِثْلُ ذلكَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ فهو مما يُقْصَدُ إليهِ بالحسدِ، فكانوا يَعينونَهُ لِذلكَ المَعْنَى. ثم لم يَضُرَّهُ كَيدُهُمْ، ولا نَفَذَتْ فيهِ حِيَلُهُمْ، فأوجَبَ فيهِ ذلكَ: يُنَبِّئُهُمْ أنهُ رسولٌ مِنَ اللهِ تعالى.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على التَّمْثيلِ لا على التَّحْقيقِ، فيقولُ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لِشِدَّةِ بُغْضِهِمْ وعداوَتِهِمْ إياكَ ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ كما يُقالُ: نَظَرَ إليَّ فلانٌ نَظَراً، وكادَ يَقْتُلُني، فيقولُهُ على التمثيلِ.

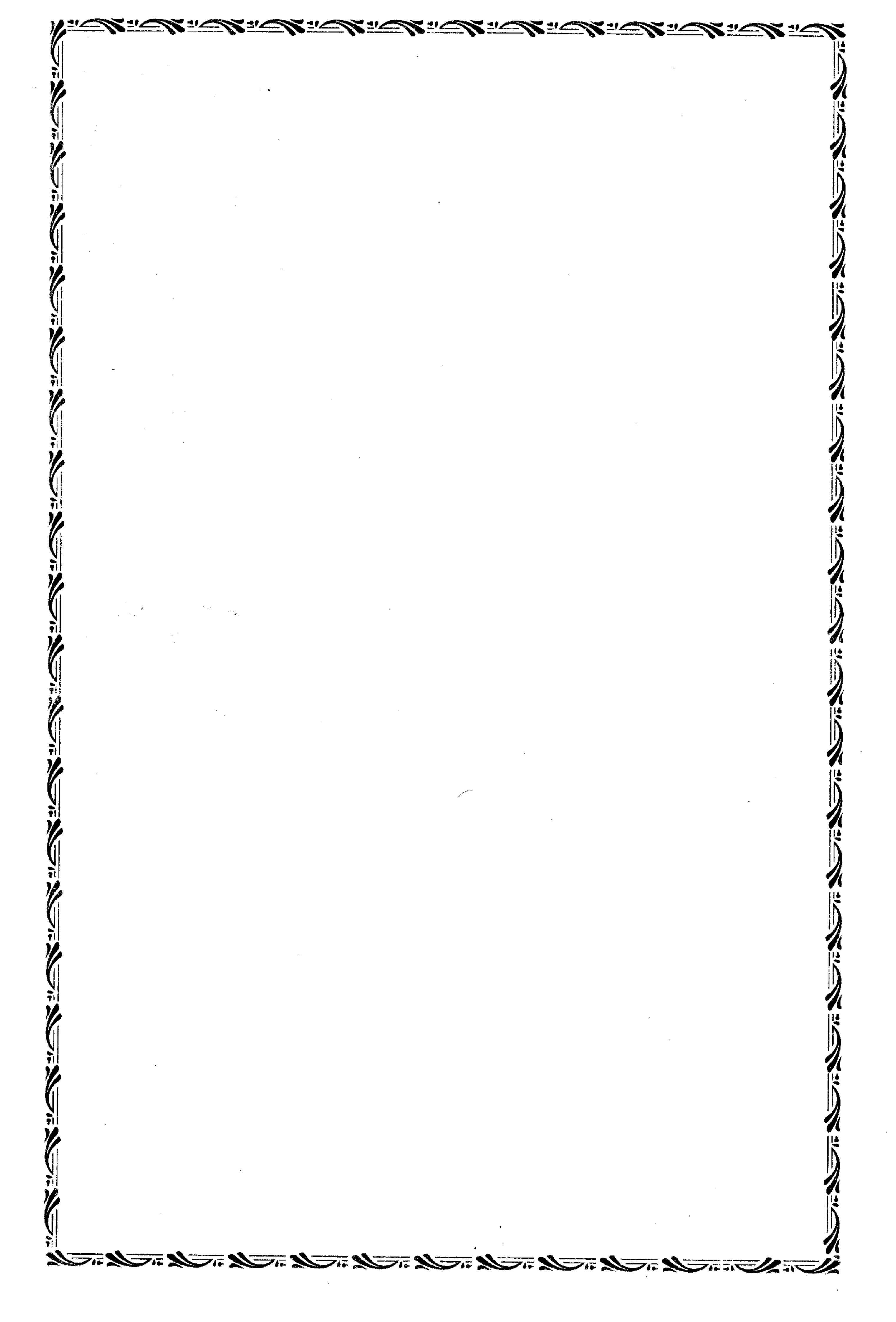
ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي يُسْقِطونَكَ، ويَصْرَعونَكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ وهو القرآنُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ قد وصَفْنا أنهمْ لأيِّ مَعْنىً كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الجنونِ، وذَكَرْنا ما يُرَدُّ عليهِمْ، ويَنْفي عنهمُ الرَّيْبَ والإشكالَ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ، هو القرآنُ، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ إذْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُما جميعاً، إذْ كلُّ واحدٍ منهما ذُكِرَ بِذِكْرِ ما لِلْخَلْقِ وما على الخَلْقِ، وما تَنْتَهي إليهِ عَواقِبُهُمْ، وبِذِكْرِ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: يعينه.



سورة الحاقة

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ قد ذَكَرْنا أنَّ يومَ القيامةِ سُمِّيَ بأسماءِ النَّوازِلِ التي تكونُ مِنَ البَلايا والشَّدائدِ لِيَقَعَ بها التَّخويفُ والتَّهويلُ، وليسَ في تَبْيينِ وقتِهِ ولا في ذِكْرِ عينِهِ تَرْهيبٌ ولا تَرْغيبٌ.

فَذِكْرُ ذلكَ اليومِ بالأسبابِ التي هي أسبابُ الزَّجْرِ والرَّدْعِ: فقولُهُ تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ أي حَقَّتْ لكلِّ عاملٍ عَمَلَهُ، ويَحِقُّ لكلِّ ذي حقٍّ حَقُّهُ؛ فإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ اسْتَوْجَبَها، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ دَخَلَها.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿الْحَاقَّةُ﴾ هي النازِلةُ التي لا تُرْفَعُ أبداً، وهي[2] ما يَنْزِلُ بالخَلْقِ مِنَ الجزاءِ وأنواعِ ما وُعِدوا بهِ يومَ القِيامةِ. وقيلَ: هي الواجبةُ مِثْلُ قولِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ [هود: ٨] أي وَجَبَ، ونَزَلَ بهِمْ.

والأصلُ أنَّ القِيامةَ. سُمِّيَتْ بالأحوالِ التي يُبْتَلَى الخَلْقُ بها مِنْ نحوِ: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١] و: ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١] و: ﴿التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]و: ﴿الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣] ونَحْوِ ذلكَ مِمّا جاءَ في القرآنِ أُخِذَتْ أسماؤُها مِنْ أحوالِ ما يُبْتَلَى الخَلْقُ بها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ فهو تَعْظيمُ أمْرِ ذلكَ اليومِ كما يُقالُ: فُلانٌ، ما فُلانٌ؟ إذا وُصِفَ بالغايةِ في القوةِ والسَّخاوَةِ أو نَحْوِهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ فهو تَعْظيمُ أمْرِ ذلكَ اليومِ أيضاً، أو ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾؟ أي لم تَكُنْ تَدْري، فأدراكَ اللهُ تعالى، لأنهُ لم يكُنْ خَبَرُ القيامةِ [في][3] عِلْمِكَ ولا عِلْمِ قومِكَ. لكنَّ اللهَ تعالى أطْلَعَكَ عليهِ لأنَّ قومَكَ[4] كانوا مُنْكِري البعثِ، ولم يكُنْ عندَهُمْ مِنْ خَبَرِهِ شيءٌ؛ ذلكَ أنَّ اللهَ ﷻ لمّا ذَكَرَ لهمْ مِنْ دلائلِ البعثِ التي حُجَجُهُ تُدْرِكُها العقولُ والحِكْمةُ مِنْ إحالةِ التَّسْوِيَةِ بينَ الفاجِرِ والبَرِّ والمُطيعِ والعاصي، وأنهُ لا يجوزُ كونُ هذا العالمِ عَبَثاً باطلاً، والدلائلِ الأُخَرِ التي لا يأتي عليها الإحصاءُ، فلمّا لم يُقْنِعْهُمْ ذلكَ، ولم يَتَفَكَّروا في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ، ولا اعْتَبَرَوا بالآياتِ، احْتَجَّ عليهِمْ بما لَقِيَ مِنْ سَلَفِهِمْ مِنْ مُكَذِّبي البعثِ ومُنْكِري الرسلِ حينَ[5] اسْتَأْصَلَهُمْ، فلم يَبْقَ منهم سَلَفٌ ولا خَلَفَ عنهمْ خَلَفٌ ليكونَ ذلكَ أبْلَغَ في الإنذارِ:

الآية ٤ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ذَكَّرَهُمْ بما حَلَّ بِثَمودَ وعادٍ وما أصابَهُمْ بِتَكْذيبِهِمُ الرسلَ.

يقولُ: سَيُصيبُكُمْ بِتَكذيبِكُمْ محمداً ﷺ في ما يُخْبِرُكُمْ مِنَ الأنباءِ عنِ اللهِ تعالى كما أصابَ[6] ثموداً وعاداً بِتَكذيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، لِيَنْتَهوا عنْ تكذيبِهِ.

أو يُخْبِرُهُمْ أنَّ ثموداً وعاداً كَذَّبوا رسُلَهُمْ حتى صاروا إلى الهلاكِ، فَنَدِموا[7] على ما سَبَقَ مِنْ تكذيبِهِمْ، فَسَتَنْدَمونَ أيضاً إنْ دُمْتُمْ على تكذيبِكُمْ محمداً ﷺ في ما يأتيكُمْ مِنَ الأنباءِ بَعْدَ / ٥٩٠ ـ ب/ موتِكُمْ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: و هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قومه. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: يصيبهم ما. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم.

ثم ذَكَرَ لهمْ نبأَ عادٍ وثمودَ وما (1) كانوا مُكَذِّبينَ بتلكَ الأنباءِ لِئَلا يَبْقى لهمْ يومَ القيامةِ حُجّةٌ، فيقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولأنهمْ لو بَحَثوا عنْ عِلْمِ ذلكَ لكانَتْ هذهِ الآياتُ والأنباءُ تُحَقِّقُ لهمْ ذلكَ. فقد وَقَعَتْ هذهِ الآياتُ مَوقعَ الحِجاجِ؛ لولا إغفالُهُمْ وإعراضُهُمْ عنها، فانْقَطَعَ عُذْرُهُمْ، ولَزِمَتْهُمُ الحُجّةُ لِأنْ(2) تركوا الإيمانَ بها.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؟ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾؟ [القارعة: ١ و٢ و٣] يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا مُخاطبةَ كلِّ مُكَذِّبٍ بالبَعْثِ، لا مُخاطبةَ الرسولِ كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ [الإنفطار: ٦] الذي إنهُ خِطابٌ لِمَنْ يَغْتَرُّ بالدنيا لا لِرسول الله ﷺ تعالى، وجائزٌ أنْ يكونَ يُخاطِبُ بهِ رسولَه ﷺ، فإنْ صُرِفَ الخطابُ إلى رسولِ الله ﷺ اقْتَضى مَعْنًى غيرَ ما يَقْتَضيهِ لو أُريدَ بالخِطابِ المُكَذِّبونَ.

والأصلُ أنَّ قولَ القائلِ: فلانٌ وما فلانٌ؟ يُوجِبُ اجْتِذابَ الأسماعِ، ويَسْتَدْعي السامعَ لِلْبَحْثِ في الشاهدِ، لأنهُ إنما يُذْكَرُ فلانٌ بهذا لِأعجوبةٍ فيهِ أو لِعِظَمِ أمْرِهِ، فيَسْتَبْحِثُ عنْ ذلكَ لِيوقِعَهُ على تلكَ الأعجوبةِ التي فيهِ.

فإنْ كانَ الخِطابُ لِلْمُكَذِّبينَ دعاهُمْ ذلكَ إلى تَعَرُّفِ ما فيهِ مِنَ الأعجوبةِ والتَّعظيمِ. وفي قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مُبالغةٌ في التَّعَجُّبِ، وإذا نَظَروا فيهِ، وفَهِموهُ، دَعاهُمْ ذلكَ إلى الإيمانِ بهِ، فصارَتِ الآيةُ في مَوضِعِ الإغراءِ واجْتِذابِ الأسماعِ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في رسولِ الله ﷺ، فتأويلُهُ أنَّ المُكَذِّبينَ يُؤذونَهُ، ويَمْكُرونَ بهِ، فَيَتَأذّى بهِمْ، ويَشْتَدُّ ذلكَ عليهِ، فَذَكَرَ ما يَنْزِلُ بهِمْ مِنَ العذابِ، ويَحِقُّ عليهِمْ، فيكونُ فيهِ بعضُ التَّسَلّي عمّا أصابَهُ [مِنَ](3) الأذى مِنْ ناحِيَتِهِمْ، أو ذَكَرَهُ، أنَّ العذابَ يَحِقُّ عليهِمْ، فلا يَحْزَنُ بصنيعِهِمْ، بل يَحْمِلُهُ ذلكَ على الشَّفَقَةِ عليهِمْ والرحمةِ لهمْ.

وقيلَ: إنْ كان الخِطابُ في المُكَذِّبينَ ففيهِ تَخويفٌ لأهلِ مكةَ وتَهويلٌ أنهمْ إنْ كَذَّبوا رسولَهُمْ في ما يُخْبِرُهُمْ مِنْ أمْرِ البعثِ نَزَلَ بهِمْ مِنَ العذابِ ما نَزَلَ بِعادٍ وثَمودَ بِتكذيبِهِمُ الرسلَ، وقد عَرَفَ أهلُ مكةَ ما نَزَلَ بأولئكَ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في رسولِ الله ﷺ ففي ذِكْرِ نَبَإِ عادٍ وثَمودَ ما يَدْعوهُ إلى الصَّبْرِ على أذاهُمْ، ويكونُ لهُ بعضُ التَّسَلّي [بأنهُ يُخْبِرُهُ](4) أنكَ لستَ بأوّلِ رسولٍ كُذِّبَ، بل شَرَكَكَ الرسلُ مِنْ قَبْلُ، وابْتُلوا بالتَّكذيبِ.

الآيتان ٥ و٦ ثم بَيَّنَ ما نَزَلَ بِعادٍ وثمودَ بالتَّكذيبِ بالقارعةِ، وهو قولُهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾](5) فالطاغيةُ والعاتيةُ والرابيةُ [الآية: ١٠] يُمْكِنُ أنْ تَجْعَلَ هذا كلَّهُ صفةً للعذابِ الذي نزلَ بهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِفَةَ الأحوالِ التي سَبَقَتْ منهمْ، وكانوا عليها. فإنْ كان هذا صِفَةَ العذابِ فالطُّغيانُ عبارةٌ عنِ الشِّدّةِ، والطاغي، هو العاتي الشَّديدُ، لا يُراقِبُ، ولا يَتَّقي. فَوَصَفَ العذابَ الذي أرْسَلَهُ عليهِمْ أنهُ لم يُبْقِ منهمْ أحداً، بلِ اسْتَأْصَلَهُمْ، وأهْلَكَهُمْ بِجُمْلَتِهِمْ.

وقيلَ: ذلكَ العذابُ، هو ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾(6) وقيلَ: ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾(7) وسُمِّيَ طاغيةً، ولم يَقُلْ: طاغٍ لهذا. وقيلَ: اشْتُقَّ هذا الاسْمُ للعذابِ مِنْ أفعالِ مَنْ عُذِّبَ بهِ، ليسَ أنها طاغيةٌ، لكنْ أُخِذَ اسْمُهُ مِنْ فِعْلِ القومِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وقولِهِ(8) تعالى: ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وإنما ذُكِرَ كُلُّهُ جزاءَ سَيِّئاتِهِمْ.

وقيلَ: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي بِطُغيانِهِمْ وذنوبِهِمُ التي سَلَفَتْ منهمْ كقولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١].

ويَحْتَمِلُ: أنْ يكونَ هذا صفةً لأحوالِهِمُ التي كانوا عليها مِنْ شدةِ التَّمَرُّدِ والعُتُوِّ؛ ومِنْ طُغيانهمُ التَّكذيبُ بالحاقّةِ والقارعةِ. ففيهِ تَخويفٌ لأهلِ مكةَ أنهُ سَيُهْلِكُهُمْ إنْ لم يَهْتَدوا عنِ التكذيبِ كما أهْلَكَ أولئكَ.

---

(1) في الأصل وم: وأن. (2) في الأصل وم: وإن. (3) ساقطة من الأصل وم. (4) في الأصل وم: لأنه نحو. (5) ساقطة من الأصل وم.
(6) [البقرة: ٥٥و..]. (7) هود: ٦٧ و.. (8) في الأصل وم: وقال.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ قالَ الحَسَنُ: الريحُ الصَّرْصَرُ هي الصَّيِّتَةُ، وهي التي لها صَوتٌ. وقالَ بعضُهُمْ: هي الريحُ الباردةُ الشديدةُ البَرْدِ كقولِهِ: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ﴾ الآيةِ [آل عمران: ١١٧] والصِّرُّ البَرْدُ[1]، والصَّرْصَرُ المُكَرَّرُ منهُ، فَوَصَفَها لِدَوامِها وتكرُّرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ فتأويلُها على ما ذَكَرْنا في الطاغيةِ. وذَكَرَ الكَلْبِيُّ وغيرُهُ أنها سُمِّيَتْ عاتيةً لأنها عَتَتْ على الخُزّانِ فلمْ يُطيقوها. وهذا لا يُستقيمُ لأنهُ لا يجوزُ أنْ يُوكَّلَ الخُزّانُ على حِفْظِها، ثم لا يَتَمَكَّنونَ مِنَ الحِفْظِ حتى تَعْتُوَ عليهِمْ إلّا أنْ يُقالَ: إنهمْ لم[2] يُوكَّلُوا بِحِفْظِها في ذلكَ الوقتِ. فأمّا إذا أُوكِلوا بِحِفْظها، ثم لا يُجْعَلُ لهمْ إلى حِفْظِها سَبيلٌ، فهذا مُسْتَحيلٌ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ وقولُهُ: ﴿سَخَّرَهَا﴾ قِيلَ: أرسَلَها، وقيلَ: أدامَها عليهِمْ، وقيلَ: التَّسخيرُ التَّذليلُ، أي ذَلَّلَها، فَصَيَّرَها، بحيثُ لا تَمْتَنِعُ عنِ المُرورِ عليهِمْ في الوَجْهِ الذي جَعَلَها عليهِمْ، وأطاعَتْهُ في الوَجْهِ الذي أرسَلَها.

وإنما أرسَلَ الريحَ على أبدانِهِمْ خاصةً، لم[3] تُهْلِكْ شيئاً مِنْ مَساكِنِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] والريحُ إذا عُمِلَتْ على الأبدانِ [فهي على البُنْيانِ][4] أكثَرُ. لكنَّ اللهَ تعالى لم يَأمُرْها بذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فيهِ تَبْيِينُ أنَّ الأيامَ لم تكُنْ على عَدَدِ اللَّيالي، ولو كانَتا[5] على عَدَدٍ واحدٍ لَكانَ في ذِكْرِ أحدِ العَدَدَينِ ذِكْرُ العَدَدِ الآخَرِ، لأنَّ تَسْمِيَةَ اللَّيالي تَسْمِيَةُ الأيامِ، وتَسْمِيَةَ الأيامِ تَسْمِيَةُ الليالي.

ألا تَرَى أنهُ قالَ في قصةِ زَكَرِيّا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾؟ [مريم: ١٠] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حُسُومًا﴾ قيلَ: مُتَتابِعةً دائمةً، وقيلَ: قَطْعاً قَطْعاً مِنَ الحَسْمِ؛ يُقالُ: حَسَمَتِ الريحُ كلَّ شيءٍ مَرَّتْ بهِ حَسْماً، أي قَطَعَتْهُ، وقيلَ: مَشْؤوماتٍ حينَ[6] انْقَطَعَتْ بَرَكَتُها عنهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي إنكَ لو أدْرَكْتَهُمْ، وشَهِدْتَهُمْ، وعايَنْتَهُمْ. لَرَأيتَهُمْ ﴿صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. وقالَ بعضُهُمْ: ألا تَرَى الأعضاءَ المُتَفَرِّقَةَ: كلُّ قِطْعةٍ منها كأنها عَجُزُ نَخْلةٍ؟ إذا كانوا هُمْ أعظَمَ في أنفسِهِمْ مِنْ أعجازِ النَّخلِ [فَيَنْصَرِفُ تأويلُهُ][7] إلى الأعضاءِ المُتَبايِنَةِ.

ثم ذَكَرَ النَّخلَ هنا بالتأنيثِ، فقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وَوَصَفَهُ[8] في سورةِ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ بِصِفَةِ التَّذكيرِ، فقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] لأنَّ النَّخلَ يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ. كذا قالهُ الزَّجّاجُ.

وقيلَ: النَّخلُ يُذَكَّرُ على كلِّ حالٍ. لكنَّ قولَهُ: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ صِفةٌ للأعجازِ لا صِفةُ النَّخلِ، والأعجازُ جماعةٌ، و الجماعةُ مؤنثةٌ، والنَّخلُ واحدٌ، فَيُذَكَّرُ. وليسَ كذلكَ؛ لأنَّ الخاويةَ صِفةُ النَّخلِ.

ألا تَرَى عندَ الوَصْلِ يُذَكَّرُ بالخَفْضِ لا بالرَّفْعِ؟ ولأنَّ النَّخلَ اسْمُ جَمْعٍ، يُقالُ: نَخْلَةٌ ونَخْلٌ كما يُقالُ: شَجَرَةٌ وشَجَرٌ، وثَمَرَةٌ وثَمَرٌ، ونَحْوُ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿خَاوِيَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي باليَةٍ، وقيلَ: خاوِيَةٍ[9] أي ساقِطةٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي ساقِطةٌ على قَوائِمِها. وقيلَ: أي خاليةٌ، فوصَفَها بالخَلاءِ لأنها اقْتُلِعَتْ مِنْ أصْلِها حتى خَلا ذلكَ المَكانُ منها. وأعجازُ النَّخلِ أُصولُهُ.

---

(١) في الأصل وم: البارد. (٢) في الأصل وم: لو. (٣) من م، في الأصل: لمن. (٤) من م، في الأصل: فهو على الاليتيان. (٥) في الأصل وم: كانا. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: فيضرب تأويل. (٨) في الأصل: وصف، في م: ووصف. (٩) في الأصل وم: الخاوية.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيهِ أنهُ لم يَبْقَ لهمْ نَسْلٌ يُذْكَرونَ / ٥٩١ ـ أ/ بهِمْ، بل أُهْلِكوا بأجمَعِهِمْ، وانقَطَعَ عنهمُ الذِّكْرُ إلّا بالسوءِ، وإلّا كانَ يُرَى لهمْ باقيةٌ.

ففيهِ أنهمُ استُؤصِلوا، وعَمَّ العذابُ الكبيرَ والصغيرَ، يُخوِّفُ أهلَ مكةَ بِما يُخبِرُهُمْ عمّا فَعَلَ بأولئكَ.

وفيهِ إخبارٌ أنهمْ عُذِّبوا بِعذابٍ، لا رَحْمَةَ فيهِ، وهكذا سُنَّةُ اللهِ تعالى في مُكَذِّبي الرسلِ مِنْ قَبْلُ؛ وجَعَلَ تعذيبَ هذهِ الأمةِ أنْ يُجاهدوا، ويُقاتِلوا، والنساءُ لا يُقاتَلْنَ، بل يُسْبَيْنَ رجاءَ أنْ يُسْلِمْنَ. فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] واللهُ أعلَمُ.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا جوابَ قولِهِمْ: إنَّ محمداً صُنْبورٌ، أي ليسَ لهُ ولدٌ، يُبْقِي نَسْلَهُ أو ذِكْرَهُ، وأخبَرَ تعالى أنَّ كثرةَ الأولادِ، لا تُغْني مِنَ اللهِ شيئاً، إذْ قد كانَتْ لهمْ أهالِيَ وأولاداً، فأُهْلِكوا عنْ آخِرِهِمْ، وانقَطَعَ التّناسُلُ منهمْ، لِيَعْلَموا أنهُ قد يَبْقى ذِكْرُ مَنْ أطاعَ اللهَ ورسولَهُ، كانَ ثَمَّ أولادٌ أو لم يَكُنْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ قُرِئَ بِكَسْرِ القافِ وفَتْحِ الباءِ، وقُرِئَ بِنَصْبِ القافِ وجَزْمِ الباءِ.

فتأويلُ القراءةِ الأولَى: أي جاءَ فِرْعَونُ ومَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ وأتباعِهِ، وقِبَلَهُ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ القُرَى التي بِقُرْبِ القُرَى. وقد رُوِيَ في الشاذِّ في بعضِ الحروفِ: وجاءَ فِرْعَونُ ومَنْ دونَهُ[1]. وجائزٌ [أن يكونُوا[2] مِنْ أتباعِ فِرْعَونَ، وجائزٌ ألّا يكونوا][3].

وتأويلُ القراءةِ الثانيةِ: أي جاءَ فِرعَونُ ومَنْ كانَ مُقَدَّماً عليهِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ قيلَ: قُرَياتُ لوطٍ ائْتَفَكَتْ على أهلِها، أي انْقَلَبَتْ عليهِمْ بِما عَصَتْ رُسُلَها، وقيلَ: المُؤتَفِكُ الذي يَأْتَفِكُ مِنَ الصِّدْقِ إلى الكذبِ ومِنَ الحَقِّ إلى الباطِلِ ومِنَ العدلِ إلى الجَورِ.

فَمَنْ قَرَأَ: وَمنْ قِبَلَهُ بِخَفْضِ القافِ، كانَ قولُهُ: جاءَ فِرْعَونُ ومَنْ قِبَلَهُ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً كلُّهُ على العِصْيانِ لِموسى ﷺ والمرادُ مِنَ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ كلُّ مَنِ ائْتَفَكَ مِنَ الحقِّ إلى الباطِلِ دونَ أهلِ قُرَياتِ لوطٍ لأنهمْ كانوا قبلَ زمانِ موسى بكثيرٍ.

ومَنْ قَرَأَ: ومَنْ قَبْلَهُ بِنصبِ القافِ، كانَ قولُهُ: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ واقعاً على رسولِ كلِّ فريقٍ؛ كأنهُ قالَ: أي عَصَتْ كلُّ أمّةٍ رسولَها. وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قومَ لوطٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالخطايا والشِّرْكِ. وذَكَرَ أبو مُعاذٍ عنْ مجاهدٍ في تفسيرِ الخاطئةِ الشِّرْكَ والكُفْرَ، وأنكرَ ذلكَ، واحتَجَّ بأنَّ اللهَ تعالى لم يَذْكُرْ مِنْ قومِ لوطٍ كُفْراً وشِرْكاً في كتابِهِ إنما ذَكَرَ رُكونَهُمْ إلى الفاحشةِ، وبها أُهْلِكوا؛ إذْ[4] لم يَنْزِعوا، ولم يَتوبوا.

قالَ: ولو كانوا مُشْرِكينَ لم يَقُلْ لهمْ لوطٌ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] أراد بذلكَ الإنكاحَ، والكافرُ لا يَصِحُّ لهُ نِكاحُ المُسْلِمةِ.

وليسَ كما زَعَمَ، بل كانوا أهلَ شِرْكٍ وكُفْرٍ باللهِ تعالى. ألا تَرَى إلى قولِهِ في ما حكَى عنْ قومِ لوطٍ مِنْ قولِهِمْ[5] ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾؟ [الشعراء: ١٦٧] فإخراجُ الرسلِ مِنْ أماكِنِها مِنْ صنيعِ أهلِ الكُفْرِ، وقولِهِمْ[6] في موضعٍ آخَرَ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] فطابَتْ أنفسُهُمْ بإخراجِ لوطٍ ﷺ مِنْ قُراهُمْ. ومَنْ فَعَلَ هذا لم يُشَكَّ في كُفْرِهِ.

وقالَ في قصةِ لوطٍ أيضاً: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥و٣٦] فَثَبَتَ أنهمْ كانوا كُفّاراً.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٢٠٦. (٢) في م: يكون. (٣) من م، في الأصل: ألا يكون. (٤) في الأصل وم: إذا. (٥) في الأصل وم: قوله. (٦) في الأصل وم: وقال.

ثم لِقائلٍ أنْ يقولَ في قولِهِ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أخبرَ أنهُ جاءَ فِرْعونُ إلى موسى، وعَصاهُ: كيفَ ذَكَرَ مَجيءَ فِرْعونَ إلى موسى، ولم يوجَدْ منهُ المَجيءُ إلى الرسولِ، بل الرسولُ هو الذي جاءَهُ، فَعَصاهُ فِرْعَونُ، لا أنَّ فِرْعونَ أتاهُ، فاستَقْبَلَهُ بالعِصْيانِ؟ قيلَ: [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما[1]]: أنَّ كلَّ مَنْ أتَى آخَرَ، وجاءَهُ، فقد أتاهُ الآخَرُ، ومَنْ قَرُبَ [إلى آخَرَ فقد قَرُبَ][2] الآخَرُ إليهِ، لأنَّ المجيءَ فِعْلٌ مُشْتَرَكٌ، لأنهُ اسْمُ الاِلْتِقاءِ، وإنما يَقَعُ الاِلْتِقاءُ بهما جميعاً، ليسَ بأحدِهما، فَلِذلكَ اسْتَقامَ مِنْ إضافةِ المَجيءِ إلى فِرْعونَ.

وعلى هذا تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِّبَتْ، وأهلُها الذين يَقْرُبونَ إليها في الحَقيقةِ. ولكنهمْ إذا قَرُبوا إليها، فقد قَرُبَتْ هي إليهِمْ، فأُضيفَ إليها التَّقْريبُ.

لهذهِ العبارةِ يمكنُ أنْ يَتأوَّلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي أتاهُ الخَلْقُ لا أنْ يكونَ هو الذي يأتيهمْ لأنهُ قالَ: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤] وقالَ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨و. .].

وقال[3]: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠و. .] فأخبرَ أنَّ الخَلْقَ هُمُ الذينَ يأتونَهُ، ويَرْجِعونَ إليهِ، ولكنْ يُنْسَبُ[4] المَجيءُ والإتيانُ إلى اللهِ تعالى، لأنهمْ إذا أتَوهُ فكأنهُ قد أتاهُمْ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا دونَ أنْ يكونَ فيهِ إثباتُ الاِنْتِقالِ في اللهِ تعالى.

والثاني: أنَّ اسْمَ المَجيءِ، وإنْ أطلِقَ، واسْتُعْمِلَ في المَجيءِ إلى مكانٍ، فقد يُسْتَعْمَلُ أيضاً في المَوْضِعِ الذي ليسَ فيهِ حَرَكةٌ ولا انْتِقالٌ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ومَعْناهُ: ظَهَرَ الحَقُّ، ليسَ أنَّ الحَقَّ كانَ في مَوضعٍ، فانْتَقَلَ عنهُ إلى غيرِهِ، فأمْكَنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ أي كَذَّبَ بما أُنزِلَ على موسى ﷺ وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ بالخاطئةِ، فيكونُ المَجيءُ مَصْروفاً إلى الخَطايا، وهذا التأويلُ أمْلَكُ بِظاهرِ الآيةِ، لأنهُ قالَ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي جاؤوا بالخَطايا.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي عاليةً أي[5] عَلَتْ أبدانَهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ أنَّ عقوبَتَهُمْ رَبَتْ على الأخْذِ، أي زادَتْ على الأخْذِ، لأنها أخذَتْ أبدانَهُمْ، وأهْلَكَتْها، ثم رُدَّتْ أرواحُهُمْ إلى جَهَنَّمَ، فَتُعْرَضُ عليها غُدُوًّا وعَشِيّاً. فذلكَ هو الزيادةُ على الأخْذِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي طَغَى على الخُزّانِ، لأنَّ الخُزّانَ يُرْسِلُونَ القَطْرَ بالكَيلِ والوَزْنِ والقَدْرِ المَعْلومِ [وقد][6] ذَكَرَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] أي مُنْصَبٌ، فيكونُ تأويلُهُ: إنَّ اللهَ تعالى لم يُمَكِّنْهُمْ حِفْظَ القَطْرِ في ذلكَ الوقتِ، فَطَغَى عليهمْ لهذا المَعْنَى. وإلا لو لَزِموا حِفْظَهُ في ذلكَ الوقتِ لَكانَ الماءُ لا يَطْغَى عليهمْ على ما ذَكَرْنا أنهُ لا يَجوزُ أنْ يُؤْمَروا بِحِفْظِهِ، ولا يَمْلِكونَ حِفْظَهُ.

وجائزٌ أنْ يكون طَغَى أي طَغَى على الذينَ أُهْلِكوا مِنْ مُكَذِّبي نوحٍ ﷺ وقد وصَفْنا تأويلَ الطاغي، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [قد ذَكَرَ][7] أنهُ ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ ولم نكنْ نحنُ يومئذٍ فَنُحْمَلَ، والخطابُ للذينَ كانوا في زمنِ النَّبيِّ ﷺ وإنما كانَ؛ لأنَّ بِنَجاةِ أولئكَ المَحْمولِينَ نَجاةَ ذُرِّيَّتِهِمْ، وبهلاكِ أولئكَ فَناءَ ذُرِّيَّتِهِمْ، فكأنهُ قد حَمَلَهُمْ بِحَمْلِ أولئكَ لمّا حَصَلَ لهمُ النجاةُ بِحَمْلِهِمْ، أو أضافَ إليهِمْ لأنهُ قَدَّرَ كونَهُمْ مِنْ آبائِهِمْ، فكأنهمْ حُمِلوا تَقْديراً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦] ومَعْناهُ: أنْزَلْنا عليكُمْ ما قَدَّرْنا كَوْنَ اللباسِ منهُ، وهو

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: يسبب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وك: فذكر.

المطرُ، فإذا أنزَلَ المَطَرَ الذي قَدَّرَ كونَ اللِّباسِ منهُ، وهو المطرُ، فكأنهُ أنزَلَ اللباسَ، وكقولِهِ[1] ﷺ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] ونحنُ لم نُخْلَقْ مِنَ الترابِ الذي أصْلُنا منهُ، فكأنا خُلِقْنا منهُ. فَعَلَى ذلكَ [هذا][2]:

وإنْ لم نكُنْ مَحمولينَ في السفينةِ، فقد حُمِلَ أصْلُنا لِنكونَ نحنُ مِنْ ذلكَ الأصلِ، فكأنّا قد حُمِلْنا فيها، إذْ كُنّا في إرادةِ اللهِ تعالى مِنَ الكائنينَ، واللهُ أعلَمُ.

أو ذَكَرَ ذلكَ مِنّةً مِنْهُ على الأبناءِ بِصَنيعِهِ بالآباءِ لِيُعْلَمَ أنَّ على الأبناءِ شُكْرَ ما أحْسَنَ إلى آبائِهِمْ وأجدادِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فوجهُ التَّذْكيرِ فيهِ أنَّ أهلَ مكةَ أبَوا إجابةَ الرسولِ، وقالوا: / ٥٩١ ـ ب/ ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فَذَكَّرَهُمْ أنهمْ أولادُ مَنْ حُمِلوا معَ نوحٍ عليه السلام في السفينةِ، وهُمْ إنما اسْتوجَبوا النجاةَ، وشَرُفوا في الدارَينِ جميعاً باتّباعِهِمُ الرسلَ. فما لكُمْ لا تَتَّبِعونَهُمْ في تَصديقِ الرسلِ دونَ أنْ تتَّبِعوا المُكَذِّبينَ للرسلِ؛ يُذَكِّرُهُمْ كَذِبَهُمْ في قولِهِمْ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢و٢٣] بل قد وجَدْتُمْ آباءَكُمْ على خِلافِ ما أنتمْ عليهِ، وتَعْلَمونَ[3] أنَّ آباءَكُمْ همُ الذينَ اتَّبعوا نوحاً، فَنَجوا، وهمُ المؤمنونَ دونَ الكَفَرَةِ.

ووجهٌ آخَرُ: أنهُ ذَكَّرَهُمْ أحوالَ المُكَذِّبينَ وإلى ماذا آلَ أمْرُهُمْ مِنَ الغَرَقِ والهَلاكِ، فيكونُ فيهِ تَخويفُ مَنْ كَذَّبَ مِنْ أهلِ مكةَ رسولَ اللهِ ﷺ فصارتِ تلكَ الجاريةُ.

وفي السفينةِ مَوعِظةٌ، وتَذْكِرَةٌ، تُذَكِّرُهُمْ عواقِبَ المُصَدِّقينَ بالرسلِ والمُكَذِّبينَ بهمْ، أو تُذَكِّرُهُمْ[4] عظيمَ نِعَمِهِ على آبائِهِمُ الذينَ حُمِلوا في السفينةِ لِيَسْتأدِيَ منهمْ شُكْرَ ذلكَ.

وقال بعضُهُمْ: كمْ مِنْ سفينةٍ قد هَلَكَتْ منذُ ذلكَ الوقْتِ، وهي قائمةٌ في موضعٍ كذا عِبرَةً وتَذْكِرَةً، ثم التَّذْكِرَةُ تَخْرُجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُرادَ بها الآيةُ والعِبْرَةُ، أي جَعَلْنا لكمْ ذلكَ لِتَعْتَبِروا، وتكونَ آيَةً لكُمْ على وحَدانِيَّةِ اللهِ تعالى وقُدْرتِهِ كقولِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

والثاني: أي جَعَلْنا تلكَ الأنباءَ تَذْكِرَةً لكمْ، أي جَعَلْناها قرآناً تَقْرَؤونَها، وتَذْكُرونَها إلى آخِرِ الأبَدِ، فَتَشْكُرونَ اللهَ تعالى على ما صَنَعَ إليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ يُقالُ: وَعَى الشيءَ إذا حَفِظَهُ، وأوعاهُ إذا حَفِظَهُ بإناءٍ أو غيرِهِ، أي تحفَظُها أذُنٌ حافظةٌ، فأضافَ الوَعْيَ والحِفْظَ إلى الأذُنِ، والأذُنُ لا تَعي، بل تَسْمَعُ، ثم يَعيهِ القلبُ، ولكنْ نُسِبَ الوَعْيُ إلى الأذُنِ لأنهُ يُوصَلُ إلى الوَعْيِ مِنْ جهةِ الأذُنِ؛ إذ بالسَّمْعِ يُوعَى، والسَّمْعُ مِنْ عَمَلِ الأذُنِ، ثم يَقَعُ المَسموعُ في ما فيهِ يُوعَى، وهو القلبُ، فَنُسِبَ الوَعْيُ إلى السَّمْعِ لِما يَتَطرَّقُ بهِ إلى الوَعْيِ كما ذَكَرْنا مِنْ إضافةِ اللِّباسِ إلى [ما][5] منهُ قَدْرُ اللِّباسِ، وهو المطرُ، وأُضيفَ خَلْقُنا إلى الترابِ لأنَّ أصلَ ما منهُ قَدْرُ خَلْقِنا، هو الترابُ، وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ للقلوبِ آذاناً بها تَعي، وأبصاراً بها تُبْصِرُ، فيُضيفُ الوَعْيَ إلى آذانِ القلوبِ، ليسَ إلى آذانِ الرؤوسِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي عَقَلَتْ عنِ اللهِ تعالى، وانْتَفَعَتْ بِما سَمِعَتْ مِنْ كتابِهِ، وهي أذُنُ المؤمنِ. فأمّا أذُنُ الكافرِ فإنها تَسْمَعُ، وتَقْذِفُ، ولا تَعي لِما يَحْصُلُ لهمُ الانْتِفاعُ بهِ. ألا تَرى أنهُ وَصَفَ آذانَهُمْ بالصَّمَمِ لِما لم يَنْتَفِعوا بالمَسْموعِ؟ وكذلكَ قالَ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] جَعَلَ تركَهُمُ الانْتِفاعَ بهِ نَبْذاً. فَعَلَى ذلكَ جَعَلَ الانْتِفاعَ بهِ وَعْياً، وكذلكَ المُتَعارَفُ في الخَلْقِ أنهمْ إذا أرادوا الانْتِفاعَ بِعِلْمٍ أو بِشيءٍ اجْتَهدوا في [وَعْيِهِ وحِفْظِهِ][6].

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة ن الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وقد تعلمون. (٤) في الأصل وم: ذكرهم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وعيها وحفظها.

الآيات ١٣و١٤و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ فكأنهم سألوا متى تكون الواقعةُ والحاقَّةُ والقارعةُ؟

فأخبَرَ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾.

فجوابُهُمْ في قولِهِ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ ثم بيَّنّا أنَّ الأسئلةَ كلَّها خرَجَتْ عنِ الأحوالِ التي تكونُ في ذلكَ الوقتِ لِما لا فائدةَ لهمْ في تَبْيينِ وَقْتِهِ، ولا حاجةَ إلى مَعْرفَتِهِ. وإنما الفائدةُ في تَبْيينِ أحوالِهِ لِما يَقَعُ بها التَّرْغيبُ والتَّرْهيبُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فجازَ[1] أنْ يكونَ على حَقيقةِ النَّفخِ، واحتَمَلَ أنْ يكونَ على [قَدْرِ][2] نفخَةٍ واحدةٍ، فتكونُ فائدتُهُ ذِكْرَ سهولةِ أمرِ البَعْثِ على اللهِ تعالى، لأنَّ قَدْرَ النَّفْخَةِ مِمّا يَسْهُلُ على المَرْءِ في الشاهدِ، ولا يَتَعَذَّرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ النَّفخَ لِما أنَّ الرُّوحَ يَدْخُلُ في أجسادِهِمْ، ويَنْتَشِرُ فيها، وذلكَ عَمَلُ النَّفخِ، لأنَّ الريحَ إذا نُفِخَتْ في وعاءٍ سَرَتْ فيهِ، وانتَشَرَتْ، فَكَنّى عنْ دخولِ الرُّوحِ في الأجسادِ[3] بالنَّفْخِ، إذْ ذلكَ عَمَلُهُ، وكَنّى بالنَّفْخِ عنْ خُروجِ الرُّوحِ مِنَ الأجسادِ لِهذا. وعلى هذا تأويلُ قولِهِ: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] ليسَ على حَقيقةِ النَّفخِ، ولكنْ على عَمَلِ الرُّوحِ فيها عَمَلَ النَّفخِ، فقيلَ ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ قيلَ: هو القَرْنُ، يُنْفَخُ فيهِ النَّفْخَةُ الأولى، فَيَصْعَقُ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ثم يُنْفَخُ فيهِ مَرَّةً ﴿أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أي نُفِخَ الرُّوحُ في صُوَرِ الخَلْقِ. لكنْ جميعُ الصورةِ الصُّوَرُ بِنَصْبِ الواوِ، فلا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ منهُ جَمْعُ الصُّورةِ، لكنْ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى جَعَلَ نَفْخَ الصُّورِ سَبَباً لإفنائِهِمْ وإحيائِهِمْ، لا أنهُ يُعْجِزُهُ شيءٌ عنِ الإفناءِ والإحياءِ ما لم يُنْفَخْ في الصُّورِ، لكنهُ جَعَلَهُ سبباً لِنوعِ الحِكْمةِ والمَصْلَحةِ أو لِمِحْنَةِ المَلَكِ والابْتِلاءِ على ما عُرِفَ مِنْ أنواعِ المِحَنِ في الملائكةِ مِنْ إنزالِ الأمطارِ وتَسْيِيرِ السَّحابِ وجَعْلِهِمُ المُوَكَّلينَ على أعمالِ بَني آدمَ وغَيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كُسِرَتا كَسْرَةً واحدةً، وقيلَ: هُدِمَتا هَدْمَةً واحدةً. وقالَ بعضُهُم: زُلْزِلَتا زَلْزَلَةً واحدةً؛ فكأنهُ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: تَتَزَلْزَلُ الأرضُ، فَتَقْذِفُ ما في بَطْنِها مِنَ الغُسولِ، وتُخْرِجُ ما فيها مِنَ الجواهِرِ التي ليسَتْ منها بتلكَ الدَّكَّةِ [وتُخْرِجُ][4] أصولَ الجبالِ منها، ثم يَجْعَلُهُ اللهُ تعالى ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، ثم يُعْمِلُ عليهِ الريحَ، فَيَجْعَلُهُ ﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ويُريهِ مِنْ لينِهِ ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج: ٩ والقارعة: ٥]. ثم يَسيرُ مثلَ السحابِ، فَيَقَعُ في شعابِ الأرضِ والأوديةِ والأماكنِ المختلِفَةِ، فتصيرُ الأرضُ كما قالَ تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٦ و١٠٧].

وهكذا الريحُ إذا عَمِلَتْ على شيءٍ [تَقَعُ عليهِ][5] تُفَرِّقُهُ في النَّواحي، وتُسَوّي بِهِ الشقوقَ، وتَبْسُطُهُ على وجهِ الأرضِ.

وقولُهُ ﷻ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ ليسَ أنها تُحْمَلُ مِنْ مكانٍ، ولكنْ تُدخَلُ هذهِ في هذهِ، وتُضْرَبُ على هذهِ بالدَّكَّةِ، فتصيرُ كأنها حُمِلَتْ لِذلكَ.

وإذا كانَ كذلكَ فقد وقعتِ الواقعةُ يومئذٍ. وهذا على اختِلافِ الأوقاتِ ليكونَ مَعْنى الآياتِ التي جاءَتْ في الجبالِ على السَّواءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ في آياتٍ أُخَرَ بيانٌ آخَرُ: بيانُ تَقْديمِ فَناءِ الجبالِ قَبْلَ الأرضِ بقولِهِ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ [طه: ١٠٥ و١٠٦] أي يَذَرُ الأرضَ قاعاً صَفْصَفاً وغيرِهِ[6] مِنَ الآياتِ مِمّا يَدُلُّ على تَقْديمِ فَناءِ الجبالِ قَبْلَها.

(١) في الأصل وم: فجائز. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: الجسد. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل: ويقع: في م: ويقع عليه. (٦) في الأصل وم: وغيرها.

فأمّا أنْ يكونَ مَعْنَى تَبْديلِ الأرضِ تَغْييرَها عنِ الحالةِ التي هي عليها اليومَ مِن انْهِدامِ البُنْيانِ واسْتِواءِ الأوديةِ وإزالةِ الجبالِ على ما جاءَ في الأخبارِ، فَسُمِّيَ لِذلكَ تَبْديلاً كما يُقالُ لِمَنْ تَغَيَّرَ عنِ الحالةِ الحَسَنَةِ إلى غَيرِها: تَبَدَّلْتَ، يُرادُ أي تَغَيَّرْتَ عنْ حالتِكَ.

فَعَلَى ذلكَ مَعْنَى الآيةِ؛ أي تَتَكَسَّرُ[1] الجبالُ، وتَتَغَيَّرُ حالةُ الأرضِ في دفعةٍ واحدةٍ. أو يكونُ في الآيةِ إخبارٌ عنْ شدةِ الفَزَعِ في ذلكَ اليوم: أنْ بِدَكَّةٍ واحدةٍ تَفْنَى الجبالُ، وإنْ كانَ إفناءُ الجبالِ قَبْلَ إفناءِ الأرضِ، ليسَ أنهما تَفْنَيانِ جميعاً بدفعةٍ واحدةٍ/ ٥٩٢ ـ أ/ لكنْ بالدكّةِ الواحدةِ تَهلِكُ الجبالُ والأرضُ، فيكونُ المُرادُ بَيانَ شِدَّةِ اليومِ وهَولِهِ لا بَيانَ ترتيبِ فَناءِ الأرضِ [البعضِ][2] على البعضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ وهو على الحسابِ والجَزاءِ كقولِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ٦] وأُدْخِلَتِ الهاءُ في أسماءِ القِيامةِ تَعْظِيماً لِشأنِها.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ قالَ بعضُهُمْ: تفَرَّقَتْ، وهكذا الشيءُ إذا انْشَقَّ، تَفَرَّقَ، وتَناثَرَ، وبهِ يَظْهَرُ الشَّقُّ. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الشَّقُّ كِنايةً عنِ اللِّينِ، أي تَلينُ بعدَ [صَلابَتِها، وتَصيرُ][3] ذليلةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي ضعيفةٌ بَعدما كانَتْ تُنْسَبُ إلى الصَّلابةِ. ويدلُّ على ذلكَ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإنما يُطْوَى الشيءُ في الشاهِدِ بعدَ ما كانَ يَلينُ في نفسِهِ.

وجائزٌ أنْ تَنشَقَّ السماءُ لِيَزولَ أهلُها، فلا يَبْقَى فيها إلّا الملائكةُ الذينَ على أطرافِها، ثم تَنْضَمُّ، فَيَتَبَيَّنُ الطَّيُّ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ انْشِقاقَها وانْفِطارَها وانْفِتاحَها تَهْويلاً لِلْخَلْقِ مِنَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا في ما قَبْلُ.

وجائزٌ أن يكونَ للسمواتِ أبوابٌ[4]، فَتُفْتَحَ أبوابُها، فيكونَ انْشِقاقُها وانْفِطارُها فَتْحَ أبوابِها.

وجائزٌ أن يكونَ الشَّقُّ ليسَ فَتْحَ الأبوابِ لأنهُ ذَكَرَ هذا في مَوضِعِ التَّهويلِ، وليسَ في فتحِ أبوابِها كثيرُ تَهويلٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ أي ضعيفةٌ مُسْتَرْخِيةٌ. وقيلَ: الوَهْيُ الخَرْقُ، وهو يَحْتَمِلُ لأنها إذا انْشَقَّتِ انْخَرَقَتْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ الأرجاءُ النَّواحي والأطرافُ، وهي أطرافُ السمواتِ ونَواحيها، واحدُ الأرجاءِ رَجًا مَقْصورٌ، ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أُريدَ بها الملائكةُ؛ أخْبَرَ أنهمْ على أطرافِ السمواتِ ونَواحيها، فَيَحْتَمِلُ أنهمْ وُكِلوا، وامْتُحِنوا بِحِفْظِها بَعدَ الشَّقِّ لئلا تَسْقُطَ على أهلِ الأرضِ.

وجائزٌ أنْ يَجْعَلَ أطرافَها وجوانِبَها لِبَعضِ الملائكةِ، فَتُفْتَحَ أبوابُ السماءِ، فَيَنْزِلَ الملائكةُ، كانَ مسكَنُهُمْ عندَها إلى الأرضِ كما قالَ تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ويَبْقَى الملائكةُ الذينَ كانَ مَسْكَنُهُمْ في أرجائِها أمْرَ رَبِّهِمْ.

ثم المَلَكُ ليسَ يَحْتاجُ إلى مكانٍ يَقَرُّ فيهِ، وإنْ جُعِلَتِ السماءُ مَسْكناً لهمْ، لأنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ ويَقَرّونَ على الهواءِ مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ في الهواءِ مَقَرٌّ.

[وجائزٌ أنهُ][5] يُبَيِّنُ أنها لا تَتَفَرَّقُ كلَّ التَّفَرُّقِ، ولكنَّ وَسَطَها يَنْشَقُّ لِما ذَكَرْنا، [ويَبْقَى][6] الباقي بِحالِهِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ على ما يَمُرُّ بهِ في السماءِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الملائكةُ بالنَّفْخَةِ الأولَى يَصْعَقونَ إلّا الثمانيةَ الذينَ يَحْمِلونَ العرشَ كما قالَ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨] فيكونُ هؤلاءِ الثمانيةُ مِنَ الذينَ اسْتُثْنُوا، فلا يَصْعَقونَ، فهمْ يَحْمِلونَ العرشَ، فتكونُ أمْكِنَتُهُمْ على أرجاءِ السمواتِ، وهو قولُهُ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾.

---

(١) في الأصل وم: انكسرت. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: صعوبتها. (٤) في الأصل وم: أبواباً.
(٥) في الأصل وم: والثالث. (٦) في الأصل وم: و.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ ثمانيةَ أملاكٍ، وجائزٌ أنْ يكونَ ثمانيةَ أصنافٍ مِنَ الملائكةِ كما ذُكِرَ في التفسيرِ، وجائزٌ أنْ يكونَ هؤلاءِ الثمانيةُ يَهلِكونَ، ثم يَحيَونَ قَبلَ أنْ يَحيَا سائرُ الخَلْقِ، فَيَحمِلونَ ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ﴾[1] على أكتافِهِمْ، وإذا بَعَثَ اللهُ تعالى الخلائقَ رَأَوُا العرشَ على أكتافِهِمْ.

والعرشُ، هو سريرُ المُلْكِ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ مِنْ نورٍ كما ذُكِرَ في الخَبَرِ: «أنَّ عينَ الشمسِ إذا أرادَتْ أنْ تَطلُعَ فإنَّ جبريلَ عليه السلام يأتي العَرشَ، فيأخذُ كَفًّا مِنْ ضِيائِهِ، ثم يُلبِسُ الشمسَ كما يَلْبَسُ أحدُكُم قميصَهُ، وإذا أرادَ القمرُ أنْ يَطلُعَ أخذَ جبريلُ عليه السلام كفًّا مِنْ نورِ العَرْشِ، فَيُلْبِسُ القمرَ كما يَلْبَسُ أحدُكُمْ قميصَهُ».

فجائزٌ أنْ يكونَ العَرْشُ مِنَ الضِّياءِ والنُّورِ. ثم أجَلُّ الأشياءِ وأعظَمُها في أعيُنِ الخَلْقِ الضِّياءُ والنورُ، وإليهما يَنْتَهي الرَّغْبُ، فيكونُ في ذِكْرِ العَرْشِ ذِكْرُ عظيمِ مُلْكِ الرَّبِّ، جَلَّ جَلالُهُ.

ثم إنَّ كلَّ مَلِكٍ في الشاهِدِ يَتَّخِذُ لنفسِهِ عرشاً، يَتفاوَتُ ذلكَ على مِقْدارِ مُلْكِهِمْ وسُلْطانِهِمْ، لا لِيَجْعَلَ ذلكَ مَسْكَناً لنفسِهِ. فإذا لم يُتَوَهَّمْ مِنَ الخَلْقِ أنهمْ يَتَّخِذونَ ذلكَ لِمقاعِدِهِمْ ومَجالِسِهِمْ، فَلأَنْ لا يُتَوَهَّمَ ذلكَ مِنَ اللهِ أولَى.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي تُعْرَضونَ على أعمالِكُمْ، فلا تَخفَى عليكُمْ خافيةٌ، أي تُظْهَرُ لكمْ في ذلكَ اليومِ، وتَصيرُ بارزةً[2] في ذلكَ اليومِ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي تُظْهَرُ لهمْ سَرائرُهُمْ، حتى يَعْرِفوها، ولا يَخْفَى عليهِمْ شيءٌ منها.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي على اللهِ تعالى. ولكنْ كُلُّ مَنِ ادَّعَى إخفاءَ شيءٍ مِنْ أمْرِهِ على اللهِ [وظَنَّ أنَّ اللهَ تعالى][3] لا يَطَّلِعُ عليهِ، فَسَيَعْلَمُ في ذلكَ اليومِ أنهُ لا تَخفَى عليهِ خافيةٌ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ليسَ فيهِ أنَّ المُلْكَ كانَ لِغيرِهِ.

ولكنَّ بعضَ الناسِ كانوا يَدَّعونَ الإشراكَ في المُلْكِ في الدنيا، فيَتْرُكونَ في ذلكَ اليومِ دَعْواهُمْ، ويَتَيَقَّنونَ أنهُ هو المُنفَرِدُ بالمُلْكِ، وعلى [ذلكَ][4] قولُهُ تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ولم يكونوا بِمُخْتَفِينَ عنهُ قَبْلَ ذلكَ، بل كانوا لهُ في كلِّ وَقْتٍ بارزينَ. ولكنْ مَنْ أنكَرَ ادِّعاءَ الإخفاءِ في الدنيا يُدْعَ في ذلكَ اليومِ، ويُقِرَّ بالبروزِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

ثم رُوِيَ في الخَبَرِ «أنَّ العَرْضاتِ ثلاثٌ: عَرْضَتانِ فيهما خُصوماتٌ ومَعاذيرُ» أي يَختَصِمونَ، ويَتَنازَعونَ، فإذا ظَهَرَ ذلكَ جَعَلُوا يَعْتَذِرونَ، ويَسألونَ ربَّهُمُ العَفْوَ والصَّفْحَ عنْ خُصومِهِمْ، «والعَرْضةُ الثالثةُ عندَ تَطايُرِ الصُّحُفِ» [الترمذي: ٢٤٢٥].

ومَعْنَى قولِهِ: ﴿تُعْرَضُونَ﴾، أي يُعْرَضُ الخَلْقُ بعضُهُمْ على بعضٍ حتى لا يَخفَى على أحدٍ خَصْمُهُ، أو تُعْرَضُ أعمالُهُمْ حتى يَذْكُرَ [كلُّ][5] واحدٍ صَنيعَهُ، وكلُّ خَصْمٍ خُصومَتَهُ، فكأنهمْ قد نَسُوا ذلكَ مِنْ كَثْرَةِ الفَزَعِ وشِدَّةِ الأهوالِ. لكنَّ اللهَ تعالى يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ حتى يَذْكُروا ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ظاهرُ ما جرَى بهِ الخطابُ في القرآنِ يُوجِبُ أنْ يُرْحَمَ المؤمنونَ جميعاً، فلا يُعَذَّبوا[6] في الآخِرَةِ، ويُعَذَّبَ الكافرونَ، ولا يُرْحَموا[7]، لأنهُ قَسَّمَ الخَلْقَ يومَ القِيامةِ صِنْفَيْنِ: فَجَعَلَ صِنْفاً منهمْ أهلَ اليمينِ، وصِنْفاً أهلَ الشِّمالِ، ثم وَصَفَ كلَّ واحدٍ مِنَ الصِّنْفَيْنِ بأعلامٍ ثلاثةٍ:

فَذَكَرَ مَرَّةً أنهُ يَخِفُّ ميزانُهُمْ بقولِهِ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٩و..] وذَكَرَ مَرَّةً أنَّ وجوهَهُمْ تَسْوَدُّ، وذَكَرَ مَرَّةً أنهمْ يُعْطَونَ كِتابَهُمْ بِشِمالِهِمْ. فهذهِ الأعلامُ ذَكَرَها في أحدِ الصِّنْفَيْنِ.

---

(١) في الأصل وم: ربها. (٢) في الأصل وم: بارز. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: يعذبون. (٧) في الأصل وم: يرحمون.

وذَكَرَ(١) الصِّنفَ الثانيَ، وَوَصَفَهُمْ بأعلامٍ ثلاثةٍ: بِبَياضِ الوُجوهِ وبِثِقَلِ الميزانِ وبإعطاءِ الكِتابِ بأيمانِهِمْ.

ثم في ما فيهِ سَوادُ الوجوهِ ذَكَرَ فيهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكذلكَ حينَ ذَكَرَ خِفَّةَ الميزانِ ذَكَرَ في آخِرِهِ ما يُبَيِّنُ أنَّ الذينَ خَفَّتْ مَوازِينُهُمْ هُمُ الكَفَرَةُ لأنهُ قالَ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

وذَكَرَ في إعطاءِ الكتابِ بِشِمالِهِ(٢) ما يُبَيِّنُ أنهُ مِنْ أهلِ الكُفرِ لأنهُ قالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣و ٣٤].

فَثَبَتَ أنَّ الوعيدَ المُطلَقَ ذُكِرَ في أهلِ الكُفرِ، وكذلكَ قالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ/ ٥٩٢ ـ ب/ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] ولم يَقُلْ أُعِدَّتْ لِلْخَلقِ، وقالَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فَثَبَتَ أنَّ أهلَ النارِ همُ الكُفّارُ.

ثم المؤمنونَ قد يَعْتَرِضَ منهمْ زَلّاتٌ ومَآثِمُ في هذهِ الدنيا، والكفارُ تُؤخَذُ منهمُ المَحاسنُ فيها، ولكنَّ أهلَ الكُفرِ يُجزَونَ جَزاءَ حَسَناتِهِمْ لأنهمْ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ. وإذا لم يُؤمِنوا بها لم يَقَعْ سَعْيُهُمْ لها، وأمكَنَ أنْ يكونَ المؤمنُ يُجْعَلُ لهُ العقابُ بِسَيِّئاتِهِ في الدنيا، فَتَخلُصُ لهُ الحَسَناتُ في الآخِرَةِ، فَيُجْزَى بها، وجائزٌ أنْ تُكَفَّرَ سَيِّئاتُهُ بالحَسَناتِ التي تُؤخَذُ منهُ لأنَّ المحاسِنَ جُعِلَتْ سَبَباً لِتَكفيرِ المَساوِئِ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وإذا كُفِّرَتْ سَيِّئاتُهُ في الدنيا لم يُعَذَّبْ بها في الآخِرَةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُعَذِّبُهُمْ بِقَدْرِ ذُنوبِهِمْ، ثم يَعفو عنهمْ بِحَسَناتِهِمُ التي سَبَقَتْ منهمْ مِنَ الإيمانِ وغَيرِ ذلكَ.

فكلُّ مؤمنٍ في الحقيقةِ آخِرُهُ الجنةُ، ويَثْقُلُ ميزانُهُ، ويَبْيَضُّ وجهُهُ، ويُعْطَى كِتابُهُ بِيَمينِهِ. [ثم](٣) يجوزُ أنْ يكونَ الذي يُعاقَبُ بذنوبِهِ مِنْ أهلِ الإيمانِ، يعاقَبُ بها(٤) قَبلَ أنْ يُعطَى كتابُهُ بيمينِهِ، ويَثْقُلَ ميزانُهُ، وقَبلَ أنْ يَبْيَضَّ وجهُهُ لم يكُنْ مُسْوَدَّ الوَجْهِ(٥)، ولكنْ على ما عليهِ في الدنيا.

ثم متى عُفِيَ عنهُ في الخَبَرِ «أنَّ الناسَ يُعْرَضونَ يومَ القِيامةِ ثلاثَ عَرَضاتٍ فأمّا عَرْضتانِ ففيهما خُصوماتٌ ومَعاذيرُ، وأمّا العَرْضَةُ الثالثةُ فَتَطايَرُ الصُّحُفُ في الأيدي» [الترمذي: ٢٤٢٥].

فيجوزُ أنْ يكونَ تعذيبُهُ قَبلَ العَرْضَةِ الثالثةِ، ثم يُعْطَى كتابُهُ في العَرْضةِ الثالثةِ بِيَمينِهِ، فَتَظْهَرُ لهُ أعلامُ السعادةِ إذْ ذاكَ.

فإذا ثَبَتَ أنَّ الوعيدَ المُطْلَقَ إنما جاءَ في أهلِ الكُفرِ لم يَلْحَقْ أهلَ الكبائرِ مِنْ أهلِ الإيمانِ بهمْ في الحكْمِ، بل وَجَبَ الوَقْفُ في حالِهِمْ كما قالَ أصحابُنا، واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿هَآؤُمُ﴾ تعالَوا، وقال بعضُهُمْ: هو بِمَعْنَى هاكُمْ، أي خُذوا، فأُبْدِلَتِ الهمزةُ مَكانَ الكافِ.

فظاهرُ الآيةِ أنَّ المُعْطَى لهُ الكتابُ يقولُ: هذا؛ يَدْعو الخَلْقَ، ويُناوِلُهُمُ الكتابَ اسْتِبْشاراً وحُبوراً، فَبَشَّرَهُمْ بِعَفوِ اللهِ تعالى عنهُ ورحمتِهِ عليهِ.

ولكنَّ أهلَ التأويلِ صَرَفوا التأويلَ إلى المُعْطِي، فقالوا: هو الذي يقولُ هذا، فكانَ الذي يقولُ: كُتِبَ الكتابُ في الدنيا، مِنَ المَلَكِ، وهو الذي يُعْطِي الكتابَ إلى المكتوبِ إليهِ، ويقولُ: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي خُذوا وَاقْرَؤوا ما كتبْتُ لكُمْ وعليكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ فإنْ حَمَلْتَهُ على حَقيقةِ الظَّنِّ فهو يُخَرَّجُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: وذكر فيه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: به. (٥) في الأصل وم: الوجوه.

أحدُها: أني ظَنَنْتُ في الدنيا أني ألاقي الحسابَ الشديدَ في ما سَبَقَ مِنْ سَيِّئاتي، وأُآخَذُ بها، وأُجازَى عليها، وظَنَنْتُ الساعةَ ألّا أنْجُوَ مِنْ ذُنوبي لِفَزَعِ هذا اليومِ، فوجَدْتُ سَيِّئاتي قد غُفِرَتْ، وخطايايَ كُفِّرَتْ عني، فيكونُ قولُهُ منهُ هذا شُكْراً للهِ تعالى وإظهاراً لِمِنَّتِهِ.

والثاني: أني تَرَكْتُ [دارَ الدنيا، وقد][1] عَرَضَتْ ليَ الحوادثُ مِنَ الزّلّاتِ والهَفَواتِ، وظَنَنْتُ[2] أني ألاقي اللهَ تعالى بها، فأمْسَكْتُ عنها، وانْزَجَرْتُ عنْ إتيانِها، فيكونُ إخباراً عَنْ بَيانِ سببِ ذلكَ.

والثالثُ: أني تَفَكَّرْتُ في أمري، فَظَنَنْتُ أنَّ مِثْلي لا يُتْرَكُ سُدىً هَمَلاً، فأدّى ظَنّي إلى اليقينِ، فآمَنْتُ، وصَدَّقْتُ الرسلَ، فإنما نَجَوتُ بأوّلِ ظَنّي وفِكْرَتي.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الظَّنَّ إلى اليَقينِ والعِلْمِ، فقالَ: مَعْنى قولِهِ: ﴿ظَنَنتُ﴾ أي تَيَقَّنْتُ، وعَلِمْتُ.

والأصلُ أنَّ كلَّ يقينٍ حَدَثَ في الأمورِ المُسْتَتِرَةِ والعلومِ الخَفِيَّةِ فإنما يَتَوَلَّدُ ذلكَ عن ظَنٍّ، يَسْبِقُ، فَيَحْمِلُهُ ذلكَ الظَّنُّ على النَّظَرِ فيهِ والبحثِ عنْ حالِهِ حتى يُفْضِيَ بهِ إلى الوقوفِ على ما اسْتَتَرَ منهُ، فَيَصيرَ الخَفِيُّ جَلِيّاً، فيكونَ سَبَبَ بُلوغِهِ إلى اليَقينِ والإحاطةِ [ذلكَ الظَّنُّ][3] الذي سَبَقَ منهُ.

فجائزٌ أنْ يُسَمّى ذلكَ يَقيناً مَرَّةً على الحقيقةِ، وظَنّاً ثانياً على المَجازِ على ما ذَكَرْنا في قولِهِ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الآية: ١٢] أنَّ الأُذُنَ لا تَعي شيئاً، بل تَسْمَعُ، ولكنهُ لمّا يُوصَلُ إلى الوَعْيِ بالأُذُنِ صارتِ الأُذُنُ سَبَباً للإيصالِ إلى الوَعْيِ، وأضافَ الوَعْيَ إليها.

فَعَلى ذلكَ ظُنونُهُمْ في الابْتِداءِ إذا بَلَّغَتْهُمْ إلى اليَقينِ والعِلْمِ سَمَّوا يَقينَهُمْ وعِلْمَهُمْ ظَنّاً مَرَّةً ويَقيناً ثانياً. ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]؟ فَجَعَلَهُمْ مَرَّةً ظانِّينَ ومَرَّةً مُوقِنينَ في ما كانَ طريقُهُ البحثَ وإعمالَ الفِكْرِ.

وبهذا لا يَجوزُ أنْ يوصَفَ اللهُ تعالى بالإيقانِ في أمْرٍ مِنَ الأمورِ، لأنَّ الأشياءَ لهُ بارزةٌ ظاهِرةٌ؛ إذْ هو مُنْشِئُها وخالِقُها، فلا يَخْفَى عليهِ شيءٌ منها، فَيَحْتاجَ إلى البحثِ عنها والنَّظَرِ فيها، واللهُ المُوَفِّقُ.

ويقولُ: إنَّ الأمورَ التي سَبيلُ دَرْكِها الاجْتِهادُ، لا يَخْلُو شيءٌ منها مِنِ اعْتِراضِ وَساوِسَ وخواطِرَ فيها، فتلكَ الوَساوِسُ والخَواطِرُ تُفْضي بِصاحِبِها إلى الجنونِ، فاسْتَجازوا إطلاقَ الظَّنِّ فيها لِما لا يَخْلُو منهُ، واسْتَجازوا إطلاقَ اليَقينِ لِما غَلَبَ عليها دلالاتُ اليَقينِ والإحاطةِ.

ألا تَرَى أنَّ [مَنْ][4] يُهَدَّدُ بالوعدِ الشديدِ أو بالقتلِ على أنْ يَكْفُرَ باللهِ تعالى أُبيحَ لهُ أنْ يُجْرِيَ كلمةَ الكُفْرِ على لِسانِهِ، وجُعِلَ كالمؤمنِ[5] بإحلالِ العذابِ مِنَ المُكْرِهِ، لو[6] امْتَنَعَ عنِ الإجابةِ إلى ما دَعاهُ، وإنْ لم يُتَيَقَّنْ بأنهُ يُفْعَلُ بهِ، لا مَحالةَ، ما أُوعِدَ بهِ، لأنهُ يجوزُ ألّا يُمَكَّنَ مِنْ ذلكَ، ويجوزُ ألّا يُبْقَى إلى ذلكَ الوقتِ؟

ثم وُسِّعَ لهُ فِعْلُ ذلكَ بأكْبَرِ الرأيِ وغَلَبَةِ الظَّنِّ، وحلَّ ذلكَ مَحَلَّ الإحاطةِ واليَقينِ. فَعَلى ذلكَ ههنا لمّا غَلَبَتْ دلالاتُ اليَقينِ والصِّدْقِ جازَ إطلاقُ لفظةِ اليَقينِ عليهِ.

فأمّا الأشياءُ التي تُدْرَكُ بالحواسِّ والمُشاهداتِ فلا سَبيلَ إلى تَسْمِيَةِ مِثْلِهِ ظَنّاً لِما يَحْتَمِلُ اعْتِراضَ الشُّبْهَةِ فيها، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي في حياةٍ راضيةٍ؛ يُقالُ: عاشَ، وحَيِيَ، بمَعْنىً واحدٍ. وقولُهُ تعالى: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بِمَعْنى مَرْضِيَّةٍ، معناهُ أنَّ نفسَهُ في حياةٍ تَرْضَى بها كقولِهِ: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي مدفوقٍ، ومثلُهُ في الكلامِ كثيرٌ.

---

(١) في الأصل وم: في دار الدنيا إذا. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: كالموقن. (٦) في الأصل: ولو.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ نفسَ الجنةِ قد رَضِيَت بأهلِها، وأظهرَتْ رضاها بهِمْ كما وَصَفَ الجَحيمَ بالسُّخطِ والتَّغَيُّظِ على أهلِها. وجائزٌ مِثْلُهُ في الجنةِ رِضاً واسْتِبْشاراً؛ إذْ على مَعْنَى أنَّ الجنةَ تُظْهِرُ لهمْ مِنْ أنواعِ الكراماتِ والخَيراتِ ما لو كانَ ذلكَ منْ ذي العقلِ يكونُ ذلكَ دليلَ الرِّضا كما يُضافُ الغرورُ إلى الدنيا، وهي أنها تُظْهِرُ مِنْ نفسِها ما لو كانَ ذلكَ مِمَّنْ يَمْلِكُ التَّغريرَ يكونُ ذلكَ غُروراً مِنْ نفسِها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: مُرْتَفِعةٌ على ما يُسْتَحَبُّ في الدنيا مِنَ الجِنانِ: في رَبْوةٍ مِنَ الأرضِ مرتَفِعةٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: الجنةُ اسْمٌ لِروضةٍ ذاتِ أشجارٍ، فكأنهُ يَصِفُ أشجارَها بالارْتِفاعِ والطُّولِ والمَنْظَرِ، وذلكَ أشهَى إلى أربابِها، وهذا ما قالَ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الآية: ٢٣] مِنْ غَيرِ ذِكْرِ الأشجارِ، لأنَّ ذِكْرَ الجنةِ اقْتَضَى ذِكْرَ الأشجارِ.

[وقالَ بعضُهُمْ][1]: يكونُ مَعْنَى العاليةِ عَظَمةَ القَدْرِ والخَطَرِ: مرتفعةٌ. وقد يوصفُ الشيءُ الرفيعُ بالعُلوِّ/ ٥٩٣ ـ أ/ واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٣ ثم قولُهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي في القُطوفِ مُتَدانيةٌ مِنْ أهلِها لِمَنْ يُريدُ قَطْفَها وبَعيدةٌ لِمَنْ لا يُريدُ قَطْفَها. وقيلَ: دانيةٌ يَنالُها القاعدُ كما يَنالُها القائمُ. وقيلَ: ثِمارُها دانيةٌ أي لا يَرُدُّ أيديَهُمْ بُعْدٌ ولا شَوكٌ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ تأويلُهُ أنْ يُقالَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾: إنما جَعَلتُمْ أيامَكُمُ الخاليةَ سَلَفاً [في أيامِ الدنيا][2]، وسَلَفُ الرجلِ][3] لآخَرَ، هو أنْ يُعْطيَهُ قَرْضاً لِيأخُذَ مِثْلَهُ وقتَ الحاجةِ إليهِ، أو يُسَلِّمَ الرجلُ رأسَ مالِهِ في الأشياءِ التي يأمُلُ منها الرِّبحَ؛ فكأنهُ يُماري نفسَهُ بِجَعْلِها سَلَفاً ورأسَ مالٍ ليأخذَ ربحَ ما باعَ في الآخِرةِ، فذلكَ هو الإسلافُ، أو يَجْعَلَ عَمَلَهُ للآخِرةِ رأسَ مالِهِ وما رُزِقَ مِنَ الأموالِ، يُنْفِقُها في سَبيلِ اللهِ، ويَجْعَلُ ذلكَ رأسَ مالِهِ.

وذُكِرَ عنْ وَكيعٍ أنهُ قالَ: بَلَغَنا أنَّ الذينَ أسْلَفوا الصومَ أي أنهمْ صاموا في الدنيا، وتركوا الطعامَ والشرابَ، فأثابَهُمُ اللهُ في الآخِرةِ، فقالَ[4]: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا﴾.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ الإيتاءُ بالشمالِ أحَدُ أعلامِ الشَّقاءِ؛ يَتَمَنَّى ألّا يُؤْتَى بما فيهِ عِلْمُ شَقائِهِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ يقولُ هذا في الوقتِ الذي قَرَأَ، ورأى فيهِ[5] خِلافَ ما كانَ يَظُنُّ في الدنيا، ويَحْسَبُ، لأنهُ كانَ يَحسَبُ أنهُ في الدنيا أحسَنُ صُنْعاً مِنَ الذينَ آمنوا، وأنهُ أقْرَبُ مَنْزِلةً إلى اللهِ تعالى كما قالَ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فَظَهَرَ لهُ بِقراءتِهِ الكتابَ أنهُ لم يكُنْ على [ما][6] حَسِبَ، بل قد أساءَ صُنْعَهُ، فَوَدَّ عندَ ذلكَ ألّا يَعْرِفَ ما حسابُهُ لئلا تُظْهَرَ مَساوئُهُ.

ويَحتَمِلُ أنهُ يَتَمَنّى أنهُ تُرِكَ مَيْتاً، ولم يَحْيَ حتى كانَ لا يَرَى الحسابَ؛ ولا يَعْرِفُهُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي ياليتَ المِيتةَ الأُولَى كانَتْ دائمةً عليَّ. وقالَ بعضُهُمْ: يا ليتَ النَّفخةَ الأخيرةَ، كانَتْ تَقْضي بالموتِ والهَلاكِ، لم تكُنْ مِحْنةً باعثةً، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ قتادةُ: تَمَنَّوُا الموتَ، ولم يكُنْ شيءٌ في الدنيا أكْرَهَ إليهِمْ منهُ، ثم الموتُ عليهِمْ مَقْضِيٌّ، وليسَ بِقاضٍ، فَحَقُّهُ أنْ يقولَ: يا ليتَها كانَتْ مَقْضِيَّةً. ولكنَّ هذهِ اللفظةَ يَذْكُرُها الناسُ في كلِّ مكروهٍ مِنَ الأمورِ.

ألا تَرَى أنَّ الناسَ يَدْعونَ اللهَ تعالى بأنْ يَصْرِفَ عنهمْ قَضاءَ السُّوءِ؟ وليسَ بِقَضاءِ اللهِ، بل هو مَقْضِيُّهُ. فَخَرَجَ القولُ على ما تَعارَفوا. وهذا كما يُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ، وليسَتْ هي بأمْرِهِ، ولكنَّ تأويلَهُ أنها بأمْرِه ما تُقامُ، فَسُمِّيَ أيضاً قَضاءَ اللهِ، وهو في الحَقيقةِ مَقْضِيُّهُ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، في م: الآخرة. (٣) من نسخة الحرم المكي وم، في الأصل: لرجل. (٤) في الأصل وم: فقلوا. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ﴾ في الأصلِ أنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَفْتَخِرونَ بكثْرَةِ أموالِهِمْ [وأولادِهِمْ][1] فيقولونَ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبإ: ٣٥] فيَزْعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى بِما آتاهُمْ مِنَ الأموالِ يدفَعونَ عنْ أنفسِهِمُ العذابَ بأموالِهِمْ، إنْ[2] حلَّ بهِمْ، فيَتَبَيَّنُ لهمْ في ذلكَ الوقْتِ أنها لا تُغْني عنهمْ شيئاً، فيقولُ كلُّ واحدٍ منهمْ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ﴾.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ذُكِرَ عنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: كلُّ سلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ.

والأصلُ أنَّ كلَّ كافرٍ كانَ يَحْتَجُّ في الدنيا لِنفسِهِ بِحُجَجٍ باطلةٍ: فَمَرَّةً يقولُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤و١٨٦]، ويقولُ مَرَّةً: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧] ومَرَّةً يقولُ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ [النمل: ١٣و..] ومَرَّةً يقولُ: ﴿مَجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤] وغيرَ ذلكَ، فَيصيرُ يقولُ: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي هَلَكَتْ تلكَ الحُجَجُ التي كنّا نَتَشَبَّثُ بها، واضمَحلَّتْ، وظَنَنّا أنها حُجَجٌ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: السلطانُ هو القَدْرُ والشَّرَفُ، أي ذهبَ ذلكَ كلُّهُ. وقيلَ: أي هَلَكَ عني تَكَبُّري وسُلْطاني على الأنبياءِ في الدنيا وتَرْكُ الاكْتِراثِ إليهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بهِ أنَّ السلطانَ الذي كانَ لي على نفسي في الدنيا قد انْقطَعَ لأنهُ كانَ يَمْلِكُ اسْتِعمالَهُ[3] في أمرِ مَرْضاةِ اللهِ، فيقولُ: قد انْقَطَعَ ذلكَ السلطانُ لأني لا أمْلِكُ اسْتِعمالَهُ[4] في ما أَسْتَوجِبُ بهِ مَرْضاةَ الربِّ، لأنهُ يُسْلِمُ، فلا يَقْبَلُ منهُ إسلامَهُ.

ثم يجوزُ أنْ تكونَ الهاءاتُ في هذهِ الخِطاباتِ[5] على مَعْنَى الإشاراتِ إلى الأنفسِ أو على تأكيدِ الأمْرِ والمُبالغةِ كالمُتشابِهِ، أو كأنهمْ يُنادونَ أنفسَهُمْ بذلكَ. وقد تدخُلُ الهاءُ في النداءِ كقولِهِ: يا ربّاهُ، ويا سَيِّداهُ. وجائزٌ أنْ يكونَ [لِلْوَقْفِ وإتمامِ][6] الكلامِ، وأهلُ النحوِ يُسَمّونَها[7] هاءَ الاسْتِراحةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ كقولِهِ[8] في موضعٍ آخرَ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وهو السَّوقُ إلى الحَتْفِ وكقولِهِ[9] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فكأنهمْ، واللهُ أعلَمُ، مُغَلّونَ بَدْءَ الأمرِ بالأغلالِ لأنَّ الناسَ في الدنيا يَجْتَهِدونَ كلَّ الجَهْدِ في دَفْعِ[10] العذابِ بأيديهِمْ.

فأخْبَرَ أنَّ أيديَهُمْ تُغَلُّ في الآخِرَةِ؛ فلا يَتَهَيَّأُ لهمْ دَفْعُ ما يَحُلُّ مِنَ العذابِ، فيكونُ ذلكَ أشدَّ عليهِمْ، ويكونُ حالُهُمْ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] فتُغَلُّ يداهُ كي لا يَتَّقِيَ النارَ بوجهِهِ.

ثم يُدْخَلونَ[11] في السلاسلِ، فَيُجَرّونَ، ويُسْحبونَ، ويُساقونَ، على وُجوهِهِمْ على اخْتِلافِ أحوالِ القيامةِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي أدخِلوهُ، يُقالُ: لَحْمٌ مُصَلًّى، أي مَشْوِيٌّ؛ فجائزٌ أنْ يُؤمَرَ، فَيُشْوَى في الجَحيمِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ فَذَكَرَ أوّلاً أنهمْ يُغَلّونَ، ثم يُصَلّونَ الجحيمَ، ثم يُسَلْسَلونَ إذْ ذاكَ، وحَقُّ مِثْلِهِ أنْ يُسَلْسَلَ، ثم يُمَدَّ إلى جهنَّمَ.

ولكنهُ يُشْبِهُ أنْ يكونوا أوّلاً يُحْشَرونَ، ثم يُساقونَ إلى نارِ جهنمَ بقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] أو إذا وَرَدُوها هَمّوا أنْ يَفِرّوا منها، فَيُسَلْسَلونَ إذْ ذاكَ، ويُسْحَبونَ في النارِ حينئذٍ، فلا يَتَهَيَّأُ لهمُ الهربُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ففيهِ بَيانُ السببِ الذي لأجْلِهِ اسْتَوجبوا هذا العقابَ، وهو أنهمْ كانوا لا يُؤْمنونَ باللهِ العظيمِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: فيقولون. (٣) في الأصل وم: استعمالها. (٤) في الأصل وم: استعمالها. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: الخطيئات. (٦) في الأصل: الوقت واحمام، في م: الوقف واتمام. (٧) في الأصل وم: يسمونه. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل: موضع، في م: منع. (١١) في الأصل وم: يدخل.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ لا يؤمنُ بِوَحْدانيَّتِهِ، أو لا يؤمِنُ بإرسالِ الرسُلِ، أو كانَ لا يؤمِنُ بالبعثِ. وإلّا فهمْ يؤمنونَ باللهِ، ولكنْ مَنْ لم يكُنْ مؤمناً بالرسُلِ والبعثِ فهو غيرُ مؤمنٍ في الحقيقةِ، لأنَّ الإلهَ الحقَّ هو الذي أرسلَ الرسلَ، ويَقْدِرُ على البعثِ، والكافرُ لا يُثْبِتُ لهُ قدرةَ البعثِ، ولا يَراهُ[1] أرسلَ الرسلَ، فصارَ لا يؤمنَ باللهِ العظيمِ في الحقيقةِ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إخبارٌ أنهُ كانَ لا يؤمنَ بالبعثِ، لأنَّ المؤمنين[2] ليسَوا يَطلُبونَ مِنَ المساكينِ الجَزاءِ لِما يُطعِمونَهُمْ، وإنما يُطعِمونَهُمْ لِوَجْهِ اللهِ ورَجاءِ الثوابِ في الآخِرَةِ.

والكافرُ غيرُ مؤمنٍ بالجَزاءِ لِيَحْمِلَهُ ذلكَ على الإطعامِ، وليسَ هو بِكسْبٍ، يَرْغَبُ فيهِ، منْ مَكاسِبِ الدنيا، فكأنهُ يقولُ: إنَّ الذي أفضَى بهِ إلى النارِ تَرْكُهُ الإيمانَ باللهِ تعالى أو بالبعثِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ إثباتَ السُّخريةِ مِنَ الذي تَرَكَ [حَضَّ أهلِهِ على الإطعام][3] كقولِهِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] يقولُ: كيفَ نُطعِمُهُ[4]، ومَنْ بيدِهِ خَزائنُ السمواتِ والأرضِ، لا يُطعِمُهُ؟ فلو كانَ أهلاً للإطعامِ لَكانَ الأولَى بأنْ[5] يُطْعِمَهُ اللهُ تعالى.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي قريبٌ يرجو منهُ. وهو كقولِهِ تعالى: /٥٩٣ ـ ب/ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فليسَ لهُ قريبٌ، يرجوهُ، أو يَنْفَعُهُ ذلكَ الحَميمُ، وقد كانَ لهُ في الدنيا حميمٌ، يَنْتَفِعُ بهِ، ويَرْجو منهُ

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ كقولِهِ تعالى في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وقولِهِ تعالى في موضعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥١ و٥٢] والزَّقُّومُ غيرُ الضَّريعِ.

فهذا، واللهُ اعلَمُ، أنَّ في جهنَّمَ دَرَكاتٍ؛ فأهلُ دَرْكَةٍ منها، لا يَجدونَ غيرَ الغِسْلينِ، وأهلُ دَرْكَةٍ منها، طعامُهُمُ الزَّقُّومُ، ليسَ لهمْ غيرُهُ، وإلّا لو لم يُحْمَلِ الأمْرُ على [هذا][6] لأَوجَبَ ما ذَكَرْناهُ اخْتِلافاً، فَيُخَرَّجُ أنْ يكونَ منْ عندِ اللهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثم يجوزُ أنْ يكونَ قَدْرُ كلِّ أهلِ دَرْكَةٍ ما تُوجِبُهُ الحِكْمةُ أنْ يكونَ طعامُهُمْ. فَعَلَى ما كانوا يَفْتَخِرونَ في هذهِ الدنيا بالأطعمةِ على مَنْ دونَهُمْ، ويُهينونَ مَنْ لم يكُنْ عندَهُ ذلكَ الطعامُ، جَعَلَ اللهُ تعالى لهمْ منْ ذلكَ الوجْهِ طعاماً في الجَحيمِ، يُهانونَ بهِ.

وقالَ الحسنُ: إنَّ القرآنَ كلَّهُ كسورةٍ واحدةٍ، والسورةَ كأنها آيةٌ واحدةٌ، فكأنهُ جَمَعَ بَينَ هذهِ الأشياءِ كلِّها في آيةٍ واحدةٍ، فليسَ لهمْ طعامٌ إلّا مِنْ غِسْلينٍ، وليسَ لهمْ طعامٌ إلّا مِنْ ضريعٍ ومِنْ زَقُّومٍ. وإذا حُمِلَ على ما ذَكَرَ ارْتَفَعَ تَوَهُّمُ التَّناقُضِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا[7] اسْماً لِشَيْءٍ مِنَ الأشياءِ التي يُعَذَّبُ بها أهلُ النارِ، لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى الخَلْقَ على عِلْمِ ذلكَ ومَعْرِفَتِهِ، وقد ذَكَرَ أسامِيَ في الآخِرَةِ، ليسَ لِلْخَلْقِ بِمَعْرِفَتِها عَهْدٌ.

ألا تَرَى أنَّ الزَّقُّومَ ليسَ باسْمٍ لِشَيْءٍ يُسْتَقْبَحُ، ويُسْتَفْظَعُ في الدنيا، ثم جَعَلَهُ اللهُ تعالى اسْماً لِلشَّيْءِ المُسْتَبْشَعِ الكريهِ في الآخِرَةِ، وقالَ: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨] والسَّلْسَبيلُ غيرُ مَعْروفٍ في ما بَينَ أهلِ اللسانِ؟.

وقالَ بعضُهُمْ: الغِسْلينُ ما يَسيلُ مِنْ جُلودِ أهلِ النارِ إذا عُذِّبوا، وذلكَ هو الصَّديدُ والقَيحُ.

---

(١) من م، في الأصل: يراد. (٢) في الأصل وم: الناس. (٣) في الأصل وم: المحض على أهله بالإطعام. (٤) في الأصل وم: أطعمه. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: هذه.

وجائزٌ أنْ يكونَ إذا اشْتَدَّ حَرُّهُمْ استغاثوا إلى اللهِ تعالى، وطَلَبوا منهُ يَرجونَ أنْ يَرْفَعَ عنهمُ الحرَّ، فَيُصَبُّ عليهِمْ ما يزيدُ في عذابِهِمْ، فَيُسَمّى ما يَزولُ عنهمْ غِسْليناً، واللهُ أعلمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ وهُمُ الذينَ قالَ [فيهمْ][1]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الآيتين: ٣٣ و٣٤].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ لا يَجوزُ أنْ تكونَ السِّلْسِلةُ تَفضُلُ عنْ أبدانِهِمْ، فتأخُذُ فَضْلَ مكانٍ مِنْ جهنَّمَ، لأنهُ تعالى وَعَدَ أنْ يَملأَ ﴿جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩و السجدة: ١٣] ولو كانتْ تلكَ السِّلْسِلةُ آخِذةً فَضْلَ مكانٍ لَكانَ لا يَقَعُ الامْتِلاءُ بالجِنَّةِ والناسِ أجمعينَ فقطْ [وإنما][2] يُؤدّي إلى خُلْفِ الوَعْدِ، واللهُ ﷻ لا يُخْلِفُ الميعادَ.

ولكنْ إنْ كانتْ تلكَ السِّلْسِلةُ أطْوَلَ مِنْ أبدانِهِمْ فهي تذكيرٌ لأهلِها[3] لِيَقَعَ لهمْ بها فَضْلُ تَضْييقٍ وغَمٍّ. فأمّا أنْ تَفْضُلَ عنْ ابدانِهِمْ، فلا يُحْتَمَلُ.

وذُكِرَ عنْ عُمَرَ بْنِ الخَطّابِ ﷺ أنهُ قالَ: حاسِبوا أنفسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبوا فإنهُ أهْوَنُ، أو قالَ: أيْسَرُ عليكُمْ، وَزِنوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُوزَنوا، وتَجهَّزوا لِلْعَرْضِ الأكبرِ يومَ القيامةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الآية: ١٨].

وعنِ الحَسَنِ أنهُ قالَ: إنَّ المؤمنَ قَوّامٌ نفسِهِ للهِ تعالى، وإنما خَفَّ الحِسابُ يومَ القيامةِ على قومٍ، حاسَبوا أنفسَهُمْ في الدنيا، وإنما شَقَّ الحسابُ يومَ القيامةِ على قومٍ أخَذوا هذا الأمرَ مِنْ غَيرِ مُحاسَبةٍ، إنَّ المؤمنَ يَفْجَؤُهُ الشيءُ، فيقولُ: واللهِ لأنّي أشْتَهيكَ، وإنكَ لَمِنْ حاجتي، ولكنْ واللهِ مالي مِنْ صِلَةٍ إليكَ، هيهاتَ، حيلَ بيني وبَيْنَكَ. ويَفْرُطُ منهُ الشيءُ، فَيَرجِعُ إلى نفسِهِ، فيقولُ: ما أردْتُ هذا، مالي ولهذا؟ واللهِ لا أعودُ لهذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

إن المؤمنِينَ قومٌ أوثَقَهُمُ العذابُ، وحالَ بَيْنَهُمْ وبَينَ هَلَكَتِهِمْ أنَّ المؤمنَ أسيرٌ في الدنيا، يَسْعَى في فَكاكِ نفسِهِ، لا يَأمَنُ شيئاً حتى يَلْقَى اللهَ، يَعْلَمُ أنهُ مأخوذٌ عليهِ في سَمْعِهِ وبَصَرِهِ ولِسانِهِ وجَوارِحِهِ كلِّها، فَمُحاسَبَةُ النفسِ أنْ يَنْظُرَ في كلِّ فِعْلٍ يُريدُ أنْ يُقْدِمَ عليهِ إلى عاقِبَتِهِ.

فإنْ كانَ رُشْداً أمضاهُ، وأنْفَذَهُ، وإنْ كانَ غَيًّا انْتَهى عنهُ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إذا أرَدْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَهُ، فإنْ كانَ رُشْداً فامْضِهِ وإنْ كانَ غَيًّا فانْتَهِ عنهُ» [الزبيدي في الإتحاف ١٠/ ٩٣ وعزاه لابن المبارك في الزهد].

وقالَ في خَبَرٍ آخَرَ: «إنَّ المؤمنَ وَقّافٌ وَزّانٌ» وَوَزْنُهُ ما ذُكِرَ في الخَبَرِ الأوَّلِ مِنَ النَّظَرِ في العواقِبِ؛ فإذا نَظَرَ في العاقبةِ، ورَأى الرُّشْدَ في إنفاذِهِ، فقد وَزَنَهُ، وإذا رَأى خِلافَ الرُّشْدِ انْتَهى عنهُ، ولم يُقْدِمْ عليهِ. فذلكَ وَقْفُهُ. فهذا الذي ذَكَرْنا مُحاسَبَةُ المرءِ نفسَهُ في ما يَرومُ مِنَ الأمورِ ومُحاسبةُ نفسِهِ في الأفعالِ التي ارْتَكَبَها، وأمْضاها، أن يَنْظُرَ؛ فإنْ كانَ ارتكَبَ مُحَرَّماً تابَ عنهُ، واسْتَغْفَرَ اللهَ تعالى، لَعَلَّهُ بِفَضْلِهِ يَمُنُّ عليهِ بالمَغْفِرَةِ، وإنْ كانَ فِعْلاً مَرْضِيّاً حَمِدَ اللهَ تعالى، وسأَلَهُ التوفيقَ بِمِثْلِهِ.

فهذهِ هي مُحاسَبَةُ العبدِ لنفسِهِ في ما ارْتَكَبَ مِنَ الأفعالِ.

الآيتان ٣٨ و٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ قَدْ وَصَفْنا أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وأنفسِكُمْ مِنَ الأسماعِ والأبصارِ والقلوبِ والعقولِ، أو ما تُبْصِرونَ مِنَ الخلائقِ مِمَّنْ حَضَرَكُمْ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ الخلائقِ إنْ غابَ عنكُمْ.

فيكونُ القَسَمُ بما نُبْصِرُ وما لا نُبْصِرُ قَسَماً[4] بالخلائقِ أجْمَعَ، لأنَّ جملةَ الخَلائقِ على هذينِ الوجهَينِ: فَصِنفٌ يُرَى، وصِنفٌ لا يُرَى. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ مِنَ اللهِ ﷻ لتأكيدِ ما يَقْصِدُ إليهِ ممّا يُعْرَفُ بالتَّدَبُّرِ والتَّأَمُّلِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢)ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: على اهلها. (٤) في الأصل وم: قسم.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي الذي تَسْمَعونَهُ منهُ تَسْمَعونَ منْ رسولٍ كريم.

ثم ذَكَرَ ههنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فَذَكَرَ ههنا كلامَ اللهِ، وذَكَرَ في الآيةِ الأُولَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فأمّا [ما][1] أُضيفَ إلى الرسولِ فهو مِنْ حيثُ بُلوغُنا إليهِ مِنْ جهةِ الرسولِ لا بأمْرِ غَيرِهِ وصَلْنا إليهِ.

وأُضيفَ إلى اللهِ تعالى لأنَّ مَجيئَهُ ومَرْويَّهُ [مِنْ عندِهِ][2] وأُضيفَ إلى الرسولِ لأنَّ ظهورَهُ في حَقِّنا كانَ بِهِ.

وهذا كما أُضيفَ ما وَعاهُ القَلْبُ إلى الأُذُنِ بقولِهِ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الآية: ١٢] لأنهُ إنما يُوصَلُ إلى الوَعيِ بالأُذُنِ.

فَعَلَى ذلكَ أُضيفَ القولُ إلى الرسولِ مِنْ حيثُ كانَ سَماعُ الخَلقِ مِنْ جهةِ الرسولِ ﷺ ثم الأصلُ أنَّ الكلامَ والقولَ لا يُسْمَعانِ، وإنما المَسْموعُ منهما الصوتُ الذي يُعْرَفُ بالكلامِ، والقولُ يَدُلُّ عليهِ، لا أنْ يكونَ كلامُهُ في الحَقيقةِ صوتَهُ، فَيُنْسَبُ أيضاً هذا القرآنُ إلى كلامِ اللهِ تعالى لِما يَدُلُّ على كلامِهِ لا أنْ يكونَ المَسْموعُ في الحَقيقةِ، هو كلامُهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أتاكُمْ بهِ لقولٍ تَلَقّاهُ مِنْ عندِ اللهِ الرسولُ الكريمُ، فَيُذَكِّرُهُمْ هذا لِيُؤمِّنَهُمْ مِنْ تَخليطٍ يَقعونَ فيهِ مِنَ الشَّياطينِ وغَيرِهِمْ مِنَ الأعداءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الرسولُ الكريمُ، هو جبريلُ، كما قالَ تعالى في سورةِ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ و٢٠].

ويَحْتَمِلُ: أنْ يكونَ الرسولُ الكريمُ، هو /٥٩٤ ـ أ/ محمدٌ ﷺ. والأشْبَهُ أنْ يكونَ، هو المُرادُ، لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ رسالتَهُ، ولم يكونوا يقولونَ في جبريلَ عليه السلام شيئاً.

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي إنَّ هذا القرآنَ لَقولُ رسولٍ كريم، ليسَ بقولِ شاعرٍ ولا بقولِ كاهنٍ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وقولُهُ[3]: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فَبِقليلٍ ما تُؤمنونَ، وبِقليلٍ ما تَذَكَّرونَ ممّا جاءَكُم بهِ الرسولُ.

والقليلُ الذي آمنوا بهِ، وتَذَكَّروا فيهِ، هو الذي كانَ راجعاً إلى مَنافِعِهِمْ.

فأمّا الذي كان عليهِمْ فهمْ لم يُؤمِنوا بهِ، ولا تَذَكَّروا فيهِ.

وإذا كانَ تأويلُهُ ما ذَكَرْنا فانْتِصابُ القَليلِ لا يَنْزِعُ حَرْفَ الخافضِ، وفي الحَقيقةِ انتِصابُهُ لِكونِهِ مَصْدراً، وهو المفعولُ المُطْلَقُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ القَليلَ إلى قولِ الكاهنِ والشاعرِ[4]، وتأويلُهُ: أنَّ الأمْرَ[5] لو كانَ على ما يَزْعُمونَ بأنهُ قولُ كاهنٍ وقولُ شاعرٍ[6] فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقونَ بالقَليلِ منهُ؟ وتَعْلَمونَ أنَّ الشاعرَ[7]، وإنْ كانَ الغالبُ عليهِ الكذبَ في ما يأتي، فقد يَصْدُقُ في القَليلِ منهُ؟ وكذلكَ الكاهنُ، فما بالُكُمْ لا تُصَدِّقونَ بالقَليلِ منهُ؟ وأنتمْ تَعْلَمونَ أنهُ صادقٌ.

فإنْ كانَ على هذا فهو في مَوضِعِ إيجابِ الحقِّ عليهِمْ أنْ يُصَدِّقوهُ[8]، وإنْ كانَ على التأويلِ الأوّلِ ففيهِ إضمارٌ أنهمْ لا يُؤمِنونَ إلّا بالقَليلِ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ ﷻ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالتَّنْزيلُ في الحَقيقةِ لا يَحْتَمِلُ أنْ يُسْمَعَ لأنهُ إخبارٌ عنْ فِعلِهِ، وإنما الذي يُسْمَعُ منهُ المُنَزَّلُ على رسولِ اللهِ ﷺ ثم أضافَ إلى نفسِهِ التَّنْزيلَ لِيُعْلَمَ أنَّ هذهِ الأخبارَ، وهي[9] قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: والساحر. (٥) في الأصل وم: الأمور. (٦) في الأصل وم: ساحر. (٧) في الأصل وم: الساحر. (٨) من م، في الأصل: يصدقون. (٩) في الأصل وم: وهو.

﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وقولُهُ تعالى ﷻ ﴿تَنزِيلٌ﴾ خَرَجَ على المَجازِ ليسَ على التَّحقيقِ، لأنَّ التَّنزيلَ، هو إنزالُهُ، فَسُمِّيَ تَنزيلاً لأنهُ هو الذي كَلَّفَهُ الإنزالَ، لا أنْ يكونَ، هو الذي تَوَلّى الإنزالَ، وإنْ كانَ، هو خالقُهُ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ فهذا على ما تقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الآيتان: ٤٠ و٤١] وعليه وقوعُ القسم، وهو مَوضِعُهُ، فكأنهُ يقولُ: إنَّ الذي تلَقّاهُ مِنْ عندِهِ رسولٌ كريمٌ، وما هو بِقولٍ، تَلَقّاهُ مِنْ كاهنٍ أو شاعرٍ[1]، ولا بِقولٍ تَقَوَّلَهُ علينا ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الآيتان: ٤٥ و٤٦].

ويَحتَمِلُ وجهاً آخرَ، وهو أنَّ الذي يَسْمَعونَ منهُ رسولٌ كريمٌ، وليسَ بشاعرٍ ولا كاهنٍ ولا مُتَقَوِّلٍ، لأنهمْ كانوا مَرَّةً يَنسُبونَهُ إلى الكَهانةِ ومَرَّةً إلى السِّحرِ ومَرَّةً أنهُ تَقَوَّلَهُ على اللهِ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ عذابَ اللهِ بأخَصِّ عبادِهِ أسْرَعُ وقوعاً، إذا هُمْ خالَفوهُ، وزلّوا، منهُ بأعدائِهِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ فَتَبَيَّنَ أنهُ لو وُجِدَ منهُ شيءٌ ممّا قالوا لأَخَذَهُ[2] على المكانِ؟

ألا تَرَى إلى آدمَ ﷺ وما حَلَّ بِهِ عندَما ابْتُلِيَ بالزَّلَّةِ والخِلافِ؟ وكذلكَ يونسَ ﷺ وما عُوقِبَ بِهِ على إثْرِ الزَّلَّةِ؟ وهذا لأنَّ عذابَ الأولياءِ يَخرُجُ مُخرَجَ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ والاسْتِدعاءِ إلى ما كانوا عليهِ مِنَ الطاعةِ والانْقِيادِ قبلَ ارْتِكابِهِمُ الزَّلَّةَ. ولا كذلكَ عذابُ الأعداءِ [إذْ أخَّرَ][3] عذابَهُمْ إلى اليومِ الذي يَدومُ عليهِمْ فيهِ العذابُ.

وفيهِ وجهٌ آخرُ، وهو أنَّ الذي سَمِعْتُموهُ[4] منهُ لو كانَ سِحراً أو شِعراً أو كَهانةً أو تَقَوُّلاً[5] لَكانَ لا يُمْهِلُهُ اللهُ تعالى، بل يُؤاخِذُهُ على [ما كانَ منهُ][6] مِنْ غيرِ عَجْزٍ[7] كما قالَ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الآية ٤٧] فإمهالُهُ دلَّ على أنَّ الأمْرَ ليسَ كما قالوا، بل هو ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ فأخذُ اللهِ تعالى عذابُهُ وعُقوبَتُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: ٤٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلْيَمِينِ﴾ أي بالقُوَّةِ، أي لا يُعْجِزُنا[8] منهُ شيءٌ، ولا يَفوتُنا عذابُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] وكقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠ والمعارج: ٤١] أي لا يُعْجِزُنا ما عندَهُ مِنَ الشَّرَفِ والقُوَّةِ مِنْ أنْ نُؤاخِذَهُ، ونُنْزِلَ عليهِ النِّقْمَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اليمينُ صِلَةَ القولِ لا على تَحْقيقِ اليَدِ، فَذِكْرُ اليمينِ لأنَّ التَّأديبَ في الشاهِدِ والأخذِ، يَقَعُ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] فأضافَ التَّقديمَ إلى اليَدِ لا على تَحْقيقِ اليَدِ؛ إذْ يجوزُ ألّا يكونَ لِيَدَيهِ بِما قَدَّمَ صُنْعٌ، لكنْ لِما كانَ التَّقديمُ في الشاهِدِ يَقَعُ بالأيدي. فَذُكِرَتِ اليَدانِ على ذلكَ لا على تَحقيقِ الفِعْلِ بهما. فكذلكَ يَجوزُ أنْ تكونَ اليمينُ ذُكِرَتْ لِما بها يَقَعُ الأخذُ والتَّأديبُ في الشاهِدِ، وإنْ لم يكُنْ هنالكَ يَمينٌ، واللهُ أعلَمُ.

واليمينُ القُوَّةُ، وسُمِّيَتِ اليمينُ يَميناً لأنَّ قُدْرَةَ الرجلِ تكونُ فيها، وسُمِّيَ مُلْكُ الرِّقابِ مُلْكَ يَمينٍ لأنَّ مُلْكَ اليمينِ يُكْتَسَبُ بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، وإنما يَصِلُ المَرْءُ إلى القَهْرِ والغَلَبَةِ بالقُوَّةِ، فَسُمِّيَ مُلْكَ يَمينٍ لهذا، لا أنْ يُرادَ بِذِكْرِ اليمينِ تَحقيقُ اليمينِ؛ إذِ اليَدُ لا تَمْلِكُ شيئاً حتى يُضافُ إليها، فكذلكَ في ما أُضيفَ مِنَ اليمينِ إلى اللهِ تعالى، فالمرادُ منهُ القُوَّةُ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [قيلَ: الوَتينُ][9] عِرْقٌ في القَلْبِ، وقيلَ: حَبْلٌ في القَلْبِ، وقيلَ: هو العِرْقُ الذي إذا قُطِعَ ماتَ صاحبُهُ، وهو عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بالظَّهْرِ، فكأنهُ قالَ: نُعَذِّبُهُ عذاباً، لا بَقاءَ لهُ معَ ذلكَ العذابِ، وهذا

---

(١) في الأصل وم: ساحر. (٢) من م، في الأصل: لأخذناه. (٣) في الأصل وم: فأخر. (٤) في الأصل وم: سمعتم. (٥) في الأصل وم: تقولة. (٦) في الأصل وم: المكان. (٧) في الأصل وم: أن عجزوا. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يعجزه ما. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

مِنْ أعظَمِ آياتِ الرسلِ[1] في أنهمْ متى زَلّوا أُخِذوا على [ما كانَ منهمْ][2]، ويكونُ فيهِ أمانُ الخَلْقِ مِنْ إحداثِ التَّغْييرِ والتَّبْديلِ مِنَ الرسلِ لأنهمْ لو غَيَّروا لَعُذِّبوا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِنْهُ﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الإسقاطُ، ويكونُ مَعْناهُ: لأخَذْناهُ باليمينِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ لأخَذْنا مِنْ تَقَوُّلِهِ وسِحْرِهِ وكهانَتِهِ باليَمينِ؛ فإنْ كانَ على هذا فَحَقُّهُ الإثباتُ، وليسَ بِصِلَةٍ زائِدَةٍ.

الآية ٤٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ ففي هذا يَأسٌ منهُ لأولئكَ الكَفَرَةِ لأنهمْ كانوا يَطْعمونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ اتِّباعَهُمْ ومُوافَقَتَهُمْ على مِلَّتِهِمْ، فأخبَرَ أنه لو أجابَهُمْ[3] لَقَطَعَ منهُ وَتينَهُ، وأخَذَهُ، لا يَمْلِكونَ مَنْعَ ذلكَ عنهُ ولا دَفْعَهُ، ولم يَكُنْ أحدٌ يَنْصُرُهُ عندَ ذلكَ، أو يَحْجُزُهُ عنا. وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ و٧٤ و٧٥].

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فالمُتَّقونَ همُ المُوَحِّدونَ؛ فَسَمّاهُمْ مَرَّةً مُتَّقِينَ ومَرَّةً صابرينَ ومَرَّةً شاكرينَ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وهو تَذْكِرَةٌ لأنهُ يُذَكِّرُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ وما يُتَّقَى وما يُؤْتَى وغيرَ ذلكَ. فهو تَذْكِرَةٌ؛ يعني القرآنَ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي بآياتي ورسُلي، ثم نُمْهِلُكُمْ[4]، فهو صِلَةُ قولِهِ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الآية: ٤٤] فَبَيَّنَ أنهُ معَ كَذِبِهِمْ بآياتِهِ ورسلِهِ يُمْهِلُهُمْ، ولا يَعْجَلُ عليهمْ بالعقوبةِ، ولو وَجَدَ التَّقَوُّلَ مِنَ الرسولِ لَكانَ يَسْتَأْصِلُهُ، ويَقْطَعُ وَتينَهُ.

فهو على ما ذَكَرْنا أنَّ عذابَهُ على خَواصِّ عبادِهِ أسْرَعُ وقوعاً، إذا خالَفوا، منهُ بأعدائِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [قولُهُ ﷻ][5] ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ همُ المُنافقونَ لأنهمْ كانوا يُظْهِرونَ/ ٥٩٤ ـ ب/ المُوافَقَةَ لِرسولِ اللهِ ﷺ بألسنَتِهِمْ، ويُخالفونَهُ، ويُكَذِّبونَهُ، بِقُلوبِهِمْ، فيكونُ هذا التأويلُ راجعاً إلى أهلِ النِّفاقِ.

والتأويلُ الأوَّلُ إلى أهلِ الكُفْرِ الذينَ أظْهَروا التكذيبَ.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي القرآنُ[6] حَسْرَةٌ عليهمْ يومَ القيامةِ لأنهُ شافعٌ مُشَفَّعٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، وعَمِلَ بما فيهِ، وما حَلٌ مُصَدَّقٌ، ولِمَنْ نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِهِ، ولم يَعْمَلْ بهِ فهو حَسْرَةٌ عليهمْ، لأنهُ يُخاصِمُهُمْ، فَيَخْصِمُهُمْ، ويَشْهَدُ عليهمْ، فَيُصَدَّقُ [في][7] شهادَتُهُ، ويَذْكُرونَ يومَ القيامةِ معامَلَتَهُمْ بالقرآنِ، فَيَنْدمونَ عليهِ، ويَزيدُهُمْ حَسْرَةً لأنهمْ إذا يُتْلَى عليهِمُ القرآنُ في الدنيا ازْدادوا عندَ تِلاوَتِهِ ضَلالاً وكُفْراً، وازْدادوا بهِ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ كما قالَ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] وهو ليسَ بِسَبَبٍ لِازْدِيادِ الرِّجْسِ، ولكنَّهُمْ كانوا يُحْدِثونَ زيادةَ تكذيبٍ وضلالٍ عندَ التِّلاوةِ، فأُضيفَتِ الزيادةُ إلى القرآنِ، إذْ كانَ القرآنُ، هو الذي يَحْمِلُهُمْ على زيادةِ التكذيبِ.

فهذهِ المُعامَلةُ تَزيدُهُمْ حَسْرَةً يومَ القيامةِ، فأُضيفَتْ إلى القرآنِ، إذْ كانَ القرآنُ هو الذي عندَهُ [ما][8] وقعوا فيهِ كما أُضيفَ الرِّجْسُ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ والأصْلُ أنَّ الحَقَّ اسْمٌ لِما يُحْمَدُ عليهِ، فَحَقُّهُ أنْ تَنْظُرَ في ما تُسْتَعْمَلُ هذهِ اللفظةُ، فَتَصْرِفَها إلى أحدِ الوجوهِ:

فإذا اسْتُعْمِلَتْ في الأخبارِ أُريدَ بها الصِّدْقُ نَحْوُ أنْ يُقالَ: هذا خَبَرٌ حَقٌّ أي صِدْقٌ. وإذا اسْتُعْمِلَتْ في الحُكْمِ أُريدَ بها العدلُ. وإذا اسْتُعْمِلَتْ في الأقوالِ والأفعالِ أُريدَ بها الإضافةُ.

---

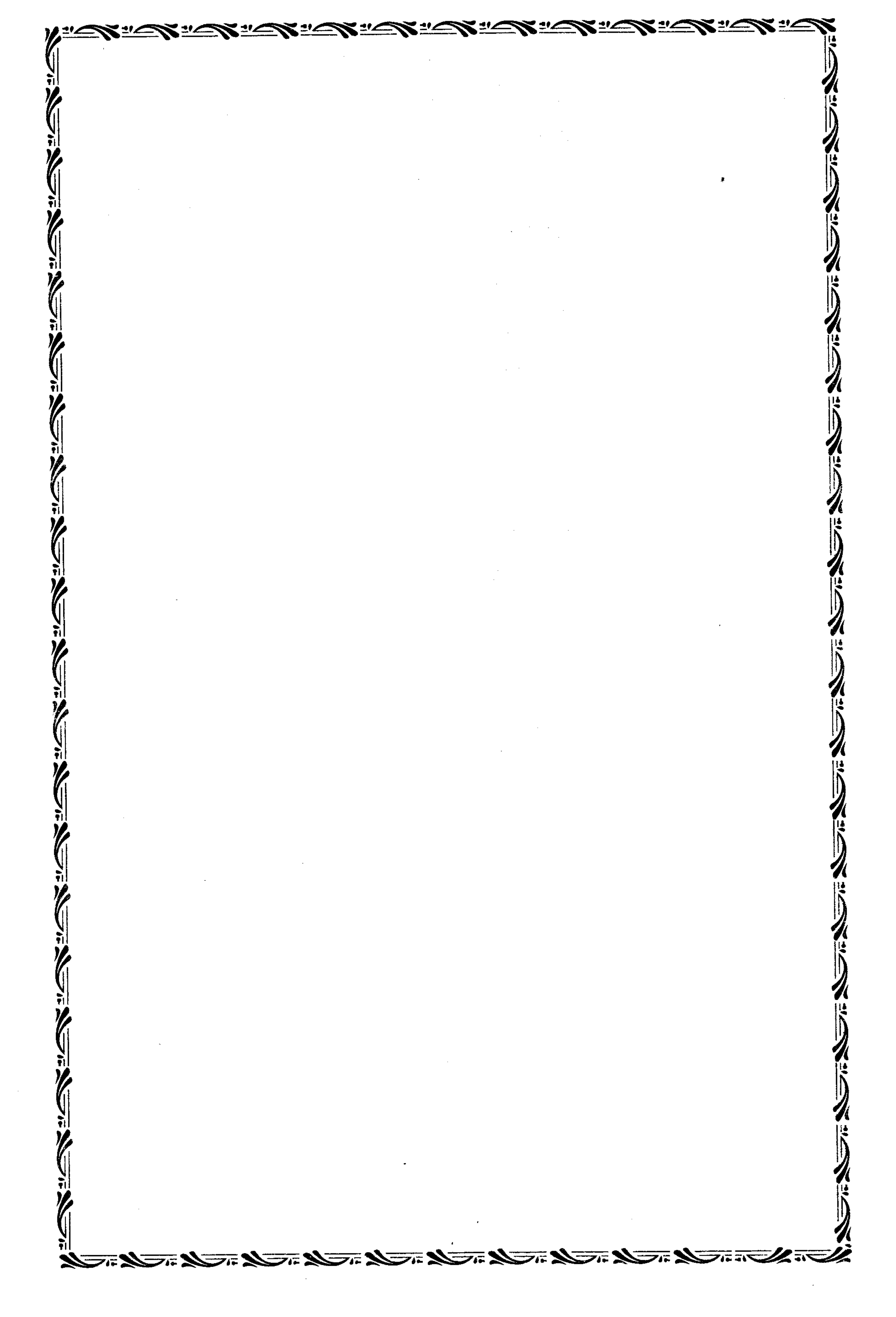
(١) في الأصل وم: الرسالة. (٢) في الأصل وم: المكان. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أجابوه. (٤) من م، في الأصل: يهلككم.
(٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: العذاب. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي صِدْقٌ، ويَقينٌ أنهُ مِنْ ربِّ العالَمينَ. فهو صِلَةُ قولِهِ ﷻ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الآية: ٤٣].

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قيلَ: صَلِّ، وقيلَ: اذْكُرْهُ بالِاسْمِ الذي إذا سَمَّيت كانَ تَسْبيحاً أي تَنزيهاً عنْ كلِّ ما قالَتْ فيهِ المَلاحِدَةُ، وما نَسَبَتْ إليهِ، ممّا لا يَليقُ بهِ، واللهُ أعلَمُ[1].

---

(١) في م: الهادي، وعليه التكلان.



سورة المعارج

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ قُرِئَ بتسكينِ الألفِ،[2] ومَعْناهُ: سالَ وادٍ بعذابٍ واقعٍ، أي جَرَى وادٍ بعذابٍ واجبٍ.

والقراءةُ العامةُ بالهمزةِ مِنَ السؤالِ؛ وتأويلُهُ على سُؤالِ القومِ العذابَ بقولِهِمْ: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: ١٦].

وقيلَ: هو النَّضْرُ بْنُ الحارثِ سألَ ذلكَ، فَقُتِلَ يومَ بَدْرٍ بَعْدَ أَسْرٍ. هكذا قالَ بَعْضُ أهلِ التأويلِ، ولكنْ عندَنا أنَّ هذا، وإنْ كانَ في الظاهرِ خارجاً مَخرَجَ السؤالِ، لكنْ لم يكُنْ سؤالُهُ هذا لِيُنْزِلَ بِهِ العذابَ في التَّحْقيقِ، وإنما هذا منهُ على جِهَةِ الاِسْتِبْعادِ بالعذابِ والاِسْتِهْزاءِ برسولِ اللهِ ﷺ.

والذي حَمَلَهُمْ على الاِسْتِبْعادِ والإنكارِ، هو انهُ كانَ [عِندَ][3] أهلِ مكةَ أنهُ لو كانَ فيهِمْ نَبِيٌّ لكانوا هُمْ أحقَّ بالنُّبُوَّةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنهمْ همُ الذينَ [بُسِطَتْ لهمُ الدنيا، وهُمُ الذينَ][4] لهمْ نَفاذُ الكلامِ في البلادِ، ورسولُ اللهِ ﷺ لم تُبْسَطْ لهُ الدنيا، ولا كانَ لكلامِهِ في ما بَيْنَهُمْ نفاذٌ، فَيَظُنُّونَ بهذا أنهمْ أقْرَبُ مَنْزِلةً عندَ اللهِ تعالى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لأنهُ لا يَسْتَقيمُ في العقلِ أنْ يَصِلَ الوَلِيُّ إلى عَدُوِّهِ، ويُحْسِنَ إليهِ[5]، ويَدَعَ صِلَةَ وَلِيِّهِ، ويُخْفِيَها[6].

فهذا الظَّنُّ الذي ذَكَرْنا هو الذي حَمَلَهُمْ على تكذيبِ رسولِ اللهِ ﷺ في ما يُخْبِرُهُمْ مِنْ حُلولِ العذابِ بالتَّكذيبِ، وعلى الاِسْتِهْزاءِ بِهِ. فكانَ سؤالُ السائلِ على جهةِ [اسْتِبْعادِ إمكانِ العذابِ][7] لا أنْ كانوا مُقِرِّينَ[8] بِهِ، ثم اسْتَعْجَلوهُ.

وذُكِرَ أنَّ أبا جَهْلٍ قالَ يومَ [بَدْرٍ][9]: اللهمَّ انْصُرْ أبَرَّنا قَسَماً وأوصَلَنا رَحِماً وأقْرانا للضَّيفِ.

فكانَ يَدْعو بهذا لِما عندَهُ أنهُ أشْرَفُ حالاً وأعْلَى مَنْزِلةً عندَ اللهِ ﷻ [مِنْ محمدٍ ﷺ وأتباعِهِ. ومَنْ كانَ هذا شأنُهُ فهو وَلِيُّ الإمَّعَةِ. وقالَ اللهُ تعالى][10]: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولو لم يكُنْ عندَهُمْ أنهمْ أقْرَبُ مَنْزِلةً وأحقُّ أنْ يكونوا أولياءَ، وإلّا لم يكونوا يَجْتَرِئونَ أنْ يَسألوا بهذا.

فهذِهِ الشبهةُ التي ذَكَرْناها [هي][11] التي أورَثَتْ لهمْ ما ذَكَرْنا مِنَ الظَّنِّ حتى زَعَموا أنهمْ أحقُّ بالرسالةِ.

وظَنُّهُمْ هذا يَتَوَلَّدُ مِنْ إبليسَ؛ وذلكَ أنَّ إبليسَ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فَظَنَّ أنَّ أمرَ الفاضلِ لِلْمَفضولِ بالسُّجودِ في الخُضوعِ لهُ خارجٌ عنْ حَدِّ الحِكْمةِ، فَصارَ إلى ما صارَ إليهِ مِنَ الخِزْيِ واللَّعْنِ.

فكذلكَ هؤلاءِ لمّا رَأَوا [ما رَأَوا][12] مِنْ نَفاذِ كَلِمَتِهِمْ وَسَعَتِهِمْ في الدنيا ظَنُّوا أنهمْ أقْرَبُ إلى اللهِ تعالى؛ إذِ التَّوَسُّعُ عندَهُمْ دلالةُ الوِلايَةِ والقُرْبِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/٢١٦. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: عليه. (٦) في الأصل وم: ويخفوه. (٧) في الأصل وم: الاستبعاد والامكان للعذاب. (٨) من م، في الأصل: مقرنين. (٩) من م: ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

ثم سَفَهُهُمْ، هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّكَبُّرِ على رسولِ اللهِ ﷺ وتَرْكِ الخضوعِ، وإلّا لو أَعْطَوا النَّصَفَةَ مِنْ أنفسِهِمْ لَكانَ يجبُ أنْ يكونوا هُمْ أَطْوَعَ خَلْقِ اللهِ تعالى، لأنَّ الواجبَ على مَنْ كَثُرَتْ عليهِ النِّعَمُ مِنْ آخَرَ أنْ يكونَ هو أشكَرَ لِلنِّعَمِ وأطْوَعَ لهُ في ما يَدْعوهُ إليهِ مِنَ الذي قَلَّتْ نِعَمُهُ عليهِ.

فإذا كانوا مُقِرِّينَ أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهِمْ أكْثَرُ وإحسانَهُ إليهِمْ أوفَرُ أوجَبَ ما ذَكَرُوا أنْ يكونوا هُمُ الزَمَ لطاعتِهِ وآخَذَ لِما يأمُرُ بهِ. وكذلكَ إبليسُ اللعينُ إذا رَأى لِنَفسِهِ فَضلاً، واستوجَبَ[1] ذلكَ بما أنعَمَ اللهُ عليهِ كانَ الحقُّ عليهِ أنْ يَتَسارَعَ إلى طاعتِهِ، ويَنْقادَ لِما أمَرَهُ بهِ، لا أنْ يُظْهِرَ الخِلافَ مِنْ نفسِهِ وتَرْكَ الائتِمارِ بأمْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي هو واقعٌ بهِمْ لا محالةَ في عِلْمِ اللهِ تعالى، أو واقعٌ بِمَعْنَى سَيَقَعُ كما يُقالُ: قابلٌ أي سيُقْبَلُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فَحَقُّهُ أنْ يقولَ: على الكافرينَ، ولكنَّ اللامَ مِنْ حُروفِ الإضافةِ والخَفْضِ، وحروفُ الإضافةِ ممّا يُستَبْدَلُ بعضُها ببعضٍ، فَجَعَلَ اللامَ بَدَلاً عن على.

وإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صِلَةَ قولِهِ: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فَمَعْناهُ أنْ ليسَ على الكافرينَ دافعٌ لعذابِ اللهِ ﷻ بل واقعٌ بهِمْ، لا مَحالةَ، فأُبدِلَتِ اللامُ فكانَ عنْ لأنهما جميعاً مِنْ حُروفِ الخَفْضِ. / ٥٩٥ ـ أ/

وقد يُدْفَعُ العذابُ عنِ المسلمينَ مِنْ وجوهٍ: إمّا بِرَحْمةِ اللهِ تعالى، وإمّا[2] بِشفاعةِ الرسلِ والأخيارِ، وإمّا بِحَسَناتٍ[3] سَبَقَتْ منهُمْ، فوجَبَ تَكْفيرُ سَيِّئاتِهِمْ.

فأمّا الكفّارُ فلا تَنالُهُمْ رَحْمَتُهُ، ولا شفاعةُ أحدٍ مِنَ الخلائقِ، وليستْ لهمْ حَسَناتٌ تُكَفِّرُ سَيِّئاتِهِمْ، فليسَ لهمْ ما يَدْفَعُ العذابَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: إنَّ الذينَ ظَنُّوا أنهُ يَنْصُرُهُمْ عندَ النوائبِ وحُلولِ الشدائدِ، لا يَقومُ بِنَصْرِهِمْ ولا يَشْفَعُ لهمْ لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ الملائكةَ على رجاءِ أنْ يَشْفَعوا لهم، ويُقَرِّبوا إلى اللهِ تعالى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي ذلكَ العذابُ لهمْ مِنَ اللهِ ذي المعارجِ كقولِهِ تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أيِ الذي لهُ العَرْشُ.

واختَلَفوا في المَعارجِ: قالَ بعضُهُمْ: هي[4] المَصاعِدُ، وهي السمواتُ، وسَمّاهُنَّ مَصاعِدَ، لأنَّ بعضَها أصعَدُ مِنْ بعضٍ وأرفَعُ، ولو قالَ: ذي المَسافِلِ كانَ مستقيماً، واقتَضى [قولُهُ ما يَقْتَضي][5] ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ لأنَّ بعضَها إذا كانَ أصْعَدَ [فإنَّ][6] الذي تَحْتَها أهبَطُ وأسْفَلُ. ولكنْ ذَكَرَ المَصاعِدَ لأنَّ هذا أعْلَى في الوَصْفِ.

ثم في ذِكْرِ هذا عِظَمُ نِعَمِهِ وإحسانِهِ على خَلْقِهِ حينَ[7] خَلَقَ السمواتِ مَسْكَناً لأهلِها، وخَلَقَ الأرضَ مَسْكَناً حتى إذا عَرَفوا هذا عَرَفوا أنَّ لهُ أنْ يُفَضِّلَ بَعْضاً على بَعْضٍ، ولَهُ أنْ يَصْطَفِيَ مَنْ يَشاءُ مِنَ الناسِ للرسالةِ، ويَخْتَصَّ بها، وذَكَّرَهُمْ أيضاً حكمَتَهُ وعِلْمَهُ وقدرَتَهُ وسُلْطانَهُ أنهُ حينَ[8] وَضَعَ سماءً[على سماءٍ][9] وخَلَقَهُنَّ طِباقاً مِنْ غَيرِ عَمَدٍ تحتَها، تُمْسِكُها أو علائقَ مِنْ فوقِها، تَرْبِطُها، يُبَيِّنُ[10] أنهُ يُمْسِكُها بِحِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ وسُلْطانِهِ. فيكونُ في ذِكْرِ كلِّ وجهٍ في ما ذَكَرْنا إزالةُ الشُّبْهَةِ التي اعْتَرَضَتْ لهمْ في أمْرِ البعثِ والرسالةِ، وإيضاحٌ بأنَّ مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرْنا قادرٌ على الإعادةِ بعدَ الإفناءِ.

وقولُهُ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ المَعالي: أيِ الذي لهُ العُلُوُّ والرِّفْعَةُ كما قُلْنا في قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي لا أحَدَ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ في الحَقيقةِ، وما حُمِدَ أحَدٌ إلّا وذلكَ في الحَقيقةِ للهِ تعالى لأنهُ بهِ اسْتَفادَهُ.

---

(١) في الأصل وم: وإنما استوجب. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: الحسنات. (٤) في الأصل وم: هو. (٥) في الأصل وم: ما يقتضي قوله. (٦) في الأصل وم: و. (٧) و(٨) في الأصل وم: حيث. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: فتبين.

فَعَلى ذلكَ قولُنا: لهُ العُلُوُّ والرفعةُ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما:](1) أي ليسَ أحدٌ يَسْتَفيدُ العُلُوَّ والكرامةَ إلّا وحَقيقةُ ذلكَ للهِ تعالى، لأنهُ اسْتَفادَهُ بِهِ.

والثاني: أي هو الموصوفُ بالعُلُوِّ والجَلالِ عمّا يَقَعُ عليهِ أوهامُ الخَلْقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿تَعْرُجُ﴾ ليسَ عنْ هبوطٍ: يُصْعَدُ، ويُعْرَجُ. لكنْ أنْشَأَهُمْ كذلكَ مَعْروجينَ كقولِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [الزمر: ٦] أي أنْشَأَهُمْ كذلكَ، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] [ليسَتْ أنها كانَتْ](2) في مَوضِعٍ مُنْحَطٍّ، فَرَفَعَها، لكنهُ كذلكَ خَلَقَها مَرفوعةً.

فَعَلى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي أنْشَأَهُمْ؛ كذلكَ اسْتَعْمَلَهُمْ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

ووجهٌ آخَرُ، هو الأشْبَهُ بالآيةِ، وهو ما قالوا: إنَّ الملائكةَ تَعْرُجُ إليهِ أي إلى المَوضِعِ الذي عنهُ أرسَلَهُمْ إلى أنواعِ الأمورِ في يومٍ، لو قُدِّرَ ذلكَ العُروجُ بِعُروجِ البَشَرِ وسَيرِهِمْ لَكانَ مِقدارَ خَمسينَ ألفَ سنةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الوقتُ وَقْتَ تقديرِ عُروجِ الملائكةِ وصُعودِهِمْ، وهو أنَّ البعضَ منهمْ(3) يَنْزِلُ، ثم يَعْرُجُ في يومٍ واحدٍ، مِقْدارُ ذلكَ المَسيرِ ألفُ عامٍ، والبَعْضَ منهمْ يَنْزِلُ، ويَعْرُجُ في يومٍ واحدٍ مَسيرةَ خمسينَ ألفَ سنةٍ.

فيكونُ في هذا إبانةُ أنْ ليسَ [أهلُ](4) سماءٍ أحَقَّ أنْ يدورَ عليهمْ تدبيرُ أهلِ الأرضِ مِنْ أهلِ سماءٍ، بل يَنْزِلُ أهلُ سماءٍ إلى الأرضِ مَرَّةً لِما يُرادُ مِنْ تدبيرٍ، ويَنْزِلُ أهلُ سماءٍ أُخْرَى بِتَدْبيرٍ آخَرَ.

ثم أيُّ [أهلِ](5) سماءٍ يُرْسَلُ، فهو يَصْعَدُ إلى تلكَ السماءِ بيومٍ واحدٍ، إنْ أُرسِلَ مِنَ السماءِ السابعةِ أو السادسةِ أو الأولَى، فهو يَصْعَدُ إليها في ذلكَ اليومِ، فيكونُ في هذا تَبْيينُ قُوَّةِ بعضِ الملائكةِ على بعضٍ: أنَّ فيهمْ مَنْ يَسيرُ مَسيرةَ خَمسينَ ألفَ سنةٍ في يومٍ واحدٍ، وفيهِمْ [مَنْ](6) يَسيرُ مَسيرةَ ألفِ سنةٍ، ومَنْ قَدَرَ على أنْ يَخْلُقَ في خَلْقٍ مِنْ خلائقِهِ مِنَ القوةِ ما يَقْطَعُ هذهِ المسافةَ في يومٍ واحدٍ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَحْقيقُ كونِ ما بهِ هُوِّلوا مِنَ القِيامةِ والبعثِ.

وجائزٌ(7) أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ راجعاً إلى يومِ القِيامةِ؛ فَذَكَرَ في مَوضعٍ: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] وذَكَرَ هَهنا: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

فالأصلُ أنَّ ذلكَ اليومَ ليسَ بذي حَدٍّ، ولا لهُ غايةٌ، يَنْتَهي إليهِ، يُخْبَرُ فيهِ عنِ الحدِّ؛ فهو يُخْرَجُ مُخْرَجَ تعظيمِ ذلكَ اليومِ لِيَقَعَ بهِ التَّهويلُ والتَّفزيعُ، فَبِأَيِّ شيءٍ يَعْظُمُ ذِكْرُهُ في القلوبِ يُذْكَرُ بالخلودِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبإ: ٢٣] ومَرَّةً قالَ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ومَرَّةً قالَ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] إذْ هذهِ الأشياءُ ممّا تَعْظُمُ في القلوبِ، وكذلكَ الألفُ، هي عظيمةٌ في القُلوبِ.

فإذا كانَتْ هذهِ الأشياءُ يَعْظُمُ ذِكْرُها في القلوبِ فَذِكْرُ الشيءِ الواحدِ مِنَ الجُمْلَةِ، أو ذِكْرُ الأشياءِ يَقْتَضي مَعْنىً واحداً.

ومنهمْ منْ يَصْرِفُ الألفَ إلى تَقْديرِ عُروجِ الخَلائقِ إلى السماءِ في ذلكَ اليومِ، ويَصْرِفُ قولَهُ: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ إلى تقديرِ المُقامِ للحِسابِ قبلَ أنْ يُدْخَلوا النارَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ على ما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التَّفسيرِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَلَ حِسابَ الخَلْقِ يومئذٍ إلى الخَلْقِ، فَتَكَلَّفوا أنْ يَفْرَغوا مِنْ حسابِهِمْ لَنْ يَفْرَغوا منهُ إلّا في مِقْدارِ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ. لكنَّ اللهَ تعالى بِلُطْفِهِ يُحاسِبُهُمْ حساباً، يَفْرَغُ(8) منهُ في أدْنَى وقتٍ حتى يَصيرَ [أهلُ](9) الجنةِ إلى الجنةِ وأهلُ النارِ إلى النارِ على ما جاءَ في الأخبارِ، وذلكَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليس أنه كان. (٣) أدرجت في الأصل وم بعد ينزل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يفرغون. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

قولُهُ ﷺ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] أنْ كيفَ قَدَّرَ ذلكَ بصُعودنا، ونحنُ لم نتَمكَّنْ مِنَ الصعودِ، ولم نُنْشأْ على ما في طَبْعِنا إنشاءُ الصعودِ حتى نَنْظُرَ أنهُ ألفُ سنةٍ أو أقلُّ أو أكثرُ؟

وجوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ تأويلَهُ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ لو بَسَطَ ما بَينَ السماءِ والأرضِ، فصارَ بحيثُ يُمْكِنُ السَّيرُ عليهِ، لم نَقْطَعْ ذلكَ السَّيرَ إذا احتَجْنا إلى قَطْعِهِ إلّا بألفِ سنةٍ ممّا نَعُدُّ[1].

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنْ لو جَعَلَ إلى السماءِ باباً، وفُتِحَ، وظَلَلْنا نَعْرُجُ إليها، لم نَتَوَصَّلْ إليها إلّا في ألفِ عامٍ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ قيلَ: الصَّبْرُ الجميلُ، هو صَبْرٌ، لا جَزَعَ فيهِ. والصَّبْرُ الذي لا جَزَعَ فيهِ، هو أنْ يَصبِرَ [المرءُ][2] صَبْراً، لا تَرى عليهِ أثرَ الصَّبْرِ، بألّا يَظْهَرَ في وجْهِهِ كَراهَتُهُ وعبوسُهُ، وهو أنْ يَنْظُرَ إلى مَنْ رآهُ[3] بِعَينِ الرِّضا والشَّفَقَةِ، ليسَ السُّخطِ والكَراهةِ. والصَّبْرُ الجميلُ ألّا يُكافِئَهُمْ، ولا يَدَعَ شَفَقَتَهُ ورَحْمَتَهُ عليهِمْ بما يُؤذونَهُ.

وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ كذلكَ مُشْفِقاً [عليهِمْ][4] رحيماً بهِمْ حتى بَلَغَتْ شَفَقَتُهُ ورَحْمتُهُ وحُزْنُهُ على كُفّارِ قومِهِ مَبْلَغاً، كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ فيها كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] / ٥٩٥ ـ ب/ وقالَ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦].

فالرسلُ ﷺ كانوا إذا أُوذُوا لم يكونوا يَتَحَزَّنونَ لِمَكانِ أنفسِهِمْ بما أُوذوا، بل كانوا يَحْزَنونَ [بما كانَ][5] مِنْ ذنوبِهِمْ خوفاً مِنْ أنْ يَحُلَّ بهِمُ الهَلاكُ والبَوارُ بإيذائِهِمْ [وهمْ][6] رسلُ اللهِ تعالى، وإشفاقُهُمْ على قومِهِمْ، هو الذي كانَ يُحْزِنُهُمْ [ليسَ سُوءُ][7] صَنيعِهِمْ ومُعامَلَتِهِمْ معهُمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ أي بعيداً أنْ يكونَ، فيكونُ على النَّفْيِ والإنكارِ، وقد تُسْتَعْمَلُ هذهِ الحروفُ في مَوضِعِ النَّفْيِ؛ يقولُ الرجلُ في المُناظرةِ لِصاحبِهِ: أبْعَدْتَ في القولِ، وإذا أجابَ بشيءٍ، لا ثَباتَ لهُ، ولا صِحَّةَ؛ فَيُريدُ بقولِهِ: أبْعَدْتَ النَّفْيَ، أي ليسَ كما تقولُ. وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ومَعْناهُ على نَفْيِ النداءِ، أي لا يُنادَونَ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿بَعِيدًا﴾ أي مُسْتَبْعَداً كونُهُ، فَبَعُدَ عنْ أوهامِهِمْ حتى أنْكروهُ.

الآية ٧ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي قريباً كونُهُ إنْ كانَ مَعْنى قولِهِ: ﴿بَعِيدًا﴾ أي بَعيداً كونُهُ، و﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي كائناً، وقد قَرُبَ وَقْتُ وُقوعِ ذلكَ بهِمْ. وكلُّ ما هو كائنٌ، فهو قَريبٌ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾][9] فكأنهمْ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الوقتِ الذي وُعِدوا أنْ يَقَعَ بهِمُ العذابُ: متى وقتُهُ؟ فَنَزَلَتْ [هاتانِ الآيتانِ][10] ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾][11] وقيلَ: المُهْلُ: عَكَرُ الزيتِ، وهو دُرْدِيُّهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّحقيقِ، وهو أنها تَتَغَيَّرُ في ذلكَ اليومِ مِنْ لَونٍ إلى لَونٍ، فَتَحْمَرُّ مَرَّةً، وتَصْفَرُّ أُخرى لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ، فتكونُ كَدُرْدِيِّ الزيتِ لِيناً ولَوناً مُتَغَيِّراً مِنْ حالٍ إلى حالٍ.

وجائزٌ ألّا يَحُلَّ بها التَّغَيُّرُ، ولكنْ شِدَّةُ ما يَنْزِلُ بالمَرْءِ مِنَ الهَولِ والفَزَعِ تُضْعِفُ بَصَرَهُ حتى يَرى السماءَ على خِلافِ اللونِ الذي هي عليهِ، وهو كما تَرى المَرْءَ إذا حلَّ بهِ الضَّعْفُ والمرضُ في الشاهِدِ، وَجَدَ[12] طَعْمَ الأشياءِ على خِلافِ ما هي عليها. فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَهْويلٌ وتَفْزيعٌ.

إنَّ هَولَ ذلكَ اليومِ شديدٌ، لا تقومُ لِهَولِهِ[13] السمواتُ والأرَضُونَ معَ صَلابَتِها وغِلَظِها في نفسِها، فكيفَ يقومُ لِهَولِهِ[14] الآدميُّ المَوصوفُ بالضَّعْفِ واللِّينِ؟

---

(١) في الأصل وم: تعدون. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، في الأصل: إراده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: بمكان.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: ليس سواء، في م: لسوء. (٨) و(٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: هذه الآية.
(١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ووجه. (١٣) في الأصل وم: لهولها. (١٤) في الأصل وم: لهولتها.

وجائزٌ على ما ذَكَرْنا [أنها تَصيرُ شَبيهةً][1] بالمُهْلِ لِلِينِها ورَخْوتِها، وأنها تَلينُ، وتَرْخو، مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ حتى تصيرَ السماءُ كالمُهْلِ والجبالُ كالعِهْنِ، فيكونُ في هذا تَهْويلٌ لِيَرْجِعوا عمّا هُمْ فيهِ، ويُقْبِلوا على عبادةِ اللهِ تعالى، ويَتَسارَعوا إلى طاعتِهِ.

وتأويلُ العِهْنِ وَوَجْهُ تَشْبيهِ الجبالِ بها، يُذْكَرُ بعدَ هذا في قولِهِ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قُرِئَ بِرَفْعِ الياءِ ونَصْبِها[2].

فَمَنْ يَرْفَعِ الياءَ فتأويلُهُ أي لا يُطْلَبُ حَميمٌ مِنْ حَميمٍ، ولا يُؤْخَذُ بِمَكانِهِ كما يُفْعَلُ مثلُهُ في الدنيا لأنَّ ذلكَ اليومَ هو يومُ العدلِ، وليسَ مِنَ العَدْلِ أنْ يُؤْخَذَ الغَيرُ بذنبِ الغَيرِ.

ومَنْ قَرَأَهُ بالنصبِ فتأويلُهُ ألّا يَسْأَلَ حَميمٌ حميماً مِنْ شِدَّةِ ذلكَ اليومِ وهَولِهِ النُّصْرَةَ والشفاعةَ، ولا يَسْأَلُ عنْ حالِهِ بما حَلَّ بِهِ مِنَ الشُّغْلِ في نفسِهِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ: يُعَرَّفُ بعضُهُمْ عنْ بعضٍ: أنَّ هذا أبوكَ وابنُكَ وحَميمُكَ، إذْ لا يَعْرِفُهُ إلّا بالتَّعريفِ لِما حَلَّ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ. ثم إذا عُرِّفوا لا يَسْأَلونهمْ، بلْ يَفِرُّ بعضُهُمْ مِنْ بعضٍ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ و ...] الآيات[3]. أو يكونُ مَعْناهُ أنْ يُبَصَّروا ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الذنوبِ والأجرامِ، فَيَعْرِفوها، وتَصيرَ لهمْ حاضِرَةً.

الآيات ١٢ ـ ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ففي هذا أنهُ يَسْتَقْبِلُهُمْ في ذلكَ اليومِ هَولٌ وفَزَعٌ لم يَكُنْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ في الدنيا، ولا كانَ خَطَرَ ببالِهِمْ ذلكَ، لأنَّ المَرْءَ لا يَبْلُغُ بِهِ الهَولُ في الدنيا مَبْلَغاً يَوَدُّ أنْ يَفْتَدِيَ بهِ بِبَنيهِ وصاحبتِهِ وأخيهِ وأقْربائِهِ وجميعِ مَنْ في الأرضِ.

فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ لِيَحْمِلَ الناسَ على الإنابةِ إلى اللهِ تعالى والانْتِهاءِ[4] عمّا هُمْ عليهِ.

ثم بَدَأَ بِذِكْرِ البَنينَ والأقْرَبينَ، وانْتَهى بالأبْعَدِينَ. وحَقُّ هذا أنْ يَبْدَأَ بالأبْعَدِينَ، ثم يَخْتُمُ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ[5]، لأنَّ المَرْءَ قد تَسْخو نفسُهُ بِفِداءِ الأبْعَدينَ. ويَضِنُّ[6] بِبَذْلِ الأقربينَ فِداءً.

فإذا سَخَتْ أنفسُهُمْ في ذلكَ اليومِ بِفِداءِ البَنينَ والأقْرَبينَ فَلَأَنْ تَسْخُوَ بِفِداءِ الأبْعَدِينَ أحَقُّ وإذا كانَ كذلكَ فَغايَتُهُ التَّهويلُ والتَّفْزيعُ: أنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الأقاربِ، فكيفَ يَبْدَأُ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ؟

فَجوابُهُ مِنْ وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ إنما يَتَوَصَّلُ إلى فِداءِ أهلِ الأرضِ، إذا كانَ لهُ عليهِمْ مُلْكٌ، وكانوا بأجْمَعِهِمْ لهُ. وإذا كانوا جميعاً لهُ مُلْكاً كانَتْ شَفَقَتُهُ على مُلْكِهِ وأولادِهِ واحدةً، أو أكْثَرَ، فكما يَضِنُّ[7] بِبَذْلِ أولادِهِ، وأنْ يكونوا عنهُ فِداءً، فكذلكَ يَضِنُّ[8] بالأباعِدِ إذا كانوا جميعاً مُلْكاً لهُ. فلذلكَ اسْتَقامَ أنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الأقْرَبينَ قَبْلَ الأبْعَدِينَ؛ إذْ كلُّ ذلكَ يَسْتَوي في التَّهويلِ والتَّفْزيعِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][9]: جائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الأقْرَبينَ وذِكْرُ أهلِ الأرضِ ليسَ على جِهَةِ الأولَى، ولكنَّهُ ذَكَرَ الآحادَ ثم ذَكَرَ الجماعةَ لِيَعلَموا ألّا يَنْفَعَهُمُ الفِداءُ في ذلكَ اليومِ، وأنَّ الذينَ[لو][10] وَدُّوا الفِداءَ لِيَتَخَلَّصوا مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، لَاشْتَدَّ[11] عليهِمْ، ما فَدَوا، وإنْ كانَ ذلكَ مِلْءَ الأرضِ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه يصير شبيهاً. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٢٠. (٣) في الأصل وم: الآية. (٤) في الأصل وم: وانتهاء.
(٥) في الأصل وم: الأبعدين. (٦) في الأصل وم: ويظن. (٧) في الأصل وم: يظن. (٨) في الأصل وم: يظن. (٩) في الأصل وم: و.
(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: لا يشتد.

الآية ١٥ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ ردٌّ وتنبيهٌ ألا يُنجِيَهُ ذلكَ اليومُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ فاللَّظى[1] اسمٌ مِنْ أسماءِ النارِ، والشَّوى: قيلَ: هي مَكارِمُ خَلْقِهِ، وقيلَ: هي القوائمُ والأطرافُ، وقيلَ: هي الجُلودُ.

والأصلُ أنَّ نارَ جهنَّمَ [تَعْمَلُ بأصحابِها][2] كلَّ قَبيحٍ وكلَّ مُستَبْشَعٍ وكلَّ مُستَفْظَعٍ. فإنْ شِئْتَ صَرَفْتَ ذلكَ إلى الأرجُلِ، وإنْ شِئْتَ إلى الجُلودِ، وإنْ شِئْتَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، لأنَّ التَّقبيحَ في كلِّ ذلكَ موجودٌ، وهو كقولِهِ ﷺ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] فقيلَ [في تأويلِ][3] المُطَهَّرةِ وجوهٌ:

أحَدُها: أنهنَّ مُطَهَّراتٌ مِنَ العُيوبِ والآفاتِ. وجُمْلَتُهُ أنهُ ما مِنْ شيءٍ يُستَحسَنُ، ويُستَقبَحُ مِنْ خُلُقٍ أو نَفْسٍ أو معاملةٍ إلّا وهنَّ مُطَهَّراتٌ مِنْ ذلكَ، وما مِنْ شيءٍ يُستَبْشَعُ، ويُستَفْظَعُ إلّا وذلكَ في أهلِ النارِ موجودٌ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الدعاءُ منها على التَّحقيقِ، وهو أنْ يَجعَلَ اللهُ بِلُطْفِهِ[4] لِساناً، تَدْعو بهِ، أو يَخْلُقَ فيها الكلامَ مِنْ غيرِ لسانٍ، فتقولَ: إليَّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التمثيلِ، وهو أنها لا تَدَعُ أحداً يَفِرُّ عنها، ويَتَخَلَّصُ مِنْ عذابِها، فكأنها دَعَتْهُ إلى نفسِها.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي مَنْ كانَ أدْبَرَ في الدنيا عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عنِ الإجابةِ لرسلِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]. أي أعْرَضَ، أو أدْبَرَ عنْ توحيدِهِ، وتَوَلّى عنِ النَّظَرِ في حجتِهِ وفي ما جاءَ مِنْ عندِهِ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿أَدْبَرَ﴾ أي أدْبَرَ عنْ طاعةِ اللهِ ﷻ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي تَوَلّى الشيطانَ، مِنَ الولايةِ، وجائزٌ أن يكونَ أدْبَرَ في جَهنَّمَ /٥٩٦ - أ/ فَيُدبِرُ رجاءَ أنْ يَفِرَّ عنها، ويَتَولّى [وكذا لا][5] تَدَعُهُ النارُ لِيَفِرَّ عنها، بل تَغشاهُ عنِ الإعراضِ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

ولكنَّ هذا أقْرَبُ[6] مِنَ الأوّلِ لأنَّ مَنْ تَوَلّى عنْ ذِكْرِ اللهِ فقد تَوَلّى الشيطانَ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يُخبِرُ بقولِهِ: ﴿وَجَمَعَ﴾ على ما جُبِلَ عليهِ مِنْ شدةِ الحِرْصِ على الدنيا، فيكونُ الجَمْعُ كِنايةً عنِ الحِرْصِ، فَبَلَغَ بهِ هذا الحِرْصُ مَبْلَغاً أنْساهُ ذِكْرَ الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ فيهِ بَيانُ صِفَتِهِ في ما عليهِ مِنَ النهايةِ في البخلِ، فيكونُ الإيعاءُ كِنايةً عنِ البخلِ حتى لم يُؤَدِّ حقَّ اللهِ تعالى في مالِهِ، أو لم يَقُمْ بِشُكْرِ اللهِ تعالى مِنَ النِّعَمِ، أو بَلَغَ بهِ البخلُ مَبْلَغاً، مَنَعَهُ ذلكَ عنْ قَبولِ حقِّ اللهِ تعالى في مالِهِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ اختُلِفَ في تأويلِ الهَلوعِ مِنْ وجوهٍ، وكلٌّ يَرْجِعُ إلى مَعْنىً واحدٍ: فقالَ بعضُهُمْ: الطامعُ في اللذاتِ، الطالبُ لها، والكارهُ للأثقالِ، الهاربُ منها. وقيلَ: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي على حُبِّ ما يَتَلَذَّذُ بهِ والقيامِ[7] بطلبِهِ وبُغْضِ ما يَتألَّمُ بهِ والهَرَبِ عنهُ.

ومنهم مَنْ يقولُ: الهَلوعُ الضَّجورُ، وهو مُوافِقٌ للتأويلِ الأوّلِ، لأنَ الذي يَحمِلُهُ على الضَّجَرِ، هو ما يصيبُهُ مِنَ الألَمِ، فَيَضْجَرُ لذلكَ، أو يَضْجَرُ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى.

الآيتان ٢٠ و٢١ ومنهم مَنْ يقولُ: تفسيرُ ما ذَكَرَ على[8] إثْرِهِ مِنْ قولِهِ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ وهذا أيضاً مثلُ الأوّلِ لأنَّ الذي مَنَعَهُ [عنِ الخيرِ][9] شِدَّةُ حُبِّهِ إيّاهُ، والذي حَمَلَهُ على الجَزَعِ ما مَسَّهُ مِنَ الضُّرِّ والشَّرِّ، فَجَزِعَتْ نفسُهُ لذلكَ، لأنها أنشِئَتْ نافرةَ الضُّرِّ ومُبْغِضَةً لهُ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: الآية. (٢) في الأصل: بعمل أصحابها قبيح، في م: بعمل على أصحابها قبيح. (٣) ساقطة من الأصل وم.
(٤) في الأصل: باللطف. (٥) في الأصل وم: كذلك. (٦) في الأصل وم: قريب. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٩) في الأصل وم: على المنع.

وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وقالَ في مَوضعٍ آخرَ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أي لا يَسْخو على إخراجِ ما في يديهِ.

ففي هذهِ الآياتِ أنبأَ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذهِ الأحوالِ: قَتوراً عَجولاً هَلوعاً. فلما أُنْشِئَ على حبِّ ما يَنْفَعُهُ وبُغْضِ ما يَكْرَهُهُ، ويَتألَّمُ بِهِ، عَلِمَ أنهُ[١] خُلِقَ على هذهِ لِلْمِحنَةِ. فَمَنْ تَفَكَّرَ[٢] في ما وَعَدَ اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ لِمَنْ قامَ بوفاءِ ما أمَرَهُ بِهِ حَمَلَهُ ذلكَ على التسارُعِ في الخيراتِ [وتَرْكِ][٣] ما يُحِبُّهُ في الدنيا، يَسْأَلُ الموعودَ في الآخِرَةِ؛ إذْ هو في الأصلِ أُنْشِئَ مُحِبًّا لِما يَتَلَذَّذُ [بهِ][٤]. ومَنْ تَذَكَّرَ ما أُوعِدَ مِنَ العذابِ بِما يُعْطي نفسَهُ مِنَ الشَّهَواتِ مِنْ مَعاصي اللهِ تعالى وبِما يَمْنَعُ مِنْ حقوقِ اللهِ تعالى الواجبةِ في مالِهِ سَهُلَ عليهِ تَرْكُ الشَّهَواتِ، وخَفَّ عليهِ بَذْلُ ما طُلِبَ منهُ لئلَا يَحُلَّ بهِ ما يُنَغِّصُ عيشَهُ مِنَ الآلامِ والمكارِهِ.

والأصلُ أنَّ الإنسانَ، وإنْ كانَ مَطبوعاً على هذهِ الأخلاقِ الذميمةِ مِنَ البُخْلِ والإقتارِ والعَجَلَةِ، وجُبِلَ عليها، فقد مَلَكَ رياضةَ نفسِهِ[٥]، ويُمْكِنُهُ أنْ يَسْتَخرِجَها مِنْ تلكَ الطباعِ الذميمةِ إلى أضْدادِها مِنَ الأخلاقِ الحميدةِ والشمائلِ المَرضِيَّةِ، فَلَزِمَهُ القيامُ بذلكَ.

ألَا تَرَى أنه يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يقومَ بِرياضةِ الدوابِّ والسِّباعِ، فَيُخرِجَها بالرياضةِ عنْ طِباعِها التي أُنْشِئَتْ عليها مِنَ النِّفارِ عنِ الخَلْقِ والامْتِناعِ عنِ الانْقِيادِ حتى تَصيرَ مُنْقادةً لِلْخَلْقِ ذليلةً لهمْ، فَيَتَهَيَّأُ لهمُ الاسْتِمْتاعُ والتَّوَصُّلُ إلى مَنافِعِها؟

فكذلكَ الإنسانُ إذا قامَ بِرياضةِ نفسِهِ أمْكَنَهُ أنْ يُخرِجَها عنْ خِلْقَتِها، فَتصيرَ مُطيعةً لهُ، فَيَخِفَّ عليها بَذْلُ ما يُطْلَبُ منها، ويَسْهُلَ عليها تَحَمُّلُ ما كانَ يَشْتَدُّ عليها.

ثم الأصلُ أنَّ المرءَ، وإنْ جُبِلَ على حبِّ ما يَتَلَذَّذُ بهِ وبُغْضِ ما يَتَألَّمُ، ويَتَوَجَّعُ، فقد جُبِلَ أيضاً على تَرْكِ ما هو فيهِ مِنَ اللَّذَّةِ لِلَذَّةٍ هي أعظَمُ منها وعلى التَّصَبُّرِ لِاحتمالِ الأذى والمَكروهِ لِيَتَخَلَّصَ مِمّا هو أعظَمُ مِنْ ذلكَ المَكروهِ والألمِ.

وإذا كانَ كذلكَ فهو إذا قابلَ نَعيمَ الدنيا بِنَعيمِ الآخِرَةِ وأقْرَبَ اللَّذَّتَينِ بأبْعَدِهِما، فَرَأى لَذَّةَ[٦] الآخِرَةِ أعظَمَ وأبقى، خَفَّ عليهِ تَرْكُ أقْرَبِهِما لأبْعَدِهِما وأقَلِّهِما لأكْثَرِهِما، وإذا قابلَ مَكروهَ الدنيا بِمَكروهِ الآخِرَةِ وعذابِها[٧] بعذابِ الآخِرَةِ، فَرَأى عذابَ الآخِرَةِ أشدَّ وأبقى، خَفَّ عليهِ تَحَمُّلُ المكارِهِ في الدنيا، فهذا السببُ الذي ذَكَرْنا مِمّا يُتَوَصَّلُ بهِ إلى رياضةِ النفسِ، والذي يدلُّ على أنَّ المَرْءَ قد يَخِفُّ عليهِ تَحَمُّلُ الشدائدِ وتَرْكُ اللَّذّاتِ الحاضِرَةِ لِما يَأْمُلُ مِنَ اللَّذّاتِ الآجِلَةِ أنكَ تَرَى المَرْءَ قد يَهونُ عليهِ الضَّرْبُ في الأرضِ وقَطْعُ الأسفارِ وتَحَمُّلُ المُؤَنِ وركوبُ الأهوالِ والفَظائعِ والانْقِطاعُ عنِ اللذاتِ، كالذي يَخرُجُ للتِّجارةِ مِنْ بَلَدِهِ إلى بلادٍ نائيةٍ لِما يَرْجو مَنَ النَّفْعِ والرِّبْحِ في ذلكَ، فَيَتَحَمَّلُ ما يَمَسُّهُ مِنَ المَكارِهِ والمُؤَنِ لِما يَطْمَعُ مِنْ نَيلِ اللَّذاتِ التي تَرَكَها.

فَعَلى ذلكَ إذا تَفَكَّرَ في نعيمِ الآخِرَةِ، وتَفَكَّرَ في عِقابِها سَهُلَ عليهِ تَرْكُ اللَّذّاتِ الحاضِرَةِ، وخَفَّ عليهِ تَحَمُّلُ المَكارِهِ في الدنيا.

ووجهٌ آخَرُ أنهُ لمّا جُبِلَ على حُبِّ اللذاتِ وبُغْضِ المَكارِهِ، أُمِرَ أنْ يَجْعَلَ ما يُحِبُّهُ مِنَ العاجِلِ آجِلاً، فيكونَ شُغْلُهُ أبداً في ما يُوصِلُهُ إلى نعيمِ الآجِلِ، وأُمِرَ أنْ يَجْعَلَ هَرَبَهُ عنِ الآلامِ الآجِلَةِ [عاجلاً][٨] فَيَجْتَهِدَ في ما فيهِ التَّخَلُّصُ والنَّجاةُ مِنْ تلكَ الآلامِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٢ و٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: لأنَّ المُصَلِّينَ يقومونَ بِرياضةِ أنفسِهِمْ حتى يَصْرِفوها عنْ خِلْقَتِها التي أُنْشِئَتْ عليها، ثم بَيَّنَ أنَّ الذينَ [يقومونَ][٩] بِرياضةِ أنفسِهِمْ، هُمُ الذينَ

---

(١) في الأصل وم: أنها. (٢) في الأصل وم: تذكر. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: نفسها. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أنه. (٧) الواو ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

يقومونَ على صلاتِهِمْ، دُونَ الذينَ يقومونَ على الصلاةِ كُسالى، ولا يُداوِمونَ عليها، ولا يُنفِقونَ مِنْ أموالِهِمْ إلّا عنْ كَراهةٍ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ دَوامُهُمْ عليها في لُزومِ ما عَرَفوها، وهو أنْ يُقيموها في أوقاتِها، ويُحافظوا عليها، دونَ أنْ يكونَ دَوامُهُمْ أنْ يكونوا فيها أبداً.

ألا تَرَى إلى ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى أدْوَمُها، وإنْ قَلَّ»؟ [مسلم ٧٨٣/ ٢١٨] وأرادَ بقولِهِ: «أدْوَمُها» لُزومَها في الوقتِ الذي أوجبَ.

فَعلَى ذلكَ [﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾][1] لا أنْ يكونوا أبداً فيها، لأنهمْ إذا بَقُوا فيها أبداً كَثُرَ ذلكَ منهمْ، فلا يكونُ لقولِهِ: «وإنْ قَلَّ» مَعْنى فَثَبَتَ أنَّ مَعْنى الدَّوامِ ما وَصَفَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ المُداوَمَةِ، هو أنْ يدومَ على الأحوالِ التي تَليقُ بالصلاةِ عندَ كونِهِ فيها مِنَ الإقبالِ على المُناجاةِ وتَرْكِ الالْتِفاتِ وتَفْريغِ القَلْبِ مِنَ الأشغالِ والوَساوِسِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ هو التَّطَوُّعُ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الآية ٣٤ والأنعام: ٩٢] [هي][2] الفريضةُ[3]. وتصديقُهُ أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ كانوا إذا صَلَّوا صلاةً داموا عليها، وكانَ ﷺ يقولُ: «خيرُ الأعمالِ أدْوَمُها، وإنْ قَلَّ» [بنحوه مسلم: ٧٨٣/ ٢١٨].

وأصلُهُ: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧و. .] والإقامةُ على الشيءِ، هي الدوامُ عليهِ، لأنهُ إذا فَعَلَ الشيءِ مَرَّةً، ثم تَرَكَهُ، لم يُوصَفْ بالإقامةِ عليهِ.

فقولُهُ: ﴿دَآئِمُونَ﴾ و﴿وَيُقِيمُونَ﴾ [البقرة: ٣و. . .] يَقْتَضي مَعْنىً واحداً، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ الصلاةَ تُلْزِمُ فِعْلَها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وليسَتْ كالفرائضِ التي إذا أُدِّيَتْ مَرَّةً سَقَطَتْ مِنْ نَحْوِ الجهادِ والحَجِّ.

الآيتان ٢٤ و٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾][4] قيلَ: هو الزكاةُ؛ ذُكِرَ ذلكَ عنْ قَتادةَ.

وقالَ أبو بكرٍ: هذا غيرُ مُحْتَمَلٍ لأنَّ هذهِ الآياتِ مَكيةٌ، وإنما فُرِضَتِ الزكاةُ عليهِمْ بَعْدَ هجرتِهِمْ

ولكنْ ليسَ في ما ذَكَرَهُ دَفْعُ هذا التأويلِ: لأنهُ يجوزُ /٥٩٦ - ب/ أنْ تكونَ الزكاةُ، لم تُفرضْ عليهِمْ لِما لم يكونوا أصحابَ الأموالِ، لأنَّ الزكاةَ لم تَكُنْ مَفروضةً في الجملةِ وبَيَّنَ الوُجوبَ إذا اسْتَفادوا الأموالَ.

ألا تَرَى أنَّ الفقيرَ[5] قد يَعْلَمُ إيتاءَ الزكاةِ مِنَ المالِ، وإنْ لم يكُنْ لهُ مالٌ لِيَقومَ بأدائِها إذا صارَ مِنْ أهلِها؟ فقولُهُ تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي أعْلَمَهُ اللهُ [أنَّ لهُ حقّاً معلوماً][6] في أموالِهِمْ، فَلَزِمَهُمْ إخراجُهُ. ثم بَيَّنَ أنَّ خُروجَهُمْ ممّا لَزِمَهُمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تعالى في أموالِهِمْ بالدفْعِ إلى السائلِ والمحرومِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الحقُّ المعلومُ، هو حقُّ القرابةِ وغَيرُهُ. ومَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا الحَقَّ غَيرُ الزكاةِ قالوا: إنهمْ كانوا أعْلِموا أنَّ في أموالِهِمْ حَقّاً، فَجَعَلَهُ لِطائفةٍ منها للسائلِ وطائفةٍ لِلْمَحرومِ. لِذلكَ سَمّاهُ حَقّاً مَعْلوماً.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في ذلكَ الوقتِ شيئاً مَعْلوماً مَفْروضاً عليهِمْ في أموالِهِمْ، نَسَخَتْهُ[7] آيةُ الزكاةِ، ولم يَذْكُرْ لنا ذلكَ لِعَدَمِ حاجَتِنا إلى معرفتِهِ.

ثم السائلُ معروفٌ، وهو الذي يَسْألُ، وأمّا المحرومُ فقد رَوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سئلَ عنِ المَحْرومِ، فقالَ: «المَحْرومُ، هو الذي لا يَثْمُرُ[نَخْلُهُ، ويَثْمُرُ][8] نَخلُ الناسِ، ولا يَزْكو [زَرْعُهُ، ويَزْكو][9] زَرعُ الناسِ، ولا تَلْبُنُ شاتُهُ، وتَلْبُنُ شاةُ الناسِ» فَعَنَى[10] بالمحرومِ هذا: أنهُ حُرِمَ بَرَكَةَ مالِهِ.

---

(١) في الأصل وم: على أنفسهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: قال. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الفقر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: نسختا، في م: نسختها. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: له. (١٠) في الأصل وم: فعنوا.

وفي هذا الخَبَرِ دليلٌ على أنَّ المرءَ، لا يَصيرُ غَنِيّاً بِمُلْكِ النَّخيلِ والأرضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المحرومُ، هو الذي حِيلَ بَيْنَهُ وبَينَ وجوهِ المَكاسِبِ. فَمَنْ كانَ حالُهُ هكذا كانَ علينا أنْ نَتعاهَدَهُ، ونَقومَ بِكفايَتِهِ.

وقالَ الحَسَنُ: المَحْرومُ، هو الذي يَتَعَفَّفُ عنِ السؤالِ، وإنْ هَلَكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يومُ الجزاءِ ويومُ الحسابِ، فكلُّ مَنْ[1] عَرَفَ الجزاءَ وآمَنَ بهِ لم يَجْزَعْ بما يُصيبُهُ، ولا مَنَعَ الحقَّ الذي طُلِبَ منهُ، ولم يوصَفْ بأنهُ هَلوعٌ، وإنما الهَلوعُ، هو الذي يُكَذِّبُ بِيومِ الدينِ كما قالَ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ١و٢] فأخبَرَ أنَّ الذي يَدُعُّ اليتيمَ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣] هو الذي لا يُؤمِنُ بالآخِرَةِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي خائفونَ وَجِلونَ، وهمُ الذينَ قالَ [فيهِمْ][2] ﷻ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ وقيلَ لهُ: أهُمُ الذينَ يَسْرِقونَ، ويَزنونَ، ويَعْمَلونَ بالمعاصي؟ فقالَ: «لا بل هُمُ الذينَ يَقومونَ، ويُصَلّونَ، ويُؤتونَ الزكاةَ» أو كما قالَ بِلَفظِهِ ﷺ «وَوَجَلُهُمْ هو أنهمْ يَخافونَ ألّا تُقْبَلَ منهمْ [حَسَناتُهُمْ][3] أو يَخافونَ أنْ يكونوا قَصَّروا عنِ الوفاءِ بِشُكْرِ النِّعَمِ، أو غَفَلوا عنْ شُكْرِ كثيرٍ منها» [زاد المسير ٥/٣٢٧].

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ فهذا هو الحَقُّ ألّا يَأمَنَ أحدٌ مِنْ عذابِهِ، وإنْ دَأَبَ في عَمَلِهِ، واجْتَهَدَ في طاعتِهِ لِما [لا][4] يَدري على ماذا يُخْتَمُ أمْرُهُ، أو يَخافُ ألّا يُقْبَلَ منهُ، ويُرَدَّ عليهِ، أو يَخافُ أنْ يكونَ قد قَصَّرَ عنْ شُكْرِ كثيرٍ مِنَ النِّعَمِ، وغَفَلَ عنها.

والأصلُ أنهُ ما مِنْ أحدٍ يَنْظُرُ في أمْرِهِ وحالِهِ إلّا وهو يَرَى على نفسِهِ مِنَ اللهِ تعالى أنعماً؛ لو أجْهَدَ نفسَهُ لِيقومَ بِشُكْرِ واحدةٍ[5] منها لَقَصَّرَ في ذلكَ، ولم يَتَهَيَّأْ لهُ القيامُ بوفائِها.

فَمَنْ كانَ هذا وصفُهُ فأنّى يَقَعَ لهُ الأمْنُ مِنْ عذابِهِ؟ ويُؤخَذُ منهُ الوفاءُ بالأسبابِ التي يُؤمِنُ بها؟ إلّا أنْ يكونَ مِنَ الخاسِرينَ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ذَكَرَ حِفْظَ الفَرْجِ، ولم يَذْكُرْ بِمَ يُحْفَظُ؟ وحِفْظُهُ يكونُ بِخصالٍ:

أحَدُها: أنْ يَسْكُنَ في قلبِهِ جَلالُ اللهِ وهيبَتُهُ، ويَخْشَى عقابَهُ في المَعادِ.

والثاني: بِما جَعَلَهُ اللهُ ﷻ سَبَباً لِلتَّعَفُّفِ مِنَ النِّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ، فَيَمْنَعُهُ ذلكَ عنِ الزِّنَى وحِفْظِ الفَرْجِ.

والثالثُ: [بأنْ][6] يُجيعَ بطنَهُ بالصِّيامِ كما قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لم يَقْدِرْ على الباءِ فَلْيَصُمْ فإنَّ الصومَ لهُ وِجاءٌ» [البخاري ١٩٠٥].

والرابعُ: بما يَتْرُكُ النَّظَرَ إلى النساءِ، ولا يَخلو بهِنَّ، ويَدَعُ مُجالَسَةَ الفُجّارِ وأهلِ الرِّيبَةِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لكنا نَعْلَمُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أنهمْ لا يُلامونَ، لأنهمْ قد أباحَ لهمُ الاِسْتِمْتاعَ بِمَنْ مَلَكَتْ أيمانُهُمْ ومَنْ كانَ تَحْتَهُمْ بِمُلْكِ النِّكاحِ، ولا يجوزُ أنْ نُلْحِقَ اللائمةَ باسْتِعْمالِ المُباحِ المُطلَقِ. ولكنَّ فيهِ فوائدَ:

أحَدُها: أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يُحَرِّمُ الاِسْتِمْتاعَ بِمُلْكِ النِّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ، فَيُخْبِرُ أنهُمْ عندَ مَنِ اعْتَقَدَ الإيمانَ بالرسلِ غيرُ مَلومينَ، وإنما يُلامُ[7] مَنْ أنْكَرَ الرسالةَ، وهُمُ الثَّنَوِيَّةُ والبَراهِمَةُ.

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) و(٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: واحد. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يلزمهم.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: وإنْ مَنَعوا النساءَ عنِ الجِماعِ بِما هو خَيرٌ لهمْ مِنَ الصِّيامِ وأنواعِ القُرَبِ، لم تَلْحَقْهُمُ اللائمةُ كما يُلامُ مَنْ يَمْنَعُ آخَرَ عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وإذا اسْتَمْتَعوا بِمُلْكِ النِّكاحِ ومُلْكِ اليَمينِ لم يُبْلَوا بالزِّنى، فَتَلْحَقُهُمُ اللائمةُ بذلكَ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ العادي: هو الظالمُ في الحقيقةِ، يُقالُ: عَدا فلانٌ على فلانٍ إذا ظَلَمَهُ، فهمْ عادونَ حينَ[1] ظَلَموا أنفسَهُمْ، فَوَضَعوها في مَوضعٍ، لم يُؤذَنْ لهمْ بالوضعِ فيها.

وقالَ الحَسَنُ: همُ العادونَ حينَ[2] عَدَوا مِنَ الحَلالِ إلى الحَرامِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةُ تَحْريمِ المُتْعةِ لأنهُ أخبَرَ أنَّ مَنِ ابْتَغى وراءَ مُلْكِ اليَمينِ ومُلْكِ النِّكاحِ فهو إذَنْ مِنَ العادينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ فالأماناتُ لها وجهانِ:

أحَدُهما: ما ائْتَمَنَ اللهُ ﷻ عبادَهُ على مالَهُ مِنَ الحقوقِ عليهمْ

والثاني: [ما][3] ائْتَمَنَ بعضَهُمْ على الحقوقِ والعهودِ التي تَجْري بَينَ الخَلْقِ مِنَ الذِّمَمِ والنُّذورِ وغَيرِ ذلكَ، فَيَدْخُلُ فيهِ كلُّ أمانةٍ بَينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ وبَينَهُ[4] وبَينَ الخَلْقِ، وكلُّ عهدٍ أُخِذَ عليهمْ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] قيلَ في التأويلِ: العُهودُ. ثم بَيَّنَ ذلكَ، فقالَ: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [المائدة: ١٢] والعَهْدَ الذي أعْطَينا للعاهدينَ؛ فكلُّ ذلكَ داخلٌ تحتَ الآيةِ.

وقد يدخُلُ مَعْنى الأمانةِ في العَهْدِ والعَهْدِ في الأمانةِ، وقد يجوزُ أنْ يَقَعَ بَينهما فَرْقٌ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي يُقيمونَـها للهِ تعالى كقولِهِ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] [أي قائمينَ][5] بالوفاءِ بما عليهمْ مِنَ الشهادةِ، فيقومونَ لها، أحَبُّوا[6] أمْ كَرِهوا، ضَرَّهُمْ ذلكَ أمْ[7] نَفَعَهُمْ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المُحافظةُ على][8] الصلاةِ إقامَتُها في أوقاتِها بِشَرائِطِها. والذي يَحْمِلُهُمْ على المُحافظةِ على الصلاةِ ما يَخْشَونَ اللهَ تعالى، ولما جُعِلَتْ تكفيراً لِسَيِّئاتِهِمْ يرغبونَ[9] في إقامَتِها تكفيراً عنْ[10] سَيِّئاتِهِمْ.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ في الآيةِ إبانةُ أنَّ مَنْ يُكْرَمُ بالجِنانِ هؤلاءِ.

وذُكِرَ عنْ أبي بكرٍ الأصَمِّ أنهُ قالَ: في هذهِ دلالةُ أنَّ مَنْ وَفى بهذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَها في هذهِ السورةِ مِنَ الإدامةِ على الصلاةِ وإيتاءِ الحَقِّ المَعْلومِ والتصديقِ بِيَومِ الدينِ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، فهو الذي يُكْرَمُ بالجنةِ [ويُكْرَمُ][11] الخاطِئُ الذي يَرْجِعُ عنْ خَطيئَتِهِ، ويَتوبُ عنها.

فأمّا [غيرُ هذينِ فهو لا][12] يَسْتَوجِبُ الإكرامَ بالجنةِ. فما ذَكَرَ مِنَ الإكرامِ بالجنةِ لِلصِّنْفَينِ اللَّذَينِ ذَكَرَهما، فهو كما ذَكَرَ.

وأمّا الصِّنْفُ الثالثُ فهمُ الذينَ بُلُوا بالخَطيئاتِ/ ٥٩٧ - أ/ مِنْ أهلِ الإيمانِ، ولم يَتوبوا عنها، فقد تُرْجَى لهمْ هذهِ الكرامةُ بِعَفْوِ اللهِ ﷻ وكَرَمِهِ وجودِهِ.

ومَنْ كانَ هذا وصفُهُ لم يَيْأَسْ مِنْ إحسانِهِ، بل كانَ العَفْوُ منهُ مأمولاً والإحسانُ منهُ مَرْجُوّاً.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وبينهم. (٥) في الأصل وم: أو قائمون.
(٦) و(٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: محافظة. (٩) في الأصل وم: فيرغبون. (١٠) في الأصل وم: عنهم. (١١) في الأصل وم: و.
(١٢) في الأصل وم: على غير هذين فهؤلاء.

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ اختُلِفَ في تأويلِ الإهطاعِ. فمنهُمْ مَنْ يقولُ: هو الإسراعُ في المَشْيِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو إدامةُ النَّظرِ.

فَمَنْ حَمَلَهُ على الإسراعِ فَمَعناهُ أنَّ أئِمَّةَ الكُفْرِ كانوا يأتونَ رسولَ اللهِ ﷺ فَيَسْتَمِعونَ القرآنَ منهُ، ثم يُسْرِعونَ إلى أتباعِهِمْ، ويَجْلِسونَ حَلَقاً حَلَقاً، ويُحَرِّفونَ ما يَسْتَمِعونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ فإنْ كانَ الأمْرُ على هذا فَتَأويلُهُ: ما لهمْ يُسْرِعونَ إليكَ لِيَسْمَعوا كلامَكَ، ثم يَتَفَرَّقونَ عنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ، ويُكَذِّبونَكَ نَحْوَ أنْ يقولَ بعضُهُمْ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠و..] [ويقولوا][1]: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥و..] [ويقولوا][2]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] ونَحْوَ ذلكَ.

وأمّا المَنْفَعةُ لهمْ في طَعْنِهِمْ عليكَ [فهو اسْتِحْقاقُهُمُ] المَقْتَ والهَلاكَ بذلكَ مِنَ اللهِ تعالى. وما يَرْجونَ بإعراضِهِمْ عن تَصديقِكَ بَعْدَ ما رَأَوُا الآياتِ؟

ومَنْ حَمَلَهُ على النَّظَرِ فَمَعْناهُ أنهمْ كانوا يَجْلِسونَ مِنْ بَعيدٍ، فَيَنْظُرونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ، ويَطْعَنونَ عليهِ بالسِّحْرِ والافْتِراءِ [وأنهُ][3] مِنْ أساطيرِ الأوّلينَ، ويَمْكُرونَ بِمَنْ[4] يَقْتَدي برسولِ اللهِ ﷺ [وبِمَنْ لا][5] يُعاديهِ مِنَ الكَفَرَةِ.

فإنْ كانَ على هذا فَتَأويلُهُ كأنهُ يقولُ لهمْ: [مالهمْ][6] يَجْلِسونَ مِنَ البُعْدِ ناظرينَ إليكَ، ولا يَدْنونَ منكَ لِيَسْمَعوا ما أُنْزِلَ إليكَ، فَيَنْتَفِعوا بهِ؟ وإنَّهُمْ[7] مُتَفَرِّقونَ عنِ اليمينِ وعنِ الشِّمالِ، يَصُدّونَ الناسَ عنْ مَجْلِسِكَ، وقد عَلِموا أنَّ لهمْ إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ حاجةً؛ إذْ ليسَ عندَهُمْ كتابٌ ولا عِلْمٌ بالأنباءِ المُتَقَدِّمةِ لِيَعْلَموا أنكَ جِئْتَ بالعِلْمِ والحِكْمةِ دونَ السِّحْرِ والكَهانةِ.

فإنْ كانَ هذا الوجهُ فالعتابُ[8] لِمكانِ التَّحْريفِ والتَّبْديلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قولُهُ: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ حرفُ اسْتِفْهامٍ، وقد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ الاسْتِفْهامِ لِمَنْ[9] لا يَفْهَمُ إيجابٌ.

ثم اخْتُلِفَ في وجْهِ الإيجابِ: فمنهُمْ مَنْ يقولُ: مَعْنى قولِهِ: ﴿أَيَطْمَعُ﴾ أي لا يَطْمَعُ كلُّ امْرِئٍ بِعبادتِهِمُ الأصنامَ والأوثانَ أنْ يَدْخلوا جنةَ نَعيمٍ، إذ هُمْ مُنْكِرونَ لِلْبَعْثِ والجنةِ والنارِ. ثم مَعَ هذا يَنْصُرونَ الأصنامَ، ويَعْبُدونَها.

وإنْ كانَ لا طَمَعَ لهمْ في نَصْرِها إلى شيءٍ في العاقبةِ، ولا يَرْجونَ منها العواقبَ، فيكونُ في هذا ترغيبٌ للمؤمنين على القيامِ بِنَصْرِ رسولِ الله ﷺ، لأنهُمْ يَطْمَعونَ نَيلَ الجنةِ والكرامةَ مِنَ اللهِ تعالى والنجاةَ مِنَ النارِ بِنَصْرِهِمْ رسولَ الله ﷺ وبِعبادَتِهِمُ اللهَ تعالى؛ كأنهُ يقولُ: لا تَطْمَعونَ نَيلَ شيءٍ، ولا تَخافونَ مِنْ شيءٍ في العاقبةِ، ثم تَقومونَ بِنَصْرِ الأصنامِ. فأنتمْ أحقُّ بِنَصْرِ رسولِ الله ﷺ، إذْ تَطْمَعونَ نَيلَ الجنةِ والدخولَ فيها بِنَصْرِكُمْ إيّاهُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على إيجابِ الطَّمَعِ، وهو أنهمْ كانوا يَطْمَعونَ دخولَ الجنةِ ونَيلَ نَعيمِها إذا رَجَعوا إلى ربهِمْ ظَنّاً منهمْ أنهمْ إذا ساوَوُا المسلمينَ في نَعيمِ الدنيا وسَعَتِها، وكذلكَ يُساوُونَهُمْ في نَعيمِ الآخِرَةِ كما قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقالَ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

هكذا ظَنُّ الكَفَرَةِ: أنهمْ إنْ رُجِعوا إلى ربِّهِمْ فَيَجِدونَ عندَهُ خيرَ مُنْقَلَبٍ.

الآية ٣٩ فقالَ تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ فقولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ على هذا التأويلِ رَدٌّ لِاعْتِقادِهِمْ وقَطْعٌ لأطماعِهِمْ؛ فقالَ: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا يَدْخُلونَها قَطُّ. ثم اسْتَأنَفَ الكلامَ، فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: من. (٥) في الأصل وم: ومن. (٦) ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: لكنهم. (٨) في الأصل وم: والعتاب. (٩) في الأصل وم: ممن.

وعلى التأويلِ الأوّلِ: ﴿كَلَّآ﴾ بِمَعْنَى حقاً أنهمْ لا يَطْمَعونَ. ثم استَأْنَفَ بقولِهِ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي [مِنْ][١] تلكَ النُّطفِ، فَيُذَكِّرُهُمْ بهذا عظيمَ نِعَمِهِ وإحسانِهِ إليهِمْ: بِما أخرَجَهُمْ منها، ونَقَلَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ حتى صاروا بَشراً سَوِيّاً لِيَعْلَموا أنهُ[٢] لا يَتْرُكُهُمْ سُدًى، بل لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويَسْتَأْدِيَ منهمْ شُكْرَ ما أَنْعَمَ عليهِمْ، فَيوجِبُ ذلكَ تصديقَ الرسلِ.

وفيهِ تذكيرٌ بِقُدْرتِهِ وسلطانِهِ وبَيانُ ضَعْفِ اقْتِدائِهِمْ[٣] لِيَعْلَموا إنَّ مَنْ قدرَ على إنشائِهِمْ لقادرٌ على أنْ يُحْيِيَهُمْ بعدَ ما أفناهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ الآية؛ ذِكْرُ المَشارقِ والمَغاربِ ذِكْرُ السمواتِ والأرضِ، وفي ذِكْرِهما ذِكْرُ أهلِ السمواتِ والأرَضِينَ، فيكونُ مَعْناهُ: فلا أقسمُ بربِّ الخلائِقِ أجمعَ.

ويكونُ حرفُ: لا زائداً في الكلامِ تأكيداً للقَسَمِ على ما يُذْكَرُ، فيكونُ مَعْناهُ: فَلَأُقْسِمُ

ثم حقُّ هذا القَسَمِ أنْ يكونَ[٤] مَكانَ قولِهِ: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فَلَأُقْسِمُ بي إذا كانَ القَسَمُ مِنَ اللهِ تعالى. هذا هو ظاهرُ الكلامِ في مُتعارَفِ [أهلِ][٥] اللّسانِ. ولكنْ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ:

أحَدُهُما][٦]: أنْ يكونَ هذا القَسَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كأنهُ عَلَّمَهُ أنْ يُقْسِمَ بِهِ، ويقولَ لهُ: قُلْ يامحمدُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

[والثاني][٧]: إنْ كانَ هذا قَسَماً مِنَ اللهِ تعالى، فهو مستقيمٌ أيضاً مِنْ وجهَينِ:

أحدُهُما: على الإضمارِ؛ كأنهُ قالَ: فلا أُقْسِمُ بي، وأنا ربُّ المَشارِقِ والمَغارِبِ.

والثاني: وإنْ كانَ هذا القَسَمُ مِنَ اللهِ، فَيَسْتَقيمُ[٨] بلفظِ المُغايبةِ كما يَسْتَقيمُ بلفظِ الحاضِرِ، لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُ، للهِ شُهودٌ، وليسَ هو شاهدٌ لِلْخَلْقِ، فَيُخَرَّجُ الكلامُ بَيْنَهُمْ على ما يُخاطَبُ الغائبُ [مَرّةً][٩] ومَرَّةً على الوَجْهِ الذي يُخاطَبُ بِهِ الشاهدُ، ومثلُ هذا مُسْتَعْمَلٌ في مُتعارَفِ [أهلِ][١٠] اللّسانِ، واللهُ أعلَمُ.

وفي الآيةِ دلالةٌ على أنَّ مَلِكَ السمواتِ والأرَضِينَ ومُدَبِّرَهما واحدٌ، إذْ لو لم يكُنْ [واحداً][١١] لَكانَ لِمَلِكِ[١٢] السماءِ أنْ يَمْنَعَ الشمسَ والقَمَرَ والكواكبَ مِنْ إيصالِ النَّفْعِ إلى أهلِ الأرضِ، ويكونُ لِمَلِكِ الأرضِ أنْ يَمْنَعَ مَلِكَ السماءِ مِنَ الإغرابِ في الأرضِ.

ثم الذي يَشْرُقُ، ويَغْرُبُ منذُ خُلِقَ يَجْري على ما جَرَى عليهِ التَّدْبيرُ جَرْياً واحداً، لم يَقَعْ فيهِ تَغْييرٌ ولا تبديلٌ. ولو كانَ للهِ تعالى شَريكٌ لَكانَ لا بدَّ مِنْ وُقوعِ التَّغْييرِ فيهِ[١٣].

فَثَبَتَ أنَّ تَدْبيرَ السمواتِ والأرضينَ وتَدْبيرَ سُلْطانِهِما راجعٌ إلى الواحدِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا مَوضِعُ [جوابِ][١٤] القَسَمِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ أنْ يُبَدِّلَ الخيرَ منهم، فَيَجْعَلَ مَكانَ [الشَّرِّ خيراً][١٥] كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وقد فَعَلَ ذلكَ لأنهمْ أسْلَموا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أرادَ به ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم هذا يُخَرَّجُ على [وجوهٍ:

أحَدُها:][١٦] على تَحْقيقِ القُدْرةِ.

والثاني: أنْ يكونَ مَعْنَى القُدْرةِ إرادةَ الفِعْلِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أنهم. (٣) في الأصل وم: ابتدائهم. (٤) في الأصل وم: يقول. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وجوهما: أحدهما. (٧) في الأصل وم: و. (٨) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: ملك. (١٣) في الأصل وم: فيها. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل: ما كانوا من الشر والخير، في م: ما كانوا من الشر خيراً. (١٦) في الأصل وم: وجهين أحدهما.

أمّا الأوّلُ فَعلى وجهَينِ:

أحَدُهما: على مَعْنَى تَخويفِ أهلِ مكةَ، لأنهمْ إنْ لم يَنْتَهُوا عن ذلكَ يُنْزِلِ اللهُ تعالى مَكانَهُمْ مَنْ هو خَيرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

والبَدَلُ لا يكونُ إلّا بَعْدَ المُبْدَلِ منهُ، وقد فَعَلَ اللهُ تعالى ذلكَ بهمْ [إذْ][1] أهْلَكَ/ ٥٩٧ ـ ب/ المُعاندينَ منهمْ، وأبْدَلَ لِرسولِ اللهِ ﷺ أولادَهُمْ والمُهاجرينَ منهمْ والأنصارَ الذينَ آوَوا رسولَ اللهِ ﷺ ونَصَرُوهُ.

والثاني: أنا كنا قادرينَ على أنْ نَجْعَلَ المُرسَلَ إليهمْ خَيراً، إذْ قد عَلِموا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ، أنهُ[2]، هو الذي خَلَقَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ. لكنْ إنما أرسَلَ إليهِمْ، وأمَرَهُمْ لِحاجاتِ أنفسِهِمْ لا لِنَفْعٍ يَرْجِعُ إليهِ، ليسَ على ما عليهِ مُلوكُ الدنيا، لكنهُ إنما امْتَحَنَهُمْ بالأمْرِ لِيَسْعَوا في نَجاةِ أنفسِهِمْ، ونَهاهُمْ لِيَكُفّوا رقابَهُمْ عنِ النارِ، فيكونَ فيهِ تَسْكينُ قَلْبِ النَّبيِّ ﷺ عند وَجْدِهِ عليهمْ حينَ[3] لم يُؤمِنوا.

وأمّا الوجهُ [الثالثُ فأنْ][4] يكونَ مَعْنَى القُدْرةِ إرادةَ الفِعْلِ خاصّةً؛ إذْ يُكَنّى بالقُدْرةِ [عنِ الفِعْلِ، إذْ هي][5] سَبَبُ الفِعْلِ كالأمرِ المُعْتادِ بَينَ الخَلْقِ؛ يأمُرُ رجلٌ آخَرَ بِفعلٍ، فيقولُ: لا أسْتَطيعُ، ولا أقدِرُ، أي لا أفْعَلُ. وعلى هذا تأويلُ قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ أي لَفاعِلونَ ما[6] هو خَيرٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بَدَلاً عنْ هؤلاءِ.

فإنْ كانَ على هذا فيكونُ فيهِ بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ أنهُ يَجْعَلُ لهُ أصحاباً يَرْضاهُمْ، ويكونُ فيهِ إخبارُ اللهِ ﷻ لهُ بالنَّصْرِ والغَلَبةِ على المُكَذِّبينَ منهمْ، ويكونُ فيهِ إنباءٌ لِرسولِ اللهُ ﷺ أنهُ لا يَنْفُذُ فيهِ مَكْرُهُمْ، وإنْ اجْتَهَدوا، ويكونُ فيهِ إعلامٌ أنهُ يَنْتَقِمُ منهمْ لهُ، ويُعَذِّبُهُمْ.

وقد فَعَلَ ذلكَ كلَّهُ بِحَمْدِ اللهِ ﷻ واللهُ المُسْتَعانُ حينَ[7] بَدَّلَ على أهلِ مكةَ أهلَ المدينةِ، وكانوا خَيراً منهم لأنَّ أهلَ مكةَ، كانوا عليهِ، وأهلَ المدينةِ كانوا لهُ، فكانوا هُمْ [خَيرَ اللهِ][8].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ والمَسبوقُ المَغلوبُ؛ فكأنهُ قالَ: لا يَسْبِقُنا أحدٌ، ولا يُعجِزُنا أحدٌ عنْ ذلكَ، ولا يَفوتُنا ما نُريدُهُ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ قالَ أبو بكرٍ: الخائضُ المُتَحَيِّرُ، واللاعبُ الخاطئُ، فقولُهُ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي دَعْهُمْ في ما همْ منْ خطاياهُمْ وتَحَيُّرِهِمْ في دينِهِمْ؛ فكلُّ مَنِ اشْتَغَلَ بما لا يَحتاجُ له فُهو خائضٌ لاعبٌ.

وأصلُهُ أنَّ كلَّ امْرئٍ، لا عاقِبَةَ لهُ، تُحْمَدُ، فهو [في عَمَلِهِ] لاعبٌ لاهٍ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦] أي مَنْ يَعْمَلُ في الحياةِ الدنيا للدنيا لا لِلآخِرَةِ، فهو لاعبٌ لاهٍ.

وكأنَّ هذهِ الآيةَ صِلَةُ قولِهِ: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [الآية: ٣٦].

أمَرَهُ بألّا يَشْتَغِلَ بأولئكَ، ويُقْبِلَ على مَنْ يَرْجو منهمُ الإيمانَ، أو أمَرَهُ بألّا يَشْتَغِلَ بِمُكافأتِهِمْ بِسوءِ صَنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ سَيَنْصُرُهُ عليهِمْ، ويكافِئُهُمْ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ قد لاقوا ذلكَ اليومَ، وهو يومُ بَدْرٍ، وسَيُلاقونَ اليومَ الثانيَ، وهو يومُ الآخِرَةِ، بِتَرْكِهِمُ الإجابةَ، فَيُسارِعونَ في ذلكَ اليومِ إلى إجابةِ الداعي رَجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ.الذي حقَّ عليهِمْ بِتَرْكِ الإجابةِ. وذلكَ لا يَنْفَعُهُمْ، وإنْ وُجِدَتْ منهمُ التوبةُ والرجوعُ إلى[9] تلكَ الإجابةِ؛ لأنَّ ذلكَ اليومَ ليسَ بيومٍ تَنْفَعُ فيهِ الندامةُ والتوبةُ.

وإنما هو يومٌ تُجْزَى فيهِ كلُّ نفسٍ بِما كَسَبَتْ، وهذا كقولِهِ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وإنه. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل: الثالث أن، في م: الثاني أن. (٥) في الأصل وم: إذ هو. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) في م: خيراً. (٩) في الأصل وم: عن.

فأخبَرَ أنهمْ يَفْزَعونَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى لِما أيْقَنوا أنهمْ إنما حلَّ بهمُ البأسُ بإعراضِهِمْ عنِ الإيمانِ، فَفَزِعوا عندَ إيقانِهِمْ بالعذابِ إلى الإيمانِ رَجاءَ أنْ يَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ، فلم يَنْفَعْهُمْ ذلكَ، ولم يُغْنِهِمْ مِنْ عذابِ اللهِ شيءٌ؛ إذْ ذلكَ الوقتُ ليسَ بوقتِ قَبولِ التوبةِ. فيكونُ هذا تَحْريضاً [على الإسراعِ][1] إلى إجابةِ الداعي والإيمانِ بما يَدْعو إليهِ قَبْلَ أنْ يُؤْمِنوا إيماناً، لا يَنْفَعُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قُرِئَ بِنَصْبِ النونِ وجَزْمِ الصادِ؛ وهو اسْمُ العَلامةِ كالعَرْضِ وأشباهِهِ. وقُرِئَ بِضَمِّ [فسكونٍ][2] وهو اسْمٌ للضَّمِّ.

فإنْ كانَ على العَلامةِ، فَمَعناهُ أنهمْ يُسارِعونَ في ذلكَ الوقتِ إلى إجابةِ الداعي مُسارَعَةَ مَنْ يُسْرِعُ في هذهِ الدنيا إلى العَرْضِ والعَلامةِ المنصوبةِ. كذا قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ.

وذُكِرَ عنِ الكَلْبِيِّ: ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ إلى عَلَمٍ يَسْعَونَ. وقالَ قتادةُ: إلى عَلَمٍ يَسْتَبِقونَ، وعنْ مُجاهِدٍ: إلى عَلَمٍ يَنْطَلِقونَ.

فإنْ كانَ على الثاني فَمَعْناهُ أنهمْ يُسْرِعونَ إلى إجابةِ الداعي في ذلكَ كَسُرْعَتِهِمْ إلى عِبادةِ النُّصُبِ عندَ خُوفِهِمْ فَوتَ عِبادَتِها وعندَ اجْتِماعِ عُبّادِها [عندَما يَبْتَدِرونَ][3] نُصُبَهُمْ حتى يَسْتَلِموها.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ النُّصُبَ برفعِ النونِ والصادِ، هي الأعراضُ التي يَسْتَبِقونَ إليها. ومَنْ تأوَّلَ هذا فهو يَجْعَلُ النُّصُبَ ههنا جمعَ النَّصْبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يُوفِضُونَ﴾ أي يُسْرِعونَ. وقالَ الحسنُ: أي يَرْمُلونَ، وهما واحدٌ، لأنَّ الإسراعَ في الرَّمَلِ موجودٌ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا على بَصَرِ الوجوهِ، وَصِفَةُ خُشوعِها ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] فَتخْشَعَ خشوعاً، لا تَمْلِكُ صَرْفَ طَرْفِهِ عنِ الداعي. ففيهِ أنَّ الزِّلَّةَ قد أحاطَتْ بهمْ حتى أثَّرَتْ في الأعيُنِ والوجوهِ وفي كلِّ عُضْوٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على بَصَرِ القلوبِ، وهو أنَّ قلوبَهُمْ تَشْتَغِلُ بإجابةِ الداعي عنْ [أنْ][4] تُبْصِرَ لِنَفْسِها حِيلةً، تَتَخَلَّصُ [بها][5] مِنْ أهوالِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تَعلوهُمْ. والذِّلَّةُ الحالةُ في النفسِ، يَبْدو ظُهورُها[6] مِنَ الأبصارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ وحقُّهُ أنْ يقولَ: هذا اليومُ الذي كانوا يُوعَدونَ، لأنهُ أضافَ إلى اليومِ الذي كانوا يُوعَدونَ في الدنيا. ولكنْ كانوا يُوعَدونَ ذلكَ اليومَ في الدنيا، وذلكَ اليومُ في الوقتِ الذي كانوا يُوعَدونَ غَيرُ موجودٍ، فَيُعَبِّرونَ[7] بِهِ عما يُعَبَّرُ في الغائبِ[8]، واللهُ أعلم. [وصلّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][9].

---

(١) في الأصل وم: بالإسراع. (٢) ساقطة من الأصل وم، انظر معجم القراءات القرآنية ج ٧/ ٢٢٥و/ ٢٢٦. (٣) في الأصل وم: عندهما لو يبتردون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ظهوره. (٧) في الأصل وم: فيعتبر. (٨) في الأصل وم: الغالب. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

سورة نوح [عليه السلام](١)

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في ذِكْرِ نَبَإِ نوحٍ عليه السلام، دلالةُ رسالتِهِ وآيةُ نُبُوَّتِهِ. إنما ذَكَرْنا أنَّ هذا لم يكُنْ مِنْ عِلْمِهِ ولا عِلْمِ قومِهِ، ولم يَختلِفِ النَّبِيُّ ﷺ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمٌ بهِ، فَتَعَلَّمَهُ منهُ، فَعُلِمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَهُ لا بأحدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فيكون فيهِ إلزامُ الحُجَّةِ عليهِمْ.

وفيهِ إعلامُ رسولِ اللهِ ﷺ ما لَقِيَ نوحٌ عليه السلام/ ٥٩٨ ـ أ/ مِنْ قومِهِ، لِيُصَبِّرَهُ بذلكَ على أذى قومِهِ؛ إذِ السورةُ مكيَّةٌ.

ثم أمَرَهُ بالإنذارِ، ولم يَذْكُرْ معهُ البِشارةَ. فلِذلكَ(٢) قالَ نوحُ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية: ٢] ولم يَقُلْ بشيرٌ، وقد كانَ بَشيراً ونَذيراً.

فجائزٌ أنْ يكونَ اقْتَصَرَ على ذِكْرِ النِّذارةِ لأنَّ في ذِكْرِها ذِكْرَ البِشارةِ؛ وذلكَ أنهمْ إذا اسْتوجَبوا العذابَ، إذا داوَموا على ما هُمْ فيهِ مِنَ الضلالةِ وعبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، فهمْ إذا انْتَهَوا عنْ ذلكَ اسْتَوجَبوا العفوَ ووقوعَ البِشارةِ.

فإذا كانَ ذِكْرُ أحدِ الوجهَيْنِ يَقْتَضي ذِكْرَ الآخرِ اكْتَفَى بِذِكْرِ أحدِهِما عن ذِكْرِ الآخرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَصَّ النِّذارةَ بالذِّكْرِ لأنَّ الحالَ كانَتْ حالَ الإنذارِ، لأنهمْ كانوا مُعْرِضِينَ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى ومُقْبِلِينَ على عبادةِ غَيرِهِ، فكانوا مُسْتَوجِبِينَ لِلنِّذارةِ، ولم يكونوا مِنْ أهلِ البِشارةِ، و إنما يَصيرونَ مِنْ أهْلِها إذا انْتَهَوا عمّا هُمْ عليهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ إنْ داوَموا على ما هُمْ عليهِ.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المَرْءَ إذا أخَذَ غَيرَ طريقِ [الهُدَى](٣) فالسبيلُ فيهِ أنْ يُفْسِدَ مذهبَهُ، ثم إذا ظَهَرَ فَسادُهُ عندَهُ أمَرَهُ(٤) باتِّباعِ سَبيلِ الهُدَى، ويُبَيِّنَ لهُ الحُجَجَ والدلائلَ لِيَنْجَعَ فيهِ ذلكَ، ليسَ أنْ يَحتَجَّ عليهِ بالحُجَجِ [التي](٥) هي حُجَجُ مَذْهَبِ الحقِّ قَبْلَ أنْ يُبَيِّنَ لهُ فَسادَ ما هو فيهِ، فإنَّ ذلكَ لا يَنْجَعُ فيهِ، ولا يَدعُوهُ إلى قَبولِ الحقِّ والْتِزامِهِ. بل يُبَيِّنُ لهُ قُبْحَ ما هو فيهِ وفَسادَ ما اعْتَقَدَهُ.

فإذا أبانَ لهُ ذلكَ [فإنهُ](٦) يَحتاجُ إلى أنْ يَسْألَهُ عن سَبيلِ الهُدَى فيهِ لِيَعْرِفَهُ بالتَّعْليم.

ثم الأصلُ أنَّ الدنيا هي سَبيلُ الآخِرَةِ؛ والضلالُ سَبيلٌ يُفْضِي بِمَنْ سَلَكَهُ إلى العذابِ الدائمِ. والهُدَى سَبيلٌ يُفْضِي إلى الثوابِ الدائمِ.

فالنِّذارةُ، هي تَبْيينُ ما تَنْتَهي إليهِ عاقبةُ مَنْ يَلْزَمُ الضلالةَ، والبِشارةُ هي تَبْيينُ ما تنتهي إليهِ عاقبةُ مَنْ يَلْزَمُ الهُدَى. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: النِّذارةُ، هي أنْ تُبَيِّنَ عُسْرَ ما يَحُلُّ بهِ في العاقبةِ، والبِشارةُ، هي أنْ تُبَيِّنَهُ بما يَصيرُ إليهِ في العاقبةِ مِنَ اليُسْرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دلالةٌ أنَّ حُجَّتَهُ، لا تُلْزِمُ الخَلْقَ قبلَ أنْ يأتِيَهُمُ النَّذيرُ فلا يَخافونَ نُزولَ العذابِ بهمْ قَبْلَ أنْ يأتِيَهُمُ النَّذيرُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فكذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أمر له. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم.

دلَّ أنَّ الحُجَّةَ لازمةٌ عليهِمْ، وأنَّ اللهَ تعالى إنْ يُعَذِّبْهُمْ لِتَرْكِهِمُ التوحيدَ، وإنْ لم يُرسِلْ إليهِم الرُّسلَ فيكونُ تأويلُ قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] على عذابِ الاسْتِئْصالِ في الدنيا، ليسَ على عذابِ الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي مُبينٌ لِما يَقَعُ بِهِ الإنذارُ والتَّخويفُ، فتكونُ الإبانةُ مُنصَرِفةً إلى النِّذارةِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هذا الوصفُ راجعاً على نفسِهِ خاصّةً، كأنهُ قالَ: إني نذيرٌ لكمْ مُبينٌ أي إني لم أقُمْ في دعائي إيّاكُمْ إلى عبادةِ اللهِ تعالى وإنذارِكُمْ مِنْ عندِ نفسي، ولكنْ بِما اختَصَّني اللهُ تعالى ووَلّاني ذلكَ.

ثم الأصلُ في الإنذارِ نَهْيٌ، وفي النَّهْيِ أمرٌ، لكنَّ الإنذارَ يَقْضي نَهياً وَكِيداً، والنَّهْيُ الوَكِيدُ يَقْتَضي بالخلافِ أمراً وَكِيداً.

وأمّا البِشارةُ، فهي تَقْتَضي الأمرَ الوَكيدَ وغَيرَ الوَكيدِ، لأنهُ يَستَوجِبُ البِشارةَ بكلِّ خيرٍ يَفعَلُهُ، وإنْ كانَ للمرءِ تَرْكُ ذلكَ الخَيرِ بِخَيرٍ آخَرَ يأتي بهِ، فلا يُفْهَمُ بنفسِ البِشارةِ الأمرُ الوَكيدُ، ويُفهَمُ بِتَصْريحِ النِّذارةِ تاكيدُ الوَجْهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

وإذا كانَ كذلكَ فَمُطلَقُ البِشارةِ لا يَدُلُّ على تَحقيقِ النِّذارةِ؛ فهي تدلُّ على البشارةِ، لأنَّ النِّذارةَ على ما هو فيه في الفِعْلِ تُلْزِمُ النَّهْيَ، وإذا انْتُهِيَ عنهُ فقد حَصَلَ العَفْوُ، وفي حُصولِ العَفْوِ ارْتِفاعُ ما خُوِّفَ وذهابُهُ[١].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ فكأنهُ قالَ: أنْذِرْهُمْ على عبادةِ غيرِ اللهِ، ومُرْهُمْ بعبادةِ [مَنْ يستَحِقُّ العبادةَ، وهو][٢] اللهُ تعالى؛ إذِ الأمرُ بالإنذارِ يَقْتَضي النَّهْيَ عمّا عليهِ، وهو يَدْعو إلى خلافِهِ، وبَيَّنَ لهمُ الخِلافَ الذي يَدْعو إليهِ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾.

وقيلَ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وَحِّدوهُ.

وقالَ [عِكرِمةُ][٣]: كلُّ عبادةٍ جَرى بها الأمرُ في القرآنِ على الإرسالِ فهي مُنْصَرِفةٌ إلى التوحيدِ، فكأنَّ الذي حَمَلَهُ[٤] على هذا التأويلِ، هو أنَّ الآياتِ التي فيها أمرٌ بالعبادةِ نَزَلَتْ في أهلِ الكُفرِ، لأنهُ خاطبَ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ولم يُخاطِبْ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾. وإذا ثَبَتَ أنها في أهلِ الكُفرِ، والكافرُ أوّلُ ما يُؤمَرُ [بهِ التوحيدُ][٥] ليسَ يُخاطَبُ بعبادةٍ آخَرَ[٦] سِواهُ، لأنهُ ما لم يأتِ بالتوحيدِ لم يُقْبَلْ منهُ شيءٌ مِنَ العباداتِ، فَجَعَلَ[٧] تأويلَ العبادةِ التوحيدَ لهذا [لا لأنْ][٨] تكونَ العبادةُ [عبارةً][٩] عنِ التوحيدِ خاصّةً، بلِ العبادةُ: يُرادُ بها التوحيدُ مَرّةً إذا ذُكِرَتْ عُقَيبَ الكُفرِ [ومَرّةً][١٠] إذا ذُكِرَتْ في أهلِ الإيمانِ، فالعبادةُ منهمْ أنْ يَفُوا بِمُعاملةِ ما اعْتَقَدوهُ بالقولِ وأنْ يُنجِزوا ما وَعَدوا مِنْ أنفسِهِمْ.

وهذا كما ذَكَرْنا في إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ أنهما إذا ذُكِرَتا في أهلِ الكفرِ انْصَرَفَ المرادُ مِنْ ذلكَ على الاعْتِقادِ لا إلى الفِعْلِ لأنهمْ ليسوا مِنْ أهلِ الفِعْلِ، وإذا ذُكِرَتا في أهلِ الإسلامِ أُريدَ بالإقامةِ والإيتاءِ إيجادُ الفعلِ.

فكذلكَ الحكمُ في العِبادةِ لقولِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وَحِّدوهُ ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقُوا الإشراكَ في عِبادتِهِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في ما آمُرُكُمْ بهِ مِنْ توحيدِ اللهِ تعالى، وألّا تُشْرِكوا بهِ شيئاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقوا المَهالِكَ كلَّها، واتَّقوا النارَ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) الواو ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: هو، في م: من يستحق العبادة هو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حملهم. (٥) في الأصل وم: بالتوحيد. (٦) في الأصل وم: أخرى. (٧) في الأصل وم: فجعلوا. (٨) في الأصل: إلا أن، في م: لا أن. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: و.

[وقولُهُ][1] ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ إذا ذُكِرَ على الانفِرادِ ومُرْسَلاً اقْتَضى الانتِهاءَ عمّا فيهِ الهلاكُ، واقْتَضى الأمْرَ بالعِبادةِ والطاعةِ. وإذا جُمِعَ بَيْنَ العِبادةِ والتَّقوى كانتِ العِبادةُ انْصَرَفَتْ إلى إتيانِ الأفعالِ، وانْصَرَفَتِ التَّقوى إلى اتِّقاءِ المَهالكِ، وهو كما قُلْنا في البِرِّ والتَّقوى: إنَّ كلَّ واحدٍ منهما إذا ذُكِرَ مُفْرداً اقْتَضى ما يَقْتَضِيهِ الآخَرُ، وإذا جُمِعا في الذِّكْرِ صُرِفَ أحدُهما إلى جهةٍ والآخَرُ إلى جهةٍ أُخرَى، وكذلكَ الإسلامُ والإيمانُ إذا أُفْرِدَ ذِكْرُ[2] أحدِهِما، يكونُ مَعْنَى كلِّ واحدٍ منهما، هو مَعْنَى الآخَرِ، وإذا جُمِعا في الذِّكْرِ صُرِفَ كلُّ واحدٍ منهما إلى جهتِهِ على حِدَةٍ.

وقالَ الحَسَنُ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي اتَّقوا اللهَ في حقِّهِ أنْ تُضَيِّعوهُ، فهو يَجْمَعُ ما يُؤتَى وما يُتَّقَى.

ثم الأصلُ أنَّ الطاعةَ قد تكونُ لِمَنْ سَوَى اللهِ، والعبادةَ لا تكونُ إلّا للهِ تعالى. فلذلكَ قالَ عندَ الأمرِ بالعِبادةِ ﴿أَعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ فأضافَها إلى اللهِ تعالى، وأضافَ الطاعةَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ففيهِ دلالةُ أنْ ليسَ في الطاعةِ لآخَرَ إشراكٌ باللهِ تعالى في الطاعةِ، بلِ اللهُ تعالى جَعَلَ الإشراكَ في الطاعةِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وذَمَّ مَنْ يَعْدِلُ باللهِ تعالى في العِبادةِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فالعِبادةُ كأنها تَقْتَضي الخُشوعَ والتَّضَرُّعَ على الرجاءِ والخَوفِ، واللهُ تعالى هو الذي يُرْجَى منهُ، ويُخافُ مِنْ نِقْمَتِهِ. فأمّا الطاعةُ فهي تَقْتَضي فِعْلاً على الأمرِ، لا غَيرُ.

وعلى ذلكَ لمّا صَرَفَتِ الكَفَرَةُ الرجاءَ والخَوفَ إلى الأصنامِ بقولِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقولِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] سُمُّوا عُبّادَ الأصنامِ. فكلُّ مَنْ يَفْعلِ الفِعلَ/٥٩٨ ـ ب/ على الخوفِ والرَّجاءِ، فذلكَ منهُ عبادةٌ لهُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إنْ صَرَفْتَ قولَهُ: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ إلى اتِّقاءِ الشِّرْكِ يَرْجِعْ قولُهُ: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إلى ما سَلَفَ مِنَ الذنوبِ في حالةِ الشِّركِ كقولِهِ ﷺ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وإنْ صَرَفْتَهُ على سائرِ وُجوهِ المَهالكِ رَجَعَ إلى السالفِ وإلى الآنفِ جميعاً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. [هود: ١١٤] فيكونُ قولُهُ: ﴿مِّن﴾ صِلَةً على ما ذَكَرَ أهلُ التفسيرِ، ومَعْناهُ: يَغْفِرْ لكمْ ذُنوبَكُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مِّن﴾ [على][3] التَّحْقيقِ، وليسَ على حقِّ الصِّلَةِ، لأنهُ قد يكونُ مِنَ الذنوبِ [ذنوبٌ][4] يُؤاخَذُ بها بَعْدَ الإسلامِ، وهي التي تكونُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الخَلْقِ مِنَ القِصاصِ وغَيرِه؛ فالمأثَمُ بالقَتْلِ، وإنْ زالَ عنهُ بالتوبةِ، فإنَّ القِصاصَ لا يُرْفَعُ عنهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أولئكَ القومُ كانوا يَخافونَ على أنفسِهِمُ الإهلاكَ مِنْ قومِهِمْ بإيمانِهِمْ وإجابَتِهِمْ لِنوحٍ ﷺ فَيَخْرُجَ قولُهُ: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُخْرَجَ الأمانِ لهمْ: أنهمْ بإيمانِهِمْ يَبْقَونَ إلى الأجَلِ الذي ضُرِبَ لهمْ، لو لَمْ يُؤمِنوا؛ إذْ يكونُ مَعْناهُ: أنكمْ إنْ أسْلَمْتُمْ بَقِيتُمْ إلى انْقِضاءِ أجَلِكُمُ[5] المُسَمَّى سالمِينَ آمِنِينَ، لا يَتَهَيَّأُ لِعَدُوِّكُمْ أنْ يَمْكُروا بكمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كقولِهِ[6] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ اي لا يَتأخّرونَ عنْ آجالِهِمْ، أو لا يُؤَخَّرونَ بما يَطْلُبونَ مِنَ التأخيرِ، فيكونُ في هذا إياسٌ لهمْ أنهمْ لا يُؤَخَّرونَ إذا طَلَبوا التأخيرَ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: بذكر. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: أجالهم، في م أجالكم. (٦) في الأصل وم: وقال.

﴿مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠] فأخبرَ جَلَّ جلالُهُ أنَّ الموتَ إذا أتاهُ طلبَ التأخيرَ لِيُبَدِّلَ ما طَلَبَ منهُ البَدَلَ قَبْلَ ذلكَ مِنَ التَّصَدُّقِ والإيمانِ بهِ، فَقَطَعَ عنهمْ طَمَعَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١] وبقولِهِ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وبقولِهِ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وهذهِ الآيةُ تَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ[1]، لأنهمْ يقولونَ بأنَّ رجلاً لو جاءَ، وقَتَلَ[2] آخَرَ، فإنما قَتَلَهُ قَبْلَ انْقِضاءِ أجَلِهِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والأصلُ أنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ أنهُ يُقْتَلُ، فإنما يَجْعَلُ انْقِضاءَ أجَلِهِ بالقَتْلِ ليسَ بِغَيْرِهِ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يَجْعلَ انْقِضاءَ أجَلِهِ بموتِهِ حَتْفَ أنفِهِ، ثم يَنْقُضُ أصلَهُ بِغَيْرِ ذلكَ، لأنهُ لو جازَ هذا لأدّى ذلكَ إلى الجَهْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لو كُنْتُمْ تَعْلَمونَ ما يَحُلُّ بكمْ مِنَ الندامةِ عندَ انْقِضاءِ آجالِكُمْ لكُنْتُمْ تُبَدِّلونَ للحالِ ما ارْتَدَّ منكُمْ لئلّا يَحُلَّ بكمُ العذابُ، أو يكونُ مَعْنى قولِهِ: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ﴾ أي أجَلَ العذابِ إذا حَلَّ وَقَعَ، لا مَحالةَ، فلو عَلِموا بِوُقوعِهِ لا مَحالةَ لَارْتَدَعوا عنهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا من نوحٍ ﷺ بعد أنْ أُخْبِرَ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

فيكونُ القولُ منهُ قولَ مُعَذِّرٍ: إنهُ لم يُقَصِّرْ في دَعْوَةِ قومِهِ إلى الإسلامِ، وإنهُ قد دَعاهُمْ إلى الإسلامِ في كلِّ وقتٍ وحالٍ، وإنهُ قد أبْدى عُذْرَهُ في ذلكَ، وإنما جاءَ التَّفريطُ والتَّعَدّي مَنْ جهةِ قومِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا منهُ على الإشفاقِ والرحمةِ والتَّعَرُّضِ لِاسْتِنْزالِ اللِّينِ والرحمةِ، لعلَّ اللهَ تعالى بِلُطفِهِ يُلينُ قلوبَهُمْ، فَيَنْقادوا للحقِّ، ويَرْغبوا في الإجابةِ لِيَتَخَلَّصوا مِنَ العذابِ، ويَسْتوجِبوا[3] المَغْفِرَةَ مِنْ ربِّهِمْ. فهو يُخَرَّجُ على أحدِ هذينِ الوجهَينِ: إنْ كانَ قَبْلَ الإخبارِ، فهو على التَّعَرُّضِ منهُ لِاسْتِنْزالِ اللِّينِ والرَّحْمةِ، وإنْ كانَ بَعْدَهُ فهو على إبْداءِ العُذْرِ لا على الدُّعاءِ والرّجاءِ بأنْ يُلينَ قلوبَهُمْ بِلُطْفِهِ، فَيَنْقادوا للحقِّ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُخْبِرَ اللهُ تعالى أنهم لا يُؤْمنونَ، وهو يَطْمَعُ أنْ يُؤْمِنوا. ثم قولُهُ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي دَعَوْتُ في كلِّ وقتٍ وكلِّ ساعةٍ مِنَ الليلِ والنهارِ [ما][4] أمْكَنَني فيهِ الدعاءُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أصلُ هذا أنَّ عَداوتَهُمْ كانَتْ قدِ اسْتَبَدَّتْ بنوحٍ ﷺ وكانوا قدِ اسْتَثْقَلوهُ، وأبْغَضوا كلامَهُ، فَحَدَثَ لهمْ بِبُغْضِهِمْ[5] كلامَهُ واسْتِثْقالِهِمْ إياهُ مَعْنى حَمَلَهُمْ على الفِرارِ، فَنَسَبَ ذلكَ إلى الدُّعاءِ؛ لأنَّ حُدوثَ ذلكَ المَعْنى كانَ عندَ وجودِ الدُّعاءِ، فَنَسَبَهُ[6] إلى الدُّعاءِ على مَعْنى المُجاوَرةِ والقُرْبِ لا أنْ يكونَ الدُّعاءُ في الحَقيقةِ سَبَباً لِزيادةِ الفِرارِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥] والقرآنُ لم يُجْعَلْ سَبَباً لِزيادةِ الرِّجْسِ، ولكنَّهُمْ لما أحْدَثوا بُغْضاً عندما تُلِيَ عليهِمُ القرآنُ، فَحَدَثَ لهمْ بذلكَ مَعْنى حَمَلَهُمْ على ذلكَ الوجهِ، فأُضيفَتْ تلكَ الزيادةُ إلى القرآنِ، إذْ عندَ ذلكَ حَدَثَ ذلكَ السَّبَبُ الزائدُ في الرِّجْسِ، فَنُسِبَ إليهِ على مَعْنى المُجاورةِ، وكقولِهِ[7] تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠] وهُمْ لم يكونوا ناسِينَ[8]، بل كانوا ذاكِرينَ[9]، يَذْكُرونَهُم مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ، لكنَّ بُغْضَهُمْ إياهُمْ واتِّخاذَهُمْ سِخْرِيًّا أوقَعَ لهمُ النِّسْيانَ، فَنَسَبَ إليهِمُ الإنساءَ[10].

فَعَلى ذلكَ لمّا أبْغَضوا، واسْتَثْقَلوا كلامَهُ ودعاءَهُ أحْدَثَ لهمْ ذلكَ البُغْضُ زيادةَ نِفارٍ وجُحودٍ. ثم سَبَبُ النِّفارِ إلى الدعاءِ الوجهُ الذي ذَكَرْنا لا[11] أنْ يكونَ الدعاءُ في الحقيقةِ مُنَفِّراً[12].

---

(١) في الأصل: قوله. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: ليس بغيره. (٣) في م: ويستوجب. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في م: بغضهم. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: منسيين. (٩) في الأصل وم: مذكورين. (١٠) في الأصل وم: الأشياء. (١١) في الأصل وم: إلا. (١٢) في الأصل وم: منفر.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾. كقولِهِ[1] تعالى في موضعٍ آخرَ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] فيجوزُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في ما يدعونَ رُؤساءَهُمْ وأشرافَهُمْ والأجِلَّةَ منهم. فإذا دعوهُمْ ردُّوا أيديَهُمْ في أفواهِ الأنبياءِ ﷺ وضربوهُمْ على ما ذُكِرَ في الأخبارِ.

وأمّا الأتباعُ والمُقلَّدونَ لهمْ كانوا يَجعَلونَ أصابعَهُمْ في آذانِهِمْ، ويُغطّونَ وجوهَهُمْ ورؤوسَهُمْ كي لا يَسْمَعوا كلامَهُ، فيقَعَ شيءٌ منهُ[2] في قُلوبِهِمْ، لِما حذَّرَهُمْ رؤساؤُهُمْ منْ ذلكَ.

أو يكونُ هذا في طائفةٍ منهمْ، وهذا في طائفةٍ، إذا كانَ أَيِسَ مِنْ قومٍ، وأقْبَلَ على آخرينَ، فاخْتَلَفَتْ مُعاملتُهُمْ معهُ على ما كانَ مِنْ أمرِ نَبيِّنا محمدٍ ﷺ ثم هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على تَحقيقِ ما ذَكَرْنا لِيُؤْيِسوهُ[3] مِنَ الإجابةِ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ، فضَرَبَ مَثَلَهُمْ في تَرْكِهِمُ الإجابةَ مَثَلَ مَنْ جَعَلَ أصابعَهُ[4] في أُذُنَيهِ، واسْتَغْشى ثيابَه لئلّا يَسْمَعَ، ولا يُجيبَ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولم يُوجَدْ منهمْ نَبْذٌ، ولكنهمْ أعْرَضوا عنهُ إعراضَ مَنْ نَبَذَهُ وراءَ ظَهْرِهِ. وكذلكَ قولُهُ[5] ﷻ: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] على التمثيلِ، وهو أنهمْ تَرَكوا الإجابةَ /٥٩٩ ـ أ/ إلى ما دُعُوا إليهِ تَرْكَ إجابةِ[6] الذي يَرُدُّ يَدَهُ في فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ أي صاحوا في وجوهِ الأنبياءِ ﷺ ردّاً عليهِمْ أو مُغالَبةً في الدعاءِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي اسْتَكْبَروا عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وامْتَنَعوا عنِ الإجابةِ لرسولِهِ ﷺ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ففي هذا إخبارٌ أنهُ دعاهُمْ إلى عبادتِهِ ﷻ في كلِّ وقتٍ، تَهَيَّأَ لهُ منْ ليلٍ أو نهارٍ، ولم يُقَصِّرْ فيها، ودعاهُمْ في كلِّ وقتٍ رَجاءَ الإجابةِ منهمْ.

ويَحْتَمِلُ: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي إذا بَعُدوا مني، وازْدَحَموا، وكَثُروا، فَدَعاهُمْ جِهاراً، لِيُعَلِّمَهُمُ الدعوةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ إذا قَرُبوا منهُ، وقَلُّوا. فلما أدْخَلوا أصابِعَهُمْ في آذانِهمْ، واسْتَغْشَوا ثيابَهُمْ، أعْلَنَ في الدعاءِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ الجَهْرُ والإسرارُ مُنْصَرِفاً إلى الدعوةِ، ويكونَ الجَهْرُ والإسرارُ بالحُجَجِ وإظهارِ البيِّناتِ، وإلى هذا يذهبُ أبو بكرٍ الأصَمُّ..

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ فالاسْتِغْفارُ طَلَبُ المَغْفِرَةِ بما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [الآية: ٣] فيكونُ هذا منهُ أمراً لهمْ بإتيانِ الإيمانِ الذي هو سَبَبُ المَغْفِرَةِ، لا أمْراً بِسُؤالِ المَغْفِرَةِ نَفْسِهِ مِنَ اللهِ تعالى؛ إذِ اسْتِغْفارُ كلِّ قومٍ يَرْجِعُ إلى أحوالِهِمْ:

فإذا كانوا كَفَرَةً فهو إيمانٌ باللهِ تعالى، وإنْ كانوا أصحابَ ذنوبٍ فالتوبةُ إلى اللهِ تعالى ﷻ وإنْ كانوا مُخْلِصينَ، فَمِمّا سَلَفَ مِنْ ذُنوبِهِمْ ممّا يَعْلَمونَها ونَحْوِ ذلكَ.

الآيتان ١١و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فَيَحْتَمِلُ أنَّ ما قالَ هذا لأنهمْ كانوا في شدةِ عيشٍ وضيقِ حالٍ، فَوَعَدَ أنهمْ إنِ انْتَهَوا عنِ الكُفْرِ، وأجابوا إلى ما يَدْعوهُمْ إليهِ غَفَرَ اللهُ لهمْ ذنوبَهُمْ، وأرسلَ السماءَ عليهِمْ مِدْراراً، فَيَتَوَسَّعُوا بهِ على ما قالَ بهِ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ اللهَ تعالى قد حَبَسَ عنهمْ

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: منها. (٣) في الأصل وم: ليؤيسهم. (٤) في الأصل وم: إصبعه. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (٦) في الأصل وم: الإجابة من.

المَطَرَ، وعَقِمَتْ أرحامُ نِسائِهِمْ، وهَلَكَتْ مواشيهِمْ وجَنّاتُهُمْ لِتَمامِ أربعينَ سنةً، ثم أُهلِكوا بعدَ ذلكَ، وكانوا كلُّهُمْ كُفّاراً، ليسَ فيهِمْ صغيرٌ. ولذلكَ كانَ نوحٌ ﷺ يَعِدُهُمْ.

[ويَحتَمِلُ أنْ يكونوا خافوا انْقِطاعَ النِّعْمَةِ عنهمْ والإجابةَ وزوالَ السَّعَةِ عنهمْ بالإسلامِ][١] ومِنَ الناسِ مَنْ يَتْرُكُ الإيمانَ خَشْيَةَ هذا، فأخبرَ ﷺ أنَّ الذي هُمْ فيه مِنْ رَغَدِ العيشِ لا يَنْقَطِعُ عنهمْ بالإسلامِ، بل يُرْسِلُ عليهمُ المَطَرَ مِنَ السماءِ مِدْراراً مُتَتابِعاً، ويُمْدِدْهُمْ[٢] بأموالٍ وبَنينَ معَ ما يَجْعَلُ لهمْ مِنَ الجِنانِ والأنهارِ.

لكنَّ ذوي[٣] الألبابِ والعقلاءَ يَنْظُرونَ[٤] إلى حُسْنِ العاقبةِ وما [عليهِ مآلُ الأمرِ][٥] دونَ الحالِ، فذلكَ الذي يُرَغِّبُهُمْ[٦] فيهِ. ولذلكَ اختَلَفَتْ دعوةُ النبيِّ ﷺ لِأُمَّتِهِ [فمنهُمْ][٧] مَنْ بَشَّرَهُ بِكَثْرَةِ أموالِهِ وبَنيهِ، ومنهمْ مَنْ رَغَّبَهُ في آخِرَتِهِ [بقولِهِ تعالى][٨]: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] وقولِهِ[٩] تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية [آل عمران: ١٥].

ونَظيرُ الأوَّلِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ بُعِثوا مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ داعينَ زاجِرينَ مُحْتَجِّينَ مُدْحِضينَ؛ فَبِما يَتْلُونَ[١٠] عليهِمْ مِنْ أنباءِ الأوَّلينَ دَخَلَ فيهِ[١١] جميعُ الأوجهِ الثلاثةِ، إذِ النِّذارةُ والبِشارةُ مَرَّةً تَقَعُ بالابْتِداءِ ومَرَّةً بما يَنْزِلُ بالمُتَقَدِّمينَ المُصَدِّقينَ منهمْ والمُكَذِّبينَ: أنْ كيفَ كانَتْ عواقِبُ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

وكذلكَ الدعاءُ، والرحمةُ تكونُ مَرَّةً بابْتِداءِ الدعاءِ، والزجرُ يكونُ[١٢] بِذِكْرِ الأُمَمِ السالفةِ وأنَّ الرسُلَ كيفَ كانوا يدعونَهُمْ ثانياً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: كيفَ لا تَرْجونَ للهِ ثواباً، فَتَعْبُدوهُ، فَيُثيبَكُمْ بها؟ وقد عَلِمْتُمْ أنَّ الخيرَ كلَّهُ في يَدِهِ وأنَّ الذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ، لا يَمْلِكونَ لكمْ نَفْعاً، ولا يَدْفَعونَ عنكُمْ ضُرّاً، فَجَعَلَ قولَهُ: ﴿وَقَارًا﴾ مكانَ عبادةٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ غيرُهُ: ما لكُمْ لا ترجونَ لأنفسِكُمْ عندَ اللهِ مَنْزِلةً وشَرَفاً وقَدْراً؟ وقالَ بعضُهُمْ: أي ما لكمْ لا تخافونَ عَظَمَةَ اللهِ وقُدْرَتَهُ عليكُمْ، فَتَنْتَهوا[١٣] عمّا نهاكُمْ، وتأتوا[١٤] ما أمَرَكُمْ بِهِ؟.

وحَمْلُ الرجاءِ على الخَوفِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الرجاءَ المُطْلَقَ يَقْتَضي الخَوفَ والرجاءَ جميعاً، وكذلكَ الخوفُ المُطْلَقُ يَقْتَضي الرجاءَ، واللهُ أعلَمُ.

والأشْبَهُ بالتأويلِ عندَنا أنَّ الرجاءَ للهِ تعالى على مآلِ الغَضَبِ للهِ والحُبِّ للهِ والبُغْضِ للهِ، أي ما لكُمْ لا تَسْعَونَ سَعْيَ مَنْ يرجو ممّا عندَ اللهِ على الوَقارِ والهَيبةِ بعدَ أنْ شاهدتُمْ مِنَ نِعَمِ الله تعالى وإحسانِهِ إليكُمْ مِنْ خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وتَسْخيرِ الشمسِ والقَمَرِ وما ذَكَرَ مِنْ مِنَنِهِ في الآياتِ التي يَتْلوها؟

وذلكَ أنَّ المرءَ إذا سَعَى لآخَرَ على [غيرِ][١٥] رجاءٍ، أو لم يَرْجُ أحداً، اسْتُحْقِرَ بِهِ.

فألزَمَهُمْ نوحٌ ﷺ سَعْيَ مَنْ يَرْجوهُ على التَّوقيرِ والهَيبةِ على ما عليهِ في الشاهدِ أنَّ الساعيَ للملوكِ والكُبَراءِ على الرجاءِ كيف يكونُ [منهُ تَوقيرُهُ][١٦] إياهُمْ وهيبَتُهُمْ لَهُ[١٧] والله أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فَمَنْ حَمَلَ قولَهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ على حَقيقةِ الرجاءِ فتأويلُهُ:

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: ويمددكم. (٣) في الأصل: ذوو، في م: ذوا. (٤) في الأصل وم: ينظر. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إليه مودة. (٦) في الأصل وم: يرغبه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقال. (١٠) في الأصل وم: يتلوا. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: فيهم. (١٣) في الأصل وم: فتنتهون. (١٤) في الأصل وم: وتأتون. (١٥) من م، ساقطة من الأصل. (١٦) في الأصل وم: منهم توقيرهم. (١٧) في الأصل وم: عليهم.

كيفَ لا ترجونَ أنْ يعظُمَ قدرُكُمْ عندَ اللهِ ﷻ، إذا أجَبْتُمْ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ، وفي ما ذَكَرَ مِنْ خَلْقِهِ إيّاهُمْ أطواراً تذكيرٌ لهمْ حُسْنَ صَنيعِهِ لهمْ في ما قَلَّبَهُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأهُمْ إلى حالِهِمُ التي هُمْ فيها، وكيفَ لا يَرْجونَ إحسانَهُ في حادثِ الأوقاتِ إذا أقْبَلوا على طاعتِهِ، واشْتَغلوا بِعبادتِهِ؟

وإنْ كانَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟ على الخوفِ ففي ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ تذكيرُ العَظَمةِ والسلطانِ والقُدْرةِ، وهو انهُ [خَلَقَكُمْ][1] ويَراكُمْ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ، ولم تَخْفَ عليهِ أحوالُكُمْ فيها، بل قَلَّبَكُمْ مِنْ حالٍ إلى حالٍ كيفَ شاءَ، فكيفَ تَخْفى عليهِ أفعالُكُمْ في حالِ بُروزِكُمْ وظُهورِكُمْ؟ فيكونَ في ذِكْرِ هذا تَنْبيهٌ أنّ اللهَ تعالى، لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أعمالِ الخَلْقِ، فَيَدعُوَ ذلكَ إلى المُراقبةِ، ويُلْزِمَ التَّيَقُّظَ والتَّبَصُّرَةَ في كلِّ حالٍ لئلا يَتَعَدّى [أحدٌ][2] حُدودَ اللهِ، ولا يُضيعَ حقوقَهُ، فَيَحُلَّ بِهِ البَوارُ والهلاكُ.

فإذا حُمِلَ التأويلُ على الرجاءِ كانَ فيهِ تَذْكيرُ عَظيمِ نِعَمِهِ عليهِمْ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأهُمْ إلى الوقتِ الذي انْتَهَوا إليهِ، فَيَحمِلُهُمْ ذلكَ على طَلَبِ ما يُشَرِّفُ قَدْرَهُمْ عندَ اللهِ تعالى، وتُحْمَدُ عاقبتُهُمْ.

وإنْ حَمَلْتَهُ على الخوفِ كانَ فيهِ تَذْكيرُ القُدرةِ والسلطانِ، فَيَحْمِلُهُمْ على المُراقبةِ والاتّقاءِ في حادثِ الأوقاتِ.

ومَنْ حَمَلَ قولَهُ ﷻ: ﴿وَقَارًا﴾ على العبادةِ فهو يُخَرَّجُ على غَيرِ الوجهَينِ اللّذينِ ذَكَرْناهما في الخَوفِ والرجاءِ إذا صَرَفَ إليهِما التأويلَ؛ كأنهُ يقولُ: إنَّ الذي خَلَقَكُمْ أطواراً، قد تَعْلَمونَ أنهُ حكيمٌ [ومَنْ هو حكيمٌ][3] لا يَسْفَهُ [ومَنْ][4] تَرَكَكُمْ سُدًى لا يَأمُرُكُمْ، ولا يَنْهاكُمْ، ولا يَسْتأدي منكُمْ شُكْرَ النِّعَمِ، سَفِهَ. فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَرْغيبٌ في العبادةِ وإخلاصِ الطاعةِ، ويكونُ في ذِكْرِ هذا أيضاً تَثْبيتُ الرُّبوبيَّةِ وإلزامُ القَولِ/ ٥٩٩ ـ ب/ بالوَحدانيَّةِ، لأنهُ أنْشَأهُمْ مِنْ أوّلِ ما أنْشَأهُمْ نُطْفةً ثم عَلَقَةً ثم مُضْغَةً إلى أنْ خَلَقَهُمْ بَشَراً سَوِيّاً.

فلو لم يَكُنِ المُدَبِّرُ والمُنْشِئُ واحداً لَكانَ يَعْجِزُ عنْ تَقْليبِهِ مِنْ حالٍ على حالٍ، لأنهُ إذ أرادَ أنْ يُنْشِئَ مِنَ النُّطْفَةِ عَلَقَةً ومِنَ العَلَقَةِ مُضْغَةً كانَ للآخَرِ أنْ يَمْنَعَهُ عنْ تَدْبيرِهِ، فلا يَتَهَيّأُ لهُ إنشاءُ عَلَقَةٍ ولا مُضْغَةٍ.

فارْتِفاعُ المانعِ دليلٌ على أنْ لا مُدَبِّرَ سِواهُ، ولا خالقَ غَيرُهُ. فإذا ثَبَتَ [انْفِرادُهُ بِما ذَكَرْنا ثَبَتَ][5] أنهُ هو المُسْتَحِقُّ لِلعبادةِ مِنَ الخَلائقِ.

وقالَ بعضُهُمْ: مَعْنى قولِهِ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي بِمُخْتَلَفِ الأخلاقِ والصُّوَرِ والألوانِ والألفاظِ والأصواتِ والنِّعَمِ حتى لا تَرَى أحداً يُشْبِهُ آخَرَ بِجميعِ خِلْقَتِهِ. وهذا مِنْ عَظيمِ ما يُسْتَدَلُّ بِهِ على قُدْرةِ اللهِ وحِكْمتِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ قد ذَكَرْنا أنّ قولَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يَقْتَضي تَذْكيرَ أمرٍ عَرَفوهُ، فأغْفَلوا عنهُ؛ فقد يَقْتَضي تَذْكيرَ أُعجوبةٍ، لم يَسْبِقْ مِنَ الخَلائقِ العلمُ بها؛ يقولُ: قد رَأوا أنهُ خَلَقَ سَبْعَ سَمواتٍ طِباقاً بِغَيرِ علائِقَ فَوقَها ولا أعْمِدَةَ تَحْتَها، ومَنْ قَدَرَ على مِثْلِهِ قادرٌ على خَلْقِ كلِّ ما يُريدُ، فيكونُ فيهِ إيجابُ القَبولِ بالبَعْثِ؛ إذْ إعادَتُهُمْ ليسَتْ بأعْسَرَ مِنْ خَلْقِ السمواتِ في تَقْديرِ عقولِكُمْ. ومَنْ قَدَرَ على خَلْقِهِنَّ قادرٌ على البَعْثِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ منهمْ مَنْ يَذْكُرُ أنهُ جَعَلَهُ نوراً في السماءِ الدنيا، وأضافَهُ إلى جُملةِ السمواتِ. وقد يجوزُ أيضاً أنْ يُضافَ الشيءُ إلى العَدَدِ، وإنْ لم يَكُنْ يوجدُ ذلكَ إلا في البعضِ؛ يُقالُ: في سبعِ قبائلَ مَسْجِدٌ واحدٌ، والمَسْجِدُ إذا كانَ واحداً، فهو لا يكونُ في سَبْعِ قبائلَ، وإنما يكونُ في قَبيلةٍ واحدةٍ، ويقالُ: فلانٌ يَتَوارَى في دورِ قومٍ[6]، وهولا يكونُ مُتوارِياً في واحدةٍ منهنَّ، ثم أُضيفَ التَّواري إلى الجملةِ فكذلكَ أضافَ نورَ القَمرِ إلى السمواتِ السَّبْعِ، وإنْ كانَ القمرُ في سماءٍ واحدةٍ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) أدرج في الأصل بعدها: وهو لا يكونُ متواريا في دور قوم.

ومنهم مَنْ ذَكَرَ أنَّ نورَ القَمَرِ قد أحاطَ بجميعِ السمواتِ، وزَعَمَ أنَّ وَجْهَهُ إلى السمواتِ، وظَهْرَهُ إلى أهلِ الأرضِ، ولهذا ما يَعْمَلُ عليهِ السَّواتِرُ مِنَ السحابِ وغيرِها. فأمّا نورُ وَجْهِهِ فإنهُ لا يَسْتُرُهُ شيءٌ مِنَ السَّواتِرِ. لكنَّ هذا إنما يُعْرَفُ بالخَبَرِ. فإنْ صَحَّ عنْ رسولِهِ ﷺ خَبَرٌ فذلكَ حَقٌّ[1]، وإلّا فالإمساكُ عنْ مِثْلِهِ أحَقُّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ذَكَرَ السِّراجَ ههنا مكانَ الضوءِ وفي[2] موضعٍ آخَرَ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥] فَذَكَرَ في القمرِ النورَ[3] وفي الشمسِ الضِّياءَ لأنَّ القَمَرَ يكونُ في وقتِ الحاجةِ إلى النورِ، وذلكَ في ظلمةِ الليلِ. ثم اللهُ تعالى أنشأَ الليلَ لِيُسْكَنَ فيهِ. لكنْ قد يبدو لِلْخَلائِقِ بالليلِ حَوائجُ يَحْتاجونَ إلى قَضائِها، فَمَنَّ اللهُ تعالى عليهِمْ بنورِ القمرِ لِيَتَوَصَّلوا بنورِهِ إلى قَضاءِ حوائِجِهِمْ، وجَعَلَ الشمسَ ضِياءً لِيَخْتَطِفَ ضَوْؤُها نورَ الليلِ، ويَغْلِبَ عليهِ، ولا يَخْتَطِفَ نورُ النهارِ نورَ الشمسِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أضافَ الإنباتَ إلى الأرضِ، ويَرُدُّ ذلكَ إلى الأصلِ الذي خَلَقَ مِنَ الترابِ لِحُدوثِهِ منهُ لا [أنْ][4] يكونَ خَلَقَ الجملةَ مِنَ الترابِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] والذي لنا في السماءِ هو المَطَرُ لا الذي يَرْزُقُ بهِ، ولكنَّ الذي يَرْزُقُ بهِ أصلُ المطرِ، لأنهُ هو الذي يُتَوَصَّلُ بهِ إلى الأرزاقِ.

فكذلكَ الخَلْقُ لمّا كانوا مِنْ نَسْلِ آدمَ ﷺ وكانَ هو أصلاً لهمْ، أُضيفَ النسلُ إلى الذي حَدَثَ منهُ الأصلُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يَرْجِعُ هذا إلى كلٍّ في نفسِهِ، وذلكَ لأنَّ حياةَ الأبدانِ وقِوامَها بالذي يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، ويَنْبُتُ منها مِنْ أنواعِ الأغذيةِ؛ فإذا كانَ قِوامُها بما يَنْبُتُ منها فكأنما أنْبَتَنا منها، فاسْتَقامَ أنْ يُضافَ الإنباتُ إليها كما يَسْتَقيمُ أنْ يُضافَ خُروجُ الثمارِ إلى الأرَضينَ، وإنْ كانَ حُدوثُها مِنَ الأشجارِ؛ إذْ قِوامُ الأشجارِ وبَقاؤُها بها، فَنَسَبَ ما يَخْرُجُ منها إلى الأرضِ على التَّقْديرِ الذي ذَكَرْنا.

ففي قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ على التأويلِ الأوَّلِ إثباتُ القُدْرةِ على البعثِ وإلزامُ الحُجَّةِ على مَنْ يَجْحَدُ كونَهُ أنهُ يُذَكِّرُهُمْ قُدْرَتَهُ أنهُ أنشأَهُمْ مِنَ الأرضِ، ولم يكونوا شيئاً.

فَمَنْ قَدَرَ على إنشائِهِمْ مِنَ الأرضِ بَعدَ أنْ كانوا تُراباً قادرٌ على أنْ يُعيدَهُمْ إلى الحالةِ التي كانوا عليها مِنْ كونِهِمْ بَشراً سَوِيّاً، وإنْ صاروا عِظاماً رُفاتاً، لأنهمْ كانوا يَزْعُمونَ أنْ[5] كيفَ يُعادُونَ[6] خَلْقاً جديداً بَعدَ أنْ صاروا تُراباً؟

فاحْتَجَّ عليهِمْ بأمرِ الابْتِداءِ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ على التأويلِ الثاني ففيهِ تَذْكيرُ بِنِعَمِهِ أنْ قد أخْرَجَ لهمْ مِنَ الأرضِ ما يَتَعَيَّشونَ بهِ، ويُقيمونَ بهِ أَوَدَهُمْ، لِيَسْتأدِيَ[7] منهمُ الشُّكْرَ. وفيهِ تَذْكيرٌ بقوتِهِ وسُلْطانِهِ لِيُخَوِّفَهُمْ عقابَهُ، فَيَتَّقوا سُخْطَهُ، ويَطْلُبوا مَرْضاتَهُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ الإعادةِ والإخراجِ بِحَرفِ الجَمْعِ، وجَعَلَ قولَهُ، ﷻ: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ في مَوضِعِ ثم، لأنَّ هذا الإخراجَ يكونُ بعدَ الإعادةِ إلى الأرضِ، فيكونُ في هذا دليلٌ أنَّ أحدَ الحَرفينَ، وهو الواوُ، قد يُسْتَعْمَلُ مكانَ: ثم.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جَعَلَها كالشيءِ المَبْسوطِ الذي يُنْتَفَعُ بِبَسْطِهِ. ولو لم يجْعَلْها كذلكَ لم يَتَوَصَّلوا إلى حوائِجِهِمْ ولا الانْتِفاعِ بها. ففي ذِكْرِ هذا تذكيرٌ باللهِ تعالى [بما][8] عليهِمْ مِنْ عظيمِ المِنَّةِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ قيلَ: الفِجاجُ الطرقُ الواسعةُ، وقيلَ: السُّبُلُ في السهلِ، والفِجاجُ الطرقُ في الجبالِ. وهذا أيضاً مِنْ عظيمِ نِعَمِ اللهِ تعالى على عبادِهِ، لأنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ أرزاقَ الخَلْقِ في البلادِ، فلو لم

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: نورا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: أو. (٦) في الأصل وم: يعادوا. (٧) في الأصل وم: أويستادي. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَجْعَلَ لهمْ في الأرضِ سُبُلاً لم يَجِدوا طريقاً يَسْلُكونَهُ، فيَتَوَصَّلونَ بهِ إلى ما بهِ قِوامُ أبدانِهِمْ. فصارتِ الطرقُ المُتَّخَذَةُ لِما يُسْلَكُ بهِ فيها، فَنَصِلُ إلى حوائِجِنا وإلى مَعايِشِنا كالدوابِّ التي سُخِّرَتْ لنا، فَنَتَوَصَّلُ بها إلى حوائِجِنا.

وهذا يُبَيِّنُ لكَ أنَّ مُلْكَ أقطارِ الأرضِ وتدبيرَها يَرْجِعُ إلى الواحدِ القَهّارِ، لأنهُ أحْوَجَ الخَلْقَ إلى الإنسيابِ في البلادِ لإقامةِ أَوَدِهِمْ، وجَعَلَ لهمْ سَبَباً، يَتَوَصَّلونَ إلى ذلكَ. فَثَبَتَ أنَّ مالكَ الأقطار واحدٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ أي عَصَوني بما أمَرْتُهُمْ بهِ أو في ما دَعَوْتُهُمْ إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يُشْبِهُ أنْ يكونَ المَتبوعونَ، همُ الذينَ كَثُرَتْ أموالُهُمْ وحواشيهِمْ، واسْتَتْبَعوا مَنْ دونَهُمْ، فَتَبِعوهُمْ، ولم يَتْبَعوا نوحاً ﷺ وقد كانَ نوحٌ يدعوهُمْ إلى اتِّباعِهِ، فأخْبَرَ أنهمْ لم يَتْبَعوهُ، وإنما تَبِعوا مَنْ كَثُرَتْ أموالُهُ وأولادُهُ ومَواشِيهِ/ ٦٠٠ ـ أ/ فتكونُ هذهِ الآيةُ في الأتباعِ: أنهمُ اتَّبَعوا أجِلَّتَهُمْ ورُؤُساءَهُمْ، ليستْ في رؤسائِهِمْ. وما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ في أجِلَّتِهِمْ في دعاءِ نوحٍ ﷺ إياهُمْ إلى التوحيدِ وغيرِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ في الأجِلَّةِ والضَّعَفَةِ جميعاً، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ أي اتَّبَعوا مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ أهلِ الثَّرْوَةِ والغِنَى والذينَ وُسِّعَتْ عليهِمُ الدنيا، وبُسِطَتْ لهمْ، ظَنّاً منهمْ أنهمْ أحقُّ باللهِ تعالى وأقربُ إليهِ في المَنْزِلةِ.

والذي حَمَلَهُمْ على هذا، هو أنهمْ لا يَرَونَ أحداً في الشاهدِ، تَرَكَ صِلَةَ وليِّهِ، ووَصَلَ عَدُوَّهُ، فَيَرَونَ انهُ إذا بُسِطَتْ على رؤسائِهِمُ الدنيا، وَسَّعَ اللهُ تعالى عليهِمْ، وضَيَّقَ على هؤلاءِ لأنَّ[1] أولئكَ أقربُ مَنْزِلةً وأعلَى حالاً، وأنهُمْ همُ الأولياءُ، وهُمْ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ وثوابِها، فكانوا يَزْعُمونَ أنهُ يُوفِرُ الجزاءَ على الأولياءِ والمُحْسِنينَ في الدنيا، وزَعَموا أنَّ مَنْ وُسِّعَ عليهِ الدنيا، فهو أحَقُّ أنْ يكونَ وليًّا للهِ تعالى حينَ[2] وَصَلَ إليهِ الجزاءُ فيها. فهذا الظَّنُّ هو الذي حَمَلَهُمْ على الاتِّباعِ[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ أي بَواراً وهلاكاً لِذلكَ المَتبوعِ، فكانَتْ تلكَ النِّعَمُ التي ظَنُّوا أنهمْ أُكْرِموا بها بِصَنيعِهِمْ سَبَباً لخسارتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ كقولِهِ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قد بَيَّنّا تأويلَ شِكايَتِهِ إلى اللهِ تعالى مِنْ قومِهِ. فهذهِ الآيةُ وتلكَ الآياتُ في مَعْنًى تأويلِ الشِّكايةِ إلى اللهِ تعالى واحدٌ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنهمْ يَمْكُرونَ ما يَمْكُرونَ بالسنَتِهِمْ حينَ[4] كانوا يَدْعونَهُمْ إلى الكُفْرِ والصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، فَكَنَّى بالمَكْرِ عمّا قالوهُ بألسِنَتِهِمْ، فكانَ ذلكَ مَكْراً كُبّاراً أي قولاً عظيماً.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حَقيقةِ المَكْرِ، وهو أنَّ رُؤساءَهُمْ مَكروا بِأتباعِهِمْ حينَ[5] قالوا: إنَّ هؤلاءِ لو كانوا أحقَّ باللهِ تعالى مِنّا لَكانوا هُمُ الذينَ يُوَسَّعُ عليهِمْ، ويُضَيَّقُ علينا، فإذا وُسِّعَ علينا ثَبَتَ أنّا نحن الأولياءُ والأصفياءُ دونَ غيرِنا. وهذا منهمْ مَكْرٌ عظيمٌ لأنهُ يأخُذُ قلوبَ أولئكَ فَيَصُدُّهُمْ عنْ سَبيلِ اللهِ تعالى.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَكْرُهُمْ ما ذُكِرَ أنهمْ كانوا يأتونَ بأولادِهِمُ الصِّغارِ إلى نوحٍ ﷺ ويقولونَ لهمْ: إياكُمْ[6] واتِّباعَ هذا، فإنهُ ضالٌّ مُضِلٌّ، فكانَ هذا مَكْرَهُمْ بِصِغارِهِمْ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الآية؛ هذهِ المَقالةُ منهمْ كانَتْ بَعدَ أنِ انْقادَتْ لهمُ الأتباعُ، واتَّبَعَتْهُمْ إلى ما دَعَوهُمْ إليهِ مِنَ الأصنامِ، فقالوا بَعدَ ذلكَ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ لأي لا تَذَرُنَّ عِبادَتَها.

---

(١) في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: اتباع. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) في الأصل وم: إياك.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هي أسماءُ الأصنامِ التي كانوا يَعْبُدونَها.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الذي بَعَثَهُمْ على عبادةِ الأصنامِ ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ أنَّ قومَ نوحٍ اتَّخذوا هذهِ الأصنامَ أوَّلَ ما اتَّخذوها على صورةِ رجالٍ عُبّادٍ، كانتْ هذهِ الأسماءُ أسماءَهُمْ، فَسَمَّوُا الأصنامَ بأسماءِ العُبّادِ لِيَعْتَبِروا بها، ويَجْتَهِدوا في العبادةِ إذا نَظَروا إليها.

فلمّا مَضَى ذلكَ القَرْنُ الذي اتَّخذوها [فيهِ][1] عِبْرَةً، وخَلَفَهُمْ قَرْنٌ بَعْدَهُمْ، قالَ لهمُ الشيطانُ: إنَّ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانوا يَعْبُدونَ هذهِ الأصنامَ، فاعْبُدوها[2].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ جَسَدَ آدمَ ﷺ كانَ عندَ نوحٍ، يَتْرُكُ كلُّ مؤمنٍ في زمانِهِ يدخلُ، فَيَنْظُرُ إلى جَسَدِ آدمَ ﷺ ومَنْ لم يَكُنْ مؤمناً، لم يَدَعْهُ يَنْظُرُ إليهِ. فجاءَ إبليسُ إلى الكفارِ، فقالَ: أيَفْخَرُ نوحٌ ومَنْ آمَنَ بهِ عليكُمْ بِجسدِ آدمَ، وأنتمْ كُلُّكُمْ وَلَدُهُ، فَصَنَعَ لكلِّ قومٍ صَنَماً على صورةِ آدمَ، فكانوا يَعْبُدونَ تلكَ الصورةَ.

ويَحْتَمِلُ[3] أنْ يكونَ الذي بَعَثَهُمْ على ذلكَ، هو أنهمْ لم يَرَوا أنفسَهُمْ تَصْلُحُ لعبادةِ ربِّ العالَمينَ، كما يَرَى هؤلاءِ الذينَ يَخْدِمونَ الأجِلَّةَ في الشاهدِ؛ لا يَطْمَعُ كلُّ واحدٍ منهمْ في خدمةِ الملوكِ، ولا يَرَى نفسَهُ أهلاً لِخدْمتِهِمْ، بل يَشْتَغِلُ بِخِدْمةِ مَنْ دونَهُمْ[4] أوّلاً على رَجاءِ أنْ يُقَرِّبَهُ إلى المَلِكِ، فكذلكَ هؤلاءِ حَسِبوا أنهمْ لا يَصْلُحونَ لِخدمةِ ربِّ العالَمينَ، فكانوا إذا رَأَوا شيئاً حسناً كانوا يَظُنّونَ أنَّ حُسْنَهُ لِمَنْزِلةٍ لهُ عندَ اللهِ، فكانوا يُقْبِلونَ على عبادتِهِ رَجاءَ أنْ يُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ، فَجَعَلوا الأصنامَ على أحسنِ ما قَدَروا عليهِ، ثم اشْتَغَلوا بِخِدمتِها وعبادَتِها رَجاءَ أن تُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ تعالى.

قالَ ﷻ حكايةً عنهمْ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وقالَ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

فجائزٌ أنْ يكونَ هذا الحُسْبانُ، هو الذي حَمَلَهُمْ على عِبادتِها وتعظيمِ شأنِها، واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ كانَ؟

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ الكُبَراءُ أنهمْ أَضَلّوا كثيراً، أي دَعَوا إلى الضلالِ، وزَيَّنوهُ في قلوبِهِمْ، فأضَلّوا سُفَهاءَهُمْ بذلكَ.

وجائزٌ أن يكونَ أُريدَ بِهِ الأصنامُ، ولكنَّ حقَّهُ، إنْ كانَ على الأصنامِ، أنْ يقولَ: وقد أضْلَلْنَ كثيراً كما قالَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ولكنَّ الإضلالَ مِنْ فِعْلِ المُمْتَحَنينَ، والأصنامَ ليستْ لها أفعالٌ، فلما نُسِبَ إليها نِسْبَةَ مَنْ يُوجَدُ[5] منهُ الفِعْلُ أُخْرِجَ الخِطابُ على الوزنِ الذي يُخاطَبُ بهِ مَنْ يُوجَدُ منهُ هذا الفِعْلُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] فأضافَ إلى القريةِ فِعْلَ أهْلِها، والفِعْلُ إذا أُضيفَ [إلى الأهْلِ أُضيفَ][6] بلفظِ التذكيرِ، ثم أنَّثَ ههنا لإضافةِ فِعْلِ الأهلِ إلى القريةِ[ولو كانتِ القريةُ][7] بحيثُ يكونَ منها الفعلُ لَكانَ الخِطابُ، يرتَفِعُ عنها بِلَفْظِ التأنيثِ لا بِلَفْظِ التَّذكيرِ. فحينَ[8] أُضيفَ إليها فِعْلُ أهلِها أُنِّثَ كما يُوجِبُ لو كانَ الفعلُ مُتَحَقِّقاً منها.

ثم الأصنامُ لا يَتَحَقَّقُ منها الإضلالُ، ولكنَّ مَعْنَى الإضافةِ ههنا هو أنها أُنْشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانَتْ تلكَ الهيئةُ مِمَّنْ يُضِلُّ [لأضَلَّتْ هي][9] كما قُلْنا في تأويلِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠و..].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ فهذا يُشْبِهُ أنْ يكونَ بَعْدَ ما بَيَّنَ لهُ ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فإذْ قد عَلِمَ أنهمْ لا يُؤْمِنونَ لم يَدْعُ لهمْ بالهُدَى، ولكنْ دَعا اللهُ تعالى لِيَزيدَ في إضلالِهِمْ، ويكونُ الإضلالُ عبارةً عنِ الهلاكِ، والضّلالُ الهلاكَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُوٓا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] أي أَهْلَكْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم، فعبدوها. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: دونه. (٥) في الأصل وم: يوجه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: فحيث. (٩) في الأصل وم: لأضل هو.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ فحذفُ ما ههنا [لأنهُ][1] صِلَةٌ في الكلام، ومعناهُ: بِخطيئاتِهِمْ أو مِنْ خطيئاتِهِم أُغرِقوا، فأُدخِلوا ناراً في الآخرة؛ إذْ أُغرِقَتْ أبدانُهُمْ وأجسادُهُمْ، ورُدَّتْ أرواحُهُمْ إلى النارِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي لم يَجِدوا لأنفسِهِمْ بِعبادَتِهِمْ مَنْ عَبَدوا مِنْ دونِ اللهِ تعالى [أنصاراً مِنَ المَعْبودينَ، لأنهمْ كانوا يَعْبُدونَ مَنْ يَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ لِيُقَرِّبوهُمْ[2]][3] إلى اللهِ، ويكونوا لهمْ شُفَعاءَ وعِزّاً، فلم يَجِدوا الأمْرَ على ما قَدَّروا عندَ أنفسِهِمْ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ قيلَ: تأويلُهُ: لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافرينَ ساكِنَ دارٍ. وإذا لم يَبْقَ ساكنُ دارٍ، فقد ماتوا جميعاً، فكأنهُ يقولُ: لا تَذَرْ منهمْ أحداً.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ هذا كلامٌ شَنيعٌ في الظاهرِ مِنْ نوحٍ ﷺ لأنهُ خارجٌ مَخْرَجَ الإنكارِ على اللهِ تعالى، لو تَرَكَهُمْ، ولم يُهْلِكْهُمْ. وهذا يُشْبِهُ قولَ[4] / ٦٠٠ ـ ب/ مَنْ قالَ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهذا أيضاً خارجٌ مَخْرَجَ التَّكَبُّرِ للهِ تعالى: أنهُ لو أبقاهُمْ أدّى ذلك إلى إضلالِ العبادِ، وفيه تَقَدُّمٌ بينَ يَدَيِ اللهِ تعالى؛ وذلكَ عظيمٌ، ولأنهُ ليسَ في شرطِ الألوهيَّةِ إهلاكُ مَنْ عَمَلُهُ الإضلالُ.

ألا تَرَى أنَّ إبليس اللعينَ وأتباعَهُ جَلُّ سَعْيُهُما[5] في إضلالِ بَني آدمَ، ثم لم يُهْلَكوا، بل أُبقُوا على الوقتِ المعلومِ؟

ولكنهُ يجوزُ أنْ يكونَ دعا عليهِمْ بَعْدَ أنْ أَذِنَ لهُ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ والبَوارِ، فيكونُ الدعاءُ بالهلاكِ على تَقَدُّمِ الأدبِ.

والأصلُ أنَّ الرسلَ ﷺ بُعِثوا لدعاءِ الخَلْقِ إلى الإسلامِ، وكانوا في دعائِهِمْ راجينَ الإسلامَ خائفينَ عليهِمْ بِدوامِهِمْ على الكفرِ. فَبِما قيلَ لنوحٍ ﷺ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وَقَعَ لهُ الإياسُ مِنْ إسلامِ مَنْ تَخَلَّفَ عنِ الإيمانِ، فارْتَفَعَ مَعْنَى الدعاءِ إلى الإسلامِ، فجائزٌ أنْ يُرادَ[6] لهُ الإذنُ بَعْدَ ذلكَ بالدعاءِ عليهِمْ بالهلاكِ، فَيَدْعُوَ إذْ ذاكَ.

ثم يكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ خارجٌ مَخْرَجَ الإشفاقِ والرحمةِ على مَنْ مَعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وهو أنَّ الذينَ داموا على الكُفْرِ، لو أُبْقوا خيفَ مِنَ الكَفَرَةِ أنْ يُضِلّوا المؤمنينَ، ويُعيدوهُمْ إلى مِلَّتِهِمْ، فتكونُ شَفَقَتُهُ على المسلمينَ داعيةً إلى الدعاء بالهلاكِ[7] على الكَفَرَةِ لئلا يَتَوَصَّلوا إلى الإضلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ وقتَ بلوغِهِمُ المِحْنَةَ والابْتِلاءِ؛ فحينئذٍ يوجدُ منهمُ الفجورُ لا [أنْ][8] يَلِدوا فُجّاراً كُفّاراً؛ إذْ لا صُنْعَ لهمْ في ذلكَ الوقتِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أي نَبْتَليهِ لِوَقْتِ [بُلوغِهِ][9] المحنةَ والابْتِلاءَ لا أنْ نَبْتَليَ وقتَ ما يشاءُ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ الكُفْرَ قد يَقَعُ عليهِ اسْمُ الفُجورِ لأنهُ لو خُرِّجَ قولُهُ ﴿كَفَّارًا﴾ مُخْرَجَ التفسيرِ لقولِهِ: ﴿فَاجِرًا﴾ اسْتَقامَ أنْ يَحْمِلَ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] على الكَفَرَةِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا﴾ هكذا الواجبُ على المرءِ في الدعاءِ والاسْتِغْفارِ أنْ يَبْدأَ بنفسِهِ ثم بوالدَيْهِ ثم بالمؤمنينَ.

ثم قولُهُ: ﴿بَيْتِىَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي في سَفينتي، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بَيْتِىَ﴾ أي في ديني، فيكونُ البيتُ كِنايةً عنِ الدينِ، وقالَ بعضُهُمْ: إنما هو بَيْتُهُ الذي يسكنُ فيهِ لِما أطْلَعَهُ اللهُ تعالى أنَّ مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ مؤمناً لا يعودُ إلى الكُفْرِ.

قالَ الشيخُ، رحِمَهُ اللهُ: ثم إنَّ أرْجَى الأمورِ للمؤمنينَ في الآخرةِ دعاءُ الأنبياءِ والملائكةِ ﷺ في الدنيا، لأنهمْ إنما يَدْعُونَ بَعدَ الإذنِ لهمْ بالدعاءِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يأذَنَ اللهُ تعالى لهمْ بالدعاءِ، ثم لا يُجيبُ دَعْوَتَهُمْ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في نسخة الحرم المكي: ليقربهم. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فقربهم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بقول. (٥) في الأصل وم: سعيه. (٦) في الأصل وم: يرد. (٧) في الأصل وم: على الهلاك، من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: على الهلاك. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قالَ: إنَّ نوحاً ﷺ دعا دَعْوَتَينِ: إحداهُما: للمؤمنينَ بالاسْتِغْفارِ والتوبةِ. والثانيةُ: على الكُفّارِ بالبَوارِ والتَّبارِ.

وقد أُجيبَتْ دَعْوَتُهُ في ما دَعا على الكَفَرَةِ، فلا يجوزُ أنْ يُجابَ في شرِّ الدَّعْوَتَينِ، ثم لا يُجابَ في خَيرِ الدَّعْوَتَينِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ قيلَ: كَسْراً وذُلاً وصَغاراً، فإنهُ مُشتَقٌّ مِنَ التِّبْرِ، وكلُّ مَكْسورٍ يُقالُ: تَبِرٌ، فكأنهُ يقولُ: اكْسِرْ مَنَعَةَ الظالمينَ وشوكَتَهُمْ.

فإنْ كانَ التأويلُ هذا، فهو يَقَعُ على جميعِ الظَّلَمةِ: مَنْ كانَ في وقتِهِ ومَنْ بَعْدَهُ.

وقيلَ: التَّبارُ الهَلاكُ، فإنْ كانَ هذا مَعْناهُ فهو على ظالمي زمانِهِ؛ إذْ لا يجوزُ للأنبياءِ ﷺ أنْ يَدْعُوا على قومٍ إلّا أنْ يُؤْذَنَ لهمْ بالدعاءِ عليهمْ. وإنما جاءَ الإذْنُ في حقِّ قومِهِ.

فأمّا في حقِّ غَيرِهِمْ، لم يَثْبُتْ، فلا يجوزُ القولُ فيهِ إلّا بِما تَواتَرَ الخَبَرُ بهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، [واللهُ أعلَمُ](١).

---

(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة الجن

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ اخْتُلِفَ في السببِ الذي كانَ بِهِ مجيءُ الجنِّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ.

فمنهُمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ إبليسَ صَعِدَ إلى السماءِ، فَوَجَدَها قد مُلِئَتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً، فَتَيَقَّنَ أنْ قد حدثَ في الأرضِ حادثٌ، فَفَرَّقَ جنودَهُ لِيَعْلَمَ عِلْمَ ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ الأصنامَ خَرَّتْ لِوُجوهِها حينَ بُعِثَ رسولُ اللهِ ﷺ فَعَلِمَ إبليسُ أنهُ حدثَ في الأرضِ خَيرُ حادثٍ حتى خَرَّتْ لهُ الأصنامُ، فَفَرَّقَ جنودَهُ لِيَصِلَ إلى عِلْمِ ذلكَ. ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ قصةَ هذهِ السورةِ وقصةَ قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] واحدةٌ.

وقالَ بعضُهُمْ بأنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ الذينَ ذُكِروا في هذهِ السورةِ كانوا مِنْ مُشْرِكي الجنِّ والذينَ ذُكِروا في سورةِ الأحقافِ كانوا مِنْ يَهودِ الجنِّ؛ دليلُهُ أنهُ قالَ في هذهِ السورةِ في ما حَكَى عنِ الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية: ٧] واليهودُ يُقِرّونَ بالبَعْثِ، ولا يُنْكِرونَ، فَثَبَتَ أنهمْ كانوا مِنْ جنِّ المشركينَ، وقالَ في سورةِ الأحقافِ: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الآية: ٣٠] فَثَبَتَ أنهُ[1] قد كانَ عندَهُمْ عِلْمٌ بالكتابِ المُنْزَلِ على رسولِ اللهِ ﷺ [وكانوا بهِ مُقِرِّينَ، واليهودُ هُمُ الذينَ يؤمنونَ بكتابِ موسى، لا بِغَيْرِهِ.[2]

ثم في ما حكَى اللهُ تعالى عنِ الجنِّ مِنْ تَصْديقِهِمْ هذا الكتابَ واسْتِماعِهِمْ ما جَرَى مِنَ المُخاطباتِ في ما بَيْنَهُمْ فوائدُ:

أحَدُها][3]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَبْعوثاً إلى الجنِّ والإنسِ حتى صَرَفَ الجنَّ إلى الاسْتِماعِ إليهِ.

والثانيةُ[4]: أنهمْ لمّا أخَذوا القرآنَ مِنْ لسانِهِ قالوا في ما بَيْنَ القومِ بإنذارِهِمْ، وأعانوهُ في التَّبْليغِ على ما أخْبَرَ ﷻ: ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

والثالثةُ[5]: أنَّ أولئكَ النَّفَرَ تَسارعوا إلى الإجابةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فيكونُ فيهِ تَسْفيهُ قوم رسولِ اللهِ ﷺ الذينَ نَشأَ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ لأنهمْ عَرَفوا رسولَ اللهِ ﷺ في ما بينَهُمْ بالصيانةِ والعدالةِ، ولم يَقِفوا منهُ على كَذِبٍ قَطُّ[6].

وحَقُّ مَنْ يُعْرَفُ /٦٠١ ـ أ/ بالصِّدْقِ، إنْ لم يَصْدُقْ ألّا يُتَسارعَ إلى تكذيبِهِ في ما يأتي مِنَ الأنباءِ، بل يوقَفُ في حالِهِ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ منهُ ما يُظْهِرُ كَذِبَهُ.

وقومُهُ اسْتَقْبَلوهُ بالتكذيبِ، ولم يُعامِلوهُ مُعامَلَةَ مَنْ كانَ معروفاً بالصِّدْقِ والصِّيانةِ.

والجنُّ الذينَ صَدَّقوهُ لم يكونوا عارفينَ بأحوالِهِ في ما قَبْلُ أنهُ صَدوقٌ أو مِمَّنْ يُرْتابُ في خَبَرِهِ، ثم تَسارَعوا إلى تَصْديقِهِ بِما لاحَتْ لهمُ الحجَّةُ، وثَبَتَتْ عندَهُمْ آيَةُ الرسالةِ، وتَعامَلوا[7] معهُ معامَلَةَ مَنْ عُرِفَ بالصِّدْقِ. فدلَّ أنهمْ كانوا في غايةٍ مِنَ السَّعَةِ.

---

(١) من م، في الأصل: و. (٢) في م: غير. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: وفيه. (٥) في الأصل وم: وفيه. (٦) من م، في الأصل: فقط. (٧) في الأصل وم: وعاملوا.

والرابعة[1]: دلالةُ رسالتِهِ ﷺ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الآيتانِ: ١و٢] إلى آخِرِ القِصَّةِ في ما بَينَهمْ إخبارٌ عنْ عِلْمِ الغَيبِ، ثَبَتَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على الإيمانِ بهِ ما عَرَفوا أنهُ أتَى بالمُعْجِزِ الذي يُعْجِزُ الخَلْقَ عَنْ إتيانِ مِثْلِهِ وبما وقَفوا على أحكامِ مَعانيهِ وحُسْنِ تأليفِهِ ونَظْمِهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَشْعُرْ بِمَجيئِهِمْ حتى أُوحِيَ إليهِ أنهُ قد أتاهُ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعونَ إلى ما أُوحِيَ إليهِ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على [فَسادِ قولِ][2] الباطنيَّةِ حينَ[3] يَزْعُمونَ أنَّ النبيَّ ﷺ قَبِلَ الوَحْيَ بالجَسَدِ الرُّوحانيِّ، لأنهُ لو كانَ كما وَصَفوا لَرَأى الجِنَّ عندَما حَضَروا إليهِ؛ إذِ الجَسَدُ الرُّوحانيُّ ممَّا يُبْصِرُ الجِنَّ، ولم يكُنْ يُوحَى إليهِ، فَيَعْرِفَ أنْ قد حَضَرَهُ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ.

ورُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سألَ جبريلَ ﷺ أنْ يراهُ على صورتِهِ، فقالَ لهُ جبريلُ: إنكَ لا تُطيقُها[4]، لأنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنِ انْظُرْ إلى أُفُقِ السماءِ. ولو كانَ يأخُذُ الوَحْيَ بالجَسَدِ الرُّوحانيِّ لَكانَ قد رَأى جبريلَ ﷺ على صورتِهِ، فَتَبْطُلُ فائدةُ هذا[5] السؤالِ. فَثَبَتَ أنَّ الأمرَ ليسَ كما زَعموا، بل كانَ يَقبَلُهُ بالصورةِ الجَسَدانيةِ وأنهُ كما وَصَفَهُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

قالَ القُتَبيُّ: النَّفَرُ ما بَينَ الثلاثةِ إلى التِّسْعةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ قالَ بعضُهُمْ: العَجَبُ الغريبُ، وإنما اسْتَغْرَبوا ذلكَ منهُ، لأنهمْ سَمِعوا مِنْ أُمِّيٍّ، لا يعرِفُ الكتابةَ، ولا يَقْرَأُ الكتبَ.

ومنهمْ مَنْ قالَ بأنَّ حُسْنَ تأليفِهِ[6] ونَظْمِهِ وَوَصْفِهِ، هو الذي حَمَلَهُمْ على التَّعَجُّبِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما تَعَجَّبوا مِنْ آياتِهِ وحُجَجِهِ، لأنهُ جاءَ في تَثْبيتِ التوحيدِ وإثباتِ الرسالةِ وإثباتِ البعثِ، ولم يكُنْ لهمْ معرفةٌ بالوحدانيةِ، بل كانوا أهلَ شِرْكٍ، ولم يكونوا أهلَ معرفةٍ بالبعثِ والرسالةِ، فكانتِ الآياتُ عَجيبةً حينَ[7] قُرِّرَتْ عندَهُمْ هذهِ الأوجهَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم في هذهِ [الآيةِ][8] وفي قولِهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إخبارٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ يَشْعُرُ بِمَجيئِهِمْ.

ورُوِيَ في الخَبَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ لمّا تَلا على أصحابِهِ سورةَ الرحمنِ قالَ لأصحابِهِ: «إنَّ الجِنَّ كانوا أَحْسَنَ إجابةً منكُمْ، إني تَلَوتُ عليهِمْ هذهِ السورةَ، فكانوا يقولونَ: ما بِشيءٍ مِنْ آلائكَ نُكَذِّبُ، ربَّنا، فَلَكَ الحمدُ» [الترمذي ٣٢٩١].

ففي هذا الخَبَرِ أنهُ قد رآهُمْ، وشَعَرَ بِمَجيئِهِمْ، فيكونُ فيهِ إثباتُ الوجهَينِ جميعاً: أنْ قد شَعَرَ مَرَّةً، ولم يَشْعُرْ أُخرَى.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رآهُمْ بِما قَوَّى اللهُ ﷻ بَصَرَهُ حتى احْتَمَلَ إدراكَ الجِنِّ، وضَعَّفَ أبصارَ غَيرِهِ عن رُؤْيَتِهِمْ.

ألا تَرَى أنَّ أهلَ الجنةِ يَرَونَ الملائكةَ عندَما تأتيهِمْ بالتُّحَفِ مِنْ رَبِّهِمْ، فَيُقَوِّي ﷻ بَصَرَهُمْ حتى يُعايِنوا الملائكةَ بِجَوهَرِهِمْ، وإنْ ضَعُفَتْ أبصارُهُمْ في الدنيا؟ ففي ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ قَوَّى بَصَرَ نَبِيِّهِ ﷺ حتى رَأى الجِنَّ على صورتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى صَوَّرَ الجِنَّ على صورةِ الإنسِ حتى رَآهُمْ، وشَعَرَ بِمَجيئِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ما ذَكَرْنا مِنَ السَّنَدَينِ في أمرِ مَجيءِ الجِنِّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ في أوَّلِ السورةِ مِن قولِ أهلِ التأويلِ، لا يَقْطَعُ القولَ بذلكَ، وإنْ كانَ في حدِّ الإمكانِ والجَوازِ، لأنهمْ تَكَلَّفوا اسْتِخْراجَ ذلكَ بالتَّدبيرِ والاجْتِهادِ، وما كانَ سبيلُ معرفتِهِ الاجْتِهادَ لم يَجُزْ أنْ يُقْطَعَ القولُ فيهِ بالشهادةِ.

---

(١) في الأصل وم: وفيه أيضاً. (٢) في الأصل وم: قول فساد. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: تطيقه. (٥) في الأصل وم: هذه. (٦) من م، في الأصل: تأويله. (٧) في الأصل وم: حيث. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وقد يجوزُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على المَجيءِ غيرَ ذَيْنِكَ الوجهَينِ؛ وهو أنْ يكونَ النَّفَرُ مِنْ مُنْذِري الجِنِّ لأنهُ ذَكَرَ أنَّ [لِلجِنِّ نُذُراً][1] وأنَّ الرسُلَ مِنَ الإنسِ دونَ الجِنِّ، فَتَفرَّقوا على رَجاءِ أنْ يَظفَروا برسولٍ، فَيَتَلَقَّفوا منهُ ما يقومونَ[2] بهِ بالنِّذارةِ في ما بَينَ قومِهِمْ؛ إذ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فَيَسمعونَ الأخبارَ، ويُنْذِرونَ[3] قومَهُمْ بها. ثم انْقَطَعَ ذلكَ عنهمْ حتى[4] لم يَجدوا مَسْلَكاً إلى الصعودِ لأنها قد مُلِئَتْ حَرَساً، وعَلِموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُبْقيهِمْ حيارَى، ويَقْطَعُ عنهمْ وجهَ المعرفةِ، فَتَفرَّقوا في الأرضِ رَجاءَ أنْ يَظفَروا بِمَنْ يُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ، ويُوضِحُ لهمُ الحُجَجَ والبراهينَ، فَوَصَلوا إلى مَقصودِهِمْ مِنْ جِهَةِ نَبيِّنا محمدٍ ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكونَ عندَهُمْ أنْ لا أحَدَ في الأرضِ مِنْ جِنِّيٍّ أو إنْسِيٍّ، يَكْذِبُ على اللهِ كما حَكَى اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية: ٥] فلمّا تَحقَّقَ عندَهُمُ الكَذِبُ خافوا على أنفسِهِمْ أنْ [تُبتَلَى بِهِ][5] وأنْ يُشَبَّهَ عليهمُ الصِّراطُ السَّويُّ، فَتَفرَّقوا في الأرضِ على رَجاءِ أنْ يَظفَروا بِمَنْ يَدُلُّهُمْ على الطريقةِ المُثْلَى حتى وَجَدوا رسولَ اللهِ ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكونوا لمّا صَعِدوا إلى السماءِ، فَرَأَوها مَمْلوءةً مِنَ الحَرَسِ والشُّهُبِ، أيْقَنوا أنَّ ذلكَ لِحادثِ خَيرٍ، وخافوا حُلولَ نِقْمَتِهِ بأهلِ الأرضِ فَتَفرَّقوا في البلادِ لِما لَعَلَّهُمْ يَصِلونَ إلى عِلْمِ ذلكَ.

ثم الذي حقَّقَ كونَ هذا الخَبَرِ، هو أنَّ السماءَ ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الآية: ٨] في حقِّ الكَفَرَةِ وانْقِطاعِ الكَهَنَةِ بَعدَ ذلكَ.

ولو كانَ الأمرُ على خِلافِ هذا لَكانوا لا يَنْقَطِعونَ[6]، لأنَّ الشياطينَ كانوا يَصْعَدونَ إلى السماءِ، فيأتونَ الكَهَنَةَ بما يَسْمَعونَ مِنَ الأخبارِ، ويُلْقونَها إليهِمْ، [فَيُضِلّونَ][7] بها الخَلْقَ.

فلو لم يُمْنَعوا عنِ السماءِ لَكانوا لا يَنْقَطِعونَ. ومَنِ ادَّعَى الكِهانةَ اليومَ فلا يَجِدُ عندَهُ خَبَراً حادثاً سِوَى ما تَلَقَّفوهُ مِنَ السُّنَنِ الرسلِ ﷺ وكانَ أمرُ الشهابِ أمراً ظاهراً عَرَفَتْهُ الكَفَرَةُ في ما بَيْنَهُمْ، فكانَتْ هذهِ حُجَّةً سَماويَّةً لرسولِ اللهِ ﷺ مُقَرِّرَةً عندَ الكَفَرَةِ رسالَتَهُ؛ إذْ لم يَدَّعِ أحدٌ منهمْ بكونِ الشهابِ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ النَّبيُّ ﷺ فصارَ انْقِطاعُ الكهنةِ دليلاً على صدقِهِ في مقالَتِهِ، واللهُ المُسْتَعانُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي إلى الحقِّ على ما ذَكَرْنا بَيانَهُ في سورةِ الأحقافِ في قولِهِ ﷻ ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: ٣٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنهمْ كانوا مُشْركي العربِ، فَتَبَرَّؤوا مِنَ الشِّرْكِ بما اسْتَمَعوا، وسَمِعوا القرآنَ بقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.

وقد يَحْتَمِلُ هذا الذي قالوا، ويَحْتَمِلُ أنهُ لم يَسْبِقْ منهمُ الإشراكُ، بل كانوا مِنْ جملةِ المُوَحِّدينَ، ولكنهمْ أحْدَثوا إيماناً بما سَمِعوا مِنَ القرآنِ، وأحْدَثوا تَبَرِّياً مِنَ الشِّرْكِ، وقد يَتَبَرَّأُ المرءُ مِنَ الشِّرْكِ عندما يَحْدُثُ لهُ زيادةُ إيقانٍ، وإنْ لم يَسْبِقْ منهُ /٦٠١ ـ ب/ الإشراكُ كما قالَ موسى ﷺ ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِ الجَدِّ: فمنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ هذهِ الكلمةَ يُتَكَلَّمُ بها في مَنْ يَظفَرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، فَيوصَفُ بأنهُ ذو جَدٍّ. فجائزٌ أنْ يكونوا أرادوا بهذا أنَّ ربَّنا، هو الظافرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، لا يَسْتَقبِلُهُ خِلافُهُ، ولا تَمَسُّهُ حاجةٌ.

وعلى هذا التأويلِ قولُهُ [ﷺ][8]: «ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ» [البخاري: ٨٤٤] أي مَنْ كانَ لهُ الجَدُّ في الدنيا، فإذا كانَ في تقديرِ اللهِ تعالى خِلافُ ذلكَ، لم يُغْنِهِ ذلكَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً، وإنْ كانَ هذا، هو المُرادُ، فَمَعْناهُ أنَّ مَنْ هذا

---

(١) في الأصل: الجن نذيراً، في م: من الجن نذيراً. (٢) في الأصل وم: يقوموا. (٣) في الأصل وم: وينذروا. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) يبتلوا به. (٦) في الأصل وم: ينقطعوا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وَصْفُهُ يَتعالى عنْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ، ويَحتاجَ إلى صاحبةٍ أو إلى اتّخاذِ وَلَدٍ، لأنَّ هذهِ الأشياءَ كلَّها أماراتُ الحاجةِ. ومَنْ ظَفِرَ بكلِّ ما يُريدُهُ لم تَقَعْ [لهُ][1] حاجةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الجَدُّ صِلَةً؛ ومَعْناهُ: تَعالى ربُّنا. وجائزٌ أنْ يكونَ الجَدُّ عبارةً عنِ العَظَمةِ والرِّفعةِ؛ يُقالُ: فلانٌ جَدٌّ في قومِهِ إذا عَظُمَ، وشَرُفَ فيهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي غِنَى ربِّنا.

ألَا تَرَى كيفَ ذَكَرَ اللهُ تعالى عندَما نَزَّهَ نفسَهُ عنِ اتّخاذِ الأولادِ بقولِهِ: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨] وقد ذَكَرَ اتّخاذَ الولدِ ههنا على إثْرِ قولِهِ ﷻ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾. ومنهمْ مَنْ يقولُ: تأويلُهُ: مُلْكُ ربِّنا. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ قوةُ ربِّنا، فَتعالى ربُّنا عنْ كلِّ ما نُسِبَ إليهِ، كانَ فيهِ أيُّ[2] فِعْلٍ لِلزَّلةِ والتَّسَفُّلِ.

ثم الحقُّ ألّا نَتكلَّفَ[3] تفسيرَ قولِهِ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ ههنا لأنهُ حكايةٌ عنْ مَقالةِ الجِنِّ. فَمُرادُ هذهِ الكلمةِ إنما يُعْرَفُ بأخبارِ الجِنِّ.

ثم الشِّرْكُ في ما جَرَى بهِ الكتابُ على أوجُهٍ أربعةٍ:

مَرَّةً على العِبادةِ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وشِرْكٌ في الخَلْقِ بقولِهِ ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ﴾ [الرعد: ١٦] وشِرْكٌ في الحكمِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وشِرْكٌ في المُلْكِ بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: ١١١و..].

فَثَبَتَ أنَّ الشِّرْكَ يَقَعُ مَرَّةً في العِبادةِ ومَرَّةً في العِبادِ ومَرَّةً في المُلْكِ ومَرَّةً في الحُكْمِ.

فهمْ بقولِهِمْ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ تَبَرَّؤوا مِنَ الشِّرْكِ في هذهِ الأوجهِ الأربعةِ.

ثم إذا كانَ الجَدُّ عبارةً عنِ الذي يَظْفَرُ بكلِّ ما يُريدُهُ، ففيهِ ما يَنْقُضُ على المعتزلةِ قولَهُمْ، لأنهمْ يَزْعُمونَ أنَّ اللهَ تعالى أرادَ مِنْ كلِّ كافرٍ الإيمانَ. فإذا لم يُؤمِنوا فهو غيرُ ظافرٍ بما يُريدُ على قولِهِمْ، ويدخُلُ عليهمُ النَّقْضُ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وهو أنّا قد بَيَّنّا أنَّ الشِّرْكَ قد يَقَعُ مَرَّةً في الخَلْقِ، وهُمْ يَنْفُونَ خَلْقَ الأفعالِ عنِ اللهِ تعالى. وإذا نَفَوا ذلكَ فقد جَعَلوا لهُ في الخَلْقِ شُرَكاءَ، وقد أخْبَرَ ﷻ أنهُ هو المُتفرِّدُ بِخَلْقِ الخَلائقِ.

فَثَبَتَ أنَّ الأفعالَ مِنْ حيثُ الخَلْقُ والإنشاءُ مِنَ اللهِ تعالى، ومِنْ جهةِ الكَسْبِ والفِعْلِ لِلْخَلْقِ. فَمِنَ الوجهِ الذي يُضافُ إلى اللهِ تعالى لا يجوزُ أنْ يُضافَ مِنْ ذلكَ الوجهِ إلى الخَلْقِ عندَنا. فلا يَقَعُ في الخَلْقِ تَشابُهٌ، لأنهُ لا يَتحقَّقُ مِنَ العبادِ الفعلُ مِنَ الوجهِ [الذي][4] تَحقَّقَ مِنَ اللهِ تعالى.

[ألَا تَرَى أنهُ يُضافُ المُلكُ إلى اللهِ تعالى][5] وإلى الخَلْقِ؟ ثم لا يَقَعُ فيهِ إشراكٌ لأنهُ مِنَ الوجهِ الذي يُضافُ إلى اللهِ تعالى على جهةِ التَّحقيقِ.

فكذلكَ إضافةُ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى وإلى الخَلْقِ، لا يَجِبُ الشِّرْكُ لِاختلافِ الجهتَينِ، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لأنَّ اتّخاذَ الصاحبةِ مِنَ الخَلْقِ لِغَلَبَةِ الشَّهْوَةِ، وهو مُنْشِئُ الشَّهواتِ، فلا يجوزُ أنْ يَغْلِبَهُ ما هو خَلَقَهُ، فَيَبْعَثَهُ ذلكَ على اتّخاذِ الصاحبةِ.

وبهذا نَرُدُّ على مَنْ زَعَمَ أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، والبَناتُ تَحْدُثُ مِنَ الصاحبةِ، وهو مُتَعالٍ، لم يَتَّخِذْ صاحبةً، فأنّى يكونُ لهُ بَناتٌ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ فالأصلُ أنَّ الأولادَ يَرْغَبُ فيهِمُ المرءُ لإحدَى خِصالٍ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إلى. (٣) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: نتكلم. (٤) من م، ساقطة من الأصل.
(٥) من م، ساقطة من الأصل.

إمّا لِما يَنالُهُ مِنَ الوَحْشَةِ، فَيَطْلُبُ الوَلَدَ لِيَسْتَأْنِسَ بهِمْ، أو يَرغَبُ فيهِمْ لِما حَلَّ بهِ[1] مِنَ الضعفِ، فَيريدُ أنْ يَسْتَنْصِرَهُمْ، أو لِما يَخافُ زوالَ ملكِهِ، فَيَطْلُبُ الولدَ لِيَأمَنَ مِنْ زَوالِهِ، وجَلَّ اللهُ ﷻ عن أنْ تَلْحَقَهُ وحشةٌ أو يصيبَهُ ضَعْفٌ، أو يَخافَ زَوالَ الملكِ.

فإذا كانتِ الطرقُ التي بها يُرغَبُ في اكْتِسابِ الأولادِ مُنْقَطِعةً في حقِّهِ لَزِمَ تَنْزِيهُهُ عنِ اتِّخاذِ الأولادِ. ولهذا [في][2] ما ذَكَرَ عندما يَشْتَبِهُ الملاحدةُ في اتِّخاذِ الأولادِ: غِناهُ بقولِهِ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس:٦٨] أي غَنِيٌّ عن كلِّ الوجوهِ التي تَتَوَجَّهُ إلى اتِّخاذِ الأولادِ، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ فمنهُمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ سَفيهَهُمْ إبليسُ، وليسَ هذا يرجعُ إلى كلِّ مَنْ يوجَدُ منهُ فِعْلُ السَّفَهِ.

ألا تَرَى أنهُ إذا قيلَ: كانَ يقولُ مُسيئُنا كذا، أو كانَ يقولُ فاسِقُنا كذا، لم يُعْنَ بهِ فاسقٌ ولا مُسيءٌ واحدٌ على الإساءةِ، بل يُرادُ بهِ كلُّ معروفٍ بالإساءةِ والفِسْقِ؟.

فَعَلَى ذلكَ قولُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ ليسَ بِمُقْتَصِرٍ على الواحدِ، بل هو راجعٌ إلى كلِّ مَنْ يوجَدُ منهُ ذلكَ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ النَّفَرَ الذينَ اسْتَمَعوا كانوا مؤمِنينَ، ولم يكونوا مِنْ أهلِ الكُفْرِ، لأنهمْ لو كانوا أهلَ شِرْكٍ لَكانوا لا يُضيفونَ فِعْلَ السَّفَهِ إلى غَيرِهِمْ، ويُخْرِجونَ أنفسَهُمْ منهُ، وقد وُجِدَ منهمْ فِعْلُ السَّفَهِ، ولو كانوا مُشْرِكينَ أيضاً لَكانوا يقولونَ مَكانَ هذهِ الكلمةِ: وأنّا كُنّا نقولُ على اللهِ شَطَطاً ليكونَ ذلكَ منهُمْ توبةً ورُجوعاً عمّا كانوا فيهِ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ وشُكْراً بِما أنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِنْ عظيمِ النِّعْمَةِ بأنْ هَداهُمْ لِلإيمانِ لا أنْ يُضيفوا ذلكَ إلى سُفَهائِهِمْ. فَثَبَتَ أنهمْ كانوا مؤمِنينَ.

والشَّطَطُ الجَورُ، وقالَ بعضُهُمْ: الكَذِبُ، وقالَ بعضُهُمْ: الظُّلْمُ. والشَّطَطُ ههنا الجَورُ، والجَورُ ما أتَوا بهِ مِنَ الفاحِشِ، وهو الشِّرْكُ باللهِ تعالى، وهذا يُبَيِّنُ أنَّ الجَورَ قبيحٌ في كلِّ الألسنِ وفي ما بَينَ أهلِ الأديانِ. ألا تَرَى كيفَ سَفَّهوا مَنْ يقولُ على اللهِ تعالى بالجَورِ؟

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ الأصَمُّ أنهمْ كانوا اعْتَقَدوا أنَّ للهِ تعالى صاحبةً وَولداً لِما سَمِعوا الجنَّ والإنسَ، يقولونَ ذلكَ، وكانَ عندَهُمْ أنهمْ في ذلكَ صادقونَ. فذلكَ المَعْنَى، هو الذي حَمَلَهُمْ على القولِ بأنَّ للهِ تعالى ولداً وصاحبةً.

فلما ظَهَرَ عندَهُمْ كَذِبُ مَنْ يَدَّعي اتِّخاذَ الولدِ والصاحبةِ تَبَرَّؤوا مِمَّنْ يقولُ ذلكَ. فَثَبَتَ بهذا أنهمْ كانوا أهلَ شِرْكٍ إلى هذا الوقتِ.

فلما اسْتَمَعوا إلى قراءةِ الرسولِ ﷺ ولاحَتْ لهمُ الحُجَجُ، وارْتَفَعَتْ عنهمُ الشُّبْهَةُ، آمنوا بهِ، وتَبَرَّؤوا مِنْ مَقالَتِهِمُ المُتَقَدِّمةِ.

وقد يَحْتَمِلُ غَيرَ ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ مِنَ التأويلِ، وهو أنَّ القومَ[3]: كانوا أُنْشِئوا على الهُدَى والإيمانِ، فكانوا يَظُنّونَ أنَّ الجِنَّ والإنسَ على الهُدَى وأنهمْ لا يكذِبونَ على اللهِ حتى ظَهَرَ عندَهُمْ كَذِبُ الإنسِ والجِنِّ بقولِهِمْ: إنَّ للهِ ولداً وصاحبةً.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنّا كنّا نَظُنُّ ألّا تَسْخُوَ نَفْسُ أحدٍ مِنَ المُمْتَحَنينَ بالكَذِبِ على اللهِ بما أراهُمُ اللهُ قُبْحَ الكذبِ، وقَرَّ عندَهُمْ بالحُجَجِ والأدلةِ تَنْزيهُهُ عنِ اتِّخاذِ الأولادِ والصاحبةِ حتى ظَهَرَ عندَهُمْ ذلكَ بِما أظْهَروهُ بألْسِنَتِهِمْ.

ثم الذي / ٦٠٢ ـ أ/ يدلُّ على أنَّ التأويلَ الذي ذَكَرَهُ أبو بكرٍ ليسَ بِمُحْكَمٍ أنهُ قد كانَ في الجِنِّ والإنسِ مُصَدِّقٌ، يَصِفُ اللهَ تعالى بالتَّنْزيهِ، وقد كانَ فيهِمْ مَنْ يقولُ بالولدِ أو الصاحبةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ حكايةً عنهمْ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] وإلى قولِهِ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؟ [الجن: ١١].

---

(١) في الأصل وم: بهم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: القول.

ولا يَحْتَمِلُ أنْ يَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الفريقَينِ جميعاً على الصوابِ، ولكنْ كانَ في ظُنونِهِمْ أنَّ القومَ جميعاً على الهُدَى على ما هُمْ عليهِ. فلمّا تَبيَّنَ عندَهُمُ الكَذِبُ مِنْ أولئكَ قالوا هذا القولَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وذُكِرَ أنَّ الإنسَ، وهُمْ قومٌ مِنَ[1] العربِ، كانتْ إذا نَزَلَتْ بوادٍ استَجارَتْ بِسَيِّدِ الوادي، وقالَتْ: نعوذُ بِسَيِّدِ هذا الوادي مِنْ سُفَهاءِ قومِهِ.

ثمّ اخْتُلِفَ بعدَ هذا، فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ كانوا يُجيرُونَهُمْ، ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهمْ كانوا لا يُجيرُونَهُمْ، وكانَ ذلكَ يزيدُ في رَهَقِ الإنسِ والجنِّ، وقالوا: الرَّهَقُ الخوفُ والفَرَقُ، كذلكَ رُوِيَ عنْ أبي رَوْقٍ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو الذِّلَّةُ والضَّعْفُ، فكانوا يزدادونَ [ضَعْفاً وذِلَّةً وخَوفاً وفَرَقاً][2] بامْتِناعِهِمْ عنِ الإجارَةِ[3] ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنهمْ كانوا يُجيرونَ مَنِ اسْتَجارَهُمْ. ولكنْ مَعَ هذا كانوا يَفْرَقونَ منهمْ ومِنْ كَيدِهِمْ في الأماكنِ التي لم تَسْتَجيروا فيها إليهِمْ وفي غَيرِ الأوقاتِ التي وقعَتْ فيها الإجارةُ.

وعلى اخْتِلافِهِمُ اتَّفَقوا أنَّ الجِنَّ هي التي كانَتْ تَزيدُ الإنسَ رَهَقاً.

وقيلَ بأنَّ هذا الفعلَ مِنَ الإنسِ، وهو الاسْتِجارةُ بهمْ، شِرْكٌ لأنَّ اللهَ تعالى، هو المُجيرُ، فكانَ الحقُّ عليهِمْ أنْ يَسْتَجيروا باللهِ تعالى لِيَدْفَعَ عنهمْ مَكايِدَ الجِنِّ ولا يَرَوا لأنفسِهِمْ ناصراً غَيرَ اللهِ، جَلَّ جلالُهُ، فإذا فَزِعوا في الاسْتِجارةِ إلى الجِنِّ فقد رَأَوا غَيرَ اللهِ تعالى، يَقومُ عنهمْ بالذَّبِّ والنَّصْرِ، فكانَ ذلكَ منهمْ إشراكاً ولأنَّ الجِنَّ أضعَفُ مِنَ الإنسِ.

ألا تَرَى أنها تَخْتَفي مِنَ الإنسِ[4]، وتَتَصَوَّرُ بِغَيرِ صورَتِها فَرَقاً لئلّا يَشْعُرَ بها، وبَلَغَ مِنْ ضَعْفِها أنها لا تَقْدِرُ على إتلافِ أحدٍ مِنَ البشرِ، ولا تَقْدِرَ على سَلْبِ أموالِهِمْ ولا إفسادِ طَعامِهِمْ وشَرابِهِمْ؟ واسْتِنصارُ القويِّ بالضعيفِ إراءَةُ الذِّلّةِ، فَيَخْرُجُ تأويلُ مَنْ قالَ بأنَّ الرَّهَقَ، هو الذِّلَّةُ والضَّعفُ على هذا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ الإنسَ، هي التي كانَتْ تَزيدُ الجِنَّ رَهَقاً، وقالوا: الرَّهَقُ التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، وقيلَ: هو السَّفَهُ والجهلُ والمَأْثَمُ[5].

وقالَ القُتَبِيُّ: هو العَبَثُ في الظُّلْمِ؛ يقالُ: فلانٌ مُرْهَقٌ في دينِهِ إذا كانَ مُفْسِداً.

ووجهُ زيادةِ الرَّهَقِ، هو أنَّ الرؤساءَ مِنَ الجِنِّ، يَرَونَ لأنفسِهِمُ الفَضْلَ على أتباعِهِمْ مِنَ الجِنِّ فَيَتَداخَلُهُمُ الكِبْرُ مِنْ ذلكَ، ويَزْدادونَ بهِ تَجَبُّراً وتَعَظُّماً، فكانَ ذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ الرسلِ.

وكذلكَ أكابرُ الكَفَرَةِ مِنَ الإنسِ كانوا يَمْتَنِعونَ عنِ الإجابةِ للرسولِ ﷺ بما يَرَونَ لأنفسِهِمْ مِنَ الفَضْلِ على مَنْ سِواهُمْ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ الآيةَ؟ [الأنعام: ١٢٣].

فَمَنْ زَعَمَ أنَّ الرَّهَقَ الإثمُ أوِ السَّفَهُ أوِ الجورُ أوِ الظُّلْمُ أوِ العَبَثُ يُرْجِعُهُ[6] كلَّهُ إلى هذا المَعْنَى الذي ذَكَرْنا لأنَّ سَفَهَهُمْ، هو الذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على التَّجَبُّرِ والتَّكَبُّرِ لأنهُ كانَ لا يَستعيذُ بهمْ إلّا الجاهلُ السفيهُ، وليسَ في إعاذةِ الجاهلِ مَنْقَبةٌ لِما يَتَكَبَّرُ لأجْلِها، وهمْ بِتَكَبُّرِهِمُ ازْدادوا إثماً وبُعْداً مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا نَفَوُا القُدْرَةَ عنِ اللهِ تعالى [على البعثِ][7] لِما لم يُشاهِدوا البعثَ، ورَأَوهُ أمراً خارجاً عنْ طَوقِهِمْ وقِواهُمْ، فَظَنُّوا أنَّ القُدْرةَ لا تَنْتَهي إلى هذا، لا أنْ يكونوا نَفَوا خُروجَ البعثِ عنْ حدِّ الحكمةِ لأنهمْ لو أرادوا بهِ نَفْيَ البعثِ لكانوا يَقْتَصِرونَ على قولِهِمْ: ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ﴾ تعالى، فلمّا وَصَلوا بهِ الكلامَ الذي يَتَكَلَّمُ بهِ للتأكيدِ، وهو قولُهُ: ﴿أَحَدًا﴾ دلَّ أنهمْ نَفَوُا القُدْرَةَ.

وجائزٌ أنْ يكونوا ظَنّوا ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ لأنهُ أمرٌ خارجٌ عنِ الحكمةِ؛ إذْ ليسَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يُهْلَكَ، ثم يُعادَ، بل إنْ أُريدَ الإبقاءُ فلنْ يُفْنَى حتى لا يُحاجَ[8] إلى الإعادةِ.

---

(١) ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: الضعف والذلة والخوف. (٣) في الأصل وم: الإعاذة. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الأصل. (٥) في الأصل وم: وهي المأثم. (٦) في الأصل وم: يرجع. (٧) في الأصل وم: بالبعث. (٨) في الأصل وم: يحوج.

ثم هذا الكلامُ ليسَ بحكايةٍ عنِ الجنِّ، بلِ اللهُ تعالى [قالَ][1]: إنَّ الجنَّ ظَنَّتْ أنْ لا بعثَ كما ظَنَنْتُمْ أنتمْ. وقولُهُ تعالى: ﴿ظَنَنتُمْ﴾ في الظاهرِ إشارةٌ إلى الإنسِ جملةً مُسْلِمِهِمْ وكافِرِهِمْ. ومَعْلومٌ بأنَّ المسلمينَ لم يكونوا يَظُنّونَ ذلكَ بل قد أيْقَنوا بالبعثِ، ولكنَّ مَعْناهُ أنَّ الكَفَرَةَ مِنَ الجنِّ ظَنَّتْ أنْ لا بعثَ كما ظَنَّتِ الكَفَرَةُ منكُمْ أيُّها الإنسُ في هذهِ الآيةِ إبانةُ أنهمْ كانوا يقولونَ: لا بعثَ بالظَّنِّ، ليسَ بالعِلْمِ.

والذي حَمَلَهُمْ على الظَّنِّ إعراضُهُمْ عنِ السببِ الذي يُوجِبُ القولَ بالبعثِ، وكلٌّ يأنَفُ بالطبعِ أنْ يَلْزَمَ الظنونَ، ففيهِ دعاءٌ وترغيبٌ في النَّظَرِ إلى حُجَجِ البعثِ وتَرْكِ الاعْتِمادِ على الظُّنونِ.

ثم ذَكَرَ النَّحْوِيّونَ أنْ كانَ ابْتِداؤُهُ بالكسرِ في هذهِ السورةِ أعْني حَرْفَ ﴿أَنَّ﴾ فهو حكايةٌ عنِ الجنِّ نحوُ قولِهِ: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ وما كانَ فيهِ مِنَ الحكايةِ لا عنِ الجنِّ، فَحَقُّهُ أنْ يُقْرَأَ بالنَّصْبِ، فاخْتاروا النَّصْبَ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ لِما ليسَ هو بحكايةٍ عنْ قولِ الجنِّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ لَمْسُهُمُ السماءَ لِيَجِدوا أبوابَها، فَيَدْخُلوا فيها لِلاسْتِماعِ، إذْ أخبارُها ليستْ في جُمْلةِ آفاقِ السماءِ ولا أبوابُها مُحيطةً بِجُمْلةِ السماءِ، فكانوا يَلْمَسونَها لِيَظْفَروا بأبوابِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ مِنْ لَمْسِ أبوابِها لِيَفْتَحوها[2]، فَيَدْخُلوا فيها، فَيَسْتَمِعوا[3] إلى الأخبارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ بعضُ الأبوابِ مُلِئَتْ مِنَ الحَرَسِ، وبعضُها مِنَ الشُّهُبِ. فإنْ أتَوا إلى الأبوابِ التي مُلِئَتْ مِنَ الحَرَسِ دَفَعَتْهُمُ الحَرَسُ، وطَرَدَتْهُمْ، وإنْ أتَوا إلى الأبوابِ التي مُلِئَتْ بالشُّهُبِ تَبِعَتْهُمُ الشُّهُبُ كما قالَ ﷺ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨و٩].

وجائزٌ أنْ تكونَ الأبوابُ كلُّها مَمْلوءةً مِنَ الحَرَسِ والشُّهُبِ جميعاً لأنَّ الحَرَسَ لم يُمْتَحَنوا بالحراسةِ خاصَّةً، بلِ امْتُحِنوا [بها وبِغَيرِها][4] مِنَ الأعمالِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اشْتِغالُهُمْ بِتِلكَ الأعمالِ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الحَرَسِ، فإذا رَأَوا [مَنْ يَسْتَرِقُ][5] السَّمْعَ في وقْتِ شُغْلِهِمْ تَبِعَتْهُمْ [بالشُّهُبِ الثاقبةِ][6] وقَذَفَتْهُمْ عَنْ مُرادِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يَصْعَدَ الجِنُّ إلى المكانِ الذي لا يراهُمُ الملائكةُ، ويَسْمَعَ الجِنُّ كلامَهُمْ، لأنَّ المَرْءَ قد يَتَكَلَّمُ بكلامٍ، فَيَنْتَهي صوتُهُ إلى حيثُ لا يراهُ البَصَرُ، فتكونُ الشُّهُبُ تَحْتَ الحَرَسِ، فَيُقْذَفونَ عنها بالشُّهُبِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ / ٦٠٢ ـ ب/ قيلَ: الشِّهابُ مِنَ الكواكبِ، والرَّصَدُ مِنَ الملائكةِ، والأصلُ[7] في ذلكَ أنَّ الجِنَّ قد حُبِسوا وقْتَ مَبْعَثِ رسولِ اللهِ ﷺ عن خَبَرِ السماءِ، وكانوا يَسْتَرِقونَ السَّمْعَ قبلَ ذلكَ، حتى [يَنْقَطِعَ عنِ][8] الكهنةِ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يأتوا بِخَبَرِ السماءِ وقتَ مَبْعَثِ النَّبيِّ ﷺ حتى لا[9] يَخْتَلِطَ أمرُ الكهنةِ بأمرِهِ ﷺ فَحُبِسوا عنِ الصعودِ إلى السماءِ وإتْيانِ الخَبَرِ عنها حتى يَنْقَطِعَ أمرُ الكهنةِ، فجاءَهُمُ الرسولُ بعدَ ذلكَ لِيَعْلَموا أنَّ ذلكَ ليسَ بِكهانةٍ، وإنما هو وَحْيٌ ثابتٌ مِنَ السماءِ؛ إذْ لو كانَ كهانةً كانَ غَيرُهُ لا يُمْنَعُ عنْ مِثْلِهِ كما في سالفِ الأزمانِ.

فهذهِ الآيةُ كأنها[10] حكايةٌ عنْ قولِ الجِنِّ لمّا رَجَعوا إلى قومِهِمْ مُنْذِرينَ، قالوا هذا كلَّهُ لقومِهِمْ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ليفتحوا بها. (٣) في الأصل وم: فيستمعون. (٤) في الأصل وم: به وبغيره. (٥) في الأصل وم: استراق. (٦) في الأصل وم: الشهاب الثاقب. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: انقع من. (٩) في الأصل وم: كان. (١٠) في الأصل وم: كأن.

أحدُهما: لا نَدْري بمَ قُطِعَتْ؟ بالحَرَسِ أم[1] بالشُّهُبِ أخبارُ السماءِ عن أهلِ الأرضِ؟ وحُبِسَ الذين يَصْعَدونَ السماءَ عنْ أخبارِ السماءِ ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ ﴿دُحُورًا﴾ [الصافات: ٨و٩] بأهلِ الأرضِ ﴿أَشَرٌّ﴾[2] وهو إنزالُ العذابِ عليهمْ [﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أنْ يُرْسِلَ رسولاً][3] يُرْشِدُهُمْ.

[والثاني][4]: جائزٌ أنْ يكونوا أيقَنوا أنَّ أخبارَ السماءِ إنما انقَطَعَتْ عنْ أهلِ الأرضِ بما يُرسِلُ إليهمْ مِنَ الرسلِ[5]، فيكونُ الرسولُ، هو الذي يُخبِرُهُمْ بمالَهُمْ إليهِ مِنْ حاجةٍ، ولكنهمْ لم يَدْروا أنهُ أُريدَ بهمُ الرُّشْدُ بإرسالِ الرسولِ أم[6] الشَّرُّ، لأنهمْ كانوا عَلِموا أنَّ مَنْ آمَنَ بالرسولِ المَبْعوثِ، ونَظَرَ إليهِ بعَينِ الاِسْتِهْداءِ والإسْتِرْشادِ[7]، فقد رَشَدَ، ومَنْ نَظَرَ إليهِ بعَينِ الاِسْتِخْفافِ والاِسْتِهْزاءِ اسْتُؤصِلوا، فلم يَدْروا أيُكَذِّبونَ الرسولَ، فَيَحِلُّ بهمُ الهلاكُ في العاقبةِ أم[8] يُصَدِّقونَ، فَيَرْشُدوا بهِ.

وهذا تَبيينٌ أنَّ العواقبَ في الأشياءِ هيَ المَقْصودةُ، وأنَّ الحكيمَ ما يَفعَلُ مِنَ الأمرِ يَفْعَلُهُ للعواقبِ.

وفي هذا إبانةٌ أنَّ الجنَّ مِنَ المُسْلِمينَ، لم يكونوا مُعْتَزِلةً؛ إذْ مِنْ قولِ المعتزلةِ أنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بعبادِهِ إلّا ما هو أصلَحُ لهمْ في الدينِ والدنيا في حقِّهِمْ، والجنُّ قد أيقَنوا أنَّ اللهَ تعالى قد يريدُ الشَّرَّ لِمَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤثِرُ فِعلَ الشَّرِّ على فِعْلِ الخَيرِ، ويُريدُ الخَيرَ لِمَنْ يَعْلَمُ بأنهُ يُؤثِرُهُ على فِعْلِ الشَّرِّ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿الصَّالِحُونَ﴾ هُمُ المؤمنونَ، و ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هُمُ الكافرونَ. ويُشْبِهُ أنْ يكونَ ﴿الصَّالِحُونَ﴾ و ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ليسَ على الإيمانِ والكُفْرِ، لأنَّ هذا قد ذُكِرَ في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ بقولِهِ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الآية: ١٤] ولو كانَ التأويلُ على ما ذَكَروا لكانَ يَقَعُ موقِعَ التَّكرارِ.

ولكنَّ تأويلَهُ عندَنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ أي منّا مَنْ عُرِفَ بالصَّلاحِ والسَّتْرِ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وهُمُ الفَسَقَةُ، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ كلَّ أهلِ دينٍ، فيهمُ الصالحُ المَرْضِيُّ، وفيهمُ الفاسقُ المُفْسِدُ في دينِهِ، كقولِ[9] اللهِ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] ولو لم يكُنْ منّا غيرُ صالحٍ لم يكنْ لاِشْتِراطِ الصالحينَ مَعْنىً، وكقولِهِ ﷺ: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فلو لم يكنْ منّا أهلُ فِسْقٍ لم يَقُلْ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي أهواءً مُتَفَرِّقَةً، ولم يَذْكُروا الأهواءَ[10] المُتَفَرِّقَةَ في الأصْلَحِ والأدْوَنِ، ذَكَروا ذلكَ عندَ ذِكْرِ الفاسِقِ والصالِحِ، لأنَّ أهلَ الأهواءِ، كلٌّ [يَعْتَقِدُ][11] في نَفْسِهِ أنهُ، هو المُحِقُّ، وغيرَهُ على الباطلِ، وأمّا الفاسِقُ فهو يَعْرِفُ أنهُ يَتَعاطى بِفِسْقِهِ ما لا يَحِلُّ لهُ، ويَرْتَكِبُ ما نُهِيَ عنهُ، وكذلكَ كلُّ مَنْ شاهدَ فِسْقَهُ يَعْرِفُ أنهُ على الباطلِ. فإذا[12] كانَ كذلكَ ظَهَرَ الدُّونُ فيهِ، وظَهَرَ الصالحُ، ولم يَظْهَرْ ذلكَ في اعْتِقادِ المذاهبِ، فلم يُتَكَلَّمْ فيهِ بالدُّونِ والصالحِ.

ثم الطرائِقُ، هي المَذاهِبُ والأهواءُ، والقِدَدُ القِطَعُ؛ يُقالُ: قَدَّهُ[13] أي قَطَعَهُ؛ فمعناهُ أنّا كُنّا على مذاهِبَ مُتَفَرِّقَةٍ وأهواءٍ مُتَشَتِّتَةٍ.

ففي[14] الآيةِ أنَّ في الجنِّ أهواءً مُتَفَرِّقَةً كما أنَّ ذلكَ في الإنسِ.

والأصلُ أنَّ مَعْرِفَةَ المَذهبِ والدينِ بالفِكْرِ والاِجْتِهادِ للتَّوَصُّلِ إلى الحَقِّ، والمجتهِدُ قد يُصيبُ الطريقَ مَرَّةً، ويَزيغُ عنهُ أُخرَى. فَلِهذا[15] أصابَ البعضُ مِنَ الخلائقِ الطريقَ المُسْتَقيمِ، ومنهمْ مَنْ زاغَ عنهُ، ويُعْلَمُ بهذا أنَّ سَبيلَ الجنِّ في التَّوحيدِ وسَبيلَ الإنسِ واحدٌ، وهو الفكرُ، ولهُ اجْتِهادٌ، وأنَّ فيهمْ آياتٍ مُتَشابِهَةً كما في الإنسِ إذْ عنِ المُتَشابِهِ يَتَوَلَّدُ الزَّيغُ. لِذلكَ تَفَرَّقوا في أهواءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وأمّا أسبابُ الفِسْقِ مُجْتَمِعَةً فَتُعْرَفُ بالمُعايَنَةِ، فَتُظْهِرُ الأدْوَنَ والأرفَعَ في الدينِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: الشر. (٣) في الأصل وم: أو أريد بهم أن يرسل رسول. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: الرسول. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: والارشاد. (٨) في الأصل وم: و. (٩) في الأصل وم: قال. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: في. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ما.

الآية ١٢ وقولهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ ذَكَرَ أبو بكرٍ أنهُ على كُفرِهِمْ ظَنُّوا ألّا يُعْجِزوا اللهَ تعالى، ولكنَّ أكثرَ أهلِ التأويلِ ذَكَرَ أنَّ الظَّنَّ ههنا في مَوضعِ العِلْمِ، ويُؤَكِّدُ تأويلَهُمْ قراءةُ حفصةَ ﵂ فإنها كانتْ تَقرَأُ: وأنّا عَلِمْنا أنْ لنْ نُعْجِزَ اللهَ في الأرضِ فَرَرَةً، ولَنْ نَسْبِقَهُ هَرَباً.

فقولُهُ: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لَنْ نَفوتَهُ، ولا يَتَهَيَّأُ لنا أنْ نُعْجِزَ اللهَ بأهلِ الأرضِ عنْ إيصالِ نِقْمَتِهِ وعذابِهِ إلينا.

ويُخَرَّجُ قولُهُ ﴿هَرَبٗا﴾[1] على ذلكَ، أي لو فَرَرْنا مِنْ عذابِهِ لن نُعْجِزَهُ ألّا يُعَذِّبَنا.

والفِرارُ قد يكونُ بدونِ الطَّلَبِ؛ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠]. ولم يُرِدْ بهِ الفِرارَ مِنَ الطَّلَبِ.

وأمّا الهَرَبُ فإنهُ لا يكونُ إلّا عنْ طَلَبٍ؛ فكأنهمْ قالوا: لا يَتَهَيَّأُ لنا الفِرارُ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى لِكَثْرَةِ الأعوانِ والأنصارِ، ولا يُعْجِزُ هَرَبُنا عنْ طَلَبٍ، أو يكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ وإنْ دَخَلْنا تحتَ تُخومِ الأرضينَ، ولنْ نُعْجِزَهُ بالهربِ على وجهِ الأرضِ، فيكونُ فيهِ إقرارٌ بأنّا لا نَقْدِرُ بالحِيَلِ والأسبابِ أنْ نَحْتَرِزَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى كما يَتَهَيَّأُ الاِحْتِرازُ مِنْ ملوكِ الأرضِ بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم مثلُ هذا الكلامِ يَصْدُرُ عنْ أهلِ الإسلامِ، لأنَّ مِثْلَ هذا الكلامِ إنما يَتَكَلَّمُ بهِ مَنْ يَخافُ نِقْمَةَ اللهِ تعالى عليهِ والذي أيقَنَ بالبعثِ، ويَذْكُرُ مُقامَهُ بينَ يَدَي ربِّهِ.

وأمّا أهلُ الكُفْرِ فلمْ يُؤمِنوا بالبعثِ حتى يَحْمِلَهُمْ خَوفُ العاقبةِ على النَّظَرِ في مِثْلِ هذا.

فَثَبَتَ أنَّ هذهِ المَقالةَ صَدَرَتْ عنْ أهلِ الإسلامِ، ليسَ عنْ أهلِ الكُفْرِ [كما ذَكَرَ][2] أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ هذهِ المَقالةَ صَدَرَتْ [عنهمْ][3] واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ فالهُدَى، هو الدعاءُ إلى الحقِّ، فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ لمّا دُعينا إلى الحقِّ، وهو القرآنُ، آمَنّا بهِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وقولِهِ[4] تعالى في أوَّلِ السورة: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؟ [الجن: ٢].

ويجوزُ[5] أنْ يكونَ الهُدَى، هو الاِهْتِداءُ، أي لمّا سَمِعْنا ما بهِ اهْتَدَينا.

وظَنَّ أبو بكرٍ الأصمُّ أنهمْ كانوا كَفَرَةً إلى أنْ سَمِعوا الهُدَى، فآمنوا بهِ؛ لأنهمْ[6] لو كانوا /٦٠٣ ـ أ/ على الهُدَى مِنْ قَبْلُ لكانَ الإيمانُ منهمْ سابقاً، فلا يكونُ لِقولِهِ ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ وقد آمنوا بهِ مِنْ قَبْلُ، مَعْنىً. وليسَ يَثْبُتُ كُفْرُهُمْ بما ذَكَرَ لأنهُ قد يَجوزُ أنْ يكونوا على الإيمانِ، فلمّا[7] سَمِعوا الهُدَى أحدَثوا إيماناً بهذا الهُدَى على ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الإيمانِ بالجملةِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقولِهِ[8]: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾؟ [الفتح: ٤] أي زادوا إيماناً لِتفسيرِ مَعَ ما سَبَقَ منهمْ مِنَ الإيمانِ بالجملةِ [لا][9] أنهمْ لم يكونوا مِنْ قَبْلُ مؤمنينَ، فأحْدَثوهُ للحالِ، وكذلكَ قولُهُمْ[10]: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] [وقد هُدُوا الصراطَ المُستقيمَ][11] ولكنهمْ يُريدونَ بهذا الدعاءِ: أنِ اهْدِنا بالإشارةِ إليهِ والتَّعْيينِ الصِّراطَ المستقيمَ على ما هَدَيْتَنا في الجملةِ. فكذلكَ إحداثُهُمُ الإيمانَ بِما سَمِعوا مِنَ الهُدَى، لا يَنْفي عنهمُ الإيمانُ في ما سَبَقَ مِنَ الأوقاتِ، بل يجوزُ أنْ يكونوا مؤمنينَ مِنْ قَبْلُ، ثم يُحْدِثوا[12] الإيمانَ بكلِّ أمرٍ يَجيئُهُمْ مِنْ عندِ اللهِ ﷻ ولا يَدُلُّ إيمانُهُمْ بهِ على أنهمْ لم يكونوا مِنْ قبلُ مُسْلِمينَ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: فررة. (٢) في نسخة الحرم المكي: كما ذكره، في الأصل وم: ذكره. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) الواو ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: لأنه. (٧) في الأصل وم: فلا. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: قال. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يحدثون.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: إنهُ لا أحدَ مِنْ أهلِ الإيمانِ مِنْ جِنِّيٍّ ولا إنسِيٍّ يَخافُ البَخْسَ والرَّهَقَ مِنَ اللهِ تعالى إلّا المعتزلةَ؛ فإنهمْ يخافونَ ذلكَ لأنهم ليسوا يُخرِجونَ مُرْتَكِبي الكبائرِ، بل[1] يُطْلِقونَ القولَ فيهِمْ: إنهمْ يُخَلَّدونَ في النارِ، وفي التَّخْليدِ تَخْويفُ البَخْسِ والرَّهَقِ، بل فيهِ ما يزيدُ على البَخْسِ، وهو النُّقْصانُ، وفي التَّخْليدِ ذهابُ مَنْفَعَةِ الإيمانِ ومَنْفَعَةِ الخَيراتِ التي سَبَقَتْ منهمْ.

وقالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] والمعتزلةُ تَزْعُمُ أنهُ لو آخَذَهُمْ بالخَطَإِ والنِّسيانِ كانَ جائراً، وقالَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] وهم يَزْعُمونَ أنهُ لو أزاغَ قلوبَهُمْ بَعدَ الهُدَى كانَ منهُ جَوراً وظُلْماً؛ فهمْ أبداً على خَوفٍ مِنْ جَورِ ربِّهِمْ، ونحنُ نقولُ: إنهُ لو آخَذَهُمْ بِهِ كانَ يكونُ ذلكَ منهُ عَدْلاً، وإذا عَفا عنهمْ كانَ ذلكَ منهُ إنعاماً وإفضالاً.

فنحنُ ندعو اللهَ تعالى، ونَتَضَرَّعُ إليهِ ألّا يُعامِلَنا بِعَدْلِهِ، فَنَهْلِكَ، بل [ندعوهُ أنْ][2] يُعامِلَنا بالإفضالِ والإنعامِ.

وعلى قولِ المعتزلةِ: [مَنِ][3] ارْتَكَبَ كبيرةً رُدَّتْ عليهِ حَسَناتُهُ، وصارَ عَدُوّاً للهِ تعالى [وخُلِّدَ][4] في النارِ أبَدَ الآبِدينَ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. وأَولَى الحَسَناتِ التي تُسْتَوجَبُ عليها المُضاعفةُ، هي الإيمانُ باللهِ تعالى، فلا يجوزُ أنْ يُخَلَّدَ في النارِ، وتُذْهَبَ عنهُ مَنْفَعَةُ الإيمانِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: البَخْسُ النُّقْصانُ، أي لا يُنْقَصُ مِنْ حَسَناتِهِ، والرَّهَقُ الظُّلْمُ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ولا يُحْمَلُ عليهِ مِنْ سَيِّئاتٍ ارْتَكَبَها غَيرُهُ:

والثاني: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي لا تُقْبَلُ حَسَناتُهُ إذا تابَ ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ أي يُظْلَمُ، فلا تُحْسَبُ لهُ حَسَناتُهُ شيئاً.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فالقاسطُ الجائرُ العادلُ. ثم [في][5] العَدْلِ ثلاثُ لُغاتٍ؛ يُقالُ: عَدَلَ عنهُ إذا مالَ، وجارَ، وعَدَلَ بِهِ إذا جَعَلَ [لهُ][6] شريكاً وعديلاً، وعَدَلَ فيهِ إذا حَكَمَ بالعَدْلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ التَّحَرِّي والتَّوَخِّي، هو القصدُ؛ فكأنهُ يقولُ: قَصَدَ الرُّشْدَ بالإسلامِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّتِ الآيةُ على أنَّ لِلجنِّ لَحماً وَدَماً كما للإنسِ لأنهُ [قالَ في الإنسِ][7]: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤ والتحريم: ٦] فلو لم يكونوا لَحماً وَدَماً لم يَصيروا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

ولكنَّ هذا لا يدُلُّ [على ذلكَ][8] لأنَّ اللحمَ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَحْتَرِقَ، ويَنْتَضِجَ، ولا يَصْلُحُ أنْ يكونَ[9] وقوداً، ولكنَّ اللهَ تعالى باللطفِ صَيَّرَ لُحْمانَ الإنسِ وقوداً، ليسَ أنْ صارَ حَطَباً بما كانَ لَحماً، فليسَ في الآيةِ دلالةُ ما ذَكَرَ، بل فيهِ أنَّ الجِنَّ امْتُحِنوا بالعبادةِ كما امْتُحِنَ بها الإنسُ، وأنهمْ إذا عَصَوا ربَّهُمْ اسْتَوجَبوا العقابَ مِثْلَ ما يَسْتَوجِبُهُ الإنسُ.

ثم ذُكِرَ عنْ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: ليسَ للجنِّ ثوابٌ [وعَلَيهِمُ العقابُ إذا عَصَوا، ومَعْنَى قولِهِ: ليسَ لهمْ ثوابٌ][10] عندَنا: ليسَ يريدُ بِهِ أنَّ اللهَ تعالى لا يَرْضَى عنهمْ إذا عَبَدوهُ، ولا تَعْظُمُ منزلَتُهُمْ عندَهُ، ولكنهُ يريدُ بِهِ أنَّ الذي وَعَدَ للإنسِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ والأزواجِ الحِسانِ والحُورِ في الجنةِ على الخُلودِ، ليسَ لهمْ لأنَّ الوَعْدَ مِنَ اللهِ تعالى بها جَرَى للإنسِ، ولم يَجْرِ الوَعْدُ لِلجِنِّ، ولا ذُكِرَ ذلكَ في شيءٍ مِنَ القرآنِ.

---

(١) في الأص وم: ثم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يكونوا. (١٠) من م، ساقطة من الأصل.

والذي وَعَدَ بهِ الإنسَ طريقةُ الإفضالِ والإنعام لا أنْ يكونَ ذلكَ حقًّا للإنسِ قِبَلَهُ.

فإذا لم يَجْرِ لهمُ الوَعْدُ بذلكَ لم يَجِبِ القولُ لهمْ بالموعودِ.

وأمّا العقابُ فإنَّ الحِكْمَةَ تُوجِبُ التّعْذيبَ لِمَنْ كَفَرَ بهِ، فلا يجوزُ أنْ تكونَ [الحِكْمَةُ][1] تُوجِبُ تَعْذيبَ الكَفَرَةِ، ثم لا يُعَذِّبُ الجنُّ إذا كَفَروا، ولِذلكَ وَجَبَ القولُ بِعِقابِهِمْ، ولم يَجِبِ القولُ بالثوابِ، واللهُ الموفقُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ اختُلِفَ فيهِ:

فمنهمْ مَنْ قالَ: طريقةُ الهُدَى، ومنهمْ مَنْ قالَ: طريقةُ الكُفْرِ.

فَمَنْ قالَ: المُرادُ، هو طريقةُ الهُدَى، قالَ: إنَّ الطريقةَ المَعْروفةَ المَعْهودةَ، هي طريقُ اللهِ تعالى، فعندَ الإطلاقِ تَنْصَرِفُ إليهِ كالدينِ متى ذُكِرَ مُطْلَقاً يَنْصَرِفُ إلى دينِ الحقِّ، وكذلكَ السبيلُ المُطْلَقُ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وهو الإسلامُ. ثم يُخَرَّجُ هذا على وجوهٍ:

أحدُها: يَنْصَرِفُ إلى الكَفَرَةِ أنهمْ لَوِ اسْتَقاموا على الطريقةِ، أي لو أجابوا إلى ما يُدْعَونَ إليهِ مِنَ الهُدَى ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي وَسَّعْنا عليهِمْ، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ، ويكونُ ذِكْرُ الماءِ ههنا كِنايةً عنِ السَّعَةِ، لأنَّ سَعَةَ الدنيا كلِّها، تَتَّصِلُ بالماءِ، والماءُ أصلُها. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فأخبرَ أنَّ رِزْقَ الخَلْقِ مِنَ السماءِ ماءٌ، وهو المطرُ، وجَعَلَ ذلكَ رِزْقاً؛ إذْ هو أصلُ رِزْقِ الخَلْقِ، فكذلكَ ذَكَرَ الماءَ ههنا كنايةً عنِ السَّعَةِ مِنَ الوجْهِ الذي ذَكَرْنا.

فإنْ كانَ على هذا فيكونُ الخِطابُ راجعاً إلى الوقْتِ الذي كانوا ابْتُلُوا فيهِ بالقَحْطِ والسِّنينَ، فَوَعَدَ لهمْ أنهمْ لو أجابوا إلى ما دُعُوا إليهِ لَرَفَعَ عنهمُ القَحْطَ والسِّنينَ، ولَوَسَّعَ عليهِمْ في الرِّزْقِ، وهو كقولِ[2] نوحٍ وهودٍ وغيرِهما وَوَعْدِهِمْ أقوامَهُمْ[3] بإرسالِ الأمطارِ وتكثيرِ الأموالِ والأولادِ [ونحوِ ذلكَ][4].

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا في أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فإنهمْ كانوا في أوّلِ الإسلامِ في ضِيقِ الحالِ وشِدَّةٍ مِنَ العيشِ، وكانوا يَتَفَرّقونَ في الشِّعابِ والأوديةِ [لِشِدّةِ][5] ما حَلَّ بهمْ مِنَ الجوعِ لِيُصيبوا مِنْ عَيشِها، وعندَ اشْتِدادِ الحالِ تَخافُ النفسُ مِنْ هَولِها[6] والتّبديلِ، فَوُعِدُوا السَّعَةَ في العيشِ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ التي كانوا هُمْ عليها، أي داموا عليها، ولم يُبَدِّلوا الدينَ الحقَّ والهُدَى بالباطلِ كما وَعَدَ لهمُ النَّصْرَ والظَّفَرَ على الأعداءِ مَعَ قِلّةِ أنصارِهِمْ، إنْ داموا على الإسلامِ.

ويَحْتَمِلُ ما قالَ بعضُهُمْ: إنَّ تأويلَ قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي لو أسْلَمَ أهلُ الأرضِ كلُّهُمْ جميعاً لَوَسَّعْنا عليهِمُ الدنيا، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ وأولادَهُمْ، حتى يُفْتَنوا فيها، فَيُمْتَحَنوا بِمِحَنٍ شديدةٍ، فَيَتَحَمَّلَ البعضُ منهمْ، فَيَبْقَوا مؤمنينَ، ولا يَتَحَمَّلَ البعضُ، فَيُفْتَنوا، ويَعودوا إلى ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفْرِ حتى لا يَقَعَ / ٦٠٣ ـ ب/ الخُلْفُ في وَعْدِنا، فإنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ أنْ يَمْلأَ جهنَّمَ مِنَ الجِنّةِ والناسِ أجْمَعينَ، ولا يجوزُ أنْ يَقَعَ في وَعيدِهِ خُلْفٌ، وهُمْ لوِ اسْتَقاموا على الطريقةِ، ولم يَبْغُوا أدّى ذلكَ إلى خُلْفِ الوعيدِ [لا أنْ][7] يَمْلأَ إذا داموا على الطريقةِ، ولم يَبْغُوا، وتكونُ الحكمةُ في بَغْيِهِمْ أنْ يَعْرِفَ الخَلْقُ أنَّ اللهَ تعالى، لم يَخْلُقْهُمْ لِمَنافِعَ، تَحْصُلُ لهُ، ولكنْ خَلَقَهُمْ لأنفسِهِمْ: إنْ أحْسَنوا أحْسَنوا لأنفسِهِمْ، وإنْ أساؤوا فَعَلَيهِمْ، ولو أبقاهُمْ على الطريقةِ المُسْتَقيمةِ، وظَهَرَتِ المُوالاةُ في الجملةِ لَكانَ يَسْبِقُ إلى الأوهامِ أنهُ إنما خَلَقَهُمْ لِمَنافِعِ نفسِهِ.

وهذا مِنَ اللهِ تعالى بَيانُ عِلْمِهِ بما لا يكونُ: أنْ لو كانَ، كيفَ يكونُ أنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ الإيمانَ مِنَ البعضِ والكُفْرَ مِنَ البعضِ لِلْحِكْمَةِ التي ذَكَرْنا وغيرِها ممّا لا يَقِفُ على بعضِها الخَلْقُ دونَ البعضِ، وحَكَمَ كذلكَ [الحُكْمَ][8]؟

ثم أخبرَ أنهُ لو حَكَمَ بأنْ يَسْتَقيمَ الكُلُّ على طريقةِ الحقِّ، ويُؤمِنوا، لم يَحْكُمْ على طريقِ الأبدِ في حقٍّ، بل حكمُهُ أنْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: قول. (٣) في الأصل وم: قومهم. (٤) في الأصل وم: ونحوه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أهلها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لأنه. (٨) ساقطة من الأصل وم.

يَسْتقيمَ عليها البعضُ إلى مدةٍ، ثم يَترُكَ، ويُبَدِّلَ الحقَّ بالباطِلِ، ويدومَ البعضُ عليها تحقيقاً لِما ذَكَرْنا مِنَ الحُكْمِ، وهو كقولِهِ: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي لو [لم][1] يُفْرَضْ عليهِمُ الجهادُ والخُروجُ إلى القتالِ لَبرَزَ الذينَ كُتِبَ عليهمُ القتلُ، ومُنتهَى آجالِهِم القتلُ، إلى حَوائِجِ أنفسِهِمْ، فَيُقْتَلونَ[2] منهُ [بياناً لِحُكْمِهِ][3] الذي يَحْكُمُ أنهُ لو حَكَمَ كيفَ كانَ؟ فكذا هذا.

وأمّا مَنْ قالَ: مَعْناهُ طريقةُ الكُفْرِ فهو أنْ يكونَ المُرادُ بالاِسْتِقامةِ ههنا الإقامةُ، ولَفْظَةُ الإقامةِ يُعَبَّرُ بها عنِ الإقامةِ على الكُفْرِ والإسلامِ جميعاً، وتكونَ الطريقةُ ههنا إشارةً إلى الطريقةِ التي كانوا عَرَفوها قبلَ الإسلامِ، وهي الكُفْرُ.

وإنْ كانَتِ الطريقةُ إذا أُطْلِقَ ذِكْرُها أُريدَ بها طريقةُ الهُدَى، لأنَّ طريقةَ الكُفْرِ، هي التي كانَتْ معروفةً في ما بَينَهُمْ، وكذلكَ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الطريقةَ ههنا طريقةُ الكُفْرِ، فقولُهُ تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي وَسَّعْنا عليهِمْ، وكَثَّرْنا أموالَهُمْ، لِيَعْلَموا جُودَ ربِّهِمْ كيفَ بَسَطَ عليهِمُ الرزقَ معَ اخْتِيارِهِمْ عداوَتَهُ كما بَسَطَ على أوليائِهِ، ولِيَعْلَموا حِلْمَهُ حينَ[4] لم يُؤاخِذْهُمْ بذنوبِهِمْ، ولم يُعَجِّلْ بإنزالِ النِّقْمَةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ فالفِتْنَةُ المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ؛ فإنْ كانَ هذا في أهلِ الكُفْرِ ففي بَسْطِ [الرِّزْقِ][5] عليهِمْ مِحنةٌ شديدةٌ لأنَّ ذلكَ يَمْنَعُهُمْ عنِ الخضوعِ والانْقيادِ لِرسولِ اللهِ ﷺ لِما يَرَونَ[6] مِنَ الفَضْلِ على مَنْ دونَهُمْ في المالِ والسَّعَةِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤] [وقولِهِ تعالى][7]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾؟ [الأنعام: ١٢٣].

وإنْ كانَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى أهلِ الإسلامِ ففي التَّوسيعِ عليهِمْ مِحْنةٌ شديدةٌ، وكذلكَ جميعُ ما امْتُحِنَّا بهِ، فيهِ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فما مِنْ حالٍ تَعْتَرِضُ الإنسانَ إلّا ولَهُ[8] فيها شِدَّةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ: ومَنْ يُعْرِضْ عنْ طاعةِ ربِّهِ وعبادتِهِ، أو يُعْرِضْ عنْ توحيدِهِ، أو يُعْرِضْ عنِ القرآنِ، إذْ هو الذِّكْرُ[9]، والإعراضُ ههنا عبارةٌ عنِ الإيثارِ والاِختيارِ، أي مَنْ يَختَرْ غيرَ ذِكْرِ اللهِ تعالى على ما ذَكَرَهُ أو طاعةَ غيرِهِ على طاعتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ على التَّحقيقِ كما ذَكَرَهُ أهلُ التَّفسيرِ أنهم يُكَلَّفونَ الصُّعودَ على جَبَلٍ مِنْ نارٍ، لا يَقْدِرونَ إلّا بَعدَ شِدَّةٍ عظيمةٍ، ثم إذا بَلَغوا أعلاها يُهْوَونَ فيها. فذلكَ دأبُهُمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ، وذلكَ لأنَّ الصُّعودَ أشَدُّ مِنَ الهُبوطِ، فيكونُ الصُّعودُ عبارةً عنِ المَشَقَّةِ ههنا: أنْ يَسْتَقْبِلَهُ ما يَشُقُّ عليهِ.

وقيلَ: المَشَقَّةُ التي عليهِ، هي[10] ما يَحُلُّ بِهِ مِنَ العذابِ مُتتابِعاً عذاباً بَعْدَ عذابٍ.

وقالَ القُتَبِيُّ: الصُّعودُ المَشَقَّةُ، يُقالُ: يَصْعَدُ عليَّ هذا الأمرُ يَشُقُّ عليَّ.

ورُوِيَ عنْ عُمَرَ ﷺ أنهُ قالَ: ما يَصْعَدُني أمرُ مايَصْعَدُني خِطْبَةُ النِّكاحِ، أي ما يَشُقُّ عليَّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ أي ما يُسْجَدُ فيهِ وما يُسْجَدُ بهِ: فما يُسْجَدُ فيهِ، هي[11] البِقاعُ، وما يُسْجَدُ به، هيَ[12] الجوارحُ؛ فكأنهُ يقولُ: إنَّ البقاعَ التي يُسْجَدُ فيها، والأعضاءَ التي يُسْجَدُ بها، للهِ تعالى، لأنهُ، هو الذي خَلَقَها، وأنْشَأَها، والمَساجِدَ التي بُنِيَتْ فإنما تُبْنَى لِعِبادةِ اللهِ تعالى ولِيُدْعَى فيها، فلا تُشْرِكوا غيرَهُ في العبادةِ والدعاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أرادَ بالمَساجِدِ المَسْجِدَ[13] الحرامَ؛ رُوِيَ ذلكَ عنِ الضَّحّاكِ وغيرِهِ، فكأنهُ إنما صَرَفَ التأويلَ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ لأنَّ هذهِ السورةَ مكيةٌ، ولم يَكُنْ في غيرِها مِنَ البِقاعِ مَساجِدُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فيقتلوا. (٣) من م، في الأصل: بيان الحكمة. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: يروا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: ولها. (٩) في الأصل وم: ذكر. (١٠) في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: هو. (١٣) في الأصل وم: مسجد.

وقالَ بعضُهُمْ: المَساجدُ ههنا البِيَعُ والكنائسُ لأنَّ البِيَعَ والكنائِسَ بُنِيَتْ لِيُعْبَدَ اللهُ تعالى فيها، فَنَهاهُمْ أنْ يَعْبُدوا فيها غيرَ اللهِ، فَيُخَرَّجُ هذا مُخْرَجَ الاحتِجاجِ: أنكمْ قد عَلِمْتُمْ أنَّ المساجدَ بُنِيَتْ لِتَعْبُدوا اللهَ فيها فلا تَعْبُدوا فيها غيرَهُ.

وإذا كانَ اللهُ مُنْشِئَها وخالِقَها دونَ غيرِهِ فكيفَ تُشْرِكونَ معهُ غيرَهُ في العبادةِ والدعاءِ، وليسَ هو بِمُنْشِئٍ لها؟.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ على الدعاءِ نفسِهِ، فيكونُ مَعْناهُ ألّا تَدْعوا مع اللهِ أحداً لأنَّ الإلهَ اسمُ المَعْبودِ؛ كانَ القومُ إذا عَبَدوا شيئاً سَمَّوهُ إلهاً، فيقولُ: لا تَدْعوا معهُ أحداً إلهاً، فإنهُ هو الإلهُ، وهو المُستَحِقُّ للعبادةِ مِنْ كلِّ أحدٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالدعاءِ العبادةُ؛ قالَ ﷺ: «الدعاءُ مُخُّ العبادةِ» [الترمذي: ٣٣٧١].

وقالَ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فَجَعَلَ دُعاءَهُمْ إيّاهُ عِبادةً منهمْ لهُ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي لا تُشْرِكوا غيرَهُ معَهُ في العِبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ على جهةِ الرَّغبةِ فيهِ ومُوالاتِهِمْ لهُ؛ فقولُهُ تعالى: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي كادَ يَلْتَصِقُ بعضُهُمْ ببَعْضٍ[1] لِيَتَّصِلوا برسولِ اللهِ ﷺ أو ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي على رسولِ اللهِ ﷺ كادوا يَلْتَصِقونَ بهِ حُبّاً لِما سَمِعوا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ حِرْصاً على حَفْظِ ما سَمِعوا لأنهمْ كانوا مِنْ مُنْذِري الجنِّ، فَحَرَصوا على حِفْظِهِ وَوَعْيِهِ لِيُنْذِروا قومَهُمْ إذا رَجَعوا إليهِمْ، وتَعَجَّبوا ممّا سَمِعوا لأنهمْ سَمِعوهُ مِنْ مكانٍ لم يكُنْ مكانَ قراءةِ الكتبِ، وسَمِعوهُ[2] مِنَ الأُمِّيِّ الذي لم يَقْرأْ كتاباً قَطُّ، ولا عَرَفَ المَكْتوبَ، فَتَعَجَّبوا منهُ أشَدَّ التَّعَجُّبِ. واللِّبَدُ الْتِصاقُ الشيءِ بالشيءِ الْتِصاقاً لا يُفْصَلُ بعضُهُ مِنْ بعضٍ، وسُمِّيَ اللِّبْدُ لِبْداً مِنْ هذا لأنَّ الصوفَ يَلْتَصِقُ بعضُهُ ببَعْضٍ[3] حتى لا يُسْرَدَ[4]. ومنهم مَنْ زَعَمَ أنهمْ فَعَلوا هذا لِشِدَّةِ مُعاداتِهِمْ رسولَ اللهِ ﷺ فيكونُ على هذا مُنْصَرِفاً إلى الكَفَرةِ.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ فَمَعناهُ /٦٠٤ ـ أ/ أي لمّا قامَ محمدٌ ﷺ يُوَحِّدُ اللهَ تعالى، ويَدْعو الخَلْقَ إلى عبادتِهِ وطاعتِهِ، هَمَّ المشركونَ مِنَ الإنسِ والجِنِّ، وتَلَبَّدوا على هذا الأمرِ أنْ يُطْفِئوهُ، فأبَى اللهُ إلّا أنْ يَنْصُرَهُ، ويُمْضِيَهُ.

وإنْ كانَ هذا مِنْ أهلِ الإسلامِ مِنَ الجِنِّ، والدعاءُ راجعٌ إلى العبادةِ، فكأنهُ يقولُ: لمّا قامَ بعبادةِ اللهِ تعالى، وهي الصلاةُ ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ لِشِدَّةِ حِرْصِهِمْ في تَحَفُّظِ ما سَمِعوا وشِدَّةِ حبِّهِمْ لِرسولِ اللهِ ﷺ ولِما سَمِعوا.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ففيهِ إخبارٌ عنْ دينِهِ أنَّ دينَهُ التَّوحيدُ: لا إشراكَ باللهِ تعالى، وإخبارٌ عمّا يَدْعو الخَلْقَ إليهِ؛ وذلكَ تَوحيدُ اللهِ تعالى والقيامُ بِطاعتِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على إثْرِ سُؤالٍ منهُمْ ودَعْوتِهِمْ إلى عبادةِ الأصنامِ على ما ذُكِرَ في الأخبارِ أنهمْ قالوا: إنّا نَعْبُدُ إلهَكَ يوماً، وتَعْبُدُ آلِهَتَنا يوماً، وهو كقولِهِ ﷺ: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ﴾ الآية [غافر: ٤١و٤٢].

وجائزٌ أنْ يكونَ كلاماً مُبْتَدأً: يُؤيِسُهُمْ، ويُقْنِطُهُمْ، ويَقْطَعُ طَمَعَهُمْ على عَودِهِ إلى ما هُمْ عليهِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ أي ضَرًّا في الدينِ ورَشَداً في الدينِ.

والأصلُ في الأسماءِ المُشْتَرَكةِ أنْ يُنْظَرَ إلى [مُقابِلِها، فَيَظْهَرَ[5] مُرادُها بما يُقابِلُها كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤] والقاسِطُ الجائرُ، وقد يكونُ غيرُ الكافِرِ جائراً، ثم صُرِفَ الجَورُ إلى الكُفْرِ، فَيَظْهَرُ مُرادُهُ بِمُقابِلِهِ][6] وهو قولُهُ: ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾.

---

(١) في الأصل وم: إلى بعض. (٢) في الأصل وم: وسمعوا. (٣) في الأصل وم: من بعض. (٤) في الأصل وم: يسر. (٥) في م: فينظر.
(٦) من م، في الأصل: مقابله.

والضَّرُّ قد يكونُ في الدينِ وفي المالِ والنفسِ، ولكنهُ لمّا ذَكَرَ قولَهُ: ﴿رَشَدًا﴾ والرُّشدُ يُتَكَلَّمُ بهِ في الدينِ، عُلِمَ أنَّ قولَهُ: ﴿ضَرًّا﴾ راجعٌ إليهِ أيضاً؛ فكأنهُ يقولُ: لا أملكُ إضلالَكُمْ ولا رُشْدَكُمْ، إنما ذلكَ إلى اللهِ تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [فاطر:٨].

والمعتزلةُ تَزْعُمُ أنَّ اللهَ تعالى، لا يَمْلِكُ رَشَدَ أحدٍ ولا غَيَّهُ، بل[1] رسولُ اللهِ ﷺ أكبَرُ مُلْكاً، لأنهُ يملِكُ أنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى الهُدَى بنفسِهِ، واللهُ تعالى لا يَمْلِكُ ذلكَ إلّا برسولِهِ. وقالَ ﷻ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الآية [البقرة:٢٧٢] وقالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

ولو كانَ المُرادُ مِنَ الهدايةِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى الدعوةَ والبيانَ لكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يهديهِمْ، لأنهُ داعٍ ومُبَيِّنٌ. فَثَبَتَ أنَّ في الهدايةِ مِنَ اللهِ تعالى لُطفاً لا يَبْلُغُهُ تدبيرُ البَشَرِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ فكأنهمْ طَلَبوا منهُ تَرْكَ تبليغِ الرسالةِ إلى قومٍ أو كِتْمانَ شيءٍ ممّا أُمِرَ بإظهارِهِ أو مُحاباةَ أحدٍ مِنَ الأجِلَّةِ، فأمَرَهُ أنْ يُخْبِرَهُمْ أنهُ لا يُجيرُهُ أحدٌ مِنَ اللهِ تعالى، لا يَجِدُ لنفسِهِ مَلْجأً إنْ فَعَلَ ذلكَ سِوَى أنْ يُبَلِّغَ رسالاتِ ربِّهِ، فَيُجيرُهُ مِنْ عذابِهِ، فيكونَ لهُ عندَهُ مَلْجأً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي إني لا أملِكُ لكُمْ هدايَتَكُمْ وإضلالَكُمْ إلّا ما كُلِّفْتُ لأجلِكُمْ مِنْ تَبليغِ الرسالةِ.

ومنهمْ مَنْ جَعَلَ هذا اسْتِثْناءً مِنْ قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إنْ عَدَلْتُ عنْ أمْرِهِ، ولم[2] أُبَلِّغِ الرسالةَ، فلا يُجيرُني مِنْ عذابِهِ إلا أنْ أبَلِّغَ الرسالةَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقالَ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤] لأنهُ لا يجوزُ أنْ تَقَعَ لهُ الحاجةُ [إلى الإجارةِ][3] من عذابِ اللهِ، ولم يَلُحْ[4] منهُ تقصيرٌ ولا تَضْييعٌ، يَسْتوجِبُ بهِ العقابَ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يُمكِنَ فيهِ ما ذَكَرْنا مِنَ التَّقْصيرِ في التَّبْليغِ والعُدولِ عمّا كُلِّفَ حتى يَسْتَقيمَ ذِكْرُ الإجارةِ فيهِ.

وذَكَرَ أبو معاذٍ صاحبُ التَّفْسيرِ أنَّ الاِسْتِثْناءَ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] ليسَ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢] واسْتَدَلَّ على ذلكَ بقراءةِ عبدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ ﷺ أنهُ كانَ يَقرأ: قُلْ إني لا أملِكُ لكمْ غَيّاً ولا رَشَداً إلّا بلاغاً مِنَ اللهِ.

وليسَ في ما ذَكَرْنا قَطْعُ الاِسْتِثْناءِ على قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرَ. ولأنَّ أكثَرَ أهلِ التأويلِ أجْمَعوا على صَرْفِ الاِسْتِثْناءِ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ فلا يجوزُ أنْ يُحْمَلَ قولُهُمْ على الخَطَإ لِما ذَكَرَهُ أبو معاذٍ. ولما ذهبوا إليهِ وجهُ الصِّحَّةِ والسَّدادِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ البلاغُ والرسالةُ واحداً، فيكونُ الذي يُبَلِّغُ ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ ويكونُ ذلكَ على التكرارِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:٤٨] قيلَ: إنهما واحدٌ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الرسالةُ نفسَ ما أنْزَلَ اللهُ، وهو الكتابُ، والبلاغُ ما أودَعَ فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ والمَعاني.

وكذلكَ قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فالكتابُ هو المُنْزَلُ نفسُهُ، والحِكْمَةُ ما تَضَمَّنَ فيهِ مِنَ المَعاني.

وجائزٌ أنْ يكونَ البلاغُ مِنَ اللهِ تعالى مُنْصَرِفاً إلى حِكَمِهِ ورسالاتِهِ إلى خَبَرِهِ[5]، أو تكونَ رسالاتُهُ حِكْمَةً والبلاغُ خَبَرَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا﴾ أخبارُهُ ﴿وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أو ﴿بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حقّ اللهِ عليهِمْ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بما بهِ مصالِحُهُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، في الأصل: يا. (٢) من م، في الأصل وم: ولن. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في م: يقع. (٥) في الأصل وم: غيره.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ قالوا: لا مَلْجأ ومآلَ ومَوضِعَ، يُمالُ إليهِ، والالتِحادُ الإمالةُ، سُمّيَ اللَّحْدُ لَحْداً مِنْ هذهِ لأنهُ يمالُ عنْ سَنَنِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كقولِهِ[1] في مَوضعٍ آخرَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقولِهِ[2]: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وكلُّ مَنِ ارْتكبَ المآثمَ فقد دَخلَ في حَدِّ العَصْيانِ وإيذاءِ الرسولِ.

ولكنَّ المُرادَ هٰهنا: مَنْ يَعْتقِدُ عِصْيانَ الرسولِ وأذاهُ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَ الأذى والعِصْيانَ إلى نفسِهِ، ولا أحَدَ يَقْصِدُ قَصْدَ أذى اللهِ تعالى، واللهُ ﷻ لا يُؤذَى، ولكنْ أضافَ أذى الرسولِ وعِصْيانَهُ إلى نفسِهِ، وقد كانوا يَعْتقِدونَ عِصْيانَهُ وأذاهُ، فَجَعَلَ عِصْيانَهُمْ وأذاهُمْ لرسولِهِ أذىً منهمْ للهِ تعالى وعِصْياناً لهُ، فَثَبَتَ أنَّ هذا في الاعْتِقادِ.

وقالَ ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] فَجَعَلَ طاعةَ الرسولِ طاعةً لهُ وعِصْيانَ رسولِهِ عِصياناً لهُ، ولأنهُ ذَكَرَ العصيانَ على [إثْرِ][3] تبليغِ الرسالةِ ثَبَتَ[4] أنَّ العِصْيانَ هٰهنا في تَرْكِ القَبولِ بما أُنْزِلَ على الرسولِ وفي اعْتِقادِ العِصْيانِ لهُ.

ورُوِيَ عنْ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنهُ قالَ: مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، ولم يُؤمِنْ برسولِهِ فهو ليسَ بمؤمنٍ لأنَّ جَهْلَهُ باللهِ تعالى، هو الذي حَمَلَهُ على تَكْذيبِ الرسولِ، لأنَّ الرسولَ ليسَ يَدْعو إلّا إلى ما يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ تعالى وإلى ما يُنْجيهِ مِنْ عذابِهِ. فلو كانَ يُحِبُّ اللهَ تعالى، ويُؤمِنُ بهِ، لكانَ يدعوهُ ذلكَ إلى حبِّ الرسولِ وإلى طاعتِهِ. فَثَبَتَ أنَّ المُكَذِّبَ للرسولِ جاهلٌ بربِّهِ، والمُطيعَ لهُ مطيعٌ للهِ ﷻ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا/ ٦٠٤ ـ ب/ رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ كقولِهِ[5] في مَوضعٍ آخرَ: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ هذا في الدنيا والآخِرةِ جميعاً، ويكونَ ذلكَ راجعاً [إلى][6] يومِ بدرٍ كما ذَكَرَ أهلُ التأويلِ، إذْ قد ظَهَرَ في ذلكَ اليومِ أنهمْ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أو أضعفُ ناصراً.

ويُشْبِهُ أنْ يكونَ هذا في الآخِرةِ، فإنهمْ يَعْلَمونَ أنهمْ أقلُّ عَدَداً في الآخِرةِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهمْ يَتَبرّأُ منْ صاحبِهِ وناصِرِهِ ومُعينِهِ في الدنيا، ويَصيرُ عَدُوّاً لهُ، فَيَقِلُّ عَدَدُهُمْ، وأمّا في يومِ بَدْرٍ فقد كانوا أكْثَرَ عَدَداً مِنَ المُسْلِمينَ، فلم يُبَيِّنْ لهمْ أنهمْ أقلُّ في العَدَدِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ يومُ بَدْرٍ يكونُ المسلمونَ أكْثَرَ عَدَداً لأنَّ اللهَ تعالى أمَدَّ المُسْلِمينَ بِملائكتِهِ، فصارَ عَدَدُهُمْ أكْثَرَ في التَّحْقيقِ، وإنْ كانَتِ الكَفَرَةُ في رَأيِ [العَينِ][7] أكْثَرَ منهمْ عَدَداً.

ثم يُشْبِهُ أنْ تكونَ هذهِ الآيةُ نزلَتْ على إثْرِ تَخويفِ الكَفَرَةِ رسولَ اللهِ ﷺ بكثرةِ عَدَدِهِمْ وقوتِهِمْ في أنفسِهِمْ وقِلّةِ عَدَدِ المسلمينَ، فَوَعَدَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ بالنَّصْرِ وكثرةِ العَدَدِ عندَ وقوعِ الحاجةِ إليها، وباللهِ التوفيقُ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ فهذا ذَكَرَهُ عندَ ذِكْرِ الوعيدِ، وهو قولُهُ: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الآية: ٢٤] فكأنهمْ سألوهُ: متى تَوَقُّعتَ هذا الوعيدَ؟ فأُمِرَ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

قد ذَكَرْنا في ما تَقَدَّمَ مِنَ الآياتِ أنْ ليسَ في بَيانِ وقْتِ الوعيدِ فَضْلٌ يَقَعُ في الوعيدِ، بل إذا لم يُبَيِّنْ وقْتَ الوعيدِ كانَ فيهِ فَضْلُ تَخويفٍ وتَحْذيرٍ، لا يوجَدُ في ما يُبَيِّنُ، لأنهُ إذا بَيَّنَ؛ فإنْ كانَ فيهِ أمَدٌ سَوَّفَ الناسُ، وأخَّروا التوبةَ لِما أمِنوا

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فثبت. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم.

حُلولَ النِّقْمَةِ بهِمْ إلى مَجيءِ ذلكَ اليومِ، وإذا لم يُمْهَلوا صاروا إلى الإياسِ، فَيَرْتَفِعَ الخوفُ والرجاءُ، وفيهِ ارتفاعُ المِحْنَةِ في الأصلِ بالعملِ على الرجاءِ والخوفِ.

ولأنهُ إذا لم يُبَيِّنْ كانوا على الحذرِ والخوفِ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التَّسارُعِ في الخيراتِ والإنْقِلاعِ عنِ المَساوِئِ، أمَرَهُ[1] أنْ يقولَ هذا [لأنَّ الذي][2] يقولُ هذا عالمٌ بالوقتِ الذي يَقَعُ فيهِ الوعيدُ.

الآيتان ٢٦ و٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الأصلُ [في ما][3] غَيَّبَ اللهُ عنِ الخَلْقِ أنهُ على مَنازِلَ ثلاثةٍ:

أحَدُها: قد أعْجَزَ الخَلْقَ عنِ احْتِمالِ الوقوفِ عليهِ بالخِلْقَةِ نَحْوِ الكِياناتِ التي هي أصولُ الأشياءِ؛ لو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ المَعْنى الذي صَلَحَ أنْ يكونَ كِياناً لم يَقِفْ عليهِ، ونَحْوِ الماءِ [الذي][4] جَعَلَ حياةً لكلِّ شيءٍ، ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنى الذي بهِ يَصْلُحُ أنْ يَجْعَلَ حياةً لم يَقِفْ عليهِ. وكذلكَ هذا في كلِّ ما جَعَلَ كِياناً موجوداً.

والثاني: ما مَكَّنَ مَعْرِفَتَهُ وبُلوغَهُ إليهِ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ بدونِ معرفةِ السَّمْعِ والأثَرِ نَحْوَ مَعْرِفةِ الصانعِ ومَعْرِفَةِ وحدانيَّتِهِ.

والثالثُ: هو الذي لم يُعْجِزْهُمْ عنْ إدراكِهِ، ولا مَكَّنَهُمْ مِنَ الوقوفِ عليهِ دونَ خَبَرٍ يَرِدُ. فقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ في هذا والذي مُكِّنوا فيهِ. لكنهُمْ لا يَبْلُغونَهُ إلّا بِمَعونةِ الخَبَرِ؛ وذلكَ نَحْوُ الأشياءِ التي تَرجِعُ إلى مَصالحِ الخَلْقِ والتي تُوصِلُ إلى مَصالحِ الأغذيةِ ممّا ظَهَرَ بَينَ الخَلْقِ، ولكنها لا تُعْرَفُ إلّا بالسماعِ مِمَّنْ لهُ عِلْمٌ مِنَ الخَلْقِ وانْتِشارِهِ فيهِمْ، وهو بحيثُ لا يَحْتَمِلُ إدراكَهُ بالنظرِ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ بالرسولِ. ومتى وُجِدَ ذلكَ مِنْ شَخْصٍ مُشارٍ إليهِ دلَّ ذلكَ على الإخْتِصاصِ لهُ بالرسالةِ.

ثم ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ في هذهِ الآيةِ دلالةَ تكذيبِ المُنَجِّمَةِ، وليسَ كذلكَ لأنَّ فيهِمْ مَنْ يُصَدَّقُ خَبَرُهُ، ويَعْرِفُ المَطالِعَ والمَغارِبَ والمَشارِقَ والكواكِبَ التي بها يَتوالدُ الخَلْقُ والتي يَقَعُ عندَها التَّغَيُّرُ والتَّبَدُّلُ، وذلكَ ممّا لا يُوقَفُ على عِلْمِهِ بالتأمُّلِ والتَّدَبُّرِ، وكذلكَ المُطَبِّبَةُ منهمْ مَنْ يَعْرِفُ طبائعَ النباتِ أنها تَصْلُحُ لِكذا، وهذا يَصْلُحُ لكذا، فَتَقَعُ بهِ المصالحُ لِلْخَلْقِ.

ومعلومٌ[5] أنَّ هذا مِنْ نوعِ ما لا يُدْرَكُ بالتأمُّلِ والنَّظَرِ، فَعُلِمَ أنهمْ وَقَفوا على عِلْمِهِ مِنْ جِهَةِ رسولٍ انْقَطَعَ أثَرُهُ، وبَقِيَ عِلْمُهُ في الخَلْقِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي اختارَهُ، واصْطَفاهُ.

والأصلُ أنَّ الرسالةَ تُلْزِمُ خَلْقَ الشهادةِ لهُ بالصدقِ في كلِّ خَبَرٍ وبالعَدْلِ في كلِّ حكمٍ لِقولِهِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وبالإصابةِ في كلِّ أمرٍ في ما لم يبلُغْ مَبْلَغاً يُوجِبُ الأمرَ، فهو لا يَخْتَصُّهُ للرسالةِ.

وفي الإخْتِصاصِ نِعْمةٌ عظيمةٌ على الخَلْقِ؛ إذْ بهِ وَصَلَ الخَلْقُ إلى تَعَرُّفِ ما تُبَلِّغُهُمْ إليهِ الحاجةُ في أمرِ مَعاشِهِمْ ومَعادِهِمْ ودينِهِمْ ودُنياهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ قيلَ: رَصَداً مِنْ بَينِ يَدَي الرسولِ ومِنْ خَلْفِهِ مِنَ الملائكةِ لِيَمْنَعَ الإنسَ عنِ الرسلِ في مَنْعِهِمْ عنِ التَّبليغِ حتى يُبَلِّغوا. ذُكِرَ هذا عنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، رَحِمَهُ اللهُ، وكذلكَ قالَ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. إنَّ إحاطَتَهُ هي أنْ يَعْصِمَهُ مِنَ الناسِ [مِنْ أنْ يَصِلَ إليهِ مَنْعُ الناسِ][6] إيّاهُ عنْ تبليغِ الرسالةِ.

---

(١) في الأصل وم: فأمر. (٢) في الأصل وم: وإلا والذي بان. (٣) من م، في الأصل: فيها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الملائكةُ جُعِلوا رَصَداً للجِنِّ[١] عنِ اسْتِراقِ ما يُوحَى إلى الرسولِ ﷺ وعنْ تَلَقُّنِهِ حتى يكونَ الرسولُ هو الذي يُبَلِّغُ إلى الخَلْقِ، ويَشْتَهِرَ ذلكَ بَيْنَ الخَلْقِ أنَّ الرسولَ، هو الذي قامَ بِتَبْليغِهِ إلى الخَلْقِ، لأنهمْ إذا لم يُجْعَلوا رَصَداً [لَكانَ لِلْجِنِّ][٢] أنْ يَسْتَرِقوهُ، ويُبَلِّغوهُ، فياتوا بلدةً، لم يَتَيَسَّرْ عندَهُمْ علمُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسولِ، فَيَعرفوا ذلكَ مِنْ عندِ الجِنِّ قبلَ أنْ يُبَلِّغَهُمُ الرسولُ، فإذا بَلَّغَ الرسولُ مِنْ بَعْدُ التَبَسَ الأمرُ على الذينَ ظَهَرَ فيهِمُ العلمُ مِنْ جهةِ الجِنِّ، فَجَعَلَ عليهِمْ رَصَداً حتى يَنْتَشِرَ علمُ ذلكَ مِنْ جهةِ الرسولِ، [فَتَرْتَفِعَ الشُّبَهُ][٣]، إذْ يكونُ الرَّصَدُ يَمْنَعُ الجِنَّ الذينَ سَمِعوا مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنْ يُبَلِّغوا قومَهُمْ مِنَ الجِنِّ حتى يَنْتَهِيَ الخَبَرُ إليهِمْ مِنْ جهةِ الرسولِ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ إنَّ الملائكةَ كانوا يَرْصُدونَ النَّبِيَّ ﷺ فإذا جاءَهُ المَلَكُ قالوا: هذا وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالى، وإذا جاءَهُ الشيطانُ أخْبَروهُ به، ولكنَّ هذا بعيدٌ، لا يَحْتَمِلُ أنْ يَخْفَى عليهِ وَحْيُ الشيطانِ مِنْ وَحْيِ جبرائيلَ ﷺ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي مِنْ بَيْنِ يَدَي مَنْ يُبَلِّغُ الرسالةَ إلى الرسولِ، وهو المَلَكُ الذي يَنْزِلُ بالوَحْيِ، جَعَلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ ومِنْ خَلْفِهِ ملائكةً يَرْصُدونَهُ كي لا يَسْتَلِبَ الشيطانُ منهُ، ويُحْدِثَ فيهِ حَدَثاً مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْديلِ، لِيَعْلَمَ رسولُ اللهِ أنهُ إنما يُبَلِّغُ إليهِ رسالةَ ربِّهِ، وهذا بعيدٌ أيضاً لأنَّ المُبَلِّغَ بالقوةِ يَدْفَعُ[٤] أذى الجِنِّ عنْ نفسِهِ، وهو أمينٌ لا يَخافُ مِنَ التَّغْيِيرِ والتَّبْديلِ حتى يَجْعَلَهُ مُمْتَحناً بالتَّبْليغِ، والذينَ مَعَهُ مِنَ الرَّصَدِ /٦٠٥ ـ أ/ امْتُحِنوا بأمورٍ أُخَرَ، لا أنْ جُعِلوا رَصَداً مِنَ الجِنِّ.

وجائزٌ أنْ يكونوا أُرسِلوا لِمَكانِ تَعْظيمِ الوَحْيِ وتَشْريفِ الرسالةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][٥] قالَ قائلونَ: لِيَعْلَمَ محمدٌ بالرَّصَدِ أنْ قد أبْلَغَ سائرُ الرسلِ رسالاتِ ربِّهِمْ على الوَجْهِ الذي أُمِروا كما أبْلَغَ هو.

والثاني: أنْ يَعْلَمَ كلٌّ في نفسِهِ أنْ قد أبْلَغَ رسالاتِ ربِّنا ولِيَعْلَمَ الأعداءُ أنْ قد أبْلَغَ محمدٌ ﷺ رسالاتِ ربِّهِ على الوَجْهِ الذي أُمِرَ، لم يَقَعْ فيهِ تَغْييرٌ مِنْ شيطانٍ ولا [جِنِّيٍّ ولا عَدُوٍّ][٦].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي بما عندَ الرسولِ وبما عندَ الملائكةِ أو بما عندَ الخَلْقِ.

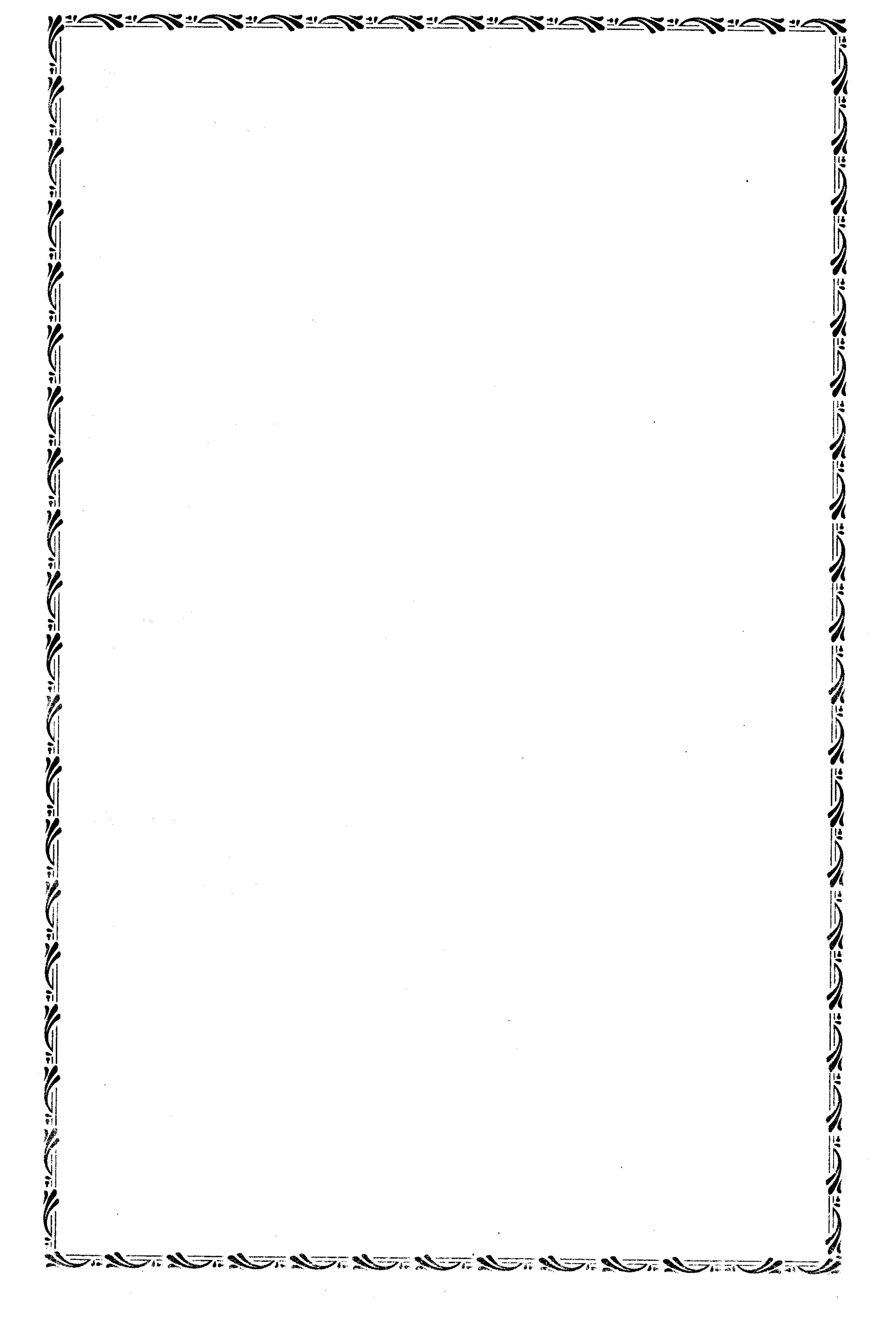
وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ أي أحاطَ بالعِلْمِ الذي][٦] هو مَعْدودٌ لا بالعَدَدِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ [الحجر: ١٩] أي ما يُوزَنُ عندَ الخَلْقِ، أو أحاطَ العلمَ بما لَدَى الكَفَرَةِ لا بالرَّصَدِ.

وإنَّ في نَصْبِ الرَّصَدِ مِحْنةً وتكليفاً على الرَّصَدِ لا أنْ يَقَعَ بهمُ الحِفْظُ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [إلى قولِهِ][٧]: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٦] فَبَيَّنَ أنَّ النَّصْرَ مِنْ عندِهِ وأنَّ الملائكةَ إنما أُرسِلَتْ لِتَطْمَئِنَّ بها قلوبُ المؤمنينَ، وتَرْكَنَ إليها طباعُهُمْ.

[وقولُهُ تعالى][٨]: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [أي كلُّ شيءٍ][٩] عندَهُ مَعدودٌ ومُحْصىً، لا يَغْفُلُ، جَلَّ جلالُهُ، عنْ معرفةِ عَدَدِهِ، ولا تَعْتَريهِ أحوالٌ، تَعْزُبُ عنهُ[١٠] فيها علمُ ذلكَ، خِلافاً لِما عليهِ أمْرُ الخَلْقِ، واللهُ الموفِّقُ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ][١١].

---

(١) في الأصل وم: من الجن. (٢) في الأصل وم: لكن الجن. (٣) في الأصل وم: فيرتفع التشبيه. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: جن ولا. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عنها. (١١) من م، ساقطة من الأصل.



سورة المزمل

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ فالمُزَّمِّلُ والمُدَّثِّرُ يقتضيانِ مَعْنىً واحداً على ما يُذْكَرُ في سورةِ المُدَّثِّرِ.

الآيات ٢ ـ ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا الأمرُ كلُّهُ مُنْصرفاً إلى وقتٍ واحدٍ. فإذا صَرَفْتَ إلى وقتٍ واحدٍ: فإمّا أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ مُنْصَرِفاً إلى قولِهِ [﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ وإمّا[2] إلى قولِهِ:][3] ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

فإنْ صَرَفْتَ النُّقصانَ إلى قولِهِ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زِدْتَ في الأمرِ بالقيامِ.

وإنْ صَرَفْتَ النُّقْصانَ إلى قولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فقد زِدْتَ في قولِهِ: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ فإلى أيِّهما صُرِفَ اقْتَضى الزيادةَ في أحدِهما والنقصانَ في الآخَرِ، فَيَتَّفِقُ مَعْناهُما.

وهذا نظيرُ قولِهِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

فمنهمْ منْ جَعَلَ الكَلالةَ اسْماً للمَيِّتِ المَوروثِ عنهُ، ومنهمْ مَنْ أوقَعَ هذا الاِسْمَ على الحَيِّ الذي يَرِثُ المَيِّتَ، وأيُّهما كانَ فهو يَقْتَضي مَعْنىً واحداً لأنَّ مَنْزِلةَ الحَيِّ مِنْ مُوَرِّثِهِ ومَنْزِلَةَ المَوْروثِ مِنَ الحيِّ واحدةٌ، لا تَخْتَلِفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على اخْتِلافِ الأوقاتِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ، فيكونَ قولُهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أمراً بإحياءِ أكثرِ الليالي، ثم يكونَ في قولِهِ: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ تَخْفيفُ الأمرِ عليهِ، فيكونَ فيهِ أنَّ لهُ أنْ يَنْقُصَ عنِ الأكثرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي على المقدارِ الذي أُبيحَ لهُ في النُّقصانِ[4]. وإذا ارْتَفَعَ النَّقْصُ عادَ الأمرُ إلى ما كانَ مأموراً [بهِ][5] في الاِبْتِداءِ.

ثم القليلُ ليسَ باسْمٍ لِأعْيُنِ الأشياءِ، ولكنهُ مِنَ الأسماءِ المُضافةِ. فإذا قيلَ[6]: قليلٌ اقْتَضى ذِكْرُهُ تَثْبيتَ ما هو أكْثَرُ منهُ حتى [يَصيرَ][7] هذا قليلاً إذا قُوبِلَ بما [هو][8] أكْثَرُ منهُ. فلذلكَ قالوا بأنَّ قولَهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ يَقْتَضي أمرَ القيامِ أكثرَ الليلِ.

ولهذا قالَ أصحابُنا في مَنْ أقَرَّ أنَّ لِفلانٍ عليهِ ألفَ درهمٍ إلّا قليلاً: إنهُ يُلْزِمُهُ أكْثَرَ مِنْ نِصْفِ الألفِ لأنهُ اسْتَثْنى القليلَ، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ المُسْتَثْنى منهُ أكْثَرَ مِنَ المُسْتَثْنى حتى يكونَ المُسْتَثْنى قليلاً ممّا[9] اسْتَثْنى، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فالترتيلُ هو التَّبْيينُ في اللغةِ، أي بَيِّنْهُ تَبْييناً. وقيلَ: اقْرَأْهُ حَرْفاً حَرْفاً على التَّقْطيعِ لِما ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُقَطِّعُ القراءةَ.

ولكنْ جائزٌ أنْ يكونَ قَرَأَهُ على التَّقْطيعِ لأنَّ التَّبْيينَ كانَ في تقطيعِهِ، وإنما أمَرَ بالتَّبْيينِ لأنَّ القرآنَ لم يَنْزِلْ لِتُجَوَّدَ قراءَتُهُ فقطْ، لكنهُ لِمَعانٍ ثلاثةٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: الانتقاص. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من م. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: كما.

أحَدُها: أنْ يَقْرَأ لِلْحِفظِ والبقاءِ إلى يومِ القيامةِ لئلا يَذهبَ، ولا يُنْسَى.

والثاني: أنْ يَقْرَأ لِتَذَكُّرِ ما فيهِ وفَهْمِ ما أُودِعَ مِنَ الأحكامِ وما لِلهِ عليهِمْ مِنَ الحقوقِ وما لِبَعْضِهِمْ على بَعْضٍ.

والثالثُ: أنْ يُقْرَأ لِيُعْمَلَ بما فيهِ، ويَتَّعِظَ [المرءُ بِمَواعِظِهِ، ويَجْعَلَهُ المُسْلِمونَ][1] إماماً يَتَّبِعونَ أمْرَهُ، ويَنْتَهُونَ عمّا نَهى عنهُ.

فَتَنفيذُ قراءتِهِ في الصلاةِ يُلْزِمُنا هذا كلَّهُ. ولا يُدْرَكُ ذلكَ إلّا بالتَّأمُّلِ؛ وذلكَ عندَ قراءتِهِ على الترتيلِ.

وهذا الذي ذَكَرْناهُ يُوجِبُ اختيارَ مَنْ يَرى الوقوفَ في القرآنِ، لأنَّ ذلكَ أدَلُّ على المَعْنَى وأقْرَبُ إلى الأفهامِ.

وفيهِ دلالةٌ أنَّ المُسْتَحَبَّ فيهِ: تَرْكُ الإدغامِ وتَرْكُ الهَمْزِ الفاحشِ، لأنَّ ذلكَ أبْلَغُ في التَّبيينِ.

والأصلُ أنَّ [سامعَ القرآنِ][2] مأمورٌ بالاسْتِماعِ إليهِ، وإذا لَزِمَهُ الاسْتِماعُ، وفي الاسْتِماعِ الوُقوفُ على حُسْنِ نُظُمِهِ وعجيبِ حِكْمَتِهِ والوقوفُ على معانيهِ، لَزِمَ القارئَ تَبيينُهُ لِيَصِلَ السامعُ إلى مَعْرِفَةِ مَعانيهِ، ويَقِفَ على حُسْنِ نَظْمِهِ وعَجيبِ تأليفِهِ؛ وذلكَ يكونُ أقربَ إلى أفهامِ السامعِ والقارئِ لِما فيهِ مِنْ لَطائفِ المَعاني.

ثم التَّرْتيلُ مُنْصَرِفٌ إلى القراءةِ قُرآناً على جهةِ المصدرِ أنَّ ما هو كلامُ اللهِ تعالى لا يُوصَفُ بالتَّرْتيلِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ولم يَقُلْ على مَنْ؟ فجائزٌ أنْ يكونَ الثِّقَلُ راجعاً إلى الكَفَرَةِ، ويكونَ الثقيلُ الأمرَ بالجهادِ لأنهُ اشْتَدَّ على الفريقَيْنِ جميعاً، وأيِسَ الكفارُ مِنَ المُسْلِمينَ أنْ يَعودوا إلى مِلَّتِهِمْ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣] وتَخَلَّفَ المنافقونَ[3] عنِ القتالِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ على الكَفَرَةِ والمُنافِقينَ، وكذا على أهلِ الكبائرِ ثقيلٌ أيضاً لأنهمْ لم يَتَمَنَّوا أنْ يَنْزِلَ عليهِ الكتابُ.

وأمّا على المُسْلِمينَ فليسَ تقيلاً[4]، بل هو كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ ذلكَ إلى الرسولِ ﷺ لأنهُ أُمِرَ بِتَبْليغِ الرسالةِ إلى الفَراعِنةِ والخَلْقِ كافةً، وفي القيامِ بالتَّبليغِ إلى الفَراعِنةِ مُخاطرةٌ بالروحِ والجسدِ؛ أمرٌ ثقيلٌ صَعْبٌ جداً، أو يكونَ ذلكَ مُنصَرِفاً إلى قِيامِ الليلِ، فيكونَ مَعْنَى[5] ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أيِ الوفاءَ بما يوجِبُهُ ذلكَ القولُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنصَرِفاً إلى أتباعِ الرسولِ ﷺ وأنصارِهِ، فيكونَ قولُهُ: ﴿ثَقِيلًا﴾ مِنَ الوجهِ الذي كُلِّفوا القِيامَ بِفرائضِهِ وحِفظِ حُدودِهِ وتَحْليلِ حَلالِهِ واجْتِنابِ حرامِهِ.

وزَعَمَتِ/ ٦٠٥ ـ ب/ الباطِنِيَّةُ بأنَّ القولَ الثقيلَ هو أنْ كُلِّفَ الناطقُ[6]، وهو الرسولُ ﷺ تَفْويضَ الأمرِ إلى الأساسِ، وهو البابُ، وكذلكَ الأساسُ، والبابُ هو عليُّ بْنُ أبي طالبٍ ﷺ عندَهُمْ، وهم يُسَمُّونَ الرسُلَ[7] ﷺ نُطْقاً، ويقولونَ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مأموراً بِتَبْليغِ التَّنزيلِ إلى الخَلْقِ.

فلمّا بَلَّغَ التَّنزيلَ إليهِمْ، واسْتَغْنَوا عنهُ، احتاجوا إلى مَنْ يُعَلِّمُهُمُ التأويلَ، فأُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ بأنْ يُسْنِدَ أمْرَ التأويلِ إلى عليِّ بْنِ أبي طالبٍ ﷺ ليكونَ هو الذي يَتَوَلّى تَعْليمَ الخَلْقِ تأويلَهُ، فذلكَ[8] هو القولُ الثقيلُ إذا أُمِرَ أنْ يُسْنَدَ إلى غَيْرِهِ، فاشْتَدَّ عليه إذْ صارَ غَيْرُهُ وَلِيَّ الأمرِ، وبَقِيَ هو ساكناً لا يَنْطِقُ.

فيُقالُ لهمْ: إنَّ في الأمرِ بإسنادِ الأمرِ إلى مَنْ ذَكَرْتُمْ تَخْفيفَ الأمرِ على رسولِ اللهِ ﷺ، بِزَعْمِكُمْ، لأنَّ مِنْ مَذْهَبِكُمْ أنهُ إذا فُوِّضَ الأمرُ إلى عليٍّ ﷺ قُبِضَ هو ﷺ وصورةُ القَبْضِ عندَكُمْ أنْ تُمَيَّزَ الصورةُ الرُّوحانِيَّةُ مِنَ الصورةِ الجَسدانِيَّةِ التي كانَتْ مُحْتَبَسَةً في الصورةِ الجَسَدانِيَّةِ، ثم تُتْلَفُ الصورةُ الجَسَدانِيَّةُ، وتُبْعَثُ الصورةُ الرُّوحانِيَّةُ النُّورانِيَّةُ إلى دارِ الكرامةِ والحُبورِ. والخلاصُ[9] مِنَ الحبسِ لم يَشْتَدَّ[10] عليهِ، ولم يَثْقُلْ، بل كانَ فيهِ ما يُرَغِّبُهُ إلى التَّفويضِ، ويَدْعُوهُ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: هو بمواعظه ويجعلونه. (٢) في الأصل وم: السامع في القرآن. (٣) في الأصل وم: المنافقين. (٤) في الأصل وم: ثقيل.
(٥) في الأصل وم: معناه. (٦) من م، في الأصل: الباطن. (٧) من م، في الأصل: الرسول. (٨) في الأصل وم: فكذلك. (٩) في الأصل وم: والإخلاص. (١٠) ادرج بعدها في الأصل وم: ذلك.

ومِنْ مذهب الباطِنيَّةِ أنهمْ لا يُعَلِّمونَ أحداً مَذْهَبَهُمْ إلّا بَعْدَ أنْ يُحَلِّفوهُ بالأيمانِ الغليظةِ، بألّا يُخْبِرَ بِهِ أحداً إشفاقاً على أنفسِهِمْ.

ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا أنَّ التَّلَفَ يَرُدُّ إلى الصورةِ الجَسَدانيَّةِ التي هي سببٌ لِحَبْسِ الصورةِ الرُّوحانيَّةِ، وإذا تَلِفَتْ رُدَّتِ الروحانيَّةُ إلى دارٍ فيها كلُّ أنواعِ السُّرورِ. فما الذي يُحْوِجُهُمْ إلى الاِسْتِحْلافِ؟ وما بالُهُمْ يُشْفِقونَ على أنفسِهِمْ، وليسَ في إتلافِ أنفسِهِمْ إلّا الخَلاصُ مِنَ الحَبْسِ والوصولُ إلى الكراماتِ.

ومَنْ هذا وصفُه حقٌّ عليهِ الموتُ لِيُعلَمَ أنهمْ يُعامِلونَ الخَلْقَ على خِلافِ ما يُوجِبُهُ اعْتِقادُهُمْ.

ولو كانَ ما اعْتَقَدوهُ حَقّاً لَمَا اسْتجازوا مُخالَفَتَهُ.

ولكنَّ الذي دَعاهُمْ إلى ما ذَكَرْنا تسويلُ الشيطانِ وتزيينُهُ في قلوبِهِمْ، وما مَثَلُهُمْ إلّا مَثَلُ اليهودِ الذينَ ادَّعَوا أنَّ الدارَ الآخِرَةَ لهمْ خالِصَةٌ مِنْ دونِ الناسِ، فَقيلَ لهمْ: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤] لأنكمْ لا تَصِلونَ إلى الآخِرَةِ إلّا بالموتِ. فإنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ في دَعْواكُمْ فَتَمَنَّوُا الموتَ لِتَصِلوا إليها.

فكانَ في امْتِناعِهِمْ عنِ التَّمَنّي ما يُظْهِرُ كَذِبَهُمْ، ويُبْطِلُ مَقالَتَهُمْ، ويُبَيِّنُ تَمويهَهُمْ.

فكذلكَ في إشفاقِ هؤلاءِ على أنفسِهِمْ مِنَ الهلاكِ إظهارٌ وإنباءٌ أنهمْ قَصَدوا بِهِ قَصْدَ التَّمويهِ على الضَّعَفَةِ لِيَصِلوا إلى المأكَلَةِ، ويَتَوَسَّعُوا[1] بِهِ في أمرِ دنياهُمْ[2] مِنْ غَيرِ حُجَّةٍ لهمْ في ذلكَ.

وبهذا الفَصْلِ الذي ذَكَرْنا يُحْتَجُّ على الثَّنَوِيَّةِ؛ فليسَ[3] مِنْ مَذْهَبِهِمْ تحريمُ القَتْلِ والذَّبْحِ [والحقُّ أنْ][4] يُرَى القَتْلُ والذبْحُ مُباحَينِ، لأنَّ مِنْ مَذهبِهِمْ أنَّ العالَمَ إنما هو بأوضاحِ النُّورِ والظُّلْمَةِ، فما مِنْ جُزْءٍ مِنْ أجزاءِ النُّورِ إلّا وهو مَشوبٌ بِجُزْءٍ واحدٍ مِنْ أجزاءِ الظُّلْمَةِ، وكانا مُتَبايِنَين، فَغَلَبَتِ الظُّلْمَةُ على النُّورِ، فامْتَزَجَتْ بِهِ، فصارتِ الظُّلْمةُ مُلابِسةً للنورِ.

ومَعْلومٌ أنَّ في القَتْلِ تَخليصَ أجزاءِ [النُّورِ مِنْ أجزاءِ الظُّلْمةِ][5]، لأنَّ في القتلِ إزالةَ السَّمْعِ والبَصَرِ والعقلِ، ومَعْلومٌ بأنَّ السمعَ[6] والبصرَ في هذهِ الأشياءِ، إذْ بها رُؤيةُ الأنوارِ. فإذا امْتازَتْ هذهِ الأشياءُ مِنَ الجَسَدِ، وأُبْقِيَ الجَسَدُ الظُّلُماتيُّ، لا يُبْصِرُ شيئاً، فقد يَتَوَصَّلُ جَوهَرُ النُّورِ إلى حِرْصِهِ ومَقْصودِهِ بالقَتْلِ، وصارَ إلى مَقَرِّهِ.

فإذا كانَ القتلُ يُوصِلُهُ إلى حِرصِهِ، ويُخَلِّصُهُ مِنْ وَثاقِ الظُّلْمةِ وحَبْسِهِ، فقد أحْسَنَ إليهِ بالقَتْلِ والذبحِ، فلا يَجيءُ أنْ يُحَرَّمَ القَتْلُ على مذهبِهِمْ، بل يجبُ أنْ يُمْدَحَ المرءُ على ذلكَ الفعلِ، ويُسْتَصْوَبَ ذلكَ منهُ.

وقالَ القُتَبِيُّ: القولُ الثقيلُ كلامُ اللهِ تعالى، وثِقَلُهُ هو تَبجيلُهُ وتَعْظيمُ حُرْمَتِهِ، ليسَ ككلامِ[7] السفهاءِ الذي[8] لا يُكْتَرَثُ لهُ، ولا يُؤْبَهُ بِهِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الثقيلُ الوَزينُ، أيِ الذي لهُ وَزْنٌ وقَدْرٌ في القلوبِ، الذي يَجبُ أنْ يُعَظَّمَ، ويُوَقَّرَ، وليسَ بالقولِ الذي يُسْتَصْغَرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ القولُ الثقيلُ، هو الحقُّ على ما رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنَّ الحقَّ ثقيلٌ مُرٌّ، والباطلَ خفيفٌ وَفْرٌ» [طرفه الأول في كشف الخفاء للعجلوني ١١٥٣ وفي تاريخ ابن عساكر ٥/١٣٨].

ورُوِيَ عنْ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أنهُ قالَ: حَقٌّ لِميزانٍ، لا يُوضَعُ فيهِ إلّا الخَيرُ، أنْ يَثْقُلَ، وحقٌّ لميزانٍ، لا يُوزَنُ [بِهِ][9] إلّا الباطلُ، أنْ يَخِفَّ، فيكونُ ثِقَلُهُ العملَ بما فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ القولُ الثقيلُ، هو تَكْليفُ القيامِ عامَّةَ الليلِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وهم سعوا. (٢) من م، في الأصل: دنياه. (٣) في الأصل وم: فإن. (٤) في الأصل وم: وحق من. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: النوراني من حبس الظلمات. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: النور. (٧) في الأصل وم: كلام. (٨) في الأصل وم: الذين. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قُرِئَ: وِطاءً، و: وَطْأً[١].

فَمَنْ قَرَأَ: وِطاءً بالمَدِّ، فَتأويلُهُ مِنَ المُواطَأَةِ، وهي المُوافقةُ أي مُوافقةُ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤادِ، لأنَّ القَلْبَ يكونُ أفْرَغَ بالليالي مِنَ الأشغالِ التي تُحَوِّلُ المرءَ عنِ الوصولِ إلى حَقيقةِ دَرْكِ مَعاني الأشياءِ، وكذلكَ السَّمْعُ والبَصَرُ يكونانِ[٢] أحْفَظَ للقرآنِ وأشَدَّ اسْتِدراكاً لِمعانيهِ.

ومَنْ قَرَأَ: وَطْأً، وهو مِنَ الوَطْءِ بالأقدامِ، فَتأويلُهُ: أنهُ أشَدُّ على البَدَنِ وأصْعَبُ لأنَّ المَرْءَ قدِ اعْتادَ التَّقَلُّبَ والانْتِشارَ في الأرضِ بالنهارِ، ولم يَعْتَدْ ذلكَ بالليلِ، بل اعْتادَ الراحةَ فيهِ، فإذا[٣] كُلِّفَ القيامَ والانْتِصابَ برجلَيهِ في الوقتِ الذي لم يَعْتَدْ فيه القيامَ كانَ ذلكَ أشَدَّ عليهِ وأصْعَبَ على بدنِهِ. ولأنَّ المرءَ بالنهارِ، ليسَ يَنْتَصِبُ قائماً في مكانٍ واحدٍ، فَيَمْكُثُ فيهِ، بل[٤] يَنْتَقِلُ مِنْ مَوضعٍ إلى مَوضعٍ آخَرَ [ولو][٥] كُلِّفَ الانْتِصابَ في مكانٍ [واحدٍ][٦] اشْتَدَّ عليهِ [ذلكَ][٧] ولَحِقَهُ الكَلالُ والعناءُ منه[٨].

ثم أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يَنْتَصِبَ قائماً، يُصَلّي إلى نِصْفِ الليلِ أو أكْثَرَ، فكانَ في ذلكَ مِحْنةٌ شديدةٌ وكُلْفَةٌ شاقَّةٌ، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ أنَّ المَرْءَ يسيرُ بالنهارِ يَطْلُبُ[٩] ما يَتَعَيَّشُ [بهِ][١٠] ويَصِلُ إلى ما يَتَمَتَّعُ [بهِ][١١] في أمرِ دنياهُ، ويَنامُ الليلَ طَلَباً للراحةِ وإيثاراً لِلتَّخفيفِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ مَمْنوعاً عنِ اكتسابِ الأشياءِ التي يَتَوَصَّلُ بها إلى سَعَةِ الدنيا إلّا القَدْرَ [الذي][١٢] يقيمُ بهِ مُهْجَتَهُ، وكذلكَ مُنِعَ عنِ الراحةِ بالليالي، وأُمِرَ بإحياءِ الليلِ إلّا القَدْرَ الذي لا بُدَّ منهُ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في الأمرِ بقيامِ الليلِ نوعٌ مِنَ الراحةِ والتخفيفِ؛ وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُلْزِمَ بِتَبْليغِ الرسالةِ إلى الناسِ كافَّةً، فَحُمِّلَ تَبْليغَها إليهِمْ بالنهارِ، ورُفِعَتْ عنهُ الكُلْفةُ بالليلِ، وأُمِرَ بأنْ يَتَفَرَّغَ لعبادةِ ربِّهِ.

وكانَ الأمرُ بالتَّفَرُّغِ للعبادةِ أيْسَرَ مِنَ الأمرِ بِتَبْليغِ الرسالةِ لأنَّ في الأمرِ بالتَّبْليغِ أمراً بما فيهِ المُخاطرةُ بالروحِ والجَسَدِ، وليسَ في الأمرِ بالانْتِصابِ قائماً أكْثَرَ الليلِ كذلكَ، وإنما فيهِ إيصالُ الوَجَعِ إلى بعضِ أعضائِهِ، فيكونُ فيهِ بعضُ التخفيفِ.

فإنْ قيلَ: /٦٠٦ - أ/ على التأويلِ الأوَّلِ: كيفَ خُصَّ رسولُ اللهِ ﷺ في بابِ النِّكاحِ حيثُ أُبيحَ لهُ فَضْلُ العَدَدِ، ولم يُبَحْ لأمتِهِ، وفي ذلكَ تَمَتُّعٌ بِشَهَواتِ الدنيا؟

وجوابُهُ أنْ يُقالَ: إنَّ المَعْنَى الذي بهِ حُظِرَ على غَيرِهِ الزيادةُ على الأربعِ، وقُصِرَ الأمرُ على الأربعِ هو خَوفُ الجَورِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾؟ [النساء: ٣].

وإذا كانَ التحريمُ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْنا ارْتَفَعَ الحَظْرُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ اللهَ تعالى عَصَمَهُ عنِ الجَورِ، ومَكَّنَهُ مِنَ العَدْلِ بَينَ نسائِهِ.

ثم ليسَ في إباحةِ زيادةِ العَدَدِ سِوَى فَضْلِ مِحْنَةٍ وكُلْفَةٍ لرسولِ اللهِ ﷺ كأنهُ إذا أُمِرَ أنْ يقومَ في ما بَيْنَهُنَّ بالعَدْلِ وأنْ يَبْتَغيَ مَرْضاتَهُنَّ بِحُسْنِ العِشْرَةِ معهنَّ، وإنما يَصِلُ المرءُ إلى الإرضاءِ بالأموالِ، ولم يَتَمَتَّعْ هو مِنَ الدنيا بِمِقدارِ ما يَصِلُ إلى إرضائهنَّ بالأموالِ، لم يَتَهَيَّأْ لهُ أنْ يُرْضِيَهُنَّ إلّا بِسَعَةِ الأخلاقِ، وإنْ بَيَّنَ لهنَّ [ذلكَ][١٣] إلّا لِتَقَرَّ أعيُنُهُنَّ، ولا يَحْزَنَّ.

فَثَبَتَ أنهُ ليسَ في إباحةِ العددِ فَضْلُ تَمَتُّعٍ، بل فيهِ زيادةُ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ.

وفيهِ أيضاً ما يُحَقِّقُ رسالتَهُ، ويُثْبِتُ نُبُوَّتَهُ، لأنَّ المَرْءَ إنما يَصِلُ إلى توفيرِ الحقوقِ الواجبةِ عليهِ بالنِّكاحِ إذا تَناوَلَ مِنْ فُضولِ الدنيا، وطَعِمَ لَذّاتِها، وأعْطَى النفسَ شَهَواتِها.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٥٢. (٢) في الأصل وم: يكون. (٣) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: كذلك. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: من ذلك. (٩) في الأصل وم: من ذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

ثم رسولُ اللهِ ﷺ كانَ مَمْنوعاً مِنَ إعطاءِ النفسِ شَهَواتِها، ومع ذلكَ قامَ بإيفاءِ حُقوقِ الزوجاتِ[١]، فَثَبَتَ أنهُ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى وَصَلَ إلى إيفاءِ حُقوقِهِنَّ، ليسَ بالأسبابِ[٢] البشريةِ.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ الصلاةَ تَشتَمِلُ على الذِّكْرِ والفِعْلِ جميعاً لأنَّهُ قالَ تعالى: ﴿أَشَدُّ﴾ على البَدَنِ، والشِّدَّةُ[٣] تكونُ بالفعلِ، وقالَ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ وذلكَ يَرْجِعُ إلى الذِّكْرِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ لم يُكلَّفْ تَبْليغَ الرسالةِ بالليالي لأنَّ أعداءَهُ مِنَ الفَراعنةِ، كانَتْ هِمَّتُهُمْ أنْ يَقتُلوهُ، [أو يَمْكُروا بهِ][٤]. ولم يكنْ يَتَهَيَّأُ لهمْ إيصالُ الأذى بهِ لِمَكانِ أتباعِهِ، والليالي، هي أوقاتُ غفلةِ الأتباعِ. [فلو][٥] كُلِّفَ التَّبليغَ فيها لَتَمكَّنوا مِنْ إيصالِ المَكْرِ بهِ، فَوُضِعَ عنهُ التَّبليغُ، وامْتُحِنَ بالقيامِ لعبادةِ ربِّهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعةَ الليلِ؛ وقيلَ: هو مِنْ نَشَأَ يَنْشَأُ، أي نما، فَسُمِّيَتْ ناشئةً، لأنَّ الأوقاتَ تَحْدُثُ، وتَترادَفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ مِنْ ناشِئةِ لليلِ أي ما يوجَدُ مِنَ الأحوالِ في الليلِ مِنَ القيامِ للصلاةِ والاشْتِغالِ بعبادةِ الربِّ، جلَّ جَلالُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أصْوَبُ كلاماً، والأقْوَمُ، هو المُبالَغَةُ في الوَصْفِ ممّا أُريدَ بالقيامِ. فإنْ أُريدَ بهِ الكلامُ، فَحَقُّهُ أنْ يُصْرَفَ[٦] إلى الصِّدْقِ؛ إذِ الأقْوَمُ مِنَ الأخبارِ أصْدَقُها، وإنْ أُريدَ بهِ القيامُ بإيفاءِ ما يَقْتَضيهِ ذلكَ الكلامُ، فَمَعْنَى قولِهِ: ﴿وَأَقْوَمُ﴾ أي أبْلَغُ في وفاءِ [ما][٧] يُوجِبُهُ القولُ. وإنْ أُريدَ بهِ القراءةُ نفسُها، فهو بالليالي أقْوَمُ قراءةً.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [قالَ أبو بَكْرٍ والزَّجّاجُ: السَّبْحُ السَّعَةُ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ لكَ في النهارِ سَعَةً طويلةً في تَبْليغِ الرسالةِ والقِيامِ بهِ، فَتَفَرَّغْ بالليالي لِعبادةِ رَبِّكَ.

وقيلَ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أي فراغاً وَسَعَةً ومُتَقَلَّباً][٨] فالسَّبْحُ يُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ الفراغُ، ويُذْكَرُ، ويُرادُ بهِ المَشْيُ والتَّقَلُّبُ.

وهذا الذي قالوهُ مُحْتَمَلٌ، ولكنْ لا يَجيءُ أنْ يُصْرَفَ تأويلُ الآيةِ إلى الفراغِ والتَّقَلُّبِ إلى حَوائجِ نفسِهِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكُنْ يَتناوَلُ مِنَ الدنيا إلّا [قَدْرَ ما يُقيمُ بهِ حاجَتَهُ][٩] فلا يَحتاجُ إلى فَضْلِ تقَلُّبٍ ولا إلى كَثيرِ فَراغٍ لَيَتَوَسَّعَ في أمْرِ دنياهُ، ولكنَّ حقَّهُ أنْ يَنصرِفَ بقلبِهِ إلى تَبْليغِ الرسالةِ ودعاءِ الخَلْقِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى وإلى [ما][١٠] يَحِقُّ عليهِمْ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تَرخيصٌ لرسولِ اللهِ ﷺ في أنْ يَنْتَصِبَ بالليلِ[١١] للقيامِ بَيْنَ يديهِ واجْتزاءِ منهُ بِتَبليغِ الرسالةِ بالنهارِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي اذْكُرْ ربَّكَ، دليلُهُ قولُهُ على إثْرِهِ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [وبالتَّبْتيلِ يَنْقَطِعُ][١٢] إليهِ لا إلى اسْمِهِ.

ثم ذِكْرُ الرَّبِّ، جَلَّ جَلالُهُ، هو أنْ يَنْظُرَ [المرءُ][١٣] إلى أحوالِ نفسِهِ [ويَتساءَلَ][١٤] ما الذي يَلْزَمُهُ مِنَ العبادةِ في تلكَ الحالِ، فيكونُ ذِكْرُ ربِّهِ بإقامةِ تلكَ العبادةِ لا بأنْ يَذْكُرَ اللهَ تعالى بلسانِهِ فقطْ، وهو كقولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] واسْتِغفارُهُمْ أنْ يَأتَمِروا بما أُمِروا، ويَنْتَهُوا عمّا نُهوا، لا أنْ يقولوا بألسِنَتِهِمْ: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لأنهمْ وإنْ قالوا: نَسْتَغْفِرُ اللهَ، لم يَقْبَلْ ذلكَ منهمْ إذا كانوا كَفَرَةً. فَثَبَتَ أنَّ اسْتِغْفارَهُمْ أنْ يُجيبوا إلى ما دعاهُمْ إليهِ نوحٌ.

فلِذلكَ ذِكْرُ اللهِ تعالى يَقَعُ بِوَفاءِ ما تُلْزِمُهُمْ حالُ القيامِ بهِ، وذلكَ يكونُ بالأفعالِ مَرَّةً وبالأقوالِ ثانياً.

---

(١) في الأصل وم: الأزواج. (٢) في الأصل وم: بأسباب. (٣) في الأصل وم: وشدته. (٤) في الأصل وم: ويمكروا. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يصرفه. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ما قدر ما يقيم به بهمة. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: بالليالي. (١٢) في الأصل وم: التبتيل يقع. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فأمر.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الأمرَ إلى الاسْمِ على ما يُؤَدِّيهِ ظاهرُ اللفظِ [إذْ أمرَ][1] بِذِكْرِ اسْمِ الرَّبِّ لِما يَحْصُلُ لهُ مِنَ الفوائدِ بِذِكْرِها؛ لأنَّ مِنْ أسمائِهِ أسماءً تُرَغِّبُهُ في اكْتِسابِ الخَيراتِ والإقبالِ [على عبادةِ الرَّبِّ][2] ومنها ما يَدْعُو الذاكِرَ إلى الخوفِ والرَّهبةِ، ومنها ما يوقِفُهُ[3] على عجائبِ حكمتِهِ ولُطْفِ تدبيرِهِ وتَقريرِ سُلْطانِهِ وعظمتِهِ في قلبِهِ، ومنها ما يُحْدِثُ لهُ زيادةَ علمٍ بصيرةٍ، وهي الأسماءُ المُشْتَقَّةُ مِنَ الأفعالِ، وإذا تأمَّلَ فيها عَرَفَ الوجهَ الذي منهُ اشْتُقَّتْ تلكَ الأسماءُ، فَذِكْرُ أسمائِهِ يُحْدِثُ ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ والعلومِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ فالتَّبتيلُ، هو الانْقِطاعُ إلى اللهِ تعالى، وأنْ يَقْطَعَ نفسَهُ عنْ شَهَواتِها، ويَصْرِفَها عنْ لَذّاتِها؛ فكأنهُ قالَ: وتَبَتَّلْ إليهِ، وبَتِّلْ نفسَكَ تَبْتيلاً مِنَ الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ. ولذلكَ سُمِّيَتْ مريمُ عليها السلام البَتولَ، لأنها قَطَعَتْ نفسَها عنْ مَنافِعِ الدنيا، وأقْبَلَتْ إلى الآخِرَةِ، وانْقَطَعَتْ إليهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: مَلِكُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ؛ فَحَقُّهُ أنْ يُقالَ: مالِكُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، لأنهُ هو المالِكُ على التَّحْقيقِ[4].

وقالَ بعضُهُمْ: هو الرَّبُّ، هو المُصْلِحُ، ثم خَصَّ المَشْرِقَ والمَغْرِبَ بالذِّكْرِ، وإنْ كانَ هو مالِكَهُما ومالِكَ الخلائقِ أجْمَعَ، لأنَّ ذِكْرَ المَشْرِقِ يَقْضي ذِكْرَ السمواتِ والأرَضِينَ [وفي ذِكْرِ السمواتِ والأرَضِينَ][5] ذِكْرُ أعلى العِلِّيِّينَ وأسفَلِ السافلينَ، لأنهُ إذا نَظَرَ إلى المَشْرِقِ ورَأى ما تَطْلُعُ في المَشْرِقِ مِنْ عَيْنِ الشمسِ، ثم تَجري في أقطارِ السماءِ، وتَقْطَعُ كلَّ يومٍ مَسيرةَ ألفِ عامٍ، ثم ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] فَتَصيرُ إلى أسفلِ السافلينَ، وتَجْري كذلكَ حتى تَصِلَ إلى مَطْلَعِها، ثم تَطْلُعَ هنالكَ.

فَدَلَّ ذلكَ على أنَّ مُدَبِّرَ السمواتِ والأرَضِينَ ومُنْشِئَهُما واحِدٌ، وأنَّ سُلْطانَهُ في الأرضِ كَسُلْطانِهِ في السماءِ. ويُعْلِمُ أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا المَبْلَغَ في أنْ يُسَيِّرَ عينَ الشمسِ في يومٍ واحدٍ مَسيرَةَ ألفِ عامٍ ما يَشْتَدُّ على الخَلْقِ قَطْعُ هذهِ المسافةِ في مُدَدٍ كثيرةٍ، لا يَجوزُ أنْ يُعْجِزَهُ شيءٌ.

ودَلَّ [ذلكَ أيضاً][6] على أنَّ مُلْكَهُ دائمٌ، لا يَنْقَطِعُ، لأنَّ عينَ الشمسِ تَجري في كلِّ يومٍ على ما سُخِّرَتْ، لا تَتَبَدَّلُ، ولا تَتَغَيَّرُ، بِاخْتِلافِ الأزمنةِ والأوقاتِ، وجَعَلَ مَنافعَ أهلِ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ السماءِ.

ولو لم يكُنْ مُدَبِّرُهُما واحداً لَارْتَفَعَ الاتِّصالُ، وانْقَطَعَتْ مَنافِعُ السماءِ عنْ أهلِ الأرضِ.

فكانَ في ذِكْرِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ دلالةُ /٦٠٦ ـ ب/ وحدانِيَّتِهِ تعالى وإظهارِ قُوَّتِهِ وسلطانِهِ والوقوفِ على عجائبِ حكمتِهِ ولطائفِ تدبيرِهِ.

ثم تَخْصيصُ ذِكْرِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ دونَ السماءِ والأرضِ، هو، واللهُ أعلَمُ، لأنَّ هذا أوصَلُ إلى مَعْرِفَةِ التوحيدِ وأسْرَعُ إلى الإدراكِ مِنْ ذِكْرِ السمواتِ والأرضِ، وإنْ كانَ في التدبيرِ في أمرِ السماءِ والأرضِ تَحقيقُ [ذلكَ][7] وفي قولِهِ ﷺ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي الذي أُمِرْتَ بِذِكْرِهِ، هو: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

وفيهِ تَعْريفُ الوجهِ الذي يَصِلُ إلى مَعْرفةِ رُبوبِيَّتِهِ.

[وقولُهُ تعالى][8]: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبودَ يَسْتَحِقُّ العبادةَ إلّا هو، لأنَّ الذي يَحْمِلُ الإنسانَ على عبادةِ المعبودِ الخَوفُ والرجاءُ. وإذا عَرَّفَهُمْ بِذِكْرِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ أنَّ تَدْبيرَ الخَلائِقِ كلِّها راجعٌ[9] إليهِ، وأنَّهُ هو القاهِرُ عليهِمْ والقادِرُ عليهِمْ، وبيدِهِ الخزائنُ والمَنافِعُ أجْمَعُ، عَلِموا أنهُ هو الإلهُ الحقُّ والربُّ القاهِرُ، وأنَّ مَنْ سِواهُ مَربوبٌ مَقْهورٌ، لا يَمْلِكُ نَفْعاً ولا ضَرّاً، فكيفَ يَسْتَوجِبُ العبادةَ والإلهِيَّةَ؟

---

(١) في الأصل وم: فأمر. (٢) في الأصل: عبادة، في م: على عبادة. (٣) في الأصل وم: يوقف. (٤) من م، في الأصل: الحقيقة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: راجعة.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ أنْ كِلْ أمورَكَ، كلَّها إلى اللهِ تعالى، حتى يكونَ هو الذي يُدَبِّرُ، ويَحْكُمُ، ولا تَرَى لِنفسِكَ فيها تدبيراً.

والوكيلُ في الشاهدِ، هو الذي يدخُلُ في [أمرِ][1] آخَرَ على جهةِ التَّبَرُّعِ لِيَنْصُرَهُ فيه، ويُعينَهُ، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي اطْلُبْ مِنْ عِندِهِ النَّصْرَ والمعونةَ. والمرءُ في الشاهدِ إنما يَفْزَعُ إلى الوكيلِ لِيُزيحَ عنهُ عِلَّتَهُ، ويَقْضيَ عنهُ حوائجَهُ، ويقومَ عنهُ في النوائبِ؛ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: اصْبِرْ على تكذيبِهِمْ إياكَ.

ألَا تَرى إلى قولِهِ في سِياقِ الآيةِ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾؟ [المزمل: ١١] فَثَبَتَ أنهُ دعا إلى الصَّبْرِ على التَّكْذيبِ.

وجائزٌ أن يكونَ مُنْصَرِفاً إلى هذا وإلى غَيرِهِ، لأنهمْ كانوا لا يَقْتَصِرونَ على الكَذِبِ، بل كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ [أوّلاً][2] وإلى السِّحْرِ ثانياً وإلى الجُنونِ ثالثاً وإلى أنهُ يَتيمٌ رابعاً، فكانوا يُؤذونَهُ بأنواعِ الأذَى.

فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مُنْصَرِفاً إلى كلِّ ذلكَ.

ثم الأمرُ بالصَّبْرِ يَقَعُ بِخِصالٍ ثلاثٍ:

إحداها[3]: ألَّا تُجازِهِمْ على تكذيبِهِمْ إياكَ بِتَكذيبِكَ إياهُمْ،

[والثانيةُ: ألّا تَجْزَعَ عليهِمْ][4] وفي الجَزَعِ بعضُ التَّسَلّي والتَّشَفّي.

[والثالثةُ: ألّا][5] تَدْعُوَ عليهِمْ بالهلاكِ والتَّبارِ، بلِ اصْبِرْ [على][6] ذلكَ.

ولِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ كانَ يَشْتَدُّ عليهِ[7] تكذيبُهُمْ إياهُ حتى كادَ يَتَحَزَّنُ لِذلكَ. والذينَ[8] نَسَبوهُ إلى الكذبِ كانوا مِنْ أعدائِهِ، وليسَ يُسْتَثْقَلُ الكَذِبُ مِنَ العَدُوِّ، لا يُسْتَكْثَرُ منهُ، لأنهُ بما يُعاديهِ، يَعْتَقِدُ أنهُ يُسيءُ إليهِ بجميعِ ما يُمْكِنُهُ وُسْعُهُ، وإنما يُسْتَثْقَلُ الكَذِبُ مِنْ أهلِ الصَّفْوَةِ والمَوَدَّةِ، فكيفَ استَثْقَلَهُ؟ وكيفَ بَلَغَ بِهِ التَّكذيبُ مَبْلَغاً يَحْزَنُ بِهِ حتى يُدْعَى إلى الصَّبْرِ بقولِهِ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٣٣] وبقولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؟ والجوابُ عنْ هذا أنَّ الكَذِبَ والجهلَ مِمّا يَسْتَثْقِلُهما العقلُ والطبعُ جميعاً، وكذلكَ التَّكذيبُ أو التَّجهيلُ أمرٌ ثقيلٌ على الطبعِ والعقلِ جميعاً، حتى إنَّ الكَذّابَ إذا نُسِبَ إلى الكَذِبِ، اشْتَدَّ عليهِ ذلكَ، ولم يَتَحَمَّلْهُ[9]، وكذلكَ الجَهولُ، إذا عُرِفَ بالجهلِ، ثَقُلَ ذلكَ عليهِ.

فإذا كانَ التكذيبُ مُسْتَثْقَلاً[10] في عقولِ الخَلْقِ وطبائِعِهِمْ، وإنْ كانتْ طبائِعُهُمْ مَشوبةً بالآفاتِ، وفي عقولِهِمْ نَقْصٌ، فرسولُ اللهِ ﷺ مَعَ صفاءِ عَقْلِهِ وسلامةِ طَبْعِهِ مِنَ الآفاتِ أحَقُّ أنْ يَثْقُلَ عليهِ، ويَحْزَنَ لذلكَ.

ثم ما مِنْ إنسانٍ، يُنْسَبُ إلى الكَذِبِ في ما يُحَدِّثُ عنْ نفسِهِ أو عَمَّنْ سِواهُ مِنَ الخلائِقِ مِمَّنْ عَلَتْ رُتْبَتُهُمْ، أوِ انْحَطَّتْ، إلّا وهو يَجِدُ لذلكَ ثِقْلاً، فكيفَ إذا أخْبَرَ عنِ اللهِ تعالى، وكَذَّبَ فيهِ، أليسَ هذا أحَقَّ أنْ يَثْقُلَ على القَلْبِ، ويَتَحَزَّنَ لهُ؟

ويجوزُ أنْ يكونَ حَمَلَهُ على الحزنِ شِدَّةُ إشفاقِهِ على المُكَذِّبينَ لأنَّ تكذيبَهُمْ يُفْضي بهِمْ إلى العَطَبِ والهلاكِ، فأشْفَقَ عليهِمْ باشْتِغالِهِمْ بما بِهِ هلاكُهُمْ، وحَزِنَ لذلكَ، أو يكونَ حزنُهُ غَضَباً للهِ تعالى، إذِ الرسُلُ كانوا يَغْضَبونَ للهِ تعالى، ويَشْتَدّونَ على أعدائِهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِ[11]: إنَّ المُكَذِّبينَ كانوا مِنْ أعدائِهِ، فكيفَ اشْتَدَّ عليهِ تكذيبُهُمْ، وذلكَ أمرٌ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ[12] مِنَ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أحدهما. (٤) في الأصل وم: ولا تجزع عليه. (٥) في الأصل وم: أولا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: عليهم. (٨) في الأصل وم: والذي. (٩) في الأصل وم: يتحاصل. (١٠) في الأصل وم: مستحقاً. (١١) الضمير عائد على ما سبق: ولقائل أن يقول. (١٢) في الأصل وم: مستبدع.

الأعداء؟ فنقولُ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُعامِلُهُمْ مُعاملةَ الوَليِّ معَ وَليِّهِ الصَّفيِّ، ولم يَكُنْ يُعامِلُهُمْ بما يُعامِلُ بِهِ الأعداءَ لأنهُ كانَ يَدْعوهُمْ إلى ما فيهِ نَجاتُهُمْ وشَرَفُهُمْ في أمرِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. ومَنْ عاملَ آخَرَ مُعاملةَ أقْرَبِ الأصفياءِ معهُ كانَ الحقُّ عليهِمْ أنْ يُجازُوهُ بالإحسانِ. فإذا تَرَكوا ذلكَ، وقابَلوهُ بالتَّكذيبِ، اشْتَدَّ عليهِ، وحَزِنَ لِذلكَ.

ثم في قولِهِ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وفي قولِهِ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] إبطالُ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بعبدٍ إلّا ما هو أصلَحُ لهُ، لأنّا نَعْلَمُ أنهُ إذا أُذِنَ لِنَبيٍّ مِنَ الأنبياءِ بالدعاءِ على اسْتِعْجالِ الهلاكِ، واسْتُجيبَ في ما دعا، كانَ فيهِ ما يَحْمِلُ القومَ على الإيمانِ، ويَرْدَعُهُمْ عنِ التَّكذيبِ، لأنهمْ يَخافونَ حُلولَ النِّقْمَةِ عليهِمْ، فَيَتْرُكونَ التَّكذيبَ، ويُقْبِلونَ على الإجابةِ، فيكونُ فيهِ نَجاتُهُمْ مِنَ الهلاكِ وشَرَفُهُمْ في أمرِ دنياهُمْ وآخِرَتِهِمْ. فإذا لم يُؤْذَنْ، دلَّ أنهُ ليسَ مِنْ شَرْطِ اللهِ تعالى أنْ يَفْعَلَ بِعبادِهِ ما هو أصْلَحُ لهمْ.

فإنْ قالَ[1]: كيفَ لم يُؤذَنْ بالدعاءِ عليهِمْ لِيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على الإسلامِ، ويَمْنَعَهُمْ عنِ التكذيبِ؟

قيلَ لهُ: لأنَّ في ما ذَكَرْتَهُ رَفْعَ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، لأنَّ الحُجَّةَ إذْ ذاكَ تَقَعُ مِنْ جهةِ الضرورةِ، لأنهمْ إذا عَلَّمَهُمْ أنهمْ يُسْتَأْصَلونَ بالتَّكذيبِ امْتَنَعوا عنهُ، وأجابوا إلى الإسلامِ كَرْهاً، فَتَصيرُ الحُجَجُ اضْطِراريَّةً لا تَمْييزيَّةً واخْتياريَّةً، وحُجَجُ الرسلِ ﷺ اخْتياريَّةٌ لا ضروريَّةٌ لِما ذَكَرْنا أنها لو جُعِلَتِ اضْطِراريَّةً لَارْتَفَعَتِ المِحْنةُ، فَجُعِلَتْ حُجَجُهُمْ مِنْ وجهٍ، تَقَعُ بها الشُّبَهُ لِيُوصَلَ إلى مَعْرِفَتِها بالفِكْرِ[2] لئلا تَرْتَفِعَ المِحْنةُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّ أبا حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، ذَكَرَ في كتابِهِ (العالمُ والمُتَعَلِّمُ) أنَّ إيمانَ الملائكةِ وإيمانَ الرسلِ وإيمانَنا واحدٌ، ثم قالَ: فإذا اسْتَوَينا نحنُ والرسلُ في الإيمانِ، فكيفَ صارَ الثوابُ لهمْ أكْمَلَ، وخوفُهُمْ مِنَ اللهِ تعالى أشَدَّ؟

فأجابَ[3] عنْ هذا السؤالِ بأجوبةٍ، وقالَ في جُمْلَةِ ما أجابَ: إنهمْ لوِ ارْتَكَبوا الزَّلّاتِ لَحَلَّ بهمُ العقابُ [عَقيبَ][4] الزَّلَلِ، فَصارَ خَوفُهُمْ باللهِ تعالى ألْزَمَ في هذهِ الجهةِ.

ولِسائلٍ أنْ يَسْأَلَ على هذا، فيقولَ: فإذَنْ إيمانُهُمْ باللهِ تعالى وتَرْكُهُمُ المعاصيَ ضروريٌّ اخْتياريٌّ؟ فيجابَ عنهُ [بوجهَينِ:

أحَدُهما:][5] بأنْ يُقالَ: إنَّ الأنبياءَ ﷺ لم تُبَيَّنْ لهمُ العِصمةُ، بل كانوا على خوفٍ مِنْ وقوعِهِمْ في المَهالِكِ. ألا تَرى إلى قولِ إبراهيمَ ﷺ ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥].

ولو كانتِ العصمةُ ظاهرةً لكانَ يَسْتَغني عنِ السؤالِ [بقولِهِ تعالى][6] في قصةِ شُعَيبٍ ﷺ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ /٦٠٧ ـ أ/ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

فَثَبَتَ أنهُ لم تُبَيَّنْ لهمُ العصمةُ. ونحنُ إنما شَهِدْنا بالعصمةِ بالوُجودِ، لأنَّ الحكمةَ توجِبُ العِصْمةَ، والرسُلُ ﷺ أُمِروا بِتَبليغِ الرسالةِ، ولم يُؤْذَنْ لهمْ بالنَّظَرِ في أمرِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ [مِنَ][7] الرسُلِ لِتَظْهَرَ لهمُ العِصْمةُ بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ. فَيَثْبُتُ أنهمْ كانوا على الخَوفِ والرجاءِ في فَكاكِ أنفسِهِمْ وفي وقوعِها في المَهالِكِ، وأنَّ إيمانَهُمْ باللهِ تعالى لم يَكُنْ ضرورياً، بل وَصَلوا إلى مَعْرِفَتِهِ تعالى بالتَّمْييزِ. لِذلكَ عَظُمَتْ دَرَجاتُهُمْ.

والثاني: أنَّ الأنبياءَ ﷺ قد كانَ تَقَرَّرَ في قلوبِهِمْ هيبَةُ اللهِ تعالى وعَظَمَتُهُ، فكانتِ المَعْرِفةُ هي التي دَعَتْهُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، لا خَوفُ حُلولِ العقوبةِ بهِمْ لوِ ارْتَكَبوا الزَّلّاتِ.

وأمّا الكفرةُ فلم يَعْرِفوا عَظَمَةَ اللهِ ولا قُدْرَتَهُ ولا سُلْطانَهُ حتى يَحْمِلَهُمْ ذلكَ على الإيمانِ بِهِ.

فلو حَلَّتِ العقوبةُ بهِمْ بالتَّكذيبِ لَكانَ الخَوفُ هو الذي يَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ لا غَيرُ، فَيَصيرُ إيمانُهُمْ ضرورياً، فلهذا

---

(١) في الأصل وم: قيل. (٢) من م، في الأصل: بالكفر. (٣) لعل المجيب أبو حنيفة أو أبو منصور المؤلف. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) ساقطة من الأصل وم.

لم يُعاقَبوا بالتكذيبِ لئلّا تَرْتَفِعَ المِحْنَةُ، وخُولِفَ بَيْنَهُمْ وبَينَ غَيرِهِمْ. وهذا كما يقولُ: إنَّ أنباءَ مَنْ[1] تَقَدَّمَ مِنَ الرسلِ حُجَّةٌ لِرسولِهِ ﷺ في إثباتِ نُبُوَّتِهِ، وإنْ كانتْ تلكَ الأنباءُ قد عَرَفَها أهلُ الكتابِ، وأُخبِروا بها، لأنَّ أهلَ الكتابِ عَرَفوا تلكَ الأنباءَ بالتَّعَلُّمِ والتَّلَقينِ، ولم يَختَلِفْ رسولُ اللهِ ﷺ إلى مَنْ عِندَهُ عِلْمُ تلكَ الأنباءِ، فَعُلِمَ أنَّهُ باللهِ تعالى، عَلِمَ لا بِتَعْليمِ أحدٍ، فصارَتِ الأنباءُ حُجَجاً لذلكَ، ولم تَصِرْ [بِغَيرِهِ][2] حُجَّةً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: اهْجُرْهُمْ وقتَ سَبِّهِمْ ونِسْبَتِهِمْ إياكَ إلى ما لا يَليقُ بكَ، ولا تَعْبَأْ بهِمْ، ولا تَكْتَرِثْ إليهِمْ وإلى ما يَتَقَوَّلونَ عليكَ لأنَّ بعضَ ما يَزْجُرُ المُتَقَوِّلَ والسابَّ عمّا هو فيهِ، هو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أنِ انْقَطِعْ عنهُمُ انْقِطاعاً جميلاً، والانْقِطاعُ الجميلُ ألّا يَترُكَ شَفَقَتَهُ عليهِمْ ولا يَدْعُوَ عليهِمْ بالهلاكِ ولا يَمْتَنِعَ عنْ دعائهِمْ إلى ما فيهِ رُشْدُهُمْ وصلاحُهُمْ، ولِذلكَ قالَ في وقتِ أذاهُمْ: «اللهمَّ اهْدِ قومي فإنهمْ لا يَعلمونَ»: [الزبيدي في الإتحاف ٨/ ٢٥٨ وبنحوِهِ البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٢١٥].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ هَجْرُهُ إياهُمْ هَجْراً جميلاً، وهو ألّا يُكافِئَهُمْ بالسَّيِّئَةِ، بل يدفعُ السَّيِّئَةَ بالحسنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] إذْ ذلكَ أدْعَى لِلْخَلْقِ إلى إجابةِ مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ بهِمْ عندَ المعاملةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [مِنَ][3] الناسِ مَنْ يقولُ بأنَّ هذهِ الآيةَ نَسَخَتْها آيةُ السيفِ، ومنهمْ مَنْ قالَ بأنها لم تُنْسَخْ، وصَرَفوا تأويلَ الآيةِ إلى جهةٍ لا يَعْمَلُ عليها النَّسْخُ؛ وذلكَ أنَّ في قولِهِ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ مَنْعَ المُكافآتِ لأجلِ ما آذَوْهُ، ولم يَفْرِضْ عليهِ[4] القتالَ لِيُكافِئَهُمْ بأذاهُمْ، ويَنْتَقِمَ منهمْ[5] بذلكَ، بل رَجَعَ قتالُهُمْ إلى نُصْرَةِ الدينِ ولِتكونَ كلمةُ اللهِ، هي العُلْيا.

لِذلكَ لم يَكُنْ في آيةِ السيفِ ما يوجِبُ نَسْخَ هذا ولا نَسْخَ العملِ بقولِهِ: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والجوابُ[6]: أنهُ ليسَ في قِتالِهِمْ انْتِقامٌ منهمْ، بل فيهِ ما يَدْعُو إلى الإيمانِ باللهِ تعالى ورسولِهِ.

وإذا آمَنوا بذلكَ نَجَوا مِنَ العقابِ، وفازوا بعظيمِ الثوابِ، فَيَصيرُ القتالُ رَحْمةً لهمْ لا عقوبةً.

ووجهُ جَعْلِهِ رحمةً، هو أنهمْ إذا رَأَوا غَلَبَةَ المُسْلِمينَ عليهِمْ معَ قِلّةِ عددِهِمْ والضَّعْفِ الذي حَلَّ بأبدانِهِمْ لِاشْتِغالِهِمْ بعبادتِهِمْ ربَّهُمْ وكَثْرَةَ عددِ المُشْرِكينَ معَ قوةِ أبدانِهِمْ أيْقَنوا أنهمْ لم يَنالوا الغَلَبَةَ بالحِيَلِ والأسبابِ، بلِ اللهُ تعالى، هو الذي قَوّاهُم عليهِمْ، وقامَ بِنَصْرِهِمْ؛ وتَقَرَّرَ عندَهُمْ كَونُ أهلِ الإسلامِ على الحقِّ.

وإذا أيقَنوا بالحقِّ [الْتَزَموهُ، فَيُحْرِزونَ][7] بِهِ جَزيلَ الثوابِ وكريمَ المآبِ، فصارَ القتالُ رحمةً لهم، لا أنْ يكونَ عليهِمْ عقوبةً لِسوءِ صَنيعِهِمْ.

وإذا كانَ كذلكَ بَقِيَ العملُ بقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ثابتاً باقياً.

وبهذا يُجابُ مَنْ سألَ، فقالَ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وفي القتالِ تَرْكُ الرَّحمةِ، فكيفَ يَفْرِضُهُ[8] عليهِ؟ فَيُقالُ: إنْ ليسَ في القِتالِ تَرْكُ الرَّحمةِ، بل هو مِنْ أبْلَغِ الرَّحمةِ وتَمامِها، إذْ يَحمِلُهُمْ على الإيمانِ وتَرْكِ التَّكْذيبِ، وتَعْلُو منزلَتُهُمْ، ويَشْرُفُ قَدْرُهُمْ في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

وجوابٌ آخَرُ أنْ يُقالَ: إنَّ الحُجَّةَ في القِتالِ ليسَتْ في القَتْلِ، لأنهمْ إذا خافوا القِتالَ تَرَكوا التَّكْذيبَ، وأقْبَلوا على الداعي. ألا تَرَى أنهُ ذَكَرَ أنَّ القومَ قَبْلَ أنْ يُفْرَضَ عليهِمُ القِتالُ كانَ يدخُلُ الواحدُ منهمْ بعدَ الواحدِ في هذا الدينِ. فلمّا شُرِعَ القِتالُ جَعَلوا يدخُلونَ فيهِ فَوجاً فَوجاً وقَبيلةً قبيلةً؟

---

(١) في الأصل وم: ما. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: عليهم. (٤) في الأصل وم: عليهم. (٥) من م، في الأصل منه. (٦) في الأصل وم: وجوابه. (٧) في الأصل وم: التزموا فيحرزوا. (٨) في الأصل وم: يفرض.

ثم إباحةُ القَتْلِ تكونُ بالضرورةِ لأنهمْ إذا عَلِموا [أنهمْ][1] لا يُقْتَلونَ لم يَقَعْ لهمُ الخَوفُ بالقِتالِ، وإذا لم يَخافوا تَرَكوا الإجابةَ، فَشُرِعَ القَتْلُ[2] لِتَحقيقِ الخَوفِ، فلم يكُنْ [فيهِ][3] تَركُ الرَّحمةِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِي الْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وفي إقامةِ القِصاصِ تَلَفُ النفسِ، ليسَ فيهِ إحياءٌ، ولكنَّ وجهَ[4] الإحياءِ فيهِ، هو أنَّ القاتلَ[5] إذا فَكَّرَ [أنهُ][6] قَتَلَ نَفْسَهُ بِقَتْلِ صاحبِهِ رَدَعَهُ ذلكَ عَنِ القَتْلِ، فيكونُ فيهِ إحياءُ النفسِ جميعاً، فَيَصيرُ إيجابُ القِصاصِ سَبَباً للإحياءِ في الحَقيقةِ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ سَبَباً لِلإتْلافِ.

فكذلكَ هؤلاءِ إذا أيْقَنوا بالقَتْلِ بامْتِناعِهِمْ عنِ الإجابةِ تركوا الامْتِناعَ، وأقْبَلوا على الإجابةِ، فيكونُ موضوعُ القَتْلِ للرَّحمةِ في التَّحقيقِ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ خارجاً مَخْرَجَ تَرْكِ الرحمةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فيهِ أنَّ أهلَ الخِصْبَةِ والدَّعةِ، همُ الذينَ اشْتَغَلوا بالتَّكذيبِ، وهمُ الذينَ كانوا يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ كما قالَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ [سبأ: ٣٤] فَخَصَّ أُولي النَّعْمةِ بالذِّكْرِ لهذا.

ثم في قولِهِ: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ إيهامٌ بأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سَبَقَ منهُ المَنْعُ، ولم يوجَدْ مِنْ رسولِ اللهِ حَيلولةٌ ومَنْعٌ، ولكنَّ مثلَ هذا الخِطابِ موجودٌ في كتابِ اللهِ في غَيرِ آيةٍ[7] مِنْ كتابِهِ، وهو أنهُ يُخَرَّجُ مُخرَجاً يُوهِمُ أنَّ هناكَ مُقَدِّمةً، وإنْ لم يكُنْ فيها مُقَدِّمةٌ في التَّحقيقِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧] ولم يكُنْ فيهِ تَحقيقُ الوَضعِ، وإنْ كانَ الرفعُ يُستَعمَلُ في الشيءِ الموضوعِ. وكانَ تأويلُ الرَّفعِ ههنا بأنها خُلِقَتْ مَرْفوعةً، وقالَ تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] ولم تكُنْ مرفوعةً، فَوَضَعَها، وكانَ مَعْناهُ: أنها خُلِقَتْ موضوعةً.

وقالَ يوسُفُ ﷺ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧] ولم يَسْبِقْ منهُ دخولٌ في دينِ أولئكَ، فيكونُ تاركاً لهُ بعدَ ما دَخَلَ فيهِ.

وقالَ تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولم يَقْتَضِ قولُهُ ﷻ: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَـٰتِ﴾ كونَهُمْ في النورِ فيُخْرِجونَهُمْ منهُ، وإنْ كانَ في الظاهِرِ يُؤَدِّي ذلكَ.

[فَعَلَى ذلكَ][8] قولُهُ: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ وإنْ كانَ في الظاهِرِ يَقْتَضي حَيلولةً ومَنْعاً.

فليسَ في الحقيقةِ إثباتُ مَنْعٍ، ويُذْكَرُ غَيرُ هذا في سورةِ المُدَّثِّرِ[9].

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ ومَعْناهُ: لا تُجازِهِمْ /٦٠٧ ـ ب/ بِصَنيعِهِمْ، ولا[10] تَسْتَعْجِلْ عليهِمْ بالدعاءِ ﴿أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقيلَ في الفَرْقِ بينَ النَّعْمَةِ والنِّعْمَةِ: إنَّ النَّعْمَةَ ما تُعْطى للعبدِ إرادةَ اسْتِدْراجِهِ فيها وهلاكِهِ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧] والنِّعْمَةَ هي[11] مِنَّةُ اللهِ تعالى على عبادِهِ تَفَضُّلاً عليهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ قالَ ابنُ مسعودٍ ﷺ: الأنكالُ، هي[12] السلاسلُ والقُيودُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجد. (٥) من م، في الأصل: القتل. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: آي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) وهو قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [الآية: ١١]. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: هو. (١٢) في الأصل وم: هو.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: الأنكالُ ما يُنَكَّلُ بهِ، ويُعَيَّرُ بهِ غيرُهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦] تأويلُهُ: ما بَينَ يَدَيها مِنْ قُرىً، وما خَلْفَها مِنَ القُرى أيضاً.

فإنْ كانَ على ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصَمُّ فقد يكونُ في الدنيا، ويكونُ مُنْصَرِفاً إلى يومِ بَدْرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وكانَ الأوّلُ أشبَهَ. والجَحيمُ، هو مُعْظَمُ النارِ.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ نُبُوّةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وآيةُ رسالَتِهِ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ فإنَّ لهمْ لَدينا أنكالاً وجَحيماً، وإنما يُنَكَّلونَ، ويُعَذَّبونَ بالجَحيمِ إذا ماتُوا على الكُفْرِ.

ففيهِ إبانَةُ أنهمْ يَموتونَ، وهم كفارٌ. وعلى ذلكَ ماتوا، وخُتِمَ أمْرُهُمْ، ولم يُسْلِمْ منهمْ أحدٌ، فَيَخْرُجُ ما أخبَرَ عن غَيبٍ كما أخبَرَ، وذلكَ لا يُعْلَمُ إلّا باللهِ تعالى. فَثَبَتَ أنهُ لم يَخْتَرِعْهُ مِنْ تِلْقاءِ نفسِهِ، بل عَلِمَ باللهِ تعالى، وعِلْمُ الغَيبِ مِنْ أعظَمِ آياتِ رسالَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالذي يُغَصُّ [بهِ][1] ولا يُقْدَرُ على ابْتِلاعِهِ، ليسَ بطعامٍ في الحقيقةِ. وقالَ: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤] فالحميمُ ليسَ بشرابٍ في التَّحقيقِ، ولكنْ سَمّى الأوّلَ طعاماً لأنهُ يُمْضَغُ مَضْغَ الطعامِ. والصَّديدُ والحَميمُ يَسيلانَ سَيلَ الشَّرابِ، فَذَكَرَ في الأوّلِ طعاماً وفي الثاني شراباً لهذا.

ولأنَّ الطعامَ اسْمٌ لِما يُطْعَمُ، فهو مطعومٌ، وإنْ كانَ كريهاً، والحميمُ مَشروبٌ، وإنْ كانَ في نفسِهِ كريهاً.

ثم الأصلُ أنَّ الكَفَرَةَ بِكُفْرِهِمْ تَرَكوا شُكْرَ نِعَمِ اللهِ تعالى وذِكْرَها[2]، وقابَلوها بالكُفْرِ، فأبْدَلَ اللهُ تعالى لهمْ في الآخرةِ مَكانَ كلِّ نَعْمَةٍ[3] نِقْمةً. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾؟ [الإسراء: ٩٧] فأبْدَلَهُمْ مَكانَ البَصَرِ عَمىً ومَكانَ السَّمْعِ صَمَماً لِتَرْكِهِمْ شُكْرَ ما أُنْعِموا مِنَ البَصَرِ والسَّمْعِ واللسانِ، وأبْدَلَهُمْ مكانَ اللِّباسِ قَطْراناً ومَكانَ المراكبِ السَّحْبَ إلى النارِ على أقدامِهِمْ وَوُجوهِهِمْ.

فكذلكَ أبْدَلَهُمْ مَكانَ الطعامِ والشرابِ زَقّوماً وحَميماً لِتَرْكِهِمْ نِعَمَ اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي رَمْلاً سائلاً. ففيهِ إخبارٌ عنْ شدةِ هَوْلِ ذلكَ اليومِ لأنَّ الجبالَ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ وأشَدِّها في نفسها. ثم يبلُغُ هَولُ ذلكَ اليومِ مَبْلَغاً لا تَحْتَمِلُهُ الجبالُ مَعَ شِدَّتِها وصلابَتِها.

فإنَّ الإنسانَ الضَّعيفَ المَهينَ أنّى يقومُ لِشِدَّتِهِ وهَوْلِهِ، فَذَكَّرَهُمْ حالَ ذلكَ لِيَرْتَدِعوا، ويَنْتَهوا عمّاهُمْ عليهِ مِنَ التَّكذيبِ والضلالِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ قولُهُ: ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: تأويلُهُ: مُبَيِّناً لكمْ[4] ما للهِ عليكم مِنَ الحقِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي لكمْ وعليكُمْ جميعاً؛ فيكونُ على الكَفَرَةِ شاهداً بقولِهِ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] ويكونُ للمؤمنينَ شاهداً، وقد يُذْكَرُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ويُرادُ بهِ لكمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ لأنهمْ كانوا يَذْبحونَ لها لا عليها، وخَصَّ ذِكْرَ موسى ﷺ وفرعَونَ مِنْ بينِ الجُمْلةِ.

ففائدةُ ذِكْرِ التَّخصيصِ، هو، واللهُ أعلَمُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ مَنْشَؤُهُ بينَ ظَهْرانَي الذينَ كَذَّبوهُ، ولم يكونوا[5] وقَفوا منهُ على كِذْبةٍ قطُّ، بل كانوا عَرَفوهُ بالصِّيانةِ والعَدالةِ، وكانَ بِمَحَلٍّ يَرَوْنَهُ أهلاً للشهادةِ، فكيفَ يَنْسُبونَهُ إلى الكَذِبِ، ولم يَعْهَدوا ذلكَ منهُ؟ وكذلكَ موسى ﷺ كانَ نَشأ بَينَ ظَهْرانَي أولئكَ الذينَ أُرسِلَ إليهمْ وكانوا عرفوهُ بالصِّيانةِ والعَدالةِ، وعَرَفوا أنهُ يَصْلُحُ للشهادةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وذكره. (٣) انظر ما ذكر أبو منصور في الفرق بين النَّعْمةِ والنِّعمةِ في تفسير الآية ١١. (٤) في الأصل وم: عليكم. (٥) في الأصل وم: يكن.

ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنهم أزْرَوا برسولِ اللهِ ﷺ واسْتَصْغَروهُ اعْتِباراً بما شَهِدوا مِنْ حالِهِ عندَ الصِّغَرِ، إذْ كانَ مَنْشَؤُهُ فيهِمْ، فكذلكَ أزْرَوا بموسى عليه السلام حينَ[1] بُعِثَ إليهِمْ، واسْتَخَفُّوا بهِ اسْتِخْفافَهُمْ بهِ في حالةِ الصِّغَرِ حتى قالوا: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] فَنَزَلَ بهمْ ما نَزَلَ بأولئكَ مِنَ الاسْتِئصالِ بِتكذيبِهِمْ إياهُ وإزرائِهِمْ بهِ، فَذَكَّرَهُمْ حالَ مُكَذِّبي موسى عليه السلام وما نَزَلَ بهمْ مِنْ مَقْتِ اللهِ تعالى بِتَكْذيبِهِمْ وإزرائِهِمْ لِيَعْتَبِروا بهِ، فَيَنْقَلِعوا عنِ الإزراءِ لئلا يَحُلَّ بهمْ ما حلَّ بأولئكَ ولئلا يَغْتَرُّوا بِقِواهُمْ وكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وأموالِهِمْ؛ فإنَّ مُكَذِّبي موسى عليه السلام كانوا أكْثَرَ أموالاً وأولاداً وأعداداً وأشَدَّ بَطْشاً فلم يُغْنِهِمْ ذلكَ مِنَ اللهِ شيئاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَصَرَ ذِكْرَ موسى عليه السلام وفِرْعَونَ، ونَبَأَهُما، لأنَّ خَبَرَهُ كانَ مُنْتَشِراً في ما بَيْنَ أهلِ مكَّةَ، لأنهمْ كانوا خَبَرَةَ اليهودِ والذينَ عندَهُمْ نَبَأُ موسى عليه السلام لِيَنْتَهُوا عمّا هُمْ عليهِ مِنَ التَّكْذيبِ، ولأنَّ اللهَ تعالى إذْ يَحْتَجُّ بالحُجَجِ؛ ولَهُ أنْ يَحْتَجَّ عليهِمْ بِحَلِّها، إذْ في ذلكَ قَطْعُ الشُّبَهِ وإزاحةُ العُذْرِ، أو ذَكَّرَهُمْ نَبَأَ موسى عليه السلام وقومِهِ لأنَّ العَهْدَ بهِ كانَ أقْرَبَ؛ إذْ قومُهُ كانوا آخِرَ قومٍ اسْتُؤْصِلوا في الدنيا.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي شديداً، ومنهُ المَطَرُ الشديدُ، يُسَمّى الوابلَ. وقالَ أبو بكرٍ: اسْمٌ لكلِّ مُعْضِلةٍ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ فهو يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: أي كيفَ تَتَّقونَ النارَ في الآخِرَةِ إذا سَلَكْتُمْ في الدنيا سَبيلَها، وهو الكُفْرُ، وأنتمْ تَعْلَمونَ أنَّ مَنْ سَلَكَ طريقاً لِشيءٍ، ولا مَنْفَذَ لِذلكَ الطريقِ [إلّا إلى] ذلكَ الشيءِ، فإنَّهُ يَرِدُ عليهِ، لا مَحالةَ؟.

[والثاني:][2] كيفَ تَتَّقونَ النارَ في الآخِرَةِ وقد تَرَكْتُمُ القيامَ بما عليكُمْ مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ؟

[والثالثُ:][3] كيفَ تَتَّقونَ العذابَ في الآخِرَةِ، وأنتمْ تُدْفَعونَ إليها، وتُضْطَرّونَ بقولِهِ عز وجل: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وبقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨] وبقولِهِ: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧] وقد مُكِّنْتُمْ في الدنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى ومُكِّنْتُمُ الانْتِهاءَ عنِ الكُفْرِ، ثم لم تَنْقَلِعوا عنهُ؟ فأنّى يَتَهَيَّأُ لكُمُ المَخْلَصُ مِنْ عذابِهِ، وأنتمْ تُدْفَعونَ إليهِ، أو كيفَ تَنْتَفِعونَ بإيمانِكُمْ في الآخِرَةِ، ولم تُؤْمِنوا في الدنيا، وقد مُكِّنْتُمْ منهُ؟

والأصلُ أنَّ دارَ الآخِرَةِ ليسَتْ بدارٍ لاسْتِحْداثِ الأسبابِ، وإنما هي دارُ وقوعِ المُسَبَّباتِ. فهمْ إذا لم يَسْتَحْدِثوا الأسبابَ التي جُعِلَتْ لِدَفْعِ العذابِ في الدنيا، لم يُمَكَّنوا مِنِ اسْتِحْداثِها في الآخِرَةِ، فَيَنْتَفِعوا بها /٦٠٨ ـ أ/ ولم يكونوا أهلاً لوقوعِ المُسَبَّباتِ لِما لم يَسْتَحْدِثوا الأسبابَ في الدنيا، وإنما قُلْنا: إنها ليسَتْ بدارِ مِحْنَةٍ وابْتِلاءٍ لأنَّ المِحْنَةَ لاسْتِظْهارِ الخَفِيّاتِ، والثوابُ والعِقابُ قد شُوهِدَ، وعُويِنَ.

فإذا قيلَ لهُ: إذا فَعَلْتَ كذا دَخَلْتَ النارَ، وهو يُعايِنُ النارَ، ويَراها، فهو يَمْتَنِعُ عنِ الإقدامِ على ذلكَ الفِعْلِ.

وإذا قيلَ لهُ: إذا آمَنْتَ باللهِ أُكْرِمْتَ بالجنةِ، وهو يُشاهِدُ الجنةَ، ويَراها، فهو يُؤْمِنُ، لا مَحالةَ، فلا وجهَ لِلابْتِلاءِ في الآخِرَةِ، بل هي دارُ المُسَبَّباتِ، يعني الثوابَ والعِقابَ.

والذي يَدُلُّ على هذا قولُهُ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ فأخبَرَ أنهمْ يَشيبونَ لا بِسَبَبِ المَشيبِ، والمَشيبُ في الدنيا لا يوجدُ إلّا بَعْدَ وجودِ سببِهِ، وهو الكِبَرُ، لِيُعْلَمَ أنَّ الدارَ الآخِرَةَ ليسَتْ بدارِ اسْتِحْداثِ الأسبابِ في ما يَسْتَحْدِثونَ مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى، لا يَنْفَعُهُمْ في ذلكَ اليومِ، ولا يَقيهِمْ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّحْقيقِ، فَشَيْبُ الولدانِ لِهَوْلِ ذلكَ اليومِ وشِدَّةِ هَوْلِهِ، يُصَيِّرُ الشَّيَبَ سُكارى لِشِدَّةِ هَوْلِهِ كما قالَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، في الأصل: الأزلي. (٣) في الأصل وم: أو.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التمثيلِ، فَمَثَّلَهُ بهِ لِعِظَمِ ذلكَ اليومِ وشِدَّةِ هَولِهِ. وقد يجوزُ أنْ يُمَثَّلَ الشيءُ بما يَبْعُدُ عنِ الأوهامِ تَحقيقُهُ على تَعظيمِ ذلكَ الشيءِ كقولِهِ: ﴿تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠و٩١] فَذَكَرَ هذا على التَّمثيلِ لِعَظيمِ ما قيلَ فيهِ لا على تَحقيقِ الانفطارِ والانشقاقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَعناهُ أنهُ لولا أنَّ اللهَ تعالى بَعَثَهُمْ لِلإبقاءِ وألّا يَتَغَيَّروا ولا يَتَفانَوا، و إلّا كانَ هَولُ ذلكَ اليومِ يَبْلُغُ مَبْلَغاً يَشيبُ بهِ الولدانُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي بما يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً، وهو هَولُ ذلكَ اليومِ وشِدَّةُ فَزَعِهِ، أو مُنفَطِرٌ بالغَمامِ. وقيلَ: مُنفَطِرٌ باللهِ أي بِقضائِهِ وحُكْمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالَ: ﴿مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ ولم يَقُلْ مُنفَطِرَةٌ، والسماءُ مؤنثٌ، فَذَكَرَ الزَّجاجُ أنَّ مَعْنى قولِهِ: ﴿مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ أي ذاتُ انْفِطارٍ، فَعَبَّرَ بهِ كما يُعَبَّرُ عنِ الذكورِ كما يُقالُ: امرأةٌ مرضِعٌ، أي ذاتُ إرضاعٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي الذي وقَعَ بهِ الوعدُ مَفعولٌ، لا أنْ يكونَ الوَعْدُ هو المَفعولَ. فكذا قولُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] والوَعْدُ لا يُؤتَى بلِ المَوْعودُ هو الذي يُؤتَى، ولكنْ نَسَبَ المَوْعودَ إلى الوَعْدِ لأنهُ مِنْ آثارِهِ. وهذا كما يُقالُ: المَطَرُ رَحمةُ اللهِ أي برحمةِ اللهِ ما أمْطَرَ لا[1] أنْ يكونَ المَطَرُ بِرَحْمتِهِ، ويُقالُ: الصلاةُ أمْرُ اللهِ [أي بأمرِ اللهِ][2] ما تُقامُ لا أنْ تكونَ أمْرَهُ الذي يُوصَفُ بهِ، فكذلكَ المَوعودُ نُسِبَ إلى الوَعْدِ؛ إذْ بالوَعْدِ استَوجَبوا لا أنْ يكونَ الوَعْدُ، هو المَفْعولُ، وهو المَأتِيُّ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿هَٰذِهِ﴾ مُنْصَرِفاً إلى الأهوالِ التي ذَكَرَها [فيكونُ ذِكْرُها][3] تَذْكِرَةً.

ويَحتَمِلُ أنْ يَنْصَرِفَ إلى الرسالةِ أي رسالةِ محمدٍ ﷺ ويَحتَمِلُ [أنْ تكونَ][4] هذهِ السُّوَرُ أوِ الآياتُ كلُّها تذكرةً.

وقولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ إلى ما دَعاهُ إليهِ ربُّهُ؛ وذلكَ يكونُ بالإجابةِ إلى[5] ما دعاهُ إليهِ، أو مَنْ شاءَ اتَّخَذَ إلى ما وَعَدَ لهُ ربُّهُ في الآخرةِ سبيلاً في أنْ يُقْبِلَ على طاعتِهِ، ويَشْغَلَ نفسَهُ بعبادتِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ قالَ أبو عُبَيدٍ: الصوابُ أنْ يُقرَأَ: ونِصْفِهِ وثُلُثِهِ بالخَفْضِ[6] على مَعْنى إضافةِ أدنَى إليهما؛ فكأنهُ يقولُ: إنَّ ربَّكَ يَعْلَمُ أنكَ تقومُ أدنى مِنْ ثُلُثَيِ الليلِ وأدنى مِنْ نِصْفِهِ [وأدنى مِنْ ثُلُثِهِ][7] وأدنى يكونُ على الزيادةِ والنُّقصانِ جميعاً، لأنَّ فَضْلَ ما بَينَ الثُّلُثِ إلى النِّصْفِ، هو السُّدُسُ. فإذا زادَ على الثُّلُثِ أقلَّ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى الثُّلُثِ أدنَى، وكذلكَ إذا نَقَصَ مِنَ الثُّلُثِ شيئاً قليلاً، فهو إلى الثُّلُثِ قريبٌ، فيكونُ إليهِ أدنَى.

وكذلكَ الفَضْلُ في ما بَينَ النِّصْفِ إلى الثُّلُثَينِ، هو السُّدُسُ، فإذا زادَ على النِّصْفِ أكثَرَ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى الثُّلُثَينِ[8] أدنَى، وإذا نَقَصَ مِنْ نِصْفِ السُّدُسِ، فهو إلى النِّصْفِ أدنَى وأقْرَبُ.

ومنهم مَن اختارَ النَّصْبَ فيهما، والوجهانِ جميعاً مُحتَمَلانِ، لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾ ليسَ فيهِ إيجابُ حُكْمٍ مُبْتَدَإٍ، وإنما فيهِ إخبارٌ عنِ القيامِ الذي وُجِدَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

فجائزٌ أنْ يكونَ وُجِدَ منهُ ذلكَ كلُّهُ، وهو أنْ يكونَ قريباً مِنَ الثُّلُثَينِ وقريباً مِنَ النِّصْفِ وأدنَى مِنَ الثُّلُثِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ المقالةِ الأولى، ويكونَ قد قامَ أدنَى مِنْ ثُلُثَيِ الليلِ، وقامَ نِصْفَهُ وثُلُثَهُ وأدنَى مِنْ نِصْفِهِ وأدنَى مِنْ ثُلُثِهِ، فَذَكَرَ في الثُّلُثَينِ الأدنَى لِما وُجِدَ منهُ الأدنَى مِنْ جهةِ الزيادةِ والنُّقصانِ، ولم تُوجَدْ مُوافَقةُ الثُّلُثَينِ.

---

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أي. (٥) في الأصل وم: في. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٥٥. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الاثنين.

وأخبرَ بالنِّصفِ والثُّلُثِ بالأمْرَينِ جميعاً لِوُجودِ المُوافقةِ، وهو أنْ يكونَ قامَ نِصفَ الليلِ، وقامَ ثُلُثَهُ، وقامَ أدْنَى مِنَ النِّصفِ وأدْنَى مِنَ الثُّلُثِ.

وإذا كانَ هذا كلُّهُ مُحتَمَلاً، لم يَجُزْ أنْ يُدْفَعَ أحدُ الوجهَينِ، ويُتَمَسَّكَ بالوجهِ الآخرِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فقُرِئَ بِرَفْعِ[1] التاءِ ونَصْبِهِ جميعاً لِما وُجِدَ الأمرانِ جميعاً؛ وهو أنْ يكونَ موسى ﷺ وفِرْعَونُ عَلِمَا [بها][2] أي بالآياتِ جميعاً.

وكذلكَ قولُهُ[3] في سورةِ سَبَإٍ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [الآية: ١٩] وقُرِئَ رَبُّنا باعَدَ[4] لوجودِ الأمْرَينِ جميعاً، وهما[5] الدعاءُ والإجابةُ. فقولُهُ ﷺ: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ دعاءٌ، وقولُهُ: رَبُّنا باعَدَ على الإجابةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَهما بالإعرابِ، فكذلكَ ههنا لِما اسْتَقامَ وجودُ الوجهَينِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ اسْتَقامَ أنْ يُقْرَأَ بالنَّصْبِ والخَفْضِ جميعاً، ويُفَرِّقُ بَينَهما بالإعرابِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ المَفروضُ مِنَ القِيامِ قَدْرَ ثُلُثِ الليلِ، وتكونَ الزيادةُ [بِحُكْمِ النافلةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ][6] كلُّهُ مَفروضاً، وإنْ طالَ، وزادَ على الثُّلُثِ والنِّصفِ والثُّلُثَينِ[7]. فإنْ كانَ [فإنهُ][8] يجوزُ لهُ الاقتِصارُ على ثُلُثِ الليلِ.

ألا تَرَى أنَّ فَرْضَ الرُّكوعِ والسُّجودِ يُقْضَى[9] بإدراكِ جُزْءٍ منهُ؟ وكذلكَ فرضُ القيامِ [يُقْضَى][10] بالجُزْءِ منهُ.

ثم إنَّ الركوعَ وإنْ طالَ، فهو مِنْ أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ فَرْضٌ حتى لَوَ أنَّ داخلاً شارَكَهُ في أوَّلِ الركوعِ، ثم رَفَعَ رأسَهُ، وشارَكَهُ ثالثٌ في آخِرِ ركوعِهِ، ثم رَفَعَ رأسَهُ معَ الإمامِ، صارَ [كلٌّ][11] واحدٍ منهمْ مُدْرِكاً لِفَرْضِ الركوعِ، وإنْ كانَ الإمامُ، لَوِ اقْتَصَرَ على جُزْءٍ منهُ، كفاهُ ذلكَ عنْ فَرْضِهِ.

فكذلكَ الفَرضُ لمّا انْصَرَفَ إلى قيامِ الليلِ، فصارَ جميعُ ما يُؤتَى مِنَ القيامِ في الليلِ، وإنْ طالَ، فَرْضاً، وإنْ كانَ قد يجوزُ الاجْتِزاءُ ببعضِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ ﷺ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ فَرْضَ القِيامِ كانَ على النَّبِيِّ ﷺ وعلى مَنْ تَبِعَهُ مِنَ المؤمنينَ، وإنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ هو المَخْصوصَ بالخِطابِ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ لأنهُ لو لم يَكُنِ /٦٠٨ ـ ب/ الفَرْضُ شاملاً عليهِمْ لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مَعْنًى.

ألا تَرَى أنهُ إذا لم يُفْرَضْ علينا قيامُ الليلِ في يومِنا هذا لم نَحْتَجْ في تَرْكِ القِيامِ إلى أنْ يتوبَ اللهُ علينا؟

ثم إنَّ اللهَ تعالى، ذَكَرَ في التَّوبةِ[12] وفي ما فيهِ النَّسْخُ خِطاباً يجمعُ الجميعَ بقولِهِ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وبقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [وذَكَرَ][13] في ما فيهِ الأمْرُ خِطاباً يَقْتَضي الآحادَ، وهو قولُهُ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [الآيتان ٢و٣] ففي هذا أنهُ قد يجوزُ أنْ يُخاطِبَ النَّبِيَّ ﷺ على إدخالِ غيرِهِ فيهِ تَبَعاً لهُ، ولا يجوزُ أنْ يُخاطِبَ غيرَ النَّبِيِّ ﷺ ويُرادَ بِهِ[14] النَّبِيُّ ﷺ في ذِكْرِ الخِطابِ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو المَتْبوعُ.

فجائزٌ إلحاقُ غيرِهِ بهِ، وغيرُهُ لا يكونُ مَتْبوعاً حتى يَلْحَقَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ففيهِ أنَّ الليلَ والنهارَ، ليسا يَمْضِيانِ على الجُزافِ، ولكنْ بِتَقديرٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ ﷻ وآيةُ ذلكَ ظاهرةٌ[15] لأنهما يَجْرِيانِ مُذْ خُلِقا على تَقْديرٍ واحدٍ، لم يَتَقَدَّما، ولم يَتَأخَّرا، ولم يُنْقَصا، ولم يُزادا، فيكونُ فيهِ إبانةُ أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ وأنَّ[16] الذي قَدَّرَهما هكذا مَنْ لا يَبِيدُ مُلْكُهُ، ولا يَنْفَدُ سُلْطانُهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عَلِمَ أنْ لَنْ تُطيقوهُ. قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: هذا لا يَسْتَقيمُ، لأنهُ جائزٌ أنْ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ح٣/ ٣٤٠. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل: قال. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ح٥/ ١٥٥. (٥) في الأصل وم: وهو. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: يقتضي. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) من م، في الأصل: التورية. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) أدرج بعدها في الأصل وم: غير. (١٥) في الأصل وم: ظاهر. (١٦) من م، في الأصل: ولأن.

يُكَلِّفَهُمُ اللهُ تعالى ما لا يُطيقونَهُ. ألا ترَى إلى قولِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؟ [البقرة: ٢٨٦]. وليسَ في ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ ما يَرْفَعُ هذا التأويلَ لأنهُ يُقالُ: الأمرُ إذا اشتَدَّ، وتعَسَّرَ، لا يُطاقُ هذا الأمرُ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ خارجاً مِنَ الوُسْعِ.

ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾؟ [البقرة: ٢٨٦] وتأويلُهُ: لا تُحَمِّلْنا أمراً يَشْتَدُّ علينا عملُهُ، ليسَ أنهمْ خافوا أنْ يُحَمِّلَهُمْ أمراً لا يَحْتَمِلُهُ وُسْعُهُمْ، فيكونُ قولُهُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إنْ كانَ تأويلُهُ: أنْ لنْ تُطيقوهُ، على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي لا تُحَمِّلْنا أمراً يُهْلِكُ طاقَتَنا: لا أنْ يُحَمَّلوا أمراً لا يُطيقونَهُ، ألا ترَى الإنسانَ يَحْتَمِلُ القَتْلَ؟ ولكنَّ قَتْلَهُ يُهْلِكُ طاقَتَهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي اعْصِمْنا مِنَ الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ لئِلا نُؤْثِرَها، فنكونَ مُضَيِّعينَ بارْتِكابِها قوةَ الفعلِ الذي تُعَبِّدُنا بِهِ، فلا نَصِلَ إلى فِعْلِهِ. وهذهِ، هي القوةُ التي لا تُزايِلُ[1] الفعلَ، بل تُطابِقُهُ. وأمّا الفعلُ الذي هو خارجٌ عنِ احْتِمالِ الوُسْعِ والطاقةِ فذلكَ هو الذي لا يقعُ بِمِثْلِهِ التكليفُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُ قولِهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لنْ تُحْصوا حَدَّ[2] ما أمَرَكُمْ بِهِ؛ لو حَدَّ[3] عليكُمْ في أمرٍ بِتقديرِ الثُّلُثِ والنِّصْفِ، لم يُمْكِنْكُمْ ذلكَ إلّا بَعدَ جَهْدٍ، فَفَرَضَ عليكُمْ قيامَ الثُّلُثِ مِنَ الليلِ، وجَعَلَ لكمُ الإمكانَ في أنْ تَزيدوا عليهِ، فَيُحيطَ[4] عَمَلَكُمْ بِقيامِ الثُّلُثِ، ولو كانَ على حَدٍّ واحدٍ لم يُمْكِنْكُمْ حِفْظُهُ[5] إلّا بَعدَ شِدَّةٍ وجَهْدٍ، وفي ذلكَ كُلْفَةٌ عَسيرةٌ.

ويُؤَيِّدُ هذا تأويلُ مَنْ قالَ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لَنْ تُطيقوهُ، وتكونَ الطاعةُ عبارةً عنِ التَّعسيرِ واشْتِدادِ الأمرِ.

ثم في الآيةِ دلالةٌ على إباحةِ تَعْليقِ الحُكْمِ بالاِسْتِحْسانِ لأنهُ قد فَرَضَ عليهِمْ قيامَ ثُلُثِ الليلِ، ولا يُمْكِنُهُمْ تدارُكُ الثُّلُثِ بِتقديرِ الإحاطةِ. وإنما يُمْكِنُهُمْ بالتَّقديرِ الذي يَغْلِبُ على القَلْبِ. فَثَبَتَ أنهُ قد يجوزُ أنْ يكونَ الحُكْمُ مُعْتَبَراً بِما يَقَعُ في القلوبِ، ويَغْلِبُ على الظُّنونِ، والاِسْتِحْسانُ ليسَ إلّا تعليقَ الحُكْمِ بما يَغْلِبُ على القلوبِ.

والذي يَدُلُّ على أنَّ الحكمَ يُلازِمُ بِما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى ألْزَمَ الحَدَّ على القاذِفِ وعلى[6] الزاني، ولم يُبَيِّنْ مَبْلَغَ وقوعِ الضربِ فيهِ ولا ما يُضْرَبُ بِهِ، فَقَدْرُ ذلكَ بما يَقَعُ في القلوبِ أنَّ مِثْلَ هذا الضَّرْبِ يَصْلُحُ لِمِثْلِ هذهِ الجِنايةِ، وكذلكَ قِيَمُ الأشياءِ والأُرُوشِ والنَّفَقاتِ وتَسْوِيَةُ المَكاييلِ والمَوازينِ، يُعْتَبَرُ ذلكَ كُلُّهُ بِغَلَبَةِ الظُّنونِ مِنْ غيرِ أنْ كانَ لِشَيءٍ مِنْ ذلكَ أصلٌ تُقَدَّرُ النوازلُ بِهِ، وتُنْتَزَعُ منهُ.

فَثَبَتَ أنهُ يجوزُ أنْ يُحْكَمَ بالذي يَغْلِبُ على الظنونِ، وأنَّ المجتهدَ يرجِعُ إلى وجهَينِ: مَرَّةً يَنْظُرُ [في][7] غيرِهِ، فَيَتَمَثَّلُ بهذا، فَيُسَمِّي ذلكَ قياساً، ومَرَّةً يَحْكُمُ فيها بما يَغْلِبُ على الظنونِ، فَيُسَمِّي ذلكَ اسْتِحْساناً.

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ سؤالَ مَنْ يَسْألُ أبا حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، أنَّ الوِتْرَ لو كانَ لهُ مُشابِهٌ في الفَرْضِ لكانَ لا يُخْتَلَفُ بِعَدَدِهِ سؤالٌ غيرُ مُسْتقيمٍ، لأنهُ قد فَرَضَ على القومِ أنْ يَقوموا ثُلُثَ الليلِ. وقد أخْبَرَ ﷻ أنهمْ لا يُحْصُونَ حَدَّ ما أمَرَهُمْ بِهِ. وإذا لم يُحْصُوا، فلا بُدَّ أنْ يَقَعَ هناكَ زيادةٌ أو نُقْصانٌ. فكذلكَ الوِتْرُ، وإنْ كانَ حَدُّ عَدَدِهِ غَيرَ معروفٍ، وهو لا يُخْرِجُهُ عن حُكْمِ الفَرائضِ، واللهُ أعلَمُ، في قولِهِ ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هو أنَّ اللهَ تعالى وَقَّتَ ما فَرَضَ عليهِمْ عَلِمَ أنهمْ لا يُحْصونَهُ، ولكنْ بَيَّنَ هذا لِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى إنْ يُكَلِّفْهُمْ إقامةَ العبادةِ إلى وقتٍ لا يَتَهَيَّأُ لهمْ إحاطةُ مَبْلَغِ ذلكَ الوقتِ إلّا بَعدَ جهدٍ لِيَعْرِفوا مِنَّةَ اللهِ عليهِمْ إذا أسْقَطَ عنهمْ ذلكَ التَّكليفَ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ولكنْ ذَكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهمْ يُكَلَّفونَ القِيامَ لِلْعُسْرَةِ، وإنْ كانَ بهمْ ضَعْفٌ، لكنْ إذا خَفَّفَ عنهمْ عَرَفوا ما للهِ عليهِمْ مِنْ عظيمِ المِنَّةِ.

---

(١) من م، في الأصل: يزال. (٢) في الأصل وم: أخذ. (٣) في الأصل وم: أخذ. (٤) في الأصل وم: فيحبط. (٥) في الأصل وم: حفظ.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة م الأصل وم.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يَحتَمِلُ أنْ تكونَ طائفةٌ منهمْ امْتَنعوا عنِ القيامِ، فتكونَ التَّوبَةُ راجعةً إليهِمْ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾؟ فهذا يُبيِّنُ أنهمْ جميعاً لم يقوموا معهُ، وإنما قامَتْ طائفةٌ، فتكونُ التَّوبةُ راجعةً إلى الطائفةِ التي امْتَنَعَتْ عنِ القيامِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ راجعةً إليهِمْ وإلى الذينَ قاموا معهُ، فيكونَ الذينَ قاموا معهُ قَصَّروا القِيامَ عنِ الحَدِّ الذي شَرَطَ عليهِمْ، فافتَقَروا إلى التَّوبةِ أيضاً كما افْتَقَرَ إليها[1] مَنْ تَخلَّفَ عنِ القِيامِ فَتابَ اللهُ عليهِمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ قيامَ الليلِ صارَ مَنسوخاً بهذهِ الآيةِ، ومنهمْ مَنْ يقولُ بأنَّ النسخَ وَقَعَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي الصلاةُ المَفروضةُ، وليسَ بَينَهما فَرقٌ عندَنا. وإنما نُسِخَ بها جميعاً.

وَوَجهُ النَّسْخِ، هو بالِاقْتِصارِ أنَّ فَرْضَ القيامِ لو كانَ باقياً لكانَ لا يجوزُ لهمْ أنْ يَكْتَفُوا مِنَ القراءةِ بما يَتَيَسَّرُ عليهِمْ لأنهمْ إذا قاموا إلى ثُلُثِ الليلِ لَزِمَهُمْ تبليغُ القراءةِ إلى حدٍّ يَتَعَسَّرُ عليهِمْ، ويَشْتَدُّ.

فإذا أَذِنَ بالِاقْتِصارِ على القَدْرِ الذي تَيَسَّرَ، عُلِمَ أنهُ قد سَقَطَ عنهمْ أنْ يَقوموا ثُلُثَ الليلِ.

ثم هو إذا أقامَ صلاةَ / ٦٠٩ ـ أ/ المَغرِبِ والعِشاءِ قد قَرَأَ منَ القرآنِ ما تَيَسَّرَ عليهِ، فصارَ قاضِياً لِما اقْتَضاهُ قولُه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

فَمِنْ هذا الوجهِ اسْتَدَلُّوا بهذهِ الآيةِ على نَسْخِ حُكْمِ القيامِ بالليلِ.

ثم هذهِ القراءةُ يُقيمُها في الصلاةِ، فيكونُ النَّسْخُ واقعاً بهما.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ فَرْضَ القيامِ سَقَطَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعنْ أُمَّتِهِ، واسْتَدَلَّ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] وإنْ كانَ الفَرْضُ عليهِ قائماً لم يكُنِ التَّهَجُّدُ بهِ نافلةً.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهُ لم يَسْقُطْ عنهُ فَرْضُ القيامِ، بل دامَ عليهِ إلى أنْ قُبِضَ ﷺ واحتَجَّ بما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «كُتِبَ عليَّ قيامُ الليلِ، ولم يُكْتَبْ عليكُمْ» ومَعْناهُ: بَقِيَ عليَّ مكتوباً، ورُفِعَ عنكُمْ، إذْ دَلَّلْنا أنَّ القيامَ في الِابْتِداءِ كانَ عليهِ وعليهِمْ جميعاً.

وقد قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ صلاةَ الليلِ، لم تكُنْ فرضاً على أُمَّتِهِ بهذا الحديثِ، وما ذَكَرْناهُ حُجَّةٌ عليهِمْ.

ثم الجوابُ عنِ التَّعَلُّقِ [بقولِهِ:][2] ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ مَعْناهُ: غَنيمةٌ لكَ، لا أنْ يكونَ القيامُ منهُ تَطوُّعاً. ووجهُ صَرْفِهِ إلى الغَنيمةِ، هو[3] أنَّ العبادةَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الشكرِ للهِ تعالى، فَيصيرُ بها مُكْتسِباً للفضيلةِ، وليسَ يَقَعُ ذلكَ موقِعَ التَّكْفيرِ للسَّيِّئاتِ، لأنهُ تعالى قد غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ، وما تأخَّرَ، فلم يكنْ يَحتاجُ إلى إتيانِ الحسناتِ لِتُكَفِّرَ عنهُ السَّيِّئاتُ. فَثَبَتَ أنَّ الفِعْلَ منهُ يقعُ مَوقِعَ اكْتِسابِهِ الفضيلةَ، فتدومُ لهُ تلكَ الفضيلةُ، ويَسْتَوجِبُ بها جزيلَ الثوابِ، وذلكَ مِنْ أعظَمِ الغَنائمِ.

والذي يدلُّ على أنَّ قولَهُ يُخَرَّجُ مُخرَجَ الشُّكرِ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «[أنهُ قامَ][4] حتى تَوَرَّمَتْ قدماهُ، فقيلَ له: يا رسولَ اللهِ أَلَمْ يَغْفِرْ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ؟ فقالَ ﷺ: أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩ و٢٨٢٠].

وأمّا غَيرُهُ فإنَّ الحَسَناتِ منهمْ مُكَفِّرَةٌ لِسَيِّئاتِهِمْ ومُطَهِّرَةٌ لِزَلّاتِهِمْ بقولِهِ[5] تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] فهمْ بِحَسناتِهِمْ لم يَصيروا مُكْتَسِبينَ الفضيلةَ في مُسْتأنَفِ الأوقاتِ، فَيَصيروا فيها مُغْتَنِمينَ، بل رَفَعوا زَلّاتِهِمْ، وطَهَّروا أنفسَهُمْ مِنَ المآثِمِ، فلم تَصِرِ القُرْبةُ منهمْ [نافلةً][6] واللهُ أعلَمُ. فلهذا [ما سَمّى تَهَجُّدَهُ نافلةً][7] لا أنْ يكونَ قيامُهُ نَفْلاً.

---

(١) في الأصل وم: إليهم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وهو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: قال الله. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ هذهِ السورةَ كلَّها مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ زَعَمَ [أنَّ][1] أوّلَها مكيةٌ، وآخِرَها مدنيةٌ.

ويَحتجُّ هؤلاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وبقولِهِ تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ لأنَّ[2] الجِهادَ فُرِضَ على المسلمينَ بعدَ الهجرةِ إلى المدينةِ، ولم يوجَدْ منهُمُ الضَّرْبُ في الأرضِ في حالِ كونِهِمْ بمكةَ، وفي هذا إخبارٌ عن جهادِ طائفةٍ وعنْ ضَرْبِ بعضٍ في الأرضِ؛ فَثبَتَ أنَّ نزولَ هذهِ الآياتِ كانَ[3] بالمدينةِ. واحْتجّوا أيضاً بقولِهِ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقالوا[4]: إنَّ الزكاةَ إنما فُرِضَتْ عليهمْ بعدَ ما هاجَروا إلى المدينةِ، وفي هذا أمرٌ بإيتاءِ الزكاةِ؛ فَثبَتَ أنَّ نزولَها كانَ[5] بالمدينةِ.

وأمّا أوّلُ السورةِ فهو[6] في مَوضعِ المُحاجَّةِ على أهلِ الشِّرْكِ، ولم يكنْ بالمدينةِ مُشْرِكٌ، بل [كانَ أهلُها][7] أهلَ كتابٍ.

ومَنْ ذَكَرَ أنها كلَّها مكيةٌ، فهو يَحمِلُ قولَهُ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الوَعْدِ والبِشارةِ، ليسَ على الإيجابِ والوجوبِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ أخبَرَ[8] أنهُ سيكونُ منهمْ[9] مَرْضَى لا أنْ كانوا مَرْضَى ذلكَ الوقتَ، فلم يكُنْ في ما ذَكَرَ دلالةُ كونِها مدنيةً.

ثم الآيةُ، إنْ كانتْ على الوعدِ، ففيهِ أنهمْ كانوا في ضيقٍ مِنَ العيشِ، وكانوا مِنَ القولِ[10] في خَوفٍ، فيكونُ فيهِ بشارةُ أنهُ يرفَعُ عنهُم الضيقَ بما يضربونَ في الأرضِ، ويُوَسِّعُ عليهمُ العيشَ، وأنهُ يَفتَحُ لَهُمُ[11] الفتوحَ، ويُكثِّرُ أنصارَهُمْ حتى يُقْهِروا العَدُوَّ، ويَقَعَ لهمْ مِنْ ناحِيَتِهِمُ الأمنُ، وقد آلَ الأمرُ إلى ما بُشِّروا بهِ؛ ففيهِ آيةُ رسالتِهِ ﷺ إذْ أخْبَرَهُمْ عن عِلْمِ الغيبِ وكانَ الأمرُ على ما أخبَرَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ في مَوضعِ الاعْتِلالِ؛ إنهُ إنما خَفَّفَ عليهِمُ الأمرَ مِنَ الاعْتِذارِ مِنَ المَرضِ والضربِ في الأرضِ والمُجاهدةِ في سَبيلِ اللهِ. والتَّخفيفُ إذْ أوجَبَ العُذْرَ؛ فما لم يُلاقِ العذرُ حالةَ الفِعْلِ لم يُخفِّفْ، فكيفَ خَفَّفَ عنهمْ قبلَ وقوعِ الأعذارِ؟ ولكنَّ هذهِ الأعذارَ، وإنْ تَخفَّفَتْ هي، فلا[12] تلاقي الفعلَ، بل تَتَقَدَّمُهُ، لأنَّ المُجاهدةَ تكونُ بالنهارِ لا بالليلِ، وكذلكَ الضَّرْبُ في الأرضِ، وقتُهُ النهارُ لا الليلُ، والقيامُ كانَ بالليلِ، ليسَ بالنهارِ، ثم قد وُضِعَ عنهمْ قيامُ الليلِ، وإنْ لم يكُنِ العذرُ مُلاقياً القيامَ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يَرْفَعَ عنهمُ القيامَ بالليلِ ، وإنْ [لم][13] يأتِ بَعدُ وقتُ المُجاهدةِ، ولا كانَ الضَّرْبُ موجوداً، إذْ ليسَ في ذلكَ كلِّهِ إلّا عَدَمُ مُلاقاةِ العُذْرِ حالةَ القيامِ، وَجْهُ رَفْعِ قيامِ الليلِ عنهمْ بالمُجاهدةِ والضربِ في الأرضِ، وإنْ كانا يَحْصُلانِ بالنهارِ لا بالليلِ، لأنَّ[14] المُجاهدةَ بالنهارِ تُضَيِّعُهُمْ، وتُوهِنُ قواهُمْ، فَيَتَعَذَّرُ عليهِمْ قيامُ الليلِ، وكذلكَ الضَّرْبُ في الأرضِ. فَمَنَّ اللهُ تعالى بأنْ رَفَعَ عنهمْ قِيامَ الليلِ، وإنْ لم يوجدْ منهُمْ الاشْتِغالُ بالجهادِ بالليالي، واللهُ أعلَمُ.

ثم الضربُ في الأرضِ يكونُ للتجارةِ ولِغَيرِها مِنَ الوُجوهِ: لِطَلَبِ العِلْمِ وغَيرِهِ مِنَ الأسبابِ، فلا يَحْصُلُ أمرُ الضربِ على التجارةِ خاصّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قالَ أبو بكرٍ في قولِهِ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ دلالةُ أنَّ هذهِ الآيةَ مدنيةٌ لأنَّ الزكاةَ إنما فُرِضَتْ عليهِمْ بالمدينةِ. فإنْ كانَ الأمرُ على ما ذَكَرَ أنَّ فَرَضِيَّتَها نزلَتْ بالمدينةِ، فذلكَ عندَنا مصروفٌ إلى زكاةِ المواشي خاصةً، لأنَّ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ لم يكُنْ لهمْ بمكةَ سَوائمُ، لأنهمْ كانوا يَخافونَ العَدُوَّ، فلم يَتَهَيَّأْ لهمْ إسامةُ المواشي.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: كانت. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: كانت. (٦) في الأصل وم: فهي. (٧) في الأصل وم: كانوا. (٨) في الأصل وم: فأخبر. (٩) في الأصل وم: منكم. (١٠) في م: القوم. (١١) من م، في الأصل: عليهم. (١٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل. (١٤) في الأصل وم: هو ان.

وأمّا ما رَجَعَ مِنَ الزكاةِ إلى غَيرِها مِنَ الأموالِ فَيُشْبِهُ أنْ تكونَ واجبةً عليهِمْ في حالِ كونِهِمْ بمكةَ وبعد مُفارقَتِهِمْ إيّاها، ولا يكونُ في الأمرِ بإيتاءِ الزكاةِ دلالةُ نُزولِها بالمدينةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالقَرْضُ في لغةِ العربِ القَطْعُ، يُقالُ: قَرَضَ الفارُ الجِرابَ أي قَطَعَهُ، فَسُمّيَ القَرْضُ قَرْضاً لهذا لأنهُ يَقْطَعُ ذلكَ القَدْرَ، فَيَجْعَلُهُ للهِ خالصاً، فَسُمّيَ إقراضاً لهذا.

ويجوزُ أنْ يكونَ أضافَ إلى نفسِهِ لئلا يَمُنَّ على الفقيرِ في ما يَتَصَدَّقُ عليهِ؛ إذِ الإقراضُ حَصَلَ في ما بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ، فَيَصيرُ الفقيرُ مُعاوَناً في تلكَ القربةِ، ولأنَّ المرءَ في الشاهِدِ ما يَفْضُلُ عن حاجتِهِ يَدْفَعُهُ إلى مَنْ [يَثِقُ بِهِ لِيَسْتَرِدَّهُ][1] منهُ عندَ حاجتِهِ إليهِ، فكذلكَ الصدقةُ أُوجِبَتْ في المالِ الذي يَفْضُلُ عنْ [حاجاتِهِ / ٦٠٩ ـ ب/ فَيُقْرِضُها][2] للهِ تعالى، فَيَجِدُها مُهَيّأةً عندَما تَمَسُّهُ الحاجةُ.

ثم المالُ الذي يدفَعُهُ إلى الفقيرِ على جهةِ التَّصدُّقِ، هو مالُ اللهِ تعالى، ثم جَعَلَ اللهُ ذلكَ منهُ إقراضاً لهُ، جَلَّ جَلالُهُ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ، فتكونُ الفائدةُ في الإضافةِ إلى نفسِهِ، هي تفضيلُ عملِهِ لِيُرَغِّبَهُ في مثلِ ذلكَ الفِعْلِ على جهةِ التَّكَرُّمِ منهُ، وهو كما سَمّى الثوابَ الذي يَتَفَضَّلُ على عبادِهِ أجراً بقولِهِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦و..] ومَنْ عَمِلَ لنفسِهِ لم يَسْتوجِبِ الأجرَ على غيرِهِ، وسَمّى الذي يُقْتَلُ شهيداً بائعاً نفسَهُ للهِ تعالى على تَفْضيلٍ وتَرْغيبٍ للعبادِ في مثلِهِ لقولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ مَعْناهُ: تَجِدوهُ خالصاً لكُمْ، وإلّا فكلُّ شيءٍ تُقَدِّمونَهُ من خيرٍ أو شَرٍّ تَجِدونَهُ حاضراً في ذلكَ اليومِ، ولكنَّ الشَّرَّ يكونُ عليهِمْ لِقولِهِ[3] تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقولِهِ[4] ﷻ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ وفي حقِّ الكلامِ أنْ يقولَ: هو خيرٌ لأنَّ ﴿هُوَ﴾ يرفَعُ ما بَعْدَهُ، ولكنَّ ﴿هُوَ﴾ كالفعلِ ههنا، وحقُّهُ الحذفُ، وإذا حُذِفَ انْتَصَبَ الكلامُ، لأنَّ مَعْناهُ: إنَّ الذي تَجِدونَهُ عندَ اللهِ خيراً لكُمْ ممّا خَلَّفْتُمْ، فيكونُ ﴿خَيْرًا﴾ مفعولاً. ثم قولُهُ ﷻ: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنهُ خيرٌ لكمْ وأعظَمُ أجراً ممّا خَلَّفْتُمْ لِوَرَثَتِكُمْ، فيكونُ فيهِ أنَّ الذي يُخَلِّفُهُ لِوَرَثَتِهِ، لهُ فيهِ خيرٌ.

ولكنْ ما تَقَدَّمَ، لا خَيرَ لهُ. والذي يدلُّ على أنَّ لهُ في ما يُخَلِّفُهُ لِوَرَثَتِهِ خيراً قولُهُ ﷺ «إنكَ إنْ تَدَعْ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تَدَعَهُمْ فقراءَ يَتَكَفَّفونَ الناسَ» [البخاري٢٧٤٢].

والثاني: أنَّ المَرْءَ في الشاهِدِ، قد تَسْخو نفسُهُ بِبَذْلِ [مالِهِ لِلأجِلَّةِ][5] لِما يَأْمُلُ منهمْ في[6] المآلِ الثوابَ العاجلَ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَرْغيبٌ للعِبادِ في تقديمِ الأموالِ لِوجهِ اللهِ تعالى، لأنهُ إذا رَغِبَتْ أنفسُهُمْ في بَذْلِ الأموالِ للأجِلَّةِ طَمَعاً بالمَنافِعِ التي تَحْصُلُ لهمْ، كانَ[7] بَذْلُ المالِ لِوجهِ اللهِ تعالى أعظَمَ في الأجرِ؛ فهو أنْ تَقَعَ فيهِ الرغبةُ، ولأنَّ النفسَ قد تَتَحَمَّلُ المَكْروهَ في الشاهِدِ لِمَنافعَ تأمُلُها في تَأَتّي الحالِ. فإذا طَمِعَتْ بما تَبْذُلُ لِوجهِ اللهِ تعالى الثوابَ الجزيلَ والأجرَ العظيمَ خَفَّ عليها تَحَمُّلُ المكروهِ، وتَنالُهُ بالبَذْلِ.

[والثالثُ][8]: يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿وَأَعْظَمَ﴾ بِمَعْنى عَظيمٍ؛ إذْ قد يُسْتَعْمَلُ حرفُ أفْعَلَ في مَوضِعِ فَعيلٍ كما يُقالُ: أكْبَرُ بِمَعْنى كبيرٍ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ فالاِسْتِغْفارُ، هو طَلَبُ المَغْفِرَةِ؛ وذلكَ يكونُ باللِّسانِ مَرَّةً وبالأفعالِ ثانياً. فَطَلَبُ

---

(١) في الأصل: شيء ليسترد، في م: يثق ليسترد. (٢) في الأصل: حاجات، فيقرض، في م: حاجات فيقرضها. (٣) في الأصل وم: قال الله.
(٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) في الأصل وم: الأجلة. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: فكان. (٨) في الأصل وم: و.

المَغْفِرَةِ مِنْ جهةِ الفعلِ الذي يَسْتَحِقُّ عليهِ العقابَ، ويُجيبُ إلى ما دُعِيَ إليهِ لقولِهِ[1] تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فَجَعَلَ انْتِهاءَهُمْ عنِ الكُفْرِ ودخولَهُمْ في الإسلامِ سَبَبَ مَغْفِرَتِهِمْ، وقولِهِ[2] ﷺ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وليسَ اسْتِغْفارُهُمْ أنْ يقولوا باللسانِ: اللهمَّ اغْفِرْ لنا، ولكنَّ مَعْناهُ: انِ انْتَهوا عمّا أنتمْ عليهِ مِنَ الكُفْرِ، وأجيبوا ربَّكُمْ إلى ما دَعاكُمْ إليهِ؛ فهذا هو الاِسْتِغْفارُ، وطَلَبُ[3] المَغْفِرَةِ يكونُ على وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنْ تَسْأَلَ ربَّكَ التَّجاوُزَ عنْ سَيِّئاتِكَ.

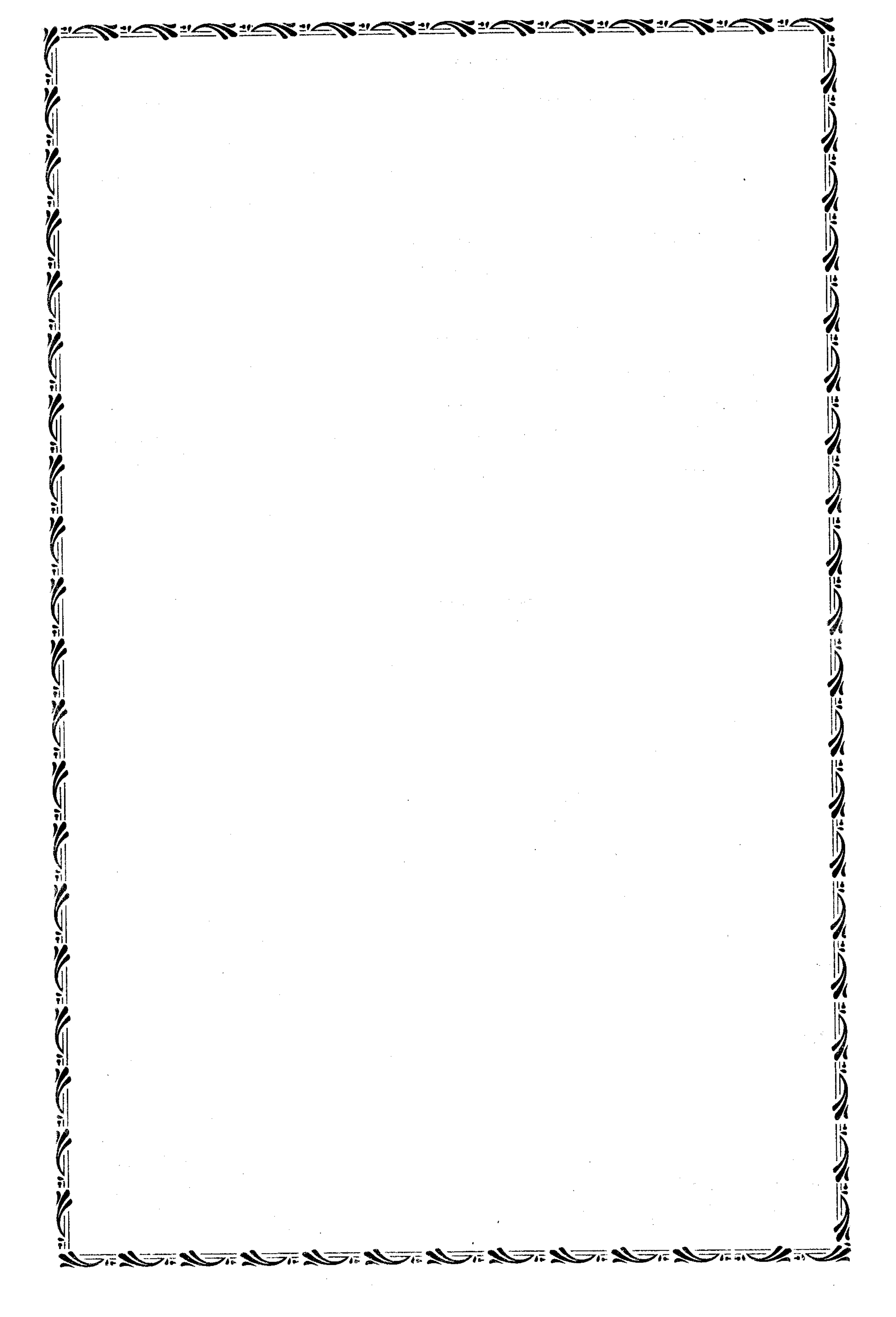
والثاني: أنْ [تَسْأَلَهُ توفيقَهُ][4] للسببِ الذي إذا [جِئْتَ بهِ، اسْتَوجَبْتَ المَغْفِرَةَ][5].

وعلى هذا التأويلِ يُخَرَّجُ اسْتِغْفارُ إبراهيمَ ﷺ لأبيهِ، وهو أنهُ طَلَبَ مِنْ ربِّهِ أنْ يُوَفِّقَهُ لِما فيهِ نَجاتُهُ، وهو الإسلامُ، لا أنْ يَغْفِرَ لهُ مَعَ دوامِهِ على الكُفْرِ. ألا تَرى أنهُ امْتَنَعَ عنِ الاِسْتِغْفارِ لهُ حينَ[6] تَقَرَّرَتْ عندَهُ عداوَتُهُ للهِ تعالى، وعَلِمَ أنهُ لم يُوَفَّقْ لِلسَّببِ الذي يَسْتَوجِبُ بهِ المَغْفِرَةَ بِقَولِهِ[7] تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

[فَثَبَتَ أنهُ لم يَطْلُبْ منهُ][8] المَغْفِرَةَ مع دوامِهِ على الكُفْرِ، ولكنْ لِلْوَجهِ الذي ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[9].

---

(١) في الأصل وم: قال الله. (٢) في الأصل وم: وقال الله. (٣) في الأصل وم: وهو طلب. (٤) في الأصل وم: تسأل حتى يوفقه. (٥) في الأصل وم: جاء به المغفرة استوجب. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: قال الله. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.



سورة المدثر

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ قيلَ: إنَّ الذي حَمَلَ رسولَ اللهِ ﷺ على التَّدَثُّرِ أنهُ كانَ في بعضِ طريقِ مكةَ إذْ سَمِعَ صَوتاً مِنَ السماءِ والأرضِ، فَنَظَرَ عنْ يَمينِهِ وعنْ يَسارِهِ، وأمامَهُ وخَلْفَهُ، فلم يَرَ شيئاً، فَفَرِقَ منهُ، فأتى بَيتَهُ، وقالَ: زَمِّلوني، فَدَثَّروهُ.

فإنْ صَحَّ ما قالوا، وإلّا لم يَسَعْهُمْ أنْ يَشْهَدوا على رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّ الذي حَمَلَهُ على التَّدَثُّرِ ما ذَكَروا مِنَ الفَرَقِ ولأنَّ التَّدَثُّرَ ليسَ ممّا يُسَكِّنُ بِهِ الرَّوعُ الذي يَحُلُّ بصاحِبِهِ مِنَ الصِّياحِ، وذَكَروا أنَّ أوَّلَ ما نَزَلَ مِنَ الوحيِ قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

فإنْ صَحَّ ما ذَكَروا فأوَّلُ ما أُوحِيَ إليهِ، هو الصِّياحُ الذي سَمِعَهُ إذْ كانَ ذلكَ مُتَقَدِّماً على قولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وقيلَ: إنَّ كفارَ مكةَ قَذَفوهُ بالسِّحْرِ، وأجْمَعوا رأيَهُمْ على أنْ يَنْسُبوهُ إليهِ، وفَشا هذا القولُ فيهِمْ لهُ، فأحْزَنَهُ ذلكَ، فَدَخَلَ بَيتَهُ، وتَدَثَّرَ بِثيابِهِ، فأمَرَهُ اللهُ تعالى ﷺ أنْ يقومَ، فَيُنْذِرَهُمْ بقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

وعلى هذا التأويلِ يكونُ نازلاً قَبْلَ نزولِ هذهِ السورةِ حتى سَمَّوهُ ساحراً لِما رَأَوا منهُ مِنَ الآياتِ، واللهُ أعلَمُ.

وذُكِرَ أنَّ موسى، صَلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، قالَ: أتاني ربي مِنْ طورِ سيناءَ، وسَيأتي مِنْ طورِ ساعورا، وسَيَطْلُعُ مِنْ جبلِ فارانَ، فإنْ صَحَّ هذا الخبرُ، فَمَعْنى قولِهِ: أتاني ربي: أوحَى إليَّ، وقولِهِ: وسَيأتي من طورِ ساعورا، هو الوَحْيُ إلى عيسى ﷺ وقولِهِ: وسَيَطْلُعُ مِنْ جَبَلَ فارانَ، وهو القرآنُ الذي أُنْزِلَ على نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

وفي هذا الخَبَرِ دلالةٌ أنَّ الأخبارَ التي فيها ذِكْرُ نُزولِ الرَّبِّ في كلِّ ليلةٍ إلى سَماءِ الدنيا، وهو على نزولِ أمْرِهِ إلى ملائكتِهِ أنْ قولوا: هل مِنْ داعٍ، فَيُجابَ؟ هل مِنْ مُسْتَغْفِرٍ، فَيُغْفَرَ لهُ؟

فجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ في أوَّلِ الوَحْيِ كانَ بِجَبَلِ فارانَ، وهو جبلٌ [مِنْ جبالِ][2] مكةَ، أو كانَ ذلكَ الجبلُ مَنْسوباً إلى ذلكَ المكانِ.

ثم في قولِهِ/ ٦١٠ ـ أ/ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ تَثبتُ نُبُوَّةُ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ وآيةُ رسالتِهِ؛ وذلكَ أنَّ تعريفَ المَرْءِ بما عليهِ مِنَ الثِّيابِ ونِسْبَتِهِ إليها[3] لا يُخْرِجُهُ مُخْرَجَ التَّعظيمِ والتَّبجيلِ، وإنما التَّبجيلُ في ما يُدَّعي باسْمِهِ أو بِكُنْيَتِهِ.

فلو كانَ الأمرُ على ما زَعَمتِ الكَفَرَةُ أنَّ هذا القرآنَ ليسَ مِنْ عندِ اللهِ وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ هو الذي اخْتَرَعَهُ مِنْ ذاتِ نفسِهِ لكانَ لا يَعْرِفُ نفسَهُ بِثيابِهِ، بل يَعْرِفُها بما فيهِ تَبْجيلُها وتَعْظيمُها، فإذا لم يَفْعَلْ ثَبَتَ أنهُ كانَ رسولاً حقًّا؛ بَلَّغَ الرسالةَ على ما أُوحِيَ إليهِ، وأدّى كما أُمِرَ على ما ذَكَرْنا في الآياتِ التي خُرِّجَتْ مُخْرَجَ المُعاتبةِ لرسولِ اللهِ ﷺ أنَّ فيها تَثْبيتَ رسالتِهِ نحوَ قولِهِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١و٢] وغَيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ نِسْبَتُهُ إلى ثيابِهِ لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنْ لا بأسَ للمرءِ أنْ يَعْرِفَ أخاهُ بِثيابِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: إليه.

وجائزٌ أنْ تكونَ نِسبَتُهُ إلى الثوبِ الذي يَتَدَثَّرُ بهِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ التَّعظيمِ لِذلكَ الثوبِ لِمُوافَقَتِهِ حالَ نُزولِ الوَحْيِ، وهذا لِما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى نَحْوِ الجُزئياتِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ تَعظيمِ تلكَ الأشياءِ كقولِهِ تعالى: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] على تَعظيمِ العَرْشِ وتَعظيمِ أمرِ الناقةِ وتَشريفِ المساجدِ، وإضافةَ الأشياءِ إليهِ نَحْوِ الكُلِّيّاتِ تُخَرَّجُ مُخرَجَ [تَعظيمِ][1] اللهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢و...] [وقولِهِ][2]: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم أذِنَ للمرءِ أنْ يُسَبِّحَ في رُكوعِهِ، فيقول: سبحانَ ربيَ العظيمِ، فَيَخُصَّ نفسَهُ بقولِهِ: ربي، والحقُّ في مِثْلِهِ أنْ يقولَ: سُبْحانَ رَبِّنا لِئَلّا يُخَرَّجَ ذلكَ مُخرَجَ تَعظيمِ النفسِ كقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢و...] وقولِهِ[3]: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] إذِ الإضافةُ مِنَ الجانِبَيْنِ على السَّواءِ في ما ذَكَرْنا، لكنَّ ذلكَ [الذِّكْرَ][4] إذا وافَقَ الحالةَ التي فيها تَعظيمُ الربِّ وَوَصْفُهُ بالعُلُوِّ، وهو الرُّكوعُ والسُّجودُ، أُذِنَ لهُ بأنْ يأتيَ بهذا الذِّكْرِ، وإنْ خُرِّجَ ذلكَ مُخرَجَ تَعظيمِ النفسِ، فكذلكَ الثوبُ الذي تَدَثَّرَ بهِ النَّبِيُّ ﷺ إذْ وافَقَ حالَ نُزولِ الوَحْيِ عَظُمَ شأنُهُ مِنْ ذلكَ الوجهِ، فَنُسِبَ إلى ذلكَ الثوبِ.

ثم المرءُ إنما يَتَدَثَّرُ عندَما يُريدُ أنْ ينامَ أو عندَ طَلَبِ الراحةِ، وليسَتْ تلكَ الحالةُ حالةً، يَسْتَحِبُّ [المرءُ][5] مُصاحَبةَ الكُبَراءِ العظامِ في مِثْلِ تلكَ الحالِ [فَضْلًا عنْ أنْ يَصْحَبَ المَلَكَ في مِثْلِ تلكَ الحالِ][6] فيكونُ في هذا دلالةٌ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَطَّلِعْ على الأوقاتِ التي كانَ يأتي فيها الوحيُ.

وإذْ لم يَعْلَمْ كانَ الأمرُ عليهِ أصعبَ وأشَدَّ منهُ إذا بُيِّنَ لهُ، لأنهُ إذْ لم يُبَيَّنْ لهُ الْزَمَهُ أنْ يَصونَ نفسَهُ في الحالاتِ كلِّها عنْ أشياءَ يُسْتَحَيى معَ مِثْلِها الخَلْوَةُ بالملائكةِ. ولهذا لم يُبَيَّنْ لأحدٍ مُنْتَهى عُمُرِهِ ليكونَ أبداً مُسْتَعِدّاً للموتِ فَرَقاً أنْ يَحُلَّ بهِ ساعةً بعدَ ساعةٍ، ويكونَ أبداً على خَوفٍ وَوَجَلٍ مِنْ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ خَصَّ النِّذارةَ دونَ البِشارةِ، وقد كانَ هو نَذيراً وبَشيراً.

ففي ذِكْرِ النِّذارةِ ذِكْرُ البِشارةِ، وإنْ أمسَكَ عنها، لأنَّ النِّذارةَ ليسَتْ تَرْجِعُ إلى نفسِ الخَلائقِ، وإنما النِّذارةُ هي تَبْيِينُ عَواقِبِ ما ينتهي إليهِ حالُ مَنِ الْتَزَمَ الفِعْلَ المَذمومَ، فإذا اسْتَوجبَ النِّذارةَ بالْتِزامِهِ ذلكَ الفعلَ فقدِ اسْتَوجَبَ البِشارةَ في تَرْكِهِ.

فَثَبَتَ أنَّ في النِّذارةِ بِشارةً، وفي البِشارةِ نِذارةً أيضاً. فاقْتَصَرَ بِذِكْرِ إحداهما عن ذِكْرِ الأُخرى، وليسَ في قولِهِ: ﴿قُمْ﴾ إلزامُ قيامٍ، ولكنَّ مَعْناهُ: ﴿قُمْ﴾ في إنذارِ الخَلْقِ وبِشارتِهِمْ على ما يَنْتَهي إليهِ وُسْعُكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عَظِّمْ. وتَعظيمُهُ أنْ يُجيبَهُ إلى ما دَعاهُ إليهِ، ويُطيعَهُ في ما أمَرَهُ، وأنْ يَتَحَمَّلَ ما أَلْزَمَهُ عَمَلَهُ. فذلكَ تَعظيمُهُ، لا أنْ يقولَ بلسانِهِ: ياعظيمُ فقطْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: أي عَظِّمْهُ عنِ المَعاني التي [قالَتْ][7] فيهِ المُلْحِدَةُ: منها[8] إنَّ للهِ تعالى وَلَداً، وإنَّ لهُ شريكاً[9]، ونَزِّهْهُ عنها وعَظِّمْ حقَّهُ، واشكُرْ نِعَمَهُ. وهذا كما يقولُ: إنَّ محبَّةَ اللهِ تعالى طاعتُهُ والِتِّمارُ أوامِرِهِ، لا أنْ تكونَ هي شيءٌ، يَعْتَري في القَلْبِ، فَيَصْعَقُ منهُ المرءُ، ويُغْشَى عليهِ. فكذلكَ تَعظيمُ اللهِ تعالى، يكونُ بالمَعاني التي ذَكَرْنا، لا أنْ يكونَ بالقولِ خاصّةً.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالثيابِ نفسُهُ، وتُجْعَلَ الثيابُ كِنايةً عنها كما ذُكِرَ أنَّ العربَ كانَتْ تقولُ: إذا كانَ الرجلُ، يَنْكُثُ العَهْدَ، وليسَ بذي وفاءٍ: إنهُ لَدَنِسُ الثيابِ، وإذا كانَ لهُ وفاءٌ قالوا: إنهُ لَطاهِرُ الثيابِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: من. (٩) في الأصل وم: شريك.

فإذا كانَ الخطابُ مُتوَجِّهاً إلى النفسِ فتَأويلُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنْ طَهِّرْ خُلُقَكَ وأفعالَكَ عمّا تُذَمُّ عليهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ[1] الثيابُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ مُتوَجِّهاً إلى التَّطهيرِ مِنَ النَّجاسةِ وإلى التَّطهيرِ مِنَ الأدناسِ؛ وأمّا التَّطهيرُ مِنَ الأدناسِ فجائزٌ أنْ يُؤمَرَ بهِ النَّبيُّ ﷺ خاصةً لأنهُ كانَ مأموراً بِتَبليغِ الرسالةِ إلى الخَلْقِ، فَنُدِبَ إلى تَطهيرِ ثيابِهِ مِنَ الدَّنَسِ لئلّا يُستَقذَرَ، بل يُنظَرَ إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والعَظَمةِ. وليسَ هذا على تَطهيرِ الثيابِ خاصّةً، بل أُمِرَ أنْ يُطَهِّرَ جميعَ ما يَقَعُ لهُ بهِ التَّمَتُّعُ مِنَ المَأكَلِ والمَشْرَبِ والمَلْبَسِ وغَيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: لا تَلْبَسِ الثوبَ على فَخرٍ ولا غَدْرٍ، قيلَ: وكانَ الرجلُ إذا كانَ غادراً في الجاهليةِ يُقالُ: إنهُ دَنِسُ الثِّيابِ.

وقالَ الحَسَنُ: خُلُقَكَ فَحَسِّنْ. وقالَ بعضُهُم: أي قَصِّرْ ثيابَكَ، ولا تُطَوِّلْها، فَتَبْلُغَ أطرافُها [الارضَ، فَتُصيبَها][2] النجاسةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فالرُّجزُ اسمٌ للمأثمِ، واسمٌ لِما يُعَذَّبُ عليهِ، فيكونُ مُنصَرِفاً إلى ما تَتَأذّى بهِ النفسُ، وتَتألَّمُ بهِ النفسُ كالسببِ في أنه[3] اسمٌ لِما تَتَأذّى بهِ النفسُ ولِما تَتألَّمُ عليهِ النفسُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبإ: ٥] فالمَأثَمُ اسمٌ لِما تَتَأذّى بهِ النفسُ، فهو اسمٌ للأمرَينِ: العذابِ وما يُتَألَّمُ بهِ جميعاً.

وصَرَفَ أهلُ التأويلِ الرُّجْزَ إلى المأثَمِ ههنا. وذَكَرَ قتادةُ أنهُ كانَ بمكةَ صَنَمانِ: إسافٌ ونائلةُ، فكانَ مَنْ أتى عليهما مِنَ المشركينَ مَسَحَ وجهَيهِما، فأمَرَ اللهُ ﷻ نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُعَيِّرَهُما بقولِهِ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. وقيلَ أيضاً: إنَّ المشركينَ قالوا للنَّبيِّ ﷺ لو مَسَحْتَ وَجْهَيهِما لكانَ أنْ نُؤمِنَ لكَ ونَتَّبِعَكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [أي فاهْجُرْ][4] عبادةَ الأوثانِ.

وقيلَ: الرُّجْزُ العذابُ. فَجُمْلَتُهُ تَرجِعُ إلى ما ذَكَرْنا أنهُ اسمٌ للعذابِ ولِما يُعَذَّبُ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قالَ مجاهدٌ والحَسَنُ: تأويلُهُ ألّا تَستَكثِرَ عملَكَ فَتَمُنَّ بهِ على ربِّكَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ. فإنْ كانَ التأويلُ هذا فالمُرادُ مِنَ الخِطابِ غَيرُ رسولِ اللهِ ﷺ. وإنْ كانَ هو المذكورَ في الخطابِ، إذْ لا يُتَوَهَّمُ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ يَمُنُّ على ربِّهِ ولا أنْ يَستَكثِرَ عملَهُ للهِ تعالى لأنَّ هذا النوعَ مِنَ الصنيعِ لا يَفعَلُهُ واحدٌ/ ٦١٠ ـ ب/ مِنَ العوامِّ الذي خُصَّ بأدنى خيرٍ، فكيفَ يُتَوَهَّمُ على رسولِ اللهِ ﷺ؟ لأنَّ الامْتِنانَ على اللهِ تعالى مِنْ فِعْلِ المُنافِقينَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ [الحجرات: ١٧].

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لهُ، وإنْ كانَ هو مَعصوماً مِنْ ذلكَ لِقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] ونَحْوِهِ. وهذا كما ذَكَرْنا أنَّ العِصمةَ لا تَمْنَعُ وقوعَ النَّهْيِ، إذِ العِصمةُ[5] يُنتَفَعُ بها مَعَ ثَباتِ النَّهْيِ. فإذا لم يَكُنْ فلا فائدةَ في العِصمةِ.

وقالَ بعضُهُم: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تُعطِهِ عطيّةً، تَلْتَمِسُ بها أفْضَلَ منها في الدنيا مِنَ الثوابِ؛ نَهى عنِ اكْتِسابِ الأسبابِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى اسْتِكثارِ المالِ في الدنيا مِنَ التِّجارةِ وغَيرِها إلّا القَدْرَ الذي لا بُدَّ لهُ، وتَقَعُ إليهِ الحاجةُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾؟ [طه: ١٣١] فإذا نُهِيَ عن مَدِّ عَينَيهِ إلى ما مُتِّعوا في اكْتِسابِ المالِ الحقِّ ثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى نَهاهُ عنِ اكْتِسابِ ذلكَ وجَمْعِهِ[6] وجَعَلَ رزقَهُ ﷺ مِنَ الوجهِ الذي لا تَبْلُغُهُ حِيَلُ البَشرِ، وهو[7] الفَيءُ والغنيمةُ، ثم هي إمساكُهُ وادِّخارُهُ لنفسِهِ، بل أُمِرَ أنْ يَصْرِفَهُ في أُمَّتِهِ، فقالَ[8] ﷺ: «مالي مِنْ هذا المالِ إلّا الخُمُسُ والخُمُسُ مردودٌ فيكُمْ» [أحمد ١٢٨/٤] لِقولِهِ[9] تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

---

(١) في الأصل وم: بها. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: على الأرض، فتصيبه. (٣) في الأصل وم: أنها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: وذلك. (٧) في الأصل وم: وهي. (٨) في الأصل وم: بقوله. (٩) في الأصل وم: وقال الله.

﴿وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ﴾ الآية [الحشر: ٧] وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَدَّخِرُ لِغَدٍ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَٰدِ﴾ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٦و١٩٧] فَثَبَتَ أنهُ كانَ مَنْهِيّاً عنِ اكْتِسابِ [الأسبابِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى اكْتِسابِ الأموالِ][١] وإلى الجَمْعِ، فَنُهِيَ عنِ العطايا التي يُلْتَمَسُ بها أفضلُ منها في الدنيا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ففي هذا دُعاءٌ إلى إخلاصِ الصَّبْرِ للهِ تعالى وإلى[٢] الصدقِ فيهِ، وفي قولِهِ ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨و. .] دعاءٌ إلى نفسِ الصَّبْرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا أيضاً على الأمرِ بالصَّبْرِ، فيكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ كأنهُ يقولُ: فاصْبِرْ لربِّكَ، أيِ اصْبِرْ على ما تُؤذَى، ولا تُجازِهِمْ بِصنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ تعالى، يَكْفُهُمْ [عنكَ][٣] فيكونُ في هذا إبانةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد امْتُحِنَ بالأمورِ التي تَكْرَهُها نفسُهُ، وتَشْتَدُّ عليها، فَدَعاهُ اللهُ تعالى إلى الصَّبْرِ على تَحَمُّلِ المَكارِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ نُقِرَ أي نُفِخَ، والناقورُ الصُّورُ، وهي كلمةُ[٤] كُتُبِ الأوَّلِينَ، ذَكَرَها ههنا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] وقالَ في مَواضِعَ[٥]: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩و. . .] فجائزٌ أنْ يُحمَلَ هذا كلُّهُ على التَّحقيقِ، فَتَتَحقَّقُ الصَّيحةُ والزَّجْرَةُ والنَّقْرَةُ، ثم تَعْقُبُها الساعةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على التَّمْثيلِ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عن سُهولةِ ذلكَ الأمرِ، وهَوْنِهِ على اللهِ تعالى لأنَّ اللَّمْحَةَ [والصَّيحةَ][٦] والزَّجْرَةَ والنَّفْخَةَ والنَّقْرَةَ أمرٌ سهلٌ، لا يَشْتَدُّ على أحدٍ، أو يكونُ على تَقصيرِ الوقْتِ على الذينَ يَنْفُخُ فيهِمُ الرُّوحَ، أي الأرواحُ تُرَدُّ عليهِمْ في قَدْرِ النَّفْخَةِ والزَّجْرَةِ والصَّيحَةِ خِلافاً لأمرِ النَّشْأةِ الأُولَى، لأنهُ في النَّشْأةِ الأُولَى إنما يَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ بعدَ كونِهِ نُطْفَةً في بَطْنِ أُمِّهِ أربعينَ يوماً ثم عَلَقَةً ثم مُضْغَةً لِذلكَ القدْرِ مِنَ المدةِ، ثم يَنْفُخُ فيهِ الرُّوحَ بعدَ مُدَدٍ وأوقاتٍ.

وفي النَّشْأةِ الأُخرَى يَنْفُخُ بالقَصْرِ مِنَ المُدَّةِ؛ وذلكَ قَدْرُ النَّفْخَةِ والزَّجْرَةِ والصَّيحةِ واللَّمحةِ، واللهُ أعلَمُ.

وإنما قُلْنا: إنَّ التأويلَ قد يَتَوَجَّهُ إلى التَّمْثيلِ دونَ التَّحقيقِ، وإنْ ذُكِرَ في بعضِ الأحاديثِ تَثبيتُ الصُّورِ والناقورِ لأنها مِنْ أخبارِ الآحادِ، وخَبَرُ الآحادِ يُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ؛ ولا يُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ، وفي تَحقيقِ الصُّورِ والناقورِ ليسَ إلّا الشهادةُ. لذلكَ لم يَحْصُلِ الأمرُ على التَّحقيقِ والقَطْعِ لئلا يُقْطَعَ الحُكْمُ على الشهادةِ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ قولَهُ: ﴿فَإِذَا﴾ جوابُ سؤالٍ واقعٍ عنْ تَبْيينِ وقتٍ؛ كأنهُ قيلَ لهُ: فاصْبِرْ إلى أنْ يُنْقَرَ في الناقورِ أو يكونُ جواباً لِقولِهِ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي فأنْذِرْهُمْ عمّا يَحُلُّ بأهلِ الشَّرِّ مِنَ العذابِ بِنَقْرِ الناقورِ، أو جواباً [لقولِهِ][٧]: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أو كانَ السؤالُ واقعاً عنْ أمرٍ لم يُشِرْ إلى ذلكَ الأمرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿عَلَى الْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ذلكَ اليَومُ يومُ رَحْمةٍ للمؤمنينَ، إذْ في ذلكَ اليَومِ يُكْرَمونَ، ويَنالونَ عَظيمَ الدرجاتِ مِنْ ربِّهِمْ. ولكنَّ ﷺ [ذَكَرَ ذلكَ][٨] اليومَ في غَيرِ آيةٍ[٩] مِنْ كتابِهِ والأحوالِ التي تكونُ فيهِ[١٠]؛ وإنْ كانَتْ تلكَ الأحوالُ تَنْزِلُ على غَيرِ المؤمنينَ، فَمَرَّةً سَمّاهُ واقعةً، ومَرَّةً حاقَّةً، وإنما يَقَعُ العذابُ على الكَفَرةِ، ويَحِقُّ عليهِمْ؛ فلذلكَ سَمّاهُ عَسيراً [وإنْ كانَ هو عَسيراً][١١] على فريقٍ [فهو يَسيرٌ][١٢] على غَيرِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ عَسيراً على الخَلائقِ أجْمَعَ بَعْضَ هَولِ ذلكَ اليومِ؛ يَشْمُلُ الفِرَقَ كلَّها كما قالَ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج بعدها في الأصل وم: أن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: كلما، في م: كلام. (٥) في الأصل وم: موضع. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وكذلك. (٩) في الأصل وم: آي. (١٠) في الأصل وم: فيها. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: يسيراً.

ثم إنَّ المؤمنينَ تُفرَجُ عنهمُ الأهوالُ بما يأتيهِمْ مِنَ البِشاراتِ أوِ الكَراماتِ عَنِ اللهِ تعالى، ويَبْقَى عُسْرُها[1] على أصحابِ النارِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ذُكِرَ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في شأنِ الوَليدِ بْنِ المُغيرَةِ.

والأصلُ أنَّ الأنباءَ التي ذُكِرَتْ عنِ الأنبياءِ المُتقدِّمةِ في المخاطباتِ التي جَرَتْ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ الفراعنةِ، فيها إبانةٌ أنها جَرَتْ بَيْنَهُمْ وبينَ الآحادِ منهمْ؛ وذلكَ أنَّ فِرْعونَ كلِّ نَبِيٍّ، كانَ واحداً، وكانَ مَنْ سِواهُ يَصْدُرُ عنْ رأيِهِ، ويَنْتَهي إلى تدبيرِهِ، فكانَ يَسْتَغْنِي عنْ مُخاطبةِ مَنْ سِواهُ. وقد كَثُرَتْ فَراعنةُ نَبِيِّنا ﷺ فكانَ كلُّ واحدٍ منهمْ يَدَّعي الرئاسةَ لنفسِهِ، و يَمْتَنِعُ عن مُتابعةِ غَيرِهِ والصُّدورِ عنْ رأيِهِ والاِنْقيادِ لهُ. منهمْ أبو جَهْلٍ، ومنهمُ الوليدُ بْنُ المَغيرةِ، ومنهمْ أبو لهبٍ، وغيرُهُمْ.

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَحتاجُ إلى أنْ يُخاطِبَ كُلاً في نفسِهِ، ومَنِ احتاجَ إلى مُخاطبةِ أقوامٍ وإجابةِ كلِّ واحدٍ بِحِيالِهِ، كانَ الأمرُ عليهِ أصْعَبَ مِنَ الذي احْتاجَ إلى مُخاطبةِ واحدٍ. وهذا أنَّ المِحْنةَ على رسولِنا ﷺ كانَتْ أشَدَّ[2] ممّا امْتَحَنَ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الرسُلِ ﷺ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ فيهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَمْنَعُهُ عنْ شيءٍ حتى يقولَ لهُ: ذَرْني. ولكنَّ هذا الكلامَ ممّا يُتَكَلَّمُ بهِ على الاِبْتِداءِ على جهةِ إظهارِ القوةِ؛ يقولُ الرجلُ لآخَرَ: خَلِّ بيني وبَينَ فلانٍ، ودَعْني وإيّاهُ[3] مِنْ غَيرِ أنْ يكونَ سَبَقَ منهُ المَنْعُ، فَيُريدُ بهِ إظهارَ القوةِ مِنْ نفسِهِ أنهُ كافيهِ وقادرٌ على دَفْعِ شَرِّهِ عنْ نفسِهِ.

فيكونُ في قولِهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ دعاءٌ مِنَ اللهِ تعالى إيّاهُ إلى ألّا تَتَعَرَّضَ لهُ، ولا تُجازِيَهُ بِصنيعِهِ، فإنَّ اللهَ تعالى يَكْفُهُ[4]، ويَدْفَعُ عنكَ شَرَّهُ، أو يكونُ فيهِ نَهْيٌ عنْ أنْ يَدْعُوَ عليهِ بالهلاكِ والثُّبورِ، وتَصْبيرٌ[5] إلى أنْ يأتِيَهُ أمرُ اللهِ تعالى، فيكونُ في هذا مَسْلاةٌ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وذلكَ أنَّ المُتنازِعَينِ، إذا تَنازَعا في شيءٍ، وحَدَثَ بَينَهما شَرٌّ، فانْتَصَبَ ثالثٌ في نَصْرِ أحدِهما، خَفَّ الأمرُ على المنصورِ، ويَفْرَحُ لذلكَ، ويَسْلو بهِ.

فإذا كانَ اللهُ تعالى، هو الذي يَقومُ بِنَصْرِ المُصْطَفى ﷺ، [ويكْفُ عَدُوَّهِ عنهُ][6] كانَ ذلكَ أكْثَرَ/ ٦١١ ـ أ/ في التَّسَلّي والتَّفريجِ، فيكونُ في هذا تمكينٌ مِنَ الصَّبرِ الذي دعاهُ[7] إليهِ بقولِهِ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وبقولِهِ[8]: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الآية [الطور: ٤٨].

وقولُهُ ﷻ: ﴿خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي خَلَقْتُهُ وحدي، ولم يكُنْ لي في الخَلْقِ ناصرٌ ومُعينٌ ولا مُشيرٌ.

[والثاني][9]: أنْ يكونَ مَعْناهُ: أي خَلَقْتُهُ وحدي، لا مالَ لهُ، ولا وَلَدَ. فيكونُ في هذا وعيدٌ وتَخويفٌ لذلكَ اللَّعينِ، أي كيفَ لا يَخافُ أنْ يُعادَ إلى الحالةِ التي كانَ[10] عليها يومَ خُلِقَ بلا مالٍ ولا ناصرٍ كقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ قيلَ: ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي مالاً لا يَنْقَطِعُ، بل يكونُ لهُ مَدَدٌ.

وذُكِرَ عنْ مُجاهِدٍ أنهُ كانَ يَمْلِكُ[11] ألفَ دينارٍ، وقالَ السُّدِّيُّ: ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾ قيلَ: أرادَ بهِ ما جَعَلَ لهُ مِنَ الضِّياعِ[12] بالطائفِ، ثم [ما تُغْتَلُّ][13] في السنةِ مَرَّتَينِ.

ولكنْ عندَنا المالُ المَمدودُ، هو المُتَتابِعُ، لا يَنْقَطِعُ مَدَدُهُ، ولا يَقَعُ تحتَ الإحصاءِ.

---

(١) في الأصل وم: عسره. (٢) في الأصل وم: أكثر. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يكفيكه. (٥) في الأصل وم: ويصبره. (٦) في الأصل وم: ويكفيه عن عدوه. (٧) في الأصل وم: دعي. (٨) من م، في الأصل: ويقول. (٩) في الأصل وم: وجائز. (١٠) في الأصل وم: كانت. (١١) في الأصل وم: ذلك. (١٢) في الأصل وم: الصنائع. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي حُضوراً، لا يَغيبونَ، ويكونُ فيهِ وجهانِ مِنَ الحكمةِ:

أحَدُهما: أنَّ مالَهُ كَثُرَ حتى لم يَحتَجْ إلى تَفريقِ أولادِهِ في الجَمْعِ والاكْتِسابِ، بل كانَ يأتيهِ سَهماً، لا يَحتاجُ إلى تَكَلُّفِ أسبابِ الجمعِ.

والثاني: أنَّ غايةَ ما يُرادُ، ويُتَمَنَّى، ويُلْتَمَسُ مِنَ البَنينَ، وهو أنْ يُسْتَأْنَسَ بالنَّظَرِ إليهِمْ، ويُسْتَعانَ بهِمْ، ويُسْتَنْصَرَ إذا احتاجوا إلى ذلكَ.

ففيهِ أنهُ قد نالَ مُناهُ، وَوَصَلَ إلى ما تَرْغَبُ إليهِ النفوسُ مِنْ كَثْرَةِ الأموالِ والأولادِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي بَسَطْتُ لهُ في الدنيا بَسْطاً. وقيلَ: التَّمْهيدُ، هو التَّمكينُ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ طَمَعُهُ مُنصَرِفاً إلى الزيادةِ في الآخِرَةِ كقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] فَحَسِبوا أنهمْ إذا ساوَوا أهلَ الإيمانِ في الدنيا يُساوُونَهمْ[1] في الآخِرَةِ، لو كانَتِ[2] الآخِرَةُ [لهمْ][3] حقّاً.

فكذلكَ هذا اللعينُ حَسِبَ أنهُ يُبْسَطُ عليهِ نَعيمُ الآخِرَةِ كما بُسِطَ عليهِ نَعيمُ الدنيا.

فكانَ قولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ ردّاً عليهِ. فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أعظَمُ الدلالةِ على إثباتِ رسالةِ محمدٍ ﷺ لأنهُ أخْبَرَ أنْ ليسَ لهُ نصيبٌ في الآخِرَةِ، وإنما يُحْرَمُ النَّصيبُ إذا خَتَمَ على الكُفْرِ كما قالَ، فكانَ.

وهذا إخبارٌ منهُ عنْ أمرِ الغَيبِ. فَصَدَقَ خَبَرُهُ، وخَرَجَ الأمرُ حقًّا كما قالَ، فَثَبَتَ أنه باللهِ تعالى عَلِمَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ طَمَعُهُ الزيادةَ في الدنيا، فَقَطَعَ عليهِ طَمَعَهُ بقولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾.

وذُكِرَ أنَّ مالَهُ بعدَ نُزولِ هذهِ الآيةِ أخَذَ في الانْتِقاصِ إلى أنْ أهْلَكَهُ اللهُ تعالى، ولم يَزِدْهُ[4] شيئاً، فيكونُ في هذا أيضاً [كما][5] في الأوَّلِ مِنْ إثباتِ الرسالةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ في هذا تَصْبيرٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ لأنَّ اللهَ تعالى أكْثَرَ نِعَمَهُ عليهِ. ثم ذلكَ المَلْعونُ مَعَ كَثْرَةِ نِعَمِ اللهِ عليهِ وإحسانِهِ إليهِ عانَدَ، ولم يُطِعْهُ[6] في أوامِرِهِ، فكيفَ تَرجو أنتَ منهُ في مُعامَلَتِهِ إيّاكَ مَعَ مُعامَلَتِكَ إيّاهُ ما[7] يُخالِفُ مُرادَهُ وهَواهُ؟ فيكونُ فيهِ ما يَدْعوهُ إلى الصَّبْرِ.

والعِنادُ، هو مُخالَفَةُ الحقِّ عنْ عِلْمٍ بظُهورِ الحقِّ، فيكونُ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ إنهُ بعدَ عِلْمٍ وإحاطةٍ ويَقينٍ عانَدَ آياتِ اللهِ، وخالَفَ أمْرَ رسولِ اللهِ ﷺ واسْتَكْبَرَ.

والمكابِرُ، هو الذي يُكابِرُ عقلَهُ، فَيُخالِفُ ما يُثْبِتُهُ عقلُهُ بالأقوالِ والأفعالِ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ إبطالُ قولِ مَنْ قالَ: إنَّ اللهَ تعالى لا يَفْعَلُ بِعبادِهِ إلّا ما هو أصْلَحُ لهمْ، لأنَّ قولَهُ: ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ لا يَخْلو: إمّا أنْ تكونَ الزيادةُ التي كانَ يَطْمَعُها خيراً لهُ، وفي شَرْطِ اللهِ تعالى عندَهُمْ أنْ يَزيدَهُ، وفي قولِهِ: ﴿كَلَّآ﴾ قَطْعُ[8] طَمَعِهِ للزيادةِ، فَيَصيرُ بِحِرْمانِ الزيادةِ عنهُ.

فكيفَ جَعَلَ آيةَ رسالتِهِ مِنَ الوجْهِ الذي هو جَوْرٌ عندَكُمْ، وإنْ كانَ حِرْمانُ الزيادةِ خَيراً لهُ وأصْلَحَ؟

فكيفَ جَعَلَ الحِرمانَ أيضاً عَلَماً لِنُبُوَّتِهِ، وكانَ عليهِ أنْ يَحْرِمَهُ على زَعمِكُمْ؟

وفي قراءةِ عبدِ اللهِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾[9].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ على تَحقيقِ الصُّعُودِ، وهو العَقَبَةُ التي يَشْتَدُّ الصُّعودُ عليها كما ذَكَرَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فَيُكَلِّفُهُ[10] الصعودَ عليها.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٢) في الأصل وم: كان. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يزد. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: يطعم. (٧) في الأصل وم: بما. (٨) ساقطة من م. (٩) لم يذكر المؤلف قراءة ابن مسعود. (١٠) الهاء ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ؛ وذلكَ أنَّ الصُّعودَ في الشاهدِ ممّا يَشُقُّ على المرءِ الصعودُ، والهبوطَ ممّا يَسْهُلُ على المرءِ الإنْحِدارُ عنهُ.

فإنْ كانَ على هذا ففيهِ أنهُ سَيُصيبُهُ في الآخِرَةِ ما يَشْتَدُّ ويَشُقُّ تَحمُّلُ ذلكَ.

ثم يُقالُ للمعتزلةِ في هذهِ الآيةِ وفي قولِهِ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]: إنَّ في هذا وعيداً مِنَ اللهِ تعالى بأنْ سيُصْلِيهِ سَقَرَ، وسَيُرْهِقُهُ صُعوداً، فأرادَ اللهُ تعالى أنْ يُصَدِّقَ خَبَرَهُ، ويُنْجِزَ وعدَهُ، أو أرادَ أنْ يُكَذِّبَ خَبَرَهُ، ويُخالفَ وعدَهُ.

فإنْ قُلْتُمْ بالثاني فقد نَسَبْتُموهُ إلى الكَذِبِ وإلى خُلْفِ الوَعْدِ. ومَنْ هذا وصْفُهُ فهو سفيهٌ جاهلٌ، لا يَصْلُحُ أنْ يكونَ إلهاً.

وإنْ قُلْتُمْ: بَلى أرادَ أنْ يُصَدِّقَ خَبَرَهُ، ويُنْجِزَ وعدَهُ معَ دوامِهِمْ على الكُفْرِ أو عندَ انْقِلاعِهِمْ عنهُ. فإنْ زَعَمْتُمْ أنهُ إنما أرادَ أنْ يُصْلِيَهُمْ سَقَرَ على الخروجِ مِنَ الكُفْرِ، فهذا منهُ جَوْرٌ، لأنهُ يُصْليهِ سَقَرَ بشيءٍ لا إرادةَ لهُ فيهِ، وإنْ سَلَّمْتُمْ أنهُ أرادَ إصلاءَهُمْ سَقَرَ إذا داموا على الكُفْرِ، واسْتَقَرُّوا عليه، فقد لَزِمَكُمْ أنْ تقولوا: إنَّ اللهَ تعالى أرادَ بِكُلّ[1] أحدٍ ما عَلِمَ أنهُ يَختارُهُ، ويكونُ منهُ.

ويُقالُ لهمْ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١] ولو كانَ الأمرُ على ما زَعَمْتُمْ أنهُ يريدُ مِنْ كلِّ كافرٍ أنْ يُسْلِمَ، ويُؤمنَ بهِ، ويُريدُ الكافرُ أنْ يَكْفُرَ بهِ، ويُعاديَهُ. فإذنْ قد أرادَ أنْ يكونَ لهُ وليٌّ مِنَ الذُّلِّ لأنهُ يريدُ أنْ يُواليَهُ معَ اختيارِهِ الكُفْرَ[2] في مُعاداتِهِ. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ، إنَّ فراعنةَ رسولِ اللهِ ﷺ اعْتَقَدوا مُعانَدَةَ الحقِّ، واعْتَقدوا صَدَّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ بأنْ يُطْفِئوا نورَهُ، فأرادوا أنْ يُجْمِعوا على أمرٍ، يَنْسُبونَهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ على وجهٍ يَنْفُونَ عنْ أنفسِهِمْ سِمَةَ الجهلِ و تُهَمَةَ الكَذِبِ في ذلكَ على ما ذَكَروا أنَّ الوليدَ جَمَعَ أصحابَهُ، فقالَ: إنَّ هذهِ[3] أيامُ المَوسمِ، وإنَّ الناسَ سائلوكُمْ عنْ هذا الرجلِ، فماذا تقولونَ؟

فقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو شاعرٌ، فقالَ: إنهمْ قد سَمِعوا الشِّعْرَ، وما قولُهُ بقولِ شعرٍ.

وقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو كاهنٌ، فقالَ: إنَّ الكهانةَ معروفةٌ عندَ العَرَبِ، وإذا سَمِعوا قولَهُ عَرَفوا أنهُ ليسَ بكاهنٍ، فَيُكَذِّبونَكُمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو كَذّابٌ، فقالَ: إنّا قدِ اخْتَبَرْناهُ فما أخَذْنا عليهِ كَذْبَةً قَطُّ.

فقالَ بعضُهُمْ: نقولُ: هو مجنونٌ، فقالَ: إذا نَظَروا إليهِ عَلِموا أنهُ ليسَ بمجنونٍ، فأعياهُمْ[4] فَفَكَّرَ في نفسِهِ، وقَدَّرَ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] ما هذا الذي أتى بهِ إلّا سِحْرٌ آثرهُ عنْ غيرِهِ، أي يَرويهِ، فاتَّفَقَتْ كلمتُهُمْ على تَسْمِيَتِهِ ساحراً، وقالوا: الساحرُ يُفَرِّقُ بينَ اثْنَينِ، وقد وُجِدَ منهُ التَّفْريقُ بينَ الآباءِ والأولادِ وبينَ ذوي الأرحامِ [رَجاءَ أنْ][5] يَصِلوا إلى مُرادِهِمْ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ سبيلِ اللهِ تعالى وإطفاءِ نورِهِ مَكْراً منهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ / ٦١١ ـ ب/ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] ووجهُ رُجوعِ المَكْرِ إلى أنفسِهِمْ ذَكَروا فيهِ أوجُهاً:

أحَدُها: رجوعُ المَكْرِ إلى أنفسِهِمْ: أنَّ اللهَ تعالى أظْهَرَ سوءَ صَنيعِهِمْ برسولِ اللهِ ﷺ وجَعَلَهُ آيةً تُتْلَى إلى يومِ القيامةِ، فيكونُ فيهِ ظهورُ كَذِبِهِمْ والحاقُ العارِ بهمْ إلى يومِ التَّنادي وتَواتُرُ[6] اللَّعْنِ.

والثاني: أنَّ الكُبَراءَ إذا اجْتَمعوا في مكانٍ للتدبيرِ اتَّصَلَ بهمْ أوساطُهُمْ، واخْتَلَطَ بهمْ صغارُهُمْ، فَيَقَعُ بجُمْلَتِهِمُ العلمُ الذي عليهِ التدبيرُ، واتَّفَقَتْ عليهِ الكلمةُ.

---

(١) في الأصل وم: من كل. (٢) في الأصل وم: الكافر. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في الأصل وم: فأعيى عليهم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وتوارد.

[والثالثُ][1]: إذا وَقَفوا على عِلْمِ ذلكَ في الآفاقِ يَقِفُ[2] الناسُ على كَذِبِهِمْ وافْتِعالِهِمْ، فَيَتَحقَّقُ عندَ ذلكَ جَهْلُهُمْ بِحالِ رسولِ اللهِ ﷺ ويَصيرُ كَذِبُهُمْ شائعاً في الخَلْقِ مِنَ الوجْهِ الذي أرادوا نَفْيَ سِمَةَ الجَهْلِ عن أنفسِهِمْ، ويَتَحقَّقُ عندَ الناسِ كَذِبُهُمْ، فلا يَرْكَنونَ إلى قولِهِمْ، ولا يَلْتَفِتونَ إلى أخبارِهِمْ عنْ حالِهِ، إذْ قد تَبَيَّنَ جَهْلُهُمْ بحالِهِ، فيكونُ ذلكَ سبباً لِتَرغيبِ الناسِ إلى الإسلامِ ودُعائِهِمْ إليهِ، ولا[3] يكونُ سبباً لِلصَّدِّ عنْ سَبيلِ اللهِ، فصارَ المَكْرُ راجعاً إليهِمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ أي فَكَّرَ في الأمرِ الذي أرادَ إحكامَهُ، أو فَكَّرَ في الكلماتِ التي ألقَوها في ما بَيْنَهُمْ: أيُّها ألْيَقُ برسولِ اللهِ ﷺ فَيَنْسُبُها[4] إليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَدَّرَ﴾ يُخَرَّجُ على هذا أيضاً.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لُعِنَ، واللَّعْنُ، هو الإبعادُ عنْ رحمةِ اللهِ تعالى، وقد ظَهَرَ الإبعادُ لأنَّ مادَّةَ مالِهِ قد انْقَطَعَتْ في الدنيا، وأخَذَ ما كانَ اجْتَمَعَ عندَهُ في الاِنْتِقاصِ إلى أنْ أهْلَكَهُ اللهُ تعالى، ثم ساقَهُ إلى النارِ خالداً فيها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أي كيفَ لم يَسْتَحْيِ مِنْ تقديرِهِ الذي قَدَّرَ مِنْ تَسْمِيَةِ رسولِ اللهِ ﷺ ساحراً، وقد عَلِمَ أنهُ في إنشائِهِ ذلكَ الاِسْمَ كاذبٌ؟ أو كيفَ اجْتَرَأَ على اللهِ تعالى، وتَجاسَرَ، وهو يَعْلَمُ أنهُ رسولٌ حقٌّ، فعانَدَ آياتِهِ، واجْتَرَأَ على ذلكَ، ولم يَخَفْ نِقْمَةَ اللهِ ﷻ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لَعَنَهُ مَرَّتَينِ، وقد ظَهَرَ أثَرُ اللعنِ فيهِ في الدنيا والآخِرَةِ جميعاً، لأنَّ اللهَ تعالى فَضَحَهُ بِما أظْهَرَ كَذِبَهُ لِلخلائِقِ، فَبَقِيَ ذلكَ العارُ إلى آخِرِ الأبَدِ، وأبْعَدَهُ مِنْ رحمتِهِ حينَ[5] أخَذَ مالُهُ في الاِنتقاصِ، وانْقَطَعَتْ مادَّةُ مالِهِ، فهذا أثَرُ اللعنةِ في الدنيا، وَوَعَدَهُ[6] أنْ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [الآية ٢٦] وأنْ ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [الآية ١٧] وذلكَ خِزْيُهُ ولَعْنُهُ في الآخِرَةِ، فَظَهَرَتْ إحدى اللَّعْنَتَينِ في الدنيا، وسَتَلْحَقُهُ الثانيةُ في الآخِرَةِ.

الآيتان ٢١و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ [الذي][7] حملَهُ على العُبوسِ والبُسورِ، هو ما ألْقَوا إليهِ مِنَ الكلماتِ، فَعَبَسَ وجهُهُ عليهِمْ لِما في اخْتِلافِهِمْ ظُهورُ كَذِبِهِمْ، أو يكونَ الذي دَخَلَ عليهِ مِنْ شِدَّةِ الغَيْظِ في أمرِ رسولِ اللهِ ﷺ أهَمَّهُ، وأحْزَنَهُ، حتى أثَّرَ ذلكَ في وجهِهِ، فَعَبَسَ لذلكَ وجهُهُ.

الآية ٢٣ ثم قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أدْبَرَ عنْ أولئكَ القومِ الذينَ اجْتَمَعوا لِلتَّدْبيرِ، واسْتَكْبَروا [عليهِ، أو][8] أدْبَرَ عنْ طاعةِ اللهِ، واسْتَكْبَرَ على رسولِهِ حينَ أعْرَضَ عنهُ، ولم يُجِبْهُ إلى ما دعاهُ إليهِ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي هذا الذي أتى بهِ محمدٌ مِمّا يُؤثَرُ مِنْ أفعالِ السِّحْرِ، أو هذا الذي يُخْبِرُ [أنهُ][9] أتى بهِ مِنْ عندِ اللهِ هو سِحْرٌ يُؤثَرُ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ. ولكنْ قالَ هذا على علمٍ منهُ أنهُ ليسَ بِسحرٍ.

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: ولو كانَ الذي أتى بهِ محمدٌ ﷺ سحراً كما قَرَفوهُ بهِ فهو لا يَخْرُجُ مِنْ أنْ يكونَ حُجَّةً لهُ في صِدْقِ مَقالَتِهِ وإثباتِ رسالَتِهِ لأنهُ لا وَجْهَ لِمَعْرِفةِ السِّحْرِ مِنْ طريقِ الرَّأيِ والتَّدْبيرِ، وإنما سَبيلُ الوُصولِ إليهِ التَّلقينُ[10] والتَّلَقُّفُ عنِ الغَيرِ، وقد عَلِموا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ [لم يَتَلَقَّنْ منْ أحدٍ][11] ولا وُجِدَ منهُ الاِخْتِلافُ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ ذلكَ، فوقَعَ لَهُمُ الإيقانُ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ لا بأحدٍ مِنَ الخَلائِقِ، فَيَصيرُ الذي قَرَفوهُ بهِ مِنْ أعظمِ الحُجَجِ[12].

ولكنَّ اللهَ تعالى طَهَّرَهُ مِنَ السِّحْرِ، ونَزَّهَهُ عنْ ذلكَ، وأمَرَهُ بِمُعاداةِ السَّحَرَةِ، حتى قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اقْتُلوا كلَّ ساحرٍ وساحرةٍ» [الترمذي ١٤٦٠] وقالَ: «توبةُ الساحرِ ضَرْبةٌ بالسيفِ» [أحمد ١/ ١٩٠].

ثم الأصلُ أنَّ الساحرَ يُفَرِّقُ بينَ الاِثْنَينِ، ويَعْمَلُ سِحْرُهُ في التَّفْريقِ على وجهٍ لا يُوقَفُ على سَبَبِ التَّفْريقِ، وكانَ سببُ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: فيقف. (٣) في الأصل وم: أن. (٤) في الأصل وم: فينسب. (٥) في الأصل وم: حيث. (٦) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: عليهم. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: الالتقان. (١١) في الأصل وم: يلتقن أحداً. (١٢) في الأصل وم: الحجة.

تفريقِ رسولِ اللهِ ﷺ ظاهراً لأنهُ يأتيهِمْ بالحُجَجِ، فَيَعْلَمُ مَنْ أمعَنَ النَّظَرَ [فيها صِدْقَهُ في ما يَدَّعي مِنَ الرسالةِ، فَيأتَمِرُ بِهِ، ومَنْ تَرَكَ النَّظَرَ فيها، ولم يُعْطِ مِنْ نفسِهِ النَّصَفَةَ، تَرَكَ الإيمانَ، فَيَبْطُلُ أنْ يكونَ التفريقُ كتفريقِ السِّحْرِ، ولأنَّ كُلّاً منهُمْ لو تَفَكَّرَ في ما جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ وأمْعَنَ النظرَ][1] فيهِ حَمَلَهُ ذلكَ على الإيمانِ بِهِ والتَّصديقِ لِرسالتِهِ، فَيَصيرُ الذي جاءَ بِهِ محمدٌ ﷺ سببَ الاجْتِماعِ والألفةِ لا أنْ يكونَ سببَ التَّفريقِ بَينَ الأحبةِ.

ثم الأصلُ أنَّ الساحرَ، بُغيتُهُ وقَصْدُهُ مِنْ سِحْرِهِ نَيلُ الجاهِ عندَ العظماءِ والرؤساءِ واستِفادةُ السَّعَةِ في الدنيا، ورسولُ اللهِ ﷺ لم يكُنْ يطْلُبُ بما أتى بِهِ الجاهَ عندَ الرؤساءِ، بل عاداهُمْ، وأظهَرَ الخِلافَ، فَدَعا الخَلْقَ إلى الزهادةِ في الدنيا لا إلى الاِسْتِكْبارِ فيها، فكيفَ يجوزُ أنْ يُنْسَبَ إلى السِّحْرِ، وقد أتى بما يُضادُّ فِعْلَ السَّحَرَةِ؟

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ قد أعْلَمَ[2] أنهُ ليسَ بقولِ البشرِ لمّا عَجِزَ البَشَرُ عن إتيانِ مِثْلِهِ، وقالَ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦] فَثَبَتَ أنهُ على العِلْمِ منهُ بأنها آياتٌ، مُعانِدٌ[3].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ فالسَّقَرُ لونٌ مِنَ العذابِ، وقيلَ: السَّقَرُ، هي الدَّرَكَةُ الخامسةُ، وقيلَ: السَّقَرُ مِنْ أبوابِ [جهنَّمَ][4] ومَعْناهُ: سَأُدْخِلُهُ جهنَّمَ مِنْ [بابٍ مِنْ][5] أبوابِ السَّقَرِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٢٧و٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ يَحْتَمِلُ أي لا تُبقي حياةً يَتَلَذَّذُ بها ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ لا تَذَرُهُ، فَيَسْتَريحَ، بل تُبْقيهِ[6] أبداً في الهلاكِ كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]. لا تُبقي لهُ جِلْداً ولا لَحْماً ولا عَظْماً، بل تُنْضِجُ جِلْدَهُ، وتأكُلُ لَحْمَهُ، وتكسِرُ عَظْمَهُ، ولا تَذَرُهُ على تلكَ الحالِ: كَسْرِ العظمِ وأكْلِ اللحمِ ونُضْجِ الجِلْدِ، بل يُعادُ جِلْدُهُ ولَحْمُهُ وعَظْمُهُ، فَتَحْرِقُها كذلكَ أبداً، لا تُبْقي لهُ روحاً، ولا تَذَرُهُ، فَيَرْهَبَ فيها، فَيَتَخَلَّصَ مِنْ عذابِها.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قيلَ فيهِ بوجوهٍ:

قيلَ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي مُحْرِقَةٌ لِلْجِلْدِ، فالبَشَرُ الجِلْدُ، فجائزٌ أنْ خَصَّ الجِلْدَ بالتَّلويحِ لأنَّ الجِلْدَ، مِنَ الإنسانِ هو الظاهرُ؛ فيكونُ ظاهرُ الإحراقِ مؤثِّرٌ فيهِ، فَخَصَّهُ بالذِّكْرِ لهذا كما سَمّى الإنسانَ إنساناً لِظهورِهِ لكلِّ مَنْ هو مِنْ أهلِ الرؤيةِ، وسَمّى الجِنَّ جِنّاً لِاسْتِتارِهِ عَمَّنْ ليسَ مِنْ جنسِهِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ [النساء: ٥٦].

وقيلَ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي ظاهرةٌ للبَشَرِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] وقولِهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] أي تُظْهَرُ لهم، وتَلوحُ، فَيَنْظُرونَ إليها، ويَتَيَقَّنونَ بالعذابِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ لأنَّ النارَ، تأكُلُ جُلودَهُمْ ولُحومَهُمْ، فَتَظْهَرُ عظامُهُمْ، وتَلوحُ عنْ ذلكَ، ثم تُبَدَّلُ جُلوداً ولُحوماً أبداً. على هذا مدارُ أمرِهِمْ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنه أنهمْ خَزَنَةُ جهَنَّمَ، مَعَ كلِّ واحدٍ مِنَ الأعوانِ ما لا يُحْصى، وذُكِرَ أنَّ سِتَّةً منهمْ يَقودونَ الكَفَرَةَ إلى النارِ، وسِتَّةً يَسوقونَهُمْ، وسِتَّةً يَضْرِبونَهُمْ بِمَقامِعِ الحديدِ والنيرانِ، والأخيرُ[7]، هو الخازنُ / ٦١٢ ـ أ/ الأكبرُ، وهو مالكٌ، يأمُرُهُمْ بما أُمِرَ هو بِهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ في السَّقَرِ تِسْعَةَ عَشَرَ دَرَكاً، وقد سُلِّطَ على كلِّ دَرَكٍ مَلَكٌ؛ وذلكَ أنَّ جهنَّمَ ذاتُ حدٍّ في نفسِها لأنَّ اللهَ تعالى، وَعَدَ أنْ يَمْلأَها مِنَ الجِنَّةِ والناسِ، ولو لم تَرْجِعْ إلى حَدٍّ لكانَ لا يَتَحَقَّقُ امْتِلاؤُها بالقَدْرِ الذي ذَكَرَهُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُعَذِّبَ فيها بِتِسْعَةَ عشرَ لوناً مِنَ العذابِ، وقد وُكِلَ كلُّ واحدٍ منهمْ أنْ يُعَذِّبَ بِنَوعٍ مِنْ ذلكَ.

والأصلُ أنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ، يُعْلِمُ أنَّ في كلِّ فِعْلٍ مِنْ أفعالِهِ حِكْمَةً [عجيبةً، ولكنْ لا كلُّ حِكْمَةٍ][8] يُوصَلُ إليها بالعقلِ، ويُنْتَهى إلى مَعْرِفَتِها بالتدبيرِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: علم. (٣) في الأصل وم: عاند. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: تبقي. (٧) في الأصل وم: والآخر. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

ألا تَرَى أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الماءِ مَعْنىً، يُحْيِي كلَّ شيءٍ؟ ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَكَلَّفَ اسْتِخراجَ المَعْنَى الذي بِهِ صَلَحَ أنْ يكونَ طبْعُهُ مُوافِقاً لإحياءِ كلِّ شيءٍ، لا يُمْكِنُهُ ذلكَ، وجَعَلَ في الطعامِ ما يُغَذِّي، ويُنَمِّي؟ ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَتَعَرَّفَ المَعْنَى الذي يَقَعُ بِهِ الاغتِذاءُ والإنماءُ لم يَتَدارَكْ، وكذلكَ جَعَلَ في العددِ الذينَ سَمّاهُمْ حكمةً؟ ولكنّا لا نَصِلُ إلى تَعَرُّفِها بعُقولِنا وتدبيرِنا.

وزعَمَتِ الباطِنِيَّةُ أنَّ في ذِكْرِ الأعدادِ التي عليها تركيبُ العالَمِ تَعريفَ الأعدادِ المَجْعولَةِ في الروحانياتِ.

فَيُقالُ لهمْ: مَنْ جَعَلَ الأعدادَ التي [عليها][1] تركيبُ العالمِ أولَى بأنْ يَعْرِفَ بها الأعدادَ المجعولَةَ في الرُّوحانيّاتِ مِنْ أنْ يَجْعَلَ الأعدادَ التي في الرُّوحانيّاتِ على الاِسْتِدْراكِ المَجْعولَةَ في الجَسَدانِيّاتِ.

ثم يُسْأَلونَ عنِ الأعدادِ المجعولةِ في الرُّوحانيّاتِ: لأيِّ مَعْنىً جُعِلَتْ؟ وأيُّ حِكْمةٍ فيها؟ فليسَ جوابُهُمْ بعدَ هذا إلّا العجزُ والاعْتِرافُ بالجهلِ، فَلْيُقِرُّوا بالجهلِ مِنَ الابْتِداءِ مِنْ [غيرِ][2] أنْ يَتَكَلَّفوا اسْتِخراجَ ما يُوجَبُ مِنْ حقيقةٍ، كانَ فيهِ ظهورُ عَجْزِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ عندَنا ما ذَكَرْنا أنَّ أهلَ التّوحيدِ اعْتَقَدوا أنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ وأنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عنْ حدِّ الحِكْمَةِ، لأنّ الذي يَجْعَلُ الإنسانَ يَخْرُجُ[3] عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ في الشاهِدِ أحدُ مَعانٍ ثلاثةٍ: إمّا الجهلُ وإمّا العَجْزُ وإمّا الحاجةُ، واللهُ تعالى عالمٌ لا يَجْهَلُ، وقَوِيٌّ لا يَلْحَقُهُ عجزٌ عنْ وفاءِ ما وَعَدَ، وغَنِيٌّ لا تَمَسُّهُ حاجةٌ، فانْتَفَتْ عنهُ الأسبابُ التي لَدَيها يَقَعُ الخروجُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ.

فَثَبَتَ أنهُ لا يجوزُ أنْ يَخْرُجَ فِعْلُهُ عنْ حَدِّ الحِكْمَةِ. لكنَّهُمْ إذْ لم يَعْرِفوا الحِكْمَةَ بِعقولِهِمْ، ولم يَتَداركوها بتدبيرِهِمْ ظَنّوا أنهُ لا حِكْمَةَ فيهِ، وأنْكَروا أنْ يُضافَ ذلكَ إلى اللهِ تعالى.

فأهلُ الدهرِ أنْكروا البعثَ، وأنكروا الصانعَ لمّا رأَوا أشياءَ في الشاهِدِ، هي في الظاهِرِ خارجةٌ مَخْرَجَ العَبَثِ، وفِعْلُ الحِكْمَةِ لا يَخْرُجُ مَخْرَجَ العَبَثِ، فَنَفَوا بهذا أنْ يكونَ للأشياءِ صانعٌ، ومَنْ بَنَى بِناءً، ثم نَقَضَهُ، ثم أعادَهُ إلى الحالةِ التي كانَ عليها[4] قبلَ النَّقْضِ، لم يكُنْ حكيماً بل كانَ جاهلاً سَفيهاً. فقاسُوا أمْرَ البَعْثِ على ذلكَ، وظَنّوا أنهُ خارجٌ مَخْرَجَ العَبَثِ؛ إذْ ليسَ فيهِ إلّا الإعادةُ إلى الحالةِ التي كانَ عليها قبلَ الموتِ.

وما ذَكَرْنا مِنَ الاعْتِبارِ هو الذي حَمَلَ الثَّنَوِيَّةَ على القولِ بإلٰهينِ اثْنَينِ لأنهمْ رَأَوا في الشاهِدِ خَيراً وشرًّا وصَلاحاً وفساداً وظُلْمَةً ونوراً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ جَوهَرُ الظُّلْمَةِ والنورِ واحداً، ولا يجوزُ أيضاً أنْ يكونَ فِعْلُ الحكيمِ يَخْرُجُ على الاخْتِلافِ والتَّناقُضِ، فقد رأوا[5] بهذا أنَّ خالقَ الشرِّ والخيرِ مُخْتَلِفٌ.

وبهذا[6] أنْكَرَتِ المعتزلةُ خَلْقَ أفعالِ العبادِ لأنَّ الفعلَ يكونُ مَرَّةً خيراً ومَرَّةً شراً ومَرَّةً صلاحاً ومَرَّةً فساداً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ الشرُّ مضافاً إلى اللهِ تعالى ولا أنْ يكونَ الفسادُ مَنْسوباً إليهِ، فأنكروا أنْ يكونَ للهِ تعالى في أفعالِ العبادِ صُنْعاً.

وأهلُ التوحيدِ سَلَّموا الأمرَ إلى اللهِ تعالى، وفَوَّضوا العِلْمَ إليهِ في كلِّ ما جاءَ عنهُ ﷺ وإنْ لم يَتَدارَكوا ما فيهِ مِنَ الحِكْمَةِ بِعقولِهِمْ لوجودِهِمْ أشياءَ، هي خارجةٌ أنْ يَتَداركوها بِعقولِهِمْ، ويَقِفوا عليها بِعلومِهِمْ كما ذَكَرْنا مِنْ أمرِ الماءِ أنهُ قد جَعَلَ فيه مَعْنىً. ذلكَ المَعْنَى يُحْيِي الأشياءَ، ولو أرادوا أنْ يَعْرِفوا ذلكَ المَعْنَى بالعقولِ والآراءِ لم يمكِنْهُمْ ذلكَ. وكذلكَ المَعْنَى[7] في الطعامِ وفي الأشياءِ المَشْروبةِ مَوجودٌ، ثم لم يَجِبْ بهذا إنكارُ المياهِ وسائرِ الأطعمةِ والأشربةِ، وكذلكَ لا يَجِبُ إنكارُ عَددِ[8] الذينَ سَمّاهُمْ مِنَ الملائكةِ ولا إنكارُ البعثِ ولا إنكارُ كلِّ شيءٍ لا يَقِفونَ على حِكْمَتِهِ بعقولِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: على الخروج. (٤) في الأصل وم: عليه. (٥) في الأصل وم: بنوا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هذا. (٨) في الأصل وم: العدد.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ فلقائلٍ أنْ يقولَ في هذا أمراً[1]: لم يجعلْ أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً، لم يوجَدْ فيها إنسيٌّ ولا جِنّيٌّ، فكيفَ قالَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩ والسجدة: ١٣] وهو لم يَجْعَلْ أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً أي: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ يُعَذِّبونَ أهلَها؟ لا أنْ يكونَ الملائكةُ تَمَسُّهُمُ النارُ، ويَتَأذّونَ بها؟

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ مَنْ قَرَأَ مكانَ قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [البقرة: ٨٢ و. .] أصحابَ النارِ في صلاتِهِ لا تَفْسُدُ لأنهُ ليسَ في نسبةِ أصحابِ الجنةِ وأصحابِ النارِ إيجابُ عذابٍ عليهِمْ كما لم يكُنْ في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إيجابُ عذابٍ على الملائكةِ واسْتِحْقاقِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وإنما خَصَّهُمْ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ، لأنهُمْ خُلِقوا يَسْخَطونَ، ويَغْضَبونَ للهِ تعالى، ولا يُغْضِبونَ اللهَ تعالى ما أمَرَهُمْ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠ والتحريم: ٦] لم يَميلوا إلى أحدٍ، ولم يَرْحَموا بما رأوا عليهِ منَ العذابِ في مَعْصيةِ اللهِ وخِلافِهِ. ليسوا على طباعِ الإنسِ والجنِّ أنَّ قلوبَهُمْ، ربما تَميلُ، وتَرحَمُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ الرحمةَ.

وذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ردٌّ على أولئكَ الكفرةِ الذينَ قالوا: إنا لَنَكْفُ[2] هؤلاءِ العِدّةَ حينَ سَمِعوا ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فَنَغْلِبُ عليهِمْ، ونَخْرُجُ منَ النارِ، فأخْبَرَ أنهمْ ليسوا برجالٍ أمثالِكُمْ، وإنما هُمْ ملائكةٌ، ووَصَفَ الملائكةَ. وقد رُوِيَ في الأخبارِ: مِنْ هَوْلِ خِلْقَتِهِمْ وعِظَمِهِمْ وشِدَّةِ بأسِهِمْ وبَطْشِهِمْ أنَّ[3] لهبَ النيرانِ يَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ وأنَّ بُنْيَتَهُمْ لا تَحْتَمِلُ الحَرْقَ والآلامَ، ليست[4] على ما عليها[5] بِنْيةُ البشرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الفِتْنَةُ قد يُتَكَلَّمُ بها على وجهَيْنِ:

فَتُذْكَرُ الفِتْنةُ، ويُرادُ بها المِحْنَةُ التي فيها الشِّدَّةُ، وتُذْكَرُ، ويُرادُ بها العذابُ.

فإنْ كانَ يُرادُ بها العذابُ، فَمَعْناها[6] أنهُ جَعَلَ العَدَدَ الذينَ ذَكَرَهُمْ لِلْكَفَرةِ، وهو كقولِهِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي يُعَذَّبونَ.

وإنْ كانَ يُرادُ بها المِحْنَةُ فَتَخْرُجُ على وجوهٍ:

أحَدُها: أي ما جَعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهِمْ إلّا لِافْتِتانِ الذينَ كَفَروا، أي [مَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى منهمْ أنهُ يَكْفُرُ بآياتِ][7] اللهِ تعالى جَعَلَ ذلكَ سَبَباً لِفِتْنَتِهِ، إذْ[8] كانَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنهُ مِمَّنْ يَبْتَغي الفِتْنَةَ.

فأمّا مَنْ عَلِمَ أنهُ يَنْظُرُ في آياتِ اللهِ مُسْتَرْشِداً فلمْ يَزِدْهُ ذلكَ إلّا إيماناً وتَصْديقاً، إذ عَلِموا أنَّ اللهَ تعالى [أرادَ][9] أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بأنواعِ المِحَنِ، فآمَنوا بهِ، وسَلَّموا ذلكَ للهِ تعالى.

فيكونُ في جَعْلِ [عِدّةِ الملائكةِ][10]: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ شِدَّةٌ على الكَفَرَةِ إذْ كانَ السَّبَبُ كُفْرَهُمْ، فكذلكَ سَمّى المِحْنَةَ على هذا الوجْهِ فِتْنَةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بِمَعْنى على الذينَ كَفَروا.

ثم جازَ أنْ يكونَ ذلكَ [على][11] حدوثِ الكُفْرِ، وهو في قومٍ، قد آمَنوا بهِ. فلما سَمِعوا هذا [زَعَموا][12] أنْ لا حِكْمَةَ في هذا العَدَدِ [وليسَ هذا العَدَدُ][13] بأولى أنْ يُجْعَلوا أصحابَ النارِ مِنَ[14] العشرينَ ومنَ الثمانيةَ عَشَرَ، فَكَفَروا بهِ. وهو كقولِهِ تعالى لموسى ﷺ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وذلكَ على حدوثِ / ٦١٢ ـ ب/ إضلالٍ، لم يكُنْ مِنَ السامِرِيِّ موجوداً [وما كانَ][15] الإضلالُ مُتَقَدِّماً بِغَيرِها.

---

(١) من م، في الأصل: أثراً. (٢) في الأصل وم: لنكفي. (٣) في الأصل وم: وأنّ. (٤) في الأصل وم: ليس. (٥) في الأصل وم: عليه.
(٦) في الأصل وم: فمعناه. (٧) من م، في الأصل: علم. (٨) في الأصل وم: إذا. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: عدتهم.
(١١) من م، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، ساقطة من الأصل. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: في. (١٥) في الأصل وم: لأن.

وجائزٌ أنْ تكونَ فتنتُهُمْ، هي[١] أنهمُ ازدادوا بِذِكْرِ هذا العَدَدِ كُفراً إلى كُفرِهِمْ لأنهمْ نَظَروا إليهِ بِعَينِ الِاسْتِخْفافِ والِاسْتِهْزاءِ، ولم يَنْظُروا إليهِ بِعَينِ التَّبجيلِ والتَّعْظيمِ، فَازْدادوا بذلكَ كُفراً.

[وقولُهُ تعالى][٢]: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ والِاسْتيقانُ والزيادةُ واحدٌ، لأنَّ في الِاسْتيقانِ زيادةَ إيمانٍ، وفي الزيادةِ [اسْتيقاناً].

فَمَعْنى][٣] ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الذينَ آمَنوا. وَوَجْهُ اسْتِيقانِهِمْ أنهمْ يَجِدونَ هذا العَدَدَ مُوافِقاً لِلعددِ الذي في كتابِهِمْ. ويَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الِاسْتيقانِ أنهُ مِنْ عندِ اللهِ تعالى.

ويَحتَمِلُ أنْ يُريدَ بهِ أهلَ الكتابِ الذينَ لم يُؤمِنوا إذا وَجَدوا ذلكَ مُوافِقاً لِما في كُتُبِهِمْ، فَيَسْتَيقِنوا أنهُ إنما يُخْبِرُ عنِ اللهِ ﷻ ولِيَرْفَعَ عنهمُ الارْتِيابَ، لِيكونَ أدْعَى لهمْ إلى الإيمانِ بهِ، إنْ أرادَ منهُمُ الإيمانَ، وأقْرَبَ إلى إلزامِ الحُجَّةِ عليهِمْ، إنْ لم [يَرَ منهُمُ الِاسْتيقانَ][٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ وتصديقاً على ما سَبَقَ منهمْ مِنَ التَّصديقِ بالجملةِ.

وكذلكَ رُوِيَ عنْ أبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وفي كلِّ موضعٍ ذُكِرَ فيهِ الزيادةُ في الإيمانِ أنَّ مَعْنَى الزيادةِ فيهِ أنهمُ ازدادوا بالتفسير تصديقاً على تَصْديقِهِمْ بالجملةِ، لأنهمْ إذا وَحَّدوا اللهَ تعالى، وآمَنوا بهِ، فقد أقَرُّوا بأنَّ لهُ الخَلْقَ والأمرَ كلَّهُ. وفي الإقرارِ بأنَّ لهُ الخَلْقَ إيمانٌ بالرسلِ وتصديقٌ منهمْ[٥] إياهُمْ بجميعِ ما أُنْزِلَ عليهِمْ مِنَ الكتبِ مِنَ اللهِ تعالى.

فصارَ [المرءُ][٦] بإيمانِهِ مُعْتَقِداً للتَّصديقِ بكلِّ رسولٍ على الإشارةِ إليهِ. فإذا آمَنَ بالرسولِ والكتابِ المُنْزَلِ عليهِ فقد أتَى بزيادةِ تَصْديقٍ على ما وُجِدَ منهُ مِنَ التَّصديقِ بالجملةِ.

وجائزٌ أنْ تكونَ الزيادةُ مُنْصَرِفةً إلى الثباتِ والِاسْتِقامةِ لأنَّ الإيمانَ لهُ حُكْمُ التَّجدُّدِ [إذِ المؤمِنُ][٧] في كلِّ وقتٍ مأمورٌ[٨] باجْتِنابِ الكُفرِ؛ وإذا اجْتَنَبَ الكُفْرَ فقد أتَى بِضِدِّهِ، وهو الإيمانُ [فَثَبَتَ أنَّ الإيمانَ][٩] لهُ حُكْمُ التَّجدُّدِ في كلِّ وقتٍ.

وإذا كانَ كذلكَ اسْتَقامَ صَرْفُ الزيادةِ إلى الثباتِ والقَرارِ عليهِ. فإنْ شِئْتَ فَسَمِّ الدوامَ على الإيمانِ زيادةً، وإنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ اسْتِقراراً[١٠]، وإنْ شِئْتَ فَسَمِّهِ ثباتاً. وفي الكتابِ ما يُطْلِقُ جوازُ هذا كلِّهِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦] فَنَدَبَهُمْ إلى الإيمانِ بعدَ ما آمَنوا، وما ذلكَ إلّا الثباتُ على ما هُمْ عليهِ، وقالَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] وهو الِاسْتِقرارُ[١١]، وقالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ١٠٢] فَجَعَلَ دوامَهُمْ على الإيمانِ واسْتِقرارَهُمْ[١٢] عليهِ إيماناً.

[وقالَ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] وقالَ: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] فأطْلَقَ][١٣] اسْمَ الزيادةِ واسْمَ الثباتِ واسْمَ الإيمانِ.

وإنْ كانتِ الزيادةُ مُنْصَرِفَةً إلى الأعمالِ فهي[١٤] عندَنا على الزيادةِ مِنْ جهةِ الفَضيلةِ والكمالِ لا على[١٥] الزيادةِ [مِنْ جهةِ العَدَدِ][١٦] عينِهِ لأنَّ الشيءَ إذا اسْتَحَقَّ الزيادةَ بِغَيرِهِ فاسْتِحْقاقُهُ يَقَعُ مِنْ جهةِ الفَضيلةِ والكمالِ.

ألا تَرَى إلى قولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «صلاةٌ في مَسْجِدي هذا تَعْدِلُ ألفَ صلاةٍ في ما سواهُ مِنَ المساجدِ إلّا المسجِدَ الحرامَ»؟ [النسائي ٥/ ٢١٤].

---

(١) في الأصل وم: هو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: استيقان فمعناه. (٤) في الأصل وم: يروا منهم الإيمان. (٥) في الأصل وم: منه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: بأمور. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: استيقاناً. (١١) في الأصل وم: الإيمان. (١٢) في الأصل وم: واستقامتهم. (١٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: فهو. (١٥) في الأصل وم: إلى. (١٦) ساقطة من الأصل وم.

ومعلومٌ أنهُ لم يُرِدْ بِهِ التَّفاضلَ مِنْ جهةِ العَدَدِ إذْ هو يأتي بأعيُنِ الأفعالِ التي يَلْزَمُهُ إتيانُها في غَيرِ ذلكَ. فكانتِ الزيادةُ مُنْصَرِفةً [إلى][1] الكمالِ والفَضْلِ [لا][2] إلى الزيادةِ مِنْ جهةِ العَدَدِ.

وكذلكَ قالَ [رسولُ اللهِ ﷺ:][3] «صلاةٌ في جماعةٍ تَفْضُلُ على صلاةِ المرءِ وحدَهُ بخمسٍ وعشرينَ دَرَجَةً» [النسائي ٢/ ١٠٤] ولم يُرِدْ بِهِ الزيادةَ مِنْ جهةِ العَدَدِ، وإنما أرادَ بهِ الزيادةَ مِنْ جهةِ الفَضْلِ والكمالِ.

وكذلكَ الزيادةُ التي تَقَعُ للإيمانِ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ إنما هي مِنْ جهةِ الفضيلةِ والشَّرَفِ؛ إذِ الأعمالُ ليستْ مِنْ جِنْسِ الإيمانِ؛ إذِ الإيمانُ هو التَّصْديقُ، وذلكَ غَيرُ موجودٍ في الأفعالِ. ثَبَتَ أنَّ زيادَتَهُ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرَ دونَ غيرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ في هذا الفصلِ كلامٌ بَيننا وبينَ المعتزلةِ؛ فهمْ يَزْعُمونَ أنَّ تلكَ العِدَّةَ، وهي عِدَّةُ الملائكةِ، جُعِلَتْ مِحْنَةً لأهلِ الإسلامِ وأهلِ الكتابِ وأهلِ الكفرِ ولِلَّذينَ في قلوبِهِمْ مَرَضٌ لِيُؤْمِنوا بها، ويَسْتَسْلِموا لها لا لِيَكْفُرَ بها مَنْ كَفَرَ، ويقولَ: ماذا أرادَ اللهُ بهذا مثلاً؟

ولكنْ لما وَجَدَ منهمْ ذلكَ القولَ نَسَبَ الجَعْلَ إليهِ لا أنْ خُلِقوا لذلكَ الوجهِ. وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] نَسَبَ إليهمُ الالْتِقاطَ، وإنْ كانَ الالْتِقاطُ لِغَيرِ ذلكَ الوجهِ.

وكذلكَ قالَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] ومعلومٌ أنَّ الإملاءَ لم يكنْ لِازْدِيادِ الإثمِ، ولكنهمْ لمّا ازدادوا إثماً نَسَبَ الإملاءَ إليهِ، وإنْ لم يكنِ الإملاءُ لذلكَ الوجْهِ. وكذلكَ يقالُ في الكلامِ السائِرِ:

لِدوا لِلْموتِ وابْنوا لِلْخرابِ [فَكُلُّكُمْ يَصيرُ إلى ذَهابِ][4]

ولا [أحدَ][5] يبني البناءَ للخرابِ، ولكنَّ مَصيرَهُ لمّا كانَ إلى الخرابِ نُسِبَ البناءُ إليهِ، وإنْ لم يكنِ البناءُ لِذلكَ الوجهِ. ويُقالُ: سَرَقَ السارقُ لِتُقْطَعَ يدُهُ. ومعلومٌ بأنهُ ليسَ يسرقُ للقَطعِ، ولكنْ بِسَرِقتِهِ [لَزِمَهُ القطعُ ولأجلِها قُطِعَتْ يدُهُ، ونُسِبَ][6] الفعلُ إليهِ، وإنْ كانتِ السرقةُ لِغَيرِ ذلكَ [الوَجْهِ. فكذلكَ][7] العِدَّةُ التي ذُكِرَتْ في الآيةِ جُعِلَتْ فيهِ بجهةٍ واحدةٍ، وهي التي ذَكَرْنا هنالكَ لمّا وَجَدَ مِنَ الكَفَرةِ ما ذَكَرْنا نَسَبَ الخَلْقَ إلى ذلكَ الوجهِ لا أنْ كانَ الجَعْلُ لذلكَ.

ولكنّا نقولُ: لو كانَ الأمرُ على ما زَعَمُوا أدّى ذلكَ إلى إسقاطِ الرُّبوبيَّةِ؛ إذْ في الحكمةِ: مَنْ عَمِلَ عملاً يُريدُ بهِ غيرَ الذي يكونُ أوجَبَ ذلكَ جَهلاً بالعواقِبِ، أو جُعِلَ عابثاً في فِعْلِهِ. ومَنْ هذا وَصْفُهُ لم يَصْلُحْ أنْ يكونَ إلهاً، بل يكونُ جاهلاً سَفيهاً.

ألَا تَرى أنَّ مَنْ بَنى شيئاً، يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ، كانَ ذلكَ منهُ عَبَثاً، وإذا كانَ غيرَ الذي يُريدُهُ، كانَ جاهلاً بهِ؟.

فلمّا ثَبَتَ هذا فنقولُ: لو أرادَ اللهُ مِنَ الكافرينَ غَيرَ الذي كانَ منهُ لكانَ فعلُهُ خارجاً مَخْرَجَ الخَطَإِ والعَبَثِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ ﷻ شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ أنْ يكونَ منهمْ.

فإذا عَلِمَ مَنْ عندَهُ أنهُ يُؤْثِرُ الضلالَ على الهُدَى فقد شاءَ لهُ الضلالَ، وإذا عَلِمَ أنهُ يُؤْثِرُ فِعْلَ الخَيرِ شاءَ لهُ ذلكَ، وَوَفَّقَهُ، وهداهُ إليهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِ ﷻ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فمعناهُ: ليكونَ لهمْ في عِلْمِ اللهِ عَدُوًّا وحَزَناً، لا أنْ كانَ الالْتِقاطُ منهُ لذلكَ الوجهِ. بل لو عَلِموا أنهُ يَصيرُ لهمْ عَدُوًّا وحَزَناً لم يَلْتَقِطوهُ، ولكنهمْ جَهِلوا ما تَنْتَهي إليهِ العاقبةُ، فالْتَقَطوهُ رجاءَ أنْ يَنْتَفِعوا بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) إنه قول الشاعر أبي العتاهية. انظر أبو العتاهية: أشعاره وأخباره للدكتور شكري فيصل/ ٢٧. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إذا لزمه القطع ولأجلها ما قطع نسب. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

ولا يجوزُ أنْ يَخفَى على اللهِ عواقبُ الأشياءِ، فيكونُ فِعْلُهُ في الاِبْتِداءِ لِغَيرِ ذلكَ الوجهِ.

وقولُهُمْ: لِدوا للموتِ وابْنوا للخرابِ؛ فهذا يُتَكَلَّمُ بِهِ في مَوضِعِ التَّذْكيرِ والدُّعاءِ لِئلا يَحْرُصَ المرءُ في بناءِ الأبنيةِ، بل يَزْهَدَ عنهُ. ويجوزُ أنْ يُخْفيَ على اللهِ تعالى أمراً، فَيَخْرُجُ الأمرُ فيهِ مَخْرَجَ التَّذْكيرِ، فَثَبَتَ أنهُ على التَّحقيقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ والمَثَلُ يُذْكَرُ بِمَعْنَى البيانِ كقولِ القائلِ: أُمَثِّلُ لكَ صورة/ ٦١٣ـ أ/ كذا؛ يُريدُ: أُبَيِّنُ لكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فهذا كلُّهُ تفسيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ الآية، أي يُضِلُّ بِهِ مَنْ كانَ في عِلْمِهِ أنهُ يَختارُ الضلالَ، واختيارُهُ الضلالَ، هو أنْ يَنْظُرَ في آياتِ اللهِ تعالى بِعَينِ الاِسْتِهْزاءِ والاِسْتِخْفافِ. ومَنْ كانَ نَظَرُهُ في آياتِ اللهِ ما ذَكَرْنا أَضَلَّهُ اللهُ تعالى، وزادَهُ غَوايةً، ومَنْ نَظَرَ في آياتِ اللهِ بِعَينِ الاِسْتِهْداءِ والاِسْتِرشادِ، واسْتَقْبَلَها بالتَّبجيلِ والتَّعظيمِ لها، وفَّقَهُ اللهُ تعالى، ومَنَّ عليهِ بالهِدايةِ، وهو كقولِهِ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وغيرُ ذلكَ، واللهُ الموفِّقُ.

وقالَتِ المعتزلةُ: قولُهُ تعالى: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يُسَمِّيهِ ضالاً، أو يحكُمُ عليهِ بالضلالِ إذا ضَلَّ، لا أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُضِلُّهُ، ويشاءُ ضلالَتَهُ.

فَيُقالُ لهمْ: إذا كانَ اللهُ يريدُ أنْ يُؤمِنَ بهِ، وتلكَ إرادَتُهُ في كلِّ أحدٍ عندكُمْ، فَتَسْمِيَتُهُ إياهُ ضالاً وحكمُهُ بالضلالِ، وهو يريدُ أنْ يَهْتَدِيَ، جَورٌ منهُ، وفيهِ تَحقيقُ كَذِبِهِ. جلَّ اللهُ تعالى عَنْ أنْ يَلْحَقَهُ وَصْفُ الجَورِ في فِعْلِهِ، أو يُنْسَبَ إلى الكَذِبِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: تأويلُهُ: أنَّ اللهَ يَنْصُبُ طريقاً، مَنْ سَلَكَهُ أفضَى بهِ إلى الهِدايةِ، ومَنْ زاغَ عنهُ صارَ إلى الضلالِ، ولا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ مِنَ الخلائقِ أنْ يَنْصُبَ مثلَهُ

فنقولُ: لو كانَ التأويلُ على ما زَعَمَ لكانَ حقُّهُ أنْ يُقالَ: كذلكَ يُضِلُّ اللهُ ما يشاءُ، ويَهدي ما يشاءُ. فلما قالَ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و: مَنْ يُعَبَّرُ بهِ عنِ الأشخاصِ العقلاءِ [وما: عَنِ الفرقةِ][1] التي لا تَعْقِلُ. ثَبَتَ أنَّ الذي قالَهُ ليسَ بشيءٍ يُعْتَمَدُ عليهِ.

ثم الأصلُ أنَّ قولَهُ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ، وفيهِ امْتِداحُ الربِّ بالفِعْلِ لِما يُريدُ. فلو لم يكُنْ مريداً منهم لِما قد كانَ، ولم يُرِدْ كونَ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ سَقَطَ الاِمْتِداحُ، وخَرَجَ عنْ أنْ يكونَ مِنْ صفاتِ الربوبيَّةِ، فَثَبَتَ أنَّ اللهَ تعالى شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ أنْ يكونَ منهمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالجُنودُ، هو اسمٌ للجماعةِ التي يُنْتَقَمُ بها، ويُنْتَصَرُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ مُنْصَرِفاً إلى الملائكةِ الذينَ، همْ أصحابُ النارِ، ليسَ ما جَعَلَهُ مِنْ خَزَنَةِ النارِ عَدَداً قليلاً لِقِلَّةِ جُنودِهِ.

[وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي [ما يَعْلَمُ][3] مَقاديرَ قِوامِهِمْ وأحوالِهِمْ إلّا اللهُ؛ فمعناهُ لا يَعْلَمُ قوةَ هؤلاءِ الجُنودِ وبَطْشَهُمْ وهيبَتَهُمْ إلّا هو.

ثم يجوزُ أنْ يكونوا[4] سُلِّطوا على تَعذيبِ أهلِ النارِ على جهةِ الاِمْتِحانِ للملائكةِ كما امْتَحَنَ بَعضَهُمْ بإيصالِ التُّحَفِ والكراماتِ إلى أهلِ الجنةِ كما امْتَحَنَ بعضَهُمْ في الدنيا بِقَبْضِ الأرواحِ واسْتِنْزالِ الأمطارِ وغَيرِ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تَسليطُهُمْ على أهلِ النارِ على جهةِ الثوابِ والجزاءِ لهمْ، لأنهمْ يَتَلَذَّذونَ بما يُعَذِّبونَ أهلَ النارِ، ويَنْتَقِمونَ مِنْ أعداءِ اللهِ تعالى، لأنَّ المرءَ في الشاهدِ إذا وَصَلَ إلى الاِنْتِقامِ مِنْ عَدُوِّهِ تَلَذَّذَ بهِ، وتَنَعَّمَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي وما يَعْلَمُ كَثْرَةَ جُنودِ ربِّكَ إلّا هو.

ويَحْتَمِلُ [أنْ يكونَ قولُهُ تعالى][5] ﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ السببَ الذي يَجْعَلُ بهِ الجنودَ يَصْلُحونَ لِلاِنْتِقامِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو القادرُ

---

(١) في الأصل وم: عن الطريق. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: يكون. (٥) ساقطة من الأصل وم.

على أنْ يَجْعَلَ أضعفَ شيءٍ مِنْ خَلْقِهِ جُنْداً يَنْتَقِمُ بِهِ مِنْ أعدائِهِ كما في قصةِ البعوضِ في زمنِ نمرودَ وغيرِ ذلكَ: مِنْ إرسالِ الطيرِ إلى أصحابِ الفيلِ وإمطارِ الحجارةِ على قومِ لوطٍ ونَحْوِ ذلكَ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي لا يَعْلَمُ ما الذي يَتَّخِذُ اللهُ تعالى جُنْداً لِلانْتِقامِ مِنَ الأعداءِ إلّا هو.

ألَا تَرَى أنَّ اللهَ ﷻ انْتَقَمَ مِنْ بعضِ الأعداءِ بالغَرَقِ، وهمْ قومُ فِرعونَ وقومُ نوحٍ[1]، وأهْلَكَ بعضاً منهمْ بالرياحِ، واتَّخَذَها جُنْداً[2] عليهمْ، وأهْلَكَ بعضاً منهمْ بالخَسْفِ؟ فيكونُ في هذا إيجابُ المراقبةِ مِنْ حُلولِ النِّقْمَةِ والسُّخْطَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى السَّقَرِ أنها ذِكْرَى للبَشَرِ أي مَوعظةٌ وتذكيرٌ لهمْ ما إليهِ مَرْجِعُ أمورِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى عِدَّةِ الملائكةِ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قيلَ: حَقّاً، وقيلَ: هو على الرَّدْعِ والتَّنبيهِ[3].

الآيتان ٣٣ و٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ فهذا في مَوضعِ القسمِ، وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ لتأكيدِ ما قَصَدَ إليهِ بالذِّكْرِ، وإدبارُ الليلِ مَجيءُ النهارِ، فجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ آخِرِ الليلِ يَقْتَضي ذِكْرَ أوَّلِ النهارِ [وذِكْرُ أوَّلِ النهارِ يَقْتَضي ذِكْرَ النهارِ][4] كلِّهِ. فيكونُ القَسَمُ بها قَسَماً بالليلِ كلِّهِ والنهارِ كلِّهِ.

ثم الليلُ إذا أقبلَ عَمِلَتْ ظُلْمَتُهُ في سَتْرِ الأشياءِ كلِّها بساعةٍ لطيفةٍ، وكذلكَ النهارُ إذا أقبلَ عَمِلَ في رفعِ الظلمةِ عنِ الخلائقِ جُمْلَةً بساعةٍ لطيفةٍ ما لوِ اجْتَهَدَ المرءُ في جميعِ عُمُرِهِ، وإنْ طالَ، في عَدِّ تلكَ الأشياءِ لِيُحيطَ عِلْماً بِجُمْلَتِها لم يَتَمَكَّنْ منهُ.

وإذا كانَ لِلَّيلِ مِنَ السلطانِ ما ذَكَرْنا، ولإقبالِ النهارِ مِنَ الأمرِ ما ذَكَرْنا، وكانَ الذي ذَكَرْنا أمراً مُشاهَداً مُعايَناً، ولو أُريدَ مَعرفةُ ما فيهِ[5] مِنَ الحكمةِ أنهُ لأيِّ مَعْنىً ما صَلَحَ أنْ يكونَ الليلُ ساتراً عن دَرْكِ أعيُنِ الأشياءِ، واسْتقامَ أنْ يكونَ النهارُ مُزيلاً للسَّتْرِ، لم يُقْدَرْ عليهِ، فيكونُ إبانةُ أنهُ لا يَجبُ إنكارُ كلِّ ما لا يُوصِلُ إلى دَرْكِ الحِكْمَةِ فيهِ بالعقولِ والآراءِ، فيكونُ فيهِ إيجابُ التصديقِ بالأنباءِ التي يأتي بها الرسلُ، وإنْ كانَ فيها ما لا يُوقَفُ على الحكمةِ المجعولةِ فيها بالآراءِ.

وفيهِ أنَّ مُنْشِئَ الليلِ والنهارِ واحدٌ، وأنَّ الخلائقَ بِجُمْلَتِهِمْ تحتَ سلطانِهِ وتدبيرِهِ، يحكُمُ فيهمْ بما يشاءُ، ويَفْعَلُ ما يريدُ. وجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ مُنْصَرِفاً إلى الوقتَيْنِ اللَّذينِ، وَقَعَ عليهما الذِّكْرُ، وهما إدبارُ الليلِ وإسفارُ الصبحِ، فيكونُ فيهما في الأوَّلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَسْفَرَ﴾ أي أضاءَ، وانْتَشَرَ. وقولُهُ: ﴿أَدْبَرَ﴾ أي ذَهَبَ.

وحُكِيَ عنِ الكِسائيِّ أنهُ قالَ: إنَّ ﴿أَدْبَرَ﴾ لغةٌ قُرَيشيَّةٌ؛ يقولونَ: ذهبَ كالأمسِ الدابرِ أي الذاهبِ، فيقولونَ: دَبَرَ في الأيامِ والشهورِ والسنينَ، ولا يقولونَ في غيرِ ذلكَ، لا يقولونَ: دَبَرَ الرجلُ، ودَبَرَ الأمرُ، ولكنْ يُقالُ: أدْبَرَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ: إذا أدْبَرَ، وفي الحروفِ: إذْ دَبَرَ[6]، والمعروفُ إذْ أدْبَرَ كما قُلْنا.

الآية ٣٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ قيلَ: يعني السَّقَرَ، ثم عذابُ أهلِ النارِ ألوانٌ، وفي جهنمَ دَرَكاتٌ، والسَّقَرُ إحْدَى دَرَكاتِها، إذْ هي لونٌ مِنْ ألوانِ العذابِ، فصارتْ هي مِنْ إحْدَى الكُبَرِ][7].

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ النِّذارةَ إلى السَّقَرِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى الرسولِ ﷺ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٢] فمنهمْ مَنْ قَرَأَ بالتاءِ[8]، وصَرَفَها إلى القرآنِ.

---

(١) أدرج بعدها في الأصل: عليهم السلام. (٢) في الأصل وم: جنوداً. (٣) في الأصل وم: والتشبيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فيها. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٦٣. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) انظر معجم القراءات القرآنية ح٧/ ٢٦٣.

ثم الأصلُ أنَّ ما خَرَجَ مَخْرَجَ الأفعالِ مُضافاً إلى الأشياءِ اللاتي ليسَتْ لهنَّ أفعالٌ، فهو يقْتضي أمرَين:

أحَدُهما: ذِكْرُ الأفعالِ [التي][1] يقَعُ لَدَيها ممّا لو لم تكنْ تلكَ الأشياءُ لم تحدثْ تلكَ الأفعالُ[2] مِنْ غيرِ أنْ تكونَ عِلّةً لها، فَنُسِبَتْ إليها إذْ صارتْ شيئاً لِحدوثِ تلكَ الأفعالِ[3]، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠] والحياةُ الدنيا لا تَغُرُّ أحداً، ولكنهمُ اغترّوا بزينتِها، فَنُسِبَ إليها الغرورُ لِما كانَتْ سبباً لِتغريرِهِمْ.

والثاني: أنها أُنْشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانَتْ مِنْ أهلِ التغريرِ لكانَتْ تَغُرُّ، فَنُسِبَ إليها[4] الغرورُ لذلكَ.

وقالَ في قصةِ إبراهيمَ، صَلَواتُ اللهِ عليهِ وعلى نَبِيِّنا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] والأصنامُ ليسَتْ ممَّنْ يُنْسَبُ إليها الإضلالُ، لأنها[5] لا أفعالَ لها، ولكنَّ عُبّادَها لمّا ضَلّوا [بها][6] نُسِبَ الإضلالُ إليها، وهي أيضاً على صورةٍ، لو كانتْ لها أفعالٌ لكانَ يقعُ منها الإضلالُ: فَنُسِبَ إليها الإضلالُ للوجهَينِ اللَّذينِ ذَكَرْناهما.

فكذلكَ النِّذارةُ أُضيفتْ إلى النُّذُرِ ههنا لأنهُ عندَ ذِكْرِها تقعُ النِّذارةُ، فأضيفَتْ إليها كذلكَ، أو خَلَقَهُنَّ على هيئةٍ، لو كانَتْ مِنْ أهلِ النِّذارةِ لكانَتْ نذيرةً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيلَ: هو على التَّهديدِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وذلكَ إنما يكونُ على إثْرِ المُبالغةِ في العِظاتِ والتَّذكيرِ بِعَواقبِ الأمورِ / ٦١٣ ـ ب/ وقد بالغَ [في][7] ذلكَ في هذهِ السورةِ، وبَيَّنَ عَواقبَ أمورِ العبادِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ قيلَ: أنْ يَتَقَدَّمَ إلى طاعةِ اللهِ أو يَتَأخَّرَ عنها[8] إلى مَعْصيةِ اللهِ تعالى.

والأصلُ أنَّ المرءَ جُعِلَ على حبِّ [مَنافِعِ الخيراتِ لنفسِهِ][9] وعلى بُغْضِ الشَّرِّ والمَضارِّ. ومَنْ أحبَّ شيئاً طلبَهُ، ومَنْ أبغَضَ شيئاً اجْتنَبَهُ، وهَرَبَ منهُ. وإذا طلَبَ [شيئاً][10] تقَدَّمَ إليهِ، وإذا هَرَبَ مِنْ شيءٍ تأخَّرَ عنهُ، فَكَنّى عنِ الطَّلَبِ بالتَّقدُّمِ وعنِ الهَرَبِ بالتَّأخُّرِ.

فقيلَ في تأويلِ قولِهِ ﷻ: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى طاعةِ اللهِ [أي تُؤدّى إليهِ المَنافِعُ في الآخِرةِ، وتُجلَبُ][11] إليهِ المَحاسِنُ [﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عنْ طاعتِهِ][12] إذ في الإعراضِ عنْ طاعتِهِ إيقاعُ النفسِ في المَهالِكِ وأنواعِ الشرِّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [معناهُ أنْ يَتَقدَّمَ، أو يَتأخَّرَ][13] بِتخليقِ اللهِ تعالى فِعْلَ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ منهُ، فيكونَ فِعْلاً لهُ وكَسْباً لوجودِهِ في حَيِّزِ قدرتِهِ وخَلْقاً للهِ تعالى، فيكونَ مثلَ قولِنا: لا حجَّةَ علينا في إضافةِ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ إلينا، واللهُ الموفقُ.

الآيات ٣٨ ـ ٤٠ وقولُهُ تعالى: [﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾] ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصحابُ اليمينِ، همُ الذينَ وصَفَهُمُ اللهُ تعالى في مَوضعٍ آخَرَ، في كتابِهِ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩، والانشقاق: ٧] فاستَثْنى أصحابَ اليمينِ مِنْ جُملةِ المُرْتَهَنينَ لأنهُ ذَكَرَ الرُّهونَ بلفظٍ يُعَبِّرُ بها عنِ الجمعِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فاستقامَ اسْتِثْناءُ الجماعةِ مِنْ تلكَ الجُملةِ أي أصحابُ اليمينِ قد سَبَقَتْ منهمُ الأعمالُ التي يَسْتوجبونَ بها الإطلاقَ مِنَ الحبْسِ لأنَّ المُجْرِمينَ صاروا مَرْهونينَ بإجرامِهِمْ، وأصحابَ اليمينِ قدِ اكْتَسَبوا الخَيراتِ، وعَمِلوا الصالحاتِ. والأعمالُ الصالحةُ جَعَلَها اللهُ تعالى مُكَفِّرَةً للمساوِئِ والأجرامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

الآيتان ٤١ و٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ فظاهرُ هذا يُؤدّي إلى أنَّ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: الأحوال. (٣) في الأصل وم: الأحوال. (٤) في الأصل وم: إليه. (٥) في الأصل وم: لأنه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل: عنه، ساقطة من م. (٩) في الأصل وم: المنافع لنفسه الخيرات. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) و(١٣) من م، ساقطة من الأصل.

التّساؤلَ كانَ مِنْ أهلِ الجنةِ بعضِهِمْ بعضاً. وإذا صَدَرَ السؤالُ عنْ بعضِهِمْ بعضاً فحقُّهُ أنْ يُقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ لأنَّ أهلَ سَقَرَ لم يَسألوا، بَل سألَ عنهمْ غيرُهُمْ.

ألا تَرى أنهُ قالَ: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: يتساءلُ المُجْرِمونَ؟ فَثَبَتَ أنَّ الظاهرَ يَقتَضي أنْ يكونَ المُخاطَبونَ غيرَ المُجْرِمينَ. لذلكَ قلْنا: إنَّ حقَّ مثلِهِ أنْ يُقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ لكنهُ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿عَنِ﴾ زيادةً في الكلامِ، وحقُّهُ الحَذْفُ والإسقاطُ، وإذا حُذِفَ، ارْتَفَعَ الرَّيبُ والإشكالُ، كأنهُ قالَ: في جناتٍ يسألونَ المُجْرِمينَ، فيكونُ فيهِ تَثبيتٌ أنَّ أهلَ سَقَر، همُ الذينَ خوطبوا بالسؤالِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أهلُ الجنةِ، يَسْألُ بعضُهُمْ بعضاً عنْ مكانِ المُجْرِمينَ: أينَ مكانُهُمْ؟ وأينَ هم؟ فَيُطَّلَعونَ عليهِمْ، فَيَسْألونَهُمْ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟

الآيات ٤٢ ـ ٤٧ فيقولون إذْ ذاكَ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾][1].

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾؟ [الصافات: ٥٥] فَثَبَتَ أنهمْ يَطَّلِعونَ على أماكِنِهِمْ. فإذا رَأوهُمْ[2] سألوهُمْ عن ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾؟ فأجابوا بما أخْبَرَ اللهُ تعالى عنهمْ بقولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾][3].

والأصلُ أنَّ الأفعالَ التي يَتَعَلَّقُ جوازُها بالإيمانِ، إذا أُضيفَتْ إلى مَنْ ليسَ منْ أهلِ الإيمانِ أُريدَ بها القَبولُ، وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ أُريدَ بها أعيُنُ تلكَ الأفعالِ.

والذي يَدُلُّ على هذا، هو أنَّ الكافرَ يُسْلَكُ بهِ إلى سَقَرَ إذا كانَ مُكَذِّباً بيومِ الدينِ، وإنْ أقامَ الصلاةَ، وأطْعَمَ المسكينَ، لم يَنْفَعْهُ ذلكَ حتى يُوجَدَ منهُ الإيمانُ، فَثَبَتَ أنهُ لم يُرِدْ بِذِكْرِ هذهِ الأفعالِ إتيانُ أعيُنِها، وإنما أُريدَ بها القَبولُ والإقرارُ بها.

والذي يَدُلُّ على صحةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧] فَثَبَتَ أنهمْ جَحَدوا أنْ يكونَ عليهِمْ إطعامٌ، فَدَلَّ أنهُ أُريدَ بذكرِ الإقامةِ قَبولُها لا وُجودُ عَينِها، وعليهِمْ أنْ يَقبلوا إقامةَ الصلاةِ، ويُقِرّوا بإيتاءِ الزكاةِ.

وقد يجوزُ أنْ تُذْكَرَ إقامةُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ، ويُرادَ بهِ القَبولُ كقولِهِ[4] تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ولم يكنْ إيجادُ الإقامةِ وإيجادُ الإيتاءِ مِنْ شَرائطِ التَّخْلِيَةِ، بل كانَ معناهُ على القَبولِ. فإذا أقَرّوا بالصلاةِ، وقَبِلوا إقامَتَها، وأقَرّوا بالزكاةِ، لَزِمَتْ تَخْلِيَةُ سبيلِهِمْ، وإنْ لم يوجَدْ منهُمُ الفِعْلُ بعدُ.

فلذلكَ صَلَحَ حَمْلُ التأويلِ على القَبولِ، ولم يُحْمَلْ على وُجودِ حقيقةِ الفِعْلِ لِما ذَكَرْنا هذا إذا ثَبَتَ أنَّ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ مُنْصَرِفٌ إلى الصلاةِ المعروفةِ.

فكيفَ، وقد يجوزُ أنْ يكونَ أُريدَ بالمصلِّينَ المُوَحِّدونَ[5] ههنا لأنَّ أهلَ الصلاةِ، همُ المسلمونَ؟ يُقالُ: اجْمَعَ أهلُ الصلاةِ على هذا، ويُعْنَى بهِ المُسْلِمونَ.

ثم اللهُ ﷻ جَمَعَ في الذِّكْرِ بينَ التكذيبِ بيومِ الدينِ وبينَ تَرْكِ الصلاةِ والإطعامِ[6]، وهذا، واللهُ أعلَمُ، يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الذي يُقِرُّ بالصلاةِ والإطعامِ وإيتاءِ الزكاةِ، هو الذي يُقِرُّ بيومِ [الدينِ][7] لأنَّ المَرْءَ إنما يَرْغَبُ في فِعْلِ هذهِ الأشياءِ لِما يَطْمَعُ مِنَ المَنافِعِ في العَواقِبِ، ويَتَّقي تَرْكَها[8] مَخافَةَ التَّبِعَةِ في العواقِبِ.

(١) في الأصل وم: إلى آخر الآية. (٢) في الأصل وم: رأوا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال الله. (٥) في الأصل: الموحدين، ساقطة من م. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: بتركها.

فإذا لم يُقِرَّ بيومِ [الدينِ][١] لم يَرْجُ المَنافعَ، ولا خافَ المَضارَّ، فيحمِلُهُ ذلكَ على تَرْكِ الإطعامِ وتَضييعِ الصلاةِ وعلى تَرْكِ إيتاءِ الزكاةِ وعلى جَحْدِها كلِّها وعَدَمِ قَبولِها، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣] لِعَدَمِ رجاءِ العَواقبِ. فإذا لم يَرَ لِفِعْلِهِ عاقبةً لم يَقُمْ بالإنْتِصارِ لليَتيمِ، ولا قامَ بإحسانٍ [إلى][٢] المسكينِ، بل تَكْذيبُهُ بيَومِ الدينِ يَحْمِلُهُ على الجَورِ على اليتيمِ وتَرْكِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وتَرْكِ الإطعامِ.

[والثاني][٣]: أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على التكذيبِ بيَومِ الدينِ هذهِ الوظائفَ التي وُضِعَتْ عليهِمْ بالإسلامِ لأنهمْ إذا آمَنوا بيومِ الدينِ لَزِمَهُمْ تَحَمُّلُ هذهِ الأحمالِ مِنْ إقامةِ الأفعالِ: إقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وإطعامِ المساكينِ وصِيامِ شهرِ رَمَضانَ وغَيرِ ذلكَ مِنَ العباداتِ، فاشْتَدَّ عليهِمْ، فَتَركوا الإيمانَ بها لئلّا يَلْزَمَهُمْ تَحَمُّلُ هذهِ الأفعالِ التي حملَها أهلُ الإيمانِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ فالخائضُ هو الذي يَخوضُ في الباطلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي حتى أيقَنّا أنّا كُنّا على باطلٍ في ما كُنّا نَخوضُ فيهِ.

الآية ٤٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ مَعْناهُ: أنْ لا شَفيعَ لهمْ.

والأصلُ أنَّ الشَّفاعةَ إذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الكُفرِ، فَقيلَ: ليسَ لهمْ شُفَعاءُ، أولا تَنْفَعُهُمْ شَفاعةُ الشافعينَ، اقْتَضى نَفْيَ الشَّفاعةِ، أي لا شَفيعَ لهمْ.

وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ اقْتَضى ثُبوتَ[٤] الإنْتِفاعِ بِشَفاعةِ الشُّفعاءِ، ولم يَقْتَضِ نَفْيَ الشّفاعةِ كما ذَكَرْنا أنَّ الأفعالَ التي يكونُ قِوامُها بالإيمانِ، إذا أُضيفَتْ إلى الكفارِ، فهي تَقْتَضي نَفْيَ القَبولِ، وإذا أُضيفَتْ إلى أهلِ الإيمانِ، فهي تَقْتَضي ثبوتَ[٥] الفِعْلِ.

وقولُنا بأنهُ إذا قيلَ: لا شَفيعَ لهُ، وأُريدَ بهِ أهلُ الإسلامِ، فهو يَقْتَضي ثُبوتَ[٦] الشفاعةِ، فذلكَ يَنْصَرِفُ عندَنا إلى أهلِ الاعْتِزالِ والخوارجِ لأنّا نَرَى أصحابَ الكبائرِ مِنْ أهلِ الإسلامِ مُسْتَوجِبينَ / ٦١٤ ـ أ/ للشفاعةِ، وهمْ يقولونَ: لا يجوزُ في حكْمِ اللهِ تعالى أنْ يَعْفُوَ عنْ أصحابِ الكبائرِ، بل يُخَلِّدُهُمْ في النارِ، لأنَّ اللهَ تعالى أوعَدَ النارَ لِمَنِ ارْتَكَبَ الكبائرَ أنهمْ يُخَلَّدونَ فيها، فلا يجوزُ أنْ يَقَعَ في وَعْدِهِ خُلْفٌ، ويَتَحَقَّقَ في خَبَرِهِ كَذِبٌ. ولوِ اسْتَوجَبَ الشفاعةَ، ونالوا بها المَغْفرةَ مِنْ ربِّ العِزَّةِ لصارَ في ما وَعَدَ مُخْلِفاً وفي ما أخْبَرَ كَذوباً.

فَمِثْلُ هؤلاءِ إذا ارْتَكبوا الكبائرَ لا يُرْجَى لهمُ الخَلاصُ بالشفاعةِ أبداً، بل يُحْكَمُ عليهِمْ بالخُلودِ في النارِ، فَيَرْتَفِعُ ما يُثْبِتُ الكَذِبَ، ويَنْتَفي ما يوجِبُ خُلْفَ وَعْدٍ. ولأنهمْ لمّا اعْتَقَدوا التَّخليدَ في النارِ لِمَنِ ارْتَكَبَ الكبائرَ وَجَبَ أنْ يكونَ نفيُهُمُ الشفاعةَ بِزَعْمِهِمْ على ذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩و٣٠] فلا يجوزُ [أنْ يَحُلَّ][٧] عليهِمُ العذابُ، ثم لا يَنالَهُمُ العذابُ إذا بُعِثوا.

ثم احْتَجَّ فريقٌ منهمْ بِنَفْيِ الشفاعةِ في الآخِرةِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وبقولِهِ: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وبقولِهِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وزَعَموا أنَّ شَفيعَ كلِّ امْرِئٍ منهمْ عَمَلُهُ يومئذٍ؛ فَمَنْ حَسُنَ عملُهُ يُجْزَ بهِ، ومَنْ ساءَ عملُهُ حقَّ عليهِ العذابُ، ولم يكنْ لهُ شافعٌ.

ولو وَجَبَ نَفْيُ الشفاعةِ بما ذُكِرَ مِنْ هذهِ الآياتِ الظاهرِ لَوَجَبَ تَحْقيقُها بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: نفي. (٥) في الأصل وم: نفي. (٦) في الأصل وم: نفي. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وبقولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩] إذْ في هاتينِ الآيتينِ أنَّ اللهَ تعالى قد يأذَنُ بالشفاعةِ يومئذٍ للبعضِ، فثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرْتُمْ مِنْ نَفْيِ الشفاعةِ لم يَقْتَضِ نَفْياً على الإطلاقِ، بلِ النَّفْيُ انْصَرَفَ إلى بعضِ الخَلائقِ، ووجَبَ قَبولُ ثبوتِها لبعضِهِمْ.

ثم جاءتِ الأخبارُ مُفَسِّرَةً على إيجابِ القبولِ بالشفاعةِ لأهلِ الكبائرِ، فَثَبَتَ أنَّ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وقولِهِ: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] مُنْصَرِفٌ إلى أهلِ الكفرِ، وبهِ نقولُ.

ومِنَ المعتزلةِ مَنْ يُحَقِّقُ الشفاعة، ولكنهُ يراها للذينَ يَسْتَوجِبونَ اسْتِغْفارَ الملائكةِ في الدنيا، وهمُ الذينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تعالى في كتابِهِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

وأمّا أصحابُ الكَبائرِ فإنهمْ لا تنالُهُمْ شفاعةُ أحدٍ، بل يُخَلَّدونَ في النارِ.

فَيُقالُ لهمْ: فأيُّ مَنْفَعةٍ تَحْصُلُ للذينَ تابوا، واتَّبعوا سبيلَهُ في الشفاعةِ، وهمْ قدِ اسْتَوجَبوا الخَلاصَ بِتَوبَتِهِمْ واتِّباعِهِمْ سَبيلَ الرشادِ.

فإنْ قالوا: مَنْفَعَتُهُمْ بها أنهمْ[1] لِعِظَمِ قَدْرِهِمْ عندَ اللهِ يَسْتَوجِبونَ بها الدّرجاتِ كما تَرَى المَرْءَ في الشاهدِ يَذْكُرُ أخاهُ عندَ الملوكِ بِحُسْنِ السيرةِ، ويَذْكُرُهُ بما فيهِ مِنَ المَناقبِ الجميلةِ والمَحاسِنِ، ويَبْتَغي بذلكَ إعلاءَ مَنْزِلَتِهِ وإعظامَ قَدْرِهِ عندَهُمْ لِيُعَظِّموهُ، ويُبَجِّلوهُ.

فكذلكَ الشفعاءُ في الآخرةِ يُثْنونَ عندَ اللهِ تعالى على أوليائِهِ خَيراً لِيَزيدَ في دَرجاتِهِمْ، وتَعْظُمَ مَنْزِلَتُهُمْ عندَ اللهِ تعالى.

والجوابُ أنَّ هذهِ الزيادةَ في الدَّرجاتِ ليسَتْ إلّا إلى الوصولِ إلى فُضولِ الشَّهَواتِ، وفُضولُ الشَّهَواتِ والزيادةُ في اللَّذّاتِ لا تُذْكَرُ في المَنافعِ؛ إذْ لا حاجةَ لهمْ إلى ما هو في حقِّ الفُضولِ مِنَ الشَّهَواتِ، فيكونُ في مِثالِها وَقْعُ الحاجةِ والوصولُ إلى المَنْفَعَةِ.

ومعلومٌ بأنهمْ إنما أُطْمِعوا في الشفاعةِ، وإنما تَحْصُلُ لهمْ بها المَنْفَعَةُ، إذا وقَعَتْ إليها الحاجةُ.

وأهلُ الكبائرِ هُمُ الذينَ تَمَسُّهُمُ الحاجةُ إليها. فأمّا الذينَ تابوا، وأنابوا، فقدِ اسْتَغْنَوا عنِ الشَّفاعةِ. لِذلكَ وَجَبَ القولُ بِتَحقيقِ الشَّفاعةِ في أهلِ الكبائرِ.

وأمّا اسْتِدْلالُهُمْ بما ذَكَروا مِنْ أمرِ الشُّهودِ فليسَ بِمُحْكَمٍ مِنَ القولِ لأنَّ المرءَ إنما يَذْكُرُ أخاهُ بالجميلِ، ويُظْهِرُ ما اشْتَمَلَ عليهِ مِنْ خِلالِ الخَيرِ لِجَهْلِ الملوكِ بحالِهِ في ما هو عليهِ مِنْ جَميلِ الخِصالِ ومَحْمودِ الفِعالِ.

ألا تَرَى أنَّ المَلِكَ إذا كانَ عالماً بِحالِهِ لم يُقَدِّمِ الإنسانَ على الثَّناءِ[2] الجميلِ منهُ؟ فَثَبَتَ أنَّ الذي يَحوجُهُ إلى الثناءِ عليهِ عندَ الملوكِ جَهْلٌ بحالِهِ. ولا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَخْفَى عليهِ حالُ أحدٍ وما هو عليهِ مِنْ ظواهِرِ[3] أمورِهِ وبواطِنِها حتى يَحتاجَ إلى مُعَرِّفٍ يُعَرِّفُهُ.

فَبَطَلَ أنْ تكونَ الشفاعةُ للوجهِ الذي ذكروهُ[4]، وثَبَتَ أنها للوجهِ الذي ذَكَرْناهُ[5].

ثم العَفْوُ والصفحُ عنْ إحلالِ العقوبةِ بِمَنْ هَمُّوا أنْ يُعاقِبوهُ بِجريمةٍ سَبَقَتْ منهمْ، ثم الشفاعةُ في ما بَينَ الخَلْقِ أمرٌ معهودٌ، إنما تكونُ عندَ زَلّاتٍ تَسْتَوجِبُ بها العقوبةَ والمَقْتَ، فَيُعْفَى عنْ مُرْتَكِبِها بِشَفاعةِ الأخيارِ وأهلِ الرِّضا. فلا يُنْكَرُ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَعْفو عَمَّنِ اسْتَوجَبَ العقابَ بِشفاعةِ الأخيارِ وأهلِ الرِّضا والأبرارِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآية ٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: مالهمْ مُعْرِضينَ عنْ ذِكْرِ ما لهمْ وعليهمْ وعمّا إليهِ مآبُهُمْ ومُتَقَلَّبُهُمْ؟ وذلكَ يكونُ في الرسولِ وفي القرآنِ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَذْكُرُ للمرءِ مالَهُ وعليهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: أنه. (٢) في الأصل وم: البشر. (٣) في الأصل وم: الظواهر. (٤) في الأصل وم: ذكروها. (٥) في الأصل وم: ذكرناها.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ: فمالهمْ عمَّا بهِ يَشْرُفُ قَدْرُهُمْ، ويَصيرونَ بهِ مَذْكورينَ في المَلإِ الأعلى مُعْرِضينَ؟ وذلكَ يكونُ في طاعتِهِ والإقبالِ على عبادتِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] مَعْناهُ أنكمْ تَصيرونَ بهِ مذكورينَ، ويَعْظُمُ قدرُكُمْ لوِ اتَّبَعْتُموهُ، ولم تُضَيِّعوا حُرْمَتَهُ.

الآيتان ٥٠ و٥١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ بِنَصْبِ[1] الفاءِ وخَفْضِهِ. ومَنْ قَرَأَ بِخَفْضِ الفاءِ صَرَفَ الفِعلَ إليها، كأنهُ يقولُ: حُمُرٌ نافرةٌ [ونَفَرَ][2] واسْتَنْفَرَ واحدٌ كما يُقالُ: اسْتَرْقَدَ القومُ أي رَقَدوا.

ومَنْ قَرَأَ بِنَصْبِ الفاءِ فَتأويلُهُ أنهُ فُعِلَ بها ما يَحْمِلُها على النِّفارِ، وذلكَ يكونُ بالرَّامي وبالقانِصِ، مِنَ الأُسْدِ كما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ في تأويلِ القَسْوَرَةِ، هي الأُسْدُ والرُّماةُ أو الصَّيَّادونَ، ويُقالُ: هي النُّفْرَةُ، وكانَ هذا تَشْبيهاً بالحُمُرِ الوحشيَّةِ التي في طَبْعِها النِّفارُ. وَوَجْهُ التقريبِ، هو أنَّ هؤلاءِ أعْرَضوا عمّا في الإقبالِ عليهِ نَجاتُهُمْ وتَخَلُّصُهُمْ مِنَ العَطَبِ، ونَفَروا كَنِفارِ الحُمُرِ المُسْتَنْفَرَةِ مِنَ العَطَبِ والهلاكِ.

وفي هذهِ الآيةِ تَبيينُ شِدَّةِ سَفَهِهِمْ وغايةِ جَهْلِهِمْ، لأنَّ الحُمُرَ تَنْفُرُ مِنَ القانِصِ والرامي والأُسْدِ لِتَسْلَمَ مِنَ الهلاكِ والعَطَبِ، وهؤلاءِ الكَفَرَةُ نَفَروا عمَّا فيهِ نَجاتُهُمْ إلى ما فيهِ هلاكُهُمْ وعَطَبُهُمْ، فهمْ أشَرُّ مِنَ الحميرِ وأضَلُّ.

الآية ٥٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: إنَّ المشركينَ قالوا: يا محمدُ بلَغَنا أنَّ الرجلَ في بَني إسرائيلَ كانَ إذا أذْنَبَ ذَنباً، فأصبَحَ، وَجَدَ صحيفةً على بابِ دارِهِ أو مكتوباً عندَ رأسِهِ: أنكَ أذنبْتَ كذا، وزادَ بعضُهُمْ: أنكَ أذْنَبْتَ كذا، وتوبَتُكَ كذا، وسألوا النبيَّ ﷺ أنْ يَجْعَلَهُمْ كذلكَ، فأخبَرَ اللهُ تعالى كذلكَ عنهمْ.

الآية ٥٣ ثم آيَسَهُمْ منْ ذلكَ، وقالَ: ﴿كَلَّا﴾ أي لا تَنالونَ ما تَأْمُلونَ.

وقالَ قتادةُ: قالوا: يا محمدُ إنْ سَرَّكَ أنْ نَتَّبِعَكَ فَأْتِ كلَّ واحدٍ منا بصحيفةٍ خاصةٍ: إلى فلانِ ابنِ فلانٍ، تأمُرُنا فيها باتِّباعِكَ.

وقيلَ: سألوا أنْ يُؤْتَوا ببراءةِ عملٍ، ولكنْ لا يجبُ قَطْعُ الأمرِ على واحدٍ / ٦١٤ ـ ب/ مِنْ هذهِ التأويلاتِ؛ بل يُقالُ بها على جهةِ الإمكانِ والاحْتِمالِ لأنَّ هؤلاءِ المُفَسِّرينَ لم يُشاهِدوا أولئكَ القومَ الذينَ صَدَرَتْ منهمْ هذهِ الإرادةُ لِيُجْزوهُمْ ماذا أرادوا بهِ حتى يثبُتَ ما ذَكَروا مِنَ القِصَصِ والأخبارِ، ولا تواتَرَتِ الأخبارُ عنْ ذي الحُجَّةِ النَّبيِّ ﷺ أنهمْ سألوهُ ذلكَ. لِذلكَ لم يَسْتَقِمْ قَطْعُ الأمرِ على ما ذَكَروا.

وجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ الإرادةُ تَحَقَّقَتْ في بعضِ الكَفَرَةِ، وهمُ الرؤساءُ منهمْ والأكابرُ، لا أنْ أرادَ كلٌّ في ذاتِ نفسِهِ أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً. والإرادةُ ههنا عبارةٌ عنِ الطلبِ.

ثم طَلَبُهُمْ ما ذَكَرَ يَتَوَجَّهُ إلى [وجهَينِ:

أحَدُهما][3]: أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ مِنْ عُظَمائِهِمْ ودَّ أنْ يكونَ، هو المخصوصُ بإنزالِ الكتابِ عليهِ كما قالَ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] فيكونَ في هذا إظهارُ اسْتِكْبارِهِمْ على رسولِ اللهِ ﷺ على جهةِ التَّعَنُّتِ والعِنادِ، فيصيرَ[4] ذلكَ آيةً لهمْ على تحقيقِ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ كما قالَ اللهُ تعالى حكايةً عنهمْ: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

ففي هذهِ الآيةِ إبانةُ أنهمْ كانوا يطلبونَ إنزالَ الكتابِ عليهمْ لِيَتَقَرَّرَ لديهمْ رسالةُ نَبيِّنا محمدٍ ﷺ وكانَ ذلكَ على التَّعَنُّتِ والعِنادِ. وإلّا لو تَفَكَّروا في حالِهِ أدّاهُمْ ذلكَ إلى العلمِ برسالتِهِ منْ غيرِ أنْ يَحتاجوا إلى تَثبيتِ رسالتِهِ بكتابٍ، يُنَزِّلُ عليهمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٧/ ٢٦٥. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: أوجه ثلاثة أحدها. (٤) في الأصل وم: ليصير.

[والثاني][1]: أنْ يكونوا رَأوا أكابرَهُمْ أحقَّ بالرسالةِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ وأولَى بإنزالِ الكتابِ عليهِمْ لِما رَأوهُمْ أفضَلَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقولِهِ[2] في آيةٍ أُخرَى: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾؟ [ص: ٨] فأرادوا أنْ يُؤتَوا صُحُفاً مُنَشَّرَةً لهذا المَعْنَى، إذْ هُمْ أولَى أنْ يُخَصّوا بهذِهِ الفضيلةِ.

وإنما ذَكَرْنا هذِهِ التأويلاتِ في هذهِ الآيةِ لأنَّ هذِهِ المعانيَ التي ذَكَرْناها قد ظَهَرَت منهمْ بِمَتْلُوِّ القرآنِ، والتأويلاتِ التي ذَكَرَها أهلُ التفسيرِ لا يَتَهَيَّأُ تثبيتُها مِنْ جهةِ الكتابِ ولا مِنْ جهةِ الأخبارِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فصارتْ هذِهِ التأويلاتُ أمكَنَ وأملَكَ بالآيةِ مِنْ غيرِها، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ إنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الطلَبِ بأنْ يُؤتَى كلٌّ منهمْ صُحُفاً مُنَشَّرَةً إعراضُهُمْ عنِ الإيمانِ بالآخِرَةِ، وإلّا لو آمَنوا بها لكانَ إيمانُهُمْ بها يَحْمِلُهُمْ على تَرْكِ العِنادِ والتَّعَنُّتِ وعلى تَرْكِ الجَورِ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَدْعوهُمْ إلى الإذعانِ للحقِّ.

الآيتان ٥٤ و٥٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ سيَذْكُرُ مَعْناهُ[3] في سورةِ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾][4] [بقولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [الآيتان: ٥٤و٥٥]][5].

الآية ٥٦ وسيَذْكُرُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في سورةِ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [بقولِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: ٢٩]][6].

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ فأهلُ التأويلِ صَرَفوا قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ إلى اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى البَشَرِ.

فإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ البَشَرَ فيكونُ مَعْنَى قولِهِ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ أي الذي يقومُ بالذِّكْرِ؛ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؟ [الفتح: ٢٦] فجَعَلَ الذينَ أَلْزَمَهُمْ كلمةَ التَّقْوَى مِنْ أهلِ التَّقْوَى.

وإنْ كانَ المرادُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ هو[7] اللهُ ﷻ فتأويلُهُ: [أنهُ أهلُ تُقَى][8] الزَّلَةِ والعَثْرَةِ في حقوقِهِ تعالى.

والوجهُ فيهِ أنَّ المرءَ في الشاهدِ إنما يَتَّقي الزَّلَّةَ والعَثْرَةَ إلى آخَرَ لإحدَى خِصالٍ ثلاثٍ:

إحداها: لِما يَرَى مِنِ افْتِقارِهِ وحاجَتِهِ إليهِ يَتَّقي[9] العَثْرَةَ تَبْجيلاً وتَعْظيماً.

[والثانيةُ][10]: لِما يَرَى مِنْ قدرتِهِ وسلطانِهِ على الانْتِقامِ منهُ [يَتَّقي زَلَّتَهُ][11].

[والثالثةُ][12]: لِكَثْرَةِ نِعَمِهِ وأياديهِ [يَتَّقي زَلَّتَهُ][13] اسْتِحْياءً منهُ.

وإذا كانتْ هذِهِ الأشياءُ، هي الداعيةُ إلى الاتِّقاءِ، والخلائقُ بأجمعِهِمْ مُفْتَقِرونَ ومُحتاجونَ إلى اللهِ تعالى، ولهُ القُدْرَةُ والسلطانُ عليهِمْ، وهو المُنْعِمُ على كلِّ أحدٍ، فهو أهلٌ أنْ يُعَظَّمَ، ويُوَقَّرَ، وأنْ تُخافَ نِقْمَتُهُ، ويُسْتَحْيَى منهُ. ومَنِ اتُّقِيَ صارَ أهلاً لأنْ يَغْفِرَ.

---

(١) في الأصل وم: وجائز. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في نسخة الحرم المكي: معنى هذه الآية. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أي. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أهل أن يتقى. (٩) في الأصل وم: فيتقي. (١٠) في الأصل وم: ويتقي زلته ذلك. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: أو يتقي زلته. (١٣) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أن يكونَ مَعْنَى قولِهِ ﷻ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي هو أهلٌ بأنْ يُسْألَ عمّا[1] يُتَّقَى منَ النارِ لِقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ[3]: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

ثم عَلَّمنا وجهَ الاتِّقاءِ بقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فبَيَّنَ أنَّ الاتِّقاءَ أنْ يَفْزَعَ [المرءُ][4] إلى اللهِ تعالى، ويَتَضرَّعَ إليهِ، لِيَقِيَهُ[5] بفضلِهِ ورحمتِهِ، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

فأمَرَنا، جَلَّ جلالُهُ، بالناصِبَةِ معَ الشيطانِ للمحاربةِ، وأخبَرَ أنَّ محارَبَتَهُ أنْ نَفْزَعَ إلى اللهِ تعالى بالاستِعاذَةِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]. وقولِهِ[6] تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الآية [المؤمنون: ٩٧].

فهو أهلٌ أنْ يُطْلَبَ منهُ ما يَقِي بهِ، وأهلٌ أنْ يُستعاذَ بهِ لِدَفعِ كَيدِ العَدُوِّ ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي أهلٌ أنْ يُطْلَبَ منهُ المَغْفِرَةُ. جَعَلَنا اللهُ تعالى منْ أهلِ التَّقْوَى والذينَ مَنَّ عليهِمْ بالمَغْفِرَةِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي هو أهلٌ أنْ يُتَّقَى منهُ، وأهلٌ أنْ يَغْفِرَ لِمَنِ اتَّقاهُ. واللهُ المُسْتَعانُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][7].

---

(١) في الأصل وم: عنه ما. (٢) في الأصل وم: بقوله. (٣) في الأصل وم: ويقوله. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ليقي.
(٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في م: والله أعلم.

سورة [القيامة

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ.

فمنهمْ مَنْ قالَ[2]: أقْسَمَ اللهُ تعالى بيومِ القيامةِ، ولم يُقْسِمْ بالنفسِ اللَّوّامةِ، وذكَرَ ذلكَ عنِ الحَسَنِ، ويكونُ معناهُ: لَأُقْسِمُ بيومِ القِيامةِ، ولا أُقْسِمُ بالنفسِ اللَّوّامةِ.

لكنْ ذُكِرَ عنهُ أنهُ يقولُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١ و٢ و٣]: إنَّ القسَمَ يَقَعُ على البلدِ والوالدِ، وهو آدمُ ﷺ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ على جُملةِ أولادِهِ.

فإذا كانَ القَسَمُ جائزاً بالوالدِ والمَولودِ جميعاً كانتِ النفسُ / ٦١٥ ـ أ/ اللَّوّامةُ داخلةً في جملةِ [الوالدِ والمولودِ][3] وقد أقسمَ بالنفسِ اللَّوّامةِ عندَهُ، فلا مَعْنَى لِلرّدِّ[4] ههنا.

ثم موقعُ ﴿لَآ﴾ في قولَهُ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ تأويلُهُ يُذْكَرُ في قولِهِ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ في سورةٍ، يَذْكُرُ [فيها البلدَ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ][5] أنَّ القَسَمَ وَقَعَ بها جميعاً، وللهِ تعالى أنْ يُقْسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

ثم صَرَفَ بعضُ أهلِ التأويلِ مَعْنَى القَسَمِ إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [الآية: ٣] وجَعَلَهُ مَوضعَ القَسَمِ.

فإنْ كانَ على هذا، فالإشكالُ عليهِ أنْ يقولَ قائلٌ: كيفَ أكّدَ أمرَ البعثِ وجَمْعَ العظامِ بالقَسَمِ بيومِ القيامةِ، وقد جَرَى منَ القولِ الذي احْتَجَّ عليهِمْ بهذهِ الآيةِ الإنكارُ بيومِ القيامةِ، فكأنهُ أكّدَ القَسَمَ بشيءٍ جَرَى بهِ الإنكارُ؟

والجوابُ عن هذا مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ القسمُ مُنْصرِفاً إلى الحكمةِ التي توجبُ القولَ بالبَعْثِ؛ إذْ قد بَيّنّا في غيرِ موضعٍ أنهُ بالبعثِ ما خَرَجَ خَلْقُ هذا العالَمِ مَخْرَجَ الحكمةِ، ولولا البَعْثُ لكانَ خَلْقُهُ عَبَثاً باطلاً كقولِهِ ﷻ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] كأنهُ قالَ: لا أُقْسِمُ بحكمتِهِ الداعيةِ إلى كونِ القِيامةِ كذا أنْ يكونَ كذا.

[والثاني][6]: جائزٌ أنْ يكونَ القسمُ في الحقيقةِ بالدلائلِ والبراهينِ التي مَنْ تَفَكّرَ، وأمْعَنَ النَّظَرَ فيها حَمَلَهُ ذلكَ على القولِ بالبَعْثِ.

وإذا كانَ مُحْتَمَلاً صَحَّ القَسَمُ بيومِ القيامةِ وبالنفسِ اللَّوّامةِ، لأنَّ التّفَكُّرَ بالنفسِ اللَّوّامةِ والإعتِبارِ بها يَدْعو إلى القولِ بالبَعْثِ.

ثم العادةُ جَرَتْ على القَسَمِ بالأشياءِ التي عَظُمَ خَطَرُها، وجَلَّ قَدْرُها في القلوبِ، وجَلالةُ خَطَرِها تكونُ بأحدِ وجهَينِ: إمّا بما كَثُرَتْ منافِعُها، فيكونُ خَطَرُها مُشاهَداً معروفاً [وإمّا][7] بِعِظَمِ خَطَرِها بالدلائلِ والأخبارِ.

---

(١) من م، في الأصل: يذكر فيها القيامة. (٢) في الأصل وم: ذكر. (٣) في الأصل وم: المولود. (٤) في الأصل وم: بالرد. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: أو.

فالسمواتُ والأرضونَ قد عَرَفَ الخَلْقُ جَلالةَ أقدارِها بالعِيانِ بِما كَثُرَتْ منافعُ الخَلْقِ بها، وعِظَمُ يومِ القيامةِ بِما جَلَّ خَطَرُهُ في القلوبِ، وثَبَتَ القولُ بكونِهِ بالدلالاتِ والبراهينِ.

ثم قد وَصَفْنا أنَّ الله تعالى أقسمَ بأشياءَ لتأكيدِ ما يُعرَفُ بيانُهُ، ويَجبُ القولُ بِهِ، لولا القسمُ لَما[1] أُمعِنَ النظرُ فيهِ، فأُعمِلَتْ فيهِ الرَّويَّةُ. لذلكَ استقامَ القَسَمُ، واللهُ أعلَمُ.

واختُلِفَ في النفسِ اللَّوّامةِ: قالَ بعضُهُمْ: النفسُ اللَّوّامةُ، هي النفسُ الكافرةُ، تلومُ ربَّها في تَضييقِ العيشِ عليها، وتَشْكو ربَّها [مِنَ الفقرِ][2] والإقتارِ عليها معَ كَثْرةِ نِعَمِهِ عليها وإحسانِهِ إليها.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى كلِّ نفسٍ مؤمنةٍ كانتْ أو كافرةً؛ فهي تلومُ غَيرَها لِتَعاطيها أشياءَ قد تعاطَتْ نفسُها مثلَها، وامْتُحِنَتْ بها. والحقُّ على كلِّ أحدٍ ألّا يلومَ أخاهُ بما تَعاطَى فِعْلاً، أتى هو ذلكَ الفعلَ عينَهُ أو مثلَهُ[3]. أنشئتْ كذلكَ اللَّوّامةُ كما قالَ اللهُ ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ و٢٠].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا يكونُ في الآخرةِ، والكافرُ إذا أيقَنَ بالعذابِ وما حلَّ بِهِ مِنْ نِقمةِ اللهِ تعالى والذَّمِّ[4] على ما فَرَّطَ في جَنْبِ اللهِ، أدرَكَتْهُ[5] الحسرةُ، فعندَ ذلكَ يلومُ نفسَهُ.

والمؤمنُ إذا عايَنَ الثوابَ يلومُ نفسَهُ لِمَا أمسَكَ عنِ المعصيةِ، وتابَ، وأطالَ المُقامَ في المحرابِ، وأبصرَ بالعاملينَ بالطاعةِ حسنَ المآبِ، يلومُ[6] نفسَهُ بما شَذَّ منهُ، وغابَ، عندَ كمالِ القوةِ وعُنْفُوانِ الشبابِ، ويقولُ[7]: كيفَ لم أزدَدْ في العملِ لِأزدادَ في الثوابِ؟

ومنهمْ مَنْ خَصَّ الكافرَ في الآخرةِ باللومِ على نفسِهِ، وهذا أظهرُ لأنَّ المسلمَ إذا أُكرِمَ بالثوابِ فشكرُهُ لذلكَ يَشغَلُهُ عنِ اللومِ على نفسِهِ، فلا يَتَفَرَّغُ لهُ، ولأنَّ اللهَ تعالى يُضاعِفُ لهُ مِنَ الحسناتِ، ويُعطيهِ مِنَ الدرجاتِ زيادةً على ما اسْتَوجَبَهُ بعملِهِ فضلاً وإنعاماً. فكيفَ يلومُ نفسَهُ بتقصيرِها في العملِ، وهو يعلمُ أنَّ ما وَصَلَ إليهِ مِنَ الكراماتِ لم يَنَلْ جملَتَها بعملِهِ بل بِفَضلِ اللهِ تعالى وبكرمِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فقولُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وإنْ خرجَ مَخْرَجَ الاسْتِفهامِ في الظاهرِ فليسَ هو بِاسْتِفْهامٍ، ولكنهُ تحقيقُ حُسبانٍ مِنَ الإنسانِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ حَمْلُهُ على الحُسْبانِ، هو أنَّ القُدْرةَ لا تنتهي إلى هذا في أنْ يجمعَ العظامَ، ويُؤلِّفَها[8] بعدَ تَفَتُّتِها وتَلاشِيها، فيدفعُ حُسْبانَهُ هذا بقولِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فَمَنْ تفكَّرَ في النشأةِ الأولى عَلِمَ أنَّ القُدْرةَ تنتهي إلى جمعِ العظامِ بعدَ أنْ صارتْ رميماً، وأنَّ الذي قَدَرَ على إنشائِها قادرٌ على جمعِها بعدَ تفريقِها.

وجائزٌ أنْ يكونَ حَسِبَ أنَّ العظامَ لا تُجْمَعُ بعدَ تفريقِها لأنها لو جُمِعَتْ بعدَ التفريقِ لم تَكُنْ تُعرَفُ بعدَ أنْ وُجِدَتْ مجموعةً. ألا تَرى أنَّ المَرْءَ في الشاهدِ لا يَقْصِدُ إلى نَقْضِ ما بَنَى لِيُعيدَهُ مرةً أُخرى إلى الجهةِ المتقدِّمةِ، ومَنْ فَعَلَ ذلكَ [كانَ][9] عابثاً في هدمِهِ، ولم يكنْ حكيماً؟

فإذا كانَ هذا المعنى هو الذي حملَهُ على الحُسْبانِ فجوابُهُ أنْ يقالَ: إنَّ الجَمْعَ الأوَّلَ وقعَ لمكانِ المِحْنَةِ والابْتِلاءِ، والجمعَ بعدَ التفريقِ لمكانِ الجزاءِ. فإنْ كانَ الجمعُ الثاني لِغَيرِ الوجهِ الذي وقَعَ الجمعُ في الابْتِداءِ كانَ صحيحاً مستقيماً، وإنما يَخْرُجُ عنْ حدِّ الحكمةِ إذا لم تكنِ الإعادةُ إلّا للوجهِ الذي وقعَ الابْتِداءُ.

ألا تَرى أنَّ الذي نَقَضَ بناءَهُ إذا أعادَهُ لا للوجهِ الذي كانَ بَنَى أولَ مرةٍ لم يُنْكَرْ عليهِ؟

وفي ما ذَكَرْنا ردُّ قولِ الباطنيَّةِ لأنهمْ زَعموا أنَّ هذهِ الأنفسَ تَتَلاشَى، وتَتْلَفُ، فلا تُبْعَثُ، وأنَّ البعثَ يقعُ على النفسِ

---

(١) في الأصل وم: لو. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: مثلها. (٤) في الأصل وم: يلم. (٥) في الأصل وم: وأدركته.
(٦) في الأصل وم: والعاصين. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: ويؤلف. (٩) ساقطة من الأصل وم.

الرُّوحانيَّةِ. ولو كانَ كما زَعَموا لم يكُنْ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ مَعْنىً، لأنَّ العظامَ لا تُجْمَعُ على قولِهِمْ بعدَ ما صارَتْ رميمةً، فيكونُ الأمرُ إذنْ على ما وَقَعَ في حُسْبانِ هذا[1] الإنسانِ. فلا مَعنَى للرَّدِّ عليهِ بقولِهِ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [الآية: ٤].

ألَا تَرَى أنَّ الذي حَمَلَهُ على الإنكارِ لجمعِ العظامِ بعدَ تفريقِها هو أنهُ لم يَرَ هذا موجوداً في الشاهدِ؟

ولو كانَ الأمرُ على ما زَعَمَتِ الباطنيةُ لكانَ الإنكارُ مدفوعاً؛ إذْ وجدَ النفسَ الرُّوحانيَّةَ مَبعوثةً في الشاهدِ بعدَ تَوَفِّيها، وقالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] فأخبرَ أنَّ الأنفسَ التي أُنْشِئَتْ أوَّلَ مَرَّةٍ هي التي تَحْيَى لا غَيرُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [اخْتُلِفَ فيهِ][2]:

فمنهمْ منْ حَمَلَ هذهِ الآيةَ على الاِبْتِداءِ، وزَعَمَ أنهُ ليسَ فيهِ جوابٌ لِما يَقْتَضيهِ قولُهُ ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ قولَهُ: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ لقولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فاكْتَفَى بقولِهِ: ﴿بَلَىٰ﴾ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الدلالاتِ والحُجَجِ على القولِ بالبعثِ، فاقْتَصَرَ على قولِهِ: ﴿بَلَىٰ﴾ على الوصلِ بما تَقَدَّمَ مِنَ الدلالاتِ.

ومنهمْ مَنْ جَعَلَ جوابَهُ في قولِهِ: ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ يَعني أنَّ تَسْويةَ البَنانِ هو الجَعلُ مِنْ عَظْمٍ واحدٍ مجموعاً غيرَ مُتَفَرِّقٍ مِثْلَ خُفِّ البَعيرِ وحافرِ الدوابِّ. ووَجْهُ الاِستِدْلالِ أنهمْ أقرُّوا بأنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُسَوِّيَ البنانَ لَمّا رَأَوا التسويَةَ موجودةً في الدوابِّ، ثم الجمعُ بعدَ التَّفريقِ أظهرُ وُجوداً وأيسَرُ فِعْلاً مِنْ تَسْويةِ البَنانِ.

ألا تَرَى أنَّ المرءَ في الشاهدِ قد يَقدِرُ على التأليفِ والجمعِ بَينَ أشياءَ مُتَفَرِّقَةٍ، ويَعجَزُ عن تَسْويةِ البَنانِ؟ فإذا كانتِ التسويَةُ أعسَرَ وجوداً مِنَ الجمعِ بعدَ التفريقِ، ثم وصفوا اللهَ تعالى بالقدرةِ على تَسْويَةِ البَنانِ، فكيفَ أنكروا قدرتَهُ على جمعِ العظامِ بعدَ تفريقِها؟ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

ومنهمْ منْ يقولُ: إنَّ اللهَ تعالى لَمّا لم يُسَوِّ بَينَ بَنانِ الإنسانِ، وسَوَّى بينَ بَنانِ الدوابِّ، لِيَصِلَ إلى الأخذِ والإعطاءِ وإلى التقديمِ والتأخيرِ والقَبْضِ والبَسْطِ وأنواعِ المَنافِعِ التي خُصَّ بها / ٦١٥ ـ ب/ مِنْ نَحْوِ ما يَمْلِكونَ بالبَنانِ تَسْخيرَ الدوابِّ والأنعامِ: يُعْلِمُ بالتفريقِ بينَ الدوابِّ وبينَهُمْ[3] أنَّ البَشَرَ هُمُ المقصودونَ بالمِحْنَةِ وألّا يَتْرُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنْهاهُمْ، ولا يَسْتَأديهِمْ شُكْرَ ما أنْعَمَ عليهِمْ، وقدِ ائْتَمَرَ البعضُ، وعَصَى البعضُ، ولا[4] بُدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى للمُجازاةِ.

فالنظرُ في هذا يَحمِلُهُ على القولِ بالبعثِ والجزاءِ. ولأنَّ الاِسْتِواءَ يقعُ في الاِبْتِداءِ، والجمعَ بعدَ التفريقِ يكونُ عندَ الإعادةِ، والعقولَ تَشْهَدُ على أنَّ الإعادةَ أيسرُ مِنْ أمرِ الاِبْتِداءِ، فإذا لم يَتَعَذَّرْ عليهِ الاِسْتِواءُ في الاِبْتِداءِ، فأنَّى تَعْسُرُ عليهِ إعادةُ الجمعِ مع قدرتِهِ على الجمعِ في الاِبْتِداءِ، ولأنهمْ لَمّا لم يُخْلَقوا مُسْتَوِيي البَنانِ فَلْيَعْلَموا أنَّ في تَرْكِ الاِسْتِواءِ حكمةً. ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا أنْ [لا][5] بعثَ لكانَ يَخْرُجُ على حدِّ الحكمةِ، فيكونُ في ما ذَكَرَ تَثبيتُ البعثِ والقولُ بالقدرةِ على جمعِ العظامِ بعدَ تَفَرُّقِها وتَفَتُّتِها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: يُؤَخِّرُ التوبةَ، ويُقَدِّمُ المَعْصِيةَ، ويقولُ: سوفَ أتوبُ، فيأتيهِ الموتُ على شرِّ حالِهِ. وعِندَنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: جائزٌ أنْ يكونَ ذكرُ الإرادةِ لا على تَحْقيقِها، ولكنْ مَنْ فَعَلَ شيئاً فَعَلَهُ على الإرادةِ والاِختيارِ، فَكَنَّى بالإرادةِ عنِ الفعلِ لأنها تقترنُ بالفعلِ، فيكونُ في ذِكرِها ذِكرُ الفعلِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] ولكنَّ خَلْقَها خَرَجَ على الحكمةِ بالبعثِ والجزاءِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: عدة، في م: هذه. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: على. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

ففي تركِ القولِ بالبعثِ وصفٌ بأنْ خلقَهما لِلَّعبِ والباطلِ، ويُؤدِّي إلى هذا، فيصيرُ كأنهمْ قالوا ذلكَ، وظنُّوا كذلكَ. فَعَلَى هذا يُحمَلُ الأمرُ على الظَّنِّ، لا أنْ وُجِدَ منهمُ الظَّنُّ في الحقيقةِ. فكذلكَ إذا فَعَلوا فِعْلَ الفُجورِ، وكانَ فعلُهُمْ على الإرادةِ والاختيارِ، فكأنهمْ أرادوا أن يَفجُروا أمامَهُ، لا أنْ كانتِ الإرادةُ منهمْ مُتحقِّقةً، والاختيارُ لذلكَ مَقصوداً.

[والثاني:][1] جائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ الإرادةِ؛ وذلكَ أنَّ للشَّرِّ والفجورِ سُبُلاً مَنْ سَلَكَها أفضتْ [به][2] إلى أنْ يَستَحِقَّ اسمَ الفُجورِ، وللخيرِ والهُدَى سُبُلاً مَنْ سَلَكَها أفضى به[3] الأمرُ إلى أنْ يَستَحِقَّ اسمَ البِرِّ والتَّقْوَى. فإنما صارَ إلى الفجورِ وإلى أنواعِ الشرورِ بِسُلوكِهِ ذلكَ السبيلَ، وصارَ مُريداً مِنْ هذهِ الجهةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَمَامَهُۥ﴾ يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: في ما بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ، لأنهُ يتركُ الاستِهداءَ والاستِرْشادَ، ويَمْضي على العادةِ التي عَوَّدَ نفسَهُ عليها[4] منَ الشرورِ والضلالِ.

[والثاني][5]: يحتملُ أنْ يكونَ الأمامُ، هو يومُ القيامةِ، كقولِهِ[6] في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] بعد ذِكرِ ذلكَ اليومِ بالأمامِ والوراءِ جميعاً، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ أي وراءَ الأوقاتِ التي خَلَتْ، ومضَتْ.

فعلى اعْتِبارِ الإضافةِ إلى الأوقاتِ الماضيةِ يكونُ يومُ القيامةِ ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ وعلى اعْتِبارِ الإضافةِ إلى ذلكَ الفاجرِ يكونُ ﴿أَمَامَهُۥ﴾ لأنهُ يكونُ أمامَ هذا الفاجِرِ. فبذلكَ استَقامَ الوصفُ بالأمامِ والوراءِ جميعاً.

ثم ذَكَرَ الفجورَ، ولم يذكُرِ الكُفْرَ، وإنْ كانَ الإنسانُ الذي يريدُ أنْ يَفْجُرَ أمامَهُ كافراً لأنَّ في ذِكرِ الفجورِ [تَعْيِيراً وتَشْيِيناً][7] إذْ هو اسمٌ لِلتَّعْيِيرِ خاصةً، وليسَ في نفسِ الكفرِ تَعْيِيرٌ، إذْ كلُّ أحدٍ مؤمناً [كانَ][8] أو كافراً مؤمنٌ بشيءٍ [أو][9] كافرٌ بشيءٍ. فالكافرُ مِنْ حيثُ اسمُهُ لم يَصِرْ قبيحاً، بل معناهُ ما قَبُحَ، فكانَ الفجورُ أبلغَ في التَّعْيِيرِ منَ الكفرِ، فَسُمِّيَ بهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ أبو بكرٍ: معنَى قولِهِ: [﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي][10] يريدُ أنْ يُعاينَ يومَ القيامةِ، ويُعْلَمَ بهِ أنه متى هو؟ تفسيرُهُ على إثرِهِ؛ [وهو][11] قولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي يريدُ أنْ يُعْلِمَهُ بسؤالِهِ: متى هو؟ فأخبرَ أنها تقومُ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [الآيتان: ٧ و٨] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤالَ تَعَنُّتٍ واستِهزاءٍ لِما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في تَعَرُّفِ وقتِ كونِهِ [مَزْجَرٌ ولا مَرْغَبٌ][12]. وإنما يقعُ الزَّجرُ والرَّغبةُ بتذكيرِ الأحوالِ التي تكونُ في ذلكَ اليوم. فلذلكَ ذكَرَ الأحوالَ التي تكونُ في ذلكَ اليومِ، ولم يُوقِفْهُمْ على ذلكَ الوقتِ متى يكونُ؟ إذْ ليسَ في معرفةِ وقتِهِ كثيرُ حُكْمٍ، فَيُجيبَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ بجوابِ الحكماءِ لا بجوابِ مثلِهِمْ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ بهِ حالةَ الموتِ فقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قيلَ: دُهِشَ، وتَحَيَّرَ. ثم اخْتُلِفَ بعدَ هذا؛ فمنهُمْ مَنْ صَرَفَ هذا إلى حالةِ الموتِ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذهِ الأحوالَ تكونَ يومَ القيامةِ.

وإلى أيِّ الحالَينِ صُرِفَ التأويلُ فهو مستقيمٌ، لأنَّ المنكِرَ البعثَ إذا جاءَهُ بأسُ اللهِ تعالى، ورأى ما حَلَّ بهِ منَ الأهوالِ أيقَنَ بالبعثِ، وعَلِمَ بهِ.

ثم إنْ كانَ المُرادُ بهِ حالةَ الموتِ، فقولُهُ ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الآيات: ٧ و٨ و٩]

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: على ذلك. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: تعيير وتشيين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: و. (١٢) في الأصل وم: مزجرا ولا مرغبا.

يُخَرَّجُ على التمثيلِ، ليسَ على التحقيقِ، لأنَّ بَصَرَهُ إذا دُهِشَ، وتَحَيَّرَ، صارَ بحيثُ لا يَنْتَفِعُ بِبَصَرِ وجهِهِ ولا بِبَصَرِ قلبِهِ، لا يَرَى ضَوءَ القمرِ، فَيَصيرُ القمرُ كالمُنْخَسِفِ، وتصيرُ الشمسُ والقمرُ كالمجموعَينِ، ولا يَرَى ضوءَ الشمسِ ولا نورَ القمرِ، فَيصيرُ النهارُ عليهِ ليلاً والليلُ نهاراً؛ شُغِلَ[1] بما حَلَّ بهِ مِنَ البلايا والأهوالِ. وهي كما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ، والآخرةُ جنةُ المؤمنِ وسجنُ الكافرِ» [مسلم ٢٩٥٦] وقال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، ومن أحبَّ لِقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧ و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

فَصَرفوا تأويلَ هذينِ الخبرَينِ إلى حالةِ الموتِ؛ وذلكَ أنَّ الكافرَ يُعايِنُ في ذلكَ الوقتِ ما أُعِدَ مِنَ الأهوالِ والشدائدِ فَكَرِهَ مُفارقةَ روحِهِ جَسَدَهُ لئلا يَقَعَ في تلكَ الأهوالِ والشدائدِ، وتصيرَ الدنيا لهُ في ذلكَ الوقت كالجنةِ [لا يُحبُّ][3] مفارَقَتَها.

والمؤمنُ إذا عايَنَ ما وُعِدَ[4] مِنَ البِشاراتِ وأنواعِ الكراماتِ أرادَ الخروجَ منَ الدنيا لِيَصِلَ إلى ما أُعِدَّ لهُ، فَتَصيرُ الدنيا عليهِ [كالسجنِ][5] في ذلكَ الوقتِ، فيكونُ هذا كلُّهُ على التمثيلِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ ذلكَ على يومِ القيامةِ على تحقيقِ الخَسْفِ وجمعِ الشمسِ والقمرِ وقولِهِ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [الآية: ١٠] فَيَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: أي ليسَ لي موضعُ فرارٍ عمّا حلَّ بي، أو يقولَ: إلى أينَ المَفَرُّ؟ وإلى مَنْ ألتجئُ لأتَخَلَّصَ مِنَ العذابِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا شَخَصَ البَصَرُ نحوَ الداعي يومَ القيامةِ، وهو كقولِهِ ﷻ: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فَيَشْخَصُ ببصرِهِ إلى الداعي، لأنهُ قد عَلِمَ أنَّ الذي حلَّ بهِ مِنْ بأسِ اللهِ تعالى هو لامْتِناعِهِ عنِ الإجابةِ للداعي في هذهِ الدنيا، فَيَتَسارَعُ يومَ القيامةِ في إشخاصِ بصرِهِ إلى الداعي ابْتِداءاً منهُ إلى إجابةِ الداعي.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي ذهبَ ضَوؤُهُ ونورُهُ؛ ففيهِ أنَّ العالَمَ في ذلكَ اليوم يُغَيَّرُ، ويُبَدَّلُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقولِهِ[6] تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧] وقولِهِ: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥ و١٠٦].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ففيهِ أنَّ سُلْطانَهُما يَذهَبُ فلا يعملانِ عملَهُما بعدَ ذلكَ. ثم مِنَ الناسِ مَنْ زَعَمَ أنهما يُجْمعانِ يومَ القيامةِ كالبَعيرَينِ القَرِيبَينِ أو الثورَينِ القَرِيبَينِ، فَيُلْقَيانِ في النارِ، ويُعَذَّبانِ بها.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﵄ أنهُ أنكرَ هذا، وقالَ: /٦١٦ ـ أ/ إنهما خَلْقا اللهِ تعالى طائعانِ لهُ ﷻ ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] يَدْأبانِ في طاعةِ اللهِ تعالى. ومَنْ كانَ هذا وصفُهُ فلا يجوزُ أنْ يُعَذَّبَ؟

وعندَنا أنَّ إلقاءَهُما، إنْ ثَبَتَ، فهما يُلْقَيانِ في النارِ لِيُعَذَّبَ بهما غيرُهما، وهمُ الذينَ عَبَدوهما من دونِ اللهِ تعالى، وذلكَ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآية.

ومعلومٌ بأنَّ الأصنامَ التي عُبِدَتْ مِنْ دونِ اللهِ تعالى، لا تُعَذَّبُ بالنارِ، ولكنَّها تُجعَلُ حَصَباً وناراً يُعَذَّبُ بها مَنْ عَبَدَها. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١] ولا يجوزُ أنْ يكونَ الملائكةُ يَمَسُّهُمْ أذى النارِ، بل هُمُ الذين يُعَذِّبونَ. فَعَلَى ذلكَ الشمسُ والقمرُ، إنْ ثَبَتَ أنهما في النارِ، فهما لِيُعَذَّبَ بهما مَنْ عَبَدَهما لا أنْ يُعَذَّبا نَفْساهما، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: شغلا. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: له. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: وقال.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ على طلبِ الحِيلةِ أنْ كيفَ أحتالُ إلى أنْ أفِرَّ، أو إلى مَنْ ألتجِئُ لأتخلَّصَ منْ بأسِ اللهِ وعذابِه؟

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي ليسَ لي موضعُ فرارٍ عمّا حلَّ بي لإيقانِهِ أنْ ليسَ لهُ مَفَرٌّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا كُلُّهُ عندَ الموتِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الوَزَرَ، هو الجَبَلُ بلُغةِ حِمْيَرَ. وذُكِرَ عنِ الحسنِ [أنهُ][1] قالَ: كانتِ العربُ يُخيفُ بعضُها بعضاً، ويُفْرِحُ[2] بعضُها بعضاً، فكانَ يكونُ الرجلانِ في ماشِيَتِهما، فلا يَشْعُرانِ حتى يَرَيا نَواصِيَ الجَبَلِ، فيقولُ أحدُهما لصاحِبِهِ: الوَزَرَ، يعني الجَبَلَ، فكأنهُ يقولُ: ليسَ لهما إذْ ذاكَ [ما][3] يُفرِحُ، وما[4] يُسَلِّي مِنَ الأحزانِ كما يَتَسَلّى مَنْ يأوِي إلى الجَبَلِ في الدنيا عنْ بعضِ ما يَحُلُّ بهِ مِنَ الأفزاعِ. وقيلَ: الوَزَرُ المَلْجأُ.

الآيتان ١٢ و١٣ وقولُهُ تعالى: [﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾][5] ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فتأويلُهُ: أنهُ يُنَبَّأُ مِنْ أوَّلِ ما عَمِلَ إلى آخِرِ ما انْتَهى إليهِ عملُهُ كقولِهِ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقالَ بعضُ أهلِ التأويلِ: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ منْ أنواعِ الطاعةِ ﴿وَأَخَّرَ﴾ منْ حقِّ اللهِ تعالى مِنَ اللَّوازِمِ التي كانتْ عليهِ.

وقالَ بعضُهُمْ: بما أعْلَنَ، وسَتَرَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ في حياتِهِ منْ أعمالِ ﴿وَأَخَّرَ﴾ ما سَنَّ مِنْ سُنَّةٍ، فاسْتُنَّ [بهِ][6] بعدَ موتِهِ.

وقد ذَكَرْنا أنهُ باللطفِ منَ اللهِ تعالى ما لم يَعْلَمْ بالذي قَدَّمَ منَ الأعمالِ، وأخَّرَها، فيتذكَّرُ بذلكَ حتى يصيرَ ما كُتِبَ في الكتابِ حُجَّةً عليهِ، وإلّا فالمرءُ في هذهِ الدنيا إذا كتبَ كتاباً، ثم أتَتْ عليهِ مُدَّةٌ، لم يَتَذَكَّرْ جميعَ ما كَتَبَ فيهِ، ولا وَقَفَ على علمِ ذلكَ.

الآيتان ١٤ و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بهذا في الدنيا أنَّ الإنسانَ بَصيرٌ بعملِ نفسِهِ، وإنْ جادَلَ عنها أنهُ لم يَفْعَلْ ذلكَ، وأسَرَّ ذلكَ عنِ [الناسِ][7] ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي ألْقَى الستورَ بما كَسَبَتْ نفسُهُ، والمِعذارُ هو السِّتْرُ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ في الآخرةِ، وهو يَحتمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الإنسانَ وإنْ كانَ يعتذِرُ يومَ القيامةِ بقولِهِ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ[8]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] فَيُقدِمونَ على الحَلْفِ اعتِذاراً منهمْ [على العلمِ منهمْ][9] أنهمْ مُبْطِلونَ في جدالِهِمْ.

والثاني: أنْ يكونَ معنَى البَصيرةِ الشاهدَ أي أنَّ الإنسانَ على نفسِهِ [شاهدٌ يومَ القيامةِ بسوءِ أفعالِهِ، وإنْ ألْقَى معاذيرَهُ، أي وإنْ][10] شَهِدَتْ عليهِ جوارِحُهُ، وذلكَ نحوُ قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وقولِهِ تعالى: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ﴾ الآية [فصلت: ٢٠].

فإنْ قيلَ: إنَّ الإنسانَ مُذكَّرٌ كيفَ وَصَفَهُ[11] بالبَصيرةِ بلفظةِ التأنيثِ بقولِهِ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ ولم يَقُلْ: بصيرٌ؟ فجوابُهُ منْ أوجهٍ:

أحدُها: ما قيلَ: إنَّ الإنسانَ تَسْمِيةُ جنسٍ، فيهِ الجماعةُ، لا أنْ يكونَ تَسْمِيةً للشخصِ الواحدِ فقط. ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ و٢ و٣] اسْتَثْنى الذينَ آمنوا مِنَ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ويفر. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ولا. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وصف.

قولِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ولا تُستثنَى الجماعةُ منَ الواحدِ، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [التين: ٤ و٥ و٦] فاستَثنى الذينَ آمنوا منَ الإنسانِ، فثَبتَ أنَّ الإنسانَ تَسْمِيةُ جنسٍ، والجنسُ جماعةٌ، وتكونُ الجماعةُ مُضمرةً فيهِ؛ كأنهُ قالَ: إنَّ جماعةَ الناسِ على أنفسِهِمْ بَصيرةٌ، فيكونُ قولُهُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ راجعاً إلى الجماعةِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني][1]: قولُهُ: ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وصفٌ للإنسانِ بالغايةِ منَ البَصَرِ بكلِّ ما عَمِلَ حتى لا يَعْزُبَ عنهُ شيءٌ، والهاءُ قد تدخلُ في خطابِ المُذكَّرِ عند الوصفِ بالمبالغةِ كقولِكَ: فلانٌ علّامةٌ ونَسّابةٌ وراويةٌ للشعرِ وبالغةٌ في النحوِ.

والثالثُ: أنَّ الإنسانَ تَسْمِيةُ ما يراهُ بجوارحِهِ كلِّها مِنَ الأيدي والأرجلِ والسمعِ والبصرِ والرأسِ، ونحوُ ذلكَ: نفسٌ أمّارةٌ بالسوءِ، فتصيرُ جوارحُهُ كلُّها بصيرةً أي شاهدةً عليهِ بما قدَّمَ، وأخَّرَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على الإضمارِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي نفسُ الإنسانِ بَصيرةٌ بما عَمِلَتْ.

ثم مِنَ الناسِ من يُثْبِتُ للجوارحِ العِلْمَ بما كَسَبَتْ نفسُهُ حتى تصيرَ شاهدةً عليهِ يومَ القيامةِ لقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولو لم يكنْ لها العلمُ بما قَدَّمَتْ نفسُهُ لا تَشْهَدُ بما لا تَعْلَمُ.

وليسَ الأمرُ عندَنا على ما زَعموا لأنها لو علمَتْ بذلكَ لكانَ صاحبُها يَصِلُ إلى العِلْمِ منْ جهتِها.

ألا تَرى أنَّ القلبَ لمّا ثَبَتَتْ لهُ المعرفةُ وقعَ لصاحبِهِ العلمُ منْ جهتِهِ؟ كذلكَ السمْعُ لمّا جُعِلَ منه وقعَ لصاحبِهِ علمُ المسموعِ بهِ، ولمّا كانَ بعينِهِ يُبْصِرُ الأشياءَ كانَ علمُ البصرِ واقعاً منْ جهتِها.

فلمّا لم يقعْ لهُ العلمُ بيدَيهِ ولا برجلَيهِ ولا بشيءٍ من جَوارِحِهِ سِوى القلبِ عَلِمَ أنهُ لا حظَّ لها في المعرفةِ، ولكنْ جُعِلَتْ هي شاهدةً وحجةً يومَ القيامةِ، تَشْهَدُ على صاحبِها بما يُحْدِثُ اللهُ تعالى فيها عِلْماً ضروريّاً بذلكَ، لا أنْ كانَ لها عِلْمٌ بالذي شَهِدَتْ قبلَ ذلكَ كما جُعِلَتْ ناطقةً[2] في ذلكَ الوقتِ، لا أنْ كانَ النطقُ فيها موجوداً منْ قَبْلُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ هذا كلامٌ مبتَدَأٌ مُنْفَصِلٌ عنِ الأولِ. وذكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ جبريلَ ﷺ كانَ إذا أتى نَبيَّ اللهِ ﷺ بالوحيِ كانَ لا يَفْرُغُ منْ آخرِ الآيةِ حتى يَتْلُوَها[3] نبيُّ اللهِ ﷺ مِنْ[4] أوَّلِها مَخافةَ النِّسيانِ على ما عليهِ عُرْفُ الخَلْقِ أنهمْ إذا أرادوا وَعْيَ الكلامِ وحفظَهُ [كَرَّروهُ بألسنَتِهِمْ كي يَضبِطوهُ، ولا يَنْسَوهُ][5] فكانَ النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلكَ خَشيةَ النسيانِ. فنُهِيَ عنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

وهذا عندَنا ممّا لا يجوزُ أنْ يُشْهَدَ على رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يحرِّكُ لسانَهُ قبلَ مجيءِ هذهِ الآيةِ، ويَتَذَكَّرُهُ مَخافةَ النِّسيانِ إلّا[6] بأخبارٍ متواترةٍ لأنَّ هذا في حقِّ الشهادةِ على رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ كانَ يَفْعَلُ كذلكَ إلّا بتواتُرِ الأخبارِ.

فأمّا إنْ ثَبَتَ بخبرٍ واحدٍ فلا، ولا يقالُ: إنهُ لو لم يَتَقَدَّمْ منهُ التحريكُ لكانَ لا مَعْنى /٦١٦ ـ ب/ للنهيِ، فإنهُ ليسَ فيهِ ما يُثْبِتُ مقالتَهُمْ، ويُصَحِّحُ تأويلَهُمْ، ويُسَوِّغُ لهمُ الشهادةَ، لأنهُ لا يَستقيمُ في الابتداءِ أنْ يُنْهى، فيُقالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ ولا تَفْعَلْ كذا، وإنْ لم يَسْبِقْ منهُ ارتكابُ ذلكَ الفعلِ، ولا تقَدَّمَ منهُ تَحريكُ لسانِهِ، فثَبَتَ أنهُ ليسَ في ضِمْنِ هذهِ الآيةِ بيانُ ما ادَّعوا. هذا إذا ثَبَتَ أنَّ قولَهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ وقولَهُ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤] على النَّهيِ، وهو يَحْتَمِلُ مَعْنىً آخَرَ غيرَ النَّهيِ، وهو أنْ يكونَ هذا على البِشارةِ لهُ بالكِنايةِ أنْ قد كُفِيتَ مَؤونةَ الاستِذْكارِ للحِفْظِ، وهذا منْ عظيمِ آياتِ الرسالةِ أنَّ السورةَ تُلْقَى عليهِ، فيَحْفَظُها كما هي ممّا يَشْتَدُّ على الناسِ حفظُهُ وقراءتُهُ إلّا أنْ يَتَكَلَّفوا، ويجتهِدوا في ذلكَ، فيُعلَمُ بهذا أنَّ اللهَ ﷻ هو الذي أقدَرَهُ على ذلكَ، وجعلَهُ آيةً منْ آياتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: وجواب ثان. (٢) في الأصل وم: نطقة. (٣) في الأصل وم: يقول. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: كرروها بألسنتهم كي يضبطوها ولا ينسوها. (٦) في الأصل وم: لا.

ثم الأصل أنَّ مَنْ ألقى إلى آخرَ كلاماً مُتتابعاً نَظَرَ في ذلكَ الكلامِ، فإنْ كانَ القصدُ منهُ حِفظَ عينِ الكلامِ فإنَّ المُخاطبَ بهِ لا يَنتَظِرُ فراغَ المتكلِّمِ منْ ذلكَ الكلامِ، بل يَشتَغِلُ بالتِقانهِ وحِفظِهِ ساعةَ ما يُلقَى إليهِ كمنْ يُنشِدُ بينَ يدَي آخرَ شعراً، وأرادَ الآخرُ أنْ يحفَظَ ذلكَ الشعرَ، ويَعِيَهُ، فهو لا يَنتَظِرُ فراغَ المُنشِدِ مِنْ شعرِهِ، بل هو يأخذُ بالتِقانهِ في أوَّلِ ما يَسمَعُ منهُ، إذِ الغَرَضُ مِنَ الأشعارِ حفظُ أعيُنِها لا[1] معانيها.

ألا ترَى أنَّ الألفاظَ إذا حُذِفَتْ منها خَرَجَتْ عنْ أنْ تكونَ شعراً؟

وأمّا إذا لم يكنِ القصدُ مِنَ الكلامِ ضبطُ عينِهِ، وإنما أُريدَ بهِ تَفهُّمُ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المعنَى، فالعادةُ في مثلِهِ الإصغاءُ إلى آخرِ الكلامِ لِيَفْهَمَ معناهُ وما يُرادُ بهِ.

ألا ترَى أنَّ مَنْ كتبَ إلى آخرَ كتاباً، وأنَّ المكتوبَ إليهِ يقرأُ الكتابَ منْ أولِهِ إلى آخرِهِ لِيَعْرِفَ مُرادَ الكتابِ لا أنْ يَشتَغِلَ بضبطِ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ الألفاظِ [إذْ ليسَ يُقصَدُ بالكتابةِ إلى حفظِ الألفاظِ][2]؟

فإذا كانَ المُرادُ يتوجَّهُ مِنَ الكلامِ إلى ما ذَكَرْنا ففي[3] القرآنِ قُصِدَ بهِ الوجهانِ جميعاً: ضَبْطُ حروفهِ ونَظْمِهِ [وأنْ][4] يُعْرَفَ ما أُودِعَ فيهِ مِنَ المعاني، إذْ صارَ حُجَّةً بنظمِهِ ولفظِهِ والمعاني المَودوعةِ فيهِ.

وقيلَ: لا تَعْجَلْ بتحريكِ [اللسانِ][5] كما يفعلُ مَنْ يريدُ التِقانَ الكلامِ الذي يُلقَى إليهِ، فإنكَ وإنْ أُحوِجْتَ إلى حِفظِ نظمِهِ وحروفِهِ فقد كُفيتَ حفظَهُ بدونِ تحريكِ اللسانِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ نُهِيَ عنْ تحريكِ اللسانِ والمُبادرةِ إلى حفظِهِ قبلَ أنْ يُقضَى إليهِ بالوَحْيِ لِما فيهِ منْ تَرْكِ العظيمِ مِمَّنْ يأتيهِ بالوَحْيِ، فأُمِرَ أنْ يُصغيَ إليهِ بِسَمعِهِ، ويَستَمِعَ إلى آخرِهِ تعظيماً للذي آتاهُ الوَحْيَ وتوقيراً لهُ.

ثم هذه الآيةُ تَنقُضُ على الباطنيةِ قولَهُمْ [بوجهينِ:

أحدُهما][6]: لأنَّ مِنْ قولِهِمْ أنَّ القرآنَ لم يُنزَّلْ على رسولِ اللهِ ﷺ مُؤلَّفاً مَنظوماً، بل أُنزِلَ على قلبِهِ كالخيالِ، فَصَوَّرَهُ بقلبِهِ، وألَّفَهُ بلسانِهِ، فأتَى بتأليفٍ، عَجِزَ الآخرونَ عنْ أنْ يُؤلِّفوا مثلَهُ.

ونحنُ نقولُ: بل أُنزِلَ هذا القرآنُ مُؤلَّفاً مَنظوماً على رسولِ اللهِ ﷺ ولم يكنِ التأليفُ مِنْ فعلِهِ. والذي يدلُّ على صحةِ مَقالتِنا قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ لأنَّ التأليفَ لو كانَ مِنْ فعلِهِ ﷺ لكانَ لا يوجدُ منهُ تحريكُ اللسانِ وقتَ ما نُزِّلَ عليهِ، لأنهُ إذا كانَ كالخيالِ فهو يحتاجُ أنْ يُصَوِّرَهُ في قلبِهِ، ثم يَصِلُ إلى التأليفِ بعدَ التصويرِ، وتَتأتّى لهُ العبارةُ باللسانِ. وإنما يقعُ التحريكُ منْ مُؤلَّفٍ مَنظومٍ. ثَبَتَ أنهُ أُنزِلَ مُؤلَّفاً مَنظوماً.

والثاني: أنهُ قالَ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فهذهِ الآيةُ نَفَتْ طَعْنَ أولئكَ الكَفَرَةِ الذينَ يَزْعُمونَ أنَّ هذا ليسَ بقرآنٍ، بل إنما علَّمَهُ فلانٌ، وكانَ لسانُ ذلكَ البَشَرِ أعجمياً، وهذا القرآنُ عربيٌّ. فكيفَ يستقيمُ أنْ يُعَلِّمَهُ ذلكَ البَشَرُ، ولسانُهُ غيرُ هذا اللسانِ؟

ولو كانَ هذا القرآنُ وقتَ ما أُنزِلَ كالخيالِ لكانَ ذلكَ الطعنُ قائماً لأنهُ كانَ يُؤلِّفُهُ، ويَجْمَعُهُ باللسانِ العربيِّ، وإنْ عَلِمَ بالأعجميةِ لَما قَدَرَ أنْ يُؤلِّفَهُ، ويَنْظُمَهُ بعدَ أنْ كانَ خيالاً باللسانِ العربيِّ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ لأنهُ قد سَبَقَ منا الوعدُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ بإنزالِ هذا القرآنِ وإرسالِ هذا الرسولِ. فعلينا إنجازُ ذلكَ الوعدِ ووفائِهِ، أو علينا في حقِّ الحكمةِ [جمعُهُ][7] لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أُمِرَ بتبليغِ الرسالةِ، ولا يَتَهَيَّأُ لهُ ذلكَ إلّا بعدَ أنْ يُجْمَعَ لهُ، فيؤدِّيَهُ إلى الخَلْقِ، ولأنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ في فِعلِهِ، وفِعْلُهُ مَوصوفٌ بالحكمةِ، وإنْ لم نَعْرِفْ نحنُ وجهَ الحكمةِ في فعلِهِ.

---

(١) في الأصل وم: دون. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: ثم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ في حقِّ الرحمةِ والرأفةِ على الخَلْقِ لا أنْ يكونَ ذلكَ حقًّا لهمْ قِبَلَهُ تعالى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قولِهِ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٨٦ و٨٧] فأخبرَ أنهُ أبقَى القرآنَ، ولم يَذْهبْ بهِ رحمةً منهُ عبادَهُ وفضلاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي قراءتَهُ وتَسْمِيتَهُ قرآناً كما قيلَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] أي جعلْناهُ فُرْقاناً.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي جَمَعْناهُ في قلبِكَ، أو جَمَعْنا حُدودَهُ ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ ما أُودِعَ فيهِ منَ المَعاني، أو جمعْناهُ بعدَ أنْ فرَّقْناهُ في التنزيلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ اتّباعُهُ يكونُ بأوجهٍ: في أنْ يُبَلِّغَهُ إلى الخَلْقِ، ويُعَلِّمَ أمّتَهُ، ويَتْبَعَ حلالَهُ، ويَجْتَنِبَ حرامَهُ [وغَيرِ ذلكَ][1].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ جائزٌ أن يكونَ قولُهُ: ﴿عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي بَيانَ ما أنْزَلْناهُ مُجْمَلاً، فيكونُ بَيانُهُ في تعريفِ ما هو بحقِّ الإتمامِ وما هو في حقِّ الجوازِ وما هو في حقِّ التحْسينِ والتَّزْيينِ، لأنَّ الفرائضَ لها شُعَبٌ وأركانٌ وحَواشٍ، أو نقولُ: فيها فرائضُ ولوازمُ وآدابٌ وأركانٌ على هذا، وفيهِ منعُ تعليقِ الحكمِ بظاهرِ المَخْرَجِ، لأنهُ لو كانَ مُتَعلِّقاً بهِ لكانَ البيانُ مُنْقضياً بنفسِ المُنَزَّلِ، فلا يَحتاجُ إلى أنْ يُبيَّنَ.

وفيهِ دلالةُ تأخيرِ البيانِ عنْ وقتِ قَرْعِ[2] الخطابِ السمعَ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي بَيانَ ما هو بحقِّ الكناياتِ والنتائجِ منها، وما هو بحقِّ الأصولِ والفروعِ، وما هو بحقِّ المقصودِ.

فَيُبيِّنُ لرسولِهِ ﷺ مَعْنَى الأصولِ والكناياتِ لِيَتعَرَّفَ بهِ [على][3] فروعِها ونتائجِها، ويُبيِّنُ لمَنْ بعدَهُ مَنْ جاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، ويهديهِ لذلكَ [كما][4] قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] أو يكونُ قولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ في أنْ يَحفظَكَ، ويَعْصِمَكَ، لِتتَمكَّنَ من تبليغِ ما أُنْزِلَ إليكَ إلى الخَلْقِ، وتُبيِّنَ لهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ووجهٌ آخرُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بُعِثَ إلى كلِّ مَنْ كانَ شاهداً مِنَ الخلائقِ إلى يومِ التَّنادي، ثم لم يُمَكَّنْ منْ تبليغِ الرسالةِ إلى كلِّ أحدٍ ممّا ذكَرْنا بنفسِهِ، فكأنهُ ضَمِنَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ التبليغَ إلى الخلائقِ كافَّةً بما شاءَ، جَلَّ جلالُهُ، إمّا بتَسْخيرِ الرواةِ والحُفّاظِ والعلماءِ لِيُبلِّغوا عنْ رسولِ اللهِ ﷺ ما أُدِّيَ إليهِمْ، وإمّا[5] بِكونِ قولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي بَيانَ المُحِقِّ مِنَ المُبْطِلِ والوليِّ مِنَ العَدُوِّ؛ وذلكَ يكونُ يومَ القيامةِ، فَيُعرَفُ الأولياءُ بما يُحَيَّونَ مِنَ الكراماتِ، ويَتَبيَّنُ الأعداءُ/ ٦١٧ ـ أ/ والمبطلونَ ما يَحُلُّ بهمْ مِنَ الحسابِ وأنواعِ العذابِ.

الآيتان ٢٠ و٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يقولُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ومَنْعٌ عما سَبَقَ منهمْ. وفي قولِهِ: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ إبانةُ أنَّ الذي حمَلَهُمْ على ما هُمْ فيهِ مِنَ الحُسْبانِ أنَّ العِظامَ، لا تُجْمَعُ، وأنَّ البعثَ، ليسَ بشيءٍ، وحُبُّهُمُ[6] العاجلةَ؛ وذلكَ أنهمْ أُولِعوا بالعاجلةِ، وأحبُّوها حبّاً أنساهُمُ الإيمانَ[7] بالآخرةِ والنظرَ[8] في الحججِ والبراهينِ التي لو أمْعَنوا النَّظَرَ فيها أدَّتْهُمْ إلى القولِ بالبعثِ، حتى صاروا إلى ألّا يَرْجُوا الآخرةَ كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية [يونس: ٧].

الآيات ٢٢ و٢٣ و٢٤ و٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [يحتملُ وجوهاً:

أحدُها][9]: ما تنتهي إليهِ عواقبُ مَنِ التزمَ طاعةَ اللهِ، وآمَنَ بالبعثِ والحسابِ، وبَيانُ ما تَنْتهي إليهِ عواقبُ مَنْ تَوَلّى عنْ طاعتِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وقوع. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن. (٨) في الأصل وم: أو عن النظر. (٩) ساقطة من الأصل وم.

فقولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها الأنفسُ، وتكونُ الوجوهُ كِنايةً عنها. والذي يدلُّ على أنهُ أُريدَ بها الأنفسُ لا أعينُها قولُهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ والوجوهُ لا تظُنُّ ذلكَ، ولا تعلَمُ بهِ. فَثَبَتَ أنَّ ذكرَ الوجوهِ على الكِنايةِ لا أنْ يُريدَ بها أعينَها. فهذا التأويلُ أوفقُ بما يقتضيهِ ظاهرُ اللفظِ. وإنما صَلَحَ أنْ تكونَ الوجوهُ كِنايةً عنِ الأنفسِ؛ وذلكَ أنَّ النفسَ إذا تَلَذَّذَتْ بأمرٍ، ونالَتْ شَهْوَتَها، ظَهَرَ سرورُ ذلكَ في وجهِهِ، وإذا تألَّمَتْ بأمرٍ، واعْتَراها الحزنُ ظَهَرَ أثرُ الحزنِ في وجهِهِ.

فيكونُ في قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وصفٌ لهمْ بما همْ عليهِ منْ غايةِ السرورِ بالكراماتِ التي أُكْرِموا بها حتى نَضِرَتْ وجوهُهُمْ بذلكَ.

فإذا ثَبَتَ أنهمْ قد نالوا الكراماتِ، ووَصَلوا إلى أنواعِ المَلَذّاتِ، لم يَبْقَ لقولِهِ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ موضعٌ إلّا أنْ يُصْرَفَ إلى حقيقةِ النظرِ، فيكونُ في هذا إثباتُ القولِ بالرؤيةِ.

والثاني: أنَّ الملوكَ الذينَ مِنْ عادَتِهِمُ الاحتِجابُ عنِ الخَلْقِ إذا قَرَّبوا إنساناً، لم يَحْتَجِبوا عنهُ، ويكونُ تَرْكُهُمُ[1] الاحتِجابَ آثَرَ إلى ذلكَ الذي أُكرِمَ بالتقريبِ منْ سائرِ ما يُكْرَمُ بهِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يُكْرِمُ أولياءَهُ بالنظرِ إليهِ، ويَتَفَضَّلُ عليهمْ بذلكَ.

[والثالث][2]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُنْصَرِفاً إلى انتِظارِ الثوابِ كما قالَهُ بعضُ أهلِ التأويلِ، فَتَنْتَظِرَ ما يأتيها مِنَ التُّحَفِ والكراماتِ حتى وُصِفوا بنضارةِ الوجوهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ بَعْدَ تلكَ الكراماتِ تُحَفٌ أُخَرُ، لم تأتِهِمْ بَعْدُ.

ألا تَرى إلى قولِهِ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؟ والبسورُ مِنْ أدنى أحوالِ التَّغَيُّرِ، وغايةُ التَّغَيُّرِ أنْ تَسْوَدَّ الوجوهُ، وتَكْلَحَ. فإذا لم يَحُلَّ بهؤلاءِ بَعْدُ غايةُ ما أُوعِدوا مِنَ العذابِ، فجائزٌ أنْ يكونَ الذينَ وعَدَ لهُمُ الكراماتِ، بَعْدُ لم يَنْتَهوا إلى أقصاها، ولم ينالوا بَعْدُ أرفَعَها، وإنما أُكْرِموا ببعضِها، وهمْ مُنْتَظِرونَ لِما يأتيهِمْ مِنْ بَعْدُ.

[والرابعُ][3]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنْ يَجْعَلَها ناظرةً[4] في ما أُكْرِمَتْ إلى اللهِ تعالى، ولا تَرى ذلكَ الفضلَ مُسْتَوجِباً مِنْ جهتِها كما قد يَرَى المرءُ في الشاهدِ بعضَ ما خُوِّلَ مِنَ المالِ بِحِيَلِهِ وسَعْيِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والخامسُ][5]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنْ ليسَ كلُّ الكراماتِ في نفسِهِ خاصّةً وإلى ما يَنْتَهي إليهِ نَظَرُهُ، بل يكونُ قَدْرُ[6] ذلكَ كراماتٍ أُخَرَ، فَيَنْصَرِفُ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إلى ذلكَ.

[والسادسُ: جائزٌ أنْ يكونَ][7]: إلى أمرِ ربِّها ناظرةٌ.

وإذا كانَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُحْتَمِلاً أنْ يُصْرَفَ إلى حقيقةِ النظرِ، ويُصْرَفَ إلى الكراماتِ مِنَ الوجوهِ التي بَيَّنّاها، لم يكنْ لأحدٍ أنْ يَجْعَلَ الأمرَ على الكراماتِ، فَيَنْفِيَ عنهُ حقيقةَ الرؤيةِ للأبدِ، لا بل ظاهرُهُ يُحيلُ القولَ بالرؤيةِ، فيدفَعُ هذا التأويلَ بتلكَ الدلائلِ.

فأمّا إذا لم يمكنْهُ إقامةُ الدلائلِ إلى حالةِ الرؤيةِ فليسَ لهُ قطعُ هذا التأويلِ، وصَرْفُ التأويلِ إلى انْتِظارِ الكراماتِ، فتكونُ الآيةُ حُجَّةً في جوازِ [الرؤيةِ][8] وإنْ لم تكنْ حُجَّةً في الوجوبِ[9]، والخلافُ فيهما واحدٌ.

واحتَجَّ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى حقيقةِ الرؤيةِ أنَّ قولَهُ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ هو مقابلُ قولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ وقولَهُ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [لا][10] على فَقْدِ الرؤيةِ، ولكنْ على العقابِ نفسِهِ.

فكذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ليسَ هو على حقيقةِ الرؤيةِ ووجودِها، ولكنْ واقعٌ على الثوابِ نفسِهِ.

وجوابُ هذا الفصلِ مِنْ وجهَينِ:

---

(١) في الأصل وم: بركة. (٢) و(٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: نظرها. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في م: بعد. (٧) في الأصل وم: و يحتمل أي. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: الوجوه. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

أحدُهما: أنّ أهلَ العقابِ بَعْدُ لم يَنْزِلْ بهمْ جميعُ ما أُوعِدوا في هذهِ الدنيا مِنَ العقابِ لِما ذَكَرْنا أنّ نهايةَ العذابِ في تَسَوُّدِ الوجوهِ وتَكَلُّحِها، ليسَ في بُسورِها. فلذلكَ استقامَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ على نفسِ العذابِ.

[والثاني: أنّ][1] أهلَ الجنةِ قد وصَلوا إلى رفيعِ الدرجاتِ وعظيمِ الكراماتِ، فَوُصِفوا[2] بنضارةِ الوجوهِ، فاسْتقامَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُنْصَرِفاً إلى رفيعِ حقيقةِ النظرِ لا إلى غَيرِهِ مِنَ الكراماتِ.

ولأنّ الرؤيةَ [منْ أعلَى الكراماتِ وأرفعِها، وأهلَ العقابِ لم يَنالوا أدنَى الكراماتِ، فكيفَ يَتَوَقَّعونَ أرفَعَها؟

أمّا أهلُ الجنةِ فهمْ قد نالوا مِنَ النِّعَمِ والكراماتِ ما لا يُحْصَى، فجائزٌ أنْ يُكْرَموا بالرؤيةِ][3] أيضاً.

والأصلُ أنّ القولَ بالرؤيةِ عندَنا واجبٌ، والنظرَ إليهِ ثابتٌ كما قالَ ﷻ: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٤٠ و...] في غيرِ خَبَرِ النظرِ إلى اللهِ تعالى، وقد قالَ ﷺ: «إنكم سَتَرَوْنَ ربَّكُمْ يومَ القيامةِ كما تَرَوْنَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا تُضامونَ في رؤيتِهِ» [البخاري ٦٥٧٣ ومسلم ١٨٢/٢٩٩].

وأهلُ التوحيدِ لم يَخْتَلِفوا في صحةِ الأخبارِ التي جاءتْ في إثباتِ الرؤيةِ. ولكنْ مَنْ نَفَى الرؤيةَ بالبصرِ صَرَفَ الأخبارَ إلى العلمِ؛ وذلكَ غيرُ مستقيمٍ لوجهَينِ:

أحدُهما: أنّ البِشارةَ بالرؤيةِ خُصَّ بها أهلُ الجنةِ. ولو كانَ المُرادُ مِنَ الرؤيةِ العلمَ لَارْتَفَعَ الِاخْتِصاصُ.

[والثاني][4]: لأنّ العلمَ ممّا يقعُ بهِ الاشتراكُ بينَ الفريقَينِ، ولأنّ كلّاً [منهما][5] يُجْمِعُ على[6] العلمِ باللهِ تعالى في الآخرةِ العلمَ الذي لا يَعْتَرِيهِ الوَسواسُ ولا الرَّيْبُ.

والعلمُ الذي لا يَعْتَرِيهِ الوَسواسُ والرَّيْبُ هو علمُ الِاسْتِدْلالِ لأنّ الآياتِ لا يُضْطَرُّ أهلُها إلى الحقيقيِّ. ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: ١١١] وقولِهِ[7]: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقولِهِ[8]: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾؟ [المجادلة: ١٨].

فإذا ثَبَتَ ما ذَكَرْنا فقد صاروا مُثْبِتينَ للرؤيةِ مِنَ [الوجوهِ التي][9] أرادوا نَفْيَها، وثَبَتَتِ الرؤيةُ على نَفْيِ جميعِ معاني الشَّبَهِ عنِ اللهِ تعالى، ولا نَصِفُ الرؤيةَ بالكَيفِيَّةِ؛ إذِ الكَيفِيَّةُ تكونُ لِذِي صورةٍ، وهو يُرَى بلا كيفَ؟ واللهُ المُوَفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الظَّنُّ في مَوضِعِ العِلْمِ ههنا، وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ الظَّنِّ؛ وذلكَ أنّ الظَّنَّ يَتَوَلَّدُ مِنْ ظواهرِ الأشياءِ، فالأسبابُ إذا كَثُرَتْ، وازْدَحَمَتْ، وقعَ بها العِلْمُ، وإذا قَلَّتْ، وخَفِيَتْ، لم يَقَعْ بها عِلْمٌ. فجائزٌ أنْ تكونَ أسبابُ الشَّرِّ أحاطَتْ بهِ منْ كلِّ جانبٍ حتى وقعَ اليأسُ مِنَ النجاةِ، وأيقَنَ أنهُ يُفْعَلُ بهِ الشَّرُّ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمْرُ[10] بَعْدُ لم يبلُغْ مَبْلَغَ الإياسِ، فَيَتَوَقَّعَ النجاةَ، ولا يَتَيَقَّنَ أنهُ يُفْعَلُ بها فاقرةٌ، بل يكونُ منهُ ظَنٌّ، واللهُ أعلَمُ.

والفاقرةُ: قيلَ: الشَّرُّ والمُنْكَرُ والداهيةُ، وقيلَ: الفقيرُ هو كَسيرُ الظهرِ، والفَقْرُ الكَسْرُ، والفَقارُ عظمٌ في الظهرِ يُكْسَرُ. فكانَ عظمُ الظهرِ يُكْسَرُ في الآخرةِ، ويُسْحَبُ في النارِ على وجهِهِ.

قالَ، رَحِمَهُ اللهُ: كانَ هذهِ السورةَ منْ أوّلِها إلى /٦١٧ ـ ب/ آخرِها إلّا آياتٍ منها، وهي[11] قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [الآيات: ٢٠ ـ ٢٥] نزلَتْ في تَبْيِينِ معاملةِ أحدٍ مِنَ الكفرةِ على الإشارةِ[12] إليهِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ لِيَشْتَرِكَ في حكمِ مَنْ يُشارِكُهُ في مُعاملتِهِ.

فأمَرَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُعامِلَهُ، ويَسْتَقْبِلَهُ بالذي [يَحِقُّ][13] على الحكماءِ مُعاملةَ السفهاءِ، ولم يأمُرْهُ أنْ يُعامِلَهُ

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: بما وصفوا. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، في الأصل: علم. (٧) في الأصل وم: وقال. (٨) في الأصل وم: وقال. (٩) في الأصل وم: الوجه الذي. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الأمن. (١١) في الأصل وم: وهو. (١٢) من م، في الأصل: الاستتارة. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

[مِثْلَ مُعاملةِ](١) السفهاءِ. ويبَيِّنَ معامَلَتَهُ في هذهِ السورةِ ليُعْلِمَ أُمَّتَهُ ما لَقِيَ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الجَهْدِ والبَلاءِ في إظهارِ دينِ اللهِ تعالى، فيَعْلَموا قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ، ويُعَظِّموا دينَ اللهِ تعالى بما نالوهُ سَمْحاً سَهْلاً.

وأَمَرَهُ أنْ يعامِلَ [مَنْ](٢) معهُ مُعاملةَ مَنْ يَرْجِعُ إلى المَنَعَةِ والشَّرْكَةِ بقولِهِ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [الآيتان: ٣٤ و٣٥] واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ فقولُهُ: ﴿كَلَّآ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهُما: أنْ يكونَ أُريدَ بهِ حقًّا.

[والثاني](٣): أنْ يكونَ على الرَّدْعِ والرَّدِّ، أي لا تَفْعَلْ مثلَ هذا فإنكَ سَتَنْدَمُ في الوقتِ الذي قالَ: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ كأنهمْ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ وقتِ نَدَمِهِ، فَبَيَّنَ لهمْ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [والتراقي](٤) هي عُروقُ العُنُقِ. كأنهُ يقولُ حينَ نزولِ النفسِ أي الروحِ عنْ مكانِها، وتَنْتَهي إلى التراقي.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الملائكةُ همُ الذينَ يقولونَ هذا؛ يقولُ بعضُهُمْ: مَنْ يَرْقى بروحِهِ: أملائكةُ الرحمةِ أم ملائكةُ العذابِ؟ ﴿مَنْۜ رَاقٍ﴾ يَرْقى أي يَصْعَدُ؟ ومَنْ يَقْبِضُ روحَهُ؟.

ويَحْتَمِلُ أنْ يقولَ أهلُهُ: مَنِ الذي يَرْقيهِ فَيُشْفى؟ فيكونَ فيهِ إخبارٌ عمّا حلَّ بهِ منَ الضعفِ والشِّدَّةِ:

إنهُ يمتنعُ عنْ أنْ يقولَ: ادْعوا لي راقياً لَعلّي أُشْفى، فيكونُ أهلُهُ همُ الذينَ يقولونَ هذا في ما بَيْنَهُمْ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الظَّنُّ على الإيقانِ ههنا لِما وَقَعَ لهُ اليأسُ منَ الحياةِ.

وكذلكَ رُوِيَ في قراءةِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما: وأَيْقَنَ(٥) أنهُ الفراقُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ الظَّنِّ لِما لم يقعْ لهُ اليأسُ منْ حياتِهِ بَعْدُ، فهو يأمُلُ بَعْدُ.

الآية ٢٩

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اخْتَلَفوا في تأويلِهِ: قيلَ: لُفَّتْ ساقاهُ إحداهما على الأخرى، فلا تَفْتَرِقانِ كالْتِفافِ الأشجارِ حتى لا يَجِدُ مَفَرّاً(٦) منها ولا هَرَباً. وقيلَ: إنَّ ساقَيْهِ في القيامةِ لَتَضْعُفُ عنْ حملِهِ منْ شِدَّةِ الفَزَعِ. وقيلَ: أُريدَ بالساقِ الشدةُ؛ يُقالُ: قامتِ الحربُ على ساقٍ أي على شدةٍ، أي وُصِلَتْ شِدَّةُ الموتِ بشِدَّةِ الآخِرَةِ، واجتَمَعَتْ شَدائدُ الدنيا معَ شِدَّةِ الآخِرَةِ عليهِ، لأنهُ قد حلَّتْ بهِ سَكَراتُ الموتِ، ونزلَتْ بهِ شدائدُ الآخِرَةِ، وذلكَ آخِرُ يومِهِ منَ الدنيا وأوّلُ يومِهِ منَ الآخِرَةِ.

وقيلَ: ما مِنْ مَيِّتٍ يموتُ إلّا الْتَفَّتْ ساقاهُ منْ شِدَّةِ ما يُقاسي منَ الموتِ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ مَعْناهُ: أنَّ الملائكةَ يُجَهِّزونَ روحَهُ، وبني آدمَ يُجَهِّزونَ بَدَنَهُ، فذلكَ الْتِفافُ الساقِ بالساقِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي إلى ما وَعَدَ ربُّكَ يومئذٍ يُساقُ إمّا إلى خيرٍ وإمّا إلى شرٍّ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي فلا صَدَّقَ بما جاءَ منْ عندِ اللهِ تعالى منَ الأخبارِ، ولا صَدَّقَ رسولَهُ ﷺ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ نفسُ الصلاةِ، وذلكَ أنَّ الصلاةَ جِيئَتْ إلى الأنفسِ كلِّها حتى لا تَرَى أهلَ دينٍ إلّا وقد وَجَبَتْ الصلاةُ عليهِمْ، فيكونُ في قولِهِ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ إبانةُ سَفَهِهِ وجهلِهِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي ولا أتى بالمعنى الذي لهُ الصلاةُ، وهو الإسْتِسْلامُ والإنْقِيادُ للهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: مثله من. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ويحتمل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١١. (٦) في الأصل وم: مفازا.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي ولكنْ كَذَّبَ الأخبارَ التي جاءَتْهُ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي أعرَضَ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي يَتَبَخْتَرُ، ويَتَكَبَّرُ؛ وذلكَ أنَّ الاختيالَ والتَّكَبُّرَ إنما يليقُ بِمَنْ أتى بِفعلٍ عَظيمٍ، يَعْجِزُ غيرُهُ عنْ إتْيانِ مثلِهِ نَحْوَ أنْ يَهْزِمَ جُنداً عظيماً أو يَفْتَحَ كورةً حَصينةً، وهذا الذي تَمَطَّى لم يَفْعَلْ سِوَى أنْ كَذَّبَ بآياتِ اللهِ تعالى، وأعرَضَ عنْ طاعتِهِ، وما هذا إلّا فِعْلُ السفهاءِ الحَمْقَى، فأنّى يَليقُ بِمِثْلِهِ التَّمَطّي؟.

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما:][1] جائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ قيلَ لهُ: قلْ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قالَ لهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وبيَّنَ اللهُ تعالى ذلكَ في كتابِهِ.

وقالَ أهلُ التأويلِ: هذا وَعيدٌ على وَعيدٍ؛ كأنهُ قالَ: وَيلٌ لكَ فَوَيلٌ، ثم وَيلٌ لكَ فَوَيلٌ؛ ذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخَذَ بجميعِ ثيابِهِ، وقالَ لهُ هذا، فلم يَتَهَيَّأْ لذلكَ المسكينِ لأنْ يدفَعَ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ نفسِهِ، وكانَ يَفْتَخِرُ بكثرةِ أنصارِهِ أنهُ أعزُّ مَنْ يمشي بينَ الجبلَينِ. فاللهُ تعالى بلطفِهِ أذلَّهُ، وأهانَهُ، حتى لم يَتَهَيَّأْ لهُ الحِراكُ ممّا نزَلَ بهِ، ولا نَفَعَتْهُ قِواهُ وكَثرةُ أتباعِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي لَأَجْدَرُ بكَ أنْ تَنْظُرَ في ما جاءَ [بهِ][2] محمدٌ ﷺ وفي الذي كانَ عليهِ آباؤُكَ لِيَظْهَرَ لكَ الصوابُ منَ الخَطَإِ والحقُّ مِنَ الباطلِ، فَتَتَّبِعَ الصوابَ منْ ذلكَ. فَتَتَجَهَّزَ بهِ شرفَ الدنيا والآخِرةِ، إذْ كانَ يَفْتَخِرُ بِشَرَفِهِ وعِزِّهِ؛ فإنْ أردتَ أنْ يَدومَ لكَ الشَّرَفُ، فالأَولى لكَ أنْ تَنْظُرَ إلى ما ذَكَرْنا، فَتَتَّبِعَ الصوابَ مِنْ ذلكَ.

والثاني: أنَّ العربَ كانتْ عادتُها أنْ تقومَ بِنَصْرِ قبيلتِها، وتَذُبَّ عنها: كانَتْ ظالمةً في ذلكَ أولم تَكُنْ ظالمةً في ذلكَ، ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ مِنْ قبيلةِ أبي جهلٍ. فلو كانَ على غَيرِ حقٍّ عندَهُ كانَ الأَولَى بهِ أنْ يَنْصُرَهُ ويُعينَهُ على ما عليهِ عادةُ العربِ، وإنْ كانَ مُحِقًّا فهو أولَى. فَتَرَكَ ما هو أولَى مِنَ النصرِ والحِمايةِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [فيهِ وجهانِ:

أحَدُهما:][3] جائزٌ أنْ يكونَ هذا الإنسانُ دَهْرِيَّ المذهبِ، فيكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ على حقيقةِ الحُسْبانِ لأنهُ يحسَبُ أنْ لا بَعْثَ ولا حساب، وقد كانَ في أهلِ مكةَ مَنْ هو دهريُّ المذهبِ، وإنْ كانَ الخِطابُ في قولِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ليسَ على تحقيقِ الحُسْبانِ. ولكنْ مَعْناهُ: أتَفْعَلُ فِعْلَ مَنْ يُؤْذِنُ عنْ أمرٍ كانَ فَعَلَهُ مُوافقاً لِفِعلِ مَنْ يَحْسَبُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً؟ كما ذَكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] وهو لا يُريدُ أنْ يكونَ فاجراً في الحقيقةِ، ولكنْ يَفْعَلُ فِعْلَ مَنْ يَعْقُبُ فِعْلَهُ الفجورُ، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وليسَ على حقيقةِ الظَّنِّ. ولكنْ إذا لم يَقُلْ بالبعثِ، ولم يؤمِنْ بهِ، فقد وَصفَ أنَّ خَلْقَهُما إذَنْ على باطلٍ، وذلكَ الفعلُ الذي ذَكَرْنا يكونُ في تَرْكِ الإيمانِ بالبعثِ وفي جُمودِ الرسالةِ، لأنَّ المحاسِنَ لا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ لها عَواقِبُ، وكذلكَ المَساوِئُ.

ثم تَمُرُّ هذهِ الدارُ على المُسيءِ والمُحْسِنِ مَرّاً واحداً، فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ بعدَها[4] دارٌ أُخرَى، فيها تَتَبَيَّنُ مَرْتَبةُ المُحْسِنِ ومَدارُ[5] المُسيءِ. فَمَنْ[6] لم يؤمِنْ بالبعثِ فهو لم يَجْعَلْ للمَحاسِنِ والمَساوِئِ عواقِبَ، وسَوَّى بينَ مَرْتَبةِ المُسيءِ ومَرْتَبةِ المُحْسِنِ، وذلكَ عَبَثٌ.

والثاني: أنَّ مَنْ عَرَفَ أنهُ لم يُخْلَقْ عَبَثاً، ولا يُتْرَكُ /٦١٨ ـ أ/ سُدىً فلا بُدَّ لِمِثْلِهِ مِنْ أنْ يَرْغَبَ، ويَرْهَبَ، ويُؤْمَرَ، ويُنْهَى، ولا يَعْرِفُ ذلكَ إلّا بالرسولِ، والضرورةُ أحْوَجَتْ إلى رسولٍ يُبَيِّنُ لهمْ ما يأتونَ وما يَتَّقونَ وما يَرْغَبونَ في مثلِهِ وعمّا يَحْذَرونَ. فَمَنْ أنكَرَ الرسالةَ فقد أهْمَلَ نفسَهُ عنِ المرغوبِ والمرهوبِ وعنِ الأمرِ والنَّهْيِ، وذلكَ حالُ مَنْ خُلِقَ سُدىً.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من م. (٥) من م، في الأصل: ومدار. (٦) في الأصل وم: فما.

الآيات ٣٧ و٣٨ و٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ والوجهُ فيهِ أنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّ نُشوءَهُ كانَ مِنْ نُطفةٍ، وتلكَ النُّطفةُ لو رُئِيَتْ موضوعةً على طَبَقٍ، ثم اجتَمَعَ حكماءُ الأرضِ على أنْ يَقْدِروا منها بَشَراً سَوِيّاً كما قَدَّرَهُ اللهُ تعالى في تلكَ الظلماتِ لم يَصِلوا إليهِ أبداً، وإنِ استَفْرَغوا جُهودَهُمْ، وأنفَدوا حِيَلَهُمْ وقِواهُمْ، ولو أرادوا أنْ يَتعرَّفوا المَعْنَى الذي لِذلكَ المَعْنَى صَلَحَتِ النُّطفةُ على أنْ يُنْشَأَ منها العَلَقَةُ والمُضْغَةُ إلى أنْ يُنْشَأَ بَشَرٌ سَوِيٌّ عليهِ، لَعَلِموا[1] أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هذا، هو أحكَمُ الحاكمينَ.

ولو كانَ الأمرُ على ما زَعموا أنْ لا بَعْثَ لم يكُنْ هو أحكَمَ الحاكمينَ، بل كانَ واحداً مِنَ اللاعِبينَ.

ويَتَبَيَّنُ ممّا ذكَرْنا أنَّ قُدْرتَهُ[2] لا تُوصَفُ بالعَجْزِ، ومَنْ زَعَمَ أنَّ قدرتَهُ لا تَنْتَهي إلى البَعْثِ فقد وَصَفَ الربَّ بالعَجْزِ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠ والزمر: ٦٧].

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ فقولُهُ: ﴿أَلَيْسَ﴾ في موضعِ التحقيقِ والتقريرِ، وإنْ كانَ خارجاً مَخرَجَ الاستِفهامِ على ما ذَكَرْنا أنَّ ما يَخرُجُ مَخرَجَ لاستفهامٍ مِنَ اللهِ تعالى فحقُّهُ أنْ يُصْرَفَ[3] إلى الوجهِ الذي يَقْتَضيهِ ذلكَ الخطابُ، إذْ لو كانَ مِنْ مُستَفهِمٍ مِمَّنْ قالَ لآخَرَ في الشاهدِ: أليسَ اللهُ تعالى بقادرٍ على إحياءِ الموتى؟ فحقُّهُ أنْ يقولَ: بلى هو قادرٌ على ذلكَ. وكذلكَ ذُكِرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ حينَ تلا هذهِ الآيَةَ: «سُبحانَكَ فَبَلَى» (أبو داوود ٨٨٤).

فقولُهُ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [أي هو قادرٌ على إحياءِ المَوتى][4] واللهُ المُوَفِّقُ، وإليهِ المُستعينُ، [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][5].

(١) في الأصل وم: فيعلموا. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (٣) في الأصل وم: يصرفه. (٤) من م ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من م.

سورة الإنسان

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فـ: ﴿هَلْ﴾، و﴿مَن﴾، و﴿لَعَلَّ﴾: مِنَ اللهِ تعالى واجبٌ، وحقُّهُ أنْ يُنْظَرَ أنْ لو كانَ مثلُ هذا الكلامِ مِنْ مُسْتَفْهِمٍ ما الذي كانَ يقتضي مِنَ الجوابِ؟ فإذا قالَ الإنسانُ لآخرَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٣٧ و. . .] فجوابُهُ أنْ يقولَ: لا أحدَ أظلمُ منهُ، وإذا قالَ لآخرَ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ﴾ [طه: ٩ و. . .] فحقُّ المُجيبِ أنْ يقولَ، إنْ كانَ قد أتاهُ حديثُ فلانٍ: فقد أتاني، وإنْ كانَ لم يأتِهِ فحقُّهُ أنْ يَسْأَلَهُ: كيفَ كانَ حديثُهُ لِيَعْرِفَهُ؟ فإنْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد أتاهُ خبرُ الإنسانِ بِمَعنى قولِهِ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ أي قد أتى على الإنسان. وإنْ لم يكُنْ أتاهُ فحقُّهُ أنْ يَسْأَلَهُ حتى يُبَيِّنَ لهُ. وقيلَ: الإنسانُ آدمُ ﷺ.

ثم لقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ[2] قالَ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فهو إنْ لم يكُنْ شيئاً في ذلكَ الوقتِ، لم يكُنْ إنساناً؟ وإذا لم يكُنْ إنساناً لم يأتِ عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، وهو إنسانٌ؟

وإنْ كانَ في ذلكَ الوقتِ مخلوقاً فقد صارَ مذكوراً، وإذا صارَ مذكوراً فقد أتى عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، وهو مذكورٌ، فما معناهُ؟ قيلَ: فيهِ أوجهٌ:

أحدُها: أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ أي على ما مِنْهُ الإنسانُ، وهو الأصلُ الذي خُلِقَ منهُ آدمُ ﷺ وهو الترابُ، فقالَ: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ على الإسْتِصغارِ لذلكَ الأصلِ، إذِ الترابُ لا يُذْكَرُ في الأشياءِ المذكورةِ. وإلى هذا يذهبُ أبو بكرٍ الأصمُّ.

والوجهُ الثاني: قيلَ: قد أتىَ على الخَلْقِ حينٌ مِنَ الدهرِ لم يكُنِ الإنسانُ فيهِ شيئاً مذكوراً في تلكَ الخلائقِ.

والوجهُ الثالثُ: قد أتىَ عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ، ولم يكُنْ مذكوراً في المُمْتَحَنينَ، وهذا في كلِّ إنسانٍ، لأنهُ ما لم يَبْلُغْ لم يَجْرِ عليهِ الخطابُ، ولم يكُنْ مذكوراً في المُمْتَحَنينَ.

قالَ اللهُ تعالى: خَلَقَ الخلائقَ لِيَعْبُدوهُ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقولُهُ: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذا صاروا مِنْ أهلِ المِحْنةِ. فإلى أنْ يَبْلُغَ قد أتَى عليهِ حينٌ مِنَ الدهرِ لم يكُنْ مذكوراً في جملةِ مَنْ خُلِقوا للعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [فيه وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّ][3] الإنسانَ لم يكُنْ إنساناً في النُّطفةِ ولا في العَلَقةِ ولا في المُضْغةِ، ولكنَّ المَقصودَ مِنْ إنشاءِ النُّطفةِ والعَلَقةِ هذا الإنسانُ، والعَواقِبُ في الأفعالِ هي الأوائلُ في القَصْدِ والمُرادِ. فاستَقامَتْ إضافتُهُ إلى ما ذَكَرْنا لِما رَجَعَ إليهِ القَصْدُ مِنْ إنشائِها.

ورُوِيَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أردْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقِبَتَهُ، إنْ كانَ رُشْداً فامْضِهِ وإنْ كانَ غَيّاً فانْتَهِ» [الزبيدي في الإتحاف ١٠/٩٣، وعَزاهُ لابنِ المُبارَكِ في الزهدِ].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٣) في الأصل وم: و.

فاللزومُ النَّظَرُ في العَواقِبِ، فَثَبَتَ أنَّ المَقْصودَ مِنْ فِعْلِ أهلِ التَّمْييزِ العاقبةُ، وإنْ كانَتِ العاقبةُ مَقْصوداً إليها في الابْتِداءِ. لذلكَ اسْتَقامَتْ إضافةُ الإنسانِ إلى النُّطفةِ والعَلَقةِ والمُضْغةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مُنْصَرِفٌ إلى أولادِ آدمَ، فيكونُ المَعْنى منَ الإنسانِ أولادَهُ. ثم ذكَرَ لهمْ ابتداءَ أحوالِهِمْ وما تَنْتَهي إليهِ عاقبتُهُمْ، وهو الموتُ، لِيَتَّعِظوا بهِ، وَيَتَذَكَّروا.

ووجهُ الاتِّعاظِ، هو أنهمْ إذا عَلِموا ابْتِداءَ أحوالِهِمْ، وعَلِموا ما تَنْتَهي إليهِ عاقبتُهُمْ، عَلِموا في الحالِ التي همْ فيها أنَّ أنفسَهُمْ في أبدانِهِمْ ليسَتْ لهمْ، بل [هي][1] عاريةٌ في أبدانِهِمْ؛ إذ لم يكُنْ منهمْ صنعٌ في الابْتِداءِ، وأمانةٌ، والحقُّ على الأعْيُنِ أنْ تقومَ بحفظِ الأمانةِ ورعايَتِها وألّا تَخونَ صاحبَها فيها.

فإنْ هو خانَها، ولم يَتَوَلَّ حِفْظَها لَحِقَتْهُ المَسَبَّةُ والمَذَمَّةُ. وإنْ حَفِظَها، ورَعَاها حقَّ رِعايَتِها اسْتَوجَبَ الحمدَ والثناءَ مِنْ صاحِبِها.

والحقُّ على المُسْتَعيرِ أنْ يَتَمَتَّعَ بالعاريةِ، ويَنْتَفِعَ بها إلى الوقتِ الذي أُذِنَ لهُ، وألّا يُضَيِّعَها. فإنْ ضَيَّعَها لَحِقَتْهُ الغَرامةُ والضَّمانُ بِتَضْييعِهِ إيّاها. وكذلكَ إذا عَلِموا أنها /٦١٨ - ب/ في أبدانِهِمْ عاريةٌ وأمانةٌ عَلِموا أنَّ عليهمْ رعايَتَها واسْتِعمالَها في الوجهِ الذي أُذِنَ لهمْ فيها، فلا[2] تَلْحَقُهُمُ التَّبِعةُ في العاقبةِ، ولا تَلْزَمُهُمُ المَسَبَّةُ والمَذَمَّةُ في ذلكَ في الدنيا والآخرةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: أنَّ النَّظَرَ في ابْتِداءِ الخِلْقةِ إلى ما يَصيرُ عندَ انْقِضاءِ الأمْرِ يَدْعو إلى إيجابِ القولِ بالبعثِ إلى التصديقِ بكلِّ ما يأتي بهِ الرسلُ منَ الأخبارِ؛ وذلكَ أنَّ التَّأمُّلَ في ابْتِداءِ الخِلْقةِ يُظْهِرُ عَجيبَ قدرةِ اللهِ تعالى ولطيفَ حكمتِهِ، ويُعْلِمُ أنَّ الذي بلَغَتْ حكمتُهُ هذا المبلَغَ لا يجوزُ أنْ يقَعَ قَصْدُهُ مِنْ إنشاءِ الخَلْقِ للإفناءِ خاصةً لِخُروجِهِ عنْ حدِّ الحكمةِ، فَيَحْمِلَهُمْ على القولِ بالبعثِ. ولأنَّ النَّظَرَ في ابْتِداءِ الخِلْقةِ والنَّظَرَ إلى ما يَرْجِعُ إليهِ بعدَ الوفاةِ ممّا يمْنَعُ الافْتِخارَ والتَّكَبُّرَ لأنَّ إنشاءَهُ كانَ مِنْ نُطْفَةٍ، يَسْتَقْذِرُها الخلائقُ، ومِنْ عَلَقةٍ ومُضْغةٍ، يَسْتَخْبِثُها كلُّ أحدٍ، وبعدَ المماتِ يَصيرُ جُثَّةً[3] قَذِرةً.

ومَنْ كانَ هذا شأنُهُ لم يَحْسُنِ التَّكبُّرُ في مثلِهِ، فكانَ في تذكيرِ أوائلِ الأحوالِ وأواخِرِها موعظةٌ لهمْ لِيَتَّعظوا، ويتَبَصَّروا، وتعريفٌ لهمْ أنَّ التَّكبُّرَ لا يَحْسُنُ مِنْ أمثالِهِمْ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التواضعِ وتركِ الافْتِخارِ والتَّجَبُّرِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ والأمشاجُ الأخلاطُ، ثم الأخلاطُ يَقَعُ بوجهَينِ:

أحدُهما: في اختِلاطِ ماءِ الرجلِ بماءِ المرأةِ.

والثاني: يقعُ في الأحوالِ، وهي أنَّ النُّطفةَ إذا حُوِّلَتْ عَلَقةً، لم تُحَوَّلْ بِدَفْعةٍ واحدةٍ، بل هي تَغْلُظُ شيئاً فَشيئاً حتى إذا تَمَّ غِلَظُها صارَتْ عَلَقةً، وكذلكَ العَلَقةُ يدخُلُ فيها التَّغْييرُ شيئاً فَشيئاً حتى إذا تَمَّ التَّغْييرُ فيها حالَتْ مُضْغَةً، فهذا هو الاخْتِلاطُ في الأحوالِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: الأخلاطُ الطبائعُ الأربعةُ التي عليها جُبِلَ الإنسانُ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَ الخَلْطَ [إلى][4] الألوانِ، فَذَكَرَ أنَّ ماءَ الرجلِ أبيضُ يُخالطُهُ حُمْرَةٌ، وماءَ المرأةِ أحمرُ يُخالطُهُ صُفْرَةٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بالخيرِ والشَّرِّ والأمرِ والنهيِ. ثم الابْتِلاءُ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما:][5] هو الاسْتِظهارُ لِما خَفِيَ منَ الأمورِ، واللهُ تعالى لا يَخْفَى عليهِ أمرٌ، فَيَحتاجُ إلى استظهارِهِ، ولكنْ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ لِيَظْهَرَ لِلْمُبْتَلَى ما كانَ خَفِيّاً عليهِ بِفِعلِهِ وتَركِهِ.

وأمّا الخَلْقُ فهمْ يُمْتَحَنونَ، ويُبْتَلَونَ لِيَظْهَرَ لهمْ ما كانَ خَفِيّاً عليهِمْ، فيكونُ الابْتِلاءُ مُنْصَرِفاً إليهِمْ لا إلى المُبْتَلِي والمُمْتَحِنِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) في م: جيفة. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: أنَّ الإبْتِلاءَ لِما كانَ الإسْتِظهارُ لِما خَفِيَ مِنَ الأمورِ؛ وذلكَ يكونُ بالأمرِ والنهيِ، فَسُمّيَ الأمرُ مِنَ اللهِ تعالى والنهيُ لعبادِهِ ابْتِلاءً لِمكانِ الأمرِ والنَّهيِ لا على تحقيقِ مَعْنَى الإبْتِلاءِ منهُ.

وقالَ الحسنُ: لمّا صَلَحَ أنْ يُضافَ الإسْتِخبارُ إلى اللهِ تعالى، وإنْ كانَ هو خبيراً بما اسْتُخْبِرَ، فجائزٌ أنْ يُضافَ إليهِ الإبْتِلاءُ أيضاً، وإنْ كانَ هو بالذي ابْتلاهُ عالماً بَصيراً مِنَ العبدِ بعدَ الإبْتِلاءِ مِنَ الفعلِ [ما][1] كانَ غائباً، فاللهُ يعرفُهُ شاهداً بِفِعْلِهِ، وقبلَ ذلكَ كانَ يعرفُهُ غائباً، لأنَّ معرفةَ ما يكونُ أنْ يُعْرَفَ مثلُ كونِهِ غائباً وبعدَ كونِهِ شاهداً، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي جَعَلْنا لهُ سَمْعاً، يُمَيِّزُ بينَ ما يُؤدِّي إليهِ سَمْعُهُ، وجَعَلْنا لهُ بَصَراً، يُبْصِرُ بهِ ما أدّى [إليهِ][2] بَصَرُ الوجهِ لِيَضَعَ كلَّ شيءٍ موضِعَهُ، وذلكَ هو بَصَرُ القلبِ وسَمْعُ القلبِ لأنهُ خَصَّ البَشَرَ بالإبْتِلاءِ لمكانِ بَصَرِ الباطنِ والسمعِ الباطنِ.

ألا تَرَى أنَّ البهائمَ لها بَصَرُ الظاهرِ وكذا السمعُ؟ ويَحْتَمِلُ أي جَعَلْناهُ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، يُبْصِرُ مالَهُ وما عليهِ وما يَنْفَعُهُ وما يَضُرُّهُ، ثم أنشأَ فيهِ السمعَ والبصرَ، ولا يَعْرِفُ كَيفِيَّةَ السمعِ والبصرِ الذي جعلَ فيهِ، ولا ماهِيَّتَهُ ولا مِمَّ هو لُطفاً منهُ لِيَعْلَمَ أنهُ مُنْشِئُ الكَيفيّاتِ والماهِيّاتِ وأنهُ يَتعالى عنِ الوصفِ لهُ بالكَيفِيَّةِ والماهِيَّةِ؟

الآية ٣ ثم قالَ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ يَحتَمِلُ قولُهُ ﷺ ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: هَدَيناهُ السبيلَ لإصلاحِ بَدَنِهِ ومعاشِهِ.

[والثاني][3]: هَدَيناهُ السبيلَ الذي يَصِلُ[4] بهِ إلى اسْتِبْقاءِ النسلِ والتوالُدِ إلى يومِ التَّنادي.

[والثالثُ][5]: هَدَيناهُ السبيلَ الذي يرجعُ [إلى][6] إصلاحِ دِينِهِ[7] وأمرِ آخِرَتِهِ[8] باكتِسابِ المَحامدِ والمَحاسنِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ إنهُ قد بَيَّنَ لهمُ السبيلَ، وهداهُمْ إليهِ، ثم منهمْ مَنْ يَختارُ الشكرَ، ومنهمْ مَنْ يَختارُ الكُفْرانَ لهُ.

الآية ٤ ثم بَيَّنَ ما أعَدَّ لِلْكفورِ منهمْ، وهو ما قالَ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَفِرِينَ سَلَسِلَاْ وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا﴾.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ إنْ كانَ المُرادُ منهُ الطريقَ فكأنهُ قالَ: إنّا بَيَّنّا كِلا الطريقَينِ؛ فإنْ سلكَ طريقَ كذا، واختارَهُ، فيكونُ [شاكراً، وإنْ سَلَكَ طريقَ كذا فيكونُ][9] كفوراً. ثم بَيَّنَ لكلِّ طريقٍ سَلَكَهُ[10] جزاءً وثواباً.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَفِرِينَ سَلَسِلَاْ وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا﴾ فيهِ إنباءُ أنَّ أيديَهُمْ تُغَلُّ، ويُشَدُّونَ بالسلاسلِ، فلا يَتَهَيَّأُ لهمْ أنْ يَتَّقُوا العذابَ عنْ أوجُهِهِمْ.

ثم قُرِئَ سَلاسِلَ[11] لأنها غَيرُ مُنْصرفةٍ، وقُرِئَ سَلاسِلاً، وصَرَفوهُ بِناءً على أنَّ الأسماءَ كلَّها منصرفةٌ إلّا [نوعاً واحداً][12] وقالَ الزَّجّاجُ: السلاسِلُ لا تَنْصَرِفُ [لأنها اسْمٌ][13] لا فِعْلَ لها، لكنْ صَرَفَها ههنا لأنها مِنْ رؤوسِ الآياتِ. وقيلَ: لأنهُ جَعَلَهُ رأسَ الآيةِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فمنهمْ منْ ذَكَرَ أنَّ الكافورَ شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ تعالى لِأهلِ كرامتِهِ، لم يُطْلِعْ عبادَهُ على ذلكَ في الدنيا. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الكافورَ شيءٌ جَرَى ذِكْرُهُ في الكتبِ المُتَقَدِّمةِ، فَذَكَرَ ذلكَ في القرآنِ، ومنهمْ منْ قالَ: إنهُ عينٌ من عيونِ الجنةِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى الكافورِ المعروفِ.

لكنْ قيلَ: إنهُ كِنايةٌ عنْ طيبِ الشرابِ، وقيلَ: إنهُ كِنايةٌ عنْ بُرودةِ الشرابِ لأنهُ ذُكِرَ أنَّ ذلكَ الشرابَ في طَبْعِهِ

---

(١)و(٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: يصلون. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: دينهم. (٨) في الأصل وم: آخرتهم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: الذي. (١١) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٨/ ١٩. (١٢) في الأصل وم: نوع واحد. (١٣) في الأصل وم: لأنه.

كالكافورِ [لأنَّ ألذَّ][١] الشرابِ عندَ الناسِ الباردُ منهُ، لا أنْ يكونَ في نفسِهِ بارداً، وذَكَروا أنَّ الكأسَ لا تُسَمَّى كأساً حتى يكونَ فيها خمرٌ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [ومَعْنَى ﴿بِهَا﴾][٢] منها، لا أنْ يَقَعَ شُرْبُهُمْ بها، وسُمِّيَتِ العينُ عيناً لِوُقوعِ العينِ [عليها][٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فيه إخبارٌ أنَّ ماءَ العيونِ جاريةٌ يُفَجِّرونَها مِنْ حيثُ شاؤوا.

ثم المرادُ مِنْ ذِكْرِ العبادِ ههنا [أنهمْ][٤] همُ الذينَ أطاعوا اللهَ، وقاموا بِوَفاءِ ما عليهِمْ، وهمُ الذينَ قالَ اللهُ تعالى [فيهِمْ][٥]: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ والنَّذْرُ هو العَهْدُ؛ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بِهِ الوفاءَ بكلِّ ما أوجَبَ اللهُ تعالى مِنَ الفرائضِ والحقوقِ، فتكونُ فرائضُهُ عَهْدَهُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ [البقرة: ٤٠].

وجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالنَّذْرِ ما أوجَبوا على أنفسِهِمْ مِنَ القُرَبِ سِوَى ما أوجَبَها اللهُ تعالى عليهِمْ. فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنهمْ قاموا بأداءِ الفرائضِ، وتقرَّبوا إلى اللهِ تعالى معَ ذلكَ بِقُرَبٍ أُخَرَ، فاسْتَوجَبوا المدحَ بِوَفائِهِمْ بما أوجَبوا على أنفسِهِمْ؛ قالَ ﷻ: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] فَلَحِقَهُمُ الذَّمُّ لِما لم يقوموا برعايةِ حقِّهِ، ليسَ بإيجابِهِمْ على /٦١٩ ـ أ/ أنفسِهِمْ ما لم يُوجِبْهُ اللهُ عليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ قيلَ: اسْتَطارَ شَرُّ ذلكَ اليومِ، فَمَلأَ السمواتِ والأرضينَ وكلَّ شيءٍ حتى انشَقَّتِ السمواتُ، وتناثَرَتِ النجومُ ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

ومعناهُ أنَّ هَولَ ذلكَ اليومِ قد عَمَّ، وفَشا في أهلِ السمواتِ والأرضِ حتى خافوا على أنفسِهِمْ. وقيلَ: سُمِّيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي طويلاً، ويُقالُ: اسْتَطارَ الرجلُ إذا اشْتَدَّ غضبُهُ، واسْتطارَ الأمرُ أي اشْتَدَّ، فَسُمِّيَ ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي شديداً.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فالحبُّ يَتَوجَّهُ إلى معانٍ:

يَتَوجَّهُ إلى الإيثارِ مَرَّةً، وإلى مَيلِ النفسِ ورُكونِ القلبِ أُخرَى، ومَرَّةً يُعَبَّرُ عنِ الشَّهْوَةِ.

فالمُرادُ مِنَ الحُبِّ ههنا الشَّهْوَةُ، فيكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ على شَهْوَتِهِمْ وحاجتِهِمْ إليهِ.

وقيلَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ في حالِ عِزَّةِ الطعامِ، وقيلَ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ﴾ حبِّهِمْ للحياةِ[٦] وحِرْصِهِمْ عليها، ليسَ أنْ يُطْعِموا عندَ الإياسِ مِنَ الحياةِ على ما رُويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «أفضلُ الصدقةِ أنْ تَتَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ تأمُلُ العيشَ وتَخشَى الفَقْرَ» [مسلم ١٠٣٢].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ قيلَ: إنهمْ لم يَتَكَلَّموا بهذا اللفظِ أعني: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ الآيةَ. ولكنْ عَلِمَ اللهُ تعالى ذلكَ مِنْ قلوبِهِمْ، فأثْنَى عليهِمْ بذلكَ لِيَرْغَبَ في ذلكَ الراغبونَ.

ألا تَرَى أنهمْ كانوا يُطْعِمونَ الأسارَى، ولا يُطْمَعُ مِنَ الأسارَى المُجازاةُ والشكرُ، لِيُعْلَمَ أنهمْ لم يَقْصِدوا بِهِ [إلّا][٧] وجهَ اللهِ تعالى والتَّقَرُّبَ إليهِ؟ والمُجازاةُ هي المُكافأةُ لِما أسْدَى إليهِ، والشكرُ هو الثناءُ عليهِ والنَّشْرُ[٨] عنه.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فمنهمْ مَنْ جعلَ هذا نَعْتاً لذلكَ اليومِ، فيكونُ معناهُ: أنَّ هذا اليومَ، وهو يومُ القيامةِ مِنْ بينِ سائرِ الأيامِ، كالإنسانِ العَبوسِ مِنْ بينِ غَيرِهِ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى الخلائقِ، فيكونُ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي يوماً تَعبُسُ فيهِ وجوهُ الخلائقِ، لا أنْ يكونَ اليومُ نفسُهُ عَبوساً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و. . .] أي يُبْصَرُ فيهِ، وتقولُ العربُ: ما زالَ

---

(١) في الأصل: لأن الذي، في م: لا الذي. (٢) في الأصل وم: ومعناه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: لها. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: واليسر.

الطريقُ يَمُرُّ منذُ اليومِ على مَعْنَى: يَمُرُّ الناسُ فيهِ، فَيَرْجِعُ هذا إلى وَصْفِ ما يكونُ عليهِ ذلكَ اليومُ على ما ذَكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ اليومَ بالأحوالِ التي يكونُ عليها حالُ ذلكَ اليومِ؛ فَمَرَّةً قالَ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٣٢] ومَرَّةً قالَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] وغيرَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ قيلَ: شديداً، وقيلَ: القَمْطريرُ الذي يَقْبِضُ الوجهَ بالبُسورِ والعُبوسةِ، ويَزْوِي ما بينَ العَينَينِ، وقيلَ: القَمْطريرُ المُشَدَّدُ[1] على أهلِ النارِ، وقيلَ: القَمْطريرُ هي كلمةٌ مِنْ كتبِ الأوَّلينَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ الوِقايةُ مُنْصَرِفةً إلى الموعودِ في ذلكَ [اليومِ][2] مِنَ العقوبةِ والنَّكالِ لا أنْ يكونوا وُقُوا مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ، فلا يَرَوْنَ الجحيمَ ولا أهوالَها.

وجائزٌ أنْ يكونَ وَقاهُمْ عمّا كانوا يَخافونَ مِنَ التَّبِعَةِ لَدَى الحِسابِ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] فكأنَّهمْ يَخافونَ على أنفسِهِمُ المُناقشةَ في الحِسابِ؛ فإذا رَأَوا سَيِّئاتِهِمْ مَغْفورةً وحَسَناتِهِمْ مُتَقَبَّلَةً سُرُّوا بذلكَ، وَوُقُوا شَرَّهُ.

وجائزٌ أنْ يكونوا أُومِنوا مِنْ أهوالِ القيامةِ وأفزاعِها حينَ نُشِروا مِنَ القبورِ، وتَلَقَّتْهُمُ الملائكةُ بالبِشارةِ كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ فالسرورُ عبارةٌ عنِ انْتِفاءِ الحزنِ عنهمْ، والنَّضْرَةُ أَثَرُ كُلِّ نعيمٍ. وقيلَ: نَضْرَةً في وجوهِهِمْ وسُروراً في قلوبِهِمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي على الطاعاتِ وصَبَروا عنْ مَعاصي اللهِ ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي جَزاهُمْ جنةً، وجَزاهُمْ حريراً؛ فذكَرَ الحريرَ لأنَّ الجِنانَ إنما تُذْكَرُ في موضعِ التَّطَرُّبِ والتَّنَعُّمِ بالمآكِلِ والمَشارِبِ دونَ التَّنَعُّمِ باللباسِ، فَوَعَدَ لهمْ مِنَ اللباسِ الحريرَ مع ما جَزاهُمُ الجنةَ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ يُذْكَرُ تفسيرُها بعد هذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ بل يكونُ ظِلُّها دائماً مَحْدوداً. فجائزٌ أنْ يكونَ المرادُ منهُ أنَّ ضِياءَ الجنةِ ليسَ بالشمسِ، ولكنْ بما خُلِقَتْ مُضيئةً، لأنَّ الشمسَ في الدنيا يَقَعُ بها الضياءُ، فيكونُ ضياءُ النهارِ بالشمسِ، وذَكَرَ أنهمْ لا يَرَونَ فيها الزمْهَريرَ لِيُعْلَمَ أنَّ لَذّاتِ شرابِ الجنةِ وبُرودَتَهُ بالخِلْقةِ لا أنْ تكونَ بُرودتُها بِتَغَيُّرٍ يَقَعُ في الأحوالِ على ما يكونُ عليهِ شرابُ أهلِ الدنيا، أو يكونَ ذكَرَ هذا لِيَعْلَموا أنهمْ لا يُؤذَوْنَ بِحَرٍّ ولا بَرْدٍ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ فجائزٌ أنْ يُرادَ أنها دانيةٌ مِنْ هؤلاءِ الذينَ سَبَقَ نعتُهُمْ، وهمُ الأبرارُ كقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وذُكِرَ أنَّ ظِلالَها دانيةٌ لأنها لو لم تكنْ دانيةً لكانَ لا يَقَعُ لهمْ بها انْتِفاعٌ. وقيلَ: هي ظلالُ غُصونِ الأشجارِ قريبٌ منهمْ لأنَّ للجنةِ نوراً يَتَلألأُ، فيقعُ بالأشجارِ فيها ظِلالٌ كما يَشْتهونَهُ في الدنيا، ليس على ذلكَ شمسٌ ولا قمرٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالتَّذْليلِ التَّلْيينُ، أي لُيِّنَتْ، فلا يَرُدُّ أيدِيَهُمْ عنها شوكٌ. وقيلَ: إنَّ أشجارَها ليسَتْ بِطِوالٍ، لا تُنالُ ثمارُها إلّا بعدَ عَناءٍ وكَدٍّ، بل قريبةٌ منْ أربابِها؛ يقالُ: حائطٌ ذليلٌ إذا لم يكُنْ عالياً في السماءِ، وقيلَ: ذُلِّلَتْ أي سُوِّيَتِ الأشجارُ لا أنْ يتفاوتَ بعضُها [عن بعضٍ][4]؛ يقولُ أهلُ المدينةِ إذا اسْتَوَتِ عُذوقُ النخلةِ تَذَلَّلَتِ النخلةُ، وقيلَ: ذُلِّلَتِ النخلةُ، وقيلَ: ذُلِّلَتْ أي سُخِّرَتْ، والتَّذْليلُ التَّسْخيرُ، فَيَتَناوَلونَ منها كيفَ شاؤوا؛ إنْ شاؤوا تَناوَلوها، وهمْ قيامٌ، وإنْ شاؤوا تَناوَلوها، وهمْ جُلوسٌ أو نِيامٌ على الفُرُشِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تَسْخيرُها على ما ذُكِرَ عنْ بعضِ المُتَقَدِّمينَ أنَّ شجرةَ الجنةِ: عُروقُها مِنْ فوقٍ، وفُروعُها من أسفَلَ، والثمارُ بينَ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: المشدة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في تفسير الآية ٢١. (٤) في الأصل وم: بعضا.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ قيلَ: فتأويلُ الأكوابِ يُذْكَرُ في سورةِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ [الآية: ١٤]][1].

الآية ١٦ ثم أخبرَ أنَّ تلكَ الأكوابَ ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ قيلَ: هي مِنْ فِضَّةٍ، ولها صفاءُ القواريرِ، يُرَى ما فيها مِنَ الشرابِ مِنْ خارِجِها لِصَفائِها.

ثم الآنيةُ مِنَ الفِضَّةِ في أعيُنِ أهلِها أرفَعُ وأشْرَفُ مِنَ الإناءِ المُتَّخَذِ مِنَ الترابِ، فكذلكَ الصفاءُ الذي يكونُ بالفِضَّةِ أبلَغُ وأرفَعُ في أعيُنِ أهلِها مِنَ الصفاءِ الذي يقَعُ بالقواريرِ: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ على الأصلِ المعهودِ أنهُ لا يَنْصَرِفُ.

وقُرِئَ قولُهُ تعالى: ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ على الوقفِ عليهِ[2] مُوافقاً لآخِرِ سائِرِ الآياتِ، وقُرِئَ قواريراً بالتنوينِ عندَ الوَصْلِ أيضاً لأنهُ رأسُ الآيةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي جُعِلَتْ على قَدْرِ رِيِّهِمْ، وقيلَ: يُسْقَوْنَ على القَدْرِ الذي قَدَّرُوهُ على أنفسِهِمْ، وحَدَّثَتْ بهِ أنفسُهُمْ، فلا يُقَدِّرونَ في قلوبِهِمْ مِقداراً إلّا أتَوا بهِ[3] على ذلكَ.

الآيتان ١٧ و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾][4] فمنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ العَرَبَ إذا أعْجَبَهُمْ شرابٌ نَعَتوهُ، وقالوا: كالزَّنْجَبيلَ، فَخَرَجَتِ البِشارةُ مِنَ الوَجْهِ / ٦١٩ ـ ب/ الذي تَرْغَبُ في مِثْلِهِ الأنفُسُ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الزَّنْجبيلَ والسَّلْسَبيلَ واحدٌ، وهما اسْمُ العَينِ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ في السَّلْسَبيلِ، أي سَلَّ سَبيلاً إلى تلك العَينِ.

وقالَ قتادةُ: أي سَلْسَلَةَ السَّبيلِ، مُسْتَعْذَبٌ ماؤُها، وقيلَ: ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ شديدَ الجَرْيةِ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ذِكْرُ الوِلْدانِ لا أنْ يكونَ فيها وِلادٌ، ولكنهمْ أُنْشِئوا وِلْداناً، فَيُخَلَّدونَ كذلكَ: يَكْبَرونَ، ولا يَهْرَمونَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الوِلْدانُ وِلْدانَ الكَفَرَةِ الذينَ ماتوا في الدنيا صِغاراً، فلا يكونُ لهمْ في الجنةِ آباءٌ لِيُرْفَعوا إلى درجةِ الآباءِ، فَيَجْعَلَهُمُ اللهُ تعالى خَدَماً لأهلِ الجنةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ تعالى شَبَّهَ حُسْنَهُمْ بِحُسْنِ اللُّؤْلُؤِ المَنْثورِ؛ إذْ أحْسَنُ ما يكونَ اللُّؤْلُؤُ إذا كانَ مَنْثوراً. فجائزٌ أنْ يكونَ هؤلاءِ الولدانُ فُضِّلوا في الحُسْنِ على سائِرِ الجَواهِرِ التي تكونُ في الجنةِ كما فُضِّلَ الدُّرُّ في الدنيا على سائِرِ الجواهِرِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ ما لم يَطوفوا، فَمَنْ رآهُمْ حَسِبَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثوراً، وإذا طافوا، وتَحَرَّكوا، فحينئذٍ يُعْلَمونَ أنهمْ وِلْدانٌ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ قيلَ: هما اللذانِ، لا نَعْتَ لهما، ولا وَصْفَ، وقيلَ: المُلْكُ اسْتِئْذانُ الملائكةِ عليهِمْ، وملوكُ الدنيا، وإنْ عَلَتْ زينَتُهُمْ لم يَمْلِكوا الاحتِجابَ مِنْ دخولِ الملائكةِ عليهِمْ بِغَيرِ اسْتِئْذانٍ، والمُلْكُ هو الذي [به][5] نفاذُ الأمورِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ النعيمَ والمُلْكَ الكبيرَ على مَعْنى أنهُ لا يَنْقَطِعُ عنهمْ، بل إذا رأيتَهُمْ أبداً رأيتَهُمْ في نعيمٍ ومُلْكٍ كبيرٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بالعالي ما عَلا مِنَ المكانِ الذي هم فيهِ، فَيُخْبِرُ أنَّ في أعلى أماكِنِهِمْ ثيابَ خُضْرٌ مِنْ سُنْدُسٍ كما هو في المكانِ الذي [هو][6] أسْفَلُ مَوضِعِ جلوسِهِمْ، لأنهمْ يكونونَ على الأرائكِ والحِجالِ[7]، فيكونُ ما تحتَ الحِجالِ[8] والأرائكِ مِنَ الأماكنِ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥ و١٦] ويكونُ عاليها كذلكَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح ٨/ ٢٣. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) و(٨) في الأصل وم: الأحجال.

فإنْ كانَ على هذا فلا فَرْقَ بَينَ أنْ يكونَ فَرْشُ ذلكَ المكانِ مِنْ حريرٍ وديباجٍ غليظٍ إنْ أُريدَ بالإسْتَبْرَقِ الديباجُ الغليظُ، وبَينَ أنْ يكونَ مِنْ ديباجٍ رقيقٍ، إذْ كلُّ ذلكَ ممّا يُرْغَبُ في مِثْلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ أي أعلَى ثيابِهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: عالي أنفسِهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ ومنهمْ مَنْ صَرَفَ السُّنْدُسَ والإسْتَبْرَقَ إلى ما بُسِطَ، لأنَّ الديباجَ الغليظَ ممّا لا تَرْغَبُ الأنفسُ إلى لِبْسِ مِثْلِهِ، فَجَمَعَ بَينَ ما يُلْبَسُ وبَينَ ما يُفْرَشُ، وبَيَّنَ الفِعْلَ في أحدِهما، ولم يَذكُرْ في الآخرِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ همُ الوِلْدانُ يطوفونَ مِنْ أعاليهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فَبَشَّرَهُمْ بالأساوِرِ مِنَ الفضةِ، لأنَّ الفضةَ مُسْتَحْسَنَةٌ بِنَفْسِها لِبَياضِها، والذهبُ اسْتِحْسانُهُ لِنَدْرَتِهِ وعِزَّتِهِ، ليسَ لنفسِهِ، لأنهُ أصفرُ، والأعيُنُ لا تَسْتَحْسِنُ هذا اللونَ، فَجَرَتِ البِشارةُ بالفضةِ لا بالذهبِ.

وقالَ بعضُهُمْ: يُحَلَّى الرجالُ بأسْوِرةٍ مِنَ الفضةِ على ما أُبيحَ لهمُ التَّحَلِّي بِخاتمٍ في الدنيا، وتُحَلَّى النساءُ بأساوِرِ الذهبِ على ما أُبيحَ لهنَّ بها في الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قيلَ: هو الخمرُ، يَطْهُرُ مِنَ الآفاتِ ومِنْ كلِّ مكروهٍ، ويُطَهِّرُ قلوبَهُمْ مِنَ الغِلِّ، فَيَعْمَلُ ذلكَ الشرابُ في تَطهيرِ الظاهرِ والباطنِ. وشرابُ الدنيا يُطَهِّرُ ظاهرَ البَدَنِ، وباطنُ البَدَنِ يُنَجِّسُهُ[1] الشرابُ.

ورُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنةِ لَيُعْطَى قوةَ مئةِ رجلٍ في الأكلِ والشرابِ والجِماعِ» فقالَ يهوديٌّ: إنَّ الذي يأكلُ، ويَشْرَبُ تكونُ لهُ الحاجةُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حاجةُ أحدِهِمْ عَرَقٌ يَفيضُ مِنْ جَسَدِهِ، فَيَضْمُرُ لِذلكَ بطنُهُ» [أحمد ٤/ ٣٧٦ والنسائي في الكبرى ١١٤٧٨].

والأصلُ أنكَ قد تَرَى الطعامَ الذي يَطْعَمُهُ الإنسانُ في الدنيا تَبْقَى قوتُهُ في البدنِ حتى يظهرَ ذلكَ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جوارِحِهِ، وكذلكَ شَهْوَتُهُ تَبْقَى فيها، ثم يَخْرُجُ الثُّفْلُ منها والفَضْلُ..

فجائزٌ أنْ يرفَعَ اللهُ تعالى عنْ ذلكَ الطعامِ الفَضْلَ الذي يُزايِلُ إليهِ، فيكونُ طعامُهُمْ ذلكَ اللطيفَ الذي يَبْقَى في النفسِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ هذهِ البِشارةُ خَرَجَتْ لِأهلِها في الدنيا، وجائزٌ أنْ تكونَ لهمْ في الآخِرةِ: إنَّ هذا الذي أُكرِمْتُمْ بهِ مِنَ الكراماتِ جزاءٌ لِعَمَلِكُمْ وسَعْيِكُمْ في الدنيا.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ قيلَ: فَرَّقْنا عليكَ القرآنَ تفريقاً. والحِكْمةُ في التفريقِ ما ذَكَرَ في آيةٍ أُخرَى في القرآنِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] فأخبرَ أنَّ في التفريقِ تَثْبيتاً، فيكونُ الناسُ لهُ أوعَى وأعرفَ بِمَواقِعِ النوازِلِ منهُ مِنْ أنْ يُنَزَّلَ جملةً واحدةً.

ثم أضافَ التنزيلَ إلى نفسهِ ههنا، وأضافَهُ[2] إلى جبرائيلَ ﷺ في قولِهِ ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ و١٩٤] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠ و...] وقالَ في آيةٍ: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فأضافَهُ[3] إلى نفسِهِ كقولِهِ[4]: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] فهذا كلُّهُ على مَجازِ الكلامِ، ليسَ على الحقيقةِ.

فَحَقٌّ كلٌّ مِنْ ذلكَ أنْ يُصْرَفَ إلى ما إليهِ وُجِّهَ[5] إلى أنْ يَسْتَجيزَ الناسُ مِنَ التَّعامُلِ في ما بَيْنَهُمْ بذلكَ الكلامِ.

فإذا قيلَ: هذا في اللوحِ فُهِمَ بهِ، وأُريدَ منهُ أنهُ مكتوبٌ فيهِ. [قيلَ: قولُهُ][6] تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ مَعْناهُ: أنهُ حتى يَسْمَعَ كلاماً يَدُلُّهُ على كلامِ اللهِ تعالى، لا أنْ يكونَ ذلكَ كلامَهُ، وأضافَهُ إلى جبرائيلَ ﷺ لأنهُ مِنْ قِبَلِهِ تَلَقّاهُ، لا أنْ يكونَ ذلكَ كلامَ جبرائيلَ ﷺ. ثم قد ذَكَرَ الحكمةَ في إنزالِ القرآنِ مُفَرَّقاً قَبْلَ هذا والفَضْلَ الكافيَ منهُ.

---

(١) في الأصل وم: وينجس. (٢) في الأصل وم: وأضاف. (٣) في الأصل وم: فأضاف. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: أوجه. (٦) في الأصل وم: وقوله.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ التفريقُ لِمكانِ أتباعِ رسولِ اللهِ ﷺ ليسَ لِمكانِهِ لأنَّ اللهَ تعالى يُيَسِّرُ على نبيِّهِ حفظَهُ حتى كانَ يَعِي جميعَ ما يُنَزِّلُ إليهِ جبرائيلُ ﷺ بما يَقرأ عليه مرَّةً واحدةً، وقالَ[1] لهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] فَضَمِنَ لهُ الحفظَ فأَمِنَ النِّسيانَ.

فأمَّا غيرُهُ فإنهُ يَشتَدُّ عليهِ أنْ لو كَلَّفَهُ حِفظَهُ بدفعةٍ واحدةٍ، فأنزلَهُ[2] مُفرَّقاً ليكونوا أقدرَ على حفظِهِ. ولهذا كَثُرَ[3] حُفّاظُ القرآنِ في هذهِ الأمةِ [وكَثُرَ قُرّاؤُها][4] وكَثُرَ فُقهاءُ هذهِ الأمةِ، لأنَّ القرآنَ أُنزِلَ مُفرَّقاً على إثْرِ النوازلِ، فَعَرَفوا مواقِعَ النواسِخِ[5]، فَوَقفوا على مَعرفةِ ما أودعَ في الآياتِ لِمَعرفَتِهِمْ مَواقِعَ الناسِخِ[6] والمنسوخِ، ولو نُزِّلَ جملةً واحدةً اشْتَبَهَ عليهِمُ الناسخُ والمَنسوخُ. فأنزلَهُ[7] اللهُ تعالى مُفرَّقاً ليكونوا يعلمونَ[8] الناسخَ والمَنسوخَ واللهُ أعلَمُ.

ولأنهُ إذا أُنزِلَ مُفرَّقاً كانوا إليهِ أشوَقَ وأرغَبَ منهُ إذا نُزِّلَ جملةً واحدةً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ الآيةَ؟ [محمد: ٢٠] فأخبرَ أنهمْ يَرْغبونَ إلى أنْ تُنَزَّلَ عليهِمْ سورةٌ، وإنْ كانوا قد أُنزِلَتْ إليهِمْ سورةٌ مِنْ قبلُ.

وفيهِ أيضاً تَخويفٌ للمنافِقينَ /٦٢٠ - أ/ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤] فكانَ في إنزالِهِ مُفرَّقاً ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ والمَنافعِ للمؤمنينَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ففيه أنهُ ابْتلاهُ بما تَكرَهُهُ نفسُهُ، ويشتَدُّ عليها، حتى دعاهُ إلى الصبرِ، لأنَّ المرءَ لا يُدْعَى إلى الصَّبْرِ على النِّعَمِ واللَّذّاتِ، وإنما يُدْعَى إليهِ إذا ابْتُلِيَ بالمكارِهِ والبَلِيّاتِ، وقد صَبَرَ ﷺ على المَكارِهِ لأنهُ أُمِرَ بمُضادَّةِ الجِنِّ والإنسِ، فانْتَصَبَ لهمْ حتى آذَوهُ كلَّ الأذى، وهَمُّوا بقَتْلِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ كأنهُ قالَ: ولا تُطِعْ مَنْ دَعاكَ إلى ما دَعاكَ إلى ما تَأثَمُ فيهِ، أو تكونُ كفوراً، أو لا تُجِبِ الآثمَ أو الكفورَ إلى ما يَدْعُوانِ[9] إليهِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي كُنْ ذاكراً لهُ في كلِّ وقتٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكْرةُ تَحْتَمِلُ صلاةَ الصبحِ، والأصيلُ يَحْتَمِلُ صلاةَ الظهرِ والعَصْرِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ تَحْتَمِلُ صلاةُ الليلِ النوافلَ إنْ كانَ قولُهُ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في صلاةِ الفرائضِ، وإنْ لم يكُنْ في ذلكَ فيكونُ كأنهُ قالَ: واذْكُرْ ربَّكَ في كلِّ وقتٍ: بالليلِ والنهارِ، أو يقولُ: فلْيَكُنِ اسْمُ ربِّكَ مذكوراً حتى لا تَخْلُوَ ساعةٌ مِنْ هذهِ الساعاتِ إلّا هو مذكورٌ فيها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ حُبُّ العاجلةِ ممّا طُبِعَ [عليهِ][10] الخَلائقُ لأنَّ كلَّ [مَخلوقٍ][11] طُبِعَ على حبِّ الانْتِفاعِ والتَّمَتُّعِ بالشيءِ، فلا يَلْحَقُهُمُ الذمُّ بِحُبِّ ما طُبِعوا عليه، وأُنْشِئوا. ولكنْ إنما يَلْحَقُ الذَّمُّ مَنْ أحبَّ الدنيا، واختارَها، وآثَرَها على غَيرِ الذي جُعِلَتِ الدنيا [لهُ][12] وأُسِّسَتْ؛ فالدنيا[13] إنما أُسِّسَتْ، وجُعِلَتْ، لِيُكْتَسَبَ بها نَعيمُ الآخِرةِ والحياةِ الدائمةِ اللذيذةِ.

فَمَنْ أحبَّ لهذا، فهو لا يَلْحَقُهُ بذلكَ ذمٌّ ولا تَعْييرٌ، ومَنْ أحبَّها، وآثَرَها لها، واكْتَسَبَها لها، فهو المذمومُ، وأولئكَ كانوا مُخْتَلِفينَ في ذلكَ، لم يكونوا على فَنٍّ واحدٍ، ومنهمْ مَنْ حملَ حُبُّهُ إياها على إنكارِ وَحْدانِيَّتِهِ تعالى وألوهِيَّتِهِ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ إياها على تَكذيبِ الرسُلِ والتَّعادي لهمْ ومُكابرةِ الحقِّ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ إياها على إنكارِ البعثِ والجزاءِ لِما عَلِموا، ومنهمْ مَنْ حَمَلَ حُبُّهُ الدنيا على التفريقِ بينَ الرسلِ: أنكروا بَعْضاً [وصَدَّقوا بَعْضاً][14] وتولَّدَ مِنْ حبِّهِمْ إيّاها ما

(١) في الأصل وم: وقيل. (٢) في الأصل وم: فأنزل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: ما. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: النوازل. (٦) في الأصل وم: النوازل. (٧) في الأصل وم: فأنزل. (٨) في الأصل وم: يعلم. (٩) في الأصل وم: يدعون. (١٠) و(١١) و(١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٢) من م، في الأصل: في الدنيا. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

ذَكَرْنا، فَلَحِقَهُمُ الذَّمُّ لِذلكَ. ولِذلكَ ما ذَكَرَ مِنَ الإنفاقِ في الدنيا حينَ[1] قالَ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧].

فَمَنْ أنفقَ في هذهِ الدنيا لها فتكونُ نَفَقَتُهُ ما ذَكَرَ لأنهُ أنفقَ لِغَيرِ ما جُعِلَتْ لهُ النفقةُ، فكانَ ما ذَكَرَ.

فَعَلَى ذلكَ مَنْ أحبَّ الدنيا، واختارَها للدنيا لا لِاكْتِسابِ ما ذَكَرْنا مِنَ النِّعَمِ اللذيذةِ الدائمةِ والحياةِ الباقيةِ التي لا انْقِطاعَ لها، كانَ على ما ذَكَرَ.

ثم إذا ذُكِرَتِ الدنيا ذُكِرَتِ الآخِرَةُ وراءَها، وإذا ذُكِرَتِ الآخرةُ [وذُكِرَ][2] على إثرِ ذلكَ الإنسانُ، قيلَ: أمامَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ مُقْبِلٌ إليها، فتكونُ تلكَ أمامَهُ وقُدّامَهُ.

وأمّا عندَ ذِكْرِ الآخِرةِ[3] قيلَ: وراءَها، لأنها تَخلُفُها، وكلُّ مَنْ خَلَفَ آخَرَ يكونُ بعدَهُ وَوراءَهُ، لأنهُ يكونُ عندَ فَوتِ الآخَرِ؛ لذلكَ كانَ ما ذَكَرَ.

الآية ٢٨ وقولُهُ: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ رَجَعَ إلى الاحْتِجاجِ عليهِمْ لِما أنكروا؛ يقولُ: يَعْلَمونَ أنا خَلَقْناهُمْ بَدْءاً، ونحنُ شَدَدْنا خِلْقَتَهُمْ، أو نحنُ وصَلْنا جوارِحَهُمُ المُتَفَرِّقَةَ ومَفاصِلَهُمُ المُتَشَتِّتَةَ بعضَها إلى بعضٍ، ونحنُ نُبَدِّلُ أمثالَهُمْ إنْ شِئْنا. فما بالُهُمْ يُنْكِرونَ قدرَتَنا على البعثِ والإعادةِ بعدَ الموتِ؟

يقولُ: مَنْ قَدَرَ على ما ذَكَرَ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وهو على البعثِ أقدَرُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ يُذْكَرُ بعدَ هذا إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يَحْتَمِلُ ﴿هَٰذِهِ﴾ أي هذهِ السورةُ، لأنهُ ذَكَرَ في أوَّلِها ابْتِداءَ إنشائِهِمْ وخَلْقِهِمْ [وفي][4] آخِرِها إعادَتَهُمْ وفي خلالِها[5] جزاءَ صَنيعِهِمُ الذي صَنَعوا، فيكونُ في ذلكَ تذكِرَةٌ لهمْ.

ويَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي الأنباءُ التي ذُكِرَتْ في القرآنِ، أو هذهِ المَواعظُ تذكِرةٌ لِما لهمْ وما عليهِمْ، وتَذْكِرةٌ لِما للهِ عليهِمْ ولِما لبعضِهِمْ على بعضٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ: قد مكَّنَ كلًّا أنْ يَتَّخِذَ سَبيلا إلى ربِّهِ، أي لا شيءَ يمنَعُهُ عنِ اتِّخاذِ السبيلِ إلى ربِّهِ إذا شاءَ، لكنْ مَنْ لم يَتَّخِذْ [فإنما لم يَتَّخِذْ][6] لأنهُ لم يَشأْ أنْ يَتَّخِذَ سَبيلاً، وإلّا قد مُكِّنَ لهُ ذلكَ.

والثاني: يقولُ: مَنْ شاءَ اتِّخاذَ السبيلِ فَلْيَتَّخِذِ السبيلَ إلى ربِّهِ على ما نَذْكُرُ على الاسْتِقْصاءِ بعدَ هذا، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ: مَنْ شاءَ اتِّخاذَ السبيلِ إلى ربِّهِ [فلا يَتَّخِذُهُ][7] إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ السبيلَ إلى ربِّهِ، وعندَ ذلكَ يَتَّخِذُ.

وهذا على المعتزلةِ لأنهمْ يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى قد شاءَ لِجميعِ الخلائقِ أنْ يَتَّخِذوا إلى ربِّهِمْ سَبيلاً، لكِنهمْ شاؤوا ألّا يَتَّخِذوا إلى ربِّهِمْ سَبيلاً، فلم يَتَّخِذوا. وقد أخبَرَ أنهم لا يَشاؤونَ اتِّخاذَ السبيلَ إليهِ، ولا يَتَّخِذونَ إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ لهمُ اتِّخاذَ السبيلِ. فعندَ ذلكَ يَتَّخِذونَ ما ذكرَ، ويَشاؤونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ إنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ عليماً بِصُنْعِ خَلْقِهِ مِنَ التكذيبِ لهُ والتصديقِ مِنَ الطاعةِ والمَعْصِيةِ، أي على علمٍ منهُ بِصَنيعِهِمْ؛ أنْشأَهُمْ، وخَلَقَهُمْ ﴿حَكِيمًا﴾ في فِعْلِهِ ذلكَ وخَلْقِهِ إياهُمْ على ما عَلِمَ منهمْ أنْ تكونَ الآيةُ [إلى مَنْ][8] خَلَقَهُمْ، وأنشأَهُمْ لِمَنافِعِ أنفسِهِمْ ولِحاجتِهِمْ لا لِمَنافعَ ترجعُ إليهِ أو لِمَضارَّ تُدْفَعُ عنْ نفسِهِ.

---

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: الدنيا. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: خلال. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: لا يتخذ. (٨) في الأصل وم: إنما.

فَخَلْقُهُ إياهُمْ وبعثُهُ الرسلَ إليهِمْ على عِلْمٍ بما يكونُ مِنَ التكذيبِ والرَّدِّ، لا يَخْرُجُ فِعْلُهُ عنِ الحكمةِ والحقِّ. بل يكونُ حكيماً في ذلكَ.

وأمّا مَنْ يَبعثُ الرسولَ في الشاهدِ إلى مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُكَذِّبُهُ، ويَرُدُّ رسالتَهُ وهَدِيَّتَهُ، ويَسْتَخِفُّ بهِ، [وأنهُ سفيهٌ][1] ليسَ بحكيمٍ[2]، لأنهُ إنما يُرسِلُ الرسلَ، ويَبْعَثُ هَدِيَّتَهُ لِمَنافعَ تكونُ لهُ[3]، فَعِلْمُهُ بما يكونُ منهُ سَفَهٌ، ليسَ بحكمةٍ، لِذلكَ افْتَرَقا.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا على المعتزلةِ أيضاً لأنهُ يدخِلُ مَنْ يَشاءُ في رحمتِهِ وهمْ يقولونَ: قد شاءَ أنْ يُدخِلَ كُلّاً في رحمتِهِ، لأنهُ شاءَ إيمانَ كلٍّ منهمْ، واللهُ تعالى[4] أخبرَ أنهُ يُدْخِلُ منْ يَشاءُ في رحمتِهِ.

دَلَّ ذلكَ على أنهُ لم يَشأْ أنْ يُدخِلَ في رحمتِهِ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الضلالَ، ولكنْ إنما شاءَ أنْ يُدْخِلَ في رحمتِهِ مَنْ عَلِمَ منهُ أنهُ يَختارُ الهُدَى. فأمّا مَنْ عَلِمَ منهُ اختيارَ غَيرِهِ فلا يَحْتَمِلُ أنْ يشاءَ ذلكَ لهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وشاءَ أيضاً مَنْ عَلِمَ منهُ الضلالَ أنْ يُعَذِّبَهُ عذاباً أليماً.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ وأُبيٍّ وحفصةَ ﷺ يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ. وهذا الحرفُ تفسيرُ وتأويلُ الآيةِ، وأنْ تكونَ رحمتُهُ ههنا، هو الهُدَى وسَبيلُ اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ رحمتُهُ، هو جنّتُهُ، سَمَّيَتْ رحمةً، لأنهُ برحمتِهِ يدخُلُها[5] أهلُ الإيمانِ، واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ.

---

(١) في الأصل وم: سفه. (٢) في الأصل وم: بحكمة. (٣) في الأصل وم: للمرسل. (٤) في الأصل وم: أعلم. (٥) أدرج قبلها في الأصل وم: ما.

/٦٢٠ ـ ب/ سورة المرسلات

[مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ اختلفوا في تأويلِها:

فمنهمْ مَنْ حَمَلَ تأويلَ [هذا][2] كلِّهِ على الملائكةِ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى الرياحِ [ومنهمْ مَنْ صرفَ البعضَ إلى الرياحِ][3] والبعضَ إلى الملائكةِ.

وجائزٌ أنْ يُجْعَلَ هذا كلُّهُ في الرياحِ، ويَسْتَقيمُ أنْ يُصْرَفَ كلُّهُ إلى الملائكةِ، ويَسْتقيمُ أنْ يُجْعَلَ البعضُ في الملائكةِ والبعضُ في الرياحِ.

فإنْ كانَ في الرياحِ اسْتقامَ القَسَمُ بها، لأنَّ مِنَ الرياحِ رياحاً، هنَّ مُبَشِّراتٌ برحمتِهِ سابقاتٌ للنِّعَمِ إلى عبادِهِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

ومِنَ الرياحِ رياحٌ، هي مُنْجِياتٌ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] فَجَعَلَها[4] اللهُ تعالى سبباً لِتَسْييرِ السفُنِ في البحارِ كما جَعَلَ الماءَ سَبَباً لذلكَ.

وجَعَلَ منها مُهْلِكاتٍ مُذَكِّراتٍ لِقُوَّتِهِ وسُلْطانِهِ كما قالَ ﷻ: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم﴾ الآية [الإسراء: ٦٩] فهي تميتُهُمْ، وتُهْلِكُهُمْ، مِنْ غيرِ أنْ يُدْرِكوهُ بأبصارِهِمْ، وإنْ كانتِ الأبصارُ، هي أوَّلُ ما يَقَعُ بها دَرْكُ الأشياءِ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ الوجْهَ الذي له صارتِ المُنْجِياتُ مُنْجياتٍ، أو يَعْرِفَ الوجْهَ الذي لهُ صارتِ الرياحُ مُهْلِكاتٍ أو مُبَشِّراتٍ لم يَقِفْ عليهِ.

فصارتِ الرياحُ مُذَكِّراتٍ لِلنِّعَمِ. وفي تذكيرِ النِّعَمِ إيجابُ القولِ بالبعثِ وبكلِّ ما يُخْبِرُهُمْ [بِهِ الرسلُ][5] لأنهمْ كانوا يُنْكِرونَ البعثَ، ورأَوا فيها مِنْ لطائفِ الحكمةِ وعجائبِ التدبيرِ [ما لا يَبْلُغُها تَدْبيرُهُمْ][6] وحكمتُهُمْ، عَلِموا أنَّ الأمرَ غَيْرُ مُقَدَّرٍ بعقولِهِمْ ولا بحكمتِهِمْ، فيكونُ في ذِكْرِ ما ذَكَرْنا إزاحةُ ما اعْتَرَضَ لهمْ[7] مِنَ الشَّكِّ والشُّبَهِ في أمرِ البعثِ، فأقْسَمَ بها، جَلَّ جلالُهُ، على ما ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ جُعِلَ لتأكيدِ ما يُقْصَدُ إليهِ باليمينِ.

فَرَجَعْنا إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ قيلَ: هي الرياحُ المُبَشِّراتُ، سُمِّيَتْ ﴿عُرْفًا﴾ لأنَّ ما يأتي بِهِ مِنَ النِّعَمِ معروفٌ[8]، وقيلَ: العُرْفُ المُتَتابعُ وسُمِّيَ عُرْفُ الفرسِ عُرْفاً لِتَتابعِ بعضِ الشعرِ على بعضٍ. فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الرياحِ المُبَشِّرَةِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿عُرْفًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ يُحْمَلُ على الرياحِ، لكنْ على الرياحِ المُبَشِّراتِ، وهي الرياحُ السهلةُ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: فجعل. (٥) من م، في الأصل: بالرسل. (٦) من م، في الأصل: هم. (٧) في الأصل وم: له. (٨) في الأصل وم: معروفة.

الخفيفةُ، لأنَّ النَّشرَ مذكورٌ في رياحِ الرحمةِ بقولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ نُشْراً[1] ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] في بعضِ القراءاتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا﴾ هي الرياحُ الشديدةُ التي تكسِرُ الأشياءَ، وتقْصِمُها، وهي التي تُرسَلُ للإهلاكِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ [الإسراء: ٦٩].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا﴾ هي اسمُ الرياحِ التي لم يَظْهَرْ أنها أُرسِلَتْ للإهلاكِ[2] أو لِلتَّبشيرِ لأنَّ الرياحَ التي تُرْسَلُ للرحمةِ يَظْهَرُ أثرُ رحمتِها مِنْ ساعتِها مِنْ إرسالِ السحابِ وغَيرِ ذلكَ قَبْلَ أنْ تتتابعَ. وكذلكَ الرياحُ التي هي رياحُ إهلاكٍ يَظْهَرُ عَلَمُ الإهلاكِ منْ ساعتِها، وهو أنْ تكونَ قاصفةً شديدةً قَبْلَ أنْ تتتابَعَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾ يَحْتَمِلُ الرياحَ أيضاً، وإنما سُمِّيَتْ فارقاتٍ لأنها تُفرِّقُ السحابَ، فَيصيرُ البعضُ في أُفُقٍ، والبعضُ في أُفُقٍ آخَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ فجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى الرياحِ، وإلقاءُ ذِكْرِها ما ذَكَرْنا أنهُ يُظْهِرُ بها النِّعَمَ، وتُتَذَكَّرُ، وتُبيَّنُ بها النجاةُ، ويَقَعُ ببعضِها الهلاكُ. فذلكَ إلقاءُ ذِكْرِها، واللهُ أعلَمُ.

وإنْ صُرِفَ الكُلُّ إلى الملائكةِ فَيحتَمِلُ أيضاً؛ فقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا﴾ أي الملائكةِ الذينَ [أُرسِلوا بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المنكرِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿فَٱلْعَـٰصِفَـٰتِ عَصْفًا﴾ أي الملائكةِ الذينَ][3] يَعْصِفونَ أرواحَ الكفارِ، أي يأخُذونَها على شدةٍ وغضبٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها النَّشَرَةُ[4] مِنَ الملائكةِ، سُمُّوا ناشراتٍ لأنهمْ يَنْشُرونَ الصُّحُفَ، ويَقْرَؤونَها. وجائزٌ أنْ يُرادَ بها الملائكةُ الذين يأخذونَ أرواحَ المؤمنينَ على لينٍ ورِفْقٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾ جائزٌ أنْ يُرادَ بها الملائكةُ، وسُمِّيَتْ فارقاتٍ لأنهمْ يُفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ همُ الملائكةُ الذينَ يُلْقُونَ الذكرَ على ألسُنِ الرسلِ ﷺ.

وإنْ صُرِفَ البعضُ إلى الملائكةِ والبعضُ إلى الرياحِ فمستقيمٌ أيضاً: فتكونُ المرسلاتُ الذينَ أُرسِلوا بالمَعْروفِ والخَيرِ، والعاصفاتُ الريحَ الشديدةَ، والناشراتُ الرياحَ الخفيفةَ السهلةَ، ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ هُم الملائكةُ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ: أنْ يُرادَ بقولِهِ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ﴾ هُم الرسلُ مِنَ البَشَرِ الذينَ بُعِثوا إلى الخَلْقِ، فما مِنْ رسولٍ بُعِثَ إلّا وهو مُرسَلٌ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ.

وكذلكَ جائزٌ أنْ يُرادَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ همُ الرسُلُ لأنهمْ يُفرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ويُلْقونَ الذِّكْرَ في مَسامعِ الخَلْقِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَـٰتِ عُرْفًا﴾ هي الكتبُ المُنْزَلَةُ مِنَ السماءِ لأنها أُرسِلَتْ بالمعروفِ وكلِّ أنواعِ الخَيرِ، وكذا قولُهُ: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ للحقِّ والهُدَى، وكذا قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْفَـٰرِقَـٰتِ فَرْقًا﴾ لأنها تُفرِّقُ بينَ الحقِّ والباطلِ أيضاً، وكذلكَ ﴿فَٱلْمُلْقِيَـٰتِ ذِكْرًا﴾ فإنها سببٌ لذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي عُذراً مِنَ اللهِ تعالى؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى أرسلَ الرسلَ، وأنزلَ الكُتُبَ، وبيَّنَ الحُجَجَ، حتى لم يَبْقَ لأحدٍ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ ذلكَ، فهذا هو الإعذارُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ أي أَنْذَرَهُمْ، ولم يَعْجَلْ في إهلاكِهِمْ، بل بَيَّنَ لهمْ ما يُتَّقَى، ويُجْتَنَبُ، وما يُنْدَبُ إليهِ، ويُؤْتَى. فهذا هو الإنذارُ على تأويلِ الرياحِ ما ذَكَرْنا أنها مُذَكِّراتٌ نِعَمَ اللهِ ونِقْمَتَهُ، فيكونُ في ذلكَ إيجابُ ذِكْرِ المُنْعِمِ والمُنْتَقِمِ، فيكونُ في ذلكَ إعذارٌ وإنذارٌ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) هذه قراءة ابن عامر وعبد الله بن مسعود، وللكلمة قراءات أخرى. أما قراءة الباقين فهي ﴿بُشْرًا﴾ انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٣٧١.

(٢) في الأصل وم: للهلاك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، في الأصل: السفرة.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ فهذا موضِعُ [جوابِ][1] القَسَمِ بما ذَكَرَ مِنَ المرسَلاتِ إلى آخِرِها.

ثم كانَ المَوعودُ، هو البعثُ، فمعناهُ: أنَّ الذي يُوعَدونَ بهِ مِنَ البعثِ لَكائنٌ على الجزاءِ والعِقابِ؛ فَتَأويلُهُ: إنَّ ما توعدونَ بِهِ مِنَ العذابِ لَنازلٌ بكمْ. فتكونُ الآيةُ في قومٍ، عَلِمَ اللهُ تعالى أنهمْ لا يُؤمنونَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فكأنهُ، واللهُ أعلَمُ، لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ وقتِ وقوعِهِ: متى يكونُ؟ فَنَزَل: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ فأشارَ إلى الأحوالِ التي يومئذٍ لا إلى نفسِ الوقتِ. فقولُهُ: ﴿طُمِسَتْ﴾ أي ذهبَ ضَوءُها ونورُها، ثمّ تَناثَرَتْ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي انْشَقَّتْ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][2]: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي قُلِعَتْ مِنْ أصلِها، فَسُوِّيَتْ بالأرضِ.

وقالَ الزَّجّاجُ: نَسَفْتُ الشيءَ، إذا أخَذْتُهُ على سرعةٍ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ وقُرِئَ وُقِّتَتْ[3] وكذلكَ أصلُهُ، لكنَّ الهمزةَ أُبْدِلَتْ مكانَ الواوِ طَلَباً للتخفيفِ، وهو [مِنَ][4] التَّوقيتِ، أي جُمِعَتْ لوقتٍ، وقيلَ: أُحْضِرَتِ الرسلُ لِيَشْهَدَ كلُّ واحدٍ منهمْ على قومِهِ الذينَ بُعِثَ إليهِمْ كما قالَ اللهُ تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ/ ٦٢١ - أ/ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وقيلَ: ﴿أُقِّتَتْ﴾ أي وُعِدَ لهمْ بيانُ حقيقةِ ما إليهِ دَعَوا مِنْ وُقوعِ ما أوعَدوا قومَهُمُ الذينَ تَرَكوا إجابَتَهُمْ مِنَ العذابِ، وَوُعِدَ لهمُ الوصولُ إلى مَنْ آمَنَ باللهِ تعالى، وأجابَ الرسُلَ في ما دَعَوهُمْ إليهِ مِنَ الثوابِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ فأُجِلَتْ، وأُقِّتَتْ واحدٌ لأنَّ في التَّأجيلِ توقيتاً، وفي التَّوقيتِ تَأجيلاً.

الآية ١٣ ثم بَيَّنَ وقتَ حلولِ الأجَلِ أجَلِ العذابِ بقولِهِ ﷻ: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لِيَومِ الحُكْمِ والقَضاءِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] وقالَ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩].

فجائزٌ أنْ تكونَ الكلمةُ التي سَبَقَتْ منهُ، هو تأخيرُ العذابِ إلى يومِ البعثِ، فَجَعَلَ ذلكَ يومَ الجزاءِ، وذلكَ يكونُ بالمُعايَنةِ، وجَعَلَ هذهِ الدارَ دارَ مِحْنةٍ وابْتِلاءٍ؛ وذلكَ يكونُ بالحُجَجِ والبَيِّناتِ؛ فكأنهُ قالَ: لو لا ما سَبَقَ مِنْ كلمةِ اللهِ تعالى مِنْ تأخيرِ الجزاءِ والعذابِ، وإلّا كانَ العذابُ واقعاً في هذه الدنيا بالتكذيبِ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَ الجزاءَ والعِقابَ الذي يَجْمَعُ فيهِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ، وقَدَّرَ في هذهِ الدنيا خَلْقَ هذا البَشَرِ على التَّتابُعِ إلى ذلكَ اليومِ، إذْ ذلكَ اليومُ، هو الذي يُوجَدُ فيهِ الجَمْعُ، واللهُ أعلَمُ.

وسُمِّيَ يومَ الفَصْلِ لهذا: أنهُ يومُ القَضاءِ والحُكْمِ، ولأنهُ اليومُ الذي يَظْهَرُ فيهِ مَثْوى أهلِ الشَّقاءِ وأهلِ السعادةِ، ويَفْصِلُ بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ، ويَفْصِلُ بَيْنَ الخُصَماءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي لم تَكُنْ تَدْري، فَأدراكَ اللهُ تعالى. ذَكَرَ هذا إمّا على التَّعْظيمِ والتَّهْويلِ لذلكَ اليومِ [وإمّا][5] على الاِمْتِنانِ على رسولِهِ ﷺ بإطلاعِهِ عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفي هذا دليلٌ على أنَّ الوعيدَ المذكورَ، على الإطلاقِ مُنْصَرِفٌ إلى أهلِ التكذيبِ. ثم لم يَذْكُرْ ما لِلْمُصَدِّقينَ، وحقُّهُ أنْ يُقالَ: طُوبى لِلْمُصَدِّقينَ، لأنَّ حرفَ الوَيلِ يُتَكَلَّمُ بِهِ عندَ الوقوعِ في المَهْلَكَةِ، وحَرْفَ طُوبى يُتَكَلَّمُ بِهِ في مَوضِعِ السرورِ والغِبْطَةِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٣٤. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: أو.

فإذا ذُكِرَ في أهلِ التكذيبِ حَرْفُ الهلاكِ كانَ مَنْ كانَ بِخِلافِ حالِهِمْ مُسْتَوجِباً للسرورِ، ولكنهُ إنْ لم يُذْكَرْ ههنا فقد ذَكَرَهُ[1] في موضعٍ آخَرَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ و٨] وقال ﷻ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

الآيات ١٦ و ١٧ و١٨ و١٩ [وفي قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][2].

الآية ٢٠ وقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [تقديمٌ وتأخيرٌ][3] فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَدْفَعَ عنهمُ الإشكالَ والرَّيبَ الذي اعْتَرَضَ لهمْ في أمرِ البعثِ، لأنَّ الأعجوبَةَ في الإعادةِ ليسَتْ بأكْثَرَ مِنَ الأعجوبةِ في الإنشاءِ والإبْتِداءِ، فَذَكَرَ ابْتِداءَ خَلْقِهِمْ لِيَنْفِيَ عنهمُ الرَّيبَ في الإعادةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ خَلْقَهُمْ مِنَ الماءِ المَهينِ، وهو الماءُ المُسْتَعافُ المُسْتَقْذَرُ لِيَدَعُوا تَكَبُّرَهُمْ وتَجَبُّرَهُمْ على رسولِ اللهِ ﷺ ويَنْقادوا، ويُجيبوا إلى ما دعاهُمْ إليهِ.

وأخبَرَ أنهُ خَلَقَهُمْ في الظلماتِ التي لا يَنْتَهي إليها تدبيرُ البَشَرِ لِيَعْلَموا أنهُ قادرٌ على ما يَشاءُ، ويَعْرِفوا أنهُ لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ، فَحَمَلَهُمْ ذلكَ على المُراقبةِ وعلى التَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ.

الآيتان ٢١ و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾][4] فالقَرارُ المَكينُ، هو الرَّحِمُ، جَعَلَهُ اللهُ تعالى قَراراً مكيناً يَتَمَكَّنُ فيه الماءُ المَهينُ، فَيَخْلُقُ منهُ عَلَقَةً ومُضْغَةً، ويُقِرُّهُ فيهِ إلى الوقتِ الذي قَدَّرَ اللهُ تعالى الخروجَ منهُ.

الآيتان ٢٣ و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][5] أي: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي سَوَّينا على ما تُوجِبُ الحِكْمةُ على الوجوهِ التي في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي أنْعِمْ بهِ مِنْ قادرٍ، فَيَخْرُجُ مَخْرَجَ الآلاءِ والنِّعَمِ، أي إنَّ الذي فَعَلَ بكمْ هذا، هو اللهُ تعالى، لم يَقْدِرْ أحدٌ أنْ يَفْعَلَ بكمْ هذا الفعلَ.

الآيتان ٢٥ و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا صِلَةَ قولِهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[6] [الآيتان: ٢٠ و٢١] فيكونُ في ذكرِ هذا كلِّهِ تَذْكيرُ الآلاءِ والنِّعَمِ وتَذْكيرُ القُدْرةِ والسلطانِ والحِكمةِ.

فوجهُ تذكيرِ النِّعَمِ أنَّ اللهَ تعالى في أوَّلِ ما أنْشأَ [أنشأَ][7] نُطفةً قَذِرةً، وجَعَلَ لها مكاناً يغيبُ عنْ أبصارِ الخَلْقِ، ولم يُفَوِّضْ تَدْبيرَها إلى البَشَرِ، وكذلكَ في الوقتِ الذي أنشأَهُ عَلَقةً ومُضْغةً لم يُفَوِّضْ تدبيرَهُ إلى أحدٍ منْ خلائقِهِ، لأنهُ في ذلكَ الوقتِ بحيثُ يُسْتَعافُ، ويُسْتَقْذَرُ، ولا يُدْفَعُ عنهُ المَعْنَى الذي وقعتِ الإسْتِعافةُ والإسْتِقْذارُ بالتطهيرِ، فَجَعَلَ لهُ قراراً مَكيناً يَسْتَتِرُ بهِ عنْ أبصارِ الخَلائقِ.

ثم لمّا أنْشأهُ نَسَمَةً، وسَوَّى خَلْقَهُ في بَطْنِ أمِّهِ، ألْقَى[8] في قلبِ أبويهِ الرَّأفةَ والعطفَ لِيقوما[9] بتربيتِهِ وإمساكِهِ إلى أنْ يَبْلُغَ مَبْلَغاً، يقومُ بتدبيرِ نفسِهِ ومَصالِحِهِ.

ثم جَعَلَ لهُ بعدَ مَماتِهِ أرضاً تَكفِتُهُ، وتَضُمُّهُ إلى نفسِها، فَيَسْتَتِرُ بها عنْ أبصارِ الناظرينَ؛ إذْ رَجَعَ بِمَوتِهِ إلى حالةٍ تُسْتَعافُ، وتُسْتَقْذَرُ، ولا تَقْبَلُ التطهيرَ.

فكانَ في ذِكْرِ أوَّلِ أحوالِهِ وإلى ما يَنْتَهي إليهِ تذكيرُ النِّعَمِ لِيَصِلَ إلى أداءِ شُكْرِهِ؛ إذْ جَعَلَ الرَّحِمَ قراراً لهُ في وقتِ كونِهِ نُطْفَةً وعَلَقَةً ومُضْغَةً لِما لا يَعْرِفُ الخلائقُ أنهُ بما يُغَذَّى حتى يَنْمُوَ، ويزيدَ، فرفعَ عنهمْ مَؤونَةَ التربيةِ في ذلكَ الوقتِ.

---

(١) في الأصل وم: ذكرها. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرجت هذه العبارة في الأصل وم: بعد: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (٤) ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم، و﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: وألقى. (٩) في الأصل وم: ليقوموا.

ثم إذا صارَ بحيثُ يَعْرِفُ وجهَ غذائِهِ، وعَرَفَ الخَلْقُ المَعْنَى الذي يَعْمَلُ في دفعِ حاجتِهِ، وأخرَجَهُ مِنْ بطنِ الأُمِّ، وفَوَّضَ تدبيرَهُ إلى أبويهِ.

فهذهِ أوجُهُ تذكيرِ القوةِ والسلطانِ والحكمةِ، وهي أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ النطفةَ التي أنشأَ منها النَّسْمةَ بحيثُ تَصْلُحُ أنْ يَنْشأَ منها عَلَقَةٌ ومُضْغةٌ. ولو أرادَ الخَلْقُ أنْ يَعْرِفوا المَعْنَى الذي لهُ صَلَحَتِ النطفةُ بأنْ تَنْشأَ منها العَلَقةُ والمُضْغَةُ والعظامُ واللحمُ، ثم يكونُ منها نَسْمةٌ سَوِيَّةٌ، لم يَصِلوا إلى مَعْرفتِهِ، وإذا تَفَكَّروا في هذا عَلِموا أنَّ حكمتَهُ، ليسَتْ على ما يَنْتهي علمُ البشرِ، و[قُوَّتَهُ لا](1) تَقْصُرُ على الحدِّ الذي تَنْتَهي إليهِ قِوى البشرِ.

والذي كانَ يَحْمِلُهُمْ على إنكارِ البعثِ بعدَ الإماتةِ تَقْديرُهُمُ الأمورَ على قِوَى أنفسِهِمْ وتَسْوِيَتُها بعقولِهِمْ. فإذا تَدَبَّروا في ابْتِداءِ أحوالِهِمْ، ورَأَوا منْ لطائفِ التدبيرِ وعجائبِ الحكمةِ عَلِموا أنَّ الأمرَ ليسَ كما قالوا، وقَدَّروا، فَيَدْعُوهُمْ ذلكَ التصديقُ بكلِّ ما يأتي بهِ الرسُلُ، ويُخْبِرُهُمْ مِنْ أمرِ البعثِ وغَيرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُهُمُ ابْتِداءَ أحوالِهِمْ ونُشوءَهُمْ وإلى ما يَصيرونَ إليهِ [لا يَدْعُهُمْ إلى](2) التَّكَبُّرِ على دينِ اللهِ تعالى، فَيَنْقادوا لهُ بالإجابةِ، ولا يَسْتكبِروا على أحدٍ مِنْ خلائقِهِ، لأنهمْ في ابْتِداءِ أحوالِهِمْ كانوا نُطَفاً(3) يَسْتَقْذِرُها الخلائقُ ثم علقةً ومُضْغةً، ويَصيرونَ في مُنْتهى الأمرِ جِيَفاً(4) قَذِرةً.

ومَنْ كانَ هذا وصفُهُ، فأنّى يَليقُ بهِ التَّكَبُّرُ على أحدٍ؟

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ تكفِتُهُمْ أي تَضُمُّهُمْ، وتَجْمَعُهُمْ، في حياتِهِمْ وبعدَ مَماتِهِمْ. فالانْضِمامُ إليها في حالِ حياتِهِمْ ما جَعَلَ لهمْ مِنَ المساكنِ فيها والبيوتِ، وجَعَلَ لهمْ بعدَ مَماتِهِمْ مَقابرَ يُدْفَنونَ فيها، أو جَعَلَ مُتَقَلَّبَهُمْ ومثواهُمْ في ظهورِها في حياتِهِم، وجَعَلَ بطْنَها مَأْوىً / ٦٢١ ـ ب/ لهمْ بعدَ وفاتِهِمْ، وجَعَلَها(5) بساطاً لهمْ ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠] وقَدَّرَ لهمْ فيها أوقاتَهُمْ، فَذَكَّرَهُمْ وجوهَ النِّعَمِ في خَلْقِهِ الأرضَ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ فالرواسي، هي الجبالُ الثابتاتُ في الأرضِ، أثْبَتَها في الأرضِ، لِيَقِرَّ بها، ولا تَميدَ بأهلِها؛ إذْ لو مادَتْ لم يَصِلْ أهلُها إلى ما قَدَّرَ لهمْ مِنَ المَنافعِ، فَذَكَّرَهُمْ بِذِكْرِهِ الجبالَ الرواسِيَ عظيمَ نِعَمِهِ عليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ. والشامخاتُ هي الطِّوالُ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾](6) ولولا إنزالُهُ عليكُمْ لم تكونوا تَصِلونَ إليهِ بِقِواكُمْ وحِيَلِكُمْ.

ثم أنْزَلَهُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ، ولم يُخْرِجْهُ(7) مِنْ حدِّ العذوبةِ، ولا حَلَّ بهِ التَّغْييرُ بِمُماسَّتِهِ الأرضَ [واخْتِلاطِهِ بها](8). وهذا مُنْصَرِفٌ إلى الشرابِ. ثم لِغَيرِ العَذْبِ مِنَ المَنافعِ ما لِلْعَذْبِ [لا إلى](9) الشرابِ خاصَّةً.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(10) [الآية: ١٦] وهمْ قومُ نوحٍ وقومُ عادٍ وثمودَ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الآية: ١٧] قومَ فرعونَ وقومَ لوطٍ وغَيرَهُمْ ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآيتان: ١٨ و١٩] قيلَ: مُجْرمو(11) هذهِ الأُمَّةِ. ثم اخْتُلِفَ في وقتِ فعلِهِ:

فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ هذا الإهلاكَ في الآخِرةِ لقولِهِ ﷻ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ [ما](12) فَعَلَ بهمْ يومَ بدرٍ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ فِعْلَهُ بِمُجْرِمي أُمةِ محمدٍ ﷺ ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرةَ شَهْرَينِ» (الطبراني في الكبير: ١١٠٥٦) أَلْقى اللهُ تعالى في قلوبِهِمُ الرعبَ حتى تَرَكوا الأسبابَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ للمُحاربةِ معَ كَثْرةِ شوكَتِهِمْ وقِلَّةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(1) في الأصل وم: ولا قوته. (2) في الأصل وم: ليدعوا. (3) في الأصل وم: نطفة. (4) في الأصل وم: جيفه. (5) في الأصل وم: وجعل. (6) ساقطة من الأصل وم. (7) في الأصل وم: يخرج. (8) في الأصل وم: واختلطت به. (9) في الأصل وم: إلا. (10) انظر إلى ما ذكر في مطلع تأويل الآية ٢٠. (11) في الأصل وم: مجرمي. (12) ساقطة من الأصل وم.

فهذا فعلُهُ بالمُجْرِمينَ، وفي إلقاءِ الرعبِ ألطفُ آياتِ رسالتِهِ وأَبْيَنُ حُجَّةٍ عليها، إذْ كانَ فيه ما بَيَّنَ لهمْ أنَّ الذي أقْعَدَهُمْ عنِ القتالِ، وقَذَفَ في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ، أمْرٌ سَماوِيٌّ، لا غيرُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى، وهمْ كانوا يُكَذِّبونَ بالبعثِ وبالعذابِ، لكنْ يُقالُ لهمْ هذا بعدَ البعثِ، فهو مُنْصَرِفٌ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ العذابِ.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ ذكرَ أنَّ ذلكَ الظِّلَّ دخانٌ يَخْرُجُ منْ جهنَّمَ، فَيَظنونَ أنهُ ظِلٌّ فَيَسْتَظِلّونَ إليهِ رجاءَ أنْ يَنْتَفِعوا بهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ أصلُهُ واحداً، ثم تَتَشَعَّبُ منهُ شُعبٌ ثَلاثٌ.

[والثاني][1]: جائزٌ أنْ يكونَ في الأصلِ [ذا شُعَبٍ][2] ثَلاثٍ، تأتي كلُّ شُعْبَةٍ مِنْ ناحيةٍ، ثم تَجْتَمِعُ، فتصيرُ شيئاً واحداً.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي لا يَنْتَفِعونَ بهِ كما[3] يُنْتَفَعُ بالظِّلِّ في الدنيا، لأنَّ ظلَّ الدنيا يُهْرَبُ إليهِ لِدَفعِ الحَرِّ ولِيُسْكَنَ فيهِ، لأنَّ ظلَّ البيتِ ممّا يُسْكَنُ فيهِ، وظلَّ الشجرِ والحيطانِ لِيُؤْوَى إليهِ، ولِيُتَرَوَّحَ بهِ، وذلكَ الظِّلُّ لا يُغْني عنهمْ في الآخِرةِ في دفعِ الحرارةِ ولا في غَيرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونوا هربوا إلى ذلكَ الظِّلِّ مِنَ اللَّهَبِ، فَيُخْبِرُ أنَّ سِتْرَها لا يَمْنَعُ اللَّهَبَ عنْ أنْ يَمَسَّهُمْ إذا انْضَمّوا إلى الظِّلِّ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ ومَفْتوحَةَ الصادِ[4]؛ فالقراءةُ المعروفةُ: قيلَ: يرادُ بالقَصْرِ المعروفِ المبنيُّ باللَّبِنِ والخَشَبِ، وقيلَ: يُرادُ بها قصورُ أهلِ الباديةِ، وهي الخِيامُ.

ومَنْ قرأَ بالنصبِ اختَلَفوا في تأويلِهِ: عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ قالَ][5] كالقَصَرِ قَصَرِ النَّخْلِ، والواحدةُ قَصَرَةٌ؛ وذلكَ أنَّ النخلةَ تُقْطَعُ قَدْرَ ثلاثةِ أذرُعٍ، وأقْصَرَ وأطْوَلَ يَسْتَوقِدونَ بها في الشتاءِ.

وقالَ بعضُهُمْ: هو أصلُ النخلِ المقطوعِ المُنْقَعِرِ مِنَ الأرضِ، وقيلَ: هو أعناقُ النخيلِ، وقيلَ: القَصَرَةُ اسْمُ الخَشَبَةِ التي تُقْطَعُ عليها اللحومُ، وتُكْسَرُ العظامُ، تكونُ لِلْقَصّابينَ.

وعنِ الحسنِ أنهُ قَرَأَ مُخَفَّفَةً كالقَصْرِ غَيرَ أنهُ: فَسَّرَها: أيِ الجَزْلِ مِنَ الخشبِ، الواحدةُ قَصْرَةٌ كقولِكَ: تَمْرَةٌ وتَمْرٌ، واللهُ أعلَمُ.

وفيهِ إخبارٌ عنْ عِظَمِ شَرَرِها وقَدْرِها خِلافاً لما عليهِ الشَّرَرُ في الدنيا، لا يأخُذُ مكاناً، بل يُتَبَيَّنُ، ثم يَنْطَفِئُ، ثم جائزٌ أنْ يكونَ بعضُ شَرَرِها في العِظَمِ كالخيامِ وبعضُها كالقصورِ وبعضُها كأصولِ الأشجارِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قُرِئَ جُمالَةٌ ﴿صُفْرٌ﴾ جماعةُ الجَمَلِ، وقُرِئَ: جِمالاتٌ[6] جمعُ جِمالةٍ، والصُّفْرُ قيلَ: السُّودُ، وإنما سُمِّيَتِ السُّودُ صُفراً لأنَّ السُّودَ، تَعلوها الصُّفْرَةُ في الإبلِ، فَتُسَمّى بها. وبذلكَ[7] قولُ القائلِ:

تـلـكَ خَـيـلـي مـنـهُ، وتـلـكَ رِكـابـي ... هُـنَّ صُـفْـرٌ أولادُهـا كـالـزَّبـيـبِ[8]

شَبَّهَ الشَّرَرَ بالقَصْرِ، والقَصَرَ بالجُمالةِ، وهي الإبلُ السُّودُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، في الأصل: لا. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٣٨. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٣٩. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) قائل هذا البيت الأعشى. انظر ديوانه ص ٢٩.

وقُرئَ جُمالاتٌ[1] بِرَفعِ الجيمِ، وهي حِبالُ السفنِ، تُمَدُّ، ثم إذا ضُمَّتْ تكونُ كأوساطِ الرجالِ، فَشُبِّهَ [الشَّرَرَ][2] بالحِبالِ المَمْدودةِ الصُّفرِ عندَ الاِمْتِدادِ، وعندَ الاِنْضِمامِ كأوساطِ الرجالِ، فتكونُ كالقَصْرِ.

الآيتان ٣٤ و٣٥ وقولُهُ تعالى: [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][3] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ: أنهمْ لا يَنْطِقونَ نُطْقاً يَنْتَفِعونَ بهِ كما لم يكونوا يَنْطِقونَ في الدنيا كلاماً يُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ تعالى، فعامَلَهُمُ [اللهُ تعالى في الآخرةِ حَسْبَ معامَلَتِهِمِ إيّاهُ][4] وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] وقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا يَنْطِقونَ في بعضِ المواضِعِ، ويَنْطِقونَ في بعضِها. ويَحْتَمِلُ أي لا يَنْطِقونَ بِحُجَّةٍ، بل يُكَذِّبونَ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الآيتان ٣٦ و٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][5] ليسَ أنهُ لا يَقْبَلُ العذرَ منهمْ إذا أتَوا بهِ، ولكنَّ مَعْناهُ: أنهُ لا عُذْرَ [لهمْ][6] لِيُقْبَلَ منهمْ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] مَعْناهُ: أنهُ لا شفيعَ لهمْ، لا أنهمْ إذا أتوا بِشُفَعاءَ لم يَشْفَعْ لهمْ، وإذا لم يكُنْ عذرٌ [لهمْ فهمْ][7] لا يَعْتَذِرونَ بعُذْرٍ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ ففيهِ إخبارٌ أنهُ لا يَخُصُّ بالبعثِ فريقاً دونَ فريقٍ، بل يَجْمَعُ الخلائقَ كلَّهُمْ، ثم يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ، فَيُنْزِلُ كُلّاً مَنْزِلَتَهُ التي اسْتَوجَبَها ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]

وقيلَ: هو يومُ الحُكْمِ، فجائزٌ أنْ يكونَ سُمِّيَ بهِ لِما يَخْتَصِمُ فيهِ أهلُ المذاهِبِ، فَيَحْكُمُ فيه بينَ المُحِقِّ وبينَ الذي كانَ على الباطِلِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣٩ و٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ يُقالُ لهمْ هذا في الآخِرَةِ: أنْ كيدوا حتى تَنْجوا بأنفسِكُمْ ممّا نَزَلَ بكُمْ، أي إنْ كانتْ لكمْ حِيَلٌ[8] تَحْتالونَ بها، فافعلوا، وهو حَرْفُ التقريعِ والتوبيخِ [يَدُلُّ][9] على نَفْيِ نَفاذِ المَكْرِ والحيلةِ، ليسَ ما عليهِ أمرُ الدنيا أنهمْ يَحْتالونَ، ويَمْكُرونَ بأنواعِ الخِداعِ والتَّمْويهاتِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ قيلَ لكمْ هذا في الدنيا [حينَ][10] أُمِرَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُعارِضَهُمْ بهذا، فيقولَ لهمْ: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ بِقَتْلي[11] أو إخراجي منْ بينِ أظهُرِكُمْ كما قالَ هودٌ ﷺ: ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

فَعَجْزُهُمْ عنْ ذلكَ يُظْهِرُ لهمْ [صدقَ][12] رسالتِهِ وحُجَّةَ نُبُوَّتِهِ؛ إذْ حرفُ الإغراءِ مِنْ غَيرِ أعوانٍ كانوا لهُ ولا جنودٍ مُجَنَّدَةٍ، بل كانَ وحيداً فريداً بينَ ظَهْرانَي قومٍ مُشركينَ، ليسَتْ هِمَّتُهُمْ إلّا إطفاءَ هذا النورِ.

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمُتَّقونَ همُ الذينَ اتَّقَوا عذابَ اللهِ تعالى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] وقالَ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فهذا هو التَّقْوى.

ثم إنَّ أهلَ التوحيدِ أقَرُّوا بالعذابِ، فاجْتَهَدوا في اتِّقائِهِ، فقيلَ لهمْ: انْطَلِقوا إلى ظلالٍ وعيونٍ، وأهلَ النارِ كانوا مُكَذِّبينَ بالعذابِ / ٦٢٢ ـ أ/ فقيلَ لهمْ: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الآية: ٢٩] منَ العذابِ.

ثم أخْبَرَنا بالوجهِ الذي يَقَعُ بهِ الاِتِّقاءُ، فقالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وأمَرَنا بالاِنْتِصابِ

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٣٩. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل: الله تعالى، في م: في الآخرة حسب معاملتهم الله تعالى. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل: لهم، في م: فهم. (٨) في الأصل وم: حيل. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) الباء ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم.

لِمُحاربَتِهِ، ثم علَّمنا وجهَ المُحاربةِ بقولِهِ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقولِهِ[1]: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ[2]: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فألزَمَنا الفزَعَ إليهِ، وبيَّنَ أنّا لا نَقْوَى على [مُحاربةِ الشيطانِ][3] إلّا بالابْتِهالِ إليهِ والفزَعِ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الاتِّقاءُ ههنا مُنْصَرِفاً إلى التَّصديقِ خاصةً لأنهُ ذَكَرَ الاتّقاءَ ههنا مُقابِلَ التكذيبِ في الأوّلينَ. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى المُصدِّقينَ بالأقوالِ والمُوفِّينَ بالأعمالِ؛ فالمُتَّقي هو الذي اتّقى إساءةَ صُحْبةِ نِعَمِ اللهِ تعالى، فوقاهُ اللهُ تعالى شرَّ يومِ القيامةِ مُجازاةً لهُ، والمُحْسِنُ هو الذي أحْسَنَ صُحْبةَ نِعَمِهِ، فأحْسَنَ اللهُ مُنْقَلَبَهُ، وأحَلَّهُ بدارِ كرامتِهِ في ظلالٍ وعيونٍ وفواكِهَ، و المُتَّقي هو الذي وَقَى نفسَهُ عنِ الهلاكِ، فَوَقاهُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ، والمُحْسِنُ هو الذي أحْسَنَ إلى نفسِهِ، وهو الذي استَعْمَلَها في طاعةِ اللهِ تعالى [فأحسَنَ][4] إليهِ بما أنْعَمَ عليهِ مِنَ الظِّلالِ والعُيونِ.

ثم أخبَرَ أنهمْ في ظِلالٍ، لأنَّ الظلالَ ممّا تَرْغَبُ إليهِ الأنفسُ في الدنيا لأنها تَدْفَعُ عنهمْ أذى الحَرِّ والبردِ والمَطَرِ، وهي لا تَحولُ أيضاً [بينَ][5] أذى الرياحِ وغيرَ ذلكَ، وظِلالُ الأشجارِ والحِيطانِ تدفعُ أذى الحَرِّ، وظِلالُ البُنيانِ تَدفَعُ أذى الحَرِّ والبردِ والمطرِ، وهي لا تَحولُ أيضاً بينَ المرءِ والأشياءِ عنْ أنْ يُدرِكَ حقائِقَها، فَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ في الظلالِ، ووقعَتْ إليها الرغبةُ في الدنيا، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ وقالَ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ و٣١].

ثم الأنفسُ إذا أوَتْ إلى الظلالِ اشْتَهَتْ أنْ تَتَمَتَّعَ بهِ الأبْصارُ، وأعظمُ ما تَتَلَذَّذُ بهِ الأبصارُ أنْ يكونَ نَظَرُها إلى المياهِ الجاريةِ، فأخبرَ أنهمْ في ظِلالٍ وعيونٍ.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي فواكهَ أيضاً. فأخبَرَ أنَّ لهمْ فيها ما تَتَلَذَّذُ بهِ الأبصارُ، وتَتَمَتَّعُ بهِ، وفيها ما تَشْتَهي أنفسُهُمْ، وفيها ما يَدْفَعُ عنْ بعضِهِمُ الأذى.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ لا تَبِعَةَ لكمْ مِنْ جهةِ السؤالِ، ولا تَنْغيصَ، أي لا يؤذيهِمْ ما يأكلونَ، ويشْرَبونَ؛ فالمَعْنَى هو الذي لا تَبِعَةَ على صاحبِهِ، ولا تَنْغيصَ فيهِ.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فَسَمّى المُتَّقي مُحْسِناً لأنهُ بَدَأَ بِذِكْرِ المُتَّقينَ، وذَكَرَ ما أعَدَّ لهمْ، ثم أخبرَ أنهمْ جُزُوا ذلكَ بإحسانِهِمْ، فيكونُ فيهِ دلالةٌ على أنَّ الاتّقاءَ متى ذُكِرَ على الانْفِرادِ يَقْتَضي إتيانَ المحاسِنِ والاتّقاءَ عنِ المهالِكِ.

الآيات ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ ثم رَجَعَ إلى المُكذِّبينَ، فقالَ: [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][6] ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][7] فهذا بالظاهرِ بالأكلِ والشُّرْبِ، وهو في الحقيقةِ وعيدٌ، وهو أنَّ تَمَتُّعَكُمْ بالأكلِ وغيرِهِ الذي يَمْنَعُكُمْ عنِ النظرِ في الآياتِ قليلٌ؛ عَنْ سريعٍ تُفارقونَهُ، وتَصيرونَ إلى عذابِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ المُجرمَ، هو الوَثّابُ في المَعاصي.

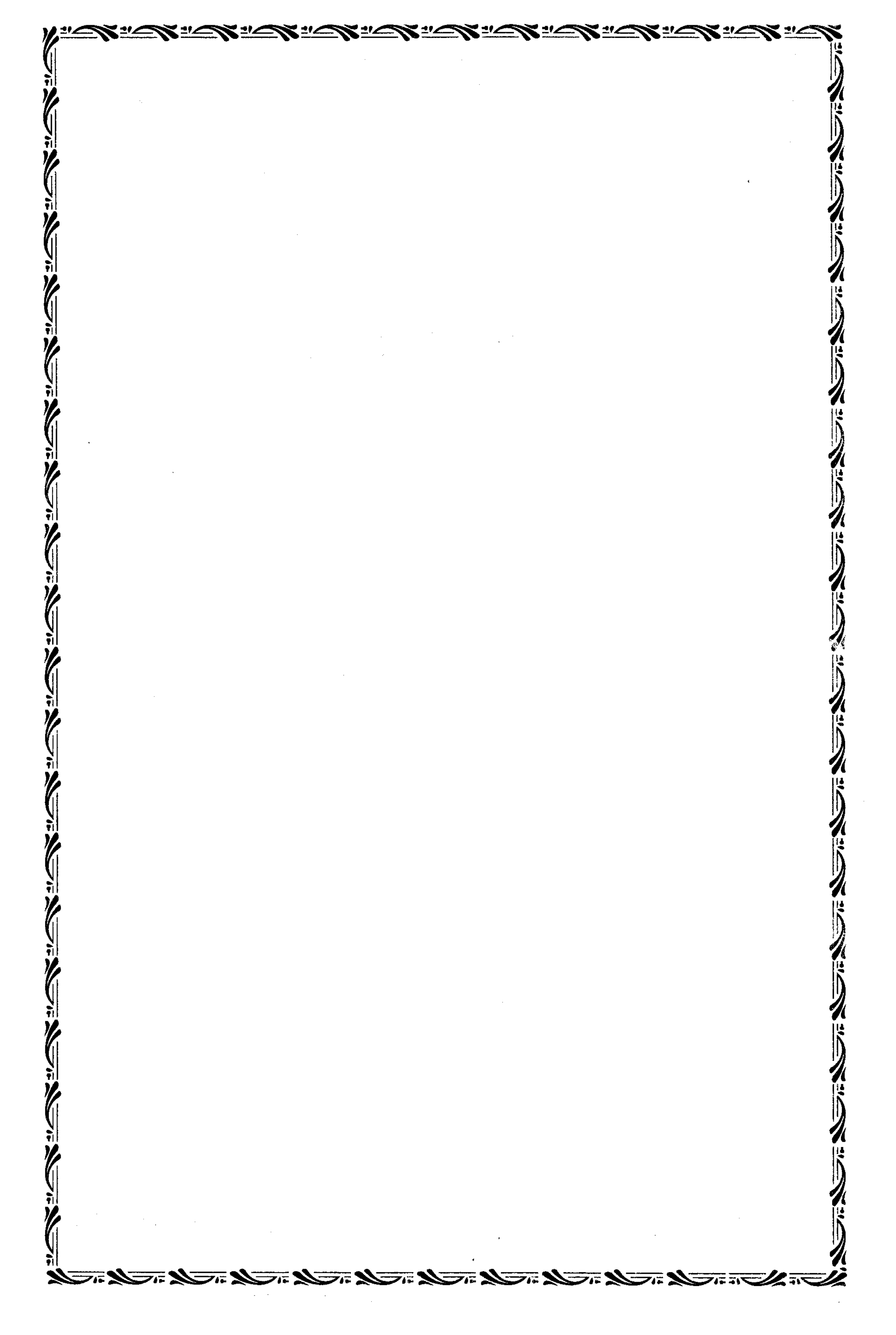
الآيتان ٤٨ و٤٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾][8] أي إذا قالَ لهمُ الرسولُ ﷺ ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾ أي اخضَعوا، واستَسْلِموا للهِ تعالى، امْتَنَعوا عنْ ذلكَ استِكباراً منهمْ على الرسلِ وإعراضاً عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ اللهِ تعالى.

الآية ٥٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فَبِأيِّ حديثٍ يُصَدِّقونَ بعدَ حديثِ اللهِ تعالى الذي لا حديثَ أصْدَقُ منهُ وأقْوَى في الدلالةِ؟

(١) في الأصل وم: وقال الله. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: محاربته. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تَسْفيهِ عقولِهِمْ وأحلامِهِمْ، وهو أنهمْ يَمْتَنِعونَ عنِ التَّصديقِ بحديثِ اللهِ تعالى، إذْ لا حديثَ أَصْدَقُ منهُ، ثم يُصَدِّقونَ الأحاديثَ الكاذبةَ والأباطيلَ المُزَخْرَفَةَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.



سورة النبإ

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾؟ اختُلِفَ في التَّساؤُلِ:

فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ التَّساؤُلَ كانَ عنْ أمرِ النَّبِيِّ ﷺ سألوا عنْ حالِهِ: أهو نَبِيٌّ أمْ ليسَ بِنَبِيٍّ؟ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ التَّساؤُلَ كانَ عنِ القرآنِ أنهُ منَ اللهِ تعالى؟ ويَتساءَلونَ في ما بينَهُمْ: هل تَقْدِرونَ على إتيانِ مثلِهِ أم لا؟ وجائزٌ أنْ يكونَ التَّساؤُلُ عنْ أمرِ البعثِ وعنِ التوحيدِ كما قالَ اللهُ تعالى خَبَراً عنهمْ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ [ص: ٥].

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا السؤالُ منْ أهلِ الكُفرِ؛ سألَ بعضُهُمْ بعضاً، واختَلَفوا فيهِ، ولم يَحْصُلوا مِنِ اختِلافِهِمْ على إصابةِ الحقِّ.

الآية ٣ [وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾][2].

الآيتان ٤ و ٥ ألا ترَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾][3]؟ ولو كانَ فيهِمْ مُصَدِّقٌ لكانَ وَقَعَ لَهُ العلمُ في ذلكَ الوقتِ، فلا يَحتاجُ إلى أنْ يُعَلِّمَهُ[4]، ويُبَيِّنَهُ.

فإنْ كانَ السؤالُ عنْ حالِ الرسولِ ﷺ فوجْهُ اختِلافِهِمْ أنَّ بعضَهُمْ يَزْعُمُ أنهُ شاعرٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: هو ساحرٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: مُفْتَرٍ كَذَّابٌ، وادَّعَى بعضُهُمْ أنهُ مجنونٌ.

وجائزٌ[5] أنْ يكونَ السؤالُ مِنَ الكَفَرَةِ للمؤمنينَ، وإنْ كانَ على هذا ما ذَكَرَهُ أهلُ التفسيرِ؛ فهمْ[6] بينَ مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ؛ يُرادُ بالمُكَذِّبِ الذينَ صَدّوا عنهمُ السؤالَ، ويُرادُ بالمُصَدِّقِ أهلُ الإسلامِ الذينَ سُئِلوا.

ثم لا يجوزُ لأحدٍ تحصيلُ السؤالِ على جهةٍ واحدةٍ والقطعُ عليهِ بالتَّوفيقِ المُوجِبِ للعِلْمِ.

الآية ٦ ثم في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ جوابٌ عمّا سَبَقَ مِنَ المسائلِ: فإذا كانَ السائلُ عنْ أمرِ الرسالةِ فحقُّهُ أنْ يُحْمَلَ على جهةٍ غيرِ الجهةِ التي يُحْمَلُ[7] عليها إذا صَرَفَ التَّساؤُلَ إلى أمرِ البعثِ وإلى أمرِ التوحيدِ أو القرآنِ.

والأصلُ فيه أنَّ اللهَ تعالى بما ذَكَرَ مِنْ مِهادِ الأرضِ وخَلْقِ الأزواجِ ذَكَّرَ عبادَهُ عظيمَ نِعَمِهِ وكَثْرَةَ إحسانِهِ إليهِمْ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشُّكرَ. وإذا وَقَعَتْ لهمُ الحاجةُ إلى الشُّكرِ احتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمْ بما بهِ يُشْكَرُ اللهُ تعالى، وكيفَ يُؤَدَّى شُكْرُهُ، إذْ لا يُعرَفُ في كلِّ نعمةٍ وَجْهُ شُكْرِها إلّا بالتوفيقِ، فَيَضْطَرُّهُمْ ذلكَ إلى مَنْ يُبَيِّنُ لهمْ، واحتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ مَحَلَّ الشُّكرِ[8] ومَحَلَّ الكُفرِ[9] ومَحَلَّ الولايةِ[10] ومَحَلَّ المُعاداةِ[11]؛ إذ وَجَدوا هذه الدنيا تَمُنُّ على الأولياءِ وعلى الأعداءِ على حالةٍ واحدةٍ، فاحتاجوا إلى مَنْ يُعَرِّفُهُمُ الوَعْدَ والوَعيدَ، وأوجَبَ ما ذَكَرْنا القولَ بالبعثِ لِيُظْهِرَ بهِ منزلةَ الشَّكورِ والكَفورِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يعلم. (٥) في الأصل وم: وحال.
(٦) في الأصل وم: فهو. (٧) في الأصل وم: يحتمل. (٨) في الأصل وم: الشكور. (٩) في الأصل وم: الكفور. (١٠) في الأصل وم: الوالي. (١١) في الأصل وم: المعادي.

وفي ذِكرِ هذه النِّعَمِ أيضاً دلالةُ الوَحْدانيَّةِ لأنَّ اللهَ تعالى مَهَدَ الأرضَ، فَجَعَلَها مُتَمَتَّعاً للخَلْقِ، وأخرَجَ منها ما يَتَعَيَّشونَ بهِ، وجَعَلَ /٦٢٢ ـ ب/ سَبَبَ الإخراجِ ما يُنَزِّلُ مِنَ السماءِ مِنَ القَطْرِ، فَجَعَلَ مَنافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافعِ السماءِ.

فلو لم يَكُنْ مُدَبِّرُهما واحداً لانْقَطَعَ الاِتِّصالُ، ثم لو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ المَعْنَى الذي يَقَعُ لهُ إحياءُ الأشياءِ بالماءِ لم يَصِلْ إليهِ، ولو أرادوا أنْ يَتَدارَكوا الوجْهَ الذي صَلَحَ هذا الطعامُ أنْ يكونَ سبباً لدفْعِ الحاجاتِ وقَطْعِ الشَّهَواتِ لم يَقِفوا عليهِ، فيكونُ في ما ذَكَرْنا إزالةُ الشُّبَهِ والشُّكوكِ التي تَعْتَرِضُ لهمْ في الأمورِ الخارجةِ عنْ تدبيرِهِمْ وقِواهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ [أنَّ][1] هذا وَعيدٌ، وقد ذَكَرْنا أنَّ حرفَ الوعيدِ ممّا يُكَرِّرُهُ العربُ في ما بَيْنَهُمْ للتأكيدِ [كما قالَ][2]: ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] وقالَ:[3] ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤و٣٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ على عِلْمِ دلالةٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ على عِلْمِ المُشاهدةِ والعِيانِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي بِساطاً ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ذَكَرَ أنَّ الأرضَ لمّا خُلِقَتْ ما بَدَتْ لأهلِها، فأرساها اللهُ تعالى بالجبالِ لُطفاً منهُ، لا أنْ جَعَلَها سَبَباً للإرساءِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؟ [طه: ١٠٥إلى١٠٧] فقد جَعَلْناها[4] في ذلكَ الوقتِ مُسْتَمْسَكةً ثابتةً مُسْتَقِرَّةً بدونِ الجبالِ، فَثَبَتَ أنها ليسَتْ بسببِ الإرساءِ في التحقيقِ. ويكونُ فيهِ تعريفُ الخَلْقِ وجوهَ الحِيَلِ في الأمورِ إذا تَعَذَّرَ عليهِمُ الوصولُ إليها.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ قيلَ: ألواناً، فيكونُ في هذا إبطالُ [الحُكْمِ تقولُهُ القائفةُ][5] لأنهمْ يَسْتَدِلّونَ بالتَّشابهِ في الألوانِ، ويَحْكُمونَ بها. ولو كانَ الأمرُ على ما قَدَّروا لارْتَفَعَ الاِخْتِلافُ في الألوانِ، فيكونُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ على لونٍ واحدٍ.

وقيلَ: ﴿أَزْوَاجًا﴾ فِرَقاً شَتَّى لِيَعْرِفَ كلٌّ منهمْ عُنْصُرَهُ ومُنْتَهَى أصلِهِ. وقيلَ: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي جَعَلَ لكلِّ أحدٍ شَكْلاً مِنْ جنسِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قيلَ: السُّباتُ التَّمَدُّدُ، وقيلَ: السُّباتُ النومُ الذي لا حركةَ فيهِ. ولِهذا قيلَ للذي شبيهٌ بالمَيِّتِ: مَسْبوتٌ، وقيلَ: السُّباتُ الراحةُ، ولذلكَ سُمِّيَ [يومُ السَّبْتِ سَبْتاً][6] لأنهُ يومُ راحةٍ وتركِ العملِ في بَني إسرائيلَ.

ثم في إنشاءِ النومِ دليلُ سُلْطانِهِ ودخولِ الخَلْقِ بأجمعِهِمْ تحتَ تدبيرِهِ؛ إذْ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ الاِحْتِرازُ مِنَ النومِ حتى لا يَعْتَرِيَهُ، بل يَقْهَرُ الجبابرةَ، فَيُذِلُّهُمْ، ولا يُمْكِنُهُمُ الخَلاصُ منهُ بالحِيَلِ والأسبابِ.

ثم النومُ مِنْ أثْقَلِ الأحمالِ وأشَدِّها، ثم إذا زايَلَ الإنسانَ، وعادَ المرءُ إلى حالِ اليَقَظَةِ، وجَدَ في نفسِهِ خِفَّةً وراحةً، ومِنْ شأنِ هذا الإنسانِ أنهُ إذا حَمَلَ الحِمْلَ الثقيلَ مَسَّهُ مِنْ ذلكَ فُتورٌ وكَلالٌ، لا يَزولُ عنهُ ساعةَ ما يَضَعُ الحِمْلَ عنْ نفسِهِ، بل يَبْقَى ذلكَ الكَلالُ فيهِ إلى مدةٍ. فَمَنْ تَدَبَّرَ في أمرِ النومِ دلَّهُ على عِظَمِ شأنِهِ وعجائبِ تدبيرِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ فهذا اللِّباسُ لِباسُ الأعيُنِ، لا غيرُ. ألا تَرَى أنهُ لا يُسْتَغْنَى بِلِباسِ الليلِ عمّا أُخِذَ عليهِ مِنَ اللِّباسِ للصلاةِ؟ ولا يَعْمَلُ لِباسُ الليلِ عمّا عَمِلَ اللِّباسُ المعروفُ في دَفْعِ أذَى البَرْدِ والحَرِّ؟

وقالَ بَعْضُهُمْ: اللِّباسُ السَّكَنُ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] فكانَ الذي حَمَلَهُمْ على هذا التأويلِ، هو أنَّ تَمامَ السَّكَنِ والراحةِ يقعُ بالنومِ، فَصَرَفوهُ إليهِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: كما يقال. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: جعلنا. (٥) في الأصل وم: الحكم يقوله القائف. (٦) في الأصل وم: السبت.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي يُتَعَيَّشُ فيهِ لا أنْ يكونَ نفسُهُ مَعاشاً كما سَمّاهُ ﴿مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧و...] لِما يُبْصَرُ فيهِ لا أنهُ في نفسِهِ مُبْصِرٌ[1].

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي السمواتِ، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيُنَبِّهَهُمْ إلى قدرتِهِ وسلطانِهِ، فَيَعرِفوا أنهُ قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...] قادرٌ على ما يَشاءُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ فكانَ السراجُ، هو الشمسُ ههنا، جَعَلَها تَتَوَهَّجُ، وتَتَلألأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ المُعْصِراتِ هي السحابُ التي أُنشِئَ فيها القَطْرُ؛ يقالُ للجاريةِ التي دنَتْ حَيضَتُها: مُعْصِرَةٌ، فَشَبَّهَ السحابَ بِمَعاصِرِ الجواري، وقيلَ: سُمِّيَ السحابُ مُعْصِراً لأنهُ يَعْصِرُ المَطَرَ، وقيلَ: ذواتُ الأعاصيرِ، يعني الرياحَ كقولِهِ: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦] أي ريحٌ.

وعنِ الحَسَنِ: هي السمواتُ، وقالَ الزَّجّاجُ: المُعْصِرُ، هو الذي قد أتى وقتُ إرسالِ القَطْرِ منهُ كما يُقالُ: مُجْزِرٌ لِما أتى وقتُ جِزارِهِ[2].

ثم في إنزالِ الماءِ مِنَ المُعْصِراتِ تَذْكيرُ النِّعَمِ والقُدْرةِ والحِكمةِ، وكلُّ وجهٍ من هذهِ الأوجُهِ الثلاثةِ يوجِبُ القولَ بالبعثِ.

فأمّا وجْهُ تَذْكيرِ النِّعَمِ، وهو أنَّ القَطْرَ ينزلُ منَ السماءِ مُتتابِعاً، ثم اللهُ تعالى بلطفِهِ، يمنَعُ اتِّصالَ بعضٍ ببعضٍ والتِصاقَهُ، ويُرسِلُ كلَّ قطرةٍ إلى الأرضِ بِحِيالِها، ويُنْزِلُ بعضَها على إثْرِ بعضٍ، لِيُنْتَفَعَ بهِ[3]. ولوِ التَصَقَ بعضُها، واتَّصَلَ لم يَقُمْ لها شيءٌ، وكانَتْ تصيرُ سبباً للتعذيبِ والإهلاكِ. فَبِفَضْلِهِ ورحمتِهِ أنْزَلَها مُتابِعةً لِيَنْتَفِعَ بها الخَلْقُ، ويَتَمَتَّعوا بها.

وفيهِ تذكيرُ القوةِ والحكمةِ لأنهُ أنشأَ السَّحابَ الثِّقالَ، وساقَهُ إلى الموضِعِ الذي قَدَّرَ أنْ يُرْسَلَ القَطْرُ إليهِ[4].

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ الإرسالَ ليسَ مِنْ فِعْلِ السحابِ، لأنَّ السحابَ يَمْتَنِعُ عنْ إرسالِ القَطْرِ حتى يَنْتَهِيَ إلى الموضِعِ الذي أُمِرَ بإرسالِ القَطْرِ فيهِ، ولو كانَ ذلكَ [مِنَ][5] السحابِ نفسِهِ لكانَ أينَ ما مَرَّ يَعْمَلُ في الإرسالِ، ولو كانَ ذا ثُقْبٍ لكانتِ الريحُ متى دَخَلَتْ في الثُّقْبِ أرسلَ السحابُ ما أنشأَ فيهِ مِنَ القطرِ.

فإذا لم يوجَدْ ذلكَ بانَ [أنّ][6] اللهَ تعالى بِحِكْمتِهِ وقُدْرتِهِ ولُطْفِهِ، هو الذي أنشأَ فيهِ ذلكَ، ودبَّرَ إرسالَهُ لا أنْ يكونَ ذلكَ عملَ السحابِ. ولو أرادَ أحدٌ من حُكَماءِ الأرضِ أنْ يَعْرِفَ المَعْنَى الذي لهُ صَلَحَ ذلكَ السحابُ أنْ يَسْتَمْسِكَ فيهِ القطرَ، ولا يَسْتَمْسِكَ في مكانٍ آخَرَ، لم يَقِفْ عليهِ. فَذَكَّرَهُمْ لِيَعْلَموا أنَّ حِكْمَتَهُ ليسَتْ على الوجهِ الذي يَنْتَهي إليهِ حُكْمُ البَشَرِ [وقُدْرَتَهُ غيرُ][7] مُقَدَّرةٍ بِقِوَى البَشَرِ، بل هو قادرٌ على ما يشاءُ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...].

وفيهِ أنَّ تدبيرَ السماءِ والأرضِ والهُوِيِّ يَرْجِعُ إلى الواحدِ القَهّارِ؛ إذْ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ أنْ يَمْنَعَ القَطْرَ المُرْسَلَ مِنَ السماءِ عنِ الوصولِ إلى المَوضعِ الذي أَمَرَ أنْ يَنْتَهِيَ إليهِ. والثَّجّاجُ القَطْرُ المُتَتابِعُ بعضُهُ على إثْرِ بعضٍ، والثَّجُّ الصَّبُّ والإراقةُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ الحَبَّ لأنهُ المَقْصودُ مِنْ زراعةِ ما يكونُ لهُ الحَبُّ، فذكَرَهُ لِما إليهِ يَنْتَهي القَصْدُ، ويكونَ ذِكْرُ النباتِ مُنْصَرِفاً إلى ما [لا][8] حبَّ لهُ لأنَّ القَصْدَ منْ زِراعتِهِ النباتُ، لا غَيرُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى شيءٍ واحدٍ لأنَّ الذي فيهِ النباتُ أيضاً.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ الجنةَ، هي اسمُ المكانِ المُلْتَفِّ بالأشجارِ، وهي التي اجْتَمَعَتْ فيهِ الأشجارُ.

---

(١) في الأصل وم: مبصراً. (٢) في الأصل وم: جواه. (٣) في الأصل وم: بها. (٤) في الأصل وم: هنالك. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ولا قدرته. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ فالميقاتُ الميعادُ أي وُعِدَ فيهِ[1] جَمْعُ الأوَّلينَ والآخرينَ صالِحُهُمْ وطالِحُهُمْ صغيرُهُمْ وكبيرُهُمْ، وسُمِّيَ يومُ الفَصْلِ لِما يُفْصَلُ فيهِ بَينَ الأولياءِ وبَينَ الأعداءِ، ويُتَبَيَّنُ فيهِ[2] مَثْوى الفَريقَينِ جميعاً.

واليومُ ليسَ بِيَومِ فَصْلٍ في الظاهرِ لأنَّ الدنيا تَمُرُّ على الفريقَينِ على حالةٍ واحدةٍ، وإنْ كانَ قد فُصِلَ بَينَهما بالتَّوفيقِ والخِذْلانِ. وقيلَ: يومُ الفَصْلِ يومُ الحُكْمِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ وقد ذَكَرْناهُ في ما تَقَدَّمَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ قيلَ: أمَّةً [فأمَّةً][3] تأتي أمةُ كلِّ رسولٍ بِحِيالِها. وقيلَ: يُقْرَنُ كلُّ أحدٍ بِشيعتِهِ على ما يَذْكُرُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]./ ٦٢٣ ـ أ/

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها تُفْتَحُ لإنزالِ مَنْ شاءَ اللهُ تعالى مِنَ الملائكةِ، وتَنْشَقُّ، وتَنْفَطِرُ لشدةِ هَولِ القيامةِ، ومنهمْ منْ قالَ: إنَّ الشَّقَّ والفَتْحَ والانْفِطارَ كُلُّهُ واحدٌ؛ فَذَكَرَ الفَتْحَ لِشِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليومِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الكُلُّ يَقْتَضي مَعْنًى واحداً، لأنهُ في ما ذُكِرَ، فيهِ نُزولُ الملائكةِ بقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ شَبَّهَها بالسَّرابِ لِما أنها إذا سُيِّرَتْ لم توجَدْ في المكانِ الذي رآها فيهِ الناظرُ كالسرابِ الذي يُرَى مِنْ بُعْدٍ، إذا رآهُ الناظرُ، فأتاهُ، لم يجدْهُ شيئاً إلّا أنْ تكونَ الجبالُ في الحقيقةِ سَراباً لأنَّ السرابَ هو الذي يُتَراءَى مِنَ البُعدِ أنهُ شيءٌ [وهو][4] لا شيءَ في الحقيقةِ. وأمّا الجبالُ، وإنْ سُيِّرَتْ، فهي في نفسِها شيءٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ منهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها كانَتْ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنها تُرْصَدُ على مَنْ حَقَّتْ عليهِ كلمةُ العذابِ، فَتُعَذِّبُهُ، ولا يُمْكِنُهُ الفرارُ عنها. وقيلَ: تَرْصُدُ بِشَهيقِها وزَفيرِها مَنِ اسْتَوجَبَ العذابَ، فَتُعَذِّبُهُ، وتُقَرِّبُ طواغيتَها لهُ وسُخْطَها على مَنْ سَخِطَ اللهُ عليهِ. وقيلَ: مَعْنَى[5] المِرْصادِ أنْ يكونَ مَمَرُّ كلِّ كافرٍ ومؤمنٍ عليها، لكنَّ الكافرَ يَقَعُ فيها، والمؤمنَ يَنْجو منها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي مَرْجِعاً، والطاغي، هو الذي تَعَدَّى حَدَّ اللهِ تعالى، وضَيَّعَ حقوقَهُ، وكَفَرَ بأنْعُمِهِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ ذَكَرَ الأحقابَ، ولم يُبَيِّنْ مُنْتَهى العددِ، ولو كانَ اللُّبْثُ فيها يَرْجِعُ إلى أمدٍ في حقِّ الكَفَرةِ لكانَ يأتي عليهِ البَيانُ على مُنْتَهى يوم القيامةِ كقولِهِ[6]: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] وقولِهِ[7]: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فلمّا لم يُبَيِّنْ ثَبَتَ أنهُ لا يَرْجِعُ إلى حدٍّ. وإلى هذا يذهبُ الحَسَنُ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ مَعْناهُ أنهمْ يَلْبَثونَ ثلاثةَ أحقابٍ، والحُقْبُ ثمانونَ سنةً، يُعَذَّبونَ بِلونٍ آخَرَ مِنَ العذابِ بَعْدَ ذلكَ، لا أنْ يَنْقَطِعَ عنهمُ العذابُ بَعْدَ مُضِيِّ الأحقابِ، والأحقابُ هي النهايةُ في الأوقاتِ، فَذَكَرَ النهايةَ في الأوقاتِ وما يَكْبُرُ فيها كما قالَ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] لأنهما هما اللتانِ عُرِفَتا بالدوامِ، فاقْتَضى ذلكَ مَعْنَى الدوامِ. فكذلكَ ذَكَرَ ما هي النهايةُ مِنَ الأوقاتِ، تُعْرَفُ أنهمْ أبداً فيها يُقيمونَ.

---

(١) في الأصل وم: فيها. (٢) في الأصل وم: فيها. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: معناه. (٦) في الأصل وم: بقوله. (٧) في الأصل وم: وقال.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ البردَ، هو النومُ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ معناهُ الرَّوحُ والراحةُ، قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يَقْطَعُ عنهمُ الحرَّ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يَقْطَعُ عَطَشَهُمْ.

الآية ٢٥ [وقولُهُ تعالى:][1] ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ فالحميمُ، هو الماءُ الذي انْتَهَى في الحرِّ نهايتَهُ، الغَسّاقُ الزمهريرُ.

قالَ بَعْضُهُمْ: هو ما يَنْفَصِلُ عنْ أبدانِهِمْ مِنَ الصَّديدِ والزُّهومةِ، وهو الوَدَكُ، فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي يُطْعَمُ[2] بِهِ أهلُ النارِ[3] يُعَذَّبُهُمْ، ولا يَجِدونَ بِهِ مُسْتَمْتَعاً، بل يَصيرُ ذلكَ سَبَبَ إهلاكِهِمْ لا أنْ يَقَعَ[4] لهمْ بذلكَ البردِ راحةٌ [وشفاءٌ لهمْ][5] كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] [بل يَبْقَونَ][6] أبداً في الهلاكِ؛ لا يُقْضَى عليهِمْ، فَيَسْتَريحوا، ولا يَنْقَطِعُ عنهمُ العذابُ، فَيَتَلَذَّذوا[7] بالحياةِ.

وقيلَ: الغَسّاقُ لَونٌ مِنَ العذابِ، لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى عبادَهُ [عليهِ][8].

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي وافَقَ جَزاؤُهُمْ أعمالَهُمْ، لا يُنْقَصونَ، ولا يُزادونَ على قَدْرِ ما اسْتَوجبوا، بل يُجْزَونَ مثلَ أعمالِهِمْ. وجائزٌ أنْ يكونَ معناهُ أنَّ جَزاءَهُمْ وافَقَ أعمالَهُمْ في الخُبْثِ.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ لا يَخافونَهُ، ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على حقيقةِ الرجاءِ، أي لم يكونوا يَرْجُونَ الثوابَ.

والوجهُ أنهمْ كانوا قوماً، لا يُؤْمِنونَ بالبعثِ ولا بالجزاءِ والعذابِ حتى يَخافوا العِقابَ ويَرْجوا الثوابَ.

فإنْ حَمَلْتَهُ على الخَوفِ، فهمْ لم يَخافوهُ لِما لم يُؤمنوا بهِ، وكذلكَ إنْ حَمَلْتَهُ على حقيقةِ الرجاءِ، فهمْ لم يكونوا يَرْجُونَ لِما كَذَّبوا بهِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ فالكِذّابُ والتَّكْذيبُ في لغةِ العربِ واحدٌ، والآياتُ: جائزٌ أنْ يُرادَ بالآياتِ آياتُ البعثِ، ويُرادَ بها آياتُ الوَحْدانيّةِ وآياتُ الرسالةِ ونَحْوُها.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ الإحصاءُ والكتابُ واحداً، وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالإحصاءِ ما أُثْبِتَ في الكتابِ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فالزيادةُ في العذابِ هي[9] دوامُهُ وبَقاؤُهُ، لا أنْ يُزادَ على القَدْرِ الذي كانَ أُعِدَّ لهمْ مِنَ العذابِ، لأنهُ أخبَرَ أنهمْ لا يُجْزَونَ إلّا مِثْلَهُ[10]. فإذا كانَ الذي عُذِّبوا قَبْلَهُ جَزاءً لم يَجُزْ أنْ يُزادوا عليهِ، فثبتَ أنَّ الزيادةَ في العذابِ الدَّوامُ والبقاءُ.

وبهذا قالَ أصحابُنا في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا﴾ [التوبة: ١٢٥] وفي كلِّ ما ذُكِرَ[11] مِنَ الزيادةِ أنهُ على الثباتِ والدوامِ عليهِ، لا أنهُ يَزيدُ، ويَنْقُصُ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي مَفازاً عن أنواعِ العذابِ التي ذُكِرَتْ في الطاغينَ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ فالحدائقُ هي الأماكنُ التي أحاطتِ الأشجارُ بأطرافِها. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَعْنَٰبًا﴾ ظاهرٌ. وقد ذُكِرَ أنهمْ وُعِدوا في الآخرةِ كلَّ ما يَقَعُ لهمُ الرغبةُ في الدنيا.

ثم الأصلُ أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ على إثْرِ التَّساؤلِ بقولِهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الآيتان: ١و٢] فجائزٌ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُمْ على السؤالِ ما اعْتَرَضَ لهمْ مِنَ الشُّبَهِ أو خَطَرَ ببالِهِمْ، فسألوا، لِيُبَيِّنَ لهمْ، وتَزولَ عنهمُ الشُّبَهُ، فَذَكَّرَهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ وعجائبَ تدبيرِهِ وقوتَهُ وسلطانَهُ، وَوَعَدَ أنَّ مَنْ أمْعَنَ النَّظَرَ فيها دَلَّهُمْ ذلكَ على بَعْثِهِمْ وإزاحةِ الإشكالِ

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: ينطعم. (٣) أدرج بعدها في الأصل وم: لا. (٤) من م، في الأصل: يقطع. (٥) في الأصل وم: وشفاءهم. (٦) في الأصل وم: فيبقون. (٧) في الأصل وم: فيتلذذون. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: هو. (١٠) في الأصل وم: مثلها. (١١) في الأصل وم: ذكرت.

عنهمْ بقولِهِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [الآيتان: ٤و٥] وبَيَّنَ مآبَ مَنِ استقامَ على الصراطِ المُستقيمِ، وسَلَكَ سبيلَهُ، وأخبرَ أنَّ مَنْ لم يُمْعِنِ النَّظَرَ فيها، ولم يُعْطِ النَّصَفَةَ مِنْ نفسِهِ، وضَيَّعَها، فَمصيرُهُ إلى ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [الآيتان: ٢١و٢٢] وسَيَعْلَمُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [الآيتان: ٤و٥].

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ قيلَ: الكاعبُ هي التي تَكَعَّبَ ثَدْياها، وذلكَ حينَ تَبْلُغُ أنْ تحيضَ، وهي ناهدٌ، وهي أشْهَى ما يكونُ إلى الرجالِ. والأترابُ المُسْتَوِياتُ في السِّنِّ. ففي هذا إنباءُ أنهنَّ يَكُنَّ أبداً على سِنٍّ واحدٍ، لا يَتَغَيَّرْنَ عنْ تِلْكَ الحالِ، ولا يَهْرَمْنَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قيلَ: مَلْآنَ، وقيلَ: صافياً، وقيلَ: مُتَتابِعاً. فَوَصْفُهُ بالمَلْآنِ لِيُعْلَمَ أنَّ ذلكَ الشرابَ، لا يَنْقُصُ ما داموا يَشْرَبونَ خِلافاً لِما عليهِ شرابُ أهلِ الدنيا.

ومَنْ حَمَلَهُ على الصفاءِ فَمَعْناهُ: أنهُ صافٍ مِنَ الآفاتِ والمكروهاتِ[1] التي تكونُ في شرابِ أهلِ الدنيا منَ التَّصديعِ وإذهابِ العقلِ وغَيرِ ذلكَ.

ومَنْ حَمَلَهُ على التَّتابُعِ فَمَعْناهُ: أنَّ ذلكَ الشرابَ، لا يَنْقَطِعُ، ولا يَنْفَدُ، ما داموا في شربِهِ، بل يَتَتابَعُ عليهِمْ، ولا يَحْدُثُ فيهِمْ حالٌ، يَمْنَعُهُمْ عنِ الشُّرْبِ مِنَ السُّكْرِ وغيرِهِ، فَيَمْتَنِعوا عنْ شُرْبِهِ خِلافاً لِشرابِ أهلِ الدنيا.

ورُوِيَ عنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ أنهُ قالَ: كنا إذا اسْتَحْثَثْنا الساقيَ في الجاهليةِ قلْنا: داهِقْ لنا، أي تابِعْ لنا.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ أي لا يَسْمَعونَ فيها ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى، بل يَسْمَعونَ فيها كلَّ خيرٍ. والذي يَحِقُّ أنْ يُلْغَى ما ذَكَروا مِنَ الخُلْفِ/ ٦٢٣ ـ ب/ والباطِلِ والكذبِ، فلا يَسْمَعونَ شيئاً منْ ذلكَ كما يُسْمَعُ في أهلِها في الدنيا إذا شَرِبوها.

وقولُهُ تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ [قُرِئَ بالتخفيفِ؛ فهو إنْ قُرِئَ بالتَّخْفيفِ، فهو مِنَ][2] الكَذِبِ أي لا يَكْذِبونَ، وإنْ قُرِئَ بالتشديدِ فهو مِنَ التكذيبِ، أي لا يُكَذِّبونَ بعضُهُمْ بعضاً كما يوجَدُ في شرابِ أهلِ الدنيا.

وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا﴾ في الجنةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿كِذَّابًا﴾ قرأ بعضُهُمْ بالتَّخفيفِ في المَوضِعَينِ: ههنا وفي ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [الآية: ٢٨] وقرأ [بعضُهُمْ][3] بالتَّشديدِ في المَوضِعَينِ، وقرأ بعضُ القُرّاءِ بالتَّشديدِ في الأوَّلِ وبالتَّخفيفِ في الثاني[4].

وعنِ الكسائيِّ أنهُ قالَ: بالتَّخفيفِ لُغَةُ مُضَرَ، وبالتَّشديدِ لغةٌ يمانيةٌ؛ يقولونَ: كَذَّبَهُ تكذيباً وكِذاباً، وخَرَّبَهُ تخريباً [وخِراباً][5] ونَحْوَ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ قولُهُ: ﴿جَزَاءً﴾ أي جَزاءَ جزاهُمْ، وأعطاهُمْ ﴿عَطَاءً﴾، و ﴿حِسَابًا﴾ حاسَبَهُمْ.

وقالَ الحَسَنُ: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالِهِمْ أي زادَهُمْ على القَدْرِ الذي اسْتَوجَبوا، قالَ بَعْضُهُمْ: أعطاهُمْ عطاءً كثيراً حتى قالَ واحدٌ منهمْ: حَسْبي حَسْبي. والذي يُؤَيِّدُ هذا التأويلَ ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ كانَ يقرأُ ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حَسَنًا﴾[6].

قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿جَزَاءً﴾ بأعمالِهِمْ التي كتبَ الحفظةُ، وأحصاها عليهِمْ، وأعْطَى عطاءً حساباً أي كثيراً لِما أخفَوا مِنْ أعمالِهِمْ التي لم يَطَّلِعْ عليها ملائكةٌ، فأعطاهُمْ عطاءً بيِّناً ظاهراً، يَعْرِفُهُ الناسُ.

---

(١) في الأصل وم: والمكروه. (٢) في الأصل: قرئ بالتخفيف فهو أن، في م: أن قرئ بالتخفيف فهومن، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٤٩.
(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٤٨. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: حساباً، انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٤٩.

وجائزٌ أنْ يكونَ الجزاءُ عَطاءً مِنْ ربِّهِ، لا أنهُ يَسْتَوجِبُ الجزاءَ لِما ذَكَرْنا أنهُ لا أحَدَ منْ هذا البَشَرِ إلّا وقد سَبَقَتْ لهُ مِنَ اللهِ تعالى نِعَمٌ، لو أنفَذَ جميعَ عُمُرِهِ في أداءِ شُكْرِهِ منها لم يَصِلْ إلى كُنْهِ ما عليهِ مِنَ الشكرِ؛ إذْ مَنْ قامَ بالشُّكرِ، وَوُفِّقَ عليهِ، زيدَ لهُ أيضاً في النِّعَمِ لِمكانِ الشُّكرِ. فإذا وَصَلَ إلى جَزاءِ عملِهِ في الدنيا لم يَسْتَوجِبْ بهِ المزيدَ، فَثَبَتَ أنَّ الجزاءَ في الآخِرَةِ بِحَقِّ الإفضالِ مِنَ اللهِ تعالى والإنعامِ لا بحقِّ الاِسْتِوجابِ.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾؟ [النساء: ٦٩] فَسَمّى الكرامةَ إنعاماً، وقولِهِ[1] في آيةٍ أُخرى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾؟ [الحديد: ٢١].

فَجَعَلَ ما آتاهُمْ مِنَ النعيمِ فَضْلاً منهُ، فَثَبَتَ أنَّ الذي جَزاهُمْ بهِ ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي كثيراً.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالربُّ المالكُ، فَذَكَرَ أنهُ مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بَينَهما لِيَعْلَموا أنهُ لم يَمْتَحِنْ أحداً بِعبادتِهِ لِحاجةٍ تَقَعُ لهُ أو لِمَنْفَعةٍ تَصِلُ إليهِ، بل هو الغَنِيُّ، ولهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وأنَّ ما امْتُحِنوا بهِ مِنَ العباداتِ راجعةٌ إلى أنفسِهِمْ إذا وَفَوا بها [كانَ النفعُ راجعاً إليهِمْ][2]، وإذا لم يَقوموا بأدائِها كانَ الضَّرَرُ راجعاً إليهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بيَّنَ أنهُ رحمنٌ لِيَرْغَبوا في رحمتِهِ، ويَتَسارَعوا إلى [طَلَبِ][3] مَغْفِرَتِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ هَيبَةً مِنَ اللهِ تعالى وتعظيماً لحقِّهِ، فلا يَمْلِكونَ منْ هيبَتِهِ [﴿خِطَابًا﴾][4] بالشفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كانَ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ اخْتُلِفَ في الرُّوحِ؛ فمنهمْ مَنْ قالَ: هو جبريلُ عليه السلام، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى أرواحِ المسلمينَ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمُ الحَفَظَةُ على الملائكةِ، يَرَونَ الملائكةَ، ولا يَراهُمُ الناسُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّوحُ الكُتُبَ المُنَزَّلَةَ مِنَ السماءِ كما قالَ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] فتكونُ الكتبُ مُخاصِمَةً مع مَنْ ضَيَّعَ حقَّها، أو نَبَذَها وراءَ ظَهْرِهِ، وشافعاً لمنْ أدّى حقَّها، وعَمِلَ بما فيها.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا مِنَ المكتومِ الذي لا يُفَسَّرُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ جائزٌ أنْ يكونَ هذا مُنْصَرِفاً إلى الشافعِ أي الشافعُ لا يقولُ في ما يَشْفَعُ غيرَ الصوابِ، وما حَلَّ بهِ مِنَ الرَّهبةِ والخَوفِ مِنْ هَيبةِ اللهِ تعالى لا يُزيلُهُ عنِ التَّكَلُّمِ بالحقِّ بل اللهُ تعالى يُثَبِّتُهُ على الحقِّ، ويُجْري على لسانِهِ الصوابَ.

قالَ بَعْضُهُمْ: مَعْناهُ: لا يَشْفَعُ إلّا مَنْ قالَ في الدنيا صَواباً، وهو الحقُّ، وقيلَ: مَعْناهُ: أنهُ لا يَنالُ مِنَ الشفاعةِ حَظّاً إلّا مَنْ قالَ في الدنيا الصوابَ؛ والصوابُ أنْ يكونَ مُقيماً في ما دانَ بهِ مِنَ التوحيدِ.

وذَكَرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنهُ مَرَّ بمجنونةٍ، وهي تدعو، فتقولُ: اللهمَّ اجْعَلْني مِنْ أهلِ شفاعةِ محمدٍ ﷺ فقالَ لها: قولي: اللهمَّ اجْعَلْني منْ رُفَقاءِ محمدٍ ﷺ في الجنةِ، فإنَّ شفاعَتَهُ لأهلِ الكبائرِ منْ أمتِهِ.

قالَ رحمه الله: وبهذا الفَضْلِ يُعارِضُنا المعتزلةُ، فتقولُ: إذا قُلْتُمْ: اللهمَّ اجْعَلْ لنا مِنْ شَفاعةِ محمدٍ نَصيباً فقد قلتُمْ: اللهمَّ اجْعَلْنا مِمَّنْ يَرْتَكِبُ الكبائرَ؛ إذْ شَفاعتُهُ في زَعمِكُمْ لأهلِ الكبائرِ.

فالجوابُ عنْ هذا أنَّ الذي ابْتُلِيَ بارْتِكابِ الكبائرِ دونَ الشِّرْكِ إنما يَنالُ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الخَيراتِ مِنَ التوحيدِ وتعظيمِهِ ربَّهُ عز وجل فَمَحاسِنُهُ التي سَبَقَتْ منهُ، هي التي تَجْعَلُهُ محلّاً للشفاعةِ، ولولاها ما نالَها.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم.

فإذا قالَ: اللهمَّ اجْعَلْ لي مِنْ شَفاعة نَبِيِّكَ نَصيباً، فهو يقولُ: اللهمَّ وفِّقْني على فِعْلِ الخَيراتِ، واجْعَلْني ممنْ يُعَظِّمُكَ، ويَتَقَرَّبُ إليكَ بالطاعةِ، حتى أنالَ بها الشَّفاعةَ، لا أنْ يَقْصِدَ بدعائِهِ جَعْلَهُ مِنْ أهلِ الكبائرِ.

والذي يدُلُّ على صِحَّةِ ما ذَكَرْنا قولُهُ تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣و١٤٤] فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ تَسْبيحَهُ أنقَذَهُ[1] مِنْ بطنِ الحوتِ، ولو لم يكنْ مُسَبِّحاً لم يَسْتوجِبِ الخَلاصَ. وكذلكَ صاحبُ الكبيرةِ يَسْتوجِبُ الشفاعةَ، ويُرْجى لهُ الخَلاصُ بما سَبَقَ منهُ مِنَ الحسناتِ دونَ أنْ يَسْتوجِبَها لِارْتِكابِ الكبيرةِ.

ثم مِنْ قولِ المعتزلةِ أنهمْ يَرَونَ الصغائرَ مَغْفورةً لأربابِها إذا اجْتَنَبوا الكبائرَ، فيُقالُ لهمْ[2]: إنَّ مَنْ دعا اللهَ تعالى، وسألَهُ المَغْفِرَةَ، فكأنهُ يدعو، فيقولُ: اللهمَّ ابْتَلِني بالصغائرِ حتى تَغْفِرَها لي.

فإنْ قلتُمْ: إنَّ دعاءَهُ بالمغفرةِ لا يَقْتَضي ما عارَضْناكُمْ بهِ، فقولوا كذلكَ في مَنْ يقولُ: اللهمَّ اجْعَلْ لي مِنْ شَفاعةِ محمدٍ نَصيباً، فإنهُ لا يَقْتَضي أنْ يُجْعَلَ مِنْ أهلِ الكبائرِ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ قيلَ: مَعْناهُ ألّا يُقالَ في ذلكَ اليومِ غَيرُ الحقِّ. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى اليومِ نفسِهِ، فيكونُ معناهُ أنَّ كونَهُ حقاً يكونُ لا محالةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي مَرْجِعاً. تأويلُهُ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ للخَلْقِ سبيلَ الضلالِ والهُدى، ولم يَصُدَّ[3] أحداً عن سَبيلِ الضلالِ والهُدى، وبَيَّنَ أنَّ مَنْ سَلَكَ سَبيلَ الضلالِ فَمَآبُهُ إلى النارِ. ومَنْ سَلَكَ سبيلَ الرشْدِ والهُدى فَمَآبُهُ إلى الجنةِ؛ وذلكَ مآبُهُ إلى اللهِ تعالى واتِّخاذُ السبيلِ إليهِ تعالى.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي العذابَ [الذي][4] أُوعِدْتُمْ بهِ قريبٌ مَأتاهُ، وإنِ اسْتَبْعَدْتُموهُ في أوهامِكُمْ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الخَلائِقِ أجْمَعَ مؤمِنِهِمْ وكافِرِهِمْ. ثم تَخْصيصُ الأيدي بالذِّكْرِ هو أنَّ التَّقْديمَ[5] في الشاهِدِ يَقَعُ بالأيدي، فأُضيفَ إليها؛ وإنِ احْتَمَلَ ألّا يكونَ للأيدي صُنْعٌ في ما ارْتَكَبَ مِنَ الآثامِ أو في ما فَعَلَ مِنَ الخَيراتِ، وهو كالمطرِ، يُسَمّى رحمةَ اللهِ، وإنْ لم يكنْ ذلكَ مِنْ أوصافِهِ لأنهُ برحمةٍ منهُ[6] يَنْزِلُ مِنَ السماءِ / ٦٢٤ ـ أ/ وسَمّى الكلامَ لساناً، وإنْ لم يكُنْ هو لساناً لأنهُ باللسانِ ما يُتَكَلَّمُ، فكذلكَ التَّقديمُ أُضيفَ إلى الأيدي لِما بِها يَقَعُ التقديمُ في الشاهِدِ، وإنْ لم يكُنْ للأيدي صُنْعٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ إنَّ هذا التَّمَنّي في الكافرِ دونَ المؤمنِ لأنَّ المؤمنَ يَرى حَسناتِهِ مُتَقَبَّلَةً وسَيِّئاتِهِ مَغْفورةً، فيأمَنُ من عقابِ اللهِ تعالى، والكافرَ يَرى نفسَهُ مؤاخَذَةً بالسَّيِّئاتِ، ولا يَرى لها حَسَناتٍ مُتَقَبَّلَةً، فيَتَمَنّى أنْ يكونَ تُراباً لِيَتَخَلَّصَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

قالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ الوحوشَ تُحْشَرُ، والطُّيورَ كلَّها، ثم يقولُ اللهُ تعالى: كونوا تراباً، فَيَتَمَنّى الكافرُ في ذلكَ الوقتِ أنْ يكونَ تُراباً، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

---

(١) ادرج في الأصل وم قبلها: ما. (٢) في الأصل وم: له. (٣) في الأصل وم: يصدوا. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ادرج بعدها في الأصل وم: والتأخير. (٦) في الأصل وم: الله ما.

سورة النازعات

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ **قولُهُ تعالى:** ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ اختُلِفَ في تأويلِهِ:

فمنهمْ مَنْ حَمَلَ ذلكَ كلَّهُ على الملائكةِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ همُ الملائكةُ الذينَ يَنْزِعونَ أرواحَ الكفرةِ، ويُغْرِقونَ إغراقاً، أي يُشَدِّدونَ في النَّزْعِ كما يَغْرَقُ النازِعُ في [القوسِ، فَيشتدُّ][2] عليهِ [النَّزْعُ][3] شدةَ الأمرِ على الغريقِ، أو تَنْزِعُ أرواحَ الكَفَرَةِ، فَتُغرِقُها[4] في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ قيلَ: أي[5] تَنْشِطُ أرواحَ الكَفَرَةِ نَشطاً عنيفاً، أي تَنْزِعُ ملائكةُ العذابِ أرواحَ الكَفَرَةِ مِنْ أجوافِهِمْ نَزْعاً شديداً. وقيلَ: هذا في حقِّ المؤمنينَ: إنَّ الملائكةَ تَنْشِطُ أرواحَ المؤمنينَ؛ تَحُلُّها حلّاً رفيقاً كما تُنْشَطُ [العُقْدَةُ][6] مِنَ العِقالِ، فَيُخبِرُ بهذا [عنْ][7] خِفَّةِ ذلكَ على المؤمنينَ، ويُخْبِرُ بالأوَّلِ [عنْ][8] شِدَّتِهِ على الكافرينَ.

الآية ٣ **وقولُهُ تعالى:** ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ قيلَ: إنَّ الملائكةَ يَسُلُّونَ أرواحَ المُسْلِمينَ سَلّاً رَفيقاً، وقيلَ: الملائكةُ يَسْبَحونَ بينَ السماءِ والأرضِ.

الآية ٤ **وقولُهُ تعالى:** ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أي تَسْبِقُ الملائكةُ إلى أرواحِ المؤمنينَ. وقيلَ: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ الملائكةُ الذينَ يَسْبِقونَ بالوَحْيِ إلى الأنبياءِ ﷺ وقيلَ: هُمُ الكَروبِيّونَ الذينَ لا يَفْتُرونَ عنْ تسبيحِ ربِّ العالمينَ.

الآية ٥ **وقولُهُ تعالى:** ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ همُ الملائكةُ المُوكَلونَ بأمورِ الخَلائقِ وأرزاقِهِمْ. ومنهمْ مَنْ صَرَفَ تأويلَ الآياتِ إلى النجومِ [اللاتي يَطْلُعْنَ][9] منْ مطالعِهِنَّ لحوائجِ الخَلْقِ ولأمورٍ جُعِلَتْ لها، ويَغْرُبْنَ في مغارِبِهِنَّ، ثم يَنْشَطْنَ إلى مطالِعِهِنَّ، فَيَطْلُعْنَ [منها، أي لا يَطْلُعْنَ][10] كَرْهاً بل ناشِطاتٍ لأمرِ اللهِ تعالى إلى ما سُخِّرَتْ لهُ.

[وقولُهُ تعالى:][11] ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ [الآية: ٣] وتَسْبيحُهنَّ دَوَرانُهُنَّ في الأفقِ لأمورٍ تَخفى[12] على الخَلْقِ لِقولِهِ: ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣ ويس: ٤٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ [الآية: ٤] أي يَسْبِقُ بعضُها بعضاً، أو يَسْبِقْنَ الشياطينَ بالرجمِ والطردِ، لا تَدَعُهُمْ[13] يَقْرَبونَ السماءَ، وبهِ قالَ الحَسَنُ، واللهُ أعلَمُ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَ تأويلَ الآياتِ إلى مختلَفِ الأشياءِ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ هي القِسِيُّ تَنْزِعُها ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ هي الأوهاقُ تُنْشَطُ بها الدابةُ، يكونُ منهُ في جهةِ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هنَّ السُّفُنُ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ هنَّ الخيلُ ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ هي الملائكةُ. وبهِ قالَ عطاءٌ.

ومنهمْ مَنْ صَرَفَها إلى أنفسِ المؤمنينَ وأرواحِهِمْ، فقالَ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ هي الأنفسُ التي تَغْرَقُ في الصدرِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: النفوس أو يشتد، في م: القوس أو يشتد. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فيغرق. (٥) من م، في الأصل: أن. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في م: أنهن النجوم اللاتي يطلعن، في الأصل: اللاتي. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: خفى ذلك. (١٣) في الأصل وم: يدعهن.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ حينَ تَنْشِطُ منَ القَدَمَينِ. وقيلَ: إنَّ أنفسَ المؤمنينَ يَنْشطْنَ إلى الخروجِ عنِ الأبدانِ، إذا عايَنوا ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ [الثوابِ][1] في الجنةِ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ هي أرواحُ المؤمنينَ، سُمِّيَتْ سابحاتٍ لِسُهولةِ الأمرِ عليها كما يَسْهُلُ الخروجُ مِنَ الماءِ لِمَنْ يَعْلَمُ السباحةَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ أيضاً أرواحُ المؤمنينَ أيضاً سُمِّيَتْ سابقاتٍ لِما تكادُ تَسْبِقُ، فَتَخْرُجُ قبلَ وقتِها لِما تُعايِنُ مِنْ كَراماتِ اللهِ تعالى وما يُنْشَرُ مِنَ الخيرِ. يُؤَيِّدُ هذا ما رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ» [مسلم ٢٩٥٦].

وقيلَ ذلكَ عندَ موتِهِ: المؤمنُ إذا حَضَرَهُ الموتُ صارَ في ذلكَ الوقتِ كالمسجونِ الذي يَتَمَنَّى الراحةَ والخلاصَ منهُ، لأنهُ [يَرى][2] ما أُعِدَّ لهُ مِنَ الثوابِ، فَتَتَهَوَّعُ نفسُهُ؛ يَوَدُّ لو خَرَجَتْ حتى يَصِلَ إلى ما أُعِدَّ لها مِنَ الكرامةِ. والكافرُ إذا رَأَى [ما أُعِدَّ لهُ][3] عندما [يَحْضُرُهُ الموتُ][4] جَعَلَ يَليغُ نفسَهُ كراهةَ أنْ تَخْرُجَ، فَتَصيرُ الدنيا في ذلكَ الوقتِ كالجنةِ لهُ، فلا[5] يُحِبُّ مُفارَقَتَها مِنْ شِدَّةِ ما يَرَى مِنْ عذابِ اللهِ تعالى.

وعلى هذا قيلَ في تأويلِ قولِهِ ﷺ: «مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لِقاءَهُ ومَنْ كَرِهَ لقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ» [البخاري ٦٥٠٧و٦٥٠٨ ومسلم ٢٦٨٣].

إنَّ ذلكَ عندَ الموتِ. إنَّ المؤمنَ إذا حَضَرَهُ الموتُ، وأُرِيَ ثوابَهُ مِنَ الجنةِ، ودَّ أنْ تَخْرُجَ نفسُهُ، فَيُحِبُّ لِقاءَ اللهِ، ويُحِبُّ اللهُ لِقاءَهُ، والكافرُ يَكْرَهُ في ذلكَ الوقتِ أنْ تَخْرُجَ نفسُهُ، فذلكَ حينَ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ قالوا جميعاً: المُرادُ منها الملائكةُ المُوكَّلونَ بأمورِ الخَلْقِ وأرزاقِهِمْ ونَحْوِ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

ثم اخْتُلِفَ في الذي قَصَدَ إليهِ باليمينِ والقَسَمِ؛ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الذي وَقَعَ عليهِ القَسَمُ قولُهُ ﷻ: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [الآية: ١٠] على مَعْنَى: مَبْعوثينَ، وأنَّ القَسَمَ حَقٌّ؛ فكأنهُ أقسمَ بهذهِ الأشياءِ إنهمْ لَمَبْعوثونَ، وأضمَرَ الجوابَ ههنا لِما دلَّ عليهِ المَعْنَى، فاكْتَفَى بِهِ.

الآيات ٦ و٧و٨ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ القَصْدَ مِنَ اليمينِ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ فأقْسَمَ بما ذَكَرَ أنَّ النَّفْختَينِ كائِنَتانِ: فالنَّفْخةُ الأُولَى يموتُ بها الخَلْقُ، والنَّفْخةُ الثانيةُ لإحياءِ المَوتى، والراجفةُ هي النَّفْخةُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ على حقيقةِ النَّفْخِ، فتكونُ النَّفْخةُ علامةَ الموتِ والحياةِ لا أنْ تكونَ عِلَّةَ الإماتةِ.

ثم اخْتَلَفوا بعد هذا؛ فمنهمْ مَنْ يَحْمِلُهُ على التَّحقيقِ، فَيَزْعُمُ أنَّ النَّفْخةَ الأُولَى يَهْلِكُ بها الخَلْقُ، والنَّفْخةُ الثانيةُ يَحْيَى بها الخَلْقُ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ النَّفْخاتِ ثلاثةٌ: الأُولَى لِلتَّفْزيعِ والتَّهْويلِ بِقولِهِ[6] تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ الآية [الحج: ١و٢].

والنَّفْخةُ الثانيةُ يَهْلِكُ بها الخَلْقُ بِقولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية [الزمر: ٦٨].

والنَّفْخةُ الثالثةُ يَحْيَى بها الخَلْقُ بِقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا ليسَ على تَحقيقِ النَّفْخِ بل على التَّمْثيلِ، فَمَثَّلَ بهِ إمّا لِخِفَّةِ البعثِ والإحياءِ على اللهِ تعالى، [وإمّا لِسُهولتِهِ][7] بِخِفَّةِ النَّفْخِ على النافخِ، أو مَثَّلَ بهِ لِسرعتِهِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: حضر. (٥) في الأصل وم: لمي مالا. (٦) في الأصل وم: قال الله. (٧) في الأصل وم: وسهولته.

وقالوا: الراجفةُ، هي الزَّلْزلةُ والتَّحرُّكُ/ ٦٢٤ ـ ب/ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وهي الزَّلْزلةُ الأُخرَى.

ثم إنْ كانَ القَسَمُ على إثباتِ البعثِ ففيها ذِكرُ إشارةٍ إلى أحوالِ البعثِ وأفعالِها.

وإنْ كانتْ مُرجِعةً على قولِهِ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ فكأنهمْ سألوا كيفَ تكونُ القلوبُ في ذلكَ اليومِ؟ فقالَ: تكونُ واجفةً، والواجفةُ الخائفةُ الوَجِلَةُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلةٌ. ووجهُ تخصيصِ الأبصارِ والقلوبِ، واللهُ أعلَمُ، هو أنهُ لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ استِعمالُ قلبِهِ وبَصَرِهِ، بل يَحْدُثُ للقلوبِ فِكَرٌ وبَدَراتٌ، لا يُمكِنُهُ أنْ يدفَعَ عنها الفِكَرَ، وكذلكَ هذا في البَصَرِ، فَيُخبِرُ أنَّ ما نَزَلَ بهمْ مِنَ الخوفِ والهيبةِ يَمْنَعُ القلوبَ والأبصارَ عنْ عملِها، فلا يَنْظُرُ إلى الداعي، ولا يَحْدُثُ للقلوبِ فِكَرٌ، بل تكونُ أفئدةُ هؤلاءِ لا تَقِرُّ لشدةِ ما حلَّ بها[1] منَ الخوفِ؛ إنَّ المرءَ إذا حَزَبَهُ[2] أمرٌ، فهو يَعْمَلُ أنواعاً مِنَ الحِيَلِ، ويُوقِعُ بَصَرَهُ على شيءٍ فشيءٍ رَجاءَ أنْ يَسْتَدْرِكَ ما فيهِ خَلاصُهُ وسلامَتُهُ مِنْ ذلكَ الأمرِ، ثم يَنْقَطِعُ عنهُمُ التدبيرُ في ذلكَ اليومِ، فتكونُ قلوبُ هؤلاءِ لا تَقِرُّ في مَوضعٍ، ولا تَقِفُ على تدبيرٍ لِشِدَّةِ ما حَلَّ بهمْ، وتكونُ الأبصارُ خاشعةً ذليلةً إلى ما يدعو الداعي.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ أي يقولونَ: أإنّا لَنُرَدُّ إلى ما كُنّا عليهِ في الدنيا ابْتِداءَ الأمرِ خَلْقاً جديداً. يُقالُ: أتى فلانٌ فلاناً، فَرَجَعَ على حافِرتِهِ، يقولُ على [خِلْقَتِهِ الأُولَى][3] ويُقالُ: النَّقْدُ عندَ الحافرةِ أي عندَ أوَّلِ البَيعِ والكلامِ، فقالوا هذا على جهةِ الإنكارِ بالبعثِ والاِسْتِهزاءِ بِهِ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا مأخوذٌ منْ حافرِ الدابةِ، وهو أنَّ الفارسَ، يمكنُهُ أنْ يَصْرِفَها بِحافِرَتها إلى الموضِعِ الذي ابْتَدَأَ السيرَ منهُ مِنْ وَراءُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ وناخِرةً[4]، فالناخرةُ الباليةُ التي لم تُفَتَّ بعدُ، والنَّخِرَةُ، هي التي صارَتْ رُفاتاً، ودَرَسَتْ حتى تَنْسِفَها الريحُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ قالَ الحَسَنُ وأبو بكرٍ: هذا منهُمْ تكذيبٌ للبعثِ أي لا يكونُ أبداً، وقالَ غَيرُهما: معناهُ: أنْ لو كانتْ كَرَّةٌ كما يَزْعُمُ المسلمونَ فهي كَرَّةٌ خاسرةٌ على المسلمينَ، لأنهمْ ظَنُّوا إذا كانوا في الدنيا أنْعَمَ حالاً وأرغَدَ عيشاً، وكانَ المسلمونَ في ضيقٍ مِنَ العيشِ وشِدَّةٍ مِنَ الحالِ لنْ يكونوا كذلكَ في الآخِرَةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾؟ [الكهف: ٣٦] فكانوا يظنونَ أنهمْ بما أنعمَ اللهُ تعالى عليهِمْ إنما أنعمَ لأنهمْ أقربُ منزلةً وأعظمُ درجةً مِنَ المؤمنينَ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُضَيِّقَ على أوليائِهِ، ويوسِّعَ على أعدائِهِ. فإذا وسَّعَ عليهِمْ ظَنُّوا أنهمْ همُ المُفَضَّلونَ في الدنيا والآخِرَةِ، وأنَّ مَنْ خالَفَهُمْ فهمُ الأخسَرونَ.

ومنهمْ مَنْ قَطَعَ هذا الكلامَ عنْ مقالةِ الكَفَرَةِ، وزعَمَ أنَّ هذا الوصفَ راجعٌ إلى الكَفَرَةِ، فقيلَ: ﴿خَاسِرَةٌ﴾ لِما خَسِروا أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ وأهليهِمْ، و﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي مُخْسِرَةٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ففيهِ إخبارٌ عنْ سُرْعةِ كونِ ذلكَ الوقتِ وسهولتِهِ على اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ قيلَ: الساهرةُ، هي وَجْهُ الأرضِ. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بهذا أنَّ العيونَ تَسْهَرُ في ذلكَ اليومِ، ولا يَعْتَريها النومُ، بل تكونُ مُهْطِعَةً إلى الداعي ذليلةً.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: قد أتاكَ، فَخَوَّفْهُمْ [بِهِ][5].

وقالَ الحسنُ: لم يكنْ أتاهُ، فأتاهُ بهذا [كما يقولُ الرجلُ: هل أتاكَ فعلُ فلانٍ، وهو يريدُ أنْ يُذَكِّرَهُ بهذا][6] فَيُعْلِمَهُ معَ علمِهِ أنهُ لم يكنْ عَلِمَهُ مِنْ قَبْلُ.

---

(١) في الأصل وم: به. (٢) من م، في الأصل: خرج به. (٣) في الأصل وم: محنته الأول. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٥٦. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقد ذكَرْنا ما في ذِكْرِ الأنباءِ مِنَ الفوائدِ مِنْ تَثْبيتِ الرسالةِ والتَّخويفِ لِمَنْ أساءَ صحبةَ الرسلِ ﷺ لئلا يَنْزِلَ بهِمْ ما نَزَلَ بفرعونَ وأتباعِهِ حينَ أساؤوا صحبةَ الرسولِ موسى ﷺ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ نَادَنٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قيلَ: ﴿طُوًى﴾ اسمُ ذلكَ الوادي، وقيلَ: سُمِّيَ طُوًى لأنهُ بُورِكَ مرَّتَينِ: مَرَّةً حينَ أتاهُ إبراهيمُ ﷺ، ومرَّةً بإتيانِ موسى ﷺ، وذُكِرَ عنِ الزَّجّاجِ أنَّ طِوًى بكسرِ الطاءِ[1] الذي بورِكَ مرَّتَينِ.

ثم أضافَ ذلكَ الحديثَ مَرَّةً إلى موسى ومَرَّةً إلى نفسِهِ إذْ ناداهُ؛ فظاهِرُهُ أنَّ اللهَ تعالى، هو الذي كلَّمَهُ، فأُضيفَ إلى اللهِ تعالى، لأنَّ أصلَهُ مِنَ اللهِ تعالى كما ذكَرْنا في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وفي قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقه: ٤٠ و . . .].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي عتا، وطَغَى في نِعَمِهِ، فاسْتَعْمَلَها في كُفْرانِ نِعَمِهِ، فلم يَشكُرِ اللهَ تعالى بها.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي هل لكَ في إجابةِ مَنْ إذا أجَبْتَ تزَكَّيتَ؟ أو هل لكَ رغبةٌ إلى ما تَزْكو بِهِ نفسُكَ، وتَنْمو؟

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةٌ أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يدعُوَ آخَرَ إلى ما فيهِ رُشْدُهُ وصَلاحُهُ، فالواجبُ عليهِ أنْ يَدْعُوَهُ أوَّلاً بالرفقِ واللينِ كما أمَرَ بهِ موسى وهارونَ ﷺ بقولِهِ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وبقولِهِ: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ثم إذا تَرَكَ الإجابةَ خَتَمَ كلامَهُ بالتَّعنيفِ كما فَعَلَ موسى ﷺ بقولِهِ: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] بعدَ قولِهِ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فَتَهْتَدِيَ، ثم تَخْشاهُ إذا اهْتَدَيتَ، أي عَرَفْتَ عظمتَهُ وجلالَهُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ عقوبتَهُ، فيكونُ العلمُ مُثمِراً للخشيةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾؟ [فاطر: ٢٨].

أو [يكونُ][2] ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ إلى طاعةِ ربِّكَ، وأُنذِرَكَ عقابَهُ إذا عَصَيتَهُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ فلا تَعْصِيهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ منهم مَنْ ذَكَرَ أنَّ الآيةَ الكُبْرَى هي اليدُ؛ سُمِّيَتْ كُبْرَى لأنَّ سِحْرَهُمْ عُمِلَ في الحِبالِ والعِصِيِّ، ولم يُعْمَلْ في اليدِ، فكانتْ هذهِ الآيةُ خارجةً عن نَوعِ سِحْرِهِمْ، فَسُمِّيَتْ كُبْرَى لهذا المَعْنَى.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ الآيةَ الكُبْرَى، هي العصا، لأنَّ غَلَبَةَ موسى ﷺ، على السَّحَرةِ كانَتْ بالعصا حينَ[3] لَقِفَتْ ما أتَوا بهِ مِنَ السِّحْرِ.

ولكنَّ كلَّ آياتِهِ كانَتْ كُبْرَى كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] فكانَتْ إحداهُما أكبَرَ مِنَ الأُخرَى عندَ ذَوي الأحلامِ والنُّهَى لِمنْ تأمَّلَ فيها، وتَدَبَّرَ، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أي كَذَّبَ بآياتِ اللهِ، وعَصَى نَبِيَّهُ موسى، فلم يُطِعْهُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ قالَ الحسنُ: كانَ خفيفاً طَيّاشاً، وإلّا فالملوكُ إذا دُعُوا إلى أمرٍ، تَدَبَّروا فيهِ، وتَفَكَّروا؛ إمّا ليُجيبوا الداعيَ إلى ما دَعاهُمْ [وإمّا][4] ليَرُدُّوا عليهِ. فأمّا الإدبارُ والسَّعْيُ فليسَ إلا مِنَ الخِفَّةِ والطَّيشِ.

وقالَ غَيرُهُ: أدبَرَ عنْ طاعتِهِ تعالى، وتَوَلَّى عنهُ، وسَعَى في جَمْعِ السَّحَرَةِ، أو سَعَى في جَمْعِ مَنْ قالَ لِموسى ﷺ: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ [طه: ٥٨].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/٥٧. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: أو.

الآيتان ٢٣و٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وذلكَ اللعينُ قد عَلِمَ أنهُ ليسَ ربَّ السماءِ والأرضِ، ولكنْ قدِ اتَّخذَ لقومِهِ أصناماً، فأمَرَ العَوامَّ أنْ يَعْبُدوها لِيُقَرِّبَهُمْ ذلكَ إليهِ. لكنْ إذا صاروا منْ خاصَّتِهِ أَذِنَ لهمْ بأنْ يَعْبُدوهُ، وأمَرَ الخواصَّ منهمْ بعبادتِهِ، فَسَمَّى نفسَهُ أعْلَى الأربابِ لهذا.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بِعُقوبةِ الكلمَتينِ جميعاً: الكلمةُ الأُولَى قولُهُ تعالى: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨] والكلمةُ الثانيةُ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بِعُقوبةِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الأجرامِ وما تأخَّرَ إلى أنْ غَرِقَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: أخذَهُ بالعقوبةِ في الدنيا والآخرةِ؛ فَغَرَّقَهُ في الدنيا، وعُذِّبَتْ روحُهُ بعدَ مَماتِهِ بقولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر: ٤٦] ويدخلُ في النارِ مع أتباعِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ /٦٢٥ ـ أ/ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فاتَّصلَتْ عقوبةُ الدنيا بِعُقوبةِ الآخِرةِ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ وفي ذلكَ كلِّهِ عِبْرةٌ، لكنَّ الذي يَعْتَبِرُ بها مَنْ يَخْشَى العواقبَ، ويَخافُ عُقوبةَ اللهِ تعالى.

الآية ٢٧ ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾. فجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [الآية: ٦] وفي قولِهِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ تقريرٌ لهُ أيضاً.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحدُها: أنَّ إعادتَهُمْ خلقاً جديداً وبَعْثَهُمْ أيسَرُ في عقولِ مُنْكِري البعثِ مِنْ خَلْقِ السمواتِ، وقد أقَرّوا أنهُ خالقُ السمواتِ.

[والثاني: إذا][1] لم يَتَعَذَّرْ عليهِ خَلْقُ السماءِ، وإنْ كانَ خَلْقُهُمْ[2] أشدَّ في عقولِهِمْ مِنْ خَلْقِ أمثالِهِمْ، فما بالُهُمْ يُنْكِرونَ بَعْثَهُمْ وإعادتَهُمْ إلى ما كانوا عليهِ، وذلكَ أهونُ في عقولِهِمْ؟

[والثالثُ:][3] أنَّ السماءَ مع شدةِ خَلْقِها أشْفَقَتْ على نفسِها، فأبَتْ قبولَ ما عَرَضَ مِنَ الأمانةِ، وخافَتْ نِقْمَةَ اللهِ تعالى، فما بالُ هذا الإنسانِ مع ضَعْفِهِ يَمْتَنِعُ عنِ الإجابةِ إلى ما دُعِيَ إليهِ، أفلا يُشْفِقُ على نفسِهِ، ولا يَخافُ نِقْمَةَ اللهِ تعالى؟ وما خُلِقَتِ النارُ والجنةُ إلّا لأجلِ الإنسِ، فَيُذَكِّرُهُمْ بهذا لِيُخَوِّفَهُمْ، ويَرْتَدِعوا عمّا هُمْ فيهِ[4] مِنَ الطغيانِ، ويُجيبوا إلى ما دَعاهُمْ إليهِ الرسولُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ صِلَةَ قولِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١] وقولِهِ[5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١] فَيُخبِرُ أنَّ السماءَ مع شِدَّتِها وطواعِيَتِها، لا تقومُ بذلكَ اليومِ، فكيفَ يقومُ الإنسانُ لِهَوْلِ ذلكَ اليومِ معَ ضَعْفِهِ؟ فَيَرجِعُ هذا أيضاً إلى التَّخويفِ.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾: ﴿بَنَىٰهَا﴾ أي خَلَقَها ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾ سَقْفَها ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بالأرضِ، أو سَوّاها على ما توجِبُهُ الحكمةُ، ويَدُلُّ على الوَحْدانيَّةِ.

قالَ إمامُ الهُدَى أبو منصورٍ ﵀: ثم لم يَفْهَمْ أحدٌ مِنْ قولِهِ: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ما يُفْهَمُ مِنَ البناءِ المُضافِ إلى الخَلْقِ، ولا فَهِمَ مِنَ الرفعِ [ما يُفْهَمُ مِنَ الرفعِ][6] المضافِ إليهِمْ، ولا فَهِمَ مِنْ قولِهِ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [الآية: ٣٠] ما يُفْهَمُ مِنَ البَسْطِ المَعروفِ المَنسوبِ إلى الخَلْقِ، فما بالُ بعضِ الناسِ فَهِموا مِنَ المَجيءِ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى ما فَهِموا مِنَ المَجيءِ الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ؟

فلولا أنهُ حَمَلَتْهُمْ جهالَتُهُمْ على أنْ يَفْهَموا منهُ المَعْنَى المَكروهَ، وإلّا لم تَنْصَرِفْ أوهامُهُمْ إلى مِثْلِ ذلكَ.

---

(١) في الأصل وم: فإذا. (٢) في الأصل وم: خلقه. (٣) في الأصل وم: ويَحْتَمِلُ وجهاً آخر، وهو. (٤) في الأصل وم: فيهم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٩ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ قيلَ أظلَمَ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ نَفيُ إظلامِ الليلِ وإخراجُ الضُّحى ما يَنفي عن مُنكِري البعثِ الشُّبَهَ التي تَعتَرِضُ لهمْ؛ وذلكَ أنهُ يَغطِشُ في ساعةٍ لطيفةٍ، ويُغشّي ظُلْمَتَها كلَّ شيءٍ، ثم يُتلِفُها في أدنى وهلةٍ، ويَفْنيها، كأنها لم تكنْ، ثم يُعيدُها بعدَ ما أتلَفَها، حتى لو أرادَ أحدٌ أنْ يُميِّزَ بينَ الأُولى والثانيةِ لم يَقدِرْ عليهِ، بل وقَعَ عندَهُ أنَّ الأُولَى، هي الثانيةُ، والثانيةُ، هي الأُولَى. وهذا بعدَما تَلَفَتِ الظلمةُ الأُولَى، وذهبَتْ كلُّها حتى لم يَبْقَ منها أثرٌ.

فَلَأنْ يكونَ قادراً على إعادتِهِمْ خَلْقاً جديداً بعدَ ما أفناهُمْ، وقد بَقِيَ مِنْ آثارِ الخَلْقِ الأوّلِ بعضُهُ، أولَى. ثم أضافَ ذلكَ إلى السماءِ لأنَّ بُدُوَّها يَظهَرُ مِنْ عندِنا.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ قالوا بَسَطَها؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: خَلَقَها مُجْتَمِعَةً، ثم بَسَطَها بعدَ ما خَلَقَ السمواتِ.

ألا تَرَى أنهُ قالَ: ﴿دَحَاهَا﴾ ولم يَقُلْ خَلَقَها؟ ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهُ خَلَقَ سماءَ الدنيا أوّلاً، ثم خَلَقَ الأرضينَ بعدَ ذلكَ، ثم خَلَقَ السمواتِ السِّتَّ مِنْ بَعْدُ. ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها كانَتْ قبلَ أنْ تُبسَطَ تحتَ بيتِ[2] المَقْدِسِ، ثم بَسَطَها بعدَ ذلكَ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا لا يُحْتَمَلُ؛ لأنهُ لا يجوزُ أنْ تكونَ بِجُمْلَتِها وسَعَتِها تحتَ بيتِ المَقْدِسِ، واللهُ أعلَمُ.

ولكنَّ مَعْناهُ عندَنا، إنْ كانَ على ما قالوا مُنْصَرِفٌ إلى الجوهرِ، أي الجوهرِ الذي خُلِقَتْ منهُ الأرضُ، كانَ هنالكَ، لا أنْ كانَتْ بِجُمْلَتِها تحتَهُ كما خُلِقَ الإنسانُ مِنَ النُّطْفَةِ، وإنْ لم يكنْ بِكُلِّيَّتِهِ مِنَ[3] النُّطفةِ، وخُلِقَ مِنَ الترابِ، وإنْ لم يكنْ بِكُلِّيَّتِهِ على ما هو عليهِ مِنَ[4] الترابِ. وكانَ مَعْناهُ أنهُ خُلِقَ مِنْ ذلكَ الجوهرِ، فَعَلَى ذلكَ الحكمُ في ما ذَكَرَهُ.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنَّ خَلْقَهُمْ كانَ معاً، وذُكِرَ عنِ الحَسَنِ أنَّ الأرضينَ خُلِقَتْ قبلَ السماءِ لِقولِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ[5] في موضعٍ آخرَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وقيلَ[6]: اسمُ السماءِ ما ارْتَفَعَ [مِنَ الشيءِ][7] كما يُقالُ للسقفِ سماءٌ لِارْتِفاعِهِ عنِ الإنسانِ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ذَكَرَ ما أنْشَأهُ لنا لِنَحْمَدَهُ، وما أخرَجَ منها للأنعامِ لِتذكيرِ النِّعَمِ أيضاً، ونَشْكُرَهُ، ونَحْمَدَهُ عليهِ؛ إذِ الدوابُّ خُلِقَتْ لنا، فَما رَجَعَ إلى مَنافِعِها فهي راجعةٌ إلينا؛ إذْ بها ما يَصِلُ إلى الانْتِفاعِ بالدوابِّ.

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبَتَها لئلا تَميدَ بأهلِها.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فيهِ أنَّ جَعْلَهُ مَتاعاً لنا قد جَعَلَ شيئاً مِنْ ذلكَ للدَّوابِّ أيضاً، والذي جَعَلَهُ للأنعامِ لم يَجْعَلْ لنا فيهِ شِرْكاً، وذلكَ لأنَّ الذي أنشأهُ لِمَتاعِ البشرِ، منهُ ما يُسْتَخْبَثُ، ويُسْتَقْذَرُ، ومنهُ ما يُسْتَطابُ، ويُدَّخَرُ، فَجَعَلَ ما طابَ منهُ للبشرِ وما خَبُثَ منهُ لِمنافعِ الدَّوابِّ، والذي أنشأهُ لِمنافِعِ الدَّوابِّ ممّا تَسْتَخْبِثُهُ الطباعُ، وتَسْتَقْذِرُهُ، فَفَضْلُ أغذيتِها مِنْ فَضْلِ مَنازِلِهِمْ.

ففي ما ذَكَرْنا دلالةُ إباحةِ التَّناوُلِ مِنَ الطَّيِّباتِ: أنَّ اللهَ تعالى مَنَّ على عبادِهِ أنْ جَعَلَ أغذيَتَهُمْ بما طابَ مِنَ الأشياءِ، وفَضَّلَهُمْ على الأنعامِ. فَمَنْ كَرِهَ [ذلكَ، فقد كَرِهَ][8] الانْتِفاعَ بما أُنْشِئَ لِلانْتِفاعِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ قيلَ[9]: الطامَّةُ، هي الصَّيحةُ؛ سُمِّيَتْ طامَّةً لأنها تَطُمُّ الأشياءَ، وتَعُمُّها، وسُمِّيَتْ كُبْرَى لأنها طَمَّتْ بالعذابِ، فهو يدومُ، ولا يَنْقَطِعُ، وإنْ أحاطَتْ بالثوابِ والكرامةِ فهي[10] تدومُ، فَسُمِّيَتْ كُبْرَى لِدَوامِها.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: البيت. (٣) في الأصل وم: في. (٤) في الأصل وم: في. (٥) في الأصل وم: في. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (١٠) في الأصل وم: فهو.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ ما عَمِلَ، وتَذَكُّرُهُ يكونُ بوجهَين:

أحدُهما: بقراءَتِهِ كتابَهُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

والتَّذَكُّرُ الثاني يكونُ بالجزاءِ.

فالتَّذَكُّرُ الأوَّلُ يكونُ باللُّطفِ مِنَ اللهِ تعالى، وإلّا فالمُرادُ قد تُكتَبُ أشياءُ، ثم يَنساها[1] إذا طالتِ المدةُ، ولا يَتَذَكَّرُ بالقراءةِ. ففي ما لم يَتَوَلَّ كتابَهُ أحقُّ ألّا يَتَذَكَّرَ. لكنَّ الله تعالى بلطفِهِ يُذَكِّرُهُ بالقراءةِ، فَيَعْرِفُ صدقَ ما كَتَبَتْهُ الملائكةُ، ويَعرِفُ أنهُ إذا عُوقِبَ عوقِبَ جزاءَ ما كَسَبَتْ يداهُ، ويكونُ الجزاءُ أبلَغَ بالتَّذَكُّرِ، فَيَتَذَكَّرُ في ذلكَ الوقتِ.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ وقُرِئَ لِمَنْ تَرَى[2]، فَتُضافُ الرُّؤيةُ إلى الجَحيمِ كقولِهِ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ جائزٌ أنْ تكونَ الرؤيةُ كِنايةً عنِ الحضورِ والدخولِ، فيكونُ ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ أي لِمَنْ يَدْخُلُها ويَحضُرُها، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ومَعْناهُ: أنَّ رحمةَ اللهِ للمحسنينَ، وقولِهِ[3] تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥و . . .] وأُريدَ بالقُرْبِ التَّناوُلُ، فَكَنَّى عنهُ بالقُرْبِ. فجائزٌ أنْ تكونَ الرؤيةُ ههنا كِنايةً عنِ الدخولِ والحضورِ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ إحاطةِ العذابِ بجميعِ أبدانِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أهلُ الرؤيةِ، هُمْ أهلُ الجنةِ؛ يَرَونَها[4] مُشاهدةً، فَيَتَلَذَّذونَ بذلكَ لِما نَجَوا، وفازوا بالنِّعَمِ، كما تألَّموا بِذِكْرِها عندما كانَتْ / ٦٢٥ ـ ب/ غائبةً، لا يَرَونَها. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وقالَ[5]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الآية [الطور: ٢٦و٢٧].

الآيتان ٣٧و٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عَصَى، وتَمَرَّدَ، وطَغَى بأنْعُمِ اللهِ تعالى، فاسْتَعْمَلَها في مَعاصيهِ، أو جاوَزَ حدودَ اللهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ إيثارُهُ أنْ يَبْتَغِيَ مَحاسنَ[6] الحياةِ الدنيا حتى أنساهُ ذلكَ الآخِرةَ[7]، وإذا ابْتَغَى بها الحياةَ الدنيا لم يَبْقَ لهُ في الآخِرةِ نصيبٌ لأنهُ قد وُفِّيَ لهُ عَمَلُهُ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؟ [هود: ١٥].

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي يأوي إليها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالمَقامِ حِسابَ ربِّهِ أو مَقامَهُ عندَ ربِّهِ، فأُضيفَ إلى اللهِ تعالى لأنَّ البعثَ مُضافٌ إليهِ، فكلُّ أحوالِهِ أُضيفَتْ إليهِ أيضاً.

وجائزٌ أنْ يكونَ الخوفُ راجعاً إلى الحالةِ التي هو فيها، فيخافُ أنْ يكونَ مَقامُهُ في مَوضعِ نَهْيِ اللهِ تعالى عنِ المَقامِ فيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فليسَ هذا نَهْيَ قولٍ، وإنما نَهْيُهُ إيّاها أنْ يَكُفَّها عنْ شَهَواتِها ولَذّاتِها، وكَفُّها أنْ يُشْعِرَها عذابَ الآخِرةِ، ويُخَوِّفَها آلامَها وعِقابَها. فإذا فَعَلَ ذلكَ سَهُلَ عليها تَرْكُ الشَّهَواتِ الحاضِرةِ، وسَهُلَ عليها العَمَلُ للآخِرةِ. والناسُ في نَهْيِ نفسٍ عنْ هواها على ضَرْبَينِ:

فمنهُمْ مَنْ يَقْهَرُها، فلا يُعْطيها شَهَواتِها، فهو أبداً في جَهْدٍ وعَناءٍ، ومنهم مَنْ يُذَكِّرُها العواقِبَ، ويُريها ما أُعِدَّ لأهلِ الطاعةِ، ويُعْلِمُها ما يَحُلُّ بالظَّلَمةِ، فَيَصيرُ ذلكَ لها كالعِيانِ، فَتَختارُ لَذّاتِ الآخِرةِ على لَذّاتِ الدنيا، لأنَّ ذلكَ أدوَمُ وألَذُّ، وسَهُلَ عليهِ العَمَلُ للآخِرةِ، والهَوَى، هو مَيلُ النفسِ إلى شَهَواتِها ولَذّتِها.

ففيهِ أنَّ الأنفسَ جُبِلَتْ على حبِّ الشَّهَواتِ والمَيلِ إليها، ولا تَنْتَهي عنْ ذلكَ إلّا بما ذَكَرْنا.

(١) في الأصل وم: ينساه. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ح٨/ ٦٤. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: فيرونها. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: بمحاسنه. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: عن.

الآية ٤١ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾][١].

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ وهي القيامةُ، سُمِّيَتْ ساعةً إمّا لِيَخِفَّ أمرُها على مَنْ إليهِ تدبيرُها، أو سُمِّيَتْ ساعةً لِسُرْعةِ كَونِها إذا أتى وقتُها، أو سُمِّيَتْ لِقُرْبِها إلى الحالةِ التي كانوا عليها كقولِهِ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ثم [إنْ][٢] كانَ هذا السؤالُ مِنَ المؤمنينَ فهو سؤالُ اسْتِهْداءٍ؛ كأنهُ لمّا قيلَ لهمْ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] [وقيلَ][٣]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] قالوا: متى تكونُ الساعةُ، فنزلَتْ هذهِ الآيةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ السؤالُ مِنَ الكَفَرَةِ لِما ذَكَرْنا أنهُ ليسَ في تَبْيِينِ وقتِها كثيرُ منفعةٍ حتى تقعَ الحاجةُ للمسلمينَ إلى تَبْيِينِهِ بالسؤالِ، فَيَسألونَ سؤالَ اسْتِهْزاءٍ واسْتِخْفافٍ برسولِ اللهِ ﷺ فيَسْألونَهُ اسْتِعْجالَها بقولِهِ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] فكانوا يَسْألونَهُ عنْ شيءٍ يَعْلَمونَ أنهمْ مُتَعَنِّتونَ في السؤالِ قَصْداً منهمْ [لِلتَّمويهِ][٤] والتَّلْبيسِ على الضَّعَفةِ والأتباعِ لأنهمْ كانوا يَعْلَمونَ أنَّ ذلكَ الوقتَ ليسَ هو وقتَ مَجيءِ الساعةِ.

وإذا طَلَبوا الاسْتِعْجالَ عَلِموا أنهُ لا يَتَهَيَّأُ لهُ أنْ يُرِيَهُمْ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ[٥] ذلك يَخْرُجُ مَخْرَجَ خِلافِ الوعدِ، فَيَحْتَجّونَ على الضَّعَفةِ أنهُ لو كانَ صادقاً في مَقالتِهِ: إنَّ الساعةَ تكونُ لكانوا متى طلبوا مجيئَها يأْتِهِمْ بها.

الآية ٤٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي لَسْتَ أنتَ مِنْ عِلْمِها في شيءٍ. هذا إنْ ثَبَتَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَطَّلِعْ عليها.

الآية ٤٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي يَنْتَهي إليهِ[٦] عِلْمُها، فيكونُ هذا نَهْيَ السائلينَ عنِ العَودِ إلى السؤالِ.

الآية ٤٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ فهو ﷺ كانَ مُنْذِراً للعالَمينَ جملةً بقولِهِ: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] لكنهُ يَنْتَفِعُ بإنذارِهِ مَنْ يَخْشَى الإنذارَ.

الآية ٤٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ قالَ أهلُ التأويلِ في هذهِ الآيةِ: إنهمْ إذا رَأَوا الساعةَ اسْتَقْصَروا هذهِ الأيامَ، وقَلَّتِ الدنيا في قلوبِهِمْ مَتى عايَنوا الآخِرةَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ تأويلُهُ [أنهمْ لو رَأَوا][٧] الساعةَ لِلْحالةِ التي همْ فيها لم يَلْبَثوا فيها عشيَّةً أو ضُحاها، فلا يَقَعُ ذلكَ موقعَ التَّهويلِ والتَّخْويفِ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المرجعُ والمَآبُ][٨].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: إذ. (٦) في الأصل وم: إليها. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: لو أرادوا. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

سورة عبس

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ ذَكَرَ الحَسَنُ أنَّ تَعَبُّسَ الوجهِ والتَّوَلِّيَ كانا بِنفسِ المجيءِ على ظاهرِ الآيةِ، فإنهُ ذَكَرَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ عندَهُ مِنْ عُظماءِ المشركِينَ، يَعِظُهُمْ، ويَدعوهُمْ إلى الإسلامِ. فلمّا جاءَهُ ابنُ أُمِّ مَكتومٍ، يَسْأَلُهُ، أعْرَضَ عنهُ لِمكانِ أولئكَ القومِ، وعَبَّسَ وجْهَهُ رَجاءَ إسلامِهِمْ.

وذَكَرَ غَيرُهُ مِنْ أهلِ التفسيرِ أنهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ لمّا سألَهُ ابْنُ أمِّ مَكتومٍ عمّا فيهِ رُشْدُهُ وهُداهُ، فَعَبَّسَ وجهَهُ بِقَطْعِهِ الحديثَ.

ثم هذا التَّعَبُّسُ مِنْهُ ﷺ، كانَ في أمرٍ، لوَ الْتامَ، ثم وُزِنَ ذلكَ بخيراتِ أهلِ الأرضِ لَرَجَحَ على خَيراتِهِمْ ومَحاسِنِهِمْ لأنهُ ذُكِرَ أنهُ كانَ مُقْبِلاً على رُؤساءِ الكَفَرَةِ، يَعِظُهُمْ، ويُحَرِّضُهُمْ على الإسلامِ رَجاءَ أنْ يُسْلِموا، فيكونُ في إسلامِهِمْ رَجاءُ إسلامِ كثيرٍ مِنَ القومِ، لأنهمْ كانوا مِنْ عليَّةِ القومِ وعُظَمائِهِمْ، فكانَ في إسلامِهِمْ رَجاءُ إسلامِ مَنْ يَتْبَعُهُمْ مِنْ قومِهِمْ، فَيَسْتَوجِبُ بإسلامِهِمْ مِنْ جزيلِ الثوابِ وعِظَمِ المنزلةِ مالا يَبْلُغُهُ آخَرُ بجميعِ محاسِنِهِ، فكانَ في سؤالِهِ إياهُ مَنْعُ ما قَصَدَ إليهِ مِنْ إحرازِ جزيلِ الثوابِ وكريمِ الخِصالِ.

وإذا كانَ هكذا [ففيهِ وجهانِ:

أحَدُهما: أنَّ تَعَبُّسَ][2] الوجهِ [في][3] مثلِ هذا الحالِ أمرٌ سَهلٌ، لا يُسْتَبْعَدُ، ولا يُسْتَنْكَرُ.

والثاني: أنَّ تَعَبُّسَ الوجهِ على الأعمَى والإعراضَ عنهُ، لا يُظْهَرُ للأعمى، لأنهُ لا يراهُ، فلا يَعُدُّهُ جَفاءً، وكانَ في إقبالِهِ على أولئكَ القومِ وحُسْنِ صُحْبَتِهِ إياهُمْ رَجاءُ الإسلامِ منهمْ؛ إذْ إقبالُهُ وحُسْنُ صُحْبَتِهِ يَظْهَرُ لهمْ، وفي الإعراضِ عنهمْ ذهابُ ذلكَ الرجاءِ وإبداءُ الجَفاءِ منهُ إياهُمْ.

ومَنْ آثَرَ الوجهَ الذي فيهِ اتِّقاءُ الجَفاءِ والدعاءُ مِنَ الرَّدعِ إلى الهُدَى وصلاحُ الدينِ فهو محمودٌ عندَ ذَوِي الأحلامِ والنُّهَى، ولأنَّ إقبالَهُ على القومِ إذا كانَ لِمكانَ دعائهِمْ إلى الإسلامِ، وقد أُمِرْنا بدعاءِ الكفرةِ إلى الإسلامِ، وإنْ كانَ في دعائِهِمْ إتلافُ أنفسِنا وأموالِنا، فَلَأنْ يُسَوِّغَ الدعاءُ مِنْ وجهٍ، ليسَ فيهِ تَعْبيسُ الوجهِ على واحدٍ مِنَ المسلمينَ أَولَى.

ولكنَّ النبيَّ ﷺ /٦٢٦ ـ أ/ وُجِدَ منهُ هذا النوعُ مِنَ الإيثارِ اجتهاداً ورأياً، والأنبياءُ ﷺ، قد جاءَهُمُ العِتابُ مِنَ اللهِ تعالى بِتَعاطيهِمْ أموراً، لم يَسْبِقْ مِنَ اللهِ تعالى لهمُ الإذنُ في ذلكَ، وإنْ كانَ الذي تَعاطَوهُ مِنَ الأمورِ أموراً محمودةً في تدبيرِ الخَلْقِ نَحْوَ ما عُوتِبَ يونسُ ﷺ، وعُوقِبَ بِمفارقةِ قومِهِ بِغَيرِ إذنٍ، وإنْ كانَ مثلُ تلكَ المُفارقةِ، لو وُجِدَ منْ واحدٍ مِنْ أهلِ الأرضِ اسْتَوجَبَ بها الحَمْدَ وحُسْنَ الثناءِ، لأنَّ تلكَ المُفارقةَ لا تَخْلو مِنْ تلكَ الأمورِ الثلاثةِ[4]:

أحَدُها: أنَّ قومَهُ كانوا أهلَ كُفْرٍ، وكانوا لهُ أعداءً في الدينِ، فَفارَقَهُمْ لِيَنْجُوَ منهمْ، ويَسْلَمَ لهُ دينُهُ، ومثلُ هذا لو وُجِدَ مِنْ غَيرِ الأنبياءِ ﷺ، عُدَّ ذلكَ مِنْ أفضلِ شمائِلِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فتعبس. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ثلاثة.

والثاني: أنَّ في مُفارقتِهِ منْ بينِ أظْهُرِهِمْ [تخويفاً لهم وتهويلاً][(١)] فيَدعوهُمْ ذلكَ إلى الانْقِلاعِ عمّا هُمْ عليهِ مِنَ الضلالِ والفَزَعِ إلى اللهِ تعالى، ومَنْ خَوَّفَ آخَرَ بأمرٍ، يكونُ فيهِ دعاؤُهُ إلى الهُدَى ورَدْعُهُ عنِ الضلالِ، فقد أبلغَ في النصيحةِ[(٢)] واسْتقامَ على الطريقةِ.

والثالثُ: أنهُ يفارقُهُمْ لِيَسْتَنْصِرَ بِغَيرِهِمْ[(٣)]، فيَنْصُرونَهُ عليهِمْ، ويَتَقَوّى بهِمْ لِيكونَ على دعائِهِمْ إلى الإسلامِ أمْكَنَ وأقْدَرَ. ومَنْ كانَتْ مُفارقتُهُ مِنْ قومِهِ على هذهِ النيَّةِ فَلَنِعْمَ المُفارِقُ هو، ثم عُوتِبَ معَ ذلكَ كلِّهِ.

وذكَرَ اللهُ تعالى في الكتابِ قصتَهُ لِلْوَجْهِ الذي ذَكَرْنا. فكذلكَ الوَجْهُ في مُعاتبةِ نَبِيِّنا محمدٍ ﷺ.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَقْصِدْ إلى تَعَبُّسِ الوَجْهِ على ابْنِ أمِّ مكتومٍ، ولا تَوَلّى عنهُ عَمْداً لِذلكَ. لكنْ لمّا قَطَعَ عليهِ حديثَهُ، وكانَ فيهِ قَطْعُ رجاءِ إسلامِ أولئكَ القومِ، شَقَّ ذلكَ عليهِ، واعتراهُ مِنْ ذلكَ هَمٌّ شديدٌ أثَّرَ ذلكَ في وَجْهِهِ، لا أنْ كانَ منهُ ذلكَ على القَصْدِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في قلبِهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ والرحمةِ على العالَمينَ حتى بَلَغَ مِنْ شَفَقَتِهِ أنْ كادَتْ نفسُهُ تَذْهبُ على مَنْ [أعرَضَ عنْ][(٤)] دينِ اللهِ تعالى والإيمانِ بهِ حَسَراتٍ عليهِ، وحتى قالَ[(٥)] لهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] وقالَ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وتأويلُهُ: ألا تَحْزَنَ بِمكانِهِمْ كلَّ هذا الحُزْنِ، فيكونُ فيهِ تخفيفُ الأمرِ عليهِ لا أنْ يكونَ فيهِ نَهْيٌ عنِ الحزنِ وعَنِ الحَسْرَةِ. ولذلكَ قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ [التحريم: ١] ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ: ألا تُحَمِّلَ نفسَكَ كلَّ هذا التَّحْميلَ حتى تَمْتَنِعَ عنِ الانْتِفاعِ بما أحلَّ اللهُ لكَ الانْتِفاعَ بهِ طَلَباً لِمَرْضاتِهِنَّ، لا أنْ يَنْهاهُ عنِ ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِنَّ، بل قد نَدَبَهُ[(٦)] إلى ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِنَّ بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٥١].

فجائزٌ أنْ يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ اشْتَدَّ عليهِ إعراضُ أولئكَ القومِ عنِ الإيمانِ، وكَبُرَ ذلكَ عليهِ حتى تَغَيَّرَ لونُ وجهِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ يُبَيِّنُ شدةَ ما اعْتَراهُ مِنَ الهمِّ حتى أثَّرَ ذلكَ في وجهِهِ، لا أنْ يكونَ فيهِ مَذَمَّةٌ ومَنْقَصَةٌ.

ثم في هذهِ الآيةِ فوائدُ أُخَرُ:

إحداها[(٧)]: جوازُ العملِ بالاجْتِهادِ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ فَعَلَ هذا النوعَ اجْتِهاداً لا نَصّاً؛ إذْ لو كانَ الإذْنُ بالتَّوَلّي والتَّعْبيسِ سائغاً لم يكنْ يُعاتَبُ بفعلِ ما قد أُمِرَ بهِ.

فإنْ قيلَ: كيفَ لا تَدُلُّ المُعاتبةُ على النهيِ على إقدامِهِ [على][(٨)] مثلِهِ، فيُحَرِّمُ عليهِ الاجْتِهادُ؟ قيلَ[(٩)] لهُ: لو كانَ نَهْياً لم يكُنْ يعودُ إلى العملِ بالاجْتِهادِ بعدَ ذلكَ، وقد وُجِدَ منهُ ﷺ، العَوْدُ بقولِهِ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] وبقولِهِ[(١٠)]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]. فثَبَتَ أنهُ ليسَ فيهِ نَهْيٌ، وفيهِ أنَّ الكافرَ، وإنْ كانَ مُبَجَّلاً مُعَظَّماً في قومِهِ، فليسَ على المؤمنينَ أنْ يُعَظِّموهُ، ويُبَجِّلوهُ، بل يُسْتَرْذَلُ، ويُسْتَخَفُّ بهِ، وأنَّ المسلمَ ينبغي أنْ يُعَظَّمَ، ويُكَرَّمَ، وإنْ كانَ حقيراً في أعيُنِ الخَلْقِ.

[والثانيةُ:][(١١)] آيةُ رسالةِ محمدٍ ﷺ ودلالةُ نُبُوَّتِهِ، وأنهُ لم يَخْتَلِقْ هذا الكتابَ مِنْ عندِ نفسِهِ؛ لأنَّ مَنْ يَتَعاطى فِعْلاً، حَقُّهُ السِّرُّ، فهو يَسْتُرُهُ على نفسِهِ، ولا يَهْتِكُ عليها السِّتْرَ، لئلا يُلْزَمَ عليهِ. فلو لم يكُنْ مأموراً بِتَبليغِ الرسالةِ لكانَ يَجْتَهِدُ في السِّرِّ على نفسِهِ، فلا يَنْبُذُهُ للخلائقِ. ولكنهُ كانَ رسولاً لم يَجِدْ منْ تَبْليغِهِ إلى الخَلْقِ بُدّاً، فَبَلَّغَهُ كما أُمِرَ.

---

(١) في الأصل وم: تخويف لهم وتهويل. (٢) في الأصل وم: الصحبة. (٣) في الأصل وم: بغيره. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: قيل. (٦) في الأصل وم: ندب. (٧) في الأصل وم: أحدها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وقيل. (١٠) الواو ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: وفيه.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ و: لَعَلَّ منَ اللهِ واجبٌ. وقولُهُ: ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ أي يَتَزَكّى بِعِلْمِهِ ونِيَّتِهِ. وفي[1] هذهِ الآيةِ قَضاءٌ بإبطالِ قولِ مَنْ زَعَمَ أنَّ جميعَ ما في القرآنِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ هو ممّا لم يَدْرِهِ.

يُرْوَى ذلكَ عنْ سُفيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ﷺ وغيرِهِ أنهُ[2] قد أدراهُ ههنا بقولِهِ: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ و: لَعَلَّ مِنَ اللهِ واجبٌ. وإذا جَعَلْتَهُ واجباً، فقد زَكّاهُ، وإذا زَكّاهُ فقد عَلِمَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ يَتَذَكَّرُ بِتَذَكُّرِكَ إياهُ، فَيَنتَفِعَ بِتَذَكُّرِكَ.

والثاني: أنْ يَتَذَكَّرَ في ما ذَكَّرْتَهُ مِنَ العواقبِ وما يَحِقُّ عليهِ في حالةٍ، فَيَنتَفِعَ بهِ.

فتكونُ المنفعةُ في التأويلِ الأوَّلِ بالتَّذَكُّرِ بنفسِ تَذَكُّرِ الرسولِ ﷺ وفي التأويلِ الثاني بِتَذَكُّرِهِ في ما ذَكَّرَهُ النبيُّ ﷺ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي بما اختارَهُ عمّا جِئْتَ بهِ مِنَ الدينِ، واسْتَغْنَى بالذي زَيَّنَ لهُ الشيطانُ عمّا جِئْتَ بهِ، أو يكونُ على الغِنَى المعروفِ، لأنَّ الذينَ أقبلَ عليهِمْ بوجْهِهِ كانوا أهلَ ثَروةٍ وغِنًى، فأقبلَ عليهِمْ رَجاءَ أنْ يُسْلِموا، فَيَتْبَعَهُمْ أتباعُهُمْ في الإسلامِ، إذْ كانوا مِنْ رُؤَسائِهِمْ وأجِلَّتِهِمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ أي مُقْبِلٌ عليهِ بوجْهِكَ[3].

الآية ٧ [وقولُهُ تعالى][4]: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ أي ليسَ عليكَ غَيرُ التَّذْكيرِ إذا أعرضَ عنكَ، وعاداكَ، لن يُمَكَّنَ مِنَ إلحاقِ ضَرَرٍ بكَ، بلِ اللهُ يَعْصِمُكَ، ويَدْفَعُ عنكَ شَرَّهُ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي يَعْمَلُ للهِ تعالى، ويَخشاهُ.

فجائزٌ أنْ تكونَ الخَشيةُ عِلَّةً للسَّعْيِ، فيكونُ مَعْناهُ: أنَّ خَشيَتَهُ هي التي حَمَلَتْهُ إلى السَّعْيِ، وقد يجوزُ أنْ يُخَرَّجَ الكلامُ مُخْرَجَ العطفِ على جَعْلِ أحدِهِما عِلَّةً لِلأُخرى ودليلاً لهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فكانَ الإحياءُ الأوَّلُ دليلاً للإحياءِ الثاني في مَوضِعِ العطفِ والترتيبِ على الكلامِ الأوَّلِ.

أو أنْ يكونَ ابْتِداءً: فقولُهُ: ﴿جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ تعالى، ويخافُ التَّبِعَةَ وحُلولَ النِّقْمةِ.

الآيتان ١٠ و١١ وقولُهُ تعالى: [﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾][5] ﴿كَلَّآ﴾ قالَ الحَسَنُ: مَعْناهُ أنَّ الذي فَعَلْتَهُ مِنَ التَّوَلّي عنِ المؤمنينَ والإقبالِ على الكَفَرةِ ليسَ مِنْ حُكْمِي.

وذَكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ لمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تَغَيَّرَ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ وخافَ زَوالَ الرسالةِ، وأنْ يُمْحَى اسْمُهُ عنها. فلمّا نَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ عَلِمَ أنهُ لم يُوعِدْهُ ربُّهُ حينَ[6] نَهاهُ عنِ العَودِ إلى مثلِهِ.

وقالَ المُفَسِّرونَ: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا تَعُدْ إلى مِثْلِ هذا.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا مُنْصَرِفاً إلى السُّوَرِ[7] /٦٢٦ ـ ب/ كلِّها. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنصَرِفاً إلى هذهِ السورةِ لأنَّ فيها إثباتَ التوحيدِ وإثباتَ الرسالةِ مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا دلالةَ البعثِ وآياتِهِ أنَّ خَلْقَ البَشَرِ ليسَ على البعثِ، فهي تذكرةٌ لِمَنْ يَذَّكَّرُ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ مُنصَرِفاً إلى الآياتِ التي قَبْلَ هذا في هذهِ السورةِ، وهو أنَّ في ما تَقَدَّمَ في هذهِ السورةِ مِنَ الآياتِ تثبيتَ رسالتِهِ بما تَقَدَّمَ ذِكْرُنا لهُ جائزٌ أنْ يُقالَ: إنَّ هذهِ تذكرةٌ، أي هذهِ المُعاتبةَ تَذْكِرَةٌ للنَّبيِّ ﷺ ولجميعِ المؤمنينَ لِيَعْرِفوا مَنْ يَسْتَوجِبُ التَّعْظيمَ والتَّبجيلَ ومَنْ يَسْتَوجِبُ إهانَتَهُ والإسْتِخْفافَ.

---

(١) من م، في الأصل: ومن في. (٢) في الأصل وم: لأنهُ. (٣) في الأصل وم: بوجهه. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، في الأصل: السورة.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: مَنْ شاءَ اللهُ أنْ يُذَكِّرَهُ، أو شاءَ ذِكْرَهُ، أي قد مُكِّنَ كلُّ التَّذْكيرَ، وإنهُ ليسَ أحدٌ بِمَمْنوعٍ ولا مَجْبورٍ على الفِعْلِ؛ فمَنْ تَرَكَ التَّذَكُّرَ فهو الذي ضَيَّعَ ذلكَ حينَ[1] آثَرَ، واختارَ ضِدَّهُ، واشْتَغَلَ بغَيرِهِ، وأعْرَضَ عنْ ذِكْرِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ على تحقيقِ الفعلِ أي مَنْ تَذَكَّرَ بِهِ فهو ذِكْرٌ لهُ، فَكَنّى بالمَشيئةِ عنِ الفعلِ لِما ذَكَرْنا أنها تَقْتَرِنُ بالفعلِ، ولا تُزايِلُهُ، فيكونُ في ذِكْرِها ذِكْرُ الفعلِ، أو يكونُ على إرادةِ الفعلِ قبلَ وجودِهِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ قيلَ: هي الصُّحُفُ المُتَقَدِّمَةُ كقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩]. وقولُهُ: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ أي بأيدي الملائكةِ، وقولُهُ: ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي بما يُكَرِّمُها أهلُ الكرامةِ، وهمُ السَّفَرَةُ البَرَرَةُ، أو مُكَرَّمَةٌ على اللهِ تعالى.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي مَرفوعةِ القَدْرِ ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ مِنَ التناقُضِ والاِخْتِلافِ، أو مُطَهَّرَةٍ مِنْ أنْ تَنالَها أيدي العُصاةِ، أو مُطَهَّرَةٍ مِنَ الأقذارِ والأدناسِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ فالسَّفَرَةُ الكَتَبَةُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي كِرامٍ على اللهِ تعالى بَرَرَةٍ في أعمالِهِمْ كما وَصَفَهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ قالوا: تأويلُهُ: لُعِنَ الإنسانُ.

وذَكَرَ الحَسَنُ والمعتزلةُ أنَّ هذا مِنَ اللهِ تعالى على الشَّتْمِ والتَّسْمِيةِ لهُ بذلكَ، واسْتَجازوا الشَّتْمَ منهُ.

والأصلُ أنْ ليسَ في الشَّتْمِ إلّا ظهورُ سَفَهِ الشاتِمِ وعَبَثِهِ؛ إذْ لا ضَرَرَ يَلْحَقُ بالمَشتومِ مِنْ جهةِ الشَّتْمِ، وإنما ضَرَرُ ذلكَ الشَّتْمِ على الشاتمِ خاصةً. وأمّا المَشتومُ فإنما يَصيرُ مَشتوماً بِفعلِهِ لا بِشَتْمِ الشاتمِ، وجَلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يُنْسَبَ إليهِ فعلُ السَّفَهِ. فلذلكَ قلْنا: إنهُ لا يَتَحَقَّقُ مَعْنى الشتْمِ في الكلمةِ التي عُرِفَتْ في ما بَينَ الخَلْقِ إذا جاءَتْ مِنَ اللهِ تعالى كما لا يَتَحَقَّقُ في الكلمةِ التي عُرِفَتِ اغْتياباً في ما بَينَ الخَلْقِ إذا جاءتْ مِنَ اللهِ تعالى مَعْنى الاِغْتيابِ. بل يَحْتَمِلُ ذلكَ على الرَّدْعِ والتَّنبيهِ، فيكونُ في ذِكْرِها تَخويفُ مَنْ خُوطِبَ بها، وتَذْكيرٌ لِلخَلْقِ سَفَهَهُ وجهلَهُ.

ألا تَرى أنَّ المرءَ في الشاهدِ قد يَتَكَلَّمُ بما فيهِ هتكُ السِّتْرِ على المُخاطَبِ، ثم لا يُعَدُّ ذلكَ منهُ اغْتياباً إذا قُصِدَ بهِ وَعْظُهُ وزَجْرُهُ عمّا هو ورُشْدُهُ إلى ما فيهِ صَلاحُ آخِرَتِهِ وأُولاهُ؟ فكذلكَ اللهُ تعالى إذا جاءَ منهُ ما يُعَدُّ شتْماً مِنْ غَيرِهِ واغْتياباً لم يَلْحَقْهُ وصفُ الشَّتْمِ والغَيبةِ [ويكونُ][2] ذلكَ منهُ على التَّذكيرِ والتَّنبيهِ للخَلْقِ وعلى التَّخويفِ والتهويلِ لِمَنْ نُسِبَ إليهِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي ما أقْبَحَ كُفْرَهُ وأوْحَشَهُ وأشْنَعَهُ لأنهُ عَلِمَ أنَّ جميعَ ما أُنْعِمَ بهِ مِنَ النِّعَمِ فَمِنَ اللهِ تعالى، ثم هو لم يَشْكُرْ نِعَمَهُ، ولا أطاعَهُ في ما دعاهُ إليهِ، بل وَجَّهَ شكْرَهُ إلى مَنْ لا يَنْفَعُهُ ولا يَضُرُّهُ، فَعَبَدَ مَنْ لا يَسْمَعُ، ولا يُبْصِرُ، ولا يُغْني عنهُ شيئاً، ما هذا إلّا غايةُ الفُحْشِ ونهايةُ القُبْحِ، أو ما أوحَشَ كُفْرَهُ وأقْبَحَهُ بما سَوّى بَينَ الشَّكورِ والكَفورِ وبَينَ المُفْسِدِ والمُصْلِحِ وبَينَ الوَلِيِّ والعَدُوِّ، والعقلُ يُوجِبُ التَّفْرِقةَ بَينَهما، فهو بإنكارِهِ البعثَ كابَرَ عقلَهُ، وعانَدَهُ، فما أشَدَّ كُفْرَ مَنْ هذا وصفُهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي أيُّ شيءٍ أكْفَرَهُ! فيكونُ في ذِكْرِهِ تَعْجيبٌ لِمَنْ آمَنَ مِنَ الخلائقِ وتَذْكيرٌ لهمْ عنْ سُوءِ مَنْ هذا فِعْلُهُ وسُوءِ مُعاملتِهِ معَ ربِّهِ.

الآيتان ١٨و١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فكأنهُ قالَ: إنَّ الذي كَفَرَ، وقد عَلِمَ أنهُ خُلِقَ مِنْ نُطْفةٍ، وتلكَ النطفةُ مَواتٌ، لا سَمْعَ فيها، ولا عقلَ، ولا شيءَ مِنَ الجوارحِ، ثم اللهُ تعالى بلطفِهِ وعجيبِ حكمتِهِ، دبَّرَ

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: إذ.

فيها بَصَراً، يَرَى بِفَتْحةٍ واحدةٍ وفي أدْنَى وَهْلةٍ مَسيرةَ خَمْسِ مئةِ عامٍ، وقَدَّرَ فيها عقلاً، يَرَى بِهِ مَلَكوتَ السمواتِ والأرضِ، وقَدَّرَ فيها السَّمْعَ والبَصَرَ وغيرَهما مِنَ الجوارحِ.

أفتَرَى أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا يَعْجَزُ عنْ إحياءِ مَنْ أماتَهُ وعنْ بعثِهِ بأقلَّ مِنْ لحظةٍ؟ أو يكونُ قولُهُ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ تعريفاً[1] منهُ أنهُ خَلَقَهُ مِنْ نطفةٍ، ويكونُ في ذِكْرِهِ ما ذَكَرْنا مِنَ الفوائدِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي سَوّاهُ على وجهٍ تكونُ فيهِ دلالةُ ربوبيَّتِهِ وشهادةُ وحدانيَّتِهِ أو قَدَّرَهُ على ما فيهِ صَلاحُهُ ومَنفعتُهُ أو قَدَّرَهُ على [ما][2] يَشاءُ مِنَ القِصَرِ والطُّولِ والدَّمامةِ والمَلاحةِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنَ السبيلِ الدِّينَ؛ فكأنهُ يقولُ: يَسَّرَ لهُ دَرْكَ ذلكَ السبيلِ إلى اللهِ تعالى على ما ذَكَرْنا أنَّ الدِّينَ إذا أُطْلِقَ أُريدَ بهِ دينُ اللهِ تعالى، وكذلكَ الكتابُ المُطْلَقُ يُرادُ بهِ كتابُ اللهِ تعالى. فَعَلى ذلكَ السبيلُ إذا ذُكِرَ مُطلقاً كانَ مُنصَرِفاً إلى سبيلِ اللهِ تعالى، أو يَسَّرَ لهُ السبيلَ سَبيلَ الهُدَى وسَبيلَ الضلالِ والسبيلَ [الذي لو سَلَكَهُ نَفَعَهُ والسبيلَ][3] الذي يَضُرُّهُ، أو يَسَّرَ لهُ السبيلَ الذي عَلِمَ اللهُ أنهُ يختارُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥إلى١٠] أي يَسَّرَ عليهِ سَبيلَ الخروجِ مِنْ بطنِ أمِّهِ على ضيقِ ذلكَ الموضعِ وكِبَرِ جُثَّتِهِ لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قوتُهُ هذا فهو قادرٌ على [ما][4] أرادَ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يَخْفَى عليهِ أمرٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ ففي ذِكْرِ هذا ذِكْرُ النِّعَمِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِما يَخْبُثُ، ويَتَغَيَّرُ، كُنّاً يُكَنُّ فيهِ، فَيَسْتُرُهُ عنِ الخَلْقِ لئلا يعافوهُ، ويَسْتَقْذِروهُ، ولم يَجعلْ ذلكَ لِغيرِهِمْ، وجَعَلَ لأنفسِهِمْ، إذا هي[5] تَغَيَّرَتْ بالموتِ، وصارَتْ بحيثُ تُسْتَخْبَثُ، وتُسْتَقْذَرُ، كُنّاً تُسْتَرُ فيهِ[6] لِتُغَيَّبَ عنِ الخَلْقِ، فلا يَتَأذَّوا بها، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَشْكُروا.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، كذلكَ إذا شاءَ أنْشَرَهُ لأنَّ هذا كلَّهُ إخبارٌ في مَوضعِ الاِحْتِجاجِ؛ فكأنهُ قالَ: إنَّ الذي خَلَقَهُ مِنْ نطفةٍ، وقَدَّرَهُ، ثم أماتَهُ، فأقْبَرَهُ، فهو كذلكَ يَنْشُرُهُ إذا شاءَ، وكذلكَ هذا في قولِهِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي إنَّ الذي أحياكُمْ ثم أماتَكُمْ، فكذلكَ هو الذي يُحْييكُمْ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا الخِطابَ في كلِّ أحدٍ، لا تَرَى إنساناً قَضَى جميعَ ما عليهِ مِنَ الأمرِ على حَدِّ ما أُمِرَ حتى لا يَغفُلَ عنهُ، ولا يُقَصِّرَ فيهِ، بل مَنَّ اللهُ تعالى على كلِّ أحدٍ في كل طَرْفَةِ عينٍ نِعْمَةً، لا يَتَهَيَّأُ لأحدٍ أنْ يقومَ بِكُنْهِ شُكْرِها حتى لا [يَقَعَ][7] منهُ في ذلكَ جَفاءٌ ولا تَقْصيرٌ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هذا في الكفارِ خاصّةً، لا يَقْضونَ ما أُمِروا بهِ مِنَ التوحيدِ.

فإذا كانَ على هذا فهو مُنصَرِفٌ إلى ابْتِداءِ الأمرِ، وإنْ كانَ على الوجهِ الأوَّلِ[8] فهو منصرفٌ إلى كُنْهِ الأمرِ، ويَسْتَقيمُ توجيهُهُ إلى الكافرِ على ما ذَكَروا، لأنَّ إيمانَ المؤمنِ، لهُ حُكْمُ التَّجَدُّدِ في كلِّ وقتٍ؛ إذْ هو في كلِّ وقتٍ مأمورٌ باجْتِنابِ الكُفْرِ، فهو يَجْتَنِبُهُ، فذلكَ يكونُ. وإذا كانَ كذلكَ/ ٦٢٧ ـ أ/ ثَبَتَ أنهُ في كلِّ وقتٍ مؤمنٌ بما[9] أُمِرَ بهِ، مُجْتَنِبٌ[10] عمّا نُهِيَ عنهُ، فهو بإيمانِهِ راجعٌ عنِ الزَّلاتِ في كلِّ حالٍ، مُعْتَقِدٌ للوفاءِ بما أُمِرَ بهِ، لِذلكَ كانَ صرفُهُ إلى الكافرِ أوجَبَ[11].

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيفَ قُدِّرَ لهُ حينَ[12] اسْتَعْمَلَ فيهِ السمواتِ والأرضينَ والهواءَ والشمسَ والقمرَ والليلَ والنهارَ؛ فاستعمالُ السماءِ في إنزالِ المطرِ منها، واستعمالُ الهواءِ في جَعْلِهِ[13] مَسْلَكاً للمطرِ، واستعمالُ الأرضِ في جَعْلِها قَراراً للمطرِ وإخراجِ[14] منها ما فيهِ قِوامُهُمْ ومنافِعُهُمْ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا فوائدُ:

(١) في الأصل وم: تعريف. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هم.
(٦) في الأصل وم: فيها. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: الذي. (٩) في الأصل وم: لما. (١٠) أدرج قبلها في الأصل وم: هو. (١١) في الأصل وم: أوجه. (١٢) في الأصل وم: حيث. (١٣) في الأصل وم: جعلها. (١٤) في الأصل وم: وأخرج.

أحداها[1]: في مَوضِعِ التعريفِ للخلائقِ أنَّ مُنْشِئَ السمواتِ والأرضينَ ومُنْشِئَ الخَلْقِ والشمسِ والقمرِ واحدٌ لِاتِّصالِ مَنافِعِ بعضٍ ببعضٍ، إذْ لو لم يكنْ كذلكَ لكانَ لِمُنْشِئِ السماءِ أنْ يَمْنَعَ منافعَ السماءِ عن خَلْقِ مُنْشِئِ الأرضِ.

[والثانيةُ][2]: فيهِ تَذْكيرُ قوتِهِ وعجيبُ حكمتِهِ لِيَعْلَموا أنهُ قادرٌ على كلِّ ما يُريدُ فِعْلَهُ، لا يَضْعُفُ عنْ ذلكَ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ لأنهُ جَمَعَ بينَ مَنافعِ ما ذَكَرْنا مع تناقُضِها واختِلافِها في نفسِها، فَجَعَلَها مِنْ حيثُ المنافعُ مُتَّسِقَةً مُتَّفِقَةً، وجَعَلَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كالمُتَّصلةِ بالأُخرى المُقْتَرِنَةِ بها مَعَ بُعْدِ ما بَيْنَهما.

فَمَنْ قَدَرَ على الِاتِّساقِ بَيْنَ الأشياءِ، وقَدَرَ على الوَصْلِ بَيْنَ الأشياءِ المُتباعِدَةِ بعضُها عن بعضٍ قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ والبعثِ.

[والثالثةُ: تَذْكيرُهُمْ][3] هذا لِيُبَيِّنَ لهمْ حكمتَهُ وعلمَهُ لِيَعْلَموا أنهُ لا يَخْلُقُ عَبَثاً، ولا يَتْرُكُهُمْ سُدًى، لا يَسْتَأْدي منهمُ الشكرَ، ولا يَبْعَثُهُمْ، بل يُنْشِئُهُمْ، ويُميتُهُمْ فقط، فَيَخْرُجُ خَلْقُهُ على ما فيهِ خُروجٌ عنِ الحكمةِ.

[والرابعةُ: أنهُ][4] خَلَقَ البشرَ على وجهٍ، تَمَسُّهُمُ الحاجاتُ [فيهِ، وتَمَسُّهُمُ][5] الشَّهَواتُ، وقَدَّرَ الطعامَ على وجهٍ، إذا تناوَلَ [أحدٌ][6] منهُ دَفَعَ حاجَتَهُ، وسَكَّنَ شَهْوَتَهُ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُدْرِكَ[7] المَعْنَى الذي يَعْمَلُ في دفعِ الحاجةِ وتسكينِ الشَّهْوَةِ ما هو؟ لم يَصِلْ إلى تَعَرُّفِهِ، فَيُؤَدِّي تَفَكُّرُهُ إلى رَفْعِ الشُّبَهِ والِاعْتِراضاتِ التي تَعْتَرِيهِ في أمرِ البعثِ. وغَيْرُهُ إذا كانوا يُقَدِّرونَ الأمرَ على قِواهِمْ، ويُسَوُّونَها على ما يَنْتَهي إليه تدبيرُهُمْ؛ فإذا وَجَدوا في الطعامِ مَعانيَ، هي خارجةٌ عنْ تدبيرِهِمْ وقِواهُمْ، عَلِموا أنْ ليسَ الأمرُ على ما قَدَّروا، فَيَرْتَفِعُ عنهمُ الرَّيْبُ والإشكالُ.

وكذلكَ لو أرادوا أنْ يَسْتَخْرِجوا مِنَ الماءِ المَعْنَى الذي بهِ صَلَحَ أنْ تكونَ بهِ حياةُ الأشياءِ كلِّها مَعَ اخْتِلافِ الأشياءِ وتفاوُتِها واخْتِلافِ طُعومِها وألوانِها لم يُمْكِنْهُمْ ذلكَ، فَيَعْلَموا أنَّ الذي بَلَغَتْ حكمتُهُ هذا المبلغَ قادرٌ على ما يَشاءُ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧و...] ويكونُ في النَّظَرِ في ما ذَكَرَ حاجَتَهُ وافْتِقارَهُ إلى غَيرِهِ، ويَتَبَيَّنُ أنَّ اللهَ تعالى لم يُنْشِئِ الخَلْقَ لحاجةِ نفسِهِ، وإنما خَلَقَهُ لحاجةِ البشرِ إليهِ.

الآيتان ٢٥و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ لِيَقِرَّ الماءُ في شُقوقِها، فَيَصِلَ الخَلْقُ إلى الِانْتِفاعِ بهِ، أو شَقَقْناها للنباتِ.

الآيتان ٢٧و٢٨ [وقولُهُ تعالى:][8] ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ فَذَكَرَ الحبَّ والعِنَبَ، وأخْبَرَ أنهُ أنْبَتَهُما في الأرضِ، وهما في الحقيقةِ غَيرُ نابِتَيْنِ في الأرضِ، ولكنْ أخْرَجَهُما مِنْ أصلٍ، هو نابتٌ في الأرضِ، فأضافَهُما [إليهما لِما يَرْجِعُ][9] الِابْتِداءُ إليها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] ورِزْقُنا مِنَ السماءِ المطرَ. لكنَّ الذي هو رِزْقُنا مِنَ الطعامِ وغَيرِهِ إنما يَنْبُتُ في الأرضِ، ويَخْرُجُ منها بالقطرِ مِنَ السماءِ، فأُضيفَ إليهِ.

فَعَلَى ذلِكَ أُضيفَ الحَبُّ والعِنَبُ إلى ما ذَكَرْنا لِلْمَعْنَى الذي وَصَفْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَضْبًا﴾ والقَضْبُ، هي الرَّطْبَةُ، سُمِّيَتْ قَضْباً لأنها تُقْضَبُ، وتُقْطَعُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ.

الآية ٢٩ [وقولُهُ تعالى:][10] ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ففي ذِكْرِ الزيتونِ ما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ، وهو أنَّ الزيتونَ أَلْيَنُ الأشياءِ نَبَتَ أصلُهُ في الجبالِ التي هي أصلَبُ الأرضِ، فَمَنْ قَدَرَ على إخراجِ أَلْيَنِ الأشياءِ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ قادرٌ على الإنشاءِ والبعثِ؛ إذْ مَنْ قَدَرَ على أنْ يُخْرِجَ أَلْيَنَ الأشياءِ مِنْ أصلَبِ الأشياءِ قادرٌ على أنْ يُلينَ القلوبَ القاسيةَ حتى تَلينَ بِذِكْرِ اللهِ تعالى.

الآية ٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ فالحدائقُ، هي البساتينُ التي أَحْدَقَتْ بالأشجارِ، وأحاطَتْ بها، والغُلْبُ الغِلاظُ؛ يُقالُ: رجلٌ أغلَبُ، إذا كانَ غَليظَ الرَّقَبَةِ، وقومٌ غُلْبُ الرِّقابِ أي غِلاظٌ. وقالوا أيضاً: الغُلْبُ الأشجارُ الكثيفةُ الطويلةُ.

(١) في الأصل وم: أحدها. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: وذكرهم. (٤) في الأصل وم: ولأنه. (٥) في الأصل وم: وتمسه. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: يتدارك. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: إليهما ليرجع. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآيتان ٣١و٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾][1] والأبُّ الكَلأُ؛ فَيُخبِرُ أنهُ أنشأ هذهِ الأشياءَ لتكونَ مَتاعاً للخَلْقِ والأنعامِ لا لِمَنافِعِ نفسِهِ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ قالَ الحَسَنُ: هي اسْمُ القيامةِ؛ يَصُخُّ لها كلُّ شيءٍ، وبهِ يقولُ أبو بكرٍ: إنهُ يَصُخُّ لِمَجيئِها كلُّ شيءٍ، أي يَخْشَعُ لها، ويُطَأْطِئُ رأسَهُ للداعي كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

وقالَ القُتَبِيُّ: الصاخَّةُ، هي الداهيةُ، فَذَكَرَ القيامةَ بالأحوالِ التي تكونُ فيها أو بالأفعالِ التي توجدُ فيها على ما ذَكَرْنا.

وقالَ الزَّجّاجُ: الصاخَّةُ المُصِمَّةُ، تَصُمُّ لها الأسماعُ عنْ كلِّ شيءٍ إلّا إلى ما تُدْعَى إليهِ[2].

الآيات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾][3] فجائزٌ أنْ يكونَ هذا على تحقيقِ الفرارِ، وجائزٌ ألّا يكونَ على التحقيقِ، ولكنْ وُصِفَ بالفِرارِ لِما يوجَدُ منهُ المَعْنَى الذي يوجَدُ مِنَ الفارِّ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] والوَجْهُ فيهِ أنَّ الأقرباءَ مِنْ شأنِهِمْ إذا اجْتَمَعوا اسْتَبْشَرَ بعضُهُمْ ببعضٍ، وأَنِسوا بالاجْتِماعِ، وإذا غابوا سألوا عنْ أحوالِهِمْ، واهْتَمُّوا لذلكَ.

ثم همْ في ذلكَ اليومِ يَدَعُونَ السؤالَ عندَ الغَيبةِ والاسْتِبْشارَ عندَ الحضرةِ، حتى كأنهُ لا أنسابَ بَينَهُمْ في الحقيقةِ[4]، ولكنْ ما يَحُلُّ بكلِّ واحدٍ مِنَ الاهتمامِ يَشْغَلُهُ عنِ السؤالِ [عنْ حالِهِ][5] والاسْتِبْشارِ برؤيتِهِ حتى يَصيرَ كالفِرارِ لِوقوعِ المَعْنَى الذي يوجَدُ مِنَ الفارِّ لا على تحقيقِ الفِرارِ لأنهُ قالَ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ فما يَحُلُّ مِنَ الشأنِ يَمْنَعُهُ عنِ الفِرارِ عنْ نفسِهِ وعنْ أقربائِهِ، أو يكونُ على حقيقةِ الفِرارِ.

وذلكَ أنَّ الأقرباءَ لا يوجَدُ منهمُ القيامُ بوفاءِ جُمْلَةِ ما عليهِمْ مِنَ الحقوقِ حتى لا يوجَدَ منهمُ التَّقْصيرُ، فَيَخافوا[6] في ذلكَ اليومِ أنْ يُؤاخَذوا بذلكَ، فَيَحْمِلَهُمْ على الفِرارِ، ويَفِرَّ كلٌّ منهمْ مِنْ تَحَمُّلِ ثِقَلِ الأقرباءِ كما قالَ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨] وقد كانوا يَتَعاوَنونَ في الدنيا في تَحَمُّلِ الأثقالِ، فَيُخبِرُ أنهمْ لا يَتَعاوَنونَ في ذلكَ اليومِ، بل يَفِرّونَ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ هذا في الكَفَرَةِ. وأمّا أهلُ الإسلامِ فإنهُ يجوزُ أنْ تَبْقَى بَينَهُمْ حقوقُ القرابةِ كما أُبْقِيَتِ المَوَدَّةُ في ما بَينَ الأخِلّاءِ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإنْ كانَ في المسلمينَ والكَفَرَةِ جميعاً فجائزٌ أنْ يكونَ الفِرارُ في بعضِ الأحوالِ، وذلكَ في الوقتِ الذي لم يَتَفَرَّغْ [أحدٌ][7] عنْ شُغْلِ نفسِهِ. فأمّا إذا آمَنَ، وجاءَتْهُ البِشارةُ، فهو يقومُ بِشفاعتِهِ، ويَسْألُ عنْ أحوالِهِ، ولا يَفِرُّ منهُ.

الآية ٣٧ وقولُهُ تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ قالوا: أقْصَى كلَّ إنسانٍ ما يَشْغَلُهُ عنْ غَيرِهِ.

الآية ٣٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مُضيئةٌ أو ناضِرةٌ ناعِمةٌ مُشْرِقَةٌ. فيكونُ فيهِ إخبارٌ عمّا هُمْ مِنَ النَّعيمِ حتى يَظْهَرَ ذلكَ في وجوهِهِمْ.

الآية ٣٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي مسرورةٌ بِنعيمِ اللهِ تعالى الذي أنعمَ عليهِمْ ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ برِضا اللهِ عنها.

الآية ٤٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ قالوا: هذا أوّلُ تَغَيُّرٍ يَظْهَرُ في وجوهِهِمْ، كأنّما علاها الغُبارُ، ثم تَسْوَدُّ /٦٢٧ ـ ب/ ثم تُطْمَسُ، وتُرَدُّ على أدبارِها كما قالَ: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ [النساء: ٤٧].

الآية ٤١ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قالَ أبو بكرٍ: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تَغْشاها الذِّلَّةُ، أو تَعلوها، ثم تَتَلَوَّنُ بعدَ ذلكَ، فتكونُ كأنّما عَلاها الغُبارُ، ثم تَسْوَدُّ على ما ذَكَرْنا.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: بنسب. (٥) في الأصل وم: بحاله. (٦) في الأصل وم: فيخافون. (٧) ساقطة من الأصل وم.

الآية ٤٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أيِ الكَفَرَةُ بأنعُمِ اللهِ تعالى، الفَجَرَةُ المائلةُ عنِ الحقوقِ، واللهُ المُوَفِّقُ [وصلّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][1].

(١) من م، ساقطة من الأصل.

سورة [التكوير

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ هذا ليسَ بابتداءِ خِطابٍ، ولكنهُ جوابٌ عنْ سؤالٍ تقدَّمَ؛ فَيُشبِهُ أنْ يكونَ السؤالُ عنْ وقتِ لِقاءِ الأنفسِ والأعمالِ[2]، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إشارةً إلى أحوالِ ذلكَ الوقتِ وآثارِها على ما يَذْكُرُ المَعْنَى الذي لهُ وَقَعَ لِتَبيينِ الأحوالِ دونَ تَبْيينِ الوقتِ في سورةِ. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

واختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: هي فارسيةٌ مُعَرَّبَةٌ، وهي بالعربيةِ غُوِّرَتْ.

قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿كُوِّرَتْ﴾ أي ذَهَبَ ضَوؤُها؛ يُقالُ: كَوَّرَ الليلُ على النهارِ، أي أذهبَ نورَهُ وضياءَهُ؛ فالتكويرُ يُغَطِّي كَونَ الشيءِ عنِ الأبصارِ، فقيلَ: كُوِّرَتِ الشمسُ أي حُبِسَ ضَوؤُها على الأبصارِ بالطَّمْسِ [فيكونُ][3] فيهِ إنباءُ أنهُ يُطْمَسُ ظاهرُها، ثم يَرِدُ التَّغْيِيرُ في نفسِها، فَتَتْلَفُ، وتتَلاشَى، ومنهُ يُقالُ: كَوَّرَ العِمامةَ إذا لَفَّها على رأسِهِ، فتُغَطِّيهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ تناثَرَتْ، وتَساقَطَتْ، وهو كقولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] وقيلَ: ذهبَ ضَوؤُها؛ فكأنهُ يَذْهَبُ ضَوؤُها أوّلاً، ثم تَتَناثَرُ بعدَ ذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي قُلِعَتْ عنْ أماكِنِها، وسُيِّرَتْ كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] وهي إذا قُلِعَتْ تَكَسَّرَتْ[4] حتى يَتَبَيَّنَ للناظرِ سَيرُها لِتَكَسُّرِها[5]، فَتَحْسَبُها جامدةً، وهي تَسيرُ. فهذا أوّلُ تَغيُّرٍ يَظْهَرُ فيها، ثم تَصيرُ ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ثم ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] ثم ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] إلى أنْ تَتَلاشَى، وتَتْلَفُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ فالعِشارُ هي النوقُ الحوامِلُ التي أتَى على حَمْلِها عشرةُ أشهرٍ، وهي مِنْ أنفَسِ الأموالِ عندَ أهلِها؛ فَيُخبِرُ أنَّ أربابَها، يُعَطِّلونها في ذلكَ اليومِ، ولا يَلْتَفِتونَ إليها لِشُغْلِهِمْ بأنفسِهِمْ في ذلكَ [اليومِ][6] وهو كما قالَ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الآية [الحج: ٢].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قيلَ: جُمِعَتْ؛ وهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ تُجْمَعَ كلُّها، فَتَتْلَفُ، وتُهْلَكُ.

والثاني: أنْ تُحْشَرَ، في أنْ يُحْيِيَها بعدَ موتِها، فيصْنَعُ اللهُ تعالى فيها ما يشاءُ، فيكونُ في هذا إخبارٌ عنْ عِظَمِ ذلكَ اليوم حتى يُؤثِّرَ الهَولُ في الوحوشِ والشمسِ والقمرِ والسمواتِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قيلَ: فُجِّرَتْ، وسَنَذْكُرُ تأويلَ الفَجرَ في ما بعدُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى[7].

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قيلَ: قُرِنَتْ. ثم اختُلِفَ في مَعْنَى القِرانِ:

قالَ بَعْضُهُمْ: قُرِنَ زَوجُها إليها، قالَ بَعْضُهُمْ: يُقرَنُ كلٌّ بأهلِ شيعتِهِ، فَيُقْرَنُ الكَفَرةُ بالشياطينِ، وأهلُ الشرابِ بأهلِ

---

(١) من م، في الأصل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: تكثرت.
(٥) في الأصل وم: لتكثرها. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) سيكون ذلك بإذن الله في تفسير الآية ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

الشرابِ، وأهلُ الزِّنى بأهلِ الزِّنى كقولِهِ[1] ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ إلى قولِهِ: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٦ و٣٧ و٣٨].

ففي هذا إخبارٌ أنَّ المُعَذَّبَ منهمْ، إذا رأى عَدُوَّهُ، يُعَذَّبُ عذابَهُ، ويكونُ في العذابِ الذي هو فيهِ لم يَتَسَلَّ بذلكَ شيئاً، ولم يَنَلْ بِهِ راحةً، وإنْ كانَ المرءُ في الدنيا إذا رأى عَدُوَّهُ، يُعَذَّبُ، يَتَسَلَّى بذلكَ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ وقرأ بعضُهُمْ: وإذا الموؤودةُ سألَتْ[2]، وهذا هو الظاهرُ أنْ تكونَ هي السائلةُ، أي تَسْأَلُ إيّاهُمْ.

الآية ٩ ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تقولُ: بأيِّ ذنبٍ قَتَلْتُموني؟ وكانتِ العربُ، تدفُنُ بناتِها؛ يُقالُ: وأدْتُهُ، أي دفَنْتُهُ.

ثم القراءةُ المعروفةُ ﴿سُئِلَتْ﴾ وهي تَحْتَمِلُ أوجهاً ثلاثةً:

أحَدُها: [ما][3] ذَكَرَ أبو عُبَيدَةَ، وقالَ: إنَّ قَتَلَتَها تُسْأَلُ ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ الموؤودةُ؟

[والثاني:][4] أنْ تُسْأَلَ المَوؤودةُ عندَ حضرةِ الذينَ وَأَدوها ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾؟ يُرادُ بالسؤالِ تَخويفٌ وتهويلٌ للذينَ وَأَدوها، لا سؤالُ استِخْبارٍ واستِفْهامٍ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وليسَ يُسأَلُ عنْ هذا سؤالُ استِخْبارٍ واستِفْهامٍ، ولكنْ يُسأَلُ سؤالُ تَخويفٍ وتَهويلٍ مَنِ ادَّعى أنَّ عيسى ﷺ، هو الذي أمَرَهُمْ أنْ يَتَّخِذوهُ وأمَّهُ إلهَينِ مِنْ دونِ اللهِ.

[والثالثُ:][5] أنْ تُسْأَلَ الموؤودةُ: أتَدَّعِي؟ أم[6] لا تَدَّعِي؟ وما الذي تَدَّعِي عليهِمْ؟ فَيُبْدَأُ بها بالسؤالِ كما يُرى المُدَّعي في الشاهدِ: هو الذي يُبْدَأُ بالسؤالِ، فيُقالُ لهُ: ما تَدَّعِي على هذا؟ فقولُهُ: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ كأنها إذا سُئِلَتْ عنِ الذي ادَّعَتْ، وقالَتْ: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أيِ الكُتُبُ نُشِرَتْ للحسابِ، وهي التي فيها أعمالُ بَني آدمَ وقتَ ما تُدْفَعُ إليهِمْ[7] بأيمانِهِمْ وشمائِلِهِمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قيلَ: نُشِرَتْ، وذلكَ أنْ تَتَناثَرَ النجومُ، وتُطْمَسَ الشمسُ [وتُطْوى السماءُ][8] ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقيلَ: كُشِفَتِ السماءُ، فكَشْفَةُ السماءِ كما يُكْشَفُ الغِطاءُ عنِ الشيءِ، ويُقالُ: كُشِطَتْ، أي قُلِعَتْ كما يُقْلَعُ السقفُ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يُحْدِثَ تَسْعيرَها، فيكونُ فيهِ عَلَمُ الحديثةِ، وكذلكَ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الآية: ٦] يَحْتَمِلُ أنْ يُبْدَأَ تَسْجيرُها، [ولم تُسْجَرْ][9] مِنْ قبلُ.

[والثاني][10]: أنْ يُرادَ التَّسْجيرُ والتَّسْعيرُ على ما كانَ مِنْ قبلُ لقولِهِ تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤و...] وقد كانَ وَقودُها بِغيرِ هذينِ. ثم يُرادُ في وَقودِها الناسُ والحجارةُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قيلَ: قُرِّبَتْ، فأُضيفَ إليها التَّقريبُ لأنَّ أهلَها إذا قَرُبوا إليها، فقد قُرِّبَتْ هي إليهِمْ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ أي ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] أو تَعْلَمُ ما أحضَرَ لها الملائكةُ الذينَ كَتَبوا.

---

(١) في الأصل وم: وقال الله. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٨٢. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وتحتمل. (٥) في الأصل وم: وجائز. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: إليها. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ولما سجر. (١٠) في الأصل وم: وجائز.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ الأشياءُ التي وَقَعَ بها القَسَمُ تَقْتَضي / ٦٢٨ ـ أ/ أحكاماً ثلاثةً:

أحَدُها: ما مِنْ شيءٍ خَلَقَهُ اللهُ تعالى إلّا وفيهِ دليلُ وَحدانِيَّتِهِ وآيةُ رُبوبيَّتِهِ، إذا أُمْعِنَ النَّظَرُ فيه.

[والثاني: تَثْبيتُ][١] عِلْمِهِ وحِكمتِهِ يَدُلُّ على قدرتِهِ وسلطانِهِ.

[والثالثُ:][٢] في تَثْبيتِ القُدرةِ والسلطانِ إيجابُ القولِ بالرسالةِ ونَهْيٌ عنْ عبادةِ غَيرِ اللهِ.

فلو أمْعَنوا النَّظَرَ فيها، وتَفَكَّروا في أمرِهِ أدّاهُمْ ذلكَ إلى القولِ بالبعثِ، ودعاهُمْ إلى وَحدانيَّةِ الرَّبِّ والإقرارِ بالرسُلِ، فلا [كانوا][٣] يَدَّعونَ أنَّ معهُ آلهةً أُخرَى، ولا كانوا يُنكِرونَ البعثَ، ولا يُكَذِّبونَ الرسولَ.

فأقسمَ بهذهِ الأشياءِ على التأكيدِ بِحُجَجِهِ لِيَعْلَموا أنهُ رسولٌ مِنْ عِنْدِهِ، أو أنَّ الأوامرَ مِنْ عِنْدِهِ، أو أنْ يكونَ القسمُ تَلْقيناً مِنَ اللهِ تعالى لرسولِهِ بأنْ يُقْسِمَ لهمْ بهذهِ الأشياءِ لِيُزيلَ عنهمُ الشُّبَهَ والشكُوكَ التي اعْتَرَضَتْ للكَفَرَةِ في أمرِهِ ﷺ ويَدْعُوَهُمْ إلى النظرِ في حُجَجِهِ وآياتِهِ.

ثم القَسَمُ بما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ، ودَقَّ، وبما كَثُفَ، وغَلُظَ، وبما كَبُرَ، وصَغُرَ، وبما ظَهَرَ، وخَفِيَ، تَتَّفِقُ كلُّها في إزالةِ الشُّبَهِ وإثباتِ التوحيدِ والرسالةِ والبعثِ. بلِ الأُعجوبةُ في ما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ أعظَمُ منها بما كَثُفَ، وغَلُظَ. فأقسَمَ مَرَّةً بالكواكبِ، ومَرَّةً بظلمةِ الليلِ وما يَضْحَى وبما شاءَ مِنْ خَلْقِهِ.

إنَّ الخلائقَ كلَّها في الشهادةِ على وحدانيَّتِهِ وإثباتِ ربوبيَّتِهِ وإثباتِ علمِهِ وقدرتِهِ وسلطانِهِ مُتَّفِقَةٌ، ولأن ما لَطُفَ مِنَ الأشياءِ، وخَفِيَ منها، يَتَّصِلُ بما ظَهَرَ منها، فَيَتَضَمَّنُ ذِكْرُ ما خَفِيَ منها، واسْتَتَرَ، ذِكْرَ ما ظَهَرَ منها، وفي ذِكْرِ ما ظَهَرَ منها ذِكْرُ مُنْشِئِها، فيكونُ القَسَمُ في الحقيقةِ باللهِ تعالى.

ثم اخْتُلِفَ في الخُنَّسِ والكُنَّسِ؛ قالَ أبو بكرٍ: إنَّ الخُنَّسَ، هي النجومُ التي يَطْلُعْنَ منْ مَطالِعِها، ويَغْرُبْنَ في مَغارِبِها، والكُنَّسُ، هي النجومُ التي يَطْلُعْنَ منْ مَطالِعِها، ثم يَكْنُسْنَ، ويَخْتَفِينَ إلى أنْ يَعُدْنَ إلى مطالِعِهِنَّ، فَيَطْلُعْنَ.

وقيلَ: الخُنَّسُ الجواري الكُنَّسُ، هي خمسةُ كواكبَ، لَهُنَّ مَجارٍ في السماءِ، يُظْهَرْنَ بالليلِ، ويُسْتَرْنَ بالنهارِ، وسائرُ الكواكبِ ثوابتُ. ثم قيلَ: الخُنوسُ والكُنوسُ واحدٌ، وهو الاِخْتِفاءُ والغروبُ في مَغارِبِها والدخولُ فيها. وقيلَ: الكُنوسُ الاِخْتِفاءُ، والخُنوسُ التأخُّرُ، وكذا قالَ الفرّاءُ: هي النجومُ الخمسةُ [تَخْنُسُ][٤] في مَجْراها، وترجِعُ.

وفي حديثِ كَعْبٍ [الحَبْرِ][٥] فَيَخْنُسُ بهمُ النهارُ كما تَخْنُسُ النجومُ الخُنَّسُ، أي يَحيدُ بهمْ، ويتأخَّرُ، واللهُ أعلَمُ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: [هي][٦] الوحوشُ اللاتي تَخْنُسُ مِنَ الإنسِ، وتَكْنُسُ في مكانِهِنَّ. وأيّاً[٧] كانَ، فهي كلُّها دالَّةٌ على الوجوهِ التي ذَكَرْنا.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قيلَ: إذا أقبلَ، وقيلَ: إذا أدبرَ.

الآية ١٨ وقولُهُ[٨] تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا انْفَجَرَ، وإذا ارْتَفَعَ.

وفي إقبالِ الليلِ وإقبالِ النهارِ تَثبيتُ القدرةِ والسلطانِ؛ وذلكَ أنَّ ظُلْمَةَ الليلِ إذا غَشِيَتْ سَتَرَتْ وجودَ[٩] الأشياءِ [ونورَ النهارِ][١٠] كَشَفَ عنها السَّتْرَ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُغَطِّيَ الأشياءَ كلَّها بالحِيَلِ والأسبابِ لم يَتَمَكَّنْ [مِنْ ذلكَ][١١] ولو أرادَ نَزْعَ الغِطاءِ عنها[١٢] لم يَملِكْ. فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَعْلَموا أنَّ مَنْ بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا، فلا يُعْجِزُهُ أمرٌ، ولا يَتَعَذَّرُ عليهِ البعثُ، بل هو قادرٌ على إحيائِهِمْ وبعثِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: ويثبت. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وإنما. (٨) في الأصل وم: وفي قوله. (٩) في الأصل وم: عن وجوه. (١٠) في الأصل وم: و. (١١) في الأصل وم: منها. (١٢) في الأصل وم: عنهم.

الآية ١٩ [وقولُهُ تعالى][1]: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ فَمَوضِعُ القسمِ على هذا، وعلى قولِهِ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [الآية: ٢٢].

ثم تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي هذا الذي أتاكُم بِهِ محمدٌ ﷺ تَلَقّاهُ عنْ رسولٍ كريمٍ على ربِّهِ، وهو جبرائيلُ ؏ ثم نَسَبَ ههنا إلى الرسولِ ما سَمِعَ منهُ، ولم يَكُنْ مِنْ قِبَلِهِ، وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فَسَمّاهُ كلامَ اللهِ على الموافقةِ أو لِما أنَّ ابْتِداءَهُ يرجِعُ إليهِ لا أنْ يكونَ المَسْموعُ كلامَهُ كما يُقالُ: هذا قولُ أبي حنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ، وهذا قولُ فلانٍ الشاعرِ، وليسَ الذي سمعْتَهُ قولَ مَنْ نُسِبَ إليهِ، ولكنْ نُسِبَ إليهِ لأنَّ ابْتِداءَهُ يَرْجِعُ إليهِ، فكذلكَ سَمّى كلامَ اللهِ لأنهُ يَدُلُّ على كلامِهِ ولِما يَرْجِعُ إليهِ ابتِداؤُهُ لا أنْ يكونَ نفسَ كلامِهِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وفي وَصْفِهِ بالقوةِ فائدتانِ:

إحداهُما: ما ذَكَرْنا أنَّ فيهِ بَيانَ الأَمنِ مِنْ تَغْييرٍ، يَقَعُ فيهِ مِنَ الأعداءِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والشياطينِ؛ والإنسُ يَحْتَجِزُ عنهمْ بقوتِهِ، فلا يَتَمَكَّنونَ منهُ حتى يُغَيِّروهُ، ويُبَدِّلوهُ. ووَصَفَهُ بالأمانةِ في نفسِهِ لِيَأْمَنَ الخَلْقُ ناحيتَهُ.

[والثانيةُ:][2] وَصْفُهُ بالقوةِ على التَّخْويفِ والتَّحْذيرِ للذينَ عادَوا محمداً ﷺ فَيُخْبِرُهُمْ أنهُ معهُ يدفَعُ عنهُ شَرَّهُمْ وكَيْدَهُمْ إنْ هَمُّوا بذلكَ بِهِ.

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لجبريلَ ؏: «إنَّ اللهَ تعالى وَصَفَكَ بالقوةِ، فما أثَرُ قوتِكَ؟ فقالَ: لمّا أمَرَني اللهُ تعالى بإهلاكِ قومِ لوطٍ قَلَعْتُ قرياتِهِمْ، ورفَعْتُها بجناحٍ واحدٍ إلى السماءِ، ثم قَلَبْتُها» [الدّر المنثور: ٨/ ٤٣٣، وفيه عزو السيوطي إياهُ إلى تاريخ ابن عساكر عنْ معاويةَ بنِ قرة].

وليسَ بِنا إلى تَعَرُّفِ قوتِهِ حاجةٌ، وإنما بِنا الحاجةُ إلى أنْ نَعْرِفَ ما المَعْنى والحكمةُ في ذِكْرِ قوتِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ فإنْ كانَ المرادُ مِنَ العرشِ المُلْكَ فَمَعناهُ: عندَ ذي المُلْكِ مَكينٌ، أي ذو قُدْرةٍ ومنزلةٍ، وقيلَ: العرشُ السريرُ؛ فإنْ كانَ كذلكَ فتأويلُهُ أنهُ مكينٌ عندَ مَنْ لهُ سريرُ المُلْكِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ قيلَ: إنَّ جبرائيلَ ؏، رسولٌ إلى الملائكةِ كما هو رسولٌ إلى الناسِ. فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ إخبارٌ أنَّ الملائكةَ الذينَ يَعْبُدُهُمْ[3] بعضُ الكَفَرَةِ يُطيعونَ جبرائيلَ ؏، في ما يأمُرُهُمْ، ويَنْهاهُمْ، فما بالُهُمْ يَتْرُكونَ طاعتَهُ والاِئتِمارَ بأمرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ أي هُمْ يَأْتَمِنونَ بِهِ، ولا يَتَّهِمونَهُ في شيءٍ ممّا يَجيءُ بِهِ إليهِمْ، فكيفَ يَتَّهِمُهُ هؤلاءِ في ما يأتي إلى الرسولِ مِنَ الوَحْيِ؟

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ فمنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ الكَفَرَةَ نَسَبوهُ إلى الجنونِ حينَ رأى رسولُ اللهِ ﷺ جبرائيلَ على صورتِهِ، فَغُشِيَ عليهِ، وكانَ يَتَغَيَّرُ في كلِّ مَرّةٍ يأتي بها[4] جبرائيلُ ؏، بالوَحْيِ[5] لَونُ وجهِهِ، فَيَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ لهذا.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنما نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لأنهُ أظهرَ المُخالَفَةَ لأهلِ الأرضِ، وكانَ في الأرضِ الجبابرةُ والفراعنةُ الذينَ مِنْ عادتِهِمُ القَتْلُ والتعذيبُ لِمَنْ أظهرَ الخِلافَ لهمْ، فكانَ ذلكَ منهُ مُخاطَرَةً بنفسِهِ وروحِهِ حينَ[6] انتَصَبَ لِمعاداةِ مَنْ لا طاقةَ لهُ بهمْ [ومَنْ قامَ بخلافِ مَنْ لا طاقةَ لهُ بِهِ][7] وانْتَصَبَ لِمعاداتِهِ، فذلكَ منهُ حُمْقٌ وجُنونٌ في الشاهِدِ، نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لهذا.

ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنهمْ لم يَنْسُبوهُ إلى الجنونِ لِما ذَكَرْنا، ولكنْ شِدَّةُ سَفَهِهِمْ [هي التي حَمَلَتْهُمْ][8] على هذا، فَنَسَبوهُ إلى

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: يعبدها. (٤) في الأصل وم: به. (٥) من م،في الأصل: الوحي.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: هو الذي حملهم.

الجُنونِ مَرَّةً وإلى أنهُ ساحرٌ أُخرَى، ومَرَّةً قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ومَرَّةً قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] فكانوا يَنْسُبونَهُ إلى كلِّ ما ذَكَرْنا لا عَنْ بَحْثٍ منهمْ في حالِهِ ولكنْ على السَّفَهِ والعِنادِ.

ألَا تَرَى أنهمْ يَنْسُبونَهُ إلى الجُنونِ مَرَّةً وإلى السِّحْرِ ثانياً، وهما أمرانِ مُتناقِضانِ، لأنَّ الساحرَ، هو الذي بَلَغَ في العِلْمِ غايتَهُ، والجنونَ، هو النهايةُ في الجَهْلِ؟ ولو كانوا يقولونَهُ عنْ بَحْثٍ وتَدَبُّرٍ لكانوا لا يأتونَ بالمُخْتَلِفِ مِنَ القولِ، فَيَظْهَرُ جَهْلُهُمْ لِمَنْ يُريدونَ صَدَّهُ عنِ اتِّباعِ النَّبِيِّ ﷺ بل كانوا يَتَّفِقونَ على كلمةٍ واحدةٍ، فَيَصُدّونَ عنها حتى يَقَعَ التَّلْبيسُ منهمْ مَوقِعَهُ، فَيَصِلونَ إلى مُرادِهِمْ مِنْ صَدِّ الناسِ عنِ اتِّباعِ النَّبِيِّ ﷺ.

وكذلكَ في ما زَعَموا أنهُ ﴿يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وأنهُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] أتوا بالمُخْتَلِفِ مِنَ القولِ لأنَّ اخْتِلاقَهُ / ٦٢٨ ـ ب/ وافْتِراءَهُ يُثْبِتُ أنهُ عالمٌ بنفسِهِ مُسْتَغْنٍ عنْ تعليمِ غَيرِهِ، وحاجَتَهُ إلى أنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ غَيرِهِ تُثْبِتُ عَجْزَهُ وجَهْلَهُ عنِ الاخْتِلاقِ بنفسِهِ.

فهذا كلُّهُ يَدُلُّ على أنهمْ لم يَنْسُبوهُ إلى الجُنونِ لأعلامٍ ظَهَرَتْ لهمْ، ولكنْ قَرَفوهُ بكلِّ ما حَضَرَهُمْ سَفَهاً منهمْ وعِناداً.

ثم إنْ كانوا نَسَبوهُ إلى الجنونِ لمَّا غُشِيَ عليهِ عندما رأى جبرائيلَ ﷺ، على صورتِهِ، فقد أتاهُمْ بما لو تَفَكَّروا فيهِ لَعَلِموا أنهُ ليسَ بصاحِبِهِمْ جِنَّةٌ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] وذلكَ أنهُ[1] أتاهُمْ بِحِكمةٍ أعْجَزَتْ[2] حكماءَ الإنسِ والجِنِّ عنْ إتيانِ مثلِها[3]، وأتاهُمْ بكتابٍ عَجِزَ أهلُ الكتابِ عنْ إتيانِ مثلِهِ.

فلو تَفَكَّروا فيهِ لَعَلِموا أنهُ ليسَ منْ فِعْلِ المجانينِ ولا منْ علومِهِمْ، ولكنهُ منْ عندِ اللهِ، أُكْرِمَ بهِ، وإنْ كانوا بما نَسَبوهُ إلى الجُنونِ لمّا خاطَرَ بروحِهِ، فهمْ بحمدِ اللهِ تعالى لم يَتَهَيَّأْ لهمْ أنْ يَمْكُروا بهِ ولا أنْ يَقْتُلوهُ، بل أظْفَرَهُ اللهُ عليهمْ، وأظْهَرَهُ على الدينِ كلِّهِ، فصارَ ذلكَ الوجهُ الذي بهِ نَسَبوهُ إلى الجنونِ آيةَ رسالتِهِ وعَلَمَ نُبُوَّتِهِ.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ قالَ الحَسَنُ: إنهُ ﷺ رأى ربَّهُ بقلبِهِ، اي عظمَتَهُ وسُلْطانَهُ منْ وجهٍ، لا يَقَعُ بهِ تَشابُهٌ، وخَصَّ بالأُفُقِ لأنهُ مِنَ الأفُقِ تَنزِلُ الملائكةُ وأنواعُ الخيرِ كلُّها، أو المرادُ مِنْ ذلكَ الأماكنُ كلُّها.

[وقالَ][4] غيرُهُ منْ أهلِ التفسيرِ: صَرَفَ الرُّؤيةَ إلى جبرائيلَ ﷺ، وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سَأَلَ جبرائيلَ ﷺ أنْ يَراهُ على صورتِهِ، فقالَ لهُ جبرائيلُ ﷺ، إنَّ الأرضَ لا تَسَعُني، ولكنْ إذا صَلَّيتَ الفجرَ فانظُرْ إلى أُفُقِ السماءِ، فهنالكَ تراني، فَفَعَلَ، فَرَآهُ على صورتِهِ، ثم دنا منهُ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

فَذَكَرَ الأفُقَ لأنَّ الشيءَ مِنَ البعدِ لا يُتَهَيَّأُ أنْ يُرَى منْ أقطارِ الأرضِ، لذلكَ خَصَّ الأُفُقَ لأنَّ الشيءَ، إنْ كانَ كذلكَ، تَقَعُ رؤيتُهُ ممّا بَعُدَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وقُرِئَ بظنينٍ[5]. قالَ أبو عُبَيدٍ: والظَّنينُ أولَى، لأنهُ، هو المُتَّهَمُ، والضَّنينُ البخيلُ، ولم يَنْسُبْ أحدٌ رسولَ اللهِ ﷺ إلى البُخْلِ بهذهِ الآيةِ، وقد كانوا يَتَّهِمونَهُ على الغيبِ، وهو القرآنُ، فكانوا ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وليسَ منْ عندِ اللهِ، ويقولونَ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] فَبَرَّأَهُ اللهُ تعالى ممّا قالوا بقولِهِ: وما هو على الغَيبِ بظَنينٍ.

ومَنْ قرأَ بالضادِ فهو يَحْتَمِلُ أوجهاً:

[أحَدُها][6]: ما ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصمُّ، وهو أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكُنْ بضنينٍ بشيءٍ، عَلَّمَهُ اللهُ تعالى على أحدٍ منْ أصحابِهِ كما يَفْعَلُهُ غيرُهُ مِنَ العلماءِ؛ لأنَّ العلماءَ، لا يُريدونَ أنْ يُعَلِّموا مَنِ اخْتَلَفَ إليهِمْ كلَّ ما عندَهُمْ مِنَ العلومِ حتى

---

(١) في الأصل وم: أنهم. (٢) في الأصل وم: أعجز. (٣) في الأصل وم: مثله. (٤) في الأصل وم: و. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٨٥. (٦) ساقطة من الأصل وم.

[لا][1] يَسْتَغْنِيَ عنهمْ. ورسولُ اللهِ ﷺ كانَ يَوَدُّ أنْ يُعَلِّمَ[2] جميعَ ما عَلِمَ مِنَ العلومِ أصحابَهُ؛ فكانَ يقومُ على تعليمِ كلٍّ منهمْ بِقَدْرِ طاقتِهِ، ولم يكنْ يَمْتَنِعُ عنِ التعليمِ بُخلاً منهُ وضَنّاً.

[والثاني][3]: أنْ يكونَ بَرَّأَهُ اللهُ تعالى منْ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ في أمّةِ محمدٍ ﷺ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خَصَّ بعضَ أصحابِهِ بتعليمِ أشياءَ، لم يُطْلِعْ عليها غيرَهُمْ، وتخصيصُ بعضٍ دونَ بعضٍ بِتعليمِ ما عندَهُ، يَحُلُّ في الشاهدِ؛ فكانَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ تكذيبُ أولئكَ الذينَ يَدَّعونَ هذا.

وهذا كما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «صوموا لِرُؤيتِهِ وأفْطِروا لِرُؤيتِهِ» [البخاري ١٩٠٩] فكأنهُ قالَ هذا لمّا عَلِمَ أنهُ يكونُ في أمتِهِ مَنْ يَتَقَدَّمُ الشهرَ بالصيامِ، فقالَ هذا لِيَتَعَرَّفَ خَطأً ما يُتَقَدَّمُ مِنَ الشهرِ بالصيامِ على الخطإ والجهالةِ ليسَ على إصابةِ الحقِّ. فَعَلَى ذلِكَ الحكمُ في ما ذَكَرْنا.

ثم صَرَفوا تأويلَ الغيبِ إلى القرآنِ، وهو عندَنا في القرآنِ وفي غَيرِهِ مِنَ الأشياءِ التي أطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ [عليها].

والثالثُ:][4] أنْ يكونَ الضَّنُّ مُنصَرِفاً إلى الشفاعةِ التي أكْرَمَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ بها. فهو لا يَخُصُّ بعضَ أمتِهِ دونَ بعضٍ بالشفاعةِ، بل يَعُمُّهُمْ جميعاً، فيكونُ هذا تَحريضاً على الاتِّباعِ لهُ والانْقِيادِ لطاعتِهِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنهُ ليسَ بِضنينٍ في أداءِ شكرِ ما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهِ، وقد[5] غَفَرَ لهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ، بلِ اجْتَهَدَ في أداءِ شُكرِهِ حتى ذَكَرَ أنهُ تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ مِنْ طولِ القِيامِ، فقيلَ لهُ: ألَمْ يَغْفِرِ اللهُ لكَ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ؟ فقالَ: «أفلا أكونُ عبداً شَكوراً» [البخاري ١١٣٠ ومسلم ٢٨١٩و٢٨٢٠].

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليسَ مِنْ شَياطينِ الإنسِ ولا بمجنونٍ كما ذَكَرْتُمْ بل هو رسولٌ كريمٌ، والذي أتاكمْ بهِ مِنَ القرآنِ، لم يَتَلَقَّ مِنَ الشياطينِ، ولا هو مِنْ قِبَلِهِمْ كما تَلَقَّتْهُ الكهنةُ والسحرةُ مِنْ أفواهِهِمْ، بل هو ذِكْرٌ مِنَ اللهِ تعالى للعالَمينَ أنزلَهُ إليهِ الروحُ الأمينُ القويُّ الذي لا يَصِلُ [إليهِ][6] الشيطانُ، فَيُغَيِّرُهُ، ويُبَدِّلُهُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي فأينَ تَذهبونَ عنْ طاعتِهِ واتّباعِهِ والانْقِيادِ لهُ، وقد أتاكُمْ ما يُلْزِمُكُمْ طاعتَهُ واتّباعَهُ؟

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عظةٌ للعالَمينَ؛ يُذَكِّرُهُمْ بما يَحِقُّ عليهمْ في حالِهِمْ، ويُبَيِّنُ لهمْ ما يُؤْتَى وما يُتَّقَى وما تَصيرُ إليهِ عَواقِبُهُمْ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي شَرَفٌ، قَدَّرَهُمْ بِهِ أئمةً يُقْتَدَى بهمْ، ويُخْتَلَفُ إليهِمْ لِيُتَعَلَّمَ منهمْ، واللهُ أعلَمُ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أوجهاً غَيرَ ما ذَكَرْنا:

أحَدُها: أنَّ هذا القرآنَ الذي جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ تَلَقّاهُ مِنْ رسولٍ كريمٍ على اللهِ تعالى. فإذا لم تُؤْمِنوا بهِ، ولم تَقْبَلوهُ، فما ذَهَبْتُمْ إلّا إلى قولِ الشيطانِ الرجيمِ.

[والثاني: أنَّ قولَهُ:][7] ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ إلى مَنْ تَذْهبونَ؟ وإلى مَنْ تَفْزَعونَ إذا أتاكمْ بأسُ اللهِ ﷻ ونِقْمَتُهُ إذا لم تُؤْمِنوا باللهِ تعالى، وأنْكَرْتُمُ البعثَ، ولم تُصَدِّقوا الرسولَ ﷺ في ما أخْبَرَكُمْ بهِ؟ فإذا حلَّ بكمْ ما أنْذَرَكُمْ بهِ فإلى مَنْ تَلْجَؤونَ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

[والثالثُ: أنكُمْ][8] إذا لمْ تُؤمِنوا باللهِ تعالى، ولم تَتّبِعوا ما أتاكُمْ بِهِ محمدٌ ﷺ وقد تَقَرَّرَ عندَكُمْ [صِدْقُ ما][9] أتاكُمْ مِنَ الآياتِ المُعْجزةِ، فَبِأيِّ حديثٍ تُصَدِّقونَ بعدَ ذلكَ، وتذهبونَ إليهِ؟ وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟ [المرسلات: ٥٠].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: يعلمهم. (٣) في الأصل وم: وجائز. (٤) في الأصل وم: وجائز. (٥) في الأصل وم: حيث.
(٦) في الأصل وم: ويحتمل. (٧) في الأصل وم: ويحتمل. (٨) في الأصل وم: أو. (٩) في الأصل وم: صدقه إنما.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ معناهُ، واللهُ أعلَمُ، أن هذا القرآنَ ذِكْرٌ لِمَنْ شاءَ أنْ يَسْتَقيمَ مِنَ العالَمينَ؛ فهو في نفسِهِ ذِكْرٌ وآياتٌ وهُدًى، ولكنْ يَنْتَفِعُ بهذا الذكرِ مَنْ شاءَ الإِسْتِقامةَ، ويَهْتَدي بهِ مَنْ طَلَبَ الهدايةَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وهو في نفسِهِ هُدًى، ولكنْ يَهْتَدي بِهُداهُ المُتَّقونَ. ومَنْ ليسَ بِمُتَّقٍ، فهو عَمًى عليهِ ورِجْسٌ[1] وقالَ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس: ١١] وهو كانَ يُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، ولكنَّ مَعْناهُ: أنهُ يَنْتَفِعُ بالذي يُنْذَرُ بهِ مَنِ اتَّبَعَ الذكْرَ. وقالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] وهي في أنفسِهِمْ آياتٌ، ولكنْ يَنْتَفِعُ بآياتِهِ أُولو الأبصارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يُحْمَلَ على تحقيقِ المَشيئةِ، ويكونُ تأويلُهُ/ ٦٢٩ ـ أ/ أنَّ مَنْ أرادَ الإِسْتِقامةَ على أمرِ اللهِ تعالى أو على الحَقِّ، فهذا الذِّكْرُ، وهو القرآنُ يُقيمُهُ على الحقِّ وعلى الأمرِ، ويَهْديهِ إلى ذلكَ.

[والثاني:][2] أنَّ هذا على تحقيقِ الفعلِ، فيكونُ مَعْناهُ: مَنِ اسْتَقامَ منكُمْ على الحقِّ والأمرِ، فهو ذِكْرٌ لهُ.

والأصلُ أنَّ المشيئةَ وصفُ فعلِ كلِّ مُختارٍ. وإذا كانَ هكذا صارتِ المَشيئةُ مُقْتَرِنةً [بهِ][3] فإذا فَعَلَ فقد شاءَ، فكانَ في إثباتِ الفعلِ إثباتُ المَشيئةِ. لِذلكَ اسْتَقامَ حملُهُ على ما ذَكَرْنا، وهو أنْ يُجْعَلَ أحَدُهُما كِنايةً عنِ الآخَرِ.

الآية ٢٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ على تحقيقِ المَشيئةِ، فَمَعْناهُ: أنكُمْ لا تَشاؤونَ الإِسْتِقامةَ على ما ذَكَرْنا إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

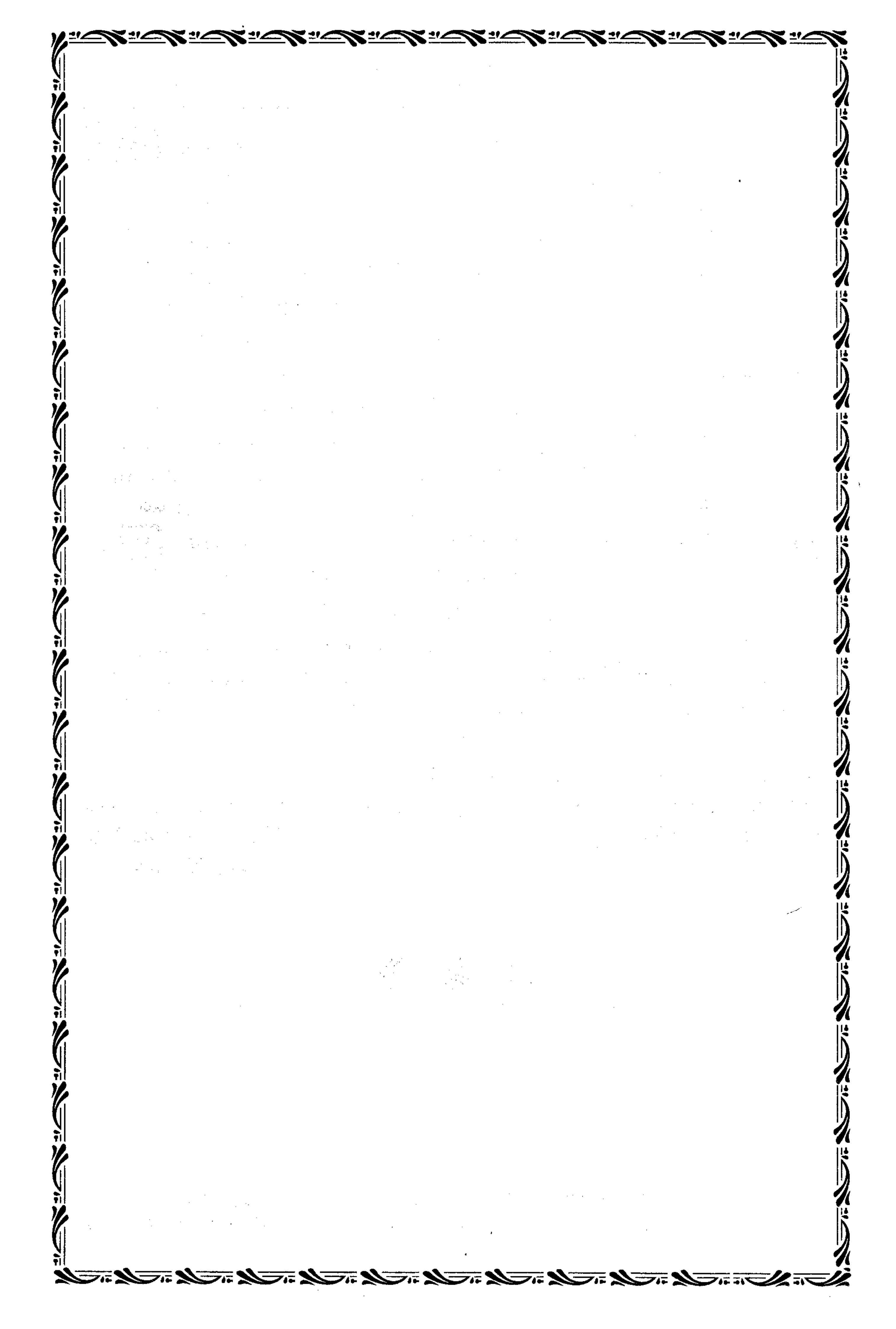
وإنْ كانَ على تَحقيقِ الفعلِ فتأويلُهُ أنكُم ما اسْتَقَمْتُمْ على الطريقةِ إلّا بِمَشيئةِ اللهِ تعالى.

قالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ إنزالَ هذا الكتابِ، فأنْزَلَهُ اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ بِغَيرِ مَشيئتِكُمْ. وهذا غيرُ مُحْتَمَلٍ عندَنا لأنهُ قد سَبَقَ مِنَ القومِ الإرادةُ والسؤالُ بإرسالِ الرسولِ إليهِمْ بقولِهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] فَثَبَتَ أنهُ قد سَبَقَ منهمُ السؤالُ بإرسالِ الرسولِ وإنزالِ الكتابِ عليهِ، وكانَ[4] تأويلُهُ ما ذَكَرْنا.

ثم في هذهِ الآيةِ دلالةُ أنَّ كلَّ مَنْ شاءَ اللهُ تعالى منهُ الإِسْتِقامةَ توجدُ منهُ الإِسْتِقامةُ، ولا يجوزُ أنْ يَشاءَ مِن أحدٍ اسْتِقامتَهُ، ولا يَسْتَقيمُ كما قالتِ المعتزلةُ لأنَّ اللهَ تعالى مَنَّ على مَنِ اسْتَقامَ بِمَشيئةِ اسْتِقامتِهِ. فلو لم توجدِ الإِسْتِقامةُ مِن كلِّ [مَنْ][5] شاءَ الإِسْتِقامةَ لم يكُنْ لِلامْتِنانِ مَعْنًى، لأنَّ الإِسْتِقامةَ وغَيرَ الإِسْتِقامةِ تكونُ بهِ لا باللهِ تعالى، واللهُ المُسْتعانُ [ولا حولَ، ولا قوةَ، إلّا باللهِ العَليِّ العظيمِ][6].

---

(١) في الأصل وم: وعليه رجس. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ويكنه. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الانفطار

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ هذا جوابٌ عنْ سؤالٍ تَقَدَّمَ، لم يُبَيَّنِ السؤالُ عندَ ذِكْرِ الجوابِ، لأنه[2] إذا الجَوابُ عنْ سؤالِ [كانَ][3] مَتى؟ فجائزٌ أنْ يكونَ سؤالُهُمْ ما ذُكِرَ في إتمامِ الجَوابِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ [الآية: ٥] فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ الآياتُ إلى آخِرِها.

ثم ذَكَرَ الانْفِطارَ ههنا، وهو الشَّقُّ، وذَكَرَ الفَتْحَ في موضعٍ آخَرَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩] وقولُهُ[4] في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات: ٩] [وقولُهُ][5]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

فمنهمْ منْ ذَكَرَ أنَّ شَقَّها وانْفِطارَها أنْ تُفْتَحَ أبوابُها. ومنهمْ منْ حملَهُ على السؤالِ الذي يُعْرَفُ مِنْ شَقِّ الأشياءِ، وهذا أقربُ، لأنَّ الآيةَ في موضِعِ التَّخويفِ والتَّهويلِ، وليسَ في فَتْحِ أبوابِها. وإنما التَّخويفُ في انْشِقاقِها بِنَفْسِها.

ثم السؤالُ عنْ مُلاقاةِ الأعمالِ وعنْ عِلْمِ الأنفُسِ بها فسؤالٌ عنِ الساعةِ.

وفي ذِكْرِ انْفِطارِ السماءِ وانْتِشارِ الكواكبِ وتَفْجيرِ البِحارِ وتَسْيِيرِ الجبالِ وجَعْلِ الأرضِ قاعاً صَفْصَفاً وصْفُ أحوالِ الساعةِ وآثارِها، وليسَ فيهِ إشارةٌ إلى وقتِ كَونِها لأنهُ ليسَ في التَّوَقُّفِ على حَقيقةِ وقتِها تَخويفٌ وتهويلٌ. وفي ذِكْرِ آثارِها تَخويفٌ؛ وهو أنهُ عَظَّمَ هَولَ ذلكَ اليومِ، واشْتَدَّ، حتى لا تقومَ الأشياءُ القويةُ الغالبةُ في نفسِها، وهيَ الجبالُ والسمواتُ والأرضونَ، بل يؤثِّرُ فيها هذا التأثيرَ حتى تصيرَ ﴿ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥] وتصيرَ ﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] وتَنْشَقُّ السماءُ، وتصيرُ ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ [طه: ١٠٦] فكيفَ يقومُ لها الإنسانُ الضعيفُ المَهينُ؟

وإذا كانتِ السمواتُ والأرضونَ والجبالُ معَ طواعِيَتِها لِرَبِّها، لا تقومُ لها وأفزاعِها، بل تَتَقَطَّعُ، فكيفَ يقومُ لها الآدميُّ الضعيفُ مع خُبْثِ عملِهِ وكَثْرَةِ مساويهِ معَ رَبِّهِ؟

فَيُذَكِّرُهُمْ هذهِ الأحوالَ لِيَخافوهُ، ويهابوهُ، فَيَسْتَعِدّوا لهُ.

فلهذا، واللهُ أعلَمُ، ذُكِرَتِ الأحوالُ التي عليها حالُ ذلكَ اليوم، ولم يُبَيِّنْ متى وقتُهُ، ولهذا ما لم يُبَيِّنْ مُنْتَهى عُمُرِ الإنسانِ لِيكونَ أبداً على خَوفٍ وَوَجَلٍ مِنْ حُلولِ الموتِ بِهِ، فيأخُذَ أُهْبَتَهُ، ويَتَشَمَّرَ لهُ.

ولو بَيَّنَ لهُ كانَ يَقَعُ لهُ الأمرُ بذلكَ، فَيَتْرُكُ التَّزَوُّدَ إلى دُنُوِّ ذلكَ الوقتِ، ثم يَتَأَهَّبُ لهُ إذا دنا انْقِضاءُ عُمُرِهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ أحوالَ القيامةِ في مَواضِعَ، وجَعَلَ ذلكَ مُتَرادِفاً مُتَتابِعاً في القرآنِ، فيكونُ في ذلكَ مَعْنَيانِ:

أحَدُهما: أنَّ للقلوبِ تَغَيُّراً وتَقَلُّباً في أوقاتٍ؛ فَرُبَّ قلبٍ لا يَلِينُ لحادثةٍ أوَّلَ مَرَّةٍ حتى يُعادَ عليهِ ذِكْرُها[6] مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وحالاً بَعْدَ حالٍ، ثم يَلِينُ؛ فيكونُ في تتابُعِ ذِكْرِ البعثِ والقِيامةِ مَرَّةً [بَعْدَ مَرَّةٍ][7] إبلاغٌ في النِّذارةِ وقَطْعُ عُذْرِ المَعْذورينَ يومَ القيامةِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: لأن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: ذكره. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أنَّ القومَ كانوا حَديثي العهدِ بالإسلامِ، وقد وَقَعَ الإسلامُ في قلوبِهِمْ مَوقعاً، فيكونُ في تكرارِ المواعظِ تَلْقيحُ لِعقولِهِمْ وتَلْيينٌ لقلوبِهِمْ على ما أكْرَمَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الإيمانِ ونُصْرَةِ رسولِ ربِّ العالَمينَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ فإمّا أنْ يكونَ انْتِثارُها لأنها مَجعولةٌ لِمَنافِعِ الخَلْقِ، فإذا استَغْنَى عنها أهلُها فلا مَعْنَى لِبَقائها أو لِما جُعِلَتْ زينةً للسماءِ، فإذا انْفَطَرَتِ السماءُ لم يُحْتَجْ إلى زينةٍ بَعْدَها.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ قالَ قائلونَ: أي يُفَجَّرُ ماؤُها في بَحْرٍ واحدٍ، ثم يَفورُ ماءُ ذلكَ البحرِ الذي اجْتَمَعَ فيهِ المِياهُ إمّا بما تَنْشَفُها الأرضُ [وإمّا بِجَعْلِها][1] في بطنِ الحوتِ التي ذُكِرَ أنَّ الأرضينَ، قرارُها على ظهرِهِ، أو في بَطنِ الثورِ. ثم يُسَوّي اللهُ تعالى الأرضَ كلَّها حتى لا يَبْقَى فيها عِوَجٌ ولا قَعْرٌ. فَتَيْبَسُ البحارِ بما شاءَ إمّا[2] بالجبالِ [وإمّا بِغَيرِها][3] وقالَ بَعْضُهُمْ: بل يَفورُ ماءُ كلِّ بحرٍ في مكانِهِ لا أنْ تُجْمَعَ المِياهُ كلُّها في مكانٍ واحدٍ وبحرٍ واحدٍ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: بل يَمْتَزِجُ بعضُها ببعضٍ، فَتصيرُ ناراً، يُعَذَّبُ بها أهلُها، وكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] وقولُهُ[4]: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] واللهُ أعلَمُ أيَّ ذلكَ يكونُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي بُعِثَ مَنْ فيها، أي[5] تَقْذِفُ القبورُ مَنْ فيها.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي تَعْلَمُ الأنفسُ ما عَمِلَتْ إلى آخِرِ ما انْتَهَى عَمَلُها، فلا يَخفَى عليها شيءٌ مِنْ أمرِها.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ما قَدَّمَتْ مِنْ خيرٍ وأخَّرَتْ مِنْ شرٍّ فَسَتَعْرِفُهُ في ذلكَ اليومِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ مِنَ العَمَلِ أي ما عَمِلَتْ بنفسِها ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي ما سَنَّتْ مِنَ السُّنَّةِ، فَعُمِلَ بها بَعدَها. وهذا الذي ذَكروهُ داخلٌ في تفسيرِ الجملةِ التي ذَكَرْنا أنها تَعْلَمُ مِنْ أوَّلِ ما عَمِلَتْ إلى آخِرِ ما انْتَهَى عَمَلُها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ/ ٦٢٩ ـ ب/ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يَحْتَمِلُ مِنْ ربِّكَ، فيكونُ تأويلُهُ أي شيءٍ غَرَّكَ مِنْ ربِّكَ الكريمِ حتى اغْتَرَرْتَ بهِ، واغْتِرارُهُ بربِّهِ[6] الإعراضُ عَنْ طاعتِهِ وعبادتِهِ، وقد تُسْتَعْمَلُ الباءُ في مَوضِعِ مِنْ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] ومعناه: يَشْرَبُ منها، لا أنْ يَشْرَبَ[7] مِنها كَرْعاً، أو يَجْعَلَ العينَ آنيةً لهمْ.

ثم وجهُ الجوابِ لِلْمُغْتَرِّ باللهِ تعالى في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وهو أنَّ كَرَمَهُ دعا الإنسانَ إلى ركوبِ المعاصي لأنهُ لم يأخُذْهُ بالعقوبةِ وقتَ جريمتِهِ، فَتجاوَزَ عنهُ، أو تأخيرُهُ العقوبةَ حَمَلَهُ على الاغْتِرارِ؛ إذْ ظَنَّ أنهُ يُعْفَى عنهُ أبداً [لِذلكَ أقدمَ][8] عليها، وإلّا لو حَلَّتْ بِهِ العقوبةُ وقتَ ارْتِكابِ المَعْصيةِ لَكانَ لا يَتَعاطَى المعاصيَ، ولا يرتَكِبُها، فَعُذْرُهُ أنْ يقولَ: الذي حَمَلَني على الإغفالِ والاغْتِرارِ كَرَمُكَ أو حُمْقي كما قالَ عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ حينَ تَلا هذهِ الآيةَ: الحُمْقُ يا ربُّ.

أو يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي أيُّ شيءٍ غَرَّكَ حتى ادَّعَيتَ على اللهِ تعالى أنهُ أمَرَكَ باتِّباعِ آبائكَ، أو تَشْهَدَ عليهِ إذا ارْتَكَبْتَ الفَحْشاءَ أنَّ اللهَ تعالى أمرَكَ بهِ على ما قالَ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ألَمْ أبْعَثْ إليكَ الرسولَ؟ ألَمْ أُنْزِلْ إليكَ الكتابَ، فَيَتَبَيَّنَ لكَ ما أمَرْتُ بهِ عمّا نَهَيتُ عنهُ؟

وقيلَ: نَزَلَتِ الآيةُ في شأنِ كَلَدَةَ [بنِ أُسَيدٍ الجُمَحيِّ حينَ][9] ضربَ النبيَّ ﷺ فلم يُعاقِبْهُ اللهُ تعالى، فأسلَمَ حمزةُ حَمِيَّةً لقومِهِ، فَهَمَّ كَلَدَةُ أنْ يَضرِبَهُ ثانياً، فَنَزَلَتِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؟ [حينَ لم يُهْلِكْكَ][10] عندَ تناوُلِ رسولِ اللهِ.

---

(١) في الأصل وم: أو تجعل. (٢) من م، في الأصل: أو. (٣) في الأصل وم: أو بغير. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: عن ربه. (٧) في الأصل وم: يشربوا. (٨) في الأصل وم: كذلكَ فأقدم. (٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) في الأصل وم: حيث لم تهلك.

لكنْ لو كانتِ الآيةُ فيهِ، [لَكانَ كُلُّ][1] الناسِ في مَعْنَى الخِطابِ على السواءِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ ففي هذا التَّعريفِ المِنَّةُ لِيَسْتَأْدِيَ منهُ الشكرَ، وفيهِ ذِكْرُ قُوَّتِهِ وسلطانِهِ حينَ[2] قَدَرَ على تَسْوِيَتِهِ في تلكَ الظلماتِ الثلاثِ التي لا يَنْتَهي إليها تدبيرُ البشرِ، ولا يَجري عليها سلطانُهُمْ لِيَهابوهُ، ويَحْذَروا مُخالَفَتَهُ.

وفيهِ ذِكْرُ حِكْمَتِهِ وعلمِهِ لِيَعْلَموا أنهمْ لم يُخْلَقوا عَبَثاً ولا سُدًى، لأنَّ الذي بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ ما ذَكَرَ مِنْ إنشائِهِ في تلكَ الظُّلُماتِ الثلاثِ مِنْ وجهٍ، لا يَعْرِفُهُ[3] الخَلْقُ، لا يجوزُ أنْ يُخْرِجَ خَلْقَهُ عبثاً باطلاً، بل خَلَقَهُمْ لِيأمُرَهُمْ، ويَنْهاهُمْ، ويُرْسِلَ إليهمُ الرسلَ، ويُنَزِّلَ عليهمُ الكتُبَ، فَيُلْزِمَهُمُ اتِّباعَها، ويُعاقِبَهُمْ إذا أعْرَضوا عنها، وتركوا اتِّباعَها.

وسَنَذْكُرُ وَجْهَ التَّسْوِيةِ بهِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢] أنهُ سَوّاهُ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ، أو سَوّاهُ مِنْ وجهِ الدلالةِ على معرفةِ الصانعِ، أو سَوّاهُ في ما خَلَقَ لهُ مِنَ اليدينِ والرجلَينِ والسَّمْعِ والبَصَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي سَوّاكَ، وَوَجْهُ التَّسْوِيةِ أنْ جَعَلَ لهُ يَدَينِ مُسْتَوِيَتَينِ، لم يَجْعَلْ إحداهُما أطولَ مِنَ الأُخْرى، وكذلكَ سَوّى بَينَ رجلَيهِ، وقُرِئَ بالتَّخْفيفِ والتَّشْديدِ[4].

قالَ أبو عُبَيدٍ: مَعْنَى قولِهِ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتَّخْفيفِ أي أمالَكَ، وليسَ في ذِكْرِهِ كثيرُ حكمةٍ، واختارَ التَّشْديدَ فيهِ.

وليسَ كما ذَكَرَ، بل في ذِكْرِ هذا مِنَ الأعجوبةِ ما في ذِكْرِ الآيةِ؛ فقولُهُ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي صَرَفَكَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ ووجْهُ صَرْفِهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهُ كانَ في الأصلِ ماءً مَهيناً في صُلْبِ الأبِ، فَصَرَفَ ذلكَ الماءَ إلى رَحِمِ الأمِّ، ثم أنْشَأهُ نُطْفَةً، ثم صَرَفَها إلى العَلَقةِ وإلى المُضْغَةِ إلى إنشائِهِ خَلْقاً سَوِيّاً. أو صَرَفَهُ على ما عليهِ الحالُ مِنَ الصِّحَّةِ إلى السُّقْمِ ومِنَ السُّقْمِ إلى البُرْءِ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا التعريفِ المِنَّةُ والقُدْرةُ والحِكْمةُ كما في الأوَّلِ؛ ففيهِ أعظَمُ الفوائدِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ منهمْ مَنْ جَعَلَ: ما[5]: ههنا بِمَعْنى الذي. ثم قولُهُ: ﴿شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا عبارةً عمّا تَقَدَّمَ مِنَ الأوقاتِ، وهو أنهُ قد شاءَ تركيبَكَ على الصورةِ [التي][6] أنتَ عليها لا على صورةِ البهائمِ وغيرِها، فيكونُ في ذِكْرِهِ تَذْكيرُ المِنَنِ والنِّعَمِ لِيَسْتَأْدِيَ منهُ الشكْرَ.

وَوَجْهُ التَّذكيرِ أنهُ أنْشَأهُ على صورةٍ، يَتَمَنّاها، ولا يَتَمَنّى أنْ يكونَ بِغَيرِ هذهِ الصورةِ مِنَ الجواهِرِ، وأنشَأهُ على صورةٍ يَعْرِفُ [بها][7] المحاسِنَ والمَساوِئَ، ويَعْرِفُ الحِكْمةَ والسَّفَهَ، ويُمَيِّزُ بينَهما، ويُمَيِّزُ بَينَ المَضارِّ والمَنافِعِ، وأنشَأهُ على صورةٍ سَخَّرَ لهُ [بها][8] السمواتِ والأرضِينَ والأنعامَ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [لقمان: ٢٠] وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الآية [الإسراء: ٧٠] ولم يُسَخِّرْهُ لِغَيرِهِ. فَثَبَتَ أنَّ فيهِ تذكيرَ النِّعَمِ لِيَشْكُروهُ ويَقوموا بِحَمْدِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا على الاِسْتِئْنافِ في أنَّ تركيبَهُ على ما هو عليهِ، أي على صورةٍ شاءَ مِنَ الصُّوَرِ التي يَسْتَقْذِرُها؛ ويَمْسَخُهُ قِرداً وخِنزيراً لِمكانِ ما يَتَعاطَى مِنَ المَعاصي، فيكونُ في ذِكْرِهِ تذكيرُ القُدْرةِ والقوةِ لِيُراقِبَ اللهَ تعالى، ويَهابَهُ، فَيَتْرُكَ مَعاصِيَهُ، ويُسارِعَ إلى طاعتِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فإنْ حَمَلْتَ قولَهُ: ﴿كَلَّا﴾ على التَّنْبيهِ والرَّدْعِ فَيُمْكِنُ أنْ يُعْطَفَ على ما قَبْلَهُ وعلى ما بَعْدَهُ، وكذلكَ إذا حَمَلْتَهُ على القَسَمِ بِمَعْنَى: حَقّاً، فإنهُ يَسْتَقيمُ عطفُهُ على الأمرَينِ جميعاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِٱلدِّينِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ دينُ الإسلامِ. والأصلُ أنَّ الدينَ إذا أُطْلِقَ أُريدَ بهِ الدينُ الحقُّ، وهو الإسلامُ، وكذلكَ الكتابُ المُطْلَقُ كتابُ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: فكل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: يعرفها. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٨٩. (٥) في الأصل وم: ألما. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم.

ويجوزُ أنْ يكونَ أُريدَ بِهِ البعثُ والجزاءُ. وسُمِّيَ يومُ الدينِ لِما ذَكَرْنا أنَّ الناسَ يُدانونَ بأعمالِهِمْ. والحكمةُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ، أنهمْ أقرّوا بأنَّ اللهَ تعالى أحكمُ الحاكِمينَ. وتكْذيبُهُمْ بيومِ الدينِ يُوجِبُ أنْ يكونَ أسفَهَ[1] السفهاءِ لا أنْ يكونَ أحكَمَ الحاكمينَ، لأنَّ الدنيا، عواقِبُها الفَناءُ[2] والهلاكُ؛ فهمْ إذا كَذَّبوا بالبعثِ، فقد زَعَموا أنهمْ ما أُنْشِئوا إلّا لِلهلاكِ والفَناءِ، ومَنْ بَنَى بِناءً، ولم يَقْصِدْ بِبنائِهِ سِوَى أنْ يَنْقُضَهُ، ويَهْدِمَهُ، فهو سفيهٌ عابثٌ في الفعلِ، فلم يَحْصُلوا مِنْ تكذيبِهِمْ إلّا على نَفْيِ الحِكْمةِ مِنَ الصانعِ وتثبيتِ السَّفَهِ للهِ تعالى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] وهو قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وهمْ لم يكونوا يَدَّعونَ أنهما خُلِقَتا باطلاً، ولا يَظُنّونَ ذلكَ، ولكنَّ الإنكارَ الذي وُجِدَ منهمْ بالبَعثِ والجزاءِ يَقْتَضي خَلْقَهُما باطلاً. فَعَلَى ذلِكَ إنكارُهُمُ البعثَ يُزيلُ عنهُ القولَ بأنهُ أحكمُ الحاكمينَ، ويُثْبِتُ ما ذَكَرْنا مِنَ السَّفَهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ وهمْ لم يكونوا يقبلونَ الأخبارَ، ولا كانوا يُؤمنونَ بها، ثم أخبَرَهُمْ أنَّ عليهِمْ حُفّاظاً لأنَّ الذي حَمَلَهُمْ على الجهلِ تركُهُمُ الإنصافَ مِنْ أنفسِهِمْ، وإلّا لو أُنْصِفوا مِنْ أنفسِهِمْ لكانَ إعطاؤُهُمُ النَّصَفَةَ يُوصِلُهُمْ إلى تدارُكِ الحقِّ ومَعْرفةِ ما عليهِمْ مِنَ الواجبِ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ المرءَ إذا كانَ عليهِ حافظٌ أدّاهُ ذلكَ إلى المُراقبةِ، فَيَرْتَدِعُ عن تَعاطي ما يُؤخَذُ عليهِ، فَنَبَّهَنا أنَّ علينا حُفّاظاً لِنَحْتَشِمَ عنهمْ، ولا نأتيَ مِنَ الأمورِ ما يَسومُهُمْ، وَوَصَفَهُمْ أنهمْ كرامٌ لِنَصْحَبَهُمْ صُحْبةَ الكرامِ، ومِنْ صُحْبةِ الكرامِ أنْ نَحْتَرِمَهُمْ، ونَتَّقِيَ مُخالَفَتَهُمْ، ولا نَتعاطَى ما يَسومُهُمْ.

الآية ١١ وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ وفي ذِكْرِ الكرامِ فائدةٌ أُخرَى، وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ هُمْ[3] على اللهِ تعالى، والكريمُ على اللهِ تعالى هو المُتَّقي. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فيكونُ فيهِ أمانٌ لهمْ أنهمْ لا يَزيدونَ، ولا يَنْقُصونَ في الكتابةِ، وإنما يكتبونَ قَدْرَ عَمَلِهِمْ كما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ في وصفِ جبرائيلَ/ ٦٣٠ ـ أ/ ﷺ، بالقوةِ والأمانةِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهمْ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قَبْلَ أنْ نَفْعَلَ بِما عَرَّفَهُمُ اللهُ تعالى، فيكونُ في تَعْريفِهِ إياهُمْ إلزامُ الحُجَّةِ عليهِمْ، ويكونُ الذي يكتبونَ امْتِحاناً امْتُحِنوا بِهِ؛ إذْ قد فُوِّضَ إلى بعضِهِمْ أمرُ كتابةِ الأعمالِ وإلى بعضٍ إرسالُ الأمطارِ[4] ونحوُ ذلكَ.

[والثاني: أنهمْ][5] ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقتَ فِعْلِكُمْ جِهَةَ الفِعْلِ مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ، فيكونُ لِفِعلِ الخيرِ آثارٌ بها يَعرِفونَ أنَّ الفاعلَ بِهِ قَصَدَ بِهِ جِهةَ الخيرِ، ويكونُ لِفِعلِ الشَّرِّ آثارٌ بها يَعْرِفونَ ذلكَ أيضاً.

ثم عُذْرُ المسلِمينَ في تَرْكِ المُراقبةِ أقلُّ مِنْ عُذْرِ المُكَذِّبينَ بالدينِ لأنَّ المسلِمينَ عَلِموا أنَّ عليهِمْ حُفّاظاً، يَحْفَظونَ عليهِمْ أعمالَهُمْ، ويكتُبونَها عليهِمْ، ثم هُمْ معَ ذلكَ يَفْعلونَ، ولا يَصْحَبونَهُمْ صُحْبةَ الكِرامِ، ويَتْرُكونَ التَّيَقُّظَ والتَّبَصُّرَ، والكَفَرَةُ يُنكِرونَ أنْ يكونَ عليهِمْ حُفّاظٌ، ومَنْ كانَ هذا حالُهُ فالإغفالُ عن مِثْلِهِ غَيرُ مُسْتَبْعَدٍ.

الآيتان ١٣و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ قد ذَكَرَ أنَّ البَرَّ أُعطَى ما طُلِبَ منهُ ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي هذهِ الآيةِ دلالةٌ على ما ذَكَرْنا أنَّ البِرَّ إذا ذُكِرَ دونَ التَّقْوَى اقْتَضَى المَعْنَى الذي يُرادُ بالتَّقْوَى لأنهُ أخبَرَ أنَّ البِرَّ، هو الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ثم ذَكَرَ أنَّ الذي جَمَعَ بَينَ هذهِ الأشياءِ، هو المُتَّقي.

---

(١) من م، في الأصل: أريد. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الفساد. (٣) في الأصل وم: أي. (٤) في الأصل وم: الأمصار.
(٥) في الأصل وم: أو.

ثم احتجَّ المعتزلةُ بقولِهِمْ بالتَّخليدِ في النارِ لِمَنِ ارتكَبَ الكبيرةَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لأنَّ مَنِ ارتكَبَ الكبيرةَ فاجرٌ، وقد قالَ[1] اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾][2] وزعموا أنهُ ما لم يأتِ بالشرائطِ [التي][3] ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فهو غيرُ داخلٍ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

والأصلُ عندنا ما ذَكَرْنا أنَّ كلَّ وعيدٍ مذكورٍ مُقابلَ الوَعْدِ فهو في أهلِ التَّكذيبِ [لِما ذَكَرَ مِنَ التَّكذيبِ][4] عندَ التفسيرِ بقولِهِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ٧إلى١٠] وقالَ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤و١٠٥] وإذا كانَ كذلكَ لم يَجِبْ قَطْعُ [القولِ][5] بالتَّخليدِ لِمَنِ ارتكَبَ الكبيرةَ، بل وَجَبَ القولُ بالوقْفِ فيهِمْ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لأهلِ النارِ يومَ البعثِ أعلاماً ثلاثةً، بها يُعْرفونَ، وتُبيِّنُ أنهمْ من أهلِ النارِ، لم يَجْعَلْ شيئاً مِنْ تلكَ الأعلامِ في أهلِ السعادَةِ:

أحدُها: اسْوِدادُ الوُجوهِ [بقولِهِ: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]][6].

والثاني: بِما يُدْفَعُ إليهِمْ كِتابُهُمْ بِشِمالِهِمْ ومِنْ وراءِ ظُهورِهِمْ، ويُدْفَعُ إلى أهلِ الجنةِ كُتُبُهُمْ بأيمانِهِمْ.

والثالثُ: في أنْ تَخِفَّ مَوازينُهُمْ، وتَثْقُلَ مَوازينُ أهلِ الحقِّ.

فهذهِ أعلامُ أهلِ الشقاءِ؛ وفي ما ذَكَرَ: اسْوِدادُ الوجوهِ قَرَنَ بِهِ التَّكذيبَ؛ قالَ[7]: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وفي ما ذَكَرَ دفعُ الكتابِ بالشِّمالِ ومِنْ وراءِ الظهورِ؛ قالَ فيهِ: ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٢و٣٣] وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ إلى قولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [إلى قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾][8] [الانشقاق: ١٠إلى٢٥].

وقالَ تعالى عنهُ ما ذَكَرَ [في خِفَّةِ][9] الميزانِ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].

ولم يذكُرْ شيئاً[10] مِنْ هذهِ الأعلامِ [في][11] غيرِ المُكَذِّبينَ، فثبَتَ أنَّ الوَعيدَ في المُكَذِّبينَ لا في غَيرِهِمْ. لِذلكَ لم يَسَعْ لنا أنْ نُشرِكَ أهلَ الكبائرِ مع أهلِ التَّكذيبِ في اسْتيجابِ العِقابِ وقَطْعُ القولِ بالتَّخليدِ. بل وَجَبَ الوقفُ في حالِهِمْ والإرجاءُ في أمرِهِمْ.

وقد[12] ذَكَرَ في مَواضعِ الإيمانِ باللهِ تعالى أدْنى مَراتِبِ أهلِ الإيمانِ، ووَعَدَ عليهِ الجنةَ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١] وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٥٢] فَذَكَرَ في هذهِ الآياتِ التي تَلَوناها أدْنى مَنازِلِ أهلِ الإيمانِ، ووَعَدَ عليها الجنةَ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية [العصر: ٣] وقولِهِ[13]: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

فجائزٌ أنْ يكونَ ذِكْرُ الجميعِ على المُبالغةِ لا على جَعْلِهِ شَرْطاً، فيجبُ القولُ باسْتيجابِ الوَعْدِ بأدْنى مَراتبِهِ على ما ذَكَرَ في الآياتِ الأُخَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ [ذِكْرُ][14] الجميعِ في ما ذَكَرَ فيهِ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ الإيمانَ باللهِ ورسُلِهِ مُضْمَراً[15]، أو يكونَ ذِكْرُ طَرَفٍ منهُ على الإيجازِ.

---

(١) في الأصل وم: وصف. (٢) في الأصل وم: ولا يغيب عنها. (٣) في م: الذي، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: بقوله. (٨) في الأصل وم: ﴿إِلَّآ﴾. (٩) في م: خفة، في الأصل: حفظة. (١٠) في الأصل وم: شيء. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: والثاني. (١٣) في الأصل وم: وقال. (١٤) ساقطة من الأصل وم. (١٥) في الأصل وم: مضمر.

ألا تَرى أنهُ ذَكَرَ الكُفْرَ في بعضِ المواضِعِ، وأوعَدَ عليهِ النارَ، وذَكَرَ في بعضِ المواضعِ الكُفْرَ مع أسبابٍ أُخَرَ، وأوعَدَ عليهِ النارَ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الآية [آل عمران: ٢١] وقولِهِ[1] في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾؟ [المدثر: ٤٣و٤٤].

ثم لم يَعُدَّ جميعَ ما ذَكَرَ مِنَ السَّيِّئاتِ معَ الكُفرِ شَرْطاً، بل أوجَبَ القولَ بالتَّخليدِ لِمَنِ اقتَصَرَ على الكُفرِ خاصةً، فثبَتَ أنْ ليسَ في ذِكرِ المُبالغةِ دلالةُ جعلِ المبالغةِ شَرْطاً، بل جائزٌ أنْ يُستَوجَبَ الوعيدُ بدونِهِ، فلذلكَ لم يَقْطعِ القولَ في أصحابِ الكبائرِ بالتَّخليدِ في النارِ ولا بأنهمْ مُستوجَبونَ للوعدِ، بل قيلَ فيهمْ بالإرجاءِ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: تأويلُهُ مُنصَرِفٌ إلى أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ؛ فأهلُ الجنةِ لا يَغيبونَ عنِ الجنةِ، ولا أهلُ النارِ [يَغيبونَ][2] عنِ النارِ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: أُريدَ بها أهلُ النارِ خاصّةً أنهمْ لا يَغيبونَ عنها.

وأنكرَ بعضُ الناسِ الخُلودَ لأهلِ النارِ في النارِ ولأهلِ الجنةِ في الجنةِ، وقالوا: لو لم يكنْ لِنعيمِ الجنةِ انقِضاءٌ ولا لِعذابِ الآخِرَةِ انْتِهاءٌ لكانَ يَرتفعُ عنِ اللهِ تعالى الوصفُ بأنهُ أوّلٌ وآخِرٌ لأنهما تَبْقَيانِ أبداً، فلا يكونُ هو آخِراً، وقد قالَ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] فلابدَّ مِنْ أنْ يكونَ لهما انتهاءٌ حتى يَستَقيمَ الوصفُ بأنهُ آخِرٌ.

ولأنهما لو لم يوصَفا بالانْتِهاءِ لَكانَ عِلْمُ اللهِ تعالى غَيرَ مُحيطٍ بِنهايَتِهما، فتكونُ النهايةُ مُجاوِزةً لِعلمِهِ، واللهُ ﷻ مُحيطٌ وعالمٌ مبادِئِهما ومُنتَهاهُما، فلابُدَّ مِنَ القولِ بِفَنائِهما حتى يكونَ عِلْمُهُ مُحيطاً بهما.

ولأنهمْ إنما اسْتَوجَبوا الجزاءَ بأعمالِهِمْ، وأهلُ النارِ اسْتَوجَبوا العِقابَ بِسَيِّئاتِهِمْ، فإذا كانَ لِسَيِّئاتِهِمْ نهايةٌ، ولِخيراتِ أولئكَ نهايةٌ، فكذلكَ يجبُ أنْ يكونَ للجزاءِ نهايةٌ أيضاً.

والأصلُ عندَنا [بوجهَينِ:

أحَدُهما:][3] أنَّ كلَّ مَنِ اعْتَقَدَ مَذْهباً فهو يَعْتَقِدُ التَّدَيُّنَ بهِ أبداً ما بَقِيَ، لا يَتْرُكُهُ. ثم العقابُ جُعِلَ جَزاءً للكُفرِ، والثوابُ جُعِلَ جَزاءً لِلاتِّقاءِ مِنَ المهالِكِ بقولِهِ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١] وقولِهِ[4]: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وإذا ثَبَتَ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهما جزاءً لمذهبِهِ[5]، وكانَ الاعْتِقادُ للأبدِ، فكذلكَ جزاؤُهُ يَقَعُ للأبدِ والدوامِ لا للزَّوالِ والانْقِطاعِ.

والثاني: أنَّ العلمَ بِزَوالِ النِّعَمِ مما يُنَغِّصُ النَّعيمَ على أربابِها، ويُمَرِّرُ عليهمْ لَذّاتِها، ويُكَدِّرُ عليهمْ ما صَفا منها.

فإذا كانَ كذلكَ لم يَتِمَّ لهمُ النَّعيمُ. وأهلُ النارِ إذا تَذَكَّروا الخلاصَ مِنَ العذابِ تَلَذَّذوا بها، وهانَ عليهمُ العذابُ، فوجَبَ القولُ بالخلودِ لِيَتِمَّ النعيمُ على أهلِهِ والعذابُ على أهلِهِ.

والجوابُ عنْ قولِهِمْ[6]: إنهُ يرتفعُ عنهُ الوصفُ بأنهُ أوّلٌ وآخِرٌ [أنهُ أوّلٌ وآخِرٌ][7] بذاتِهِ لا بِغَيرِهِ، وغَيرُهُ يَصيرُ أوّلاً وآخِراً بِغَيرِهِ/ ٦٣٠ ـ ب/ ثم ما مِنْ شيءٍ إلّا ولَهُ أوّلٌ وآخِرٌ، ثم لا يوجِبُ ذلكَ إسقاطَ الأوّلِيّةِ والأُخْرَويّةِ. [والجوابُ عنْ قولِهِمْ][8]: بأنَّ اللهَ ﷻ لا يوصَفُ بالإحاطةِ بالأشياءِ لو وَجَبَ القولُ بالخُلودِ، فنقولُ بأنَّ العلمَ بما لا نهايةَ لهُ يوجِبُ الجَهْلَ لا العِلْمَ.

والجوابُ عنِ الفصلِ الثالثِ ما ذَكَرْنا أنهُ يُعْتَقَدُ المذهبُ للأبدِ، وكذلكَ الجزاءُ يَتَأبَّدُ، ولا يَنْقَطِعُ.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنكَ لم تكنْ تَدري، فأدراكَ اللهُ تعالى. وقالَ بَعْضُهُمْ: هذا على التَّعْظيمِ لذلكَ اليومِ والتَّهْويلِ عنهُ.

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: للمذهب.
(٦) في الأصل وم: قوله. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: قوله.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ وذلكَ اليومُ يومُ تُجزَى فيهِ الشّفاعاتُ، فَيَشفَعُ الأنبياءُ لكثيرٍ مِنَ الخَلْقِ، فَيُشفَعُ بهمْ. وإذا كانَ كذلكَ فقد ملكَتْ نفسٌ لنفسٍ شيئاً. ولكنَّ تأويلَهُ يُخَرَّجُ على أوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنَّ الكَفَرَةَ كانوا يَتوادّونَ في ما بَينَهُمْ لِيُناصِرَ بعضُهُمْ بعضاً في النوائبِ، فقالَ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

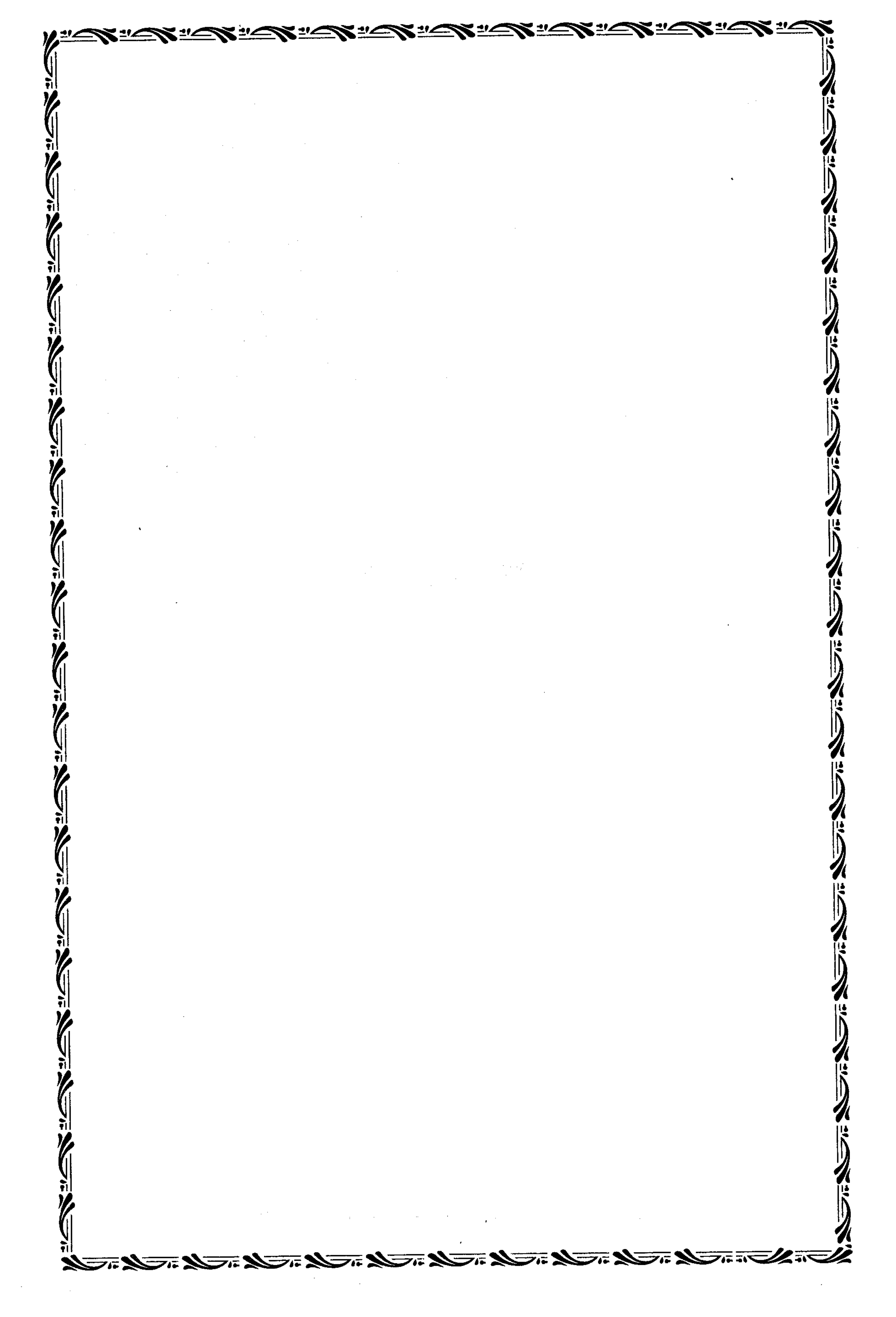
[والثاني:][1] لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً إلّا بَعدَ أنْ يُؤذَنَ لها كما قالَ ﷻ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] وقد يجري التَّشَفُّعُ في الدنيا لا بالإسْتِئذانِ من أحدٍ.

[والثالثُ: أنْ][2] يكونُ مَعْناهُ: أنَّ كلَّ نفسٍ سَيَتَبَيَّنُ لها في ذلكَ اليومِ أنها لم تَمْلِكْ شيئاً إلّا بالتَّمْليكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي لا يُتنازَعُ فيهِ، وهو في كلِّ وقت للهِ تعالى. لكنَّ الظَّلَمَةَ يَتنازعونَ في هذهِ الدنيا، أو ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ أي يَتَبَيَّنُ لكلِّ أحدٍ في ذلكَ اليومِ أنَّ الأمرَ للهِ تعالى في ذلكَ اليومِ وقَبْلَ ذلكَ اليومِ، واللهُ المُسْتَعانُ. [ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيمِ][3].

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل.



[سورة المطففين

وهي مكية](1)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فوجهُ تَعْيِيرِهِمْ بالتَّطفيفِ وإلحاقِ الوعيدِ لمكانِهِ، وإنْ كانوا مُسْتوجِبينَ للوعيدِ، وإنْ أوفَوُا المِكْيالَ، ولم يُطَفِّفوا فيهِ، إذا كانوا جاحدينَ باللهِ تعالى ومُكَذِّبينَ بالبعثِ.

هو أنَّ الكَفَرَةَ لم يكونوا اعْتَقَدوا الكُفْرَ باللهِ تعالى لِتَلَذُّذٍ، يَقَعُ لهمْ بنفسِ الكُفْرِ، ولا الْتَزموهُ على التَّحسينِ لهمْ إيّاهُ، وإنما أعْرَضوا عنِ الإيمانِ لحبِّهِمُ الرئاسةَ ولِمَأْكَلَةٍ كانتْ لهمْ، خافوا زَوالَها عنهمْ بالإسلامِ، وزَهِدوا فيهِ لِما يَلْزَمُهُمْ بالإيمانِ مُؤَنٌ، واختاروا الكُفْرَ لئلّا يَلْزَمَهُمْ بالإيمانِ تَحَمُّلُها. فكانَ الذي يَحْمِلُهُمْ على الصَّدِّ عنِ الإيمانِ وتَرْكِ النَّظرِ في آياتِ اللهِ تعالى وحُجَجِهِ ما ذَكَرْنا، فَعُيِّروا بالأفعالِ الدَّنيئةِ التي كانوا يَتَعاطَونَها في ما بَيْنَهُمْ مِنَ التَّطفيفِ والهَمْزِ واللَّمْزِ وتركِهِمْ إيتاءَ الزكاةِ بقولِهِ ﷺ: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٧] لِيَنْقَلِعوا عنها، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على النَّظَرِ في القرآنِ والتَّدبُّرِ فيهِ، وهو كما ذَكَرْنا في القتالِ أنَّ فيهِ ما يَحْمِلُهُمْ على الإيمانِ لأنهمْ كانوا يَتَزَهَّدونَ عنهُ لِحُبِّهِمُ الدنيا؛ فإذا قُوتِلوا ضاقَتْ عليهمُ الدنيا، فَبَعَثَهُمْ ذلكَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى وعلى النَّظَرِ في آياتِهِ.

وذُكِرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمّا تَلا هذهِ الآيةَ على أهلِ المدينةِ(2) تركوا التَّطفيفَ فلم يُطَفِّفوا بعدَ ذلكَ. [ابن ماجة ٢٢٢٣].

قالَ أهلُ اللغةِ: التَّطفيفُ النُّقصانُ؛ يُقالُ: إناءٌ طَفّانُ إذا كانَ غيرَ مَمْلوءٍ. وقالَ الزَّجّاجُ: يُقالُ: شيءٌ طَفيفٌ أي يَسيرٌ، فَسُمِّيَ مُطَفِّفاً لِما يَسْرِقُ منهُ شيئاً فَشيئاً في كلِّ مِكْيالٍ، وفي هذا دلالةٌ أنَّ حُرْمَةَ الرِّبا عامّةٌ على أهلِ الأديانِ، وفيهِ دلالةٌ أنَّ حُرْمَةَ الرِّبا ليسَتْ لمكانِ العاقِدينَ، وإنما هي حقٌّ على العاقِدينَ للهِ تعالى؛ وذلكَ أنَّ الذي يُكالُ لهُ كانَ يأخذُ ما يُكالُ لهُ على عِلْمٍ منهُ بِتطفيفِ البائعِ، ثم كانَ يَرْضَى بهِ، ويَتَجاوزُ عنْ ذلكَ، ومعَ ذلكَ لَحِقَهُ(3) التَّعْيِيرُ بالتَّطفيفِ، فَدَلَّ أنَّ حُرْمَتَهُ ليسَتْ لِمكانِ العاقِدينَ، ولكنها مِنْ حقِّ اللهِ تعالى.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ هذا على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ؛ ومَعناهُ: ويلٌ للمُطَفِّفينَ على الناسِ إذا اكْتالوا، أو وَزَنوا، يَسْتَوفونَ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ ﴿عَلَى﴾ ههنا بِمَعْنَى مِنْ(4)، فكأنهُ يقولُ: ويلٌ للمُطَفِّفينَ الذينَ إذا اكْتالوا مِنَ(5) الناسِ يَسْتَوفونَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ: هُمْ بعدَ ذِكْرِ الكَيلِ والوزنِ على التأكيدِ والمُبالغةِ.

فإنْ كانَ هذا على هذا فحقُّهُ الوقفُ على قولِهِ: كالوا وعلى قولِهِ: وَزَنوا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: مَعْناهُ: وإذا كالوا لهمْ، أو وَزَنوا لهمْ، لأنَّ الألفَ بينَهما ليسَتْ بِمُثْبَتَةٍ في المصاحفِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ: كِلْتُهُ، و: كِلْتُ لهُ لقولِهِ: وَعَدْتُهُ، ووَعَدْتُ لهُ.

---

(1) من م، ساقطة من الأصل. (2) في الأصل وم: مكة. (3) في الأصل وم: لحقهم. (4) في الأصل وم: عن. (5) في الأصل وم: عن.

فإنْ كانَ هذا مَعْناهُ لم يَسْتقِمِ الوقفُ على قولِهِ: كالوا، و: وَزَنوا، لأنَّ قولَهُ: لهمْ تفسيرٌ لقولِهِ: كالوا، أو وَزَنوا، ولا يجوزُ قَطعُ التفسيرِ عمّا لهُ التفسيرُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ قالَ أكثرُ أهلِ التفسيرِ: ألَا يظُنُّ؟ ألا يَعلَمُ؟ وألَا يَتيَقَّنُ؟

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: ألا يظُنُّ بِمَعْنَى ألا يَشُكُّ أولئكَ في البعثِ؟ وهو مُحتَمَلٌ لِما ذَكَرْنا لأنَّ الشَّكَّ يوجِبُ الرهبةَ، وارتفاعَهُ يوجِبُ الأمْنَ.

ألَا تَرَى أنَّ المرءَ إذا أرادَ أنْ يُسافِرَ إلى مكانٍ، فأخْبَرَهُ إنسانٌ أنَّ في الطريقِ الذي يُريدُ أنْ يَسْلُكَ سُرّاقاً وقُطّاعَ الطريقِ، فإنهُ يَتَرَهَّبُ لذلكَ، فَيَسْتَعِدُّ لهُ بما يدفَعُ عنْ نفسِهِ ضَرَرَ قُطّاعِ الطريقِ وضَرَرَ السارقِ، وإنْ لم يَتيَقَّنْ أنَّ المخبِرَ صادقٌ في مَقالتِهِ، ولا يَتيَقَّنُ أنَّ السُّرّاقَ يَتَمَكَّنونَ مِنَ الإضرارِ؟ فكيفَ لا يَشُكُّ هؤلاءِ بكونِ البعثِ بِما يُخبِرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ويُقيمُ عليهِ الحُجَجَ، وهذا أقَلُّ منازِلِ الإخبارِ أنْ يورِثَ شَكّاً؟

ثم الأصلُ أنَّ حَرْفَ الشَّكِّ عندَ اسْتِواءِ طَرَفَيِ الداعِيَيْنِ، والظَّنُّ يُسْتَعْمَلُ عندَ اخْتِلافِ طَرَفَيِ الداعِيَيْنِ، وهو أنْ تُغَلَّبَ إحدَى الدلالتَيْنِ على الأُخْرَى، لذلكَ يَسْتَقيمُ الحكْمُ والقولُ بأكثرِ الظَّنِّ، ولا يَسْتَقيمُ بأكثرِ الشَّكِّ.

ثم الظَّنُّ يَتَوَلَّدُ مِنَ البحثِ عنِ الأمرِ والنَّظَرِ فيهِ. وإذا [تَدَبَّرَهُ المرءُ][1] فهو لا يَزالُ يرتَقي في الظَّنِّ درجةً درجةً حتى يَنْتَهِيَ نهايتَهُ [وهي][2] بلوغُ اليَقينِ ودَرْكُ الصوابِ.

فلذلكَ حَمَلَ أهلُ التفسيرِ تأويلَ الظَّنِّ ههنا على اليقينِ والعِلْمِ: أنَّ ذلكَ نهايةُ للظَّنِّ، وحَمَلَ أبو بكرٍ على الشَّكِّ لِما تَرْتَفِعُ الشُّبْهَةُ كلُّها في ما كانَ طريقَ معرفتِهِ الاجتِهادُ. / ٦٣١ ـ أ/

ومِثالُ الظَّنِّ ههنا الخوفُ الذي ذَكَرْنا أنهُ قد يُسْتَعْمَلُ في مَوضِعِ العلمِ لأنَّ الخوفَ إذا بَلَغَ غايتَهُ صارَ عِلْماً كالذي يُهَدَّدُ بالقتلِ أو بِقَطْعِ عُضْوٍ بِشُربِ الخمرِ [مُدَّعِياً][3] أنهُ يُباحُ لهُ الشُّرْبُ، ويُجْعَلُ كالمُتَيَقِّنِ أنهُ بهِ لا محالةَ لوِ امْتَنَعَ عنِ الشُّرْبِ لِبلوغِ الخَوفِ نهايتَهُ، وإنْ لم يكُنْ في الحقيقةِ مُتَيَقِّناً، لِما يجوزُ أنْ يَحْصُلَ بهِ ما يَمْنَعُهُ مِنَ القتلِ، فَعَلَى ذلِكَ الحُكْمُ في الظَّنِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ للحسابِ الذي يُحَصَّلُ عليهِمْ، فلا يجدونَ منهُ مَخْرَجاً، فَيَتَخَلَّصونَ مِنَ العذابِ، ليسَ على ما يُحَصَّلُ عليهِ الحسابُ في الدنيا، يَجِدُ [المرءُ][4] لنفسِهِ الخلاصَ ووجهَ المخرجِ منهُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سَمّاهُ عظيماً لما ذَكَرْنا مِنْ دَوامِ عذابِهِ ودَوامِ عقابِهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي لحكمِهِ أو لحسابِهِ أو لوعدِهِ ووعيدِهِ، أو يقومونَ لهُ مُسْتَسْلِمينَ خاضِعينَ بجملَتِهِمْ، وإنْ كانَ البعضُ منهمْ وُجِدَ منهُ الإمْتِناعُ عنِ الإسْتِسْلامِ في الدنيا؛ فإنَّ الظَّلَمَةَ يُنازِعونَهُ، ويَدَّعونَ لأنفسِهِمْ أشياءَ، فَيُنْكِرونَهُ[5]. فأمّا يومُ القيامةِ فإنهمْ جميعاً يُقِرّونَ لهُ، ويَنْقادونَ لِحُكْمِهِ وقضائِهِ، لِذلكَ خَصَّهُ بِقيامِ الناسِ لهُ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ قالَ الحسنُ وأبو بكرٍ: حَقّاً، أي بَعثُهُمْ حقٌّ، فَيُبْعَثونَ. وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿كَلَّآ﴾ حرفُ رَدْعٍ وتَنْبيهٍ، أي ليسَ الأمرُ على ما ظَنُّوا أنهمْ لا يُبْعَثونَ، بل يُبْعَثونَ، ويُجازَوْنَ بأعمالِهِمْ، فيكونُ في هذا إيجابُ القولِ بالبعثِ مِنْ طَريقِ الاسْتِدْلالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ اخْتُلِفَ في السِّجِّينِ؛ فمنهمْ مَنْ جَعَلَهُ اسْمَ موضعٍ، وأشارَ إليهِ فقالَ: هو صخرةٌ تحتَ الأرضِ السابعةِ، يُوضَعُ كتابُ الفُجّارِ[6] تحتَهُ إلى يومِ القيامةِ.

---

(١) في الأصل وم: تدبر. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: فينكرون له.
(٦) في الأصل وم: الكافر.

ولكنْ [ليس][1] بنا إلى معرفةِ ذلكَ الموضعِ حاجةٌ، لأنَّ الذينَ امْتُحِنوا بِجعلِهِ في ذلكَ الموضعِ [قد عرفوه][2] وهمُ الملائكةُ.

ومنهمْ مَنْ زَعَمَ أنهُ حرفٌ موجودٌ في كتبِ الأوَّلِينَ، فَذُكِرَ ذلكَ في القرآنِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ المَقْصودُ يَتحقَّقُ بدونِ الإشارةِ إليهِ، وجائزٌ أنْ يكونَ السِّجِّينُ المَوضِعَ الذي أُعِدَّ للكافرينَ في الآخِرَةِ للعذابِ.

ولكنْ أوَّلَ ما يَرِدُ عَمَلُهُ الذي أثبَتَ في كتابِهِ، ثم يلْحَقُ بهِ الروحُ، ثم يَتْبَعُهما جَسدُهُ في الآخِرَةِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: «الدنيا سِجْنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ والآخِرَةُ سِجْنُ الكافرِ وجنةُ المؤمنِ» [بنحوِهِ: مسلم: ٢٩٥٦] فَيَرِدُ كتابُهُ إلى ذلكَ السِّجْنِ، ويَرِدُ كتابُ الأبرارِ إلى الجنةِ التي أُعِدَّتْ لهُ، ثم تَتْبَعُهُ روحُهُ ثم جَسَدُهُ فذلكَ قولُهُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [الآية: ١٨].

ومنهمْ مَنْ قالَ على التمثيلِ، ليسَ على تحقيقِ المَكانِ في العِلِّيِّينَ؛ وذلكَ أنَّ السِّجْنَ، هو مكانُ أهلِ الخُبْثِ في الدنيا، فَمُثِّلَتْ أعمالُهُمْ بذلكَ لِخُبْثِها وقُبْحِها، ومُثِّلَتْ أعمالُ الأبرارِ بِما ذَكَرَ مِنَ العِلِّيِّينَ؛ وذلكَ مكانُ أهلِ الشَّرَفِ وأولي القَدْرِ، فَيُكَنِّي بذلكَ كِنايةً عنْ طيبِ أعمالِهِمْ.

وقالَ الكسائيُّ: السِّجِّينُ مُشتَقٌّ مِنَ السِّجْنِ، كقولِكَ: رجلٌ فِسِّيقٌ وشِرِّيبٌ وسِكِّيتٌ.

ثم ذَكَرَ كتابَ الفُجّارِ، والفجورُ يكونُ بالكُفرِ وبِغَيرِهِ، فهذا اسْمٌ يَقَعُ بِهِ الاِشْتِراكُ بينَ أهلِ الكُفرِ وأهلِ الإسلامِ، لكنهُ ألْحِقَ عندَ التفسيرِ بما يجوزُ صَرْفُ الوعيدِ إلى الكُفّارِ بقولِهِ: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الآية: ١٠] وكذلكَ نَجِدُ هذا الشرطَ مُلْحَقاً بالتفسيرِ في جميعِ ما جَرَى بهِ الوعيدُ بالاِسْمِ الذي يَقَعُ بهِ الاِشْتِراكُ مِنْ نَحْوِ الفِسْقِ وتَرْكِ [الصلاةِ][3] بقولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] وفي ما جَرَى مِنَ الوعيدِ في الذي لا يُؤتي الزكاةَ، فكانَ في ذِكْرِ التفسيرِ على تَقْيِيدِهِ بالتكذيبِ قَطْعُ الشهادةِ وإيجابُ العذابِ على المُكَذِّبينَ.

وفي ذِكْرِ الاِسْمِ الذي يقعُ بهِ الاِشْتِراكُ إيجابُ الخوفِ على المسلِمينَ الذينَ أَشْرَكوا في ذلكَ، فَتَرَكَ قَطْعَ الشهادةِ عليهِمْ بالوعيدِ بِما لم يَذْكُرْ عندَ التفسيرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ فهو تعظيمُ ذلكَ اليومِ وَوَصْفُهُ بِنِهايةِ الشِّدَّةِ، أو على الاِمْتِنانِ على نَبِيِّهِ ﷺ أنهُ لم يكُنْ يَعْلَمُ ذلكَ حتى أَطْلَعَهُ اللهُ عليهِ. وهكذا تأويلُ قولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [الآية: ١٩].

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أيِ الكتابُ الذي في السِّجِّينِ مَرْقومٌ. والمَرْقومُ: قالوا: مكتوبٌ ومُثْبَتٌ، والرَّقْمُ هو الإعلامُ؛ يقالُ: رَقَمَ الثوبَ إذا عَلِمَهُ. فجائزٌ أنْ يكونَ عِلْمُهُ، هو أنْ يُخْتَمَ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ أنهُ لا يُزادُ على قَدْرِ ما عَمِلَ، ولا يُنْقَصُ منهُ[4]، وهو كما ذَكَرْنا مِنَ الفائدةِ في ما وَصَفَ جبرائيلَ ﷺ، بالقوةِ والأمانةِ بقولِهِ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ٢٠و٢١] فَوَصَفَهُ بالأمانةِ لِيُؤْمَنَ الخَلْقُ عنْ خِيانَتِهِ في الكتابِ وتَغْييرِهِ، وَوَصَفَهُ بالقوةِ لِيُعْلِمَ أنَّ غيرَهُ لا يَتَهَيّأ لهُ أنْ يَنْتَزِعَ منهُ ما أرسلَ على يدِهِ، ويُغَيِّرَهُ. فكذلكَ وَصَفَهُ بالخَتْمِ والإعلامِ لِيُؤْمَنَ مِنَ الزيادةِ والنُّقْصانِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي للمكَذِّبينَ بجميعِ ما يَحِقُّ عليهِمْ تَصْديقُهُ، وذلكَ يكونُ بالإيمانِ باللهِ تعالى وبآياتِهِ ورسُلِهِ وبالبعثِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فالدينُ اسْمٌ لِشيئَينِ: اسْمٌ للجزاءِ واسْمٌ لِلاِسْتِسلامِ والخُضوعِ؛ فَيُسَمَّى يومُ الدينِ لِما يُدانونَ بأعمالِهِمْ أو لِما يَسْتَسْلِمونَ للهِ تعالى في ذلكَ اليومِ، ويَخْضَعونَ لهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، في الأصل: فعرفوه. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منها.

وفي تكذيبِهِمْ بيومِ الدينِ تكذيبٌ لِقدرةِ اللهِ تعالى وتكذيبُ رسُلِهِ، لأنَّ الرسُلَ كانوا يَدْعونَهُمْ إلى الإيمانِ بيومِ الدينِ، فكانوا يُكَذِّبونَهُمْ بِتكذيبِهِمْ بذلكَ اليومِ، فيكونُ تأويلُهُ مُنْصَرِفاً إلى ما ذَكَرْنا مِنْ تكذيبِهِمْ بجميعِ ما يَحِقُّ التَّصديقُ بِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فالمُعْتَدي هو الذي يَتَعَدَّى حدودَ اللهِ تعالى، والأثيمُ الذي يأثَمُ بربِّهِ، فتكونُ مُجاوَزَتُهُ عنِ الحدودِ والتَّأثيمُ بربِّهِ، هو الذي يَحْمِلُهُ على التَّكذيبِ، وإلّا لو قامَ بِحِفْظِ حدودِهِ، لم يأثَمْ بربِّهِ، لكانَ لا يُكَذِّبُ بيومِ الدينِ، أو يكونُ فيهِ إخبارٌ أنَّ المُكَذِّبَ بِهِ مُعْتَدٍ أثيمٌ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلُ الأوّلينَ. وقالَ أبو عُبَيْدَةَ: الأساطيرُ، هي التي لا أصلَ لها. ومعناهُ عندَنا: ما سَطَرَهُ الأوّلونَ، أي كَتَبَهُ؛ فالسَّطْرُ الكِتابةُ، فَيُخبِرونَ أنها ليسَتْ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، بل ممّا كَتَبها الأوّلونَ التي[1] لا نظامَ لها، ولم يكونوا[2] يقولونَ هذا في كلِّ ما يَتْلو عليهِمْ مِنْ أنباءِ الأوّلينَ، وكانوا يَنْسُبونَهُ إلى السِّحْرِ، إذا أتاهُمْ بالآياتِ المُعْجِزاتِ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قيلَ: الرَّينُ السِّتْرُ والغِطاءُ، وقيلَ: الرَّينُ الصَّدأُ. فاللهُ تعالى سَمّى الإيمانَ الذي، هو في النهايةِ مِنَ الخيراتِ، نوراً، وسَمّى الكُفْرَ الذي، هو في النهايةِ مِنَ الشرورِ، ظُلْمةً.

فإذا كانَ الإيمانُ مُنَوِّراً للقلبِ، والكُفْرُ مُظْلِماً، فإذا اشْتَغَلَ بالأسبابِ الداعيةِ إلى الكُفْرِ شيئاً بعدَ شيءٍ مِنَ الآثامِ، فكلُّ سببٍ مِنْ ذلكَ يَعْمَلُ في إظلامِ القلبِ حتى تَتِمَّ الظُّلْمةُ على ما رُوِيَ عنْ أبي هريرةَ ﷺ أنَّ الرسولَ ﷺ سُئِلَ عن هذهِ الآيةِ، فقالَ: «هو العبدُ يُذْنِبُ الذنبَ فَتُنْكَتُ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سَوداءُ، فإنْ تابَ منها صَقَا قلبُهُ، وإنْ لم يَتُبْ، فعادَ، فأذْنَبَ، نُكِتَتْ في قلبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ، وإنْ عادَ نُكِتَتْ في قلبِهِ حتى يَسْوَدَّ القلبُ أجمعُ» [بنحوه: الترمذي: ٣٣٣٤].

فذلكَ الرَّينُ، ومَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ شيئاً فَشيئاً بأسبابٍ تَتَقَدَّمُ الإيمانَ حتى يَحْمِلَهُ ذلكَ على الإيمانِ، فذلكَ تَمامُ الإنْشِراحِ.

وعلى هذا يُخَرَّجُ تأويلُ ما رُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ / ٦٣١ ـ ب/ أنَّ الإيمانَ يَبْدو لُمْظَةً بيضاءَ في القلبِ، كلّما ازْدادَ عِظَماً ازْدادَ ذلكَ البياضُ، فإذا اسْتَكْمَلَ الإيمانُ ابْيَضَّ القلبُ كلُّهُ.

ومَعْنَى قولِهِ: يَبْدو لَمْظَةً في القلبِ بيضاءَ إلى قولِهِ: [ابْيَضَّ القلبُ كلُّهُ][3] عندنا بالأسبابِ الداعيةِ إلى الإيمانِ، فلا يَزالُ يَنْشَرِحُ منهُ [شيئاً فشيئاً][4] حتى يُؤْمِنَ، لا أنْ يكونَ الإيمانُ ذا أجزاءٍ، ولكنَّ للإيمانِ مُقَدَّماتٍ يَنْشَرِحُ [شيئاً فشيئاً][5] بكلِّ مُقَدِّمةٍ منهُ حتى يُفْضِيَ بِهِ إلى الإيمانِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمّى السواتِرَ[6] عنِ الإيمانِ أسامِيَ[7]: مَرَّةً قالَ: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٩٣و...] ومَرَّةً قالَ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الآية [الأنعام: ٢٥ و...] ومَرَّةً قالَ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فكانَ الذينَ وُصِفوا بالقُفْلِ على قلوبِهِمْ، همُ الذينَ انْتَهَوا في الكُفْرِ غايتَهُ، حتى لا يُطْمَعَ منهمُ الإيمانُ، وهمُ المُتَمَرِّدونَ المُعْتَقِدونَ التكذيبَ، وهمُ الرؤساءُ منهمْ والأئِمَّةُ.

ومنهمْ مَنْ هو مَطْبوعٌ على قَلْبِهِ، وهمُ الذينَ اعْتَقَدوا الكُفْرَ لا عَنْ تَمَرُّدٍ وعِنادٍ، ولكنْ لِما لم تُلْمَحْ[8] لهمُ الأسبابُ الداعيةُ إلى الإيمانِ.

وذَكَرَ الزَّجاجُ أنَّ أوّلَ منازلِ السِّتْرِ الغَبْنُ، وهو السِّتْرُ الرقيقُ كالسَّحابِ الرَّقيقِ في السماءِ يَعْمَلُ في غشاءِ القلبِ غشاءَ السَّحابِ الرقيقِ بلونِ السماءِ، ثم إذا زادَ سُمِّيَ رَيناً، ثم يَرْتَقي إلى الطبعِ إلى أنْ يَصيرَ كالقُفْلِ على القلبِ؛ وفي هذا دليلٌ على أنَّ للهِ تعالى تدبيراً وصُنْعاً في أفعالِ العبادِ، لأنهُ أنشأ لِلكُفْرِ ظُلْمةً في القلبِ حتى تَمْنَعَهُ تلكَ الظُّلْمةُ عن دَرْكِ الخيراتِ

---

(١) في الأصل وم: الذين. (٢) في الأصل وم: يكن. (٣) في الأصل وم: حتى يستكمل الإيمان. (٤) و(٥) في الأصل وم: شيء فشيء. (٦) من م، في الأصل: التواتر. (٧) في الأصل وم: بأسامي. (٨) في الأصل وم: تلج.

ونورِ الإيمانِ؛ إذْ كلُّ مَنْ اعتقَدَ الكفرَ فهو ليسَ يَعْتَقِدُهُ لِيَمْنَعَهُ عن دَرْكِ الأنوارِ، وإذا لم يوجَدْ منهُ هذا يُثْبِتُ أنهُ صارَ كذلكَ بتدبيرِ اللهِ تعالى وصُنْعِهِ؛ إذْ لا يجوزُ أنْ تَحْدُثَ ظُلْمةٌ في القلبِ إلّا بِمُحْدِثٍ لها، وإذا انْتَفَى الصُّنْعُ مِنَ الكافرِ[1] ثَبَتَ أنهُ بِتَدْبيرِ اللهِ تعالى ما صارَ كذلكَ، وأنهُ أنشأهُ مُظْلِماً، واللهُ المُوفقُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فذكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ هذا في الدنيا؛ يقولُ: إنهمْ حُجِبوا عنْ عبادةِ ربِّهِمْ بما عَبَدوا غَيرَ اللهِ تعالى، فصارتْ عبادَتُهُمْ غيرَ اللهِ حجاباً عنْ عبادتِهِ.

وذَكَرَ أهلُ التفسيرِ أنَّ هذا في الآخِرَةِ؛ ثم منهمْ مَنْ يقولُ: إنهمْ حُجِبوا عنْ لِقاءِ ربِّهِمْ، وأوجَبوا بهذا القولِ الرؤيةَ للمؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: هُمْ محجوبونَ: أي عنْ كرامتِهِ[2] التي أعَدَّها لأوليائِهِ وعنْ رحمتِهِ، فعوقِبوا بالحَجْبِ عنْ ذلكَ جزاءَ لِصَنيعِهِمْ، لأنهمْ في الدنيا ضَيَّعوا نِعَمَ اللهِ تعالى، فلمْ يَتَقَبَّلوها بالشكرِ، ولم يُؤمِنوا برسولِهِ الذي بعثَهُ رحمةً للعالَمينَ، فأُبْلِسوا منْ رحمتِهِ وكَرامتِهِ في الآخِرَةِ عقوبةً لهمْ ومُجازاةً، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَعَلَهُمْ كالشيءِ المَنْسِيِّ الذي لا يُعْبَأُ بِهِ، فَعَلَى ما [وُجِدَ منهمْ][3] مِنَ المعاملةِ لآياتِهِ وحُجَجِهِ بِتَرْكِهِمُ الالْتِفاتَ إليها عُومِلوا بِمِثْلِهِ في الآخِرَةِ وكقولِهِ[4] في آيَةٍ أُخرى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥].

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ فَمَنْ صَرَفَ الحَجْبَ إلى الدنيا فهو يقولُ: ثم إنهمْ يَصْلَونَ الجَحيمَ بَعدَ ما عَبَدوا غَيرَ اللهِ تعالى، وانْحَجَبوا[5] عنْ عبادتِهِ. ومَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى أمرِ الآخِرَةِ فهو يقولُ: إنهمْ يَصْلَونَ الجَحيمَ بعدَ ما ظَهَرَ فيهمْ مِنْ أثَرِ الحِجابِ منْ سَوادِ الوجوهِ وإعطاءِ الكتابِ بِشِمالِهِمْ ومنْ وراءِ ظُهورِهِمْ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تأويلُهُ أنهمْ يُعَرَّفونَ أنهمْ صَلُوها بتكذيبِهِمْ بها، وحُجِبوا عنِ اللهِ بتكذيبِهِمْ بذلكَ اليومِ؛ وإلّا لو آمَنوا، وأقَرّوا أنَّ النارَ حقٌّ، والبعثَ حقٌّ، لم يكونوا يَصْلَونَها، فَيُعَرَّفونَ حتى يُقِرّوا بذلكَ بقولِهِ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

الآيات ١٨ و ١٩ و ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾][6] [ذَكَرَ الأبرارَ][7] ههنا مُقابلَ الفُجّارِ في الأوّلِ، ثم بَيَّنَ الفُجّارَ أنهمُ المُكَذِّبونَ بيومِ الدينِ، وذلكَ أوّلُ مَنازِلِ الكفرةِ، فإذا أُريدَ بالفجارِ الكُفارُ، وأُريدَ بالأبرارِ الذينَ آمَنوا، فلذلكَ قال[8]: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ هُمُ المؤمنونَ، والبَرُّ، هو الذي يَكْثُرُ منهُ تَعاطي فِعْلِ البِرِّ، يُسَمّى بارّاً إذا كَثُرَ منهُ البِرُّ، والفاجِرُ، هو الذي يَكْثُرُ منهُ فعلُ الفُجورِ.

فجائزٌ أنْ يكونَ الوَعيدُ في الذينَ بَلَغوا في الفجورِ غايتَهُ، ويكونَ حكمُ مَنْ دُونَهُمْ مَتروكاً ذِكْرُهُ، فَيُوصَلُ إلى معرفةِ حكمِهِ بالاسْتِدْلالِ، ويكونَ الوعدُ في الذينَ أكْثَروا أفعالَ البِرِّ، ويكونَ حكمُ مَنْ دُونَهُمْ مَعْروفاً بِغَيرِهِ مِنَ الأدِلَّةِ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فَذَكَرَ شهودَ المُقَرَّبينَ في كتابِ الأبرارِ، ولم يَذْكُرْ شُهودَهُمْ عندَ ذِكْرِ كتابِ الفُجّارِ؛ فجائزٌ أنْ يكونَ شُهودُهُمْ على التَّعظيمِ بِعِلْمِهِ والدعاءِ لهُ وغَيرِ ذلكَ.

وقيلَ: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هُمْ مُقَرَّبو أهلِ كلِّ السماءِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ فالبَرُّ، هو الذي يَبْذُلُ ما سُئِلَ عنهُ، ويُجيبُ إلى ما دُعِيَ إليهِ، فإذا أجابَ اللهَ تعالى في ما دَعاهُ إليهِ مِنَ التوحيدِ، وَوَفّى بأوامِرِهِ، وانْتَهَى عنْ مَناهيهِ، فهو مِنَ الأبرارِ.

ثم ما ذَكَرْنا يكونُ بوجهَينِ:

أحَدُهما: بالاعْتِقادِ وبِتَحقيقِهِ بالفعلِ والمُعاملةِ، فهذا قد وَفّى بما طُلِبَ منهُ قولاً وفعلاً، فيكونُ هذا مِمَّنْ يُقْطَعُ فيهِ القولُ باسْتيجابِ الوعدِ المذكورِ للأبرارِ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: الكلام. (٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ذَكَرَ الله. (٣) في الأصل وم: وجدت.
(٤) في الأصل وم: قال. (٥) في الأصل وم: وحجبوا. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: قيل.

والثاني: أنْ يقومَ بوفاءِ ما طُلِبَ منهُ اعْتِقاداً، ولم يَفِ ما اعْتَقَدَهُ بِفِعْلِهِ. فالحكمُ في مثلِهِ الوَقفُ، ولا يُقْطَعُ فيهِ القولُ باسْتيجابِ المَوعودِ، بل للهِ تعالى أنْ يُجازِيَهُ بما ضَيَّعَ مِنْ حِفْظِ حدودِهِ بِقَدْرِ ما وَجَدَ مِنَ التَّضْييعِ، ثم يُلْحِقَهُ بأهلِ كرامتِهِ، ولهُ أنْ يَعْفُوَ عنهُ بفضلِهِ وَسَعَةِ رحمتِهِ.

والفجورُ، هو المَيلُ، والمَيلُ يكونُ بِوَجْهَينِ:

أحَدُهما: بِتَركِ الاعْتِقادِ والفعلِ جميعاً.

[والثاني: بميلٍ][1] في المُعاملةِ؛ وهو أنْ يُخالفَ فِعْلُهُ عَقْدَهُ.

فالذي وُجِدَ منهُ المَيلُ عنِ الوجْهَينِ جميعاً يَحُلُّ به ما أوعَدَ، لا مَحالةَ.

وأمّا الذي خالَفَ فعلُهُ عقدَهُ فإنهُ يُوقَفُ فيهِ، ولا يُشْهَدُ أنهُ مِنْ جُمْلةِ مَنْ يَلْحَقُهُمُ الوعيدُ، لا مَحالةَ.

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ البِرَّ إذا ذُكِرَ على الانْفِرادِ أُريدَ بهِ ما يُرادُ بالتَّقْوى والبِرِّ[2] جميعاً، وكذلكَ التَّقْوى إذا أُفْرِدَ اقْتَضى مَعْنى البِرِّ. فإذا قُرِنا جميعاً أُريدَ بالتَّقْوى جِهَةٌ وبالبِرِّ جِهَةٌ؛ وذلكَ أنَّ التَّقْوى، هو أنْ يَتَّقِيَ المَهالكَ؛ وذلكَ يكونُ بالإجابةِ إلى ما دُعِيَ إليهِ قَولاً وفِعْلاً والانْتِهاءِ عمّا نُهِيَ عنهُ قَولاً وفِعْلاً، وهذا هو مَعْنى البِرِّ أيضاً.

فإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بالتَّقْوى الاجْتِنابُ عنِ المَحارِمِ، وأُريدَ بالبِرِّ إتيانُ المَحاسِنِ.

وكذلكَ الإيمانُ إذا ذُكِرَ بالانْفِرادِ أُريدَ بهِ ما يَقْتَضي الإسلامُ مِنَ المَعْنَى والإيمانُ جميعاً. وكذلكَ الإسلامُ يَقْتَضي مَعْنَى الإيمانِ إذا ذُكِرَ بالانْفِرادِ، لأنَّ الإسلامَ، هو أنْ تَرَى الأشياءَ كلَّها سالمةً للهِ تعالى، لا يُجْعَلُ لأحدٍ فيها شِرْكٌ[3]،

والإيمانُ أنْ تصدِّقَ اللهَ تعالى بأنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ. وإذا صَدَّقْتَ أنهُ ربُّ كلِّ شيءٍ فقد جَعَلْتَ الأشياءَ كلَّها سالمةً لهُ.

فهذا مَعْنَى قولِنا[4]: إنهُ يُرادُ بالإيمانِ إذا ذُكِرَ بالانْفِرادِ ما يُرادُ بالإسلامِ. فإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بالإسلامِ ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ مِنْ جَعْلِ الأشياءِ كلِّها سالمةً لهُ، وأُريدَ بالإيمانِ ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥].

وكذلكَ الحكمُ في الخَوفِ والرَّجاءِ إذا ذُكِرَ كلُّ واحدٍ مِنَ الحرفَينِ مُنفَرِداً اقْتَضى / ٦٣٢ ـ أ/ كلُّ واحدٍ منهما مَعْنَى الآخَرِ. وإذا ذُكِرا معاً أُريدَ بكلِّ واحدٍ منهما ما يَقْتَضيهِ ظاهِرُهُ، ولم يُصْرَفْ إلى ما يُرادُ بالآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ؛ يصفُهُمْ أنهمْ أبداً في نَعيمٍ، وجائزٌ أنْ يكونوا في نَعيمِ الدنيا والآخِرَةِ؛ فيكونونَ في الدنيا في نَعيمِ العقولِ دونَ نَعيمِ الأبدانِ، وذلكَ أنهمْ يُطيعونَ العقلَ في ما يَدْعوهمْ إليهِ، فَيَتَنَعَّمونَ بعقولِهِمْ؛ وهمُ[5] الذينَ تدعوهُمْ إليهِ عقولُهُمْ لِما تأبَى أنفسُهُمُ الإجابةَ لهُ، ويَشْتَدُّ عليها ذلكَ، فهمْ في نَعيمِ العقولِ لا في نَعيمِ الأبدانِ.

ونَعيمُ الآخِرَةِ نَعيمُ البَدنِ والعقلِ جميعاً، فَتَتَنَعَّمُ أنفسُهُمْ وعقولُهُمْ، ولا يُحَمَّلونَ ما تأبَى أنفسُهُمُ احتِمالَهُ[6]؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١] وقالَ تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ الآية [النحل: ٩٧] فَثَبَتَ أنهمْ في الدنيا والآخِرَةِ ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ كلَّ ما تَتَشَوَّقُ الأنفسُ، وتَشْتَهي في الدنيا، فَعَلَى مثلِهِ جَرَتِ البِشارةُ لأهلِ الجنةِ في الدنيا.

وذُكِرَ أنَّ أهلَ اليمنِ، كانَ إذا شَرُفَ قَدْرُ أحدِهِمْ، وعَلَتْ رُتْبَتُهُ في الدنيا، اتَّخَذَ لنفسِهِ أريكةً نُسِبَتْ إليهِ؛ فَيُقالُ: هذهِ أريكةُ فلانٍ، فَجَرَتِ البِشارةُ لأهلِها بالأرائكِ لِما يُرْغَبُ إلى مثلِها في الدنيا، لا أنَّ أرائِكَها شَبيهةٌ بالأرائكِ التي تُتَّخَذُ في

---

(١) في الأصل وم: وميل. (٢) في الأصل وم: أو البر. (٣) في الأصل وم: شركاً. (٤) في الأصل وم: قوله. (٥) في الأصل وم: يكن.
(٦) في الأصل وم: احتمالها.

الدنيا لأنَّ أرائكَ الجنةِ مُطَهَّرةٌ مِنَ الآفاتِ التي هي آثارُ الفَناءِ، لكنّها ذُكِرَتْ بهذا الاِسْمِ لِما لا وَجْهَ لِلْوُصولِ إلى تَعَرُّفِها بِغَيرِ الاِسْمِ المُعْتادِ في ما بَيْنَ الخَلْقِ، والأريكةُ هي السريرُ في الحِجالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجهَينِ][1]:

أحَدُهما: أنْ يَقَعَ النَّظَرُ في الحَجَلِ، وذلكَ عندَ تَلاقي الإخوانِ واجْتِماعِهِمْ على الشرابِ.

والنَّظَرُ الثاني: يكونُ إلى مملكَتِهِ، فيكونُ ذلكَ خارجاً مِنَ الحِجالِ على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنةِ لَيَرَى جميعَ مالَهُ بنظرةٍ واحدةٍ، وأقلُّ ما يُعْطَى الرجلُ مثلُ سَعَةِ الدنيا وعَرْضِها».

فذلكَ النَّظَرُ يَتَجاوَزُ عمّا في الحِجالِ، فَيَقَعُ خارجاً عنها.

الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي تَعْرِفُ لو نَظَرْتَ في وجوهِهِمْ نَظْرَةَ النَّعيمِ. فجائزٌ أنْ تكونَ النَّظْرَةُ مُنْصَرِفةً إلى نفسِ الخِلْقةِ، وهي[2] انهمْ أُنْشِئوا على خِلْقةٍ لا تَتَغَيَّرُ، ولا تَفْنَى، بل [تَزْدادُ][3] بَهْجَةً ونَضْرَةً، أو تكونَ نَضارَتُهُمْ بِما أُنْعِموا مِنَ النَّعيمِ.

ثم خُصَّتِ الوجوهُ [لأمرَينِ:

أحَدُهُما][4]: لأنَّ النَّظَرَ مِنْ بعضٍ إلى بعضٍ يكونُ إلى الوجوهِ لا إلى غَيرِها مِنَ الأعضاءِ، فَخُصَّتِ الوجوهُ بالذِّكْرِ لهذا، لا أنْ تكونَ النَّضْرَةُ لها خاصّةً، بل النَّضْرَةُ تَشْتَمِلُ سائرَ البدنِ.

والثاني: لأنَّ السرورَ إذا اشْتَدَّ في القلبِ أثَّرَ في الوجوهِ، وكذلكَ الحزنُ يُؤثِّرُ في الوجهِ إذا اعْتَرَى القلبَ، فيكونُ في ذِكْرِهِ ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ إخبارٌ عنْ غايةِ ما هُمْ عليهِ مِنَ السرورِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الرحيقُ، هو الخمرُ الذي لا غِشَّ فيهِ، وهو أنْ يكونَ مُطَهَّراً مِنَ الآفاتِ. وقالَ بَعْضُهُمْ: هو شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ لأوليائِهِ، لم يُطْلِعْهُمْ على ماهِيَّتِهِ في الدنيا على ما قالَ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] فهو شرابٌ، تَقَرُّ بهِ أعيُنُهُمْ، ممّا أُخْفِيَ لهمْ إلى الوقتِ الذي يَشْرَبونَهُ.

الآية ٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ راجعاً إلى حالِ الإناءِ الذي كانوا يُؤْثِرونَهُ في الدنيا، وأخبرَ أنَّ خِتامَهُ بأنفسِ شيءٍ عَرَفوهُ في الدنيا، وهو المِسْكُ، ليسَ كالخِتامِ في الدنيا، لأنهمْ يَخْتُمونَ أوانِيَهُمْ في الدنيا بالشيءِ الرَّذْلِ وبما لا قَدْرَ لهُ عندَهمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الشارِبِينَ: إنهمْ لا يَشْربونَ أبداً، بل يكونُ لهُ خَتْمٌ، ولكنْ لا تَنْقَطِعُ لَذَّةُ الشرابِ عنهمْ، بل أبداً يَجِدونَ منْ ذلكَ ريحَ المِسْكِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ أرادَ بهِ الشرابَ الذي وَصَفَهُ في قولِهِ: ﴿رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ والتنافُسُ حرفٌ يُسْتَعْمَلُ في الخَيراتِ؛ كأنهُ يقولُ: فَلْيَرْغَبوا في الشرابِ الذي هذا وَصْفُهُ الذي ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] لا في الشرابِ الذي [يَذْهبُ][5] بالعقولِ، ويُضْعِفُ [الأبدانَ، ويُتْلِفُ][6] الأموالَ. أو فَلْيَتَنافَسوا في النعيمِ الذي وَصَفَ ههنا لا في النعيمِ [الذي][7] يَنْقَطِعُ، ولا يدومُ؛ فكأنهُ يقولُ: فَلْيَرْغَبوا في ما يُعْقِبُ لهمُ النعيمَ الدائمَ والشرابَ الذي لا تَنْقَطِعُ لَذَّتُهُ.

وقيلَ: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ ما بَقِيَ في الكأسِ مِنَ البقيةِ يكونُ ذلكَ مِسْكاً. والتّنافُسُ إنما يكونُ في المُسارعةِ في الخَيراتِ وتَرْكِ الاِتّباعِ للشَّهواتِ والاِنْتِهاءِ عنِ المَعاصي، وهو كقولِهِ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أي فَلْيَكُنْ عملُهُمْ لِما يُثْمِرُ لهمْ ما ذَكَرَ مِنَ النعيمِ، لا في الذي يَنْقَطِعُ، ويكونُ عُقْباهُ النارُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، في الأصل: يتلف. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

الآية ٢٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قيلَ: التسنيمُ شيءٌ أعَدَّهُ اللهُ تعالى لأوليائِهِ، لم يُطْلِعْهُمْ عليهِ في الدنيا، وهو ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] التي لا تَعْلَمُها الأنفسُ: فوصَفَ مَرَّةً المِزاجَ[1] بالمِسْكِ ومَرَّةً بالكافورِ بقولِهِ: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] ومَرَّةً أخبَرَ أنهُ ممزوجٌ بالتَّسْنيمِ، ولم يُبَيِّنْ ما التَّسْنيمُ، والسَّنامُ ما ارْتَفَعَ مِنَ الشيءِ؛ فيجوزُ أنْ سَمَّى تسنيماً لأنهُ يَنْحَدِرُ إليهِمْ مِنَ الأعلَى، وأخبَرَ أنهُ ممزوجٌ بما إلى مثلِهِ تَرْغَبُ الأنفسُ في الدنيا، وتَشتاقُ إليهِ. ألَا تَرَى أنَّ الشرابَ في الدنيا إذا كانَ مَمْزوجاً فهو في القلوبِ أوقعُ منهُ، وتكونُ الأنفسُ إليها أرغَبَ منه إذا كانَ غَيرَ ممزوجٍ، فرُغِّبوا بمثلِهِ في الآخِرَةِ؟

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التفسيرِ أنَّ المُقَرَّبينَ يُسْقَونَ مِنْ ذلكَ الشرابِ صِرْفاً، ويُمْزَجُ لِغَيرِهِمْ.

وقالَ الحَسَنُ: المزاجُ يكونُ لِلْمُقَرَّبينَ وغَيرِهِمْ، وجُعِلَ المَمْزوجُ منهُ أشرَفَ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٢٨ وقولُهُ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ هُمُ الذينَ يُسارِعونَ في الخَيراتِ في الدنيا، فتَرَكوا مُنَى الأنفسِ، واتَّقَوُا المَهالِكَ والزَّلاتِ. فهمُ المُقَرَّبونَ.

وأضافَ التَّقريبَ إلى الغَيرِ لأنهمْ بِغَيرِهِمْ ما وُفِّقوا لِاكْتِسابِ الخَيراتِ، وعُصِموا عنِ ارْتِكابِ المَهالِكِ والزَّلاتِ لا بأنفسِهِمْ في الدنيا للأمورِ التي ذَكَرْنا.

الآيتان ٢٩و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾][2] فوجهُ ذِكْرِ صَنيعِ الكَفَرَةِ بالمؤمنينَ في القرآنِ وجَعْلِهِ آيةً تُتْلَى، وإنْ كانَ المؤمنونَ بذلكَ عارفينَ، يُخَرَّجُ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: في تَبْيينِ مَوقعِ الحُجَجِ في قلوبِ المؤمنينَ وعَمَلِها بهمْ؛ وذلكَ أنَّ المؤمنينَ لمّا امْتُحِنَتْ أنفسُهُمْ بِاحْتِمالِ الأذَى والمَكروهِ مِنَ الكافرينَ [الذينَ][3] انْتَصَبوا لِمُعاداةِ آبائهمْ وأجدادِهِمْ وأهاليهِمْ، رَفَضوا[4] شَهَواتِهِمْ، وتَرَكوا أموالَهُمْ، واختاروا اتِّباعَ محمدٍ ﷺ ودينَهُ، ومَعْلومٌ أنهمْ لم يُحَمِّلوا أنفسَهُمْ كلَّ هذهِ المُؤَنِ طَمَعاً ورَغْبَةً في الدنيا لِما لم يَكُنْ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ ما يُرْغَبُ في مثلِهِ مِنْ نَعيمِ الدنيا، فثَبَتَ أنَّ الحُجَجَ، هي التي حَمَّلَتْهُمْ، ودَعَتْهُمْ إلى مُتابَعَتِهِ، لا غَيرُ؛ فيكونُ في ما ذَكَرْنا تَثبيتُ رسالتِهِ، وإنْ لم يكنْ في الآيةِ إشارةٌ إلى الحُجَجِ التي اضْطَرَّتْهُمْ إلى تصديقِهِ والانْقِيادِ لهُ، فيكونُ في ذِكْرِهِ تقريرٌ لِمَنْ تأخَّرَ عنهمْ مِنَ المؤمنينَ لرسالتِهِ ﷺ.

والثاني: أنَّ أولئكَ المؤمنينَ صَبَروا على ما نالَهُمْ مِنَ المَكارِهِ، واسْتَقْبَلَهُمْ مِنْ أنواعِ الأذَى في قِيامِهِمْ بأمرِ اللهِ تعالى ليكونَ في ذِكْرِهِ تَذْكيرٌ لِمَنْ تأخَّرَ عنهمْ مِنَ المؤمنينَ أنَّ عليهِمُ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ/ ٦٣٢ ـ ب/ عنِ المُنْكَرِ وأنهُ لا عُذْرَ لهمْ في الامْتِناعِ عنِ القيامِ بما ذَكَرْنا، وإنْ نالَهُمْ مِنْ ذلكَ أذًى ومكروهٌ. بل الواجبُ عليهِمُ الصَّبْرُ على ما يُصيبُهُمْ والقِيامُ بما يَحِقُّ عليهِمْ.

[والثالثُ:][5] ذِكْرُ ما لَقِيَ الأوائلُ مِنَ السَّلَفِ مِنَ المُعاداةِ والشدائدِ مِنَ الكَفَرَةِ بإظهارِهِمْ دينَ الإسلامِ ثم [ما][6] نِلْنا نحنُ هذهِ الرتبةَ، وأُكْرِمْنا بالهُدَى بِلا مَشَقَّةٍ وعَناءٍ، لِنَشْكُرَ اللهَ تعالى بذلكَ، ونَحْمَدَهُ عليهِ لِعَظَمَةِ ثنائِهِ لِدينِنا وجَزيلِ مِنَنِهِ علينا.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ فَضِحْكُهُمْ يكونُ لأحدِ وجهَينِ:

إمّا على التَّعَجُّبِ منهمْ أنْ كيفَ اختاروا مُتابعةَ محمدٍ ﷺ وحَمَّلوا أنفسَهُمْ مِنَ الشدائدِ، ورَضُوا بزوالِ النَّعيمِ عنهمْ مِنْ غَيرِ مَنْفَعَةٍ لهمْ في ذلكَ، وهمْ قومٌ، كانوا لا يؤمنونَ بالبعثِ، يُكَذِّبونَ بما وُعِدَ المؤمنونَ مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ، فكانَ يَحْمِلُهُمْ ذلكَ على التَّعَجُّبِ، فَيَضحكونَ مُتَعَجِّبينَ منهمْ.

---

(١) في الأصل وم: بالمزاج. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: ورفضوا. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) ساقطة من الأصل وم.

[وإمّا][1] كانوا يَضحكونَ على اسْتِهْزائِهِمْ بالمؤمنينَ، ويقولونَ[2]: إنَّ هؤلاءِ آمنوا بمحمدٍ ﷺ وصَدَّقوهُ في ما يُخبِرُهُمْ مِنْ نعيمِ الآخِرَةِ، ولا يَعْرِفونَ أنهُ كذلكَ، فكانوا يُجَهِّلونَ المؤمِنينَ على ما جَهِلوا بأنفسِهِمْ، وظَنّوا أنْ لا بَعْثَ ولا جنةَ ولا نارَ.

قالَ أبو بكرٍ: المجرمُ هو الوثّابُ في المعاصي، وذَكَرَ أبو بَكْرٍ أنَّ في ذِكْرِ صَنيعِ الكُفّارِ بالمؤمنينَ دلالةَ رسالةِ النَّبِيِّ ﷺ وذلكَ أنهمْ كانوا يَضحَكونَ منَ المؤمنينَ، ويَتَغامَزونَهُمْ، ويَنْسُبونَهُمْ إلى الضلالِ سِرّاً مِنَ المُسلِمينَ، فأطْلَعَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ، على ما أسَرُّوا مِنَ الأفعالِ لِيَجْعَلَ لهمْ مِنْ أفعالِهِمْ حُجَّةً عليهِمْ لِنُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ ﷺ.

الآية ٣١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: لاهينَ، أو مُعْجَبينَ بحالِ المؤمنينَ ومسرورينَ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

الآية ٣٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فيجوزُ أنْ يكونوا نَسبوهُمْ إلى الضلالِ لِتَرْكِهِمْ دينَ آبائِهِمْ، ورَأَوا ما اختاروا مِنْ تَحَمُّلِ الشدائدِ، ورَضُوا مِنَ العيشِ ضَلالاً منهمْ.

الآية ٣٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي لم يُرسَلوا لِحِفْظِ أعمالِ المسلمينَ، فيكونُ في ذِكْرِ هذا تَسْفيهُ أحلامِهِمْ، وهو أنهمْ تَرَكوا النَّظَرَ في أحوالِ أنفسِهِمْ، وجَعَلوا يَعُدُّونَ على المسلمينَ عيوبَهُمْ [كأنهمْ][3] أُرسِلوا عليهمْ حُفّاظاً، وما أُرْسِلوا، أو يكونُ هذا إخباراً عنِ الكُفّارِ أنهمْ يقولونَ: ما أُرسِلَ على أحدٍ حافظٌ، يَحْفَظُ عليهِ أعمالَهُ، فيكونُ هذا على الإنكارِ منهمُ الكرامَ[4] الكاتِبينَ.

الآية ٣٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ ويكونُ ضِحْكُهُمْ على المُجازاةِ لِلْكَفَرَةِ بما كانوا يَضحَكونَ منهمْ في الدنيا.

الآية ٣٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ فمنهمْ مَنْ وقفَ على قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ ومنهمْ مَنْ رَأى مَوضِعَ الوقفِ على قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾.

فإذا وُقِفَ على قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ كانَ معناهُ أنهمْ يَنْظُرونَ هل جُوزِيَ الكُفّارُ بما أوعَدَهُمُ الرسلُ في الدنيا؟ أمْ[5] لا بَعْدُ.

وإذا وقَفْتَ على قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ﴾.

الآية ٣٦ كانَ قولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي قد جُوزِيَ الكفارُ ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فهمْ يَنْظرونَ كيفَ يُعاقَبونَ؟

ثم القولُ: أنْ كيفَ احْتَمَلَتْ أنفسُهُمُ النَّظَرَ إلى الكفارِ بما همْ فيهِ مِنَ التَّعْذيبِ؟ والمَرْءُ إذا رَأى أحداً في شدةِ العذابِ لم يَحْتَمِلْ طَبْعُهُ ذلكَ، ويَتَنَغَّصُ عليهِ العيشُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى أنْشَأهمْ على خِلْقةٍ، لا تَقْبَلُ المَكارِهَ، ولا تَجِدُها، بل تَنالُ اللَّذّاتِ كلَّها والمَسارَّ، أوِ ارْتَفَعَ عنهمُ المكروهُ لِبلوغِ العَداوةِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أهلِ النارِ غايَتَها.

وكذلكَ يُرَى المَرءُ في الشاهدِ إذا عادَى إنساناً، واشْتَدَّتِ العداوةُ في ما بَيْنَهما، ثم رآهُ يُعَذَّبُ بألوانِ العذابِ، لم يَثْقُلْ عليهِ ذلكَ، بل أحَبَّ أنْ يُزادَ منهُ.

ثم جائزٌ أنْ يُرْفَعَ إليهمْ أهلُ النارِ إذا اشْتاقوا النَّظَرَ إليهِمْ، فَيَروهُمْ[6]، أو يُجْعَلَ في بَصَرِهِمْ من القُوَّةِ ما يَنْتَهي إلى ذلكَ المكانِ.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: بكرتم.
(٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: فيرونهم.

ثم ذَكَرَ بعضُهُمْ أنَّ هذهِ السورةِ مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنها نَزَلَتْ بَينَ مكةَ والمدينةِ، وهي مكيةٌ، ومنهمْ مَنْ ذَكَرَ [أنها في][1] أوَّلَها مدنيةٌ وآخرِها مكيةٌ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][2].

(١) في الأصل وم: أن. (٢) ساقطة من م.

سورة [الانشقاق

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ هو جوابُ سؤالٍ تَقَدَّمَ لِما ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ ﴿إِذَا﴾ حَرْفُ جوابٍ، وليسَ بِحَرْفِ ابْتِداءٍ، فكأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عنْ مُلاقاةِ الأعمالِ: متى وقتُها؟.

فقالَ تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ فذلكَ[2] وقتُ مُلاقاةِ الأعمالِ.

وقيل: ذُكِرَ في الخَبَرِ أنَّ أخوَينِ: أحَدُهُما مسلمٌ، والآخَرُ كافرٌ، قالَ [الكافرُ][3] للمسلمِ: أتُراباً بعدَ الموتِ مَبْعوثونَ؟ قالَ لهُ: بَلَى والذي خَلَقَكَ ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤].

فَنَزَلَتْ هذهِ السورةُ تُبَيِّنُ لهمْ وقتَ بعثِهِمْ أنهُ عندَ انْشِقاقِ السماءِ ومَدِّ الأرضِ ونَحْوِهِ.

ثم ذِكْرُ الجوابِ في ابْتِداءِ السورةِ ليكونَ المَرْءُ أذْكَرَ لها لأنهُ يكونُ أدْعَى لها، وإذا ذُكِرَ في وَسَطِ السورةِ لم يَتَحَفَّظْ إلّا بالتِّلاوةِ. ولهذا المَعْنَى، واللهُ أعلَمُ، جُعِلَتْ: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرۚ﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿طه﴾ رؤوسَ السُّوَرِ لأنَّ الكفرةَ كانَ مِنْ عادتِهِمْ الإعراضُ عنِ القرآنِ وتَرْكُ الاسْتِماعِ إليهِ، لِيَتَفَهَّمُوهُ.

فابْتُدِئَتْ [بعضُ السُّوَرِ][4] بما ذَكَرْتُ مِنَ الرموزِ والإشاراتِ ليَحْمِلَهُمْ ذلكَ على التَّفَكُّرِ فيهِ والنَّظَرِ، إذْ لم يَسْبِقْ منهمُ[5] العلمُ بمعرفةِ ما يُرادُ منْ قولِهِ تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓرۚ﴾.

ثم ذِكَرَ انْشِقاقِ السماءِ ومَدِّ الأرضِ وإلقائها لِما جَعَلَ فيها لِيَعْرِفوا شدةَ ذلكَ اليومِ، فَيَخافوهُ، ويَسْتَعِدُّوا لهُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ قيلَ: سَمِعَتْ لِرَبِّها، وأطاعَتْ، وأجابَتْ إلى ما دُعِيَتْ إليهِ.

ثم المُرادُ مِنَ الإذْنِ مُخْتَلِفٌ، فَحَقُّهُ أنْ يُصْرَفَ كلُّ شيءٍ إلى ما هو الأَوْلَى بهِ.

ألا تَرَى أنكَ إذا قُلْتَ: أَذِنَ الرجلُ لعبدِهِ في التجارةِ، فلستَ تُريدُ بقولِكَ: أَذِنَ ما تُريدُ بهِ إذا أَذِنْتَ لِغَيرِكَ أنْ يَتَناوَلَ مِنْ طعامِكَ، بل تُريدُ بالإذْنِ للعبدِ الأمرَ بأنْ يَتَّجِرَ حتى إذا[6] لم يَفْعَلْ تُلْزِمُهُ على ذلكَ، وتريدُ بالآخَرِ إباحةَ التَّناوُلِ؟

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقالَ في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] فكانَ المرادُ مِنَ الإذنَينِ مُخْتَلِفاً[7].

فَثَبَتَ أنَّ حقَّهُ أنْ يَحْمِلَهُ إلى ما دعاهُ إليهِ أوجَهُ؛ وهو إلى الطاعةِ والإجابةِ ههنا / ٦٣٣ ـ أ/ أوجَهُ. لذلكَ حَمَلوهُ عليهِ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي حُقَّ لها أنْ تَسْمَعَ، وتُطيعَ. وجائزٌ أنْ تكونَ الإجابةُ مُنْصَرِفةً إلى أهلِها، ثم نُسِبَ إليها ذلكَ، وإنْ كانَ المُرادُ منهُ الأهلَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨] ولا يُوجَدُ مِنَ القريةِ عُتُوٌّ، وإنما يوجَدُ منْ أهلِها.

فإنْ كانَ كذلكَ ففيهِ أنهُ لا يَتَخَلَّفُ أحدٌ عنِ الإجابةِ إلى ما دعاهُ إليهِ الرَّبُّ تعالى خِلافاً لِما[8] كانوا عليهِ في الدنيا؛ فإنَّ كثيراً مِنْ أهلِ الدنيا أعْرَضوا عنْ طاعتِهِ، واشْتَغَلوا بِمَعصيتِهِ.

---

(١) من م، في الأصل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. (٢) في الأصل وم: فكذلك. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: السورة. (٥) في الأصل وم: منه. (٦) في الأصل وم: لو. (٧) من م، في الأصل: مختلف. (٨) في الأصل وم: على ما.

ثم الإجابةُ والطاعةُ والطَّوعُ والكَرْهُ ومثلُ هذهِ الأوصافِ إذا أُضيفَتْ إلى مَنْ هو مِنْ أهلِ الاختِيارِ فهو على الطَّوعِ المَعروفِ والإجابةِ المعروفةِ، وإذا أُضيفَتْ إلى مَنْ ليسَ هو مِنْ أهلِ الاختيارِ فهو على تَعْيِينِ الهيئةِ [على ما هي عليه الخِلْقةُ نَحْوُ الأرضِ، تُوصَفُ بالحياةِ إذا أنْبَتَتْ، وتُوصَفُ بالموتِ إذا يَبِسَ [ما][1] عليها، وصارتْ مُتَهَشِّمةً، فَيُرادُ بهما أنهما صارَتا[2] بهيئةٍ لو وُجِدَتْ تلكَ الهيئةُ][3] في الروحانِيِّينَ لصارَ أحدُهُما عَلَماً لِحياتِهِ، والآخَرُ عَلَماً لِوَفاتِهِ، كقولِهِ[4] تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهما لا يُوصَفانِ بِطَوعٍ ولا كَرْهٍ؛ خُلِقَتا على هيئةٍ لو وُجِدَتْ تلكَ الهيئةُ في مَنْ وُصِفَ بالطَّوعِ والإكراهِ كانَ ذلكَ منهُ طَوعاً. وقولُ[5] إبراهيمَ ﷺ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] [وهي][6] في الحقيقةِ لا تُضِلُّ، ولكنها أُنْشِئَتْ على هيئةٍ، لو كانتْ تملِكُ الإضلالَ لَعُدَّ ذلكَ منها إضلالاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ قيلَ: بُسِطَتْ، وسُوِّيَتْ بكسرِ الشِّعابِ، والأوديةُ [بكسرِ الجبالِ، وتماسُّنا، فصارَتْ][7] ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦و١٠٧].

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾][8] أي ألْقَتْ ما وُضِعَ فيها مِنَ المَوتَى والكُنوزِ، فَتَخَلَّتْ عنها، فَنُسِبَ التَّخَلِّي إليها، وإنْ كانَ مَنْ فيها، هو الذي تَخَلَّى[9] عنها، وكانتْ هي الحابسةَ[10]، لأنهُ إذا [تَخَلَّى عنها تَخَلَّتْ][11] هي عنهُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ الكادحُ، هو الساعي، وهو الذي اعْتادَ ذلكَ، وهذا في كلِّ إنسانٍ، تَراهُ أبداً ساعياً إمّا في عَمَلِ الخيرِ [وإمّا في][12] عَمَلِ الشَّرِّ وإمّا[13] في ما يَضُرُّهُ حتى إذا[14] هَمَّ بتَرْكِ السَّعْيِ لم يَقْدِرْ لأنَّ تَرْكَهُ السَّعْيَ نوعٌ مِنَ السَّعْيِ.

ورُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ حينَ تَلا هذهِ الآيةَ قالَ: «أنا ذلكَ الإنسانُ» فهذا ليسَ أنهُ هو المخصوصُ بالخِطابِ لأنهُ بَيَّنَ الإنسانَ فقالَ: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧١و...] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] [﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]][15] ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو المُرادَ بهذا كلِّهِ؛ فكلُّ أحدٍ على الإشارةِ مُرادٌ بقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فلذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ: «أنا ذلكَ الإنسانُ».

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مَعْناهُ: أنِ اجْعَلْ كَدْحَكَ إلى ربِّكَ في أنْ تَسْعَى إلى طاعتِهِ وطَلَبِ مرضاتِهِ ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ فإنكَ مُلاقيهِ، لا مَحالةَ؛ أي تُلاقي جَزاءَ عَمَلِكَ إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرّاً فَشرٌّ.

وجائزٌ أنْ تكونَ المُلاقاةُ كِنايةً عنِ البعثِ؛ إذِ البعثُ قد يُكَنَّى عنهُ بلقاءِ الرَّبِّ. قالَ تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] وسُمِّيَ ذلكَ اليومُ يومَ المَصيرِ إلى اللهِ تعالى ويومَ البروزِ بقولِهِ تعالى: [﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقولِهِ تعالى][16]: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] ووجهُ التَّسْمِيةِ بهذهِ الأسامي ما ذَكَرْنا أنَّ المقصودَ مِنْ خَلْقِ العالَمِ العاقبةُ، فَسُمِّيَ بُروزاً لِما لِلْبُروزِ أُنْشِئَ، وسُمِّيَ مصيراً إلى اللهِ تعالى لِمَصيرِهِمْ إلى مالَهُ خُلِقوا، وإنْ كانَ الخَلْقُ كلُّهُمْ بارزينَ لهُ قبلَ ذلكَ، ولم يكونوا عنهُ غائبينَ، فَيَصيروا إليهِ خصوصاً لذلكَ اليومِ.

الآيتان ٧و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [فَسَمّاهُ حساباً يسيراً][17] لِوجوهٍ:

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: صارت. (٣) ساقطة من م. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: بالجبال أو تماسا فصار، في م: بالجبال وتماساً فصار. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: خلا. (١٠) من م، في الأصل: الجاسية. (١١) في الأصل وم: خلا عنها، خلت. (١٢) في الأصل وم: أو. (١٣) في الأصل وم: أو. (١٤) في الأصل وم: لو. (١٥) ساقطة من الأصل وم. (١٦) ساقطة من الأصل وم. (١٧) من م، ساقطة من الأصل.

أحَدُها: أنَّ المؤمنَ اعْتَقَدَ تَصديقَ الرَّبِّ في كلِّ ما دعاهُ إليهِ. فإذا كانَ [مُصَدِّقاً][1] سَهُلَ عليه تَذَكُّرُ[2] ما قد عَمِلَهُ بِتَفَكُّرِ الجملةِ.

[والثاني][3]: أنهُ إذا نَظَرَ في كتابِهِ رأى حَسناتِهِ مَقْبولةً وسَيِّئاتِهِ مَغْفورةً، فَسَمَّى ذلكَ اليومَ يَسيراً لهُ لِما أُثْبِتَ فيهِ مِنَ الخَيراتِ، ومُحِيَ عنهُ مِنَ السيئاتِ كما سُمِّيَتِ الخيراتُ يُسْرَى وسُمِّيَ ما يَجري عليها يُسْراً أيضاً، فكذلكَ الذي أُوتِيَ كتابَهُ بيمينِهِ، يَجرِيَ عليه الخَيرُ، يُسَمَّى حسابُهُ يسيراً.

[والثالثُ][4]: أنْ يكونَ المسلمُ، يُحاسَبُ في أنْ يُذَكَّرَ ما أُنْعِمَ عليهِ في الدنيا، ولا يُحاسَبَ حسابَ تَوبيخٍ وتَهويلٍ بأنْ يُقالَ لهُ: لمَ فَعَلْتَ كذا؟ والكافرُ يُسْأَلُ سؤالَ توبيخٍ، فيقالُ: فعلْتَ كذا على الإنحاءِ [بالملائمةِ على ما][5] فَعَلَ وفي ذلكَ تَعْسيرٌ عليهِ.

ورُوِيَ عنْ عائشةَ ﷺ أنها قالَتْ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ نوقِشَ في الحسابِ فهو مُعَذَّبٌ» [البخاري ٦٥٣٦].

وفي بعضِها: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قالَتْ: قُلْتُ يا رسولَ اللهِ: ألم يَقُلِ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾؟ قالَ: «ذلكَ العرضُ، ولكنْ مَنْ نوقشَ الحسابَ هلكَ» [البخاري ٤٩٣٩].

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: في ظاهرِ قولِهِ ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ عُذِّبَ» [البخاري ٦٥٣٦] رَفْعُ ما قالتْهُ عائشةُ ﷺ لأنَّ الفَهْمَ مِنْ قولِهِ ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحسابَ» غَيرُ الفَهْمِ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فليسَ في قولِهِ ظاهرُ جوابٍ لها، وكانَ الظاهرُ مِنَ الكلامِ الأوَّلِ على ما فَهِمَتْهُ عائشةُ ﷺ ولكنَّ وجهَ الجوابِ فيهِ أنَّ قولَهُ ﷺ: «مَنْ حوسِبَ عُذِّبَ» وقولَهُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ ليسَ على كلِّ الحسابِ، وإنما هو على الحسابِ الذي لا يُناقَشُ فيهِ.

فأمّا الذي هو عَرْضٌ فليسَ مِمّا يُعَذَّبُ عليهِ، فيكونُ فيهِ إبانةٌ أنهُ لا يُفْهَمُ بالخطابِ العامِّ عُمومُ المُرادِ كما فَهِمَتْهُ عائشةُ ﷺ بل يجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ عامّاً، والمرادُ منهُ خاصّاً.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ وقالَ في شأنِ الذي ﴿أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾: [الآيات: ١٠ ـ ١٢] إنهُ كانَ في أهلِهِ مسروراً.

فهذا لأنَّ المسلمَ إنما تَأَهَّلَ على قَصْدِ تَحصيلِ النفعِ لنفسِهِ في العاقبةِ، وتكونُ مُعينةً لهُ على أمورِ الآخِرَةِ، فَحَصَلَ لهُ ذلكَ النفعُ بإحرازِهِ السُّرورَ الدائمَ بذلكَ. والكافرُ تأهَّلَ للمنافعِ الحاضرةِ، وسُرَّ بأهلِهِ[6] سروراً، أنساهُ السُّرورُ أمرَ العاقبةِ، فَحَقَّ عليهِ العذابُ لِتَرْكِهِ السَّعْيَ للآخِرَةِ لا لِسرورِهِ بأهلِهِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآية [الإسراء: ١٨].

والكلُّ منّا يريدُ العاجلةَ، ولابُدَّ لهُ منها، لكنَّ الذي يَصْلَى جَهَنَّمَ، هو الذي ابْتَغَى العاجلةَ ابْتِغاءً أنساهُ ذلكَ الآخِرَةَ[7]، فكذلكَ المَسرورُ بأهلِهِ، إنما حَلَّتْ بهِ النِّقْمَةُ لِما مَنَعَهُ السُّرورُ عنِ النظرِ للعاقبةِ لا لنفسِ السُّرورِ، إذْ كلُّ متأهِّلٍ، لا يَخلو عنِ السُّرورِ بأهلِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ فالإيتاءُ مِنْ وَراءِ الظهرِ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنِ اسْتُقْذِرَ منهُ لِخُبْثِ مَنْظَرِهِ، فَأُوتِيَ من وراءِ ظَهْرِهِ مُجازاةً لهُ بما سَبَقَ مِنْ صُنْعِهِ؛ وصُنْعُهُ أنهُ نَبَذَ كتابَ اللهِ تعالى وراءَ ظهرِهِ، وتَرَكَ أوامِرَهُ ونواهِيَهُ كذلكَ وراءَ ظَهْرِهِ، فَجوزِيَ أيضاً بِدَفْعِ كتابِهِ وراءَ ظهرِهِ، ودُفِعَ إلى المؤمنِ/ ٦٣٣ ـ ب/ كتابُهُ بيمينِهِ لِما في كتابِهِ مِنَ المَحاسنِ والبركاتِ، واليَمينُ أُنْشِئَتْ لِتُسْتَعْمَلَ في البركاتِ وأنواعِ [الخَيرِ][8]، وسُمِّيَتْ أيضاً باسمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ اليُمْنِ والبركةِ.

---

(١) في الأصل وم: على التصديق. (٢) في الأصل وم: تذكير. (٣) في الأصل وم: ووجه آخر. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: بما. (٦) في الأصل وم: بهم. (٧) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك على. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

[والثاني: أن][(1)] الشِّمالَ جُعِلَتْ لِتُسْتَعْمَلَ في الأقذارِ والأنجاسِ، فَدُفِعَ كتابُهُ مِنْ حيثُ عملُهُ إليهِ بشمالِهِ أيضاً أو مِنْ وراءِ ظهرِهِ، لأنَّ أهلَ الإيمانِ قَبِلُوا أمورَ[(2)] اللهِ تعالى ونواهِيَهُ، واستَقبلوها بالتَّعْظيمِ والتَّبجيلِ؛ ومَنْ أرادَ تَعْظيمَ الآخَرِ في الشاهدِ وتَبْجيلَهُ أخذَهُ بيمينِهِ، فَجوزوا في الآخِرَةِ بالتَّعْظيمِ لهمْ بأنْ أُوتوا[(3)] كُتُبَهُمْ بأيمانِهِمْ.

وأمّا الكافرُ بأنهُ اسْتَخَفَّ بأمرِ اللهِ تعالى وطاعتِهِ فَجوزِيَ في الآخِرَةِ بأنْ أُوتِيَ كتابَهُ بِشمالِهِ التي تُسْتَعْمَلُ في الأقذارِ إهانةً وتَحْقيراً.

الآيات ١١ ـ ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾][(4)] الثُّبورُ والوَيلُ حرفانِ، يُتَكَلَّمُ بهما عندَ الوُقوعِ في المَهالكِ، فيكونُ في ذِكْرِ الثُّبورِ ذِكْرُ وقوعِهِ في المَهْلكةِ التي تَحِقُّ لهُ، ودعاءُ[(5)] الثُّبورِ والوَيلِ على نفسِهِ، دعا بهِ، أو لم يَدْعُ، على سبيلِ الكنايةِ عنِ الوقوعِ في المَهالكِ، وهو كقولِهِ تعال: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] فالضَّحكُ كنايةٌ عنِ السُّرورِ، والبُكاءُ كنايةٌ عنِ الحُزنِ؛ فَمعناهُ أنهُ يَسْتَقْبِلُهُ ما يَحْزَنُ بِهِ طويلاً، كانَ هناكَ بكاءٌ، أو لم يكُنْ.

الآيتان ١٤ و١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ فيهِ دلالةٌ أنهُ إنما حلَّ بهِ ما ذَكَرَ منَ العذابِ، لأنهُ كانَ للبعثِ ظانّاً، ولم يكُنْ بهِ مُتَيَقِّناً.

وكذلكَ اللهُ ﷻ [حينَ][(6)] قَسَمَ الوعدَ والوعيدَ للفريقَيْنِ ذَكَرَ في آخِرِهِ ما يُبَيِّنُ أنَّ الذي أُوعِدَ بالعذابِ، هو المُكَذِّبُ، وذَكَرَ الوعيدَ ههنا، وبَيَّنَ أنَّ الذي يَحُلُّ بهِ هذا الوعيدُ، هو الذي كانَ ظانّاً بالميعادِ، ولم يكُنْ مُتَحَقِّقاً. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] فَتَبَيَّنَ أنَّ الوعيدَ في المُكَذِّبينَ، وقالَ تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤و١٠٥] لِيُعْلَمَ أنَّ الوعيدَ الدائمَ في المُكَذِّبينَ خاصَّةً؛ فيكونُ فيهِ دفعُ قولِ المعتزلةِ: إنَّ أهلَ الكبائرِ يُخَلَّدونَ في النارِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي كانَ بصيراً بما سَبَقَ مِنْ أعمالِهِ الخبيثةِ، فَيُحاسِبُهُ على عِلْمٍ منهُ بما كَسَبَتْ يداهُ، ويُعَذِّبُهُ على عِلْمٍ منهُ باكتِسابِ ما استَوجَبَ منَ العذابِ خِلافاً لأمرِ ملوكِ الدنيا؛ إنهمْ يُحاسِبونَ على تَذْكيرِ الغَيرِ لهمْ ما عليهِمْ[(7)] مِنَ الحسابِ، ويُعذِّبونَ على تَعْريفِ الغَيرِ لهمْ ما استَوجَبَ بِهِ التَّعْذيبَ لا على عِلْمٍ منهمْ بذلكَ.

أو يكونُ مَعْناهُ: أنهُ كانَ بهِ بَصيراً في الأزَلِ أنهُ ماذا يَعْمَلُ إذا أنْشَأهُ وإلى ماذا يَنْقَلِبُ أمرُهُ إلى النارِ أو إلى الجنةِ، فَخَلَقَهُ على عِلْمٍ أنهُ يُعادي أولياءَهُ، ويَعْمَلُ بِمَعاصيهِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ المرءَ في الشاهدِ، لا يَشْرَعُ في الأمرِ الذي يَعْلَمُ أنهُ في العاقبةِ، يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ، ولو شَرَعَ فيهِ، وأتَمَّهُ، كانَ مذموماً عندَ الناسِ، ولم يكُنْ محموداً، فأيُّ حِكْمَةٍ في إنشاءِ عَدُوِّهِ، وهو عالمٌ أنهُ يَسْعَى في مُعاداتِهِ.

فَجوابُهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الذي يَشْرَعُ في الأمرِ الذي عَلِمَ أنَّ إتمامَهُ، يَضُرُّهُ، ولا يَنْفَعُهُ، إنما لِحَقَتْهُ المَذَمَّةُ لِما سَعَى في إضرارِ نفسِهِ.

فأمّا الذي أعْرَضَ عنْ طاعةِ اللهِ، وكَفَرَ بهِ، فإنما اكْتَسَبَ الضَّرَرَ على نفسِهِ خاصَّةً بأنْ أوقَعَها في المَهالكِ، ولم يَضُرَّ غَيرَهُ، لذلكَ لم تَلْحَقْهُ المذمَّةُ في خَلْقِهِ وإنشائِهِ.

وفي هذا دلالةٌ أنَّ اللهَ حينَ[(8)] خَلَقَ الخَلْقَ لم يَخْلُقْهُمْ لِمَنْفَعَةٍ لهُ ولا لِمَضَرَّةٍ تَلْحَقُهُ منْ جِهَتِهِمْ، بل مَنافِعُهُمْ ومَضارُّهُمْ راجعةٌ إلى أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ فمنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ: ﴿فَلَآ﴾ على دفعِ مُنازَعةٍ، وقَعَتْ في ما بَيْنَ القومِ على ما نَذْكُرُ في سورةِ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾[(9)] إنْ شاءَ اللهُ. والقَسَمُ قولُهُ ﷻ: ﴿أُقْسِمُ﴾ ومنهمْ مَنْ جَعَلَ لا بِحَقِّ الصِّلَةِ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أمر. (٣) في الأصل وم: أوتي. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) الواو ساقطة من الأصل وم. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) في الأصل وم: عليه. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) هي سورة البلد. انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٥١.

فإنْ كانَ على الوجهِ الأوّلِ لم يَجُزْ حذفُ لا مِنَ الكلامِ، بل حَقُّهُ أنْ يَقرأَ ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾.

وإنْ كانَ بِحَقِّ الصِّلَةِ استقامَ في حَذْفِهِ كما قرأَ بعضُ القُرّاءِ: فَلَأُقسِمُ بالشَّفَقِ. [ثم الشَّفَقُ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنهُ][1] أثَرُ النهارِ. فجائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ واقعاً على النهارِ كلِّهِ، وإنْ كانَ ذَكَرَ طَرَفاً منهُ.

والثاني: أنَّ الشَّفَقَ يَجتَمِعُ فيهِ أثَرُ النهارِ، وهو النورُ الذي فيهِ أثَرُ الشمسِ، وهي الحُمْرَةُ التي تكونُ فيهِ، فيكونُ القسمُ واقعاً على النهارِ بما فيهِ كما كانَ واقعاً على الليلِ بما فيهِ لِقولِهِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ فتكونُ فيهِ حُجَّةٌ لِقولِ أبي حَنيفةَ ﷺ: إنَّ وقتَ العِشاءِ لا يدخُلُ حتى يَغيبَ الشَّفَقُ، لأنَّ وقتَها يدخُلُ بِغَيبوبةِ الشَّفَقِ، والشَّفَقُ وجَدْناهُ مُشتَمِلاً على البَياضِ والحُمْرَةِ، فما لم تَتِمَّ الغَيبوبةُ لم يَهجُمْ وقتُها.

ألا تَرَى أنَّ الصلاةَ التي تَلِي الغُروبَ لا يَدخُلُ وقتُها حتى يَتِمَّ غُروبُ الشمسِ؟ فَعَلَى ذلِكَ الصلاةُ التي تَلي غُروبَ[2] الشَّفَقِ، لا يَدخُلُ وقتُها حتى تَتِمَّ الغَيبوبةُ.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي وما حَمَلَ مَعَهُ [مِنَ][3] الظُّلْمةِ والنَّجمِ والدابَّةِ وغَيرِ ذلكَ. والوَسْقُ الحِمْلُ، يُقالُ: وَسْقُ بَعيرٍ أي حِمْلُ بَعيرٍ.

قالَ بَعضُهُمْ: وَسَقَ: أي جَمَعَ، وساقَ كلَّ شيءٍ إلى مأواهُ مِنَ الطيرِ والسِّباعِ، فذكَرَ النهارَ والليلَ لِما فيهما مِنَ المَنافِعِ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فالاتِّساقُ الاجتِماعُ، ومَعْناهُ استَوَى، وكَمَلَ، إذْ ذلكَ اجتِماعُهُ، وذلكَ في ليالي البِيضِ.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: مَعناهُ أنهُ جُمِعَ، وسُوِّيَ، بعدَ أنْ كانَ ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فَيُذَكِّرُهُمْ قُوَّتَهُ لِيَعلَموا أنهُ قادرٌ على بَعثِهِمْ[4].

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قُرِئَ بنَصْبِ[5] الباءِ ورَفْعِها، وكِلا القراءتَينِ في المَعنَى واحدٌ؛ إنْ كانَ في الظاهرِ، إحداهما للجمعِ، والأُخرَى للوُحدانِ، وإحدَى القراءتَينِ بِحَرْفِ الجمعِ فَيُذْكَرُ بالرفعِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ مُنصَرِفٌ إلى كلِّ إنسانٍ في نفسِهِ خاصّةً لا على الاقتِصارِ على شَخْصٍ واحدٍ لِما ليسَ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الآية: ٦] إشارةٌ إلى شخصٍ بِعَينِهِ، ولكنَّ المُرادَ منهُ الجُملَةُ، فَثَبَتَ أنَّ الخِطابَ مُنصَرِفٌ إلى الجُملَةِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قيلَ: حالاً بعدَ حالٍ. ثم جائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى دارِ الآخِرَةِ، فكأنهُ قالَ: لَتَرْكَبُنَّ حالَ الآخِرَةِ بعدَ حالِ الدنيا، فيكونُ فيهِ تَصْريحُ القولِ على إيجابِ البَعْثِ.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ في الدنيا؛ فَيَنتَقِلُ إلى حالِ المُضغةِ بعدَ كَونِهِ [نُطْفَةً وإلى][6] حالِ العَلَقةِ وإلى حالِ الطفولةِ إلى أنْ يَبْلُغَ أشُدَّهُ، فلا يَزالُ يركَبُ حالةً بعدَ حالةٍ، فيكونُ في نَقْلِهِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ إبانةٌ أنهُ لم يُرِدْ مِنْ إنشائِهِ أنْ تَتَغَيَّرَ عليهِ الأحوالُ فقط، بل أُريدَتِ العاقبةُ التي بها صارَ إنشاءُ الخَلْقِ حِكْمةً لا عَبَثاً، فيكونُ قولُهُ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ مُنصَرِفاً إلى كلِّ إنسانٍ في نفسِهِ خاصّةً لا على الاقتِصارِ على شَخْصٍ واحدٍ لِما ذَكَرْنا.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنما أرادَ بهذا الخِطابِ رسولَ اللهِ ﷺ ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ وعنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ.

ولكنْ قالَ ابنُ مَسْعودٍ ﷺ: لَتَرْكَبُنَّ يا محمدُ، وقالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: لَتَرْكَبُنَّ السماءَ حالاً بعدَ حالٍ.

فإنْ كانَ التأويلُ على ما ذَكَرَهُ ابنُ مَسعودٍ ﷺ ففيهِ بِشارةٌ بإسلامِ قومِهِ وإجابتِهِمْ لهُ، فيقولُ: إنهمْ سَيُطلعونَكَ، ويَصيرونَ لكَ أنصاراً بعدَ صَدِّهِمُ الناسَ عنِ الإيمانِ وجَفْوَتِهِمْ إياكَ.

---

(١) في الأصل: هو، في م: ثم الشفق هو. (٢) في الأصل وم: الغروب. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: بعثه. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٠٣. (٦) في الأصل وم: مضغة إلى.

ومَنْ قالَ: لَتَرْكَبُنَّ سَماءً بعدَ سماءٍ فيقولُ: ذلكَ ليلةَ أُسْرِيَ بِهِ.

والتأويلُ الأوَّلُ أقربُ لأنَّ مَوقِعَ / ٦٣٤ ـ أ/ القَسَمِ في قولِهِ تعالى: لَتَرْكَبُنَّ، والإسراءُ لم يكُنْ يَعْرِفُهُ قومُهُ حتى يكونَ في ذِكْرِهِ دَفْعُ الاشْتِباهِ عنْ أولئكَ القومِ.

فأمّا ظهورُ الإسلامِ وعُلُوُّ النَّبيِّ على أعدائِهِ فَمِمّا يُشاهِدُهُ الناسُ، فَيَتَحقَّقُ في الآخِرَةِ ما أخبَرَ النَّبيُّ ﷺ عنِ الغَيبِ، فيكونُ تأكيداً لرسالتِهِ. فَلِذلكَ قُلْنا: إنَّ الحَمْلَ على المَعْنَى الأوَّلِ أحَقُّ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأصلُ أنَّ كلَّ مَنِ اعتَقَدَ مَذْهباً فإنما يَعْتَقِدُهُ بحجَّةٍ تَقَرَّرَتْ عندَهُ أو شُبهةٍ اعتَرَضَتْ لهُ، ظَنَّها حُجَّةً. فأمّا أنْ يَعْتَقِدَهُ حراماً فليسَ يَفْعَلُهُ، فقالَ اللهُ تعالى في هؤلاءِ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي [أيُّ][1] حُجَّةٍ لهمْ تَمْنَعُهُمْ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرسولِهِ، وتدعوهُمْ إلى الشِّرْكِ والتَّزيُّنِ بهِ؟

ثم قد ذَكَرْنا أنَّ ما خَرَجَ مَخرَجَ الاسْتِفهامِ مِنَ اللهِ تعالى فَحَقُّهُ أنْ يُنْظَرَ ما يَقْتَضي ذلكَ الكلامُ مِنَ الجوابِ أنْ لو كانَ مِنْ مُستَفْهِمٍ، فَيُحْمَلُ الأمرُ عليهِ، وحَقُّ جوابِ هذا الكلامِ أنْ يقولَ: لا شيءَ يَمْنَعُهُ عنْ ذلكَ. فقولُهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا حُجَّةَ لهمْ في ما اختاروا مِنَ الشِّرْكِ، وإنما يَتَدَيَّنونَ بِهِ تَشَهِّياً وتَمَنِّياً، فيكونُ هذا على النَّفْيِ في أنْ لا حُجَّةَ لهمْ، أو كأنهُ يخاطبُ رسولَهُ ﷺ، فيقولُ: سَلْهُمْ لِماذا لا يُؤمنونَ؟ وإذا سألَهُمْ لم يَجِدوا لأنفسِهِمْ حُجَّةً في الإعراضِ عنِ الإيمانِ، فَيَرجِعُ الأمرُ إلى ابْتِغاءِ الحجَّةِ أيضاً.

ثم المعتزلةُ احْتَجَّتْ علينا بهذهِ الآيةِ في تَثْبيتِهِمُ القُدْرَةَ قبلَ الفِعْلِ، وزَعَمَتْ أنهُ لو لم يكُنْ أعطَى قوةَ الإيمانِ لم يكُنْ يُعاتِبُ على تَرْكِهِ لأنهُ لا عُذْرَ للعبدِ أعظَمُ مِنْ أنْ يقولَ، إنْ قيلَ لهُ: لِمَ لا تُؤمِنُ[2]؟ لأني لا أقدِرُ عليهِ، ولأنَّ[3] قولَهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حرفُ تَعجيبٍ؛ ولو كانتِ القوةُ ممنوعةً قبلَ الفِعْلِ لَكانَ لهُ أنْ يقولَ: إنما لم أُؤمِنْ لأني مُنِعْتُ عنهُ، فَيَرْتَفِعَ عنهُ التَّعجيبُ، فَدَلَّ أنهُ أُعطِيَ القوةَ، فلم يَبْقَ لهُ في الخُلْفِ عنِ الإيمانِ عُذْرٌ.

والجوابُ عنِ الفصلِ الأوَّلِ أنَّ الكافرَ لَمّا[4] لَحِقَتْهُ كُلْفَةُ الإيمانِ لأنهُ هو الذي ضَيَّعَ القوةَ باختيارِهِ، فَعَلَ الكُفْرَ، وإنما ترتفعُ الكُلْفةُ إذا مُنِعَتْ عنهُ الطاقةُ.

وأمّا إذا كانَ هو الذي ضَيَّعَهُ فالكُلْفَةُ عليهِ قائمةٌ، والأصلُ أنَّ القُدْرةَ في الصحيحِ السليمِ تَحْدُثُ تِباعاً على قَدْرِ حِرْصِهِ على العبادةِ ومَيْلِهِ إليها. ثم العبدُ متى اشْتَغَلَ بفعلٍ صارَ مُضَيِّعاً لِضِدِّهِ مِنَ الأفعالِ لا[5] إنْ كانَ مَمنوعاً عنِ الفعلِ الذي هو ضِدُّ هذا.

فلذلكَ إذا آثَرَ الكُفْرَ، وأتى بِهِ، فقد صارَ باختيارِهِ الكُفْرَ مُضَيِّعاً لقوةِ الإيمانِ لا[6] صارَ مَمنوعاً عنها، لذلكَ لَحِقَتْهُ كُلْفَةُ الإيمانِ.

وأمّا ما ذَكَرَ مِنَ التَّعجيبِ فقد وَصَفْنا وجهَ التَّعجيبِ في ذلكَ، وهو أنهمْ لم يُلْزِموا الكَفَرَةَ بِحُجَّةٍ دَعَتْهُمْ إلى القولِ بِهِ، والمَرْءُ إذا تَقَلَّدَ[7] مذهباً تَقَلَّدَهُ[8] لا عنْ حُجَّةٍ وبرهانٍ، فَعَجَّبَ الخَلْقَ باختيارِهِمُ الكفرَ لا عنْ حُجَّةٍ.

ثم لو كانَ الأمرُ على ما ظَنَّتِ المعتزلةُ أنَّ اللهَ تعالى قد أعطاهُمْ جميعَ أسبابِ الهدايةِ، ولم يُبْقِ في خَزائِنِهِ شيئاً، مَنَعَهُ عنهمْ، لكانَ التَّعجيبُ راجعاً إليهِ لا إلى الذينَ لم يُؤمِنوا، فيقولُ: مالي لا أصِلُ إلى هدايَتِهِمْ، ولم يَبْقَ عندي شيءٌ، بهِ هدايَتُهُمْ، إلّا وقد أعطَيتُهُمْ، لا أنْ يُعَجِّبَ الخَلْقَ عنْ صُنيعِهِمْ، فليسَ الذي اختاروهُ في القولِ سِوَى وصفِهِمْ ربَّ العالَمينَ بالعَجْزِ، والعاجزُ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ رباً، واللهُ الموفقُ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ التأويلَ إلى سجودِ الصلاةِ والمُرادُ منهُ

---

(١) من م: ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: يؤمنون فيقول. (٣) في الأصل وم: ولأنه. (٤) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: إذا. (٥) أدرج بعدها في الأصل وم: ان. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: ان. (٧) في الأصل وم: قلد. (٨) في الأصل وم: قلده.

عندَنا سُجودُ التِّلاوةِ، وهو سُجودُ الإسْتِسْلامِ والخُضوعِ على الشُّكْرِ لِما أكرَمَ المرءَ منَ الإيمانِ، وهَدَى اللهُ، لأنَّ سُجودَ الصلاةِ يكونُ عندَ فِعلِ الصلاةِ لا عندَ ذِكرِ التِّلاوةِ.

ثم في الآيَةِ دلالةُ وُجوبِ السجدةِ على السامعِ لأنهمْ عُوتِبوا بِتَرْكِهِمُ السُّجودَ عندَما يُتْلَى عليهمْ، وقُرِّعوا بِهِ، والتَّقريعُ يجري في تَرْكِ اللازمِ لا في تَرْكِ ما ليسَ عليهِ، ولأنَّ المَعْنَى الذي لهُ وَجَبَ السجودُ على التالي قائمٌ في السامعِ؛ إذِ التالي إنما لَزِمَهُ السجودُ لِما ذَكَرْنا مِنْ آياتِ اللهِ تعالى، وقامتْ عليهِ مِنَ الحُجَجِ، فَيَلْزَمُهُ أنْ يخضعَ لها.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهمْ يُكَذِّبونَ رسولَهُ محمداً ﷺ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على التكذيبِ بالقرآنِ لأنهمْ إذا كَذَّبوا رسالَتَهُ لم يُصَدِّقوهُ في ما يأتي مِنَ الأخبارِ، لا أنْ يكونَ في الأخبارِ مَعْنًى يَحْمِلُهُمْ على [التَّكْذيبِ. بل القرآنُ يَحْمِلُهُمْ على][1] التَّصديقِ والإيمانِ لو أمْعَنوا النَّظَرَ فيهِ، وبَذَلوا مِنْ أنفسِهِمُ الإنصافَ.

[والثاني][2]: يكونُ معناهُ أنَّ الذينَ كَفَروا، همُ المُكَذِّبونَ، فيكونُ الكُفْرُ منهمْ تكذيباً، والتكذيبُ منهمْ كُفراً.

الآية ٢٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: ما يُضْمِرونَ مِنَ الكَيدِ والمَكْرِ برسولِ اللهِ ﷺ فاللهُ أعلَمُ بِكيدِهِمْ؛ لا يَتَهَيَّأُ لهمْ أنْ يُنَفِّذوا كَيدَهمْ فيهِ إلّا ما كَتَبَ اللهُ عليهِ، فيكونُ فيهِ بِشارةٌ لهُ بالنَّصْرِ والتأييدِ.

والثاني: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ في قلوبِهِمْ مِنَ التَّصديقِ ويُظْهِرونَ مِنَ التكذيبِ بألسنَتِهِمْ، أو بما يُلْمِحونَ مِنَ التكذيبِ بألسنَتِهِمْ وقُلوبِهِمْ معاً؛ وذلكَ[3] أنَّ البعضَ منهمْ كانَ قد أيقَنَ برسالَتِهِ، فكانَ يُصَدِّقُهُ بِقلبِهِ، ويُكَذِّبُهُ بلسانِهِ على العِنادِ منهُ والتَّمَرُّدِ.

[والثالثُ][4]: منهمْ مَنْ لم يكُنْ عُرِفَ صِدْقُهُ بقلبِهِ لِما تَرَكَ الإنصافَ منْ نفسِهِ بإعراضِهِ عنِ النَّظَرِ في حُجَجِ اللهِ تعالى، فكانَ يُكَذِّبُهُ بِقلبِهِ ولِسانِهِ جميعاً.

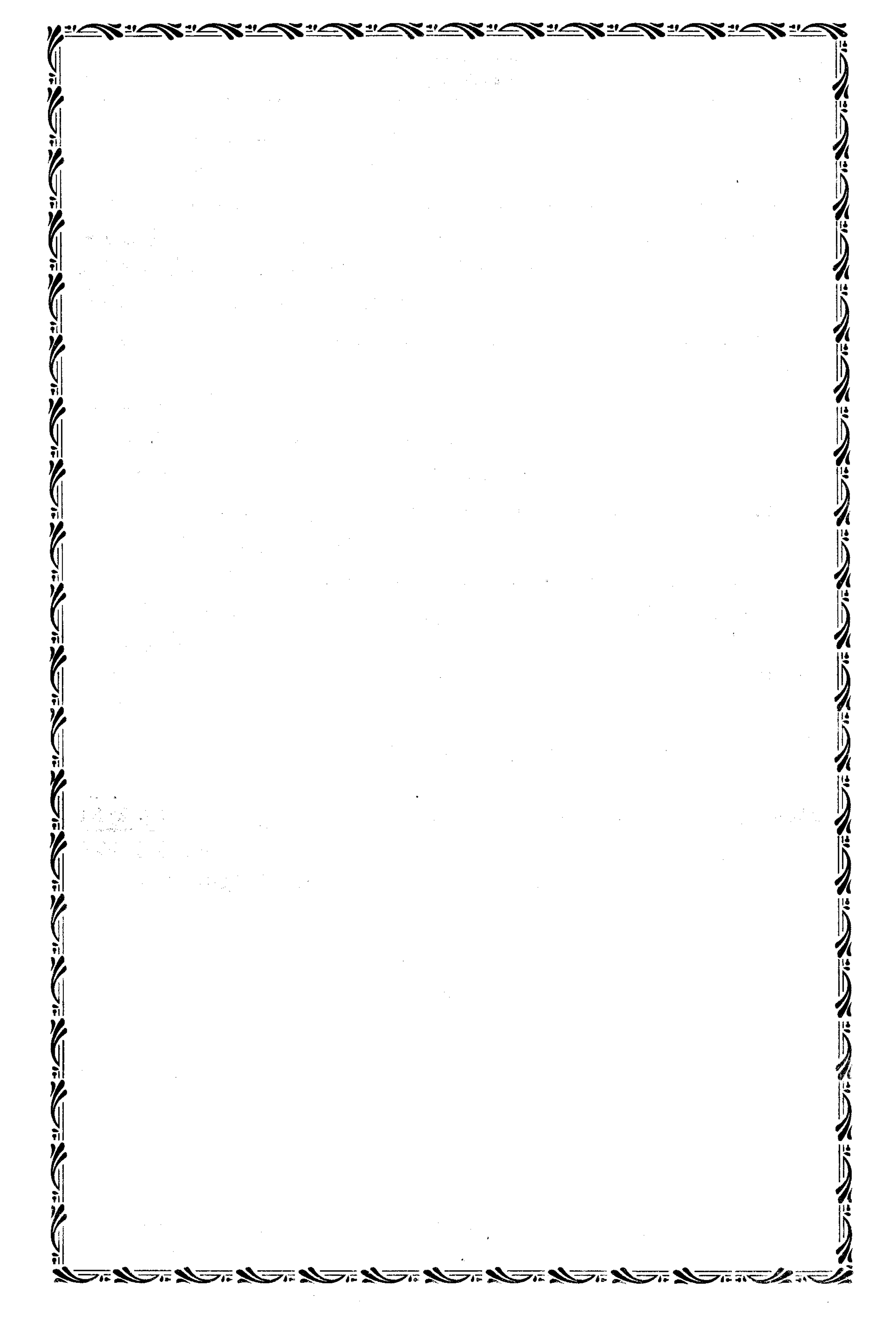
الآية ٢٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالبِشارةُ إذا فُسِّرَتِ اسْتَقامَ حَمْلُها على الحُزْنِ والسرورِ جميعاً، وأمّا البِشارةُ المُطْلَقَةُ فإنما تُسْتَعْمَلُ في مَوضعِ إدخالِ الفرحِ والسرورِ في القلبِ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى كلِّ مَنْ آمَنَ، وجائزٌ أنْ يُصْرَفَ إلى مَنْ آمَنَ مِنَ الذينَ كانوا ﴿يُوعُونَ﴾ ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ نَذْكُرُهُ في سورةِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ إن شاءَ اللهُ تعالى.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: و.



[سورة البروج

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ فقولُهُ: ﴿ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ وكذلكَ ما ذَكَرَ عقيبَهُ. ثم اخْتُلِفَ في موضعِ القَسَمِ في هذه السورة:

فمنهمْ مَنْ ذَكَرَ أنَّ القَسَمَ لِمكان قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [الآية: ٤] ومنهمْ مَنْ يقولُ: القَسَمُ، مَوضِعُهُ على قولِهِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [الآية: ١٢] وهو أشبهُ لأنهُ / ٦٣٤ ـ ب/ مَوضِعُ الاِحتِجاجِ على الكَفَرَةِ.

وإذا[2] حُمِلَ القَسَمُ على قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ كانَ ذلكَ مُنصَرِفاً إلى المؤمنينَ، والمسلمونَ قد تيَقَّنوا بِصِدْقِ ما يأتي بهِ الرسولُ منَ الأنباءِ، والقَسَمُ يُذْكَرُ على تأكيدِ ما يُقْصَدُ إليهِ ليُزالَ عنهُ الرَّيبُ، وإذا كانَ المسلمونَ غَيرَ مُرْتابِينَ في أنبائِهِ، اسْتَغْنَوا عنْ تأكيدِهِ بالقَسَمِ.

فلذلكَ قُلْنا: إنَّ صَرْفَهُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ألْيَقُ، فيكونُ فيهِ تَحذيرٌ لِمَنْ كَذَّبَ رسولَهُ ﷺ أنَّ بَطْشَهُ لِمَنْ كَذَّبَ رسولَهُ شديدٌ، وقد عَلِموا ذلكَ بِما وَصَلَ إليهِمْ منْ نَبَإِ عادٍ وثمودَ وفرعونَ وغَيرِهِمْ.

وجائِزٌ أنْ يكونَ مَوضِعُ القسمِ على قولِهِ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ وذلكَ أنَّ أهلَ مكةَ كانوا أهلَ تعذيبٍ لِمَنْ آمَنَ بالنَّبِيِّ ﷺ فكانَ في ذِكْرِ ما نَزَلَ بالمُتَقَدِّمينَ مِنَ الفراعنةِ منَ العذابِ وصَبْرِ أولئكَ المُعَذَّبينَ على دينِهِمْ وضَنِّهِمْ بهِ وحُسْنِ ثناءِ اللهِ تعالى عليهِمْ تَصْبيرٌ لهمْ وتَهوينٌ على ما يَلْقَونَ مِنَ العذابِ لِيَنالوا حُسْنَ ثناءِ اللهِ تعالى لهمْ: ما نالَهُ مَنْ صَبَرَ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ السَّلَفِ.

وكذلكَ ذَكَرَ سَحَرَةَ فرعونَ، وأحسَنَ الثناءَ عليهِمْ بِصَبْرِهِمْ على تعذيبِ فرعونَ [حينَ قالوا:][3] ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] ليكونَ ذلكَ عَوناً لهمْ على الصَّبْرِ بما يَلْقَونَ مِنَ التَّعذيبِ، ثم أكَّدَ الأمرَ بالقَسَمِ لأنهُ لا كلُّ مُسْلِمٍ يُبْتَلَى بِتَعذيبِهِمْ يَبْلُغُ يَقينُهُ مَبْلَغاً، لا يَعْتَريهِ الشَّكُّ، ولا تَتَخالَجُهُ شُبْهَةٌ في ذلكَ، فأكَّدَ الأمرَ بالقَسَمِ لِرَفْعِ الرَّيبِ والإشكالِ، وقالَ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] وفي بعضِ القراءاتِ: قُتِلَ[4] معهُ رِبِّيّونَ كثيرٌ.

فَذَكَّرَ المؤمنينَ ما لَقِيَ السلَفُ مِنَ الكَفَرَةِ، وابتُلوا بِقَتلِ الرسلِ، وثَباتَهُمْ على الدينِ لِيَستَعينوا بهِ على ما يُصيبُهُمْ في سَبيلِ اللهِ، ولا يَنْقَلِبوا[5] على أعقابِهِمْ إذا أُخْبِروا بِقَتلِ الرسولِ.

وفي ذِكْرِ هذهِ الأنباءِ دلالةٌ أنَّ قولَ الرسولِ ﷺ لِعَمّارٍ ﷺ: «إنْ عادوا فَعُدْ» [البيهقي في الكبرى ٨/٢٠٩] حينَ أُكْرِهَ على إجراءِ كلمةِ الكُفْرِ على لسانِهِ، فأجْرى ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] ليسَ على الأمرِ بهِ والإيجابِ عليهِ والتحصيلِ بطريقِ العَزْمِ. بل مَعْناهُ: إنْ عادوا فَلَكَ العَودُ على سَبيلِ الرخصةِ، لأنهُ لو كانَ على الأمرِ لم يكنْ في ذِكْرِ نَبَإِ أصحابِ الأخدودِ وسَحَرَةِ فِرْعَونَ فائدةٌ سِوَى أنْ يُتْرَكَ العَمَلُ بهما.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: ولو. (٣) في الأصل وم: فقالوا. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية ج٢/ ٧١. (٥) في الأصل وم: ينقلبون.

ومعلومٌ أنَّ تلكَ الأنباءَ إنما ذُكِرَتْ لِيُعْمَلَ بها لا لِيُتْرَكَ بها العملُ. لذلكَ حُمِلَ قولُهُ [ﷺ][1]: «فَعُدْ» على الرُّخْصَةِ لا على الأمرِ بهِ ويكونُ المرادُ منْ قولِهِ ﷺ أيضاً: «مَنْ لم يَقْبَلْ رُخَصَنا كما يَقْبَلُ عَزائِمَنا فليسَ مِنّا» [بنحوه: أحمد ٢/ ٧١] أي لم يُرَ العملُ بهِ مُوَسَّعاً، بلِ اسْتَكْرَهَ، وأبى قَبولَهُ، لا أنْ يكونَ أُمِرَ بتركِ العزيمةِ وإيجابِ العملِ بالرخصةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم نَرجِعُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [منهمْ مَنْ قالَ: هي][2] البروجُ المعروفةُ، وهي أطرافُ البناءِ، وإذا بَنَى [أحدُهُمْ][3] بناءً اتَّخَذَ على طَرَفِهِ بُرْجاً لِيُشَدِّدَ بناءَهُ بهِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: البُروجُ القصورُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: البروجُ النجومُ لقولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وزينةُ السماءِ، هي ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات: ٦و٧]. ومنهمْ منْ قالَ: هي مجاري الشمسِ والقمرِ والكواكِبِ؛ فَمنازِلُها هي البُروجُ.

ثم ذَكَرَ السماءَ بالبُروجِ لِيُعْرَفَ حدَثُها ودخولُها تحتَ تدبيرِ الغيرِ؛ إذْ ذِكْرُها بالمنافعِ المَجعولةِ[4] فيها لِيَعْلَمَ الخَلْقُ أنها سُخِّرَتْ لِلمنافعِ، فَيَعْرِفوا بها حَدَثَها، إذِ المُسَخَّرُ لِمنافِعِ الغَيرِ داخِلٌ تحتَ قدرةِ مَنْ سَخَّرَهُ، والمَقدورُ يَحْدُثُ، وهمْ لم يَشهَدوا بُدُوَّها لِيَعْرِفوا بها حَدَثَها، ولا كلُّ أحدٍ يَعْرِفُ حَدَثِيَّةَ الشيءِ لكونِهِ محدوداً في نفسِهِ، إذا لم يُشاهِدوا بُدُوَّهُ.

فَذِكْرُها حيثُ ذِكْرُها بما فيها مِنَ المنافعِ المَجعولةِ للخَلْقِ إذْ ذلكَ أظْهَرَ وجودَ الدلالةِ على الحَدَثِيَّةِ لِيَعْلَموا بها حَدَثَها. ألا تَرَى أنَّ إبراهيمَ، صلَواتُ اللهِ على نَبِيِّنا وعليهِ، احْتَجَّ على قومِهِ بِنَفْيِ الإلهيَّةِ عنِ الكواكبِ بأفولِها، إذْ ذلكَ أظْهَرُ وُجوهِ الحَدَثيَّةِ، ولم يَحْتَجَّ عليهمْ بانْتِقالِها مِنْ مَوضعٍ إلى موضعٍ ولا بكونِها محدودةً في نفسِها، بل احْتَجَّ عليهمْ بما ذَكَرْنا لِيَتَحَقَّقَ عندَهمْ حُدوثُها ودُخولُها تحتَ سلطانِ الغيرِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ قيلَ: هو يومُ القيامةِ، يُسَمَّى موعوداً لِما وُعِدَ مِنْ جَميعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ في ذلكَ اليومِ ثم أقسمَ بذلكَ اليومِ، وإنْ كانوا مُنْكِرينَ لهُ لَمّا قَرَّرَهُ عليهمْ بالحُجَجِ، وألْزَمَهُمُ القولَ بهِ.

وقيلَ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو كلُّ يومٍ يأتي، فيأتي بما وَعَدَ فيهِ منَ الرِّزْقِ وغيرِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهمْ مَنْ قالَ: الشاهدُ، هو اللهُ تعالى، والمَشْهودُ، هو الخَلْقُ، واسْتَدَلَّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقيلَ: الشاهدُ الرسولُ ﷺ والمَشهودُ أُمَّتُهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ هو الكاتبانِ اللذانِ يكتبانِ على [ابنِ آدمَ أعمالَهُ][5] والمَشهودُ، هو الإنسانُ الذي يُكْتَبُ عليهِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ والمَشهودُ، هو الإنسانُ نفسُهُ، أي جَعَلَ من نفسِهِ شهوداً بقولِهِ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

ومنهُمْ مَنْ يقولُ: الشاهدُ يومُ الجمعةِ، والمَشهودُ يومُ عرفةَ؛ سُمِّيَ يومُ الجمعةِ شاهداً لأنهُ هو الذي يَشْهَدُهُمْ، ويأتيهمْ، وسُمِّيَ يومُ عرفةَ مَشهوداً لأنَّ عرفةَ اسْمُ مكانٍ، والناسُ يأتونَها، ويَشهَدونَها، ولا تأتيهِمْ؛ فَعظُمَ شأنُ عرفةَ لِما يُعَظِّمُها أهلُ الأديانِ كلِّها، وعظُمَ يومُ الجمعةِ لأنهُ يومُ عيدِ المسلمينَ، ولكلِّ أهلِ دينٍ يومٌ يُعَظِّمونَهُ، فأكْرَمَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بهذا اليومِ لِيُعَظِّموهُ، فكانَ اليومَ الذي يُعَظِّمُهُ غَيرُهُمْ منْ أهلِ الأديانِ، فأقْسَمَ بهما.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهُمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذِّبينَ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذَّبينَ. فَمَنْ صَرَفَهُ إلى المُعَذِّبينَ حَمَلَ قولَهُ: ﴿قُتِلَ﴾ على اللَّعْنِ، أي لُعِنوا، كقولِهِ تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذريات: ١٠] أي لُعِنوا، ومَنْ صَرَفَهُ إلى الذينَ عُذِّبوا حَمَلَهُ على القتلِ المَعْروفِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في م: قال بعضهم: هي، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: المجعول. (٥) في الأصل وم: بني آدم أعمالهم.

ثم اختُلِفَ في قصةِ أولئكَ الذينَ عُذِّبوا.

فإنْ كانَ القَسَمُ في الكَفَرَةِ فما يَنْبَغي أنْ يُفَسَّرَ على وَجْهٍ مِنْ ذلكَ ما لم يَتواتَرْ فيهِ الخَبَرُ عنِ المُصْطَفَى ﷺ، لأنهمْ وَجَدوها مُوافقةً للأنباءِ المذكورةِ في كُتُبِهِمْ، وقد علموا أنهُ لم يَصِلْ إلى مَعْرِفتِها [إلا باللهِ][1] تعالى؛ إذْ لم يَرْوِهِ يَخْتَلِفُ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ الأنباءِ لِيَصِلَ إلى مَعْرِفتِها بهِمْ.

فإذا فُسِّرَتْ على وَجْهٍ، أمكنَ أنْ يقعَ فيها زيادةٌ أو نقصانٌ على ما ذَكَروا في الكتابِ، فَيَجِدوا بهِ مَوضِعَ الطَّعْنِ والقَدْحِ لذلكَ، لم يَسَعْ أنْ يُزادَ [أو يُنْقَصَ عنِ][2] القَدْرِ الذي جَرَى ذِكْرُهُ في الكتابِ إلّا مِنَ الوجهِ الذي ذَكَرْنا.

وإنْ كانَ القَسَمُ في المؤمنينَ وَسِعَ القولُ بِحَمْلِ التأويلاتِ التي ذَكَرَها أصحابُ التفسيرِ لِارْتِفاعِ المَعْنَى الذي ذَكَرْنا في الكَفَرَةِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم [في][3] ذِكْرِ هذهِ الأنباءِ تقريرُ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ ﷺ، لِما ذَكَرْنا أنهُ لم يَخْتَلِفْ إلى مَنْ عندَهُ عِلْمُ هذهِ الأنباءِ لِيَعْلَمَ بهِ. فإذا أنْبَأَهُمْ على وجْهِها تَيَقَّنوا أنهُ باللهِ تعالى / ٦٣٥ ـ أ/ عَلِمَ.

وفيهِ تَصْبيرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وتَخْفيفُ الأمرِ عليهِ لأنهُ يُخْبِرُهُ أنَّ قومَكَ لَيسوا بأوَّلِ مَنْ [آذَوا، وعانَدوا][4] بل لم يَزَلْ سَلَفُهُمْ، تلكَ عادَتُهُمْ بأهلِ الإسلامِ.

وفائدةٌ أُخرَى، ما ذَكَرْنا أنَّ في ذِكْرِهِ ما يَسْتَعينُ بهِ مَنِ ابْتُلِيَ بأذَى الكَفَرَةِ، وفيهِ أنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ بَلَغَ مِنْ ضَنِّهِمْ بِدِينِهِمْ ما يُقاتِلونَ عليهِ[5] مَنْ أظْهَرَ مُخالَفَتَهُمْ في الدينِ لِيَعْلَموا أنَّ القِتالَ لِمكانِ الدينِ ليسَ بأمرٍ شاقٍّ خارجٍ عنِ الطِّباعِ، بل الطِّباعُ جُبِلَتْ على القِتالِ معَ مَنْ عاداهُمْ في الدينِ، فيكونُ فيهِ تَرْغيبٌ للمسلمينَ على القتالِ معَ الكَفَرَةِ إذا امْتُحِنوا، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [اخْتُلِفَ في تأويلِهِ][6] فمنهمْ مَنْ جَعَلَ الوَقودَ مِمَّنْ أُلْقِيَ فيها مِنَ المؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الوَقودَ صفةَ تلكَ النارِ التي عُذِّبوا بها.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ أي عُظَماؤُهُمْ وكُبَراؤُهُمْ جلوسٌ عندَ الأُخدودِ، وفيهِ أنَّ أتباعَهُمْ هُمُ الذينَ كانوا يَتَوَلَّونَ إلقاءَ المؤمنينَ في النارِ، وكُبَراؤُهُمْ جلوسٌ هنالكَ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ الشهودُ، هُمُ العظماءُ والفراعنةُ.

[والثاني: أنْ][7] يكونَ مُنْصَرِفاً إلى الأتباعِ، وهو أنَّ الأتباعَ، كانوا يُلْقُونَ المؤمنينَ في النارِ، ويَشْهَدونَ أنهمْ على الضلالِ وأنهمْ ورؤساءَهُمْ على الهُدَى والحقِّ، وهو كما قالَ في مَوضعٍ [آخَرَ][8]: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: ذَكَرَ][9] العزيزَ الحميدَ لِيُعْلَمَ أنهُ لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ بِما يَحُلُّ مِنَ الذُّلِّ بأوليائِهِ وأهلِ طاعتِهِ، ولا في حَمْدِهِ قُصورٌ بِقَهْرِ أوليائِهِ خِلافاً لِما عليهِ مُلوكُ الدنيا؛ وذلكَ أنَّ ملوكَ الدنيا إذا حلَّ بأولياءِ واحدٍ منهمْ ذُلٌّ كانَ الذُّلُّ حالّاً فيهِ أيضاً، وإذا قُهِرَ بعضُ أتباعِهِ، فَتَرَكَ نَصْرَهُمْ، وهو قادرٌ على نَصْرِهِم وإغاثَتِهِمْ، لم يَحْمَدوا ذلكَ منهُ، ولَحِقَتْهُ المذَمَّةُ، وذلكَ لأنَّ المَلِكَ اسْتَفادَ العِزَّ بأتباعِهِ وأنصارِهِ، فإذا اسْتُذِلَّ أتباعُهُ زالَ ما بهِ نالَ العِزَّ، فَلَحِقَهُ الذُّلُّ، ونالَ الحَمْدَ أيضاً بالإحسانِ إلى مَمْلَكَتِهِ.

فإذا تَرَكَ نَصْرَهُمْ، وهو مُمَكَّنٌ من ذلكَ، فقد تَرَكَ إحسانَهُ إليهِمْ، فصارَ بهِ غيرَ مَمْدوحٍ ومَحْمودٍ. واللهُ تعالى، اسْتَحَقَّ

---

(١) في الأصل وم: إلى الله. (٢) في الأصل وم: على. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أذوك وعاندوك. (٥) من م، في الأصل: عليهم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) في الأصل وم: فذكر.

العزِّ والحَمْدَ بِذاتِهِ لا بأحدٍ مِنْ خلائقِهِ، فلم يكنْ في إذلالِ أوليائِهِ ما يُوجِبُ النَّقصَ في وصفِ الحمدِ ولا ما يوجِبُ قُصوراً في العِزِّ.

والثاني: أنَّ الدنيا وما فيها أُنشِئَتْ للإهلاكِ، ولعلَّ الإهلاكَ بما ذَكَرَهُ أيسَرُ عليهِمْ مِنْ هَلاكِهِمْ حَتْفَ أنوفِهِمْ[1]، وكانَ في ذلكَ النوعِ مِنَ الهلاكِ نَيلُ درجةِ الشهداءِ، وهي التي ذَكَرَها اللهُ تعالى في قولِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولا تُنالُ تلكَ الدرجةُ بموتِهِمْ حَتْفَ أنوفِهِمْ[2]، فهذا أبلَغُ نصراً منهُ إياهُمْ.

ثم لِلْجزاءِ والعِقابِ دارٌ أُخرَى، فيها يَظْهَرُ تَعزيزُ الأولياءِ وقَمْعُ الأعداءِ[3]؛ فلم يكنْ في تَرْكِ النصرِ في الدنيا ما يوجِبُ وَهْناً ولا ذُلّاً. وأمّا ملوكُ الدنيا إذا تركوا نَصْرَهُمْ وقتَ مُلْكِهِمْ لأوليائِهِمْ فلم يُتَوَقَّعْ منهمُ النَّصْرُ بعدَ ذلكَ، إذْ ليسَتْ في أيديهِمْ إلّا المَنافِعُ الحاضرةُ، لذلكَ لَحِقَتْهُمُ المَذَمَّةُ بِتَرْكِ النَّصْرِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم ليسَ في إهلاكِ أولئكَ القومِ الذينَ آمنوا واقْتِدارِهِمْ عليهِمْ إيهامُ أنهمْ كانوا على الحقِّ والصوابِ وأنَّ المؤمنينَ كانوا على الخَطَإِ، لأنَّ الإهلاكَ إنما يَصيرُ آيةً إذا كانَ على خِلافِ المُعتادِ، وإهلاكُهُمْ لم يَكُنْ كذلكَ، لأنَّ عَدَدَهُمْ كانَ كثيراً، وكانَ في المؤمنينَ قِلَّةٌ، وإهلاكُ الكثيرِ للقليلِ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ، بل هو أمرٌ معتادٌ، وغَلَبَةُ الفِئَةِ القليلةِ[4]، هي التي تَخْرُجُ مِنْ حَدِّ الاعْتِيادِ، فيكونُ فيها آيةُ أنَّ الفِئَةَ القليلةَ على الحقِّ، والأُخرَى على الباطِلِ، وذلكَ نَحْوُ غَلَبَةِ رسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ المسلمينَ مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِمْ وضَعْفِهِمْ في أنفسِهِمْ وكَثْرَةِ أتباعِ الكَفَرَةِ وقُوَّتِهِمْ وجَلادَتِهِمْ في أنفسِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي لم يكنْ مِنَ المؤمنينَ بِمكانِهِمْ جُرْمٌ مَنْ يَنْتَقِمُ منهمْ بالإحراقِ سِوَى أنْ آمَنوا باللهِ تعالى [وقيلَ: ما عابوا عليهِمْ، وما أنْكَروا منهمْ، وفي هذا تَبيِينُ سَفَهِهِمْ وعُتُوِّهِمْ لأنهمْ عَلِموا أنَّ مالَهُمْ مِنَ النِّعَمِ كُلِّها مِنَ اللهِ تعالى، فكانَ الذي يَحِقُّ عليهِمْ أنْ يُؤمِنوا باللهِ تعالى][5] ويَشكُروهُ بما خَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، ويَدْعوا غيرَهُمْ[6] إلى الإيمانِ بهِ، لا أنْ يَقْتُلوا، ويُعَذِّبوا مَنْ آمَنَ بهِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فالعزيزُ هو الذي لا وُجودَ لِمِثْلِهِ[7] أو هو عزيزٌ، لا يَلْحَقُهُ ذُلٌّ، فيكونُ العِزُّ مُقابِلَ [الذُّلِّ][8].

وقالَ أهلُ التَّفسيرِ: العِزُّ المَنْعُ، والعزيزُ، هو الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، والحميدُ[9]: المُستَوجِبُ الحمدَ مِنْ كلِّ أحدٍ بذاتِهِ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ؛ فَذِكْرُ هذا لِيُعلَمَ أنهُ لا يَدْخُلُ في مُلْكِهِ قُصورٌ بِقَتْلِ أوليائِهِ وأنصارِ دينِهِ، لأنَّ الخَلْقَ كلَّهُمْ عَبيدُ اللهِ تعالى وإماؤُهُ، والسَّيِّدُ إذا قَتَلَ بعضُ مَماليكِهِ بعضاً لم يَلْحَقِ السَّيِّدَ بذلكَ ذُلٌّ ولا نَقْصٌ، وإنما يَدخُلُ عليهِ الذُّلُّ إذا قَتَلَهُمْ غيرُ مَماليكِهِ. فإذا كانَ الخَلْقُ بأجمَعِهِمْ عَبيدَ اللهِ لم يكنْ في قَتْلِ بعضٍ بعضاً نَقْصٌ، يدخُلُ في مُلْكِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي يَحْفَظُ عليهِمْ أعمالَهُمْ، فَيُجازيهِمْ بها، ولا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فالفِتْنةُ المِحْنةُ، وهي مأخوذةٌ مِن فَتْنِ الذهبِ إذا أذابَهُ، لأنهُ يُذيبُهُ لِيُمَيِّزَ بهِ بَينَ ما خَبُثَ منهُ وبَينَ ما صَفَا وبَينَ الذَّهَبِ وبَينَ ما ليسَ بِذَهَبٍ، فاسْتُعْمِلَتْ في موضعِ الفِتْنةِ، لأنَّ المِحْنةَ، هي الابْتِلاءُ لِيَتَبَيَّنَ بها الصادقُ مِنَ الكاذبِ والمُحِقُّ مِنَ المُبْطِلِ؛ وذلكَ يكونُ بالأمرِ والنَّهْيِ؛ فَسُمِّيَ الأمْرُ والنَّهْيُ مِنَ اللهِ تعالى امْتِحاناً. هذا، وإنْ كانَ اللهُ تعالى لا يَخْفَى عليهِ شيءٌ.

ثم وجهُ فِتْنَتِهِمْ أنهمُ اتَّخَذوا الأخاديدَ، وأوقَدوا فيها النيرانَ لِيُلْقُوا فيها مَنْ ثَبَتَ على الإيمانِ، ودامَ عليهِ، ويَتْرُكوا إلقاءَ مَنْ رَجَعَ عنْ دينِهِ، فقيلَ: فُتِنوا لهذا.

---

(١) و(٢) في الأصل وم: أنفسهم. (٣) في الأصل وم: الأولياء. (٤) في الأصل وم: الكثيرة. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: له. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: وهو الحميد.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ ففيهِ أنهمْ لو تابوا لكانَ يُعفَى عنهمْ، ولا يُعاقَبونَ، معَ عِظَمِ جُرْمِهِمْ بربِّهِمْ في ذاتِ اللهِ تعالى، فيكونُ فيهِ إظهارُ كرمِهِ وعطفِهِ على خَلْقِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ قولَهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ إلى الدنيا، فقالَ: إنَّ تلكَ النارَ التي عَذَّبوا بها المؤمنينَ سُلِّطَتْ عليهِمْ حتى أحرَقَتْهُمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ في جهنَّمَ أيضاً، فيكونُ فيهِ إخبارٌ بأنَّ نارَ جهنَّمَ تدومُ عليهِمْ بالإحراقِ، ولا تفتُرُ عنهمْ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فمنهمْ مَنْ صَرَفَ هذا الخِطابَ إلى الذينَ عُذِّبوا منَ المؤمنينَ، ومنهمْ مَنْ صَرَفَهُ[1] إلى المُعذِّبينَ، وهو أنهمْ لو آمَنوا معَ عِظَمِ جُرْمِهِمْ وإساءَتِهِمْ [إلى أولياءِ][2] اللهِ تعالى لكانَ يَعفو عنهمْ، وتَسَعُهُمْ رحمتُهُ.

وقولُهُ ﷻ: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فقولُهُ: ﴿مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: مِنْ تحتِ أهلِها.

والثاني: مِنْ تحتِ أشجارِها.

والجَنةُ اسْمٌ للمكانِ [الذي فيهِ][3] الأشجارُ المُلْتَفَّةُ، فَيُخبِرُ [أنَّ][4] الماءَ يَجري مِنْ تحتِ ما بهِ صارَ جَنةً، وهي الأشجارُ. وليسَ يُرادُ بقولِهِ: ﴿تَحْتِهَا﴾ الجَنةُ أي تحتَ ترابِها، لأنَّ تَحتَها تكونُ قناةٌ أو بئرٌ، إذْ ليسَ بهما كثيرُ نُزْهةٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ والفائزُ، هو الذي يَظفَرُ بما يأمُلُ، ويَنْجو عمّا يَخافُ، ويَحْذَرُ. ووصفَ [الفوزَ][5] أنهُ كبيرٌ لأنهُ ليسَ لِما أنعمَ زَوالٌ ولا انْقِطاعٌ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي أخذَهُ لِلانْتِقامِ شديدٌ؛ يَشتَدُّ على الذي يُعَذِّبُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: يُبْدِئُ العذابَ، ثم يُعيدُهُ. قالَ بَعضُهُمْ: يُبْدِئُ الخَلْقَ /٦٣٥ ـ ب/ ثم يُعيدُهُ بعدَ ما أماتَهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ الغفورُ، هو السَّتورُ، يَسْتُرُ على المذنبِ ذنبَهُ إذا تابَ حتى لا يُذكَرُ بهِ، ولولا ذلكَ لم يكنْ يَصْفو لهُ نعيمُ الآخرةِ مِنَ التَّنغيصِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: الوَدودُ][6] الذي يَتَوَدَّدُ إلى خَلْقِهِ في ما يُنْعِمُ عليهِمْ، ويُحْسِنُ إليهِمْ. قالَ النَّبيُّ ﷺ وعلى آلِهِ: «جُبِلَتِ القلوبُ على حبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها وبُغْضِ مَنْ أساءَ إليها» [أبو نعيم في الحلية ٤/ ١٢٠ وفي تذكرة الموضوعات ٦٨] فَجَعَلَ الإحسانَ سَبَبَ التَّوَدُّدِ.

والثاني: أنَّ كلَّ مَنْ وادَّ آخَرَ فالحقُّ عليهِ أنْ يَوَدَّهُ في اللهِ تعالى لأنهُ بهِ نالَ ما بهِ يَتَوَدَّدُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] فكأنهُ يقولُ: هو المُسْتَوجِبُ للمودةِ مِنَ الخَلْقِ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ فمنهمْ مَنْ جَعَلَ المَجيدَ نَعْتاً للعَرْشِ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَهُ نَعْتاً للهِ تعالى؛ فمَنْ جَعَلَهُ [نَعْتاً][7] للعَرْشِ، فهو مُستقيمٌ، لأنهُ وَصَفَهُ في مكانٍ آخَرَ بالكريمِ بقولِهِ: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] والمَجيدُ يَقْرُبُ مَعْناهُ لِمَعْنَى الكريمِ [لأنَّ الكريمَ][8] هو الذي عَظُمَ قدرُهُ وشَرَفُهُ، والمَجيدُ كذلكَ هو الشريفُ المُعظَّمُ، وعَظُمَ قَدْرُ العَرْشِ في قلوبِ الخَلْقِ، وعَلَا، حتى زَعَمَ بعضُ الناسِ أنهُ مَكانُ الرَّبِّ تعالى.

---

(١) من م، في الأصل: صرف. (٢) في الأصل وم: بأولياء. (٣) في الأصل وم: التي فيها. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

والكريمُ في الشاهدِ، هو الذي يُطمَعُ عندَهُ وجودُ ما يُرجَى، ويُؤمَلُ، ويُؤمَنُ منهُ ما يُتّقَى ويُحذَرُ، وسمّى اللهُ تعالى النباتَ كَريماً بقولِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠] لِما فيهِ مِنْ عِظَمِ المنافعِ للخَلْقِ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنّ][1] ما يُريدُ تكوينَهُ يكونُ[2]، فيكونُ فيهِ إيجابُ القولِ [بِخَلْقِ أفعالِ][3] العبادِ، وأنهُ شاءَ لكلِّ أحدٍ ما عَلِمَ أنهُ يكونُ منهُ لأنهُ امتُدِحَ، جَلَّ، وعلا، بالفعلِ لِما يُريدُ. ولو لم يَثْبُتْ لهُ صُنْعٌ في أفعالِ العبادِ لكانَ لا يَختَصُّ بهذا الامْتِداحِ، بل يكونُ كلُّ واحدٍ مُستَوجِباً لهذا المدحِ، فَثَبَتَ أنّ كونَ حقائقِ الأشياءِ بما للهِ تعالى فيهِ صنعٌ.

والثاني: أنّ إحداثَ شيءٍ في سُلطانِ آخَرَ وفي مَملَكَتِهِ مِنْ حيثُ لا يَشاؤُهُ، ولا يُريدُهُ آيةُ الضَّعفِ والقَهرِ، ومَنْ ذلكَ وَصْفُهُ لم يَجُزْ أنْ يكونَ ربّاً. لذلكَ لَزِمَ وصْفُ اللهِ تعالى بذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي البعثِ، وهو أنهُ أنشأَ هذا الخَلْقَ للعاقبةِ. وهكذا فِعلُ كلِّ مُختارٍ أنهُ يَقصِدُ بِفعْلِهِ العاقبةَ لا[4] أنْ يكونَ جاهلاً بها.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ ﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ فقد [وَصَفْناهُ][5] في ذِكرِ الأنباءِ في[6] الفوائدِ، وقد ذَكَرْنا أنّ فيها إثباتَ رسالتِهِ على ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ غيرَ مرّةٍ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أي كَفَروا بأنعُمِ اللهِ تعالى، فهمْ في تَكذيبٍ بأنعُمِ اللهِ تعالى، أو لمّا جَحَدوا أنعُمَ اللهِ تعالى لم يُوَفِّقْهُمْ للإيمانِ بهِ، فَجُعِلوا على التّكذيبِ.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي مِنْ وراءِ تَكذيبِهِمْ محيطٌ بما يَنْزِلُ بهمْ منَ العذابِ، ليسَ يُوعِدُهُمْ عنْ غفلةٍ وخَيالٍ كما يَفعَلُهُ ملوكُ الدنيا، قد يُوعِدونَ بالعذابِ، ولا يَدرُونَ أنهمْ يَتَمَكّنونَ منْ ذلكَ أم لا. واللهُ يُنزِلُ عليهِمْ عذابَهُ كما أوعَدَ.

أو يكونُ قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي عالمٌ بما يُسِرّونَ، ويُخفونَ عنِ الخَلْقِ، لا يَعزُبُ عنهُ شيءٌ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ فسمّاهُ مَجيداً وكَريماً وحَكيماً؛ وهذهِ أوصافٌ؛ مَنْ وُصِفَ بها في الشاهدِ فقدِ استَحَقَّ الوَصْفَ بِفِعْلٍ وُجِدَ منهُ، ولا يوجَدُ في[7] القرآنِ فِعْلٌ [لا][8] يَستَحِقُّ بهِ الوصفَ؛ فالوصْفُ بهِ يَحتَمِلُ أوجهاً:

أحدُها: ﴿مَّجِيدٞ﴾ أي يَصيرُ مَنْ تَبِعَهُ، وعَمِلَ بِما فيهِ، مَجيداً حَكيماً كَريماً كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧و...] أي يُبْصَرُ بهِ.

[[والثاني: أنْ][9] يكونَ قولُهُ: ﴿مَّجِيدٞ﴾ كريماً[10] أي على اللهِ تعالى.

[والثالثُ][11]: سَمّاهُ كَريماً مَجيداً حَكيماً لِعِظَمِ قَدْرِهِ.

[والرابع][12]: سَمّاهُ كَريماً مَجيداً حَكيماً لِما يُوجَدُ منهُ ما يوجَدُ مِنَ الكُرَماءِ والحُكَماءِ والأمجادِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى:][13] ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ فمنهمْ مَنْ حَقّقَ اللّوحَ والقَلَمَ، وقد وَصَفَهُ أهلُ التفسيرِ، ومنهمْ مَنْ جَعَلَ اللّوحَ عبارةً عمّا يَلوحُ أي يُظْهِرُ لِلمالكِ مِنَ الأمرِ لا على تحقيقِ اللّوحِ.

وسَمّتِ الباطِنيةُ القَلَمَ المُبْدِعَ الأوّلَ [واللّوحَ المُبْدِعَ الثانيَ، وجَعَلوا المُبْدِعَ الأوّلَ][14] عِلّةَ كونِ المُبْدِعِ الثاني، وزَعموا أنّ المُبْدِعَ الأوّلَ بُذِلَ لهُ إنشاءُ المُبدِعِ الثاني. فهو المُنْشِئُ لهُ. وسَمّتِ المُبْدِعَ الأوّلَ بارياً والمُبدِعَ الثانيَ خالقاً رَحماناً.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: بكونه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: إلا. (٥) في الأصل وم: وصفناها. (٦) في الأصل وم: من. (٧) في الأصل وم: من. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل: أو. (١٠) في الأصل: كريم. (١١) في الأصل: أو. (١٢) في الأصل: أو. (١٣) ساقطة من م. (١٤) من م، ساقطة من الأصل.

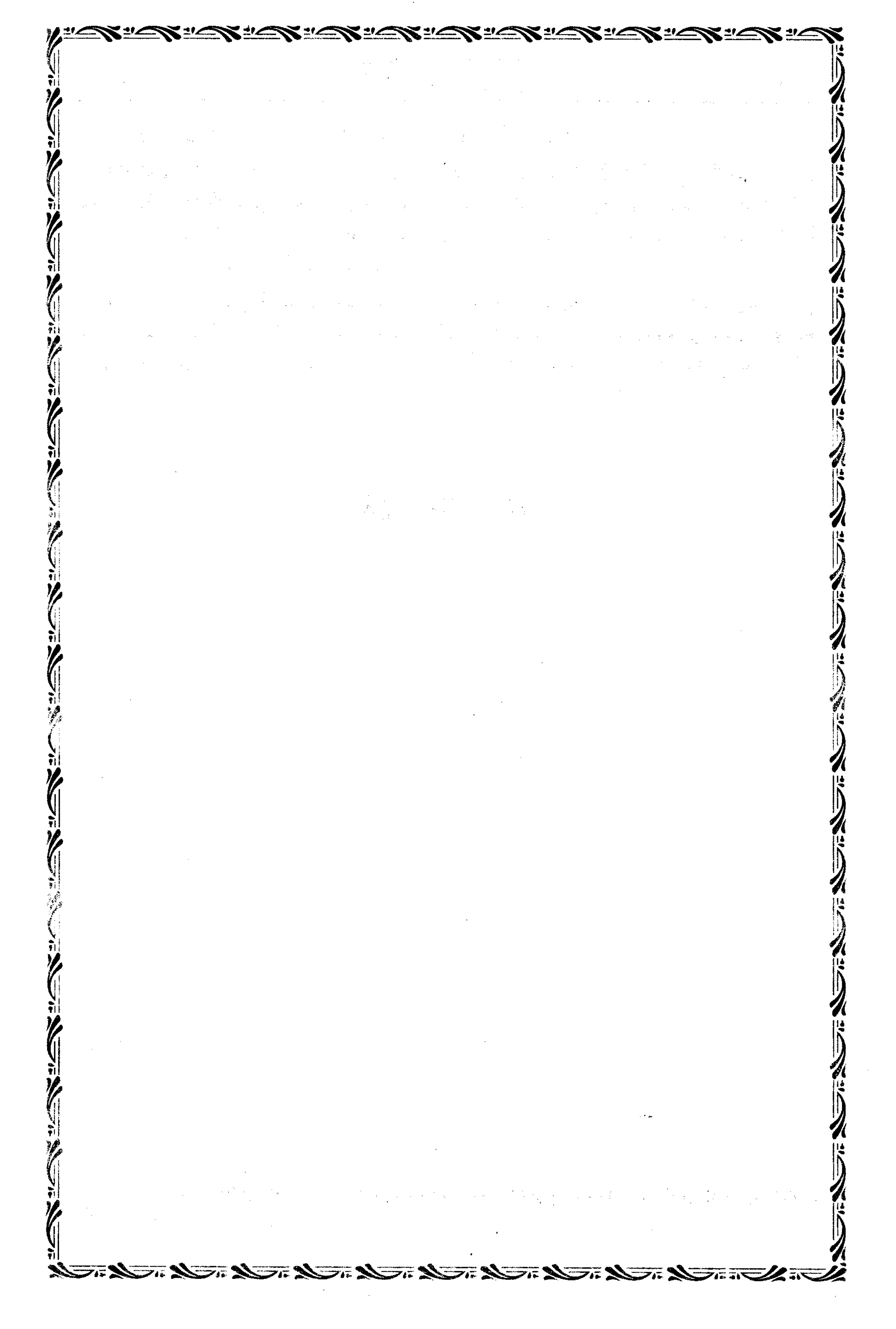
وسمّتِ الفلاسفةُ المُبْدِعَ الأوّلَ عَقْلاً والثانيَ نَفْساً، ثم حَدَثَ التَّوالُدُ مِنَ الأنفسِ.

فأمّا جَعْلُهُمُ الأوّلَ أصْلاً وعِلّةً لِيَسَوُّوا[1] ما ذَكَروا، فذلكَ يَحْتَمِلُ أنْ يُجْعَلَ الأوّلُ أصْلاً للثاني وعِلّةً كما اسْتقامَ أنْ تُجْعَلَ النُّطْفَةُ أصْلاً لِخَلْقِ البَشَرِ. ولكنهُ لا يجوزُ أنْ يُسَمّى بواحدٍ مِنَ الاسْمَينِ اللَّذينِ ذَكَرَتْهما الباطنيةُ والفلاسفةُ لأنهُ لا يجوزُ إنشاءُ الأسماءِ لهذهِ الأشياءِ اختِراعاً، أو[2] تَسْمِيَتُهما [بما جاءَتِ التّسْمِيةُ منْ غَيرِ الحُجّةِ، وإنما جاءَتِ][3] التّسْمِيةُ مِنْ عندِ الحُجّةِ باللَّوحِ والقَلَمِ، فلا تُسَمِّيهما بِغَيرِهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ أي [مِنْ][4] أعدائِهِ، فلا يَتَمَكّنونَ مِنْ تَغْيِيرِهِ وتَبْديلِهِ. وأخبَرَ أنهُ أنزَلَهُ إليهِ على يَدَي رسولٍ قَوِيٍّ، فلا يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يَغْلِبَهُ، فَيُحَرِّفَ ما فيهِ، وَوَصَفَهُ بالأمانةِ في نفسِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠و٢١] لِيُؤْمَنَ تَغْييرُهُ بنفسِهِ، واللهُ الهادي للعبادِ والموفِّقُ للرشادِ [ولا حَولَ ولا قوةَ إلّا باللهِ العَلِيِّ العظيمِ][5].

---

(١) في الأصل وم: ليسوا. (٢) في الأصل وم: بل. (٣) من نسخة الحرم المكي. (٤) في م: عن، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الطارق

[وهي مكية][١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾][٢] إنَّ اللهَ، جَلَّ، وعَلَا، عَظَّمَ قَدْرَ السماءِ في أعينِ الخَلْقِ لمَّا جَعَلَها مَعْدِنَ رزقِهِمْ ومَسْكَنَ أُولي القَدْرِ مِنْ خَلْقِهِ، وهمُ الملائكةُ، وفيها خَلَقَ الجنةَ، وخَلَقَها بِغَيرِ عَمَدٍ، تُرَى. فأقْسَمَ بها لمّا عَظَّمَ مِنْ شأنِها، وجَعَلَ مَصالحَ الأغذيةِ بزينتِها، وهي الشمسُ والقمرُ [والكواكبُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أقسَمَ][٣] بالنجمِ الثاقبِ، وهو المُتَلَألِئُ مِنَ النجومِ، المُضيءُ الذي يَثْقُبُ الشيطانَ، أو يَحْرِقُهُ، ولِما فيها أيضاً مِنْ عِظَمِ البركاتِ.

وبَرَكاتُها أنها جُعِلَتْ بحيثُ يُهْتَدَى بها في البرِّ والبحرِ، ويوصَلُ بها إلى لَطائفِ التدبيرِ إلى أنْ ظَنَّ بعضُ [الناسِ][٤] أنَّ الأنجمَ السَّبْعةَ، هي المُدَبِّراتُ، وبها ما مَنَعَ الشياطينَ عنِ الصعودِ إلى السماءِ لِيُتَّقَى بها التَّلْبيسُ على الوَحْيِ، لأنهمْ لو لم يُمْنَعوا[٥] عنها لكانوا إذا وقَفوا على أخبارِها أسْرَعوا بِحَمْلِها إلى الكَهَنةِ، فَيُؤدّي ذلكَ إلى التلبيسِ.

ومِنْ عِظَمِ قَدْرِها أنها تَقْطَعُ/ ٦٣٦ ـ أ/ في الليلةِ الواحدةِ مَسيرَةَ ألفِ شَهْرٍ، فأقْسَمَ [بها][٦] أيضاً.

ويجوزُ أنْ يكونَ هذا مِنَ اللهِ تَعْليماً لِرسولِهِ ﷺ بأنْ يُقْسِمَ بهِ دونَ أنْ يكونَ ذلكَ قَسَماً منهُ تعالى [ما][٧] لم يكونوا يَرْتابونَ في أُلوهيَّتِهِ ورُبوبيَّتِهِ وصِدْقِ أخبارِهِ، فزالَ عنهمُ الرَّيْبُ بالقَسَمِ [وإنْ كانوا يرتابونَ في رسالةِ محمدٍ ﷺ فَعَلَّمَهُ القَسَمَ بما ذَكَرَ لِيُؤكِّدَ أمرَهُ، فَيَحْمِلَهُمْ ذلكَ على النَّظَرِ في أمرِهِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ القَسَمُ بِغَيرِ هذهِ الأشياءِ لِكَونِها مُعَظَّمةً عندَ الكَفَرَةِ، وليسَ لِلْكَفَرَةِ، وليسَ للمسلمينَ أنْ يُقْسِموا في ما بَيْنَهُمْ؛ إذْ يكونَ القَسَمُ بهذهِ الأشياءِ هو القَسَمُ بِخالِقِها، فكأنهُ أمَرَهُ بالقَسَمِ][٨] بِخالقِ هذهِ الأشياءِ على الإضمارِ، واللهُ أعلَمُ.

واخْتُلِفَ في تأويلِ ﴿الطَّارِقُ﴾ فقالَ بعضُهُمْ: ما يجيءُ بِهِ الليلُ، يُقالُ: طَرَقْتُهُ بالليلِ إذا أتَيْتُهُ.

وقالَ الزَّجّاجُ: الطارقُ، هو الساكنُ، يُقالُ: أطْرَقَ في الكلامِ مَلِيّاً إذا وقَفَ، وسَكَتَ.

وقالَ بَعْضُهُمْ: هو النجمُ يَطْرُقُ بالليلِ، ويَخْتَفي بالنهارِ، وهو النجمُ الثاقبُ؛ ذَكَرَهُ تَفْسيراً للطارقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ اخْتُلِفَ في قولِهِ: ﴿إِن﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: أُريدَ بِهِ ههنا: ما، وقولُهُ: ﴿لَّمَّا﴾ صِلَةٌ في الكلامِ؛ فمعناهُ [في وجهَينِ:

أحَدُهُما:][٩] ما مِنْ نفسٍ عليها حافظٌ، وإنّما الحافظُ على بعضٍ دونَ بعضٍ.

والثاني: أنْ يكونَ الحافظُ على بعضِ ما في النفسِ دونَ بعضٍ؛ وذلكَ البعضُ هو الذي يُظْهِرُهُ. فأمّا الذي يُخْفيهِ فإنهُ لا يَشْهَدُهُ كاتباهُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وأقسم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يحفظوا. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من الأصل وم.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَ قولَهُ تعالى: ﴿لَّمَّا﴾ على الإسْتِثناءِ، فقالَ: مَعْناهُ ما مِنْ نفسٍ إلّا عليها حافظٌ.

قالَ الزّجّاجُ: حَرْفُ ﴿لَّمَّا﴾ اسْتُعْمِلَ في مَوضِعِ الإسْتِثْناءِ، يُقالُ: أقسَمْتُ عليكَ لمّا فَعَلْتَ كذا، أي إلّا فَعَلْتَ كذا. فإذا كانَ مَعناهُ ما ذَكَروا ففيهِ إلزامُ التّيقُّظِ والتّبصُّرِ، والنفسُ مِنْ طَبْعِها إذا سُلّطَ عليها مَنْ يُراقِبُها، ويَحفَظُها، احتشَمَتْ [مِنْ][1] مُراقِبِها، وخافَتْهُ، وتكونُ مُتيَقِّظَةً، ولا تَرْتَكِبُ مِنَ الأمورِ إلّا ما يُعْلَمُ أنهُ لا تَلْحَقُهُ التَّبِعَةُ مِنَ الحُفّاظِ.

[والمرءُ يُسَلَّطُ][2] عليهِ المَلَكانِ أيضاً ليكونَ مُتيَقِّظاً في كلّ قولٍ وفِعْلٍ، فلا يُقْبِلُ إلّا إلى ما فيهِ نَفْعُ العاجِلِ والآجلِ.

وسَمّى اللهُ تعالى المَلَكَيْنِ ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] ومَنْ صَحِبَ المُكَرَّمَ مِنَ الخلائقِ احْتَشَمَ منهُ، وتَوَقّى عن إتيانِ ما يُسْتَحْيَى مِنْ مِثْلِهِ. ومَنْ أرادَ أنْ يكتبَ إلى أحدٍ كتاباً، لم يُثْبِتْ في كتابِهِ شيئاً، يُؤخَذُ عليهِ، ويُذَمُّ بهِ، بل يُحْكِمُ الأمرَ، ويُصْلِحُهُ غايةَ ما يَحْتَمِلُهُ الوُسْعُ، فكانَ في ذِكْرِ الحافظِ على الأنفسِ إلزامُ التّيقُّظِ والتّبصُّرِ مِنَ الوَجْهِ الذي ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَافِظٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: يَحفظُ عليها رِزْقَها حتى تَسْتَوْفِيَ بهِ. فإنْ كانَ على هذا فالحفظُ يكونُ لها لا عليها. قالَ بَعْضُهُمْ: يَحفظُ عليها أعمالَها خيرَها وشرَّها.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ فالأصلُ أنّ إمعانَ النظرِ في ما خُلِقَ منهُ الإنسانُ ممّا يُوصِلُ المُنكِرِينَ للبعثِ والمُنكِرِينَ للرسالةِ إلى القولِ، وذلكَ أنّ النطفةَ التي خُلِقَ منها الإنسانُ، لو رُئِيَتْ مَوضوعةً على طَبَقٍ، ثم رامَ أحدٌ أنْ يَعْرِفَ وأنْ يَنْتزِعَ منها المَعْنى الذي بهِ صَلَحَ أنْ تُنْشأَ منها العَلَقَةُ والمُضْغَةُ، وخُلِقَ منها الإنسانُ، لم يُدْرِكْ، ولو اجْتَمَعَ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يُرَكِّبوا عليها جارحةً مِنْ جَوارحِ الإنسانِ، لم يَتَهَيّأْ لهمْ تَرْكيبُها، أو [أنْ][3] يَعْرِفوا المَعْنَى الذي [بهِ][4] صَلَحَ أنْ يُنْشأَ منهُ السمعُ والبَصَرُ، لم يُوَفَّقوا لهُ.

فَتَبَيَّنَ أنَّ الذي بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا لا يَخْفَى عليهِ أمرٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، وتَبَيَّنَ لهمْ حكمتُهُ. وإذا عَرَفوا حكمتَهُ أدّاهُمْ ذلكَ إلى القولِ بالبعثِ، لأنهُ لولا البعثُ لكانَ[5] يَخْرُجُ إنشاءُ الخَلْقِ عَبَثاً باطلاً، فَيَخْرُجُ عن أنْ يكونَ حكيماً، ولَزِمَهُمْ أنْ يُصَدِّقوا الرسلَ بجميعِ ما أخْبَرَتْهُمْ.

وفيهِ دلالةُ خَلْقِ الشّيءِ لا مِنْ شَيءٍ، إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ بكُلِّيَّتِهِ مِنَ النُّطفةِ مُسْتَحْسَناً، فَظَهَرَ أنهُ لا يَسَعُ في الشيءِ الواحدِ ما لا يُحْصَى ذلكَ مِنَ الأضعافِ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ عَمَلَ النطفةِ أيضاً، وإنها مَواتٌ، لا يُحْتَمَلُ أنْ تَصيرَ كذلكَ إلّا بتدبيرِ مُدَبِّرٍ عليهمْ، فيكونُ في ما ذَكَرْنا إيجابُ القولِ بحدوثِ العالَمِ. ولأنها لو صارَتْ مُضْغَةً وعَلَقَةً وخَلْقاً سَوِيّاً بِطَبْعِها لكانَتْ لا تَخلو نُطْفَةً إلّا وهي تَنْتَقِلُ إلى ما ذَكَرْنا.

ألَا تَرَى أنَّ النارَ لمّا كانَ مِنْ طَبْعِها الإحراقُ، والثّلجَ إذا كانَ مِنْ طَبْعِهِ التّبريدُ لم يَجُزْ أنْ يَنْتَقِلَ واحدٌ منهما عن طَبْعِهِ الذي أُنْشِئَ عليهِ؟ ثم قد وجَدْنا نُطَفاً، تَخلُو مِنْ هذهِ المعاني التي ذَكَرْنا، فَثَبَتَ أنها نُقِلَتْ إلى ما ذَكَرْنا بِتَدبيرِ حكيمٍ مُدَبِّرٍ لا بِطَبْعِها.

ثم الأعجوبةُ في ما فيهِ خَلْقُ الإنسانِ ليسَتْ بأقَلَّ مِنَ الأعجوبةِ ممّا منهُ خُلِقَ؛ وذلكَ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ في الظُّلُماتِ على ما أرادَ اللهُ تعالى، وصَوَّرَهُ كيفَ شاءَ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَعْلَمَ عِلْمَ ذلكَ أو يُصَوِّرَ مثلَهُ في حالةِ العِيانِ لم يَمْلِكْ [أو يَجْعَلَ][6] ذلكَ المكانَ في ما يَنْمو فيهِ الولدُ، ويَتَغَذّى[7] فيهِ مَخصوصاً مِنْ بَينِ سائرِ الأماكنِ، ولو أرادَ حُكَماءُ الإنسِ والجنِّ أنْ يَعْرِفوا الوجهَ الذي بهِ صَلَحَ ذلكَ المكانُ للنَّماءِ والغِذاءِ، وأُعْلِموا فيهِ فنونَ العِلْمِ، لم يَعْرِفوا.

فَمَنْ تَفَكَّرَ في ما ذَكَرْنا عَلِمَ أنَّ قدرَتَهُ ذاتِيَّةٌ، لا يَلْحَقُها فَناءٌ ولا عَجْزٌ، وعَلِمَ أنَّ عِلْمَهُ ذاتِيٌّ، ليسَ بِمُكْتَسَبٍ، فَيُتَوَهَّمُ خَفاءُ الأمورِ عليهِ.

---

(١) في الأصل وم: عليه المكان أيضاً. (٢) في الأصل وم: فسلط. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وإلا كان.
(٦) في الأصل وم: وجعل. (٧) في الأصل وم: ويغذو.

وقولُهُ تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ يعني النُّطفَةَ التي يَدْفُقُها الرجلُ في الرَّحِمِ، والدافِقُ مَدْفوقٌ، أي يُدْفَقُ بهِ كقولكَ: ليلٌ نائمٌ، أي يُنامُ فيهِ، وهو ناصِبٌ، أي يُنْصَبُ بهِ. وقالَ الزَّجّاجُ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ أي ذي انْدِفاقٍ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: بَينَ صُلْبِ الرجُلِ وتَرائِبِ المرأةِ، وهيَ الأضلاعُ الثمانيةُ: أربعٌ عنْ يَمينِها وأربعٌ عنْ يَسارِها. قالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ، هيَ الأطرافُ، وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ مَوضِعُ القِلادةِ منها، وقالَ بَعْضُهُمْ: التَّرائِبُ ما دونَ التَّراقي وفوقَ الصَّدْرِ.

ثم مِنَ الناسِ مَنْ صَرَفَ تأويلَها إلى الرجلِ خاصَّةً، فقالَ: قولُهُ: ﴿مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أُريدَ بهِ صُلْبُ الرجلِ وتَرائِبُهُ، وزَعَمَ أنَّ الماءَ الذي يكونُ منهُ الولدُ، ليسَ مَعْدِنُهُ الصُّلْبَ خاصَّةً، بل يَجْتَمِعُ مِنْ أطرافِهِ كلِّها[1]. ومَنْ حَمَلَهُ على المَعاني الأُخَرِ صَرَفَ الأمرَ إليهما جميعاً؛ وهو أنَّ الماءَ الذي يُخلَقُ منهُ الولدُ يكونُ منهما جميعاً. وذلكَ ذَكَرَهُ أبو بكرٍ الأصَمُّ: أنَّ الصُّلْبَ كِنايةٌ عنِ الرجلِ، والتَّرائبَ كِنايةٌ عنِ المرأةِ، فيكونُ هذا اسْماً لهما مأخوذاً مِنْ أصلِ ما يكونُ منهما.

ألا تَرى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ الآيةَ؟ [النساء: ٢٣] فأضافَ الأبناءَ إلى الأصلابِ.

وفي إخراجِ الماءِ مِنَ الصُّلْبِ والتَّرائبِ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنهُ لوِ اجْتَهَدَ الخَلائقُ باسْتِخراجِهِ مِنْ بَينِ ما ذَكَرَ بِحِيَلِهِمْ وَقِواهُمْ ووَضْعِهِ في الرَّحِمِ لم يَقْدِروا عليهِ.

ثم اللهُ بِلُطْفِهِ وَضَعَ هذهِ الشَّهْوةَ في ما بَينَ الخَلْقِ، واسْتَخْرَجَ بها الماءَ مِنْ بَينِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ، لا أنْ يكونَ أحدٌ يَمْلِكُ إخراجَها بالأسبابِ والحِيَلِ كما وَضَعَ فيهِمْ شَهْوَةَ الأكلِ والشَّرابِ في كلِّ جارحةٍ مِنْ جوارحِ الأكلِ باللُّطفِ لا أنْ يكونَ ذلكَ العملُ بالأكلِ والشَّرابِ خاصةً. وكذلكَ يَرَى الإنسانُ إذا سَقَى أصلَ الشجرةِ ظَهَرَتْ مَنْفَعَةُ السَّقْيِ في أغصانِها وأوراقِها وأثمارِها. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يَرَى[2] لأيِّ مَعْنًى صَلَحَ أنْ يكونَ الماءُ بالمَحَلِّ الذي ذَكَرْنا، وأرادَ أنْ يَسْتَخْرِجَ المَعْنَى المَجْعولَ في الطعامِ مِنَ القُوَّةِ التي ذَكَرْنا لم يُدْرِكْ[3] ذلكَ.

فيكونُ في ما ذَكَرْنا أبْلَغُ حُجَّةٍ على الثَّنَوِيَّةِ لأنهمْ يُنْكِرونَ خَلْقَ الأشياءِ/ ٦٣٦ ـ ب/ لا مِنْ أشياءَ، وزَعَموا أنا لم نُشاهِدْ كونَ الشَّيءِ مِنْ لا شيءٍ، والشاهدُ دليلُ الغائِبِ، فَلَزِمَ ذلكَ في الذي غابَ عنّا.

فَمَنْ قَدَرَ على تَصويرِ الولدِ في تلكَ الظلماتِ وفي الأماكنِ الضَّيِّقةِ، وقَدَرَ أنْ يَجْعَلَ في الماءِ والطعامِ المَعانِيَ التي يَعْجِزُ الخَلْقُ عنْ إدراكِها[4] قادرٌ على إنشاءِ الخَلْقِ لا مِنْ شيءٍ؛ إذِ الأعجوبةُ في ما ذَكَرْنا، ليسَتْ بدونِ الأعجوبةِ مِنْ إنشاءِ شيءٍ [لا مِنْ شيءٍ][5].

الآية ٨ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ على ردِّهِ إلى صُلْبِ أبيهِ لَقادِرٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنهُ على بعْثِهِ لَقادِرٌ، وهذا أشْبَهُ التأويلَيْنِ لأنَّ الآيةَ في مَوضِعِ الِاحْتِجاجِ على الكفرةِ. ولم يُذْكَرْ عنْ أحدِ التَّنازُعُ في نَفْيِ الرَّدِّ إلى الصُّلْبِ وإنكارِهِ حتى تُدْفَعَ المُنازعةُ بهذا.

وكانوا أهلَ إنكارٍ بالبعثِ، فاحْتُجَّ عليهِمْ بابْتِداءِ الخِلْقةِ. وكذلكَ أكثَرُ ما جَرَى بهِ الِاحْتِجاجُ في إثباتِ البعثِ في القرآنِ، إنما احْتَجَّ عليهِمْ بالِابْتِداءِ.

[وإنْ][6] كانَ التأويلُ على ردِّهِ إلى صُلْبِ أبيهِ، فَوَجْهُ الرَّدِّ، هو أنْ يُرَدَّ مِنْ حالةِ الشَّيبِ إلى حالةِ الشبابِ ثم مِنْ حالةِ الكِبَرِ إلى حالةِ الصِّغَرِ ثم إلى حالةِ الطُّفولِيَّةِ، ثم يُرَدُّ مُضْغَةً، ثم يُرَدُّ عَلَقَةً ثم نُطْفَةً، ثم تُرَدُّ النُّطْفَةُ إلى صُلْبِ أبيهِ، لا أنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بالقُدْرةِ على ردِّهِ، وهو على حالِهِ نَسَمةٌ عظيمةٌ إلى صُلْبِ أبيهِ مع ضيقِ ذلكَ المكانِ، ولأنَّ هذا محالٌ،

(١) في الأصل وم: كله. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: يتدارك. (٤) في الأصل وم: استدراكها. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: و.

والله تعالى لا يوصَفُ بالقُدرةِ على [مُحالٍ، وليسَ في مالا يُوصَفُ بالقدرةِ على][1] المُحالِ نَفيُ القُدرةِ عنهُ في الأزلِ. وبهذا يُجابُ من سألَ، فقالَ: أيَقدِرُ اللهُ تعالى على إدخالِ الدنيا في بَيضةٍ؟ فَيُقالُ لهُ: إنْ أرَدْتَ إدخالَها في البيضةِ في أنْ تُصغِّرَ الدنيا، وتُضيِّقَها، حتى تَجعَلَها أضيَقَ منَ البيضةِ أو [أنْ تُوسِّعَ البيضةَ حتّى تَسعَ فيها][2] الدنيا، فهو على ذلكَ قادرٌ.

وإنْ أردْتَ أنهُ قادرٌ على إدخالِها فيها على إبقاءِ البَيضةِ بِحالِها وبقاءِ الدنيا بِحالها، فهذا مُحالٌ لِما فيهِ منِ انْقِلابِ البعضِ كُلاً والكُلِّ بعضاً.

فكذلكَ يوصَفُ اللهُ تعالى [بالقُدرةِ][3] على رَدِّ النَّسمةِ إلى الصُّلْبِ بالوجهِ الذي ذَكَرْنا، لا أنْ يَرُدَّها على ما هي عليها إلى الصُّلْبِ لِما في ذلكَ مِنَ الإحالةِ.

وكذلكَ إذا سُئِلْنا عنْ حركاتِ أهلِ الجنةِ والسكونِ، هل لهما غايةٌ؟ فنقولُ: لا، فإنْ قالوا: هل يَعْلَمُ اللهُ تعالى غايَتَها وعَدَدَها؟ فنقولُ لهُ: يَعْلَمُها غَيرَ منقطعةٍ لا يَعْلَمُها مُنْقَطعةً. ولم يكُنْ في قولِنا: إنهُ لم يَعْلَمْهُ مُنْقَطِعاً، إثباتُ جَهْلٍ ولا نَفيُ العِلْمِ عنهُ، بلِ الجهلُ إنما يَتحقَّقُ إذا وُصِفَ العلمُ بالانْقِطاعِ في مالا يَنْقَطِعُ.

فكذلكَ ليسَ في نَفْيِ الوصفِ بالقُدْرةِ على المُحالِ إثباتُ عَجْزِهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي يَظْهَرُ ما كانَ أُخفِيَ منها. فجائزٌ أنْ يكونَ الإظهارُ مُنصَرِفاً إلى التي لم يَطَّلِعْ عليها الملائكةُ، فَتَكْتُبَها عليهِ، فَيُذَكِّرُهُ اللهُ تعالى كيفَ شاءَ، فَيُقَرِّرُها عليهِ، أو تَنْطِقَ جوارِحُهُ بها كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ﴾ الآية [النور: ٢٤] أو يكونَ إظهاراً لقراءةِ ما عليهِ، فَيَظْهَرَ ذلكَ للخَلْقِ، وإنْ كانَ قد أسَرَّها عنهمْ في الدنيا.

ثم سَمَّى ذلكَ ابْتِلاءً لأنَّ الابْتِلاءَ، هو الاخْتِيارُ؛ وإنما يكونُ الابْتِلاءُ بالسؤالِ أو بالأمرِ والنَّهْيِ، فَسَمَّى ما يُسْألُ عنهُ في الآخِرةِ ابْتِلاءً.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَحْتَمِلُ [وُجوهاً:

أحَدُها:][4] أنْ ليستْ لهُ قوةٌ في كِتمانِ ذلكَ على نفسِهِ، ولا لَهُ قوةُ نَفْيِ العذابِ عن نفسِهِ.

[والثاني][5]: مالهُ مِنْ قوةٍ، يَمْتَنِعُ بها، ولا ناصرٍ، يَمْنَعُهُ عنْ نُزولِ العذابِ بهِ.

[والثالثُ][6]: أنَّ الكفارَ كانوا يَفْتَخِرونَ بِقُواهُمْ، وكَثْرَةِ أنصارِهِمْ في الدنيا، لا تَنْفَعُهُمْ في الآخِرَةِ، ولا تَدفَعُ عنهمْ بأسَ اللهِ تعالى، وكانوا يَعْبدونَ الأصنامَ لِتُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ تعالى، وتَنْصُرَهُمْ مِنَ العذابِ كما قالَ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤] فَتَبَيَّنَ أنها لا تُغْني عنهمْ مِنَ اللهِ شيئاً.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ قالَ أبو عُبَيدةَ: الرَّجْعُ هو الماءُ، أيِ السماءِ ذاتِ المَطَرِ. وقالَ غَيرُهُ: ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي تعودُ في كلِّ عامٍ إلى ما كانَتْ في العامِ الذي قَبْلَهُ بالمَطَرِ، والرَّجْعُ هو العَوْدُ.

ويَحْتَمِلُ ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي تُكرِّرُ[7] إدرارَ بَرَكَتِها على الخَلْقِ لِيَسْتَقوا[8] منها.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قيلَ: قولُهُ: ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ بالنباتِ، أو ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي ذاتِ أوديةٍ وأنهارٍ، يَجْتَمِعُ فيها الماءُ، فَيَنْتَفِعُ بها الخَلْقُ لِسَقْيِ أراضيهِمْ ودوابِّهِمْ، فَعَظَّمَ أمرَ السماءِ والأرضِ، فأقسَمَ بهما.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ يعني القرآنَ.

الآية ١٤ [وقولُهُ تعالى:][9] ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل: توسع فيه، في م: توسع البيضة حتى تسع فيه. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجهين أحدهما. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: ووجه. (٧) في الأصل وم: تتكرر إلى. (٨) في الأصل وم: ليستوفوا. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وفي إخراجِ النباتِ مِنَ الأرضِ حكمةٌ عجيبةٌ ولطفٌ وتَدبيرٌ؛ وذلكَ أنَّ النباتَ شيءٌ لَيِّنٌ [يَنْثني][1] بأدنى مَسٍّ. ثم إنَّ اللهَ تعالى بلُطفِهِ صَدَعَ لهُ الأرضَ اليابسةَ الصُّلْبَةَ، وأخرَجَهُ[2] منها غيرَ مَثْنِيٍّ ولا مُتَكسِّرٍ لِيَعْلَموا أنَّ مُدَبِّرَهُ حكيمٌ، فَيُلْزِمَهُمْ بالتوحيدِ[3]، وجَعَلَ مَنافِعَ الأرضِ بِمَنافِعِ السماءِ مُتَّصِلَةً؛ إذِ الأرضُ إنما تَتَصَدَّعُ للنباتِ إذا أصابَها المطرُ مِنَ السماءِ، فيكونُ في ذلكَ إنباءٌ أيضاً أنَّ مُدَبِّرَهما واحدٌ. ولولا ذلكَ[4] لم تَتَّصِلْ مَنْفَعةُ إحداهما بالأُخرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي بَيِّنٌ؛ بَيَّنَ فيهِ الحَلالَ والحَرامَ وما يُتَّقَى منهُ وما يُؤْتَى، وبَيَّنَ فيهِ الصوابَ مِنَ الخَطَإِ، وبَيَّنَ فيهِ الوَعْدَ والوَعيدَ، أو يكونُ مَعْنَى الفعلِ التفريقَ، وهو أنهُ فَرَّقَ الوَعْدَ مِنَ الوعيدِ والحَلالَ مِنَ الحرامِ والحَقَّ مِنَ الباطلِ، فَوَضَعَ كلَّ شيءٍ مَوضِعَهُ، ولم يَخْلُطْ أحَدَهما بالآخَرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي باللَّعِبِ والباطلِ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي أجْزيهِمْ جَزاءَ كَيدِهِمْ، فَسَمَّى الجَزاءَ باسْمِ مالَهُ الجزاءُ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ كَيداً، كما سَمَّى [جَزاءَ السَّيِّئَةِ][5] سَيِّئَةً مثلَها، وإنْ لم يكُنِ الجَزاءُ سَيِّئَةً وكما سَمَّى جَزاءَ الاِعْتِداءِ، وإنْ لم يكُنِ الجَزاءُ اعْتِداءً بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقولِهِ[6]: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَزاهُمْ جَزاءَ النِّسيانِ، أو جَعَلَهُمْ كالشَّيءِ المَنْسِيِّ الذي لا يُعْبَأُ بهِ، لا أنْ يكونَ منهُ في الحقيقةِ نِسْيانٌ. فكذا سَمَّى جَزاءَ الكَيدِ كَيداً لا أنْ يكونَ الجزاءُ كَيداً.

[والثاني:][7] أنَّ الكَيدَ في [حَقيقتِهِ المَكْرُ، وهو][8] أنْ يأخُذَهُ منْ وَجهِ أمْنِهِ، فَيَلْحَقَ الكائدَ اسْمُ الذَّمِّ لأنهُ أخَذَهُ مِنْ وَجْهٍ، لم يَشْعُرْ بهِ. وهذا المعنى في الكَيدِ الذي أُضِيفَ إلى اللهِ تعالى [غَيرُ موجودٍ لأنَّ اللهَ تعالى][9] قد بَيَّنَ لهُ الطريقَ الذي إذا سَلَكَهُ وقَعَ [بما][10] أُريدَ الأَمْنُ مِنَ الطريقِ الذي إذا سَلَكَهُ حلَّ / ٦٣٧ ـ أ/ بهِ البَوارُ والهَلاكُ. فإذا سلكَ هذا الطريقَ كانَ سلوكُهُ عنْ عِنادٍ منهُ أو عنْ تَرْكِ الإنصافِ منْ نفسِهِ، فوجدَ ما يُكْرَهُ مِنَ الكَيدِ لا مِنَ المُكايِدِ، فلم يَلْحَقْهُ بذلكَ الوصفِ المَعْنَى المَكروهُ.

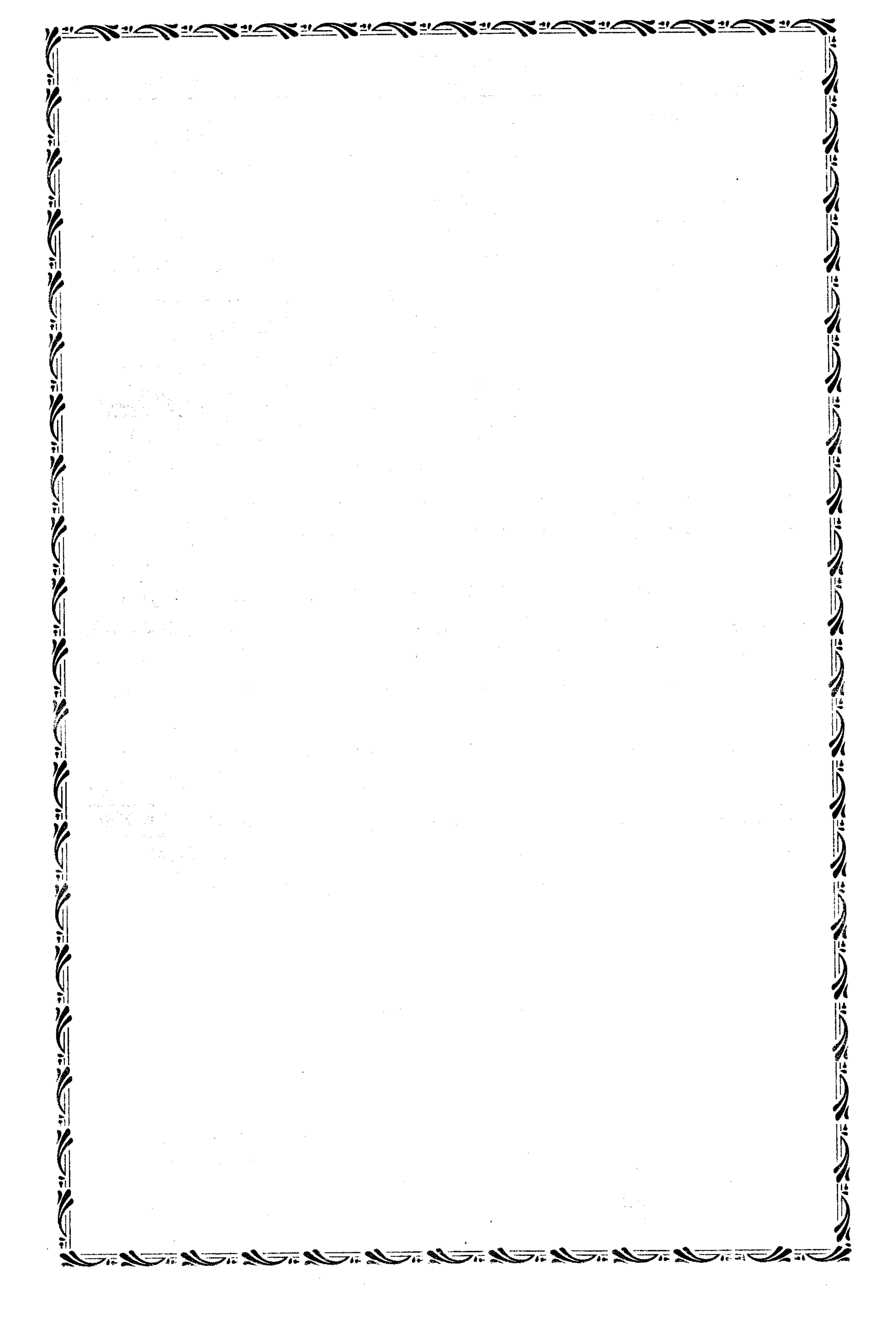
ثم كَيدُهُمْ برسولِ اللهِ ﷺ وبالمؤمنينَ [ما ذُكِرَ][11] في آيةٍ أُخرَى، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ فَمَهِّلْ، وأَمْهِلْ لغتانِ؛ فكأنهُ يقولُ: أمهِلْهُمْ ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ ولا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، فإنَّ اللهَ تعالى يُجازيهِمْ بصنيعِهِمْ عنْ قَريبٍ، وقد فَعَلَ ذلكَ بما سَلَّطَ رسولَهُ ﷺ [عليهِمْ][12] بقَتْلِهِمْ وسَبْيِهِمْ، فيكونُ في هذا بشارةٌ منهُ لرسولِ اللهِ ﷺ بالنصرِ عليهِمْ وبِغَلَبَتِهِ إيَّاهُمْ.

وفي ذلكَ آيةُ رسالتِهِ لأنهُ قالَ لهمْ هذا عندَ قِلَّةِ أعوانِهِ وضَعْفِهِ. ثم إنَّ اللهَ تعالى كَثَّرَ أنصارَهُ، وأظْهَرَ عليهِمْ كما قالَ لهمْ لِيَعْلَموا أنهُ عَلِمَ ذلكَ بالوحيِ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: وأخرج. (٣) في الأصل وم: به التوحيد. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: وإلا. (٥) في الأصل وم: الجزاء للسيئة. (٦) في الأصل وم: وقال. (٧) في الأصل وم: ووجه آخر. (٨) في الأصل وم: الحقيقة المكر هو. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم.



[سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قيلَ فيهِ مِنْ أوجُهٍ:

أحَدُها: أنْ سَبِّحْ ربَّكَ، وقيلَ: سَبِّحِ اسْمَهُ، وقيلَ سَبِّحْ ربَّكَ بأسمائِهِ.

فَمَنْ قالَ: سَبِّحْ ربَّكَ فمعناهُ: أنْ نَزِّهْهُ[(٢)] عن جميعِ المعاني التي يَحْتَمِلُها غَيرُهُ مِنَ الآفاتِ والحاجاتِ والأضدادِ والأندادِ، فيكونُ القولُ بِهِ توحيداً. ورُوِيَ عنْ مُقاتِلِ بْنِ سليمانَ أنهُ قالَ: تأويلُهُ: وَحِّدْ ربَّكَ، والتوحيدُ ما ذَكَرْنا.

[والثاني: ما][(٣)] قالَ المفسرونَ: تأويلُهُ: أنْ صَلِّ لربِّكَ، وهذا مُحْتَمَلٌ لأنَّ الصلاةَ بِنَفسِها تَسْبيحٌ [لأنهُ][(٤)] بالإفتِتاحِ يَقْطَعُ وجوهَ المُعاملاتِ بَيْنَهُ وبينَ الخَلْقِ، ويَمْنَعُ نفسَهُ عنْ حوائِجِها، فَيَجْعَلُها للهِ تعالى، وهذا هو التوحيدُ والإيمانُ، لأنهُ بالإيمانِ تُجْعَلُ الأشياءُ كلُّها للهِ تعالى سالمةً، فصارتِ الصلاةُ تَسْبيحاً لِعينِها لا للتَّسبيحِ [المجعولِ فيها. ومَنْ حَمَلَ التَّسبيحَ][(٥)] على الإسْمِ فقالَ: نَزِّهِ اسْمَهُ، فذلكَ يرجِعُ إلى الأسماءِ الذاتيةِ، وهو ألّا يُشْرِكَ [غَيْرَهُ بها][(٦)] فَيُسَمِّيَهُ بها.

والأسماءُ الذاتيةُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وما أشْبَهَهُ مِنَ الأسماءِ. والأسماءُ الصفاتيةُ بأنْ[(٧)] تُنَزِّهَها عنِ المعاني التي اسْتَوجَبَ الخَلْقُ الوصفَ بها[(٨)] كقولكَ: عالمٌ، حَكيمٌ، رَحيمٌ، مَجيدٌ.

فَمَنْ وُصِفَ بالعِلْمِ مِنَ الخَلائقِ فإنما اسْتَوجَبَ الوصفَ بهِ بأغيارٍ دَخَلْنَ فيهِ، واسْتَوجَبَ الوصفَ بالحكمةِ، والوصفُ بالمدحِ بالأغيارِ، واللهُ تعالى اسْتَحَقَّ الوصفَ بهِ [بذاتِهِ][(٩)] لا بالأغيارِ، فَيَنْصَرِفُ التَّنزيهُ إلى الأغيارِ؛ إذْ صفاتُهُ ليسَتْ[(١٠)] بأغيارِ الذاتِ، وهي لا تُفارِقُ الذاتَ، فالإمْتِداحُ [الواقعُ بالصفاتِ امْتِداحٌ][(١١)] بالذاتِ الموصوفِ بها. واللهُ الموفِّقُ.

[والثالثُ: ما][(١٢)] قالَ بَعْضُهُمْ: مَعْناهُ: سَبِّحْ بالحَمْدِ والثناءِ، وهو يَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ التأويلِ الأوَّلِ؛ وهو أنْ نَحْمَدَهُ بالثناءِ الذي يَتَضَمَّنُ التَّوحيدَ والتَّنزيهَ عنْ معاني الخَلْقِ.

ومَنْ قالَ: سَبِّحْ ربَّكَ بأسمائِهِ فهذا ظاهرٌ؛ وهو أنْ نقولَ: لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، وأسماؤُهُ مَعْروفةٌ لا يُحْتاجُ إلى إظهارِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ أي هو أعْلَى مِنْ أنْ تَمَسَّهُ حاجةٌ أو تَلْحَقَهُ آفةٌ، وكذلكَ هذا في الأكبرِ، ويكونُ الأكبرُ والأعْلَى في النهايةِ مِنْ تَنْزيهِ المعاني التي ذَكَرْنا. وهي كقولكَ: هو أحسنُ وأجمَلُ. فإذا قُلْتَ: أحْسَنُ وأجملُ أردْتَ بهِ النهايةَ في الحسنِ والجمالِ، أو يكونُ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ بِمَعْنَى العَلِيِّ والأكبرُ بِمَعْنَى الكبيرِ، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ سَوّاهُ على ما قَدَّرَهُ خِلافاً لأفعالِ الخَلْقِ لأنَّ الفِعْلَ مِنَ الخَلْقِ يَخْرُجُ مَرَّةً سَوِيّاً على ما قَدَّرَهُ، ومَرَّةً بِخِلافِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: نزه. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في نسخة الحرم المكي: به، ساقطة من الأصل وم. (٧) الباء ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: به. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) أدرج قبلها في الأصل: من. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) في الأصل وم: و.

[والثاني: أنْ][1] يكونَ سَوّى الخَلْقَ كلَّهُ في دلالةِ وَحدانيَّتِهِ وشهادَتِهِ؛ فما مِنْ خَلْقٍ خَلَقَهُ إلّا إذا تَفكَّرَ فيهِ العاقلُ دَلَّتْ خِلْقَتُهُ على معرفةِ الصانعِ وَوَحدانيَّةِ الرَّبِّ.

[والثالثُ: أنْ يكونَ][2] سَوّاهُ على ما فيهِ مصلَحَتُهُ ومَنفَعَتُهُ.

[والرابعُ: أنْ يكونَ][3] سَوّاهُ على ما لَهُ خَلَقَ.

ألا تَرَى أنَّ الإنسانَ إذا أُمِرَ بالركوعِ والسجودِ، خَلَقَهُ مِنْ وَجْهٍ يَتَمكَّنُ مِنَ الركوعِ والسجودِ؟ فهذا مَعْنَى قولِنا: إنهُ سَوّاهُ على ما لَهُ خَلَقَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ يَحْتمِلُ أوجهاً:

أحَدُها: هداهُ إلى ما أحوجَهُ إليهِ، فَهَدى العبدَ معيشَتَهُ مِنْ أينَ يأخُذُها، وهَدَى كلَّ دابَّةٍ إلى رِزْقِها وعيشِها، فَعَرَفَتْ كلُّ دابةٍ رِزْقَها.

[والثاني: أنْ][4] يكونَ قولُهُ: ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي هَدَى بهِ.

[والثالثُ: أنْ][5] تكونَ الهدايةُ مِنْ أمْرِ الدينِ؛ وذلكَ يرجِعُ إلى الخُصوصِ مِنَ الخَلْقِ الذينَ لهمْ عقولٌ مُمَيِّزةٌ، فيكونُ مَعناهُ: هَدَى في مَنْ هَدَى.

وطَعَنَتِ المعتزلةُ علينا بهذهِ الآيةِ، فقالَتْ: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وأنتمْ تقولونَ: قَدَّرَ، وأضَلَّ.

ولكنَّ هذا التَّحقيقَ راجعٌ إليهِمْ، لأنهمْ يَجْعلونَ تأويلَ الهدايةِ على البَيانِ. وإذا كانَ كذلكَ، وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى سبيلَ الهُدَى وسَبيلَ الضلالِ جميعاً، فإذنْ قد أضَلَّهُمْ حينَ[6] بَيَّنَ لهمْ سبيلَ الضلالِ على قولِهِمْ.

ثم ليسَ في قولِهِ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ نَفْيُ الإضلالِ؛ إذِ التَّخْصيصُ بالذِّكْرِ لا يَدُلُّ على نَفْيِ ذلكَ عمّا عداهُ، فلم يَجِبْ قَطْعُ الحكمِ على ما ذَكَرَهُ، وقد ذَكَرَ في موضعٍ آخرَ المُكَرَّمينَ بالهُدَى، فقالَ: ﴿الٓمٓ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الآية [البقرة: ١ و٢] فَثَبَتَ أنَّ الهُدَى راجعٌ إلى الخُصوصِ؛ فقولُهُ: ﴿قَدَّرَ﴾ أي لِخَلْقِهِ مَعايِشَهُمْ، وهداهُمْ وجْهَ أخذِ المعيشةِ.

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ ففي هذهِ الآياتِ[7] تعريفُ الرَّبِّ الأعْلَى؛ كأنهُ يقولُ: الربُّ الأعْلَى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾/ ٦٣٧ ـ ب/ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾.

ثم ذَكَرَ هذهِ الأشياءَ التي يُعْرَفُ انْقِضاؤُها وبُدُوُّها وإنشاؤُها وإهلاكُها مِنَ المَرْعى وغَيرِهِ لأنَّ وَجْهَ الدلالةِ بمعرفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي يُعْرَفُ بُدُوُّها وانْقِضاؤُها وحدوثُها وفَناؤُها أقربُ منهُ بمعرفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي لم يَشْهَدِ الخَلْقُ بُدُوَّها ولا انْقِضاءَها؛ وهي السمواتُ والأرضونَ، إذِ المَرءُ لم يَصِلْ إلى وحدانيَّةِ الرَّبِّ ومَعْرفةِ الصانعِ بالأشياءِ التي تَحْدُثُ، وتَتَغَيَّرُ، بأدنى نَظَرٍ وتأمُّلٍ، ولا يَصِلُ إلى ذلكَ في ما يَدومُ إلّا بِلَطائفِ الفكرِ وفَضْلِ تَبَصُّرٍ وزيادةِ تأمُّلٍ.

وجائزٌ أنْ يكونَ خَصَّ المَرْعَى، فكانَ قِوامُ هذا الخَلْقِ لأنهُ لابدَّ للبشرِ مِنَ الدوابِّ والأنعامِ للتَّعَيُّشِ، والدوابُّ حياتُها بالمَرْعَى، فكانَ قِوامُ الخَلْقِ في التَّحصيلِ بإخراجِ المَراعي، فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ.

وإذا كانتِ الدوابُّ لم تُنْشَأْ لأنفسِها، وإنما أُنْشِئَتْ لِلْخَلْقِ لِيَتَمَتَّعوا بها. ثم اللهُ تعالى أنشأَ للدوابِّ مَرْعىً، وقَدَّرَ لها أقواتَها، ولم يُضَيِّعْها، فكيفَ يُضَيِّعُ هذا الخَلْقَ، وهمُ الذينَ قَصَدَ إليهِمْ مِنْ خَلْقِ هذا العالَمِ، فلا يَرْزُقُهُمْ، ويُخْرِجُهُمْ مِنْ تدبيرِهِ؟

وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ قيلَ: الغُثاءُ اليابسُ الذي تَحْمِلُهُ السيولُ والأمطارُ ﴿أَحْوَىٰ﴾ أي أسْوَدَ مِنْ قِدَمِهِ. قيلَ: الأحْوَى، هو الأخْضَرُ الذي يَضْرِبُ إلى السَّوادِ، وهو على التَّقْديمِ والتَّأخيرِ، أي جَعَلَهُ غُثاءً بَعدَ ما كانَ أحْوَى.

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) و(٣) و(٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الآية.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أي سنحفَظُ عليكَ ما أوحَينا إليكَ مِنَ القرآنِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ وفي حِفْظِهِ ﷺ ما يُوحِي إليهِ دلالةُ رسالتِهِ لأنهُ لم يكُنْ يَعرِفُ الكتابةَ، ولا كانَ يَتْلو الكتبَ، ثم كانَ يَقْرأُ جميعَ ما يُلْقَى إليهِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ مع ما كانَ مأموراً ألّا يُحرِّكَ لسانَهُ بشيءٍ مِمّا يُوحَى إليهِ إلى أنْ يُقْضَى إليهِ الوحْيُ.

ومَنْ كانَتْ حالتُهُ تُعَذِّرُ عليهِ حِفْظَ ما يُلْقَى إليهِ بِمَرّاتٍ، وإنْ كانَ ذلكَ لسانُهُ، فكيفَ يَحْفَظُهُ[1] بِمَرَّةٍ واحدةٍ؟ فكانَ حِفْظُهُ بالمَرّةِ الواحدةِ نوعاً مِنْ آياتِ نُبوَّتِهِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِنْ ذلكَ، فإنهُ يُنْسيكَ ما أرادَ أنْ يُنْسِيَكَهُ. ولكنْ ما أرَى هذا التأويلَ صحيحاً؛ وذلكَ أنَّ الذي أوْحَى إليهِ آيَةُ نُبوَّتِهِ، فرسولُ اللهِ ﷺ إذا أُقْرِئَ[2]، ثم أُنسِيَ، فَلَنْ يُطْعَنَ في رسالتِهِ، إنْ يَستَقرِئْهُ تلكَ الآيَةَ، ولا يَتَهيّأُ لهُ أنْ يَقْرأها إذا كانَ قد أُنسِيَ، فَيَجِدَ موضعَ الطعنِ عليهِ.

وقد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ أنهُ أُنسِيَ، ولكنهُ[3] مِنْ أخبارِ الآحادِ، ولا يجوزُ الحكْمُ بها، لأنَّ خَبَرَ الآحادِ يُوجِبُ عِلْمَ العَمَلِ بهِ، لا يُوجِبُ عِلْمَ الشهادةِ، وهو في موضعِ الشهادةِ ههنا.

ولكنَّ تأويلَهُ عندَنا، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على أوجُهٍ ثلاثةٍ:

أحَدُها: أنَّ الأنبياءَ ﷺ، لم يكونوا آمِنينَ على أنفسِهِمْ بالعصمةِ عنِ الزّلاتِ التي لَديها يُخافُ زَوالُ ما أُنعِموا بهِ، وإنْ ظَهَرَتْ عصمتُهُمُ اليومَ عندَنا.

ألا تَرَى إلى قصةِ إبراهيمَ ﷺ، عندَ مُحاجّةِ قومِهِ: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؟ [إبراهيم: ٣٥] فخافَ زَوالَ ما أُكرِمَ بهِ، وخشِيَ أنْ يُبْتَلَى بما ابْتُلِيَ بهِ أهلُ المعاصي حتى فَزِعَ إلى الدعاءِ. وقالَ في قصةِ شُعَيبٍ ﷺ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٨٩] وقالَ في قصةِ يوسفَ ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: ٧٦] فَثَبَتَ أنهُ لم يُبيِّنْ لهمْ حقيقةَ العصمةِ عنِ الوقوعِ في الزّلاتِ التي تُزيلُ النِّعَمَ.

فكذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ لم يَأمَنْ عما يَعقُبُ الإنساءَ، بل قيلَ لهُ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؟ [الزمر: ٦٥] فَثَبَتَ أنهمْ كانوا على خَوفٍ وَوَجَلٍ مِنِ ارْتِكابِ ما يُسْلَبُ بهِ الوحْيُ، ويُنْسَى.

[والثاني: أنْ][4] يكونَ الاسْتِثناءُ راجعاً إلى إنساءِ[5] حُكْمِهِ، وهو أنْ يَنْسَخَ حكمَهُ حتى يُترَكَ، ويُنْسَى، ويَصيرَ كالمَنْسِيِّ كقولِهِ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٦٧] أي جَعَلَهُمْ كالشيءِ المَنْسِيِّ بما أنساهُمْ مِنْ رحمتِهِ، لا أنْ يكونَ هناكَ حقيقةُ نِسيانٍ، فكذلكَ إذا نَسَخَ حُكْمَهُ، وتُرِكَ، صار كالمَنْسِيِّ، وإنْ لم يكُنْ فيهِ حقيقةُ نِسيانٍ، فيكونُ النسيانُ مُنْصَرِفاً إلى حُكْمِ التِّلاوةِ لا إلى عَينِها.

[والثالثُ: أنْ][6] يكونَ ﷺ، يذهبُ خاطِرُهُ عنْ وَهْمِهِ، كأنهُ نَسِيَهُ، وكانَ يعودُ ذلكَ إليهِ عندَ إحضارِهِ ذهنَهُ كما تَرَى المَرْءَ في الشاهدِ يَذْهَبُ عنْ وَهْمِهِ جميعُ ما في فاتحةِ الكتابِ مِنَ الحروفِ إذا أعْمَلَ رؤيتَهُ في أشياءَ أُخرَى حتى يَصيرَ كالناسي لها، وإنْ كانَ يعودُ إلى تَذَكُّرِها إذا رامَ أنْ يَقْرأها.

فَعَلَى هذهِ التأويلاتِ يَستقيمُ أنْ يُوجَّهَ إليهِ الاسْتِثناءُ، واللهُ أعلَمُ.

[وقولُهُ تعالى][7]: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي ما يَجْهَرُ بعضٌ لبعضٍ مِنَ الخلائقِ أو ما يُسِرُّ بعضٌ عنْ بعضٍ، أو يَعْلَمُ ما يَطّلِعُ عليهِ الملائكةُ مِنْ أعمالِهِمْ، ويَعْلَمُ ما يَعْزُبُ عنهمْ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: يضبطه. (٢) في الأصل وم: قرأ. (٣) في الأصل وم: ولكنها. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، في الأصل: الإنسان. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم.

فَعِلْمُهُ في ما أَسَرَّ العبدُ كَعِلْمِهِ في ما أَظْهَرَ، وجَهَرَ بِهِ. فَذَكَّرَهُمْ هذا لِيكونوا مُتَيَقِّظِينَ، فلا يُخفونَ[1] ولا يَجْهَرونَ إلّا الذي يَحِقُّ عليهِمْ، إذِ اللهُ تعالى حفيظٌ عليهِمْ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ قالوا: ونُيَسِّرُكَ للخيرِ ولِعَمَلِ أهلِ الجنةِ، فَسُمِّيَتْ أعمالُ الخيرِ يُسْرَى لأنها تَعْقُبُ ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ فظاهِرُ هذا يَقْتَضِي ألّا يُذَكِّرَ إلّا مَنْ نَفَعَتْهُ الذِّكْرَى.

ولكنَّ تَخصيصَ الحكمِ في حالٍ يُوصَفُ، لا يُوجِبُ قطعَ الحكمِ في ما كانَ الحالُ بِخلافِ ذلكَ الوصفِ، بل يَلْزَمُهُ أنْ يُذَكِّرَ مَنْ نَفَعَهُ ومَنْ لا يَنْفَعُهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الآيةُ أمرٌ بالتَّذكيرِ على الإطلاقِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ ذَكِّرْ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرَى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] [ومعْناهُ قد كانَ وعدُ رَبِّنا مَفعولاً، وقد نَفَعَتِ][2] الذِّكْرَى لأنهُ بتذكيرِهِ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ منهمْ، وبِهِ فازوا، وبِهِ نالوا الدَّرَجاتِ العُليا، وقالَ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

[والثاني: أنْ][3] يكونَ قولُهُ ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ فَسيأتي على أقوامٍ لا تَنْفَعُهُمُ الذِّكْرَى لَدَيْها؛ وتلكَ حالةُ المُعايَنةِ لِبأسِ اللهِ وعذابِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي يَتَّعِظُ بها مَنْ يَخشَى اللهَ تعالى أو المَعادَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩٢] أي بالقرآنِ؛ وذلكَ أنَّ الذي يَحمِلُهُمْ على الإيمانِ بالآخِرَةِ إيمانُهُمْ بهذا الكتابِ لأنَّ في القرآنِ تذكيراً بالآخرةِ وأمراً بالاستِعدادِ لها.

فتلكَ خشيةٌ تَحمِلُهُ على الاتِّعاظِ بالذِّكْرَى والانتِفاعِ بها، والخشيةُ/ ٦٣٨ ـ أ/ هي الخوفُ اللازمُ في القلبِ.

الآيتان ١١ و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ فأضافَ التَّجَنُّبَ ههنا إلى الأشقَى، وهي الأشقَى، وفي ما ذَكَرَ الأتقَى أضافَ التَّجَنُّبَ إلى نفسِهِ بقولِهِ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧ و١٨] فيكونُ في هذا دلالةُ الإذنِ بإضافةِ الخيراتِ إلى اللهِ تعالى. وفي الأولِ دلالةُ منعِ إضافةِ السرورِ إليهِ، وهذا لأنَّ إضافةَ الخيراتِ إلى اللهِ تعالى تُخرَجُ مُخرَجَ الشكرِ لهُ، وهو حقيقٌ بأنْ تُشكَرَ نِعَمُهُ، وليسَ في إضافةِ السرورِ إلى آخَرَ شُكْرٌ لهُ، فلم يَصلُحْ أنْ يُضافَ إليهِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا تَنْقَضي عنهُ أفعالُ الموتِ، وهي آلامُها وأوجاعُها، بل يَبْقَى في آلامِها أبداً. قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] أي لا يَقضي عليهِ حتى يَتَخَلَّصَ منْ أوجاعِها ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فقولُهُ: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي لا يَرْتَفِعُ عنهُ ألمُ الموتِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحَ[4] ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً يَتَلَذَّذُ بها.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي مَنْ أتَى بما تَزكو بِهِ نفسُهُ، أو أتَى بما تَطْهُرُ نفسُهُ بِهِ. وسنذكُرُهُ[5] في سورةِ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ معَ تأويلِ الفلاحِ[6] إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ أُريدَ بهِ أنواعُ العباداتِ لا الصلاةُ المَعروفةُ وحدَها، لأنَّ الصلاةَ اسْمٌ للدعاءِ والثناءِ ولأنواعٍ مِنَ الكراماتِ.

فإنهُ يقولُ: بِذِكْرِ الرَّبِّ ما يَصِلُ إلى العباداتِ، ومَنْ أعرضَ عنْ ذِكْرِهِ حُرِمَ مِنَ العباداتِ، أو يكونُ مُنْصَرِفاً إلى الصلاةِ

---

(١) في الأصل وم: يخافون. (٢) من م، في الأصل: وقد تعقب. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: وسنذكر. (٦) في تفسير الآيتين ٩ و١٠.

المَعْروفةِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ أي يُصَلّي بِتَقديمِهِ اسْمَ الرَّبِّ، فيكونُ مُنْصَرِفاً إلى الافْتِتاحِ، فيكونُ حُجَّةً لأبي حَنيفةَ، رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ المُصَلِّيَ، لهُ أنْ يَفْتَتِحَ صلاتَهُ بأيِّ أسماءِ اللهِ تعالى [إنْ][1] أحبَّ.

ثم ذِكْرُ اسْمِ الرَّبِّ يَقْتَضي المعانيَ التي ذُكِرَتْ في قولِهِ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾.

الآيتان ١٦و١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي يُؤْثِرونَ حياتَها على حياةِ الآخِرَةِ، ويكونُ الخِطابُ مُنْصَرِفاً إلى المُنافقينَ والكَفَرَةِ لا إلى أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثم كانوا في الإيثارِ مُخْتَلِفينَ؛ فمنهمْ مَنْ آثَرَها في أنْ يَنْظُرَ في الدنيا، وأعْرَضَ عنِ النَّظَرِ في الآخِرَةِ، وجَحَدَها، ومنهمْ مَنْ كانَ أغْلَبَ سَعْيِهِ لِأمْنِ الدنيا، ومنهمْ منْ كانَ [يُؤْثِرُ بعضَ][2] أحوالِها على الآخِرَةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي إيثارُ الحياةِ الآخِرَةِ خيرٌ وأبقى مِنْ إيثارِ الحياةِ الدنيا.

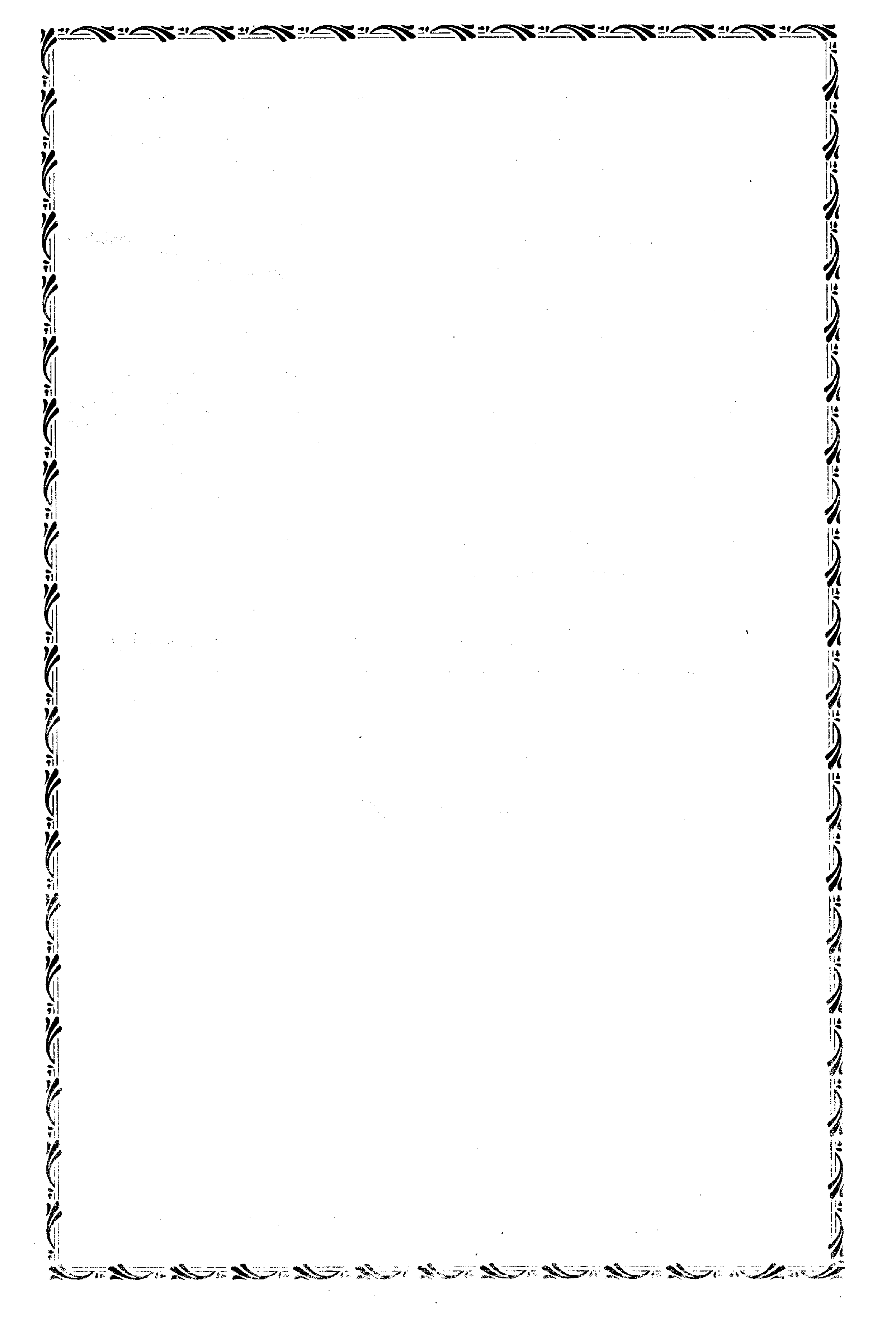
الآيتان ١٨و١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: الآياتُ الأربعُ في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ، أوَّلُهُنَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ وآخِرُها[3] ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: السورةُ كلُّها أُنْزِلَتْ على إبراهيمَ وموسى ﷺ، فإنْ كانتِ السورةُ كلُّها في الصُّحُفِ الأولَى فجميعُ ما في السورةِ ذُكِرَ[4] بِحَقِّ الحاجةِ لهمْ إلى تَعَرُّفِها، ويكونُ قولُهُ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مذكوراً بِحَقِّ الثناءِ على رسولِ اللهِ ﷺ.

وَوَجْهُ الثناءِ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ [الأعراف: ١٥٧] وهو يَسْتَحِقُّ [الثناءَ][5] وبهذا الحرفِ لِما في حفظِهِ ﷺ، جميعَ ما يوحي إليهِ بِمَرَّةٍ واحدةٍ إكرامٌ لهُ وتفضيلٌ. فَصَلَحَ أنْ يُثْنِيَ عليهِ بهذا.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ دلالةٌ أنَّ اخْتِلافَ الألسنِ لا يُغَيِّرُ الأشياءَ عن حقائِقِها لأنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ بكونِ هذا في الصحفِ الأولَى بهذا اللسانِ، فيكونُ فيهِ حُجَّةٌ لأبي حنيفةَ في تجويزِ القراءةِ بالفارسيةِ [واللهُ أعلَمُ][6].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: أغلب سعيه. (٣) في الأصل وم: إلى قوله. (٤) في الأصل: وذكر فيها، في م: ذكر فيها. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل.



سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ قيلَ معناهُ: قد أتاكَ حديثُ الغاشيةِ. فإمّا أنْ يكونَ الإتيانُ سابقاً [وإمّا][1] أتاهُ حديثُ الغاشيةِ بنفسِ هذهِ السورةِ.

ثم في هذهِ الآياتِ ترغيبٌ في ما تُحمَدُ عاقبتُهُ، وتحذيرٌ عمّا يُذَمُّ في العاقبةِ، وتبيينُ أنَّ العاقبةَ المَحمودةَ مُتَّصِلَةٌ باكْتِسابِهِ وكَدْحِهِ، وكذلكَ العاقبةُ المَذْمومةُ يَنالُها بِعَمَلِهِ ونَصَبِهِ.

ثم اخْتُلِفَ في تأويلِ الغاشيةِ؛ فقيلَ: الغاشيةُ النارُ تَغْشاهُمْ كما قالَ تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

ومنهمْ مَنْ يقولُ: الغاشيةُ، هي الساعةُ، سُمِّيَتْ غاشيةً، لأنها تَغْشَى الصغيرَ والكبيرَ والمَحمودَ والمَذمومَ والشَّقِيَّ والسَّعيدَ، فَيَعُمُّهُمْ جميعاً. وهذا التأويلُ أقربُ لأنهُ ذَكَرَ الغاشيةَ أوّلاً، ثم ذَكَرَ الجزاءَ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الآيتان: ٢و٣] وقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الآيات: ٨و...].

الآية ٢ ثم قولُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ أي ذليلةٌ، وإنما خصَّ الوجهَ بالذِّكْرِ لأنَّ الحُزْنَ والسرورَ إذا اسْتَحْكَما في القلبِ أثَّرا في الوجهِ، فيكونُ في ذِكْرِ الوجهِ وَصْفُ الغايةِ التي همْ عليها منَ الذُّلِّ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قالَ بَعْضُهُمْ: [جائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً][2] إلى عبادةِ الكَفَرَةِ، وهو أنهمْ بَقُوا أبداً في النَّصَبِ والعَمَلِ في الدنيا والآخرةِ.

[قالَ بَعْضُهُمْ:][3] جائزٌ أنْ يكونَ نَصَبُها وعَمَلُها في النارِ، وهو أنها لم تَعْمَلْ في الدنيا، بل تَكَبَّرَتْ عنْ طاعةِ اللهِ، فأعْمَلَها، وأنْصَبَها في الآخِرَةِ بِمُعالجةِ الأغلالِ والسَّلاسلِ في النارِ الحاميةِ، أو عَمِلَتْ في الدنيا بالمَعاصي، ونَصَبَتْ في الآخِرَةِ، فيكونُ فيهِ تَبْيينُ العملِ والجَزاءِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي حارّةً، قد أحْماها اللهُ تعالى منْ يومِ خُلِقَتْ إلى الوقتِ التي تُسْقَى منها.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ قيلَ: الآني الذي قدِ انْتَهى في الحَرِّ غايتَهُ حتى لا حَرَّ لِآخَرَ فيهِ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ اخْتُلِفَ في الضَّريعِ /٦٣٨ ـ ب/ فمنهمْ مَنْ يقولُ: سُمِّيَ ضريعاً لأنهمْ يَتَضَرَّعونَ عنهُ، ويَجْزَعونَ إذا أُطْعِموا. ومنهمْ مَنْ جَعَلَ الضريعَ لوناً مِنْ ألوانِ العذابِ، لم يُبَيِّنْهُ اللهُ تعالى للخَلْقِ. ومنهمْ مَنْ قالَ: الضريعُ اسْمٌ لِنَبْتٍ عَرَفَتْهُ العربُ في ما بَيْنَهُمْ، يأكُلُهُ الإبلُ والدوابُّ ما دامَ رَطْباً، فإذا هاجَ، ويَبِسَ، تَرَكَتِ الدوابُّ أكلَهُ، وعافَتْهُ لِخُبْثِهِ وكَثْرَةِ ما عليهِ مِنَ الشوكِ، ويُسَمُّونَهُ شِبْرِقاً في الربيعِ، وإذا هاجَ، وخَفَّ، سَمَّوهُ ضَريعاً. فذلكَ النَّبْتُ في الدنيا يَعْمَلُ في إسمانِ الدابةِ، ويُغْنيها منَ الجوعِ.

الآية ٧ فَنَفَى اللهُ تعالى وجهَ الإسمانِ والإغناءِ، وحَصَّلَ[4] أمرَهُ على الخُبْثِ بقولِهِ: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) الواو ساقطة من الأصل وم.

وهو كقولِهِ: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨و٢٩] فالسِّدْرُ اسْمُ شجرةٍ ذاتِ شَوكٍ في الدنيا، فأُنشِئَتْ في الآخِرَةِ بلا شَوكٍ.

وَوَصَفَ خَمرَ الجنةِ، فقالَ: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] والخَمْرُ في الدنيا تَعْمَلُ في التَّصْديعِ، وهي تَنْزِفُ، فَنَفَى هذهِ الآفاتِ، وجَعَلَها لَذَّةً للشاربينَ، فكذلكَ الضَّريعُ نَفَى عنهُ ما يَقَعُ بِهِ الإسمانُ والإغناءُ، وحَصَّلَ أمرَهُ على الخُبثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٨و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي ناعمةٌ بِما عايَنَتْ مِنْ عاقبةِ عملِها الصالحِ في الدنيا، ورَضِيَتْ بما أُوتِيَتْ جَزاءً عنْ سَعْيِها في الدنيا، جَعَلَ اللهُ تعالى في وُجوهِ الخلقِ يومَ القيامةِ آثارَ صَنائِعِهِمْ في الدنيا. فَمَنْ أطاعَهُ جَعَلَ عَلَمَ طاعتِهِ في وجهِهِ يومَ القيامةِ، ومَنْ عصاهُ جَعَلَ أثَرَهُ في وجهِهِ، يُعْرَفُ بِهِ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ قد عَلَا قَدْرُها، وعَظُمَ شأنُها، فيكونُ ﴿عَالِيَةٍ﴾ نَعْتاً للجنةِ، فوصَفَها بالعُلُوِّ مِنْ هذا الوجْهِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ العُلُوَّ مِنْ حيثُ الدرجاتُ والمكانُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى مِنَ الشَّتْمِ ومِنْ كلِّ ما يُؤْثِمُ صاحبَهُ، بل هُمْ كما وصَفَهُمُ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ثم الذي يَحمِلُ المرءَ على شَتْمِ المرءِ إمّا ضِمْرٌ أضمَرَهُ في صَدْرِهِ [وإمّا][1] خُصومةٌ حدَثَتْ بينَهما [وإمّا][2] آفةٌ تدخُلُ في عقلِهِ بِسُكْرٍ وما أشبَهَهُ، واللهُ تعالى نَفَى عنِ الشرابِ الآفاتِ[3] بقولِهِ: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] ونَزَعَ الغِلَّ عنْ صدورِهِمْ، فارْتَفَعَتْ دواعي السَّفَهِ كلُّها، فلا يُسْمَعُ فيها ما يَحِقُّ أنْ يُلْغَى بِهِ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي عيونُها جاريةٌ تأخذُها العينُ، وتَجْري على وَجْهِها، ليسَتْ كمياهِ الدنيا في أنَّ بعضَها يَجري على وجهِ الأرضِ وبعضَها تَحتَها نحوَ ماءِ القناةِ وماءِ البئرِ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ بعضُها فوقَ بعضٍ، تَرْتَفِعُ ما شاءَ اللهُ، فإذا جاءَ وليُّ اللهِ تعالى ليجلِسَ عليها تَطامَنَتْ لهُ. فإذا اسْتَوَى عليها ارْتَفَعَتْ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى. وقالَ بَعضُهُمْ: مَعْنَى المَرْفوعةِ ههنا أنها أُنشِئَتْ مَرْفوعةَ القَدْرِ عندَ أهلِها، فَوَعَدَ في الآخِرَةِ على ما هي عليهِ رغبَتُهُمْ في الدنيا وإيثارُهُمْ لها. والمرءُ يَرْغَبُ في الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في الدنيا. فَعَلَى مثلِهِ جَرَى الوَعْدُ في الآخِرَةِ، وكذلكَ يرغَبُ في الأكوابِ والنَّمارِقِ المَصْفوفةِ والزَّرابيِّ المَبْثوثةِ، فَوَعَدَ لهمْ مثلَها في الآخِرَةِ، وقالَ في مَوضعٍ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] ورفعُها يكونُ مِنَ الوجهَينِ اللَّذَينِ ذَكَرْناهما في السُّرُرِ، فَوُعِدُوا بها أيضاً في الآخِرَةِ لرغبَتِهِمْ[4] فيها في الدنيا.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ والأكوابُ، هي الكيزانُ التي لا عُرَا لها؛ فإمّا أنْ يكونَ وصْفاً لِكِبَرِ تلكَ الأكوابِ في أنفسِها، حيثُ لا عُرَا لها كالحَبابِ في الدنيا، [وإمّا أنْ][5] يكونَ فيهِ لهمْ خَدَماً وَوِلْداناً يَتَوَلَّونَ نَقْلَها إلى أينَ أحَبّوا، وليسَتْ لها عُرًا، يَمُدّونَ أيديَهُمْ إليها، فَيَرْفَعونَها.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾][6] قيلَ: هي الوسائدُ وُضِعَتْ على البُسُطِ، وكذلكَ تُبْسَطُ الوسائدُ في الدنيا، فَرَغِبوا بذلكَ[7] في الآخِرَةِ.

الآيات ١٧ ـ ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ

---

(١) في الأصل وم: أو. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: والآفات. (٤) في الأصل وم: لترغيبها. (٥) في الأصل وم: أو.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذلك.

نُصِبَتْ﴾][1] ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فَخصَّ الإبلَ بالذِّكرِ مِنْ بَينِ جملةِ الدوابِّ، وخَصَّ السماءَ والجبالَ والأرضَ بالذِّكرِ، وتَخصيصُها يكونُ لأحدِ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الإبلَ كانَتْ مِنْ أخَصِّ دوابِّ أهلِ مكةَ؛ عليها كانوا يُسافرونَ، وعليها كانوا يَنقلونَ ما احتاجوا إليهِ[2]، وهي أيضاً، أعني مكةَ، مَنشؤُهُمْ بينَ الجبالِ، فكانتْ لا تُفارِقُهُمُ الجبالُ، وكانَتِ السماءُ مِنْ فَوقِهِمْ، والأرضُ مِنْ تَحتِهِمْ، فَخُصَّتْ هذهِ الأشياءُ بالذِّكرِ لِيَعتَبِروا بها، ويَتَدَبَّروا.

[والثاني:][3] أنَّ المنافعَ المجعولةَ في الدوابِّ كلِّها تجتمعُ في الإبلِ لأنَّ منافعَ الدوابِّ أنْ يُنْتَفَعَ بِظَهْرِها وبِضِرْعِها وبِصوفِها وبِلَحمِها ونَسْلِها، فكلُّ ذلكَ في الإبلِ، فصارتْ في الإبلِ كالأنعامِ لِلمَنافِعِ المُتَّخَذَةِ في الدوابِّ والبركاتِ المَعْقودةِ فيها، وكذلكَ عِظَمُ المنافعِ والبركاتِ المَعْقودةِ فيها مُتَّصِلةٌ بالسماءِ؛ ففيها جُعِلَتْ أرزاقُهُمْ، وفيها عينُ الشمسِ التي بها صالحُ الأغذيةِ، ونَراها مُزَيَّنَةً بِزِينةِ الكواكبِ؛ فهي أيضاً كالأمرِ في المنافعِ.

وكذلكَ الأرضُ كالأمِّ في المنافعِ؛ إذْ فيها مَأْوَى الخَلْقِ، قَدَّرَ فيها أقواتَ الخَلْقِ وأرزاقَهُمْ، ومنها يَخرُجُ ما يَتَّخِذونَ منهُ اللِّباسَ.

ثم بالجبالِ قِوامُ الأرضِ، ولولاها لكانَتِ الأرضُ تَميدُ بأهلِها. فَخُصَّتْ هذهِ الأشياءُ بالذِّكرِ لِما ذَكَرْنا.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: على الأمرِ، أي فَلْيَنْظُروا.

والثاني: أنْ يكونَ على سؤالٍ تَقَدَّمَ منهمْ لأمرٍ اشْتَبَهَ عليهِمْ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ[4]، أي لو نَظَروا في هذهِ الأشياءِ لكانَ نَظَرُهُمْ فيها وتَفَكُّرُهُمْ بها نَزَعَ عنهمُ الإشكالَ، وَوَضَحَ لهمْ ما اشْتَبَهَ عليهِمْ.

وذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنهُ قالَ: لَمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى ما ذَكَرَ مِنْ نَعيمِ الجنةِ عَجِبَتْ قريشٌ، وقالوا[5]: يا محمدُ ائْتِنا بآيةٍ أنَّ ما تقولُ حقٌّ، أنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾؟

ثم النَّظَرُ في رفعِ السمواتِ والتَّفَكُّرِ في خَلْقِها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] والنَّظَرُ والاعْتِبارُ في خَلْقِ الإبلِ ونَصْبِ الجبالِ وسَطْحِ الأرضِ، وهو البَسْطُ، ممّا يُوجِبُ القولَ بالبَعْثِ، ويَدْعو إلى وحدانيّةِ الرَّبِّ تعالى وإلى القولِ بإثباتِ الرسالةِ.

وذلكَ أنَّ الذي كانَ يَحمِلُ على إنكارِ البعثِ، هو أنهمْ كانوا يُقَدِّرونَ الأشياءَ بِقُوَى أنفسِهِمْ/ ٦٣٩ ـ أ/ فكانوا يَظُنّونَ أنَّ القوةَ لا تَبْلُغُ هذا؛ إذْ إحياءُ المَوتى خارجٌ عنْ وُسْعِهِمْ.

فلو نَظَروا، وتَفَكَّروا في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ لَعَلِموا أنَّ قوةَ اللهِ غَيرُ مُقَدَّرةٍ بِقُوَى الخَلْقِ؛ وذلكَ أنَّ السمواتِ خُلِقَتْ، ورُفِعَتْ في الهواءِ بِغَيرِ عَمَدٍ، وأُقِرَّتْ، كذلكَ لا تَنحَدِرُ عنْ موضِعِها، ولا تَصْعَدُ. ولو أرادَ أحدٌ أنْ يُقِرَّ في الهواءِ ريشةً حتى لا تَسْقُطَ، ولا تَتَصَعَّدَ، لم يَقْدِرْ عليهِ. فيكونُ في ذلكَ تنبيهٌ أنَّ قدرَتَهُ قدرةٌ ذاتيةٌ، ليسَتْ بِمُستَفادةٍ.

وكذلكَ الجبالُ تَرَونَها معَ شُموخِها وارْتِفاعِها وصَلابَتِها زُيِّنَتْ بالمياهِ والأشجارِ المُلْتَفَّةِ مِنْ وجهٍ، لو تَفَكَّرَ فيهِ الخلائقُ، فاسْتَفْرَغوا مَجهودَهُمْ لِيَعْلَموا مِنْ أيِّ مَوضعٍ يَجتَمِعُ الماءُ، وكيفَ يَنْبُعُ، وكيفَ تَنْبُتُ الأشجارُ مِنْ بَينِ الأحجارِ، لم يَصِلوا إلى معرفتِهِ، فَيَعْلَموا أنَّ عِلْمَهُ ليسَ بالذي يُحاطُ بهِ، فيكونُ في ذِكْرِ [هذهِ الأنباءِ][6] أنهُ لا يَخفَى عليهِ أمرٌ، ولا يُعْجِزُهُ شيءٌ، بلِ العالَمُ كلُّهُ تحتَ تدبيرِهِ، يَفْعَلُ بهمْ ما يَشاءُ، ويَحكُمُ بما يُريدُ، وأنَّ الذي قَدَرَ على خَلْقِ هذا قادرٌ على

---

(١) في الأصل وم: إلى قوله. (٢) في الأصل وم: إليها. (٣) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (٤) في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: نبا.

إحيائِهِمْ وبَعْثِهِمْ للجزاءِ، وفي خَلْقِ هذهِ الأشياءِ ما يَدْعوهُمْ إلى الوَحْدانيَّةِ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ مَنافعَ الأرضِ مُتَّصِلَةً بِمَنافِعِ السماءِ؛ فالقَطْرُ يَنْزِلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ غَيرِ المُنْهَشِمةِ، فَيُنْبِتُ لهمْ مِنْ ألوانِ النباتِ رِزْقاً لهمْ ولأنعامِهِمْ.

فلو كانَ مُدَبِّرُ السماءِ غَيرَ مُدَبِّرِ الأرضِ لكانَ مَنَعَ منافعَ السماءِ عنْ خَلْقِ مُدَبِّرِ الأرضِ. فلو تَفَكَّروا فيها لكانَ يَزولُ عنهمُ الإشكالُ، فلا يَدْعونَ معَ اللهِ إلهاً آخَرَ، ولا يقولونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾؟ [ص: ٥].

وقولُنا: إنَّ فيهِ إثباتَ الرسالةِ؛ وذلكَ أنهمْ بما أُنْعِموا مِنَ النِّعَمِ التي ذَكَرْناها لابُدَّ أنْ يَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ، ولا يُعْرَفُ شُكْرُ كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ، ثم يكونُ، فلابدَّ مِنْ رسولٍ يُطْلِعُهُمْ على ذلكَ.

فإنْ قيلَ: كيفَ أُمِروا بالنَّظَرِ في كَيفيَّةِ خَلْقِ هذهِ الأشياءِ، وهمْ لو نَظَروا [إلى][1] آخرِ الأبدِ لِيَعْرِفوا كيفَ خُلِقَتْ هذهِ الأشياءُ لم يَهْتَدوا إلى ذلكَ الوَجْهِ؟

فجوابُهُ أنهمْ لو أدركوا[2] ذلكَ الوَجْهَ، وفَهِمُوهُ، لكانَ النَّظَرُ فيها لا يَرْفَعُ عنهمُ الإشكالَ، إذْ يُقَدِّرونَهُ بأفعالِ الخَلْقِ التي تَهْتَدي إليها. فارتفاعُ الإدراكِ[3] وخُروجُهُ عنْ أوهامِهِمْ هو الذي يُوضِحُ لهمُ المُشْكِلَ، ويُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ، إذْ بهِ عَرَفوا أنهُ حاصلٌ بقُدْرةِ مَنْ لا تُقَدَّرُ قُوَّتُهُ بقُدْرَتِهِمْ وأنهُ خِلافُهُمْ مِنْ جميعِ الوجوهِ، واللهُ الموفِّقُ.

الآيتان ٢١ و٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ ففي [هاتينِ الآيتَينِ][4] واللهُ أعلَمُ، أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لِرَسولِهِ ﷺ ألا يُجازِيَهُمْ بِصَنيعِهِمْ إذا استَقْبَلوهُ بما يُكْرَهُ مِنْ أذًى يوجَدُ منهمْ واستِخفافٍ يَجيءُ منهمْ، فيقولُ: ذَكِّرْ باللهِ تعالى، وذَكِّرْهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ، وذَكِّرْهُمْ كيفَ هَلَكَ مُكَذِّبو الرُّسُلِ؟ وكيفَ نَجا مَنْ صَدَّقَهُمْ؛ وعَظِّمْ أمْرَهُمْ؟ ولا تُجازِهِمْ بِصَنيعِهِمْ، وكِلْ ذلكَ إلى اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قالَ بَعضُهُمْ: بِمُسَلَّطٍ، قالَ بَعضُهُمْ: بِجَبّارٍ.

فإنْ أُريدَ بهِ الوَجْهُ الأوَّلُ فهو ممّا يُحْتَمَلُ، ويجوزُ أنْ يُسَلَّطَ عليهمْ في أنْ يُؤْذَنَ [لَهُ][5] بِقِتالِهِمْ وأَسْرِهِمْ وقَهْرِهِمْ بِبَذْلِ الجِزيَةِ. ولهذا قيلَ: إنَّ هذا كانَ قبلَ سورةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

وإنْ كانَ تأويلُهُ لَسْتَ بِجَبّارٍ عليهِمْ على ما رُوِيَ عنْ مُجاهِدٍ فهذا الوَجْهُ ممّا يَرِدُ عليهِ النَّسْخُ، فلا يجوزُ أنْ يَصيرَ جَبّاراً عليهِمْ، ولا يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الآية: ٢٣] اسْتِثْناءً، ويكونُ مَعْناهُ لكنَّ مَنْ تَوَلّى، وكَفَرَ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ أي مَنْ أعرضَ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَرَ بِوَحْدانيَّةِ اللهِ تعالى وبِكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

الآيتان ٢٣ و٢٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾][6] على التأويلِ الذي قيلَ: المُسَيطِرُ، هو المُسَلَّطُ بالسيفِ والأسْرِ والقَهْرِ بالجزيةِ التي هي صَغارٌ عليهِمْ يكونُ قولُهُ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ على الاِسْتِثْناءِ، أي مَنْ أعْرَضَ عنْ طاعةِ اللهِ، فَسَيُسَلَّطُ عليهِمْ بالسيفِ والأسْرِ وأخْذِ الجزيةِ. [وعلى ما][7] قيلَ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي أعْرَضَ، ولَزِمَ الإعراضَ، فيكونُ مُسَيْطِراً عليهِمْ، أو تَوَلّى وقتَ التَّذكيرِ، فَسَيُسَيطَرُ عليهِمْ، وباللهِ النجاةُ.

وفي هذهِ الآياتِ[8] بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالظَّفَرِ على الذينَ تَوَلَّوا عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا بهِ.

وفيها[9] آيةُ رسالتِهِ لأنهُ قالَ هذا في وَقْتِ ضَعْفِهِ وقِلَّةِ أنصارِهِ. وكانَ الأمرُ كما قالَ [ﷺ: «نُصِرْتُ][10] بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ» [الطبراني في الكبير ١١٠٥٦] وفُتِحَتْ لهُ الفُتوحُ لِيُعْلَمَ أنهُ باللهِ تعالى عَلِمَ.

الآية ٢٥ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي مَرْجِعَهُمْ.

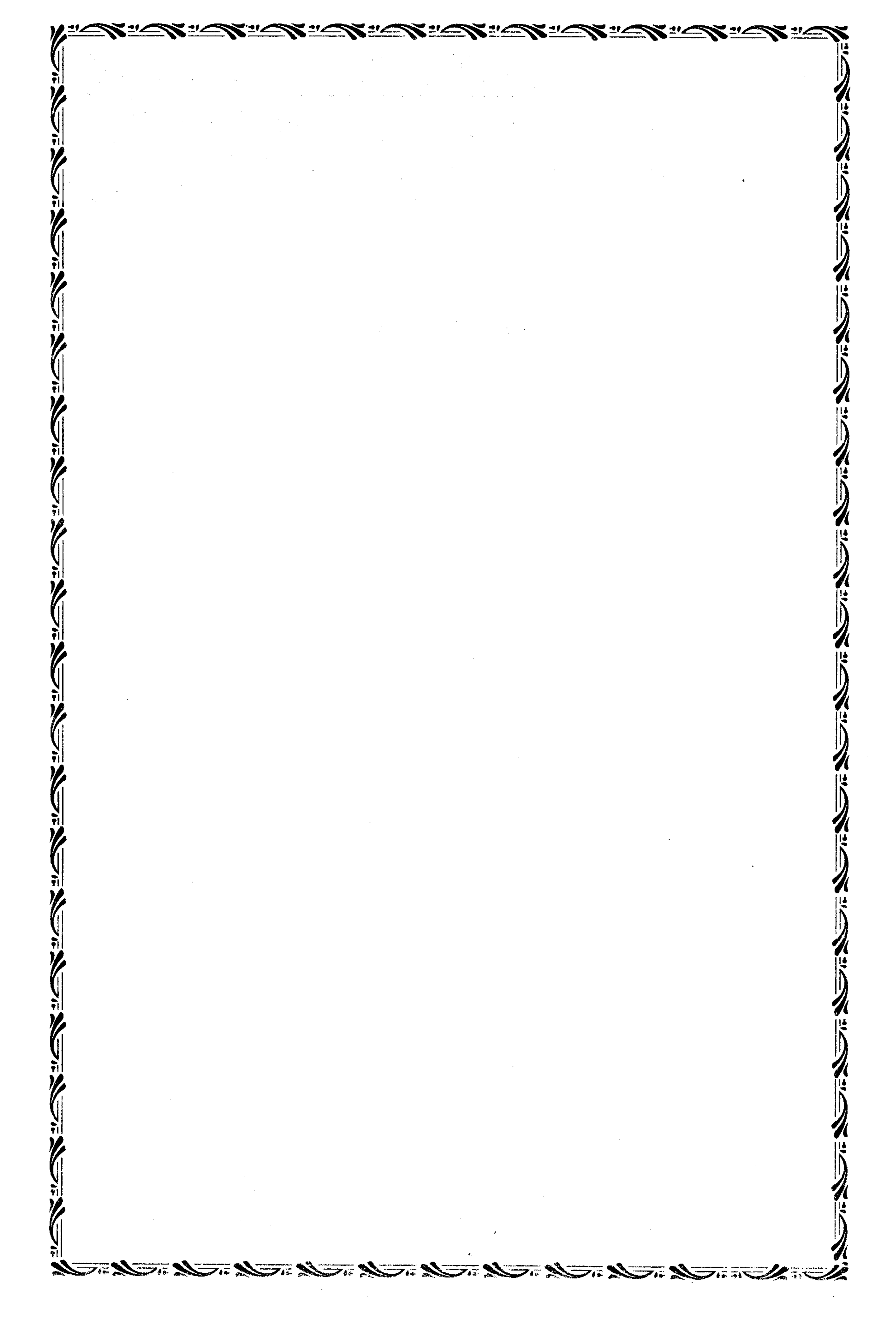
---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: تداركوا. (٣) في الأصل وم: التدارك. (٤) في الأصل وم: هذه الآية. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: الآية. (٩) في الأصل وم: وفيه. (١٠) في الأصل وم: أن نصره الله تعالى.

الآية ٣٦ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي مِنَ الحكمةِ أنْ نُحاسِبَهُمْ. وإذا كانَتِ الحكمةُ تُوجِبُ حسابَهُمْ وتعذيبَهُمْ، كانَ عليهِ أنْ يُحاسِبَهُمْ [وفي ما تَرَكَهُ][1] تَرْكُ الحكمةِ، وفي تَرْكِهِ سَفَهٌ، تعالى اللهُ عنْ ذلكَ، وباللهِ النجاة، ومنهُ التوفيقُ [والصلاةُ والسلامُ على رسولِهِ محمدٍ وآلِهِ الطاهرِينَ][2].

* * *

(١) الواو ساقطة من الأصل، في م: في تركه لما في تركه. (٢) ساقطة من م.



سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ كانتِ العربُ مِنْ عادتِهِمْ أنهمْ إذا استَحْسَنوا شيئاً عَظَّموهُ، وإذا عَظَّموهُ أقسَموا بِهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الحجِّ وأوقاتِهِ لَطائفَ مِنَ الحكمةِ وعجائبَ مِنَ التدبيرِ؛ فَمِنْ لطيفِ حكمتِهِ وعجائبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَ المكانَ الذي يُحَجُّ فيهِ مأمناً للخَلْقِ مِنْ وَجْهٍ لا يَعْرِفُ الخلائقُ المَعْنَى الذي بِهِ وَقَعَ الأمنُ والإلْفُ بَيْنَ الخَلْقِ حتى يَرْغَبوا جميعاً في الاجْتِماعِ هنالكَ مع تَباغُضِهِمْ وتَعاديهِمْ في ما بينَهُمْ مِنْ وَجْهٍ لا يُدْرَكُ معناهُ.

وجَعَلَ [أهلَ مكةَ][1] يَتَقَلَّبونَ في البلادِ آمنينَ، وسَخَّرَ[2] أهلَ الآفاقِ في حَمْلِ ما يقعُ لأهلِ مكةَ إليهِ حاجةٌ مِنَ المِيرةِ وغَيرِها، وجَعَلَهُمْ بحيثُ يَرْغَبونَ في الإتيانِ إليها معَ عِظَمِ ما يَلْزَمُهُمْ مِنَ المُؤَنِ إلى أسبابٍ إلى مكةَ للحجِّ. فَثَبَتَ أنَّ فيها مَعانِيَ ولَطائفَ، هي خارجةٌ عنْ قِواهمْ وتدبيرِهِمْ، فكانَ في ذِكْرِها ما يوجِبُ القولَ بالقدرةِ على البعثِ، ويُزيلُ عنهمُ الشُّبهةَ في أمرِهِمْ.

فأقسَمَ لِما عَظَّمَ مِنْ شأنِها لِمكانِ أنها أوقاتُ الحجِّ، فغايةُ أركانِ الحجِّ تُؤدَّى فيها، وعادةُ العربِ أنهمْ يُقسِمونَ بآبائهمْ وأجدادِهِمْ وأصنامِهِمْ لِما هي مُعَظَّمةٌ عندَهُمْ، وهذهِ الأشياءُ مُعَظَّمةٌ عندَهُمْ، فَجَرى القسمُ بها جَرْياً على عادتِهِمْ. ويدخُلُ في أوقاتِها الشَّفْعُ والوَتْرُ والفَجْرُ؛ فقالوا: ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ /٦٣٩ ـ ب/ يومُ النحرِ لأنهُ اليومُ العاشِرُ مِنَ الشهرِ ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ هو يومُ عَرَفَةَ لأنهُ اليومُ التاسعُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ جملةُ العباداتِ جملةً، إذْ ما مِنْ عبادةٍ إلا فيها شَفْعٌ وَوَتْرٌ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي يَسْري بها، وفي ذلكَ كنايةٌ عنِ الجهادِ والإغارةِ بالليلِ كما يُذْكَرُ في قولِهِ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ [العاديات: ١ و٢ و٣] فيكونُ هذا كلُّهُ إشارةً إلى جملةِ العباداتِ.

ووجهُ القَسَمِ بالعباداتِ أنَّ اللهَ تعالى عَظَّمَ أمرَ العباداتِ في قلوبِ الخَلائقِ حتى تَراهُمْ جميعاً يَسْتَحْسِنونَها، ويُعَظِّمونَ أمْرَها، وإنما يقعُ الاخْتِلافُ بينَهُمْ في ماهِيَّتِها، ولا يَقَعُ[3] التَّمانُعُ بَيْنَهُمْ في أنفسِها، فأقسَمَ بها. وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بالوَتْرِ هو اللهُ تعالى، وأُريدَ بالشَّفْعِ الخلائقُ؛ إذْ خَلَقَهُمْ أزواجاً، واللهُ تعالى، هو الواحدُ بذاتِهِ، فيكونُ القسمُ بذاتِهِ وبجميعِ الخَلْقِ، ويَحْتَمِلُ أنهُ أُريدَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ [الخلائقُ جُملةً، وفيهمْ معنيانِ جميعاً الشَّفْعُ والوَتْرُ، فيكونُ القسمُ بجميعِ الخلائقِ][4].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ أنَّ وجهَ القسمِ بهذهِ الأشياءِ يعرِفُهُ ذَوُو الحِجْرِ، وهمْ ذَوُو الألبابِ والحِجا، لا أنْ يَعْرِفَهُ الجَهَلَةُ.

قالوا: ومَوضِعُ القَسَمِ على قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الآية: ١٤].

وجائزٌ أنْ يكونَ وقَعَ التَّنازُعُ في ما بَيْنَهُمْ؛ وكانوا يَزْعُمونَ أنَّ أوقاتَ الحجِّ، هي الليالي العَشْرُ، والشَّفْعُ والوَتْرُ ليسَ بقسمٍ بها.

---

(١) في الأصل وم: أهلها. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: أن. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وقيل[١]: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي للعاقلِ إذا تدبّرَ فيها عرَفَ أنَّ هذهِ الأوقاتَ [التي يُحتمَلُ أنْ يُقسَمَ بها][٢] وهذهِ الأوقاتَ التي تدُلُّهُمْ على القولِ بالبعثِ.

وقيلَ:[٣] إنما أقسَمَ بهذهِ الأيامِ وخطَرِها عندَهُمْ لِما فيها مِنْ صلاحِ مَعايِشِهِمْ، ويكونُ لهمْ فيها سَعةُ العيشِ: أمّا الفُقراءُ فبالهدايا[٤] والبُدْنِ، وأمّا غيرُهُمْ فبأنواعِ[٥] المكاسبِ والتجاراتِ؛ فإنهمْ كانوا يُعِدّونَ[٦] الأشياءَ، ويُهَيِّؤونَها[٧] مِنَ السنةِ إلى السنةِ للتجارةِ في هذهِ الأيامِ [فأقسَمَ اللهُ تعالى بها][٨] لِكَونِها مُعظَّمةً عندَهمْ.

وقيلَ: إنَّ مَوضِعَ القسمِ غيرُ مذكورٍ في هذهِ السورةِ لأنهُ كانَ على إثْرِ حادثةٍ عندَهمْ معروفةٍ، استغنَى عنْ ذِكرِها لِشُهرَتِها عندَهمْ، فأقسَمَ إنها لَحَقٌّ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٦ ـ ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾؟ في ذِكْرِ نَبَإِ عادٍ وثمودَ فوائدُ ثلاثٌ:

أحدُها: في موضعِ التَّخويفِ لأهلِ الذينَ كَذَّبوا رسولَهُ ﷺ وهو أنَّ أولئكَ القومَ كانوا أكثرَ أموالاً وأولاداً وأعداداً وأكثرَ في القوةِ مِنْ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوا محمداً، عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلام، فلم يُغْنِهِمْ ذلكَ كلُّهُ مِنَ اللهِ تعالى [شيئاً، بل اللهُ تعالى][٩] انْتَقَمَ منهمْ لرسلِهِ ﷺ بما كَذَّبوهُمْ. فما بالُ هؤلاءِ الذينَ كَذَّبوا محمداً ﷺ لا يخافونَ مَقْتَهُ وحلولَ النِّقْمةِ بتكذيبِهِمْ رسولَهُ؟ وليسوا بأكثَرَ مِنْ أولئكَ في العددِ والمالِ والقوةِ.

[والثانيةُ:][١٠] أنَّ أولئكَ كانوا يَزْعُمونَ أنهمْ باللهِ تعالى أولَى من أمةِ محمدٍ ﷺ وأتباعِهِ لِما بَسَطَ لهمْ مِنَ النعيمِ، وضَيَّقَ على الرسولِ وأتباعِهِ، فَتَبَيَّنَ أنَّ الذينَ تَقَدَّمَهُمْ مِنْ مُكذِّبي الرسلِ كانوا أرفَعَ منهمْ في القِوَى والأموالِ والأولادِ والأعدادِ، وكانتْ رسُلُهُمْ في ضيقٍ مِنَ العيشِ، ثم كانوا هُمْ أولَى باللهِ تعالى مِنَ المُكذِّبينَ المُفتخِرينَ بكثرةِ الأعدادِ والقِوَى، فَبَيَّنَ لهمْ هذا لِيَعلَموا أنْ ليسَ الأمرُ على ما ظَنُّوا، وحَسِبوا.

والثالثةُ[١١]: أنهمْ كانوا يَمْتَنِعونَ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرسلِهِ، وكانوا يقولونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فيكونُ في ذِكرِ هذا نَفْيُ التقليدِ لِأولئكَ لأنهُ كانَ في آبائهمْ مَنْ أهلِكَ بتكذيبِهِمُ الرسلَ، وهمُ الفراعنةُ وأتباعُهُمْ، وفيهِمْ مَنْ نَجا، وهُمُ الرسلُ وأتباعُهُمُ المُصَدِّقونَ لهمْ، فما بالُهُمْ قَلَّدوا المُهْلَكينَ منهمْ دونَ الذينَ نَجوا؟

ثم الآيةُ لم تُسَقْ لِيُعرَفَ نَسَبُ عادٍ وثمودَ وفرعونَ حتى يُشْتَغَلَ بتَعَرُّفِهِ، وإنما سِيقَتْ لِلأوجُهِ التي ذَكَرْنا؛ فالاشْتِغالُ بِتَعَرُّفِ أنسابِهِمْ وأحوالِهِمْ نوعٌ مِنَ التَّكَلُّفِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ فقولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أي قد رأيتَ كما يُقالُ في الشاهدِ: ألم تَرَ إلى ما فَعَلَ فلانٌ، أي قد رأيتَ، وعَلِمْتَ، فَيُخْبِرُهُ بصنيعِهِ على جهةِ التَّشَكِّي منهُ.

[والثاني][١٢]: أنهُ يكونُ هذا ابْتِداءَ إعلامٍ منهُ، فيقولُ لهُ: اعْلَمْ أنَّ ربَّكَ فَعَلَ بعادٍ كذا.

واختَلَفوا في قولِهِ تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ فقالَ بعضُهُمْ: هو أبو عادٍ، وقالَ بعضُهُمْ: أبو القبيلةِ، فَنُسِبَ إليهِ عادٌ كما يُقالُ: هو مِنْ بكرِ بنِ وائلٍ، وإنْ لم يكنِ ابنَهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِرَمَ﴾ مساكِنَ عادٍ، وقيلَ: هو اسْمُ الذي بَنَى تلكَ الأماكنَ.

---

(١) في الأصل وم: فقال. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) الواو ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: يستعدون. (٧) في الأصل وم: ويهيؤون. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل وم: وفائدة أخرى. (١١) في الأصل وم: والثالث. (١٢) في الأصل وم: ويحتمل.

وقولُهُ: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ذاتِ الأجسادِ الطِّوالِ كما ذُكِرَ في القصةِ، وقالَ بعضُهُمْ: ذاتِ البناءِ المَشيدِ المَرفوعِ في السماءِ كالعَمَدِ الطِّوالِ، فَيَرْجِعُ إلى الإرَمِ على تأويلِ مَنْ جَعَلَهُ عبارةً عنِ المساكِنِ، وقالَ بعضُهُمْ ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ هي الخيامُ، لها أطنابٌ وعَمَدٌ؛ كانوا أصحابَ خِيامٍ وقِبابٍ، وكانتْ مساكِنُهُمْ مَرفوعةً بالعِمادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هذا وصفُ القومِ بالشدةِ والقوةِ وعِظَمِ القوةِ والخِلْقةِ وفَضْلِ البَصَرِ في الأمورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقولِهِ[1] حكايةً عنهمْ: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقولِهِ تعالى: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فوصَفَهُمْ بِفَضْلِ البَصَرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أُريدَ بها المساكِنُ التي[2] بَنَوها أنْ ليسَ مثلُها في البلادِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: اتَّخذوا مِنَ الصخورِ جَوابِيَ أي قِصاعاً كما قالَ تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ [سبإ: ١٣] وقالَ بعضُهُمْ: [نَحتوا][3] في الصخورِ بيوتاً كقولِهِ تعالى: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢] فيكونُ في هذا إخبارٌ عنْ قواهُمْ وشِدَّتِهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: سَمّاهُ ذا الأوتادِ، والوَتَدُ الجَبَلُ، وقالَ بعضُهُمْ: سُمِّيَ ذا الأوتادِ لأنهُ كانتْ لهُ أوتادٌ نَصَبَهَا لِتعذيبِ مَنْ غَضِبَ عليهِ، وقالَ بعضُهُمْ: إنه كانَ نَصَّبَ على الطريقِ أُناساً: على كلِّ طريقٍ إنساناً راصداً وحافظاً. وقيلَ: أي ذو قُصورٍ وبُنْيانٍ مَشيدةٍ مَرفوعةٍ تُشْبِهُ الجِبالَ؛ إذْ هي أوتادُ الأرضِ.

الآيتان ١١و١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وطُغيانُهُمْ في البلادِ، وتَمَرُّدُهُمْ وعُتُوُّهُمْ فيها.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: عذَّبَهُمْ بِسَوطِهِمُ الذي كانوا يُعَذِّبونَ الخَلْقَ /٦٤٠ ـ أ/ ويَضْرِبونَهُمْ [بهِ][4].

وقالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: إنَّ السَّوطَ لَونٌ مِنَ العذابِ، فَعَذَّبَ عاداً بِلَونٍ منهُ، وعذَّبَ ثَمودَ بِلَونٍ منهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: يرصُدُ عذابَهُ بأعدائِهِ، يَنتَظِرُ بهِ آجالَهُمْ، ثم يُوقِعُ بهمُ العذابَ إذا أتى الأجَلُ.

وعندَنا أنهُ يرصُدُ عليهمْ ما عَمِلوا، فلا يَشْتَدُّ عليهِ، ولا يَعْزُبُ عنهُ شيءٌ مِنْ عملِهِمْ، بل يَحْفَظُ عليهمْ ما اسْتَتَرَ منها وما ظَهَرَ.

وقيلَ: أي لا يُجاوِزُهُ ظُلْمُ ظالمٍ، ولا يَفوتُهُ هاربٌ. فلا[5] يَنْصَرِفُ وَهْمُ أحدٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ إلى إيثارِ مكانٍ. فما بالُ بعضِ الناسِ انْصَرَفَ وهْمُهُمْ في قولِهِ تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إلى جعلِ العرشِ مكاناً لهُ؟

الآيات ١٥ و ١٦ و ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ والإشكالُ أنْ يقولَ قائلٌ: قولُ ذلكَ الإنسانِ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ و﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ خَرَجَ مُوافِقاً لِما قالَهُ الربُّ تعالى لأنهُ قالَ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ﴾ فَخَرَجَ قولُهُ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ على المُوافقةِ لِما قالَ، وكذا قولُ هذا الإنسانِ حينَ[6] ابْتُلِيَ بِنَقيضِهِ ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ خَرَجَ مُوافِقاً لِما قالَ: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾.

فإذا كانَ الأولُ إكراماً كانَ الثاني[7] يُضادُّهُ إهانةً. ألا تَرى أنَّ اللهَ تعالى سَمّى المالَ خيراً والفَقْرَ شرًّا، وسَمّى المُطيعَ

---

(١) في الأصل وم: وقال. (٢) في الأصل وم: الذين. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ثم لم.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: الله.

مُحْسِناً والعاصِيَ مُسِيئاً، فكذا إذا اسْتقامَ القولُ[1] بالإكرامِ عندَما يُنْعِمُ عليهِ، ويُكْرِمُهُ[2]، اسْتقامَ القولُ[3] بالإهانةِ إذا ضَيَّقَ عليهِ الرزقَ، ولم يُكْرِمْهُ[4]؟

فإذا كانَ هكذا فكيفَ ردَّ عليهِ مَقالَتَهُ بقولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ وهو في ذلكَ صادقٌ؟.

ولكنْ نحنُ نقولُ: إنَّ الرَّدَّ بقولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ لم يَقَعْ على نفسِ القولِ، ولا انْصَرَفَ إليهِ، وإنما انْصَرَفَ إلى ما أرادَهُ بقولِهِ؛ لأنَّ القائلَ بهذا كافرٌ باللهِ تعالى وباليومِ الآخِرِ، فكأنهُ[5] يقولُ: لا بَعْثَ، ولا جَزاءَ. وإنما يُجازَوْنَ بأعمالِهِمْ في هذهِ الدنيا. فَمَنْ أحْسَنَ أُحْسِنَ إليهِ بهِ، ومَنْ أساءَ أُهينَ بهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ أي ليسَ الأمرُ كما صَوَّرَهُ في نفسِهِ، بلِ الدنيا دارُ عملٍ، وللجزاءِ بالكفرِ والإيمانِ دارُ الآخِرَةِ.

وهـذا كـقـولـهِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وهمْ لم يكونوا كاذِبينَ في شَهادَتِهِمْ ومقالتِهِمْ، بل كانوا صادِقينَ أنهُ رسولُ اللهِ وأنَّ اللهَ تعالى يَعْلَمُ أنهُ رسولُهُ، ولكنهمْ كانوا اعْتَقَدوا تكذيبَهُ في قلوبِهِمْ، فكانوا يُظْهِرونَ خِلافَ ما أضْمَروا في أنفسِهِمْ. [وإلى][6] ما أضْمَروا انْصَرَفَ التكذيبُ لا إلى نفسِ القولِ؛ كذا هذا.

ولأنَّ أهلَ الكُفْرِ كانوا أصنافاً؛ فمنهمْ مَنْ كانَ يَرَى إذا بُسِطَ عليهِ النعيمُ في الدنيا، وأُكْرِمَ، فإنما بُسِطَ عليهِ لِما اسْتَوْجَبَهُ بِفِعْلِهِ، وإذا ضُيِّقَ عليهِ، وابْتُلِيَ بالشِّدَّةِ، فإنما ضُيِّقَ عليهِ بإساءَتِهِ وبما كَسَبَتْ يداهُ، ومنهمْ مَنْ كانَ يظُنُّ أنهُ مِنَ اللهِ بمنزلةٍ، وأنهُ اسْتَوْجَبَ الإنعامَ، وأنهُ إذا ابْتُلِيَ بِضيقِ العيشِ، وأضاقَتْهُ شِدَّةٌ [فإنما][7] أصابَهُ ذلكَ مِنْ عندِ محمدٍ ﷺ فَيَتَشاءَمُ بِهِ. ألا يَرَى إلى قولِهِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾؟ [النساء: ٧٨]. وعلى هذا كانَ ظَنُّ فرعونَ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١].

فقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي اكرمَهُ في نفسِهِ بأنْ أصحَّ جِسْمَهُ، أو جَعَلَهُ رئيسَ قومِهِ ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي بَسَطَ الدنيا عليهِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فكانَ يَبْطَرُ بذلكَ. وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي إذا اخْتَبَرَهُ، فَضَيَّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ فكانَ يُظْهِرُ بذلكَ الجزعَ. واللهُ تعالى اخْتَبَرَهُ بالنِّعَمِ لِيَسْتَأدِيَ بما أنْعَمَ [شُكْرَهُ][8] وابْتَلاهُ بضيقِ العيشِ لِيَصْبِرَ، لا لِيَجْزَعَ؛ فلا شَكَرَ هذا النِّعَمَ، بل بَطِرَ، ولا صَبَرَ هذا على الشدائدِ، بل جَزِعَ. فجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ مُنْصَرِفاً إلى هذا ردّاً لِاعْتِقادِهِمْ وصَنيعِهِمْ، وهو أنهُ لم يُكْرِمْ، ولم يُنْعِمْ لِيَبْطَرَ بِهِ، ولا ضَيَّقَ عليهِ رزقَهُ لِيَجْزَعَ، بل إنما أنْعَمَ لِيَشْكُرَ، وقَدَرَ عليهِ رزقَهُ لِيَصْبِرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ فجائزٌ أنهمْ كانوا لا يُكْرِمونَهُ[9]، ويُهينونَهُ معَ ذلكَ، لأنَّ إكرامَ اليتيمِ ليسَ بواجبٍ، أمّا أهانَتُهُ فحرامٌ[10].

وجائزٌ ألّا تَثْبُتَ الإهانةُ فيهمْ معَ نَفْيِ الإكرامِ، لأنَّ الإيجابَ إذا ذُكِرَ في مُضادَّةِ الإيجابِ اقْتَضى ذلكَ إثباتَ المُقابَلةِ، وإذا ذُكِرَ الإيجابُ في مُضادَّةِ النَّفْيِ أمكَنَ أنْ تَثْبُتَ فيهِ المُقابلةُ، وأمكَنَ ألّا تَثْبُتَ.

ألّا تَرَى إذا قيلَ: فلانٌ جائرٌ كانَ إثباتُ المُقابَلَةِ، هو نَفْيُ العَدْلِ، لأنَّ قولَهُ: جائرٌ إثباتُ الجَورِ، فكانَ في ذِكْرِهِ نَفْيُ العَدالةِ، وفيهِ إثباتُ المُقابَلَةِ، وإذا قُلْتَ: ليسَ بِعَدْلٍ لم يكُنْ فيهِ تحقيقٌ لإثباتِ المُقابلةِ أيضاً؟ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦] فكانَ في نَفْيِ الربحِ إثباتُ المُقابَلةِ في أنها خَسِرَتْ.

ثم إكرامُ اليتيمِ ههنا يَحْتَمِلُ أوجُهاً ثلاثةً.

---

(١) في الأصل وم: القوم. (٢) في الأصل وم: ويكرم. (٣) في م، في الأصل: القوم. (٤) في الأصل وم: يكرم. (٥) الهاء ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: قال. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: يكرمون. (١٠) الفاء ساقطة من الأصل وم.

أحدُها: أنْ يُكرِمَهُ في أنْ يَحفَظَ عليهِ مالَهُ حتى لا يُضيِّعَهُ، ويُكرِمَهُ في نفسِهِ، وهو أنْ يَتعاهَدَ أحوالَهُ عنْ أنْ يَدخُلَ فيها خَلَلٌ.

والوجْهُ الثاني: أنْ يُكرِمَهُ، فيُعَلِّمَهُ آدابَ الشريعةِ، ويرشِدَهُ إليها.

والوجْهُ الثالثُ: أنْ يكرِمَهُ، فيَبذُلَ لهُ مِنْ مالِهِ قَدْرَ حاجتِهِ إليهِ، ويَصْطَنِعَ إليهِ المعروفَ، فيكونُ التعبيرُ ههنا في إعالةِ اليتيمِ أنْ يُترَكَ الإكرامُ الذي هو مِنْ بابِ حِفْظِ مالِهِ، فيكونُ تَضْييعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي لا تَحُثّونَ غيرَكُمْ[1] على إطعامِ المسكينِ.

وجائزٌ أنْ يَحُضُّوا، ولا يَلُوا بأنفسِهِمُ الإطعامَ، ويَحتَمِلُ ألّا يَلوا ذلكَ بأنفسِهِمْ، ويَحُضّونَ غيرَهُمْ.

وفي هذهِ الآيةِ ترغيبُ المسلمينَ بإكرامِ اليتيمِ وتَعاهُدِ مالِهِ، وتَبيينُ أنَّ عليهِمْ أنْ يُطعِموا بأنفسِهِمْ، وأنْ يَحُثّوا الأغنياءَ على إطعامِ المسكينِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ فاللَّمُّ الجمعُ؛ يُقالُ: لَمَّ المالَ أنْ جَمَعَ، فكأنَّهُ يقولُ: يَجْمَعونَ ما لم يَرِثوهُ بأنفسِهِمْ، وذلكَ نصيبُ الأيتامِ إلى ما يَرِثوا مِنْ أنصبائِهِمْ، فيأكلونَهُ[2] جميعاً وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي شديداً.

الآية ٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ قالَ أبو بكرٍ: أي تُحِبونَهُ حُبّاً وافياً وافراً، ليسَ فيهِ قصورٌ، فيكونُ فيهِ إخبارٌ عنْ غايةِ حبِّهِمُ الدنيا وشِدَّةِ حِرْصِهِمْ عليها.

وجائزٌ أنْ يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، وهو أنهمْ يُحِبّونَ المالَ الجَمَّ حُبّاً أي[3] المالَ الكثيرَ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ [حرفُ][4] رَدْعٍ وتَنْبيهٍ؛ فمنهمْ منْ ردَّ هذا الرَّدْعَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ و ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ / ٦٤٠ ـ ب/ فكأنَّهُ يقولُ: كلّا، ليسَتْ هذهِ الدارُ دارَ جزاءٍ، فتكونَ الإهانةُ والإكرامُ بِحَقِّ الجزاءِ، وإنما هي دارُ مِحْنةٍ وابْتِلاءٍ.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على الابْتِداءِ، فقالَ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾ دَكّا بِمَعْنى حقّاً، يُخبِرُ عنْ مَذَمَّةِ مَنْ تَرَكَ الإكرامَ لليتيمِ، وتَرَكَ إطعامَ المسكينِ والحَضَّ عليهِ، إذا دُكَّتِ الأرضُ، أي دُقَّتْ، وكُسِرَتْ، وذلكَ يومُ الحسابِ والبعثِ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ يَحتَمِلُ أوجُهاً:

أحَدُها: أنْ يكونَ مَعْناهُ: وجاءَ رَبُّكَ بالمَلَكِ، إذْ يجوزُ أنْ تُستَعْمَلَ الواوُ مكانَ الباءِ؛ ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾؟ [المائدة: ٢٤] ومَعْناهُ: بربِّكَ. وإذا حُمِلَ على هذا ارْتَفَعَتِ الشُّبْهَةُ، واتَّضَحَ الأمرُ، لأنهُ لو كانَ قالَ: وجاءَ ربُّكَ بالمَلَكِ لكانَ لا يَنْصَرِفُ وَهْمُ أحدٍ إلى الانْتِقالِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وقالَ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ومَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، بِظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ لأنهُ قالَ في موضعٍ آخَرَ: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] فَثَبَتَ أنَّ مَعْناهُ ما ذَكَرْنا. وإذا ثَبَتَ هذا ارْتَفَعَ الرَّيْبُ والإشكالُ.

[والثاني][5]: أنَّ مَعْنَى قولِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أمرُ اللهِ، دليلُهُ ما ذَكَرَ في سورةِ النحلِ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النحل: ٣٣] فذكَرَ مكانَ قولِهِ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أمرَ ربِّكَ.

[والثالثُ][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي جاءَ وَعْدُهُ ووعيدُهُ، فَنَسَبَ المجيءَ إلى اللهِ تعالى، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ وَصْفاً لأنهُ لا يجوزُ أنْ تُنْسَبَ آثارُ الأفعالِ إلى اللهِ تعالى نِسْبةَ حقيقةِ الفِعْلِ، وإنْ لم يوصَفْ بهِ كما قالَ اللهُ تعالى:

---

(١) في الأصل وم: غيرهم. (٢) في الأصل وم: فيأكلون. (٣) من م، في الأصل: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: ومنهم من ذكر. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فأضيفَ النَّفْخُ إليهِ، وإنْ لم يوصَفْ بأنهُ نافخٌ، وقالَ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فأضيفَتِ الكتابةُ إليهِ، وإنْ لم يوصَفْ بأنهُ كاتبٌ لِما ظَهَرَ مِنْ آثارِ فِعْلِهِ.

ويُقالُ: المطرُ رحمةُ اللهِ أي آثارُ رحمتِهِ، لا أنْ تكونَ المطرُ صفةً لهُ.

[والرابعُ: ما][1] يُقالُ: الصلاةُ أمرُ اللهِ والزكاةُ أمرُ اللهِ أي بأمرِ اللهِ يُصلَّى، وبأمْرِهِ يُزَكَّى، لا أنْ يكونا وصفَيْنِ، ووجهُهُ أنْ يكونَ مَعْنَى قولِهِ تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي جاءَ الوقتُ الذي بهِ صارَ إنشاءُ هذا العالمِ حكمةً؛ إذْ لولا البعثُ للجزاءِ لكانَ إنشاءُ هذا العالَمِ ثم الإهلاكُ خارجاً مَخْرَجَ العَبَثِ لِما وَصَفْناهُ مِنْ قَبْلُ لِقَولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فَثَبَتَ أنَّ[2] خَلْقَهُ إنما صارَ حكمةً بالبعثِ؛ قالَ تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقد كانَ المُلْكُ لهُ قبلَ ذلكَ اليومِ، ولكنَّ ملكَهُ لكلِّ أحدٍ يَتَبَيَّنُ في ذلكَ الوقتِ، وقالَ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١] وقد كانَ كلُّ شيءٍ لهُ بارزاً. ولكنَّ معناهُ أنهُ أتَى الوقتُ الذي لهُ بَرَزَ الخَلائقُ.

ثم الأصلُ في كلِّ ما أُضيفَ إلى اللهِ تعالى أنْ تَنْظُرَ إلى ما يَليقُ أنْ يوصَلَ بالمضافِ إليهِ، فَتَصِلَهُ بهِ، وتَجْعَلَهُ مُضمَراً فيهِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] لم[3] يُفْهَمْ إثباتُ الحضورِ، بل[4] كانَ مَعناهُ أنَّ عِلْمَهُ مُحيطٌ بهِمْ، وهو مُطَّلِعٌ عليهم، وقالَ: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢] لم يُفْهَمْ بهِ الإنتِقالُ، بل كانَ مَعْناهُ: أنهُ جاءَهُمْ بأسُهُ، وجاءَ لأوليائِهِ نَصْرُهُ، وقالَ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] لم[5] يُفْهَمْ بهذا الإتيانِ ما فُهِمَ مِنَ الإتيانِ الذي يُضافُ إلى الخَلْقِ، وقالَ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] بل[6] كانَ مَعْناهُ: إنْ تَنْصُروا دينَ اللهِ، لا أنَّ اللهَ تعالى يَلْحَقُهُ ضَعْفٌ يَحتاجُ إلى مَنْ يُقَوِّيهِ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] كانَ[7] مَعْناهُ: أنهُ يُحَذِّرُكُمْ عذابَهُ لا أنْ أُريدَ بِهِ تحقيقُ النفسِ، ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ، لا[8] يُحْصَى.

فَثَبَتَ أنَّ محلَّ الإضافاتِ ما ذَكَرْنا. فلذلكَ حُمِلَ على الوَعْدِ والوَعيدِ أو على الوقتِ الذي صارَ خَلْقُ العالَمِ حكمةً أو على ما صَلَحَ فيهِ مِنَ الإضمارِ.

ومِمّا يَدُلُّ على أنهُ لا يُفْهَمُ بالمجيءِ مَعْنىً واحدٌ، بل يَقْتَضي أنَّ المجيءَ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ فُهِمَ بهِ غَيرُ الذي يُفْهَمُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الأجسامِ؛ فإنهُ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ أُريدَ بهِ الظهورُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] ومَعْناهُ: إذا ظَهَرَ نَصْرُهُ، ولم يُرِدْ بهِ الإنتِقالَ، ولو كانَ مُضافاً إلى الجسمِ فُهِمَ منهُ الإنتِقالُ مِنْ مَوضعٍ إلى مَوضعٍ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] ومَعْناهُ: ظَهَرَ الحقُّ، واضمَحَلَّ الباطلُ، لا أنْ كانَ[9] الحقُّ في مكانٍ، فَنُقِلَ عنهُ إلى غَيرِهِ.

فَثَبَتَ أنَّ المجيءَ إذا أُضيفَ إلى شيءٍ، وَجَبَ أنْ يُوصَلَ بهِ ما يَليقُ بهِ لا أنْ يُفْهَمَ بهِ كلِّهِ مَعْنىً واحدٌ.

ورُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ حكايةً عنِ اللهِ تعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ باعاً، ومَنْ أتاني ساعياً أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري ٧٤٠٥ ومسلم ٢٦٧٥] لم يُفْهَمْ مِنْ هذا التَّقْريبِ ما يُفْهَمُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الخَلْقِ، وكانَ مَعْناهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ بالطاعةِ والعبادةِ تَقَرَّبْتُ إليهِ بالتوفيقِ والنصرِ أو بالإحسانِ والإنعامِ.

وقالَ موسى، على نَبيِّنا وعليه السلام: «يارَبِّ أقريبٌ فأُناجِيَكَ أم[10] بعيدٌ فأُناديكَ»؟ ولم يُرِدْ بهِ المكانَ، وإنما أرادَ بقولِهِ: أراضٍ أنتَ عني فأُناجيَكَ أم[11] ساخطٌ عليَّ فأُناديَكَ في أنْ أُعْلِنَ بالبكاءِ والتَّضَرُّعِ؟

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) في الأصل وم: أنه. (٣) في الأصل وم: ولم. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: ولم. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: وكان. (٨) في الأصل وم: من ان. (٩) في الأصل وم: يكون. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) في الأصل وم: أو.

ثم الأصلُ في المَجيءِ المُضافِ إلى اللهِ تعالى أنْ يُتَوَقَّفَ فيهِ، ولا يُقْطَعَ الحكمُ على شيءٍ لِما ذَكَرْنا أنَّ المَجيءَ ليسَ يُرادُ بهِ [وجهٌ واحدٌ][1] لأنهُ إذا أُضيفَ إلى الأعراضِ أُريدَ بهِ غَيرُ الذي يُرادُ بهِ إذا أُضيفَ إلى الأجسامِ والأشخاصِ، واللهُ تعالى[2] لا يوصَفُ بالجِسْمِيَّةِ حتى يُفْهَمَ منْ مَجيئِهِ ما يُفْهَمُ مِنْ مجيءِ الأجسامِ، ولا يوصَفُ بالعَرَضِ لِيُرادَ بهِ ما يُرادُ مِنْ مجيءِ الأعراضِ؛ فَحَقُّهُ الوقفُ في تفسيرِهِ معَ اعْتِقادِ ما ثَبَتَ بالتَّنْزيلِ منْ غَيرِ نِسْبةٍ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قيلَ فيهِ مِنْ أوجهٍ:

أحَدُها: أنها أُظْهِرَتْ، وبُرِّزَتْ لأهلِها على ما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] لا أنها كانتْ في مكانٍ فَنُقِلَتْ عنهُ، وقد يُرادُ بالمَجيءِ الظهورُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ومَعْناهُ: ظَهَرَ لكُمْ لا أنْ كانَ في مكانٍ آخَرَ [جاءَ منهُ][3] إليهِمْ.

[والثاني: ما][4] قالَ بعضُهُمْ: جِيءَ بأهلِها إليها، أي إلى جهنَّمَ، فتكونُ حقيقةُ المجيءِ منَ الأهلِ، ثم نُسِبَ إليها لأنهمْ إذا أتَوها فقد أتَتْهُمْ هي، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ/ ٦٤١ ـ أ/ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] فَنُسِبَ الإتيانُ إلى الذي يأتيهِ الوَعْدُ، فيكونُ الوعدُ، هو الذي يأتي أهلَهُ.

[والثالثُ: ما][5] قالَ بعضُهُمْ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي يومئذٍ تَجيءُ زَفْرَتُها وشَهيقُها وتَغَيُّظُها على أهلِها لا أنْ تَعْبُرَ عنْ مَكانِها.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَهُ على حقيقةِ المجيءِ، فَذَكَرَ أنهُ يُؤْتَى بها، ولها سبعونَ ألفَ زمامٍ، على كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ، واللهُ أعلَمُ بذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَتَذَكَّرَ إشفاقَ الأنبياءِ ﷺ ونَصيحَتَهُمْ له[6]، فَيَعْلَمَ أنهُ كانَ في ما تَوَهَّمَ بهمْ مِنَ الظنونِ الفاسدةِ مُبْطِلاً، فيكونُ بذكرِهِ ذلكَ [مُصَدِّقاً للرسلِ][7] ﷺ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي لا يَنْفَعُهُ تصديقُهُ إياهُمْ، إذْ لم يُصَدِّقْهُمْ في الدنيا، أو ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ في أنْ يَتَلَهَّفَ على ما فَرَّطَ في جَنْبِ اللهِ مِنَ التَّقْصيرِ في حقوقِهِ والتَّضْييعِ الذي سَبَقَ منهُ حينَ[8] لم يَشْكُرْ نِعَمَهُ، ولم يُوَجِّهْ إليهِ العبادةَ، فيكونُ تَلَهُّفُهُ ذلكَ إيماناً، ولكنْ لا يَنْفَعُهُ تَلَهُّفُهُ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ تلكَ الدارَ ليستْ بدارِ امْتِحانٍ، بل دارُ جَزاءٍ.

والذي يَحْمِلُهُ على التَّصْديقِ مُشاهَدَتُهُ الجزاءَ والحِسابَ، وعندَ المُشاهدةِ تَرْتَفِعُ المحنةُ، ويكونُ إيمانُهُ حينئذٍ[9] ضرورياً لا حقيقةً، فلذلكَ لا يَنْفَعُهُ، وإنما تَنْفَعُهُ الطاعةُ وقتَ مُلْكِهِ نفسَهُ.

فأمّا إذا خَرَجَ مُلْكُ نفسِهِ مِنْ يدِهِ لم يَقَعْ لهُ بالإيمانِ جَدْوَى.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يَتَّعِظُ، وأنّى لهُ الانْتِفاعُ بالمَوعظةِ.

ثم في هذا التَّذَكُّرِ بَيانُ لُطْفٍ مِنَ اللهِ تعالى، يُعطيهِ [إياهُ][10] حتى يَتَذَكَّرَ، وإلّا فالإنسانُ يَذْهَبُ عليهِ ما قد كَتَبَهُ في وقتٍ إذا أتَى عليهِ حينٌ، حتى لو أرادَ أنْ يَتَذَكَّرَ وقتَ كتابتِهِ، لم يَقْدِرْ عليهِ.

ثم اللهُ تعالى يُذَكِّرُهُ في الآخِرَةِ جميعَ ما سَبَقَ منهُ في الدنيا، فَيَتَذَكَّرُ ذلكَ.

الآية ٢٤ [وقولُهُ تعالى][11]: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي يا لَيتني قدمتُ لنفسي حياةً، تَسْلَمُ لي، أو حياةً تَبْقَى لي لَذَّتُها. فهذا هو تَلَهُّفُهُ وتَذَكُّرُهُ في ذلكَ اليومِ؛ يَتَلَهَّفُ على ما فاتَهُ مِنَ الخَيراتِ، ويَنْدَمُ على ارْتِكابِهِ المعاصيَ وكُفْرانِهِ نِعَمَ اللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وجهاً واحداً. (٢) في الأصل وم: أعلم، في م: أعلم، والله تعالى. (٣) في الأصل وم: به. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: لهم. (٧) في الأصل وم: تصديقاً من الرسل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: ذلك. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) ساقطة من الأصل وم.

ومَعْنَى قولِهِ[1]: ﴿لِحَيَاتِي﴾ حياةٌ تَسْلَمُ لي، فأتَلَذَّذُ بها، هو أنَّ الكافرَ، وإنْ كانتْ لهُ حياةٌ في الظاهرِ فإنما حياتُهُ للتعذيبِ، فتلكَ لهُ في الحقيقةِ ليسَتْ بحياةٍ، بل هي هلاكٌ.

ألَا تَرَى أنَّ الإنسانَ إذا أخذَ في النَّزْعِ، فهو في ذلكَ الوقتِ حيٌّ بَعدُ؟ لكنَّ حياتَهُ للهلاكِ، فليسَتْ هي في الحقيقةِ حياةً، لكنَّها [للهلاكِ][2] فَعَلَى ذلكَ حياةُ المُخَلَّدِ في النارِ.

الآيتان ٢٥و٢٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ قُرِئَتْ [هاتانِ الآيتانِ][3] على نصبِ الذالِ والثاءِ[4] وعلى خفضِهما[5].

فَمَنْ قَرَأَهُما على الخفضِ فهو يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ العذابَ في الدنيا، وإنِ اشْتَدَّ مِنَ الملوكِ على الإنسانِ، فهو لا يَبْلُغُ عذابَ اللهِ تعالى لأعدائِهِ في الآخِرَةِ، وإنْ خفَّ.

[والثاني][6]: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لا يَنْبَغي لأحدٍ في الدنيا أنْ يُعَذِّبَ أحداً بعذابِ اللهِ تعالى، وهو النارُ كما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا تُعَذِّبوا أحداً بعذابِ اللهِ» (البخاري٣٠١٧).

فإنْ كانَ على النَّصْبِ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ أيضاً:

أحدُهما: أنْ يكونَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى صِنْفٍ منَ الكَفَرَةِ، وهمُ الذينَ بَلَغُوا في الكُفْرِ أعْلَى مَرْتَبَةٍ، فلا يُعَذَّبُ مَنْ دونَهُمْ بعذابِهِمْ.

والثاني: لا يُعَذَّبُ أحدٌ مكانَ أحدٍ كما يَفْعَلُهُ ملوكُ الدنيا في أنهمْ يُعَذِّبونَ الوالدَ مكانَ الولدِ، ويُعَذِّبونَ مُتَّصِلِي الذينَ استوجَبوا العذابَ.

الآيات ٢٧و٢٨و٢٩و٣٠ وقولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾][7] فالمُطْمَئِنَّةُ، هي الساكنةُ التي لا تَرْتابُ، ولا تَضْطَرِبُ طمَأْنينَتُها بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِهِ وأمْرِهِ ونَهْيِهِ وتوحيدِهِ.

ثم يجوزُ أنْ يكونَ هذا في أمرِ الدنيا، فيكونُ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ أي ارجعي إلى ما أمَرَكِ ربُّكِ راضيةً بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِهِ، فتكونُ راضيةً بالذي وَعَدَها في الآخِرَةِ جَزاءً لِكَدْحِها وسَعْيِها في الدنيا مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أي عبادي الصالِحينَ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ أيِ ادْخُلي في ما تُسْتَوجَبُ بِهِ الجنةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ هذا في الآخِرَةِ؛ وهو [أنْ][8] يقالَ للنفسِ التي اطمأنَّتْ في الدنيا بِوَعْدِ اللهِ تعالى ووَعيدِهِ، وَعَمِلَتْ بِطاعتِهِ: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾.

وقيلَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بالدنيا ارْجِعي إلى طلبِ الآخِرَةِ وما أعَدَّ اللهُ لأوليائِهِ فيها.

وقيلَ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ارْجِعي إلى طاعةِ اللهِ، فإنكِ إذا فَعَلْتِ ذلكَ رَضِيَ اللهُ عنكِ، ورَضِيتِ بعَطاءِ اللهِ وثَوابِهِ إيّاكِ في الآخِرَةِ، واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، وإليهِ المَرْجِعُ والمآبُ][9].

---

(١) في الأصل وم: قولنا. (٢) من نسخة لحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هذه الآية. (٤) انظر معجم القراءات القرآنية: ح٨/١٤٦و١٤٧. (٥) في الأصل وم: الخفض منهما. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، ساقطة من الأصل.

سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ [بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿لَآ﴾[2]:

قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَآ﴾ ههنا في مَوْضِعِ الدَّفعِ والرَّدِّ لِمُنازَعةٍ كانَتْ بينَ قومِهِ[3]، فَدَفَعَ اللهُ تعالى المُنازعةَ مِنْ بَينِهِمْ بقولِهِ: ﴿لَآ﴾ وكانتْ تلكَ المُنازعةُ مَعْروفةً في ما بَيْنَهُمْ، فَتَرَكَ ذِكْرَها لذلكَ كما ذَكَرَ الجوابَ في بعضِ السورِ، ولم يَذْكُرِ السؤالَ لِما كانَ السؤالُ عندَهُمْ مَعْروفاً، فَتَرَكَ ذِكْرَهُ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وغيرُ ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: إنَّ حَرْفَ ﴿لَآ﴾ مَرَّةً يُسْتَعْمَلُ في حقِّ الصِّلَةِ والتأكيدِ، ومَرَّةً في مَوضِعِ النَّفْيِ، فَيَظْهَرُ[4] مُرادُهُ بما يَعْقُبُهُ مِنَ الكلامِ. فإنْ كانَ الذي يَعْقُبُهُ إثباتاً فهو بِحَقِّ التأكيدِ، وإنْ كانَ الذي يَعْقُبُهُ مِنَ الكلامِ نَفْياً فهو في مَوضِعِ النَّفْيِ. ثم الذي عَقَبَهُ مِنَ الكلامِ [ههنا][5] إثباتٌ، وليسَ بِنَفْيٍ، فَدَلَّ أنهُ في مَوضِعِ التأكيدِ؛ فكأنهُ قالَ: لَأُقْسِمُ بهذا البَلَدِ.

ثم كانَ حقُّهُ أنْ يَقْرَأَ لَأُقْسِمَنَّ بهذا البَلَدِ بإثباتِ النونِ كما يُقالُ: لَأَفْعَلَنَّ في اليمينِ، لكنَّ نونَ التأكيدِ قد تُذْكَرُ/ ٦٤١ ـ ب/ في مَوضعٍ، وقد لا تُذْكَرُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النحل: ١٢٤] واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قالوا: أُريدَ بهذا البلدِ مكةُ، فأقْسَمَ بها بِما عظَّمَ شأنَها بما سَبَقَ ذِكْرُنا لهُ وبخاصّةٍ هي مُعَظَّمَةٌ في أعينِ أهلِها؛ ثم كانَ منْ عادةِ الكَفَرَةِ القَسَمُ بكلِّ ما يُعَظِّمونَهُ، فعامَلَهُمُ اللهُ تعالى مِنَ الوجهِ الذي جَرَتِ العادةُ في ما بَيْنَهُمْ لِيُؤَكِّدَ ما قَصَدَ إليهِ بالقَسَمِ، فَيُزيلُ عنهمُ الشُّبَهَ التي اعْتَرَضَتْ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: وأنتَ نازلٌ بها، منَ الحُلولِ، وقالَ بعضُهُمْ: وأنتَ حَلالٌ بهذا البلدِ، والحِلُّ والحَلالُ لُغتانِ؛ فإنْ كانَ على هذا فالحِلُّ غَيرُ مُنْصَرِفٍ إلى نفسِهِ، وإنما انْصَرَفَ إلى ما أُحِلَّ لهُ، لأنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ بنفسِهِ حَلالاً أو حَراماً، فالحِلُّ والحُرْمةُ إذا أُضيفا إلى مَنْ لهُ الحَلالُ والحرامُ فإنما يُرادُ بالحِلِّ والحُرْمةِ الشيءُ الذي أُحِلَّ لهُ والشيءُ الذي حُرِّمَ عليهِ، لا أنْ يكونَ الوصفُ راجعاً إلى المضافِ إليهِ.

فإذا قيلَ: هذا مُحَرَّمٌ أُريدَ بهِ أنَّ الأشياءَ مُحَرَّمَةٌ عليهِ، وإذا قيلَ: هذا حَلالٌ ليسَ بِمُحَرَّمٍ أُريدَ بهِ أنَّ الأشياءَ لهُ حَلالٌ.

وإذا أُضيفا إلى مَنْ لا يُخاطَبُ بالحِلِّ والحُرْمةِ أُريدَ بهما عَينُ ذلكَ الشيءِ كقولِهِ [ﷺ][6]: «هذا لحمٌ حَلالٌ أو صيدٌ حَلالٌ، وهذا لحمٌ حَرامٌ» [بنحوِهِ: أحمد ٣٢٦/١] فَيُرِيدُ أنَّ ذلكَ اللحمَ حَلالٌ، وكذلكَ الصيدُ حرامٌ أو حَلالٌ.

ثم اخْتَلَفوا في الذي أُحِلَّ لهُ: فمنهمْ منْ صَرَفَهُ إلى القِتالِ، فقالَ: إنهُ أُحِلَّ لهُ القِتالُ فيها؛ وذلكَ يومُ فتحِ مكةَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أُحِلَّ لهُ الدخولُ فيها [إذا][7] جاءَ مِنَ الآفاقِ بِغَيرِ إحرامٍ، و لا يَحِلُّ ذلكَ لِغَيرِهِ.

ورُوِيَ عنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنه [أنهُ][8] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ يومَ فتحِ مكةَ:][9] «إنَّ مكةَ حرامٌ حَرَّمَها اللهُ تعالى يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ والشمسَ والقمرَ، ووَضَعَ هذينِ الجَبَلَينِ، لم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلّا ساعةً مِنْ نهارٍ، وهي ساعتي هذهِ، لا يُخْتَلَى خَلاها ولا يُعْضَدُ شَوكُها، ولا يُنَفَّرُ صَيدُها ولا تُرْفَعُ لُقَطَتُها إلّا لِمَنْ نَشَدَها» فقالَ العباسُ رضي الله عنه إلّا الإذْخِرَ يا رسولَ اللهِ فإنهُ لا غِنَىٰ لأهلِ مكةَ عنهُ للقبرِ والبُنيانِ، فقالَ ﷺ: «إلّا الإذْخِرَ» [البخاري ١١٢و٢٠٩٠ ومسلم ١٣٥٥/٤٤٧].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ١٥١. (٣) من م، في الأصل: قوم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم.
(٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل: فإذا. (٨) ساقطة من الأصل. (٩) ساقطة من م.

فَبَيَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ أنها أُحِلَّتْ لهُ ساعةً مِنْ نهارٍ.

والحِلُّ يَحْتَمِلُ الوجهَينِ اللذَينِ ذَكَرْناهُما. وذَكَرَ أبو بكرٍ الأصمُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يؤذيهِ أهلُ مكةَ، فَيَتأذّى بهِمْ، فَيَخرجُ مِنْ بَينِ أظهُرِهِمْ، فَيَحِلُّ لهُ الصيدُ في ذلكَ الوقتِ.

ولكنْ لا يَسَعُ صَرْفُ التأويلِ إلى هذا؛ إذْ لا يُعْرَفُ مثلُ هذا إلّا بالخَبَرِ والنَّقْلِ.

ثم في قولِ رسولِ اللهِ ﷺ على لسانِ العباسِ ﷺ «إلّا الإذْخِرَ» دلالةٌ أنَّ التحريمَ لم يكنْ مُنصَرِفاً إليهِ، ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ التحريمُ شاملاً لهُ، ثم اسْتَثْناهُ بِما ذَكَرَ العباسُ ﷺ مِنْ حاجةِ أهلِ مكةَ إليهِ لِما لم يكنْ بينَ ما ذَكَرَ مِنَ التَّحْريمِ والتَّحْليلِ كثيرُ مدةٍ، يجري في مثلِها النَّسْخُ، ولكنْ تَرَكَ بَيانَ الحِلِّ إلى أنْ سألَهُ العباسُ ﷺ ثم بَيَّنَهُ[1]، وهو دليلُ قولِ أصحابِنا، رَحِمَهُمُ اللهُ: إنَّ تأخيرَ البَيانِ جائزٌ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ القسمُ مُنصَرِفاً إلى نفسِهِ، فأقسمَ بهِ لِما عَظَّمَ مِنْ أمْرِهِ وشأنِهِ، كأنهُ قالَ ﷻ: لا أقسمُ بهذا البلدِ وبالذي، هو حِلٌّ بهذا البلدِ.

[والثاني: أنْ][2] يكونَ مُنصَرِفاً إلى مكةَ، ويكونُ قولُهُ: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ خَرَجَ مَخْرَجَ التعريفِ لمكةَ لكونِهِ فيها، أي البلدِ الذي أنتَ نازلٌ بهِ وحالٌّ بهِ أو حَلالٌ فيهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الوالدُ هو آدمُ ﷺ ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أولادُهُ وذُرِّيَّتُهُ. ولكنَّ آدمَ وأولادَهُ ﷺ ليسوا مَخصوصينَ بالدخولِ تحتَ اسْمِ الوَلَدِ والوالدِ، بل ذلكَ فيهِمْ وفي جُمْلةِ الرُّوحانيِّينَ. فيكونُ القسمُ بالخلائقِ أجمعَ، ويكونُ ﴿وَمَا﴾ على هذا التَّأويلِ بِمَعْنَى الذي.

ومنهم مَنْ جَعَلَ الـ﴿وَمَا﴾ ما جَحَدَ، فقالَ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي الذي لا يَلِدُ، وهو العاقرُ، فأقسَمَ بالبشرِ جُمْلةً مَنْ يَلِدُ منهمْ ومَنْ لا يَلِدُ، وأقسمَ بهِمْ أيضاً لِما جَعَلَهُمْ مُفَضَّلينَ على كثيرٍ مِنَ الخَلائقِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الكَبَدُ الانْتِصابُ؛ أخبرَ[أنهُ][3] خَلَقَ الإنسانَ مُنْتَصِباً، وخَلَقَ كلَّ دابةٍ مُنْكَبَّةً، وقالَ بعضُهُمْ: الكَبَدُ الشِّدّةُ والمُعاناةُ. وقالَ بعضُهُمْ: خَلَقَهُ مُنْتَصِباً في بطنِ أمِّهِ، ثم يَقْلِبُهُ[4] وقتَ الانْفِصالِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: أيُّ حكمةٍ في ذِكْرِ هذا وفي تأكيدِهِ بالقسمِ؟ وكلٌّ يَعْلَمُ أنهُ خُلِقَ كذلكَ.

فجوابُهُ أنَّ في ذِكْرِ هذا إبانةَ أنهمْ لم يُخلَقوا عَبَثاً باطلاً، بل خَلَقَهُمُ اللهُ تعالى لِيَمْتَحِنَهُمْ، ويأمُرَهُمْ بالعبادةِ كما قالَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦].

فإنْ كانَ التأويلُ مُنْصَرِفاً إلى الشِّدّةِ والمُعاناةِ فتأويلُهُ أنهُ خَلَقَهُمْ لِيُكابِدوا لِلمَعاشِ والمَعادِ جميعاً، وخَلَقَهُمْ للشِّدّةِ لِيَعْتَبِروا، ويَتَذَكَّروا.

وإنْ كانَ مُنْصَرِفاً إلى الانْتِصابِ ففيهِ تَعْريفُ لِعِظَمِ نِعَمِ اللهِ تعالى عليهمْ مِنْ غَيرِ أنْ كانوا مُسْتَوجِبِينَ لذلكَ لِيَسْتأدِيَ منهمُ الشكْرَ بذلكَ.

وإنْ كانَ التَّأويلُ على ما ذَكَرَ أنهُ خَلَقَهُ مُنْتَصِباً في بطنِ أمِّهِ، ثم يَقْلِبُهُ[5] وقتَ الانْفِصالِ ففيهِ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على ما يَشاءُ وأنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، [ولا يَتَهَيَّأُ][6] لأحدٍ أنْ يَقْلِبَ[7] أحداً، فَيَجْعَلَ أعلاهُ أسفَلَهُ إلّا أنْ يَجِدَ مثلَهُ في المكانِ سَعَةً.

ثم إنَّ اللهَ تعالى قَلَبَهُ، فَجَعَلَ أعلاهُ أسفَلَهُ في ذلكَ المكانِ الضَّيِّقِ، فَتَبَيَّنَ لهمْ أنهُ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على الإيمانِ بالبعثِ والنُّشورِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: بين. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: يقلب. (٥) في الأصل وم: يقلب. (٦) في الأصل وم: لأنهُ لا يتهيأ. (٧) في الأصل وم: القلب.

ومعنى قولِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ عندنا: لقد خَلَقْنا الإنسانَ لِما لهُ مُكابَدَتُهُ في أمرِ الشيطانِ فهو للنارِ خُلِقَ. وعلى هذا يُخَرَّجُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي ذَرَأَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يُؤثِرُ طاعةَ الشيطانِ وعِصْيانَ الرحمنِ لجهنَّم، وذَرَأَ مَنْ يَعْلَمُ أنهُ يَعْلَمُ أنهُ يَعْبُدُ اللهَ، ويُوَحِّدُهُ للعبادةِ بقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والأصلُ أنَّ الحكمَ أبداً تُقْصَدُ بِفِعْلِهِ العاقبةُ إلّا الذي ليسَتْ لهُ مَعْرِفةٌ بالعاقبةِ. فأمّا مَنْ عَرَفَ العاقبةَ فابْتِداءُ فِعْلِهِ يَقَعُ لتلكَ العاقبةِ [فإنْ كانتْ عاقبتُهُ][1] النارَ فابْتِداءُ الخَلْقِ مِنَ اللهِ تعالى يَقَعُ/ ٦٤٢ ـ أ/ لذلكَ الوجهِ، وإنْ كانتِ العاقبةُ الجنةَ فهو لذلكَ الوجهِ الذي خُلِقَ.

فَعَلَى ذلكَ يُخَرَّجُ تأويلُ قولِهِ ﷺ: «السعيدُ سعيدٌ في بَطْنِ أمِّهِ، والشَّقِيُّ شَقِيٌّ في بطنِ أمِّهِ» (البزار في كشف الأستار ٢١٥٠) وهو لا يُوصَفُ بالسعادةِ والشَّقاوةِ في ذلكَ الوقتِ، ولكنَّ مَعْناهُ أنهُ إذا آثَرَ الشَّقاوةَ في حالةِ الامْتِحانِ خُلِقَ لذلكَ، وإذا آثَرَ السعادةَ فلذلكَ أيضاً.

وقالَ نوحٌ ﷺ: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وهمْ في وقتِ ما وُلِدوا غيرُ موصوفينَ بواحدٍ مِنَ الوَصْفَينِ، بل يَصيروا كذلكَ، فَتَبيَّنَ أنهمْ خُلِقوا لذلكَ.

وقد[2] وقعَ القسمُ على ما لهُ يُكابِدُ، ليسَ على المكابدةِ نفسِها، لأنَّ المُكابدةَ مِنَ الإنسانِ ظاهرةٌ لا يُحتاجُ إلى تأكيدِها بالقسمِ، وقولُنا: إنَّ المَقْصودَ مِنِ ابْتِداءِ الفعلِ قولُ النبيِّ ﷺ: «إذا أرَدْتَ أمراً فَتَدَبَّرْ عاقبتَهُ، فإنْ كانَ رُشْداً فامْضِهِ، وإنْ كانَ غَيّاً فانْتَهِ عنهُ» (الزبيدي في الإتحاف ١٠/٩٣، وعزاهُ لابْنِ المباركِ في الزهد).

وزعمتِ المعتزلةُ أنَّ اللهَ تعالى لم يَخْلُقْ أحداً مِنَ البشرِ إلّا لِيَعْبُدَهُ، ولو كانَ الأمرُ على ما زَعموا، وظَنّوا لأدّى ذلكَ إلى الجهلِ بالعواقبِ، أو وَجَبَ أنْ يكونَ العقلُ خارجاً مَخرجَ الخَطَإِ لأنَّ كلَّ مَنْ صَنَعَ أمراً يريدُ غيرَ الذي يكونُ [يكنْ][3] جاهلاً بالعواقبِ أو عابثاً بالفعلِ لأنَّ مَنْ أنشأَ الشيءَ يَعْلَمُ أنهُ لا يكونُ عُدَّ ذلكَ منهُ عَبَثاً، ولو كانَ غيرَ الذي يريدُهُ، وهو أنْ يبنيَ ليَسْكُنَ، كانَ الذي حملَهُ على البناءِ جَهلَهُ بالعواقِبِ، وجلَّ اللهُ تعالى عنْ أنْ يلحقَهُ خطأٌ في التدبيرِ أو جهلٌ بالعواقِبِ.

فَثَبَتَ بما ذكَرْنا أنَّ اللهَ تعالى شاءَ لكلِّ فريقٍ ما عَلِمَ الذي يكونُ منهمْ، وخَلَقَهُمْ لذلكَ الوجهِ دونَ أنْ يكونَ خَلَقَ الجملةَ للعبادةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيات ٥ و ٦ و ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ فالآياتُ[4] تَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ حَسِبَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقْدِرُ على بَعْثِهِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿أَحَدٌ﴾ هو اللهُ تعالى ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي جَمّاً ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [﴿يَقُولُ﴾][5] أنفقتُ منهُ مقدارَ ما يَخْرُجُ عنِ الاحصاءِ، وقولُهُ: ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لَمْ يَعْلَمْ أحدٌ مَبْلَغَ ما أنْفَقَ مِنْ ذلكَ.

[والثاني][6]: أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي ألَمْ يَعْلَمْ أتباعُهُ الذينَ أنْفَقَ عليهمْ مِقْدارَ ما أنْفَقَ عليهمْ، فيكونُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ إظهارٌ منهُ السخاوةَ، وجودُهُ على الافْتِخارِ منهُ بذلكَ [وامتنانٌ منهُ][7] على أتباعِهِ.

فإنْ كانَ على هذا فهو [في][8] أمرِ الدنيا، وقد عَلِمَ اللهُ القدرَ الذي أنْفَقَ عليهمْ، وعَلِمَ الخَلْقُ سَخاوَتَهُ، لا بقولِهِ. فليسَ اشْتِغالُهُ في إظهارِ الجودِ والامْتِنانِ إلّا نوعٌ مِنَ السَّفَهِ، وكانَ الذي يَحِقُّ عليهِ الاشْتِغالُ بالشُّكْرِ للهِ تعالى وتوجيهِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: فمن. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: فالآية. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: أو. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

الحمدِ إليهِ لِما عَلِمَ أنَّ الذي أنعمَ بِهِ مِنَ المالِ الكثيرِ مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّ تلكَ المَنْقَبَةَ، وهيَ السخاوةُ، نالَها باللهِ تعالى. وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٠٠] لم تَنالوا ما تَذكُرونَ مِنَ الشَّرَفِ والمَناقبِ الحَميدةِ إلّا باللهِ تعالى، فاذْكُروهُ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ.

وهذا النوعُ مِنَ الافْتِخارِ راجعٌ إلى الخصائصِ مِنَ القوةِ لا إلى الجملةِ؛ إذْ كلُّ أحدٍ يقولُ مثلَ ذلكَ: إنهُ أهلَكَ مالاً لُبَداً، وفَعَلَ كذا.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ ﴿وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ فإنْ كانَ قولُهُ: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ على نَفْيِ القدرةِ على البعثِ. ففي ذِكْرِ العَينَينِ نَفْيُ تلكَ الشُّبْهةِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى أنشأَ لهُ بَصَراً يَرى بفتحةٍ واحدةٍ ما بينَ السماءِ والأرضِ. فَمَنْ بَلَغَتْ قدرَتُهُ هذا لا يُعْجِزُهُ شيءٌ أو يَخفَى عليهِ أمرٌ.

فقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ أي ألم نَخْلُقْ لهُ عَينَينِ يُدْرِكُ بهما المحسوساتِ بالنظرِ، وجَعَلْنا لهما جُفوناً وأشعاراً يدفَعُ بهِنَّ القَذى عن عَينَيهِ، وبفضلِهما يميلُ عنِ النظرِ إلى ما لا يَعْنيهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلِسَانٗا﴾ أي خَلَقْنا لهُ لساناً يُحْضِرُ بهِ ما غابَ، واسْتَتَرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَشَفَتَيۡنِ﴾ ففي خَلْقِ الشَّفَتَينِ وجهانِ مِنَ الحكمةِ:

أحدُهما: أنهُ جَعَلَهما طَبَقَتَينِ يَسْتُرانِ قُبْحَ ما في فمِهِ، ولولاهما لكانَ النظرُ إليهِ وقتَ مَضْغِهِ الطعامَ أو شيئاً مِنَ الأشياءِ اسْتُقْذِرَ ذلكَ منهُ.

[والثاني: أنهُ][1] جَعَلَهما طَبَقَينِ للسانِهِ لئلا يَمُدَّهُ، ويَسْتَعْمِلَهُ في ما لا يعنيهِ.

فَذَكَّرَهُمْ عِظَمَ نِعَمِهِ في خلقِ العَينَينِ واللسانِ والشَّفَتَينِ لِيَسْتَأْدِيَ منهمُ الشكرَ، ولِيَعْلَموا أنَّ الذي بَلَغَتْ قُدْرَتُهُ هذا ليسَ بالذي يُعْجِزُهُ شيءٌ.

الآية ١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي بَيَّنّا لهُ [ما عليهِ وما لهُ][2] وما يُحْمَدُ عليهِ وما يُذَمُّ وما يَقْبُحُ ويَجْمُلُ. والنَّجْدُ الطريقُ. فَبَيَّنَ لِلْخَلْقِ الطريقَينِ جميعاً طريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ومَكَّنَهُمْ مِنَ الفِعْلَينِ جميعاً. وقالَ بعضُهُمْ: النَّجْدانِ الثَّدْيانِ، أي، أي هَدَيناهُ الثَّدْيَينِ في حالةِ الإرضاعِ، ولكنَّ السُّنَنَ والهدايةَ لم تَنْصَرِفْ إلى هذا خُصوصاً، بل هذا مِنْ بعضِ ما هداهُ، وبَيَّنَهُ؛ فقد بَيَّنَ لهُ غيرَهُ مِنَ الأمورِ، ولا قَيَّدَ في اللفظِ، فَيُحْمَلُ على الإطلاقِ والعمومِ.

الآيات ١١ و١٢ و١٣ و١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾][3] قيلَ فيهِ مِنْ وجهَينِ:

أحدُهما: فهلّا[4] اقْتَحَمَ العقبةَ. والثاني: أنهُ لم يَقْتَحِمْ.

فإنْ كانَ على الأوّلِ فَمعناهُ: أنَّ الذي قالَ: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ كيفَ لا كانَ إنفاقُهُ في فَكِّ الرَّقَبةِ وفي الإنفاقِ على اليتيمِ والمسكينِ الذي بَلَغَ بهِ الجَهْدُ إلى أنْ أُلْصِقَ بالترابِ، ويكونَ مِنْ جُمْلةِ مَنْ آمَنوا باللهِ تعالى ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [الآية: ١٧] ليكونَ مِنْ أصحابِ المَيْمَنةِ، ويَكْتَسِبَ بذلكَ الحياةَ الطَّيِّبَةَ في الآخرةِ دونَ أنْ تكونَ العاقبةُ في الملاهي وشَهَواتِ النفسِ؟ فلم يُحَصِّلْ لنفسِهِ حَمْداً ولا أجراً في العُقْبَى، بل صارَ مِنْ أصحابِ المَشْأَمةِ، فيكونُ ما بَعْدَ قولِهِ: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ صِلَةً لهُ وتَفْسيراً.

وإنْ كانَ التأويلُ على النَّفْيِ، ففيهِ تكذيبٌ في ما يَزْعُمُ أنهُ أنْفَقَ مالاً لُبَداً، فنقولُ: لو كانَ على ما يظُنُّ ذلكَ[5] بِفَكِّ الرِّقابِ والإنفاقِ[6] على اليتيمِ وعلى المسكينِ الذي، هو ذو مَتْرَبَةٍ، فيكونُ هذا كلُّهُ صِلَةَ قولِهِ ﷺ: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أيضاً.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، في الأصل: فلا. (٥) في الأصل وم: ليظهر على. (٦) في الأصل وم: والمواساة.

ثم قيلَ في العَقَبةِ في وجْهَينِ:

أحدُهما: على تحقيقِ العَقَبةِ، وهو أنْ يكونَ في النارِ عَقَبةٌ، لا تُتجاوَزُ، ولا تُقطَعُ إلّا بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرقَبَةِ والإطعامِ ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [الآية: ١٤] كقولِهِ تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧] وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ على تحقيقِ العَقَبةِ؛ معناهُ: وما يُدْريكَ بِمَ تُقْطَعُ تلكَ العقبةُ؟ ثم بَيَّنَ أنها تُقْطَعُ بما ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَّقَبةِ ونَحْوِهِ.

[والثاني][1]: جائزٌ أنْ يكونَ على التَّمْثيلِ لا على التَّحقيقِ، ووجهُهُ أنهُ يَشْتَدُّ عليهِ بِحَمْلِ المُؤَنِ التي ذَكَرَ مِنْ فَكِّ الرَّقَبةِ وإطعامِ المساكينِ ومُواساةِ اليتيمِ، فتكونُ العَقَبةُ كنايةً عنْ تَحَمُّلِ المُؤَنِ لا على العَقَبةِ / ٦٤٢ ـ ب/ نفسِها، وهو كقولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذ يصيرُ الإيمانُ عليهِ في الشِّدَّةِ والثِّقَلِ كأنهُ كُلِّفَ الصُّعودَ إلى السماءِ. ويَشْتَدُّ على الأوّلِ تَحَمُّلُ المُؤَنِ [كما يَشْتَدُّ عليهِ قَطْعُ العَقَبةِ والصُّعودُ عليها.

والاقْتِحامُ هو رَمْيُ النفسِ في المَهالكِ، وقيلَ: الاقْتِحامُ، هو تَحَمُّلُ المُؤَنِ.

فإنْ كانَ على تَحَمُّلِ المُؤَنِ][2] فَوَجْهُهُ ما ذَكَرْنا أنْ كيفَ لم يَحْتَمِلْ هذهِ المُؤَنَ لِيَصيرَ مِنْ أهلِ المَيْمَنَةِ؟

وإنْ كانَ على الرَّمْيِ في المهالكِ لم يَحْتَمِلْ هذهِ المُؤَنَ ليَصيرَ مِنْ أهلِ المَيْمَنَةِ. فكأنهُ يقولُ: قد أهلَكَ نفسَهُ بِتَرْكِ الإنفاقِ في الوجوهِ التي ذَكَرَ والإعراضِ عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى بِتَرْكِهِ فَكاكَ الرقَبَةِ.

ورَوَى أبو بكرٍ الأصَمُّ في تفسيرِهِ خبراً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ «أنَّ رجلاً سألَهُ فقالَ: يا رسولَ اللهِ دُلَّني على عملٍ أدخُلُ بهِ الجنةَ، فأمَرَهُ بِعِتْقِ النَّسمةِ وفَكِّ الرَّقَبةِ، فقالَ السائلُ: ألَيستا، هما واحدٌ؟ فقالَ النَّبيُّ ﷺ: لا إنَّ عِتْقَ النَّسمةِ أنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِها، وفَكُّ الرَّقَبةِ أنْ تُعينَ على فكاكِها» [أحمد٤/ ٢٩٩].

وفَكاكُ الرَّقَبةِ أنْ تُخلِّصَها مِنْ وجوهِ المهالكِ، وذلكَ يكونُ بالتَّخليصِ من ذُلِّ الرِّقِّ، وأنْ تَرَى إنساناً هَمَّ بِقَتلِ آخَرَ بِغَيرِ حقٍّ، فَتَدْفَعَ عنِ المظلومِ شَرَّ الظالمِ، فَتَراهُ يَفْرَقُ، فَتُخَلِّصَهُ منْ ذلكَ، فيكونَ في ذلكَ كلِّهِ فَكاكُ الرَّقَبةِ مِنَ المَهالكِ، لِيَكْتَسِبَ بها الحياةَ الطَّيِّبةَ في الآخِرَةِ.

فاخْتَلَفَ القُرّاءُ في هذا الحرفِ؛ فمنهمْ مَنْ قرأ: فَكَّ[3] رقَبَةً أو أطْعَمَ في يومٍ ذي مَسْغَبَةٍ على النَّصْبِ، فإذا قرأتَهُ بالنَّصْبِ فَمَعْناهُ: هلّا فَكَّ رَقَبَةً، أو أطْعَمَ، فيكونُ راجعاً إلى تفسيرِ الاقْتِحامِ، وإنْ قرأتَهُ بالرفعِ انْصَرَفَ التأويلُ إلى تفسيرِ العَقَبةِ، فكأنهُ قالَ: قَطْعُ العقبةِ يكونُ بالفكِّ وبما ذَكَرْنا.

وذُكِرَ عنْ سُفيانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ﷺ أنهُ قالَ: كلُّ ما في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أعْلَمَهُ، وأدراهُ، وكلُّ ما فيه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فهو لم يُعْلِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والمَسْغَبةُ المَجاعةُ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قربةٍ منهُ.

الآية ١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي ألصقَ بطنَهُ بالترابِ، وقيلَ: ليسَ لهُ شيءٌ يَحْجُبُهُ عنِ الترابِ.

ثم في قولِهِ: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ دلالةُ وجوبِ حقِّ اليتيمِ على القريبِ إذا كانَ مُحتاجاً، فيكونُ فيهِ حُجَّةٌ لقولِ أصحابِنا: إنَّ اليتيمَ إذا كانَ مُحتاجاً فُرِضَتْ نَفَقَتُهُ على أقربائِهِ.

وفي قولِهِ: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ دلالةٌ أنَّ المسكينَ الذي وصفَهُ، وهو ألّا يكونَ بَينَهُ وبينَ الترابِ حائلٌ، فكِفايتُهُ تُلْزِمُ الخَلْقَ جملةً.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ١٥٢.

الآية ١٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فتأويلُهُ أنهُ لا ينفعُهُ فكُّ الرَّقَبةِ ولا الإطعامُ حتى يكونَ مؤمناً معَ ذلكَ مُتواصِياً بالصَّبْرِ والرَّحمةِ. فإذا كانَ كذلكَ فحينئذٍ يُجْعَلُ قاطعاً للعقبةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الصَّبْرُ أُريدَ بهِ الإيمانُ كقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١] أي آمَنوا.

والتَّواصي بالصَّبْرِ والرَّحمةِ، هو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ؛ إذِ التَّواصي مأخوذٌ منَ الوصيَّةِ، وهذا يوجبُ أنْ يكونَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عنِ المُنْكَرِ في اعتِقادِ الإيمانِ.

الآية ١٨ [وقولُهُ تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ]^(١) أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي أصحابُ المَيامِنِ، وهمْ أهلُ اليُمْنِ.

الآيتان ١٩و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾]^(٢) أي أصحابُ الشُّؤْمِ على أنفسِهِمْ حينَ^(٣) عملوا المعاصيَ، واستَوجَبوا بهِ ناراً مُوصَدَةً، وهي المُؤْصَدَةُ المُطْبَقَةُ المُبْهَمَةُ، ووصفُهُ الإطباقَ ما ذُكِرَ في آيةٍ أُخرَى، وذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وقولُهُ^(٤) تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية [الكهف: ٢٩] واللهُ أعلَمُ [بالصوابِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ]^(٥).

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في الأصل وم: وقال الله. (٥) ساقطة من م.

[سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قالوا: تأويلُهُ: والشمسِ وضَوئِها [وقيلَ: وحرِّها][(٢)] وقيلَ: ونهارِها. وهذا في مَوضِعِ القَسَمِ؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في الشمسِ مَعانيَ تَدُلُّ على لَطائِفِ حِكْمَتِهِ وعَجائِبِ تَدْبيرِهِ، وجَعَلَها[(٣)] في النهايةِ منَ البركاتِ وفي النهايةِ منَ الآياتِ.

فَمِنْ عجيبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَ نورَها بحيثُ تُهْلِكُ نورَ الظِّلِّ حتى إذا بَدَتْ في مكانٍ أذهبَتْ نورَ الظِّلِّ ونورَ السِّراجِ ونورَ القمرِ، وسَتَرَ نورُها الكواكبَ عنْ أنْ تُرَى، وجَعَلَها بحيثُ يَظْهَرُ بها هباءُ الهواءِ. فَبَيَّنَ أنَّ الهواءَ ذو هَباءٍ.

ألَا تَرَى أنكَ إذا نظرتَ في المِشْكاةِ حينَ تَسْقُطُ الشمسُ فيها تُبَيِّنُ لكَ بها [هباءَ][(٤)] الهواءِ، ولو أرادَ أحدٌ منَ الخلائقِ أنْ يَدْرِكَ المَعْنَى الذي بهِ اسْتَنارَتْ هذهِ[(٥)] الشمسُ كَلَّ، ولم[(٦)] يَقِفْ عليهِ؟

ثم [مِنْ][(٧)] بَرَكتِها أنَّ بِحرارَتِها صالِحَ الأغذيةِ، وبها صالِحَ النباتِ، وبها يُكْبَسُ الحَبُّ، وبها تَنْضَجُ الفواكِهُ.

ومِنْ عجيبِ تدبيرِهِ أنهُ جَعَلَها بالنائي عنْ كلِّ شيءٍ لهُ بها صلاحٌ؛ إذْ لو دنَتْ منهُ[(٨)] لكانتْ تحرُقُ الأشياءَ كلَّها.

ومِنْ آياتها أنْ جُعِلَتْ بحيثُ تسيرُ، وتقطعُ كلَّ يومٍ مَسيرَةَ ألفِ عامٍ ما يَتَعَذَّرُ على الذي خُلِقَ للسَّيرِ والمَشْيِ قَطْعُ المسافةِ بمدةٍ كثيرةٍ، وهي أيضاً تُظْهِرُ جُودَ الرَّبِّ، جَلَّ جلالُهُ، لأنَّ مَنافِعَها تَعُمُّ الخَلْقَ كلَّهُمْ بَرَّهُمْ وفاجِرَهُمْ والوليَّ منهمْ والعَدُوَّ، فأقْسَمَ اللهُ بها لِيُزيلَ عنِ الكَفَرَةِ الشُّبْهَةَ التي تَعْتَرِضُ لَهُمْ مِنْ أمرِ الدينِ: إمّا في التوحيدِ [وإمّا][(٩)] في الرسالةِ [وإمّا][(١٠)] في البعثِ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ فجائزٌ أنْ يَتْلُوَها في كلِّ ما ذَكَرْنا في الشمسِ مِنَ المَنافعِ والمَعاني، فيكونُ تالِيَها في العملِ، فإنهُ يقعُ بِهِ صلاحُ الأغذيةِ أيضاً، وهو يُدْبِرُ أيضاً. إلّا أنهُ لايَنْتَهي مُنْتَهاها، ولا يَبْلُغُ مَبْلَغَها، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِذَا تَلَاهَا﴾ أي يَتْلُوها في أوَّلِ ما يَهِلُّ، فإنهُ إذا وَجَبَتِ الشمسُ في آخِرِ اليومِ مِنَ الشهرِ إلى غُروبِها [بَدَا][(١١)] طُلوعُ الهلالِ. وقالَ بعضُهُمْ: إنهُ يَتْلوها إذا صارَ بَدْراً، وفي هذا دلالةٌ أنَّ مُنْشِئَهما واحدٌ لأنَّ مَنافِعَهما تَعُمُّ الخَلْقَ /٦٤٣ ـ أ/ جميعاً. ولو لم يَكُنْ مُدَبِّرُهما واحداً لكانَتْ لا تَعُمُّ، بل يَمْنَعُ كلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ[(١٢)] عنْ إيصالِ النَّفْعِ إلى قوم عَدُوِّهِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ يَحْتَمِلُ أوجُهاً: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ النهارُ جَلَّى الدنيا، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَلَّى الأرضَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ جَلَّى الشمسَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يُجَلِّيَ الأبصارَ بِنورِها عنْ ظلمةِ الليلِ التي تَغْشاها.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يَنْصَرِفُ إلى الأوجهِ التي ذَكَرْنا أيضاً، أي يَغْشى الدنيا أوِ الأرضَ أوِ الشمسَ، أو يَغْشَى الأبصارَ بظُلْمَتِها عنِ الخلائقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لِلَّيلِ والنهارِ زيادةُ سلطانٍ ليستْ للشمسِ ولا للقمرِ، لأنَّ مِنْ سُلْطانِ الليلِ والنهارِ أنهما يُفْنِيانِ الآجالَ، ويَقطعانِ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وجعل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: هذا. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: منها. (٩) في الأصل وم: منها. (١٠) في الأصل وم: أو. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) في الأصل وم: منشئه.

الأعمارَ، ولا يَتَهيَّأُ لأحدٍ الامْتِناعُ والتّحرُّزُ مِنْ سُلْطانِهما، أو يَتَهيّأُ للخَلْقِ دَفْعُ أذى الشمسِ والقمرِ عن أنفُسِهِم بالحِيَلِ والأسبابِ، فكانَ في ذِكْرِ الليلِ والنهارِ زيادةُ مَعْنىً، ليسَ ذلكَ في ذِكْرِ الشمسِ والقمرِ.

الآية ٥ وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قالَ الزّجّاجُ: ﴿وَمَا﴾ بِمَعْنَى الذي، وقد يُسْتَعْمَلُ في مثلِهِ كقولِ العربِ: سَبْحَنَ ما سَبَّحَتْ لهُ السمواتُ والأرضُ، أي سَبْحَنَ الذي سَبَّحَتْ لهُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَمَا﴾ ههنا بِمَعْنَى منْ؛ كأنهُ يقولُ: والسماءِ ومَنْ بَناها. وقالَ بَعْضُهُمْ: ﴿وَمَا﴾ ههنا تَجْعَلُ الفعلَ الماضيَ بِمَعْنَى المَصْدَرِ؛ تقولُ: أعْجَبَني [ما صَنَعْتَ أي أعْجَبَني][1] صُنْعُكَ، فيكونُ مَعْناهُ: والسماءِ وبنائِها.

فإنْ كانَ التأويلُ على الوجْهَينِ الأوّلَينِ يَرْجِعِ القَسَمُ إلى اللهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾ وإلى ما تَقَدَّمَ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنهارِ والليلِ. وإنْ كانَ على التأويلِ الآخَرِ رَجَعَ القَسَمُ إلى ما خَلَقَ، وهو السماءُ؛ فإنَّ بناءَ السماءِ عَيْنُها.

وقالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: إنَّ هذهِ الآياتِ في قولِهِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ تُخَرَّجُ على التَّعْجيبِ على شرطِ التَّقْديمِ، وإنْ كانتْ مؤخَّرةً في اللفظِ؛ [كأنَّ اللهَ تعالى قالَ][2] وما [أدراكَ ما][3] السماءُ! ثم أجابَ بأنْ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٨] ورفَعَها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢ ولقمان: ١٠].

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي بَسَطَها.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ قالوا: تَسْوِيَتُها في أنْ خَلَقَها باليَدَينِ والرِّجْلَينِ والعَيْنَينِ ونَحْوِها.

فإنْ كانَ على هذا فالتسويةُ تَرْجِعُ إلى الأغلَبِ لا إلى الجملةِ؛ إذْ ليسَ لكلِّ نفسٍ هذهِ الجوارحُ جملةً، فيكونُ معناهُ أنهُ سَوَّى أكثرَ النفوسِ بما ذَكَرَ مِنَ اليَدَينِ والرِّجلَينِ، وذلكَ جائزٌ في الكلامِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦] [وقولِهِ][4]: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [عم: ١١] ومعناهُ: أنهُ [جَعَلَ الليلَ][5] سَكَناً ومَقَرًّا لأكثرِ الخلائقِ لا للجملةِ، وجَعَلَ النهارَ لأكثرِ الخلائقِ معاشاً لا للجملةِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: سَوَّى جَوارِحَها وأطرافَها ما لو لم يكُنْ لهُ جارحةٌ منْ تلكَ الجوارحِ لَوُصِفَ بالنُّقصانِ، وهذا أعَمُّ مِنَ الأوّلِ.

ويَحْتَمِلُ ﴿سَوَّىٰهَا﴾ على[6] ما عليهِ مَصْلَحَتُها، فَتَمْلِكُ التَّقَلُّبَ والتَّعَيُّشَ، ليسَ على ما عليهِ سائرُ الحيوانِ.

ويَحْتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿سَوَّىٰهَا﴾ أي جَعَلَها بحيثُ احْتِمالُ الكُلْفةِ والمِحْنةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] يُمَيِّزُ بينَ القَبيحِ والحَسَنِ، ويَعْرِفُ عَواقِبَ الأمورِ مِنَ الخيرِ والشَّرِّ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ وهذا يَحْتَمِلُ أوجهاً:

أحدُها: أي بَيَّنَ لها فُجورَها وتَقْواها، وعَلَّمَها. فَمَنْ زَعَمَ أنَّ المَعارفَ ضروريةٌ خِلْقَةً يَحْتَجُّ بهذهِ الآيةِ، فيقولُ: أخبَرَ اللهُ تعالى أنهُ عَلَّمَها فُجورَها وتَقْواها وأنهُ وَضَعَ في نفسِهِ ما يَعْرِفُ بهِ قُبْحَ كلِّ قبيحٍ وحُسْنَ كلِّ حَسَنٍ.

والأصلُ فيهِ عندَنا أنهُ يُعْرَفُ حُسْنُ الأشياءِ وقُبْحُها جُمْلةً بِبَداهةِ العُقولِ، ولكنَّ العقولَ لا تَعرِفُ حُسْنَ كلِّ شيءٍ على الإشارةِ إليهِ ولا قُبْحَ كلِّ قبيحٍ على الإشارةِ إليهِ، وإنما يُعْرَفُ ذلكَ إمّا بِخَبَرٍ يَرِدُ على لُغَى الرسلِ ﷺ [وإمّا][7] باسْتِعْمالِ الفِكْرِ.

ألا تَرَى أنكَ تَجِدُ النفسَ مِنْ طَبْعِها أنها تَألَفُ المَلاذَّ والمنافعَ، وتَنْفُرُ عنِ المَكارِهِ والآلامِ، ولكنها لا تَعْرِفُ مَعْرِفةَ كلِّ مُنْتَفَعٍ على الإشارةِ، وإنما تعرفُ ذلكَ بالذَّوقِ.

وكذلكَ العينُ تُدْرِكُ الألوانَ، لكنها لا تَعْرِفُ [حُسْنَ اللَّوْنِ][8] وقُبْحَهُ، بلِ العقلُ هو الذي يَفْصِلُ بَينَهما.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: كانه يقول الله. (٣) ساقطة من الأصل وم. انظر تفسير الآية ٣ من سورة الحاقة والآية ٤ من سورة المرسلات والآيات المشابهة لها. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: جعلها. (٦) أدرج بعدها في الأصل وم: غير. (٧) في الأصل وم: أو. (٨) في الأصل وم: حسنه.

فَعَلَى ذلكَ قد جَعَلَ في طبعِ العقلِ قُبْحَ القَبائحِ جُمْلَةً وحُسْنَ الحَسَنِ، ولكنْ لا يَفْصِلُ بَينَهما على الإشارةِ إلى كلٍّ في نفسِهِ إلّا بما ذَكَرْنا، فيكونُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي جَعَلَ في نفسِها ما يُبَيِّنُ القبيحَ مِنَ الحَسَنِ والخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، ويُبَيِّنُ قُبْحَ الفُجورِ وحُسْنَ التَّقْوَى، ويُلْزِمُهُ المِحْنَةَ والكُلْفَةَ بذلكَ. ثم يَصِلُ إلى معرفةِ ذلكَ إمّا بالرسُلِ وإمّا باسْتِعْمالِ الفِكْرِ.

[والثاني][1]: أنْ يُلْهِمَها تَقْواها إذا وَفَى بما للهِ تعالى عليهِ مِنَ الاسْتِقامةِ والمُجاهدةِ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؟ [العنكبوت: ٦٩] فوعَدَ الهدايةَ بالجهادِ، وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ثم كانتِ الإجابةُ مُضَمَّنَةً شريطةً، وهي أنْ يَسْتَجيبَ لهُ الداعي إذا دعاهُ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: ١٨٦] وقولِهِ[2] تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقولِهِ[3] تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾؟ الآية [المائدة: ١٢] فَثَبَتَ أنَّ الذي يُلْهَمُ التَّقْوَى، هو الذي يقومُ بوفاءِ ما عليهِ. فإذا قامَ بهِ أُلْهِمَهُ التَّقْوَى، وبَيَّنَ له سَبيلَ الفُجورِ.

[والثالثُ: ما][4] قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ في قولِهِ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي ألْزَمَها فُجورَها وتَقْواها، [فيكونُ تَقْواها][5] لها وفُجورَها عليها، لا يُؤاخَذُ أحدٌ بِفُجورِ أحدٍ. وفي هذا دليلٌ على أنَّ التَّقْوَى إذا ذُكِرَ مُفْرَداً انْصَرَفَ إلى الخَيراتِ أجْمَعَ، وإذا قُرِنَ بهِ البِرُّ والإعطاءُ انْصَرَفَ إلى الاتِّقاءِ عنِ المحارمِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾][6] [الليل: ٥و٦] فإذا[7] بَرَّ، واتَّقَى، أُريدَ بهِ أنهُ بَرَّ بكلِّ ما يُحْمَدُ عليهِ، واتَّقَى عن كلِّ ما [يُذَمُّ عليهِ فاعِلُهُ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ فَمَوقِعُ ما تَقَدَّمَ مِنَ القَسَمِ بالشمسِ والقمرِ والليلِ والنهارِ على هذا.

فقولُهُ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾][8] في الآخرةِ[9] [فيكونُ هذا مُنْصَرِفاً إلى الجزاءِ في الآخرةِ على][10] ما يَذْكُرُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤] فيكونُ في هذا إيجابُ القولِ بالبعثِ مِنَ الوجهِ الذي نَذْكُرُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

ثم اخْتَلَفوا في تأويلِ الفلاحِ: قالَ بعضُهُمْ: أفْلَحَ أي سَعِدَ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: أي بَقِيَ في الخَيراتِ، والفَلاحُ البقاءُ، ومنهمْ مَنْ يقولُ: أفْلَحَ أي فازَ، والمُفْلِحُ في الجملةِ، هو الذي يَظْفَرُ بما يَأمُلُ، ويَنْجو عما يَحْذَرُ، فيدخُلُ في تلكَ السعادةِ والبقاءِ والفوزِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن زَكَّاهَا﴾ فجائزٌ أنْ يكونَ مُنْصَرِفاً إلى اللهِ تعالى، وجائزٌ أنْ يَنْصرِفَ إلى العبدِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] وقالَ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨] فَبَيَّنَ اللهُ تعالى أنهُ هو الذي يُفَضِّلُ بِتزكيتِهِ مَنْ زَكَا. وجائزٌ أنْ يكونَ يُصْرَفُ إلى العبدِ قولُهُ تعالى: ﴿زَكَّاهَا﴾ أي صاحِبُها. وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ يَحْتَمِلُ هذينِ الوَجْهَينِ، فيكونُ / ٦٤٣ ـ ب/ اللهُ تعالى، هو الذي أنشأَ فعلَ الضلالِ، فيكونُ الفعلُ منْ حيثُ الإنشاءُ مِنَ اللهِ تعالى ومنْ حيثُ الفعلُ مِنَ العبدِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿مَن دَسَّاهَا﴾ أي أخفاها، وإخفاؤها أنهُ صَيَّرَها بحيثُ لا تُذْكَرُ في المحافلِ إلّا بالذَّمِّ، وَزَكَّى الآخَرُ [نَفْسَهُ: أي طَهَّرَها][11] حتى يَنْظُرَ إليها الناسُ بِعَينِ التَّبْجيلِ والتَّعْظيمِ. وهكذا شأنُ المُتَّقي أنْ يكونَ مُبَجَّلاً مُعَظَّماً في ما

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: و. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: قيل. (٨) ساقطة من م. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل، في م: على. (١١) في الأصل وم: أظهرها.

بينَ الخَلْقِ، والفاجرُ يعيشُ مَذْموماً مُهاناً في ما بَينَ الخَلْقِ، أو يرجِعُ الإظهارُ والإخفاءُ إلى الآخِرةِ، فَيَجِلُّ قَدْرُ المُتَّقي المُزَكّي، ويَخْمُدُ ذِكْرُ الفاجرِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿دَسَّنٰهَا﴾ منْ دَسَّسَ، فأسقطَ السينَ، وأبدلَ مكانَها الياءَ.

ثم الإضافةُ في قولِهِ ﴿دَسَّنٰهَا﴾ إلى اللهِ تعالى على خَلْقِ ذلكَ الفعلِ منهُ، وفي قولِهِ ﴿مَن زَكَّنٰهَا﴾ على التوفيقِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنٰهَآ﴾ ولم يُبَيِّنْ لِمَنْ كَذَّبوا، وقد بَيَّنَهُ في آيةٍ أُخرى، فقالَ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِطَغْوَنٰهَآ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما[١]: لأجلِ مَعْصِيَتِهِمْ[٢] وطُغْيانِهِمْ؛ إذِ الحاملُ لهمْ على التكذيبِ طُغْيانُهُمْ وتركُهُمُ التفكُّرَ في أمرِهِ، وإلّا لو تَفكَّروا في ما جاءَهُمْ بِهِ رسولُ اللهِ ﷺ لم يَجِدوا موضعَ التكذيبِ.

والثاني: بأهلِ طَغواها، أي كذَّبَتْ ثمودُ بسببِ أهلِ الطُّغْيانِ، فيكونُ في هذهِ الآيةِ أنهمْ لم يُكَذِّبوا رسولَهُمْ بِشُبْهَةٍ اعتَرَضَتْ لهمْ أو بِحُجَّةٍ كانتْ لهمْ، بل كَذَّبوهُ عنْ عنادٍ منهمْ وتَيَقُّنٍ منهمْ برسالتِهِ؛ وذلكَ أنَّ نَبِيَّهُمْ صالحاً ﷺ جاوَزَتْهُ الحُجَجُ، لأنهمْ أُوتوا الناقةَ على سؤالٍ سَبَقَ منهمْ وعلى تَعَدٍّ منهمْ في السؤالِ على شيءٍ يُشيرونَ إليهِ؛ فهمْ بإشارتِهِمْ إلى سؤالِ الناقةِ كانوا مُعْتَدِينَ فيهِ.

ثم مِنْ حكمةِ اللهِ أنَّ الحجَّةَ إذا كانتْ على إثْرِ السؤالِ، ثم ظَهَرَ التكذيبُ منَ السائلينَ، هي[٣] الإسْتِئصالُ في الدنيا، وقد وُجِدَ منْ أولئكَ القومِ السؤالُ والتكذيبُ، فَعُوقِبوا بالإسْتِئصالِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] فَبَيَّنَ اللهُ تعالى المَعْنَى الذي لم يرسِلِ الآياتِ التي سألَتِ الكَفَرةُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو أنهمْ لمّا أُوتوا، ثم عَنَدوا، اسْتُؤْصِلوا؛ فقد أرادَ اللهُ تعالى إبقاءَ أُمَّتِهِ إلى أنْ تقومَ الساعةُ، وأرسلَهُ رحمةً للعالمينَ، وجَعَلَ حُجَّتَهُ منْ وجهٍ فيها رحمةٌ للعالمينَ، وهي القِتالُ، وكانَ في الجهادِ وما يُضَيِّقُ عليهمُ المعاشَ، ويَضْطَرُّهُمْ إلى النَّظَرِ في الحُجَجِ، فَيَحْمِلُهُمْ ذلكَ على تصديقِهِ والإيمانِ بهِ، فَثَبَتَ أنَّ القِتالَ رحمةٌ عليهمْ.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي قامَ أشقاها، وصارَ أشقاها بما أحدَثَ منَ الكُفْرِ بِعَقْرِ الناقةِ «ورُوِيَ عنْ عمّارِ بنِ ياسرٍ ﷺ أنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لعليٍّ ﷺ ألا أُخبِرُكَ بأشقى الناسِ؟ [قالَ: بلى، فقالَ: رجلانِ][٤]: أُحَيْمِرُ ثمودَ عاقرُ الناقةِ، والذي يَضْرِبُكَ على هذهِ، وأشارَ إلى هامتِهِ، حتى تَبْتَلَّ منها هذهِ، وأشارَ إلى لِحْيَتِهِ» [السيوطي في الدر المنثور ج٨/ ٥٣١] فصارَ [ضارِبُهُ كَعاقِرِ][٥] الناقةِ أشقى الناسِ لأنهُ اسْتَحَلَّ قتلَهُ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ فهو يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أيِ احْذَروا ناقةَ اللهِ، وهو كقولِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

والثاني: أي قالَ احْذَروا ناقةَ اللهِ تأكُلُ في أرضِ اللهِ، وذَروا بَينَ الناقةِ ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ وشُرْبِها[٦] ثم أُضيفَتِ الناقةُ إلى اللهِ تعالى لِوَجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ اللهَ تعالى لم يأذَنْ لأحدٍ بِتَمَلُّكِها[٧] حتى يُنْسَبَ إليهِ المُلْكُ، بل بقيَتْ غَيرَ مَمْلوكةٍ لأحدٍ، فأُضيفَتْ إلى اللهِ تعالى كما أُضيفَتْ إليهِ المساجدُ لِما لا مُلْكَ لأحدٍ عليها.

[والثاني: أنها][٨] أُضيفَتِ إلى اللهِ تعالى على مَعْنَى التَّفْضيلِ.

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) في الأصل وم: معصيتها. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: رجلين قال بلى يا رسول الله فقال.
(٥) في الأصل وم: عاقر. (٦) في الأصل وم: أو شربها. (٧) في الأصل وم: بالتملك عليه، في م: بالتملك عليها. (٨) في الأصل وم: أو.

والأصلُ: أنَّ إضافةَ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى بحَقِّ الحُرُماتِ على تَفْضيل تلكَ الأجزاءِ مِنْ بَيْنِ غَيرِها. فإضافةُ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى بِحَقِّ الكُلّيّاتِ يُخَرَّجُ مُخرَجَ تَعْظيمِ اللهِ تعالى؛ فإذا قيلَ: ربُّ المساجدِ أُريدَ بهِ تَفْضيلُ المساجدِ مِنْ بَينِ سائرِ البِقاعِ، وإذا قيلَ: ربُّ العرشِ أُريدَ بهِ تعظيمُ العرشِ، وكذلكَ إذا قيلَ: ربُّ الناقةِ أُريدَ بهِ تَعْظيمُ أمرِها، وإذا قيلَ: ربُّ العالَمينَ وربُّ كلِّ شيءٍ أُريدَ بهِ تَعْظيمُ الربِّ، جَلَّ جلالُهُ.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كَذَّبوا صالحاً ﷺ في رسالتِهِ، أو كَذَّبوهُ في ما أخبَرَهُمْ مِنْ حُلولِ العذابِ بهِمْ إذا عَقَروا الناقةَ، فَعَقَروها معَ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي أطْبَقَ عليهِمُ العذابَ على الصغيرِ والكبيرِ، ومنهُ يُقالُ: بَعيرٌ مَدْمومٌ إذا كانَ سميناً، أطْبَقَ شَحْمُهُ على لَحْمِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: دَمْدَمَ عليهِمْ أي دَمَّرَ عليهِمْ ﴿رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ وذنبُهُمْ ما تَعَدَّوا مِنْ تَكْذيبِهِمُ الرسولَ وعَقْرِهِمُ الناقةَ.

وقولُهُ تعالى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحدُهما: أنهُ سَوّاهُمْ[1] بالأرضِ كقولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

[والثاني: أنهُ][2] سَوّى بَيْنَ الصغيرِ والكبيرِ في الإهلاكِ، فالصغارُ منهمْ يومئذٍ ماتوا بآجالِهِمْ، والكبارُ منهمُ اسْتُؤْصِلوا بِذُنوبِهِمْ.

الآية ١٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ فجائزٌ أنْ تكونَ الإضافةُ مُنْصَرِفةً إلى اللهِ تعالى، وهو أنْ يكونَ اللهُ تعالى لمّا أهلَكَهُمْ لم يَخَفْ تَبِعَةَ الإهلاكِ، وَوَجْهُ الخوفِ، هو أنهُ في ما [أهْلَكَهُمْ][3] بما أوجَبَتِ الحكمةُ إهلاكَهُمْ، ولم يَلْحَقْهُ تَقْصيرٌ في الحكمةِ، ولا وَجَدَ الغائبُ في ذلكَ مَقالاً، وهكذا قالَ الحَسَنُ: ذاكَ ربُّنا لم يَخَفْ ممّا أنْزَلَ عليهِمُ العذابَ.

أو تكونَ مُنْصَرِفةً[4] إلى العاقرِ، فيكونَ معناهُ أنهُ عَقَرَها، ولم يَخَفِ العاقبةَ التي حَذَّرَهُمْ بها صالحٌ ﷺ في[5] قولِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي لم يَعْلَمْ ما يَحُلُّ بهِ مِنْ عَقْرِ تلكَ الناقةِ، ولو عَلِمَ لم يَفْعَلْ، ويجوزُ اسْتِعمالُ الخَوفِ في مَوضعِ العِلْمِ لأنَّ الخَوفَ إذا بَلَغَ غايَتَهُ صارَ عِلْماً.

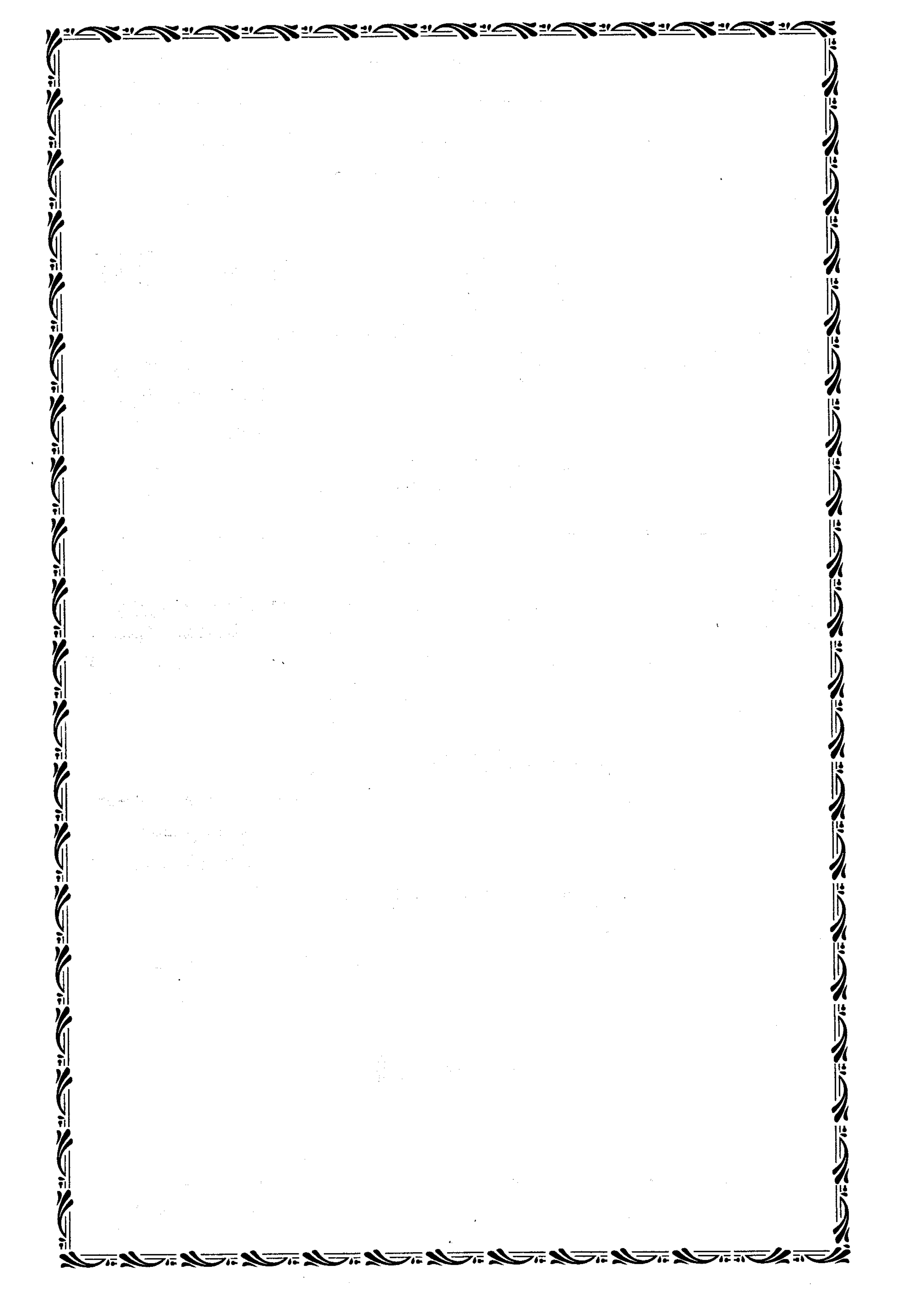
ثم الحكمةُ في ذِكْرِ قصةِ ثمودَ وجهانِ:

أحَدُهما: أنَّ في ذِكْرِها تثْبيتَ رسالةِ محمدٍ ﷺ وهو أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يُوجَدْ منهُ الاخْتِلافُ إلى مَنْ عندَهُ / ٦٤٤ ـ أ / عِلْمُ الأنباءِ والأخبارِ [ولا][6] كانَ يَعْرِفُ الكتابةَ لِتَقَعَ لهُ المعرفةُ بها، فَثَبَتَ أنهُ بالوحيِ عَلِمَ.

والثاني: أنَّ في ذِكْرِهِ تَحْذيراً لِمُكَذِّبي الرسُلِ، فَحُذِّروا بهِ لِيَمْتَنِعوا عنْ تكذيبِهِ، فلا يَحُلُّ بهِمْ ما حَلَّ بِمُكَذِّبي صالحٍ ﷺ مِنْ بأسِهِ وعذابِهِ، واللهُ الهادي [وعليهِ اعْتِمادي][7].

---

(١) من م، في الأصل: سواه. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: منصرفاً. (٥) في الأصل وم: من. (٦) في الأصل وم: و. (٧) ساقطة من م.



سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى الليلَ والنهارَ آيتَينِ عظيمتَينِ ظاهرتَينِ مُكرَّرتَينِ على الخلائقِ ما يَعرِفُ كلُّ كافرٍ ومؤمنٍ وجميعُ أهلِ التنازُعِ الذينَ تَنازَعوا: أهلِ الإيمانِ والتوحيدِ والجَبابرةِ[1] والفراعنةِ.

والقسمُ بقولِهِ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [وقولِهِ][2] ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١و٢] واحدٌ. وقد ذَكَرْنا أنَّ القَسَمَ إنما يُذكَرُ في تأكيدِ ما يَقَعُ بِهِ القسمُ ما لولا القَسَمُ لكانَ [ذلكَ][3] يُوجَبُ دونَ القسمِ؛ وذلكَ لِعِظَمِ ما فيهما حتى قَهَرا جميعَ الفراعنةِ والجبابرةِ، وغَلَبا عليهِمْ في إتيانِهِما وذَهابِهِما حتى إنَّ مَنْ أرادَ منهمْ دفعَ هذا ومَجيءَ هذا ما قَدَروا عليهِ.

وفيهِما دلالةُ وَحدانيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ، فاتِّساقُهُما[4] أو جَرَيانُهما على حَدٍّ واحدٍ وسَنَنٍ واحدٍ مُذْ كانا، وأُنْشِئا مِنَ الظُّلمةِ والنورِ والزِّيادةِ والنُّقصانِ، فَدَلَّ جَرَيانُهما على ما ذَكَرْنا أنَّ مُنْشِئَهما واحدٌ؛ إذْ لو كانَ فِعْلَ عَدَدٍ لكانَ إذا جاءَ هذا، وغَلَبَ الآخَرَ، دامَتْ غَلَبَتُهُ عليهِ، وكذلكَ الآخَرُ يكونُ مَغلوباً أبداً والآخَرُ غالباً. فإذا لم يَكُنْ ذلكَ دلَّ أنهُ فِعْلُ واحدٍ.

ويَدُلُّ أيضاً على أنْ ليسَ ذلكَ عَمَلَ النورِ والظُّلمةِ على ما تقولُهُ الثَّنَويَّةُ، ويدلُّ أيضاً [على أنَّ][5] مَنافعَ أحدِهِما بِمَنافعِ الآخَرِ وعلى[6] أنَّ ذلكَ عَمَلُ واحدٍ لا عَدَدٍ.

ودَلَّ اتِّساقُ ما ذَكَرْنا ودَوامُهُ[7] على حدٍّ واحدٍ على الاستِواءِ أنَّ مُنْشِئَهُما مُدَبِّرٌ عليمٌ، عنْ تدبيرٍ وعِلْمٍ خَرَجَ ذلكَ لا على الجُزافِ بلا تدبيرٍ. ودَلَّ مجيءُ كلِّ واحدٍ منهما بِطَرْفَةِ عينٍ على أنَّ مُنْشِئَهما قادرٌ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ مِنْ بعثٍ وغيرِهِ[8]. ودَلَّ ما ذَكَرْنا أنَّ فاعلَ ذلكَ حكيمٌ، عنْ حِكمةٍ خرجَ فِعْلُهُ، لا يُحتمَلُ أنْ يَترُكَهُمْ سُدىً، لا يأمُرُهُمْ، ولا يَنهاهُمْ [ولا يَمتَحِنُهُمْ][9] بأمورٍ. وكذلكَ جَعَلَ في ما ذَكَرَ [مِنَ الذَّكَرِ][10] والأنثى مِنَ الدَّلالاتِ والآياتِ مِنَ الازدِواجِ والتَّوالُدِ والتَّناسُلِ وغيرِ ذلكَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ حَرْفَ: ما متى قُرِنَ بالفعلِ الماضي صارَ بِمَعْنى المصدرِ، كأنهُ قالَ: وخَلْقِ الذَّكرِ والأنثى، فيكونُ قَسَماً بجميعِ الخلائقِ، إذْ لا يَخلو شيءٌ مِنْ أنْ يكونَ ذَكَراً أو أنثى، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: [وخَلْقِ الذَّكرِ والأنثى][11]. وكذلكَ رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قَرَأَ كذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ما ههنا بِمَعْنى الذي، كأنهُ قالَ: والذي خَلَقَ الذَّكرَ والأنثى، فيكونُ على هذا الوَجْهِ القَسَمُ باللهِ تعالى، وعلى التأويلِ الأوَّلِ بالذَّكَرِ والأنثى.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ قالوا: على هذا وَقَعَ القَسَمُ.

فإنْ قيلَ: إنَّ كُلّاً يَعلَمُ مِنْ كافرٍ ومؤمنٍ أنَّ سَعْيَكُمْ لَمُختلِفٌ، فما الحِكمةُ والفائدةُ مِنْ ذِكْرِ القَسَمِ على ما يَعلَمُ كلُّ ذلكَ؟

---

(١) في الأصل وم: من الجبابرة. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: ودوامها. (٨) في الأصل وم: ولا غيره. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) في الأصل وم: والذكر.

[قيلَ: الوجهُ][(١)] فيهِ، واللهُ أعلَمُ أنَّ ما يَقَعُ لهمْ بالسَّعْيِ وما يَستوجِبونَ بهِ مُختَلِفٌ في الآخِرَةِ، وهو جَزاءُ السَّعْيِ، كأنهُ قالَ: إنَّ جَزاءَ سعيِكُمْ وثوابَهُ لَمُختَلِفٌ؛ وذلكَ أنهمْ كانوا يقولونَ إنْ كانَتْ دارٌ أُخرَى على ما يَقولُهُ محمدٌ ﷺ فنحنُ أحقُّ بها مِنِ اتِّباعِ محمدٍ ﷺ بقولِهِ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ لأنَّ المُعْطِيَ في الشاهدِ يَنْفَعُ غيرَهُ، ويَضُرُّ نفسَهُ في الظاهرِ، والمُمْسِكَ يَنْفَعُ نفسَهُ[ويَضُرُّ غيرَهُ][(٢)] ثم المُعْطي محمودٌ عندَ الناسِ. فلو لم تكنْ عاقبةٌ، يَنْتَفِعُ المُعْطي بما أعْطَى، ويَضُرُّ البخيلَ المنعُ لكانَ الناسُ بما حَمِدوا هذا، وذَمُّوا الآخَرَ، سُفَهاءَ. دَلَّ[(٣)] أنَّ العاقبةَ، هي التي تُصَيِّرُ هذا مَحموداً، وأنَّ الخَلْقَ جميعاً مِنْ مسلمٍ وكافرٍ ومُحْسنٍ ومسيءٍ قدِ اسْتَوَوا في نِعَمِ هذهِ الدنيا ولَذَّاتِها بما ذَكَرْنا مِنْ مَمَرِّ الليلِ والنهارِ ممَّا يَخْلُقُ فيهما مِنَ النباتِ والثمارِ والعيونِ والأشجارِ.

فإذا وَقَعَ الاسْتِواءُ في هذهِ الدارِ، وبهِ ورَدَتِ الأخبارُ عنِ النَّبيِّ المُختارِ أنَّ الناسَ شُركاءُ في الماءِ والنارِ والكَلأِ، فلا[(٤)] بدَّ مِنْ دارٍ أُخرَى للأشقياءِ والأبرارِ لِيَقَعَ بها التَّفاوُتُ بَيْنَ الأبرارِ و الأشرارِ أو النافعِ منهمْ نفسَهُ والضَّارِّ.

وإذا ثَبَتَ أنهما اسْتَوَيا في منافعِ الليلِ والنهارِ وجميعِ ما في الدنيا مِنَ الأنزالِ وغيرِها، فإذا وَقَعَ الاسْتِواءُ بَيْنَهُمْ في الدنيا فلا بُدَّ منْ دارٍ أُخرَى يَقَعُ التَّفاوُتُ والتَّفاضُلُ بينَهُمْ، وفيها يُمَيِّزُ ما ذَكَرْنا.

الآيات ٥ - ١٠ ثم بيَّنَ أنَّ السَّعْيَ [الذي][(٥)] يَقَعُ الجزاءُ لهُ مُختَلِفٌ لِما[(٦)] ذَكَرَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾][(٧)] وهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

[أحدُها][(٨)]: يَحتَمِلُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي أعطَى ما [أَمَرَ اللهُ][(٩)] بهِ، واتَّقَى عِصيانَهُ وكُفرانَ نِعَمِهِ، أوِ اتَّقَى المَنْعَ، أو [مَنْ][(١٠)] أعطَى التَّوحيدَ للهِ تعالى منْ نفسِهِ، واتَّقَى الشِّرْكَ والكفرانَ لِنِعَمِهِ، وصَدَّقَ بِمَوعودِ اللهِ تعالى﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ للأعمالِ والشرائعِ أو لِشَرْحِ صدرِهِ لِلتَّوحيدِ والأسلامِ، ونُيَسِّرُهُ عليهِ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ ولم يأتِ بالتَّوحيدِ ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ عنِ اللهِ تعالى بماعندَهُ، وكَذَّبَ بِموعودِ اللهِ تعالى﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لِما يُعِدُّهُ مِنَ الأعمالِ، واللهُ أعلَمُ.

والثاني: في حقِّ القَبولِ والعَزْمِ على وفاءِ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ أي قَبِلَ الإعطاءَ، وعَزَمَ على وفاءِ ذلكَ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ أي عَزَمَ [على][(١١)] اتِّقاءَ معاصي اللهِ ومَحارِمِهِ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بِمَوعودِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي سَنُيَسِّرُهُ لوفاءِ ما عَزَمَ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أي [عَزَمَ][(١٢)] على البُخْلِ والمَنْعِ بذلكَ ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بالذي لهُ عندَهُ، وكَذَّبَ بِمَوعودِ اللهِ تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ لوفاءِ ما عزمَ مِنَ الخِلافِ للهِ تعالى والمَعْصيةِ لهُ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما رُوِيَ عنْ رسولِ اللهِ/ ٦٤٤ - ب/ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنْ ذلكَ، فقالَ: «كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لهُ» [مسلم ٢٦٤٩] أو قالَ: «كلٌّ مُيَسَّرٌ لِما عملَ» [البخاري ٤٩٤٩].

والثالثُ: يُخَرَّجُ على حقيقةِ إعطاءِ ما وَجَبَ مِنَ الحَقِّ في المالِ وحقيقةِ المنعِ؛ يقولُ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما وَجَبَ مِنْ حقِّ اللهِ تعالى في ما لِهِ ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ نِقْمةَ اللهِ ومَقْتَهُ وعذابَهُ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ أي بِمَوعودِ اللهِ تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ في الخيراتِ والطاعاتِ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ أي مَنَعَ حَقَّ اللهِ تعالى الذي في مالِهِ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ بالذي وَعَدَ على ذلكَ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ في الإفضاءِ إلى ما وَعَدَ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ قيلَ: إنْ أُهلِكَ، وماتَ، أو تَرَدَّى في النارِ.

وفي ظاهرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ دلالةٌ على أنَّ الآيَةَ في حقيقةِ الإعطاءِ مِنَ المالِ والمَنْعِ.

[وقولُهُ تعالى][(١٣)]: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: بالجنةِ، وقيلَ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ، وقيلَ: بالخَلَفِ على ما أنفَقَ.

---

(١) في الأصل وم: فالوجه. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: فدل. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: ما. (٧) ساقطة من الأصل م. (٨) في الأصل وم: أمر. (٩) ساقطة من الأصل وم. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) من م، ساقطة من الأصل.

وجائزٌ أنْ تكونَ اليُسْرَى اسماً[1] للجنةِ، وكذلكَ الحُسْنَى، والعُسْرَى والسُّوأَى النارَ. ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ اسماً لكلِّ ما طابَ، وحَسُنَ منَ العَمَلِ، والعُسْرَى ما خَبُثَ، وقَبُحَ مِنَ العَمَلِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ الآيةَ نزلَتْ في أبي بكرِ الصِّدِّيقِ ﷺ إنهُ اشترى بلالاً مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ بِبُرْدَةٍ وعَشْرِ أواقٍ [مِنَ الذهبِ][2] فأعْتَقَهُ للهِ تعالى، فأنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ يعني سَعْيَ أبي بكرٍ وأُمَيَّةَ وأُبَيٍّ. وذُكِرَ في آخرِ السورةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أبو بكرٍ ﷺ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ [وأُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ][3] يَرْوي[4] عبدُ اللهِ بْنُ مسعودٍ ﷺ هذا.

الآية ١٢ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: جائزٌ أنْ يكونَ ﴿عَلَيْنَا﴾ أي لنا، وذلكَ جائزٌ في اللغةِ جارٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وكقولِهِ[5]: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٦] أي لنا مُحاسَبَتُهُمْ [وكقولِهِ][6]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] أي للهِ قَصْدُ السبيلِ وكقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] أي لربهمْ كما قالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]

ونحوُ ذلكَ كثيرٌ: أنْ يكونَ علينا بِمَعْنَى لنا، فيصيرُ كأنهُ قالَ: إنَّ لنا لَلْهُدَى كقولِهِ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وكقولِهِ: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] يكونُ فيهِ إخبارٌ أنَّ الهُدَى والدِّينَ الخالصَ لهُ. وأمّا سائرُ الأديانِ فهي[7] سبيلُ الشيطانِ، ليسَتْ للهِ تعالى.

على هذا جائزٌ أنْ يُخَرَّجَ تأويلُ الآيةِ. والوجهانِ يُخَرَّجانِ على حقيقةِ على. لكنَّ أحَدَهما يُخَرِّجُ ذكْرُ الهُدَى على إرادةِ البَيانِ في تَبْيينِ الطريقِ، والآخَرَ على إرادةِ حقيقةِ الهُدَى [الذي][8] هو ضِدُّ الكفرِ ومُقابِلُهُ.

فأمّا على إرادةِ البَيانِ فكأنهُ قالَ: إنَّ علينا غايةَ البَيانِ في حقِّ الحِكْمةِ والعَدْلِ في ما يُمْتَحَنونَ حتى إنْ كانَ التَّقْصيرُ والتَّفريطُ فإنما يكونُ منْ قِبَلِ أنفسِهِمْ لا مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالى، أو يُبَيِّنُ لهمْ كلَّ شيءٍ غايةَ البيانِ ونهايَتَهُ لِتَزولَ الشُّبْهَةُ عنهمْ، واللهُ أعلَمُ.

[والثاني: جائزٌ][9] أنْ يقولَ: إنَّ علينا هِدايةَ مَنِ اسْتَهْداناً[10]، واجْتَهَدَ في طَلَبِها كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[والثالث:][11] أنَّ علينا إنجازَ ما وَعَدْنا على الهُدَى لِمَنِ اهْتَدَى.

وإنجازُهُ[12] يُخَرِّجُ تأويلَ الآيةِ على أنَّ إرادةَ البَيانِ مِنَ الوجوهِ التي ذَكَرْنا. وأمّا على إرادةِ حقيقةِ الهُدَى الذي هو مُقابِلُ الكُفْرِ فكأنهُ قالَ: إنَّ علينا التَّوفيقَ والمَعونةَ والعِصْمةَ في حقِّ الإحسانِ والإفضالِ لا على أنَّ ذلكَ عليهِ لهمْ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ: إنَّ علينا بَيانَ ما للآخِرَةِ والأُولَى كيلا يَزِلَّ[13] عن قَصْدِ الطريقِ، فَتَهْلِكَ نفسُهُ في كلِّ مَضيقٍ.

الآية ١٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: يقولُ، واللهُ أعلَمُ،: إنكمْ تَعْلَمونَ أنَّ لنا الآخِرَةَ والأُولَى، وليسَ لِما تَعْبُدونَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ الآخِرَةُ والأُولَى، فكيفَ صَرَفْتُمْ عبادَتَكُمْ عَمَّنْ لهُ الآخرةُ والأولى إلى منْ ليسَ لهُ الآخرةُ والأولى على عِلْمٍ منكمْ بذلكَ؟ يُسَفِّهُهُمْ في اخْتيارِهِمْ عبادةَ الأصنامِ على عبادةِ اللهِ تعالى.

(١) في الأصل وم: اسم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يرويه. (٥) في الأصل وم: و. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٨) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: ويحتمل وجهاً آخر وهو. (١٠) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: استمد. (١١) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٢) في الأصل وم: وإخباره. (١٣) في الأصل وم: يزول.

والثاني: يقولُ، واللهُ أعلَمُ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فما لكمْ تَبْخَلونَ بالإنفاقِ على أنفسِكمْ وما تَرْجِعُ منفعتُهُ إليكمْ بما ليسَ لكمْ في الحقيقةِ، وإنما هو للهِ تعالى وهذا التأويلِ صِلَةُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ والأوّلُ صِلَةُ قولِهِ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾.

الآية ١٤ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي ناراً تَتوَقّدُ، وتتلَهّبُ، وتتشعّبُ، على ما ذَكَرَ منْ صِفَتِها.

ثم الإنذارُ يكونُ للفريقَينِ لأهلِ التوحيدِ ولأهلِ الشِّرْكِ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٥و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قالتِ المعتزلةُ: هذا ليسَ على حقيقةِ التكذيبِ، ولكنْ على التّقْصيرِ والتفريطِ في أمرِ اللهِ تعالى والوقوعِ في مَناهيهِ. فَيُصَيِّرونَ الآيةَ إلى أصحابِ الكبائرِ بارتكابِهِمُ الكبيرةَ، ويَصيرونَ[1] مُكَذِّبينَ ومُتوَلّينَ لأنهمْ في ابْتِداءِ اعْتِقادِهِمُ التوحيدَ والإيمانَ اعْتَقَدوا وفاءَ كلِّ ما وقَعَ بهِ الأمرُ وَوَفاءَ كلِّ ما يَليقُ بهِ والانْتِهاءَ عنْ كلِّ ما لا يَليقُ بهِ.

فإذا تَرَكَ [المرءُ][2] ذلكَ صارَ مُكَذِّباً لِما اعْتَقَدَ في الأصلِ وفاءَ ذلكَ.

لكنْ عندَنا لا يَصيرُ بِتَرْكِ الوفاءِ مُكَذِّباً، لكنْ يَصيرُ مُخالفاً لِما وَعَدَ، واعْتَقَدَ.

واسْتَدَلَّتِ المُرْجئةُ الذينَ لا يَرَونَ العذابَ إلّا لأهلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ بهذهِ الآيةِ؛ يقولونَ: إنهُ لا يَصْلاها إلّا الذي كَذَّبَ، وتَوَلّى، والمسلمُ، وإنِ ارْتَكَبَ الكبيرةَ والصغيرةَ، فهو ليسَ بِمُكَذِّبٍ ولا مُتَوَلٍّ.

ولكنّ تأويلَ الآيةِ عندَنا في الكَفَرةِ، ليسَتْ في أهلِ الإيمانِ.

ثم يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في بابٍ ودَرْكٍ دونَ دَرْكٍ وبابٍ [مِنَ النارِ][3] فإنَّ لكلِّ[4] فريقٍ دَرْكاً. قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وهذا كما قالَ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] وقالَ في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦]. فيكونُ الضريعُ الذي ذُكِرَ في بابٍ ودَرْكٍ منها والغِسْلينُ في بابٍ آخَرَ، فجائزٌ على هذا ألّا يَصْلَى ذلكَ الدَّرْكَ إلّا الأشقَى، ويجوزُ[5] أنْ يكونَ لصاحبِ الكبيرةِ دَرْكٌ خاصٌّ.

وأمّا ما ذَكَروا أنَّ أصحابَ الكبائرِ قد أُوعِدوا، وخُوِّفوا بِمَواعيدَ شديدةٍ، فلَسْنا نُنْكِرُ المواعيدَ لهمْ وأنهمْ يُعَذَّبونَ، ولكنْ نقولُ: لا يكونونَ في الدَّرَكاتِ التي فيها الكفارُ، إنْ أُدْخِلوا في النارِ / ٦٤٥ ـ أ/ وجائزٌ أيضاً أنْ يُعَذَّبوا بعذابٍ سِوَى العذابِ الذي ذُكِرَ بالنارِ والتّلَظّي.

وعندَنا همْ في مَشيئةِ اللهِ تعالى؛ إنْ شاءَ عَذَّبَهُمْ، وإنْ شاءَ تَجاوزَ عنهمْ، وخَلّى عنهمْ سَبيلَهُمْ. وأمّا النارُ التي ذَكَرَ بِصِفَةِ التّلَظّي، فهي للكُفّارِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أخبَرَ أنهُ يُجَنِّبُ النارَ عنِ الأتقى، ويَقيهِ عنها.

ثم فيهِ دلالةُ أنهُ إنما يَتَجَنَّبُها، ويَتّقيها، بالأعمالِ التي يَعْمَلُها، فَدَلَّ أنَّ للهِ تعالى في أفعالِهِمْ صُنْعاً حينَ[6] أضافَ الوقايةَ إليهِ والتّجَنُّبَ عنها، وهو كقولِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الآيتان ١٩و٢٠ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [يَحْتَمِلُ وجْهَينِ:

---

(١) الواو ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: وباب. (٤) من م، في الأصل: كل. (٥) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فأما يجوز. (٦) في الأصل وم: حيث.

أحدُهما: أنّ[١] ما لأحدٍ عندَ اللهِ تعالى مِنْ نعمةٍ يُجزَى بها، ولا يَدَ يَستَحِقُّ [الثوابَ][٢] بها. لكنْ إذا أدّى نِعْمةً مِنْ نِعَمِ اللهِ تعالى التي أعطاها إياهُ لِغَيرِهِ ابْتِغاءَ وجهِهِ، وطَلَبَ مَرْضاتَهُ، يَجْزِيهِ بفضلِهِ، كأنهُ كانَتْ لهُ عندَهُ نعمةٌ، يُجْزِي بها.

والثاني: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ[٣] صِلَةَ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي يَتَصَدَّقُ، ويَتَزَكّى لِابْتِغاءِ وجهِ اللهِ تعالى على مَنْ ليسَ عندَهُ نِعْمةٌ ويَدٌ يُجازيهِ بها، ويُنْفِقُ عليهِ جَزاءً لِصنيعٍ قد سَبَقَ منهُ في حقِّهِ؛ كأنهُ يقولُ: لا يُعطي الزكاةَ أحداً عنْ مجازاةِ [ما][٤] سَبَقَ منهُ إليهِ مِنْ نعمةٍ، إنما أعطاهُ لهُ لا مُجازاةً، ولكنْ للهِ تعالى خالصاً.

وفيهِ دليلٌ ألّا يُعْطِيَ الرجلُ زكاةَ مالِهِ مَنْ عندَهُ لهُ نِعْمةٌ أو مِنّةٌ لأنهُ يُخَرِّجُ ذلكَ مُخْرَجَ الإعطاءِ بِبَدَلٍ.

الآية ٢١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي يَرْضَى بالذي يُجْزَى بهِ، ويُساقُ إليهِ مِنَ الثوابِ. وحَرْفُ: الـ: سوف و الـ: عسى مِنَ اللهِ تعالى واجِبٌ؛ كأنهُ يقولُ: يعطيهِ حتى يَرْضَى.

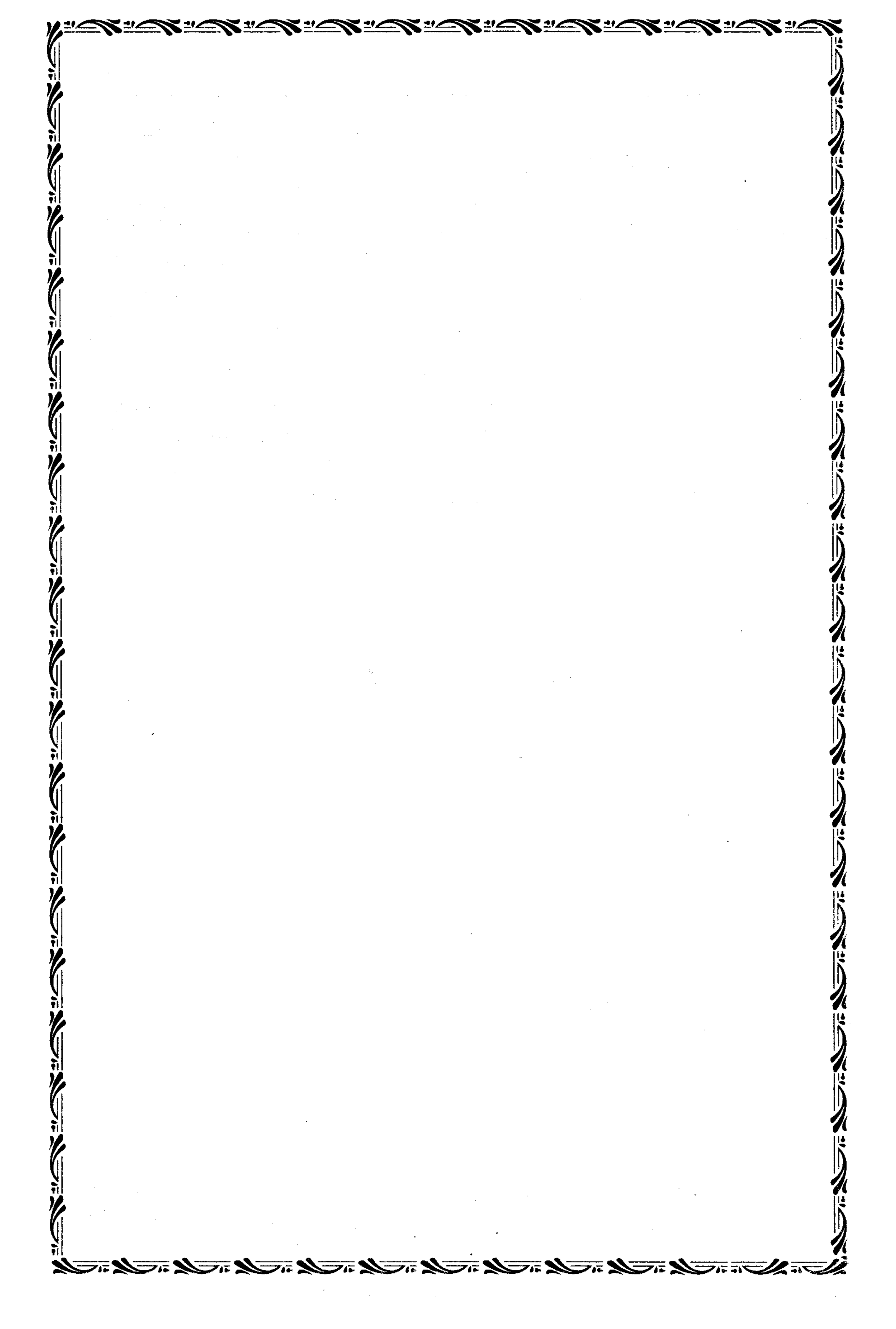
وقالَ بعضُهُمْ: نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ، وهو قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ في أبي بكرٍ ﷺ. وقالَ بعضُهُمْ: هذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ في أبي الدَّحداحِ ﷺ طَلَبَ النبيُّ ﷺ منهُ نَخْلَةً إلى آخرِ القصةِ[٥].

وقالَ بعضُ أهلِ الأدبِ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ [الآية: ١١] في النارِ، أي سَقَطَ، ويُقالُ: ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ تَفَعَّلَ مِنَ الرَّدَى، وهو الهلاكُ، و ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الآية: ٢] إذا بَدَا، و﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الآية: ٧] مِنَ التَّيْسيرِ، و ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الآية: ١٠] مِنَ التَّعْسيرِ. واللهُ أعلَمُ.

[والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبِهِ الطاهرينَ][٦].

---

(١) في الأصل وم: أي. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: هذا. (٤) في م: قد، ساقطة من الأصل. (٥) لقد ذكر المؤلف خبراً آخر عن أبي الدحداح في تفسير الآية ٢٤٥ من سورة البقرة وتصدقه بحديقة له، انظر ج١/٤٣٨. (٦) ساقطة من م.



[سورة الضحى

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قالَ بعضُهُمْ: الضُّحى ضوءُ النهارِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] أي وضوئِها. وقالَ بعضُهُمْ: هو ساعةٌ مِنَ النهارِ، وهي مِنْ أوّلِ النهارِ. ويُقالُ: صلاةُ الضُّحى، وهي عندَ ضَحْوَةِ النهارِ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو كنايةٌ عنِ الحَرِّ كقولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨و١١٩] أي لا يُصيبُكَ الحَرُّ، واللهُ أعلَمُ. ومنهمْ مَنْ يقولُ: هو كِنايةٌ عنِ النهارِ كلِّهِ؛ أقْسَمَ بهِ وبالليلِ الذي ذَكَرَ.

فإنْ كانَ المُرادُ مِنَ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ هو ضَوءَ النهارِ ومِنَ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ظُلْمتَهُ، فَيُخرَّجُ القسمُ بهِ على أنَّ ظُلْمةَ الليلِ تَسْتُرُ الخلائقَ كلَّهُمْ في طَرْفةِ عينٍ، وكذلكَ ضوءُ النهارِ يَكْشِفُ السَّتْرَ، ويُجَلّي بِطَرْفةِ عينٍ جميعَ الخلائقِ مِنْ غيرِ أنْ يَعْلَمَ أحدٌ ثِقَلَ ذلكَ السَّتْرِ أو خِفَّةَ ذلكَ الضوءِ. فأقْسَمَ بذلكَ لِعَظيمِ ما فيها مِنَ آلائِهِ.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ نفسَ الليلِ والنهارِ، فالقَسَمُ بهما لِما جَعَلَ اللهُ فيهما مِنَ المَنافعِ الكثيرةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ اختُلِفَ فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: إذا استَوَى. وقالَ بعضُهُمْ: إذا سَكَنَ، ورَكَدَ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ إذا غَشِيَ، وأظْلَمَ، وغَطّى كلَّ شيءٍ، وسَتَرَ، وهو مِنَ التَّسْجِيَةِ والتَّسَتُّرِ؛ يُقالُ: تَسَجّى قبرُ المرأةِ إذا تَسَتَّرَ، وتَغَطّى.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ على هذا وَقَعَ القَسَمُ. ثم اختُلِفَ في السببِ الذي نَزَلَ هذا: قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ سُئِلَ عنْ شيءٍ، إذْ طَلَبوا منهُ شيئاً، فقالَ: أفعلُ ذلكَ غداً، أو أُخْبِرُكُمْ عنهُ غداً، ولم يَسْتَثْنِ، فاحْتَبَسَ عنهُ الوَحْيُ أياماً لِذلكَ فقالَ المشركون: وَدَّعهُ ربُّهُ، وقَلاهُ، أي تَرَكَهُ، وأبْغَضَهُ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أبْطأَ عليهِ الوَحْيُ، فَجَزِعَ جَزَعاً شديداً، فقالَتْ لهُ خديجةُ ﵂: إني لأرَى قد قَلاكَ ربُّكَ، وودَعَكَ، [لِما رأتْ][2] مِنْ جَزَعِهِ، فَنَزَلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ولسْنا نَدْري كيفَ كانَ الأمرُ.

فإنْ كانَ نَزَلَ ذلكَ لِقولِ قريشٍ فالقَسَمُ يَحْتَمِلُ ذلكَ رَدّاً لِقولِهِمْ. [وإنْ كانَ][3] نَزَلَ لِقولِ خديجةَ ﵂ فهو غيرُ مُحْتَمَلٍ لأنَّ خديجةَ تَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى، لم يُوَدِّعْهُ، ولا قَلاهُ، وكذا كلُّ مؤمنٍ مُعْتَقِدٌ أنَّ اللهَ تعالى لا يُوَدِّعُ أحداً مِنْ رسلِهِ، ولأنها تُصَدِّقُ الرسولَ ﷺ أنهُ لم يُوَدِّعْهُ، ولا قلاهُ، إذا أخْبَرَها بِغَيرِ قَسَمٍ، فلا مَعْنىً للقَسَمِ. دلَّ [أنَّ][4] هذا الوَجْهَ غيرُ مُحْتَمَلٍ.

ثم صَرْفُ تأويلِ الآيةِ إلى غَيرِ ما قالوا أشبَهُ عندَنا وأقْرَبُ ممّا قالوا، وهو أنهُ ﷺ بُعِثَ إلى الفَراعِنةِ والجَبابِرةِ الذينَ كانتْ هِمَّتُهُمْ قَتْلَ مَنْ خالَفَهُمْ وإهلاكَ مَنِ استَقْبَلَهُمْ بالخِلافِ، ولم يكنْ معهُ فَضْلُ مالٍ وسَعَةٍ، يَسْتَميلُ بِهِ قلوبَ الناسِ، فيقولُ أولئكَ الكَفَرةُ: إنَّ ربَّهُ قد خَذَلَهُ، وتَرَكَهُ، وقَلاهُ، حينَ[5] بَعَثَهُ إلى ما ذَكَرْنا مِنَ الفَراعِنةِ والجبابرةِ الذينَ كانَتْ هِمَّتُهُمُ القَتْلَ وعادَتُهُمْ إهلاكَ مَنْ خالَفَهُمْ بلا أنصارٍ ولا أعوانٍ مِنَ الملائكةِ ولا مالٍ وسَعَةٍ يَسْتَميلُ بهِ القلوبَ والأنفسَ لأنَّ مَنْ سَلَّمَ إنساناً إلى أعدائِهِ الذينَ يَعْلَمُ أنهمْ أعداؤهُ، ويُخَلّي بَيْنَهُ وبينَ الأعداءِ بلا أنصارٍ وأعوانٍ ولا مالٍ ولا سَعَةٍ مِنَ الدنيا،

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: مما ترى. (٣) في الأصل وم: والقول الثاني أنه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: حيث.

فيُقالُ: إنهُ قد خذَلَهُ، وترَكَهُ، وقلاهُ؛ إذْ لا يُفْعَلُ ذلكَ في الأصلِ إلّا لذلكَ. فعندَ ذلكَ قالوا: وَدَّعَهُ، وقلاهُ، وهو ما قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ/ ٦٤٥ ـ ب/ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧و٨] ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ونَحْوُ ذلكَ ممّا قالوا.

فلولا صَرْفُ أهلِ التأويلِ تأويلَ الآيةِ إلى ما ذَكَروا، لكانَ[١] صَرْفُهُ إلى ما ذَكَرْنا أشبَهَ.

وفي[٢] قولِهِمْ: قد وَدَّعَهُ ربُّهُ [دلالتانِ:

أولاهما:][٣] أنهمْ قد عَرَفوا أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأقَرُّوا [بذلكَ][٤] حتى قالوا: نَزَلَ قولُهُ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

والثانيةُ[٥]: أنهُ لو كانَ يَخترِعُ على ما كانَ يقولُ[٦] أولئكَ لكانَ لا يَحتَبِسُ عنِ الاختِراعِ، ويكونُ يَختَرِعُ أبداً حتى لا يقولوا: إنهُ وَدَّعَهُ. فَدَلَّ ظهورُ احتِباسِ الوحيِ أنهُ عن أمرٍ يُخبِرُ [عنهُ][٧] وأنهُ مأمورٌ بذلكَ.

ثم أخبَرَ أنهُ [لم يَبْعَثْهُ][٨] إلى هؤلاءِ الفراعنةِ والجبابرةِ لِما ذَكَرَ أولئكَ الكَفَرَةُ أنهُ خذَلَهُ، وترَكَهُ، وقلاهُ، ولكنْ بَعَثَهُ، وهو يَنْصُرُهُ، ويُعينُهُ على تَبْليغِ ما أمَرَ بِتَبْليغِهِ إلى مَنْ أمَرَ بتبليغِهِ، ولم يَقْلِهِ، ولكنهُ اصطفاهُ، واختارَهُ، حتى يَعْلُوَ أمرُهُ، ويَكْثُرَ ذِكْرُهُ، وفي ذلكَ آيةٌ[٩] عظيمةٌ على إثباتِ الرسالةِ، وهوَ ما ذَكَرْنا أنهُ بُعِثَ إلى مَنْ هِمَّتُهُمُ القتلُ والإهلاكُ لِمَنْ خالَفَهُمْ، فَقَهرَهُمْ جميعاً، وغَلَبَ على الكُلِّ حتى أظهَرَ الإسلامَ في مَنْ قَرُبَ منهُ[١٠] ومَنْ بَعُدَ[١١].

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يقولُ: معَ ما أعطيتُكَ[١٢] في الدنيا مِنَ الشَّرَفِ والذِّكْرِ والغَلَبَةِ على الفراعنةِ، فالآخِرَةُ خَيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى؛ يُرَغِّبُهُ في الآخِرَةِ، ويُزَهِّدُهُ في الدنيا، أو يقولُ: إنَّ أولَى لكَ أنْ يكونَ سَعْيُكَ لِلآخِرَةِ مِنَ الأولَى، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ أي لَتُعطَى في الآخرةِ ما تَرْضَى مِنَ الكرامةِ والشَّرَفِ.

وقالَ بعضُهُمْ: أي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ في الدنيا مِنَ الذِّكْرِ والشَّرَفِ والمَنْزِلةِ والغَلَبَةِ على الأعداءِ.

ويَحتَمِلُ: يُعطيكَ في أُمَّتِكَ ما تَرْجو، وتَأمُلُ مِنَ الشفاعةِ لهمْ، وتَرْضَى.

ويقولُ بعضُ الناسِ: إنَّ أرجَى آيةٍ هذهِ حيثُ وَعَدَهُ[١٣] أنهُ يُعطيهِ ما يَرْضَى، ولا يَرْضَى أنْ تكونَ أُمَّتُهُ في النارِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: أرجَى آيةٍ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] وهو قولُ ابنِ مَسْعودٍ.

وعندَنا: أرْجَى الآياتِ هي التي أمَرَ اللهُ تعالى رُسُلَهُ بالإستِغْفارِ للمؤمنينَ، وكذلكَ ما أمَرَ الملائكةَ بالإستِغفارِ لهمْ، فاستَغْفَروا لهمْ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [آيةٌ ممّا][١٤] ذَكَرَ مِنَ الأحوالِ التي ذَكَرَ فيهِ: مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الآيات: ٦ و٧ و٨] وقولِهِ ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ونَحْوِ ذلكَ مِنَ الأحوالِ التي ذَكَرَ فيهِ [وهي][١٥] في الظاهرِ أحوالٌ تُذْكَرُ لِلتَّبيِينِ في مَنْ يُقالُ فيهِ.

لكنْ في ذِكْرِ ما ذُكِرَ فيهِ مِنَ الأحوالِ ذِكْرُ بِشارةٍ لرسولِ اللهِ ﷺ والنصرِ لهُ والعَوْنِ وآيةٌ لهُ على رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ؛ لأنَّ نَفاذَ القولِ وغَلَبَةَ الأمرِ معَ الأحوالِ التي ذَكَرَ أعظَمُ في الأعجوبةِ مِنْ نَفاذِهِ في أحوالِ السَّعَةِ وحالِ قوةِ الأسبابِ وتأكيدِها،

---

(١) في الأصل وم: وإلا. (٢) الواو ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: دلالة. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: والثاني. (٦) في الأصل وم: يقولون. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: يبعث. (٩) في الأصل وم: لآية. (١٠) في الأصل وم: من. (١١) في الأصل وم: بعده. (١٢) في الأصل وم: أعطيت. (١٣) في الأصل وم: وعدله. (١٤) في الأصل وم: الآية ما. (١٥) ساقطة من الأصل وم.

وهو[1] قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ ونَحْوُهُ لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا يَنْسُبونَهُ إلى الافتِراءِ والاختراعِ مِنْ ذاتِ نفسِهِ، فأخبَرَ أنَّ اليتيمَ والفقيرَ، ليسَ يَبْلُغُ في العِلْمِ والمعرفةِ المَبْلَغَ الذي يَقْدِرُ على الاختِراعِ وإنشاءِ الشيءِ مِنْ ذاتِ نفسِهِ على وَجْهٍ يَعْجَزُ عَنْ مِثْلِهِ جميعُ الخلائقِ لِما لا يَجِدُ ما يُنْفِقُ في ذلكَ، ويَتَحمَّلُ المُؤَنَ حتى يَبْلُغَ مَبْلَغَ الاختراعِ. وكذلكَ ما ذَكَرَ حينَ[2] قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] لأنهمْ قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فالبشرُ إنما يَتَعلَّمونَ بالكتابةِ والخطِّ. فإذا لم يكُنْ لرسولِ اللهِ ﷺ [حظٌّ][3] مِنْ ذلكَ دَلَّ أنهُ باللهِ تعالى عَرَفَ وَحْدَهُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ[4] قولُهُ: ﴿فَآوَىٰ﴾ وجوهاً:

أحدُها: وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى عمِّكَ حتى ربّاكَ، ودفَعَ عنكَ كلَّ أذًى وآفةٍ وساقَ إليكَ كلَّ خيرٍ وبِرٍّ إلى أنْ بلغتَ [المَبْلَغَ الذي بلغتَ][5].

والثاني: يقولُ قد وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى عَدُوٍّ مِنْ أعدائِهِ[6] حتى تَوَلّى تربيَتَكَ، وبِرَّكَ، وعَطَفَ عليكَ، وتَوَلّى عنكَ دَفْعَ المَكروهِ والأذى، يَذْكُرُ مِنَّتَهُ وعظيمَ نِعَمِهِ عليهِ أنهُ كانَ ما ذَكَرَ، ثم صَيَّرَ عَدُوّاً مِنْ أعدائِهِ[7] أشفَقَ الناسِ عليهِ وأعطَفَ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: قد وَجَدَكَ يتيماً فآواكَ إلى نفسِهِ، وعَطَفَ عليكَ، حتى اختصَّكَ، واصْطَفاكَ للرسالةِ والنُّبُوَّةِ حتى صِرْتَ مذكوراً في الدنيا والآخِرةِ وحتى أحْوَجَ جميعَ الناسِ إليكَ؛ ليسَ ذلكَ مِنْ أمرِ اليتيمِ أنهُ يَبْلُغُ شأنُهُ وأمْرُهُ إلى ما بَلَغَ مِنْ أمرِكَ وشأنِكَ حتى صِرْتَ مَخْصوصاً مِنْ بَيْنِ الناسِ جميعاً في ما ذَكَرْنا مِنِ اختِصاصِهِ إيّاكَ بالرسالةِ، وأحْوَجَ جميعَ الناسِ إليكَ؛ يَذْكُرُ عظيمَ مَنِّهِ ونِعَمِهِ عليهِ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ هذا يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: يقولُ، واللهُ أعلَمُ، لولا أنَّ اللهَ تعالى هداكَ لدينِهِ، وَوَفَّقَكَ لهُ، لَوَجَدَكَ[8] ضالاًّ، إذْ كانَ مَنْشَؤُهُ بَيْنَ قومٍ ضُلّالٍ، لم يكُنْ أحدٌ يَهْديهِ، ويَدْعوهُ إلى اللهِ تعالى، ولكنهُ هداكَ، وأرشَدَكَ، فلم يَجِدْكَ ضالاًّ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي لولا أنهُ أنقذَكُمْ منها لَصِرْتُمْ على شَفا حُفْرةٍ مِنَ النارِ، لو لم يُنْقِذْكُمْ منها، وكقولِهِ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] لأنَّ البشرَ أُنْشِئَ، وطُبِعَ على الرُّكونِ والمَيْلِ إلى النِّعَمِ العاجلةِ واختيارِ الأيْسَرِ والألَذِّ، ولكنهُ بفضلِهِ ولُطْفِهِ ثَبَّتَكَ، وعصَمَكَ، ولم يَكِلْكَ [إلى ما][9] طُبِعْتَ، وأُنشِئْتَ في أصلِ الخِلْقَةِ.

فَعَلى ذلكَ يقولُ في قولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي لولا أنهُ هداكَ لَوَجَدَكَ[10] ضالاًّ، ولم يَهْدِكَ، ففيهِ أنهُ هداهُ، ولم يَجِدْهُ ضالاًّ.

والثاني: يقولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا ضَلالَ كَسْبٍ واختيارٍ، ولكنْ ضَلالَ الخِلْقَةِ التي أُنْشِئَ عليها الخَلْقُ، والضَّلالُ بِمَعْنى الجَهْلِ، لأنَّ الخَلْقَ في ابْتِداءِ أحوالِهِمْ يكونونَ جُهّالاً لا جَهْلَ كَسْبٍ يُذَمّونَ عليهِ، أو يكونُ لهمْ عِلْمٌ يُحْمَدونَ عليهِ، ولكنْ جهلُ خِلْقَةٍ [وضَلالُ خِلْقَةٍ][11] لِما ليسَ معهمْ آلةُ دَرْكِ العِلْمِ، فلا صُنْعَ لهُ في كَسْبِ الجَهْلِ.

فأمّا بَعْدَ الظَّفَرِ بآلةِ العلمِ يكونُ الجَهْلُ مُكتسَباً، فَيُذَمُّ عليهِ، وكذا العِلْمُ، فَيَتَرَتَّبُ عليهِ الحَمْدُ والذَّمُّ.

فَعَلى ذلكَ يكونُ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي وَجَدَكَ جاهلاً على ما يكون في أصلِ الخِلْقَةِ وحالةِ الصِّغَرِ،

---

(١) في الأصل وم: أو أن يكون. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) أدرج قبلها في الأصل وم: ثم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) في الأصل وم: أعدائك. (٧) أدرج بعدها في الأصل وم: دفع المكروه. (٨) في الأصل وم: وإلا وجدك. (٩) في الأصل: على، في م: على ما. (١٠) في الأصل وم: وإلا وجدك. (١١) من م، ساقطة من الأصل.

فَهَداكَ إلى علمِكَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ يَذْكُرُ أنهُ لم يكُنْ /٦٤٦ ـ أ/ يَدْري شيئاً حتى أدراهُ، وعَلَّمَهُ.

والثالثُ: يقولُ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ أي غافلاً عنِ [الأنبياءِ المُتقدِّمينَ][1] وأخبارِهِمْ حتى أطْلَعَكَ اللهُ تعالى على ذلكَ كقولِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

[والرابعُ][2]: يقولُ: وَوَجَدَكَ في أمرِ القرآنِ وما فيهِ جاهلاً غافلاً عنْ علمِهِ[3]، فأعْلَمَكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: وَوَجَدَكَ بينَ قومٍ ضُلّالٍ، فَهَداكَ، أي أخرجَكَ منْ بَيْنِهِمْ، ما لو لم يُخرِجْكَ مِنْ بينِ أظهُرِهِمْ لَدَعوكَ إلى ما همْ عليهِ، وأجْبَروكَ على ذلكَ، ولم يَرْضَوا منكَ إلّا ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عنْ طريقِ مكةَ، فهداكَ للتَّوحيدِ.

ولكنَّ هذا وَحْشٌ منَ القولِ؛ إذْ لا يليقُ بهِ أنْ يُنْسَبَ إلى ذلكَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ فَهَداكَ لِلنُّبوَّةِ. فهو قريبٌ ممّا ذَكَرْنا.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي فقيراً فأغناكَ بما أراكَ مِنْ أمرِ الآخِرَةِ وما يَسوقُ إليكَ مِنْ نعيمِها، أي بما أعَدَّ لهُ في الآخِرَةِ وما وَعَدَ لهُ مِنَ النَّعيمِ والكراماتِ، فهانَتْ عليهِ الدنيا حتى ذُكِرَ أنَّ الدنيا لم تكنْ تَعْدِلُ عندَهُ ﷺ جَناحَ بعوضةٍ. وكذلكَ رُوِيَ أنَّ «الغِنَى غِنَى القلبِ» [السهمي في تاريخ جرجان ص١٤٠].

ويَحْتَمِلُ أنهُ جَعَلَ لهُ[4] مالاً؛ بلطفِهِ أغناهُ كما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ «أنهُ نَهى عنِ الوِصالِ، فقيلَ: أنتَ تُواصِلُ يا رسولَ اللهِ، فقالَ ﷺ: أنا لَسْتُ كأحدِكُمْ إنَّ ربي يُطْعِمُني، ويَسْقيني» [البخاري ١٩٦٥].

فجائزٌ أنْ يكونَ للهِ ﷻ لُطْفٌ أغناهُ بهِ، وإنْ لم يُطْلِعْنا عليهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقالَ بعضُهُمْ: أغناكَ بمالِ خديجةَ ﵂ وقالَ بعضُهُمْ ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي فأرضاكَ بما أعطاكَ مِنَ الرزقِ، وأقْنَعَكَ.

الآية ٩ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وفي حرفِ ابْنِ مسعودٍ ﵁ فأمّا اليتيمَ فلا تَكْهَرْ[5]، فالكَهْرُ الزَّجْرُ، كأنهُ قالَ: فلا تَزْجُرْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي لا تَمْنَعْ حقَّهُ، وادْفَعْ إليهِ حقَّهُ ومالَهُ، أو يكونَ ذَكَرَ هذا لِيَقولَ: كنتَ يتيماً، ورأيتَ حالَ اليتيمِ فيكونَ على الصِّلَةِ لقولِهِ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ اليتيمَ بعدَ ذلكَ.

الآية ١٠ [وقولُهُ تعالى][6]: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي كنتَ مُحتاجاً فقيراً، فَعَرَفْتَ مَحَلَّ الفقرِ والحاجةِ وشِدَّةَ حالِهِ ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ السائلَ، أي لا تَزْجُرْهُ، ولكنْ أعطِهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الأمرُ [لا][7] على النَّهْيِ، ولكنْ على الأمرِ بالبِرِّ لهؤلاءِ والإعطاءِ لهمْ.

وجائزٌ أنْ يُرادَ في نَفْيِ شيءٍ إثباتُ ضِدِّهِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]

أي خَسِرَتْ، وعلى هذا الحديثُ؛ وهو ما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا أتاكُمُ السائلُ فلا تقطعوا عليهِ مسألَتَهُ حتى يَفْرُغَ منها، ثم رُدُّوا عليهِ بِرِفقٍ ولِينٍ إمّا بِبَذْلٍ يَسيرٍ أو بِرَدٍّ جميلٍ، فإنهُ قد يأتيكُمْ مَنْ ليسَ بإنْسٍ ولا جِنٍّ يَرى كيفَ صَنعُكُمْ في ما خَوَّلَكُمُ اللهُ تعالى».

وقالَ قومٌ: [في][8] تزويجِ اليتيمِ قَهْرُهُ، لما فيهِ مِنَ الإسْتِذْلالِ والإضرارِ، فلم يُزَوِّجوا مِنْ غَيرِ الأبِ والجَدِّ، وأجازوا بيعَ مالِهُ مِنْ وصيِّهِ، إنْ كانَ وَصّى الأبُ أوِ الجَدُّ وَصّى أنهُ في تَرِكَتِهِ[9].

(١) في الأصل وم: الأنباء المتقدمة. (٢) في الأصل وم: أو. (٣) في الأصل وم: علم. (٤) في الأصل وم: فيه. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/١٨٣. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: تركتها.

فَدَلَّ أنَّ تَزويجَ اليتيمِ ليسَ مِنْ قَهْرِهِ في شيءٍ.

وقد رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ زَوَّجَ بنتَ حمزةَ سَلَمَةَ بْنَ أبي سَلَمَةَ، وهو صغيرٌ ويَتيمٌ، وزوَّجَ ابْنَ عُمَرَ بنتَ أخيهِ، وهي صغيرةٌ، وزَوَّجَ عُرْوَةُ ابْنَتَهُ مِنْ مُصْعبٍ، [وهو صغيرٌ][1]، فَقَهْرُ اليتيمِ في ظُلمِهِ والاِعْتِداءِ عليهِ، وليسَ في التَّزويجِ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهُما: يقولُ: حَدِّثْهُمْ بِنِعَمِ اللهِ تعالى التي أنْعَمَ اللهُ عليكَ، وهو هذا القرآنُ؛ إذِ القرآنُ مِنْ أعظمِ ما أنْعَمَ اللهُ عليهِ، فأمَرَهُ بالتَّحدُّثِ بما عليهِ مِنَ النِّعَمِ لِيَعْرِفوا عظيمَ ما أنعمَ اللهُ عليهِ مِنَ الاِخْتِصاصِ لهمْ حينَ جَعَلَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِ ومِنْ قومِهِ، أو أمَرَهُ أنْ يَقْرَأَهُ، ويُحَدِّثَ بما فيهِ.

وقد رُوِيَ عنِ أبي رجاءِ العطاءِ أنهُ قالَ. خَرَجَ عِمْرانُ بْنُ حُصَينٍ، وعليه مُطْرَفُ خزٍّ لم يُرَ عليهِ قَبْلُ ولا بَعْدُ، فقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ تعالى إذا أنْعَمَ على عَبدٍ نعمةً يُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نعمتِهِ عليهِ، ويَبْغُضُ البؤسَ و التَّبؤُّسَ» [أحمد ٣/ ٤٧٤].

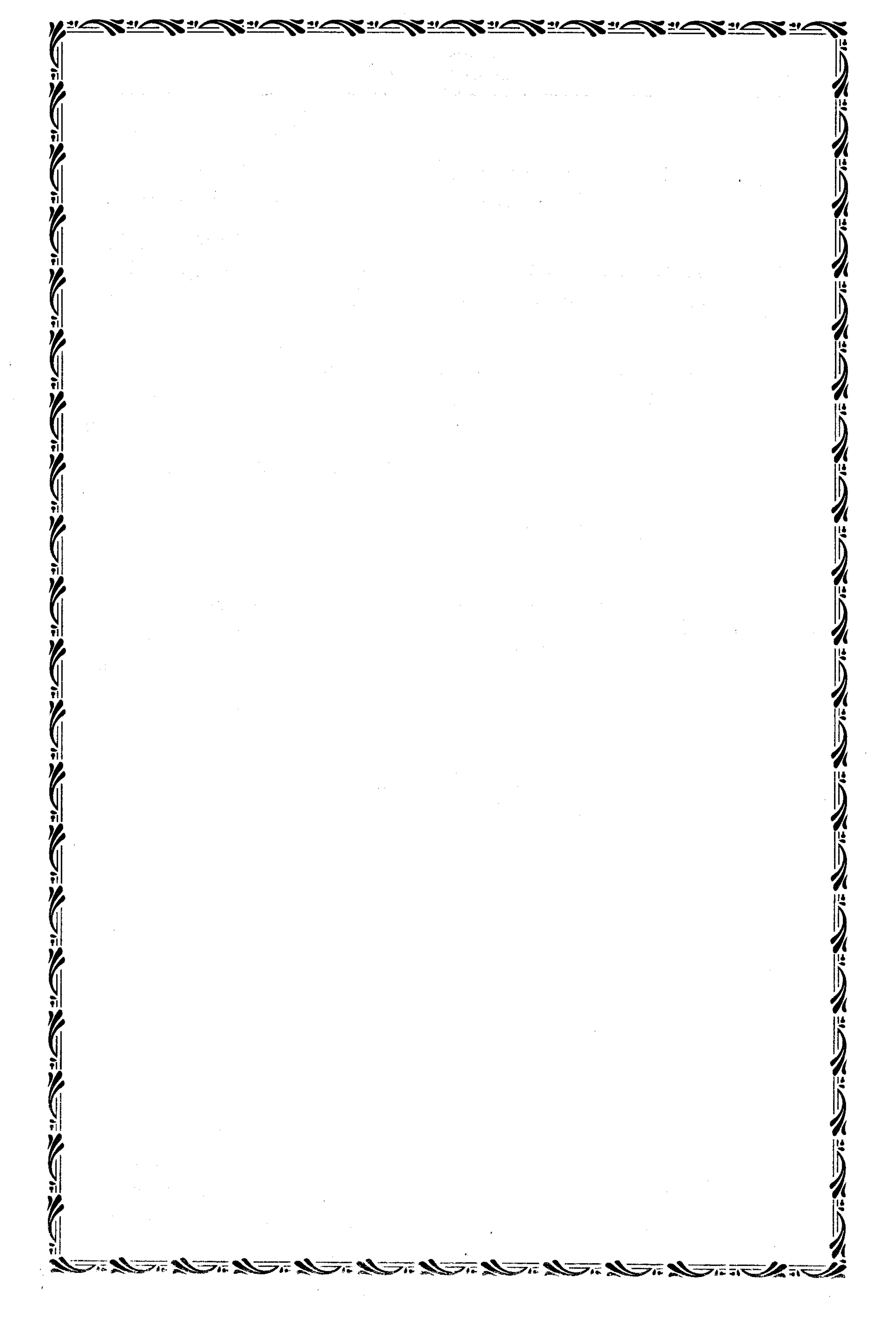
وعنْ أبي الأحوصِ عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أعطاهُ اللهُ تعالى خيراً فَلْيُرَ عليهِ، وابْدَأْ بِمَنْ تَعولُ، وارْضخْ مِنَ الفَضْلِ، ولا تُلامُ على كَفافٍ، ولا تَعْجَزْ عنْ نفسِكَ» [بمعناه: البيهقي في الكبرى ٤/ ١٩٨].

وعنْ يَحْيَى عنِ عبدِ اللهِ عنْ أبيهِ عنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ عنِ النَّبيِّ ﷺ [أنهُ قالَ:][3] «إذا بَسَطَ اللهُ تعالى على عبدٍ نعمةً فَلْتُرَ عليهِ» يعني بهِ الصدقةَ والمعروفَ.

[وقولُهُ عنِ][4] ابْنِ مسعودٍ ﷺ: «وابْدأْ بِمَنْ تعولُ» [البخاري ١٤٢٦]. دليلٌ عليهِ.

قالَ أهلُ الأدبِ: عالَ، أي كَثُرَ عِيالُهُ، ويقالُ: أسْجَيْتُهُ، أسْكَنْتُهُ، وقالوا[5]: الاِنْتِهارُ الكلامُ الخَشِنُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ على محمدٍ وآلِهِ][6].

(١) في الأصل وم: وهي صغيرة. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقول. (٥) في الأصل وم: وقال. (٦) في م: وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.



[سـورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾

وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الخِطابُ[2] في هذهِ السورةِ مِنَ اللهِ تعالى لِرسولِهِ[3] ﷺ خاطبَهُ [بهِ حينَ قال][4]: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى ما ذَكَرَ.

والمُخاطبةُ في سورةِ الضُّحى إذا كانتْ منْ غيرِ اللهِ تعالى إيَّاهُ؛ كانَ جبرائيلُ ﷺ خاطبَهُ في ذِكْرِ مِنَنِ اللهِ تعالى إيّاهُ وذِكْرِ نِعَمِهِ، إلّا أنهُ قال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الآية: ٣] ولم يَقُلْ: وَدَّعْناكَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ في سورةِ الضُّحى مِنَ اللهِ تعالى على المُغايَبَةِ؛ يُقالُ: إنَّ أميرَ المؤمنينَ يقولُ: كذا، أرادَ نفسَهُ.

ثم اختُلِفَ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: شَرَحَ صَدْرَهُ للإسلامِ كقولِهِ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] أخبرَ أنَّ مَنْ شَرحَ صَدْرَهُ للإسلامِ، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ /٦٤٦ - ب/ والشَّرْحُ: قيلَ: هو التَّليينُ والتَّوسيعُ و الفَتْحُ، أي ألَمْ نُوَسِّعْ لكَ صَدْرَكَ، ونَفْتَحْ، ونُلَيِّنْ للإسلامِ.

وقد رُوِيَ في الخبرِ أنهُ لمّا نَزَلَ هذا قيلَ: يارسولَ اللهِ، وهل لذلكَ مِنْ علامةٍ؟ فقالَ: «بَلَى التَّجافي مِنْ دارِ الغُرورِ والإنابةُ إلى دارِ الخلودِ والاستِعدادُ للموتِ. قَبْلَ نُزولِهِ» [الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١١] ولكنْ يُعْرَفُ ذلكَ مِنْ رسولِ اللهِ بطريقِ الحقيقةِ، ويَظْهَرُ ذلكَ منهُ باليَقينِ. فأمّا مِنْ غَيرِهِ فإنما يُعْرَفُ بالتّجافي مِنْ دارِ الغُرورِ والإنابةِ إلى دارِ الخلودِ بالتقارُبِ. وغالبُ الظَّنِّ أنَّ[5] رسولَ اللهِ ﷺ كانتْ لهُ الآخِرةُ وأمورُها كالمُشاهدةِ والمُعاينةِ. وكذلكَ جميعُ الأنبياءِ والرسُلِ. فأمّا لِغَيرِهِمْ فلا يَبْلُغُ ذلك، وهو ما ذَكَرْنا أنَّ رُؤيا الأنبياءِ كالعِيانِ، أي تُعْرَفُ بطريقِ اليقينِ بِخِلافِ رُؤيا غَيرِهِمْ.

وقالَ بعضُهُمْ: شَرَحَ صَدْرَهُ لأنهُ لمّا كُلِّفَ بتبليغِ الرسالةِ إلى الجِنِّ والإنسِ وإلى الفراعنةِ والجبابرةِ الذينَ هِمَّتُهُمْ إهلاكُ مَنْ يُخالِفُهُمْ والانقِلاعُ عنْ عبادةِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ، ضاقَ صَدْرُهُ لذلكَ، وثَقُلَ على قلبِهِ، فَوَسَّعَ اللهُ صَدْرَهُ، وشَرَحَهُ حتى هانَ ذلكَ عليهِ، وخَفَّ، وهو قولُ أبي بكرٍ الأصَمِّ. إلا أنهُ يقولُ فَعَلَ ذلكَ بهِ، وحَقَّقَهُ[6] بالآياتِ والحُجَجِ.

ونحنُ نقولُ باللُّطفِ منهُ حتى قامَ بوفاءِ ما كُلِّفَ، وأُمِرَ. أمّا هو فلا يقولُ باللُّطفِ والاختِصاصِ للبعضِ دونَ البعضِ لِقولِهِ بالأصْلَحِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ شَرحِ صَدْرِهِ وتوسيعِهِ، هو ما ذَكَرَ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وخُلُقُهُ كانَ يُجاوِزُ وُسْعَهُ وطاقَتَهُ حتى كادَتْ نفسُهُ تَهْلِكُ لِمكانِ كُفْرِ أولئكَ، وما يَعْلَمُ أنهُ يَنْزِلُ بهمْ، إشفاقاً ورَحْمةً كقولِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] وغيرُ ذلكَ مِنْ أمثالِ هذا، وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، ماوَصَفَ مِنْ خُلُقِهِ أنهُ عظيمٌ، فَوَسَّعَ صَدْرَهُ، وشَرَحَهُ، حتى يَخِفَّ ذلكَ عليهِ حينَ[7] قالَ لهُ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨] وقالَ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠].

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: المخاطب. (٣) في الأصل وم: رسوله. (٤) في الأصل وم: إياه حيث، في م: إياه حيث قال. (٥) في الأصل وم: لأن. (٦) في الأصل وم: وحقق. (٧) في الأصل وم: حيث.

وقالَ الحَسَنُ: في قولِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بَلَى قد شَرَحَ لهُ صَدْرَهُ، ومَلأَهُ عِلماً وحِكْمةً، ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى ما ذَكَرَ إنْ كانَ المُخاطَبُ بِهِ رسولَ اللهِ، وهو المُرادُ بِهِ.

فتأويلُ السورةِ يُخَرَّجُ على ما ذَكَرَ مِنْ تَيسيرِ[1] الأمرِ عليهِ وتَخْفيفِ ما حَمَّلَهُ عليهِ، وأَمَرَ بِهِ.

الآيتان ٢ و٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ على ابْتِداءِ وَضْعِ الوِزْرِ والإثمِ على ما نَذْكُرُ، وإنْ كانَ المُخاطَبُ بِهِ غَيرَهُ، وهمْ أُمَّتُهُ، وإنْ كانَ الخِطابُ أُضيفَ إليهِ فالأمرُ فيهِ سهلٌ.

وإنْ كانَ الخِطابُ على الإشْتِراكِ فَيُحتاجُ إلى التأويلِ أيضاً.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: ما][2] قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ على تحقيقِ الوِزْرِ لهُ والإثمِ كقولِهِ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] يقولونَ: أثْبَتَ لهُ الذنبَ والوِزْرَ، فَوَضَعَ ذلكَ عنهُ.

ولكنَّ هذا وحْشٌ مِنَ القولِ. لكنّا نقولُ: إنَّ قولَهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الوِزْرُ، هو الحِمْلُ والثِّقَلُ، كأنهُ يقولُ: قد خَفَّفْنا عليكَ مِنْ أمرِ النُّبُوَّةِ والرسالةِ والأحمالِ التي حَمَّلْنا[3] عليكَ، كأنهُ يقول: قد خَفَّفْنا[4] ذلكَ عليكَ مالو لم يكنْ تَخفيفُنا إياهُ عليكَ لأنقضَ ظَهرَكَ، أي أثْقَلَ.

والثاني: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ابْتِداءَ وضعِ الوِزْرِ أي عَصَمَكَ، وحَفِظَكَ مالو لم تكنْ عصمتُهُ إيّاكَ[5] لكانَتْ لكَ أوزاراً وآثاماً كقولِهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي لو لم يَهْدِكَ لوجَدَكَ ضالاً، لأنهُ كانَ بَينَ قومِ ضُلّالٍ، ولكنْ هداهُ، فلم يَجِدْهُ [ضالاً، فَعَلَى][6] ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ وضعِ وِزْرِ ابْتِداءً، وهو كقولِهِ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] أي عَصَمَهُمْ عنْ أنْ يَدْخُلوا فيها، لا أنْ كانوا فيها، ثم أخرَجَهُمْ، ولكنْ [هو][7] ابْتِداءُ إخراجٍ. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ وَضعِ وِزْرِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثْقَلَ ظَهرَكَ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ جائزٌ أنْ يكونَ رَفَعَ ذِكْرَهُ لمّا ألزمَ الخَلْقَ الإيمانَ بِهِ حتى لا يُقْبَلَ مِنْ أحدٍ الإيمانُ باللهِ والتَّوحيدُ لهُ والطاعةُ والعبادةُ إلّا بالإيمانِ بِهِ والطاعةِ لهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقالَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥].

وجائزٌ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ مِنْ رَفعِ ذِكْرِهِ، هو أنهُ يُذْكَرُ حينَ[8] ذِكْرِ اللهِ، قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ في الأذانِ والإقامةِ وفي الصلاةِ في التَّشهُّدِ وفي غَيرِهِ مِنَ الخُطَبِ، واللهُ أعلَمُ. والأوَّلُ عندنا أرفَعُ وأعظَمُ مِنَ الثاني.

وجائزٌ أنْ يكونَ رَفْعُ ذِكْرِهِ ماأضافَ اسْمَهُ إلى اسْمِهِ بما قالَ: رسولُ اللهِ، ونَبِيُّ اللهِ، ولم يُسَمِّهِ باسْمِهِ على غيرِ إضافةٍ إلى الرسالةِ والنُّبُوَّةِ، فقالَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١] ونَحْوَ ذلكَ، وهو المَخصوصُ بهذا دونَ غَيرِهِ مِنْ إخوانِهِ، لأنهُ قَلَّما أضافَ اسْمَهُمْ إلى اسْمِهِ، وقَلَّما قَرَنَ أسماءَهُمْ باسْمِهِ، بل ذَكَرَهُمْ بأسمائِهِمْ كقولِهِ: [﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣] إلى قولِهِ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ][9] وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ [الأنعام: ٨٦] ونَحْوَ ذلكَ، أو [أن يكونَ][10] رَفْعُ ذِكْرِهِ بما عظَّمَهُ، وشَرَّفَهُ عندَ الخَلْقِ كلِّهِ حتى إنَّ مَنِ اسْتَخَفَّ بِهِ خَسِرَ الدنيا والآخِرَةَ.

---

(١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: تبيين. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: حمل. (٤) في الأصل وم: خفف. (٥) في الأصل وم: إياه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) ساقطة من الأصل. (٨) في الأصل وم: حيث. (٩) في الأصل وم: واذكر اسماعيل واليسع وقوله. (١٠) ساقطة من الأصل وم.

الآيتان ٥ و٦ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ رُوِيَ في الخبرِ أنهُ قالَ ﷺ: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ» [الحاكم في المستدرك: ٢/٥٢٨].

قالَ بعضُهُمْ: إنما كانَ عُسْراً واحداً، وإنْ ذَكَرَهُ مرَّتَيْنِ، لأنَّ العُسْرَ الثانيَ ذَكَرَهُ بحرفِ التعريفِ فهو والأوَّلُ واحدٌ، واليُسْرُ ذَكَرَهُ بحرفِ النكرةِ، فهو غيرُ الأوَّلِ.

وقالَ أبو مُعاذٍ: كُلَّما كُرِّرَتِ المعرفةُ كانَتْ واحدةً[1]، والنكرةُ على العَدَدِ؛ يُقالُ في الكلامِ: إنَّ مَعَ الأميرِ غُلاماً، إنَّ مَعَ الأميرِ غُلاماً، فالأميرُ واحدٌ، ومعهُ غُلامانِ، وإذا قيلَ: إنَّ مَعَ الأميرِ الغُلامَ، إنَّ معَ الأميرِ غلاماً، فالأميرُ واحدٌ، ومعهُ غُلامانِ، وإذا قيلَ: إنَّ معَ الأميرِ الغُلامَ، إنَّ معَ الأميرِ الغُلامَ، فالأميرُ واحدٌ، والغلامُ واحدٌ، وإذا قيلَ: إنَّ مع أميرٍ غُلاماً، إنَّ معَ أميرٍ غلاماً، فهما أميرانِ وغلامانِ. فَعَلَى ذلكَ ما ذُكِرَ ههنا.

ثم قولُهُ [ﷺ][2] «يُسْرَيْنِ» هما[3] يُسْرُ الإسلامِ والهُدَى، ويجوزُ أنْ يُطْلَقَ اسْمُ اليُسْرِ على الإسلامِ والدينِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧] ويُسْرٌ آخَرُ ما وَعَدَ لهمْ منَ السَّعَةِ في الدنيا.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ «يُسْرَيْنِ» أحَدُهما: رجاءُ اليُسْرِ، والآخرُ وُجودُهُ، فهما يُسْرانِ: الرجاءُ والوُجودُ. ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ يُسْراً في الدنيا ويُسْراً في الآخرةِ، أو أنْ يكونَ توسيعاً[4] عليهمُ الدنيا ويُسْراً[5] ما يَفْتَحُ لهمُ الفتوحَ في الدنيا، ويسوقُ إليهِمُ المغانمَ والسَّبايا، واللهُ أعلَمُ.

ثم قالوا في قولِهِ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ / ٦٤٧ ـ أ/ أي بعدَ العُسْرِ يُسْراً.

وأصلُهُ: أنَّ حرفَ: مع إذا أُضيفَ إلى الأوقاتِ والأحوالِ يقعُ على اخْتِلافِ الأوقاتِ في المكانِ الواحدِ، وإذا أُضيفَ إلى المكانِ يقعُ على اخْتِلافِ المكانِ في وقتٍ واحدٍ. وههنا أُضيفَ إلى الوقتِ، فهو على اخْتِلافِ الأوقاتِ واحدٌ بعدَ واحدٍ. فإذا قيلَ: فلانٌ مع فلانٍ في مكانٍ فالوقتُ واحدٌ، والمكانُ مُخْتَلِفٌ مُتَفَرِّقٌ.

الآيتان ٧ و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ قالَ بعضُهُمْ: إذا فَرَغْتَ مِنْ دُنياكَ فانْصَبْ لِآخرتِكَ، وهو مِنَ النَّصَبِ أيِ التَّعَبِ.

وقالَ الحسنُ: أمَرَهُ إذا فَرَغَ مِنْ غَزْوَةٍ أنْ يَجْتَهِدَ في العبادةِ لهُ. لكنَّ هذا بعيدٌ لأنهُ نَزَلَ ذلكَ بمكةَ، ولم يكنْ أُمِرَ بالغَزْوِ والجهادِ بمكةَ إلّا أنْ يكونَ أُمِرَ بالجهادِ بمكةَ في أوقاتٍ، تأتيهِ في المستقبلِ، فيكونُ الحكمُ لازماً عليهِ في تلكَ الأوقاتِ لا في حالِ وُرودِ الأمرِ.

وقالَ بعضُهُمْ: فإذا فَرَغْتَ مِنَ الصلاةِ فانصَبْ في الدعاءِ.

وقالَ قتادةُ: [أمَرَهُ][6] إذا فَرَغَ منَ الصلاةِ أن يُبالغَ في دعائِهِ وسُؤالِهِ إياهُ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ [أنهُ][7] قالَ: فإذا فرغْتَ منَ الفرائضِ فانْصَبْ في قيامِ الليلِ.

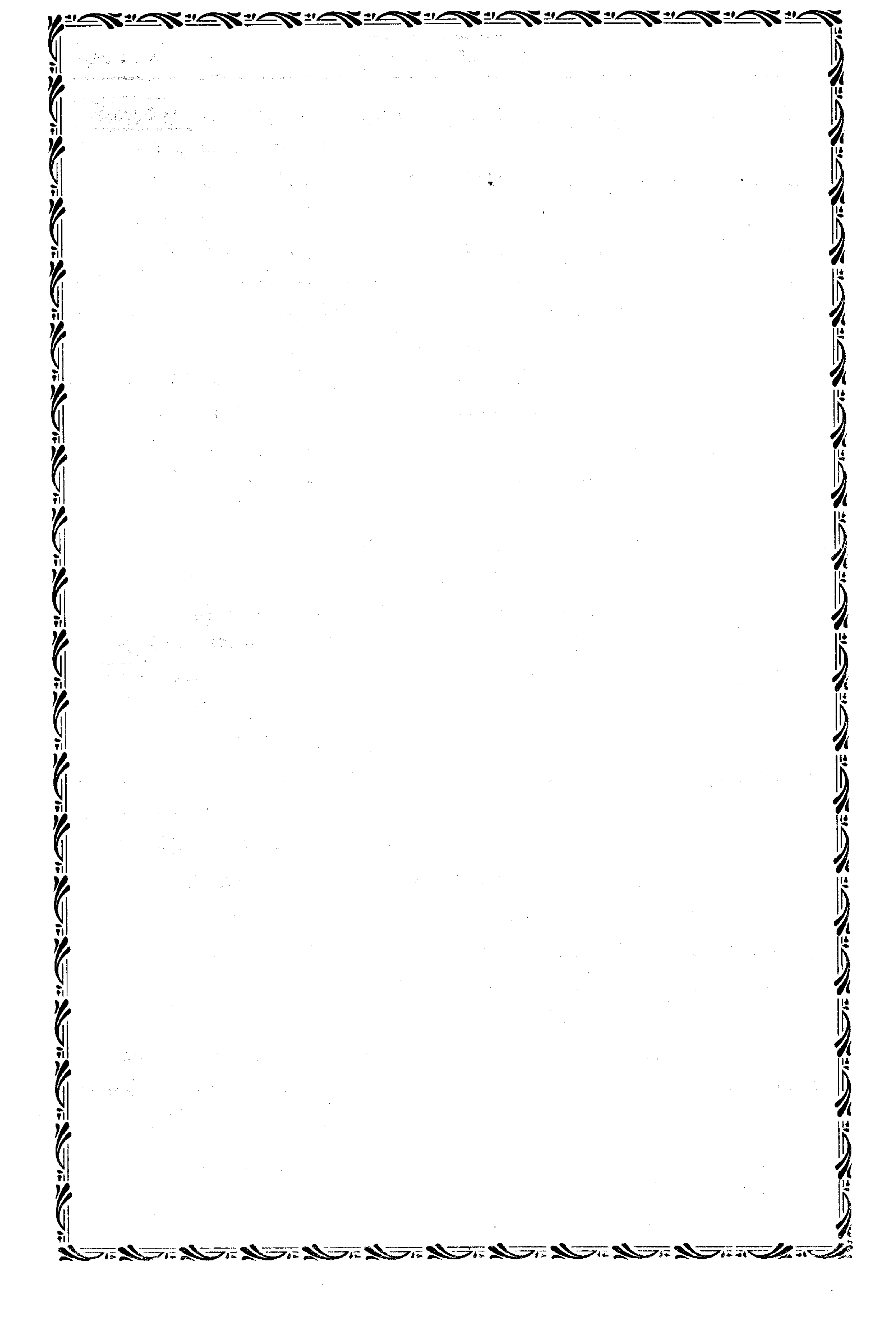
ويَحْتَمِلُ عندَنا إذا فرغْتَ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ إليهِمْ فانْصَبْ لعبادةِ ربِّكَ والأمورِ التي بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ على ما ذَكَرْنا في أحدِ التأويلَيْنِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] في أمرِ الرسالةِ والتَّبليغِ [أي اذْكُرِ][8] اسْمَ ربِّكَ في ما بَيْنَكَ وبَيْنَ ربِّكَ.

ويَجِبُ ألّا نَتَكَلَّفَ تفسيرَ ما ذَكَرَ في هذهِ السورةِ مِنْ أوَّلِها إلى آخِرِها، لأنهُ أمرٌ بَيْنَه وبَيْنَ ربِّهِ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَعْلَمُ ما أرادَ [بِهِ في ما خاطبَهُ][9] مِنَ الجميعِ وأنهُ في ما كانَ. وقد كانَ خصوصاً لهُ، وليسَ شيءٌ مِمّا يجبُ علينا العملُ بِهِ حينَ يُلْزِمُنا التَّكَلُّفَ لِاسْتِخْراجِ ذلكَ سِوى الشهادةِ على اللهِ، فكانَ الإمساكُ عنهُ أولَى، وتَرْكُ التَّكَلُّفِ فيهِ والاشْتِغالِ بِهِ أرفَقَ وأسلَمَ. واللهُ الموفقُ.

---

(١) في الأصل وم: واحداً. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: هو. (٤) في الأصل وم: توسيع توسيع. (٥) في الأصل وم: ويسريان. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: واذكر. (٩) من م، في الأصل: في ما خاطب.



سورة التين

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات ١ و٢ و٣ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ [﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾][2] قالَ [المُفَسِّرونَ][3]: هذهِ السورةُ كلُّها نَزَلَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ، أمّا[4] سورةُ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [وسورةُ][5] ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ فإنهما جاءَتا في تذكيرِ مِنَنِ اللهِ لرسولِهِ:

إحداهُما: خاطبَهُ جبرائيلُ في تذكيرِ ما مَنَّ اللهُ عليهِ، والأُخرى خاطبَهُ ربُّهُ بذلكَ، وأمّا غيرُهما مِنَ السورِ فإنما جاءَتْ في مُحاجَّةِ أهلِ مكةَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ قَسَمٌ أقسَمَ تأكيداً للحُجَجِ التي أقامَها ما لو لا القسمُ لكانَ ما ذَكَرَ يوجِبُ ذلكَ، لكنَّ في القسمِ تأكيدَ ما ذَكَرَ مِنَ الحجةِ.

ثم اختلَفَ أهلُ التأويلِ في قولِهِ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو التِّينُ الذي يأكلُ الناسُ والزيتونُ الذي يَسْتَخرِجونَ منهُ الزيتَ. كذا رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ التِّينِ والزَّيتونِ، فقالَ: تِينُكُمْ وزَيتونُكُمْ هذا.

وقالَ بعضُهُمْ: هما جبلانِ بالشامِ. وقالَ بعضُهُمْ: هما مَسْجِدانِ في الشامِ أحَدُهما: مَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ، وقيلَ: التينُ مسجدُ أصحابِ الكهفِ، [والثاني][6]: الزَّيتونُ مَسْجِدُ نَبِيِّنا.

وعنْ قتادةَ أنهُ[7] قالَ: التِّينُ الجبلُ الذي عليهِ دمشقُ، والزَّيتونُ الجبلُ الذي عليهِ مَسْجِدُ بيتِ المَقْدِسِ.

وقالَ القُتَبِيُّ: التِّينُ والزَّيتونُ جبلانِ بالشامِ يقالُ لهما: طورُ تينا وطورُ زيتا بالسُّرْيانيةِ سُمِّيا بالتِّينِ والزَّيتونِ لأنهما يَنْبُتانِ فيهما.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: هو جبلٌ بِسِينِينَ، والسِّينينُ اسْمُ مَوضعٍ، والطُّورُ الجبلُ، وكذا قالَ أبو عوسَجَةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: جبلٌ حَسَنٌ، والسِّينينُ، هو الحُسْنُ بالحَبَشِيَّةِ. وقالَ بعضُهُمْ: كلُّ جبلٍ مُشَجَّرٍ، لهُ الثمرُ، فهو سِينينُ. وقالَ بعضُهُمْ: هو الجبلُ الذي أُوحِيَ عليهِ إلى موسى ﷺ وهو طورُ سيناءَ، وقيلَ: هو الجبلُ المُبارَكُ.

ثم تُخَرَّجُ جهةُ القسمِ بالجبلِ وبما ذَكَرَ على وجوهٍ:

أحدُها: بما عَظَّمَ شأنَ الجبالِ في قلوبِ الخَلْقِ حينَ أوصلَ إليهِمْ أخبارَ السماءِ مِنْ جهةِ تلكَ الجبالِ وجَميعَ ما يَرجِعُ إلى مَنافِعِ أنفسِهِمْ ودينِهِمْ على ما ذَكَرَ أنهُ أوحَى إلى موسى ﷺ على جبلِ طورِ سيناءَ، وأوحَى إلى عيسى ﷺ على جبلِ ساعورا، وأوحَى إلى محمدٍ ﷺ على جبلِ فارانَ على ما ذُكِرَ في الخبرِ أنَّ موسى ﷺ قالَ: أتاني ربي مِنْ جبلِ طورِ سيناءَ، وسيأتي وَحْيُ عيسى ﷺ مِنْ جبلِ ساعورا، ويأتي الوَحْيُ إلى محمدٍ ﷺ مِنْ فارانَ.

والثاني: أقسمَ بالجبالِ لِما أرساها في الأرضِ، وجَعَلَها أوتاداً لها لئلّا تَميدَ بأهلِها، ولا تميلَ على ما ذَكَرَ [في غيرِ آيةٍ][8] مِنَ القرآنِ عظيمَ شأنِ الجبالِ مِنْ هذهِ الجهةِ في قلوبِ الخَلْقِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: سوى. (٥) من م، في الأصل: أن. (٦) في الأصل وم: والزيتون. (٧) من م، في الأصل أن. (٨) في الأصل: من غير آي، في م: في غير آي.

والثالثُ: لِما أخرَجَ منها مع شِدَّتها وصَلابتِها وغِلَظِها وارْتِفاعِها المِياهَ الجاريةَ الصافيةَ الباردةَ، وهي مِنْ أَلْيَنِ الأشياءِ، وأَخرَجَ منها الأشجارَ المُثْمِرَةَ الكثيرةَ وغَيرَ المُثْمِرةِ مِنْ غَيرِ إنباتِ أحدٍ ولا غَرْسِهِ[1] وغيرَ ذلكَ مِنَ المنافعِ التي جَعَلَ في الجبالِ ممّا لا يُمْكِنُ للخَلْقِ اسْتِخراجُ ذلكَ بِحِيَلِهِمْ وَتَكَلُّفِهِمْ.

فأقسَمَ بها لِعَظيمِ ما جَعَلَ في الجبالِ مِنَ المَنافعِ والبَرَكاتِ.

[والرابعُ][2]: كذلكَ أنْ كانَ القسمُ بالتِّينِ الذي يُؤكَلُ والزَّيتونِ الذي يُخْرِجُ منهُ الزيتُ لِما جَعَلَ لهمْ في ذلكَ مِنَ المَنافعِ العِظامِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

فَمِنْ هذهِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا يَحْتَمِلُ القَسَمُ بالجبالِ والتِّينِ والزَّيتونِ، أو ذِكْرُ التينِ والزَّيتونِ، والمُرادُ بهما الجبلُ لِما في الجبلِ يكونانِ عندَهمْ على ما ذَكَرْنا، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وهو مكةُ، سَمّاهُ أميناً لِما يَأْمَنُ منْ دَخَلَهُ، أو يُؤْمِّنُ مَنْ دَخَلَهُ، ويَحْفَظُهُ لأنَّ الأمينَ عندَ الناسِ، هو الذي يَحْفَظُ مِنَ المُؤتَمِنِ عليهِ وفيهِ، وهو المأمونُ بهِ.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ القَسَمُ بالبلدِ لأهلِ مكةَ ولأهلِ الشِّرْكِ لِما عَظُمَ شأنُهُ وأمْرُهُ عندَهُمْ وفي قلوبِهِمْ، وأقسَمَ بالجبالِ لِعَظيمِ قَدْرِها وَمَنْزِلَتِها ومحلِّها في قلوبِ أهلِ الكتابِ لِما كانوا يؤمنونَ ببعضِ الوَحْيِ، وأهلُ مكةَ لا يؤمنونَ بالرسُلِ وبالوَحْيِ، ولكنْ يُعَظِّمونَ ذلكَ البَلَدَ. وجائزٌ أنْ يكونَ القسمُ بما ذَكَرَ كلِّهُ لهمْ جميعاً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: على هذا وَقَعَ القسمُ، لكنَّ القَسَمَ بِغَيرِهِ أولَى وأقْرَبُ، لأنهمْ قد شاهَدوا، وعَرَفوا أنهُ خُلِقَ الإنسانُ على أحسَنِ تَقْويمٍ؛ إذْ لم يَتَمَنَّ أحدٌ أنْ يكونَ على غَيرِ هذا التَّقويمِ وعلى غَيرِ هذهِ الصورةِ التي أنْشأها عليهِ.

والأشبَهُ أنْ يكونَ القسمُ واقعاً على قولِهِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [الآية: ٥] لِما فيهِ دفْعُ الإنكارِ والتَّكذيبِ، وهو نارُ جهنَّمَ، فأكَّدَ ذلكَ بالقَسَمِ، كأنهُ قالَ تعالى: مَعَ أنّا خَلَقْنا الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ نَرُدُّهُمْ إلى أسفلِ السافلينَ لِكُفْرِهِمْ وعِنادِهِمْ سِوَى المؤمنينَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُخَرَّجُ على وجوهٍ:

أحدُها: أحْسَنُ صورةٍ يُشاهِدونَ، ويُعاينونَ، لأنَّ الملائكةَ جَعَلَهُمْ أحْسَنَ صورةً وأحْسَنَ تَقْويماً مِنَ البشرِ، ولكنْ يَرجِعُ إلى سائرِ /٦٤٧ ـ ب/ الخلائقِ دونَهُمْ، وذلكَ لأنَّ خَلْقَ البشرِ على صورةٍ، لا يَتَمَنّى أحدٌ منهمْ أنْ يكونَ على غَيرِ صورةِ البشرِ، دَلَّ أنهُ خَلَقَهُمْ على أحْسَنِ صورةٍ.

والثاني: على أحْسَنِ تقويمٍ أي على أحكَمِ تقويمٍ وأتْقَنِهِ لأنهُ جَبَلَهُمْ، وأنْشَأَهُمْ على هيئةٍ، تُهَيِّئُ[3] لهمُ اسْتِعْمالَ الأشياءِ كلِّها في مَنافِعِهِمْ والانْتِفاعَ بها بِحِيَلٍ وأسبابٍ عَلَّمَهُمْ [إياها، وجَعَلَها][4] فيهم، ومكَّنَ لهمْ ذلكَ.

[والثالثُ][5]: يَحْتَمِلُ ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي أحكَمِ وأتقَنِ على الدلالةِ على وَحْدانيَّةِ اللهِ وأُلوهِيَّتِهِ.

[والرابعُ][6]: جَعَلَهُمْ أهلَ تَمْييزٍ ومَعْرفةٍ بحيثُ يكونُ منهُم الخَيراتُ في أنواعِ الطاعاتِ التي يُثابونَ عليها، ويَنالونَ بها الثوابَ الجزيلَ والكرامةَ العظيمةَ ما لا يكونُ لِغَيرِهِمْ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ هو يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وهو جهنَّمُ؛ يَرُدُّ الكافرَ إلى جهنَّمَ، وهي[7] أسفَلُ السافلينَ، والمؤمنَ رَدَدْناهُ إلى الجنةِ، وهيَ[8] ما اسْتَثْنَى بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الآية: ٦] في الجنةِ.

---

(١) في الأصل وم: غرسها. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: يتهيأ. (٤) في الأصل وم: وجعل. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: وهو. (٨) في الأصل وم: وهو.

والثاني: رَدَدْناهُ إلى أسفَلِ ما اختارَ منَ الأعمالِ والأفعالِ، وهو ما اختارَ منْ فِعْلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وردَّ المؤمنَ إلى أعلى ما اختارَ منَ الأعمالِ العاليةِ الرفيعةِ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: ثم رَدَدْناهُ إلى أرْذَلِ العُمُرِ وأسفَلِهِ.

الآية ٦ ثم استَثْنى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لهمْ ذلكَ. وهذا التَّأويلُ إنما يَصِحُّ، إذْ لوِ استَثْنَى المُحْسِنينَ مِنَ المؤمِنينَ منهمْ. فأمّا إذا استَثْنَى أهلَ الإيمانِ منْ أهلِ الكُفْرِ فإنَّهُ لا يَحْتَمِلُ، والأوَّلُ أشبَهُ.

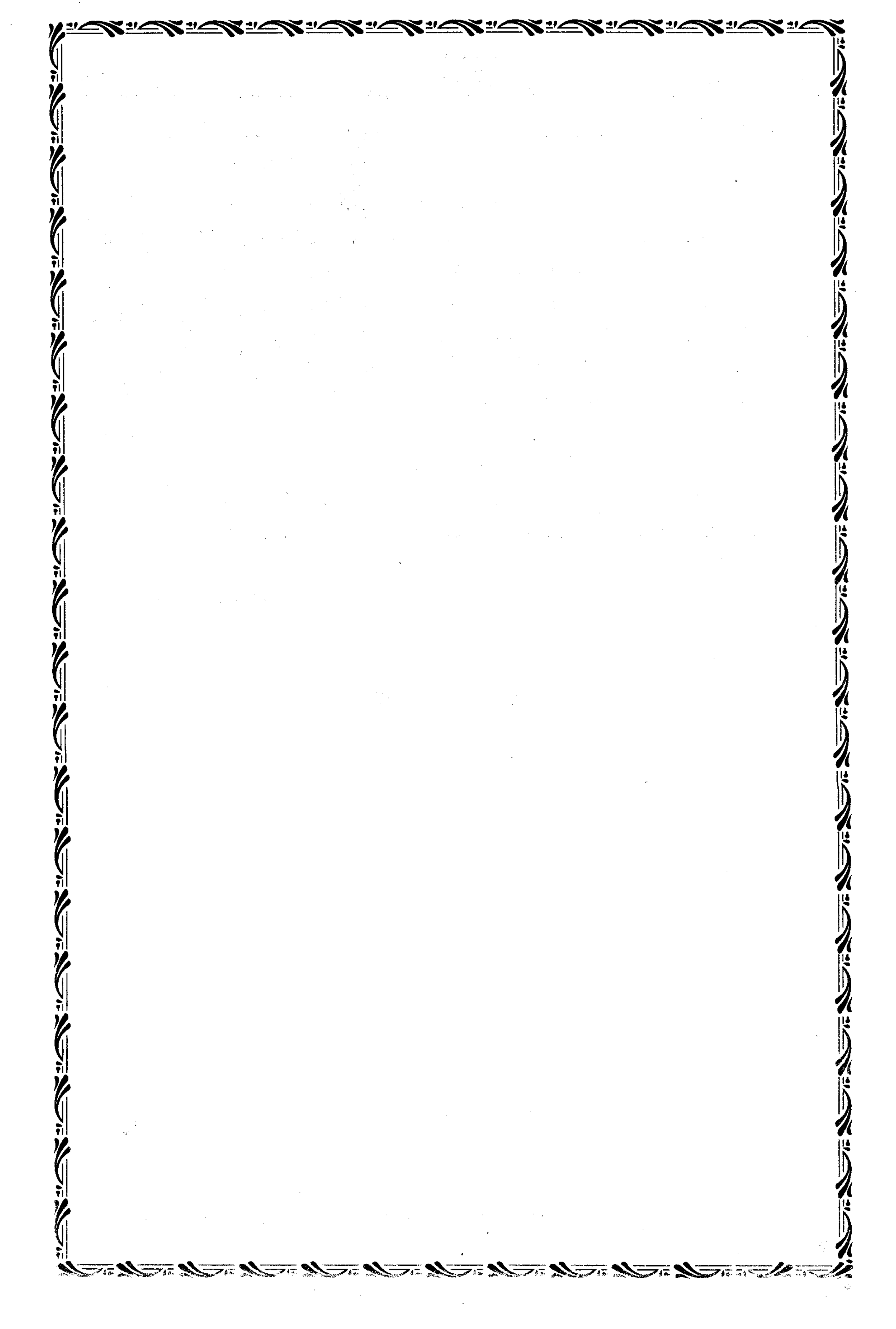
الآيتان ٧و٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾][1] إنْ كانَ الخِطابُ بهِ لكلِّ إنسانٍ كَذَّبَ بالدينِ بقولِهِ، فما[2] الذي دعاكَ إلى تكذيبِكَ بالدينِ، وقد عَرَفْتَ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ لا يَفْعَلُ إلّا [ما][3] هو حكمةٌ. ولو لم يكُنْ يومُ الدينِ كانَ فِعْلُهُ عَبَثاً باطلاً، لأنهُ أنْشَأَكُمْ، ثم ربّاكُمْ إلى أنْ بَلَغْتُمْ. فلو لم يكُنْ بعثٌ لكانَ يَخْرُجُ فِعْلُهُ عَبَثاً باطلاً، أو نقولُ: لَمَا سَوّى بَيْنَ ما اختارَ وِلايَتَهُ وبَيْنَ ما اختارَ الوِلايةَ في هذهِ الدنيا، وفي الحِكْمَةِ التَّفريقُ بينهما، فلا بُدَّ منْ مكانٍ يُفَرِّقُ بَيْنَهما هنالكَ.

وإنْ كانَ الخِطابُ في قولِهِ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ لرسولِ اللهِ تعالى فيقولُ[4]: أيُّ حُجَّةٍ لهُ في تكذيبِكَ بما تُخْبِرُهُ مِنَ الدينِ؟ أي لا حُجَّةَ لهُ في ذلكَ، أو نقولُ: ما الذي دعاهُ إلى تكذيبِهِ بالدينِ بعدَ ما عَرَفَ أني أحْكَمُ الحاكمينَ؟

وقالَ بعضُهُمْ: أحْكَمُ القاضِينَ، أي أعْدَلُهُمْ. وقالَ بعضُهُمْ: أحْكَمُ الحُكماءِ، وإلّا فَناءٌ بلا بَعْثٍ فِعْلُ السُّفهاءِ لا فِعْلُ الحكماءِ، وهو أحْكَمُ الحاكِمينَ، أي أعْدَلُ القاضينَ في التفريقِ بَيْنَ الأولياءِ والأعداءِ، وقدِ اجْتَمَعوا في الدنيا، فلا بدَّ منْ دارٍ يُفَرِّقُ بَيْنَهما فيها، واللهُ الموفِّقُ.



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: يقول.



سورة العلق

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ هذهِ أوَّلُ سورةٍ نَزَلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ وأوَّلُ وَحْيٍ أوحِيَ إليهِ. وقيلَ: غيرُ هذهِ، هي الأوَّلُ.

ثم الإشكالُ أنهُ أُمِرَ بأنْ يَقْرأَ ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وحقُّ هذا ونَحْوِهِ إذا قيلَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ ألَّا يقولَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ مثلَ ما قيلَ لهُ: اقْرَأْ، أوِ افْعَلْ، لأنهُ أمْرٌ في الظاهرِ، وإنما[2] يكونُ عليهِ الإئتِمارُ بذلكَ. وكذلكَ قولُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] وقولُهُ[3]: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقولُهُ[4]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] وقولُهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] وكذلكَ على هذا قولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] وأمثالُ ذلكَ يَجبُ ألَّا يقولَ لهُ مثلَ ما قيلَ لهُ: ﴿قُلْ﴾ أوِ ﴿اقْرَأْ﴾ ولكنْ يقولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ويقولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [ويقولُ:][5] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [ويقولُ:][6] ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هذا هو وَجْهُ الكلامِ.

ومَعْناهُ وجوابُهُ أنهُ يَحْتمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنهُ أُريدَ بهذا أنْ يكونَ قرآناً يُقْرأُ هكذا؛ في حقِّ القراءةِ يُتْلَى، ويُثْبَتُ في المَصاحفِ إلى آخِرِ الدهرِ لِيُعْلَمَ كيفَ قيلَ لرسولِ اللهِ ﷺ وكيفَ أوحِيَ إليهِ.

[والثاني][7]: أنهُ لم يَتْرُكْ ممّا قيلَ لهُ حرفاً واحداً ليكونَ حجّةً لرسالتِهِ وآيةً لِنُبوّتِهِ، واللهُ أعلَمُ.

[والثالثُ][8]: أنْ يكونَ كذلكَ على خِلافِ المَفْهومِ مِنْ كلامِ [الناسِ][9] لئلّا يكونَ المفهومُ مِنْ وَحْيِ السماءِ والمُنَزَّلِ منها كَخِطابِ بعضٍ بعضاً، ولكنْ خلافٌ [فيهِ.

[والرابعُ: أنْ][10] يكونَ الخِطابُ][11] منهُ لكلِّ أحدٍ ومنْ كلِّ أحدٍ لآخَرَ خِطابَ جبريلَ رسولَ اللهِ بهِ وأمْرَهُ أنْ يَقْرأَ، ثم يأمرُ رسولُ اللهِ غيرَهُ بذلكَ، وذلكَ الغيرُ يقولُ لآخرَ كذلكَ، فيكونُ الخطابُ منهُ لكلِّ أحدٍ ومنْ كلِّ أحدٍ لآخَرَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ يَحْتَمِلُ [وجوهاً:

أحدُها:][12] أنْ يُريدَ بهِ أنِ افْتَتِحِ القراءةَ باسْمِ ربِّكَ على ما جَعَلَ افْتِتاحَ كلِّ شيءٍ باسمِ الرَّبِّ لِيَنالَ بركةَ ذلكَ فيهِ.

والثاني: أنْ يكونَ ما ذَكَرَ على إثْرِ اسْمِ ربِّهِ، هو تَفْسيرُ اسْمِ ربِّهِ حينَ[13] قالَ: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [الآية: ٢] فيكونُ هذا تفسيراً لِما ذَكَرَ مِنِ اسْمِ ربِّهِ.

[والثالثُ: أنْ][14] يكونَ قولُهُ: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ كما يُقالُ: أسألُكَ باسْمِكَ الذي إذا دُعيتَ بهِ أجبْتَ، وإذا سُئِلْتَ بهِ أعطيتَ. وذلكَ الاسْمُ مكتومٌ بينَ أسمائِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) الواو ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: ويحتمل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في م: والثاني. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: حيث. (١٤) في الأصل وم: أو.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ تَخرُجُ إضافتُهُ إليهِ مُخرَجَ التَّعْظيمِ لرسولِ اللهِ وخصوصيَّتُهُ لهُ على ما ذَكَرْنا أنَّ إضافةَ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى تَخرُجُ مُخرَجَ تَعْظيمِ ذلكَ الخاصِّ؛ مِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥] وقولُهُ[1]: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣و. . .] [وقولُهُ:][2] ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] ونَحْوُ ذلكَ مِنْ إضافةِ خاصِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ.

وإضافةُ كلِّيَّةِ الأشياءِ إلى اللهِ تعالى تَخرُجُ [مُخرَجَ][3] تعظيمِ الرَّبِّ والمَحْمَدَةِ لهُ نَحْوُ قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ١٠٧و. . .] [وقولِهِ][4]: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ثم /٦٤٨ ـ أ/ لاتجوزُ إضافةُ الخاصِّ الذي لا خُصوصِيَّةَ ظَهَرَتْ لهُ إلى اللهِ تعالى؛ لايجوزُ أنْ يقالَ: يارَبَّ زيدٍ، ويا ربَّ عَمْرٍو، ونَحْوُ ذلكَ، إنما يجوزُ ذلكَ في مَنْ ظَهَرَتْ لهُ خُصوصيَّةٌ وفضلٌ مِنَ الأنبياءِ والرسلِ والملائكةِ ﷺ والبقاعِ والأمكنةِ التي ظَهَرَتْ لها خُصوصِيَّةٌ وفَضْلٌ ليكونَ ذلكَ تعظيماً لها، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ العَلَقُ الدمُ الجامدُ. ثم قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أرادَ كلَّ إنسانٍ، وقولُهُ[5]: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [الآية: ٥] كذلكَ، لِيُعْلَمَ أنَّ اسْمَ الفردِ إذا دَخَلَهُ لامُ التعريفِ أُريدَ بِهِ العمومُ، وهو كقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢].

وفي الآيةِ دلالةٌ على إبطالِ قولِ مَنْ يَدَّعي طَهارَةَ النُّطْفَةِ بِعِلَّةِ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ منها؛ فإنهُ أخبَرَ أنهُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ نَسَبَ خَلْقَ الإنسانِ إليهِ، ولا شَكَّ أنَّ العَلَقَ نَجِسٌ، ثم أخبَرَ أنهُ خَلَقَ الإنسانَ منهُ. فَعَلَى ذلكَ أنْ تكونَ النُّطْفةُ التي منها يُخْلَقُ الإنسانُ نَجِسَةً، وذلكَ غيرُ مُسْتَحيلٍ.

ثم أضافَ خَلْقَهُ مَرَّةً إلى الأحوالِ التي قُلِبَ منها حينَ[6] قالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [غافر: ٦٧] إلى آخِرِ ما ذَكَرَ، وأضافَ ههنا إلى حالٍ واحدةٍ، وهي العَلَقَةُ [التي][7] ذَكَرَ، وإنْ لم يكنِ الإنسانُ في الحقيقةِ مَخلوقاً مِنَ العَلَقَةِ والنُّطْفَةِ والترابِ الذي ذَكَرَ، لأنَّ هذهِ الأسماءَ أسامي هذهِ الأشياءِ باعْتِبارِ خاصِّيَّاتٍ فيها. وتلكَ الخاصِّيَّاتُ تَتَقَدَّمُ باعْتِراضِ حالٍ أُخرَى عليها، وإنما يَخْلُقُ الإنسانَ مِنَ المُضْغَةِ، وإنما ذَكَرَ خَلْقَ الإنسانِ منهُ، ونَسَبَهُ إلى ما ذَكَرَ لِما أنَّ الإنسانَ، هو المَقْصودُ مِنْ خَلْقِ ذلكَ، وهو النهايةُ التي ينتهي إليها، فَذَكَرَ بالذِّكْرِ [ما] ينتهي إليهِ مِنَ الغايةِ، واللهُ أعلَمُ.

الآيتان ٣ و ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ ذَكَرَ الأكْرَمَ لِيُعْلَمَ أنَّ اخْتِيارَهُ واصْطِفاءَهُ لرسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ [وتعليمَهُ القرآنَ][8] ابْتِداءُ إحسانٍ منهُ إليهِ وتَفَضُّلٌ عليهِ، لا لِحَقٍّ لهُ عليهِ؛ إذْ ذَكَرَ في موضِعِ المِنَّةِ والفَضْلِ والكَرَمِ؛ إذِ الأكْرَمُ، هو الوَصْفُ بغايةِ الكَرَمِ كالأعلَمِ، هو وصفٌ بإحاطةِ العلمِ وكَمالِهِ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جَعَلَ اللهُ تعالى القَلَمَ سبباً، بهِ يَحْفَظُ، وبهِ يُثْبِتُ، وبهِ يُوصِلُ ما يُخافُ فَوتُهُ ونِسيانُهُ مِنْ أمرِ دينِهِمْ ودُنْياهُمْ ما لو لم يكنِ القلمُ، لم يَسْتَقِمْ أمرُ دينِهِمْ ولا دُنياهُمْ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي عَلَّمَ الخَطَّ والكتابةَ بالقَلَمِ، وكذلكَ ذُكِرَ في حَرْفِ ابنِ مسعودٍ وأُبَيٍّ وحَفْصةَ ﷺ مَنْ[9] عَلَّمَ الخَطَّ بالقَلَمِ، ثم أضافَ التعليمَ بالقَلَمِ إلى نفسِهِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ أضافَ ذلكَ إلى نفسِهِ لِما يَخْلُقُ منهمْ فِعْلَ تَعَلُّمِهِمْ.

[والثاني][10]: إضافتُهُ إليهِ للأسبابِ التي جَعَلَها لهمْ في التَّعْليمِ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) في الأصل وم: و. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: حيث. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، في الأصل: وتعليم. (٩) من م، في الأصل: ومن. (١٠) في الأصل وم: ويحتمل.

ثم ذلكَ التَّعليمُ بالقَلَمِ لِأُمَّتِهِ [لا][1] لرسولِ اللهِ ﷺ لأنهُ علَّمَهُ إياهُ بلا كِتابةٍ ولا خطٍّ حينَ[2] قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ثم في تعليمِ رسولِ اللهِ ﷺ بلا قَلَمٍ ولا كتابةٍ آيةٌ عظيمةٌ لرسالتِهِ حينَ[3] جعلَهُ بحالٍ يَحفَظُ بقلبِهِ بلا إثباتٍ ولا كتابةٍ ولا خطٍّ، خطَّهُ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ يَحتَمِلُ رسولَ اللهِ ﷺ كقولِهِ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وكقولِهِ تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] وقولِهِ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

ويَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كلَّ إنسانٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ طغَى بالغِنَى، أي تكبَّرَ، وافتخرَ بما رأى نفسَهُ غنيَّةً. وعلى هذا ما رُوِيَ في الخَبَرِ[4] منَ التَّعوُّذِ مِنْ غِنىً يُطْغي وفَقْرٍ يُنسِي، لأنَّ الغِنَى يَحمِلُ على التَّكبُّرِ والافتِخارِ والطُّغيانِ، والطُّغيانُ، هو المُجاوزةُ عنِ الحَدِّ والتَّعدِّي فيهِ، والفَقْرُ المُنسِي، هو المُجهِدُ الذي يُنْسي غيرَهُ منَ النِّعَمِ؛ أعني يُنْسِي غيرَ المالِ منْ صِحَّةِ البَدنِ والعقلِ والعلمِ ونَحْوِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ليسَ هذا وصفَ ذلكَ الكافرِ بعينِهِ على ما ذَكَرَهُ أهلُ التأويلِ أبي جَهْلٍ، لَعَنَهُ اللهُ، ولكنْ [هو وصفُ][5] كلِّ كافرٍ يَطغَى أنْ رَأى نفسَهُ غنيَّةً.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي المَرجِعُ، كذا قالَ أبو عُبَيدٍ[6]. وقالَ غيرُهُ: الرجوعُ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي المَرجِعُ للكلِّ إلى ما أعدَّ لهمْ؛ أعدَّ للكافرِ النارَ وللمؤمنِ الجنةَ على ما ذَكَرَ في الآيةِ. وجائزٌ أنْ يكونَ إخباراً عنْ رجوعِ الكلِّ إليهِ.

ثم قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أُريدَ بهِ إنسانٌ دونَ إنسانٍ؛ إذْ لم يَطْغَ كلُّ إنسانٍ، ولا خُلْفَ يَقَعُ في خَبَرِ اللهِ، فكانَ المرادُ منهُ البعضَ لِيُعلَمَ أنَّ الفَهمَ بظاهرِ الخِطابِ، والعُمومَ ليسَ بواجبٍ، ولكنْ على حَسْبِ قِيامِ الدليلِ على المرادِ منهُ.

وفيهِ إنَّ المُرادَ منهُ قد يكونُ مُنَبَّهاً مقروناً بهِ، وقد يكونُ مطلوباً غيرَ مقرونٍ بهِ.

الآيتان ٩و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنَّ الذي يَنهَى أبو جَهْلٍ، لعنَهُ اللهُ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ وذلكَ أنهُ كانَ يُصلِّي في الحِجْرِ، فكانَ يَنهاهُ أبو جهلٍ، فنَزَلَ [قولُهُ تعالى][7] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

الآيات ١١و١٢و١٣و١٤ [وقولُهُ تعالى][8]: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾][9].

جائزٌ أنْ يَجْمَعَ هذا كلَّهُ في الوعيدِ الذي ذَكَرَهُ على إثْرِ ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ كأنهُ قالَ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ أرأيتَ الذي يَنْهَى مَنْ ﴿كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وهو رسولُ اللهِ؛ كانَ يَنهاهُ ذلكَ الكافرُ إذا صَلَّى، وينْهاهُ عنِ الهُدَى وعنِ الأمرِ بالتَّقوَى ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ رسولَ اللهِ ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن طاعةِ اللهِ تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

يدخُلُ جميعُ ما ذُكِرَ في هذا الوعيدِ، فيكونُ ذلكَ جواباً لِما تَقدَّمَ مِنْ قولِهِ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى آخِرِ ما ذَكَرَ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) انظره في الترمذي: ٢٣٠٦. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في نسخة الحرم المكي: عبيدة. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) ساقطة من الأصل وم.

وجائزٌ أنْ يكونَ جوابُ قولِهِ: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ مَسكوتاً عنهُ، تُرِكَ لِلْفَهْمِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي ألم يَعْلَمْ بأنَّ اللهَ يَراهُ[1] [فَيَنْتَقِمَ منهُ لرسولِ اللهِ، أو ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾][2] فَيَدْفَعَهُ عمّا همَّ برسولِ اللهِ. فهو وعيدٌ.

ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: قد عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَرَى جميعَ ما يقولُهُ، ويَفْعَلُهُ، ويَهُمُّ بهِ، لكنهُ قالَ ذلكَ على المُكابَرَةِ والعِنادِ.

والثاني: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ على نَفْيِ العِلْمِ لهُ بذلكَ؛ إذْ لو عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَرَى، ويَعْلَمُ ما يَفْعَلُهُ مِنَ النَّهْيِ عنِ الصلاةِ والمَكْرِ بهِ لكانَ لا يَفْعَلُ ذلكَ بهِ.

الآيتان ١٥ و١٦ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي حقّاً لئنْ لم يَنْتَهِ عنْ صَنيعِهِ الذي يَصْنَعُ برسولِ اللهِ لَنَسْفَعَنَّ[3] ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ أي لَنَأْخُذَنَّ بالناصِيَةِ؛ كأنهُ عبارةٌ عنِ الأخذِ الشديدِ والجَرِّ الشديدِ على النّاصِيَةِ.

ثم يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذلكَ الوعيدُ لهُ في الدنيا أنهُ /٦٤٨ - ب/ لو لم يَنْتَهِ عمّا ذَكَرَ.

فإنْ كانَ في الدنيا فيكونُ السَّفْعُ كنايةً عنِ العذابِ أي لَنُعَذِّبَنَّ. وقيلَ: قد أُخِذَ بِناصِيَتِهِ يومَ بدرٍ، فأُلقِيَ بَينَ يَدَي رسولِ اللهِ قتيلاً، وإنْ كانَ في الآخِرَةِ فهو عنْ حقيقةِ أخذِ النّاصِيَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقولِهِ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨].

وقالَ أهلُ العربيةِ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي نَقْبِضُ، وسَفَعْتُ ناصِيَتَهُ، أي قبضتُ، ويقالُ: سَفَعَهُ بالعصا، أي ضَرَبَهُ، ويُقالُ: اسْفَعْ بيدِهِ، أي خُذْ بيدِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يَحْتَمِلُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [أنْ يكونَ][4] كنايةً عنِ النفسِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الناصِيَةِ التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها.

الآيتان ١٧و١٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي أهلَ مجلسِهِ في الإعانةِ لهُ بما يَهُمُّ برسولِ اللهِ ﷺ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ نحنُ في الدفعِ عنهُ لنرى هلْ يَقْدِرُ أنْ يَفْعَلَ ما هَمَّ بهِ.

ويَحْتَمِلُ ذلكَ في الدنيا، وقد ذُكِرَ أنهُ قُتِلَ يومَ بدرٍ. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلكَ الدفعُ مِنَ الزَّبانِيَةِ [في الآخِرَةِ، وسُمُّوا زَبانيةً][5] لِلدَّفعِ أي يَدْفَعونَ أهلَ النارِ في النارِ.

وقيلَ: الزَّبانيةُ الشُّرَطُ، والواحدُ: زِبْنِيَةٌ، والنادي المجلسُ، يريدُ بِهِ قومَهُ.

الآية ١٩ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ أي لا تُطِعْ ذلكَ الكافرَ، وكانَ ما ذُكِرَ: لم يُطِعْهُ حتى ماتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ هذا خِطاباً للنَّبِيِّ، أي صَلِّ، واقْتَرِبْ إلى اللهِ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَاسْجُدْ﴾ خِطاباً للنَّبِيِّ، أي صَلِّ، وقولُهُ: ﴿وَاقْتَرِب﴾ خِطاباً لأبي جهلٍ، أي اقْتَرِبْ إلى محمدٍ حتى تَرَى، على سبيلِ الوعيدِ، ولِما كانَ يَقصِدُ المَكْرَ بالنَّبِيِّ ﷺ في حالِ الصلاةِ.

وعلى[6] التأويلِ الظاهرِ الآيةُ حجّةٌ لنا على أهلِ التشبيهِ، فإنهُ لم يُفْهَمْ مِنْ قولِهِ: ﴿وَاقْتَرِب﴾ القُرْبُ مِنْ حيثُ المكانُ وقُرْبُ الذاتِ. ولكنْ قُرْبُ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ.

وكذلكَ ما ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ: «مَنْ تَقَرَّبَ إليَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إليهِ ذراعاً» [البخاري٧٤٠٥] ونَحْوُ ذلكَ لا يُفْهَمُ منهُ قُرْبُ الذاتِ، ولكنْ قُرْبُ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ بالإجابةِ، وكذلكَ جميعُ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ القربِ قُرْبُ المَنْزِلَةِ والقَدْرِ.

---

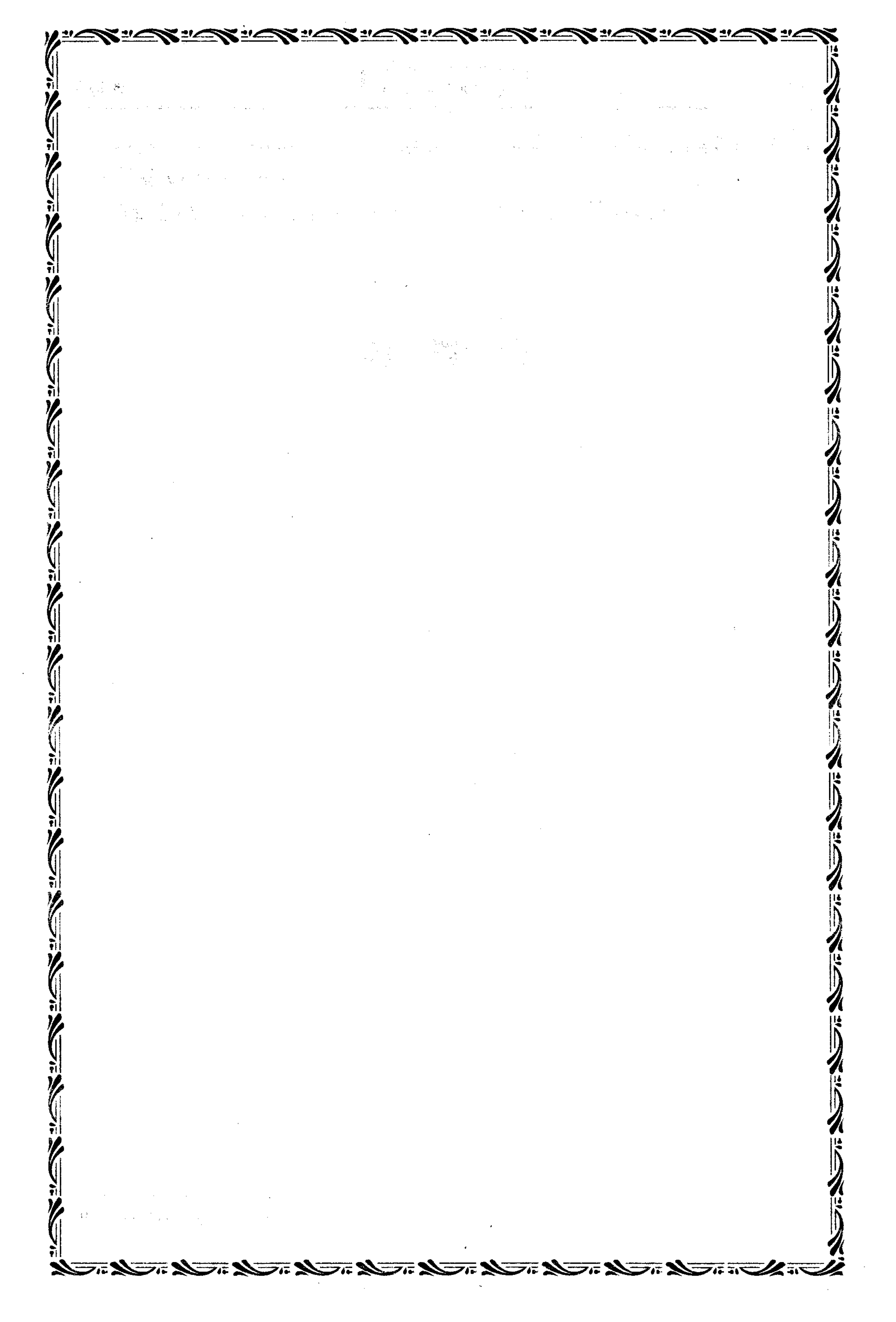
(١) في الأصل وم: يرى. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/١٩٨. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) الواو ساقطة من الأصل وم.

ثم في هذهِ السورةِ السجدةُ لِما رُوِيَ عنْ أبي هريرَةَ ﷺ أنَّه قالَ: سَجَدَ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أبو بكرٍ وعُمَرُ ﷺ ومَنْ هو خَيرٌ منهما.

ورُوِيَ عنْ عليٍّ أنهُ قالَ: في اقْرَأْ مِنْ عَزائِمِ السُّجودِ، وأبي[1] عُبَيدةَ عن عبدِ اللهِ أنهُ سَجَدَ فيها.

* * *

(١) في الأصل وم: وأبو.



سورة القدر

[وهي مكية](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ قولَهُ: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني [القرآنَ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني](٢) السلامَ الذي ذُكِرَ في آخرِ السورةِ حيثُ قالَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ [الآيتان ٤و٥].

فَمَنْ قالَ: أُنزِلَ القرآنَ في ليلةِ القَدْرِ، فهمْ مُخْتَلِفونَ؛ قالَ بعضُهُمْ: أُنْزِلَ القرآنُ جملةً إلى السماءِ الدنيا مِنَ اللوحِ المحفوظِ في تلكَ الليلةِ، وهي في شهرِ رمضانَ كقولِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي أُنزِلَ مِنَ اللوحِ المحفوظِ، ثم أُنْزِلَ مِنَ السماءِ الدنيا على رسولِ اللهِ ﷺ بالتفاريقِ على قَدْرِ الحاجةِ مِنَ الأمرِ والنَّهْيِ والحَلالِ والحَرامِ والمَواعظِ وكلِّ ما يُحْتاجُ إليهِ إلى العامِ القابلِ جملةً. ثم أُنْزِلَ على رسولِ اللهِ ﷺ نُجوماً بالتَّفاريقِ، واللهُ أعلَمُ.

ثم لا نَدري أنَّ تلكَ الفضيلةَ التي جُعِلَتْ لهذهِ الليلةِ لِفَضْلِ عبادةٍ جُعِلَتْ فيها، امْتُحِنَ الخَلْقُ بأدائِها على التَّرغيبِ والأدبِ، أو فُضِّلَتْ لِمكانِ ما امْتَحَنَ الملائكةَ، وكَلَّفَهُمْ بالنُّزولِ فيها والعبادةِ للهِ في الأرضِ وإنزالِ القرآنِ ونحوِ ذلكَ، أو لِحِكْمَةٍ ومَعْنىً فُضِّلَتْ، لم يُطْلِعْ على ذلكَ المَعْنَى أحداً.

وقد جُعِلَتْ لبعضِ الأمكنةِ الفضيلةُ لعباداتٍ جُعِلَتْ فيها نَحْوُ ما ذُكِرَ [عنِ النَّبِيِّ ﷺ](٣): «صلاةٌ واحدةٌ في المسجدِ الحرامِ تَعْدِلُ مئةَ ألفِ صلاةٍ في غَيرِهِ، وصلاةٌ واحدةٌ في مسجدي هذا تَعْدِلُ ألفَ صلاةٍ في غَيرِهِ سوَى المسجدِ الحرامِ» [ابن ماجه ١٤٠٦]. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] خُصَّتْ هذهِ البِقاعُ بالفضيلةِ على غَيرِها لِعباداتٍ جُعِلَتْ فيها. فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ تُخَصَّ بعضُ الأوقاتِ دونَ بعضٍ بالفضيلةِ لمكانِ عباداتٍ جُعِلَتْ فيها. لكنْ بَيَّنَ تلكَ الأماكنَ، ولم يُبَيِّنْ تلكَ الأوقاتَ المُفَضَّلَةَ [ولم يَجْعَلْها](٤) مطلوبةً منْ بينِ غَيرِها مِنَ الأوقاتِ؛ فهو، واللهُ أعلَمُ [أنهُ لو بَيَّنَها، وأشارَ](٥) إليها لكانَ لا مَؤُونَةَ تَلْزَمُ في ذلكَ لأنهُ يُحْفَظُ ذلكَ الوقتُ وتلكَ الليلةُ خاصةً، وأمّا المكانُ فَتَلْزَمُ(٦) المَؤونةُ في إتيانِ ذلكَ المكانِ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ ما لم يُبَيِّنْ وقتَ خُروجِ روحِ الإنسانِ منْ بدنِهِ، لأنهُ لو بُيِّنَ، وأُعْلِمَ نهايةَ عُمُرِهِ، لَتَعاطَى الفِسْقَ، وارْتَكَبَ المعاصيَ آمِناً إلى آخرِ أجزاءِ حياتِهِ، ثم يتوبُ، فلم يُبَيِّنْ ليكونَ أبداً على خوفٍ وحَذَرٍ ورجاءٍ. فَعَلَى ذلكَ لم يُبَيِّنْ تلكَ الليلةَ لِتُطْلَبَ منْ بينِ الليالي جميعاً، لِتُحْيَى الليالي غَيرُها، واللهُ أعلَمُ.

ثم إنْ كانَ السؤالُ عنِ القرآنِ، هو المُنَزَّلُ في تلكَ الليلةِ، فيكونُ دليلُهُ قولَهُ: ﴿حمٓ﴾ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ١-٣] وإنْ كانَ السؤالُ عنْ ليلةِ القدرِ، فيكونُ البيانُ عنها.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هذا يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: يقولُ: ما كنتَ تدري حتى أدراكَ كقولِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وجعلها. (٥) في الأصل وم: أن لو بين وأشير. (٦) الفاء ساقطة من الأصل وم.

[والثاني][١]: قولُهُ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ على التَّعظيمِ لها والتَّعجيبِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ: نُزولُ هذهِ الآيةِ يكونُ على مَعْنَى التَّسَلِّي؛ أعطاهُ فَضْلَ هذهِ الليلةِ /٦٤٩ ـ أ/ والعَمَلِ بها.

الآية ٢ ثم بَيَّنَ فَضْلَها حينَ[٢] قالَ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُرِيَ بَني أُمَيَّةَ على مِنْبَرِهِ، فساءَهُ ذلكَ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي مِنْ ألفِ شهرٍ يَمْلِكُها بَعْدَكَ بَنو أُمَيَّةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [أيِ العَمَلُ فيها خَيرٌ مِنَ العَمَلِ في ألْفِ شَهْرٍ][٣] سِواها.

وقيلَ أيضاً: «إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ لأصحابِهِ أنَّ رجلاً جاهدَ ألفَ شهرٍ في سبيلِ اللهِ، فَعَظُمَ ذلكَ عليهِمْ، فَنَزَلَ قولُهُ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾» [البيهقي في الكبرى ٤/٣٠٦] أيِ العَمَلُ فيها خَيرٌ مِنْ جهادِ ذلكَ الرجلِ في ألْفِ شهرٍ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذَكَرَ ألْفَ شهرٍ على سَبيلِ التَّمْثيلِ لا على التَّوقيتِ، أي خَيرٌ مِنَ ألْفِ شهرٍ وأكْثَرَ؛ إذِ التَّقديرُ قد يكونُ لِبَيانِ العددِ نفسِهِ، وقد يكونُ لِبَيانِ شَرَفِ ذلكَ الشيءِ وعَظَمتِهِ، فلا يكونُ الغَرَضُ، هو القَصْرُ على العَدَدِ، وهو كقولِهِ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٨٠] ونحوُ ذلكَ.

ثم اخْتُلِفَ في تَسْمِيةِ ليلةِ القدرِ؛ قالَ بعضُهُمْ: هي ليلةُ الحكمِ والقضاءِ؛ فيها يَحْكُمُ، ويَقضي ما يُريدُ أنْ يكونَ في ذلكَ العامِ المُقْبِلِ كقولِهِ: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وسُمِّيَتْ ليلةَ القدرِ لأنها ليلةٌ لها قَدْرٌ ومنزلةٌ عندَ اللهِ لِما يُوصَفُ الشيءُ العظيمُ بالقَدرِ والمَنزلةِ، أو سُمِّيَتْ ليلةً مُباركةً لأنهُ تَنَزَّلُ فيها البركاتُ والرحمةُ مِنَ اللهِ تعالى على خَلْقِهِ، أو سُمِّيَتْ مُباركةً لِكَثْرةِ ما يُعْمَلُ فيها مِنَ العباداتِ.

الآيتان ٤ و ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾.

قالَ بعضُهُمْ: الروحُ ههنا جبرائيلُ كقولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقالَ بعضُهُمْ: خَلْقٌ مُوَكَّلونَ [بالملائكةِ كما أنَّ الملائكةَ مُوَكَّلونَ][٤] بِبَني آدمَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الرُّوحُ هنا، هو الرحمةُ، أي تَنَزَّلُ الملائكةُ بالرحمةِ فيها على ما سُمِّيَتْ مباركةً بما تَنَزَّلُ فيها مِنَ البركاتِ.

ثم اخْتَلَفوا في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي في تلكَ الليلةِ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ، وقيلَ: ﴿فِيهَا﴾ أي في الملائكةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ أي يَنْزِلونَ بإذْنِ ربِّهِمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ قالَ بعضُهُمْ: أي بكلِّ أمرٍ يُقَدَّرُ في تلكَ السنةِ على الأرضِ. وكذا قالَ القُتَبِيُّ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾. وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ يُدَبِّرُهُ اللهُ تعالى؛ أي الملائكةُ، لا عِلْمَ لهمْ في ما يُقَدِّرُ اللهُ تعالى إلّا أنْ يُطْلِعَهُمْ عليهِ، فكأنهمْ يَطَّلِعونَ على [ما][٥] يُقَدَّرُ في تلكَ السنةِ مِنَ الأمورِ، فَيَنْزِلونَ بها بأمرِ اللهِ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ قيلَ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تَخْفُقُ بأجْنِحَتِها بالسَّلامِ مِنَ اللهِ والرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ.

وقيلَ[٦]: أي هي ليلةٌ لا يَحدُثُ فيها شرٌّ، ولا يُرْسَلُ فيها شيطانٌ ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ وقالَ بعضُهُمْ: هو سلامُ الملائكةِ، أي يُسَلِّمُ الملائكةُ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي مِنْ كلِّ آفةٍ وبَلاءٍ سلامٌ، وكذلكَ ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١] قالَ بعضُهُمْ: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يَحْفَظونَهُ مِنْ عذابِ اللهِ، وقالَ بعضُهُمْ: يَحْفَظونَهُ بأمرِ اللهِ تعالى، فلذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ هذينِ الوَجْهَينِ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: وقال.

وقولُهُ تعالى: ﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ يَحتَمِلُ أي تلكَ البركاتُ التي ذُكِرَتْ إلى مَطْلَعِ الفجرِ، ويَحتَمِلُ ذلكَ السلامَ الذي ذُكِرَ إلى مَطْلَعِ الفجرِ، ويَحتَمِلُ الملائكةَ، يكونونَ في الأرضِ إلى مَطْلَعِ الفجرِ. ورُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أنهُ قرأ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ وقالَ: يعني الملائكةَ.

وقالَ بعضُهُمْ: اختَلَفَتِ الرواياتُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ في ليلةِ القدرِ. متى تكونُ؟ واختَلَفَ الصحابةُ، رضوانُ اللهِ تعالى عليهِمْ أجمعينَ، فيها:

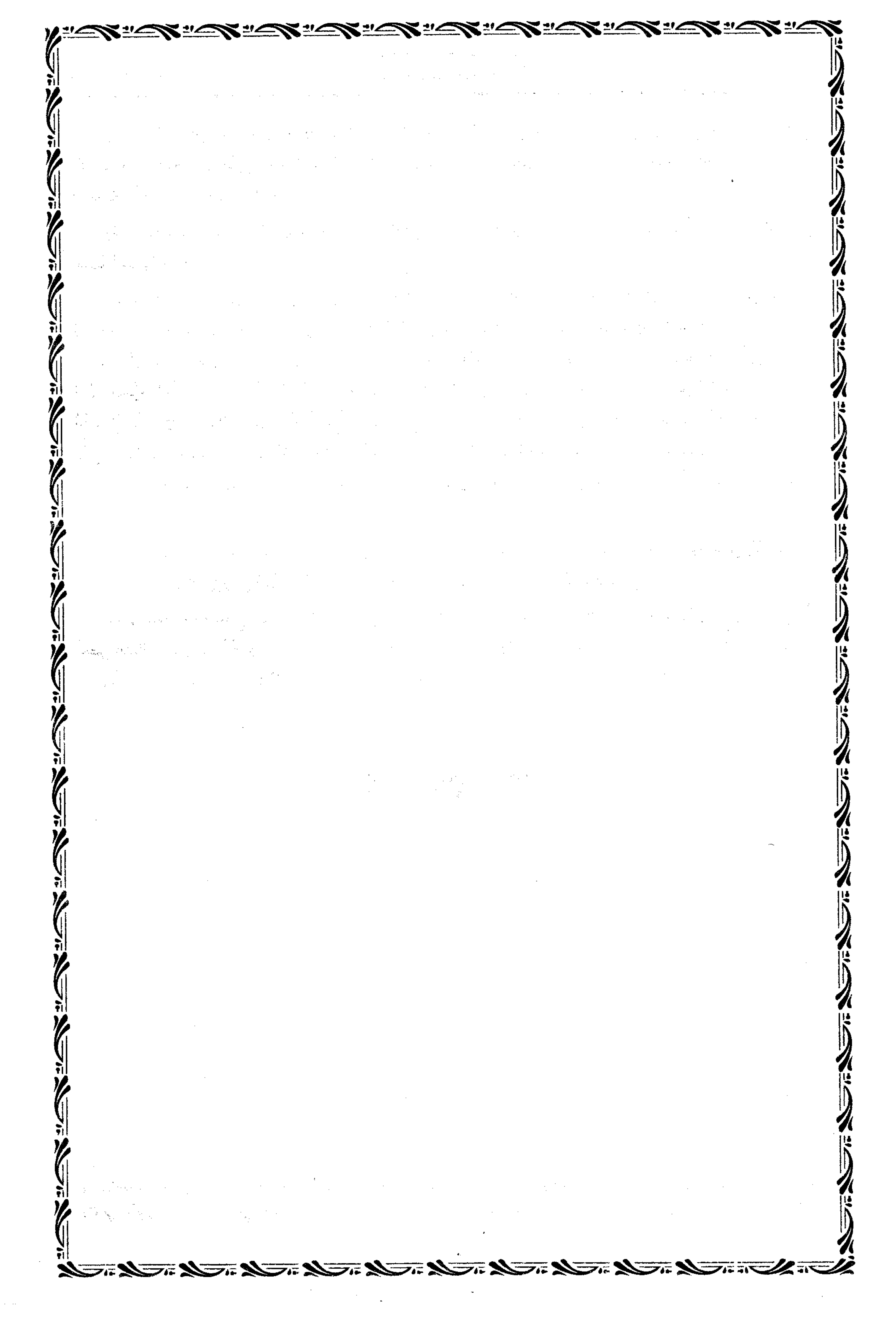
يَروي عبدُ اللهِ بْنُ أُنَيسٍ [الجُهَنِيُّ][1] عنِ النَّبِيِّ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: «التَمِسوها في العشرِ الأواخِرِ، واطْلُبوها في كلِّ وِترٍ» [البخاري ٢٠٢٧ عن أبي سعيد الخدري] ورَوَى عبدُ اللهِ بْنُ مسعودٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ليلةَ [تسعَ عشرةَ][3] مِنْ رمضانَ» أو «ليلةَ إحدى وعشرينَ» أو «ليلةَ ثلاثٍ[4] وعشرينَ» [الترمذي: ٧٩٢] ورَوَى ابنُ عُمَرَ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «تحرَّوا ليلةَ القدرِ في السَّبْعِ الأواخِرِ» (مسلم١١٦٥/٢٠٦) ورَوَى أنها في سَبْعٍ وعشرينَ. [وعن][5] عبد اللهِ بْنِ عُمَرَ أنهُ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عنْ ليلةِ القدرِ، وأنا أسمعُ، قالَ: «هي في كلِّ رمضانَ» [أبو داوود١٣٨٧]. وعنْ [زِرٍّ أنهُ][6] قالَ: قُلْتُ لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: أخبِرْني عنْ ليلةِ القدرِ يا أبا المُنْذِرِ، فإنَّ صاحبَنا[7] عبدَ اللهِ بْنَ مَسْعودٍ سُئِلَ عنها، فقالَ: «مَنْ يُقِمِ الحَولَ يُصِبْهَا» [مسلم: ٧٦٢] فقالَ: نعمْ، رَحِمَ اللهُ أبا عبدِ الرحمنِ، واللهِ لقد عَلِمَ أنها في رمضانَ، كَرِهَ أنْ يَتَّكِلوا، واللهِ إنها في رمضانَ ليلةَ سَبْعٍ وعشرينَ.

ثم ليسَ لنا ولا لأحدٍ أنْ يُشيرَ إلى تلكَ الليلةِ، فيقولَ: هي ليلةُ كذا: ليلةُ سَبْعٍ وعشرينَ أو تِسْعٍ وعشرينَ إلّا أنْ يَثْبُتَ بالتَّواتُرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلكَ خَبَرٌ بالإشارةِ إليها، فعندَ ذلكَ يَسَعُ، وإلّا كانتْ مطلوبةً في الليالي.

وعلى هذا الوجهِ تُخَرَّجُ الأخبارُ المَرْوِيَّةُ على التَّوافُقِ دونَ المناقَضةِ، وتكونُ كلُّها صَحيحةً، فتكونُ في سَنَةٍ [في][8] بعضِ الليالي وفي سَنَةٍ أُخرَى في غيرِها، وفي سَنَةٍ[9] في العَشْرِ الأواخِرِ من رمضانَ، وفي سَنَةٍ في العَشْرِ الأوسطِ مِنْ رمضانَ، وفي سَنَةٍ في العَشْرِ الأوَّلِ، وفي سَنَةٍ في غيرِ رمضانَ، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ[10].



(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: تسعة عشر. (٤) في الأصل وم: ثلاثة. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في الأصل وم: زبير. (٧) في الأصل وم: صاحبه. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) في الأصل وم: سبع. (١٠) من م، في الأصل: بذلك.



[سورة البينة

وهي][1] مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ذَكَرَ في حقِّ أهلِ الكتابِ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بحرفِ ﴿مِنْ﴾ وهو لِلتَّبْعيضِ، ولم يَقُلْ أهلَ الكتابِ، وذَكَرَ في حقِّ أهلِ الشِّرْكِ[2] والمُشرِكينَ لأنَّ أهلَ الكتابِ كانوا فِرَقاً:

منهمْ مَنْ كانَ آمَنَ برسولِ اللهِ / ٦٤٩ ـ ب/ ﷺ قَبْلَ أنْ يُبْعَثَ، فلمّا بُعِثَ آمَنَ بهِ، ولَزِمَ الإيمانَ، ومنهمْ مَنْ كانَ كافراً بهِ، فلما بُعِثَ، وأُرسِلَ لَزِمَ الكُفْرَ بهِ، ولم يُؤمِنْ، فلِما كانوا أصنافاً وفِرَقاً لذلكَ قالَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بِحَرْفِ ﴿مِنْ﴾.

وأمّا المُشرِكونَ فإنهمْ كانوا صِنفاً واحداً، ثم لم يُبيِّنْ بأنهمْ إذا أتاهُمُ البيِّنةُ يَنفَكّونَ أو لا.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﷻ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ إلى قولِهِ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي لم يكنْ بعضُ أهلِ الكتابِ وبعضُ المُشرِكينَ مُنفَكّينَ مِنَ الكَفَرَةِ لأنهُ عَطَفَ المُشرِكينَ على أهلِ الكتابِ، بل كانوا أهلَ كُفرٍ وشِرْكٍ إلى آخِرِ عُمُرِهِمْ، وإنْ أتتْهُمُ البيِّنةُ.

والبيِّنةُ، هي ما [في][3] خِلْقةِ كلِّ أحدٍ مِمّا يَدُلُّ على ألوهيَّتِهِ وَوَحْدانيَّتِهِ. ويَحْتَمِلُ أنَّ بعضاً مِنَ الفريقَينِ على الشِّرْكِ حتى تأتِيَهُمُ البيِّنةُ، وهي مُعايَنةُ العذابِ عندَ الموتِ كقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤] ونحوُ ذلكَ.

وذُكِرَ في حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ: لم يكنِ المُشرِكونَ وأهلُ الكتابِ مُنفكّينَ، وفي حَرْفِ أُبَيٍّ: ما كانَ الذينَ أشرَكوا منْ أهلِ الكتابِ والمُشرِكينَ.

ثم اخْتُلِفَ في قولِهِ ﷻ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ خارِجينَ مِنَ الدنيا ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

ثم اختلفوا في البيِّنةِ التي ذَكَرَ أنها تأتيهِمْ؛ قالَ بعضُهُمْ: البيِّنةُ رسولُ اللهِ ﷺ لِما[4] قالَ على إثْرِهِ ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [الآية: ٢] وقالَ بعضُهُمْ: ما جاءَ بهِ محمدٌ رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الحُجَجِ.

فَمَنْ جَعَلَ قولَهُ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مُنتَهِينَ زائِلِينَ يَجْعَلِ البيِّنةَ رسولَ اللهِ ﷺ سُمِّيَ بَيِّنَةً لأنهُ بهِ يُعْرَفُ كلُّ خيرٍ وكلُّ إحسانٍ، وبهِ يَتَبيَّنُ الحقُّ والباطلُ وكلُّ شيءٍ مِنْ أمرِ المَعادِ والمَعاشِ وكذلكَ القرآنَ، جاءَ بهِ.

ومَنْ قالَ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خارِجينَ مِنَ الدنيا يَجْعَلِ البيِّنةَ التي ذَكَرَ أنها تأتيهِمُ العذابَ مُعايَنةً جَهْراً كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] أي خارِجينَ مِنَ الدنيا حتى يُعايِنوا[5] العذابَ، فعندَ ذلكَ يؤمنونَ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ على التأويلِ الأوَّلِ في البيِّنةِ يكونُ ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ تفسيراً للبيِّنةِ.

---

(١) من م، في الأصل: ذكر أن هذه السورة البينة. (٢) في الأصل وم: الكتاب. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث.
(٥) في الأصل وم: يعلموا.

وعلى الثاني يُخرَّجُ على الابْتِداءِ؛ يقولُ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

ثم جائزٌ أنْ يكونَ سَمَّى القرآنَ وَحْدَهُ صُحُفاً على المُبالغةِ؛ إذْ قد يُسَمَّى الواحدُ بِاسْمِ الجَمْعِ على المُبالغةِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا﴾ القرآنَ وسائرَ الصُّحُفِ لأنَّ سائرَ الصُّحُفِ فيهُ، وكذلكَ [قولُهُ][1]: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [الآية: ٣] جائزٌ أنْ يكونَ سَمَّى كتابَهُ المُنْزَلَ على رسولِ اللهِ ﷺ، كُتُباً على الإبْلاغِ والتَّأكيدِ على ما ذَكَرْنا.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وكُتُباً عليهِمْ، وهي التوراةُ والإنجيلُ والزبورُ؛ كانَ هذا القرآنُ في تلكَ الكتبِ في هذا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨و١٩] أخبرَ أنهُ في تلكَ الكتبِ، وأنَّ الكُتُبَ الأولَى فيهِ، فَيصيرُ بِتلاوةِ هذا عليهِمْ كأنهُ تلا تِلْكَ الكتبَ عليهِم.

وعلى هذا قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقولُهُ تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ يَحتَمِلُ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنْ أنْ يكونَ للباطلِ فيها[2] حُجَّةٌ أو مَدْخَلٌ، أو ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنَ الافْتِعالِ والافْتِراءِ، أو ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ مِنْ أنْ تَحْتَمِلَ ما ذَكَرَهُ أولئكَ الكَفَرَةُ.

وقالَ قتادةُ: سَمَّى كتابَهُ بأحْسَنِ الأسماءِ، وأثْنَى عليهِ بأحْسَنِ الثَّناءِ؛ سَمَّاهُ نوراً وهُدًى ورَحْمَةً وبَرَكَةً وآيَةً وشِفاءً ونَحْوَهُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قالَ بعضُهُمْ: فيها كُتُبٌ صادقةٌ، وقالَ بعضُهُمْ: عادلةٌ، وقالَ غيرُهُمْ: مُسْتَقيمةٌ على ما تُوجِبُهُ الحكمةُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي أحكامٌ كثيرةٌ مُسْتَقيمةٌ على ما توجِبُهُ الشريعةُ والحِكْمَةُ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ يقولُ أهلُ التأويلِ: إنما تفرَّقوا مِنْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ، وهو محمدٌ ﷺ.

قالَ أبو بكرٍ: هذا التأويلُ خَطأٌ لأنهمْ كانوا مُتَفَرِّقينَ قبلَ ذلكَ، فلا مَعْنَى لذلكَ[3].

وعندَنا: ليسَ كما تَوَهَّمَ هو، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ما تَفَرَّقوا في محمدٍ ﷺ إلا مِنْ بعدِ ما جاءَهُمُ العِلْمُ بهِ؛ عندَ ذلكَ تفرَّقوا فيهِ، فأمّا قَبْلَ ذلكَ فكانوا[4] مُجْتَمِعينَ فيهِ كُلُّهُمْ.

[والثاني][5]: ما تَفَرَّقوا فيهِ في الدينِ والمذهبِ إلا منْ بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنةُ، أي عنْ بَيانٍ وعِلْمٍ تَفَرَّقوا في الدينِ.

وفي ما تَفَرَّقوا فيهِ هو[6] ما جَعَلَ في خِلْقَةِ كلِّ واحدٍ دلالةُ التَّوحيدِ والرُّبوبيَّةِ لهُ ما لو تَفَكَّروا لَعَرَفوا أنَّ اللهَ واحدٌ. والبَيِّنةُ تَحْتَمِلُ منْ هذا الموضعِ رسولَ اللهِ ﷺ والقرآنَ ونفسَ الخِلْقةِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ما أُمِرَ أوائلُهُمْ وأواخِرُهُمْ في تلكَ الكتبِ إلا لِيَعْبُدوا اللهَ تعالى، ولا يَعْبُدوا مَنْ دونَهُ، أو ما أُمِروا إلا لِيَعْبُدوا اللهَ تعالى، ولا يَعْبُدوا مَنْ دونَهُ، أو ما أُمِروا إلا لِيَجْعَلوا الأُلوهِيَّةَ للهِ والوَحْدانِيَّةَ لهُ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ على أنَّ تأويلَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: فيه. (٣) في الأصل وم: كذلك. (٤) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: أو. (٦) في الأصل وم: وهو.

[الذاريات: ٥٦] على إضمارِ الأمرِ أي إلّا ليأمُرَهُمْ بالعبادةِ على كلِّ حالٍ، لأنهُ لو خَلَقَهُمْ للعبادةِ ما قَدَروا غَيرَهُ، أو أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على الخصوصِ، خَلَقَ عنْ عِلْمٍ أنهُ يَعْبُدُهُمْ[1] للعبادةِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: ﴿لَهُ﴾ يُخرجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يُخْلَصَ لهُ الدينُ، ويُصْفَى، لا يُشْرَكَ فيهِ غيرُهُ، ويكونُ منْ خُلوصٍ وصفاءٍ[2].

والثاني: الدينُ الخالصُ، هو الدائمُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢] وكذلكَ يَحْتَمِلُ قولُهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾ قالَ أهلُ التأويلِ: المسلمونَ، وقالَ بعضُهُمْ: ﴿حُنَفَآءَ﴾ مُتّبعينَ، والحَنَفُ الميلُ، كأنهُ قالَ: مائلينَ إلى الإسلامِ، وقيلَ: ﴿حُنَفَآءَ﴾ الحُجّاجُ، وقيلَ: الحَنِفُ المُسْتَقيمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَحْتَمِلُ القَبولَ، أي قَبِلوا إقامةَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ، أي تابوا، وقَبِلوا ذلكَ، ليسَ على حقيقةِ الإقامةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ على حقيقةِ الإقامةِ والإتيانِ، وأيُّهما كانَ ففيهِ أنَّ أوائِلَهُمْ كانوا مأمورينَ بالصلاةِ والزكاةِ.

ثم المَعْنَى الذي في الصلاةِ والزكاةِ، لا يَحْتَمِلُ النسخَ في وقتٍ منَ الأوقاتِ، لأنَّ الصلاةَ، مَعْناها الاِسْتِسْلامُ والخُضوعُ لهُ، والزكاةَ، هي تَزْكِيةُ النفسِ وطَهارَتُها، وذلكَ لا يَحْتَمِلُ النسخَ [أصلاً][3].

وقولُهُ[4] تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ / ٦٥٠ ـ أ/ والدينُ مُذكَّرٌ، والقَيِّمةُ مُؤنَّثٌ. فجائزٌ أنْ يكونَ الذي ذُكِرَ، هو المِلَّةُ، ويَحْتَمِلُ دينَ الأُمّةِ القَيِّمةِ، وهو قولُ الزّجّاجِ، أو يقولُ: ذلكَ الدينُ قَوَّمَتْهُ الحُجَجُ، والبراهينُ أُضيفَتْ إلى الحُجَجِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ذَكَرَ القَيِّمةَ على التَّسْوِيةِ بينَ ما سَبَقَ، وتَقَدَّمَ منْ أواخرِ الآيِ منْ قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وقولِهِ[5]: ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ وقولِهِ[6]: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ تَسْوِيَةً بينَ ما تَقَدَّمَ وما تأخَّرَ منْ قولِهِ: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ وقولِهِ[7]: ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. وفي حَرْفِ ابنِ مسعودٍ: [ذلكَ الدينُ القَيِّمُ لِغَيرِهِ][8].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: تحذيرٌ لهذهِ الأُمّةِ لئلا يَتَفرّقوا كما تَفرّقَ أولئكَ في رسولِ اللهِ ﷺ وفي ما جاءَ بهِ.

والثاني: يكونونَ دائماً فَزِعينَ إلى اللهِ تعالى في كلِّ وقتٍ خائفينَ منهُ وألّا يَكِلُوا إلى البَيانِ الذي جاءَهُمْ، فَيَتَفرّقوا كما تَفرّقَ أولئكَ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ ظاهرُ هذا أنْ يكونَ تأويلَ قولِهِ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الآية: ١] أي بعضُ المُشْرِكينَ في النارِ لا كلُّ المُشْرِكينَ، ولكنْ مَنْ كَفَرَ مِنَ المُشْرِكينَ كانَ كَمَنْ كَفَرَ مِنْ أهلِ الكتابِ ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ لكنّ الكُفْرَ، هو الشِّرْكُ، والشِّرْكَ، هو الكُفْرُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَدَلَّ أنَّ الكُفْرَ والشِّرْكَ واحدٌ، وكلُّ كافرٍ مُشْرِكٌ، فكأنهُ قالَ ﷻ: إنَّ الذينَ أشْرَكوا ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

ثم جاءَ هذا التَّشْديدُ لهؤلاءِ لأنَّ أهلَ الكتابِ ادَّعَوا أنهمْ مِنْ نَسْلِ الأنبياءِ، ثم تَرَكوا اتّباعَهُمْ، والمشركينَ قد ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢] ثم نَقَضُوا ذلكَ العهدَ.

وأهلُ الكتابِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم [مُّهْتَدُونَ﴾ وقالوا: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾][9] [الزخرف: ٢٢ و٢٣]. فَتَرَكوا اتّباعَ الصالحينَ منْ آبائِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: يعبده. (٢) في الأصل وم: وصفائه. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: وقال.
(٥) في الأصل وم: و. (٦) في الأصل وم: و. (٧) في الأصل وم: و. (٨) في الأصل وم: القيمة لغيرها. (٩) ساقطة من الأصل وم.

والعربُ أيضاً كانوا أقْرَبَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ غيرِهِمْ، فَحَقُّهُ عليهِمْ ألْزَمُ وأوجَبُ. فَشَدَّدَ [على][1] هؤلاءِ لهذا المَعْنَى.

ثم إنْ كانَ [لَفْظُ][2] ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مَأخوذاً مُقَدَّراً مِنَ البَرَى، وهو الترابُ، ويَرْجِعُ تأويلُ الآيةِ إلى البَشَرِ، فكأنهُ قالَ: أولئكَ هم شَرُّ ما أُنْشِئوا منَ الأرضِ، وإنْ كانَ مَأخوذاً [مُقَدَّراً][3] مِنَ البَرْءِ، وهو الخَلْقُ، فيصيرُ كأنهُ قالَ: أولئكَ هم شَرُّ ما خُلِقوا، فَيَدخُلُ في ذلكَ الملائكةُ والجِنُّ والبَشَرُ، وفي الأوّلِ لا يَدْخُلُ إلّا البَشَرُ خاصّةً.

الآية ٧ وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ أهلِ الإيمانِ حينَ[4] قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ فإنْ كانَ [لَفْظُ][5] ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ مأخوذاً مِنَ البَرْءِ، فهو يرجِعُ إلى الأصنافِ جميعاً، وإنْ كانَ مِنَ البَرَى، وهو الترابُ، فهو يَرْجِعُ إلى البَشَرِ خاصّةً، فَيَصيرُ كأنهُ قالَ: شَرُّ أهلِ البشرِ مِنْ جنسِهِمْ، وخيرُ أهلِ الخَيرِ مِنْ جِنسِهِمْ لأنهمْ صاروا قادةً في الهُدَى والخَيرِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ فإنْ كانَ العَدْنُ، هو المُقامُ، فجميعُ الجِنانِ عَدْنٌ، وجميعُ الجِنانِ[6] نَعيمٌ. ثم قد قَسَّمَ الخَلْقَ صِنفَينِ [صِنفاً][7] جَعَلَهُ شَرَّ البَرِيَّةِ [وصِنفاً][8] جَعَلَهُ خيرَ البَرِيَّةِ. ثم يكونُ مِنْ كلِّ صِنفٍ شَرٌّ مِنْ شَرٍّ وخيرٌ مِنْ خيرٍ، وسَوّى بَينَ مَنْ نَشَأ على الكُفرِ، ودامَ عليهِ في التّأبيدِ والتّخليدِ، وبَينَ مَنْ أحدَثَ الكُفرَ في آخرِ عُمُرِهِ، وكذلكَ مَنْ دامَ على الإيمانِ ومَنْ أحدَثَهُ سَوّى بينَهما، ولم يَجْعَلْ لِما مَضَى مِنَ الكُفرِ جَزاءً ولا عِقاباً، وذلكَ، واللهُ أعلَمُ، هو أنَّ مَنِ اعْتَقَدَ إيماناً إنما[9] يَعْتَقِدُ للأبدِ، وكذلكَ مَنْ يَعْتَقِدُ الكُفرَ إنما يَعْتَقِدُ للأبدِ.

فإذا أحدَثَ الإيمانَ بعدَ الكُفرِ اعْتَقَدَ قُبْحَ [ما][10] عَمِلَ في حالِ كُفْرِهِ وشَرِّهِ وحُسْنَ ما أحدَثَ مِنَ الإيمانِ والتّوحيدِ. وكذلكَ مَنْ أحدَثَ الكُفرَ بعدَ الإيمانِ اعْتَقَدَ فَسادَ ما عَمِلَ في حالِ إيمانِهِ.

لذلكَ [سَوّى][11] بينَ مَنْ أحدَثَ وبَينَ مَنْ دامَ عليهِ، وليسَ كَمَنْ يُذنِبُ في وقتٍ، ويَتوبُ في وقتٍ، لأنهُ [ليسَ][12] يَعْتَقِدُ حُسْنَ ذلكَ ولا قُبْحَهُ في الأبدِ، واللهُ المُوفِّقُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [يَحْتَمِلُ وَجْهَينِ][13]:

أحَدُهما: يقولُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِعَمَلِهِمُ الذي عَمِلوا لأنفسِهِمْ وسَعْيِهِمُ الذي سَعَوا في الدنيا لهمْ، رَضِيَ اللهُ عن سَعْيِهِمْ لهمْ، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رَضُوا هم عنهُ بما أكرَمَهُمْ، ووَفَّقَهُمْ للأعمالِ التي عَمِلوا لأنفسِهِمْ في الدنيا، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي إنْ قَبِلوا ما أحْسَنَ إليهِمْ، وأحسَنوا صُحْبَةَ إحسانِهِ إليهِمْ يَرْضَ ذلكَ لهمْ.

وهذا يدلُّ أنَّ ما يَعْمَلونَ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ إنما يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ ولِمَنْفَعةٍ تَرْجِعُ إليهِمْ أو مَضَرَّةٍ تَنْدَفِعُ عنهمْ.

والثاني: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أكرَمَهُمْ مِنَ الثوابِ لأعمالِهِمُ التي عَمِلوا لأنفُسِهِمْ ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بكرامتِهِ التي أكْرَمَهُمْ.

وقولُهُ تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ هذا منهُ إفضالٌ وإنعامٌ حينَ[14] ذَكَرَ رِضاهُ عنهمْ.

وإنَّ ذِكْرَ العَفْوِ والتّجاوُزِ كانَ حَقًّا. ولكنَّ هذا كما ذَكَرَ مِنْ لَطيفِ مُعامَلَتِهِ عبادَهُ حينَ[15] سَمّى ما ادَّخَروا في وقتِ حاجتِهِمْ إليهِ قَرْضاً حَسَناً حينَ[16] قالَ: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] وسَمّى بَذْلَهُمْ أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ شِراءً[17] وما يَعْمَلونَ لأنفسِهِمْ جَزاءً وشُكراً، وأموالَهُمْ وأنفسَهُمْ في الحقيقةِ لهُ.

ولكنْ سَمّى الذي ذَكَرْنا لُطفاً منهُ وفَضْلاً. فَعَلَى ذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ رِضاهُ عنهمْ بهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: و. (٩) من م، في الأصل: تاماً. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٣) ساقطة من الأصل وم. (١٤) في الأصل وم: حيث. (١٥) في الأصل وم: حيث. (١٦) في الأصل وم: حيث. (١٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾

وكذلكَ قولُهُ: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ذَكَرَ رِضاهُمْ عنهُ بِفَضْلِهِ ولُطْفِهِ، وإلّا فمِنْهُمُ[1] الرِّضا عنِ اللهِ تعالى.

ثم هو يُخَرَّجُ على وجهَينِ سِوَى ما ذَكَرْنا:

أحَدُهما: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما امْتَحَنَهُمْ في الدنيا بالمِحَنِ الشديدةِ العظيمةِ، وإنِ اشْتَدَّتْ، وثَقُلَتْ[2] على أنفسِهِمْ، إذا رَأَوا إحسانَ اللهِ تعالى وفَضْلَهُ في الآخِرَةِ.

والثاني: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بالنِّعَمِ التي أكْرَمَهُمْ في الجنةِ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ولا يُريدونَ غَيرَها، ولا يَمَلُّونَ [على ما يَمَلُّونَ][3] في الدنيا.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي لا يزالونَ على هذهِ الحالِ؛ يقولُ الرجلُ: ما انْفَكَكْتُ أفعلُ كذا وكذا. وقالَ القُتَبِيُّ وأبو عُبَيدٍ وغَيرُهما: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ زائِلِينَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي الذي ذَكَرَ مِنَ الجزاءِ لِمَنْ خَشِيَ نِقْمَتَهُ أو خَشِيَ سُوءَ صُحْبَةِ نِعَمِهِ.

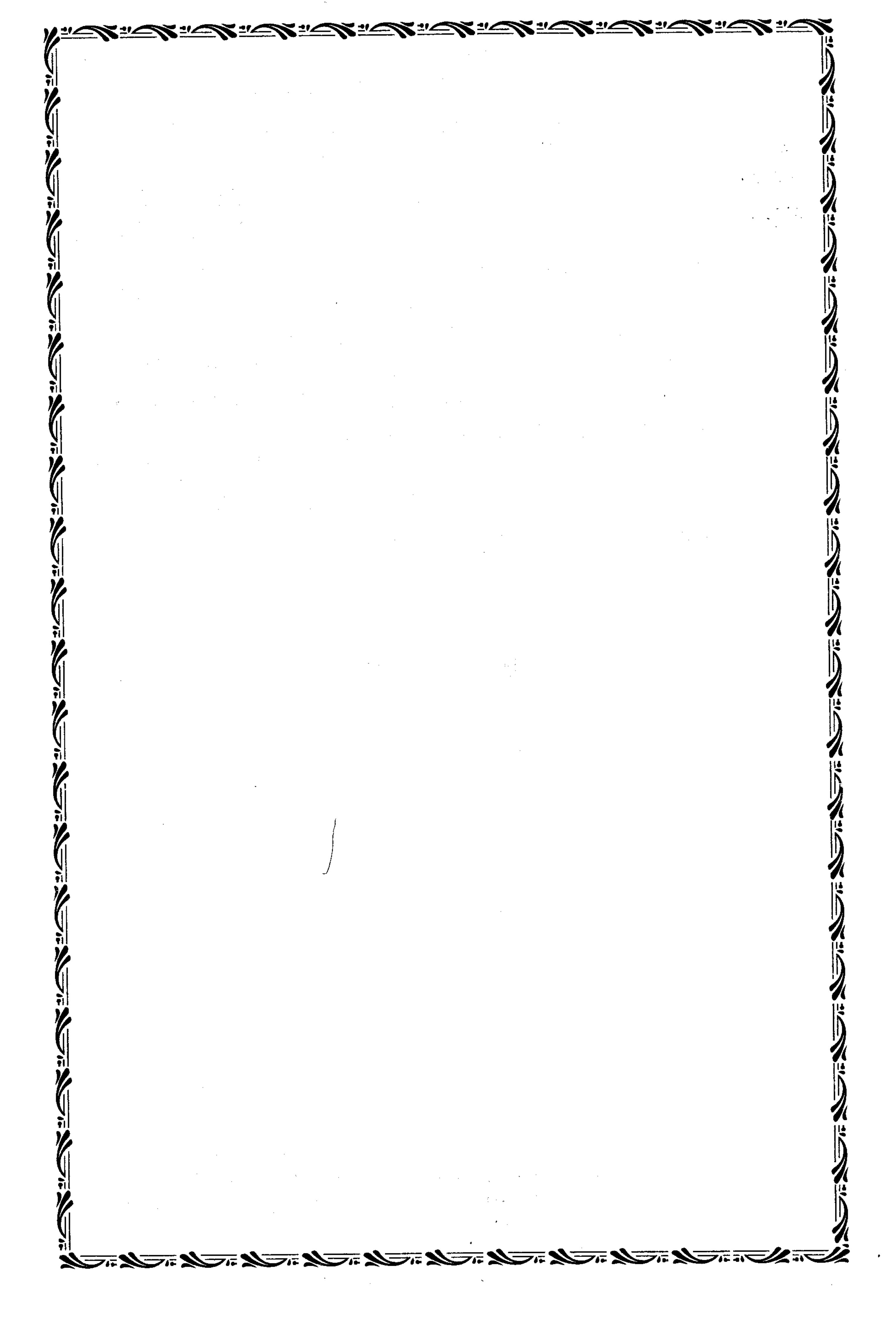
وأصلُهُ: أنَّ مَنِ اجْتَنَبَ المَعاصِيَ، وعَمِلَ بالطاعاتِ فإنما يَفْعَلُ ذلكَ لِخَشْيةِ ربِّهِ ﷻ فكلُّ مَنْ [هو][4] أعلَمُ بربِّهِ فهو أخشَى لربِّهِ تعالى، ومَنْ [هو][5] أجْهَلُ بِهِ فهو أجْرأُ [على مَعْصِيَتِهِ][6].

قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا﴾ [فاطر: ٢٨].

وقالَ الحَسَنُ: الخشيةُ، هي[7] الخوفُ اللازمُ في القلبِ الدائمُ فيهِ، أي[8] خَشِيَ خلافَهُ وكُفْرانَ نِعَمِهِ، واللهُ أعلَمُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ.

---

(١) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٢) أدرج قبلها في الأصل وم: ذلك. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: هو. (٨) في الأصل وم: أو.



سورة[1] الزلزلة

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٠ ـ ب/

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قد ذَكَرْنا أنَّ حَرْفَ ﴿إِذَا﴾ يُذكَرُ عنْ سؤالٍ سَبَقَ منهمْ؛ كأنهمْ سألوا عنِ الوقتِ الذي كانوا يُوعَدونَ فيهِ، وإنْ لم يُذْكرِ السؤالُ، لأنهُ قد يكونُ في الجوابِ بيانُ السؤالِ، وفي السؤالِ بيانُ الجوابِ، وإنْ لم يُذْكرْ. فعندَ ذلكَ قالَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أخبَرَهُمْ عنْ أحوالِ يومِ القيامةِ والحِسابِ، ولم يُخبِرْهُمْ عنْ وقتِها، وقد ذُكِرَ في غيرِ موضعٍ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حُرِّكَتِ الأرضُ تَحريكاً شديداً لِهَولِ ذلكَ اليومِ، وهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: جائزٌ أنْ تكونَ تُتَزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ حتى تُلْقيَ ما ارْتَفَعَ منها منَ الجبالِ الرواسي في الأوديةِ حتى تَستويَ الأرضُ، فلا يَبْقَى فيها هُبوطٌ ولا صُعودٌ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

[والثاني][3]: جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ أي تُزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ بِغيرِ الجبالِ الرواسي حتى تَصيرَ كما ذَكَرَ: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤و٥].

وقولِهِ تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. فإذا فَنِيَتْ، وتلاشَتْ، بقِيَتِ الأرضُ مُستويةً على ما ذَكَرَهُ.

ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ تُتَزَلْزَلُ، وتُحرَّكُ، حتى تصيرَ غيرَ تلكَ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٨].

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ تَبديلُها وتَحريكُها ومَدُّها، هو تَغَيُّرُ صِفاتِها على ما ذَكَرْنا في الوَجهَينِ الأوَّلَينِ.

قالَ الزَّجّاجُ: لا تَصِحُّ هذهِ[4] القراءةُ لأنَّ الزَّلزالَ مِنَ المُضاعفِ، إنما تكونُ بالخَفضِ مصادرُها. أمّا الأسماءُ فقد[5] تكونُ نَصْباً كقولِهِ تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ [الحجر: ٢٦و...] ونَحوُهُ. والزِّلزالُ مَصْدَرٌ، فيكونُ في الأصلِ المُطَّرِدِ فيهِ، هو الكَسْرُ، والنَّصْبُ يكونُ نادراً، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي أحمالَها لِهَولِ ذلكَ اليومِ كقولِهِ في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

ثم يَحتَمِلُ ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾ و﴿وَأَلْقَتْ﴾ مافيها مِنَ المَوتَى مِنْ أوّلِ ما دُفِنَ فيها منْ كلِّ شيءٍ مِنَ الحيوانِ وغيرِها إلى آخِرِ ما يُجعَلُ فيها مِنَ الكنوزِ وغَيرِها ممّا يَحتَمِلُ الحسابَ وممّا لا يَحتَمِلُ مِنَ البشرِ وجميعِ المُمتَحَنينَ وغَيرِهِمْ.

ويَحتَمِلُ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ المُمتَحَنينَ خاصّةً مِمَّنْ يُحاسَبونَ، ويُثابونَ، ويُجزَونَ.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ [﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾][6] قالَ الكافرُ مالَها تَتَحرَّكُ؟ فقالَ بعضُهُمْ: أحمَقُ في الدنيا وأحمَقُ في الآخِرةِ حينَ[7] يسألُ: الأرضُ مالَها تَتَزَلْزَلُ، وتَتَحرَّكُ؟ يَظُنُّ أنها بنفسِها تَفعَلُ ذلكَ،

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) في الأصل وم: و. (٤) المقصود بها: زلزال بالفتح، وهي قراءة عاصم الجحدري وعيسى بن عمر بالفتح، انظر معجم القراءات القرآنية ح٨/ ٢١٨. (٥) الفاء ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: حيث.

لا لِفَزَعِهِ ممّا[1] يَرَى مِنْ أهوالِ ذلكَ اليومِ وتَغْيِيرِ أحوالِها على ما لم يَنْظُرْ في الدنيا في الآياتِ والحُجَجِ حتى يَقْبَلَها، ويَخْضَعَ لها.

وقالَ بعضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ كأنهُ يقولُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ تَشْهَدُ، وتُخْبِرُ بما عَمِلَ على ظَهْرِها.

ثم [قولُهُ تعالى][2]: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ يُخَرَّجُ على وُجوهٍ:

أحَدُها: ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: أنها تُخْبِرُ، وتُحَدِّثُ بما عَمِلَ على ظهرِها مِنْ خيرٍ أو شَرٍّ أو طاعةٍ أو مَعْصِيَةٍ. لكنْ لا يَحْتَمِلُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ الخيرَ لأنها إنما تَشْهَدُ عليهِمْ لإنكارِ أهلِ الكُفرِ ما كانَ منهمْ مِنْ فِعْلِ الكُفْرِ والمَعْصِيَةِ. وأمّا أهلُ الجنةِ فإنهمْ يكونونَ مُقِرِّينَ بالخَيراتِ، واللهُ تعالى يُصَدِّقُهُمْ على ذلكَ، واللهُ أعلَمُ.

وكذلكَ ما ذَكَرَ مِنْ شهادةِ الجوارحِ؛ إنما تَشْهَدُ عليهِمْ على ما يُنْكِرونَ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ وغَيرِ ذلكَ مِنَ المعاصي. فَعَلَى ذلكَ التَّأويلِ يكونُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ على حقيقةِ النطقِ والكلامِ.

[والثاني: ما][3] قالَ بعضُهُمْ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما ذَكَرَ مِنْ تَزَلْزُلِها وتَحَرُّكِها والأحوالِ التي تكونُ فيها، هو تَحْديثُها وأخبارُها التي تكونُ منها.

[والثالثُ: ما][4] قالَ بعضُهُمْ: يومئذٍ تَبَيَّنُ، وتَقَعُ أخبارُها التي أُخْبِروا في الدنيا، فكَذَّبوها، يومئذٍ يَتَبَيَّنُ لهمْ ذلكَ، وتَقَعُ لهمُ المُشاهدةُ عِياناً مِنَ الحِسابِ والثّوابِ والعِقابِ.

وفي الخَبَرِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «أتَدْرونَ ما أخبارُها؟ قالوا: اللهُ ورسولُهُ أعلَمُ، قالَ: أخبارُها أنْ تَشْهَدَ على كلِّ عَبْدٍ وأَمَةٍ بما عَمِلَ على ظَهْرِها» [الترمذي: ٢٤٢٩].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ مَنْ قالَ بأنَّ أخبارَها مِنْ شَهادَتِها بما عَمِلوا على ظَهْرِها [فيكونُ تأويلُ][5] قولِهِ تعالى: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ مِنْ شَهادَتِها بما عَمِلوا على ظَهْرِها.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أذِنَ لَها بالشهادةِ، فَتَشْهَدُ.

ومَنْ قالَ: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ هو تَزَلْزُلُها وتَحَرُّكُها والأحوالُ التي تكونُ منها، فيقولُ على إسقاطِ ﴿لَهَا﴾: يقولُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ﴾ أي فَعَلَ ذلكَ بها.

والوَحْيُ قد يكونُ الوَحْيَ والإلهامَ والأمرَ، ويُسْتَعْمَلُ في ما يَليقُ.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَحْتَمِلُ صدورُ الناسِ مِنْ وَجْهَينِ:

أحدُهما: يَصْدُرونَ مِنْ قبورِهِمْ إلى الحسابِ لِيُرَوا كتابةَ أعمالِهِمْ، أي لِيُرَوا ما كُتِبَ مِنْ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا.

[والثاني][6]: صُدورُهُمْ على ما أعَدَّ لهمْ في الآخِرَةِ مِنَ الثوابِ والعِقابِ. فَعَلَى هذا التأويلِ لِيُرَوا جزاءَ أعمالِهِمُ التي عَمِلوا في الدنيا كقولِهِ تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وقولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] هذا تفسيرُ قولِهِ: ﴿أَشْتَاتًا﴾.

الآيتان ٧ و ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قالَ بعضُهُمْ: يَرَى الكافرُ ما عَمِلَ مِنْ خَيرٍ في الدنيا، وأمّا في الآخِرَةِ فلا يَرَى لأنهُ لا يُؤمِنُ بها، ولا يَعْمَلُ لها، كقولِهِ تعالى:

---

(١) من م، في الأصل: ما. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: يكون تأويله. (٦) في الأصل وم: ويحتمل.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] والمؤمنُ يَرَى ما عَمِلَ مِنْ شَرٍّ في الدنيا وما عَمِلَ [مِنْ خَيرٍ][1] في الآخِرَةِ.

وعلى ذلكَ رُوِيَ في الخَبَرِ «أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ كانَ جالساً مع رسولِ اللهِ ﷺ فَنَزَلَتِ الآيةُ، فقالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لِرسولِ اللهِ ﷺ: أكلُّ ما عَمِلَ مِنْ شرٍّ يَراهُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ما تَرَونَ في الدنيا ممّا تكرَهونَ فهو مِنْ ذاكَ، ويُدَّخَرُ الخيرُ لأهلِهِ في الآخِرَةِ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٢و٥٣٣].

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ على الإحصاءِ والحِفْظِ كقولِهِ تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي لا يَذهبُ عنهُ شيءٌ قليلٌ ولا كثيرٌ حتى الذَّرَّةُ.

ويَحتَمِلُ وجهاً آخَرَ، وهو[2] أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ أي مَنْ يَعْمَلْ مِنَ المؤمنينَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ في الآخِرَةِ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الكفارِ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ في الآخِرَةِ، لأنَّ اللهَ تعالى قد أخبرَ في غَيرِ آيةٍ[3] مِنَ القرآنِ أنهُ يَتَقبَّلُ حسناتِ المؤمنينَ، ويَتجاوَزُ عنْ سَيِّئاتِهِمْ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧] ونَحْوَ ذلكَ مِنَ الآياتِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ليسَ إرادةَ حقيقةِ الذَّرَّةِ، ولكنْ على التَّمثيلِ.

ثم قيلَ: مِنْ أخبارِ الأرضِ وما ذَكَرَ مِنْ شهادةِ الجوارحِ أنْ كيفَ احْتَمَلَ ذلكَ، وهي[4] أمواتٌ، والأمواتُ[5] لا عِلْمَ لها؟

فجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ لها عِلْماً، ويُنْطِقُها بذلكَ، وأنَّ لها بذلكَ عِلْماً على جَعْلِها آيةً في قولِهِ تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ دلالةٌ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وقولُهُ [ﷺ][6]: «لا تُسافروا بالقرآنِ إلى أرضِ / ٦٥١ ـ أ/ العَدُوِّ» [مسلم١٨٦٩/ ٩٤]. وقولَ الناسِ: يُقرأُ كلامُ ربِّ العالمينَ، وفي المصاحفِ [قرآنٌ، لا يُرادُ بهِ حقيقةُ كلامِ اللهِ تعالى في المصاحفِ][7] ولا حقيقةُ كونِ القراءةِ فيها والسفَرِ بهِ ولا حقيقةُ سماعِ كلامِهِ تعالى، ويكونُ على ما أرادَ مِنْ سماعِ ما بهِ يُفْهَمُ كلامُهُ، ويُسْمَعُ ما يُعَبَّرُ بهِ عنْ كلامِهِ، وكذلكَ يكونُ في المصاحفِ ما يُفْهَمُ بهِ كلامُهُ أو ما يُعَبَّرُ بهِ عنْ كلامِهِ على ما ذَكَرْنا مِنْ رؤيةِ الأعمالِ وأعيُنِ الأعمالِ، ولكنْ يُرَى ما يَدُلُّ عليها، وهو المكتوبُ مِنْ أعمالِهِمْ في الكتبِ التي فيها أعمالُهُمْ. فَعَلَى ذلكَ هذا، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ [وصلّى اللهُ تعالى على محمدٍ، وسلَّمَ. تَمَّتْ هذه السورةُ][8].

---

(١) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٢) من م، في الأصل: و. (٣) في الأصل وم: آي. (٤) من م، في الأصل: وهو. (٥) في الأصل وم: والموات. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل. (٨) ساقطة من م.

سورة[1] العاديات

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ إلى آخِرِه؛ قالَ عليٌّ، كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ، وعبدُ اللهِ، رضي الله عنه: هي الإبلُ، وقالَ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه وغيرُهُ مِنْ أهلِ التأويلِ: هي الخَيلُ، غيرَ أنَّ علياً رضي الله عنه قالَ: ذلكَ يومُ بَدْرٍ، وقالَ ابْنُ مسعودٍ رضي الله عنه ذلكَ.

ومَنْ قالَ: هي الخَيلُ، قالَ ذلكَ في سَرِيَّةٍ بَعَثَها رسولُ اللهِ ﷺ فأبطَأَ عليهِ خَبَرُها، فاغْتَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ فنَزَلَ جبرائيلُ، صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ، بِخَبَرِها على ما ذَكَرَ، وَوَصَفَ، فَسُرَّ بذلكَ المؤمنونَ.

فإنْ كانَ في أمرِ السَّرِيَّةِ والخَيلِ على ما قالَهُ ابْنُ عباسٍ رضي الله عنه فَجِهَةُ القَسَمِ بذلكَ يَحْتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: أنهُ مِنْ عِلْمِ الغيبِ؛ إذ لا يَعْلَمُ بِحالِهِمْ، وما وَصَفَ مِنْ أمرِ الخيلِ، لا يكونُ إلّا بالوَحْيِ مِنَ السماءِ أو مَنْ شَهِدَ ذلكَ. فإذا لم يُخْبِرْهُمْ[2] أحدٌ مِمَّنْ شَهِدَها، ثم أخبَرَ بذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ ثم ظَهَرَ عندَهُمْ على ما أخبَرَ رسولُ اللهِ ﷺ عَلِموا بذلكَ أنهُ رسولُ اللهِ ﷺ وأنهُ إنما عَرَفَ بالوَحْيِ مِنَ اللهِ تعالى، وذلكَ مِنْ أعظمِ آياتِ الرسالةِ.

[والثاني:][3] أنْ يكونَ بما ذَكَرَ مِنْ شِدَّةِ الخيلِ وقُوَّتِها وحِدَّةِ بَصَرِها حينَ[4] عَدَتْ في ليلٍ مُظْلِمٍ، لا قَمَرَ فيهِ، ولا نورَ، عَدْواً، تَخْرُجُ النارُ مِنْ شِدَّةِ عَدْوِها مِنَ الحجارةِ التي تَضْرِبُ بِحَوافِرِها، ما لا يُقْدَرُ لإنسانِ العَدْوُ في مكانٍ مُسْتَوٍ فَضْلاً ألّا[5] يَقْدِرَ على ذلكَ مِنَ الصعودِ والهُبوطِ وما ذَكَرَ مِنْ إثارةِ النَّقْعِ مِنْ شِدَّةِ عَدْوِها وتَوَسُّطِها في العَدْوِ.

[والثالثُ: أنْ][6] يذْكُرَ مُوافقةَ مُرادِهِمْ وحُصولَ غَرَضِهِمْ في الإغارةِ على عَدُوِّهِمْ في أغْفَلِ ما يكونُ العَدُوُّ، وهو وقتُ الصبحِ.

ثم القَسَمُ يقولُ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ وما ذَكَرَ مِنَ المورياتِ وغَيرِهِ، هو صفةُ العادياتِ ونُعوتُها، وفيهِ [بِشاراتٌ ثلاثٌ:

إحداها:][7] أنهُ لم تَحْدُثْ لهمْ حادثةٌ، والثانيةُ[8]: الإغارةُ على العَدُوِّ. والثالثةُ[9]: أنهمْ توسَّطوا العَدُوَّ.

ومن قالَ: هي الإبلُ، وذلكَ في أمرِ الحَجِّ، يَذْكُرُ سرعةَ سَيرِها وشِدَّةَ عَدْوِها في الليلةِ المُظْلِمةِ التي فيها الأوديَةُ والهُبوطُ والصعودُ.

الآية ٢ ثم قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ على هذا التأويلِ؛ أي تَضْرِبُ الحجرَ بالحجرِ فَتَخْرُجُ منهُ النارُ مِنْ شِدَّةِ سَيرِها وعَدْوِها، وفي الخَيلِ شِدَّةُ ضَرْبِ الحَوافرِ على ما ذَكَرْنا.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا﴾ على هذا التأويلِ يقولُ بعضُهُمْ: نُزولُهُمْ في تلكَ الغاراتِ والأوديَةِ في وقتِ الصُّبْحِ. والأشبَهُ أنْ يكونَ خُروجُهُمْ في تلكَ الغاراتِ والأوديَةِ في ذلكَ الوقتِ لأنَّ ذلكَ الوقتَ وقتُ الخُروجِ منها والرَّواحِ[10] لا وقتُ المُقامِ، أو يكونَ قدِ استَقْبَلَهُمُ العَدُوُّ هنالكَ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) في الأصل وم: يحضرهم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) في الأصل وم: أن. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) في الأصل وم: بشارة ثلاثة أحدها. (٨) في الأصل وم: والثاني. (٩) في الأصل وم: والثالث. (١٠) في الأصل وم: والدفع.

وَمَنْ أرادَ بهمُ الشَّرَّ فتكونُ المُغيراتُ على الإغارةِ عليهِمْ، إنْ كانَ ثَمَّ عَدُوٌّ.

الآيتان ٤ و٥ [وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾][1] ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ على هذا التأويلِ الجَمْعُ في الحجِّ، وهو الجَمْعُ المَعْروفُ.

وَمَنْ قالَ ذلكَ في الخَيلِ يكونُ تَوَسُّطُهُنَّ في جَمْعِ العَدُوِّ.

الآية ٦ ثم الذي وَقَعَ بهِ القسمُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أيِ الإنسانَ لِنِعَمِ ربِّهِ لَكَفورٌ، لا يَشْكُرُها، وهو أنَّ الإنسانَ يذكُرُ مَصائِبَهُ وما يُصيبُهُ مِنَ الشِّدَّةِ في عُمُرِهِ أبداً، ويَنْسَى جميعَ ما أنْعَمَ عليهِ ولا[2] يُفارِقُهُ طَرْفَةَ عينٍ. وكذلكَ قالَ الحَسَنُ: الكَنودُ، هو الذي يَعُدُّ المصائبَ، ويَنْسى النِّعَمَ.

وقيلَ: الكَنودُ القَتورُ البَخيلُ الشَّحيحُ في الإنفاقِ، ويَجبُ أنْ يكونَ وصفُ كلِّ إنسانٍ ما ذَكَرَ. لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ شكرَ نِعَمِ اللهِ تعالى، ويَجْتَهِدُ في ذلكَ، ويَصْبِرُ على المصائبِ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩] وقولِهِ: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وهو كلُّ إنسانٍ. ثم اسْتَثْنى ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢] منهمْ، وهمُ المؤمنونَ، أي كذلكَ خُلِقَ، وطُبِعَ كلُّ إنسانٍ. لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ إخراجَ نفسِهِ مِنْ ذلكَ الطَّبْعِ [الذي][3] أُنْشِئَ عليهِ، وطُبِعَ إلى غَيرِها مِنَ الطبائعِ كالبهائمِ والسِّباعِ التي طَبْعُها النفورُ مِنَ الناسِ بالاسْتيحاشِ عنهمْ، ثم تَصيرُ بالرياضةِ ما تستقرُّ عندَهُمْ، وتُجيبُهُمْ عندَ دعوَتِهِمْ.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قالَ بعضُهُمْ: إنَّ الإنسانَ على ما فَعَلَهُ في الدنيا لَشَهيدٌ في الآخِرَةِ على ما جَمَعَهُ، أي يَشْهَدُ ذلكَ، ويَعْلَمُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي ذلكَ الإنسانُ بِبُخْلِهِ وامْتِناعِهِ عنِ الإنفاقِ لَشَهيدٌ، أي يَتَوَلَّى حِفْظَ مالِهِ وإحصاءَهُ بنفسِهِ، لا يَثِقُ بغَيرِهِ. وقالَ بعضُهُمْ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني اللهَ تعالى ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي عالمٌ؛ يُحْصيهِ، ويَحْفَظُهُ كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي ذلكَ الإنسانُ لَشديدُ الحبِّ للمالِ، فَذَكَرَ بُخْلَهُ وشُحَّهُ في المالِ في تَرْكِ الإنفاقِ والبَذْلِ. وعلى ذلكَ طُبِعَ كلُّ إنسانٍ على ما ذَكَرْنا، لكنَّ المؤمنَ يَتَكَلَّفُ إخراجَ نفسِهِ ممَّا طُبِعَ بالرياضةِ، ويَجْتَهِدُ بالإنفاقِ. والحبُّ هنا حبُّ إيثارٍ أي يُؤْثِرُ لنفسِهِ.

الآيتان ٩ و١٠ وقولُهُ تعالى: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾][4] يقولُ، واللهُ أعلَمُ: أفلا يَعْلَمُ قدرةَ ربِّهِ وسلطانَهُ وحكمَتَهُ في إنشائِهِ أنهُ يَسْتَخرِجُ ما في القبورِ، ويُحْيِيهِمْ؟ أو يقولُ[5]: أفلا يَعْلَمُ أي فَيَعْلَمُ ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي ربُّهُمْ يومئذٍ لَخَبيرٌ بما كانَ منهمْ في الدنيا.

[وقولُهُ تعالى:][6] ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ يقولُ: فَهَلَّا يَعْلَمُ أيضاً أنهُ يُمَيِّزُ ما في الصُّدورِ، ويُبَيِّنُ، ويُظْهِرُ ما فيها، لا يَتْرُكُ فيها[7] غيرَ مُمَيَّزٍ ولا مُبَيَّنٍ، بل يُظْهِرُ، ويُمَيِّزُ كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي [على عِلْمٍ][8] بذلكَ، يُخْبِرُهُمْ[9]، ويَجْزيهِمْ بما[10] يَجْزيهِمْ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ دلالةُ أنَّ حُصولَ الأعمالِ وخُلوصَها وما يُثابُ عليها، ويُعاقَبُ بالقلوبِ [وبالثَّباتِ لا بنفسِ الأعمالِ حينَ[11] قالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾][12].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: والا. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: يكون.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: كذلك. (٨) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: عن علمه له. (٩) في الأصل وم: أحدهم. (١٠) في الأصل وم: مما. (١١) في نسخة الحرم المكي: حيث. (١٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

قالَ أهلُ اللغةِ وأبو عوسَجَةَ: ﴿ضَبْحًا﴾ الضَّبْحُ صَوتٌ في الصُدور، ضَبَحَ يَضْبَحُ /٦٥١ ـ ب/ ضَبْحاً، فهو ضابحٌ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي هَيَّجْنَ الغبارَ بِحوافِرِهِنَّ، والنَّقْعُ الغُبارُ، والنُّقوعُ جماعةٌ ﴿فَوَسَطْنَ﴾ مِنَ التَّوَسُّطِ، أي صِرْنَ في الوَسْطِ، و﴿لَكَنُودٌ﴾ كفورٌ، ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي اخْتُبِرَ، يقالُ: حَصَّلْتُ أي اخْتَبَرْتُ.

وقالَ بعضُهُمْ والقُتَبِيُّ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ الخيلُ، والضَّبْحُ صَوتُ حُلوقِها إذا عَدَتْ. وقيلَ: الضَّبْحُ والضَّبْعُ واحدٌ في السَّيرِ، يُقالُ: ضَبَحَتِ الناقةُ، وضَبَعَتْ ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ أي أورَتِ النارَ بِحوافِرِها، والأرضُ الكَنودُ التي لا تُنْبِتُ شيئاً. وقالَ: ﴿بُعْثِرَ﴾ أي قُلِبَتْ، فَجُعِلَ أسْفَلُها أعلاها ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي اخْتُبِرَ ما فيها مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ واليَقينِ. واللهُ أعلمُ بالصوابِ[١].

❀ ❀ ❀

(١) ساقطة من م.

[سورة القارعة](١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾](٢) قالَ: القارعةُ عندَهُمْ، هي الداهيةُ الشديدةُ مِنَ الأمورِ، وهي في هذا المَوضِعِ وصفٌ لِشِدَّةِ هَولِ يومِ القيامةِ، وهو مِنَ اللهِ تعالى تذكيرٌ لِعبادِهِ وتَعْجيبٌ لهُ عمّا يكونُ في ذلكَ اليومِ منَ الأحوالِ والأفعالِ، وسَمّى اللهُ تعالى في كتابِهِ ذلكَ اليومَ بما يكونُ فيهِ مِنِ اختِلافِ الأحوالِ نَحْوَ قولِهِ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ و﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وما أشبَهَ ذلكَ.

فكذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ تذكيرٌ لهمْ بما وَصَفَ منْ حالِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ لِيَتَفكَّروا في العَواقبِ، ويَتَدَبَّروا ما يَستَقْبِلُهُمْ في الأواخِرِ منَ العذابِ، فَيَمْتَنِعوا بذلكَ عمّا نهاهُمُ اللهُ تعالى عنهُ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ في بَني آدمَ نَفساً تُدرِكُ بها الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ في الدنيا وعقلاً تَتَذَكَّرُ بهِ عَواقِبَ الأمورِ وأواخِرَها، ويَزيدُهُ ذلكَ تَيَقُّظاً وتَبَصُّراً، ثم العقلُ مَرَّةً يَدعوها إلى نَفْسِهِ حتى تميلَ إلى ما يَدْعوهُ في جَزاءِ ما أطْمَعَ في العاقِبةِ، والنَّفسُ مَرَّةً تدعو [إلى الشهواتِ واللَّذاتِ](٣)، فَيَصيرُ هواهُ ومَيلُهُ في ما يَتَلَذَّذُ مِنَ الشَّهَواتِ في دنياهُ. وعلى ذلكَ تأويلُ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] أي يَرْحَمُهُ، ويَعْصِمُهُ عنِ اختيارِ السوءِ، أي رَحِمَهُ حتى جَعَلَ هواهُ في ما توجِبُهُ العواقبُ منَ الجَزاءِ والثوابِ.

فكذلكَ ذَكَّرَ اللهُ تعالى عبادَهُ بما يَستَقْبِلُهُمْ مِنَ الأحوالِ في ذلكَ اليومِ لِيُعْمِلوا عقولَهُمْ في [أذكارِهِ وتَذَكُّرِهِ](٤)، فَيَنزَجِروا عمّا زَجَرَهُمْ عنهُ، أو يَتَذَكَّروا ما(٥) وَعَدَ لهمْ مِنَ الجزاءِ في ذلكَ اليومِ، فَيَزدادوا بذلك حِرْصاً في الخيراتِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ اختَلَفوا في تأويلِهِ مِنْ وُجوهٍ، لكنَّهُ في الحاصلِ يرجِعُ إلى مَعْنًى واحِدٍ: فمنهمْ مَنْ قالَ أي كالجَرادِ المُنتَشِرِ حينَ أراداتِ الطيرانَ، ومنهمْ مَنْ قالَ: كالجَرادِ الذي يَموجُ بعضُهُمْ في بعضٍ، ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ الذي يَتَهافَتُ في النارِ، فَيَحْتَرِقُ. وكلُّ ذلكَ يُؤَدّي مَعْنَى الحَيرةِ والاِضْطِرابِ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ.

وأصلُ ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] فكأنَّ اللهَ تعالى قالَ: إنهمْ يَصيرونَ في الحَيرةِ منْ هَولِ ذلكَ اليومِ وشِدَّتِهِ كالطائرِ الذي لا يَدْري أينَ يطيرُ؟ وأينَ يَثْبُتُ؟ وأينَ يَنْزِلُ؟

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ قالَ بعضُهُمْ: كالصوفِ المصبوغِ، وقالَ بعضُهُمْ: كالمَنْدوفِ مِنَ الصوفِ.

فإنْ كانَ على التأويلِ الأوَّلِ فَمَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، أنَّ الجبالَ في ذلكَ اليومِ تَتَلَوَّنُ ألواناً منْ شِدَّةِ ذلكَ اليومِ بِلَونِ العِهْنِ، ألا تَرَاهُ يقولُ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨] ويقولُ(٦): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥] فكذلكَ هذا على ذلكَ المَعْنى.

وإنْ كانَ على التأويلِ الآخَرِ فَمَعْناهُ: أنّ الجبالَ معَ شِدَّتِها وصَلابَتِها تَصيرُ في الرَّخاوَةِ والضَّعْفِ مِنْ هَولِ ذلكَ اليومِ كالصوفِ المَنْدوفِ، إنَّ ذلكَ أضعفُ أحوالِهِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: إليه. (٤) في الأصل وم: أفكاره والتذكير عنه. (٥) في الأصل وم: عما. (٦) في الأصل وم: وقال.

وقالَ قتادةُ: شَبَّهَهُمْ بِغَنَمٍ لا راعِيَ لها، وذَكَرَ العِهْنَ كِنايةً عنِ الغَنَمِ.

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ اختَلَفوا في تأويلِ الميزانِ مِنْ وجوهٍ، ولكنَّ أقْرَبَها عندَنا وجْهانِ:

أحدُهما: أنْ يكونَ المُرادُ مِنْ قولِهِ: ﴿ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جُمْلَةَ المؤمنينَ، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جُملةَ الكُفّارِ، ويكونُ الوجهُ في ذلكَ أنَّ المؤمنَ لمّا عَظَّمَ حقَّ اللهِ تعالى، وأقامَ حدودَهُ كانَ لهُ مِيزانٌ وقيمةٌ وخَطَرٌ عندَ اللهِ تعالى في ذلكَ، والكافرُ لمّا تَرَكَ ذلك خَفَّ وَزْنُهُ وقيمتُهُ وخَطَرُهُ. وقد يُطْلَقُ، واللهُ أعلَمُ، هذا الكلامُ على مَعْنَى الجاهِ والمَنْزِلَةِ؛ يُقالُ: لِفلانٍ عندَ فلانٍ وَزْنٌ وقيمةٌ، وليسَ عندَهُ ذلك الوَزْنُ. فكذلكَ هذا.

والوجهُ الثاني مِنْ وَزْنِ السّرائرِ التي لم يُطْلِعِ اللهُ تعالى على ملائكتِهِ الذينَ يكتبونَ أعمالَ بَني آدمَ ذلكَ.

ومعلومٌ أنَّ ذلك إنما يَحْصُلُ مِنَ المؤمنينَ دونَ الكَفَرَةِ. وقد وصَفْنا مسألةَ الميزانِ[1]، وبَيَّنّاها، فلذلكَ اختَصَرْنا الكلامَ في هذا الموضعِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ منهمْ مَنْ قالَ ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] يَرْضَى أهلُ الجنةِ بتلكَ العيشةِ، فهي مَرْضِيَّةٌ، ومنهمْ مَنْ قالَ: ذاتُ رِضاً كقولِهِ تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] أي ذاتِ انْدِفاقٍ. ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهُ أضافَ الرِّضا إلى العيشِ، لأنهُ بِهِ يَرْضَى.

الآيات ٨ ـ ١٠ وقولُهُ تعالى: [﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾][2] منهمْ مَنْ قالَ: سَمّى النارَ أمّاً للكافرِ لأنهُ إليها يأوي. ومنهمْ مَنْ يقولُ: المُرادُ مِنَ الأمِّ أُمُّ رأسِهِ أي يُلْقَى في جهنَّمَ على أمِّ رأسِهِ منكوساً.

وقولُهُ تعالى: ﴿هَاوِيَةٌ﴾ أي يَهوي بِهِ حينَ[3] لا يكونُ لهُ ثبتٌ ولا قرارٌ.

الآية ١١ وقولُهُ تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي تَحْميهِ، وتُنْضِجُهُ. ومنهمْ مَنْ قالَ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ أي شديدةُ الحَرِّ، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ][4] على سيدنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

---

(١) في قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [المؤمنون: ١٠٢ و١٠٣]. (٢) في الأصل وم: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) في م: وصلى الله.

[سورة التكاثر][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٢ ـ أ/

الآيتان ١ و ٢ قولُهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي شَغَلَكُمُ التَّفاخُرُ بالتَّكاثُرِ. ثم لم يَقُلْ عَمّاذا شَغَلَهُمْ. فيجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي شَغَلَكُمْ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ عنْ توحيدِ اللهِ تعالى أو عنِ التَّفكُّرِ في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ أو عنْ ذِكْرِ البعثِ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يَحْتَمِلُ تأويلَيْنِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ الغَرَضُ [مِنَ الخِطابِ][(٢)] بهذهِ الآيةِ آباءَهُمْ وسَلَفَهُمُ الذينَ تَقَدَّموا بالأخبارِ عنْ قُبْحِ صَنيعِهِمْ واشْتِغالِهِمْ بالسَّفَهِ، فيكونُ هذا صِلَةَ آياتٍ أُخَرَ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم [مُّهْتَدُونَ﴾ وقولِهِ: ﴿مُّقْتَدُونَ﴾][(٣)] [الزخرف: ٢٢ و٢٣] وغيرِ ذلكَ، فكأنَّ اللهَ تعالى يُخْبِرُهُمْ بآبائِهِمْ، وينهاهُمْ عنِ الاقْتِداءِ بآبائهمْ لأنهمْ تَعاطَوا أفعالاً تَخرُجُ عنِ الحِكْمةِ حتى ماتوا. وذلكَ يَقَعُ مِنْ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أنَّ مَنْ أنْعَمَ اللهُ عليهِ نعمةً، فَجَحَدَها، ولم يُؤَدِّ شُكْرَها، اسْتَوجَبَ المَقْتَ والعقوبةَ؛ يقولُ: كيفَ تَقْتَدونَ بآبائِكُمْ، وإنهمْ كَفَروا بِنِعمةِ اللهِ، وجَحَدوا بها، بلِ الواجبُ عليكُمْ أنْ تتَّبِعوا [النَّبيَّ الذي][(٤)] جاءَ هُدًى [لا ما][(٥)] وجَدْتُمْ عليهِ آباءَكُمْ.

والثاني: أنْ يكونَ فيهِ علامةُ [دلالةِ البعثِ][(٦)] أنَّ آباءَهُمْ لِما فَعَلوا ما يُسْتَوجَبُ بهِ المَقْتُ والعقوبةُ، وماتوا مِنْ غيرِ أنْ يُصيبَهُمْ ذلكَ في دنياهُمْ وأنَّ[(٧)] لهم داراً أُخرَى يُعاقَبونَ فيها بما فَعَلوا.

وإنْ كانَ الخِطابُ إذا انْصَرَفَ [إليهِمْ][(٨)] ففيهِ إخبارُهُمْ عنْ سَفَهِهِمْ أنهُ شَغَلَهُمُ التَّفاخُرُ بالتَّكاثُرِ حتى جَحَدوا آياتِ رسولِهِ ﷺ أو أنْ يكونَ فيه إخبارٌ عنْ سَفَهِهِمْ منْ وَجْهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الافْتِخارَ كيفَ وَقَعَ بالأمواتِ، والتَّفاخُرُ بالأمواتِ غيرُ مُسْتَقيمٍ! أوِ أنْ يكونَ فيهِ وجهٌ ثالثٌ: إنما تَفاخَروا بما لا صُنْعَ لهمْ فيهِ [لأنهمْ][(٩)] إنما افْتَخَروا بالأموالِ والأولادِ، وذلكَ مِنْ لُطْفِ اللهِ تعالى وجَميلِ صُنْعِهِ، فيكونُ في هذا كلِّهِ ذِكْرٌ لهمْ بما [هم][(١٠)] فيهِ مِنَ السَّفَهِ والخَرَفِ.

ثم التَّعْييرُ بِذِكْرِ هذهِ الأسبابِ إنما وَقَعَ، واللهُ أعلَمُ، دونَ ما هُمْ فيهِ مِنَ الكفرِ، لأنَّ هذهِ الأسبابَ مِمّا يُبْتَلَى بهِ المؤمنُ في بعضِ الأحوالِ، فَعَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى بذلكَ ليكونَ فيهِ تَذْكِرَةٌ ومَوعِظَةٌ للمؤمنينَ.

ولو خَرَجَ ذِكْرُ الكفارِ مِنْ[(١١)] هذا لكانَ لا يَجْتَنِبُ المؤمنُ شيئاً[(١٢)] مِنْ هذهِ الأفعالِ.

وقد رُوِيَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَرَأَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقالَ: «يقولُ ابْنُ آدمَ مالي مالي، ومالَكَ مِنْ مالِكَ إلّا ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ»[(١٣)] [مسلم ٢٩٥٨].

فهذا على أنَّ الوعيدَ على الإطلاقِ مِنْ غيرِ تَصْريحٍ بأهلِ الكفرِ لِمَوعِظَةِ المُسْلِمينَ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يَحْتَمِلُ حَقيقةَ زيارةِ المَوتَى، وذلكَ مِمّا يُذَكِّرُهُمْ أنَّ التَّكاثُرَ مِمّا لا يَنْفَعُهُمْ إذا كانتْ عاقِبَتُهُمْ هذا. ويَحْتَمِلُ أي صِرْتُمْ إلى المَقابِرِ بعدَ الموتِ، فحينئذٍ تَذْكُرونَ حقَّ اللهِ تعالى، ثم لا يَنْفَعُكُمْ، واللهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: بالخطاب. (٣) في الأصل وم: مقتدون. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: فما. (٦) في الأصل وم: ودلالة للبعث. (٧) الواو ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) و(١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: في. (١٢) في الأصل وم: شيء. (١٣) أدرج بعدها في الأصل وم: الخبر.

الآيتان ٣ و٤ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قالَ بعضُهُمْ: ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنى النَّفْيِ والتَّعْطيلِ، وقالَ بعضُهُمْ: مَعْنَى قولِهِ: ﴿كَلَّا﴾ أي حَقّاً.

فإنْ كانَ على الأوَّلِ، فكأنهُ قالَ: ليسَ كما حَسِبْتُمْ، وتَوَهَّمْتُمْ، وقَدَّرْتُمْ عندَ أنفسِكُمْ، وتَعْلَمونَ ذلكَ إذا نَزَلَ بكمُ العذابُ، وهو على الإبْتِداءِ.

وإنْ كانَ على مَعْنَى حقّاً، فكأنهُ قالَ: سَتَعْلَمونَ أنهُ ليسَ كما قَدَّرْتُمْ عندَ أنفسِكُمْ.

وكلُّ ذلكَ يرجِعُ إلى الوجوهِ التي وصَفْنا: أنكمْ سَتَعْلَمونَ غداً حقّاً أنَّ الذي ألهاكُمْ، وشَغَلَكُمْ عنْ توحيدِ اللهِ تعالى أوِ التَّفَكُّرِ في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ أوِ الإيمانِ بالبعثِ كانَ عبثاً باطلاً، وأنهُ كانَ منَ الواجِبِ عليكُمْ أنْ تُؤمِنوا باللهِ ورسولِهِ، وتَنْظُروا في حُجَجِ رسولِ اللهِ ﷺ وتُؤمِنوا بالبعثِ.

وفائدةُ التَّكْرارِ بِما جَرَى مِنَ العادةِ في تَكْرارِ الكلامِ عندَ الوَعيدِ وعندَ الإياسِ أوِ الرَّجاءِ نَحْوُ قولِهِمْ: الوَيلُ الوَيلُ، وقولِهِمْ: بَخٍ بَخٍ وغيرُ ذلكَ. فكذلكَ هذا.

ومنهمْ مَنْ حَمَلَ كلَّ لفظةٍ منْ ذلكَ على تأويلٍ على حِدَةٍ: أنَّ قولَهُ ﷻ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ الموتِ عندَ ما تَرَوْنَ العذابَ أنَّ الأمرَ ليسَ كما حَسِبْتُمْ، وتَعْلَمونَ في يومِ البعثِ أنهُ حقٌّ يقينٌ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ يَعْني بهذا، واللهُ أعلَمُ، إبطالَ ما كانوا عليهِ منَ الظُّنونِ والحُسْبانِ[1] في هذهِ الدنيا.

ألَا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾؟ [الجاثية: ٣٢] فإذا نَزَلَ بهمُ العذابُ تَحَقَّقَ عندَهُمْ، وعَلِموا عِلْماً يقيناً؟ فقالَ بعضُهُمْ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حينَ نَزَلَ بكُمُ الموتُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبرِ. وكذلكَ رُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ أنهُ قالَ: كنا نَشُكُّ في عذابِ [القبرِ][2] حتى نَزَلَتْ هذهِ السورةُ.

وفيهِ وجهٌ ثانٍ، وهو أنهمْ كانوا عندَ أنفسِهِمْ علماءَ وأنهمْ على حقٍّ، ولكنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ لهمْ أنَّ عِلْمَهُمْ كانَ حُسْباناً.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] فيظهَرُ لهمْ عندَ ذلكَ أنَّ اليَقينَ ما نَزَلَ بهمْ وأنَّ الذي عَلِموا لم يكنْ عِلْمَ يَقينٍ، بل كانَ شَكّاً وحُسْباناً؟

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يَحْتَمِلُ وجهَينِ:

أحدُهما: تَرَونَها عندَ الموتِ.

والثاني: أي تَرَونَها بالتَّفَكُّرِ والنَّظَرِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِهِ في الدنيا.

الآية ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ لهُ مَعْنَيانِ:

أحدُهما: عِياناً ومُشاهدةً.

والثاني: أنْ تكونَ رؤيَتُهُمْ بِعَينِ اليَقينِ ليسَ على ما كانَ عندَهمْ: أنهمْ لو فُتِحَ لهمْ بابٌ منَ السماءِ، وعَرَجوا إليها ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥] يقولُ اللهُ تعالى: يرتفعُ السحرُ عنْ أبصارِهِمْ، فَيَرَونَها عينَ اليقينِ.

الآية ٨ وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ظاهرُ هذا يَقْتَضي أنْ يكونَ سؤالُهُمْ بعدَ ما دَخَلوا النار، لأنهُ قالَ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ بعدَ ما وَصَفَ أنهم يدخُلونَ النارَ، فَبانَ أنهُ في ذلكَ الوقتِ.

فإنْ[3] كانَ على ذلكَ، فهو في مَوضعِ التَّقْريرِ عندَهُمْ أنهمُ اسْتَوجَبوا المَقْتَ والعُقوبةَ لأنهُ كانَ عندَهُمْ أنَّ مَنْ أنْعَمَ اللهُ

---

(١) في الأصل وم: والحساب. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: قال.

عليهِ بِنعمةٍ، فلم يَشكُرْها، اسْتَوجبَ المَقْتَ والعقوبةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسْألُهُمْ في ذلكَ الوقتِ عنْ شُكْرِ ما أنعمَ عليهِمْ لِيُقَرِّرَ عندَهمُ اسْتِيجابَ العُقوبةِ.

ويجوزُ هذا عندَ الحِسابِ لأنهُ قالَ: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ولم يَقُلْ: قَبْلَ ذلكَ، أو بَعدَهُ، بل قالَ على الإطلاقِ، فَيُعْمَلُ بِهِ.

وإذا احْتَمَلَ ذلكَ الوجهُ إلى المؤمنينَ والكافرينَ، وكانَ الوجْهُ في سؤالِ المؤمنينَ تَذكيراً لهمْ أنَّ أعمالَهُمْ [لم][1] تبلُغ ما يَستوفي بها شُكْرَ النعمةِ التي أنْعَمَها عليهم، ولِيَعْلَموا أنَّ اللهَ تعالى تَفَضَّلَ عليهِمْ، وتَجاوَزَ عنهمْ، لا أنْ بَلَغَتْ إليهِ حَسَناتُهُمْ، فاسْتَوجَبوا رحمتَهُ بها، بل بِكَرَمِهِ وفضْلِهِ.

وإنْ كانَ في الكافرينَ، فهو تقريرُ ما اسْتَوجَبوا منْ نِقْمَتِهِ حينَ[2] تَركوا شُكْرَ نِعَمِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إنْ[3] كانَ السؤالُ لِلْكَفَرَةِ[4]، فإنهمْ يُسْألونَ عَمّا تَرَكوا مِنَ الإيمانِ وعَمّا[5] أتَى إليهمُ الرسولُ ﷺ [وعنْ غيرِ][6] ذلكَ مِنَ النِّعَمِ.

وإنْ كانَ للمؤمنينَ[7] فهو في سائرِ النِّعَمِ مِنَ المأكولِ والمَشْروبِ والمَلْبوسِ ونَحْوِها، واللهُ أعلَمُ.



---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) في الأصل وم: وإن. (٤) في الأصل وم: من الكفرة. (٥) في الأصل وم: وبما. (٦) في الأصل وم: وبغير. (٧) في الأصل وم: من المؤمنين.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم /٦٥٢ ـ ب/

الآيتان ١ و٢ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ خرجَ قولُهُ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ مَخرجَ القَسَمِ، والقَسَمُ موضوعٌ في الشاهدِ لِتأكيدِ ما ظَهَرَ مِنَ الحقِّ الخَفِيِّ أو لِنَفْيِ شُبْهةٍ اعتَرَضَتْ أو دَعْوَى ادُّعِيَتْ، فكذلكَ في الغائبِ.

ثم الأصلُ بعدَ هذا أنهُ ليسَ في جَميعِ القرآنِ شيءٌ ممَّا وَقَعَ عليهِ القَسَمُ إلّا إذا تأمَّلَهُ المرءُ، واسْتَقْصَى فيهِ المَعْنَى الذي أوجَبَهُ القَسَمُ.

ثم اخْتَلَفوا في تأويلِ[1] قولِهِ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾: فمنهُمْ مَنْ قالَ: هو الدهرُ والزمانُ، ومنهمْ مَنْ قالَ: هو آخرُ النهارِ، فذلكَ وقتٌ يَشْتَمِلُ على طَرَفَيِ النهارِ وأوّلِ الليلِ، فكأنهُ أرادَ بِهِ الليلَ والنهارَ.

وقالَ أبو معاذٍ: يقولُ العربيُّ[2]: لا أُكَلِّمُكَ العصرَ إنْ يُرِدِ[3] الليلَ والنهارَ، وفي مُرورِ الليلِ والنهارِ مُرورُ الدهورِ والأزمنةِ لأنهما يأتيانِ على الدهورِ والأزمنةِ وما فيهما، فكانَ في ذِكْرِ الليلِ والنهارِ ذِكْرُ كلِّ شيءٍ، والقَسَمُ بكلِّ شيءٍ قَسَمٌ بِمُنْشِئِهِ لأنَّ كلَّ شيءٍ مِنْ ذلكَ إنْ نَظَرْتَ فيهِ دَلَّكَ على صانِعِهِ ومُنْشِئِهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ إنَّ الدنيا وما فيها كأنها خُلِقَتْ، وأُنْشِئَتْ، مَتْجراً[4] لِلخَلْقِ، والناسُ فيها تُجّارٌ كما ذُكِرَ في غيرِ آيةٍ[5] منَ القرآنِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] وقالَ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف: ١٠] أي ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ مِن تِجارتِهِ ومُبايَعَتِهِ.

الآية ٣ [وقولُهُ تعالى:][6] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية. لِقائلٍ أنْ يقولَ: كيفَ اسْتَثْنَى أهلَ الرِّبْحِ مِنْ أهلِ الخُسْرانِ، ولم يَسْتَثْنِ أهلَ الخُسْرانِ مِنْ أهلِ الرِّبْحِ؟ فنقولُ: إنَّ الإنسانَ لَفي رِبْحٍ إلّا الذينَ كَفَروا، واسْتِثْناءُ هذهِ الفِرْقةِ مِنْ تلكَ أولَى في العقولِ مِنْ تلكَ.

والجوابُ عنْ هذا أنَّ هذهِ الآيةَ إنما نزلَتْ بِقُرْبٍ مِنْ مَبْعَثِ رسولِ اللهِ ﷺ والقومُ أجْمَعُهُمْ كانوا أهلَ كُفْرٍ وخَسارٍ، فكذلكَ وَقَعَ الاسْتِثْناءُ على ما ذُكِرَ؛ إذِ اسْتِثْناءُ القليلِ مِنَ الكثيرِ، هو المُسْتَحْسَنُ عندَ أهلِ اللغةِ، وإنْ كانَ الكثيرُ في حدِّ الجوازِ، والقرآنُ في أعلَى طبقاتِ الكلامِ في الفَصاحةِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اسمُ [جنسٍ][7] فكأنهُ أرادَ جميعَ الناسِ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؟ ولا تُسْتَثْنَى الجماعةُ مِنَ الفردِ، فكأنهُ يقولُ على هذا: إنَّ الناسَ في أحوالِهِمْ واخْتياراتِهِمْ في خُسْرٍ إلّا مَنْ كانَتْ تِجارتُهُ في تلكَ الحالةِ ما ذُكِرَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ تأويلُهُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كانَتْ مَعْروفةً في الكُفْرِ والإسلامِ مِنْ حُسْنِ الأخلاقِ وغيرِهِ. ألا ترَى أنهُ قالَ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾؟ [آل عمران: ١١٠] يقولُ: المَعروفُ، هو المَعروفُ الذي هو مَعروفٌ في الطَّبْعِ والعَقْلِ، والمُنْكَرُ الذي يُنْكِرُهُ العقلُ، ويَنْفُرُ عنهُ الطَّبْعُ.

---

(١) في الأصل وم: تأويله. (٢) في الأصل وم: العرب. (٣) في الأصل وم: يريدون. (٤) في الأصل وم: متحركا. (٥) في الأصل وم: آي.
(٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

وإنْ كانَ المُرادُ منهُ الكُفرَ فكأنهُ قالَ: إنَّ الكافرينَ في هلاكٍ وخُسْرانٍ إلّا مَنْ آمنَ باللهِ تعالى ورسلِهِ، وعَمِلَ صالحاً.

ثم في هذهِ الآيةِ ذَكَرَ الذينَ آمنوا، وعَمِلوا الصالحاتِ، وكذلكَ ذَكَرَ الصالحاتِ في سورةِ التينِ [الآية: ٦] وتَرَكَ ذِكْرَ الصالحاتِ في سورةِ البلدِ؛ فكأنَّ اللهُ تعالى [تَرَكَ][1] ذِكْرَ الصالحاتِ في تلكَ السورةِ لِما قد كانَ ذَكَرَها بعدَ[2] ذلكَ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾؟ [البلد: ١٤] وغيرِ ذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ الحَقُّ في الأصلِ كلُّ ما يُحْمَدُ عليهِ فاعِلُهُ، والصَّبْرُ، هو الكَفُّ عنْ كلِّ ما يُذَمُّ عليهِ فاعِلُهُ. فكانَ التَّواصي بالحقِّ تَواصِياً بكلِّ ما يُحْمَدُ عليهِ، والتَّواصي بالصَّبْرِ تَواصِياً عنْ كلِّ ما يُذَمُّ عليهِ.

[ثم][3] ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية ما يُوجِبُ أنَّ مَنْ لم يَجْمَعْ بينَ هذهِ الأشياءِ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ فيكونُ ظاهِرُهُ حُجَّةً للخَوارجِ والمعتزلةِ، إلّا أنَّ الانْفِصالَ عنْ هذا، واللهُ أعلَمُ، أنَّ اللهَ تعالى، وَعَدَ الجَنَّةَ لِمَنْ جَمَعَ هذهِ الأشياءَ التي ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ، وذَكَرَ الإيمانَ مُفرداً في آيةٍ أُخرَى، وَوَعَدَ عليهِ الجَنَّةَ، فلا يَخْلُو وَعْدُهُ الجَنَّةَ عنِ الإيمانِ المفردِ في تلكَ الآيةِ مِنْ أحدِ وَجْهَينِ:

إمّا أنْ يكونَ ذَكَرَ الإيمانَ مُفْرَداً، وأرادَ بهِ الاكْتِفاءَ عنْ ذِكْرِ الجملةِ، فيكونُ في ذِكْرِ طَرَفٍ منهُ ذِكْرٌ لِجُمْلَتِهِ.

[وإمّا أنْ][4] يكونَ في إيجابِ الجَنَّةِ لهُ على مُفْرَدِ الإيمانِ، فالحالُ فيهِ مَوقوفةٌ.

ولأنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ الجَنَّةَ، ولم يَنْفِ إيمانَهُ عمَّنْ يَنْتَقِصُ عنْ ذلكَ، فالحالُ فيهِ مَوقوفةٌ على دليلِهِ.

وإذا كانَ كذلكَ لم يَقْطَعِ القولَ على إيجابِ الجَنَّةِ لِمَنْ أتَى بالإيمانِ مُفْرَداً على إيجابِ النارِ، فيكونُ السبيلُ فيهِ على الرَّجاءِ، لأنهُ لو لمْ يَذْكُرْهُ[5] كانَ يَقَعُ بهِ اليأسُ.

وأصلُ كلِّ عبادةٍ في الدنيا إنما بُنِيَتْ على الرَّجاءِ والخَوفِ، فكذلكَ كانَ الأمرُ على ما وَصَفْنا، أو نقولُ بأنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ النارَ على مَنْ أتَى بجميعِ السَّيِّئاتِ، ولم يكُنْ فيهِ دليلٌ على مَنْ أتَى بالكُفرِ وحدَهُ، لا يَسْتَوجِبُ بهِ ناراً. فكذلكَ اللهُ ﷻ وإنْ أوجبَ الجَنَّةَ لِمَنْ جَمَعَ بَينَ هذهِ الأعمالِ فلا يدلُّ على أنَّ مَنْ أتَى بالإيمانِ وحدَهُ، لا يَسْتَوجِبُ الجَنَّةَ.

وعلى أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ اسْتِثْناءُ كلِّ مَنْ أتَى بشيءٍ مِنْ هذهِ الأعمالِ بالانْفِرادِ، فيكونَ فيهِ اسْتِثْناءُ كلِّ طائفةٍ مِنْ ذلكَ على حِدَةٍ؛ كأنهُ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإلّا الذينَ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وإذا كانَ كذلكَ لا يكونُ حُجَّةً لهمْ، وإذا أُريدَ بهِ الجمعُ يكونُ حُجَّةً، فجاءَ التّعارضُ والاِحْتِمالُ، فَوَجَبَ التَّوَقُّفُ.

ويَحْتَمِلُ أنْ يُرادَ بهِ الاِعْتِقادُ، أي ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مَنْ آمَنَ، واعْتَقَدَ هذهِ الأعمالَ الصالحةَ كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥] واللهُ أعلَمُ [والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][6].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: قبل. (٣) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) في الأصل وم: يذكر. (٦) ساقطة من م.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ اختَلَفوا في مَعْنَى الهُمَزَةِ واللُّمَزَةِ، فقالَ بعضُهُمْ: مَعْناهما واحدٌ، وهو الدَّفْعُ والطَّعْنُ، وقالَ بعضُهُمْ: الهُمَزَةُ، هو الذي يُؤذي جَليسَهُ بلسانِهِ، واللُّمَزَةُ الذي يُؤذي بِعَينِهِ، وقالَ: بعضُهُمْ: الهُمَزَةُ الذي يَطْعَنُهُ / ٦٥٣ ـ أ/ عندَ حَضرَتِهِ، واللُّمَزَةُ الذي يَطْعَنُهُ عندَ غَيبَتِهِ. وهذا إنما يُسَمَّى بِهِ مَنْ يَعتادُ ذلكَ الفعلَ.

وأهلُ اللغةِ وَصَفوا هذا المِثالَ، وهو فِعْلُ مَنْ يَعْتادُ ذلكَ، ويَحْتَرِفُهُ.

قالَ أهلُ التأويلِ: إنَّ الآيَةَ في الكفارِ، لكنَّ بعضَهُمْ قالوا: نَزَلَتْ في الأخنَسِ ابنِ شُرَيقٍ، وقيلَ: نَزَلَتْ في الوليدِ بنِ المُغيرَةِ.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: إنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في الكفارِ، وكذلكَ كثيرٌ مِنَ الآيِ: كقولِهِ[1] تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين: ١ و٢] ونَحْوُهُ[2]، ومعلومٌ [أنَّ مَنْ][3] وُجِدَ منهمْ هذا الفِعْلُ أو مِثْلُهُ[4] اسْتوجَبوا ما ذَكَرَ مِنَ العقوباتِ وأشَدَّ، مَعَ أنَّ الذي فيهِ مِنَ الكُفْرِ أقْبَحُ مِنْ هذينِ الفِعْلَينِ، فكيفَ وَقَعَ تَعْييرُهُمْ بذلكَ؟

والجوابُ عنْ هذا وأمثالِهِ مِنْ نَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ [المطففين ١ و٢] وقولِهِ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾... ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣ ـ ٤٦] [في وجوهٍ:

أحَدُها: أنهمْ][5] وإنْ أقاموا الصلاةَ، وأعطَوُا الزكاةَ، لم يُزَلْ عنهمْ عقوبةُ النارِ. والجوابُ عنهُ أنَّ الإيمانَ لم يَحْسُنْ لِاسْمِهِ، ولا قَبُحَ الكُفرُ لِنَفْسِ اسْمِ الكُفْرِ لأنهُ ليسَ أحدٌ مِمَّنْ يَذْهَبُ مَذهَباً، أو يَدينُ ديناً إلّا وهو يَكْفُرُ بِشَيءٍ، ويؤمِنُ بِشَيءٍ لأنَّ المُسْلِمَ مؤمنٌ باللهِ تعالى كافرٌ بالطاغوتِ، والكافرُ يَكْفُرُ بالرحمنِ، ويؤمِنُ بالطاغوتِ، ويَعْبُدُهُ.

فَثَبَتَ أنَّ الإيمانَ ليسَ يَحْسُنُ لِنَفْسِ اسْمِ الإيمانِ، ولا قَبُحَ الكُفْرُ لِعَينِ اسْمِ الكُفْرِ، ولكنَّ الإيمانَ باللهِ تعالى إنما يَحْسُنُ بِحُسْنِ [مِنْ حينِ][6] أوجَبَتِ الحِكْمةُ الإيمانَ بِهِ، ويَقْبُحُ الكُفْرُ لأنَّ الحِكْمةَ أوجَبَتْ تَرْكَ الكُفْرِ باللهِ تعالى؛ فالإيمانُ حَسَنٌ لِما فيهِ مِنَ [مَعْنَى الإيمانِ][7]، والكُفْرُ قَبيحٌ لِما فيهِ مِنْ مَعْنَى الكُفْرِ.

وهذانِ الفعلانِ قبيحانِ في نفسيهما[8] لا بِغَيرِهما، فكانَ التَّعْييرُ الذي يَقَعُ بهذينِ الفِعْلَينِ أكْثَرَ وأبْلَغَ منهُ في تَعْييرِهِمْ بالكُفْرِ. لذلكَ عَيَّرَهُمُ اللهُ تعالى بهذينِ الفِعْلَينِ.

[والثاني:][9] أنَّ هذا يُخَرَّجُ مُخْرَجَ المَوعظةِ لأمَّةِ محمدٍ ﷺ وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يُهْمَزُ بِهِ، ويُسْخَرُ منهُ لَمّا يَأمُرُهُمْ بالمَعروفِ، ويَنْهاهُمْ عنِ المُنْكَرِ، ولا يُحَمِّلُهُ ما كانوا يَتَعاطَونَ على تَرْكِ أمرِهِمْ بالمَعروفِ ونَهْيِهِمْ[10] عنِ المُنْكَرِ لِما يَخْشَى أنْ يُسْخَرَ بِهِ، أو يُسْتَهزَأ.

والثالثُ: أنْ يكونَ هذا على وجهِ المُكافأةِ والانْتِقامِ لِما كانوا يَفْعَلونَ بِنَبِيِّنا محمدٍ ﷺ على الزَّجْرِ والرَّدْعِ عنْ ذلكَ؛ إذِ العقلاءُ يَمْتَنِعونَ عنِ الأفعالِ القبيحةِ.

فَعَلَى هذهِ الوجوهِ يَحْتَمِلُ مَعْنَى تَعْييرِهِمْ.

---

(١) في الأصل وم: من قوله. (٢) في الأصل وم: ونحوها. (٣) في الأصل وم: انه. (٤) في الأصل وم: عدمه. (٥) في الأصل وم، فهم.
(٦) في الأصل: من حيث. ساقطة من م. (٧) في الأصل وم: المعنى. (٨) في الأصل وم: أنفسهما. (٩) في الأصل وم: ووجه آخر. (١٠) في الأصل وم: والنهي.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ قُرِئَ على التَّخفيفِ. جَمَعَ مِنَ الجَمْعِ، أي جَمَعَ مالَهُ عندَهُ، ولم يُفَرِّقْهُ، وعَدَدَهُ، وذَكَرَهُ؛ أي حَفِظَ عَدَدَهُ، وذَكَرَهُ على الدوامِ لئلا يُنْقِصَهُ، وَصَفَهُ بالبُخلِ والشُّحِّ.

ومَنْ قَرَأَ بالتَّشديدِ[1] فَمَعْناهُ أنهُ جَمَّعَهُ، وادَّخرَهُ بِمَمَرِّ الزمانِ، ولم يُجَمِّعْ ذلكَ في أيامٍ قصيرةٍ. والأصلُ: جَمَعَهُ بالتَّخفيفِ، لكنْ شَدَّدَهُ[2] لِما فيهِ منْ زيادةِ الجَمْعِ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَتَوَجَّهُ بوجهَينِ:

أحَدُهُما: أنْ يكونَ على الحقيقةِ أنهُ [قَدَّرَهُ عندَ][3] نفسِهِ أنهُ يَبْقَى لِبقاءِ الأموالِ لهُ لِما يَرَى بقاءَهُ منْ حيثُ الظاهرُ بها، فَتقَرَّرَ عندَهُ أنَّ ما آتاهُ اللهُ تعالى منَ الأموالِ، هو رِزقُهُ، فَيَعيشُ إلى أنْ يَسْتَوفِيَ جميعَ رزقِهِ، فَيَجْمَعُهُ، ويَدَّخِرُهُ لكي يَزيدَ في عُمُرِهِ.

والوجهُ الثاني: أنْ يكونَ على الظَّنِّ والحُسْبانِ؛ كأنهُ يقولُ: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ جمعَ مَنْ يَظُنُّ أنَّ مالَه يزيدُ في عُمُرِهِ.

فإنْ كانَ على التَّأويلِ الأوّلِ فقولُهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ عليهِ، أي ليسَ كما قَدَّرَهُ عندَ نفسِهِ، وإنْ كانَ على التَّأويلِ الثاني فَعَلَى إيجابِ عقوبةٍ مُبْتَدَأةٍ.

وقيلَ: عَدَّدَهُ: أي أكثرَ عَدَدَهُ، وقالَ الحَسَنُ: عَدَّدَهُ أي صَنَّفَهُ، فَجَعَلَ مالَهُ أصنافاً، وجعلَ أنواعاً منَ الإبلِ والغنمِ والبقرِ والدّورِ والعقارِ والمَنْقولِ وغيرِها، وقيلَ: عَدَّدَهُ: أي اسْتَعَدَّهُ، وأعَدَّهُ، وهَيَّأَهُ.

الآية ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ [﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾][4] قيلَ: بابٌ مِنْ أبوابِ النارِ، وقيلَ: هي صفةُ النارِ، والحَطْمُ، هو الكَسْرُ، فكأنهُ قالَ: النارُ التي يُعَذَّبُ بها الكَفَرَةُ، وتُكَسِّرُ عِظامَهُمْ، وتُحَطِّمُهُمْ.

الآيتان ٦ و٧ وقولُهُ تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ قيلَ: إنَّ النارَ تأتي على جُلودِهِمْ وعُروقِهِمْ ولُحومِهِمْ وعِظامِهِمْ حتى تأكُلَها، وتُكَسِّرَ العظامَ، فَتَطَّلِعُ على أفْئِدَتِهِمْ، فحينَئذٍ يَتَبَدَّلونَ جلوداً غيرَها لِيَذوقوا العذابَ. وقيلَ: إنما تَحْرِقُ النارُ منهمْ كلَّ شيءٍ سِوَى الفؤادِ لأنَّ الفؤادَ إذا احْتَرَقَ لم يَتَألَّمْ بعدَ ذلكَ، ولم يَشْعُرْ بالعذابِ. والمرادُ مَنَ الإحراقِ إلحاقُ الألَمِ والضَّرَرِ بهمْ.

الآيتان ٨ و٩ وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ قُرِئَ عُمُدٍ[5] بِرفعِ العَينِ والميمِ، وقُرِئَ بالنَّصْبِ فيهما. وذُكِرَ عنِ الفَرّاءِ أنهُ قالَ: العُمُدُ والعَمَدُ جماعاتُ العَمودِ والعِمادِ.

وقالَ بعضُهُمْ: العَمَدُ جَمْعُ العَمَدَةِ نَحْوُ بَقَرَةٍ وبَقَرٍ. وقالَ الكَلْبِيُّ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ أي النارُ عليهمْ مُطْبَقَةٌ، يقولُ: أطْبِقَتْها[6] مُمَدَّدَةً في عَمَدٍ منْ نارٍ مُمَدَّدَةٌ عليهمْ مِنْ فَوقِهِمْ، والعَمَدُ كَعَمَدِ أهلِ الدنيا، غيرَ أنها منْ نارٍ تُمَدُّ عليهِمْ، واللهُ أعلَمُ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ [والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][7].

---

(١) انظر معجم القراءات القرآنية ج ٨/ ٢٣٣. (٢) في الأصل وم: شددها. (٣) في الأصل وم: قدر عنده. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) انظر معجم القراءات القرآنية ج٨/ ٢٣٥. (٦) في الأصل وم: طبقها. (٧) ساقطة من م.

[سـورة الفيـل

وهي مكية][(١)]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾؟ اختلَفوا في السببِ الذي بهِ وَقَعَ القَصْدُ مِنْ أصحابِ الفيلِ إلى تَهْديمِ البيتِ وتَخْريبِهِ.

فمنْهُمْ مَنْ قالَ: إنهمْ اتَّخذوا بيتاً في بلادِهِمْ، وسَمَّوهُ كعبةً لكي يَنسابَ الناسُ [إليهِ كما يَنْسابونَ][(٢)] إلى الكعبةِ، فأبَى الناسُ إتيانَ[(٣)] ذلكَ البيتِ، فغاظَهُمْ ذلكَ حتى قَصَدوا تَهْديمَ هذا البيتِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنَّ العربَ حَرَقوا بَيعةً، كانَتْ لهمْ، وخرَّبوها، فغاظَهُمْ ذلكَ حتى أرادوا تهديمَ هذا البيتِ جزاءً بما فَعَلَتِ العربُ بهمْ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنهمْ كانوا ملوكاً وفراعنةً، ومِنْ عادَتِهِمْ أنهمْ يُعادونَ مَنْ ضادَّهُمْ في مُلْكِهِمْ وسُلْطانِهِمْ.

وأيُّ ذلكَ كانَ فلا حاجةَ إلى مَعْرِفتِهِ، وإنما حاجَتُنا إلى تَعْريفِ المَعْنَى الذي بهِ أُنْزِلَتِ السورةُ، وثُبِّتَتْ.

وتأويلُ ذلكَ يُخَرَّجُ على أوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَّرَهُمْ تلكَ النِّعَمَ التي أنْعَمَها عليهمْ في صَرْفِ مَنْ أرادوا إهلاكَهُمْ؛ فإنهمْ قَصَدوا قَتْلَ أهلِ مكةَ وسَبْيَ نِسائِهِمْ وذراريهِمْ وأخذَ[(٤)] أموالِهِمْ، فَذَكَّرَهُمُ اللهُ تعالى جميلَ صُنْعِهِ بهمْ / ٦٥٣ ـ ب/ ليَشْكُروا لهُ، ويَعْبُدوهُ حقَّ عبادتِهِ، ويَنْزَجِروا عنْ عبادةِ غيرِهِ.

والوجهُ الثاني أنَّ اللهَ تعالى خوَّفَ أهلَ مكةَ، وَوَجْهُ ذلكَ أنَّ اللهَ تعالى لمّا أهلكَ أصحابَ الفيلِ بما ضَيَّعوا حُرْمَةَ بيتِهِ، فلا يأمَنُ أهلُ مكةَ منْ إهلاكِهِ إيّاهُمْ وتَعْذيبِهِمْ بما ضَيَّعوا حُرْمَةَ رسولِهِ ﷺ معَ أنَّ حُرْمَةَ الرسولِ ﷺ أعظمُ من حُرْمَةِ البيتِ. وقد[(٥)] نَزَلَ بأولئكَ ما نَزَلَ لِما جاءَ منهمْ مِنْ تَضْييعِ حُرْمَةِ بيتِهِ، فَلَأَنْ يُخْشَى عذابُهُ ونِقْمَتُهُ مِنْ تَضْييعِ حُرْمَةِ رسولِهِ أولَى.

والوجهُ الثالثُ: أنَّ اللهَ تعالى لمّا أهلكَ أولئكَ لمّا أراهُمْ منْ آياتِهِ لم يَنْصَرِفوا، لأنهُ ذُكِرَ أنهمْ كانوا إذا وَجَّهُوا الفيلَ نَحْوَ البيتِ امْتَنَعَ، وَوَقَفَ، وإذا وَجَّهُوهُ نحوَ أرضِهِمْ هَرْوَلَ، وتَسارَعَ. فلمّا رَأَوا ذلكَ، ولم يَنْصَرِفوا، أهْلَكَهُمُ اللهُ تعالى. فلا يُؤْمَنُ على أهلِ مكةَ أيضاً، لأنهمْ[(٦)] لمّا رَأَوُا الآياتِ المُعْجِزَةَ مِنَ الرسولِ ﷺ فلم يُؤْمِنوا [تَوَعَّدَهُمْ بأنْ][(٧)] يُهْلِكَهُمُ اللهُ ﷻ ويَنْتَقِمَ منهمْ بِعُقوبتِهِ.

فَعَلَى ما ذَكَرْنا يُخَرَّجُ مَعْنَى نُزولِ السورةِ.

وقيلَ: إنهُ على البِشارةِ لرسولِ اللهِ ﷺ على الإشارةِ أنهُ لم يَكُنْ للبيتِ ناصِرٌ في ذلكَ الوقتِ ولا مُعينٌ، بل كانَ وحدَهُ، فَنَصَرَهُ اللهُ تعالى، حتى لم يُمَكِّنْ أعداءَهُ منْ هَدْمِهِ، فَعَلَى ذلكَ يَنْصُرُكَ، ويُعينُكَ، ويُهْلِكُ عَدُوَّكَ، وإنْ كُنْتَ أنتَ وَحْدَكَ؛ إذْ كانَ وقتَ نُزولِ هذهِ السورةِ لم يكُنْ لهُ كثيرُ أعوانٍ، وقد فَعَلَ ذلكَ يومَ بَدْرٍ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في م: إليه كما ينسابوا، ساقطة من الأصل. (٣) أدرج قبلها في الأصل وم: إلى. (٤) في الأصل وم: وأخذوا. (٥) في الأصل وم: فلما. (٦) في الأصل وم: أنهم. (٧) في الأصل وم: ان.

ثم قولُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حَرْفٌ اسْتُعْمِلَ في تَذاكُرِ أُعجوبةٍ قد كانَتْ، وعَرَفُوها، ثم غَفَلُوا عنها، أو في ما لم يكُنْ، فَيُعَجِّبُهُمْ بما فَعَلَ بأعدائِهِ لِيَحْمِلَهُمْ على الزَّجْرِ والانْتِهاءِ عمّا حَرَّمَ اللهُ تعالى، فكأنهُ قالَ: رأيتَ ربَّكَ كيفَ فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ منهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ والمُرادُ غيرُهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا خِطاباً لكلِّ واحدٍ منهمْ.

ثم تَسْمِيَتُهُمْ أصحابَ الفيلِ، ونِسْبَةُ الفيلِ إليهمْ يَحْتَمِلُ وجهَيْنِ:

أحَدُهما: أي الذينَ صَحِبوا الفيلَ. والثاني: أصحابُ الفيلِ أي أربابُ الفيلِ كما يُقالُ: ربُّ الدارِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي أبْطَلَ ما قَدَّرُوهُ عندَ أنفسِهِمْ مِنْ تَخريبِ البيتِ وتَهْديمِهِ ما ذَكَرْنا بَدْءاً.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ مُتَفَرِّقَةً جماعةً جماعةً، وهكذا السُّنَّةُ في الخُروجِ لِمُحاربةِ أعداءِ اللهِ تعالى أنْ يَخْرُجوا جماعةً جماعةً. وقيلَ: هي طيرٌ، لم يُرَ قَبْلَها ولا بَعْدَها مِثْلُها، لها رؤوسٌ كالسِّباعِ، وقيلَ: شَبيهةٌ برجالِ الهندِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ اخْتَلَفوا في السِّجِّيلِ؛ قالَ بعضُهُمْ: هو اسْمُ مَوضِعٍ خُلِقَتْ حِجارَتُهُ لِتَعْذيبِ الفراعنةِ وإهلاكِهِمْ، وقالَ بعضُهُمْ: فارِسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ، وهي سَنْك وكِلْ، وهو الآجُرُّ في التَّقْديرِ، وقالَ بعضُهُمْ: هذهِ عبارةٌ عنْ شدةِ الحجارةِ وقُوَّتِها[1].

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قالوا: العَصْفُ هو وَرَقُ الزَّرعِ أو وَرَقُ كلِّ نابتٍ.

وقولُهُ: ﴿مَّأْكُولٍ﴾ يَنْحو نَحْوَينِ، ويَتَوَجَّهُ وجهَينِ: إلى ما قد أُكِلَ وإلى ما لم يُؤكَلْ؛ إذْ ما لم يُؤكَلْ إذا كانَ مُعَدّاً للأكلِ سُمِّيَ مَأكولاً.

فإنْ كانَ غَيرَ المَأكولِ فكأنهُ[2] قالَ: جَعَلَهُمْ في الضَّعْفِ والرَّخاوَةِ معَ قُوَّتِهِمْ وسُلْطانِهِمْ كَعَلَفِ الدَّوابِّ حتى لا يُخافَ منهمْ بعدَ ذلكَ أبداً.

وإنْ كانَ على المأكولِ فهو أنهُ تعالى، جَعَلَهُمْ كالمَأكولِ [الذي أكَلَتْهُ][3] الدُّودُ، فيكونُ [فيهِ ثُقوبٌ][4]، واللهُ أعلَمُ بالصوابِ.

---

(١) في الأصل وم: وقوته. (٢) من م، في الأصل: فإنه. (٣) في الأصل وم: التي أكلتها. (٤) في الأصل وم: فيها ثقب.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

الآيتان ١ - ٣ قولُهُ تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾][1] هذا يُخرَّجُ على وُجوهٍ:

أحدُها: ما قالَ الفَرّاءُ: إنّ اللامَ لامُ الاِعْتِدالِ لأنَّ السورةَ صِلَةُ سورةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قالَ: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ كأنهُ يقولُ: أهلَكْتُ أصحابَ الفيلِ، وفعَلْتُ بهِمْ ما فَعَلْتُ لِتأليفِ قُريشٍ بذلكَ المكانِ كما أَلِفوا بِهِ الرِّحلتَينِ اللَّتينِ جَعَلْنا لهمْ في الشتاءِ والصيفِ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يقولَ: أَلْزَمْتُ الخَلْقَ عبادةَ ربِّ هذا البيتِ، وحُمِّلوا ما تَحتاجُ إليهِ قريشٌ وأهلُ ذلكَ المَكانِ مِنَ الطعامِ وما يَتَعَيَّشونَ بهِ لِتَأَلُّفَ قريشٌ عبادةَ هذا البيتِ ما لولا ذلكَ لم يَتَهَيَّأْ لهمُ المُقامُ بذلكَ المَكانِ، لأنهُ لا زَرعَ فيهِ، ولا نباتَ، ولا ما يَتَعَيَّشُ بهِ، وهو كما قالَ إبراهيمُ ﷺ: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وإنَّما تَعَيُّشُهُمْ في ذلكَ المَكانِ بما يَحُلُّ إليهِمْ مِنَ الآفاقِ والأمكنةِ النائيةِ كقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾؟ الآية [القصص: ٥٧].

و[الثالث:][2] قالَ بعضُهُم: أُمِرَتْ قُرَيشٌ أنْ يَأْلَفوا عبادةَ ربِّ هذا البيتِ بإيلافِهِمْ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ؛ يقولُ: كما أَلِفْتُمْ هاتَينِ الرِّحلتَينِ فَأْلَفوا عبادةَ ربِّ هذا البيتِ.

[والرابعُ:][3] قالَ بعضُهُمْ: إنَّ أهلَ مكةَ كانوا يَرْتَحِلونَ تُجّاراً آمِنينَ في البلدانِ، لا يَخافونَ شيئاً لِحُرْمَتِهِمْ، لأنَّ الناسَ يَحْتَرِمونَهُمْ لِمكانِ الحَرَمِ حتى لا يَتَعَرَّضَ لهمْ بشيءٍ، ولا يُؤذيهِمْ أحدٌ، حتى إنْ كانَ الرجلُ منهمْ لَيُصابُ في حيٍّ مِنَ الأحياءِ، فيقالُ: هذا حَرَمِيٌّ، فَيُخَلّى عنهُ وعنْ مالِهِ تعظيماً لذلكَ المكانِ، وهو ما قالَ: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [الآية: ٤].

[والخامسُ:][4] قيلَ: إنَّ العربَ كانَ يُغيرُ بعضُهُمْ على بعضٍ، ويَسْبي بعضُهُمْ بعضاً، وأهلُ مكةَ كانوا آمنينَ في حَرَمِ اللهِ تعالى كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟ [العنكبوت: ٦٧] فذَكَّرَ عظيمَ نِعَمِهِ عليهِمْ ومِنَنِهِ لِيَعْلَموا ذلكَ أنهُ منهُ.

الآية ٤ [وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾][5] أصلُهُ أنَّ اللهَ تعالى لمّا كانَ مِنْ حِكْمتِهِ وإرادتِهِ جَعْلُ الرسالةِ في قريشٍ وإبقاؤُها إلى الوقتِ الذي أرادَ أنْ تَبْقَى جَعَلَ لهمْ مِنَ الأمرِ في ذلكَ المكانِ والأرزاقِ التي تُجبَى إليهِمْ وما يَتَعَيَّشونَ [بهِ][6] في ذلكَ الوقتِ لِيَبْقَوا إلى ذلكَ الوقتِ الذي أرادَ إبقاءَهُمْ إليهِ، فيكونُ ما أرادَ على ما أرادَ.

فكما أنشأَ هذا العالَمَ للبقاءِ إلى الوقتِ الذي أرادَ أنْ يَبْقَوا فيهِ[7] جَعَلَ لهمْ مِنَ الأرزاقِ ما يَبْقَونَ إلى الوقتِ الذي أرادَ ليكونَ ما أرادَ. / ٦٥٤ - أ/ فَعَلَى ذلكَ الأوّلُ.

قالَ القُتَبيُّ: الإيلافُ مصدرُ آلَفْتُ فلاناً كذا إيلافاً كما تقولُ: أَلْزَمْتُهُ إلزاماً. وقالَ الكِسائيُّ: أَلِفْتُ المكانَ آلَفُهُ لُغتانِ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﵄: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي لِصنيعِ قريشٍ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾ صنيعِهِمْ ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ السِّنينَ الذي أصابَهُمْ ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ العَدُوِّ، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ][8].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: و. (٣) في الأصل وم: و. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: فيها. (٨) ساقطة من م.

سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ ـ ٣ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾][1]؟ اختلَفوا في نزولِهِ، قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ: هي مَدَنيةٌ، وقالَ مُقاتلٌ ومُجاهدٌ وجماعةٌ: هي مَكّيَّةٌ.

وجائزٌ أنْ يكونَ أوَّلُها نَزَلَ بمكةَ لأنَّ الذي ذَكَرَ أنها نَزَلَتْ في شأنِهِ كانَ مَكّيّاً، وهو العاصُ بْنُ وائلٍ السَّهْمِيُّ مع ما أنهمْ همُ الذينَ يُكَذِّبونَ بِيومِ الدِّينِ، وآخِرُها نَزَلَ بالمدينةِ، لأنَّ في آخِرِها وَصْفَ المنافقينَ، وهو ما ذَكَرَ مِنَ المُراآةِ في الصلاةِ ومَنْعِ ما ذَكَرَ.

ثم إنْ كانَ نزولُها في الكَفَرَةِ فالجِهَةُ فيهِ والمَعْنَى غيرُ الجِهَةِ والسَّبَبِ لو كانَتْ نَزَلَتْ في المُنافقينَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ حَرْفٌ يُستَعْمَلُ في مَوضِعِ السُّؤالِ والاِسْتِفْهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اسْتِعمالُهُ على وَجْهِ التَّقريرِ على[2] السائلِ لِما يُرادُ بِهِ إعلامُهُ على سبيلِ ما رُوِيَ في الخَبَرِ: «أرأيتَ لو كانَ على أبيكَ دَيْنٌ، فَقَضَيْتَهُ، أما قُبِلَ منك؟» (أحمد ٦/٤٢٩) وكانَ ذلكَ في مَوضعِ التقريرِ. فكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مَعْناهُ، واللهُ أعلَمُ، اِنِ اعْلَمْ أنَّ ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هو الذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ [قالَ أهلُ التَّأويلِ جميعاً: يُكَذِّبُ بالدِّينِ][3] أي بالحِسابِ والبعثِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ ﴿يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ الذي يُظْهِرُ لكَ، ولا يُحَقِّقُ.

فإنْ كانَ في المُنافقينَ، لأنَّ أهلَ النِّفاقِ كانوا يُكَذِّبونَ [فهو مَنْ][4] يُظْهِرُ المُوافقةَ لِرسولِ اللهِ ﷺ والمؤمنينَ.

[وإنْ كانَ في أهلِ الكُفرِ، فهو في الرُّؤساءِ منهمْ؛ فتَكْذيبُهُمْ بالدِّينِ، هو ما كانوا يُظْهِرونَ لأتباعِهِمْ مِنَ الجَهْدِ والشِّدَّةِ، يُمَوِّهونَ بذلكَ على أتباعِهِمْ لِيَقَعَ عندَهُمْ أنَّ الذي هم عليهِ حَقٌّ وأنَّ الذي عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ باطِلٌ، فَيُكَذِّبونَ بالدينِ الذي يَرَونَ مِنْ أنفسِهِمْ، ويَظْهَرونَ بالتَّمويهاتِ التي يُمَوِّهونَ بها عليهِمْ، فكيفَ أنْ كانَتْ نَزَلَتْ في المُنافِقينَ أو في أهلِ الكُفْرِ أو في الذي كَذَّبَ بالحسابِ والبعثِ أو في الذي ذَكَرْنا أنهُ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُضْمِرُ؟

فيهِ عِظَةٌ وتَنْبيهٌ لِلْمؤمنينَ][5] وزَجْرٌ لهمْ عنْ مِثْلِ صَنيعِهِمْ لأنهُ نَعْتُ الذي كَذَّبَ بالدِّينِ؛ إذْ كانَ المُرادُ بِهِ الحِسابُ أوِ الدِّينُ نفسُهُ حينَ[6] قالَ: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ كأنهُ قالَ: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ هو ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَظْلِمُ اليتيمَ، وحقَّهُ يَمْنَعُ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يقولُ، واللهُ أعلَمُ، للمؤمنينَ: لا تَظْلِموا اليتيمَ، ولا تَمْنَعوا حقَّهُ، ولا تُسيئوا صُحْبَةَ اليَتيمِ كما فَعَلَ مَنْ كَذَّبَ بالدينِ [وما حَضَّ][7] على طعامِ المسكينِ؛ يَصِفُ بُخْلَهُمْ واسْتِهانَتَهُمْ باليتيمِ والمساكينِ وسُوءَ مُعامَلَتِهِمُ التي عامَلوها؛ يَعِظُ المؤمنينَ، ويَزْجُرُهُمْ عنْ ذلكَ.

وجائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لِما عندَهُمْ أنَّ مَنْ أُعطِيَ المالَ، وَوُسِّعَ عليهِ الدنيا، إنما أُعْطِيَ ذلكَ لِكَرامةٍ لهُ عندَ اللهِ تعالى، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ، ومُنِعَ ذلكَ عنهُ، لِهَوانٍ لهُ عندَهُ وحَقارةٍ كقولِهِ ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر ١٥ و١٦] وقولِهِ ﷻ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: عند. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ما. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) في الأصل وم: حيث. (٧) في الأصل وم: وحضوا.

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾؟ [يس: ٤٧] يظُنّونَ أنَّ اللهَ تعالى مَنَعَ مَنْ[1] مَنَعَ ذلكَ لِهوانٍ لهُ عندَهُ، ومَنْ وَسَّعَ عليهِ وَسَّعَ لكرامةٍ لهُ عندَهُ [فَيقولونَ: كيفَ نُكرِمُ][2] مَنْ أهانَهُ اللهُ تعالى؟.

فَيَحتَمِلُ أنْ يكونَ ما ذَكَرَ أنهُ لا يَحُضُّ على طعامِ المسكينِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ الذي حَمَلَهُ على ظُلْمِهِ اليتيمَ وتَرْكِهِ إطعامَهُ تَكذيبُهُ بالبَعْثِ لأنهُ ليسَ لليَتيمِ مَنْ يَنصُرُهُ، ويَقومُ بِدَفْعِ مَنْ يَقْصِدُ ظُلْمَهُ، ويَمْنَعُ حقَّهُ، وكانَ لا يَخافُ عقوبةَ البعثِ؛ إذْ لا يُؤمِنُ بهِ.

ثم يَحتَمِلُ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنْ يكونَ في الِاعْتِقادِ والرُّؤيةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ في حقِّ الفِعْلِ نفسِهِ.

فإنْ كانَ في الِاعْتِقادِ والرُّؤيةِ فأهلُ الإسلامِ لا يَعْتَقِدونَ، وإنْ كانَ في حَقِّ الفِعْلِ فإنهمْ ربّما يَفْعَلونَ ذلكَ.

وحَمْلُهُ عندَنا على الِاعْتِقادِ أوجَبُ وأقرَبُ لِما وَصَفْنا أنَّ اليَتيمَ لا ناصِرَ لهُ، وليسَ للكافرِ خَوفُ العاقبةِ لِما لا يُؤمِنُ بذلكَ، وإنما يُمْنَعُ المَرْءُ مِنْ سُوءِ الصُّحْبَةِ لِهذينِ: إمّا رغبةٌ في جزاءِ الآخِرةِ [وإمّا][3] خوفَ المُكافآتِ في الدنيا.

والمساكينُ ليسَ لهمْ في الدنيا ما يكافِئُهُمْ، ويُجازيهِمْ، وليسَ لليتيمِ ناصِرٌ لِيُخافَ منهُ، ولم يكُنْ للكافرِ رغبةٌ في ثوابِ الدنيا والآخِرةِ مِنَ العِقابِ لِعَدَمِ تَصْديقِهِ بذلكَ.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هو النهايةُ في وَصْفِهِ بالبُخْلِ لأنَّ الحَثَّ على الصَّدَقةِ أنْ يُرْجِيَهُ، ويُطْمِعَهُ في ثوابِهِ. فإذا لم يُرْجِ [هو][4] بنفسِهِ، فكيفَ يُرْجِي غيرَهُ معَ ما أنَّ الحِكمةَ عندَ هؤلاءِ الكَفَرةِ: مَنْ جَرَّ إلى نفسِهِ نفعاً، فهو الحكيمُ، ومَنْ ضَرَّ نفسَهُ، فهو جائرٌ غيرُ حكيمٍ، وهو إذا مَنَعَ الصَّدَقةَ نَفَعَ نفسَهُ، وإذا أوفَى اليتيمَ حقَّهُ ضَرَّها؟ فلذلكَ لا يَرْغَبُ فيها. فهذا المَعْنى الذي وصَفْناهُ دعانا إلى توجيهِ التأويلِ إلى الِاعْتِقادِ.

الآيات ٤ ـ ٧ وقولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾][5] إنْ كانَ هذا في أهلِ النِّفاقِ، كذلكَ كانوا لا يَفْعَلونَ شيئاً مِنَ الطاعاتِ إلّا وكانوا عنها لاهِينَ ساهِينَ، وإذا فَعَلوا شيئاً منها فَعَلوا مُراآةً كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤] فَذَكَرَ كَسَلَهُمْ وبُخْلَهُمْ.

فَعَلَى ذلكَ جائزٌ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ إلى آخِرِ ما ذُكِرَ في المُنافقينَ على ما ذَكَرْنا مِنْ نَعْتِهِمْ.

وجائزٌ أنْ يكونَ في أهلِ الكُفْرِ، وأهلُ الكُفْرِ يُصَلُّونَ كقولِهِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أخبَرَ أنَّ صلاتَهُمْ في الحقيقةِ ليسَتْ بصلاةٍ، فجائزٌ / ٦٥٤ ـ ب/ أنْ تكونَ على صورةِ الحقيقةِ، وقد ذُكِرَ أنهمْ كانوا يُصَلُّونَ مُستَقبِلينَ نَحوَ أصنامِهِمْ، يُرُونَ الناسَ كثرةَ اجْتِهادِهِمْ في طاعةِ الأصنامِ حتى إذا رآهُمْ مِنْ نَأى عنهمْ ظَنَّ أنهُ حقٌّ، فيكونُ في ذلكَ صَدٌّ عنْ إجابةِ الرسولِ ودَفْعُ وجوهِ القومِ عنهُ. فذلكَ قولُهُ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الخُضوعِ والتَّذَلُّلِ، فيكونُ مَعْناهُ: وَيْلٌ للذينَ لا يَخْضَعونَ، ولا يَخْشَعونَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ:

أحَدُهما: أي سَهَوا عنْ صَلاتِهِمْ لأنفسِهِمْ، وصلاتُهُمُ التي هي لأنفسِهِمْ، هي أنْ تكونَ الصلاةُ للهِ تعالى، ويَجْعَلونَها لهُ، ولا يُصَلُّونَ لِغَيرِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها، لأنَّ مَنْ صلّى للهِ تعالى يُرجِعُ مَنْفَعَتَهُ في الحقيقةِ إليهِ لِما تعلَّقَ بها مِنَ الجزاءِ الجميلِ، فهمْ بالسَّهْوِ عنْ تلكَ الصلاةِ وتَرْكِها يُلْحِقونَ الضَّرَرَ بأنفسِهِمْ، وإنْ[6] جَعَلوها للأصنامِ التي لا تَضُرُّ، ولا تَنْفَعُ.

والثاني: سَهْوَتُهُمْ [عن][7] الصلاةِ حينَ أضاعوها، وهو ما ذُكِرَ في حرفِ ابْنِ مسعودٍ في قولِهِ ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فيقولُ: [سَهَوا عنِ][8] الصلاةِ، فلم يَمْتَنِعوا عمّا ذَكَرَ.

---

(١) في الأصل وم: ممن. (٢) فيقول كيف أكرم. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: إذ. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) في الأصل وم: سهيتم.

وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ مرفوعاً: «همُ الذينَ يُؤَخِّرونَها عنْ وقتِها» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١١]. وقالَ مجاهدٌ: «الساهي الذي لا يُبالي صَلَّى أم لم يُصَلِّ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١١] ألَا ترَى أنهُ قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾. وقالَ الحَسَنُ: «همُ المُنافقونَ، يُؤَخِّرونَها عن وقتِها، ويُراؤونَ إذا صَلَّوا» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقالَ سعدُ [بْنُ أبي وَقّاصٍ][1]: «السَّهْوُ[2] عنِ الوقت» [بنحوه: الطبراني في الأوسط ٢٢٩٧]. وقالَ أبو العاليةِ: «الساهي هو الذي لا يَدْري عنْ شَفْعٍ انْصَرَفَ أو عنْ وِتْرٍ» [الدر المنثور ٨/ ٦٤٣]. ورُوِيَ عنْ سليمانَ أنهُ قالَ: الحمدُ للهِ لأنهُ[3] لم يَقُلْ: في صلاتِهِمْ، ولكنهُ قالَ ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ ﷺ «هو الزكاةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦] رواهُ ابنُ الزُّبَيرِ وعِكْرِمةُ ومُجاهدٌ عنهُ. ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ «هو الزكاةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦]. وعنِ ابنِ عباسٍ ﷺ في روايةٍ أُخرَى «هو العاريةُ» [الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٣٦]. وعنِ ابنِ عمرَ قالَ: «هو الذي لا يُعْطى حَقُّهُ، وهو الزكاةُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١٥].

ورُوِيَ عنْ عليٍّ ﷺ في روايةٍ: «الماعونُ مَنْعُ القِدْرِ والدَّلْوِ والفأسِ» [الطبراني في الأوسط: ١٤٩٥]. وعنِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ مِثْلُهُ. وكذا عنِ ابْنِ عباسٍ في روايةٍ أُخرَى. وقالَ أبو عُبَيدةَ: كلُّ ما فيهِ مَنْفَعَةٌ، فهو الماعونُ. وعنِ ابْنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][4] قالَ: «ما جاءَ هؤلاءِ[5] بَعْدُ» [ابن جرير الطبري في تفسيره ٣٠/ ٣١٩].

فإنْ كانَ ذلكَ على العَواري فالمَعْنَى منها ذَمُّ البخيلِ، وأشَدُّهُ مَنْعُ القَرْضِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ الماعونُ كلَّ معروفٍ وكلَّ ما يُعانُ [بهِ][6]؛ يدخُلُ في ذلكَ الزكاةُ وغَيرُها؛ ففيهِ ذِكْرُ بُخْلِهِمْ وشُحِّهِمْ ومَنْعِ الحقِّ منَ المُسْتَحِقِّ.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَضْرِبُ، ويَدْفعُ في قَفاهُ؛ يُقالُ: دَعَّ يَدُعُّ دَعّاً، فهو داعٌّ ومَدْعوعٌ.

وقالَ القُتَبِيُّ: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ أي يَدْفَعُهُ، وكذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] أي يُدْفَعونَ.

وقالَ أبو عَوسَجَةَ: ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ لا يُحَرِّضُ، ولا يَحُثُّ ﴿سَاهُونَ﴾ غافلونَ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ لاهونَ، وكذلكَ في حَرْفِ أُبَيٍّ ﷺ واللهُ أعلَمُ بحقيقةِ ما أرادَ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: الترك. (٣) في الأصل وم: حيث. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في تفسير الطبري: أهلها.
(٦) ساقطة من الأصل وم.

سـورة[1] الكـوثـر

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هذا خَرَجَ مَخْرَجَ الامْتِنانِ على رسولِ اللهِ ﷺ والإنعامِ والإفضالِ لِيَسْتَأْدِيَ بذلكَ شُكْرَهُ والخُضوعَ لهُ.

ثم اختَلَفوا في الكوثرِ [قالَ بعضُهُمْ:][2] هو الخَيرُ الكَثيرُ [والخَيرُ الكَثيرُ][3] ما أُعْطِيَ مِنَ النُّبُوَّةِ والرسالةِ وما لا يَنْجو أحدٌ مِنْ سُخْطِ اللهِ تعالى إلّا بهِ، وهو الإيمانُ بهِ والتَّصديقُ لهُ وما صَيَّرَهُ مَعْروفاً مَذْكوراً في الملائكةِ، وما قَرَنَ ذِكْرَهُ بِذِكْرِهِ، ورَفَعَ قَدْرَهُ ومَنْزِلَتَهُ في جميعِ الخلائقِ، وغَيرُ ذلكَ ممّا لا يُحْصَى. وهو ما قالَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقالَ بعضُهُمْ: نَهَرٌ في الجنةِ. وعلى ذلكَ جاءَتِ الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ سُئِلَ عنِ الكوثَرِ، فقالَ: «نَهَرٌ في الجنةِ» [الترمذي ٣٣٥٩] أو قالَ ذلكَ مِنْ غَيرِ سؤالٍ.

فإنْ ثَبَتَتِ الأخبارُ فهو بذاكَ[4] كُفينا عنْ ذِكْرِهِ، وإنْ لم تَثْبُتِ الأخبارُ فالوجهُ الأوّلُ أقْرَبُ عندَنا، لأنهُ ليسَ في إعطائِهِ النَّهَرَ تَخْصيصٌ في التَّشريفِ والعَطِيَّةِ، لأنَّ اللهَ تعالى وَعَدَ لأُمَّتِهِ ما هو أكثرُ مِنْ هذا لِما رُوِيَ في الأخبارِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ لأهلِ الجنةِ في الجنةِ ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشرٍ» [البخاري ٣٢٤٤ ومسلم ٢٨٢٤]. ونحنُ نَعْلَمُ أنَّ هذا في الإنعامِ أكثرُ مِنَ النَّهَرِ الذي وَصَفَ.

وقالَ بعضُهُمْ: الكَوثَرُ شيءٌ أعطاهُ اللهُ تعالى رَسولَهُ، لا يُعْرَفُ.

وأصلُهُ: أنهُ شيءٌ، خاطَبَ بهِ رسولَهُ، وهو قد عَرَفَهُ، فلا يَجِبُ أن يَتَكَلَّفَ [أحدٌ][5] مَعْرِفَتَهُ وتَفسيرَهُ، لأنهُ إنْ أخطأَهُ[6] لَحِقَهُ الضَّرَرُ، وإنْ أصابَهُ لم يَنْتَفِعْ[7] بهِ كثيرَ نَفْعٍ.

وقيلَ: الكَوثَرُ، هو حَرْفٌ أُخِذَ مِنَ الكتبِ المُتَقَدِّمةِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ:

قالَ بعضُهُمْ: حقيقةُ الصلاةِ، هي الخُضوعُ والخُشوعُ والدُّعاءُ، أمَرَهُ بجميعِ ما يُعَبِّدُهُ في نفسِهِ، وأمَرَهُ أنْ يأتِيَ بما تَعَبَّدَهُ مِنَ القَرابينِ والذَّبائحِ والضَّحايا التي فيها نِفارُ الطِّباعِ حتى إنَّ مِنَ الكَفَرَةِ مَنْ يُحَرِّمُ الذبائحَ والنَّحْرَ للآلامِ التي فيها، والطِّباعُ تَنْفُرُ عنْ ذلكَ، فَتَعَبَّدَهُ بالذي فيهِ مُناقضةُ طَبْعِهِ ونِفارُهُ عنهُ.

وجائزٌ أنْ يكونَ لا على الأمرِ[8] بالصلاةِ والنَّحرِ، ولكنَّ معناهُ: إذا فَعَلْتَ ذلكَ فافْعَلْ للهِ، لأنَّ أولئكَ الكَفَرَةَ كانوا يُصَلُّونَ للأصنامِ، ويَذْبَحونَ لها كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] أي لِلنُّصُبِ فأمَرَهُ أنْ يَجْعَلَ ذلكَ للهِ تعالى.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: ذاك. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: أخطأ. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: ينفع. (٨) أدرج قبلها في الأصل وم: رأي.

وقالَ الحَسَنُ: صَلِّ لربِّكَ صلاةَ العيدِ، وانْحرِ البُدْنَ بَعْدَها. وقالَ مجاهدٌ وعطاءٌ: صَلِّ الصُّبْحَ بِجَمْعٍ، وانْحَرْ بِمِنًى.

وقالَ بعضُهُمْ: صَلِّ لربِّكَ حقيقةَ الصلاةِ، وهي الصلاةُ المَعْروفةُ المَفْروضةُ «وهي مُخُّ العبادةِ» [بنحوه: الترمذي ٣٣٧١]. على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ، وكذلكَ ما ذُكَرَ: «إنَّ المُصَلِّيَ مُناجِ الرَّبِّ تعالى» [أحمد ٢/ ٦٧].

وهو، واللهُ أعلَمُ، لأنهُ ما مِنْ عبادةٍ إلّا وفيها شيءٌ مِنَ اللَّذَّةِ وقَضاءِ الشَّهْوَةِ للنفسِ وأمانيها مِنَ السَّيرِ والرُّكوبِ والأكلِ والشُّرْبِ والكلامِ والانْتِقالِ مِنْ مَوضعٍ [إلى مَوضعٍ][1] وغَيرِ ذلكَ مِنَ الطاعاتِ ممّا فيهِ شيءٌ مِنَ اللَّذَّةِ للنفسِ وقَضاءِ شَهْوَتِها، وإنْ قلَّ، مِنَ الحَجِّ / ٦٥٥ - أ/ والزكاةِ والجهادِ وغَيرِ ذلكَ، إلّا الصلاةَ نفسَها فإنَّ فيها قَطْعَ النفسِ عنْ جَميعِ شَهَواتِها وأمانيها وعنْ جَميعِ ما يُتَلَذَّذُ بهِ مِنْ أنواعِ اللَّذّاتِ. وعلى ذلكَ ما سَمّى موسى ﷺ كليمَ اللهِ ونَجيَّهُ، لأنهُ فارقَ قومَهُ وجميعَ ما للنفسِ فيهِ لَذَّةٌ وراحةٌ، وأتى جَبَلاً، ليسَ فيهِ أحدٌ، وكلَّمَهُ ربُّهُ في ذلكَ، فَسُمِّيَ نَجِيَّ اللهِ. وعلى ذلكَ سُمِّيَ المُصَلِّي مُناجياً ربَّهُ، وخُصَّ بذلكَ الاِسْمِ لِما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ هو ما ذَكَرْنا مِنْ نَحْرِ البُدْنِ الذي يُعَبِّدُهُ للكلِّ لِما فيهِ مِنْ نِفارِ النَّفْسِ بالتَّألُّمِ الذي يَحْصُلُ لِغَيرِهِ بِفِعْلِ غَيرِهِ. فالتَّألُّمُ بهِ يَفْعَلُ بنفسِهِ أكثرَ مِنَ التَّألُّمِ بِفِعْلِ غَيرِهِ، وهو مُجاهدةُ النفسِ، ويُغَيِّرُ ما امْتَحَنَهُ ﷺ بِتَحَمُّلِ المَشَقَّةِ لوجْهِهِ تعالى مَرَّةً بالتَّبليغِ إلى الكَفَرَةِ معَ الخَطَرِ على نفسِهِ ومَرَّةً بِمُجاهدةِ نفسِهِ بالقِيامِ بالليلِ ومَرَّةً بإتيانِ خِلافِ الطَّبْعِ، وهو ذَبْحُ البُدْنِ؛ إذِ الطَّبائعُ تَنْفُرُ عنْ إراقةِ الدماءِ، معَ أنهُ مِنْ أشْفَقِ الناسِ وأرْحَمِهِمْ على خَلْقِهِ.

فَبَلَغَ مِنْ حسنِ إجابتِهِ لهُ وطاعتِهِ لهُ أنْ ساقَ مئةَ بَدَنةٍ، فَنَحَرَ سِتِّينَ منها بيدِهِ، وَوَلّى علياً ﷺ نَحْرَ أربعينَ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: [أحمد ١/ ٣١٤ و٣١٥].

ورَوى أبو الجوزاءِ عنِ ابنِ عباسٍ ﷺ [أنهُ][2] قالَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ وَضعُ اليَمينِ على الشِّمالِ في الصلاةِ، وكذا رُويَ عنْ عليٍّ ﷺ وعنْ عاصِمٍ الجَحْدَرِيِّ [أنهُ][3] قالَ: هو وَضْعُ اليَمينِ على الشِّمالِ في الصلاةِ.

ومِنْ قَولِ الثَّنَوِيَّةِ أنهمْ لا يَرَونَ ذَبْحَ شيءٍ مِنَ الأشياءِ لِما فيهِ مِنَ الألَمِ والأذَى. وقولُهُمْ هذا، ليسَ بصحيحٍ لأنا نَعْلَمُ أنَّ إماتَةَ الروحِ بالذَّبْحِ أهوَنُ على المَذْبوحِ مِنْ مَوتِهِ حَتْفَ أنفِهِ، فإذا جازَ في الحِكْمةِ أنْ يُزْهِقَ روحَهُ بِغَيرِ الذَّبْحِ [فَلأَنْ يجوزَ بالذَّبْحِ][4] أحَقُّ.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنَّ هذهِ السورةَ نَزَلَتْ في مُخاطبةِ رسولِ اللهِ ﷺ وهو المَقصودُ بهِ مِنْ بينِ الناسِ، وهو أعْلَمُ[5] بالذي خاطَبَهُ بهِ مِنَ الصلاةِ والنَّحْرِ والكوثرِ وغَيرِ ذلكَ، فلا نَتَكَلَّفُ نحنُ تَفسيرَهُ مَخافَةَ الكذبِ على اللهِ سِوَى أنْ نَذْكُرَ أقاويلَ أهلِ التأويلِ.

الآية ٣ وكذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يَذْكُرُ أهلُ التأويلِ أنَّ فلاناً سَمّى رسولَ اللهِ ﷺ أبْتَرَ، فَنَزَلَ أنَّ الذي سَمّاكَ أبْتَرَ، هو الأبْتَرُ، لا يُعَرِّفُهُ حقيقةً، لأنهُ لم يُذْكَرْ أنَّ أحداً مِنْ أولادِ الفراعنةِ وأعداءِ الرسلِ ﷺ افْتَخَرَ بأبيهِ، أو أحداً مِنْ أوليائِهِمْ [أو المُنْتَمِيَ إليهِمُ افْتَخَرَ بهِمْ][6] وافْتَخَرَ أولادُ[7] أولياءِ رسولِ اللهِ ﷺ على الناسِ حتى يَتَعَيَّنوا بذلكَ في ما بَينَهُمْ.

يقولُ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي مُعادِيَكَ ومُبْغِضَكَ، هو الأبْتَرُ دونَكَ، أو يقولُ: أعداؤكَ، هُمُ الذينَ يُبْتَرُ ذِكْرُهُمْ، وأولئكَ مَذْكورونَ أبداً على ما قُلْنا.

وأصلُهُ ما ذَكَرْنا أنهُ خاطَبَ بهِ رسولَ اللهِ ﷺ وقد عَرَفَ ذلكَ، ونحنُ لا نَعْلَمُ في أيِّ شيءٍ كانتِ القصةُ؟ وفيمَ نَزَلَتِ الآيةُ؟ واللهُ ورسولُهُ أعلَمُ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) و(٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل وم: يعلم. (٦) في الأصل وم: المتمين بهم. (٧) ساقطة من م.

قالَ أبو عَوسَجَةَ: الشانِئُ المُبْغِضُ، يُقالُ: شَنَأْتُهُ أبْغَضْتُهُ، والأبترُ، هو الذي لا وَلَدَ لَهُ ذَكَراً، ولا عَقِبَ لهُ.

وفي قولِهِ ﷻ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ بِشارةٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ بالغَلَبَةِ عليهِمْ والقَهْرِ لهمْ والنُّصْرَةِ عليهِمْ وإظهارِ دينِ اللهِ تعالى في البلادِ والآفاقِ، إذْ أخبَرَ أنَّ الذي عاداهُ، وباغَضَهُ، هو المُنْقَطِعُ والأبْتَرُ، لا هو، واللهُ المُسْتَعانُ.



سورة[1] الكافرون

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلى آخِرِها، ذُكِرَ أنها نزلَتْ في مُنابَذَةِ المُتَمَرِّدينَ المعانِدينَ الذينَ لا يؤمنونَ أبداً، ولا يَرْجِعونَ عمّا هُمْ عليهِ مِنْ عبادةِ الأوثانِ إلى التوحيدِ والإسلام، لأنهُ لا كلُّ كافرٍ يكونُ على وَصْفِ أنهُ لا يَعْبُدُ اللهَ تعالى في وقتٍ منَ الأوقاتِ؛ إذْ قد يجوزُ أنْ يكونَ في وقتٍ [كافرًا][2] ثم يُسْلِمُ في وقتٍ آخَرَ. فَدَلَّ ما ذَكَرْنا أنها نزلت في المُتَمَرِّدينَ المُعانِدينَ الذينَ عَلِمَ اللهُ أنهمْ يَثْبُتونَ على الكُفْرِ، ولا يُؤمِنونَ أبداً، وكانَ كما أخْبَرَ.

وفيهِ[3] دلالةُ إثباتِ الرسالةِ، إذْ أخْبَرَ أنهمْ لا يُؤمنونَ، فلم يُؤمِنوا، وماتوا على الكُفْرِ.

الآيات ٢ ـ ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتمُ الآنَ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في ما بعدَ اليومِ [﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾][4].

وقالَ بعضُهُمْ: الأوّلُ في ما مَضَى منَ الوقتِ، والثاني: إخبارٌ عنِ الحالِ، والآخَرُ في ما بَقِيَ منَ الوقتِ، ولكنْ لا يَجيءُ أنْ يكونَ هكذا، بل يَجيءُ بهِ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في حادثِ الوقتِ، لأنَّ حَرْفَ: ﴿لَآ﴾ إنما يُسْتَعْمَلُ في حادثِ الأوقاتِ؛ يقولُ الرجلُ: لا أفْعَلُ كذا؛ يريدُ بهِ حادثَ الوقتِ، وقولُهُ ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ كذلكَ أيضاً في حادثِ الأوقاتِ، أو إخبارٌ عنِ الحالِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ إنما هو إخبارٌ عنِ الماضي منَ الأوقاتِ؛ كأنهُ يقولُ: لم أكُنْ أنا عابداً [﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾][5] قَطُّ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ. وهذا يدلُّ على أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَكُنْ عَبَدَ غيرَ اللهِ قَطُّ.

وفي هذهِ السورةِ وجْهانِ منَ الدلالةِ:

أحدُهُما: ما ذَكَرْنا منْ إثباتِ الرسالةِ.

والثاني: إخبارٌ عنِ الإياسِ لهمْ منْ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أنْ يَرْجِعَ إلى دينِهِمْ أبداً وقَطْعِ رَجائِهِمْ وطَمَعِهِمْ في ذلكَ.

وفيهِ أيضاً أنَّ مَنْ أشرَكَ [غيرَ اللهِ في عبادتِهِ][6] ﷺ وعَبَدَ غيرَهُ دونَهُ على رجاءِ القُرْبةِ إلى اللهِ تعالى، فهو ليسَ بعابدِ اللهِ تعالى ولا مُوَحِّدٍ لهُ، لأنَّ أولئكَ إنما عَبَدوا الأصنامَ رَجاءَ أنْ تَشْفَعَ لهمْ ورَجاءَ أنْ تُقَرِّبَهُمْ إلى اللهِ زُلْفَى. أخْبَرَ أنها لا تُقَرِّبُهُمْ زُلْفَى وأنهمْ ليسوا بِمُوَحِّدينَ ولا عابدينَ للهِ تعالى.

الآية ٦ وقولُهُ تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ يَحْتَمِلُ وجْهَينِ[7]:

أحدُهما: لكُمْ جَزاءُ دينِكُمْ، ولي جَزاءُ ديني الذي دِنْتُ.

والثاني: على المُنابَذةِ والإياسِ: لكُمْ ما اخْتَرْتُمْ مِنَ الدينِ، ولي ما اخْتَرْتُ، لا يَعودُ واحدٌ مِنّا إلى دينِ الآخَرِ. وكانَ قبلَ ذلكَ يَطْمَعُ كلُّ فريقٍ عَودَ الفريقِ الآخَرِ إلى دينِهِمُ الذي هُمْ عليهِ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر ان. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: ففيه. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) في الأصل وم: غيره في عبادة الله. (٧) في الأصل وم: وجهان.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليسَ على الأمرِ [على ما ذَكَرْنا في سورةِ الإخلاصِ والمُعَوِّذتين؛ إذْ لو كانَ على الأمرِ لَلَزِمَ[1] أنْ يقولَ كلُّ واحدٍ منا لكلِّ كافرٍ ذلكَ. فإذا لم يَلْزَمْ دلَّ أنهُ ليسَ على الأمرِ][2].

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ قُلْ للذينَ / ٦٥٥ - ب/ كَفَروا: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾][3] ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

وعنهُ أنهُ قالَ: منْ قَرَأَ هذهِ السورةَ فقد أكْثَرَ، وأطْنَبَ.

وفي حديثٍ مرفوعٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنهُ قالَ لرجلٍ: «إذا قَرِبْتَ إلى فراشِكَ فاقْرَأْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فإنهُ بَراءةٌ مِنَ الشِّرْكِ» [الترمذي ٣٤٠٣].

وأهلُ التأويلِ يقولونَ: إنَّ سَبَبَ نزولِ هذهِ مُنابَذَتُهُ إياهُمْ: أنَّ رهطاً مِنْ قريشٍ قالوا: يا رسولَ اللهِ ﷺ هَلُمَّ فَلْتَعْبُدْ ما نَعْبُدُ، واعْبُدْ ما نَعْبُدُ نحنُ، فيكونُ أمرُنا أمراً واحداً فنَزَلَتْ هذهِ السورةُ.

قالَ أبو عوسَجَةَ: الدِّينُ العادةُ؛ تقولُ: هذا ديني أي عادتي.

ثم المَعْنَى الذي وقعَ عليهِ التكرارُ لهذهِ الأحرفِ عندَنا أنَّ التَّكرارَ حَرْفٌ جَرَى الاسْتِعمالُ بهِ في موضعِ المُبالغةِ والتأكيدِ لِما قَصَدَ بهِ منَ الكلامِ [في أيِّ كلامٍ][4] كانَ: رَجاءً أو وَعيداً أو غَيرَهُ كقولِهِمْ: بَخٍ بَخٍ والوَيلُ [الويلُ][5] وهيهاتَ هيهاتَ وغَيرُ ذلكَ، فكذلكَ في هذا المَوضِعِ لِما وقعَ الإياسُ مِنْ إيمانِهِمْ باللهِ تعالى بما عَلِمَ النَّبِي ﷺ بطريقِ الوَحْيِ أنهمْ لا يُؤْمنونَ، كَرَّرَ هذا الكلامَ تأكيداً للإياسِ وإبلاغاً، واللهُ أعلَمُ [والحمدُ للهِ ربِ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ][6] على سيدِنا محمدٍ [وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][7].

---

(١) في م: فهو يلزم. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) في م: وصلى الله. (٧) ساقطة من الأصل.

سورة[1] النصر

مكية[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قالَ عامَّةُ أهلِ التأويلِ: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ هو مكةُ والنصرُ الذي نَصَرَ رسولَ اللهِ ﷺ على أهلِ مكةَ.

قالَ أبو بكرٍ الأصمُّ: هذا يَحتَمِلُ لأنَّ فَتْحَ مكةَ كانَ بعدَ الهجرةِ بثماني سِنينَ، ونزولَ هذهِ السورةِ كانَ بعدَ الهجرةِ بِعَشْرِ سِنينَ، ولا يُقالُ للذي قَضى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ولكنْ أرادَ سائرَ الفُتوحِ التي فَتَحها لهُ، أو كلامٌ نحوُ هذا.

ولكنْ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنَى إنْ جاءَ. وجائزٌ ذلكَ في اللغةِ، وفي[3] القرآنِ كثيرٌ: إذا مكانَ إنْ. فإنْ كانَ على هذا فَيَستَقيمُ حَمْلُهُ على فَتْحِ مكةَ على ما قالَهُ أولئكَ، أو [أنْ][4] يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أي قد جاءَ نَصْرُ اللهِ، أي أنْ يكونَ أرادَ بما ذَكَرَ مِنَ النَّصْرِ والفَتْحِ الفُتوحَ التي كانَتْ لهُ مِنْ بَعْدُ حينَ دَخَلَ الناسُ في دينِ اللهِ أفواجاً على ما ذَكَرْنا.

وقولُهُ تعالى: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي عَونُ اللهِ وخِذلانُهُ لأعدائِهِ أو أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ هو[5] فتوحَ الأمورِ التي فَتَحها اللهُ ﷻ عليهِ مِنْ تَبْليغِ الرسالةِ إلى مَنْ أَمَرَ تَبْليغَها إليهِمْ والقِيامِ بالأمورِ التي أمَرَهُ أنْ يقومَ بها، فَتَحَ تلكَ الأمورَ عليهِ، وأتَمَّها.

فإنْ كانَ على هذا فَتَصيرُ فُتوحُ تلكَ الأمورِ لهُ نَعْياً بالدلالةِ على ما قالَهُ أهلُ التأويلِ: إنهُ نَعْيٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ نفسَهُ، وجِهَةُ الاِسْتِدْلالِ الوجوهُ التي ذَكَرْنا.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ ذَكَرَ أهلُ التأويلِ أنهُ كانَ قَبْلَ ذلكَ يدخُلُ واحدٌ واحدٌ. فلمّا كانَ فَتْحُ مكةَ جَعَلوا يدخُلونَ دينَهُ أفواجاً أفواجاً وقبيلةً قبيلةً.

ويَحتَمِلُ ما ذَكَرْنا مِنْ سائرِ الفُتوحِ أي فُتوحِ الأمورِ التي ذَكَرْنا على ما رُوِيَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهرَينِ شهراً أمامي وشهراً ورائي» (الطبراني في الكبير ٦٦٧٤).

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ نَعْيُ رسولِ اللهِ ﷺ من وجوهٍ، وقد ذُكِرَ في الأخبارِ أنهُ نُعِيَ إليهِ نفسُهُ بهذهِ السورةِ:

أحَدُها: ما ذَكَرْنا مِنْ جِهَةِ الاِسْتِدْلالِ عَرَفَ أنهُ قد دَنَا أجَلُهُ [حينَ أتَمَّ][6] ما أُمِرَ بهِ، وفَرَغَ منهُ مِنَ التَّبليغِ والدعاءِ.

والثاني: عَرَفَ ذلكَ اطِّلاعاً مِنَ اللهِ تعالى أطْلَعَهُ عليهِ بِعلاماتٍ جَعَلَها لهُ، فَفَهِمَ رسولُ اللهِ ﷺ ما لا تُدرِكُ أفهامُنا ذلكَ.

---

(١) أدرج قبلها في الأصل: ذكر أن. (٢) أدرج قبلها في م: وهي. (٣) الواو ساقطة من الأصل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: هي. (٦) في الأصل: حيث، في م: حيث أتم.

والثالثُ: لَمّا كُفِيَ مَؤونةَ القيامِ بالتبليغِ بنفسِهِ عَرَفَ بذلكَ حُضورَ أجلِهِ، وهو نوعٌ مِنَ الدلالةِ.

ووَجْهُ الدلالةِ أنَّ القومَ لمّا دَخلوا في دينِ اللهِ فَوجاً فَوجاً دَلَّ ذلكَ على ظُهورِ الإسلامِ وكَثْرَةِ أهلِهِ، فكانَتِ الغَلَبَةُ والنَّصْرُ دليلَ الأمنِ مِنَ الزَّوالِ عمّا هُمْ عليهِ مِنَ الدِّينِ إذا زالَ الرسولُ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قالَ بعضُ أهلِ التّأويلِ: أي صَلِّ بأمرِ ربِّكَ.

وأصْلُهُ: ما ذَكَرْنا في ما تَقدَّمَ أنَّ التَّسبيحَ، هو التّنزيهُ، والتّنزيهُ عنْ جميعِ مَعاني الخَلْقِ، والوصفُ بما يَليقُ بهِ. قالَ: نَزِّهْهُ، وبَرِّئْهُ بالثّناءِ عليهِ، وصِفْهُ بالصِّفاتِ العُلا، وسَمِّهِ بالأسماءِ الحُسنى التي عَلَّمَكَ ربُّكَ.

ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مَعْنى قولِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ على ما جاءَ في الأخبارِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُكْثِرُ مِنْ دعائِهِ: «سُبحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ» [مسلم ٤٨٤/ ٢٢٠].

وهذا لأنَّ «سُبحانَ اللهِ» حَرْفٌ جامعٌ يَجمَعُ جميعَ ما يَستَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِ والوصفِ لهُ بالعُلُوِّ والعظمةِ والجلالِ والتَّنزيهِ عنْ جميعِ العُيوبِ والآفاتِ وعنْ جميعِ معاني الخَلْقِ؛ جَعَلَ لهمْ هذا الحَرْفَ الجامعَ لِما عَرَفَ عَجزَهُمْ عنِ القيامِ بالوصفِ بجميعِ ما يَستَحِقُّ مِنَ الثناءِ عليهِ.

وكذلكَ حَرْفُ: «الحمدُ للهِ» هو حَرْفٌ جامعٌ يَجمَعُ جميعَ شُكرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ؛ جَعَلَ لهمْ ذلكَ لِما عَرَفَ عَجزَهُمْ وقِلَّةَ شُكرِ ما أنْعَمَ عليهِمْ واحدٍ بعدَ واحدٍ.

وعلى ذلكَ يُخَرَّجُ قولُهُ: «اللهم صلِّ على محمدٍ» (البخاري ٦٣٥٧) أمَرَهُمْ أنْ يَجعَلوا الصلاةَ على رسولِ اللهِ ﷺ بقولِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولمّا لم يَجعَلْ في وُسْعِهِمُ القِيامَ بِما يَستَحِقُّهُ أمَرَهُمْ أنْ يقولوا: «اللهمَّ صلِّ على محمدٍ» ليكونَ هو المُتَوَلِّيَ ذلكَ بنفسِهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: دلَّ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ على أنْ كانَ منهُ تَقصيرٌ وتَفريطٌ في أمرِهِ حتى أمَرَهُ[1] بالاِستِغفارِ عنْ ذلكَ.

لكنَّ هذا كلامٌ وَحْشٌ، لا يَصِفُ رسولَ اللهِ ﷺ /٦٥٦ ـ أ/ بالتَّقصيرِ في شيءٍ ولا بالتَّفريطِ في أمرٍ، ولكنْ قد جَعَلَ اللهُ تعالى على كلِّ أحدٍ مِنْ نِعَمِهِ وفَضْلِهِ وإحسانِهِ في طرفةِ عينٍ ولحظةِ بَصَرٍ ما ليسَ في وُسْعِهِ وطاقتِهِ القِيامُ بِشُكرِ واحدٍ منها، وإنْ لَطُفَ، وطالَ عُمُرُهُ.

فأمَرَهُ بالاِستِغفارِ لِما يَتَوَهَّمُ منهُ التَّقصيرَ في أداءِ شُكرِ نِعَمِهِ عنِ القِيامِ بذلكَ أو أنْ يكونَ لأُمَّتِهِ لا لنفسِهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: ما مَعْنى أمرِهِ بالاِستِغفارِ؟ وقد ذَكَرَ أنهُ غَفَرَ لهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذنبِهِ وما تأخَّرَ.

فالجوابُ عنهُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ يجوزُ أنْ يكونَ أمَرَهُ[2] بالاِستِغفارِ لأُمّتِهِ نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩].

[والثاني:][3] أنْ يكونَ اللهُ تعالى وَعَدَ لهُ المَغفِرَةَ إذا لَزِمَ الاِستِغفارَ، ودامَ عليهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ أي كانَ، ولم يَزَلْ تَوّاباً ليسَ أنْ صارَ تَوّاباً بأمرٍ اكْتَسَبَهُ، وأحدَثَهُ، على ما تقولُهُ المعتزلةُ: إنهُ صارَ تَوّاباً.

ثم قولُهُ تعالى: ﴿تَوَّابَۢا﴾ [يحتملُ وجُوهاً:

أحَدُها:][4] على التَّكثيرِ، أي يَقبَلُ تَوبةً بَعْدَ تَوبةٍ، أي إذا تابَ مَرَّةً، ثم ارْتَكَبَ الحُرُمَ، وعَصاهُ، ثم تابَ ثانياً وثالثاً، وإنْ كَثُرَ فإنهُ يَقبلُ تَوبَتَهُ.

---

(١) في الأصل وم: أمر. (٢) في الأصل وم: أمر. (٣) في الأصل وم: أو. (٤) ساقطة من الأصل وم.

والثاني: تَوّاباً أي رَجّاعاً يُرْجِعُهُمْ، ويَرُدُّهُمْ عنِ المَعاصي إلى أنْ يَتوبوا، أي هو الذي يوفِّقُهُمْ إلى[1] التوبةِ.

[والثالثُ:][2] قالَ ﴿تَوَّابَا﴾ ولم يَقُلْ غَفّاراً، وحَقُّ مثلِهِ مِنَ الكلامِ أنْ يُقالَ: إنهُ كانَ غَفّاراً كما قالَ في آيةٍ أُخرَى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠].

ولكنَّ المَعْنَى عندَنا أنَّ المُرادَ مِنَ الاِسْتِغْفارِ، ليسَ قولُهُ: اسْتَغْفِرُ اللهَ، ولكنْ أنْ يَتوبَ إليهِ، ويَطْلُبَ منهُ المَغْفرةَ بالتوبةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

[والرابعُ][3]: يجوزُ أنْ يكونَ فيهِ إضمارٌ؛ كأنهُ قالَ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ وتُبْ إليهِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

[والخامسُ:][4] يجوزُ ذِكْرُ[5] الاِسْتِغْفارِ في السؤالِ عنْ ذِكْرِهِ في الجوابِ اجْتِزاءً[6] بِذِكْرِ التوبةِ [منهُ][7] في الجوابِ عنْ ذِكْرِها في السؤالِ، ويجوزُ مثلُ هذا في الكلامِ.

ثم الدِّينُ اسْمٌ يَقَعُ على ما يَدينُ بهِ الإنسانُ حقّاً كانَ أو باطلاً. وعلى ذلكَ أضافَ النَّبِيُّ ﷺ ما كانَ يدينُ بهِ إلى نفسِهِ وما دانَ بهِ الكَفَرَةُ إليهِمْ حينَ[8] قالَ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وأمّا إضافتُهُ إلى اللهِ تعالى حينَ[9] قالَ: ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [الآية: ٢] [فهو][10] الدِّينُ الذي أمَرَهُمْ بهِ، ودَعاهُمْ إليهِ. لذلكَ خَرَجَتِ الإضافةُ والنِّسْبةُ إليهِ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ][11] [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمَعينَ][12].

---

(١) في الأصل وم: على. (٢) في الأصل وم: ثم. (٣) و(٤) في الأصل وم: و. (٥) في الأصل وم: تذكر. (٦) في الأصل وم: واجترى. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) و(٩) في الأصل وم: حيث. (١٠) من م، ساقطة من الأصل. (١١) من م، ساقطة من الأصل. (١٢) ساقطة من م.

سورة ﴿تبَّتْ [يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾](1)

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ، وخابَتْ. كذلكَ قالَ أبو عوسَجَةَ؛ يُقالُ: تَبَّ يَتُبُّ تبّاً وتَباباً. ثم ما ذَكَرَ مِنْ قولِهِ: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ يَحْتَمِلُ حقيقةَ اليدِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ ذِكْرَ اليدَ على الصِّلَةِ.

فإنْ كانَ على إرادةِ حقيقةِ اليدِ، فهو يُخَرَّجُ على وجوهٍ.

أحَدُها: ما ذُكِرَ أنهُ كثيرُ الإحسانِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ والإنفاقِ عليهِ والصَّنائعِ إليهِ. وكانَ يقولُ: إنْ كانَ الأمرُ لمحمدٍ يومئذٍ فيكونُ لي عندَهُ يدٌ، وإنْ كانَ لقريشٍ فلي عندَها يدٌ، فأخْبَرَ، واللهُ أعلمُ، أنهُ خَسِرَ في ما طَمِعَ، ورَجا مِنَ اليدِ التي لهُ عندَهُ والإحسانِ الذي أحْسَنَ إليهِ، إذْ لم يُصَدِّقْهُ، ولم يؤمنْ بهِ، وخَسِرَ أيضاً ما ادَّعَى مِنَ اليدِ لهُ عندَ قريشٍ.

والثاني: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مِنْ أبي لهبٍ تَخويفٌ لرسولِ اللهِ ﷺ بالبَطْشِ والأخذِ باليدِ، فأمَّنَ اللهُ تعالى رسولَهُ ممّا خوَّفَهُ بهِ حينَ(2) قالَ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي خَسِرَتْ يداهُ، ولا يَقْدِرُ على البَطْشِ.

والثالثُ: يَحْتَمِلُ أنْ تكونَ اليدُ كِنايةً عنِ القُوَّةِ في نفسِهِ ومالِهِ في دفعِ العذابِ عنْ نفسِهِ(3) لقولِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

وذَكَرَ بعضُ أهلِ التأويلِ أنهُ لمّا نَزَلَ قولُهُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جَمَعَ عشائِرَهُ الأقرَبَ فالأقرَبَ منهمْ، وقالَ: «إني لا أملكُ لكمْ مِنَ اللهِ نَفْعاً في الدنيا والآخِرَةِ إلّا بَعْدَ أنْ تقولوا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وأني رسولُ اللهِ، فقالَ أبو لهبٍ عندَ ذلكَ: تَبّاً لكَ يا محمدُ ألهذا دَعَوتَنا؟ فنَزَلَ عندَ ذلكَ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾» [بنحوه: البخاري ٤٧٧٠] مُجازاةً لهُ.

فهذا، وإنْ لم يكُنْ في فِعْلِهِ في القصةِ اسْتِعْمالُ اليَدَينِ، فَيجوزُ أنهُ كانَ يَصْرِفُ الناسَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ بيدِهِ، أو حينَ دُعِيَ إلى الإيمانِ باللهِ تعالى مَدَّ يَدَهُ على التَّعَجُّبِ مِنْ ذلكَ، وقالَ: ألهذا دَعَوتَنا، فَرَدَّ اللهُ تعالى ذلكَ، وعَيَّرَهُ بهِ.

وقد يجوزُ، وإنْ [لم](4) يَظْهَرْ في الجوابِ مُقَدِّمةُ السؤالِ، وإنْ لم يُذْكَرْ ذلكَ في السؤالِ. ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؟ [البقرة: ٢٢٢] فعُلِمَ بذلكَ أنَّ السؤالَ إنما كانَ عنْ قُرْبانِهِنَّ في المَحيضِ، فكذلكَ الأوَّلُ.

وإنْ كانَ ذِكْرَ اليدَ على الصِّلَةِ فهو يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: ذِكْرَ اليدَ كِنايةً عنِ العملِ والفِعْلِ، إلّا أنهُ ذَكَرَ اليدَ لِما باليَدِ يَقومُ، ويَعْمَلُ كقولِهِ تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] [وقولِهِ تعالى](5): ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وذلكَ على الكِنايةِ عمّا كانَ منهُ مِنَ الصنيعِ، أو خَسِرَتْ أعمالُهُ، وبَطَلَتْ.

والثاني: ذَكَرَ اليدَ على إرادةِ قُدّامٍ وأمامٍ كقولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] أي أمامِهِ وخَلْفِهِ، فيكونُ مَعْناهُ ما قَدَّمَ مِنَ الأعمالِ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: حيث. (٣) من م، في الأصل: أنفسهم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: و.

ثم تخصيصُ أبي لَهَبٍ بالذِّكرِ مِنْ بَينِ سائرِ الكَفَرَةِ يَحتَمِلُ وجوهاً:

أحدُها: خَصَّهُ بالِاسْمِ لأنهُ كانَ مِنَ الفَراعِنةِ والأكابِرِ، وهو المَقْصودُ بهِ، والفَراعِنةُ قد يُذكَرونَ بأسمائِهِمْ لِما هُم المَقصودونَ بهِ، وإنْ كانَ مَنْ دونَهُمْ يُشاركونَهُمْ في ذلكَ كَذِكْرِ فِرعَونَ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهِمْ.

والثاني: كانَ شديدَ الهَيبةِ والخَوفِ، فَذَكَرَهُ باسْمِهِ، وخَصَّهُ بهِ لِيَعْلَمَ أنَّ محمداً ﷺ لا يَهابُهُ، ولا يَخافُهُ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنهُ كثيرُ الأيادي والصَّنائعِ بِحَقِّ رسولِ اللهِ ﷺ فلو كانَ الخِطابُ بهذا يَعُمُّ الكَفَرَةَ لكانَ يَظُنُّ بِما سَبَقَ منهُ مِنَ الأيادي أنهُ غَيرُ داخلٍ تَحتَ الخِطابِ، فَخَصَّهُ بالذِّكرِ لِيَعْلَمَ أنهُ لا يُغْنيهِ مِنَ اللهِ شيءٌ.

ثم ذِكْرُهُ بالكُنْيَةِ يَخرُجُ على وجوهٍ:

أحدُها: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ بالكُنْيةِ /٦٥٦ - ب/ عُرِفَ عندَ الناسِ، وبها كانَ[١] مَعْروفاً دونَ اسْمِهِ، فَذَكَرَهُ بالذي كانَ مَعْروفاً بهِ.

والثاني: ما ذُكِرَ أنَّ اسْمَهُ كانَ عبدَ العُزّى، فلم يُرِدْ أنْ يَنْسُبَهُ إلى غَيرِهِ، وهو العُزّى، فَذَكَرَهُ بالكُنْيَةِ لهذا.

والثالثُ: أنهُ عَيَّرَهُ بأشياءَ، وخَوَّفَهُ بِمَواعيدَ. فلو ذَكَرَهُ باسْمِهِ، فَلَعَلَّهُ يَصْرِفُ ذلكَ الخِطابَ والوعيدَ الذي كانَ لهُ إلى غَيرِهِ لِمَا شَرَكَ غَيرُهُ في الِاسْمِ إذْ[٢] كانوا يُسَمّونَ أولادَهُمْ، ويَنْسُبونَهُمْ إلى أصنامِهِمْ، ولم يَكُنْ أحَدٌ شَرَكَهُ في كُنيةٍ، فلا يُمْكِنُهُ التَّحويلُ إلى غَيرِهِ.

وقيلَ: ذِكْرُهُ بالكُنْيةِ يَخرُجُ مُخرَجَ الوعيدِ لهُ، أي تَصيرُ النارُ كالِابْنِ، وهو كالِابْنِ لها، وذلكَ لأنَّ هذهِ الكُنَى إنما تُذْكَرُ في المُتَعارَفِ على وَجْهِ التَّفاؤُلِ كما يُقالُ: أبو منصورٍ على رَجاءِ أنْ يُولَدَ لهُ ابْنٌ يُسَمّيهِ[٣] مَنْصوراً.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سَمّى النارَ في بعضِ الآياتِ أُمّاً للكافرِ كقولِهِ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩] وفي بعضِها مَولًى حينَ[٤] قالَ: ﴿مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥] فجائزٌ أيضاً أنْ تكونَ النارُ إذا قَرِبَتْ منهُ، وانْضَمَّتْ إلى جُحْرِهِ، أنْ تَصيرَ في التَّمْثيلِ كالوَلَدِ، ويَصيرَ هو أباً لها، فقالَ: ﴿أَبِى لَهَبٍ﴾ على هذا الوَجْهِ مِنَ التأْويلِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ، وهو أنَّ ذِكْرَ الكُنيةِ، وإنْ كانَ يُرادُ بها التَّعظيمُ، فعندَ ذِكْرِ المواعيدِ والعُقوباتِ يُرادُ بها الِاسْتِخفافُ والإهانةُ، وهو على ما ذُكِرَ في البِشارةِ أنها، وإنْ كانَتْ تُذْكَرُ عندَما يُبَشَّرُ، ويُبْهَجُ في الأغلَبِ؛ فعندَ ذِكْرِ العقوبةِ نِذارةٌ كقولِهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

فَعَلَى ذلكَ الكُنيةُ، واللهُ أعلَمُ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ هذا يَخرُجُ على وجهَينِ:

أحدُهما: أي لم يُغْنِ مالُهُ وقُوَّتُهُ وما كَسَبَ مِنْ عذابِ اللهِ شيئاً على ما يقولونَ: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

والثاني: أيَّ شيءٍ ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾؟

ثم قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يَحتَمِلُ الوَلَدَ؛ أي ما أغنَى عنهُ ما جَمَعَ مِنْ مالِهِ وما كَسَبَ مِنَ الوَلَدِ على ما ذُكِرَ في الخَبَرِ: رَوَى أبو الأسودِ عنْ عائشةَ رضي الله عنها عنِ النَّبِيِّ ﷺ [قولَهُ][٥]: «إنَّ أطْيَبَ ما يأكُلُ الرجلُ منْ كَسْبِهِ، وإنَّ ابْنَهُ مِنْ كَسْبِهِ» [النسائي ٧/٢٤١].

وسُئِلَ[٦] ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما أيأخُذُ الرجلُ مِنْ مالِ وَلَدِهِ؟ فَتَلا: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾

(١) أدرج قبلها في الأصل: ما. (٢) في الأصل وم: إذا. (٣) في الأصل وم: يسمى. (٤) في الأصل وم: حيث. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) أدرج بعدها في الأصل وم: عن.

[الشورى: ٤٩] فهو ممّا وَهَبَ اللهُ لنا، فهمْ وأموالُهُمْ لنا، واللهُ أعلَمُ، ما أغنَى عنهُ ما جَمَعَ مِنَ المالِ وما كَسَبَ مِنَ العَمَلِ والإنفاقِ الذي أنْفَقَ على الطَّمَعِ الذي فَعَلَ، أي لم يُغْنِهِ شيئاً، أو ما كَسَبَ مِنْ صَدِّ الناسِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ والدخولِ في دينِهِ والإتْباعِ لهُ وسُوءِ المَقالِ الذي قالَ فيهِ.

وفي حَرْفِ ابْنِ مَسْعودٍ ﷺ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ وقد تَبَّ ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ وما اكْتَسَبَ.

الآية ٣ وقولُهُ تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي ذاتَ الْتِهابٍ.

وفيهِ دلالةُ إثباتِ رسالتِهِ حينَ[1] أخبَرَ أنهُ ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ ولا يَصْلَى النارَ إلّا بَعْدَ ما يَخْتُمُ بالكُفْرِ، ثم كانَ كما أخبَرَ؛ دَلَّ أنهُ عَلِمَ ذلكَ باللهِ تعالى.

وفي هذهِ السورةِ دلالتانِ أُخْرَيانِ تَدُلّانِ على نُبُوَّتِهِ:

إحداهُما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إنما قَرَأَ هذهِ السورةَ عليهِمْ بمكةَ حينَ لم يكُنْ لهُ ناصرٌ في الدينِ، وكانَتِ المَنَعَةُ والقُوَّةُ لِلْكَفَرَةِ، وكانوا جميعاً أولياءَ أبي لَهَبٍ وأنصاراً لهُ عنْ آخِرِهِمْ[2]. ولا يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ محمدٌ ﷺ يَقْرَأُ هذهِ السورةَ عليهِ، وفيها[3] سَبٌّ لهُ وتَعْيِيرٌ إلى يومِ القِيامةِ معَ قِلَّةِ أوليائِهِ وكَثْرَةِ أعدائِهِ؛ إذْ فيهِ خَوْفُ هلاكِهِ، إلّا بِرَبِّ[4] العالَمينَ.

[والثانيةُ:][5] أنهُ ﷺ كانَ موصوفاً بِحُسْنِ العِشْرَةِ وجَمالِ الصُّحْبَةِ معَ الأجانبِ، فما ظَنُّكَ بالعَشيرَةِ والأقاربِ؟ معَ ما أنهُ كانَ مُتَنَزِّهاً عنِ الفُحْشِ في جميعِ أوقاتِهِ.

فما جازَ لهُ هذا إلّا بأمرٍ مِنَ اللهِ تعالى، فَدَلَّ ذلكَ على نُبُوَّتِهِ ورسالتِهِ.

الآيتان ٤ و٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾][6] قالَ بعضُهُمْ: أي حمّالةَ النّميمةِ والحديثِ بَيْنَ الناسِ، فأوعَدَها اللهُ تعالى لذلكَ في الآخِرَةِ بما ذَكَرَ ﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ وهي السِّلْسِلَةُ، ومنهُ يُقالُ: فُلانٌ يَحْطِبُ إذا أغْرَى.

وقالَ بعضُهُمْ: كانَتْ حَمّالَةَ الحَطَبِ حقيقةً؛ كانَتْ تَحْمِلُ الحَطَبَ الذي فيهِ الشَّوكُ، وتَطْرَحُهُ[7] في طريقِ رسولِ اللهِ ﷺ والمُسْلِمينَ، فأوعَدَها[8] اللهُ تعالى بِما ذَكَرَ منْ حَبْلٍ مِنْ مَسَدٍ في الآخِرَةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: إنها كانَتْ كذلكَ في الدنيا، تَحْمِلُ الحَطَبَ إلى مَنْزِلِها، وكانَ في جِيدِها حَبْلٌ مِنْ ليفٍ، فَعَيَّرَها بذلكَ لأنها كانَتْ تُعَيِّرُ رسولَ اللهِ ﷺ بالفَقْرِ والحاجةِ.

وذُكِرَ أنها كانَتْ تُمْسِكُ في عُنُقِها حَبْلاً منْ ليفٍ سِرّاً مِنْ زَوجِها، وذلكَ ممّا لا تَتَحَلّى بها النساءُ، وليسَ هو منْ أسبابِ الزينةِ، فأخبَرَ اللهُ تعالى عنْ سَفَهِها وجَهْلِها ليكونَ ذلكَ سَبّاً وتَعْيِيراً مُجازاةً لِما كانَتْ تقولُ في رسولِ اللهِ ﷺ وكذلكَ قالتْ لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ: أمَا رَضِيَ مُحمدٌ أنْ يَهْجُوَ عمَّهُ حتى هَجاني، أو قالتْ: حتى هَجاني رَبُّ محمدٍ [واللهُ أعلَمُ بالصوابِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ][9].

(١) في الأصل وم: حيث. (٢) في الأصل وم: إخراجهم. (٣) في الأصل وم: وفيه. (٤) أي: بإذن رب. (٥) في الأصل وم: ومعنى آخر. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) في الأصل وم: وتطرح. (٨) من م، في الأصل: فأوعد. (٩) في م: صلى الله تعالى عليه وسلم.

سورة الإخلاص

[وهي مكية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ذُكِرَ أنَّ أهلَ مكةَ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ نِسْبَةِ اللهِ تعالى، وقيلَ: عنْ صِفَتِهِ، وقيلَ: عنِ اللهِ تعالى، ما هو؟ فنزلَتْ هذهِ السورةُ مُعْلِمَةً لِجميعِ مَنْ يَسألُ عنهُ جوابَهُ، ولِذلكَ أثبتَ: ﴿قُلْ﴾ لتكونَ مُخاطبَةُ كلِّ مسؤولٍ عنْ ذلكَ أنْ ﴿قُلْ﴾ لا على تَخْصيصِ الرسولِ ﷺ بهذا الأمرِ؛ إذْ ليسَ في حقِّ الإِئتِمارِ بالأمرِ إعادةُ حرفِ الأمرِ في الإئتِمارِ، فَتَبَيَّنَ بذلكَ أنهُ ليسَ على تَخصيصِ الرسولِ ﷺ بالتَّعلُّمِ، بل هو أحقُّ مَنْ سَبَقَ لهُ الغِنَى عنْ تَعلُّمِ الإجابةِ بهذا عندَ حَضرَةِ هذا السؤالِ، كما سَبَقَتْ منهُ الدعوةُ إلى اللهِ تعالى بِحقيقةِ ما جَرَى بِهِ السؤالُ، وكما أثبتَ ذلكَ[2] لِيُقرأَ أبداً.

وحَقُّ المَخصُوصِ /٦٥٧ ـ أ/ بالأمرِ أنْ يأتَمِرَ، ولا يَجْعَلَ ذلكَ مَتْلُوّاً كذلكَ في الوقتِ الذي لا يَحْتَمِلُ المأمورُ الأمرَ بِهِ. ثَبَتَ أنَّ ذلكَ على ما شاءَ.

ودَلَّ قولُهُ: ﴿قُلْ﴾ أنهُ على أمرٍ سَبَقَ عنهُ السؤالُ، فيكونُ في ذلكَ إجابةٌ لِما سَبَقَ عنهُ السؤالُ، وكذلكَ جميعُ ما في القرآنِ: ﴿قُلْ﴾ فيهِ[3] أحدُ أمرينِ: إمّا إجابةٌ عنْ أمرٍ سَبَقَ عنهُ السؤالُ، فَيَنْزِلُ بِحقِّ تَعْريفِ كلِّ مسؤولٍ عنْ مثلِهِ [وإمّا أنْ][4] يكونَ اللهُ تعالى إذْ عَلِمَ أنهُ ﷺ أو مَنْ يَتبَعُهُ يسألُ عمّا يَقتَضي ذلكَ الجوابَ، فأنْزَلَ ما بِهِ يَبْقَى في أهلِ التَّوحيدِ مَنّاً منهُ وفَضلاً.

ثم لم يَجِبْ تَحْقيقُ الحرفِ الذي وَقَعَ عنهُ السؤالُ إلّا لِمَنْ شَهِدَ، وسَمِعَ، وقد يَتَوَجَّهُ هذا الحرفُ الذي وَقَعَ عنهُ إلى ما ذَكَروا مِنَ الأسبابِ وغَيرِها، وفي ما نَزَلَ يَصْلُحُ جوابَ ذلكَ كلِّهِ، ويَليقُ بِهِ، وإنْ كُنّا لا نَشْهَدُ على حقيقةِ ما كانَ أنهُ ذا دونَ ذا، ونجيبُ بذلكَ لو سُئِلْنا عمّا ذَكَرْنا وعَنْ كلِّ حَرْفٍ يَصِحُّ في العَقْلِ، والحكمةُ الجوابُ بِمِثْلِ ما اقْتَضَتْهُ هذهِ السورةُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿هُوَ﴾ اخْتُلِفَ في تأويلِهِ: مِنَ الناسِ مَنْ قالَ: هو إضافةٌ إلى الذي عنهُ كانَ، أو يكونُ السؤالُ المُقْتَضي ما جَرَى بِهِ البَيانُ مِنَ الجوابِ الذي يَسْألونَ عنهُ: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ إلى آخِرِ السورةِ.

ومنهمْ مَنْ قالَ: هو اسْمُ اللهِ أكْبَرُ؛ يُروَى ذلكَ عنْ بعضِ أولادِ عليِّ بْنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنهُ كانَ يقولُ في دعائِهِ: يا هُوَ، يا مَنْ لا هُوَ إلّا هُوَ، يا مَنْ بِهِ كانَتْ هُوِيَّةُ كلِّ هُوَ، وذلكَ يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنهُ هُوَ بذاتِهِ وهُوِيَّةُ كلِّ مَنْ سِواهُ لِما هُوَ يكونُ مُحْتَمِلاً للتَّلاشي والوجودِ إلّا هُوَ، سُبْحانَهُ لم يَزَلْ، ولا يَزالُ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] على ما اقْتَضَى بَيانُ وحدانِيَّتِهِ في هذهِ السورةِ. وعلى ذلكَ قيلَ: هو الأحدُ بذاتِهِ، المُنْشِئُ أحدِيَّةَ كلِّ الآحادِ، المُتَعالي عنْ كلِّ مَعاني أحَدِيَّةِ مَنْ سِواهُ.

والثاني: أنْ تكونَ إضافتُهُ إلى اسْمِهِ الذي لا يَحْتَمِلُ اللِّسانُ، وهو الذي لم يَطَّلِعْ عليهِ الخَلائقُ، وهو الذي يُرادُ في الدعاءِ: باسْمِكَ الذي مَنْ سألكَ بِهِ أعطيتَهُ ومَنْ دَعاكَ بِهِ أجَبْتَهُ، فيكونُ السؤالُ ممّا يُكَنَّى عنهُ مِنَ الوجهِ [الذي][5] ذَكَرْتُ لا أنْ يَسَعَهُ اللِّسانُ، أو يَحْتَمِلُ الطَّوقُ التَّفَوُّهَ بِهِ، تعالى.

---

(١) في الأصل: وهي، ساقطة من م. (٢) في الأصل وم: كذلك. (٣) في الأصل وم: ما ففيه. (٤) في الأصل وم: أو. (٥) من م، ساقطة من الأصل.

والتأويلُ الأوَّلُ أقربُ إلى الأفهامِ وأحقُّ أنْ يكونَ على ذِكرِ مَنْ يَقْتضي عنهُ السؤالُ، ثم التَّفسيرُ على ما جَرَى.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ اختُلِفَ في المَعْنَى الذي جَرَى هذا في حقِّ أهلِ هذا اللِّسانِ [في وجهَينِ:

أحدُهما: ما قالَ قومٌ:][1] إنهُ ممّا اشْتُقَّ مِنْ أمرٍ عَرَفوهُ أوّلاً عنْ أمرٍ عَرَفوهُ؛ إذْ في كلِّ لسانٍ ما أُريدَ بهِ عندَ الذِّكرِ لِبيانِ العربِ اسْمٌ يُدْعَى بهِ، ويُسَمَّى، وإنِ اختَلَفَ وزنُ كلٍّ مِنْ ذلكَ على اختِلافِ الألسنِ لِيُعْلَمَ أنَّ الأحْرُفَ والتقطيعَ في التَّكلُّمِ إنما هي[2] لِيُفْهَمَ المَقصودُ لا على تَوَهُّمِ حقيقةِ الاسْمِ بتلكَ الحروفِ والتَّقطيعِ؛ وذلكَ كما يُعَبِّرُ عنْ تكوينِهِ الخلائقَ بِـ: ﴿كُن﴾ لا على تحقيقِ كافٍ ونونٍ في التَّكوينِ. فَعَلَى ذلكَ جميعُ ما يُسَمِّي اللهُ تعالى لا على تحقيقِ [الحروفِ التي][3] يُجْرَي بها التَّسْمِيَةَ، ثم لا يَحْتَمِلُ طَوقُهُ إلّا بها، لكنْ على ما يَقْرُبُ إلى الأفهامِ المُرادَ في التَّفَوُّهِ بهِ.

[والثاني: ما][4] قالَ قومٌ: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو المعبودُ في لسانِ العربِ لا على الاسْتِحْقاقِ، لكنْ على وَضْعِ ذلكَ كذلكَ. دليلُهُ تَسْمِيَتُهُمْ كلَّ مَنْ عَبَدوهُ وكلَّ شيءٍ عَبَدوهُ إلهاً، وإنْ كانَ جميعُ ما سِوَى إلهِ الحَقِّ مِمَّنْ عُبِدَ لا يَحْتَمِلُ شيئاً مِنْ تلكَ المعاني التي زَعَمَ مَنِ ادَّعَى الاشْتِقاقَ عنها مِنَ الاحتِجابِ وَالالْتِجاءِ إليهِ ونَحْوِ ذلكَ. فَثَبَتَ أنهُ اسْمٌ مَوضوعٌ للمعبودِ.

وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] أي مَعْبودُهُ ما يَهْواهُ لا أنَّ لِلْهَوَى شيئاً مِنْ ذلكَ، فيكونُ المَعْبودُ الحَقُّ، هو اللهُ تعالى لِما لهُ في كلِّ شيءٍ أثرُ عُبودةِ ذلكَ الشيءِ ودلالةُ الرُّبوبيَّةِ لهُ عليهِ، سُبْحانَهُ، هو المَعْبودُ بذاتِهِ لِمَعْنًى مُسْتَحِقٌّ بذاتِهِ العبادةَ مِنْ جميعِ خَلْقِهِ والاسْتِسْلامَ لهُ والخُضوعَ بما ذَكَرْتُ مِنَ المَوضوعِ في كلِّ آيةِ ذلكَ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وهذا تَحقيقُ ما ذهبْنا إليهِ أنهُ خالقٌ بذاتِهِ رَحْمانٌ رحيمٌ بذاتِهِ موصوفٌ بهِ في الأزلِ، وإنْ كانَ الذي وَصَلَ إليهِ أثرُ رحمتِهِ، وفيهِ ظهورُ دلالةِ تدبيرِهِ، حَدَثَ بعدَ أنْ لم يكُنْ على ما كانتِ العبادةُ والاسْتِحْقاقُ كانَ مِمَّنْ حَدَثَ وفي مَنْ كانَ بَعدَ أنْ لم يكُنْ، وهو إلهٌ، لم يَزَلْ، ولا يزالُ.

وعلى ذلكَ قولُهُ ﷻ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] [وقولُهُ:][5] ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] وإنْ كانَ مِنَ الأشياءِ ما سيكونُ لا أنها كانَتْ كائنةً، وكذلكَ يومُ الدينِ، فَعَلَى ذلكَ أمرُ خالقٍ ونَحْوُ ذلكَ.

ومِنْ هذا الوجهِ أنكرَ قومٌ أنْ يكونَ الإلهُ اسْمَ مَعْبودٍ في الحقيقةِ أوِ اسْمَ مُشْتَقٍّ عنْ لسانٍ؛ إذْ هو لم يَزَلْ إلهاً، ومَنْ بهِ العبادةُ وعنهُ الاشْتِقاقُ حادثٌ.

والأصلُ عندَنا ما ذَكَرْنا أنهُ بجميعِ ما وُصِفَ بذاتِهِ؛ إذْ لا يَحْتَمِلُ التَّغَيُّرَ والاسْتِحالَةَ ولا نَيلَ مَدْحٍ بِغَيرِ مُمَدِّحٍ، وإنما يُمْدَحُ بِهِ لذاتِهِ لأنهُ اسْتَحَقَّ مِنْ كلِّ ذلكَ الوقتِ كونَ ذلكَ القولِ بالعالمِ والقادرِ أنهُ كذلكَ، وإنْ كانَ الذي عَلِمَهُ مِمَّنْ سِواهُ، وكلُّ مَقْدورٍ عليهِ حادثٌ بَعْدَ أنْ لم يكُنْ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

وقالَ الضَّحّاكُ: ﴿ٱللَّهُ﴾ اسْمُهُ الأكبرُ لأنهُ يُبْتَدأُ بهِ في كلِّ موضعٍ.

ثم اخْتُلِفَ في مَعْنَى الاشْتِقاقِ؛ فمنهمْ مَنْ يقولُ: أصلُهُ إلهٌ مِنْ ألِهَ الرجلُ إلى آخَرَ، أيِ الْتَجأَ إليهِ، واسْتَجارَهُ، فَأَلَهَهُ بِمَعْنَى أجارَهُ، وآمَنَهُ، فَسُمِّيَ إلهاً على وزنِ الفِعالِ كما يُسَمَّى إماماً لِما يُؤْتَمُّ بهِ، وفُخِّمَ[6] بإدخالِ الألفِ واللامِ، ثم لُيِّنَ، وحُذِفَتِ الهمزةُ كما هو لغةُ قريشٍ، ثم أُدْغِمَ أحدُ اللّامينِ في الآخرِ، فَشُدِّدَ، فصارَ اللهُ.

وعلى ذلك تأويلُ الصَّمَدِ أنْ يُصْمَدَ إليهِ في[7] الحوائجِ، ويُسْتَغاثَ بهِ، ويُلْتَجأَ إليهِ.

وقيلَ: إنَّ اشْتِقاقَهُ مِنْ وَلِهَ يالَهُ وَلَهاً، إذا فُزِعَ إليهِ [فَسُمِّيَ بهِ لأنهُ المَفْزَعُ إليهِ][8] وهو قريبٌ مِنَ الأوَّلِ، ولكنْ حقُّ ذلكَ في الاِسْمِ أنْ يكونَ وِلاهاً، فَأُبْدِلَتِ الواوُ ألِفاً كما يُقالُ في وِكافٍ: إكافٌ، وكذلكَ أهلُ الحجازِ يَجْعَلونَ الواوَ ألِفاً. قالَ الشاعرُ:

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: هو. (٣) في الأصل وم: الحرف الذي. (٤) في الأصل وم: و. (٥) ساقطة من الأصل وم.
(٦) يقصد جعله علما للخالق. (٧) في الأصل وم: و. (٨) من م، ساقطة من الأصل.

فأقبلت إلها تكلى على عجلٍ [كلٌّ دهاها، وكلٌّ عندها اجتمعا][1]

وقيلَ: سُمّيَ بهِ لأنهُ إلهُ كلِّ شيءٍ، أي ذَلَّلَهُ، وعبَّدَهُ؛ تألّهَ لهُ أي عَبَدَهُ. قالَ قائلُهُم:

ألْ ـهُ إلـهـكَ واحداً متفرّداً ساد الملوكَ بعزّةٍ، وتمجّدا

وقالَ آخرونَ: سُمّيَ بهِ لاستِتارِهِ، ومنهُ يُقالُ: لِهتَ، فلا تُرَى. وقالَ الشاعرُ:

لاهَ ربّي عنِ الخلائقِ طُرّاً خالقُ الخلقِ لا يُرى، ويرانا

وقيلَ: سُمّيَ بهِ لِتَحَيُّرِ القلوبِ عنِ التّفَكُّرِ في عَظَمَتِهِ كقولِهِ: ألاهني الشيءُ حتى ألِهتُ، ومنهُ مفازةٌ مُلْهِيَةٌ؛ يعني العقلَ يَحارُ عندَ النّظَرِ إلى عظمتِهِ، ومنهُ ألِهَ يألَهُ، فهو إلهٌ. وقال الشاعرُ:

وبهماءِ تيهٍ تألهُ العينُ وَسْطَها مُخَفَّقَةٍ أعلامَ بيداءَ سَمْلَقِ

قالَ ﷺ: والأصلُ عندنا الإغضاءُ عنْ هذا لِما أنَّ الحاجةَ إلى تَعَرُّفِ الاشتِقاقِ والوضعِ لِتَعَرُّفِ مَحَلِّ الأمرِ وموقعِ الحكْمِ ومِنْ جميعِ ما اشْتَقّوا بهِ الاسْمَ تَحتَمِلُ تَسْمِيةَ الغيرِ بكلِّ ذلكَ وتحقيقَ الإضافةِ إلى ذلكَ وتَسْمِيَتَهُ إلهاً أو إضافةَ ما بهِ عُرِفَ الحقيقةِ لا يَحتَمِلُ غيرَهُ، ﷻ ولا تجوزُ التّسْمِيَةُ بهِ. ثَبَتَ الغِنَى في مَعْرِفَتِهِ عنْ جميعِ الوجوهِ التي أُريدَ الاستِخراجُ؛ إذْ هيَ طريقٌ تُوصِلُ بهمْ إلى العِلْمِ بالمَقصودِ والوقوفِ على المُرادِ، وقد عُرِفَ دونَ الذي ذَكَروا، واللهُ أعلَمُ.

والأصلُ عندنا /٦٥٧ ـ ب/ أنَّ اللهَ ﷻ بِلُطْفِهِ يَمْنَعُ الخَلْقَ عنْ تَسْمِيَةِ أحدٍ إلهاً إلّا منْ جهةِ أحوالٍ تَعْتَرِضُ، فَسَمَّوا بهِ على مَعْنَى جَعْلِ الاسْمِ الذي جَرَتِ التّسْمِيَةُ بهِ حقيقةً لهُ، فَسَمَّوا ظَنّاً منهمْ أنَّ بذلكَ التَّوَسُّلَ والتَّقَرُّبَ لا أنْ يَرَوُا الشّيءَ منْ ذلكَ حقيقةَ ذلكَ، بل قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وقالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] لِيُعْلَمَ أنهمْ عَرَفوا اللهَ بما ادّعَوا لأنفسِهِمْ في ذلكَ مَعانِيَ، تَرُدُّهُمْ إلى اللهِ ﷻ فَذَكَروا مَجازاً عنْ أحدِ لِسانَينِ، واللهُ أعلَمُ:

[أحدُهما: عنِ][2] لسانِ الرسلِ في ذِكْرِ اللهِ تعالى في أمورٍ تُقَرِّبُهُمْ إلى اللهِ تعالى لقولِهِ تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقولِهِ[3]: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقولِهِ[4]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وَصَفَ مُبايَعَةَ العبيدِ ونَصْرَهُ أو نَصْرَ دينِهِ نَصْرَ اللهِ ومُبايَعَتَهُ بما يُقَرِّبُ ذلكَ إليهِ، فَعَلَى ذلكَ تَسْمِيَتُهُمْ مَنْ عَبَدوها لا أنهمْ رَأوها[5] آلهةً في الحقيقةِ.

[والثاني][6]: عنْ ألسنِ الفلاسفةِ أنْ ليسَ للهِ اسْمٌ ذاتيٌّ، وإنّما هو سُمّيَ بِذِكْرِ كلِّ ذي شَرَفٍ ومَنْزِلَةٍ عندَهُ، فَعَلَى ذلكَ أنَّ مَحَلَّ مَنْ يَعْبُدونَ عندَهُمْ ما ذَكَرْنا منَ القولِ عنهمْ، فَسَمَّوا بهِ لا أنْ حَقَّقوا كما ذَكَروا حقيقةَ ذلكَ الاسْمِ إلى مَنْ عَرَفوهُ أنهُ إلهٌ رَدّوا أمْرَهمْ في ذلكَ؛ وذلكَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ تعالى في ما سَخَّرَهُمْ عليهِ كَتَسْمِيَةِ الخالقِ والرحمنِ أنهمْ لا يُسَمّونَ أحداً بهما، وإنْ كَثُرَتْ أفعالُهُ، وعَظُمَتْ رحمتُهُ في الخَلْقِ لِيُعْلَمَ أنها أسماءُ اللهِ تعالى، مَنَعَ الخَلْقَ عنِ التَّسَمّي بها باللُّطْفِ منْ حيثُ لا يُعْرَفُ سَبَبُهُ.

ثم قولُهُ ﷻ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أيِ الأمرُ، هو اللهُ أحدٌ كما تَقولُ: إنهُ زيدٌ قائمٌ، أيِ الأمرُ، زيدٌ قائمٌ، جوابُ مَنْ يَسْألُكَ ما الأمرُ والشّأنُ [في أنْ][7] قُمْتَ ههنا؟ فَتَقولُ: الأمرُ زيدٌ قائمٌ، أي قُمْتُ لأجلِهِ. إلى هذا يذهبُ الزّجّاجُ؛ كأنهُ يذهبُ إلى أنهُ لمّا قالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقيلَ لهُ: ما الأمرُ والشّأنُ؟ قالَ[8]: الأمرُ اللهُ أحدٌ لِيَعْرِفوا أنهُ كذلكَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿أَحَدٌ﴾ يَتَوَجَّهُ إلى واحدٍ، ثم واحدٌ اسْمٌ يَنْفي المِثْلَ في الإضافةِ. كما يُقالُ: هو واحدُ الزمانِ

---

(١) هذا عجز البيت وهو للأعشى الأكبر ميمون بن قيس، انظر الديوان ص١٠٥. (٢) في الأصل وم: إما. (٣) في الأصل وم: وقال. (٤) في الأصل وم: وقال. (٥) في الأصل وم: رأوا. (٦) في الأصل وم: أو. (٧) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: فإن. (٨) في الأصل وم: فقال.

وواحدُ الخَلْقِ على نَفْيِ التشبيهِ لهُ عمّا أُضيفَ إليهِ، ويكونُ واحداً مِنْ حيثُ العَدَدُ بما عنْ مثلِهِ يُبْتدأُ الحسابُ، ولا يُبْتَدَأُ مِنْ أحدٍ، فَيصيرُ أحداً مِنْ ذا الوجهِ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى بأيِّ حَرْفَينِ ذُكِرَ، ففيهِ ذلكَ، وهو الواحدُ الذي يَسْتَحيلُ أنْ تكونَ وحدانيّتُهُ مِنْ وَجْهٍ يَحْتَمِلُ ثانياً أو منْ وَجْهِ تَعديلٍ؛ هو الواحدُ الإلهُ الخالقُ المُتَعالي عنْ مَعْنَى الأعدادِ والأندادِ، وهو على ما ذَكَرَ الحكيمُ في الآحادِ أنهُ أربعةٌ[١]:

واحدٌ: [هو كُلٌّ، لا يَحْتَمِلُ التَّضعيفَ[٢] لإحالةِ كونٍ وراءَ الكُلِّ.

وواحدٌ][٣]: هو الأقلُّ، وهو الذي لا يَحْتَمِلُ التَّنصيفَ والتَّجزيءَ لأنهُ أقلُّ الأشياءِ، فإذا يُنَصَّفُ يكونُ ذلكَ النِّصْفُ أقلَّ منهُ.

وواحدٌ: هو واسطٌ، وهو الذي [يَحْتَمِلُ التَّنصيفَ والتَّضعيفَ جميعاً.

والرابعُ: هو الذي][٤] قامَ بهِ الآحادُ؛ هُوَ ولا هُوَ أخفَى مِنْ هو [هو][٥] الذي انْخَرَسَ عنهُ اللسانُ، وانْقَطَعَ عنهُ البَيانُ، وانْحَسَرَتْ عنهُ الأوهامُ، وحارَتْ فيهِ الأفهامُ.

فذلكَ اللهُ ربُّ العالمينَ.

والأصْلُ في ذلكَ أنهُ لا سَبيلَ إلى العِبارةِ عنهُ بِغَيرِ هذا اللسانِ [ولا وَجْهَ][٦] لِلتَّقريبِ إلى الأفهامِ بهذا اللسانِ إلّا بما جَرَى بهِ الاعْتِيادُ، وظَهَرَتْ بهِ المَعارفُ في ما ذَكَرْنا مِنَ الضرورةِ جعلَ التَّوحيدِ في الحقيقة بالأدلّةِ وبالبراهينِ في ضِمنِ التَّسْمِيةِ في عبارةِ اللسانِ، وحَقُّهُ بما أخْبَرْتُ منْ ضَروراتِ الأحوالِ في إرادةِ التَّقريبِ إلى الأفهامِ إلى عباراتِ اللسانِ المؤسَّسِ[٧] على الاعْتِيادِ في إظهارِ المَعارِفِ، فَعَلَى ذلكَ القولُ بواحدٍ وبأحدٍ لا على أحَدِيَّةِ غَيرِهِ منْ جِهَةِ التَّوسُّطِ أو [مِنْ][٨] جِهَةِ القِلّةِ أو [مِنْ][٩] جِهَةِ الكَثْرَةِ مع ما كلُّ مَنْ هو في مَعْنَى واحدٍ، فهو واحدُ الآحادِ المُجتَمِعةِ إلى الواحدِ الذي يُقالُ: جُزْءٌ، لا يَتَجزَّأُ، وهو: مِنْ غَيرٍ في الجملةِ مُتَجزِّئٌ عن تَوَهُّمِ ذلكَ الجُزْءِ، غَيرُ مُتَجزِّئٍ في الوَهْمِ، أو هو الأقلُّ منه، وهو جُزْءٌ في الحقيقةِ، واللهُ يَتَعالَى عنِ الوَصْفِ بالكلِّ والبعضِ والقليلِ والكثيرِ والواحدِ ممّا لهُ حقُّ الإبعاضِ أو الكُلِّ أو رُتْبةُ القليلِ والكثيرِ، جَلَّ ثَناؤهُ.

بل هو الذي [جَمَعَ جميعَ][١٠] ما وَصَفْتُ، بل هو الذي خَلَقَ ما وَصَفْتُ، وجَعَلَ لكلٍّ منْ ذلكَ مُقابلاً بما ذَكَرَ لِيَصيرَ كلٌّ مِنْ ذلكَ زَوجاً، فتكونُ الوَحْدانيّةُ الحَقُّ لهُ، ولا قُوّةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ قد ذَكَرَ أنهُ أحدٌ، وذَكَرَ أنهُ الصَّمَدُ في تحقيقِ ما وَصَفَ مِنَ الأحَدِيّةِ، وهو، واللهُ أعلَمُ، أنهُ أخرَجَ جَميعَ مَنْ سِواهُ حتى تَحَقَّقَ قَصْدُ جميعِ مَنْ سِواهُ بالحاجاتِ إليهِ بالكونِ في الخِلْقةِ وفي الصلاحِ بَعدَ الكونِ وفي الذي، بهِ الدوامُ بَعدَ الوُجودِ والوُجودُ بَعدَ العَدَمِ، ما احْتَمَلَ الوُجودُ دونَهُ ولا البَقاءُ إلّا بهِ، أحاطتِ الحاجاتُ بكلٍّ ليكونَ لهُ الغِنَى عنِ الكلِّ في الوُجودِ والبَقاءِ لِيَتَحقَّقَ أنهُ المَوجودُ بذاتِهِ [والباقي بذاتِهِ والمتعالي بذاتِهِ][١١] عن مَعْنَى وُجودِ غَيرِهِ، سُبْحانَهُ، وهو ما ذَكَرْنا مِنْ عَجْزِ الألسنِ عنِ البَيانِ عنهُ بالعبارةِ إلّا على التَّقريبِ إلى الأفهامِ بالمَجعولِ منْ آثارِ [هُوِيَّةِ أُلوهيَّتِهِ][١٢] في جميعِ الأنامِ.

ثم قيلَ في ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ بوجوهٍ، تُرْجِعُ جميعَ ذلكَ إلى ما بيَّنّا:

أحدُها: السَّيِّدُ الذي قدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، ومَعْنَى ذلكَ المَفهومُ[١٣] مِنَ السُّؤْدُدِ في صَرْفِ الحوائجِ إليهِ ورجاءِ كلِّ المَحائجِ إليهِ.

---

(١) في الأصل وم: أربع. (٢) أي التعدد. (٣) من م، في الأصل: واحد. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، ساقطة من الأصل.
(٦) من م، في الأصل: والأوجه. (٧) من م، في الأصل: المؤتسين. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، ساقطة من الأصل. (١٠) في الأصل: جمع، في م: جميع. (١١) من نسخة الحرم المكي، في الأصل: في المتعالى. (١٢) من نسخة الحرم المكي، في الأصل وم: هويته.
(١٣) من م، في الأصل: في المعنى.

والثاني: في أنْ لا جَوفَ لهُ، وذلكَ في وَصْفِ الوَحْدانيَّةِ والتَّعالي عنْ مَعْنى أحديَّةِ غَيرِهِ مِن اجْتِماعِ أجزاءٍ، مُمْكِنٍ بها القَرْحُ والثُّقوبُ[1] التي لا كالأجوافِ، أو على ما فَسَّرَ قومٌ بالذي هو ظاهرٌ [في][2] ظاهرِ العبارةِ مَخْرَجُ الكتابِ، وهو الذي ذَكَرَ على إثْرِه، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأنَّ كلَّ ذي الكونِ ذو جَوفٍ، عنهُ يَتَوَلَّدُ الأولادُ، ويكونُ في ذلكَ إحالةُ قولِ مَنْ نُسِبَ إليهِ الولدُ.

فنقولُ: كيفَ يكونُ لهُ ولدٌ، وقد تَعْلَمونَ أنهُ ليسَ بذي جَوفٍ كما قالَ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] في قومٍ نَزَّهوهُ عنِ الصاحبةِ، وهمْ لم يَشْهَدوا الوِلادةَ إلّا عنْ ذي جَوفٍ؟ فيكونُ في هذا نَقْضُ قولِ هذا الفريقِ فيهِ بالوِلادِ بما نَزَّهوهُ عنِ الجَوفِ كما في الأوَّلِ بما بَرَّؤوهُ عنِ الصاحبةِ.

[والثالثُ:][3] بما لِذي الأجوافِ مِنَ الحاجاتِ، فَيَرْجِعُ إلى التَّأويلِ الأوَّلِ أنَّ المَصْمودَ إليهِ بالحوائجِ.

وظَنَّ قومٌ أنهُ إذا نُفِيَ عنهُ الجَوفُ يَثْبُتُ أنهُ مُصْمَتٌ، وذلكَ مَعْنى اجْتِماعِ أجزاءٍ، تَتَداخَلُ، فَتَتَكاثَرُ كذي الجوفِ، هو اجْتِماعُ أجزاءٍ، تَتَّفِقُ.

فإذا تَحَقَّقَ التَّنْزيهُ عنْ أحدِ الوَجْهَينِ تَحَقَّقَ التَّنْزيهُ عنِ الوَجْهِ الآخَرِ [إذْ][4] في الوَجْهَينِ نَفْيُ الوَحْدانيَّةِ وتَحْقيقُ ازْدِواجِ الأجسادِ مع ما قد تُنْفَى عنْ أشياءَ أمورٌ، لا تَتَحَقَّقُ لها المُقابلةُ كما يُنْفَى عنِ الأعراضِ السَّمْعُ والبَصَرُ والعِلْمُ لا على إثباتِ مُقابَلَتِها بما عَلِموا أنَّ الأعراضَ لا تَحْتَمِلُ الاعْتِراضاتِ. فَعَلَى ذلكَ العِلْمُ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى والتَّنْزيهُ عنِ احْتِمالِ الازْدِواجِ[5] يُحَقِّقُ القولَ الذي ذَكَرْتُ.

وقد قيلَ في الصَّمَدِ: إنهُ الدائمُ /٦٥٨ ـ أ/ وذلكَ أيضاً يَرْجِعُ إلى ما ذَكَرْتُ أنهُ لا يَحْتَمِلُ التَّغَيُّرَ والاسْتِحالةَ وإصابةَ أثرِ الحاجةِ، وهو الصمودُ إليهِ بالحوائجِ.

وقد قالَ قائلٌ في التَّأويلِ الأوَّلِ:

لَقَدْ بَكَّرَ الناعي بِخَيرَي بَني أسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ[6]

ويقالُ: صَمَدْتُ إلى فلانٍ، أي قَصَدْتُ إليهِ، وهذا يُوَضِّحُ مَعْنَى الصَّمَدِ، أي يُصْمَدُ إليهِ في الحوائجِ.

الآيتان ٢ و ٤ وقيلَ في ذلكَ: إنَّ الصَّمَدَ، تأويلُهُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

قالَ الشيخُ أبو منصورٍ ﵀: الأصلُ أنهُ، تعالى، أعظَمَ القولَ بالوِلادِ ما عَظَّمَ بِجَعْلِ الشُّركاءِ؛ وذلكَ أنَّ مَعْنى الوِلادِ أنْ يكونَ بجوهرِ مَنْ لهُ ولدٌ، فيكونُ بذلكَ شريكاً، وذلكَ يَنْفي التَّوحيدَ. فَعَلَى ذلكَ القولُ بالوِلادِ. ولذلكَ أعظَمَ القولَ بهِ، والزَمَ[7] مَنْ عَرَفَهُ بالأدِلَّةِ القولَ ببراءَتِهِ عنِ الوِلادِ كما يُثْبِتُ [نَفْيَ][8] الاشْتِراكِ مِنَ الوَجْهِ الذي بَيَّنّا، وقد شَهِدَ العالَمُ بِكُلِّيَّتِهِ بِحَقِّ الخِلْقةِ على اللهِ، تعالى مَنْشَؤُهُ عنِ الشُّركاءِ والأشباهِ جميعاً، فَيُبْطِلُ القولَ بالذي ذَكَرْنا مع ما كانَ جميعُ الخلائقِ على الإشارةِ إلى كلٍّ، منهُ يَحْتَمِلُ الازْدِواجُ، ومنهُ يكونُ التَّوالُدُ، واللهُ مُتعالٍ عنْ ذلكَ.

وبعدُ فإنَّ كلامَ العالِمِ على الإشارةِ إلى آحادٍ مُتَوَلِّدٍ عنْ غيرٍ أو يَتَوَلَّدُ منهُ غَيرُهُ، وهما أمرانِ راجعانِ إلى ما عليهِ خَلْقُ هذا العالَمِ، وعليهِ مَوضوعُهُمْ، وقد ثَبَتَ تعاليهِ عنْ جميعِ معاني غيرِهِ، إذْ كلُّ غَيرٍ، لهُ بجميعِ معانيهِ حَدَثَ بَعدَ أنْ لم يكنْ أتى عليهِ تدبيرُ غَيرِهِ، وجَرَى عليهِ تقديرُ سلطانِ[9] غيرِهِ. واللهُ، تعالى، لو كانَ يُتَوَهَّمُ شيءٌ منْ ذلكَ فيهِ، يُسْقِطُ لهُ الألوهيَّةَ، ويُحَقِّقُ لهُ الحاجةَ إلى غَيرِهِ، ويُوجِبُ جَرْيَ تقديرِ[10] سلطانِ غَيرِهِ عليهِ؛ وهذا يوجِبُ غيراً خارجاً [عنْ][11] هذهِ المعاني حتى تَسْلَمَ الأدلَّةُ لهُ على حَدِّ المَوضوعِ، وتَصْفو لهُ الشهادةُ على ما قامَتْ، وأُنْطِقَتْ بالخِلْقةِ وبما فيهِ مِنَ الحِكمةِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ.

---

(١) في الأصل وم: الثقب. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) في الأصل وم: وقيل. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: الأزواج. (٦) القائل هو سَبْرةُ بنُ عمرٍو الأسدي، انظر مجاز القرآن ٢/٣١٦. (٧) جاء بعدها في الأصل وم: على. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) من م، في الأصل: سلطانه. (١٠) في الأصل وم: بعد. (١١) ساقطة من الأصل وم.

وعلى ذلكَ خَتْمُ السورةِ [بقولِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾](1) أنْ ليسَ لهُ أحدٌ كُفُوٌ لأنهُ [بالخِلْقةِ](2) منْ ذلكَ يوجبُ المُماثَلَةَ، وفي المُماثلةِ اشْتِراكٌ، وقد ثَبَتَ فسادُ العالَمِ بِتَوَهُّمِ الاِشْتِراكِ في تدبيرِهِ، وقد لَزِمَ التَّعالي عنِ المَعاني التي لِلازْدِواجِ بها يقومُ التَّدبيرُ، ويَجري سلطانُ التَّقديرِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مَخرَجُ السورةِ في تحقيقِ نعتِ مَنْ قد عرفوهُ بإحدَى [خِصْلتَينِ:

إحداهُما:](3) بالتَّلقينِ لِكُلٍّ عنْ كُلٍّ إلى أنْ يَنْتَهِيَ ذلكَ إلى عَلّامِ الغُيوبِ؛ فَسَخَّرَهُمْ بذلكَ، وأنْشَأَهُمْ على ذلكَ حتى أيقَنَ مَنْ جَحَدَ ذلكَ أنهُ بعدَ تلقينٍ مَتوارَثٍ(4) ظاهرٍ، لا يَحْتَمِلُ مثلُهُ الخَطأَ في حقِّ توارثِ الأمورِ بما يُبْطِلُ المعارفَ كلَّها، بأسْرِها أُنْشِئوا، وبها تَعاملوا، وذلكَ كأوّلِ علومِ الخَلْقِ وكالشيءِ المَطبوعِ الذي لا يُسْتَطاعُ جَحْدُهُ إلّا بما بهِ لِعِلَّةِ(5) الطباعِ المَخلوقةِ على جهةِ الرياضةِ وأنواعِ الحِيَلِ.

والثانيةُ(6): بالتَّأمُّلِ فيها في كلِّ جُزْءٍ منْ أجزاءِ العالَمِ مِنَ الأدلَّةِ عليهِ والشهادةِ لهُ، فَبَيَّنَ بالآيةِ أنَّ الذينَ عَرَفُوهُ بأحدِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا نَعْتَهُ بكذا لِيَقْطَعَ بهِ تَوَهُّمَ المِثْلِ لهُ أوِ العِدْلِ في أمرٍ لِيَعْرفوا أنَّ القولَ بِغَيرِ خارجٌ عنِ الوجوهِ التي ذَكَرْنا وأنهُ يَرْجِعُ إلى ضَرْبٍ [مِنَ](7) التَّلقينِ، ليسَ لهُ حقُّ الطباعِ ولا حقُّ التَّلقينِ الذي لهُ صفةُ الكِفايةِ(8) والكُلِّيَّةِ في التَّلقينِ ولا في حقِّ شهادةِ الكلِّ بذلكَ التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ، فَيَمْتَنِعَ عنْ ذلكَ، ويرجعَ إلى حقيقةِ ما جَرَى [بهِ](9) النَّعْتُ دونَ غَيرِهِ ممّا لَغَوا فيهِ، يَرْجِعُ إلى تَلْقينٍ مِنْ ذِكْرٍ وتَلْبيسٍ بلا حُجَّةٍ. لذلكَ لا يُضاهي شيئاً ممّا ذَكَرْتُ مع ما في كلِّ ذلكَ جميعُ ما في غَيرِ ذلكَ إحالةُ الأُلوهيَّةِ منْ كلِّ الوجوهِ مِنْ شهادةِ الخِلْقةِ والحاجةِ فيها إلى غَيرِهِ مِنَ الإيجادِ والإبقاءِ، وهو الأحدُ بما لا دَليلَ لِغيرِهِ، بل في ذلكَ إحالةُ الأُلوهيَّةِ مِنْ كلِّ الوجوهِ الثلاثةِ؛ وهو الصَّمَدُ بِمَعْنَى المَصْمودِ إليهِ في الحوائجِ، المالكُ لِقضائها، وهو الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو المُتعالي عنِ احْتِمالِ وِلادٍ فيهِ ومنهُ لِما ذَكَرْتُ مِنْ فسادِ الأُلوهيَّةِ الثابتةِ بما ذُكِرَ مِنَ الوجوهِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لِما في كلِّ أحدٍ سِواهُ الوجوهُ التي منها يُعْرَفُ سلطانُ غَيرِهِ عليهِ وأنهُ دليلٌ لِمَنْ ذَلَّ لهُ كلُّ شيءٍ على السَّواءِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ، ومنهُ الاِسْتِهداءُ.

ولِما ذَكَرْتُ سُمِّيَتْ هذهِ السورةُ سورةَ الإخلاصِ أنها في إخلاصِ التَّوحيدِ للهِ ونَفْيِ الأشباهِ والشُّرَكاءِ في الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سِواهُ مَرْبوبُهُ ومملوكٌ لهُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ [والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على نَبِيِّنا محمدٍ وآلِهِ أجمعينَ](10).



(1) ساقطة من الأصل وم. (2) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (3) في الأصل وم: خصال ثلاث: إما. (4) من م، في الأصل: توارث. (5) في الأصل وم: لعل. (6) في الأصل وم: وإما. (7) ساقطة من الأصل وم. (8) في الأصل وم: الكافية. (9) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (10) ساقطة من م.

[سورة الفلق

وهي مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: الأمرُ بالتَّعَوُّذِ بهِ يَحتَمِلُ وجوهاً ثلاثةً:

أحَدُها: على التَّعْليمِ لا لنازلةٍ كانَتْ في ذلكَ الوقتِ. لكنْ لِما عَلِمَ اللهُ تعالى منْ عظيمِ شَرِّ مَنْ ذَكَرَ بما يَظُنُّ بالأغلَبِ أنَّ شَرَّ ما ذَكَرَ يَتَّصِلُ بالذي ذَكَرَ في عِلْمِ اللهِ تعالى، فأمَرَهُمْ بالتَّعَوُّذِ بهِ كما أخْبَرَ في أمرِ الشيطانِ أنهُ عَدُوٌّ لهمْ وأنهُ يَراهُمْ مِنْ حيثُ لا يَرَونَهُ ليكونوا أبداً مُعِدِّينَ مُتَيَقِّظينَ أو فَزِعينَ إلى اللهِ تعالى مُعْتَصِمينَ، وهذا أحقُّ في التَّعليمِ مِنَ الذي ذَكَرَهُ في سورةِ الناسِ لأنهُ أضَرُّ مِنْ ذلكَ العَدُوِّ لأنَّ ضَرَرَهُ إنما يَتَّصِلُ بهِ بإتيانِهِ ما دعاهُ الشيطانُ وما يُوَسْوِسُ في صَدْرِهِ الوَسواسَ؛ وذلكَ فِعلُهُ، يُمْكِنُهُ الامْتِناعُ عنهُ، وهذا الضَّرَرُ يَقَعُ بِفِعْلِ غَيرِهِ مِنْ وجْهٍ، لا يَعْلَمُ مأتاهُ، أعني شَرَّ النَّفّاثاتِ ونَحْوَ ذلكَ. فهو أحقُّ في تَعْليمِ العبادِ فيهِ والأمرِ بالفَزَعِ إلى مَنْ يَلْطُفِهِ جَعَلَ ذلكَ الفِعْلَ مِمَّنْ ذَكَرْنا مَعْمولاً [فيهِ][2] مُؤَثِّراً.

والثاني: ما قيلَ: نَزَلَ جبريلُ ﷺ على رسولِ اللهِ ﷺ [فقالَ لهُ][3] إنَّ عفريتاً مِنَ الجِنِّ يَكيدُكَ، فَتَعَوَّذْ بـ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ /٦٥٨ ـ ب/ مِنْ شَرِّهِ إذا أَوَيتَ إلى الفراشِ.

والثالثُ: قيلَ: إنَّ واحداً مِنَ اليهودِ سَحَرَ رسولَ اللهِ ﷺ فَنَزَلَ هذا.

قالَ أبو بكرٍ الأصَمُّ: ذَكَروا في هذهِ [السورةِ][4] حديثاً مِمّا لا يجوزُ، فَتَرَكْتُهُ[5].

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: ولكنْ عندَنا في ما قيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُحِرَ، وجهانِ في إثباتِ رسالتِهِ ونُبُوَّتِهِ:

أحَدُهما: بما عَلِمَهُ بالوَحْيِ أنهُ سُحِرَ؛ وذلكَ فِعْلٌ فَعَلوهُ سِرّاً، ولا وُقوفَ لأحدٍ على الغَيبِ إلّا بالوَحْيِ.

والثاني: بما أبْطَلَ عَمَلَ السِّحْرِ بِتِلاوةِ القرآنِ، فَيَصيرُ لِتِلاوتِهِ في إبطالِ عَمَلِ السِّحْرِ ما لِعَصا موسى ﷺ [وإنَّ هذا في كونِهِ آيةً أعْظَمُ مِمّا فَعَلَ موسى ﷺ][6] لأنَّ ذلكَ يَتَنَوَّعُ بِنَوعٍ ما لَهُ الفِعْلُ والعَمَلُ مِنْ حيثُ الجوهرُ والطَّبْعُ مِنْ حيثُ مَرْأى العينِ ما بهِ ثُعباناً تَلَقَّفَ ما صَنَعوا.

فأمّا إبطالُ السِّحْرِ وعَمَلِهِ بتلاوةِ القرآنِ فلا[7] يكونُ إلّا باللُّطْفِ مِنَ اللهِ تعالى، واللهُ أعلَمُ.

ثم الأصلُ في هذا عندَنا قد ثَبَتَ الأمرُ [بالتَّعَوُّذِ بقولِهِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقد بَيَّنّا حقَّ الاشْتِراكِ في مَنْ يَتَضَمَّنُ هذا الأمرَ][8] إنْ كانَ على نازلةٍ في واحدٍ أو على ابْتِداءِ التَّعْليمِ، فهو أمرٌ، فيهِ رجاءُ الفَرَجِ والمَخْرَجِ مِنَ الأمورِ الضارةِ بما يُعْتَصَمُ فيها باللهِ تعالى بِما عندَهُ مِنَ اللطائفِ.

فجائزٌ تَمْكينُهُ مِنْ أمورٍ ضارَّةٍ باللُّطْفِ مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُ البَشَرُ، ولعلَّ الذي يَعْمَلُ بهِ لا يَعْلَمُ حقيقةَ ذلكَ العملِ الذي جَعَلَ اللهُ لذلكَ العملِ [إلّا بما][9] يَسْبِقُ مِنْ وقوعِ ذلكَ.

وقد يجوزُ الأمرُ [بأشياءَ، والنَّهْيُ][10] عنها عنِ الأفعالِ لِمَكانِ[11] ما يَتَوَلَّدُ عنها مِنَ المَنافعِ والمَضارِّ باللُّطفِ مِنْ

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من م، في الأصل: فتركه. (٦) من م، ساقطة من الأصل. (٧) الفاء ساقطة من م. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من م، في الأصل: الذي. (١٠) في الأصل وم: والنهي بأشياء. (١١) في الأصل وم: المكان.

حيثُ الفعلُ في حقيقةِ ذلكَ للخَلْقِ، وإنما ذلكَ لُطفٌ مِنَ اللهِ تعالى نَحْوُ ما نَهى عنْ أكلِ أشياءَ وأمَرَ بها ممّا بها الإغتِذاءُ والقَتْلُ مِنْ غيرِ أنْ نَعْلَمَ حقيقةَ وصولِ ذلكَ إلى ما يَغدو أو يَقْتُلُ وأيَّ حكمةٍ مِنْ ذلكَ ومَعْنًى لهُ، وكذلكَ الموضوعُ في المَناكحِ يُطْلَبُ الولدُ، وتُسقَى الأشجارُ والزرعُ بما يُحْدِثُ اللهُ فيها، وإنْ كانَ وجهُ العملِ بالمأمورِ بهِ والمَنْهِيِّ عنهُ وحقيقتُهُ لِغَيرِ الذي لهُ ذلكَ.

وعلى ذلكَ الأمرُ بالإستِماعِ والنَّظَرِ لِما يُلْقَى إليهِ، ويَراهُ، وإنْ لم تكُنْ حقيقةُ الإدراكِ فِعْلَهُ.

وعلى ذلكَ التقديرُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ تعالى يَجْعَلُ النَّفْثَ بالعزائمِ أو بأنواعِ السِّحْرِ أو بأنواعِ الرُّقَى أعمالاً: المَقصودُ بها مِنَ النَّفعِ والضَّرِّ لا تُعْلَمُ حقيقةُ الوقوعِ والمَعْنَى الموضوعِ فيهِ، لهُ مَنْ منهُ ذلكَ الفعلُ، وهو بهِ مأمورٌ وعنهُ مَنْهِيٌّ، بما لهُ مِنْ حقيقةِ الفِعلِ، وإنْ لم يكُنِ النافعُ بهِ في حقيقةِ فعلِهِ.

ثم قولُهُ ﷻ: ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ اختَلَفوا فيهِ: قالَ بعضُهُمْ: الصُّبحُ، وقيلَ: كلُّ شيءٍ يَنْفَلِقُ مِنْ جميعِ ما خَلَقَ نَحْوُ الأرحامِ لِيُتَعَرَّفَ ما فيها والحَبِّ والنَّوَى والهوامِّ.

فَمَنْ ذهبَ إلى تَخصيصِ الصُّبحِ فهو لأنهُ آخِرُ الليلِ وأوَّلُ النهارِ، وقد جَرَى تدبيرُ اللهِ تعالى في إنشاءِ هذينِ الوقتَينِ على جميعِ العالَمِ بحيثُ لا يَمْلِكُ أحدٌ الإمتِناعَ عنْ حُكْمِهما في ما جُعِلَ لهما، وهما النهايةُ في العِلْمِ، يَعْلَمُ اللهُ تعالى الغيبَ؛ إذْ جَرَى مِنْ تدبيرِهِ في آخِرِ الأوقاتِ في الليلِ والنهارِ على حدٍّ واحدٍ، كلٌّ عالمٌ بما فيهما مِنَ الرحمةِ للخَلْقِ وأنواعِ المِحنةِ، ومَنَّ عليهما بما يَأتيانِ الخَلْقَ، ويَذهبانِ، فكأنما ذَكَرَ جميعَ الخَلْقِ على ما ذُكِرَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] فيكونُ فيهِ، لو قُصِدَ بالذِّكْرِ، ما في الكلِّ، ولا قوةَ إلّا باللهِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ لهُ وجهانِ:

أحَدُهما مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ لِما أضافَهُ إلى فِعْلِهِ كما يُقالُ: مِنْ شرِّ فِعْلِ فلانٍ أو مِنْ شرِّ يَفْعَلُهُ.

[والثاني:][1] مِنْ شَرٍّ يكونُ مِنْ خَلْقِهِ.

لكنَّ الإضافةَ إليهِ بما هو خالقُ كلِّ شيءٍ مِنْ فِعْلِ خَلْقِهِ ومِنْ خَلْقِ ما لَهُ الفعلُ، ولا فِعْلَ.

والأوَّلُ كانَهُ أقربُ لِما ذُكِرَ في بقيةِ السورةِ الواقعِ بِخَلْقِهِ المُكْتَسَبِ مِنْ جِهَتِهِمْ، وأُضيفَ إليهِ لِما بَيَّنّا، ولأنَّ كلَّ شَرٍّ اكْتَسَبَهُ الخَلْقُ، فذلكَ مَنسوبٌ إلى اللهِ تعالى خَلْقاً، وهو فِعْلُ المُكْتَسِبِ وكَسْبِهِ.

فمَتَى كانَ المُرادُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ هذا النَّوعَ، فكانَ ذِكْرُ ما بَعْدَهُ، يكونُ تَكريراً. وإذا حُمِلَ الأوَّلُ على مَحْضِ التَّخليقِ في ما لا صُنْعَ للخَلْقِ فيهِ مِنَ الشُّرورِ كانَ ذِكْرُ ما لهمْ صُنْعٌ فيهِ، وإنْ كانَ خَلْقُ اللهِ تعالى لا يكونُ تَكريراً، فيكونُ هذا التأويلُ أحقَّ معَ ما قد بَيَّنّا أنهُ يَمْنَعُ في فِعْلِ غيرِهِ بِلُطْفٍ أو إعجازٍ [وفي الإعجازِ][2] لا يُحْتَمَلُ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ مَنْ لا يَقْدِرُ على فِعْلٍ يَتَّصِلُ بهِ الشَّرُّ.

وفي ذلكَ إثباتُ التَّمكينِ لِما يَقَعُ بهِ الشَّرُّ، فَيَجوزُ التَّعَوُّذُ مِنَ الذي منهُ؛ إذْ بهِ يكونُ مِنْ غيرِهِ على [ما][3] بَيَّنّا مِنْ جوازِ الأمرِ والنَّهْيِ عنْ أفعالٍ لِمكانِ ما يَقَعُ بها، وإنْ لم يكُنِ الواقعُ في الحقيقةِ لهمْ.

فَعَلَى ذلكَ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ خَلْقِهِ، وهو المَكينُ والمُسْتَعانُ.

وفي هذا تَعَلَّقَ بعضُ مَنْ يقولُ بالقُوَّةِ تَسْبِقُ الفعلَ: إنهُ لو لم تكُنْ لهُ قوةٌ على الشَّرِّ كيف كانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ شَرٍّ، لا يَقْوَى عليهِ؟ والجوابُ مِنْ وجهَينِ:

أحَدُهما: أنَّ التَّعَوُّذَ يكونُ بما سَيُفعلُ بما يَمْلِكُ هو ما يَقَعُ لديهِ الفِعْلُ، وهو الآلاتُ السليمةُ، والقدرةُ تَحْدُثُ تِباعاً على حدوثِ الأفعالِ، ويُحدِثُ لما يَخْتارُ هو، فصارتِ القدرةُ في كونها لِما يَختارُ كَكَونِ ما يَخْتارُ مِنَ الفِعلِ بالإختيارِ بحدوثِ القدرةِ حالةَ الفعلِ، فَيَتَعَوَّذُ منهُ لِعِلْمِهِ أنَّ الذي بهِ كائنٌ في يدِهِ.

---

(١) في الأصل وم: ويحتمل. (٢) من م، ساقطة من الأصل. (٣) من م، ساقطة من الأصل.

والثاني: أنْ قد جَرَتِ العادةُ بالعِلْمِ بما يَقَعُ في المُتَعارفِ كالعِلْمِ بما هو واقعٌ في الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ.

ألا تَرَى أنهُ يَتَعَوَّذُ مِنْ ظُلْمِ الجبابرةِ والظَّلَمةِ على ما بَيْنَهُمْ مِنْ بُعْدِ الأمكنةِ وطولِ المُدَدِ لإمكانِ الوصولِ بما اعْتَقَدَ منهمْ بلوغَ أمثالِ ذلكَ؟ وإنْ كانتِ القدرةُ على الظُّلْمِ في حقِّهِ للحالِ مَعْدومةً، لا يَبْقَى في مِثْلِ هذهِ المُدّةِ. فَعَلَى ذلكَ الأمرُ بالأوّلِ.

الآية ٢ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ اخْتُلِفَ فيهِ؛ قيلَ: الغاسقُ هو الليلُ المُظْلِمُ، والغَسَقُ الظُّلْمةُ، وقيلَ: سُمّي الليلَ غاسقاً لأنَّ الغاسقَ الباردُ. وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٤ و٢٥ و٢٦] والليلُ أبرَدُ مِنَ النهارِ، لِذلكَ سُمّيَ غَسَاقاً.

والأصلُ في هذا أنَّ الذي ذَكَرَ، لا يكونُ منهُ ضَرَرٌ، يُتَعَوَّذُ منهُ. لكنهُ يَرْجِعُ إلى مَنْ كانَ في ظُلَمِ الليلِ، إذْ في نورِ القمرِ مَنِ الذي يأتي منهُ الضّارُّ؟ ومَعْلومٌ أنَّ مِنَ الشُّرورِ ما لا يُمَكَّنُ منها إلّا في ظُلَمِ الليلِ، ومنها في الليالي [ما لا يُمَكَّنُ منها][1] إلّا بنورِ القمرِ.

فأمرُ التَّعَوُّذِ ممّا يكونُ فيها لا أنْ يكونَ منها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧ و. . .] بما يَقَعُ بهِ الإبصارُ، لا أنهُ يَقَعُ منهُ ذلكَ.

وهذا، واللهُ أعلَمُ، ليسَ على تَخصيصِ الليلِ بذلكَ لأنهُ ليسَ لهُ فِعْلُ الضَّرَرِ، لكنْ قد يَعْرِضُ بهِ الإمكانُ /٦٥٩ ـ أ/ مِنَ الشَّرِّ لِما المَعْلومُ أنَّ مِنَ الشُّرورِ ما لا يُمَكَّنُ منها إلّا في ظُلَمِ الليلِ، ومنها في الليلِ لا يُمَكَّنُ [منها][2] إلّا في ضَوءِ القمرِ.

فأمرُ التَّعَوُّذِ منهُ عمّا يَتَحَقَّقُ فيه. فَعَلَى ذلكَ يجوزُ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ النهارِ على تأويلِ ما يَقَعُ بهِ مِنَ التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّرِّ، ويوجَدُ فيهِ، واللهُ أعلَمُ.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ اخْتَلَفوا في مَعْنَى ﴿وَقَبَ﴾ قيلَ: إذا جاءَ، وقيلَ: مَعْناهُ القمرُ إذا خُسِفَ؛ أمَرَ بالاسْتِعاذةِ منْ ذلكَ؛ إذ هو عَلَمٌ مِنْ أعلامِ الساعةِ، لهذا قالَ: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذِ القمرُ لا يُخْسَفُ إلّا في الليلِ.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ فهذا تَعَوُّذٌ مِنْ [شَرِّ كلٍّ][3] بِحَسْبِ سَبَبِهِ، لكنهُ في الحقيقةِ فُعِلَ لهمْ، وفي الأوّلِ يَقَعُ سَبَبُهُ بلا صَنيعٍ لهمْ، فكأنهُ في الجملةِ أمرَ بالتَّعَوُّذِ مِنْ كلِّ أسبابٍ خَفِيّةٍ[4]، تَوَلَّدُ الشَّرُّ منهُ، فِعْلاً كانَ ذلكَ[5] أو لم يَكُنْ.

ألا تَرَى إلى قولِهِ تعالى ﷺ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾؟ [لقمان: ٣٣ و. . .]

وقد يكونُ للشيطانِ فعلٌ في الحقيقةِ، ولا يكونُ للحياةِ الدنيا فِعْلٌ، فَوَقَعَ النَّهْيُ عنِ الاغْتِرارِ بهما. فَعَلَى ذلكَ التَّعَوُّذُ مِنْ شَرِّ الأمرَينِ، وإنْ لم يكُنْ لأحدِهِما فِعْلٌ بما يَقَعُ فيهِ.

وجائزٌ أنْ يكونَ مِنْ هذا الوَجهِ في الملائكةِ [مِحْنةٌ][6] في الدَّفْعِ والحِفْظِ كقولِهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] قيلَ فيهِ: أي بأمرِ اللهِ يَقَعُ حِفْظُهُ.

فجائزٌ أنْ يكونَ في هذهِ الأمورِ الخَفِيّةِ وأنواعِ المَضارِّ مِنْ حيثُ لا يُعْلَمُ إلّا بَعْدَ جَهْدٍ يَقَعُ الحِفْظُ باللهِ تعالى على اسْتِعْمالِ الملائكةِ.

وعلى ذلكَ يجوزُ أنْ يكونَ أمرُ سلامةِ المَطاعمِ والمَشارِبِ والمَنافعِ التي للبشرِ مِنْ إفسادِ الجِنِّ؛ يَحْفَظُهُ مَنْ ذَكَرَ ليكونَ فيها مِحْنةٌ للملائكةِ على ما كانَ مكانَ وَسْواسِ الشيطانِ إيقاظُ الملائكةِ ومَعونَتُهُمْ.

---

(١) في الأصل وم: لا يمكن. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) في الأصل وم: شرهم. (٤) في الأصل وم: خيف. (٥) جاء بعدها في الأصل وم: له. (٦) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ اللهُ لم يُمَكِّنْهُمْ إفسادَ ما ذَكَرْنا، وإنْ مَكَّنَهُمُ الوَسواسُ؛ إذْ باللُّطفِ يَمْنَعُ مِنْ حيثُ لا يُعْلَمُ.

وقيلَ أيضاً: مِنْ أمرِ اللهِ عذابُهُ وأنواعُ البَلايا إلى وقْتِ إرادةِ اللهِ تعالى الوقوعَ.

الآية ٥ وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: إذا كانَ الحاسدُ دونَ المَحْسودِ، ولا يَقْوَى على الشَّرِّ لِيَفْعَلَ بِهِ، والشَّرُّ المُتَوَهَّمُ منهُ يكونُ مِنْ شَرِّهِ[1] عينِهِ، وعَمَلُ الحَسَدِ إرادةُ زَوالِ نِعَمِ المَحْسودِ وذهابِ دَولتِهِ.

[والثاني:][2] أنهُ جائزٌ أنْ يكونَ اللهُ ﷻ بِلُطفِهِ يَجْعَلُ في بعضِ الأعيانِ عملاً يُنادي بالنَّظرِ إلى ما يَسْتَحْسِنُهُ منَ النِّعَمِ إلى الزَّوالِ، ويُؤثِرونَ ذَهابَ الدَّولةِ عنهُ، فأمرَ بالتَّعَوُّذِ.

هذا وقد بيَّنّا لكَ المُتَوَلِّداتِ مِنَ الأفعالِ بما جَعَلَ اللهُ تعالى فيها مِنَ المَضارِّ والمَنافعِ ما لا يَبْلُغها علومُ الخَلْقِ، بل لو أرادَ الخَلْقُ أنْ يَعرِفوا ما في البَصَرِ مِنَ الحكمةِ التي تُدرَكُ بِفَتْحِ البصرِ ما بينَ السماءِ والأرضِ منْ غَيرِ كثيرِ مُهْلَةٍ، لم يَقْدِروا عليهِ.

ورَوى عِمْرانُ بْنُ حُصَينٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لا رُقْيَةَ إلّا مِن عَينٍ أو حُمَةٍ» [أبو داوود ٣٨٨٤]. وعنِ ابْنِ عباسٍ رضي الله عنهما [قولَهُ ﷺ][3] «العَينُ حقٌّ فإنْ كانَ شيءٌ يَسْبِقُ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَينُ» [مسلم ٢١٨٨] وفي خَبَرٍ آخَرَ: «لا شَرَّ في الهامِ، والعَينُ حقٌّ» [الترمذي ٢٠٦١] ويَدُلُّ عليهِ في قصةِ يوسفَ عليه السلام [ما][4] قالَ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقد فَسَّرَ قومٌ وجْهَ عملِ العَينِ وكيفيَّتَهُ [بأمرَينِ]:

أحدُهما: أنهُ[5] أمرٌ كعَمَلِ الشمسِ في العَينِ نفسِها في ما تُبْصِرُ الشمسَ، وتَنْظُرُ إليها، فإنها تَضُرُّهُ، وتَغْلِبُهُ عنِ النظرِ على بُعْدِها[6] مِنَ العَينِ بما جَعَلَ اللهُ تعالى، وذلكَ مِنَ اللطفِ والحكمةِ، وكذلكَ عملُ العَينِ في المَعْيونِ.

والثاني: أنْ يكونَ بِما حَسَدَ أنْ يَبْعَثَ حَسَدَهُ على الحِيَلِ وأنواعِ ما بِهِ العينُ مِنَ السَّعْيِ في الأمورِ التي بها الفسادُ على ضَعْفِهِ في نفسِهِ.

قالَ اللهُ تعالى في صفةِ المُنافقينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ﴾ [المنافقون: ٤] فَمَعَ ما بَيَّنَ مِنْ فَشَلِهِمْ وضَعْفِهِمْ أمَرَهُمْ بالحَذَرِ منهمْ، وقالَ: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ثم أمَرَ بالتَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّهِ. فكذلكَ الحاسدُ، واللهُ أعلَمُ [بالصواب][7].

---

(١) في الأصل وم: شر. (٢) في الأصل وم: و. (٣) ساقطة من الأصل وم. (٤) ساقطة من الأصل وم. (٥) في الأصل وم: لكنه. (٦) في م: بعد. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

[سورة الناس

مدنية][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية ١ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فظاهِرُهُ أمرٌ لرسولِ اللهِ ﷺ وشيءٌ مُشارٌ إليهِ، وهو التَّعُوُّذُ، وفي[2] الإجابةِ في مِثْلِهِ أنْ يقولَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ لكنهُ، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

أحَدُهما: أنْ يكونَ ذلكَ أنْزلَهُ حتى[3] يَصيرَ ذلكَ أمراً لكلِّ مَنْ بَلَّغَهُ وتَعْليماً بالذي عليهِ بِالِاعْتِصامِ باللهِ تعالى والِالْتِجاءِ إليهِ مِنْ شَرِّ الذي ذَكَرَهُ لِيُعيذَهُ. وتكونُ الإعاذةُ بِوجهَينِ:

أحَدُهما: في تَذْكِيرِ ما عَرَّفَهُ مِنَ الحُجَجِ في دَفْعِ ما يَخْطُرُ ببالِهِ والمَكْروهِ.

والثاني: باللُّطْفِ الذي لا يَبْلُغُهُ عِلْمُ الخَلْقِ، ولا تُدْرِكُهُ عقولُهُمْ؛ ممّا لَدَيهِ يَقَعُ الأمنُ مِنَ الزَّيغِ، ممّا حَقُّهُ الإفضالُ. والذي ذلكَ حَقُّهُ [فللّهِ تعالى أنْ يُكْرِمَ العبدَ مُبْتَدأً، ولهُ أنْ يُقَدِّمَ فيهِ مِحْنةَ السؤالِ والِاعْتِصامِ بهِ على الإكرامِ أيضاً، ويُكْرِمَ مَنِ اعْتَصَمَ بهِ مِنَ الزَّلَّةِ، أو هُدِيَ إلى سُنَّةِ الشُّكْرِ للهِ تعالى][4] في ما ابْتَدَأَهُ أو أكْرِمَ بهِ عندَ السؤالِ.

والوَجْهُ الثاني مِنْ وَجْهَيِ الخِطابِ: أنْ يكونَ الخِطابُ لِغَيرِهِ، وإنْ كانَ راجعاً إلى مُشارٍ إليهِ؛ فهو ممّا يَشْتَرِكُ في مَعْناهُ غَيرُهُ، فأبْقى، وأثْبَتَ ما بهِ يَصيرُ مُخاطِباً مَنْ بُلِّغَ ذلكَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ حتى يدومَ هذا إلى آخِرِ الدهرِ. وعلى [هذا جميعُ ما][5] فيهِ حَرْفُ الكُلْفةِ والمِحْنةِ، أعني صِيغةَ الأمرِ، واللهُ الموفِّقُ.

ثم في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخِرِ السورةِ وجْهانِ مِنَ الحِكْمةِ فيهما نَقْضُ قولِ أهلِ الِاعْتِزالِ:

أحَدُهما: أنَّ المِحْنةَ قد ثَبَتَتْ بالِامْتِناعِ عنْ طاعةِ الشيطانِ والمُخالفةِ لهُ. فأمّا إنْ كانَ اللهُ تعالى قد أعطاهُ، فهو يَطْلُبُ ذلكَ بالتَّعَوُّذِ والِاعْتِصامِ باللهِ تعالى، كاتماً لِما أعطاهُ طالباً ما ليسَ عندَ اللهِ تعالى، فيكونُ الأمرُ بالتَّعَوُّذِ مِحْنةً وأمراً بما بهِ كِتْمانُ ذلكَ، وذلكَ حينَ اسْتَوفاهُ بكونِ إنكارِهِ سَتْرَ نِعَمِ اللهِ، وقد تَبَرَّأَ /٦٥٩ ـ ب/ مِنَ الأمرِ بالفَحشاءِ والمُنْكَرِ، وبَيَّنَ أنَّ ذلكَ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ.

[والثاني][6]: في المِحْنةِ بهذا مِحْنةُ الِاسْتِهْزاءِ باللهِ تعالى لأنهُ يَطْلُبُ منهُ ما يَعْلَمُ أنهُ لا يَمْلِكُهُ، ولا يَجِدُهُ عندَ نفسِهِ؛ وذلكَ مِنْ عِلْمِ الهُزْءِ وعِنْدِ ذَوي العقولِ.

فَمَنْ ظَنَّ أنَّ اللهَ تعالى يَمْتَحِنُ عبادَهُ، ويأمُرُهُمْ بِشيءٍ ممّا ذَكَرْنا، فهو جاهلٌ باللهِ تعالى وبِحِكْمَتِهِ، وإنْ لم يكُنِ اللهُ تعالى أعطاهُ، فعندَهُ بعدُ ذلكَ.

ثم كانَ مِنْ مَذْهبِهِمْ أنهُ ليسَ للهِ تعالى أنْ يَمْتَحِنَهُمْ بِفِعْلٍ إلّا بَعْدَ إيتاءِ جميعِ ما عندَهُ ممّا فيهِ قِوامُهُ ووجودُهُ، ففي ذلكَ اعْتِرافٌ بِلُزومِ المِحْنةِ، وتَوَجُّهُ التَّكليفِ قَبْلَ إيتاءِ جميعِ ما عندَهُ ممّا بهِ الوصولُ إلى ما أمَرَ بهِ؛ وذلكَ تَرْكُ مذهبِهِمْ معَ ما كانَ عندَهُمْ أنهُ لو كانَ عندَ اللهِ أمرٌ ومَعْنًى لا يَقَعُ فِعْلُ المُختارِ لأجلِ أنهُ[7] لا يُعطيهِ ذلكَ، لم يكُنْ لهُ أنْ يَمْتَحِنَهُ، وهو بالِامْتِحانِ جائرٌ.

---

(١) من م، ساقطة من الأصل. (٢) في الأصل وم: وهو. (٣) في الأصل وم: بحق أن. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) في الأصل: جميع لما، في م: جميع ما. (٦) في الأصل وم: ثم. (٧) في الأصل وم: لأنه.

فأمّا إنْ سألوهُ بفعلٍ قد أمرَ بهِ، وإنْ لم يَكُنْ أعطاهُمْ ذلكَ، وهمْ ما وَصَفوا اللهَ تعالى بمِثْلِ ذلكَ أو بِفِعْلٍ يَتْلو وقتَ الأمرِ بذلكَ، ويكونُ أعطاهُمْ ذلكَ وقتَ الأمرِ، فكأنهُ ظَنٌّ أنْ يُؤمَروا، ولا يُعطي حتى يُسْأَلَ، وذلكَ حَرْفُ الجَورِ.

ثم الأصلُ الذي اطْمَأَنَّتْ بهِ قلوبُ الذينَ يَعرفونَ اللهَ تعالى: أنهُ متى هَدَى الهدايةَ التي سُئِلَ، أو عَصَمَ العِصْمةَ التي تُطْلَبُ، أو وَفَّقَ لِما يُرْجَى مِنَ الفِعْلِ، أو أعانَ عندَ ما يُخافُ: أنهُ كانَ ذلكَ، لا مَحالةَ، وتَحَقَّقَ بلا شُبْهَةٍ، ويُؤْمَنُ لَدَيهِ مِنَ الزَّيغِ والضَّلالِ، وعلى ذلكَ جُبِلوا ممّا لا تَجِدُ غَيرَ مُعْتَزليٍّ إلّا وقدِ اطْمَأَنَّ قلبُهُ بهِ حتى يُعْلَمَ أنَّ هذا منهُ وَقَعَ، المَجْبولَ عليهِ، بالتقليدِ، ولا قُوَّةَ إلّا باللهِ تعالى.

الآيتان ٢ و٣ وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ أعوذُ بربِّ الخَلْقِ، وهذا أعمُّ مِنَ الأوَّلِ، وإضافةُ كُلِّيَّةِ الأشياءِ إليهِ أو إضافتُهُ إلى الكلِّ بالرُّبوبيَّةِ مِنْ بابِ التَّعظيمِ للهِ تعالى، فما كانَ أعَمَّ فهو أقرَبُ في التَّعظيمِ. فهذا، واللهُ أعلَمُ، يُخَرَّجُ على أوجهٍ:

أحدُها: أرادَ التعريفَ، وبهذا تَقَعُ الكِفايةُ في معرفةِ مَنْ يَفْزَعُ إليهِ مِمَّنْ يَمْلِكُ ذلكَ لِيَعوذَ منهُ. لكنهُ ذَكَرَ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] في مَوضعٍ، و﴿بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٧] و﴿بِكَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] في مَوضعٍ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ و...] لِيُعْلِمَ بهِ مِنْ سَعَةِ الأمرِ وتحقيقِ الفَزَعِ والرجوعِ إلى اللهِ تعالى عندَ نزولِ ما يَنْزِلُ بالمرءِ ممّا يَخافُ على نفسِهِ، ويَشْغَلُ قلبَهُ، أنَّ لهُ ذِكْرَ ما يَحْضُرُهُ مِنْ أسماءِ اللهِ تعالى أيَّ اسْمٍ كانَ؛ إذْ ما مِنِ اسْمٍ إلّا وفيهِ دلالةٌ على نِعَمِهِ وسُلْطانِهِ وقُدْرتِهِ وعَظَمتِهِ لِيكونَ في ذلكَ توجيهُ الشُّكْرِ[(١)] إليهِ وإخلاصُ الحمدِ لهُ بإضافةِ النِّعَمِ [إليهِ][(٢)] ليكونَ ذلكَ مِنْ بعضِ ما بهِ الشَّفْعُ إلى اللهِ تعالى مِنْ ذِكْرِ قُدْرتِهِ وإحسانِهِ أرفَعَ في ذِكْرِ الناسِ بالإضافةِ إليهِ.

والثاني: أنَّ الذينَ عُرِفَ فيهمُ الأربابُ والملوكُ والعباداتُ لِمَنْ دونَ اللهِ تعالى، همُ الإنسُ دونَ غَيرِهِمْ، فأمَرَ أهلَ الكرامةِ بمعرفةِ اللهِ تعالى والعِصْمةِ عنْ عبادةِ غَيرِهِ والاعْتِرافِ بالمُلْكِ والرُّبوبيةِ لهُ أنْ يَفْزَعوا إليهِ عما ذُكِرَ ذاكرينَ لذلكَ واصِفينَ بأنهُ الربُّ لهمْ والمَلِكُ عليهمْ والمُسْتَحِقُّ للعبادةِ لا غَيرُهُ.

أو لَمّا كانَ للوجوهِ التي ذَكَرْنا ضَلَّ القومُ مِنِ اتِّخاذِهِمْ أرباباً دونَ اللهِ تعالى أو نُزولِهِمْ على رأيِ ملوكِهِمْ في الحِلِّ والحُرْمةِ وفي البَسْطِ والقَبْضِ أو عبادَتِهِمْ غَيرَ اللهِ تعالى وفَزَعِهِمْ إليهِ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الكرامةِ بما ذَكَرْتُ الفَزَعَ [إلى الذي يُذْكَرُ بهذهِ الأوصافِ على الحقيقةِ على نَحْوِ فَزَعِ][(٣)] الضالينَ إلى أربابِهِمْ وملوكِهِمْ والذينَ [عبدوهُمْ دونَهُ][(٤)] إذْ إليهِ مَفْزَعُ الكَفَرَةِ أيضاً عندَ الإياسِ مِمَّنِ اتَّخذوهُمْ دونَ اللهِ لِنُصْرَتِهِمْ ومَعونتِهِمْ، واللهُ أعلَمُ.

والثالثُ: أنَّ المَقصودَ مِنْ خَلْقِ هذا العالَمِ همُ الذينَ نزلَتْ فيهمْ هذهِ السورةُ، وغَيرُهُمْ كالمَجعولِ المُسَخَّرِ لهمْ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ﴾ الآية [النحل: ١٤] وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ الآية [البقرة: ٢٢].

فإذا قيلَ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ فكأنهُ قيلَ: بربِّ كلِّ شيءٍ لأنَّ ما سِواهُمْ جُعِلَ لهمْ، وذِكْرُ الخَلْقِ والتَّوَجُّهُ إليهِ في الاسْتِعاذةِ والاسْتِعانةِ، هو اعتِرافٌ ألّا يَمْلِكَ غَيرُهُ ذلكَ، فاسْتَوَى الأمرانِ، واللهُ أعلَمُ.

وقيلَ في: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مُصْلِحُ الناسِ، وذلكَ يَرْجِعُ إلى أنَّ بهِ صَلاحَهُمْ في الدينِ وفي النفسِ.

وقيلَ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ على الإخبارِ بأنَّ المُلْكَ لهُ فيهمْ جميعاً وفي الخَلْقِ ممّا لم يُذْكَرْ فيهِ وَجْهُ المُلْكِ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ كلَّهُ في التَّحقيقِ للهِ تعالى ومُلْكِهِ، ولِغَيرِهِ يكونُ مِنْ جِهَتِهِ على ما أعْطى لهمْ بقدرِ ما احتاجوا إليهِ.

وقيلَ: سَيِّدُهُمْ، لكنَّ لفظةَ السَّيِّدِ لا تُذْكَرُ لِمالكِ غَيرِ الناسِ، ويوصَفُ بالربِّ والمَلِكِ والمالكِ على الإضافةِ لا مُطْلَقاً؛ يُقالُ: ربُّ الدارِ، ومالكُ الجاريةِ، وملكُ المِصْرِ، ونَحْوُ ذلكَ فكأنهُ أقربُ.

---

(١) في الأصل وم: الملك. (٢) ساقطة من الأصل وم. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) في الأصل وم: عبدوه دونهم.

الآية ٤ وقولُهُ تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ فَسَمَّى الذي يُوَسْوِسُ بأنهُ وَسْواسٌ وخَنَّاسٌ. وقيلَ في تأويلِهِ مِنْ [وجوهٍ:

أحدُها](1): أنهُ يُوَسْوِسُ لِذي الغَفْلةِ، ويَخْنُسُ عندَ ذِكْرِ اللهِ تعالى، أي يَخْرُجُ، ويذْهبُ.

[والثاني: أنهُ](2) يَخْنُسُ، لا يُرى، ولا يَظْهَرُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ولهذا قيلَ في: ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] إنهنَّ يَطْلُعْنَ مِنْ مطالِعِهِنَّ، وتَخْنُسُ بالنهارِ أي تَخْتفي.

الآيتان ٥ و٦ [والثالثُ: جائزٌ](3) أنْ يكونَ قولُهُ ﷺ ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾(4)؛ صَيَّرَ المُوَسْوَسَ في صدورِ الناسِ مِنَ الجنةِ والناسِ.

[والرابعُ:](5) على التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ معناهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ مِنَ الجنةِ والناسِ الذي يُوَسْوِسُ في صدورِ الناسِ.

أمّا الوَسْوَسةُ فهي أمرٌ معروفٌ، وذلكَ مما يُلْقى مِنَ الكلماتِ التي تَشْغَلُ القلبَ، وتُحَيِّرُهُ، لِما في أمرِ الدينِ ما(6) لا يُعْرَفُ الذي يُلْقَى إليهِ المُخْرَجُ مِنْ ذلكَ.

وعلى ذلك أمرُ أهلِ الأهواءِ وأصنافِ الكَفَرَةِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأمّا شياطينُ الجِنِّ فهو أمرٌ ظاهرٌ عندَ جميعِ أهلِ الأديانِ ومَنْ آمَنَ بالرسلِ ﷺ لكنَّ الدَّهْرِيَّةَ ومُنْكِري [الرسُلِ](7) يقولونَ: ليسَ في الجِنِّ شياطينُ، وإنما هو أمرٌ يُخَوِّفُ بِهِ مُدَّعو الرسالةِ لِيُلْزِموا الخَلْقَ الاستماعَ إليهِمْ في تعريفِ الجُهَّلِ، وما عندَهُمْ في دَعْواهُمْ مِنَ العلومِ والمَعارفِ [شيءٌ](8) وهذا لِسَفَهِهِمْ قالوهُ(9). ولو أنهمْ تَأَمَّلوا في ذلكَ لَعَرَفوا أنهمْ على غَيرِ بحثٍ عمّا ألزمَهُمْ ضرورةُ الفعلِ الطلبَ، ودَعَتْهُمْ إلى البحثِ عنهُ ما مَسَّهُمْ مِنَ الحاجةِ؛ وهي الخواطرُ التي تَقَعُ في القلوبِ، والخيالاتُ التي تَعْرِضُ في الصدورِ / ٦٦٠ ـ أ/ [منها ما](10) إذا صُوِّرَتْ وُجِدَتْ قِباحاً، ومنها(11) ما إذا صُوِّرَتْ وُجِدَتْ حِساناً.

ولا يجوزُ وقوعُ أمرٍ أو كونُ شيءٍ بَعدَ أنْ لم يكنْ مِنْ قِبَلِ نفسِهِ للإحالةِ في أنْ يَصيرَ، لا شيءَ بنفسِهِ، شيئاً قبيحاً أو حسناً بلا مُدَبِّرٍ، وقد عَلِمَ جميعُ الإنسانِ بالذي ذَكَرْتُ مِنَ الابْتِلاءِ بِهِ مِمّا يَعْلَمُ أنهُ لم يَكُنْ مِنْ نفسِهِ مَعْنًى يُحْدِثُ لهُ ذلكَ.

فَثَبَتَ أنْ قد كانتِ الضرورةُ تُلْزِمُ البحثَ عنْ ذلكَ. ثم لا يُعْلَمُ مِنْ حيثُ طَلَبُ الأبدانِ المُوجِبَةُ لها، ولا في العقولِ دَرْكُها، فيجبُ بها أمرانِ مَنَعاهُمْ عنِ العلمِ بهما [هما](12) القُنوعُ بالجهلِ وحبُّ الراحةِ: أحدُهما القولُ بالصانعِ ودخولُ العالَمِ تحتَ تدبيرِ حكيمٍ عليمٍ قديرٍ. والآخرُ القولُ بالرسالةِ، تأتيهِمْ مِنْ عندِ عَلّامِ الغُيوبِ. وإذا كانَ ذلكَ بحيثُ لا يَبْلُغُهُ علمُ البشرِ، فَيَعْرِفَ حقيقةَ ذلكَ، فَيَعْلَمَ عندَ النَّظَرِ والبحثِ أمرَينِ عظيمَينِ:

أحدُهُما: الرسلُ بما مَعَهُمْ مِنَ المُعْجِزاتِ؛ فيقولونَ بهِمْ وبالتوحيدِ بما رَأَوا مِنَ الآياتِ الصدقَ، وإذْ قد عَلِموا أنَّ في الأخبارِ صِدْقاً؛ لولا ذلكَ لكانوا لا يَدْعونَ شيئاً، إذْ هو خَيرٌ لهمْ(13).

والثاني: يُلْزِمُهُمْ بما يُعايِنونَ مِنْ خروجِ الأمرِ مِنْ غَيرِ الحكماءِ أنها تَقَعُ مُتفاوِتةً مُضْطرِبةً، والعالِمُ بما خَرَجَ مُنْشَقّاً على الحِكمةِ والمَصْلَحةِ، فَعَلِموا أنهُ كانَ يَعْلَمُ(14) ما بِهِ الصالحُ، فَيَلْزَمُهُمْ بِهِ أمرانِ أيضاً: التوحيدُ والرسالةُ، ولا قوةَ إلّا باللهِ تعالى.

---

(١) في الأصل وم: وجهين. (٢) في الأصل وم: وقيل. (٣) في الأصل وم: وقيل: و. (٤) أدرج بعدها في الأصل وم: الآية. (٥) في الأصل وم: وقيل أيضاً. (٦) في الأصل وم: بما. (٧) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٨) ساقطة من الأصل وم. (٩) الهاء ساقطة من الأصل وم. (١٠) ساقطة من الأصل وم. (١١) في الأصل وم: ومنهم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: له. (١٤) في الأصل وم: بعد.

والأصلُ عندنا بِتَمْكينِ الشيطانِ ما ذَكَرْنا مِنَ الوَسْوَسَةِ: أنَّ الشيطانَ والمَلَكَ خَلْقانِ للهِ تعالى، عَرَفْناهما بالرُّسُلِ ﷺ وبما بَيَّنّا مِنْ ضرورةِ الحاجةِ إلى العِلْمِ بمنْ بالغايةِ يَصيرُ عندَ التصويرِ قبيحاً أو حَسَناً، فيأتيانِ جميعاً بما مَكَّنَهُما اللهُ تعالى مِنَ الأمرَينِ جميعاً: أمْرُ الملائكةِ الخَيرُ والحكمةُ، فَيَسْهُلُ عليهِ سبيلُهُ بِتيسيرِ اللهِ تعالى وفضلِهِ، وأمْرُ الشيطانِ الضَّلالُ والشَّرُّ، فَيَتَيسَّرُ عليهِ حتى صارَ الخيرُ للأوَّلِ كالطبعِ والشَّرُّ للثاني كذلكَ.

فإذَنْ كانَ كلُّ واحدٍ مُمَكَّناً مِنَ الأمرَينِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ثم الأصلُ في الإنسِ أنهمُ امْتُحِنوا بحقوقٍ بينَهُمْ وبينَ اللهِ تعالى وبحقوقٍ في ما بَينَهُمْ، وكُلِّفوا بتَثْبيتِ الملائكةِ إياهُمْ [بقولِهِ][(١)] ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وأُمِروا بِرَدِّ ما يُوسوِسُ إليهِمُ الشيطانُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وغيرِ ذلكَ.

وعلى ذلكَ خُلِقَتِ الملائكةُ مُمْتَحَنينَ بالكتابةِ على البشرِ بقولِهِ: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١] فتكونُ الحكمةُ في تكليفِ التَّمْكينِ لِما وَصَفَ مِنْ محنةِ اللهِ تعالى إيّاهُمْ طاعتَهُمْ في أنفسِهِمْ وفي ما مُكِّنوا مِنْ غيرِهِمْ على ما ذَكَرْتُ مِنْ أمرِ الإنسِ.

وحكمةُ ذلكَ للإنسانِ[(٢)] إلزامُ التَّيَقُّظِ والنَّظَرِ في ما يَقَعُ في قلبِهِ مِنَ الخواطرِ لِيَعْلَمَ الذي لهُ مِنَ الذي عليهِ، وكذلكَ في تكليفِ الملائكةِ كتابةَ قَولِهِ وفِعْلِهِ ليكونَ مُتَيَقِّظاً ومُنْتَبِهاً في كلِّ أفعالِهِ وأحوالِهِ كَتَيَقُّظِهِ في ما كانَ الأولياءُ والأعداءُ مِنَ الكاتبينَ الظاهرينَ عليهِ أنهُ يَحْذَرُ كلَّ الحَذَرِ عمّا يؤذي وَلِيَّهُ، ويُقْبِلُ على كلِّ أمرٍ فيهِ يَطْمَعُ بما أمَلَ، ويَحْذَرُ عَدُوَّهُ أشدَّ الحذرِ لئلّا يؤذِيَهُ مِنْ حيثُ لا يَعْلَمُ، فَيَتَّهِمَهُ كلَّ تُهَمَةٍ.

ثم معلومٌ ألّا يَمَلَّ الكتَبَةُ إلّا بعدَ إحكامِهِ وإصلاحِهِ غايةَ ما يُحْتَمَلُ الوُسْعُ.

فَعَلَى ذلكَ في ما خَفِيَ؛ إذْ هُمْ في العقولِ في [دَرْكِ][(٣)] ما منهمْ وما عليهمْ كالذينَ ذَكَرَ منهمْ مِمَّنْ ظَهَرَ وألّا يُضارَّهُمْ، واللهُ الموفِّقُ.

وكذلكَ صَلَحَتِ المِحْنةُ والأمرُ في صحبةِ الأولياءِ والأعداءِ بِحَقِّ الوِلايةِ والعَداوةِ في ما لا يَرونَ صلاحَها وفي ما يَرونَ، إذْ مِنَ الوجهِ الذي فيهِ الوِلايةُ والعَداوةُ مُزَيَّنَةٌ لأبصارِ القلوبِ والعقولِ فَيُمَكِّنُ الحذرَ والمُعاملةَ جميعاً.

وعلى هذا التقديرِ لم يُمَكِّنِ اللهُ أعداءَهُ الذينَ لا يُرَونَ مِنْ مُعاداتِهِمْ بأفعالٍ مِنْ أبدانِهِمْ وأموالِهِمْ بالسَّلْبِ والتَّنجيسِ والإفسادِ، وقد مَكَّنَ أعداءَهُمْ مِنَ الإنسِ ذلكَ لِتَمَكُّنِهِمُ الدفعَ عنْ ذلكَ والحذَرَ عنهُ بما وَقَعَ الوقوفُ لبعضٍ على حِيَلِ بعضٍ والصرفُ عنْ ذلكَ.

وما هذا إلّا كَدَرْكِ الحواسِّ بأفعالِها وأسبابِها بالحسِّ، وكذلكَ أمرُ الملائكةِ.

لكنَّ مَنْ لا يَحْتَمِلُ عقلُهُ معرفةَ الصانعِ والتوحيدَ مع شهادةِ العقلِ وكلِّ شيءٍ، فَجَهْلُهُ بالشيطانِ غيرُ مُسْتَبْعَدٍ ولا مُسْتَنْكَرٍ، واللهُ أعلَمُ.

قالَ ﷺ: ثم اخْتُلِفَ في وجهِ تَمَكُّنِ الشيطانِ مِنَ الإنسِ في ما يُوَسْوِسُ إليهِ: قد رُوِيَ في بعضِ الأخبارِ «أنهُ يجري فيهِ مَجْرَى الدَّمِ» [مسلم ٢١٧٤] فأنكَرَ ذلكَ قومٌ، وليسَ ذلكَ ممّا يُنْكَرُ بعدَ العلمِ باحتِمالِ جَرْيِ الدمِ فيهِ وجَرْيِ قوةِ الطعامِ والشرابِ وما بهِ حياةُ الأبدانِ والحَواسِّ ممّا لَطُفَ مَجْراهُ في جميعِ العروقِ والأعصابِ. وكلُّ شيءٍ بِلَطافةِ ذلكَ [فِعْلُ ذلكَ][(٤)] الشيطانِ.

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: للإنس. (٣) من م، ساقطة من الأصل. (٤) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم.

وعلى ما رُوِيَ في أمرِ المَلَكِ ممّا يَكْتُبُ ما لا يُعْلَمُ مَوضعُ تَعَوُّذِهِ، ولا يُسْمَعُ صريرُ قلمِهِ، ولا ما يَكْتُبُ علينا منْ ذلكَ أمرُ الذي ذكَرْتُ.

ثم قد ثَبتَ القولُ بأمرِ اللهِ تعالى نَبيَّهُ أنْ يَتعَوَّذَ بهِ مِنْ هَمْزِهِ ونَزْغِهِ وحضورِهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٠ وفصلت ٣٦] وقولِهِ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧] وقولِهِ[1] تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] وقولِهِ[2]: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٥] فَثَبتَ أنَّ أمرَهُ على ما يشاءُ.

ثم القولُ في أيِّ مَوضعٍ لِوَقتٍ ما لَهُ مِنَ الوَحْيِ والمَسِّ والنَّزْغِ أمرٌ لا يُحتاجُ إليهِ بحقٍّ، لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَنا أنّا لا نَراهُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولكنَّ الذي رجَعَتِ المِحْنةُ إلى أفعالِهِ التي يَقَعُ لها آثارٌ في الصدورِ، وقد مُكِّنّا بِحَمدِ اللهِ تعالى مِنهُ[3] لِنُدْرِكَ مَنْهُ. وإنما علينا التَّيَقُّظُ لِما يَقَعُ في الصدورِ منْ أفعالِهِ وَوَساوِسِهِ لِنَدْفَعَ بما مَكَّنَنا اللهُ تعالى مِنَ الأسبابِ، وعَرَّفَنا مِنَ الحُجَجِ نَقْضَ الباطلِ والتَّمَسُّكَ بالحقِّ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١] ورَجَعوا إلى اللهِ تعالى بالتَّعَوُّذِ في طَلَبِ اللطفِ الذي جَعَلَهُ اللهُ تعالى للدفاعِ كقولِ يوسفَ ﷺ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ الآية [يوسف: ٣٣] على العِلْمِ فيه بِطوائفِ الأشياءِ مِنَ المَجْعولِ لِدَفْعِ كَيدِهِنَّ.

وكذلكَ قولُ الراسخينَ في العِلْمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ الآية [آل عمران: ٨].

لكنْ مِنَ الناسِ مَنْ يقولُ: هو يَعْلَمُ النفسَ في ما تَهْوى، فَيُزَيِّنُ لها ذلكَ، والعقلُ في ما يَدعو إلى ذلكَ، يَمْنَعُهُ[4] عنْ ذلكَ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: لا. لكنْ في ذلكَ آثارٌ مِنَ الظُّلْمةِ والنُّورِ والطَّيِّبِ والخَبيثِ، فَتُعْرَفُ بالآثارِ، وفيها موقِعُ وَسْواسِهِ حتى يَصِلَ إلى العقلِ. وقد يكونُ عملُ الهَوَى والعقلِ جميعاً في الجَسَدِ وخارجٍ منهُ وبخاصَّةٍ آثارِ الأعمالِ.

ومنهمْ مَنْ يقولُ: ليسَ لهُ بشيءٍ منْ ذلكَ عِلْمٌ / ٦٦٠ ـ ب/ لكنْ بكلِّ ما يَرْجو العملَ مِنَ التَّغْريرِ أو في التَّمويهِ والتَّلْبيسِ كالأعمَى في ما يَمَسُّ، ويَطْلُبُ المَضارَّ مِنَ المَنافِعِ ونَحوَ ذلكَ، لكنَّ ذلكَ كلَّهُ طريقُ عملِ الشيطانِ وطريقُ إمكانِهِ وحِيَلِهِ، وذلكَ مَنْ لم يؤمِنْ بِمَعْرفتِهِ، وإنما علينا مُجاهدَتُهُ في منعِ ذلكَ بالتَّيَقُّظِ أو بِدَفْعِهِ بما نَتَذَكَّرُ. هكذا ذُكِرَتْ في الآياتِ أو بالفَزَعِ إلى اللهِ تعالى في دفْعِهِ ومَنْعِهِ إنْ حَضَرَ بما عندَهُ مِنَ اللَّطائفِ التي لَدَيها يَقَعُ الأمنُ عنِ الزَّيغِ والظَّفَرُ بالرشدِ.

ويُؤَوِّلُ كثيرٌ منهمْ أنهُ يُوَسْوِسُ في صدورِ الجِنِّ كما يُوَسْوِسُ في صدورِ الناسِ، وذلكَ مُمْكِنٌ بما يكونُ من كلِّ جنسٍ ضُلّالٌ وغُواةٌ وأخيارٌ وأبرارٌ.

فأمّا حقُّ تأويلِ السورةِ [فهو][5] على ما وصَفْنا في ذِكْرِ وَسواسِ الجِنِّ والإنسِ.

ثم القولُ في المُعَوِّذَتَينِ: إنهما مِنَ القرآنِ أوليستا مِنَ القرآنِ:

قالَ الفقيهُ، رَحِمَهُ اللهُ: لنا مِنْ أمرِهِما أنهما أنْبَهَتا بما أُنْبِهَتْ إلى أهلِ هذا العصرِ معرفةَ القرآنِ في الجميعِ بينَ اللَّوحَينِ بِتوارُثِ الأمةِ. ولسنا نحنُ مِمَّنْ يَعْرِفُ بالمِحْنةِ والسِّرِّ بما بهِ نَعْلَمُ أنهما مُعْجِزتانِ أوْ لا. وإنما حقُّ ذلكَ [الأخذِ عنْ أهلِ ذلكَ [العصرِ][6]][7] والشهادةِ بعدَ ذلكَ أنهما مِنَ القرآنِ، وأنهُ مُعجِزٌ، حقُّ أمثالِنا فيهِ الاتِّباعُ، وقدِ اتَّضَحَ بما بهِ جَرَى التَّعارُفُ في جميعِ الشرائعِ التي بها يَشْهَدُ أنها عنِ اللهِ تعالى وأنها حقٌّ. فَعَلَى ذلكَ هذا.

لكنْ ذُكِرَ عنِ ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه أنهُ لم يَكْتُبْهُما في مُصْحَفِهِ. وذلكَ عندَنا يُخَرَّجُ على وجهَينِ:

---

(١) و(٢) في الأصل وم: وقال. (٣) في الأصل وم: ومنه. (٤) في الأصل وم: فيمنعه. (٥) ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من م. (٧) من م، ساقطة من الأصل.

أحدُهما: أنهُ لم يكُنْ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ [أنهُ][١] قالَ فيهما شيئاً أنهما منَ القرآنِ أو[٢] لا.

[والثاني:][٣] لم يكُنْ أيضاً رأى على نفسِهِ السؤالَ عنْ ذلكَ حقّاً واجباً لأنَّ القرآنَ وما جاءَ بهِ الرسولُ ﷺ في ما يُلْزِمُ عِلْمَ الشهادةِ والعَمَلَ بهِ واحدٌ؛ إذِ المَقصودُ منْ كلِّ ذلكَ القيامُ بالمَقصودِ مِنْ حقِّ الكُلْفةِ لا التَّسْمِيةِ. ولم يكُنِ النُّجباءُ يَمْتَحِنونَ أنفسَهُمْ بالسِّرِّ في الوجوهِ [التي][٤] بها يَعرفونَ المُعْجِزَ مِنْ غَيرِ ذلكَ أنهُ قرآنٌ أو غَيرُهُ. وإنما ذلكَ مِنْ عملِ المُرْتابينَ الشاكِّينَ في خَبَرِ الرسولِ ﷺ لِيَعرفوا أنهُ مَبعوثٌ مُرسَلٌ.

فأمّا مَنْ تَقَرَّرَ عندَهُ، واطمأنَّ بهِ قلبُهُ، وزالَ عنهُ الحَرَجُ في ما آتاهُمْ فقد كُفُوا [عنْ][٥] ذلكَ.

وكذلكَ يجوزُ تَرْكُ البحثِ عنْ ذلكَ لِما ذَكَرْتُ، لا أنَّ عندَهُ أنهما ليسَتا مِنَ القرآنِ.

وفي خَبَرِ عُقْبَةَ [بْنِ عامرٍ][٦] الجُهَنِيِّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ: «نَزَلَ اليومَ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهُنَّ قطُّ، قيلَ: ما هُنَّ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: المُعَوِّذَتانِ» [مسلم ٨١٤/ ٢٦٥]. دلَّ أنهما مِنَ القرآنِ.

وأيَّدَ أيضاً ما ذَكَرْتُ في تركِ الكتابةِ ما رُوِيَ عنْ أُبَيِّ بْنِ كعبٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخبَرَهُ بهما: «قالَ [لي.. قالَ: فنحنُ نقولُ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ][٧]» [البخاري ٤٦٩٣] لم نَشْهَدْ في تلكَ بأنهما منهُ، ولا ليسَتا منهُ، بما لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ أخبَرَهُ بهما.

فَعَلَى ذلكَ أمرُ عبدِ اللهِ بْنِ مسعودٍ ﷺ.

ويُؤيِّدُ ذلكَ أيضاً أمرُ استِعاذةِ القرآنِ أنها مُقَدَّمةٌ على القراءةِ، وحقُّ هاتينِ السورتَينِ لو كانتا منهُ لَتَعَيَّنَ أنْ تكونا في افْتِتاحِ المصحفِ كالاستِعاذةِ لِلقرآنِ.

فهذا أيضاً بعضُ [الذي][٨] يَمْنَعُ [العِلْمَ][٩] بحقيقةِ ذلكَ عنهُ، وقد بيَّنّا جوازَ وجهِ الإشكالِ معَ ما كانَ الإنزالُ لِحاجةِ العبادِ. وعلى ذلكَ جَرَى العملُ بهما منْ رسولِ اللهِ ﷺ وغيرِهِ، فهو أمرٌ لا [يَضُرُّهُ الجهلُ بالوجهِ][١٠] الذي ذَكَرْتُ.

وعنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أنهُ قالَ: لو عَلِمْتُ أنَّ أحداً أعلَمُ بالقرآنِ مني، وحَمَلَتْني مَطِيَّتي، لأتَيْتُهُ.

وقد رُوِيَ عمَّنْ ذَكَرَ عنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَعْرِضُ [القرآنَ][١١] على جبرائيلَ ﷺ مَرَّةً [في][١٢] العامِ إلّا في العامِ الذي قُبِضَ، عرضَهُ[١٣] عليهِ مرَّتَينِ، وقد شَهِدَهما جميعاً عندَ اللهِ» [أحمد ١/ ٣٢٥].

وإذا كانَ كذلكَ لم يكُنْ هو ممنْ يَسْأَلُ في هذا البابِ غَيرَهُ لِيُثْبِتَ عندَهُ السماعَ أنهما أُثْبِتَتا في المصحفِ، فَبَقِيَ قولُهُ بحيثُ لا نَعْرِفُ حقيقَتَهُ.

ووجهٌ آخَرُ: أنْ يكونَ رآهما منهُ، لكنْ لم يَكْتُبْهما[١٤] لِوَجْهَينِ:

أحدُهما: لِما لم يكُنْ موضِعُ الكتابِ والتَّدبيرِ على ما ذَكَرْنا أنْ تكونا[١٥] في أوَّلِ المَصاحفِ، فَكَرِهَ أنْ يَكْتُبَهما[١٦] بتدبيرِهِ، ويَتَخَيَّرَ لهما[١٧] موضِعاً للكتابةِ، فلم [يَكْتُبْهما لذلكَ][١٨].

والثاني: أنهُ يَكْتُبُ لِيَحْفَظَ، ولا يَنْسَى، وقد أَمِنَ عليهما النِّسيانَ لأنهما بحيثُ يَجبُ تلاوتُهما في أوائلِ النهارِ ومَبادِئِ الليلِ وعندَ النوازلِ، يَنْفَعُ التَّعَوُّذُ بهما عنْ كلِّ شَرٍّ وكيدٍ على نَحْوِ الاستِعاذةِ وأنواعِ الدَّعَواتِ المَدْعُوَّةِ. فلمّا أَمِنَ خَفاءَهما لم يَكْتُبْهما[١٩].

وعلى ذلك تَرَكَ كتابةَ فاتحةِ الكتابِ، واللهُ أعلَمُ [والحمد للهِ ربِّ العالمينَ][٢٠].

---

(١) ساقطة من الأصل وم. (٢) في الأصل وم: أم. (٣) في الأصل وم: و. (٤) من م، ساقطة من الأصل. (٥) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (٦) ساقطة من الأصل وم. (٧) ساقطة من الأصل وم. (٨) من م، ساقطة من الأصل. (٩) من نسخة الحرم المكي، ساقطة من الأصل وم. (١٠) في الأصل وم: يضر الجهل. (١١) ساقطة من الأصل وم. (١٢) ساقطة من الأصل وم. (١٣) في الأصل وم: عرض. (١٤) في الأصل وم: يكتب. (١٥) في الأصل وم: تكون. (١٦) في الأصل وم: يكتب. (١٧) في الأصل وم: له. (١٨) في الأصل وم: يكتب كذلك. (١٩) في الأصل وم: يكتب. (٢٠) في م: بالصواب تمت.

الخـاتمـة

احْمَدُ اللّه تعالى الذي أقْدَرَني

على إنجازِ هذا العملِ، وأسألُهُ أنْ يُقَيِّضَ

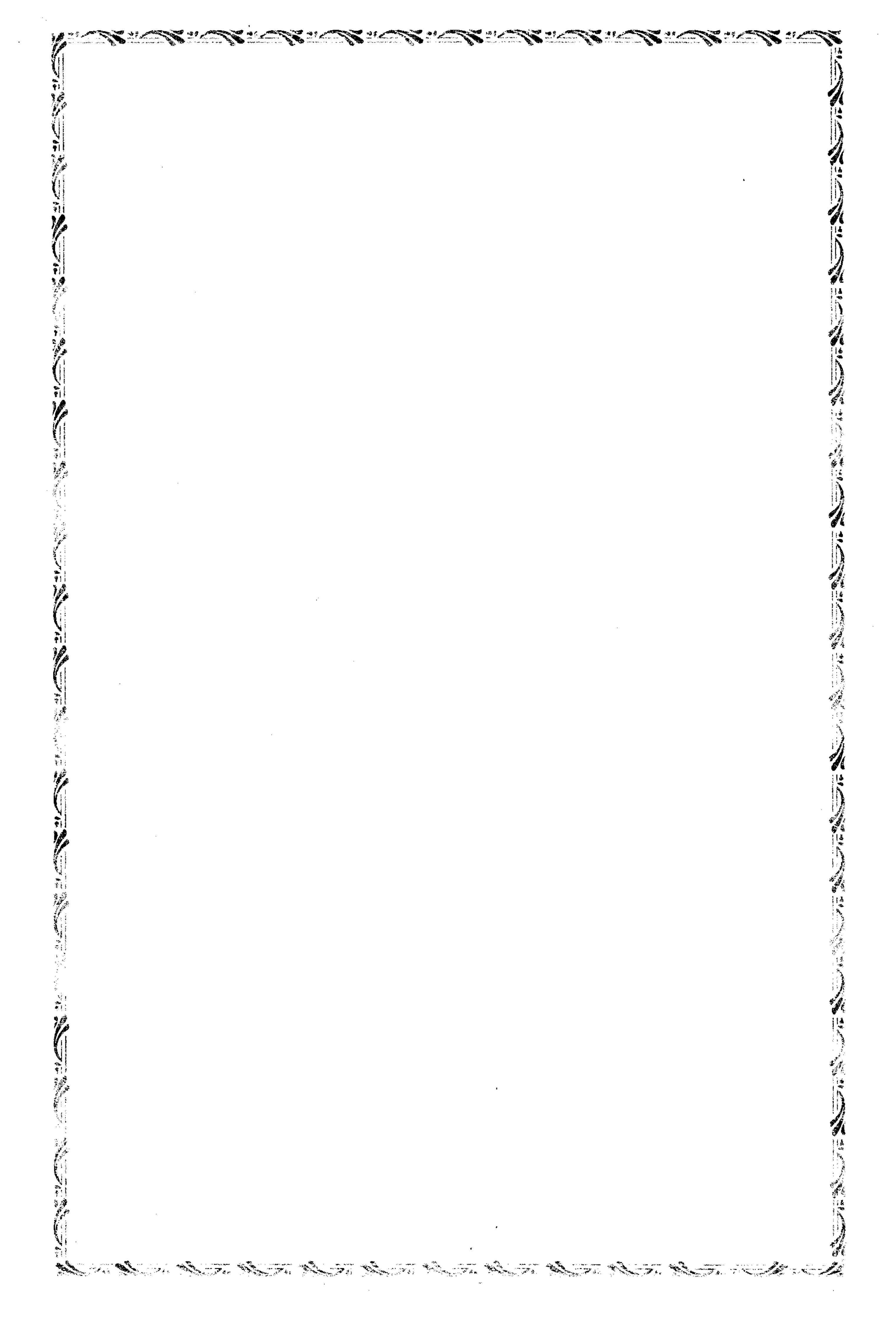
لهُ مَنْ يَفيهِ حقَّهُ فَهْماً وعَمَلاً، ونُرَدِّدَ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

الاثنين ١٢ / ٥/ ١٤٢٥هـ

٢٨ / ٦/ ٢٠٠٤م

فاطمة يوسف الخيمي



المراجع

١- أبو منصور الماتريديُّ، حياته وآراؤه العقدية، الدكتور بلقاسم الغالي، تونس، دار التركي للنشر ١٩٨٩م.

٢- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، محمد الحسيني الزبيدي المُرْتَضَى، أبو الفيض، المتوفى ١٢٠٥هـ، بيروت، دار الفكر.

٣- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١ هـ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصَّاص، الحنفي، أبو بكر، المتوفى ٣٧٠هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٣٥هـ.

٥- إشارات المرام من عبارات الإمام، أحمد بن حسن البياضي، كمال الدين، المتوفى ١٠٩٨هـ، تحقيق يوسف عبد الرزاق، ط١ القاهرة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٩م.

٦- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط١ بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.

٧- الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني، أبو سعد، المتوفى ٥٦٢هـ، ط١ دار الجنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨- البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٥٤هـ، بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٩- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء، المتوفى ٧٧٤هـ، القاهرة، دار الحديث ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

١٠- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله الزركشي، المتوفى ٧٩٤هـ، تحقيق المرعشلي والذهبي والكردي، ط١ بيروت دار المعرفة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١١- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، الجزء الأول، تحقيق الدكتور إبراهيم عوضين والسيد عوضين، القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

١٢- تأويلات أهل السنة، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، الحنفي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ، تحقيق سورة البقرة الدكتور محمد مستفيض الرحمن، بغداد، مطبعة الإرشاد ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

١٣- تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتبي، المتوفى ٢٧٦هـ، شرح ونشر أحمد صقر، القاهرة، دار التراث ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٤- تاج التراجم في طبقات الحنفية، قاسم بن قطلوبغا، السودوني، زين الدين، ط١ دار القلم، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١٥- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان.

١٦- تاريخ جرجان، حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي، المتوفى ٤٢٧هـ، ط٣ بيروت، عالم الكتب ١٩٨١م.

١٧- تاريخ المذاهب الإسلامية في تاريخ المذاهب الفقهية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

١٨- تبين كذب المفتري في ما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، المتوفى ٥٧١هـ، بيروت، دار الكتاب العربي ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٩- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

٢٠- تذكرة الموضوعات، محمد طاهر بن علي الهندي الفُتَني، المتوفى ٩٨٦هـ، الناشر أمين دمج، بيروت.

٢١. **تفسير غريب القرآن**، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو محمد القتبي، المتوفى ٢٧٦هـ، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء التراث العربية، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٢٢. **جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير**، جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١هـ، جمع وترتيب أحمد صقر، وأحمد عبد الجواد، دمشق، مطبعة هاشم الكتبي.

٢٣. **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، المبارك بن محمد، الأثير، الجزري، مجد الدين، أبو السعادات، المتوفى ٦٠٦هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط١ بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٢٤. **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أو تفسير الطبري**، محمد بن جرير الطبري، أبو جعفر، المتوفى ٣١٠هـ، بيروت، دار الفكر ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٥. **الجامع الصحيح**، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى المتوفى ٢٧٩هـ تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، دار إحياء التراث العربي ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢م.

٢٦. **الجامع الصحيح**، أو سنن الترمذي، عيسى بن محمد بن سورة الترمذي، أبو عيسى، المتوفى ٢٧٩هـ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، الرياض، مكتبة المعارف.

٢٧. **الجامع الصحيح، أو سنن الترمذي**، عيسى بن محمد بن سورة، المتوفى ٢٧٩، تحقيق وشرح أحمد بن محمد شاكر، ط١ القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٩م.

٢٨. **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد، الأنصاري القرطبي، أبو عبد الله، المتوفى ٦٧١هـ، صححه أحمد عبد العليم البردوني ط٢ بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م.

٢٩. **جامع المسانيد**، محمد بن محمود الخوارزمي، أبو المؤيد، المتوفى ٦٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٠. **جنة المرتاب بنقد المغني عن الحفظ والكتاب**، عمر بن بدر الموصلي، أبو حفص، المتوفى ٦٢٢هـ، ط١ دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣١. **الجواهر المضية في طبقات السادة الحنفية**، عبد القادر بن أبي الوفاء محمد القرشي محيي الدين، المتوفى ٧٧٥هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية في الهند، حيدرآباد، الدكن، ١٣٣٢هـ.

٣٢. **حجة القراءات**، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، أبو زرعة، تحقيق وتعليق سعيد الأفغاني، ط٤ بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م.

٣٣. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، أحمد بن عبد الله، الأصفهاني، الحافظ أبو نعيم، المتوفى ٤٣٠هـ، ط٤ دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٣٤. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، ط١ بيروت دار الفكر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٥. **ديوان الأعشى الكبير**، ميمون بن قيس، شرح وتعليق: الدكتور محمد حسين، نشر مكتبة الجماهير، القاهرة ١٩٥٠م.

٣٦. **ديوان الأعشى الكبير**، ميمون بن قيس، تقديم وشرح وضبط ووضع فهارس الدكتور محمد أحمد قاسم، ط١، بيروت المكتب الإسلامي ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

٣٧. ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتوثيق ودراسة الدكتور عبد الحفيظ السطلي، دمشق، المطبعة التعاونية ١٩٧٤م.

٣٨. ديوان زهير بن أبي سلمى، طبعة وزلرة الثقافة والإرشاد القومي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٩٦٤م.

٣٩. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، الدكتور عزيزرة نوال بادس، بيروت، دار الجيل ١٩٩٥.

٤٠. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج جمال الدين، المتوفى ٥٩٧هـ، حَقَّقَهُ الدكتور محمد بن عبد الرحمن، وخرّج أحاديثه محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط١ بيروت، دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤١. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السّيّء في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط١ الرياض، مكتبة المعارف ١٩٩٢م.

٤٢. سنن أبي داوود، الإمام الحافظ أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، المتوفى ٢٧٥هـ، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي.

٤٣. سنن الدارقطني، علي بن عمر الحافظ المتوفى ٣٨٥هـ، علق عليه، وخرج أحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشوري، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٤٤. السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، ط١ بيروت، دار المعرفة ١٣٥٦هـ.

٤٥. سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي، المتوفى ٣٠٣هـ، شرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، اعتنى به، ورقمه، ووضع فهارسه عبد الفتاح أبو غرة، ط٢ بيروت دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٦. سير أعلام النبلاء، الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، شمس الدين، المتفى ٧٤٨هـ، تحقيق محب الدين العمروي، ط١ بيروت، دار الفكر، ١٩٩٧م.

٤٧. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، ط١ دمشق دار القلم، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٤٨. شرح صحيح مسلم، يحيى بن شرف النووي الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، المتوفى ٦٧٦هـ، راجعه الشيخ خليل الميس، ط١ بيروت، دار القلم ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤٩. شرح الفقه الأكبر، النعمان بن ثابت، المتوفى ١٥٠هـ، شرح الإمام محمد بن محمد بن محمود الحنفي الماتريدي السمرقندي، أبو منصور، المتوفى ٣٣٣هـ عني بطبعه، وراجعه عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية. طبع سنة ١٣٢١هـ، حيدرآباد، الدكن.

٥٠. شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١ بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م.

٥١. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، أبو بكر، المتوفى ٤٥٨هـ، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، ط١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٥٢. شفاء الصدور في تفسير القرآن الكريم، محمد بن الحسن النقاش الموصلي، أبو بكر، المتوفى ٣٥١هـ.

٥٣. صحيح ابن حبّان، محمد بن حبّان بن أحمد البُستي، أبو حاتم، تأليف الأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، المتوفى ٣٥٤هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط٢ مؤسسة الرسالة ١٩٩٣م.

٥٤- **صحيح سنن الحافظ**، محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، أبو عبد الله، المتوفى ٢٧٥هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٥٥- **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، أبو الحسين، المتوفى ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٥٦- **ضحى الإسلام**، أحمد أمين، القاهرة ١٩٣٦م.

٥٧- **طبقات المفسرين**، جلال الدين السيوطي، المتوفى ٩١١هـ، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٨- **ظهر الإسلام**، أحمد أمين، ط٥، بيروت، دار الكتاب العربي.

٥٩- **العالم والمتعلم**، النعمان بن ثابت الكوفي، أبو حنيفة، المتوفى ١٥٠هـ، حيدر آباد، الدكن، المطبعة الحيثلية ١٩١١م.

٦٠- **غريب القرآن على حروف المعجم**، محمد بن عزيز السجستاني، أبو بكر، المتوفى ٣٣٠هـ، دراسة وتحقيق أحمد عبد القادر صلاحية، دمشق، دار طلاس ١٩٩٣.

٦١- **فتح الباري بشرح صحيح الإمام محمد بن إسماعيل البخاري**، أبو عبد الله المتوفى ٢٥٦ هـ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى ٨٥٢هـ، بيروت، دار الفكر.

٦٢- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والتفسير**، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفى ١٢٥٠ هـ، وثق أصوله، وعلق عليه سعيد محمد اللحام ط١. بيروت، دار الفكر ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦٣- **الفردوس بمأثور الخطاب**، شيرويه الديلمي الهمذاني أبو شجاع الملقب إلكيا المتوفى ٥٠٩هـ، إعداد محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط١بيروت دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٦٤- **الفتح المبين في طبقات الأصوليين**، عبد الله مصطفى المراغني، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٤م.

٦٥- **الفهرست**، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم، المتوفى ٣٨٠هـ، شرحه وعلق عليه الدكتور يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٦٦- **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، محمد عبد الحي اللكنوي المتوفى ١٣٠٤هـ، بيروت، دار المعرفة.

٦٧- **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**، محمد عبد الرؤوف المُناوي، المتوفى ١٠٣١هـ، ط١ بيروت، دار المعرفة ١٣٩١هـ ١٩٧٢م.

٦٨- **الكامل في ضعفاء الرجال**، عبد الله بن عُدَيّ الجرجاني، المتوفى ٣٦٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية.

٦٩- **كتاب التوحيد**، محمد بن محمد بن محمود، الماتريدي السمرقندي الحنفي، المتوفى ٣٣٣هـ، حققه وقدم له، فتح الله خليف الإسكندرية، دار الجامعات المصرية ١٩٩٥م.

٧٠- **كتاب سيبويه**، عمر بن عثمان، أبو بشر، المتوفى ١٨٠هـ تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٢ الهيئة المصرية العامة ١٩٧٩م.

٧١- **كتاب الزهد والرقائق**، عبد الله بن المبارك المروزي، المتوفى ١٨١هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، نشر محمد عفيف الزعبي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٧٢ـ **الكشاف في غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمد بن عمر الزمخشري جار الله، المتوفى ٥٣٨هـ، تحقيق أحمد عبد الموجود و. . . ، ط١ الرياض، مكتبة العبيكان.

٧٣ـ **كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة**، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

٧٤ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، إسماعيل بن محمد العجلوني، الجراحي، المتوفى ١١٦٢هـ، أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد القلاش، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٧٥ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله، القسطنطيني الرومي الحنفي الشهير بالملا كاتب الجلبي والمعروف بحاجي خليفة، المتوفى ١٠١٧هـ، دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٧٦ـ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، علي المتقي بن حسام الدين علاء الدين الهندي البرهان فوري، المتوفى ٩٧٥هـ، ضبطه الشيخ بكري حياني، صححه ووضع فهارسه الشيخ صفوت السقا، حلب، منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

٧٧ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم، ابن منظور المصري، أبو الفضل، المتوفى ٧١١هـ.

٧٨ـ **مجاز القرآن**، معمر بن المثنى، التيمي، أبو عبيدة، المتوفى ٢١٠هـ، عارضه بأصوله، وعلق عليه الدكتور محمد فؤاد سزكين، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٤م.

٧٩ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي، نور الدين، المتوفى ٨٠٧هـ، ط١ بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م.

٨٠ـ **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرآن والإيضاح عنها**، عثمان بن جني، أبو الفتح المتوفى ٣٩٢هـ، تحقيق على النجدي ناصف والدكتور عبد الحليم النجار والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، القاهرة ١٣٨٦هـ.

٨١ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أو تفسير ابن عطية**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، أبو محمد، المتوفى ٥٤١هـ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وعبد العال السيد إبراهيم، ط١، قطر.

٨٢ـ **مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه**، المتوفى ٣٧٠هـ، تحقيق ج. براجشتراسر، القاهرة، مكتبة المتنبي ١٩٨٠م.

٨٣ـ **مذاهب الإسلاميين**، الدكتور عبد الرحمن بدوي، ط٢، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

٨٤ـ **مرجع العلوم الإسلامية**، الدكتور محمد وهبي، الزحيلي، دمشق، دار المعرفة.

٨٥ـ **مساوئ الأخلاق ومذمومها**، محمد بن جعفر بن سهيل، السامري الخرائطي، ط١ مكتبة السوادي، ١٩٩٢م.

٨٦ـ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله بن محمد، الإمام الحاكم، أبو عبد الله، المتوفى ٤٠٥هـ، إشراف الدكتور يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة.

٨٧ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المتوفى ٢٤١هـ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٨٨ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، ط٥ بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥م.

٨٩- **مسند الدارمي المعروف بـ: سنن الدارمي**، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الحافظ الدارمي، المتوفى ٢٥٥هـ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، ط١ الرياض، دار ابن حزم، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٠- **مشكل القرآن**، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، أبو جعفر، المتوفى ٣٢١هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، الدكن، الهند ١٣٣٣هـ، محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي ١٩٨٠م.

٩١- **معاني القرآن وإعرابه**، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، أبو إسحاق، المتوفى ٣١١هـ، شرح وتحقيق الدكتور عبد العزيز عبده شلبي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٩٢- **معجم الأحاديث القدسية**، عصام الدين الضبابطي، أبو عبد الرحمن، القاهرة دار الريان للتراث.

٩٣- **معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم**، الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة والدكتور عبد الحميد مصطفى السيد، ط١، بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٩٤- **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي الإمام أبو عبد الله، المتوفى ٦٢٦هـ، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩٥- **المعجم الصغير**، سليمان بن أحمد بن أيوب، الطبراني، أبو القاسم، المتوفى ٢٦٠هـ، تقديم كمال يوسف الحوت، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٩٦- **معجم القراءات القرآنية**، الدكتور عبد العال سليم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر، ط١، مطبوعات جامعة الكويت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٩٧- **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، بيروت دار إحياء التراث العربي.

٩٨- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، أي . ي ونستك ليدن، مكتبة بريل، ١٩٨٨م.

٩٩- **مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير**، محمد بن عمر الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله، المتوفى ٦٠٦هـ، القاهرة ١٣٠٧م.

١٠٠- **مفردات ألفاظ القرآن**، الحسين بن محمد بن المفضل، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، المتوفى ٥٠٢هـ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ط١، دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية.

١٠١- **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، علي بن إسماعيل، الأشعري، أبو الحسن، المتوفى ٣٢٤هـ، عني بتصحيحه هلموت ريتر، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٠م.

١٠٢- **الملل والنحل**، محمد بن عبد الكريم بن محمد، الشهرستاني، المتوفى ٥٤٨هـ، تحقيق محمد سيد كيلاني، بيروت، دار المعرفة.

١٠٣- **مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن**، أحمد بن عثمان الذهبي، أبو عبد الله، الإمام الحافظ، المتوفى ٧٤٨هـ، تحقيق محمد زاهد الكوثري وأبو الوفاء الأفغاني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدرآباد، الدكن، ط٣، الهند، لبنان ١٤٠٨هـ.

١٠٤- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، علي بن أبي بكر، الهيثمي، نور الدين المتوفى ٨٠٧هـ، تحقيق وتعليق شعيب الأرناؤوط ومحمد رضوان العرقسوسي، ط١ بيروت مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١٠٥ـ **موسوعة أطراف الحديث النبوي**، محمد السعيد بن بسيوني زغلول، أبو هاجر، عالم التراث، ط١، بيروت، دار الفكر ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٠٦ـ **موسوعة فقه عمر بن الخطاب**، الدكتور محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، ط٣، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٠٧ـ **موطأ الإمام مالك بن أنس المتوفى ١٧٩هـ**، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عرموش، ط٦، دار النفائس بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

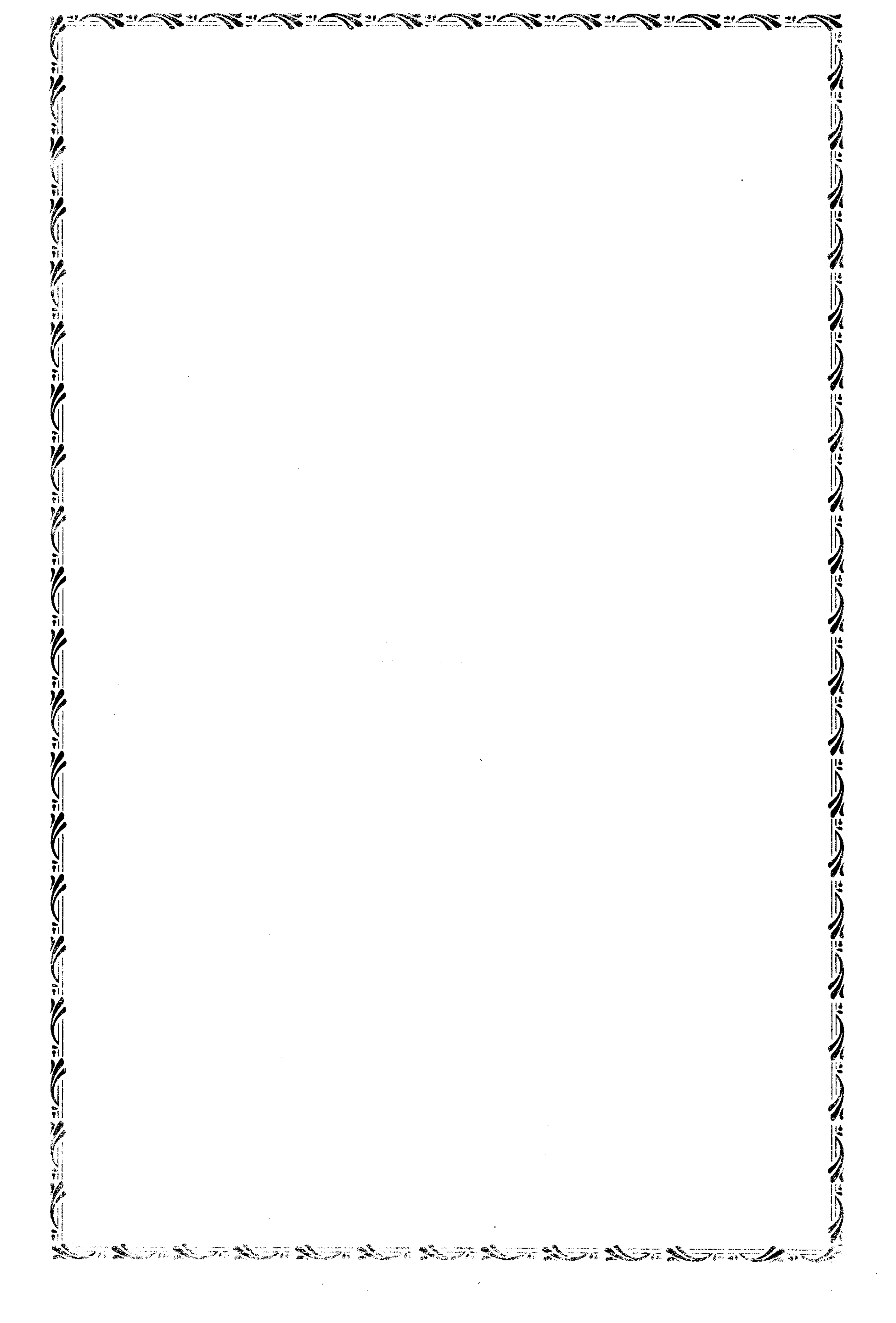
١٠٨ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المبارك بن محمد المبارك الجزري ابن الأثير، مجد الدين، المتوفى ٦٠٦ هـ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، بيروت دار إحياء التراث العربي.

١٠٩ـ **النهر الماد في البحر المحيط**، محمد بن يوسف، الأندلسي الغرناطي، أبو حيان، المتوفى ٧٤٥هـ، تحقيق الدكتور عمر الأسعد، ط١، دار الجيل، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥.

١١٠ـ **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، إسماعيل باشا ابن محمد أمير بن مير سليم، البابانى أصلاً، البغدادي مولداً وسكناً، المتوفى ١٠٣٩هـ، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١١١ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أحمد بن محمد بن خلكان، أبو العباس، شمس الدين، المتوفى ٦٨١هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، القاهرة، مكتبة النهضة العربية، ١٩٤٨م.





فهرس تفسير السور


تم بحمد الله